

ثلاثية

الأوقيانوس

مملكة الضياع

صدقي شعباني



ماسטר

الأوقيانوس

ثلاثية..

صديقي شعباني

تصميم الغلاف

بيشوى ظريف

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٩٥٥١/ ٢٠٢٠م

ISBN: 978-977-85710-2-8

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناسر



© ماستر

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com

Facebook: facebook.com/Master.PH

Smashwords: smashwords.com/master.ph

Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهداء

إلى عبيرو عزة اللّتين تمنّيت لو كانتا أختيّ حقّاً
فأسبغ عليهما من الحبّ ما أسبغته على صنيعتي...
في هذه الرّواية.

صدقني شعباني



.الجزء الأول.
((التّيه))

((١))

المتاه... الامتداد الهائل وراء خط الأفق البعيد المتوشح بلون الدّم...
الرّمال، موكب السّفر الدّائم الّذي لا يتوقّف أبدا، بين الجّهات، خلفها
ووراءها، كإله العصر القديم، طود ثابت لا يتزعزع تحت ثقل الدّهر.
والسّديم، هذا المنبعث كرشاش الماء، هو إلى السّراب أقرب من سواه،
يتكاثف مع أوّل ظهور للشمس، ويتضخّم رويدا رويدا، إلى أن يتحوّل مع
بلوغ الهاجرة أوج ذروتها إلى عملاق مدمر لا يسع غير نفسه، ويرنوبعينيّه
المتخترتين إلى الامتداد والمتاه فيشتتي ابتلاعهما... هل يعرف ليل من
نهار وسط هذا الخواء، الأحجية، اللّغز؟ هل ما يرى في حمى الانهيار
الوشيك، من مسافات وأبعاد، وأطوال، وأوهام وأحلام، وهيولى أشياء،
وبدء، وخلق، وحياة وموت، داخل هذا العمق، المكان القصي، من أرض
مجهولة لا تعرف، حقيقة أم وهم، أم العدم والفناء؟!

الجبال رؤوس، تتحرّك، أو هكذا يخيّل، على الأقلّ لمن يمدّ بصره
لأوّل مرّة إثر الإفاقة من كابوس ثقيل. تتقارب حتّى لتكاد تتزاحم، ثمّ
تبتعد قليلا، وتتوقّف قيد أنملة، وتظلّ كذلك حيناً، صامته، شامخة،
جبّارة، كأنّها تتفرّس في قسمات بعضها، دون مبالاة، وتعاود التّحرّك،
دائما في نفس الاتجاه، وعند نقطة ما، تلتحم وتتوحّد محدثة صرخة
مكتومة وتتّجه رأسا صوب اللّامكان، صوب اللّاتّجاه، صوب اللّاشيء،
وراء خطّ دينونة مرقوب...!!

يا إلهي، أين الماء؟... أين الماء؟... أين الماء؟

ذرات الرّمل، آلاف منها، آلاف الآلاف منها، بل ملايين الملايين منها، لا

تهدأ البتة، كأنها جائمة على رماد نار محترقة. دائما تهتز وترهز، صوت اهتزازاتها حزين، مربك، محير، تثيره عاصفة مجنونة، تلم شعته، تفرقه، تبعثره ذات اليمين، وتذريه ذات الشمال.

إنه عالم متفرد، هذا العالم، ليس من الزمن، ولا يعترف بقيود الحدود، يستكين، يهدم، حتى كأن لا حياة به، فجأة يثور ويغضب، فيرتد كل شيء فيه إلى حالة عارمة من الفوضى المدمرة: الصمت يستحيل صخباً مدوياً، السكون هديراً كما لو كان صوت كلب مكتوم، روعة اتحاد العناصر فزعاً قاتلاً يهدد بوشوك الفناء، والامتداد يكفّ. مرّة وإلى الأبد. عن الامتداد، وينكفي على ذاته، بما فيه، مختزلاً شسوع المسافات، والبدايات والنهايات، في فورة عاصفة قد تؤذن بانتهاء هذا الكون. هذا العميق.

سهل دخول المتاهة، غاية في السهولة. وضوح المعالم قبل الدخول بداهة لا مرأى فيها، وثبات الأشياء، رسوخها السرمدي في أصل قاعدة الأربعة عشر قرناً، واقع لا مناص منه: الأضواء الباهرة وسط شوارع المدينة في ليلة صيف قائضة، رائحة الإسفلت المذاب تحت وطأة شمس النهار الحارقة، البنايات الشامخة وسط هالة السحب البيضاء الهاربة، المقاهي، المخازن، البارات، الأغنيات الحزينة في دور الأوبرا، ومناجاة العاشقين في الحلقات البوهيمية الصاخبة، و... «يا ليل الصب متى غده»، كل ذلك واضح، جلي، لا يكاد يحجبه شيء، ولكن بمجرد أن تخطو الخطوة الأولى، وبعد أن تجتاز الجادة الملتوية قليلاً، المؤدية حتماً إلى آخر نقطة للعمار، على مفترق طرق أربع، يغيم المدى أمام ناظريك، وتنتابك رعدة خفيفة، ويكتنفك رعب، حينئذ، تنسى تماماً ما خلفته وراءك، ومهما جهدت لتتذكر، متحدّياً ذاكرتك المكدودة، تصاب بالإغماء، تحسّ أنك على شفا الهاوية، وحيد، مستوحش، ومعزول،

ولو حاولت أن تخطو خطوة إلى الوراء، أن تتراجع في قرارك، فتعود لتسمّرت رجلاك، واعترى مفاصلك همود الموت، ولاستحلت بما فيك إلى رصاص لدن جاث لا يريم. ماذا تبقى إذن من المدينة؟ من الأضواء الباهرة؟ ومن الشّارع الإسفلتي؟ والبنائيات؟ والمخازن؟ و... و...؟ لا شيء على الإطلاق. بل إنك تشكّ، تتساءل: «هل ما فكّرت فيه وجد حقاً؟ أم هو أضغاث أحلام بفعل حمى مباغته؟»

لم تعد الطّريق شارعا إسفلتياً ينوء تحت وطأة شمس الظّهيرة، إنّها الآن مسرب ضيق، طويل كامد، رخو، راب، ممتدّ، بلا حدود، أصفر كحبّات قمح رأيّتها مرّة وسط بيدر لا تذكر الآن متى مررت به، عملاق جبّار، متحدّ، تلامسه بيديك، تحاول أن تمسكه، ولكنّه ينساب عبر أصابعك، ويستقرّ ثانية في مثواه الذي أخذته منه. لا مفرّ، قدرك أن تمضي إلى أمام، دائماً إلى أمام، لأنك لو حاولت الرّجوع إلى وراء لما استطعت!!... وقوفك حيث أنت، في نقطة البدء، وبلا ذاكرة، وبلا انتماء ثابت، انتحار، موت بطيء، ولا مفرّ من المضيّ إلى أمام. وما الأمام؟ إنّهُ نقيض ما تركته خلفك. إن وجد؛ ولكن حذار! فالكلام ممنوع، والتّساؤل ممنوع. فقط، امض... امض؛ وسترتفع أمامك الأشياء شيئاً فشيئاً، تطفر من بين ثنايا الهوّة، وتتسامق؛ العفريت المارد يخرج من قمقمه، تراه، تتحقّقه، تخاف، تجفل، غير أنّه لا خيار لك سوى ما هو مقدّر عليك منذ أن خطوت أولى خطواتك صوب المتاه... التّقدّم إلى أمام!

المسرب الضّيق بدايته رمل، جنباته رمل، وامتداده المرئيّ واللامرئيّ رمل... رمل... رمل؛ وإلى يمينه ويساره أكوام رابية، كثبان، عروق، وفي نهاية الحدّ، نهاية الامتداد، تشمخ جبال سراييّة ذات رؤوس، تسبح على المدى، تحتويه، كاحتواء السّوار للمعصم، تنظر إليها شزرا فيخيّل

إليك أتمها تضحك، ولا تدري تحديدا أهو ضحك الانتشاء، وهي تحتضن وجود الصّحراء بما فيه، أم ضحك القهر، هستيريا، وهي تكتنف كل شيء دون هواده أو استقرار. (حينئذ، تذكّر سيزيف وتضحك أنت نفسك... جبل أيضا: قمّة وسفح، والصخرة ترتفع قليلا قليلا، ثم تهوي مغلّفة إحساسا بالعبثيّة واللأجدوى)... هنا، وأنت ما زلت لم تتوسّط قلب المتاه، في بداية الطّريق ما تزال، وقد خطوت بالكاد الخطوة الأولى، تختلط عليك الجهات: الجنوب... الشّمال... الشّرق... الغرب؛ وعندما أجهدت ذاكرتك لترجع إلى الوراء، إلى الخلف، ولم تستطع لأنك مكرّس، وأنت صفّي القدر، تذكّرت بدلا عنك، وقد تكون سمعتني، رغم شسوع المسافة وإصرار الغياب:

«هناك في المدينة، حيث فارقت كلّ شيء مختارا، وبمحض إرادتك، ودون أيّ ضغط أو إغواء، فخطوت الخطوة الأولى في خارطة المتاه، بعد أن جزت آخر نقطة للعمار، على مفترق طرق أربع... هناك، تشرق الشّمس وراء خطّ الأفق... من الشّرق، وتختفي وراء خطّ الأفق أيضا من جهة الغرب بعد أن تكون قد قطعت رحلة الأربع وعشرين ساعة!!»

هنا، لا تهتمّ الأشياء كثيرا، أسماء الأشياء أيضا؛ فما فائدة أن تعرف أن الشّرق وراءك تماما، وأنت لا تستطيع العود على بدء، حيث اسمك، وأصلك، ومدينتك التي أنت منها؟ وما فائدة أن تهتدي إلى طريقك بالنجوم التي في السّماء وأنت لا تعرف إلى أين تمضي؟! الجهات، كلّ الجهات لا معنى لها داخل المتاه، عبر الامتداد المسافر وراء خطّ الأفق البعيد... البعيد جدّا. قيمة الأشياء ليس في أسمائها، وحتى اسمك الذي تركته. دون وعي، مركونا في زاوية من زوايا بيتك، مختبئا في مكان ما من بطاقة هويّتك، على طاولة مهترئة:

الاسم: ص...

اللقب: ش...

الأم: متوفاة

اسمك نفسه لم يعد له أي معنى. لقد صار مجرد احتمال، في حمى الاحتمالات المتعددة، وقيمته في أن يحدك ويضاعف إحساسك بالوحدة والضيق، يدفعك بقوة إلى حيث لا تعلم، يهصرك، يربكك، يضعفك حتى النخاع... الجهات، كل الجهات، وهم بين ثنايا اللاحد، إنها اختزال للأمام الذي أنت مجبر على المضي فيه!

وحدك. مازلت على خط التماس، بين عالم ضاع منك، وآخر تستقبله، ولا تعلم عنه شيئا، وإذ يتلبسك دوار الرهبة، وأنت تنظر، دون تحديد هنا وهناك، فترى الأشياء. اللاحد، وتطالعك صور مفزعة لأبدية على ضفاف ضائعة، أسيانة، تحن بعنف إلى شيء كان ملكا لك، وتتمنى. كأمنية أخيرة لمحتضر أشفى على الرحيل - لوتعود، ولوللحظة فقط، إلى هناك، إلى طراوة النسيم، ووضوح الدرب، والكوة المفتوحة على وادي الشمس بين الحارة والزقاق. أه...!! امض... امض، ولا تلتفت لئلا يقتلك الحنين؛ وما دام لا فائدة ترجى من هذا الحنين، فما عليك إلا أن تمضي وسط هذه الطريق المحفوفة بالنسيان.

أنت لم تفكر بالقافلة، لا ولا بالحادي الذي يتقدم تلك القافلة وهو يحدو، يغني لتلك العير العطاش الضامرة، لأن مصيرك ما زال لم يرتبط بعد بمصيرها؛ كما أنك لم تفكر بوهج السموم حين تطأ قدماك شبه العاريتين أديم الرمل العاري، ولم تفكر بوطأة الوحدة لولا التآسي وحرارة المشاركة: كلمة، لفظة، ابتسامة شذراء، حكاية... وركوة ماء، تنتقل من يد هذا ليد ذاك، في حماة القبط. أنت لم تفكر بكل هذا لأنك

ما زلت لا تعرف شيئا عن هذه القافلة، عن الأربعين أو الواحد والأربعين شخصا الذين خطوا مثلك الخطوة الأولى في خارطة المتاه، بعد أن جازوا آخر حدّ العمار، على مفترق طرق أربع. لا شك أنّهم توسّطوا قلب المتاه، جازوا كبده للقلب، رغم أنّ شيئا واحدا ما تزال غير متأكد منه بعد: الوقت. اعذرني مرّة أخرى لأتساءل نيابة عنك: هل الوقت في قلب المتاه نهار كما هو في قدمه، أو ليل، أو حال بين بين، لا نهار ولا ليل؟! هنا، الأشياء لا قيمة لها، أسماء الأشياء أيضا، والوقت هو الآخر لا قيمة له، لا يؤخّر ولا يقدّم، ما دامت القافلة مجهولا بالنسبة إليك، إلى حدّ الآن. أنت حتما ستنضمّ إليها، إن عاجلا أو آجلا، ستصبح فردا من أفرادها، خيطا في نسيجها ستكون، ألما آخر يضاف إلى آلامها، تشقى بشقائها، وتفرح لفرحها، وترقب معها السعادة القادمة، ولكن لا دخل للوقت في كلّ ذلك... قدرك أن تمضي، أن تنتظر تلك اللحظة، لحظة التماس، الالتحام، التماهي، ولا يهمّ أن تعرف أولا تعرف ما دمت صفيّا للقدر، مكرّسا لحقيقة خارج حدود الزّمان.

مدفوعا بوهم أمل متلاش تقدّمت، مغمض العينين، دماغك المتعب يطنّ كقفير النّحل، وذاكرتك ضاعت دونما رجعة. كنت مصراّ أن لا ترى الشّسوع أمامك، وكنت خائفا حدّ الهذيان... كلّ الذي تهرب منه، وتغمض عينيك حياله، يبتسم في تشفّ، ويضحك منك، ويغزو دفعة واحدة ذاكرتك الجديدة، ولا مناص. ترتفع يدك اليمنى قليلا، في حركة مضطربة، تعبيرا عن السّأم والمقت، ويسقط رأسك الكليل على صدرك المتعرّق فتفريق: تنفتح عينك بمثل السّحر، وتلويبان خلال حدود اللّامتناهي. لم تريا ماء، ولا أثر لحياة، والواحة التي تظهر وتغيب على مقربة منك وهم لذيذ، يصوّر لمخيلتك السّرّاب. امض... امض... من الآن، وإلى أن تجمعك قدماك بقافلة القدر، سيكون المسرب رفيقك، والصّحراء مضافتك، والأشياء التي فقدت أسماءها كونك المشاكس.

أنت نفسك ستصبح بلا اسم، وستنسى . عند حدّ ما . بطاقة هويّتك
المركونة في زاوية من بيتك الكئيب، وتتماهى في ما حولك؛ وقدرك
المسرب وموطنك المتاه والصّحراء...

هل أحسست بحرارة الشّمس الأولى على رأسك؟ هل شعرت بحبّات
الرّمل الحارّة تلج عبر ثقوب حذائك المهترئ فتحرق قدميك؟ وهل أمنت
الآن أنّك منبتّ على درب انتماء جديد؟!

. أجل... أجل... إنّك بدأت تستأنس بما حولك، شيئا فشيئا، وأنت
تطأ رمل المسرب الضيّق الطّويل.

ترى ماذا يوجد في نهاية المسرب، في طرف اللّاحد؟! أنت لم تبال كثيرا،
حتّى أنّك لم ترفع رأسك لتتبيّن الطّريق أمامك، ولم تفتح عينيك على
اتّساعهما، ولم تظللّهما بيديك. كنت ما تزال خائفا رغم أنسك، ينتابك
شعور غامض أنّك لن تعود، وأنّك لن تصل، لذلك ظللت لامباليا، ولو
قدرت على الاحتجاج لتوقفت حيث أنت، ورفضت التّقدّم، رغم أنّك
تدرك جيّدا أن لا مجاز إلى الورا.

رمل على شمالك... ورمل على يمينك... ورمل أمامك... ورمل من
خلفك... والمتاه امتداد بلا حدود. في صغرك كان يستبيك المنظر،
يسحرك، فتمنّى لو تسبح فيه؛ وفي اللّيل تحلم، تحلم كثيرا، وتمثّل
لناظريك الصّحراء كما لو كانت عروسا متوشّحة بتاج من غار، والرّمال
جزائر صغيرة تحوطها المياه والنّخيل، وتغني في جنباتها الحساسين
والعنادل، وكلّما مددت يدك الرّقيقة في أيّ اتّجاه أردت، جاء الثّمر
يسعى إليك، تشبع وأنت تنظر إليه مفتتنا، وتشبع وأنت تأكله مثلنّذا،
وتشبع وأنت تلقي بالنّوى والقشور في برك المياه اللّجّية الممتدّة أمامك.

وعندما تفيق من نومك، تهرع خفيفا إلى باحة الدّار، تغسل وجهك على عجل، وتخرج من نفس الباب الذي لم تعد تذكر لونه، وتقعى ككلب مهذب حذاء الحائط وتسرح طرفك... عروسك، والرّمال، والجزائر، والفتنة والثّمر!! يا الله، ما أحلى مدائن السّحر لو تعود!

كم ساعة قضيت تحت الحائط، وأنت كصنم، لا تبالي بمضيّ الوقت ولفح الشّمس؟ وكم صورة غزت مخيلتك العذراء، شفيفة، رائقة، متوّجة بشطحات خيالك؟ وكم جبل تحوّل فجأة، في غفلة منك، ودون سابق إنذار، إلى ركام أخضر، بلون الزّمرّد، ينساب كحيّة ملوّنة، تتثّى، وتتلوّى، شبقة، في رقصات حميمة احتفاء بمثلها القدسيّ بين يديك؟ وكم كئيب استحال. في رقة عين. إلى واحة دانية القطوف، فيها «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر لك في حلم: ماء وحسن وخضرة وبهاء!؟»

لم يبق شيء من كلّ ذلك! حتّى ذاكرتك تلاشت، ضاعت، غامت، والمسرب يستحثّك، يستثيرك، يتحدّاك. لم تكن غاضبا، ولا راضيا. كنت مستسلما، ولم تنكر ذلك أمام نفسك. لم تعد تجديك المكابرة بعد الآن. (ولم تكابر؟!). خطوات. رفعت رأسك ببطء. نظرت ذات اليمين، نظرت ذات الشّمال. تقلّصت عضلات ساقيك، وئيذا وئيذا. تحرّكت لتتفادى الاضطراب. سوّيت قدميك على الرّمّل الطّريّ، وخطوت. يداك كانتا جامدتين كالصّخر، ولكنّهما تتحرّكان: حركاتهما رتيبة، مهملة، لامبالية؛ وجبينك ينزّ عرقا أبيض فاترا؛ لم يعد شامخا كما كان من قبل، عندما كانت الصّحراء عروسا والرّمال جدائلا. قلت بجهد، وبعد أن كدت تفقد ملكة الكلام: «ليتني متّ قبل هذا!»

ومضيت، رمل على يمينك، ورمل على شمالك، ورمل في كلّ مكان... خطوتك الأولى صارت أثرا، أثرا بعد عين، كذلك خطواتك الأخرى التي

صارت لا تحصى؛ وفي هذا المتاه أنت وحيد، معزول، ومستوحش. لم تفكر في الصحبة من قبل، ولم تشعر بما يشعر به المسافر عادة من عطش وجوع، لأنك، وحتى بعد أن خطوات الخطوة الأولى في خارطة المتاه، وبعد أن جزت آخر نقطة للعمار، على مفترق طرق أربع، لم تكن تعتبر نفسك مسافرا، وظننت أنك لا محالة عائد إلى الحارة والزقاق والدّار حالمًا تؤذن الشّمس بالمغيب؛ ولكنك كنت مخطئا، ضلّك وهمك وخدعتك ذاكرتك التي ما عادت ذاكرة. أنت الآن مسافر. شئت أم أبيت. وتشعر بما يشعر به المسافر عادة من جوع وعطش، وتحنّ، أكثر من ذلك، إلى الصحبة، إلى شخص ما، إلى رفيق ما... إلى حذاء الدليل وموكب القافلة.

عطشت. جعت. كان العطش قاتلا والجوع مدمرا، ولا ماء ولا ما يسدّ الرّمق. لوفقط تحظى بشربة ماء، أو قطعة خبز. جرعة ماء في هذا الامتداد كنز لا يقدر بثمن، وقضمة من الخبز تعادل ثروة، لا يعرف سرّها إلا منقطع به مثلك، مستعدّ لأن يقايض نفسه، دون ندم، مقابل أيّ شيء، ولو كان طيف ماء يصوّر له السّراب. هناك في مدينتك، واعذرني مرّة أخرى لأتذكّر بدلا عنك لأنك أضحيّت بلا ذاكرة، لأحد يبالي بطعامه أو شرابه، ما دام يأكل متى جاع ويشرب متى أحسّ بالعطش... في لحظة ما، وإلى حدّ وقوفك على خطّ التّماسّ، بين عالم خلفته وراءك وآخر تستقبله، كنت مثلهم، ربّانا عن مقدرة، ومكتفيا عن شبع وسعة. أمّا الآن، وقد طوّحت بك المسافة، واكتنّفك الصّمت، وأمسيّت بلا اسم، فأنت جوعان، عطشان، ومنقطع به.

انتابك ألم حادّ في رأسك، فرفعت راحتيك وضغطت يهدوء باديئ الأمر، ولمّا لم يذهب الألم، عاودت الضّغط بعنف، وشتّمت، خرج صوتك مبحوحا، حزينا، كظيما، وتهدّلت شفتاك الحائلتان الجافتان،

ولمّشت كما كنت ترى كلبك يلهث: ذلك الجرو الصّغير الذي خلّفته وراءك في زاوية قصيّة من تلك الحديقة الجرداء... كان الألم في رأسك يزداد حدّة حتّى لم تعد تطيقه، ومع العطش والجوع، صار الألم مدمراً لا يرحم. أقعيت. انحنيت ثمّ أقعيت. تلمّست شعرك بأناملك المتعرّقة، فأحسست بسيّاط من الحرارة اللاهبة. ندّت عنك آهة غير مسموعة، كتيمة، وأبعدت أصابعك في لامبالاة. وتمدّدت على ظهرك، غير آبه لأديم الرّمّل الفاتر. حاولت أن تتحدّى الشّمس، فأبقيت عينيك مفتوحتين، ولكن سرعان ما انهزمت. هزمتك الشّمس دون رحمة، واخترقت عينيك شهب حارقة مثل الخوازيق. استدرت. نمت على بطنك كما الحيّة، دون حراك. ظللت كذلك حيناً. فقدت إحساسك بما حولك. استسلمت، فانهزم كلّ شيء حيالك: الحرارة والألم والجوع.

عندما أفقت كان الألم في رأسك قد خفّ قليلاً، وبدأت غيلان الجوع تهمد شيئاً فشيئاً. استدرت ثانية، وتقلّبت على ظهرك فلم تجد الشّمس حيث تركتها؛ كانت قد انتقلت إلى الضّفة الأخرى، وراء خطّ الأفق القاني؛ ورغم ما أنت فيه من الضّئك والضّنى خامرك حلم طفوليّ ورغبة، قمت نصف قومة، وشرأبيت بعنقك الدّقيق جهة الغرب. رأيت طابة مستديرة، حمراء بلون الدّم، لامتناهية الفتنة، تترجّج على تخت رمليّ في نقطة بعيدة جدّاً، قرب الشّريط الجبليّ. كانت تتضاءل رويداً رويداً، وتغطّس ببطء في مقرّها الأزليّ. تساءلت: ترى أين تذهب الشّمس؟ وما أن هدأ باطنك، وشمل دواخلك دفء شفيف حتّى غابت الطّابة وران السّكون.

هبتّ نسّمات عذاب من المشرق، ففردت وجهك، وتركت طراوة اللّيل الأولى تغسله بدفئها ورقّتها. ولمّا بسطت راحة كفّك على كئيب راب بجانبك، فوجئت، ودهمك شعور غريب أنّ وديانا من رصاص تذوب

في دخيلتك، وأن خلدا قميئا ينثر على جنبات قلبك رقائقا من طمأنينة
عذبة... ما كان ذلك ليكون لولا خفوت الحرارة. قلبت ذرات الرمل،
وأوغلت بأصابعك المستكشفة في العمق، وولجت، بإصرار، وبما تبقى
لديك من قوة، فلم تغمرك غير الرطوبة، وبحث عن بركة الحرارة،
أردت أن تجتثها من جذورها، فلم تجد لها أثرا. زاغت منك، وتلاشت.
قلت كأنك تكتشف سرا خطيرا:

تاھت مع تلك الطّابة. ستختفي لليلة ثمّ تعود... ستعود معها دون
شكّ.

ثمّ بسخرية:

. كيف يمكن لهذا الشيء الجميل، الرائع، الخارق، أن يكون
قاسيا؟!

ثمّ تمدّدت ثانية على ظهرك، يداك مشبوكتان تحت رأسك، وعيناك
ساهمتان، مشبوحتان نحو الملكوت. رأيت نجومات بيضاء، يلمعن في
مدى لانهائي، كأنهنّ يتغامزن؛ ثمّ، وبعد برهة، هلّ القمر بطيئا جليلا،
يجر جروراءه أذيال كبريائه ومهابته. استعدت وعيك، ثمّ نظرت فرأيت.
كان المغيّب يكتسي وشاحا برتقاليا فتّانا، وبعض سحابات بيض تعجى
وتروح، هائمة، مختالة، تتابع القمر، تسايره، تسابقه، تتخلّف عنه
قليلا؛ ثمّ، وبرعونة لذيذة، تحجب وجهه، وتتطلّع نحوك بتحدّ كأنها
تستفزك. لم تنهرها، ولم تشتمها، وإنّما تطلّعت إليها متوسّلا مستعطفا:
. أيّتها السّحابات الجميلات، إنّي أستحلفكنّ بحرمة ذلك الملاك
الذي يصرفكن أن تدعن قمري الجميل وشأنه لأتخذّه خلاّ وصاحباً
ورفيقا. إنّه مثلي، وحيد، معزول، مستوحش... لقد أحسّ بوجودي،
فرق لي وهلّ بطلعته لأجلي. ألا فلتدعنه يسفر بحقّ من يصرفكن.

لا شك أنّهم سمعوك، أحسّسن حرارة رجائك، فرهزن، تثنّين بغنج،
وابتعدن تصاحيّن ضحكة قصيرة منغمة، وتجلّى القمر ثانية، ضاحكا،
يرنو إليك في زهو مشوب بعطف. تطلّعت نحوه في شكاة حارة، وحاورته
مليّا. سألته:

.عن الدّيرة.

.عن الجيرة.

.والأحباب.

كان طوال الوقت ينظر إليك، ينعم النّظر فيك، كأنّه يتشرّب
ملامحك؛ وكنت تنظر إليه أيضا مستأنسا ممتنا. ظللت كذلك وقتا
طويلا، تشكو إليه، وهو ساهم، لا يبدو أنّه يفهم عنك، أو يدرك ما
تسأله عنه. إنّك تدرك الآن أنّه قمر غريب، مثلك تماما، ترك هو الآخر
ذاكرة وراءه، ليتجذّر في مسلة انتماء جديد.

كان الرّمل تحتك يبرد،

والمتاه يقرب منك،

والمدى ما عاد عملاقا.

إنّه يتراقص أمام ناظريك،

تحوطه هالة الجبال الضّاحكة.

والليل المسافر...!!



أغمضت عينيك على عالمك الجديد، وفتحت نافذة القلب، ودخلت في صمت، على أطراف أصابعك، ومضيت بخفة قطّ مدرّب نحو النّضد الوحيد في القاعة الفسيحة، وأخذت تلك الشّمعَة المطفأة، فأشعلتها، ووقفت تتأمّل ذوابة النّور المتموّجة، ثمّ انطلقت. نشوان، تتجاذبك أفراح ومسرات لذيذة. نحو النّافذة من جديد. وضعت الشّمعَة بهدوء على حافّتها، وطرت خفيفا إلى منازل العرجون القديم، فضممته إلى صدرك، وشمّمته. كانت رائحته تضوع مسكا، ومبسمه مرسوما كخيوط الفضّة على قلادة بغداديّة. شدّدته إليك، على صهوة براقك، وأرخت العنان. في طرفة عين، كنتما هناك، وسط القاعة الفسيحة، وحيدين، تتناجيان وتتشاكيان. أمسكته بين يديك، ورمقته مليّا، ثمّ رميت به برفق، فطار صعدا إلى حيث الشّمعَة، وأخذ يدور حولها. كان يضحك كالطفّل الّذي كنته منذ أربعين حولا، وينظر إليك دون أن يتوقّف، ونور الشّمعَة يهتزّ تحت رفيف تموجاته.

لم تنم عندما أغمضت عينيك، ولم تشعر بالحاجة إلى النّوم، كما أنّك لم تؤمن. بينك وبين نفسك. أنّك يمكن أن تنام، في هذه اللّيلة السّاحرة السّاهمة، داخل مرايع المتاه. لم تكن تطيق أن تغفوبعيدا عن دفء سريرك، وحرارة القرب من جسد آخر بجانبك، يحفظ توازنك، ويشعرك بلذّة الدّوبان المريح، وراء حدود البرزخ. ولم تكن تعدل بالدار، وباحة الدّار، وغرف الدّار شيئا. وشجرة التّوت المورقة في فصل الصّيف، حيث كنت تهرب في العتمة، وتسترخي، متمدّدا، تعدّ تويجات النّجوم اللّامعة في السّماء. شجرة التّوت تلك لم تكن مجرد شجرة، لم

تكن شيئاً عابراً في أفق خيالك. لقد تحوّلت. مع الأيام. إلى هوس، وكبر
الهوس حتّى استحال إلى عشق، وتضخّم العشق فصار خدراً لذيذاً بلا
حدود.

أين بيتك الآن؟

وما اسم زوجك؟

وكيف هي الآن شجرة التوت يا ترى؟

تسحب يديك بهدوء من تحت رأسك، وتنهض وأنت تنوء بعبء ظلمة
قاتلة تنهش ذاكرتك. تقف مسلوب الإرادة، وتنظر بعينيك المغمضتين
عساك ترى ما ضاع منك إلى الأبد. في وقفتك تلك، وبعد أن بدأ اليأس
يغزو فؤادك، غمرت وجنتيك بدايات دموع، كانت تتسلّل، حيّة،
متخلّلة شاربك حتّى منابت اللّحية. رفعت يدك مضطرباً، ومسدت
لحيّتك بباطن كفّك. كنت تخشى أن تسقط أكثر، فتتهار، ويبتلعك
القاع، وتدفن في عمق الهوّة. مسحت دموعك؛ بمقت مسحها، وددت
من جماع قلبك لو تجتثّ مكنن الدّاء، فينضب ينبوع الألم. أنت لم
تبك في حياتك قطّ؛ وفي طفولتك (واعذرني للمرّة الألف أن أتذكّر
بدلاً عنك) كنت تضغط على شفتك السفلى بأسنانك، وتضغط حتّى
تنزل حموضة الدّم إلى مستنقع باطنك الضّليل، وتظلّ كذلك، متحرّج
العينين، ساهم النظرات، تطرد الدّموع بالشّroud. أين إصرارك ذاك
الآن؟ وهل بتر الضّياع أسنانك فما عادت تقطع؟

رأيت خلال غشاء الدّموع، المتسامق كستار أمام عينيك، قمّة
كثيب تتخايل على مبعدة خطوات منك، فاندشيت وأحسست كأنّ

أقنعة رصاصية تتحطم بداخلك؛ ولما تقدّمت، على حياء، صوبها،
ووجهك الضامر المشدود إلها بقوة السحريشي بالانهار والافتتان،
صدمتك خيوط ضئيلة، تنساب على الجانبين، في هيئة رائقة. كدت
تشرق بريقك، وتسمرت للحظة في مكانك، ثم تقدّمت بضع خطوات
أخرى حتى صرت عند سفح الكثيب. انحنيت في هيئة الساجد، ووطأت
ركبتك أرض المتاه. فغمست راحتك في باطن الامتداد، وحفنت من
بحر الرمل. ووقفت ثانية، ورفعت ساعدك. باعدت ما بين أصابعك،
فانسابت ذرات الرمل، تذروها النسمات. لامس بعضها وجهك، وامتلأ
أنفك، ولم يسلم فمك من مشاكسة بعضها. لاب لسانك ملياً، واحتجن
بعض الحبات. كانت رطبة، ومغرية، وشهية. نبتت لك فجأة ذاكرة
جديدة، هي ذاكرة المتاه، أعادت إليك دفعة واحدة إحساسك بالعطش
والجوع والألم، فازدردت، دون وعي، ما علق بفمك، ثم انحنيت على
الرمل تحفن منه. قهرك الجوع وكان الرمل شهياً؛ وأضناك العطش
وكان الرمل ندياً؛ ونهشك الألم وكان الرمل بلسماً شافياً وحفياً.

أكلت...

وأكلت...

ولما أحسست بالشبع جثوت.

هدّك شبعك المفاجئ، فتعاورتك مشاعر شتى، كانت مزيجاً من
الرّضى والتّحسّب والتّهيّب. كدت تتساءل عن مصير مستقبل الأيام،
عن الزّاد والعدّة وركوة الماء، ولكن تراجعت في اللحظة الأخيرة، ولوحت
بكفّك، في حركة مضطربة كأنك تطرد من أمام عينيك شبح خطر
داهم. استويت قائماً، ثم عاودت الجثو، فران بباطنك خدراضطرك

إلى الجلوس. حامت حولك شظايا صور، وغزتك الأطياف، وجاءتك، من كل فجّ، أشباح موتى، ونواقيس تنقر بصخب، مذكرة بمشهد لماتم جنائزي قديم. ولما تلفت حولك مذهولا راعتك دويبات كنت تراها تتعلّق بكم قميصك، غير آبهة لرعبك المرتسم على وجهك المتصلّب، وتخبّ سراعاً، وتنبّث بين شعرك رأسك الأشعث، وتلج عبر فتحتي أذنيك، كما لو كانت تبحث عن شيء ما، عن سرّ ما.

استسلمت. تمدّدت على ظهرك. عاودك جوعك وعطشك والألم. فكان كلّ ذلك مؤذناً بتصدّع جدار آخر في صرح بنائك العتيد. تململت في مكانك، قبل أن تتساءل، في حميّة التبرّم والغضب: إذا كان هذا أول يوم، وأنا على ما عليه، من إجهاد وقلة حيلة، فما عساي أفعل في قابل الأيام؟ نهضت ثائراً إلى حدّ الانفجار، ويمّمت شطر الكتيب. كانت قدماك تنغرسان في باطن الرمل، الذي لم يعد أسراً، فتسحبهما بصعوبة. وقد أخذ منك الإعياء، ثمّ تتقدّم وعيناك على القمة، ووجهك مخضّب ببريق التحدّي ورتابة اليأس. قلت بسخرية ولوعة:

اللعنة، إنني أنا سيزيف نفسه.

بلى... بلى، إنك مثل سيزيف، وقد أخطأت قليلاً إذ ادّعت أنّك هو نفسه. لقد كدت تبلغ القمة، ولم تسقط كصخرة سيزيف، من القمة إلى السفح. ولقد بلغ منك التعب، وأنت على مرمى حجر، غير أنّك لم تترجع، محدثاً جلبة وصوتا مكتوماً في القاع. ها أنتذا تتقدّم، تنحني، رأسك ينوء بعبء الخدروخية الأمل، ويداك المتعبتان، كساريتين في ليلة عاصفة، تضربان دون إرادة، هنا وهناك. وها أنتذا تشرّبت ثانية بعنقك المستدقّ، وترنو إلى نقطة فوق المنبسط الممتدّ، وتستحثّ قدميك، وبينك وبين نفسك، تنشدهما. كرجاء أخير. أن تطاوعاك فلا تخذلانك. جرّبت أن تعدّكي تنسى الألم، وتنسى الأصوات النائحة فيك،

وتنسى الأشياء التي تحوم حولك ضاحكة، في تشفّ، وتنسى نفسك.
جرّبت أن تنساه في الامتداد. وعددت: واحد... ثلاثة... تسعة... عشرة!!
فجأة، وكما لو كان بفعل ساحر حكيم، وجدتكَ فوق القمّة، متفردًا،
متوحّدًا، غير مستوحش. طافت على شفّتك بقايا ابتسامة حزينة،
ورفعت يديك، دون إرادة، إلى حيث القمر يتطلّع إليك، وقبّعت من
أعماق قلبك، برعونة طفل، فأحسست أنّك متعب... متعب جدًا،
وأنتك تريد أن تنام.

ارتطم جسدك النّاحل، الجائع، برطوبة الرّمْل، فغفوت. كانت
ليلة دون أحلام، ودون مسافات أو كوابيس. لم تر الدّار، ولا المدينة، أو
الأضواء، ولكنك رأيت شيئًا آخر، يتراقص أمام ناظريك، ولم تفكر فيه
من قبل. طالعتك أصوات، وسمعت رغاء، وبدت لمخيلتك جلبة عارمة لا
تقاوم. وقفت على أطراف أصابعك، وتسامقت بعنقك، وفتحت عينيك
على اتّساعهما، وظلّتهما بأناملك المرتجفة. ما تلك العمائم؟ وما ذاك
الغناء العذب؟ والسّواد الكالَج الذي يظهر ثمّ يغيب، وراء وشاح من
الغبرة الكابية؟ لا شكّ أنّك تتوهم، أو تحلم، أو تهذي؟! يقال إنّ الطّامئ
إلى الماء، يظلّ أمل الماء يهّجس به إلى أن يحيله إلى مجذوب أو مجنون،
يتخيّل أشياء ويرى الوهم فيحسبه حقيقة. ربّما أنت ذلك المجذوب أو
المجنون؟! لكن، لا. انتظر قليلا. دقّق النّظر جيّدًا. إنّهُ حقّ ما تراه؛ وتلك
قافلة القدر، وذاك الدّليل يهينم ميمّا ناحية نقطة ما تزال بعيدة، لا
ترى، جهة الشّرق.

تقلّبت على جنبك الأيسر، ثمّ استدرت قليلا، وانكفأت على جنبك
الأيمن، وقد بدأ يخزك برد الهزيع الأخير من اللّيل. انكمشت على
نفسك، وصالبت ساقيك، وقد أوشكت أن تتكوّر كما الطّابة. ورغم
الألم والجوع، فقد نمت عميقًا، ونما في ثنايا قلبك شعور أنّك ستعود

المتاه، وأتّه سينعطف إليك ويؤويك في مضافة اللّاحد...!!

الشّمس مرّة أخرى، في هذه السّاعة المبكرة من النّهار، خيوط مستدقّة غاية في الرّهافة، تسترسل دون انقطاع، وقد ازدانت بألوان قزحيّة من بين ثقوب جزر سحاب صغيرة كانت تعبر بهو السّماء وجلة عجلي. إنّها المعبودة هناك، وراء رفيف البنايات، لصق الرّزّاق، على امتداد بضع خطوات فقط من داركم في نهاية الطّوار. إنّك ترى المشهد الآن بذاكرتك الجديدة. ذاكرة المتاه. ولعلّ الصّورة تبدو مشوّهة نوعا ما، لكن لا يهّم. إنّها ذاكرة، وهذا خير من لاشيء، وهو يكفي... عشقك الشّمس، المعبودة، ارتبط بحنينك الطّفوليّ إلى الصّحراء. طلوعها المهيّب، وانسيائها عبر زوايا غرفتك الفسيحة، من بين فتحات النّافذة الشرقيّة، إيدان لك ببء جديد، برحيل آخر. فكنت تزج اللّحاف بيديك الرّقيقتين النّاعمتين، وتزلّق بجسدك اللّدن، وتثب بعيدا عن السّرير قرب النّافذة، وتفتح المصارع لتستقبل طراوة الأشعة وندى سويغات اليوم الأولى. وبعد ذلك، تغادر باحة الدّار، مستقبلا مشرق الشّمس لترحل داخل مملكتك القصيّة، وراء شريط الجبال.

السّحب تجيء وتروح، ولا تستقرّ على حال. لا مفرّ إذن. لا مهرب. لا خلاص. لم تعد عشيقا، ولا الأشعة معشوقتك الأثيرة. إنّها تنقلب ضدا، جارحا، كاسرا، لدودا، لا يرحم. سياط... سياط... سياط... سياط تنصبّ مباشرة على رأسك كالرّصاص المحمّى، إلى درجة لا تطاق، فتشعر بالغثيان والقيء، ويدبّ في مفاصلك خدر، وتسري في بدنك قشعريرة غريبة. تهرب من الحرارة، من نفسك، وتودّ لو تخرج من جلدك؛ ولكن إلى أين، ياربّ السّماء؟! أما من شجرة؟ أما من ظلّ شجرة؟ أما من جرف أو مغارة؟... وتطلق ساقيك للريح، تخبّط خبط عشواء، هنا وهناك، تبخلق عينيك، تبحث بيدك ولسانك، تبحث بأذك وأنفك، غير أن لا

شيء يطالعك سوى ظلّ غائم في مدى بصرك الكليل، وبعض الأحرار،
وبقايا نبات ميّت احتواه الخوف فلاذ بحصانة الأشواك. اجر... اجر...
اجر، كي تنسى عطشك وألمك وجوعك، ولا تطاوع خدرك فتسقط بلا
حراك. وإذا بلغ بك الرّحيل أطراف التّهايات، فأمل لقاء القافلة وحداء
الدّليل.

اجر إذن، اجر...!

إنّك تبتعد كثيرا عن خطّ التّماس، عن آخر نقطة للعمار، على
مفترق طرق أربع؛ وكلّما أوغلت، مجرجرا قدميك لاهئا، في هذا الشّسوع
المترامي، فقدت شيئا من ذاكرتك القديمة، ونسيت اسمك مرميا في
زاوية معتمة على وجه بطاقة هويّتك. الأشياء لا تهّم كثيرا هنا. أسماء
الأشياء أيضا. وأنت تمشي، تتحامل على نفسك، وتكاد تسحب قدميك
سحبا، وتوشك أن تسقط. ما عادت فيك ذرّة واحدة تستطيع أن تقاوم،
وما عاد فيك عرق واحد ينبض بحياة. سرّحت طرفك، مقعيا على
مؤخّرتك، كوثن متهالك، واستندت ببيدك، من الإجهاد، على بركة النّار
من حولك، وأنعمت النّظر بعينين يكاد يذهب ببصرهما السّديم. أين
الماء؟ أين الماء؟ لا ماء، ولا ما يشبه الماء. حتّى السّراب تلاشى أمامك،
وبدل أن تراه، نطّت من العدم صور وأشباه صور؛ وارتفعت مبان
وخيام، وغرقت في حمى التّصوّرات... أنت أمير متوجّ بتاج الملك، على
صهوة جواد مطهّم، يحيط بك الحراس والجنود، ويدقّ النّفير احتفاء
بقدومك... وأنت تترجّل ممسكا بمقدّمة السّرج المذهب، وتذهب عبر
الأروقة المفروشة بالورد والياسمين إلى بوّابة القصر، فيستقبلك
الغلّمان والجواري ينقرون الدّفوف ويمزجون بفرحة اللّقاء... وأنت
تتصدّر عرشك المطعم بسبائك الذّهب وتخاريم العاج، وتستمع إلى
جلجلة الشّعراء، وهم يتغنّون بانتصاراتك عند بحيرة طبريّة، وعلى

حدود أورشليم، وأمام أسوار بغداد... وأنت تقصد جناح الحريم مبسلاً محوqلاً، وتلج من بابه الصّغير فضاء غرفة واسعة، في كلّ شهر منها مطارف من خزّ وديباج، ويتوسّطها سرير رحب، ينتهي بناموسية منسدلة الذّوائب... وأنت تعب من خمرك المعتّقة، على أنخاب أبطال ماتوا في ساحة الوغى، فداء لك أوّلاً، وللعرش والمملكة ثانياً. وعندما يتعتك السّكر، تستلقي بملابسك الأميريّة على طول الفراش وتصفّق براحتيك الشّبقتين، فتأتي مراحل تجرّج أذبال فستانها الخمريّ، أمام شغب وفتنة، وحسن، وماردة. وبعد أن يغنّين فيطربنك، تومئ إليهنّ بإشارة من إصبعك، فيأتينك سعياً. يخلعن عنك ثيابك، وينتظرن أمرك بالاقتراب. تشير إلى مراحل، تأتيك. تضمّنها إليك. تملّس على شفتها بعذوبة وشوق، وتمتزيّدك اليمنى كأنّها حيّة تتلوّى، وتنزل بطينة فتحيط ذلك الخصر الّذي طالما أرّقك، وأنت بعيد، خلف أسوار على وشك الانهيار. عضضت شحمة أذنها، فتأوّهت، وأمسكت رأسك بين يديها، وقربت لسانها من شاربك، فلحسته، وهي مغمضة العينين من اللّذة. دفعتها على مهل، فتأوّدت، وسقطت على الفراش وهي ترهز، وتومئ إلى وادي النّمل حيث الطّنين. انصببت بثقلك المهول عليها، شددتها إليك في عنف التّمك، وفي لحظة ما، تعالت أصوات الدّفوف، وانبعث الغناء مدوّياً، وكنت تعبر آخر حدّ لجزائر العمار...!!

عندما حاولت أن تقف، مرفقك منغرس في الرّمل، وكفّك الأيمن على ركبتك، سيطر عليك تعب كان يحاصر حصونك حصناً حصناً، ووهنت إرادتك، وأضحت طليعة هشة. أفردت يديك وساقيك، وزحفت ورأسك يطنّ بلجب من الأصوات النّاشزة. كنت جائعاً، ولم تكن جائعاً؛ وكنت عطشان ولم تكن عطشان. فقدت إحساسك بكلّ ما حولك، ولم تعد لك سيطرة على نفسك، إنّك تموت ببطء، تموت وحيداً، معزولاً، ومستوحشاً. زحفت أكثر، وزحفت. كانت هناك واحة... واحة وماء...

واحة وماء وظلّ... واحة وماء وظلّ وثمر. وكنت متهالكا، لا الماء يعنيك، ولا الثمر. هو الظلّ فقط، ولا شيء عداه. هو الظلّ تبلغه وتنأم قريير العين. جذّفت في زحفك؛ صرت مثل السفينة بلا شراع، والعاصفة تتلاعب بك، وتحاول تحطيمك. لم يتبقّ أمامك سوى بضعة أمتار. بضعة أمتار وتصل. ثمّ تستريح. ضغطت على شفّتيك بأسنانك. كدت تقطعهما. تحدّيت ثقل ساقيك، وبلادة أطرافك وصوتا عميقا داخلك يأمرك أن تتوقّف. كدت تجري وأنت تزحف، وحيث تراءت لك الواحة، لم تجد غير امتداد يفور نارا. أردت أن تصرخ فلم يطاوعك صوتك، وتقت إلى النّهوض فخارت قواك، وغمر الزّبد شفّتيك. سقطت على بطنك، لاهثا، وغبت... غامت الرّؤية أمامك، ورحلت...!!

كانت تعبث بشعرك النّسمات، عند الأصيل؛ وكنت ما تزال مستغرقا، تنظروا ولا ترى، وتسمع ولا تعي. ثمّ فجأة، حانت منك التفاتة يسيرة ناحية الغرب. كنت تبحث عنه، ذاك القمر. لم يكن هناك. خفضت رأسك، فاحتضنت ملامحك طلاوة من باطن التّخت الرّملي. شعرت بوخزة برد فارتجفت، وشجّعك ذلك على محاولة القيام. لم تجد لذلك الماء، وزايلتك كلّ أوهاملك وهواسك كما لو كنت في حلم، وأحسست بقوة عجيبة تنساب في كلّ ذرّة من جسدك الفاره. قمت، واندفعت تختر ساقيك، فطاوعتاك، وحركت يديك في كلّ الاتجاهات فكانت أخفّ من النّسيم وأرقّ من أرج العبير. ما هذا اللّغز؟ تساءلت: هل أنا في حلم؟ لم تصدّق نفسك. وبدا لك موقفك على حدود المتاه، وتشابك المسافات، أقرب إلى الأحجية، يستعصي على الفهم، محيرا، مربكا. اعتقدت أنّ شخصا، في مكان ما، من هذا الامتداد اللامحدود، يشرب بعنقه نحوك، ويتطلّع إليك، يسايرك، غير أنّك لا تراه. قد يكون هو من يبثّ فيك الوهن ثم يبعث فيك الحياة! ولكن لماذا؟! أه، لو فقط تستطيع أن تراه! ولكن ما يدريك أنّ هذا الشّخص موجود فعلا؟

إحساس ما، حدس من نوع ما، لا يكذبك، يقول لك إنه موجود، وإنه يعرفك، ورغم أنه يقسو عليك، إلا أنه يحبك، ولا يريد لك الهلاك.

جريت إلى حيث تترأى لك مملكة الجبال، وراء خط الأفق تماما، وقررت أن تصل إليها؛ وجريت بكل قوتك، ولكن المسافة تبعد، والمنظر يوغل في الغياب شيئا فشيئا. عند حد ما، توقفت، وقد أدركت فشل المحاولة. كان بالقرب منك عرق رملي، وخيوط فضية تحيط بك من كل جانب، فعلوته، وجلست القرفصاء، على قمته، وشرعت تدندن، لأول مرة، منذ أن وطأت قدماك حدود المتاه... جاءك بغتة كل ما خلفته وراءك، وحاصرتك صور تعرفها تمام المعرفة. إنها تتقاطر عليك من كل ناحية، وتحوم حولك وتراقص. هي ذي الدار، على حافة الزقاق، في نهاية الطوار. وذي باحة الدار، وهناك على مبعدة، شجرة التوت حيث كنت تنام مسترخيا في ليالي الصيف القائظة. كلماتك تشي بكل ما ترغب فيه، وتحبه، وصوتك أقرب إلى الحزن، فيه مناجاة ونهبة. ولو قدرت أن ترمي يديك على جناح براق فتأتياك بألق المدينة لفعلت... الأضواء، الشوارع، والمخازن، والبارات... ودور الحب. ولكن: أين بيتك الآن؟

وهل شجرة التوت هي هي لم تتغير؟!

شمس يوم آخر تغرب عليك ههنا، ويوم آخر يضاف إلى باقي أيامك التي نسيت عددها، وما عدت تذكر قصرها أو طولها، وانتثرت شذرمذر، كرقائق الثلج، عبر أخاديد المتاه. أيام أخرى ستمضي، وستشرق شمس يوم جديد، ثم تغرب ثانية، مخلفة إحساسا بالفجيعة ينهش أغوارك المظلمة. إنك تنام الآن، في نفس وضع الليلة السابقة، والأجدى لك أن تضرب صفحا عن أملك في الرجوع، وأن تأخذ نفسك بشدة النساك

كي لا تذهب أنفاسك شعاعا، ولا تحصد غير الشوك... الغائب لا يعود، يسترجع ولا يعود، ويستعبر، يذكر الديرة والجيرة والأحباب، ولا يعود. مثلك مكرس، ومثلك صفيّ القدر، لا حقّ له في موت الأحياء، لأنّ الحياة التي خلفها وراءه، ويتوق إلى احتوائها، عودا على بدء، موت لا انبعاث بعده... الغائب لا يعود. يحنّ، يأمل، حين يكتشف أنّه ابتلع الطعم، وهو على مشارف آخر حدّ للعمار. على مفترق طرق أربع؛ ويأمل، بشدة، حين يخطو الخطوة الأولى، ويتقدّم؛ يلتفت للمرّة الأخيرة وراءه حزينا أسفا عساه يرى ما تركه خلفه إلى الأبد، ولكن هيات لمملكة الأحياء أن تعود... الغائب لا يعود... الغائب. مثلك. لن يعود.

سبعة عشر يوما. سبعة عشر يوما وخمس ساعات. سبعة عشر يوما وخمس ساعات وعشرون دقيقة. أنا عدتها بدلا عنك، وأجهدت نفسي أن لا انسى منها دقيقة واحدة، لنلّا أضيّع أثرك، فأخسرك، مرّة، وإلى الأبد، وتنقطع عني أخبارك، فتموت وأموت بعدك. لقد كنت صادقا في حدسك، فلم يكذبك. وذاك الشخص الذي توهمت وجوده، في مكان ما، يسايرك، ولا يتخلف عنك، كان أنا، بشحمه ولحمه؛ خطأك الوحيد اعتقادك في قسوتي عليك. أقسم أن الأمر بخلاف ذلك؛ فلولا حيي إياك وحدي عليك، لما كلّفت نفسي عناء متابعتك كلّ هذه المدة؛ أجوع لجوعك، وأعطش لعطشك، وأتألم، فوق كلّ ذلك، لأملك. أنت، ربّما، لا تصدّقني، ولكنّي أقسم لك، بكلّ الإيمان التي تريد. لك فقط أن تتساءل، لتكشف صدق مقالي من كذبه:

.من أين وאתك كلّ هذه القوّة التي تشعر بها الآن؟

.وكيف استحال حزنك ووهنك فرحا بلا حدود؟

لن أطلبك، حينئذ، بالإجابة؛ ولن أسبّب لك تعباً ووصبا آخر قد

تنوء به ولا تتحمّله؛ غير أنّي أرجوك أن تفكّر في هذا الأمر، إذا خلوت إلى نفسك، في لحظة صفاء... نم مطمئنّا، متوسّدا راحتك، فوق القمة، واحلم كما تشاء، تحت دثار صديقك المتوّج ملكا في مملكة المغيب، وإلى أن تصحو، سأقوم حارسا على رأسك، أهدهد أملك في لقاء القافلة، وبدء الرّحيل.

كان الرّمّل تحتك يبرد،

والمتاه يقرب منك،

والمدى ما عاد عملاقا .

إنّه يتراقص أمام ناظريك،

تحوطه هالة الجبال الضّاحكة .

واللّيل المسافر...!!



((٣))

ها هي ذي الصّحراء...

ها هو ذا المتاه...

وكذا الامتداد المهول، موطن السّكون، وملجأ الحيارى أمثالك. من كلّ جانب يحوطك، ويبسط راحته المحرشفة المتأكلة، فيمزرها على جبينك، ثمّ يمسّد بها جنبك الأيسر، في رفق قدسيّ حنون، ولعلّك لم تسترق النّظر إليه، وقد تألّقت في عينيه العسليّتين السّاحرتين أوائل دموع، كانت تنتظم على مهل، كما الدّر المنثور، رثاء لك وإشفاقا عليك. لقد ظلّ طوال الوقت يرطن بكلام غير مفهوم، وأنت نائم، كما لو أنّه يريد أن يعتذر، ويطلب منك العفو والصّفح عن سبعة عشريوما من العذاب المستطير. كان يودّ أن يوقظك، ومكث في مكانه زمنا غير يسير، وهو متردّد، يتجاذبه إحساس بالنّدم والتّوجّس والحذر. وفجأة طأطأ رأسه في تسليم، مصمّما على تأجيل لحظة استرضائك. ابتعد عنك قليلا، ثمّ اقترب منك ثانية، يحدّق فيك بإمعان. ارتسمت على شفّتيه ابتسامة كبيرة، ورفّ جناحاه فطار بعيدا.

هزّ يده العملاقة مرّات، وأشار إلى الجهات الأربع، في سرعة وحزم. طقّ صوت شحيع من عمق المشرق، وانساب ضعيفا، حيننا، وبدأ يرتفع، ببطء، في خطّ تصاعديّ، وهدير بقوة. هزم الرّعد ثلاثا، محدثا فرقة وجلبة ظلّت تترجّع صدى خلل الفجاج السّحيقة، والجبال النّائمة. تردّدت أصوات أخرى، كان يجاوب بعضها بعضا. اشتدّ الهزيم، ولمعت

بروق في كل مكان. أضواء أديم السماء، وانصبَّ النور منتشرا طاغيا كما الطوفان، فشمّل الفضاء كلّهُ حتّى حدود الأفق. كان الضوء يتكسّر، ويتقاطع، ويتشابك، ويندفع مجنونا، هنا وهناك، مرّةً حادّا كالسيف، وأخرى مثلثا كهرم؛ وكانت الصحراء تسيح وتتضائل، وتتحوّل رويدا رويدا إلى هالة من الأنوار الساطعة، تمتزج ثمّ تذوب مناسبة كالشعاع. هزّتك الجلبة، فصحت، وفتحت عينيك ثمّ أغمضتهما سريعا. كنت ميهورا، ومفزوعا، يخالطك إشفاق ونشوة مشوبة بتحفّز؛ وكنت مضطربا إلى حدّ الفوضى لا تدري ماذا تفعل، تحاول القيام فلا تستطيع، وتروم الجلوس فيترأى لك شبح لمارد يملؤك رعبا... بغتة هدأ كلّ شيء، وتلاشت الأصوات من حولك. رفعت رأسك، وأفردت وجهك للتّسيم. تنفّست بعمق، فغزت رنتيك برودة منعشة. أصابتك رعشة، أشبه بقشعريرة، وبدأ جسدك . من القمة إلى أخمص القدمين . يتوتّر ويتمدّد.

فوقك السماء رحبة، فسيحة، ورحيمة، ترنو إليك مثقلة بجزز السحاب، وترتّق ألوانها، بين رصاصيّة باهتة إلى سواد كثيف؛ أيقنت، وأنت تشرب بعنقك نحوها، أنّ تلك هي النّذر الأولى، وما يهتّركيانك هلعا لرؤيته ليس إلا البدايات . ذكرى لشيء بعيد الآن، يتراكب عدوا إلى الوراء، ليعيدك خمسة وثلاثين عاما إلى حارتك القديمة ورطوبة الرّقاق، في ذلك اليوم الخريفيّ الذي بدأ رائقا، مشمسا دافئا، لا نذري سمانه. وتمطّط الوقت، وزحفت السّاعات بطيئة، وفجأة، وكما ينبعث الأموات من أجداثهم على نفخة الصّور، فار تنور القبة المتعالية، المتشامخة، وعلت أصوات لم تسمعها من قبل طوال سنواتك الخمس والثلاثين، والتمعت في الأفق أسياخ من الضّوء، وبدأ السّيل في الانهمار... كان رذاذا. حبات رقاق جدّا، تسقط في تلكو، حيّة، خجلى، ثمّ هزم الرّعد عنيفا، وانفتحت أبواب السماء بسيل عرم، مهيب

ومخيف... انفتحت سواق في الثّرية الحمراء، وماجت المياه، واهتزّت السّقوف تحت ضربات البرد، ثمّ تصدّعت، وجاء الماء، فحملها، دون رحمة، إلى نهاية الطّوار، حيث كانت تتكوّم أبواب الزّرائب، والطّمي، والحجارة، وحيوانات صغيرة ميّته. إنّهُ الفيضان! إنّهُ الطّوفان!...

غافلتك يدك المضطربة، وطفرت سبّابتك، فلامست شامة أسفل شفّتك ناحية اليسار. بدت لك رطبة ونديّة، فضغطت عليها برفق ورفعت إصبعك، فقرّيته من لسانك، ثمّ لحسته بتشه. كان ذلك طعم الماء، دون شك. إنّهُ الرّذاذ، الهما، وقبل أن تستفيق من دهشتك، كان البرد ينزل بردا وسلاما عليك. كنت مقرفصا، فوقفت، ومددت يدك، في هيئة جناحين مفردين. استقبلت الامتداد العلويّ بوجهك، وفتحت فمك. لثمه الماء، والشّففتين. مشيت خطوات إلى الأمام، متثنيا، كأنّما تريد أن ترقص، وأنست في نفسك رغبة في الجري.

طالعك المتاه شفيفا، لامحدودا. ورأيت في السّفح قرب الشّريط الجبليّ، ناحية الغرب، طيفا لشيء ما، لم تميّزه في البداية. تخيلته يسعى، وكان كبيرا ضخما، يكتنفه سواد، رائن، لا حدّ له. قلت في نفسك، وقد بدأت تستعيد طمأنينتك الضّائعة: «تري ماذا عساه يكون؟ هل يمكن أن يتمخّض المتاه ليلد شيئا؟» خمّنت. افترضت. تصوّرت. رأيت صورا، وبقايا صور، ممحوّة، كنتف زجاج محطّم، وغزت رأسك مسافات وأبعاد، تهدر بحدّة، فيرتجّ لها باطنك. استعدت هدوءك، وحاولت أن تظفر بصورة واحدة، بمشهد متكامل، من كلّ هذا الشّتات المستحيل، ولكن عبثا.

لم يبق أمامك خيار إلّا أن تتقدّم، وطاوعتك ساقاك فجريت دون توقّف. لم تدع لهوا جسك أن تشلّ حركتك، ولبضع دقائق أغلقت ثقب

ذاكرتك بمفتاح النسيان لئلا تصحو على خيبة السراب مرة أخرى.
شعرت بالتعب يدب في مفاصلك، وبالإعياء، وبشوق إلى استراحة
قصيرة، ولكنك . بعنف سادي . دست على صوت الرغبة، ومضيت لا
تلوي على شيء... بللك المطر، وولجت حباته عبر فتحة قميصك،
وارتمت نشوى على بساط صدرك، فخضت رعدة، ومألتك فرحة
غريبة. حينئذ، اضطربت خطواتك، واصطكت ساقاك، فكدت تسقط.
وبالكاد تحاملت على نفسك وعلى فتورك، وسويت موطئا لقدميك،
وانطلقت. كان ذلك الشيء الذي رأيته عند الشريط الجبلي يقترب شيئاً
فشيئاً، وسواده الكثيف يسفر عن بياض وبدايات خضرة في الأطراف.
وها أنت تقترب أكثر، تكاد تطير. لم يعد يفصلك عن الوصول سوى ميل
واحد، والميل يتقلص، ينكمش كلمح البصر، ويصير أمطاراً، بل أشباراً.

.إنها الواحة، يا إلهي!... إنها الوا... حة. حقاً إنها الواحة!

وتمدّدت على ظهرك، وأغمضت جفنيك على أملك الجديد. جاءتك
أصوات متسائلة، ونفذت عبر طبلة أذنك، فضربت عنها صفحاً. تسمع
ولا تعي، وعيناك مغمضتان. لا حاجة لك الآن بالأصوات. ستستريح
حيناً، ثم تفرغ لها، بعد ذلك. نم الآن، مطمئناً، دون هواجس أو
كوابيس.

... في يوم ماطر، أشبه ما يكون بهذا اليوم، غمر الماء حدود القرية
المنسية، قبل أن تصبح مدينة بعشر سنين، ذات شارع اسفلتي، وبنائات
على جانبيه، ومخازن، وبارات، ودور سينما و... حب؛ وهدرت سيول
السّماء الغاضبة، وأحالت كلّ المعالم الباهتة الرثة إلى برك راكدة
ومستنقعات وأوحال. وهاج الناس وماجوا، وتقطّعت بهم السبل،
وضاقت بهم الدنيا على رحابتها، فلزموا بيوتهم. وكنت مع الصغار

أمثالك، تكوّمون الطّمي، وتتراشقون به، فتتّسخ أثوابكم وتضحكون. مضت ساعات، تلتها ساعات أخرى، خيم بعدها الصّمت، وهبط الظّلام ثقيلًا، كالحا، أسود. سمعت من كوّة داركم، في نهاية الطّوار، صوت والدتك يناديك، فرميت بكومة الطّين في يدك إلى الأرض، وهرولت. جذبت الباب، فأزّ، ثمّ دفعته فطربق؛ واخترقت الباحة إلى تلك الغرفة الجانبية الصّغيرة الّتي تعرفها. وغابت ملامحها من ذاكرتك الآن... صفعتك رائحة الرّطوبة، وأنت تدخل، وجلب انتباهك منظر الشّمعّة المثبّطة في قاعدة آنية الفخّار، وقد أخذت ذبالتها تتمايل تحت تأثير النّسيم. خلعت حذاءك، دون مبالاة، ودفعت بجسدك المبلّل داخل «القטיפ». لطوت بجانب جدّتك، كجرو جائع صغير، فزكمت أنفك رائحة الحنّاء على راحتها وهي تمسّد بها على شعرك النّافر؛ وجالت عيناك الذّنبيتين ترقبان حبّات المسبحة تطقّ بين أناملها الطّويلة النّحيلة. صعدت النّظريّ وجهها الغايّ المغضّن، فأحسست بالحنين، وجرفك. دفعة واحدة. أرج سنواتها السّبعين، في روائحها الذّكيّة المتنافرة؛ واستقرّت نظراتك على شفّتها الكامدتين، وهي ترشف من كأس الشّاي، فافتّرثعرك، وعابثك نفس شعورك الطّفوليّ، الّذي اعتراك وأنت ترمي كرات الطّين في الخارج، فقلت وأنت تقترب منها أكثر، حتّى كدت تندسّ في حضنها:

جدّتي، احك لي حكاية.

وترفع رأسها إلى سقف الغرفة الطّينيّ، ثمّ تخفضه وهي تتأمّلك، وتشبك أصابعها في شعرك النّديّ، وتقول باسمه:

أنا لا أعرف سوى حكايات الجنّ، وأنت تكرهها. فما حيلتي؟!

وترضخ في تسليم. تفكّر قليلا، ثمّ تعلن مشاكسا:

لا حيلة إذن، وأمرنا لله.

استوت عند ذلك في جلستها، واتخذت سمتا يشي بإدراكها لخطورة شأنها في تلك اللحظة. رازتك بنظرة شزراء لتتأكد من صدق رغبتك، ثم أخذت كأس الشاي مرة أخرى، ورشفت منه رشفات سريعة، ووضعتة في الصحن على «القطيف»، وهي تتلمظ وتتمطّط. قالت بعد لحظة ساد فيها الصمت سرايبًا حبيبًا:

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، بأحد البلدان...

وسكنت هنيئة، فاستغلّيت مساحة الصمت، وابتدرتها سائلا:

أيّ البلدان، يا جدّتي؟

نظرت إليك، وقد ارتسمت على شفّتها ابتسامة كبيرة، وقالت:

فلتكن أيّ بلد، يا بنيّ. المهمّ أنّ بذلك البلد، كان النّاس يعيشون مطمئنّين، في خير وسعادة، يأتهم رزقهم وهم آمنون. وكانوا (هؤلاء النّاس) مثل آباء آبائك، مزارعين، لكلّ منهم غابة يغرسها بما شاء الله، من النّخل والرّمّان والتّين واللّيمون والمشمش والخوخ، وكلّ ما تشتهيهِ العين ويستلذه اللّسان...

وصمتت مرة أخرى. قرّبت كأس الشاي من فيها، ورشفت رشفة كبيرة، وتمطّطت، فخرج صغير تمطّطها مشرّشا كأسنان المنشار على الخشب، وعادت تقول بنبرة جذلي متذكّرة:

... وفي أحد الأعوام، شخّت السّماء، وأجذبت الأرض، وأشفت الهائم على الهلاك، فاجتمع أهل ذلك البلد وتشاوروا في الأمر مليّا، ثمّ قرّروا أن يصلّوا صلاة الاستسقاء، ويتقرّبوا من الله ببذل العطايا والتّقرّب من المساكين بالصدّقات. وفي يوم جمعة، بعد أن صلّى النّاس في المسجد الجامع، واستغفروا لذنوبهم، خرجوا جميعهم. إلى ظاهر البلد ورفعوا أكفّهم بالضّراعة والدّعاء، فقال إمامهم وخطيبهم:

. اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلَهَنَا وَمَوْلَانَا... وصلّ على محمّد نبينا... ومن أراد بنا
سوءاً فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولايد... ثمّ أرسخه
على هامته كرسوخ السّجّيل على أصحاب الفيل... اللَّهُمَّ اسقنا غيثا
مغيثا... مريئا مريعا... مجلجلا... مسحفرا... هزجا... سخا سفوحا...
طبقا... غدقا... متعنجرا... نافعا لعامتنا... وغير ضارّ لخاصّتنا.

ومرّت بعد ذلك أيّام قلائل انتظر خلالها القوم؛ وكان انتظارهم
ثقيلا، أثقل على قلوبهم من جبل أحد. وفي يوم من الأيام، في وقت بين
الظّهيرة والعصر، اسودّت السماء ودمدم الرّعد، ولاحت بروق بين
الخافقين، مطبقة، تهر العين؛ ودمعت القبة الهائلة فوق البلد، فسمع
لصوت دموعها هدير، وبدأت الدّموع تكبر وتتضخّم، من زخّات كحبات
السّمسم إلى أن تحوّلت إلى كرات بحجم اليد. وفي طرفة عين، أترع الماء
السّواقى الجافّة وامتلأت الآبار، وغمرت السيول الحقول والغابات...
هلّل النّاس وكبّر إمام الجامع، وزغردت النّساء وصلى الأطفال الصّغار
أمثالك على النّبي...

وتوقّفت برهة عن الكلام، ومسحت وجهها بكلتا راحتيها وهي تتمتم:
«صلى الله عليه وسلّم»، ثمّ نظرت نحوك وقرصت خدّك بحنان ولطف.
وواصلت تقول:

ولم تمض ستّة أشهر حتّى أصبح كلّ شيء في البلد أخضر؛ فاشراّبت
أعناق السّنابل في الحقول، والتمعت حبّات التّمّر في رؤوس العذوق،
وقد زادت ريّا ورشاقة. ونمت الحشائش حتّى كادت تلامس السّيقان؛
وعلى رؤوس الجبال، وفي أطرافها، كانت تويجات أشجار الإكليل والعرار
والصفصاف تتمايل مع الرّيح، مسبّحة باسم الرّحمان الذي خلق
الإنسان وما كان...

قطعت حديثها، ورفعت وسطاها تحكّ بها جبينها كأنّما تتذكّر؛ ثمّ همّت بكأس الشّاي لترشف منه، ولكنّها أمسكت حين نظرت إليه فوجدته فارغا. اتّجهت بكامل جسدها نحوك، وقالت كأنّها تهمس، ولا تريد لأحد سواك أن يسمع:

. ولما اكتمل الحول، وعبّ القوم صابتهم في الجوالق، وباعوا واشتروا، وأولموا وشبعوا، ووقّوا بنذورهم، جاء إلى البلد رجل لم يره أحد من قبل، يغطس في هالة من البياض. طاقيته بيضاء. حاجباه أشيبان، أبيضان. وجهه أبيض. عمامته بيضاء. جلبابه أبيض. يداه. قدماه. كلّ شيء فيه أبيض. طرق بيوت البلد بيتا بيتا، وجاب الشّوارع شارعا شارعا، ولم يترك مكانا، مهما كان بعيدا، إلّا وذهب إليه. كان يرفع عقيرته بالصّياح وهو يقول بنبرة ملؤها الجدّ:

يا معشر الإنس... يا أهل النّبيّ، من يقايض طاقية من التّمربطاقية من الذهب؟

كان النّاس يمرّون به ويضحكون، وزاد كثيرون منهم فسخروا منه، وجرى الأطفال خلفه بالحجارة، ولكنّه لم يهرب، ولم يحاول أن يتفادها. كانت الحجارة تنطلق كالسّهام، وحين تقترب منه تنحرف عنه ثمّ تسقط بجانبه... هرب الأطفال متصايحين. فرعين؛ وشيوخ الجامع لما بلغهم الخبر قالوا بتأكيد في دهشة يشوبها التّوجّس والتّكذيب:

لا تعجبوا، يا أبناءنا. قد يكون هذا الرّجل «رهبان»؛ وما أكثرهم هذه الأيّام! ويا بخت من يظفر برضى أحدهم... سيعيش، دون شكّ، بقية عمره غارقا في نعيم مقيم.

ورغم ذلك التّأكيد، فإنّ أحدا من أهل البلد لم يقترب منه بعد ذلك؛ وكلّما مرّ ببيت أحدهم. ولو عرضا. أغلق في وجهه الباب، قاذفا في وجهه أشنع أنواع النّعوت... ومرّت بعد ذلك أيّام، والرّجل لا يكلّ ولا

يملّ، ما يفتأ يصيح، ويردّد ويعيد كلامه:
... طاقية من التمر بطاقيّة من الذهب.

وكما يقولون . يا ولدي . فإنّ الشّيء إذا بلغ الحدّ فإنّه ينقلب إلى الضّدّ... زاد خوف النّاس على حدّه، وصار لا شاغل لهم سوى «جاء الرّهبان»، «ذهب الرّهبان»، ولكنّهم لا يجرّأون على الظّهور أمامه. حديثهم عنه صار همسا في الحقول، ثمّ وشوشة وراء الجدران. وفجأة، وكقضاء نازل، سئم «نصيف»، ابن صاحب السّلطان، هذا الخوف والتّكتّم، فقرّر الحديث مع الرّجل، وليكن ما يكون. دخل القبو في منزل أبيه، بخطى قطّ مدرّب، وخلع طاقيته فملأها تمرا وخرج يقصد «الرّهبان». حفيت رجلاه وأدماه التّعّب حتّى وجده تحت حائط يستظلّ به من لفح الهاجرة بظاهر البلد. ابتدره بالتّحية، فردّ عليه بأحسن منها، وهشّ له وبشّ، وقال له بنبرة ودود تشي بمعرفته إيّاه:
. مرحبا بك، يا ولدي نصيف. لقد كنت طوال هذه المدّة أنتظر قدومك!

أسقط في يد «نصيف»، وانتابه هلع عظيم، غير أنّه تمالك نفسه، وقال بصوت مكتوم كطلقة رصاص:
. لقد جئتك بطاقيّة التّمر، يا سيّدي، وها هي ذي. فهل ستعطيني ذهبا كما وعدت؟

.بلنّذ، يا ولدي. ما عليك إلّا أن تتبعني. ولكن بشرط واحد...

فقاطعه «نصيف» متشجّعا وهو يقول:
.شروطك، يا سيّدي، مجابة حتّى من قبل أن أسمعها.

غير أن «الرَّهْبَان» نظر إليه في عطف زائد، واقترب منه حتَّى حاذاه، وربّت على كتفه قائلا:

نصيف، يا ولدي، عليك أن تسمع الشرط حتَّى لا تندم في ما بعد.
كلّ ما أطلبه منك أن تصمت، ولا تسأل، وإلّا حلّت بك لعنة «سرياح»
و«كشميلج».

ومن «سرياح» و«كشميلج»؟ سأله «نصيف» وأمارات الحيرة بادية
على وجهه.

نظر إليه «الرَّهْبَان» مليّا، وقال له معاتبا:
ألم أمرك، يا بنيّ، أن تصمت...
ثمّ مواصلا بنبرة فيها رقة:

ولكن سأسامحك هذه المرّة، وسأجيبك عن سؤالك، واحذر في المرّة
القادمة!! إنّ «سرياح» و«كشميلج» هما الموكلان بالسّر الأعظم، وهما
صاحبَا خاتم نبيّ الله سليمان، وهما ظلّ الخضر عليهما السّلام.

وأمسكه من يده وقاده وراءه، مبتعدين عن البلد، حتّى صارا في
قلب الصّحراء. ولما بلغا حدّا معيّنًا، توقّف «الرَّهْبَان» عن المسير،
ثمّ أمر «نصيفا» بالكموث وراءه، وشرع يتمتم بكلام غير مفهوم. فجأة
ارتفعت جلبة عارمة، وثار غبار هائل، وطلع دخان لأمس وجه السّماء،
وظهر عملاق عظيم، ذو عين واحدة، وأنف أشرم، يقول بصوت مخيف:
شبيك لبّيك، عبدك بسطام بين يديك. مرني، يا سيّدي، أطعك.

طأطأ الرّجل رأسه متفكّرًا قليلًا، ثمّ قال له أمرًا:
احملنا، الآن، إلى مدينة النّحاس!!

بسط العملاق المارد راحته اليمنى على امتدادها، وشدّ اليسرى إلى ظهره، وأحنى رأسه الضخم المعتم تأدياً، فجاء «الرهبان» يتبعه ابن صاحب السلطان «نصيف»، وصعدا وهما يحاذران السقوط عن اليد التي صارت تبتعد أمتارا عديدة عن الأرض... طار بسطام فسمع لصوت طيرانه زلزلة عنيفة، وحام لحظة في مكانه كأنه يحدّد مساره، واختفى في عنان السماء... مكث القوم كذلك حيناً؛ وكلمح بالبصر، وفي ما يشبه الحلم، تراءت من تحتهم ظلال شاسعة، ودكنة كابية تغطّي ما بين الخافقين، وارتفع في مكان ما عمود غاية في الضخامة، تلمع جنباته بنور غريب يكاد يأخذ الأبصار. التفت بسطام إلى «الرهبان»، وقال بتهيب:

ها نحن أولاء وصلنا، يا سيدي.

نزل بعد ذلك بطيئاً، وقد استقام جذعه الفارع؛ ولما لامست رجلاه الأرض من جديد، ركع في أدب جمّ وهو يضع يده على تحت الرمال. قفز الرجل، وأمر «نصيفا» أن يتبعه، ومضيا سوياً دون أن ينبسا ببنت شفة. خيم عليهما صمت ثقيل، واكتنفهما وجوم بليد. كانت الظلال حولهما تنقش شيئاً فشيئاً، والدكنة الكابية تهب مسفرة عن صروح مشيدة وحدائق معلقة، تزيّتها رؤوس أسود، ويخرّ في أطرافها الماء رقراقاً سلسبيلاً. وبان ذلك العمود الذي رأياه من الجوّ، وكان مهولاً، يكاد يلامس صفحة السماء، فخطا نحوه «الرهبان» بثبات، وغذّ السير حتّى بلغه. قال مخاطباً «نصيفا»:

انظر، يا بني، إلى هذا العمود. إنّه نهاية الحدّ، ولا متقدّم بعده، عليه كلام بجميع اللغات المكتوبة وغير المكتوبة، المنطوقة وغير المنطوقة، وهو من صنع ملوك الجانّ، بناه الملك العتيد «متوشلخ» منذ مائة ألف سنة: وهو. كما تراه، الآن. لا يتزحزح ولا يتزعزع. وقد ورثته الملكة الجنّية،

السَّيِّئَةِ المَيِّتَةِ، صاحبة العرش العتيد، والجند الفريد، والقصر المنيف
والسَّور المطيف مولاتنا «طوقاناه».

قال ذلك، وأوماً إلى «نصيف» بإشارة من يده أن يظلَّ في مكانه،
ومشى ثابت الجنان، وهو مهمهم، ويتلو كلاماً غير مفهوم، حتَّى لم يعد
بينه وبين العمود إلا شبر واحد. قَرَّب يده يتلمَّس شيئاً ما، وغزت وجهه
ابتسامة ظفر. شدَّ حوله عباءته، وشمخ برأسه يتأمَّل دائرة مضيئة في
الوسط، وصاح بلهجة لا تحتمل التراجع:
افتح، يا سمسّم!!

ارتفعت للتَّوَّ أصوات قويَّة عنيقة، وسمع «نصيف» أزيز أبواب
تفتح، وصرير مراتيج في الأقفال، وهمهمات متسائلة تنطلق من مكان
ما. بغتة، رأى تلك الحلقة المضيئة تتزحزح من مكانها، وتطقَّ بجلبة وهي
لتراجع رويدا رويدا، وتخفي دفعة واحدة.

رأى «الرَّهبان» جنديَّين بحراب على جانبي الفتحة، وتقدَّم منه شيخ
معمَّم يغرق في السَّواد، هاشاً باشاً، وبعد أن احتضنه وقبَّله في شفته،
سأله:
هل جئت بالشَّابِّ، كما اتَّفَقنا؟

أجل، يا مولانا؛ وهو هناك ينتظر الأمر بالدَّخول.

وأشار بيده إلى حيث يقف «نصيف».

ناده إذن. فمنذ سبعة أيَّام ونحن على قدم وساق نحضِّر القصر
للزَّفاف؛ ومولاتنا الملكة «طوقاناه» على أحرَّ من الجمر للقاء عريسها
الإنسي.

واختفى كما ظهر أول مرّة؛ فدعا «الرّهبان» «نصيفا» واقتفيا أثر
الرّجل المغادر في دياميس الظّلمة والسّواد... وعلى امتداد شهر كامل،
بأيّامه ولياليه، كانت تنبعث من قرار الهوّة أصوات معازف. وضحكات
وقهقهات وضرب أقدام على الأرض. وبين الفينة والأخرى، تنزّ أصوات
نصال. وتفرقع طلقات نيران في الهواء...
بعد شهر، خرج «الرّهبان» من فتحة العمود...

فانصرفت وراءه تلك الحلقة المضيئة...

ولكنّ «نصيفا» لم يخرج.

وقال «الرّهبان» لبسطام المارد:
طربي إلى مدينة السّلام.

وعندما سأله العملاق في حياء:
وأين صاحبك الذي كان رفيق طريقك؟

نظر إليه، وهو يغمز بعينه، وقال:
الغائب لا يعود... الغائب لا يعود...!!



((٤))

... كانت كلمات جدّتك الأخيرة الخبيثة. وهي تخترق دائرة السّكون في تلك الغرفة الصّغيرة الجانبيّة، على أطراف الباحة، ما تزال ترنّ في أذنيك عندما انفتحت عيناك، ورأيت تلك الوجوه الغريبة المثلّثة تخترقك بنظراتها في استغراب ودهشة. ترحزحت ببطء في مكانك كأنّك تحاول الهرب، واستعدت بالله في سرّك، وقرأت آية الكرسيّ، في مهابة وجلال، كما لم تقرأها من قبل؛ ثمّ استويت جالسا، وفركت عينيك، وفتحتهما على اتّساعهما. كنت تظنّ أنّك تحلم، وأكّد اعتقادك صدى حكاية الجدّة التي روتها لك في المنام؛ ولكن خاب أملك، وذهبت كلّ تخميناتك أدراج الرّياح، إذ طالعت نفس المشهد، ونفس الوجوه تروّزك في تساؤل، ونفس الخوف الذي أحسست به وأنت تفيق.

ارتفعت أيد كثيرة في نفس الوقت، وأماطت . بسرعة وحذق . عن الوجوه المستديرة التي لا تبيّن منها غير عيون ذنبيّة متلصّصة، عمائم باهتة كانت نهاياتها مشدودة إلى أطراف الأذان. كان عددهم لا يتجاوز الأربعين، بل كان يفوق الأربعين بقليل. قل: واحد وأربعون. وخامرك بغتة، شعور بأنّها القافلة التي طالما حلمت بها في أيّامك الأخيرة، فرقت على شفّتك الرّقيقتين أطياف ابتسامة هائمة، وتملّكك طائف ورغبة في الصّراخ، تعبيرا عن فرح طافح مفاجئ، غير أنّك تراجعت في اللّحظة الأخيرة، عندما رجّتك تلك الأصوات، وهي تدوّي في فوضى، فيرجّعها الصّدى، هنا وهناك كأنّها نواح الأموات:

قال صوت يسأل:

هل أنت إنسيّ أم جنيّ؟!

وردّد وراءه صوت آخر مستغرباً:

.من أنت أيّها الإنسان؟

وأخر:

.من أين أتيت؟!

ويعقبه صوت آخر، ثمّ آخرو آخر:

.وكيف وصلت إلى هنا، أيّها المسكين؟!

لم تستطع أن تجيب عن كلّ تلك الأسئلة في نفس الوقت، فاكثفت بنظرة بلهاء كنت تقلّها بين الوجوه. وغابت أطياف ابتسامتك على شفّتيك الكالحتين، ودخلت فرحتك السّرابية إلى قمقم العفريت وأقفلت على نفسها ونامت... تحلّقوا حولك جميعهم، وضجّوا، وقد بدأ ماء الحياة يغزو ملامحهم، وعيونهم تشعّ ببريق ذكيّ عبقريّ. ولمّا لاحظوا شرودك وحيرتك، واكتشفوا خوفك، هسّوا في وجهك وبشّوا، وصارت أسئلتهم أقلّ اتّهاماً، ونبراتهم أكثر وداً.

قال أحدهم، وهو يتقدّم نحوك، ويلطو إلى جانبك زيادة في الإيناس: نحن، كما ترى، واحد وأربعون، بين راكب وراجل؛ وتلك عيرنا وهذه الّتي تراها أمامك أحمالنا. وقد جئنا جميعنا. من بلد واحد نسينا اسمه الآن. ومنذ أن وطأت أقدامنا آخر حدّ العمار، على مفترق طرق أربع، وقد مضى علينا في هذا المتاه عشرين سنوات، بحساب أهل الدّنيا، حتّى ضيّعنا مسارنا وأضنّا الرّحيل...

ثمّ يصمت لحظة، وينكت الرّمْل المبلّل بعود في يده، ومهزّز رأسه، ثمّ يدقّق فيك النّظر، كأنّه يتذكّر شخصاً آخر له نفس ملامحك، ويقول بصوت يغلفه الحزن والذكّرى:

.أنا قائد القافلة، واسمي سبكتكين...
ويصمت مرّة أخرى، ويعلوّ صوته ضاحكا، فتكتشف سخرية مؤلمة
في نبرات صوته، وهو يقول:
.العجيب أنّ اسمي هو الشّيء الوحيد الذي بقيت أتذكّره؛ وكذلك
كلّ واحد في القافلة لا يعلم من سجّل حياته التي خلّفها وراءه إلّا
اسمه...

وأشار إلى رجل بقربه، فجاءه؛ وكأنّما أراد أن يثبت صدق ما قاله،
سأله بتوكيد:
من أيّ البلاد أنت؟!

فأجابه الرّجل وهو يشبك يديه على صدره، ويطأطئ رأسه:
لا أعلم، يا سيّدي.

ويعود رئيس القافلة فيسأله:
.أخبرني الآن، يا ولدي، كم مضى عليك من السّنين في القافلة؟
فيجيبه:
.عشر سنين، يا سيّدي.

ثمّ يلتفت إليك الرّئيس، كأنّه يستحثّك على متابعة الحديث، ويعود
ليسأل الرّجل المائل أمامه السّؤال الحاسم:
ما اسمك، يا ولدي.
اسمي تارخ، يا سيّدي.

ويومئ إليه بطرف خفيّ، فيعود أدراجه إلى مكانه، وينادي شخصا
آخر فيأتيه ويأخذ في سؤاله. دائما نفس الأسئلة. و دائما نفس الإجابة.

وعند حدّ معيّن، يتوقّف ويلتفت إليك، كأنّما يشهدك، ويطرح على
الرّجل نفس السّؤال الأخير:

. ما اسمك، يا ولدي؟

. اسمي شمعون، يا سيّدي.

ويصرفه، ويدعور جلاّ آخر: ودائما نفس السّؤال الأخير يمزّق أذنك:

. ما اسمك، يا ولدي؟

. اسمي أشعيا، يا سيّدي.

اكتملوا واحدا وأربعين؛ ولم يدع الرّئيس واحدا منهم إلّا استدعاه
وسأله. رابتك غرابة الأسماء: قسطنطين، لوقا، دانيال، يعقوب، أخنوخ...
وحاولت أن تهتدي بصدى جرسها القديم إلى أصل منبتها، فألفيت
غشاء على ذاكرتك يسدّ سيل أفكارك. أحجمت. قلت بينك وبين نفسك:
«ما دمت غير قادر على التّدكّر، فلاكتف بالنّسيان وسماع الرّئيس»،
ثمّ، بعد لحظة صمت:

. هذه قافلتني، وهؤلاء إخوتي، جمعنا التّيه؛ وكأنّما ذلك كان على

موعد...!!

التّيه...

التّيه...

التّيه...

يا ربّ السّماء...! إنّ هذه الكلمة تفرّع طيلة أذنك بإصرار؛ ورغم
الغشاء المسدل على ذاكرتك إلّا أنّها تمكّنت من الولوج، وبدأت تقرض
تلافيف دماغك المرتخية... تطلّعت نحو الرّئيس محرّجا، لاعتقادك أنّه
يراقب حركاتك، ويحصي عليك سكّاناتك، ولكن وجدته ساكنا شارد
اللبّ مشتّت النّظرات، فاستشعرت طمأنينة هادئة، ورحت تتنبّع

خيوط أفكارك المفككة. جاءتك تسعى، من كل فجٍّ وغور، ذكريات قديمة، ذكريات قديمة جدًا، وموغلة في برك النسيان، فمددت يدك، وفرشت لها راحة كفك، ورحت تضعها الواحدة تلو الأخرى، جنباً إلى جنب، وتغني لها في أسي؛ وإذ تتساقط دموعك، تمسك الحبات الصغيرة وتمسح بها رؤوسها، ثم تربت عليها، فتتمسح بك، وتبكي هي الأخرى، فيتعالى نشيجها... «وفي الشهر الأول وصلوا إلى صحراء زن». وأقاموا بقادس. هناك ماتت مريم فدفنوها... وقال: إنك لن تمر. وإذا حاولت، سوف نعدّ العدة، ونشهر في وجهك السيف... وفي الطريق، عيل صبرهم، وثاروا على الربّ وحواريه، وقالوا: لماذا خرجت بنا من مصر لنموت في المتاه، بلا طعام ولا ماء؟...» واحد وأربعون، بين راكب وراجل؛ وكلهم لا يعرفون غير أسمائهم، وقد مكثوا في هذا التيه عشر سنين، بأيامها ولياليها؛ وها أنت، بينهم الآن، واحد منهم، لا فرق بينك وبينهم، سوى أنك نسيت حتى اسمك، ولم تعد تذكر ممّا خلفته وراءك غير ما ذكرتك به. أه، ما أشدّ وطأة هذه الغربة عليك وما أكبر مصابك!

تساءلت، وقد ضجّت برأسك ذكريات المنفى البعيد، على جانب الطّور الأيمن:

هل كتب عليك التّشرد، كأولئك الذين حلّت بهم لعنة الربّ؟ وهل لزام عليك أن تقضي في التّيه أربعين من السنين؟!!

وقبل أن تعطي نفسك فرصة الإجابة، امتدّت إليك يد الرّئيس بغليون ضخم تتصاعد منه ألسنة الدّخان، وهي تضوع برائحة نفّاذة، وقال لك بحنان أبويّ إذ اكتشف مدى حزنك وأنت تهوّم في مملكة هواجسك:

خذ، يا ولدي، هذا الغليون، واسحب الدّخان إلى رنتيك بعمق؛ وستشعر بعد ذلك بخدر لذيد وتحسّن... لقد صار الغليون تسليتنا

الوحيدة في هذا المتاه، بعد أن فقدنا كل شيء حتى الذاكرة.

وتمتدّ يدك المرتجفة فتأخذ الغليون، والرئيس يحدجك بنظرة متواطئة؛ وبتشجيع منه، قرّبت الخرطوم المعقوف من شفّتك، ورحت تسحب نفساً عميقاً. اعتراك شعور غريب، هو مزيج من اللذة والإغماء والوهن، وأحسست كأنك تريد أن تطير. ثقل جفناك، فأغمضت عينيك؛ وما أن أغمضتهما حتى وجدت نفسك تحلّق عالياً فوق سبع سماوات. قلت مخاطباً الرئيس بنبرة ملؤها الامتنان:
حقاً، إنّها متعة!

حرّك يده بطريقة عفوية، تدلّ على اللامبالاة، ولفّ عباءته حول جسمه الضامر، وسوّى جذعه، وهو يستند إلى جذع نخلة بجانبه ويسألك ضاحكاً:
ألم تلاحظ، يا ولدي، أنّنا نتحدث منذ وقت طويل، ولم نتعرّف إلى بعضنا بعد... هلاً أخبرني ما اسمك.

اضطربت شفّتك بحدّة، وأردت أن تقول شيئاً، إلّا أنّك لم تجد ما تقوله. وحاولت أن تتذكّر... «لا تهتمّ المدينة الآن. ولا حاجة لي في تلك البناءات والشارع الأسفلتي ودور الحبّ والحلقات البوهيمية... فقط، أريد اسماً، ولا شيء غيره.. يا رب السّماء، هل يعقل أن ينسى الواحد اسمه؟!... بلى، بلى، إنّك أنت؛ وبطاقة هويّتك المركونة إلى زاوية الغرفة فوق تلك الطاولة المخلّعة حملتها الرّيح بعيداً، ومحا البحر آثار كلماتها الصّدنة.

خاطبك الرئيس ثانية متسائلاً في حيرة:
ماذا بك، يا ولدي. قل ما اسمك؟

فقلت، وأنت تتضاءل من الخجل والحرج معا:
المعذرة، يا سيّدي. لقد نسيت اسمي!!

شيء ما في نبرات صوتك، وملامحك الغائمة، وأنت تنطق تلك
الكلمات الثلاث الأخيرة جعلت الرئيس يحجم عن سؤالك من جديد،
ويتجنّب النّظر إلى وجهك لئلاّ تنفجر في كليكما آهات الزّمن المنسيّ،
وآلام الشّوق على أطراف المتاه... كان الرجال المثلثون. الأربعون غريبا
بعيدين عنكما، متكوّمين في شبه حلقة على منبسط من الرّمْل تحت
بضع نخلات طوال عجاف، يدخّنون وهم يرنون إلى جمالهم الباركة
حذوهم، متخفّفة من أحمالها، وتحرك أشداقها يمنة ويسرة كي تطرد
عنها شبح الرّتابة... الصّمت يكتنفكما. أنت والرئيس. ويكتنفهم هم
أيضا، كأنّ نذير الموت قد ضرب بجناحيه حولكم، وأذن لمقبرة التّيه أن
تبتلع ما عليها... لم يتوقّف المطر تماما عن الهطول، وأسياخ البرق الّتي
كانت تجلد بدوائها امتداد الصّحراء عادت إلى اللّمعان مرّة أخرى، هنا
وهناك، وكأنتها تؤذّنكم بشرّ مستطير... قصف صوت رعد واهن ضعيف
ناحية الغرب، وبدأت قطرات المطر تسقط رذاذا، حيّية، خجلى، حذرة.

انتفض الرئيس في مكانه، واعترفته رعدة خفيفة جرّاء برودة
النّسمات الّتي سبّتها نزول المطر المفاجئ، وقال بصوت خبيء ينمّ عن
حزن أليم:
أين أنت، يا قسطا؟ تعال إلى هنا.

جاءه رجل ربعة، يميل إلى الطّول، ويضع على رأسه عمامة من اللّبد
تغطّي وجهه، فلا تظهر منه سوى عينيّن متحفّزتين. وكان يرتدي سراويل
طويلة، تصل إلى كعبيه، ويلبس قفطانا قصيرا شدّه إلى حزامه بمنطقة
عريضة منمنمة ركزي في أحد جوانبها خنجرا ذا بريق.

استوى الرَّجُل في وقفته وحنى رأسه تأدِّباً دون أن ينبس؛ وبعد لحظة صمت، ابتدره الرَّئيس سائلاً:
ماذا يفعل الرَّجال هناك، إلى حدِّ الآن؟
لا شيء، يا سيِّدي...

أجابه الرَّجل، ثمَّ أضاف كأنَّه نسي شيئاً خطيراً لا يجوز نسيانه:
عفوا، سيِّدي. إنَّهم يدخَّنون.

وصمت ملياً، فالتفت الرَّئيس إليك، وعلى شفثيه ابتسامة أسيانة، وقال لك بودّ وهو ينعم فيكَ النَّظر وأنت تنفث سحاب الدِّخان من منخريك:

أَي، ولدي. إنَّه الحزن، وإنَّهم حزانى لا يعرفون متى يعودون إلى مرابعم؛ يظلُّ المتناهِ يحتوهم، ولا أمل لهم في النَّجاة، وهذا يضاعف من حزنهم... انظر إلى نفسك جيِّداً، وتأمِّلني أنا أيضاً؛ إنَّنا نحن أيضاً حزانى، نضرب في هذا الامتداد بلا هدف، ولا ذاكرة لنا لتتقاسم أمل العودة يوماً إلى مكان ما كنَّا نظنُّه بيتنا... حارتنا... حيناً... الآن، علينا أن نعتصم بالتَّسيان، يا ولدي، كي نحتمل ألم الوحدة وتيه الضِّيعاع...

قطع حديثه ريثما ملأ غليونه ونفث منه أنفاساً عميقة، ثمَّ خاطبك سائلاً:

أنت، الآن، يا ولدي، بلا اسم. ما رأيك لو نسَمِّيك وتصبح واحداً منّا، لك ما لنا وعليك ما علينا؟

كنت مقرفصاً بجانب نخلة فجلست، وكنت تدخَّن فأمسكت وحدّقت في الرَّئيس باستغراب ممزوج بدهشة، وأنت بين مصدّق ومستهجن ومكذَّب. بدت لك الفكرة طريفة ومسليّة، وفي نفس الوقت

غريبة غاية في الغرابة، إلى درجة أنك كنت تستبعد صدورها، وبالذات من شخص مثل الرئيس... ظللت صامتا، لا تحير جوابا، واضطرت إلى الشُّرد، فتنازعتك مشاعر شتى، إلا أنك قرّرت، في النهاية، بينك وبين نفسك، أن تجاربه. قلت هامسا دون أن يسمعك:

.الأفضل لي أن أكون مسمّى من أن أكون شخصا بلا اسم... وفي النهاية، إذا كان فضل هذا الاسم الوحيد أن يجعلني واحدا من القافلة فأنعم به من اسم.

تهلّلت أساربك لهذا الخاطر، فاطمأنت له، والتفت إلى الرئيس فوجدته يرمقك بعينين ساهمتين كأنّه هو الآخر قد شرد وراء حدود أفكاره بحثا عن شيء ما قد ضاع منه. قلت له سائلا، وقد عنّ لك أن تمازحه:

وماذا تنوي أن تسمّيني، يا سيّدي؟

. لا تخف، يا ولدي، فلن أسمّيك اسما من أسمائنا التي ربّما قد تراها غريبة عنك...

وصمت برهة، جذب أثناءها نفسا جديدا من غليونه، وقال سائلا:

.ما رأيك أن أسمّيك غريبا.

قلت:

.ولماذا غريب عن كلّ الأسماء؟

اقترب منك، وقال كأنّما يسرّ إليك بسرّ لا يريد لأحد غيرك أن يسمعه:

.لأنك غريب حقّا، يا ولدي. ومن يوجد في هذا المتاه هكذا صدفة، ويلتقي بقافلتنا بعد عشرين من الضيّاع لا يمكن إلا أن يكون غريبا!!

رُصِيتَ إِذْنًا بِاخْتِيَارِكَ، يَا سَيِّدِي.
قُلْتَ مُسْتَسْلِمًا.

استند عند ذلك على ركبتيه بيديه، وأشرأبَ بعنقه الضَّامِرَ إِلَى
السَّمَاءِ الْمُنْذِرَةِ بِنَذْرِ الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ رَنَّا إِلَيْكَ وَقَالَ بِأَمْرٍ:
فَكُنْ إِذْنًا غَرِيبًا!

وعندما وقف، واستدار طالعه منظر قسطنطين أمامه، فعجب لذلك
بادئ الأمر، وكاد يسأله عن سبب قدومه، إلاَّ أَنَّهُ سرعان ما تذكَّر،
فقال له مداريا نسيانه:
اسمع، يا قسطنطين، قل للرجال هناك أن ينشروا الخيام، فالعاصفة
وشيكّة، كما ترى، ولا بدَّ لنا من مأوى...

قطع كلامه صوت الرّعد، الَّذِي كَانَ يَشْتَدُّ شَيْئًا فَشِيئًا، وَيَدْوِي
مَعْلَنًا ثَوْرَتَهُ، دُونَمَا رَحْمَةً، عَلَى أَفْرَادِ الْقَافِلَةِ وَرَمَالِ الصَّحَرَاءِ الْغَافِيَةِ.
وَقَفَ الرَّئِيسُ زَمَنًا يَرِاقِبُ صَفْحَةَ السَّمَاءِ الْمَلْبَدَةِ بِالْغُيُومِ، وَهُوَ يَظَلُّ
عَيْنِيهِ بِيَدَيْهِ، وَيَتِمَّتَمُ، مِنْ حِينَ لِأَخْرَ، بِكَلَامٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ، كَأَنَّهُ يَدْعُو
أَوْ يَسْتَنْجِدُ أَوْ يَتَحَدَّى؛ ثُمَّ خَطَا خُطَوَاتٍ وَاسِعَةً سَرِيعَةً، بَعِيدًا عَنْ
الْوَاحَةِ، فِي اتِّجَاهِ مَشْرِقِ الشَّمْسِ، وَالتَفَتَ حَوَالِيهِ عَلَى عَجَلٍ، وَبَسَطَ
عِبَائَتَهُ وَخَلَعَ حِذَاءَهُ مِنْ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ يَقْرَأُ شَيْئًا بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ بِدَا لِكَ
كَأَنَّهُ تَرَانِيمٌ أَوْ تَعَاوِيزَ وَهَيْنِمَاتٍ. وَكُنْتُ تَرَاهُ، بَيْنَ فَبِنَةٍ وَأُخْرَى، يَرْكَعُ ثُمَّ
يَسْجُدُ، وَيَتَغَيَّرُ صَوْتُهُ فَيَصْبِحُ أَشْبَهَ بِالْمُنَاجَاةِ؛ وَيَطُولُ رُكُوعُهُ وَسُجُودُهُ
حَتَّى لِيَخِيلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ قَضَى؛ وَلَا يَكَادُ يَمُرُّ وَقْتُ قَصِيرٍ حَتَّى يَتَنَاهَى إِلَى
مَسْمَعِكَ، وَأَنْتَ جَالِسٌ تَحْتَ النَّخْلَةِ الْبَاسِقَةِ، نَشِيجٌ تَعْرُوهُ حَشْرَجَةٌ؛
وَيَخْفَتُ ذَلِكَ الصَّوْتُ الَّذِي انْطَلَقَ مُرْتَفِعًا إِلَى أَنْ يَنْقَطِعَ دَفْعَةً وَاحِدَةً،
وَيَحُلَّ مَحَلَّهُ هَدُوءٌ شَامِلٌ، رَصِينٌ، لَا يَقْطَعُهُ إِلَّا هَزِيمُ الرّعدِ، وَوَشْوَشَةُ

في النّاحية الأخرى من الواحة، وعلى بعد أمتار قليلة، وسط المنبسط الرّمليّ، حيث تترك الجمال وهي تحرّك أشداقها دون انقطاع، كان الرّجال منهمكين في فكّ الأحمال؛ يعالجون الحبال المربوطة أوّلا، ثمّ يلقونها جانبا، ويشرعون في بسط فرش كبيرة من اللّيف، باهتة الألوان؛ ويأخذون الخيام فينشرونها. كانت الأوتاد تدقّ، والأصوات تعلو بالنّداء، والأيدي لا تكفّ لحظة واحدة عن الحركة؛ وقد جاء الرّئيس وأخذ هو الآخر في مساعدة الرّجال:

هاتوا الحبال...

ابتعدوا قليلا عن مستنقع الماء هناك...

ارفعوا الخيام الآن...

عندما هزم الرّعد من جديد، وبدأ المطر ينزل بغزارة، والأفق يتّشح برداء ظلمة كابية، كان كلّ شيء على ما يرام، والخيام قد استوت منازل يحوطها النّخيل من كلّ مكان، وأفراد القافلة. وأنت الآن منهم. يتحلّقون حول الرّئيس وقد علت سحائب الدّخان فوق رؤوسهم، وهم يمسون بغلايينهم... كانوا صامتين، ووجوههم الّتي أسفرت أخيرا مشدودة إلى الخارج، تتشرب برودة النّسمات، وتنظر إلى ائتلاق حبات المطر على صفحة الرّمْل؛ وكانوا يدخّنون دون انقطاع: يأخذ الواحد منهم خرطوم الغليون ويضعه بين شفّتيه، ويجذب الدّخان إلى صدره ويخترنه حيناً في رثّيته، ثمّ يطلقه. مغمض العينين. فيشكّل الدّخان سحائب ودوائر كبيرة، تتجمّع، وتتكاثف كأنّها أشباح، وتشعر في الصّعود إلى أعلى، وتأخذ في التّلاشي شيئا فشيئا، إلى أن تختفي تماما... اضطرب الرّئيس في مكانه، ورفع يده أمام وجهه كأنّه يطرد بقايا طيف مؤرّق، ثمّ شمل المكان بنظرة عجلّ. كانت تبدو عليه آثار الحيرة، وكأنّه يتوقّع شرا ما.

وكانت عيناه تلويبان، دون توقّف، كما لو كانتا بندولا، وتنتقلان، كعيني
ذئب هرم، من مكان إلى مكان.

قال محاولا تهدئة نفسه، وطرّد مخاوفه التي يبدو أنّها انتابته فجأة:
. هات، يا بنوقيا، ما عندك!

فأجابه رجل دميم أعور:
. وماذا يريد أن يسمع سيدي؟
. أي شيء. قال بنبرة يشوبها نزق وحزن.

استوى الرجل في جلسته، وترجّع، وقال ملتفتا نحو الرئيس:
. حبّا وكرامة...

«اعلم، يا سيدي، أنّه يحكى أنّه في زمن أحد الملوك رجل بأرض
مصر، وكان جزّارا، وكانت امرأة تأتيه كلّ يوم بديناريقارب وزنه دينارين
ونصف من الدنانير المصريّة وتقول له أعطني خروفا وتحضر معها
حمّالا بقفص فيأخذ منها الدّينار ويعطيها خروفا فيحمله الحمال
وتأخذه وتروح به إلى مكانها، وفي ثاني يوم وقت الضّحى تأتي، وكان ذلك
الجزّار يكتسب منها كلّ يوم دينارا، وأقامت مدّة طويلة على ذلك...»

صمت لحظة. جذب نفسا من غليونه، وتطلّع إلى الرئيس فوجده
منصتا، وطيف ابتسامة يعلو محيّاها. قال مواصلا:
«فتفكرّ الجزّار ذات يوم في أمرها وقال في نفسه: هذه المرأة كلّ
يوم تشتري منّي بدينار ولم تغلط يوما واحدا وتشتري بدراهم فهذا أمر
عجيب. ثمّ إنّّه سأل الحمال في غيبة المرأة فقال له: أنا في غاية العجب
منها فإنّها كلّ يوم تحمّلي الخروف من عندك وتشتري حوائج الطّعام
والفاكهة والسّمع والنّقل بدينار آخر وتأخذ من شخص نصرانيّ مروتين

نبذ وتعطيه دينارا وتحملني الجميع وأسير معها إلى بساتين الوزير، ثم تعصب عيني بحيث أنني لا أنظر إلى موضع من الأرض أخط فيه قدمي وتأخذ بيدي فما أعرف أين تذهب بي ثم تقول حط هنا وعندها قفص آخر فتعطيني الفارغ ثم تمسك يدي وتعود بي إلى الموضع الذي شدت عيني فيه بالعصابة فتحلبها وتعطيني عشرة دراهم...»

كان أفراد القافلة يحدّقون فيه، وأمارات الاهتمام بادية على وجوههم، وكان الرئيس أيضا منصتا، وقد زابلت حيرته وبدأت ملامحه تكتسي تألّفا وبشاشة. أمّا أنت، وقد أصبحت مسمّى الآن، فقد بدت لك خيوط الحكاية مألوفة، بل إنك أقسمت جازما، بينك وبين نفسك، أنك تعرفها؛ غير أنك، كما في كلّ مرّة، تصاب برجفة، وتتطلّع إلى الهوة، فيشلك دوار الرّهبة والرّعب. تساءلت: «أين سمعت هذه الحكاية؟ أين قراتها؟ أين...؟ أين...؟»

«فقال له الجزار: كان الله في عونها، ولكن ازداد فكرا في أمرها وكثرت عنده الوسوس، وبات في قلق عظيم، ثم قال الجزار: فلمّا أصبحت أتني على العادة وأعطيتي الدّينار وأخذت الخروف وحملتة للحمال وراحت فأوصيت صبيّي على الدّكان وتبعتها بحيث لا تراني، ولم أزل أعاينها إلى أن خرجت من مصر وأنا أنوارى خلفها حتّى وصلت إلى بساتين الوزير فاخفيت حتّى عصبت عيني الحمال وتبعتها من مكان إلى مكان، إلى أن أتت الجبل، فوصلت إلى مكان فيه حجر كبير وحتّ القفص عن الحمال فصبرت إلى أن عادت بالحمال، ورجعت ونزعت جميع ما كان في القفص وغابت ساعة، فأتيبت إلى ذلك الحجر فزحزحته ودخلت، فوجدت خلفه طابقا من نحاس مفتوحا ودرجا نازلة، فنزلت في تلك الدّرج قليلا قليلا، حتّى وصلت إلى دهليز طويل كثير النّور، فمشيت فيه حتّى رأيت هيئته باب قاعة، فارتكنت في زوايا الباب فوجدت صفة بها سلالم خارج باب القاعة فتعلّقت فيها، فوجدت صفة صغيرة بها طاقة

تشرف على قاعة، فنظرت في القاعة، فوجدت...»

وجم فجأة كأنّ خرّسا أصابه، وتطلّع إلى أصحابه من طرف خفيّ، فوجدهم مشرّيين نحوه بأفواه فاغرة وعيون مشدوّهة. ابتسم في سرّه، وقد بدأ يشعر بخطورة مكانته، وراح يشفط الدخان من غليونه على مهل متجاهلا كلّ شيء حوله.

سأل رجل:
.هيه، ماذا وجد الجزّار؟
وقال آخريّسألّه محتجّا:
.لماذا سكّت، يا بنوقيا؟

ولكنّ الرّئيس استوقف الجميع بإشارة من يده، ومال قليلا إلى الأمام، وشدّ عباءته حول جسمه، ثمّ قال مخاطبا بنوقيا:
.هيا، يا صاحبنا، أكمل. قل ماذا وجد الجزّار في القاعة؟
«... فوجدت المرأة قد أخذت الخروف وقطعت منه أطايبه وعملتّه في قدر ورمّت الباقي قدّام دبّ كبير عظيم الخلقة فأكله على آخره وهي تطبخ. فلما فرغت أكلت كفايتها ووضعت الفاكهة والنّقل وحقّطت التّبيز وصارت تشرب بقدر وتسقي الدبّ بطاسة من ذهب حتّى حصل لها نشوة السّكر، فزعت ثيابها ونامت فقام الدبّ وواقعها...»
علت همهمات وسط الخيمة ما فتئت أن تحوّل إلى أصوات احتجاج واستهجان. قال قسطا محتدّا:
.يا لها من امرأة فاجرة! فلتحلّ بها لعنة الرّبّ!

وتشجّع دانيال بكلامه، وكان يجلس بجانبه، صامتا طوال الوقت، يدخّن غليونه وينفث الدخان، قال متسائلا:

. ما هذه اللعنة؟ هل خلت الدّنيا من الرّجال فتواقع دبا؟! لو كنت ذلك الجزّار لقتلت الدبّ وسفكت دمها.

ضحك بنوقيا عاليا، ثمّ التفت إليه قائلاً:
لو انتظرت قليلاً، لعلمت بما فعله الجزّار.
واشرأب الرّئيس بعنقه نحو الزاوي، وقد بدأت عيناه تشعّ بنور غريب، وقال:
احك، يا بنوقيا...

ثمّ موجّها كلامه إلى الرّجال داخل الخيمة:
دعونا من هذا الهراء، يا جماعة. إنّها مجرد حكاية، وهي خير من الصّمّت على كلّ حال.

نفث بنوقيا دخان غليونه، وقال مواصلاً:
«... وواقعها وهي تعاطيه أحسن ما يكون لبني آدم حتّى فرغ وجلس، ثمّ وثب إليها وواقعها ولمّا فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتّى فعل ذلك عشر مرّات، ثمّ وقع كلّ منهما مغشياً عليه وصاراً لا يتحرّكان. فقلت في نفسي هذا وقت انتهاز الفرصة، فنزلت ومعي سكّين تبري العظم قبل اللحم. فلمّا صرت عندهما وجدتهما لا يتحرّك فيهما عرق لما حصل لهما من المشقة فجعلت السكّين في منجر الدبّ واتكأت عليه حتّى خلصته وعزلت رأسه عن بدنه، فصار له شخير عظيم مثل شخير الرّعد، فانتبهت المرأة مرعوبة فلمّا رأت الدبّ مذبوحاً وأنا واقف والسكّين في يدي زعقت زعقة عظيمة حتّى ظننت أنّ روحها قد خرجت وقالت لي: يا جزّار، أ يكون هذا جزاء الإحسان؟ فقلت لها: يا عدوّ نفسك، هل عدمت الرّجال حتّى تفعلّي الفعل الدّميم؟ فأطرقت رأسها إلى الأرض لا تردّ جواباً وتأمّلت الدبّ وقد نزعت رأسه عن جثته، وهجمت عليّ ورمتني أرضاً وهي ما تزال عارية كحوّاء عند الخطيئة. وقبّلتني وهي تضغط على رأسي بين يديها، وشبكت رجلها حول وسطي وراحت تننّ

وتنشج، وتصدر أصواتا تتقطع لها نياط القلوب. ولما بلغت نشوتها ذروتها، مزقت جلابيبي بأظافرها، وانقضت بيديها المتوحشتين على ما بين فخذي، وقربت فمها فابتلعتة... عندها هدأت ثورتها، ارتمت بجاني، وقالت وهي تشبك أصابعها في غابة الشعر على صدري: قتلت زوجي، يا جزّار، وقد غفرت لك. فكن أنت زوجي إلى الأبد...!!»

في تلك الليلة، نام أفراد القافلة وهم يحلمون... كانت «ليلى» تروح وتغدو، تغنج وتثثني، ثم تبتعد وتختفي وراء أشجار الغابة الكثيفة، فيتحسّرون ويبكون، ثم يملأون غلايينهم ويختفون وراء حلقات الدخان. وكنت طوال الوقت تنظر إلى حبات المطر تتساقط في الخارج، وتنعم النظرفيها كأنك تتشرّبها. وفجأة، ثقل جفناك، فنمت.

كان الرمل تحتك يبرد.

والمتاه يقترب منك.

والمدى ما عاد عملاقا.

إنه يراقص أمام ناظريك.

تحوطه هالة الجبال الضاحكة.

والليل المسافر...!!

.انتهت.



.الجزء الثّاني.
((سيرة الغائب))

((١))

سَيِّدَاتِي،
أَوَانِسِي،
سَادَاتِي،

أَجْزَمُ أَنْكُمْ لَا تَعْرِفُونَنِي، كَمَا أَنِّي مُتَأَكِّدُ أَنْكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا بِاسْمِي
مِنْ قَبْلِ، وَلَا قَرَأْتُمْ عَنِّي فِي كُتُبِ التَّارِيخِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَحْتَفِظُونَ بِهَا فِي
أَمَاكِنِ ضَيْقَةٍ مِنْ بَيْوتِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهَا السَّوْسُ، فَتَمَّحِي حُرُوفَهَا
وَتَصْبِحَ عَدِيمَةُ الْجَدْوَى. وَلَكِنْ أُرِيدُ. سَادَاتِي الْكَرَامُ. (وَاعْذِرُونِي عَلَى
تَطْفُلِي) أَنْ أَلْفَتُ انْتِبَاهَكُمْ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةَ عَمَّا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ
فِي الْبَدَايَةِ، وَهُوَ أَنَّ كُتُبَ التَّارِيخِ نَفْسَهَا. كُتُبُ تَارِيخِكُمْ أَنْتُمْ وَكُتُبُ تَارِيخِ
أَجْدَادِكُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ. نَسِيتُ اسْمِي، فَضَرِبْتُ عَنْهُ صَفْحًا،
وَصَرْتُ لَذَلِكَ نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وَطَوَانِي النَّسِيَانُ... هَلْ اقْتَنَعْتُمْ الْآنَ أَنْكُمْ
لَا تَعْرِفُونَنِي، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَعْرِفُونِي مَا لَمْ أَعْرِفْكُمْ إِلَى نَفْسِي؟...
إِنِّي، رَغْمًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. (تَجَاهَلُ التَّارِيخَ الَّذِي لَا يَرْحَمُ السَّوْقَةَ أَمْثَالِي،
وَتَجَبَّرَ الْقَادَةُ الَّذِينَ لَا يَهْمُهُمْ مِنَ الْجُنُودِ سِوَى أَنَّهُمْ جُنُودٌ خَلَقُوا لِيَحْمُوا
ظُهُورَهُمْ، وَعَدَوَانِيَّةَ الْمَوْتِ... أَجَلَ عَدَوَانِيَّةِ الْمَوْتِ؛ وَإِنِّي أَقُولُ هَذَا دُونَ
خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ لَأَنِّي، وَبَعْدَ أَنْ مِتَّ وَشَبِعْتَ مَوْتًا، قَادَتْنِي مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ
إِلَى أَقْصَى تَخُومِ الْجَنَّةِ، وَأَسْكَنْتَنِي بَيْتًا مُتَوَاضِعًا (لَا، إِنَّهُ لَيْسَ قَصْرًا
مُتَوَاضِعًا!!) فِي الْأَطْرَافِ، وَذَلِكَ بِأَمْرِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمْ أَعُدْ لَذَلِكَ
أَخَافُ عَلَى نَفْسِي مَغْبَةَ السَّقُوطِ فِي هَاوِيَةِ الْجَحِيمِ... هَلْ تَعْلَمُونَ .
سَادَاتِي السَّادَةُ الذَّادَةُ. لِمَاذَا أَدْخَلَنِي الرَّبُّ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْمُتَوَاضِعَ فِي أَطْرَافِ
الْجَنَّةِ؟! لَأَنِّي، وَبِكُلِّ بَسَاطَةٍ. وَهَذَا مَا قَرَأْتُهُ فِي اللَّوْحِ الَّذِي تَسَلَّمْتَهُ يَوْمَ

الحساب بشمالي (عفوا بيميني) .. لأنني لست ثرثارا، ولا أحبّ النّميّة،
وفوق ذلك كلّهُ، كنت صموتا قليل الكلام... أرجع مرّة أخرى، فأعتذر
. سيّداتي، أوانسي، سادتي . عن هذا الاستطراد الّذي قد لا يكون له
ما يبرّره لديكم: فأقول من جديد إنّهُ رغما عن كلّ ما ذكرت لم أياس
تماما، وتراءى لي، ذات عشيّ، وأنا متمدّد على جلد خشن حرمني النّوم
في ذلك البيت المتواضع على أطراف الجنّة، أنّ الرّواة قد غمطوني حقّا
كثيرا. قلت في نفسي: ما دام حظّي في الآخرة قليلا، وليس كما أملت، فلا
أقلّ من أن أرفع قضيّة ردّ اعتبار أمامكم . سيّداتي، أوانسي، سادتي . ولا
شكّ أنّي سأكسبها، وعلنا، رغم أنف صفاقة التّاريخ...!!!



أنا (وبالله العوذ من هكذا كلمة) .يا سادتي .أدعى علاقة بن أشرم السكسي . قومي السكاسك، نشأت بحماه، وولدت بالحجاز، وموطني أرض السّواد. أبي .رحمه الله .تزوَّج شابًا وهو لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره، واسمه الَّذي سمّاه به جدِّي عند مولده صابئ؛ وسبب تسميته أشرم وغلبة هذا الاسم عليه، حتّى لم يعد النّاس يعرفون له اسما غيره، هو أنّه، وكما حدّثني على لسانه فور احتلامي وبلوغي سنّ الرشد:

«كنت صغيرا آنذاك، لم أنطق كلماتي الأولى بعد، ولا أستطيع المشي إلّا مستندا إلى الجدار، الَّذي لم أهدمه إلى حدّ الآن رغم أنّي أعدت بناء البيت من اللّبن والخشب. وفي يوم من الأيام، وبينما كنت نائما على بساط صغير وسط باحة الدّار، والشّمس تلهب ظهر الأرض دون رحمة، أحسست بوخزة في أنفي. فظننتها لسعة نحلة أو دبّور. رفعت يدي اليمنى، وحككت موضع اللّسعة بظفري، ولكنّ الألم ظلّ يشتدّ كلّما حككت، بل إنّهُ بدأ يتنقّل رويدا رويدا من مكان إلى مكان، فأشعر به مرّة في حنكي، ومرّة في كتفي، وثالثة في عضدي... قمت من فراشي مرتاعا، وفتحت عينيّ على اتّساعهما، فرأيت بقربي ثعبانا ضخما، كالوتد أو الطّود، فلم أتمالك نفسي وصححت صيحة اهتزّت لها أركان البيت. جاءت أمّي. وجاء إخوتي، ثمّ جاء أبي بعدهم، وسألوني: ما بك؟ قل ما بك؟

فأشرت بيد مرتجفة إلى الثّعبان الَّذي كان يزحف مغادرا باب الحوش... صوّتت أمّي وبكت أخواتي؛ ولكنّ أبي هرول إلى غرفة قريبة،

وعاد حاملا سكيننا لها بريق مخيف؛ وبعد تردّد دام لحظات أمسك أنفي بين أصابعه، وجده قائلا والدّموع تنهمر على خديه:
. يعلم الله كم أحبّك، يا بنيّ، غير أنّه لا مردّ لقضائه؛ وذهاب أنفك أحبّ إليّ من ذهاب روحك!!

ومنذ ذلك الوقت، صار النّاس كلّما رأوني نادوني «أشرم» فذهبت اسما لي؛ ولم يعد أحد يناديني «صابتا» حتّى أنّي. أنا نفسي. كنت أخطئ في بعض الأحيان، فعندما أسأل: من أنت؟ أقول: «أشرم».

هذه . سيّداتي، أنساتي، سادتي . الحكاية كما رواها لي أبي، لم أزد عليها حرفا ولم أنقص منها حرفا واحدا؛ وإذ أحدثكم بها على لسانه فلكي تعلموا أنّي لست لقيطا ولا منبئا، وقد ظلمني التّاريخ كثيرا عندما قيّدني في عداد المفقودين غداة المعركة الّتي قتل فيها مصعب بن الزّبير المختار بن عبيد على أسوار الكوفة؛ ولكن مهلا، يجب عليّ أن لا أسبق الأحداث حتّى لا تختلط الأمور عليكم.

أنا . سادتي السّادة الدّادة .. وكما لا شكّ أنكم لاحظتم، لست ثرثارا البتّة...

بعد ذلك الحادث بستّة عشر عاما، أي بعدما بلغ والدي التّاسعة عشرة، ولاحظ جدّي أنّه بدأ ينمو، ويتطلّع إلى بنات الحيّ بنظرات ملوّهة الوجد والشّهوة، قرّر أن يزوّجه، وأكّد عزمه أنّ جدّتي جاءت يومها، وهو يسبح كعادته، ويتلو أوراده، على ذات البساط الّذي ورثته عنه بعد خمسة وثلاثين عاما، وقالت له، وقد بدا عليها الاضطراب والتّردّد:
. إنّني أريد أن أقول لك شيئا، ولا أعرف كيف أبدا.
قال لها جدّي وقد أسقط ثلاث حبّات من مسبحته من أثر المفاجأة:

خيرا، إن شاء الله، يا امرأة. ابدي من حيث شئت، ولكن عجلي.
جلست جدتي قبالتها على حصير متآكل، واشترأت نحوه بعنقها
المتجعد، وقالت:

أشرم ابنك، يا شيخ!

ما له، يا امرأة. قولي ما له، لقد أخفتني؟

قال جدّي وقد أسقط ثلاث حبات أخرى من مسبحته.

أجابت جدتي وهي تضطرب في مكانها:

البارحة عندما كنت في صحن الدار أصلي، وكنت أنت في المسجد

تصلي العتمة، سمعت صوتا مخنوقا، ينبعث من غرفة ابننا أشرم،

فهرعت إليه وأنا أكاد أموت فرقا، وعندما اقتربت من فراشه وجدته

يهذي، والعرق يتصبّب أنهارا على جبينه...

قال جدّي مقاطعا:

لعله كان محموما؟

لا... لا... لم يكن كذلك. بل كان مولها مغرما!!

سأل جدّي مستغربا:

مولها! بمن؟ قولي، يا امرأة.

نظرت إليه جدتي بإمعان، وظلّت صامتة برهة، كأنما تريد تعذيبه،

وقالت هامسة:

ابنك الأشرم يريد التيماء بنت عدي الليثية.

لم يكد جدّي يسمع الاسم حتّى نطّ من مكانه كالملسوع أو من به

مسّ، ورفع يديه وهو يقول عاليا:

أنعم بهذا النسب وأكرم لوتّم...

ومضت ثلاثة أيام... وقبل ظهر اليوم الرابع، ذهب جدّي وجدتي إلى

دار التيماء، فخطبها إلى ابيا الذي قال أمام الجميع:

وهل أنا واجد لابنتي كابنتك الأشرم شاباً كريم المحتد شريف الأرومة.

... إذن، تزوّج والدي الأشرم بن عبد ودّ السّكسكيّ التّيماء بنت عديّ اللّيثيّة يوم الجمعة لستّ بقين من شهر المحرمّ سنة ستّ وأربعين، ودفع جدّي مهراً لبيت العروس . كما حدّثني قريب لنا كان يتردّد كثيراً على والد والدي فلا يخفي عنه شيئاً، حتّى أكثر خواطره قرباً من نفسه . ثمانمائة ألف دينار ذهباً، وألف ألف درهم من الفضّة الخالصة، وخمسة وخمسين مكيالاً من اللؤلؤ، وثمانين مكيالاً أخرى بين درّ وياقوت وزبرجد ومرجان وزمرد، وهو دجا ضخماً أشبه ما يكون بالقبّة، صنع بلاد فارس، أسدلت على جوانبه ستائر من الخزّ والدّيباج والدّمقس، ورصّعت ذوائبه بالحجارة الكريمة، حجم الواحدة منها قدر بيضة الحمام؛ كما أرسل جدّي أيضاً إلى عديّ بن اللّيث عشرين صندوقاً ملئت خلعا سنّية لا تليق إلاّ بالأمرأ وأصحاب الجاه والمراتب، وإلى أمّ التّيماء وشاحاً هندياً، وعطوراً وطيباً، جلبت كلّها من سرنديب على متن سفن كثيرة الأشرعة والقلوع. أمّا مؤخّر الصّدّاق فخياليّ، يجلّ عن الوصف والتّصديق، كما أخبرني بذلك قريب العائلة وصديق جدّي الحميم؛ وعندما سألته:

ما قدره؟

أغمض عينيه كأنّما يتذكّر الرّقم كاملاً، وأجاب بفخامة كما لو كان يقرأ من دفتر:

ألف ألف دينار وخمسون ألف دينار ذهباً، لا تنقص شيئاً

و...

وحكّ أرنبة أنفه بسبّابته، وهو ينظر إليّ شزراً. وسادت فترة صمت بيننا حتّى ظننت أنّه لن يصل ما انقطع من حديثه أبداً، فلم أعد أطيع صبراً، وقلت أسأله متلهّفاً:

و... ماذا؟

حدجني بنظرات قاسية. رفع رأسه. خفضه، ثم رفعه ثانية، وقال ببساطة:

أعلم أنك لن تصدّقي، ولكنّي سأخبرك.

قل إذن.

إنّه خاتم صغير من النّحاس.

رددت متعجّبا:

خاتم... صغير... من... النّحاس!!

وأغربت في الضّحك، وكدت أستلقي على ظهري؛ غير أنّه لم يكثر كثيرا، وقال مؤكّدا:

كنت أعلم ذلك... أنا أيضا لم أصدّق عندما أخبرني جدّك بالأمر؛

وهو فعلا شيء صعب تصديقه، ولكنّه أكّد لي بما لا يقبل مجالا للشكّ

أنّ ذلك الخاتم غير عاديّ...

قاطعته مازحا:

وماذا يعني ذلك؟ هل يكون خاتم نبيّ الله سليمان؟!

وكيف عرفت ذلك؟

سألني وأمارات الدهشة بادية في عينيه.

إنّني أمزح.

قلت ببراءة.

ولكنّه فعلا خاتم نبيّ الله سليمان. أمّا كيف وصل إليه، فإنّ جدّك

رحمه الله، مات وهو على وشك إخباري بسرّ ذلك.

ظللت بعد ذلك الحديث مشوّش الذّهن، مشتّت الفؤاد، لا أنام اللّيل، ولا أهدأ بالنّهار، كأنّ الجنّ تلبّستني ولا تريد أن تعتقني. بدت لي كلمات ذلك الرّجل، وهو يتحدّث عن الخاتم، غاية في الغرابة: بل هي أغرب ما سمعت في حياتي... هل يعقل أن يحصل جدّي، من بين جميع النّاس، في مشارق الأرض ومغاربها على الخاتم؟ ألا يحتمل أن

يكون هناك خطأ ما؟ والأهم من كل ذلك، كيف ينجو ذلك الخاتم من التلف وقد أتت عليه دهور لا يحصي عددها إلا الله... احترت كثيرا، وامتنعت أياما عدّة عن الطّعام، فكنت أكتفي ببعض الماء، عند مغرب كلّ شمس وشروقها، حتّى هدّني الضّعف والهزال... وكنت كلّما قرّرت أن أنسى الأمر، وعزمت على نفسي عزمة لا رجوع فيها، وجدّني أفكر فيه دون وعي منّي.

جاءني، ذات مرّة، طيف في منامي، وقال لي وقد ارتسمت على شفّتيه ظلال ابتسامة:
احضريّة!
وما برّة؟!
سألته. ولكنّه اختفى.

وجاءني ثاني يوم، وقد برّح بي التعب والتّوجّس والرّهبة، وحدّق فيّ مليّا، وقال وقد تحوّلت ابتسامته إلى ضحكة هادئة:
احضري المضمونة!
وما المضمونة؟!

سألته فزعا، ولكنّه انصرف مسرعا لا يلوي على شيء.
وجاءني ثالث يوم وقد أشفيت على الجنون، وقال مقهقها:
احضري زمزم!
سألته:
وما زمزم، يا عبد الله؟
قال الطّيف بصوت رقيق مؤنس، فارقت غرابته ووحشته السّابقتين، ومازجته سخرية ورحمة:
لا تنزع ولا تدمّ، تجد عندها السرّ الأعظم، وهي في حقّ أعصم، عند

فتحة البئر الأعظم.

وغاب بلا رجعة.

قمت في الصّباح مبكرا، مع صياح ديكة الحيّ، فحملت المعول والرّفش وذهبت إلى حيث البئر وسط باحة الدّار، وأخذت أحفر. لم أجد في البداية شيئا، فواصلت الحفر؛ وحفرت... وحفرت حتّى كلّ ساعداي. وفجأة، ارتطم المعول بشيء صلب، فانحنيت، وإذا أنا بحقّ كبير لم أتبيّنّه جيّدا نظرا لكثافة الظّلمة الّتي كانت تغطّي كلّ شيء من حولي. صعدت من جديد إلى السّطح، وهرولت نحو غرفتي، فأضأت النّور وفتحت الحقّ... بهتّ... لم يكن هناك شيء ذو بال داخله... لا مال ولا ذهب، ولكن وريقات عليها كلمات لا تكاد تبين، كتبت بجبر أصفر باهت... دققت النّظر جيّدا وتأملت الوريقات ثانيا وثالثا... وسادسا. هل تعرفون ماذا وجدت؟! لقد وجدت جدّي هناك، وقد علت ملامحه ابتسامة كبيرة متحدّية.

سيّداتي،

أوانسي،

سادتي،

هل تعرفون جدّي؟ أنتم قطعاً لا تعرفونه؛ وأنا كذلك لم أكن أعرفه قبل أن أحصل على تلك الوريقات داخل البئر وسط باحة دارنا... اسمعوا إذن...

كتب جدّي، بخطّ يده، يقول:

«الكوفة، لتسع ليال خلون من رجب سنة عشرين...

قد يكون ما سأكتبه شيئا لا يصدّق، أو شيئا مستحيلا؛ وقد يتلف ولا يقرأه أحد، لأنّي سأطمره داخل البئر ولن أطلع عليه أيّ أحد، حتّى لا

أَتَمُّهُمْ فِي عَرْضِي وَشَرَفِي...

إِنَّ حِكَايَتِي الَّتِي سَأَكْتُبُهَا عَلَى وَرِيقَاتٍ مِنَ الْبَرْدِيِّ، وَبِحَبْرِ أَصْفَرٍ يُشَبِّهُ ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ الْقُرَّاءُ فِي جَامِعِ الْكُوفَةِ الْكَبِيرِ، أَجِدُهَا غَرِيبَةً قَبْلَ أَنْ أَكْتُبَهَا، وَوَجَدْتُهَا غَرِيبَةً بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُهَا، وَقَرَأْتُهَا مَرَارًا وَأَنَا فِي غُرْفَتِي الَّتِي أَغْلَقْتُ بِابِهَا بِالْمِفْتَاحِ، وَقَدْ أَجِدُهَا غَرِيبَةً إِذَا أَمَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِي، وَشَارَفَتْ مَدَاخِلَ الْخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، كَمَا هُوَ شَأْنُ أَجْدَادِ أَجْدَادِي الْعِظَامِ الَّذِينَ رَأَوْا . تَبَاعَا . بَوَابَةَ أُورُشَلِيمَ وَهُمْ بِظَاهِرِ مَكَّةَ، وَأُطْلِعُهُمُ اللَّهَ عَلَى سِرِّ الطُّوفَانِ، وَوَرَثَتِهِمْ بَعْضًا مِنْ خَشَبِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

... اَعْلَمُوا أَنَّ اسْمِي هُوَ أَفْرِيدُونُ بْنُ أَثْفِيانَ بَرَكَاوَمَنْوَشْهَرَكِيَاذِيَهْ بْنِ مَنْشَخُورَرِّ بْنِ مَنْشَخُوَارِغَ بْنِ وَبِرَكْ بْنِ سَرُوشْنَكْ بْنِ أَبُوكْ بْنِ بَتَكْ بْنِ فَرَزْشَكْ بْنِ زَشَكْ بْنِ فَرَكُوزَكْ بْنِ كُوزَكْ بْنِ أَيْرِجْ بْنِ أَفْرِيدُونُ بْنُ أَثْفِيانَ بَرَكَاوُ؛ وَلَقَدْ وَطِئْتُ ابْنَةَ لَابْنِي أَيْرِجَ، يُقَالُ لَهَا كُوشَكْ، فَوُلِدَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا فَرَكُوشَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ فَرَكُوشَكْ هَذِهِ فَوُلِدَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا زُوشَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ زُوشَكْ هَذِهِ، فَوُلِدَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا فَرَزُوشَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ فَرَزُوشَكْ هَذِهِ فَوُلِدَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا بَيْتَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ بَيْتَكْ هَذِهِ فَوُلِدَتْ لِي جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا أَيْرَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ أَيْرَكْ فَوُلِدَتْ لِي أَيْرَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ أَيْرَكْ فَوُلِدَتْ لِي وَبِرَكْ، ثُمَّ وَطِئْتُ وَبِرَكْ فَوُلِدَتْ لِي مَنْشَخُورَفَاغٌ... وَقَدْ وَلِدْتُ بِالرِّيِّ، بَعْدَ أَنْ مَضَى أَلْفُ سَنَةٍ وَتِسْعِمِائَةٍ سَنَةٍ وَاثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ سَنَةً، مِنْ عَهْدِ جِيُومَرْتِ، وَتَوَجَّتْ بِتَاجِ الْمَلِكِ وَعَمْرِي سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ عَامًا. كُلُّ ذَلِكَ وَالنَّاسُ بِالْكُوفَةِ لَا يَعْرِفُونَنِي إِلَّا بِاسْمِ عَبْدِ وَدٍّ، وَأَنَّ ابْنِي الْأَشْرَمَ، وَزَوْجَتِي مَلِيكَةَ بِنْتَ مَصَادِ الرَّافِعِيَّةِ؛ وَقَدْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ سِرِّي، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى جَلِيَّةِ أَمْرِي مَعَ يَرْفَعٍ... كَانَ يَرْفَعُ جَنِيًّا شَدِيدًا صَلِيبًا مُوَكَّلًا بِحِرَاسَةِ الْبَحَارِ السَّبْعَةِ، وَالْجَزَائِرِ السَّبْعِ، وَالْمَحِيطَاتِ السَّبْعَةِ، وَكُلَّ ذَاتِ لِسَانٍ وَبَنَانٍ، وَذَاتَ قَدِّ

واعتدال، وذات رجل وزعنفه، وخفّ وحافر؛ وقد تعرّفت إليه فجأة، ولم أكن أظنّ، في يوم من الأيام، أنّه سيحصل لي شرف التّعرّف إليه. قد تكذبوني، وتساءلون ساخرين كيف أمكن لإنسيّ أن يفتحم عالم الجنّ؟ وهل يوجد، حقّا، جنّ يعيشون بين ظهرانينا؟ وإن وجدوا، فلماذا لا نراهم؟ مهلاً... مهلاً... لا تتعجّلوا، فقد آليت على نفسي أن أخبركم بكلّ الحكاية. اعلّموا إذن أنّه كان في دارنا بالكوفة ركام من الأشياء الّتي لم يعد لنا بها حاجة، وقد وضعت في أكياس من اللّيف، وركنت في زاوية من الباحة الفسيحة الّتي تفتح على شارع الحيّ تماماً؛ وقبل زواحي بشهر، رحت أجمع تلك الأكياس لأتخلّص منها إمّا حرقاً بالنّار أو رمياً في جوف دجلة. وبينما أنا كذلك إذ سقط من يدي كيس وانتثر كلّ ما فيه من ثياب قديمة، وأوراق، وكتب، و... فجأة، جذب اهتمامي شيء غريب لم أعره انتباهها بادئ الأمر، لقدمه وصغر حجمه، وكذلك بقع الصّدأ الّتي كانت تغطّيه. حملته بين يديّ ورحت أتأمّله متعجّباً، وقد عادت بي الذاكرة سنين إلى الوراء. قلت:

إنّه مصباح قديم... قديم جدّاً.

وقرّرت أن أحفظ به للذكرى!!

ومضى يوم.

وتلاه يوم آخر.

وآخر.

وآخر، إلى أن اكتمل شهر قمريّ. عندئذ، أعدّ أهلي كلّ لوازم الرّفاف، وبنيت بمليكة بنت مصاد الرافعيّة؛ وبمرور الأيام وتداول الحدّثان، بدأت زوجتي تعتاد الحياة بالمنزل شيئاً فشيئاً، فتنقل هنا وهناك، لا تكلّ ولا تملّ كأنّها نحلة أو نملة تجمع مؤونة الشّتاء؛ ولا تجد شيئاً ذا بال إلّا حملته إلى غرفة النّوم قائلة كلّما سألتها عن سبب ذلك: «إنّه فآل حسن أن نضع الأشياء الجديدة في الأماكن الّتي نحبّ.» وعندما سألتها مرّة، وقد وجدت المصباح يستريح على طاولة قرب سريرنا: «وهل هذا

المصباح شيء جديد أيضا؟» أجابت وهي تضحك ضحكة ذات معنى:
«لا تراع كثيرا. إنه يعجبني، وهذا يكفي!»

تعودت، بعد ذلك، منظر المصباح على الطاولة، بل إنه أصبح يروقي؛ وفي أحد الأيام، أخذته بين يدي ورحت أفركه لأمسح عنه آثار الغبار، فما راعني إلاّ وغبرة تعلو إلى سقف الغرفة، حاجبة كلّ ما حولي، وصوت مدوّ ينطلق كالشّهاب فترتجّ له أركان المكان. رميت المصباح أرضا، ونزلت من على السّرير، وركبتاي لا تكادان تحملاني من الفرق والفزع... كنت أريد الهرب، ولكّني رأيت أمامي جنّيا طويل القامة عريض الهامة واسع الصّدر، ذا عين واحدة، وستّ أيد، وثمانى أرجل، على رأسه عمامة، وفي وسطه زنّار، وهو ينظر إليّ بإجلال ووقار زائدين. صفعني صوته:

شبيّك لبّيك، عبدك يرفع بين يديك. اطلب، يا سيّدي، وتمنّ.
ظلمت برهة صامتا، كأني أبله، وقد جمّد الدّم في عروقي، وانتابني هلع لا مزيد عليه، غير أنّي خفت على نفسي، إذ ربّما قتلتني إذا لم أتكلّم.
قلت وأنا أتجلّج:

الأمان، يا سيّدي. الأمان...الأمان.

انحنى فوقى، ومدّ لي كفّا مبسوطة، وقال: «اصعد».
تردّدت قليلا؛ ولكنّ إصراره جعلني أخاف وأصعد.
قال:

لا تخف فأنت آمن.

وبعد قليل، سألني ووجهه المخيف يضوع بابتسامة كبيرة:
وماذا تريد غير الأمان؟
لا شيء.

أجبتة في حياء.

فنظر إليّ معاتبا وقال:

لا بدّ أن تريد، يا سيّدي، فأنت لم تكلف نفسك عناء استدعائي إلاّ لأمر جليل.

وفي طرفة عين، ومن قبل أن أجيبه، حملني وطاربي عالياً، فظللنا في الجوّ أربعة أشهر، حتّى أشرفنا على ساحل البحر المحيط، ورأينا منازل يتّصل بعضها ببعض وفيها عشب وعيون. حينئذ، نزلنا وسرنا مسافة ميلين، هو أمامي وأنا وراءه، إلى أن وصلنا إلى قصر قليل الوهاد كثير العماد؛ ولمّا بلغنا بابه وجدناه مفتوحاً، وله أركان طويلة ودرجات، وفي تلك الدّرجات درجتان ممتدّتان وهما من الرّخام الملوّن؛ وله أيضاً سقوف وحيطان منقوشة بالذهب والفضّة، وعلى الباب لوح نقشت عليه كلمات غريبة.

التفت إليّ يرفغ، جيّ المصباح، وسألني وأي الاهتمام بادية على وجهه:

أتدري ما مكتوب على هذا اللّوح الذي تراه أمامك؟

فقلت:

لا أدري.

تقدّم بخطى ثقيلة نحو الباب، وبعد لحظة صمت قال:

هذه الكلمات الغريبة أبيات من الشّعْر، مكتوبة باللّغة السّريانيّة،

وهي تقول:

قوم تراهم بعد ما صنعوا يبكي على الملك الّذي نزعوا
فالقصر فيه منتهى خبر عن سادة في التّرب قد جمعوا
أبادهم موت وفرّقم وضيعوا في التّرب ما جمعوا
كأنّما حطّوا رجالهم ليستريحوا سرعة رجعوا

ثمّ دخلنا القصر، فتحيّرت من حسن بنائه، ونظرت إلى ما فيه من

الصُّور والتمثيل، والأعمدة والأساطين، والقباب والنقوش التي تزين كل شبر فيه، حتّى لكأنّه سيفسأ من الألوان والأشكال... كنت في غاية الدهشة والعجب، أمشي وراء يرفع. وأنا كالسكران، لا أكاد أميّز الموضع الذي أتوجّه نحوه؛ وهو ينتقل، هنا وهناك، كالعارف الخبير بكلّ خبايا القصر، لا يهدأ ولا يملّ كما لو كان قدّ من حجر صلد... وتقدّمنا أكثر باتجاه الصّحن، فإذا هو خال من الأهل والسكّان، دوره موحشات، وجهاته مقفرات، وفي وسطه قبة عالية شاهقة في الهواء، حولها أربعمائة قبر، وفي قمّتها ثمانية أبواب من خشب الصندل، شدّت بمسامير من الذهب، وكوكبت بكواكب من الفضّة، ورصّعت بأنواع الجواهر...

عندما دخلنا القبة، رأينا فيها قبراً طويلاً هائل المنظر، وعليه لوح من الحديد الصّينيّ، فدنا منه الجيّيّ وقرأ فإذا مكتوب فيه: «بسم الله الدائم الأبديّ الأبد، بسم الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، بسم الله ذي العزّة والجبروت، بسم الله الحيّ الذي لا يموت»، ثمّ رأى بعده مكتوباً في اللّوح: «أما بعد أيّها الواصل إلى هذا المكان، اعتبر بما ترى من حوادث الزّمان وطوارق الحداث، ولا تغترّ بالدنيا وزينتها وزورها ومبتهاتها وغرورها وزخرفها، فهي مكّارة غدارة أمورها مستعارة، تأخذ المعارف المستعير، وهي كأضغاث النّائم وحلم الحالم، كأنّها سراب ببيعة يحسبه الظّمان ماء، يزخرفها الشّيطان للإنسان إلى الممات، فهذه صفات الدّنيا، فلا تثق بها ولا تمل إليها، فإنّها تخون من استند إليها وعوّل في أموره عليها؛ لا تقع في حبالها ولا تتعلّق بأذيالها، فإنّي ملكت أربعة آلاف حصان أحمر في دار وتزوّجت ألف بنت من بنات الملوك، نواهد أبقار كأنهنّ الأقمار، ورزقت ألف ولد كأنهم اللّيوث العوابس، وعشت من العمر ألف سنة منعم البال والسّريرة، وجمعت من الأموال ما يعجز عنه ملوك الأقطار؛ وكان ظنّي في التّعيم يدوم لي بلا زوال، فلم أشعر حتّى نزل بنا هازم اللّدات ومفرّق الجماعات وموحش

المنازل ومخرّب الدّور العامرات، وإن سألت عن اسمي فأني نمرود بن كنعان بن كوش بن حام؛ وقرأ أيضا هذه الأبيات:

إن تذكروني بعد طول زماني وتقلب الأيام والحدثان
فأنا بن شدّاد الذي ملك الوري والأرض أجمعها بكلّ مكان
دانت لي الزّمر الصّعب بأسرها والشّام من مصر إلى عدنان
قد كنت في عزّ أذلّ ملوكها وتخاف أهل الأرض من سلطاني

وما إن أتى على تلاوة الأبيات الأربعة حتّى سكت سكتة ظننت أنّه لن يتكلّم بعدها، وأصابته رعدة وطرفت عيناه بشدّة، فأقعى على الأرض كأنّ به مسّا، وظلّ كذلك حيناً. فجأة، استعاد وعيه، وتلفت حواليه، فوجدني أنظر إليه مبهوتا، فابتسم ابتسامة كبيرة، ومدّ كفّه على اتّساعها، ودعاني إلى الجلوس. تقدّمت رابط الجأش، مزمعا على الثّبات، وجلست حيث أشار. قال:

إنّ لي شيئا أريد أن أحدثك به!

وما ذاك؟ قلت أسأله، وقد أنست في نفسي اهتماما زائدا.

إنّه شيء كتمته عشرة آلاف سنة، وأنا محبوس داخل المصباح؛ وقد حدّرتني ملكنا أرفخشذ من التّفوّه بحرف منه لأيّ كان، سيّما لمعاشر
الإنس.

وما الذي يجبرك على إفشائه رغم التّهديد؟ قلت سائلا.

سرح طرفه بعيدا، بين الأساطين والتّمائيل، كأنّه يتذكّر؛ ثمّ عاد ينظر إليّ من جديد. قال بعد فترة صمت:

لقد ضاق صدري ولم أعد أحتمل... عشرة آلاف عام داخل قمقم،
وحيد، مسجون، ومنبوذ، لا أتحدّث إلى أحد ولا يتحدّث إليّ أحد. هل
جربت الوحدة؟ إنك قطعاً لم تجربها. هي قاسية جدّاً، يا صاحبي!!
إنّها حقّاً كذلك.

قلت مسائرا.

. اسمع إذن حديثا غريبا لا أظنك سمعت أغرب منه:
«في عزلي التي دامت دهرا، بلغ بي الجهد حدًا هديني، وتداولت عليّ
الوساوس والظنون، وتشابهت عليّ الأشياء، فخلولت. وأصبحت لا
أعي حقيقة أمري، ونسيت أهلي وعشيرتي، وبرح بي الشوق إلى صحبتي
الأقربين. وكنت كلما غفوت، جاءني طائف، وقال:

. كن قينا أوقابيل، واقتل أخاك هابيل!

كن عتلاً جباراً، ومارجا من نار!

كن عازفا للونج، وضاربا للصنج!

كن ماردا نمرودا...

يا عاشق الحسان!

فإذا سألته:

وما ذاك؟

قال، وهو يضحك ضحكة مرعبة:

. لتكفرن كهؤلاء، أو أسلخك وأحشو جلدك بالتبن، ثم أصلبك على

بوابة بابل.

ويصمت لحظة، ثم يقول بتوكيد:

. إني أمهلك ثلاثا، وعندما تغرب عليك شمس اليوم الثالث أتيك.

ويختفي فجأة.

في اليوم الثالث، جاء قبل الموعد بقليل. جلس قبالي، وصالب

رجليه قائلاً:

. إن للكفر آدابا تعلمها، وأساطين تشبه بهم...

وقطع كلامه، ثم تنحنح ليجلو بحة في صوته، وسألني:

. ألا تعرف قينا؟

قلت: . كلا!

قال:

. لا تحزن. سأحدثك عنه بالمتون والأسانيد.

وأدخل يده في مخلاة بجانبه، وأخرج سجلاً فتحه، وراح يقلّب أوراقه، وهو يتمتم. قال:

«حدّثني ابن حميد قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: إنّ قينا نكح أخته أشوث بنت آدم، فولدت له رجلاً وامراًة: خنوخ بن قين، وعذب بنت قين، فنكح خنوخ بن قين أخته عذب بنت قين، فولدت له ثلاثة نفر وامراًة: عيرد بن خنوخ ومحويل بن خنوخ وأنوشيل بن خنوخ، وموليث بنت خنوخ، فنكح أنوشيل بن خنوخ موليث ابنة خنوخ، فولدت لأنوشيل رجلاً اسمه لامك، فنكح لامك امرأتين: اسم إحداهما عدى واسم الأخرى صلى، فولدت له عدى تولين بن لامك، فكان أول من سكن القباب، واقتنى المال، وتويش، وكان أول من ضرب بالونج والصنج، وولدت رجلاً اسمه توبلقين، فكان أول من عمل النحاس والحديد، وكان أولادهم جبابرة وفراعنة، وكانوا قد أعطوا بسطة في الخلق. كان الرجل فيما يزعمون يكون ثلاثين ذراعاً. قال: ثم انقرض ولد قين، ولم يتركوا عقباً إلّا قليلاً...

وحدّثني موسى بن هارون الهمداني، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسباط، عن السديّ. في خبر ذكره. عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس. وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، قال: كان لا يولد لآدم مولود إلّا ولد معه جارية[....] حتّى ولد له ابنان، يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكانت له أخت أحسن من أخت هابيل، وإنّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه. (بتحريض منّي). وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحقّ أن أتزوجها، فأمره أبوه أن يزوجه هابيل، فأبى. وإنّهما قربا قربانا إلى الله أيّهما أحقّ بالجارية، وكان آدم يومئذ قد غاب عنهما وأتى مكة ينظر إليهما[....] فلمّا قربا، قرب

هابيل جذعة سمينة، وقرب . (صاحبي) . حزمة سنبل، فوجد فيها
سنبله عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت
قربان قابيل، فغضب وقال . (وقد وسوست له) .: لأقتلنك حتى لا تنكح
أختي. [فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوما
من الأيام وهو يرعى غنمه في جبل وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها
رأسه، فمات ...

توقف برهة عن الكلام؛ ثم جلجل صوته بضحكة مدوية، وقال:
أنا عزاب قابيل!

ومن أنت؟

سألته بنزق.

فقال وهو ما يزال يضحك:

أنا الذي لما حملت حواء في أول ولد ولدته، وحين أنقلت أتيتهما قبل
أن تلد فقلت: يا حواء. ما هذا في بطنك؟ فقالت: ما أدري من؟ فقلت:
أين يخرج؟ من أنفك؟ أو من عينك؟ أو من أذنك؟ قالت: لا أدري، قلت:
أرأيت إن خرج سليما أمطيعتي أنت فيما أمرك به؟ قالت: نعم، قلت:
سميه عبد الحارث. وهذا اسمي. فقالت: نعم، وكرامة.

ثم التفت إليّ، وهويبتسم تشقياً، وقال:

أتدري ماذا قال آدم حين حرقت قلبه بقتل سبطه وصفية وحامل

أمانته؟

قلت: كلاً.

قال:

بكاه بحرقة، فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون وقل بشاشة وجه المليح

وعلا ضحكه من جديد، وابتدرني ثانية بالكلام قائلاً:
ولندع الآن قابيل وما جناه بأمرى، إلى ولده ونسله وطائفته، وما
فعلوه وارتكبوه واقترفوه، وكلّ ذلك بتحريض منى وإغواء، حيث سبقت
كلمة الله إلىّ، فسألته المهلة والنظرة.

«... اعلم أنّ أهل التّوراة ذكروا أنّ الذي اتّخذ الملاهي من ولد قايين
رجل يقال له توبال، اتّخذ في زمان مهلائيل بن قينان آلات اللّهُو من
المزامير والطّبُول والعيدان والطّناير والمعازف، فانهمك ولد قايين في
اللّهُو، وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من نسل شيث، فهمّ منهم مائة رجل
بالنّزول إليهم، ومخالفة ما أوصاهم به أبائهم، وبلغ ذلك يارد، فوعظهم
ونهاهم: فأبوا إلا تماديا، ونزلوا إلى ولد قايين، فأعجبوا بما رأوا منهم،
فلما أرادوا الرّجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم، فلمّا
أبطأوا بمواضعهم، ظنّ من كان في نفسه زيغ ممّن كان بالجبل أنّهم
أقاموا اعتباطا، فتسائلوا ينزلون عن الجبل، ورأوا اللّهُو فأعجبهم،
ووافقوا نساء من ولد قايين مشرّعات إليهم، وصرن معهم، وانهمكوا.
(فيما أردت). من طغيان وفاحشة وشرب خمر.

وحدّث أحمد بن زهير، قال: حدّثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدّثنا
داود. يعني ابن أبي الفرات. قال: حدّثنا علباء بن أحمر، عن عكرمة،
عن ابن عبّاس، أنّه تلا هذه الآية: {ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى} قال:
كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة.. (وأنا عبد الحارث أشهد
بصحّة ذلك) .. وإنّ بطنين من ولد آدم، كان أحدهما يسكن السّهل،
وأخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحا وفي النّساء دمامة، وكان
نساء السّهل صباحا وفي الرّجال دمامة... [وإنّي أتيت رجلا من أهل
السّهل في صورة غلام فأجرت نفسي منه، وكنت أخدمه، واتّخذت شيئا
مثل الذي يزمر فيه الرّعاء، فجئت فيه بصوت لم يسمع النّاس مثله،

فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم يسمعون إليّ، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنّة، فتتبرّج النساء للرجال، وينزل الرجال لهنّ. وإنّ رجلاً من أهل الجبل هجم علينا ونحن في ذلك العيد، فرأى النساء وصباحتهنّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إلهنّ فنزلوا عليهنّ، فظهر ما أمّلته من فاحشة وسوء طاعة.]

سادت، بعد ذلك، لحظات صمت بيننا، كان خلالها يحكّ جبينه بسبابته كأنّه يتذكّر شيئاً، ثمّ قال:

أظنّك لا تعرف في أيّ زمن عاش النمرود؟!

فقلت، وقد غلبني الحياء لجهلي وقلة معرفتي:

إذا كنت لا أعرف النمرود، فكيف أعرف في أيّ زمن عاش!!

اقترب ممّي حتّى تلامس مرفقانا، وقال وقد بدأ يغلف ملامحه غموض عصيّ على التفسير:

النمرود صاحب إبراهيم أبي الذّبيح: وهو أحد أربعة ملوكوا الأرض،

منهم ذو القرنين والضّحّاك وسليمان بن داود نبيّ بني إسرائيل...

«وقد حدّثت عن إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدّثنا عبد الصّمد

بن معقل، قال: سمعت وهب بن منبّه، يقول: إنّ سام بن نوح أبو العرب

وفارس والروم، وإنّ يافت أبو التّرك وأبو أجوج ومأجوج، وهم بنو عمّ

التّرك، وإنّ حام بن نوح أبو النّوبة، والحبيشة وفزان، والهند، والسّند،

وأهل السّواحل في المشرق والمغرب. ومنهم نمرود، وهو نمرود بن كنعان

بن كوش بن حام.

وقيل: كانت زوجة يافت أربسيّة بنت مرازيل بن الدّرمسيل بن

محويل بن خنوخ بن قين بن آدم عليه السّلام، فولدت له سبعة نفر

وامرأة. فممنّ ولدت له من الذّكور جومر بن يافت وهو. فيما حدّثنا ابن

حميد، قال: حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق، أبو أجوج ومأجوج، ومارج

بن يافت، ووائل بن يافت، وحوّان بن يافت، وتوبيل بن يافت، وهوشل

بن يافت، وترس بن يافت، وشبكة بنت يافت. قال: فمن بني يافت كانت

يأجوج ومأجوج والصقالبه والترك فيما يزعمون. وكانت امرأة حام بن نوح نحل بن مارب بن الدرمسيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم. فولدت له ثلاثة نفر: كوش بن حام بن نوح، وقوط بن حام بن نوح، وكنعان بن حام. فنكح كوش بن حام بن نوح قرنيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافت، فولدت له الحبشة والسند والهند فيما يزعمون. ونكح قوط بن حام بن نوح بخت ابنة بتاويل بن ترس بن يافت بن نوح، فولدت له القبط. قبط مصر. فيما يزعمون. ونكح كنعان بن حام بن نوح أرتيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافت بن نوح، فولدت له الأساود: نوبة، وفرزان، والزنج، والزغاوة، وأجناس السودان كلها.

ويزعم أهل التوراة أن ذلك لم يكن إلا عن دعوة دعاها نوح على ابنه حام، وذلك أن نوحا نام فانكشف عن عورته، فرأها حام فلم يغطها، ورأها سام ويافت فألقيا عليها ثوبا فواريا عورته، فلمّا هب من نومته علم ما صنع حام وسام ويافت، فقال: ملعون كنعان بن حام؛ عبيدا يكونون لإخوته، وقال: يبارك الله ربّي في سام، ويكون حام عبد أخويه، ويقرض الله يافت، ويحلّ في مساكن حام. ويكون كنعان عبدا لهم. قال: وكانت امرأة سام بن نوح صليب ابنة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، فولدت له نفرا: أرفخشذ بن سام، وأشوذ بن سام، ولاوذ بن سام، وعويلم بن سام، وكان لسام أرم بن سام.

وحدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما ضاقت بولد نوح سوق ثمانين تحوّلوا إلى بابل فبنوها، وهي بين الفرات والصرّة، وكانت اثني عشر فرسخا في اثني عشر فرسخا، وكان بابها موضع دوران اليوم، فوق جسر الكوفة يسرة إذا عبرت، فكثروا بها حتّى بلغوا مائة ألف، (وهم على ملّي قبل أن يخلق الله آدم).

سألته، وقد تنهت إلى موطن للتناقض في كلامه: كيف يعقل أن يدعونوح على ابنه حام ليكون خادما لأخويه، وعلى

نسله وعقبه من بعده ليكونوا خولا وعبيدا لعقبيهما، ويأتي النمرود، وهو ابن كنعان بن كوش بن حام، فينجو من لعنة سبقت على لسان جدّه، ويملك على من كان يفترض فيهم أن يملكوا عليه؟

أغرب في الضحك حتّى كاد يستلقي على ظهره، وخاطبني قائلا:
. وهل تظنّني أغفل عن أمر كهذا؟! ولكنك لم تسألني، فلم أكلف نفسي عناء الإجابة عن شيء لم أسأل عنه. أما وقد سألت، فاعلم أنّي قد سوّلت لنوح، وقذفت في فؤاده اللبس وبعضا من كيد فرقّ على حام، فدعا له بأن يرزق الشفقة والرأفة من أخويه، ودعا من ولده لكوش بن حام ولجامر بن يافت بن نوح، وذلك أنّ عدّة من ولد الولد ألحقوا به فخدموه، كما خدمه ولده لصلبه فدعا لعدّة منهم.

. وما الخير الذي تؤمّله من كلّ ذلك؟ وهل أصبحت ترقّ لمن تكبّرت على أبيهم وقلت: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». ثمّ، أو لم تكن أنت من سأل النظرة من ربّ العرش، متوعّدا عباده بالغواية قائلا بصريح العبارة: «لأغويهم أجمعين»؟

قلت له ذلك، وقد بدا لي أنّي حاججته فألجمت لسانه، غير أنّه كان أقدر من أن يقع في الفخّ الذي نصبته له، فراوغي قائلا:
. لو كنت عبد الحارث لأدركت المقصد من وراء ذلك... أوليس مرادي إفشاء المعصية ونشر الكفر؟

قلت: بلى.

قال: ومن لي بذلك من دون الحمقى من العسس وضعاف النفوس والأعوان؟... وقد أدركت أن لا خير يأتي من وراء سام ويافت وعقبيهما لطهر نفوسهم ونقاء طواياهم، فتركهم. أما حام، فكان طلبتي؛ فمن لا خير فيه لأهله، سيكون خيره كلّ لي؛ وأما أبنأوه، فقد سبقت إليهم كلمة قالها جدّهم فيهم، فحقّ عليهم العذاب في الدّنيا والآخرة.
سألته، وأنا لا أكاد أفهم عنه:

ولكنك سئلت لنوح أن يعفونهم؛ ونوح نبي، ودعاؤه مستجاب عند ربه، فتكون بذلك قد أملت من وراء ما فعلت ثوابا، وهذا (واعذرني على وقاحتي) لا يتفق مع طبيعتك التي جبلت نفسك عليها.

ضحك. نظر إليّ بإشفاق. قال:

. إن أكثر الأشياء وقرا في النفس المبادرة بالإساءة؛ وقد أساء نوح بدعائه على ابنه وولده لصلبه، وهو وإن عفا عنهم وقربهم، فإنهم سيظلون ينظرون إليه بعين الحسد والضغينة؛ ومن لهم، يا ترى غيري؟ أحفظهم عليه، فأخرجتهم من ملته، ولم يعد دينهم دينه، ولا ربهم ربه... إنني أنا من ملك فؤاد النمرود فقال: «أنا ربكم الأعلى فاعبدون.» وكيف ذلك؟ سألته، وأنا أتطلع إليه بفضول.

ترث قليلا، وستعرف جلية الخبر.

أجابني، وهو يقلب صفحات الكتاب الذي أخرجته من مخلاته.

وبعد قليل، قال:

«اختلف أهل السير والأخبار في الموضع الذي كان منه، والموضع الذي ولد فيه إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح. فقال بعضهم: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقال بعضهم: كان مولده ببابل من أرض السواد. (وأنا أجزم أنه ولد بها). وقال بعضهم: كان بالسواد بناحية كوثي. وقال بعضهم: كان مولده بالوركاء بناحية الزوابي وحدود كسكر، ثم نقله أبوه إلى الموضع الذي كان به نمرود من ناحية كوثي. وقال بعضهم: كان مولده بحزان، ولكن أباه تارخ نقله إلى أرض بابل. (وهؤلاء ليس في كلامهم ذرة واحدة من صدق). وقال عامة السلف من أهل العلم: كان مولد إبراهيم في عهد النمرود بن كوش. ويقول عامة أهل الأخبار. (وهم أبعد ما يكون عن الصواب) : كان نمرود عاملا للإزدهاق الذي زعم بعض من زعم أن نوحا كان مبعوثا إليه على أرض بابل وما حولها. وأقول: كان النمرود ملكا برأسه، له الكلمة الطولى في

مشارك الأرض ومغارها، ولم تكفه النبوة، حتى تأله وطلب من رعاياه أن يعبدوه، واسمه الذي اسمه: زهى بن طهما سلفان.

حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره عن أبي صالح وعن أبي مالك، عن ابن عباس. وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب (النبي العربي): أن أول ملك ملك في الأرض شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح. وهو الثبت لدينا. وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبخت نصر: اثنان مؤمنان واثنان (على دين عبد الحارث).

وفي رواية أخرى لابن إسحاق عن ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن بن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل أن يبعث إبراهيم خليله حجة على قومه ورسولا إلى عبادته، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم من نبي قبله إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله تعالى ذكره به ما أراد...

وينتهي هذا الخبر الذي حدثته عن ابن إسحاق، وأخبرك ببقية الحكاية على لساني:

فلما تقارب زمان إبراهيم، أحسست بخطورة الأمر، وقلت إن ولد وهن أمري وخمل ذكرى، فأرسلت أصحاب النجوم إلى نمرود، فقالوا له: تعلم أننا نجد في علمنا أن غلاما يولد في قريتك يقال له إبراهيم، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا. فلما دخلت السنة وأن أوان الشهر، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقرية، فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة أزر فإنه لم يعلم بحبلها، فجعل لا تلد امرأة غلاما في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق، (وقد حجبت عنه أمرها لحكمة أردتها)، خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت

من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة حتى بلغ خمسة عشر شهرا، وكان اليوم عليه في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة. حينئذ، قال لأمّه: أخرجيني أنظر، فأخرجته، ولما استقام له من أمر دينه ما أراد، رجع إلى أبيه أزر فأخبره أنّه ابنه، فسّر بذلك أزر وفرح فرحا شديدا، وكان أزر يصنع أصنام قومه التي يعبدون، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه! (فكان ذلك يغيظني منه، حتى صرت أجد في نفسي موجدة عليه، لو انساحت على الكون لأغرقته... طبيعيّ إذن أن لا يشتري أحد تلك الاصنام والتماثيل، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيه رؤوسها)؛ وكان يفعل ذلك حتى فشا عيبه إيّاها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته. وفي يوم من الأيام، تواطأ القوم على الخروج إلى ظاهر القرية، وتخلّف إبراهيم عنهم مزمعا على خلافهم. فلما خرجوا عنه خالف إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون، فقرّب لها طعاما؛ ثم قال: ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون! وأخذ حديدة فبقر كلّ صنم في حافتيه، ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر، ثم خرج، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم. فراعهم ذلك، فأعظموه، (ووسوست بأمرى) إلى بعضهم كيذا لإبراهيم، فجاءوا به مخفورا إلى الملك نمرود، حيث قال له: «أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟» قال إبراهيم: «ربّي الذي يحي ويميت». فقال نمرود، (وقد وضعت على لسانه كلاما) : «فأنا أحيي وأميت»، فقال إبراهيم: «كيف تحيي وتميت؟» قال: «أخذ الرجلين وقد استوجبا القتل في حكمي، فأقتل أحدهما فأكون قد أمّته، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحْيَيْته». فقال إبراهيم عند ذلك: «فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأنت بها من المغرب»... (أسقط في يدي، ولم أجد لحجّته دفعا بيد أو لسان، فلجأت إلى الحيلة، وألقيت في فؤاد نصيري أن يحرقه بناري يذهب مثلا للأولين والآخرين).

قال ابن إسحاق: فأمر نمرود، بجمع الحطب، فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب، حتّى أن كانت المرأة من قرية إبراهيم، فيما يذكر. لتنذر في بعض ما تطلب ممّا تحبّ أن تدرك: لأنّ أصابته لتحطبن في نار إبراهيم التي يحرق بها احتسابا في دينها، حتّى إذا رأوا أن يلقوه فيها قدّموه وأشعلوا في كلّ ناحية من الحطب الذي جمعوا له، حتّى إذا اشتعلت النّار، واجتمعوا لقذفه فيها، صاحت السّماء والأرض وما فيها من الخلق إلّا الثّقليّن. فيما يذكرون. إلى الله عزّ وجلّ صيحة واحدة: أي ربّنا! إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، يحرق بالنّار فيك! فأذن لنا في نصرته، فيذكرون. والله أعلم. أنّ الله عزّ وجلّ حين قالوا ذلك قال: إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، فإن لم يدع غيري فأنا وليّه، فخلّوا بيني وبينه، فأنا أمنعه، فلمّا ألقوه فيها قال: «يا ناركوني بردا وسلاما على إبراهيم»، فكانت كما قال الله عزّ وجلّ. وبعث الله عزّ وجلّ ملك الظّلّ في صورة إبراهيم، فقعدها إلى جنبه يؤنسه، فمكث نمرود أيّاما لا يشكّ إلّا أنّ النار قد أكلت إبراهيم وفرغت منه، ثمّ ركب فمرّ بها وهي تحرق ما جمعوا لها من الحطب، فنظر إليها، فرأى إبراهيم جالسا فيها إلى جنبه رجل مثله، فرجع من مركبه ذلك، فقال لقومه: لقد رأيت إبراهيم حيّا في النّار، ولقد شبّه عليّ، ابنوا لي صرحا يشرف بي على النّار حتّى أستثبت، فبنوا له صرحا، فأشرف عليه فاطّلع منه إلى النّار، فرأى إبراهيم جالسا فيها، ورأى الملك قاعدا إلى جنبه في مثل صورته، فناداه نمرود: يا إبراهيم، كبير إلهك الذي بلغت قدرته وعزّته أن حال بين ما أرى وبينك، حتّى لم تضرك يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن قمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم واخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتّى خرج منها، فلمّا خرج إليه قال: يا إبراهيم، من الرّجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعدا إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظّلّ، أرسله إليّ ربّي ليكون معي فيها ليؤنسنّي، وجعلها عليّ بردا

وسلاماً. قال نمرود، فيما حدثت: يا إبراهيم، إنّي مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من عزّته وقدرته، ولما صنع بك حين أبیت إلاّ عبادته وتوحيده؛ إنّي ذابح له أربعة آلاف بقرة. فقال له إبراهيم: إذن لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك هذا حتّى تفارقه إلى ديني! فقال: يا إبراهيم، لا أستطيع ترك ملكي، ولكّني سوف أذبحها له، فذبحها نمرود، ثمّ كفّ على إبراهيم، ومنعه الله عزّ وجلّ منه.

قال الطّيف، وهو ما يزال قبالي، وقد اسودّ وجهه واربّد، وغلّف ملامحه غموض كثيف:

. كان ذلك آخر عهدي بالنمرود، خذلني وجعلني أضحوكة. لكن، لا بأس، فأنا وإن لم أكسب كبير ثناء، فإنّي لم أكلف نفسي كبير عناء. فرغم أنّ الأنبياء، كلّ الأنبياء منعوا منّي، فإنّي لم أعدم وسيلة لغوايتهم والتّحريض عليهم. أوليس يقال عندكم، معاشرا الجنّ: شرف الواحد في المحاولة، ولا تهمّ النّتائج كثيراً، ما دمنا لا نتوقّف عن الإصرار؟

قال صاحبي يرفع:

. ونظرت إلى الطّيف يكبر شيئا فشيئا، ويتضخّم حتّى صار مثل بالونة العيد؛ وفي لحظة، وقد بدأ يعلو ويعلو باتّجاه سقف الغرفة، كشّر عن أنياب طويلة مهولة، وأخذت عيناه ترشح دما ذا رائحة كريهة، وبدأ شعر رأسه الأجعد يسقط متناثرا فوق سريري، والزّرابي المنبّثة هنا وهناك؛ وصرخ؛ كان صراخا حادّا مربعبا، كما لو كان دويّا أو قصف رعد؛ ثمّ، وفي طرفة عين، انفجر كلّهُ، وتلاشى ما كان قبل قليل. وهو يحدثني. بدنه فصار هباء منثورا...

وتوقّف عن الكلام، كأنّه يستعيد ساعة الانفجار، وواصل قائلا:
. اعتراني شعور غريب بالخوف، وغمرتني سعادة لا توصف؛ فلم أدّر ما أفعل. كدت ساعتها أجنّ، وقد كنت أضحك دون وعي منّي حتّى استحال الضّحك إلى هستيريا مقينة. قلت صائحا:
. انتهى الطّيف... انتهى الطّيف... انتهى الطّيف، ولن أموت إلى

الأبد!!

كان مستثارا، منفعلا، طاغيا. وقد انقضى وقت طويل قبل أن يهدأ.
أجال بصره في أرجاء القصر، وتأمل الأساطين المرتفعة بشموخ حوله،
والأعمدة، والنقوش، والقباب، والزخارف؛ ثم جلس في الصحن،
ودعاني إلى الجلوس قائلا:

.الآن، وقد نجوت من ذلك الطيف اللعين، ولم يعد يهمني تهديده،
فسأحدثك بحديث أغرب من ذلك الذي حدثني به عبد الحارث.
قلت مداعبا:

.وهل هناك حديث أغرب من حديث إبليس؟
تطلع نحوي، ورمقتي بنظرة فيها غضب وعتاب، وقال:
.حديث الجنّ أعجب وأغرب، يا صاحبي... ألا ترى إلى النمرود بن
كنعان بن كوش بن حام بن نوح، غويّ صاحبنا، على ملكه الذي تكاد
لا تسعه الأرض، وزواجه الأبقار من النساء، وطول عمره وجمعه المال،
وغزوه الأقطار والبلدان، وفعله بنبي الله ما لا يقدر على فعله الثقلان؟
سألته:

.ما له؟
فأجابني، وهو يحكّ عنثونه الصّغير، وأطياف ابتسامة خبيثة تحوم
حول شفّتيه:
.أنا زينت رأسه بقرنين ورديين جميلين، وشددتهما بخيوط رفيعة
من الذهب.
.وكيف ذلك، وقد مضى على زمان الرجل دهر؟... أنت تمزح دون
شكّ.

قلت باستغراب.
ولكنّه أغرب في الضحك، ثم قال بعد أن هدأ:
.ألم أقل لك إنّني ظللت عشرة آلاف سنة حبيسا في القمقم؛ وقبل
ذلك، كنت أحيي الحية التي أغوت آدم في الجنة، فأختبئ في فرجها، ولما

نزلوا إلى الأرض نزلت معهم جميعا؛ وكان مهبطي ببلبيس.

وهل يعقل أن تجعل التمرود ديوتا على مناعة جانبه؟

. ولم لا؟ قال، وهو يملس على بطنه العظيمة بأياديه، لقد كنت آتي المرأة من نسائه كل ليلة، وأضاجعها على نفس السرير الذي يكون التمرود نائما فيه، فتعاطيني كأحسن ما يكون، وهي ترهز، وتضطرب وتتثنى؛ فإذا أرادها زوجها تمنعت وتعللت بشئ العلل. وقد ظللنا كذلك إلى أن مات التمرود ونساؤه وفرق بيننا الموت.

وما إن أنهى كلامه حتى نهض، فسأيرته، وجاوزنا الصحن إلى ما وراءه؛ فبينما نحن نطوف بنواحي القصر ونتأمل مجالسه ومنزهاته، وإذا بمائدة على أربعة قوائم من المرمز مكتوب عليها: «قد أكل على هذه المائدة ألف ملك أعور وألف ملك سليم العينين كلهم فارقوا الدنيا، وسكنوا الرّموس والقبور.» وغربت علينا شمس ذلك اليوم في القصر فبتنا هناك. وكذلك فعلنا في اليوم الثاني والثالث، وفي اليوم الرابع أشرفنا على رابية عالية فنظرنا صوبها فإذا عليها فارس من نحاس وفي رأس رمحه سنان عريض براق يكاد يخطف البصر مكتوب عليه: «أيها الواصل إليّ إن كنت لا تعرف الطريق الموصلة إلى مدينة النحاس، افرك الفارس فإنه سيدور، ثم يقف، فأيما جهة مدّ صوبها كفه فاتجه نحوها واسلكها فلا خوف عليك ولا حرج فإتها توصلك إلى مدينة النحاس»... فرك يرفع كفّ الفارس فدار كأنه البرق الخاطف، وتوجّه إلى غير الوجهة التي كنّا قبالتها. حينئذ، قصدنا الجهة التي أشار إلينا، وسرنا مليا فإذا هي طريق حقيقيّة؛ ولم نزل سائرين فيها يوما وليلتنا حتى قطعنا بلادا كثيرة بعيدة.

وبينما نحن مغدّان السّير يوما من الأيام، إذ بعمود من الحجر الأسود فيه شخص غائص في الأرض إلى إبطيه وله جناحان عظيمان وأربع أيد، يدان منهما كأيدي بني آدم ويدان كأيدي السّباع فيهما مغالب؛ وله أيضا شعري رأسه كأنه أذنان الخيل وله عينان كأنهما

جمرتان وله عين ثالثة في جبهته كعين الفهد يلوح منها شرر كأنه النار، وهو أسود طويل ينادي: «سبحان ربّ حكم عليّ بهذا البلاء العظيم والعذاب الأليم إلى يوم القيامة!» اقترب منه يرفع وأمارات البشر بادية على وجهه، وقال له وهو مادّ يديه:

.مرحبا بأخي.

.وبك أيضا. ردّ عليه.

.قل لي: سأله يرفع، ما اسمك وما شأنك وما الذي جعلك في هذا المكان على هذه الصّورة؟

نظر إليه بحزن والدمع يكاد يطفر من عينيه، وقال بصوت متهدّج: .إني عفريت من الجنّ واسمي داهش بن الأعمش وأنا مكفوف هنا بالعظمة محبوس بالقدرة معذب إلى ما شاء الله عزّ وجلّ. .أخبرني.رحمك الله. عن سبب سجنك في هذا العمود؟

هزّ رأسه بأسف، وصعد أنفاسا حرى ذهبت لها نفسه حشرات، وقال بنبرة بدا فيها الحزن جارفا:

. إنّ حديثي عجيب وذلك أنّه كان لبعض أولاد إبليس صنم من العقيق الأحمر وكنّت موكلابه وكان يعبدّه ملك من ملوك البحر جليل القدر عظيم الخطر يقود من عساكر الجنّ ألف ألف يضربون بين يديه بالسّيوف ويجيبون دعوته في الشّدائد، وكان الجنّ الذين يطيعونه تحت أمري وطاعتي يتبعون قولي إذا أمرتهم وكانوا كلّهم عصاة لسليمان بن داود عليه السّلام، وكنّت أدخل في جوف الصّنم فأمرهم وأنّهم، وكانت ابنة ذلك الملك تحت ذلك الصّنم كثيرة السّجود له، منهمة في عبادته، وكانت أحسن أهل زمانها، ذات حسن وجمال وبهاء وكمال، فوصفتها لسليمان عليه السّلام فأرسل إلى أبيها يقول له زوّجني ابنتك واكسر صنمك العقيق واشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ سليمان نبيّ الله، فإنّ أنت فعلت ذلك، كان لك ما لنا وعليك ما علينا، وإنّ أنت أبيت

أتيتك بجنود لا طاقة لك بهم؛ فأعدّ للسؤال جوابا والبس للموت جلبابا
فسوف أسير إليك بجيوش تملأ الفضاء وتدرّك ما لا يرى، فلمّا جاءه
رسول سليمان عليه السّلام طغى وتجبّر وتعاضم، وقال لوزرائه: «ماذا
تقولون في أمر سليمان بن داود؟» فقالوا: «أيّها الملك العظيم هل يقدر
سليمان أن يفعل بك شيئا وأنت وسط هذا البحر العظيم، فإن هو سار
إليك لا يقدر عليك، ومردة الجنّ يقاتلون معك: وتستعين عليه بصنمك
الذي تعبده فإنّه يعينك عليه وينصرك». وسار الملك فدخل على صنمه
بعد أن قرّب القرابين وذبح الذّبائح، وخرّ له ساجدا وجعل يبكي ويقول:
يا ربّ إنّني عارف بقدركما وها سليمان يروم كسركما
يا ربّ إنّني طالب لنصركما فامر فإني طائع لأمركما

فلمّا سمعت بكاءه واستغاثته، دخلت في جوف الصّنم من جهلي،
وقلّة عقلي، وعدم اهتمامي بأمر سليمان وتهديده، وأنشأت أقول:
أما أنا فلست منه خائف إنّني بكلّ أمر عارف
وإن يرد حربي فإني زاحف وإنّي للروح منه خاطف

حينئذ، قوي قلبه وعزم على حرب نبيّ الله ومبادأته العداء؛ فلمّا
حضر رسوله ضربه ضربا وجيعا وردّ عليه ردّا شنيعا وأرسل يهدّده
ويقول: «حدّثتك نفسك بالأمني فتوعّدتني بزور الأقوال، فلمّا أن تسير
إليّ وإمّا أن أسير إليك».

وصمت العفريت برهة، وقد تألّقت على خديّه دموع غزار، لعلّها
كانت دموع الحسرة والنّدامة، وقال مواصلا:

لمّا سمع نبيّ الله سليمان ذلك، قامت قيامته وثارّت عزيمته وجهرّ
عساكره من الجنّ والإنس والوحوش والطّيّر والهوامّ، وأمر وزيره
الدّمرياط ملك الجنّ أن يجمع المردة من كلّ مكان، فجمع له من
الشّياطين ستمائة ألف، وأمر آصف بن برخيا أن يجمع عساكره من

الإنس فكانت عدتهم ألفا أو يزيدون، وأعدوا العدة والسلاح، وركب هو وجنوده من الجن والإنس على البساط، والطير فوق رأسه طائرة، والوحوش تحت البساط سائرة حتى نزل بساحة الملك العاق وأحاط بجزيرته، وقد امتلأت الأرض بالجنود. حينئذ أرسل إليه يقول ها أنذا قد أتيت فأردد عن نفسك ما نزل، أو ادخل في طاعتي؛ ولكنه قال للرّسول الذي جاءه: «ليس لهذا الأمر الذي طلبه مني سبيل فأعلمه أنني خارج إليه»؛ فعاد ذلك الرّسول إلى سليمان وقال: «إنها الحرب!» ثم إن ملك عبدة الصّنم العقيق بعث البعوث وجمع له من الجنّ الذين كانوا تحت يده ألف ألف، وضّم إليهم غيرهم من المردة والشّياطين الذين هم في جزائر البحار ورؤوس الجبال ثمّ جهّز عساكره وفتح خزائن السّلاح وفرّقها عليهم...

قاطعه يرفع سائلا:

وما كان من أمر نبيّ الله سليمان؟

حاول العفريت أن يتزحزح قليلا من مكانه؛ فلم يقدر؛ ونظر إلينا في صمت بعينين يكتنفهما الحزن وشيء من الغموض، وقال:

وأما نبيّ الله سليمان، فإنّه رتبّ جنوده وأمر الوحوش أن تنقسم شطرين، على يمين القوم وشمالهم؛ وأمر الطّير أن تكون في الجزائر، وأمرها أن تختطف أعينهم بمنافيرها عند الحملة، وأن تضرب وجوههم بأجنحتها؛ وأمر الوحوش أن تفترس خيولهم إذا احتدم الصّدام والضّراب؛ ثمّ إنّهُ نصب لنفسه سريرا من المرمر مرصّعا بالجواهر، مصفّحا بصفائح الذهب الأحمر، وجعل وزيره آصف بن برخيا على يمينه، ووزيره الدّمرياط على شماله؛ وبعد أن استقرّ في مكانه، هو وحاشيته، أعطى الإشارة لبدء الحرب، فزحفت عساكره على جيوش الملك زحفة كاسحة، وتحاربوا في أرض واسعة مدّة يومين، وقع فيها البلاء على البغاة؛ وفي اليوم الثّالث، نفذ فينا قضاء الله تعالى، حيث كان أوّل من حمل على سليمان أنا وجنودي.

قلت لأصحابي:

.الزموا مواقعكم حتى أبرز إليهم وأطلب قتال الدّمرياط!

وما إن أنهيت كلامي حتى برز كائن الجبل العظيم. ونيرانه تلتهب، ودخانه مرتفع، وأقبل نحوي فرماني بشهاب من نار، فغلب سهمه على ناري؛ وصرخ في وجهي صرخة عظيمة تخيلت السماء انطبقت عليّ لهول دويمها، ثم أمر أصحابه فحملوا علينا، وحملنا عليهم، وصرخ بعضنا على بعض، وارتفعت النيران وعلا الدخان، وكادت القلوب تنفطر، وقامت الحرب على قدم وساق؛ فكانت الطيور تقاتل في الهواء والوحوش على الثرى، وأنا أقاتل الدّمرياط حتى أعياني وأعييته...

ثم صمت ثانية، وهو يلهث، كأنه خارج لتوه من هول تلك الحرب الضروس، وظلّ كذلك حتى سألته يرفغ وهو يتطلّع إليه بفضول: وماذا حدث بعد ذلك؟

قال:

.ثم بعد ذلك ضعفت، فانخذل أصحابي، وانهزمت عشائري، وصاح نبي الله سليمان من على كرسيه: «خذوا هذا الجبار العظيم النّحس الدّميم». حينئذ حملت الإنس على الإنس، والجنّ على الجنّ، ووقعت بملكنا الهزيمة وصرنا لسليمان غنيمة؛ وقد طرت أنا من بين أيادي الدّمرياط، فتبعني مسيرة ثلاثة أشهر، حتى لحق بي وفعل بي ما ترون! أجهش بالبكاء، وهو ينطق الكلمات الأخيرة، وانساب الدموع على خديّ بغزارة. اضطربت شفتاه، وغامت عيناه وراء حدود بعيدة... بعيدة جدًا. لعلّه يشعر بالنّدم؟! أو يحسّ بالعجز والقهر، في هذا المكان القصي، بلا صاحب أو رفيق؟! أولعلّه يرجو الخلاص من محنته تلك؟! لا... لا... لم يكن ذلك صحيحا، فلو كان ذلك كذلك لطلب منّا المساعدة، (ليس منّي دون شك!!)، ولكن من يرفغ، وهو عفريت مثله، له من القوّة ما يكفي لاجتثاث العمود وإلقائه في البحر المحيط... إنّه يبدو راضيا بقدره، مطمئنًا رغم حزنه؛ وهو. على ما أظنّ. مقرّ بذنبه،

مقتنع باستحقاق العقاب الذي ناله. قال:

لا مهرب من القضاء؛ وأمر الأنبياء لا فكاك منه لأنهم معصومون!

سأله يرفع، مصوباً نظره نحو نقطة غير مرئية وراء الرابية:

أتعرف الطريق الموصلة إلى مدينة النحاس؟

فأشار لنا إلى طريق المدينة، وإذا بيننا وبينها خمسة وعشرون باباً، لا يظهر منها باب واحد ولا يعرف له أثر، وسورها كأنه قطعة من جبل أو حديد صبّ في قالب... سرنا في ذلك الطريق، حتى أشرفنا على جبل يقابلها؛ ولما صعدنا إلى قمته رأينا مدينة لم تر العين أعظم منها، قصورها عالية وقبائها زاهية ودورها عامرات وأنهارها جاريات وأشجارها مثمرات: وهي مدينة بأبواب منيعة، خالية بلا أنيس ولا جليس، يصفر البوم في جهاتها، ويحوم الطير في عرصاتها، وينعب الغراب في نواحيها وشوارعها، ويبكي على من كان فيها.

وبينما نحن كذلك إذ حانت من يرفع التفاتة إلى إحدى الجهات فإذا فيها أربعة ألواح من الرّخام الأبيض، وهي تلوح عن بعد، فدنا منها وقرأ ما عليها من نقوش، فإذا فيها وعظ واعتبار وزجر لأولي الأبصار. وكان مكتوباً على اللّوح الأول بالقلم اليوناني: «يا ابن آدم ما أغفلك عن أمر هو أمامك، قد ألهتك عنه سنينك وأعوانك؛ أما علمت أنّ كأس المنية لك يترع، وعن قريب له تجرع؛ فانظر لنفسك قبل دخولك رمسك؛ أين من ملك البلاد، وأذلّ العباد، وقاد الجيوش؟ نزل بهم، والله، هازم اللّدات ومفرّق الجماعات ومخرّب المنازل العامرات، فنقلهم من سعة القصور إلى ضيق القبور.» وفي أسفل اللّوح مكتوب:

أين الملوك ومن بالأرض قد عمروا

قد فارقوا ما بنوا فيها وما عمروا

وأصبحوا رهن قبر بالذي عملوا

عادوا رميما به من بعد ما برعوا
أين العساكر ما ردت وما نفعت
وأين ما جمعوا فيها وما دخروا
أتاهم ربّ عرش ما له كفو
لم ينجهم منه أموال ولا وذر

ثم إن يرفع دنا من اللّوح الثّاني وإذا عليه مكتوب: «يا ابن آدم ما
غزك من قديم الأزل وما ألهاك عن الاعتبار بحلول الأجل؟ ألم تعلم أنّ
الدّنيا دار بوار، ما لأحد فيها قرار وأنت ناظر إليها مكبّ عليها؟ أين الملوك
الذين عمروا العراق وملكوا الأفاق؟ أين من عمروا إصفهان وبلاد
خراسان؟ دعاهم داعي المنيا فأجابوه، وناداهم منادي الفناء فلبّوا
نداءه، وما نفعمهم ما بنوا وشيّدوا، ولا ردّ عنهم ما جمعوا وعدّوا.» وفي
أسفل اللّوح مكتوبة هذه الأبيات:

أين الذين بنوا لذلك وشيّدوا غرّفا به لم يحكمها بنيان
جمعوا العساكر والجيش مخافة من ذلّ تقدير الإله فهانوا
أين الأكاسرة العظام حصونهم تركوا البلاد كأثمّ ما كانوا

وبعد ذلك، دنا من اللّوح الثّالث، فوجد به مكتوبا: «يا ابن آدم أنت
بحبّ الدّنيا لاه، وعن أمر ربك ساه؛ كلّ يوم من عمرك ماض، وأنت
بذلك قانع وراض؛ فقدّم الزّاد ليوم المعاد، واستعدّ لردّ الجواب بين
يدي ربّ العباد.» وفي الأسفل قرأ:

أين الذي عمر البلاد بأسرها سندا وهندا واعتدى وتجرّبا
والزّنج والحبش استقاموا لأمره والتّرك لما أن طغى وتكبّرا
لا تنتظر خيرا بما في قبره هيات أن تلقى بذلك مخبرا
فدعته من ربّ المنون حوادث لم ينجه من قصره ما عمّرا

واقترب من اللّوح الرّابع، وأنا أمشي وراءه. فرأى عليه شيئاً كهينة الكتابة. وبدأ يقرأ: «يا ابن آدم، لكم يمهلك مولاك، وأنت خائض في بحر غيّك وهواك يا ابن آدم. لا تغرّك أيامك ولياليك، وساعاتك المليئة وغفلاتها؛ واعلم أنّ الموت لك مراصد وعلى كتفك صاعد! ما من يوم يمضي إلّا صبحك صباحه وأمسى عليك مساؤه. فاحذر من هجمته واستعدّ له. فكأنّي بك وقد سلبت طول حياتك وضاعت عنك لذات أوقاتك! فاسمع مقالِي، وثق بموَلِي الموالِي؛ إذ ليس للدّنيا ثبوت، ووَدّها أوهى من خيوط العنكبوت.» وكانت في أسفل اللّوح أبيات من الشّعْر قرأها فإذا هي:

أين من أسّس الذّرى وبناها وتولّى مشيدها ثمّ أعلى
أين أهل الحصون من سكنوها كلّهم عن تلك الصّياصي تولّى
أصبحوا في القبور رهنا ليوم فيه حقّاً كلّ السّرائر تبلى
ليس يبقى سوى الإله تعالى وهو ما زال للكرامة أهلا

صمت يرفع، بعد أن قرأ الأبيات، ونظر حوله يتأمل المدينة. ثمّ قال لي:

اصعد على كفيّ، فسأطير بك لنبلغ سور المدينة.
صعدت على كفه الممدودة نحوي، ففرد أيّاده، ومدّ أرجله الكثيرة وطار عالياً حتّى بلغنا أعلى السّور... رأينا عشر جوار كأتهن الأقمار، وهنّ يشرن بأيديهنّ إلينا. التفت يرفع نحوي، وهو يتسم ابتسامة ذات معنى، وقال يسألني:

هل تعرف أولئك الجوّاري المشيرات إلينا من يكنّ؟
نظرت إليه نظرة بلهاء، تشي بعدم سابق معرفتي بهنّ، فقال:
تلك، يا صاحبي، مولاتنا الملكة سوكناه وأولئك النّساء جواريها.
وحملني فوق كفه ثانية، وطار قليلاً فوق السّور، ثمّ حطّ فوق منبسط من الأرض داخل المدينة، حيث رأينا الجوّاري. أنزل كفه،

ومدّها فنزلت، وسار بخطى متمهّلة نحوهنّ، فتبعته؛ كنّ يجلسن غير بعيد على أرائك خشبيّة، مبطّنة بالعاج، ومطعمّة بالذهب والنّقوش والزخارف... تقدّم يرفع، وأحنى رأسه الكبير على استحياء، أمام جارية كانت أجملهنّ وجهها، وأكملهنّ قدّاً واعتدالا، وهي تتصدّر عرشا مذهب الحوافّ، عالي القوائم، وقال، وهو لا يزال منحنيا:

.عمت مساء، أيّها الملكة الجليّة.

فردّت عليه هاشّة باشّة:

.طاب مساؤك، أيّها الخادم الأمين.

وأشرأبت بعنقها نحوي، وقد غمرت وجهها فرحة عارمة، وقالت تسأل يرفع:

.هل جئت به أخيرا؟

فقال:

.وهل أملك إلّا أن أجيء به، يا مولاتي؟!

وقفت الملكة، وأشارت إلى جواربها، فوقفن أيضا؛ ثمّ دعتني إليها فلبّيت على خجل... اقتربت منها حتّى حاذيتها، فأمسكت كفي بيدها، وضغطت عليها بحنان، ثمّ قالت تخاطبني:

.هل أنت سعيد؟

سألتها، وأنا ما أزال حيران. لا أفهم شيئا ممّا يحدث حولي:

.بماذا؟

.بكلّ شيء.

.وما كلّ شيء، يا مولاتي؟!

هزّت رأسها، وتطلّعت إليّ بعينين شملهما هدوء غريب، وأجابت بنبرة نزقة:

.لنقل إنّ كلّ شيء يعني أن تزوّجني، مثلا، فتصبح ملكا لكلّ ما ترى حولك: المدينة بأسوارها وقصورها وأسواقها وأطيارها ووحوشها وأنهارها... ها، ماذا قلت؟ أموافق أنت، أم لك رأي آخر؟

لكن...

فقاطعتني قائلة:

لكن ماذا؟

إنِّي أتساءل، يا مولاتي، لماذا أنا بالذات؟ وهل تستحلّين أن تزوّجي

رجالا لا تعرفين حتّى اسمه؟

ضحكت حتّى افترّ فمها عن أسنان بيضاء نضيدة كأنّها اللؤلؤ

المنثور، وقالت تسألني بتوكيد:

ومن قال إنِّي لا أعرفك؟ ليكن في علمك أنّي أعرفك أكثر ممّا تعرف.

أنت نفسك! أليس القوم يسمّونك عبد ود السّكسكي، في ذلك الحيّ من

أحياء العراق؟

كانت تحدّق فيّ بإمعان، وهي تتكلّم، كأنّها تريد أن ترى الحيرة

والدهشة باديتين على وجهي لتشعربالطمأنينة وتحسّ بالطّفرف. سألتها:

أولست كذلك حقّا؟ أو ليس اسمي عبد ود السّكسكي الكوفيّ

العراقيّ العربيّ؟

ضغطت بيدها كفيّ أكثر من ذي قبل، وقالت وهي ما تزال تضحك:

عجيب أمركم، معاشر الإنس! دائما تجيبون عن سؤال بسؤال.

عيبكم أنكم لا تقبلون الأمور كما هي عليه؛ ودائما تريدون أن تعرفوا

كلّ شيء! ألا فلتعلم إذن أنّي أنا من أرسلت يرفع إليك، وكان ذلك قدرا

مقدورا؛ ولم يكن المصباح القديم الذي فركته بأصابعك إلّا سببا من

الأسباب، والأسباب. كما تعلم. لا تعدّ ولا تحصى...

صممت برهة. تنهدت. صعدت أنفاسا حريّ تضوع حياة وألقا. قالت:

إنِّي أحسنّ أنا خلقنا لبعضنا، ولا مفرّ لأحدنا من الآخر... قطبان

نحن مشدودان إلى بعض منذ بدء الخليقة، وبداية التّاريخ وميلاد

الكون... آلاف السّنين، بل آلاف آلاف السّنين، وأنا أوّمل لقاءك في مكان

ما، وفي زمن ما. حلمت بك... رأيّتك في منامي... وصوّرتك لقلبي بخيالي،

ولم أحسّ، في يوم من الأيام، أنّك يمكن أن تضيع من بين يديّ هاتين.

أتعرف لماذا؟!

قلت مدهوشا، وأنا في قمة الانصعاق:

صدّقيني، يا مولاتي، إذا قلت لك إنّي لا أعرف شيئا!!

قالت، كأنّما لم تسمعي:

لأنّه، يا أفريدون بن أنفیان بركاو منوشهر كيازيه، مقدّر لنا، منذ

قديم الأزل، أن تكون لي وأكون لك...

قاطعتها:

ولكنّي، يا مولاتي، عبد ودّ: ولم أكن في يوم من الأيام هذا الأفريدون

الأثفياني! أنت، دون شكّ، تمزحين!!

هذا ما يعرفه النّاس عنك: أبوك، جيرانك، أهل الحيّ الذي فيه

بيتك؛ حتّى أنت لم يدر بخلدك أن تكون الملك المتوّج بتاج من زمرد،

والمالك لما تحت السّماء وفوق الأرض. أنا فقط... أنا الملكة سوكاناه،

سلطانة البرّين وخاقانة البحرين، أعرف السّرّ.

قلت كأتّي أخاطب نفسي:

هل يعقل أن لا يعرف الإنسان نفسه؟ ثلاثون سنة، وأنا أعيش

باسم غير اسمي، مع أناس، هم أهلي في الظّاهر، وبيني وبينهم دهور لا

يحصي عددها إلّا الله... ما الحقيقة؟ ما الصّواب؟ وهل حياتي الّتي

عشتها. كلّ حياتي. عبث لا طائل من ورائه؟!

لا تقل هذا، قالت الملكة، وهديّ من روعك؛ فأنت ستكون ملك

الثّقيلين من الإنس والجنّ، وستحكم الأقاليم، وتسوس الجيوش

والعساكر، وتعمّر دهورا، وتولد لك الإناث والذكور... هللّويا، هللّويا،

هللّويا!!

احتضنتني، وشدّتي إلى صدرها بحنان، فوجدت لها ريحا بعث فيّ

طمأنينة لم أشعر بمثلها من قبل؛ ونسيت، دفعة واحدة، ماضيّ الّذي

خلفته ورائي، وامتدّ الحاضر مستقبلا داخل أسوار المدينة عظيمة

البنيان، متينة الأركان!

هتفت من حولي أصوات، تلتها أصوات أخرى؛ وسمعت هتافا غامرا، يترجّع صدها في كلّ مكان:

يعيش أفريدون!

يعيش الملك!

يعيش السلطان!

يعيش مولانا الخاقان!

مشينا . جميعنا .. الملكة والجواري وأنا ويرفع، إلى أن وصلنا إلى برجين من نحاس لهما بابان من الذهب، ولا قفل عليهما، وليس فيهما علامة يهتدى بها إلى فتحهما. تركت الملكة سوكاناه يدي، وتقدّمت نحو أحد الأبواب فوجدت وسطه صورة فارس من نحاس له كفّ ممدودة، ففركت مسمارا في سرتّه اثنتي عشرة فركة، فانفتح الباب في الحال، وكان له صوت كالرعد... سرنا إلى أن دخلنا دهليزا طويلا، نزلنا منه على درجات، فوجدناه مكانا بدكك حسنة، وعليها أقوام موتى، وفوق رؤوسهم التّروس المكّفة، والحسامات المرهفة، والقسيّ الموترّة، والسّهام المفوّقة، وخلف الباب عمود من حديد، ومتاريس من خشب، وأقفال رقيقة، وآلات محكمة.

حثّت الملكة سوكاناه خطاها نحو الجثث الملقاة على الدّك، وتلت كلاما غير مفهوم؛ وتبعها يرفع، فكان هو الآخر يقول كلاما لم أفهمه. لعلّه السرّ الأعظم؟! أو آيات النّجاة؟! فجأة نهض جميع الأموات، أحياء كما لم يكونوا من قبل، وأحنوا هامهم إجلالا للملكة، وهم يردّدون وسط جلبة التّصفيق والصّياح:

تحيا ملكتنا المحبوبة سوكاناه!

يحيا ملكنا المعظم أفريدون!

يعيش الخاقان!

ثمّ سارت الملكة قدما، وأخذت المفاتيح من أذن المدينة، ودنت من باب عظيم، ففتحت أقفاله، وجذبت متاريسه وآلاته، فأزّ الباب أزيزا

كالرَّعد لكبره وعظم حجمه. عندئذ، دخلنا فرأينا البَوَّابين والخدم
والحجَّاب والتَّوَّاب راقدين فوق فرش من الحرير، كلَّهم موتى. استدنتني
الملكة. وقالت باسمه:

.انظر إلى هؤلاء! إنَّهم جميعا عبيدك الآن!

قلت أسألها:

.وهم موتى لا حياة بهم؟

أشارت بيدها البضة إلى حيث الفرش، وقالت بصوت أسر:

.كونوا... كونوا... كونوا!

هَبُّوا جميعا من مراقدهم، كأنَّما كانوا نياما، وخرُّوا سجَّدا يردَّدون:

.تحيا ملكتنا سوكاناه!

يعيش الخاقان!

ودخلنا إلى سوق المدينة، فوجدناها سوقا عظيمة عالية الأبنية،
دكاكينها مفتوحة، وموازينها معلَّقة، ونحاسها مصفوف، وخاناتها مملَّاة
بجميع أصناف البضائع؛ ورأينا التَّجَّار موتى على دكاكينهم، وقد يبست
منهم الجلود، ونخرت منهم العظام وصاروا عبءا لمن يريد أن يعتبر.

قالت الملكة:

.كونوا بأمرى!

فهبُّوا من موتهم يلهبون بالدعاء والثناء.

وذهبنا إلى سوق الخز، فإذا فيه من الحرير والدِّيباج ما هو منسوج
بالذهب الأحمر والفضة البيضاء؛ ثمَّ انطلقنا بعد ذلك إلى سوق
الجواهر واللُّؤلؤ والياقوت، وعرجنا على سوق الصِّبَّارفة. فرأينا فيه «ما
لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر»: دكاكين مليئة ذهباً
وفضة، وجواهر ومصوغا، وعقودا ولآلئ، لا تقدَّر بثمن.

رأيتُ الملكة أحَدَق بعيني الكليتين في الأشياء المصفوفة داخل
الدَّكاكين، فحدست بظنِّها الَّذي لا يخيب أنِّي أشتري كلَّ ذلك، فقالت
بغنة فيها غنج ودلال:

حينما نترّوج، يا حبيبي، ستصبح مالكا لكل ما ترى! ما هو إلا يوم أو بعض يوم حتّى تكون الملك المتوّج أفريدون!

لَمَّا غادرنا السّوق، وجدنا قريبا منه قصرا مزخرفا متقنا، فدخلناه، وإذا فيه أعلام منشورة، وسيوف مجرّدة، وقسيّ موترّة، وتروس معلّقة بسلاسل من الذهب والفضّة، وخوذ مطليّة بالذهب الأحمر؛ وفي دهاeliz ذلك القصر دكك من العاج المصقّح بالذهب الوهاج، عليها رجال قد يبست منهم الجلود على العظام، يحسبهم الجاهل أحياء، وهم أموات قد أتى عليهم ربّ الزّمان؛ وداخل حجرة كبيرة وجدنا أربعة مجالس عالية وواسعة، منقوشة بالذهب والفضّة؛ وفي وسطها فسقيّة عظيمة من المرمز، عليها خيمة من الدّيباج؛ وفي تلك المجالس جهات، وفي تلك الجهات فسقيّات مزخرفة، وأحواض مبلّطة بالرّخام، ومجارتتفرّع عن أربعة أنهر، وتلك الأنهر الأربعة تجري وتجتمع في بحيرة ضخمة مزخرفة بشتّى الألوان. أشارت إلينا الملكة وهي تتقدّمتنا أن:

ادخلوا.

دخلنا المجلس الأوّل، فوجدناه مملوءا ذهبا وفضّة ولؤلؤا وجواهر ويواقيت ومعادن ثمينة؛ ووجدنا فيه صناديق مملوءة بالدّيباج الأحمر والأصفر والأبيض. وانتقلنا إلى المجلس الثّاني، ففتحنّا خزّانة فيه، فإذا هي مليئة بالسّلاح وآلات الحرب من الخوذ المذهّبة والدّروع الدّاوديّة والسيّوف الهنديّة والرّماح الخطيّة والمتاريس الخوارزميّة. وفي المجلس الثّالث رأينا خزائن عليها أقفال مغلقة، وفوقها ستائر منقوشة بأنواع الرّخارف؛ ووجدنا في المجلس الرّابع خزائن موقّرة بشتّى آلات الطّعام والشّراب، جلبها من الذهب والفضّة وسكّارح البلّور.

وبينما نحن نهمّ بالخروج من المجلس الأخير، رأينا بابا من السّاج مبطّنا بالعاج والأبنوس، مصفّحة جوانبه بالذهب الإبريز؛ وعليه ستر مسدل، من حرير أبيض رائق... تقدّمت الملكة، فتبعناها؛ ودخلت فدخلنا وراءها، فإذا دهليز حيطانه مغطّاة بالرّخام؛ وفي جوانبه براقع

عليها صور لأصناف من الوحوش والطيور، وكل ذلك من ذهب أحمر وفضة بيضاء.

دخلنا من الباب، وعبرنا منه إلى قاعة مصنوعة من رخام مصقول منقوش بالجواهر، فوجدنا فيها قبة عظيمة، مبنية بحجارة مطلية بالذهب الأحمر، لم نشاهد في جميع ما رأيناه أحسن منها؛ وفي وسط تلك القبة قبة أخرى ضخمة من المرمر، بها شبابيك مزخرفة؛ قد ازينت بقضبان من زمرد؛ وفيها خيمة من الديباج، منصوبة على أعمدة من الزبرجد، وطيور أرجلها من الزمرد الأخضر، وتحت كل طير شبكة من اللؤلؤ منصوبة على فسقية؛ وفوق الفسقية سرير مرصع بالدرّ والجوهر والياقوت؛ وعلى السرير جارية كأنها الشمس المشرقة، لم ير الزاؤون أحسن منها وجها، عليها ثوب من اللؤلؤ النفيس، وعلى رأسها تاج من الذهب الخالص وعصابة من الجواهر...

اقتربت الملكة سوكاناه منها حتى دانته، وجلست على السرير إلى جانبها، وتلت كلاما غير مفهوم، ثم قالت وهي مغمضة العينين:
. بحق السر الأعظم، وآيات الكتاب الأعصم؛ بحق عزّي وجلالي، وجاهي الذي لا يحدّ، وملكي الذي لا يحصى، ومالي الذي لا يعدّ، كوني سليمة الجسم، شفيفة الروح، بلا فناء ولا موت... كوني أيتها الجارية وقومي!!

وما إن أنهت كلماتها، واستعادت هيئتها الأولى، حتى اضطربت الجارية في مكانها، وقامت نصف قومة، ثم فتحت عينها، ونظرت حولها مليا كأنها تكتشف الكون المحيط بها لأول مرة، وقالت، وقد اكتست نبرات صوتها رقة وعذوبة:

الحمد لله!! اللهمّ أحي من أحياني ومن أمتني فأتمته!!

قالت الملكة تسألها:

ما اسمك، أيتها الجارية؟

اسمي، قالت الجارية وهي تحني رأسها أدبا، كوشك بنت أيرج بن

أفريدون الأثفاني.

وقفت الملكة فجأة، وأمسكت الجارية من كتفها، وهزتها، ثم عانقتها، وهي تقول:

.بخ بخ!! إذن أنت كوشك بنت أيرج!

التفتت بعد ذلك نحوي، ورمقتني بنظرة غامضة، ثم ارتسمت على شفيتها الرقيقتين آثار ابتسامة غائمة، وقالت بغرابة:

.هذه زوجك، أفريدون!

لم أتمالك نفسي من الدهشة. فتحت فمي. أغلقتة. فتحته من جديد. قلت سائلا:

.كيف يتزوج الجد ابنة ابنته?!!

.هكذا قدرفكان! كوشك لك وأنت لكوشك، منذ قديم الأزل!

سألها مرة أخرى:

.ولكن، ألم تقولي إننا سنزوّج، فكيف تفرطين فيّ بهذه السرعة

والسهولة؟! ثم أن تشعري بالغيرة، وأنت ترينني أرفّ إلى ضرّتك؟!

ضحكت بصخب لا يتناسب مع سمتها ومهابتها، وقالت دون تفكير،

كأنّ الجواب كان على طرف لسانها جاهزا:

.لا تراع، أفريدون، فإنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذا الجزع والحيرة.

ثم صمتت قليلا، وسألني:

.أوليس كلّ شيء يرجع إليّ وأمره بيديّ؟

قلت:

.بلى.

قالت:

. فلا ضرر إذن... إنّ الجارية جاريتي، وأنت زوجي؛ وقد انتظرتهما

كثيرا كما كنت انتظرّتك؛ وها أنذا أظفركما جميعا... ستكون المملكة

مملكتك، بكلّ ما فيها ومن فيها، وسأزوّجك كلّ يوم بجارية، وسنعيش

معا إلى أن يحكم الله بأمره.

ومرّت أيّام قلائل، يوم يعقبه يوم آخر، كانت مدينة النّحاس أثناءها لا تهدأ ولا تستريح، تستعدّ لحفل الزّفاف؛ وقد كانت الملكة تشرف على كلّ شيء بنفسها، فتأمر بتزيين القصور، ونشر أعلام الزّينة، وتجهيز الإصطبلات، وتزويد المطابخ بكلّ أنواع المأكّل والمشرب؛ وكنت أنا مضطربا قليلا، لا أفارق القصر الكبير، أسمع الضّجيج في الخارج، وأهازيج الفرّج، وضحكات الجنود الذين كانوا يعدّون ساحة القصر للاحتفال العظيم... والنّاس . هؤلاء النّاس . ما أكثرهم ههنا، يملأون الشّوارع والبيوت ودهاليز القصر؛ دائما لديهم ما يقولون، يحكون، يطلقون النّكات، ويدعون بطول العمر لي وللملكة سوكاناه . أمّ الجميع وملكة المدينة.

وحان موعد الزّفاف أخيرا...

يوم الجمعة، لثلاثة أيّام بقين من شهر المحرم... مدينة النّحاس... ليلا: بنيت بالملكة سوكاناه، وابنة ابنتي، كوشك بنت أيرج، في نفس اللّيلة؛ وقد كانت ليلة ليست من الدّهر؛ وبقدر ما حاولت أن أصفها على هذه الوريقات القليلة، وجدت الكلمات تخونني وتستعصي عليّ. ما أستطيع أن أقوله هو أنّنا عشنا سعداء، في مسرة وهناء حتّى اختطف هازم اللّذات زوجاتي جميعهنّ، فعدت إلى الحيّ الذي فيه تربّيت ونشأت... الكوفة/ ليلا.»



((٣))

سيّداتي،

أوانسي،

سادتي،

هل سمعتم بأعجب من هذه الحكاية؟ هل سمعتم بأغرب منها؟
هل فكّرتم، يوما ما، أنّ خيوطا دقيقة، وبهذه الدّرجة من التّشابك،
يمكن أن تتجمّع، أن تتواءم بوضوح،، لتكوّن ما يمكن أن يكون حكاية
محتملة، حقيقة، دون أية احتمالات للتّصديق أو التّكذيب!!

أنا أعترف أنّه لا يمكنني أن أجيب عن هذه الأسئلة، المتشعّبة،
المشاكسة، المربكة؛ وحاذا أن تتورّطوا، فتصدّقوني، إذا قلت لكم أنّي
أستطيع. أقول لكم هذا، وإنّي أدرك جيّدا ما أقول، وعلى استعداد
أن أثبت لكم، وبالحجج الدّامغة، أنّ صراحتي يحتمّها شعور دفين
بالمسؤوليّة تجاهكم، وشيء آخر لا أستطيع أن أسمّيه: لعلّه إحساس
الرّأوي بأن يكون أميناً حيال قارئه؟! ولعلّه الخوف من تأنيب الضّمير
الذي يأتي هكذا فجأة، ودون مقدّمات، على إثر خيانة صرامة الحقيقة؟
لا أدري تحديدا؛ فقد يكون هذا التّبرير، أو ذاك، أو قد يكون كلاهما
صحيحين؛ وبقطع النّظر عن كلّ شيء، أريد لكم أن تتأكّدوا على الأقل،
أنّي لا أسعى إلى رشوتكم أو كسب تعاطفكم؛ إذ سيّان لديّ، الآن، ما
تشعرون به حيالي.

سيّداتي،

أوانسي،

سادتي،

قبل أن أعر على تلك الوريقات المتأكلة داخل البئر في باحة دارنا، وأقراها، كنت مطمئناً إلى ثبات الأرض تحت قدمي، فلا شكوك، ولا هواجس، ولا منغصات؛ وكنت أعتقد أن لا شيء، مهما كان دامغا ومسيطرا، يمكن أن يحجب عني حقيقة أنني أنا هو أنا، وليس أي شخص آخر؛ وأني ثابت الجذور، ضليع في منابت ماض عريق مولدا ومنشأ ونموا... لا... لا، لم أكن أشك مطلقا أنني ضارب، حدّ النّخاع، في مملكة الانتماء؛ وكلّ شيء من حولي يزودني بذلك الإحساس اللذيذ العذب، بأنّي كائن له أصل، مكتف بذاته، ومتوازن. هل يمكن أن ينسى الإنسان ذكريات ميلاده، وهي تتردّد على لسان أحبّ الناس إليه؟ هل يمكن أن ينسى أولى خطواته، مستندا إلى جدار في باحة الدّار؟ وهل ينسى الحارة؟ الرّفاق؟ الحيّ؟

إنّي أترك لكم شرف الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة العويصة: أنتم الذين تستمعون إليّ مطمئنين، ربّما، إلى استحالة ما أقول: لأنكم بكلّ بساطة لا تجدون مبررا لكلّ هذا اللّفّ الذي لا طائل من ورائه، حسب اعتقادكم؛ أو لأنكم تظنّون أنّ الحقيقة لا يمكن أن تكون البتّة على هذا القدر من التّشعب. إنّي أعذركم!! فلتقولوا ما شئتم، ولتفكّروا كما يحلو لكم، ما دمت أنا نفسي أصبت بخيبة أمل، وأنا أقرأ تلك الوريقات لأوّل مرّة؛ واعتراني شعور غريب، بادئ الأمر، ولا أدري لماذا، أنّ جدّي يريد، وبطريقة ما، أن يجلب الأنظار إليه؛ أو ربّما يريد أن يكون شيئا ذا بال، وسط دوامة الرّتابة التي لا ترحم، في ذلك الحيّ الذي لا يحدث فيه شيء؛ ثمّ أرجع إلى نفسي فأقول: لو أراد جدّي فعل ذلك حقّا، لأظهر الأوراق، فلا يضطرّ إلى كلّ ذلك التّكتّم والعناء... احترت فعلا... كدت أجنّ! صارت تلك الوريقات الغريبة هاجسا لا يفارقني، كأنّها شيء مقدّر عليّ ولا فكاك منه.

كان جدّي يزورني دائما... في الهزيع الأخير من اللّيل؛ ودائما في هالة من الجلال والوقار. وأنا إذ أنسى فلا يمكنني أن أنسى جلسته الهادئة

على ذلك البساط الجميل في غرفته الصغيرة، التي تفتح مباشرة على الباحة، وهويمسك بحبات المسبحة بين أنامله، ويتمتم، أويقراً، أو يترنم بأوراده. وكذلك لا أنسى صوته؛ رفته وعذوبته الأسرة تشدان كل من يتطلع إليه. كان دائماً يحكي عن شيء ما: أيام الصبا، والفتوة، والولادة الذين تداولوا على دار الإمارة بالكوفة، والقراء، وحلقات المسجد، ومن ماتوا، ومن ولدوا. كان ببساطة يريد أن يحكي عن كل شيء؛ غير أنني لم أسمعهُ أبداً يتحدث عن شيء مما كتبه في تلك الوريقات. هل يكون هو حقاً من كتبها؟ ثم، هل كان جدي يجيد الكتابة فعلاً... صدقوني إذا قلت لكم أنني، إلى حد الآن، لا أدري فيما إذا كان جدي يجيد الكتابة أم لا!! كل ما أعرفه أنه كان يتكلم كثيراً... نادراً ما يصمت؛ وإذا ما صمت فإن شفثيه تظلاً تتحركان كما لو كان يتحدث إلى نفسه. هل يكون جدي هو من كتب تلك الوريقات؟ هل يكون هو فعلاً!!

أراه كل ليلة في نفس الموعد، مستقبلاً بوجهه الحائط، وظهري نحوي؛ وحينما تلتقط أذناه المرهفتان تردد أنفاسي، يلتفت دون تردد، وهو يبتسم تلك الابتسامة العريضة، التي كانت آخر شيء يوارى عليه التراب في الحفرة التي دفنوه فيها؛ ونظلاً صامتين، نقول كل شيء دون كلام. من يصدق أن جدي، هذا الكائن الخرافي، الذي كان لسانه أشبه بمديّة حادّة، لا تكفّ لحظة عن الحركة يعتصم أخيراً بالصمت؟ لأنّه قال كل شيء، ولفظ آخر كلماته على تلك الوريقات؟! تكلم، يا جدي. قل أي شيء. ولكن، لا تظلاً هكذا ساكناً كصنم!

قل:

من أنت؟

من أنا؟

من نحن؟

والوريقات، هل صحيح ما كتب فيها؟ وأنت ضحكت علينا جميعاً؛ ولكنّه صامت؛ جدي مضرب عن الكلام! فقط نظراته الموجهة

نحوي دون اتّهام، وابتسامته الهادئة، ويده وهي تتكّ بحبّات المسبحة الصّغيرة، هي كلّ شيء تبقى من ذلك الماضي الذي لا أدري الآن هل هو بعيد حقاً، أو قريب، أو هو وهم، أو صدى لحقيقة ضائعة، وغير مفهومة. قلت لنفسي أخيراً، وأنا أحاول أن أجد مبرراً لتهدئة ثورتي وكفّي عن لجاجتي التي تحوّلت إلى مشاكسة عاتية: «ما فائدة الأسئلة؟ وما فائدة هذا النّيش المحموم في أسرار رجل عاش ببساطة، ومات بنفس البساطة التي عاش بها؟ ولنفرض أنّي عرفت الحقيقة، فما أنا فاعل بها بعد ذلك؟» اقتنعت أخيراً بلا جدوى المحاولة؛ واعترفت، دون أسف كبير، أنّ الأسئلة، مهما كانت عظيمة، لا يمكن أن تفرز غير سراب، وشتات من الأجوبة التي قد تكون هي نفسها مشروعاً لأسئلة جديدة، أكثر إلغازاً؛ وباختصار نفس الدّائرة المفرغة، وهستيريا الجنون على شفا الهاوية!

صرت أشتاق إليه؛ وأقلق كلّما تأخّر عن مواعده. اعتدته حتّى لم يعد لي صبر على فراقه، وأصبح شيئاً أحسّه قرب غشاء القلب تماماً، يصحو وينام، ويضحك، ويبتسم ويبكي، ويحدّثني في صمت؛ وكلّما أفاق قبلي، أيقظني من نومي، فنتعانق، ويلتحم أحداً بالآخر، فأشتمّ فيه رائحة الصّباح النّدي، وأخلط من روائح شتّى، هي رائحة القبر ممزوجة برائحة الحياة؛ ويشتمّ فيّ رائحة الطّفولة الرّاحلة وبدء الميلاذ... لم أعد وحيداً، ربّما في تلك الدّار، بذلك الحيّ على مشارف الكوفة؛ ومشاعر الوحدة والضّيق التي أحسستها تنهش كياني على إثر رحيل والدي ووالدتي عن هذا العالم، تحوّلت فجأة، وبمثل لمسة السّحر، إلى طمأنينة أرقّ من مسّ النّسيم، وقرار أعمق من أغوار تلك البئر حيث دفن جدّي تلك الوريقات. كان نادراً ما يقترب منّي، ورغم ذلك أحسّه قريباً جدّاً، إلى درجة أنّي أكاد ألمس قفطانه بأنامل الطّويلة. وأهجس معه بنفس التّمتمات التي تتردّد، دون انقطاع، على فمه. وفي أحيان كثيرة، أزيح اللّحاف عني، وأنزل من سريرتي بخطوات خفيفة، وأحبو

نحوه، وأدور حول بساطه، وأدور إلى أن أتعب، ثمَّ أطو إلى جانبه كجرو صغير، وأنا أحَدَق فيه.

قلت مرّةً لنفسِي:

. ترى كم عمر جدِّي؟

وقبل أن أجيب، طفرت في مخيلتي صور من بقايا تلك الحكاية، وتذكّرت أفريدون، وجنّي المصباح، وآلاف السنين... آه، كم هو مضمّن أن تفكّر أنّ بينك وبين جدّك، أب أبيك، سنون تمرّودهورا تطوى. انتابني رجفة عنيفة من رأسي حتّى أخمص قدمي، فأجفلت، وضربت صفحا عن الإجابة. قد يستيقظ الغول ثانية، وأنا أريده أن ينام، مرّة وإلى الأبد! فليكن جدّي كأننا من يكون؛ وليكن معمرًا أو لا حظّ له من حياة. المهمّ أنّي أحبه؛ وهذا يكفي الآن!!

أصبحت، مع مرور الوقت وتداول الليالي، أفهم عنه دون أيّ احتمال للخطأ؛ اضطراب شفّتيه صار هو نفسه كلاما، ولقد تعلّمت أنّ تلك الاضطرابات، وهي تختلف وتتجلّى بطرق شتى، أكثر تعبيرًا وصدقًا من الحروف الجافة الميّتة؛ ونظرات عينيه، واندلاقيهما دفعة واحدة على فضاء المكان الفسيح الذي تروّزانه، مستحيلة تلك النظرات، وعصيّة حدّ الإشكال، غير أنّي توصّلت إلى معرفة الأسرار التي تقولان... مرّة، وفي نفس السّاعة، انتظرت جدّي، ولكنّه لم يأت؛ وانتظرت ساعات أخرى، وصرت في كلّ مرّة أمنحه ساعة إضافيّة، على أن يأتي أخيرا ويرجم قلقي، لكن دون جدوى. أحسست بجفنيّ يثقلان، وبأطياف النّوم تتسرّب إليهما، فنمت. كان نوما متقطّعا، مليئا بالكوابيس. آه، ما أمضت تلك اللّيلة وما أقساها! رأيت ظلمة بلا حدود؛ ظلمة في السّماء، وظلمة على الأرض؛ والكون أخذ يتضاءل شيئا فشيئا، حتّى صار بحجم كفّ اليد؛ وفجأة، طفر ضوء شحيح شاحب من مكان ما، وعلت أصوات خفيضة في البداية، ثمّ أخذت في الارتفاع. تراءت أمامي نواقيس كثيرة؛ كثيرة وكبيرة، تشمخ فوق مآذن كنيسة عملاقة؛ ومسوح لا تعدّ، تتضامّ،

تتجمع، تقترب من بعضها، ثم تلتحم، مخترقة بابا عظيما إلى صحن غاية في الاتساع... هدأت أصواتهم ووشوشاتهم رويدا رويدا، وشرأبوا بأعناقهم ناحية كوة صغيرة في الأعلى. كانت الكوة تكبر وتتضخم؛ وتكبر وتتضخم؛ وولج عبرها تابوت مغطى كله بالسواد، ولا أحد يحمله، وطار حتى حطّ وسط الحلقة، وانفتح... فظهرت جمجمة مفزعة، وهي تقهقه بصخب، علت همهمة مكتومة. صارت الهمهمة احتجاجا. بدأت الحلقة تتفكك، والمسوح تتطاير. انقلبت الجمجمة كلبا ضخما أخذ ينبح بعنف. جرى الكلب. هرب الجميع. جرى الكلب سريعا. لم يتوقف. جرى الكلب بأقصى قوته. شعرت به يقترب مني، حتى أحسست بأنياه تنغرز دون رحمة في ريلة ساق. صحت عاليا، استيقظت. اختفى كل شيء، ولم أرحولي سوى ظلمة كانت تكتنف كل الغرفة.

في الليلة الثانية، كنت قد يئست من قدومه؛ فأويت إلى فراشي مبكرا، وشدت اللحف حول جسمي بعناية. كنت أستشعر موجة البرد تتسرب إلى بدني، فقد كانت الريح تعوي في الخارج، وأثار بروق تنعكس على زجاج النافذة بين الفينة والأخرى. غطيت رأسي، وأغمضت عيني، غير أن أطياف النوم أبت إلا مشاكستي؛ وتقلبت كثيرا في الفراش، وأزمنت الهوض أخيرا، ولكن موجات البرد المتدفقة من كل مكان لم تشجعني على ذلك، فظللت لاطيا في ركن من السرير. لا أدري كم مرّ عليّ من الساعات، وأنا على تلك الحال. ربّما ساعتان أو ثلاث... وفي حمى القلق والانزعاج والتوجّس، صوّبت عيني، دون قصد، تجاه النافذة، فشدّني التماعات البرق المتقاطعة، وهي تظهر وتغيب، تضيء الغرفة الموحشة للحظة، ثم تعود دياجير الظلمة القائمة لتمسح في طريقها كل شيء... ثقل رأسي، فسقط لا إراديا بين كتفي؛ واستغرقت بضع ثوان لأستعيد توازني وأصحو من جديد؛ وبينما أنا أزيح اللحف قليلا، لأحرّر يدي وأبعد بعض خصلات الشعر النافرة عن عيني، استرعى انتباهي دفق من الضوء، كثيف بلا حدّ، غاية في الضخامة، كأنه مارّد على

استعداد لقلب العالم رأسا على عقب؛ ورأيت فوقه شيئا مستطيلا،
لم أتبينه جيدا، لكثافة الظلّة والسّواد في الدّاخل... دققت النّظر
جيّدا... انسحبت من السرير رغم البرد القارس... تقدّمت على أطراف
أصابعي حتّى بلغت صدر الغرفة... رأيت النّافذة تنفتح، وحدها، وتطقّ
مصاريعها على الجدران الجرداء... دخل ذلك الشّيء، وبدأت ملامحه
تتّضح في ذاكرتي، فإذا هو البساط، وجديّ يوجّهه بحرص نحو نقطة
غائمة، في مواجهة الباب تماما... بدا لي جديّ غريبا، هذه اللّيلة، رغم
أنّي لم أجد صعوبة كبيرة في التّعرف إليه: وسألت نفسي ما هو الشّيء
الغريب فيه يا ترى؟ وشملته بدقّة متناهية لأجد الجواب: المسبحة
ذاتها، والعينان هما هما لم تتغيّرا، والشّفتان لا تكفّان لحظة واحدة
عن الاضطراب...

قرأت في عينيه:

ما لك تتطلّع إليّ هكذا كأنّي لست جدّك؟

قلت له، وقد أردت أن أكون صريحا معه:

إنّي أجدك غريبا، هذه اللّيلة، يا جديّ، ولا أدري لماذا؟

لم يجر جوابا. عيناه انطفأتا فجأة. وسكنت شفتاه. وساد صمت
ثقيل بيننا.

تراجعت إلى الراء، وجلست على حافة السرير، وأنا مستغرق، لا
أكاد أجد مستقرا، في مؤخرة رأسي، لأفكاري المشتتة. «لا شكّ أنّ هناك
سرا ما!» لكنّ صوتا غافيا بداخلي قال: «ألم تتفق على الصّمت، وعدم
طرح أسئلة لا جدوى منها؟» صوّبت رأسي في اتّجاه الفراغ. وقلت محاولا
إيجاد مبرّر لرّدّة فعلي: «إنّ الأمر هذه اللّيلة مختلف، مختلف جدّا...
جديّ اختفى اللّيلة الماضية، وهي اللّيلة الوحيدة التي يتأخّر فيها عن
موعه منذ أن بدأ يزورني... وعيناه الآن انطفأتا تماما، فلم يعد فيهما
كلام، وشفتاه أيضا كفّتا عن الحركة. أليس كلّ ذلك غريبا؟!»
نطّ صوت. بدا محايدا، وهو يقول:

.مرحبا بك.

التفت. كان جدي. يا إلهي، إنه يتكلّم أخيرا. أمن أجل ذلك انطفأت
عيناه. وسكنت شفتاه؟ هرولت نحوه. كنت أريد أن أعانقه. أوقفني
بإشارة من يده. في نصف الطريق إليه. أردت أن أعصى أمره. فحرّكت
رجلي، غير أنّهما لم تطاوعاني. قال:

.قف، ولا تتحرّك!

سألته، وأنا على وشك البكاء:

.ولماذا، يا جدي؟

صفعني صوته، وانصبت عليّ كلماته كالرصاص المذاب:

.أنا لست جدّك... أنا لست جدّك... أنا لست جدّك...

.ولكن، لماذا؟ صرخت، وأنا أنشج.

كان الأمر عصيّا على الفهم، وصعب التّصديق في أن. قرصت خدي
أكثر من مرّة، وأغلقت عينيّ، ثمّ أعدت فتحهما. قلت: «لعلني أحلم!»
لكن عبثا؛ فنفس الوجه الذي غدا قاسيا، وجه جدي، يتطلّع إليّ في
صمت، وقد فارقت عذوبته ورقّته، وعيناه اللّتان طالما حاورتاني، وهما
تفيضان تحنانا، ترمقاني الآن في اتّهام. ماذا يحدث في هذا العالم؟ لماذا
كلّ هذا التّناقض؟ كنت أفهم جدي، وهو صامت؛ وبمجرّد أن يتطلّع إليّ
أدرك ماذا يريد، وفيما يفكر؛ وعندما تكلم صار يلغز كثيرا. صار غريبا
عنيّ.

سمعته يقول:

ابحث عن نفسك من جديد!

قلت أسأله:

.أولست أنا هو أنا؟ وأنت جدي؟

قال، وقد أصبح برما بالحديث:

.السّرّ تجده عند المقبرة!!

واختفى. نطّ به البساط فوق تلك الموجة من الضّوء، ودلف من

النَّافذة إلى الخارج فابتلعتة سجوف الظَّلام. عدوت خلفه، وأنا أوَمِّل أن ألحق به، فاصطدمت بالحائط وسقطت على الأرض؛ الرَّجُلان أوَّلا، وسائر الجسد، ثمَّ الرَّأس. حاولت أن أجنَّب رأسي الارتطام بالأرضيَّة المبلَّطة الباردة؛ بسطت كفي... وضعتهما جنبا إلى جنب، في الاتجاه الَّذي ظننت رأسي سيسقط صوبه، غير أنَّه انحرف في اللَّحظة الحاسمة، ودون إرادة مِنِّي، فأحدثت سقطته صوتا مكتوما أشبه بصوت رصاصة على الجدار. شعرت بشيء يسيل من أنفي، دون انقطاع، ووضعت احتمالات شتَّى لما يمكن أن يكون؛ وذهب بي التَّفكير بعيدا إلى درجة أنَّي نسيت أن أرفع يدي لأتحسَّس ذلك السَّائل اللَّزج الحارَّ... رجعت بي الذاكرة سنين عديدة إلى الوراء، عندما كنت صبيَّا ألعب مع صبية الحيِّ برأس الطَّوار، فتذكَّرت مواقف مشابهة. في تلك الأيَّام، كنَّا نلعب سويا، فنتهارش، ونتقاذف بالحجارة، ويصيب بعضنا البعض، فتسيل الدَّماء أنهارا. ورغم الجراح الدَّامية، والرَّضوض، لا نجرأ على البكاء، فنضحك لنقهر الألم، ونثبت أننا رجال. من يبكي نقول عنه إنَّه «حرمة»، أنثى، لا تستحقَّ غير الضَّرْب لتتعلَّم الصَّبْر على البكاء، فلا يعود ثانية للعب معنا... ينزوي عنا... يختفي إلى الأبد. كنَّا جميعا نكابد آلامنا، نعصَّ على شفاهنا بأسناننا ونصمد؛ فلا دموع، ولا أهات ولا نسيج. لا وجود لزعيم بيننا لأنَّنا كنَّا جميعا زعماء!! الآن، وأنا أتذكَّر تلك الأحداث الموغلة في تلافيف الذاكرة، انفجرت برك الدَّماء أمامي، فخفت، وضغطت على صدري رهبة لا تقاوم. ضحكت من نفسي بقهر، وقلت: «يا للعجب! أنا صغير أكثر رجولة مِنِّي وأنا كبير!» رغم ذلك، ومحاولتي ضبط فزعي، ظللت أرتجف، وظلَّت قشعريرة خفيفة تشايعني، وتشهدني على ضعفي. اللَّعنة! كيف يمكن لقطرة صغيرة من الدَّم أن تفجِّر طوفانا من المشاعر المتباينة؛ وماذا لو لم تكن قطرة واحدة؟!... فلتكن ما تكون! لتكن أودية، أو أنهارا، أو بحارا، أو محيطات!... ومع ذلك جبنْتُ، عزَّت عليَّ الحياة، وخشيت أن يكون

الأمر أخطر ممّا تصوّرت. رفعت كلتا يديّ، وأحطت بهما أنفي، فغطّستنا في بركة من الدّم المتخثّر. قمت، وأنا لا تكاد تحملني قدماي، واتّجهت صوب السرير، فأخذت اللّحاف، ومسحت به مكان الإصابة... هو ذا أنفي يرعف، والدّم يسيل! والسبب هو جدّي:

أين تراك ذهبت، يا جدّي؟

ولكن لا أسمع غير صدى صوته، وهو يتردّد داخل الغرفة، رتيباً، محايداً، ثقيلًا:

السّرّ تجده عند المقبرة.

قلت لنفسني، وأنا أشعر ببوادر إغماء:

المقبرة... المقبرة... المقبرة!

في غضون ربع ساعة تقريباً، كنت أغطّ في نوم عميق؛ ولحسن حظّي مرّت تلك اللّيلة دون كوابيس، وقد نسيت أثناءها جميع ما حدث لي، حتّى أنّي لم أعد أحسّ بتلك الغصّة الجاثمة على صدري جرّاء رحيل جدّي، وارتطام رأسي بأرض الغرفة... نهضت ثالث يوم خفيفاً نشيطاً؛ نمت كثيراً، أربع عشرة ساعة كاملة، لا تنقص دقيقة، ولا تزيد دقيقة واحدة؛ وطالعي من النّافذة، الّتي لم تكن مفتوحة كما توقّعت، مشهد ليوم جميل أدخل البهجة على قلبي. كانت الشّمس تتلكّأ فزعة وراء جزر السّحاب الغازية، وحبّات المطر ترتطم بالزّجاج، وتتكسّر فوقه؛ وصوت الرّعد يتواتر، كما لو كان أغنية يتردّد صدى كلماتها في شغاف القلب... نططت من على السرير، وعبرت فضاء الغرفة حافياً، إلى حيث النّافذة، ففتحت مصاريعها، وعبيت من ندى الصّباح الطّريّ بعمق. سرت البرودة في أوصالي، وتسرّبت إلى رثتيّ، فتمطّيت، وأفردت وجهي، فجاء الرّذاذ فاستقرّ فوقه، وهو يضحك، دون وجل أو مبالاة... هزم الرّعد ثانية، أعنف من ذي قبل، وأومض البرق متقطّعا جهة الشّرق، وغدا الرّذاذ وبلا جارفا... خطوت إلى الوراء: خطوة، خطوتين، ثلاث خطوات؛ وتوقّفت! ماذا... سأفعل... هذا اليوم... يا ترى؟ أين يمكن

أن أذهب في هذا اليوم الماطر المكفهر؟ كانت نشوتي طاغية بلا حدود؛ ومنظر المطر أقوى من كل شيء عداه! لم أعد أذكر شيئاً مما وقع لي، ونسيت جلّ الأسئلة التي كانت تصطرع داخلي في الليلة الماضية؛ والأغرب من كل ذلك، نسياني المباغت لاختفاء جدي، وموعد المقبرة!! عشرة أيّام تمرّ، بأيّامها ولياليها، وأنا لا أغادر الدّار.

عشرة أيّام تمرّ، والمطر لا يكفّ، ومنظره يزداد التصاقاً بمخيّلي، يحثّني على المكوث داخل الغرفة. كنت أكل، وأشرب وأنام؛ ونادراً ما أخرج إلى الباحة لأطلّ من خلالها على رفيف البيوت المنتشرة على جانبي الزّقاق، فيروقي الصّمت الشّامل، وخلق الشّارع من السّابّلة، وآثار الجلبة والضّوضاء. حينما ينزل المطر، يكون النّاس جميعهم، الرّجال والنّساء، وحّى الصّغار داخل البيوت، متحلّقين حول المواقد، يتحدثون ويثرثرون ويضحكون. وإذا ما أحسّوا بالجوع أكلوا؛ فإذا شبعوا، وضعوا إناء الشّاي على النّار، وشرعوا يهينّون المجلس لحكاية قد تطول، عن ابن الملك الهمام والأميرة النّائمة في القصر المسحور.

«كان يا ما كان، في قديم الزّمان...»

أمّا أنا، فلا رفيق لي، سوى الجدران الكالحة، التي تحوطني من كلّ مكان؛ ولا صاحب لي غير الصّمت. كان لا بدّ لي من شيء أفعله في عزّلي. صرت أقرأ... قرأت في البداية بتلكؤ، ولم أكن أتخيّر ما أقرأه؛ ثمّ أصبحت أقرأ بنهم، وقد شغفت بأقاصيص الغيلان، ومغامرات الجنّ، وعالم السّحر والسّحرة. كان الوقت يمرّ بسرعة، دون أن أشعر به؛ وقد تمرّ السّاعة تلو السّاعة، وأنا مختل بكتاب أو مخطوط في غرفتي، على السرير، ولا أدعه حتّى آتي على آخر ما فيه. حينئذ، تكون الشّمس قد أذنت بالمغيب، والحركة الوجلة، الحيّية، قد خفّت بالزّقاق، وسطع القمر جميلاً... مستديراً كالعرجون القديم.

صباح اليوم الحادي عشر، هدأ المطر أخيراً، وعادت الشّمس إلى الظّهور... إنّه الرّبيع!! وشيوخ الحيّ يقولون: «لا تأمن لفصل الرّبيع،

فأوله برد وعواصف، وأوسطه ربح كريح الخماسين، وآخره الحرارة والقرف!« لم ألق لهذه الحكمة بالا، وإن فكّرت بها قليلا. وظلّ بصري مشدودا إلى غمر الأشعة الساطعة التي كانت تتسرّب عبر شقوق النافذة، وتدخل برعونة فتتمطّل على الأشياء الغافية داخل الغرفة. سرت آثار فرحة قديمة بداخلي، فاستعدت لذاذة الأيام العشرة الماضية الأخيرة، وتمنّيت، لأول مرة منذ أن قرأت وريقات جدّي، لو يجيئني جيّ الخاتم أو المصباح، ويأخذني بعيدا إلى جزيرة لم تطأها قدم إنسان، فأبدأ الحياة من جديد، وأنسى تماما أنني كنت يوما أبحث عن شيء مستحيل، وأنّ الأرض قد ماتت بي فجأة، حين اكتشفت سخافة القدر الذي حرمني، في طرفة عين، اعتراف جدّي بحفودتي!

طنّ صوت في رأسي، لم يكن الصّوت بعيدا؛ إنّه آت من الدّار المجاورة لبيتي تماما. كان الصّوت قصيرا، حادّا، مكتوما، مؤثرا. لم يكن عاديا. كان أشبه بالعويل أو النّواح. بلى، بلى، هو كذلك. من مات يا ترى؟ طفل صغير هو أم شيخ فان؟ إن كان شيخا، فذلك أفضل، يكون قد استراح وأراح؛ أمّا إذا كان طفلا، فيا للخسارة... علا الصّوت، لم يعد منفردا. صار الصّوت أصواتا متشابكة... تنوح... أصوات نساء، بلا شك... كان صوت امرأة بعينها يعلو، فيطغى على الأصوات جميعا، يبتلعها. لابدّ أنّ المصباح جليل. أأكون هي الثّاكّل؟ أأكون هي من ترمّلت؟

خرجت من الغرفة، إلى الباحة الفسيحة، وجذبت باب الدّار ففتحته، ثمّ خرجت إلى الرّزاق... لم يعد ساكنا هادئا كما كان منذ عشرة أيّام خلت، كما لم يعد خاليا من المازة والسّابله... ضوضاء وجلبة في كلّ مكان، من بداية الرّزاق، حتّى نهاية الطّوار... أطفال صغار يتهارشون في المؤخّرة، والنّساء يتطلّعن من فتحات الأبواب المواربة، وهنّ يولولن ويلطمن خدودهنّ، والكهول من الرّجال يحملون على أكتافهم نعشا في الوسط، والشّيوخ تلهج أصواتهم بالدّعاء وقراءة القرآن... اندسست بين الجمع... شققت طريقي بينهم... ضاقت الحلقة من حولي، فدفعت

الرَّجال بمنكبي... نَزَّ عرق بارد على جبيني، وغزني حرارة مفاجئة،
أحسست بها تنتشر في كلِّ ذرَّة من مسامي، وكلِّ خلية من خلاياي...
خطوت بمشقة... قلت لا بدَّ أن أنقذهم... اقتربت أكثر، وأكثر... صرت
بجانب النَّعش من ناحية اليمين... رجال يقرأون سورة «الرَّحمان»...
كانوا على وشك إنهاؤها... حاولت أن أمسك بمقبض النَّعش... أن
أساعد. قال لي أحدهم، لا أدري من هو، ولم أكن قد رأيته من قبل:
فيك بركة... هناك كفاية؛ وليس الرِّجال في حاجة إلى مساعدة!
ثم صمت هنيئة. وقال سائلا، وهو يحاذيني:
لماذا لم تأت إلى المقبرة من قبل؟ هل كنت تحسبني أكذب عليك؟
ثم:

. إني أعجب لكم، معاشر الإنس، لا يكفيكم التَّلْميح، حتَّى
تستعيضون عنه بالتَّصريح... هذا الميِّت في النَّعش أنا قبضت روحه
لأجل أن أذكرك بالموعد... كنت متأكدا أنك ستخرج أخيرا، إذ لا بدَّ لك
أن تخرج في النَّهاية!!

ضربت جبيني بباطن كفي، وبدأت أتذكّر. عاودتني ثانية جميع
الأحداث الَّتِي وقعت لي منذ عشرة أيَّام، وطالعي منظر جدِّي كما كنت
رأيتَه آخر مرَّة، ورنَّ في رأسي صوت ارتطامي على بلاط الغرفة... رفعت
يدي وتلمَّست أنفي... ظننت، من هول المفاجأة، أنَّي سأجد بركة الدَّم
هناك، طافية من جديد.

التفتَ إلى مخاطبي. لم أتيَّين ملامحه برغم ضوء النَّهار؛ قلت:
من أنت؟

لم تسأل؟

. أريد أن أعرف من أنت. ألسنت جدِّي؟

جدِّك مات... أنا لست جدِّك!

. فمن أنت إذن؟

. أنا صوت بداخلك.

ولماذا هربت مِنِّي إذا كنت صوتا بداخلي؟
لأذكرك...

قاطعته:

لتذكّرني بماذا؟

بأنّك أنت لست أنت!

ضحك عاليا. كان ضحكه معريدا. رأيته يطير. ويحلّق في السّماء.

ثمّ يختفي!!

اصطفّ الرّجال حول القبر، صفوفًا أربعة؛ المشائخ والقراء في الصّفّ الأوّل، والكهول في الصّفّ الثّاني، وأنا في آخر الصّفّ الثّالث، وحيد، منعزل، تتناهى إليّ الأصوات كما لو كانت آتية من قاع بئر بلا قرار. وهي أقرب إليّ من حبل الوريد. رأيت في غفلة مِنِّي، رجلين طويلين، عليهما بياض، يتقدّمان بالميت مواربا في أكفان بيضاء، وينزلان به إلى الحفرة. وقد أفسح لهما الجميع الطّريق، ويضعانه، ثمّ يصعدان ثانية، وتلتئم الحلقة، كما في أوّل مرّة... ترتفع أصوات الشّيوخ مدويّة، مجلجلة... سور تتلوها سور... «يس». «تبارك»... وآيات في إثر آيات... والدّعاء لا يني ولا يتوقّف أبدا: «اللّهمّ إنّه عبدك... اللّهمّ إنّ عظمه دقيق... وجلده رقيق... اللّهمّ تجاوز عن سيّئاته إن كان مسيئنا... وإن كان محسنا فأسكنه، يا ربّ، فراديس الجنان.» وتفتح أكياس من الخيش، يفتحها شابّ فارغ الطّول خلف الجمع الملتئم حول القبر، والأولاد يحيطون به من كلّ جانب كأنّهم الذّئاب الصّغيرة الجائعة، فيوزّع الخبز عليهم: «كلوا... كلوا... كلوا... وقولوا: الله يرحم فلانا... الله يرحم فلانا»... وتقفر المقبرة أخيرا؛ كما جاء الرّجال يرحلون، ولا يبقى أحد سواك... تقفر المقبرة الرّحبة، إلّا منك، وأنت تنظر في الفراغ، لا تدري هل تروح أم تبقى. يصيبك الإعياء، فتلجأ إلى ظلّ صخرة، وتقعي حذو قبر أمّك «هل هي أمّك حقّا؟» و«أبوك، ما اسمه؟ هل هو صابن أم الأشرم؟ وهل هو أبوك حقّا؟»... تمرّ الدّقائِق ثقيلة، أشبه بالسّاعات،

وتمرّ السّاعات أثقل من الموت، وأنت ما زلت تنتظر شخصا، أو شبعا، أو طيفا، أو صوتا، قد لا يأتي أبدا... أصابك الضّجر، ومللت الانتظار، فقمّت... مشيت على طول المقبرة في اتّجاه البيت... كنت تريد أن تعود إلى الدّار... إلى الغرفة... إلى كتبك... وإلى المطر. هل تمطر اليوم؟ قلت: «لا أظنّ! فالسّحائب اختفت، والسّماء تتفجّر نارا كنار جهنّم!»... التفتّ وراءك... لم يطالعك في البداية سوى منظر الصّحراء، وتراءى لك السّراب البعيد بركا لحيّة لامحدودة المرامي... وأنت تميل برأسك إلى الأمام، خيل إليك أنّك رأيت شيئا... كان يشبه الطّيف... التفتّ ثانية... رأيت هذه المرّة بوضوح... كان يتبعك، أو هكذا ظننت... أردت أن تتأكّد: توقّفت قليلا! توقّف هو أيضا... سرت من جديد، وأنت تسترق النّظر إليه... رأيت يسير وراءك. قلت في نفسك: «إنّ له لشيئا!» وقرّرت أن تذهب أنت إليه... حثثت الخطى، وأنت تكاد تجري... لم يعد بينك وبينه سوى بضع أذرع... صدمت... بغت... دهشت. ما هذا المسخ، يا إلهي؟ من أيّ عصر جاء؟

جميع من عرفتهم، وتعوّدتهم عيناك في الحيّ، بل في الكوفة كلّها، لهم شوارب تتفاوت طولاً وقصراً، وعرضا وكثافة؛ لكنّ لهم شوارب على كلّ حال، ويطيلون لحاهم، لأنّ أجدادهم، وأجداد أجدادهم من قبلهم كانوا يفعلون ذلك، ويرون من غير اللاّئق أن يحلّوا بدعة ويعطلوا سنّة. أمّا هذا الذي تراه أمامك، ولا يفصل بينك وبينه إلا رمية سهم، فغريب إلى أبعد حدود الغرابة. فلا هو مثلك، ولا هو مثلهم. أين لحيته؟ يا إله السّماء، إنّه أمرد، حتّى أنّه لا يملك شاربا يزّين به وجهه! أيكون لوطيّاً؟ أو مخنّثاً...? لكنّ مشيته سليمة، رصينة، وردفاه لا يميلان، وهما عاديان ولا أثر فيهما لإغراء أو فتنة، وجهه عموما تشوبه مسحة من وسامة، مستحبة، حيية، غير صارخة! ما له إذن...؟ وتدقّق فيه النّظر جيّدا، تلتهمه بعينيك الذّبيبتين المكتشفتين، من رأسه إلى أخمص قدميه. ملابسه أيضا غريبة:

لا يضع طاقيه...

ولا حتى عمامة...

لا يلبس قفطانا...

ولا عباءة...

لم تر سراويل فضفاضة:

ولا شيء من ذلك...

حتى نعال الخصف لم ترها!

شعره الأسود، الفحمي، الطويل نسبياً، عار، لا يغطيه شيء، وقد استرسل بليونته على أذنيه فغطأهما؛ وفي عنقه ياقة، حمراء زاهية، فوق قميص أبيض من التيل. وقد ارتدى فوق ذلك سترة سوداء، تتخللها خطوط طولانية بيضاء؛ وبدل السراويل الفضفاضة، كان يلبس سروالاً ضيقاً طويلاً، شدّه بحزام في الوسط؛ وانتعل في رجليه حذاء أصفر فاقع اللون... لم تكن تعرف هذه الأشياء من قبل! فكيف وجدتها حاضرة على لسانك؟ هل أنت ملهم؟ أم مجرد ظهور الرجل جعلك تتعلم لغة جديدة، وتذرف لغة الآباء وراء ظهرك؟ «لكن، مهلاً»، قلت لنفسك، «وما يدريني أنهم آبائي؟» وأضفت بسخرية: «ألم يتنصل مني جدي، وهو أقرب الناس إلي!!»

ربعة، يميل إلى الطول، متناسق التكوين، مع استعداد لبدانة قد تداهمه في سن متأخرة، يبدو عليه الهدوء، ملامحه رقيقة، دقيقة، لا تشي بانطلاق أو حياد، ساكن، ثابت، رابط الجأش، ورغم غرابة المكان، لا يبدو عليه الارتباك أو الخوف، فمه صغير، تزينه ابتسامة، عيناه متجهتان نحوك بإصرار، تدعوانك. كان واقفاً؛ لم يتقدم؛ وهو، على ما يبدو، يتوقع منك أن تسير نحوه. حزمت أمرك، رغم التردد الذي انتابك في اللحظة الأخيرة، وتقدمت باتجاهه. أشار إليك بإصبعه أن اجلس، ودس يده اليسرى في جيب سترته، فأخرج شيئاً بحجم راحة الكف، وقبل أن يمدّه إليك، قال:

إنّ عندي لك أمانة؛ وها هي فخذها.

وبسط يده نحوك.

ثارت بداخلك مشاعر ملعونة مؤرّقة، فكدت تنفجر تحت وطأتها... أحسست كأنّ أسياخا مدبّية الأطراف تخترق جسمك رائحة آبية، وأنت تننّ وتطلب النّجدة، غير أنّ كلماتك تذهب سدى، وصوتك يتلاشى... راجعت كلّ شيء في ذاكرتك، منذ عشرة أيّام خلت، وحاولت أن تجد رابطا منطقيا لكلّ هذا الكمّ البغيض من الأحداث المتعاقبة الملعونة، فلم تظفر بغير شتات من الصّور المحطّمة، والأصوات المتقطّعة المهمة، والأسرار والخبايا. ما معنى كلّ هذا؟! ولماذا كلّ الذي يحيطك يبدو موعلا في غرابة بلا حدود؟!

من القهر نطقت. لم تستطع السيّطرة على صوتك، فخرج غاضبا مشرّشا:

لكن قل لي من أنت؟ ولماذا أتيت؟ ومن أرسلك؟

وسكّت قليلا، وأنت تلهث. تنقّست بعمق، ورزته بنظرة شزراء؛ وحينما لاحظت أنّه يفتح فمه ليتكلّم، قلت مستفسرا:

. ألا يجوز أن تكون مرسلا لشخص آخر غيري؟ قد يكون الذي أرسلك سمّى لك شخصا آخر، فأخطأت أنت تقدير العنوان؟!

ربّت على كتفك بصدّاقة، وقال وهو يبتسم:

. على رسلك. لا تكن لجوجا. سأحكي لك كلّ الحكاية، لكن قبل كلّ شيء، خذ هذه البطاقة، فإنّها تخصّك.

سألته:

وكيف عرفت أنّها بطاقتي؟

قال، وهو يحاول أن يفلسف الأشياء بطريقته الخاصّة:

. لا يمكن للإنسان أن يخطئ في مثل هذه الأحيان، خصوصا إذا كانت البطاقة تحمل اسمك وعنوانك، واسم البلد الذي ولدت فيه وترعرعت؛ وفوق ذلك كلّه، تحمل صورتك.

.وما هذه البطاقة؟ إني لم أحصل على شيء كهذا إلى حد الآن، وأنا على مشارف الخامسة والعشرين، وولاتنا لا يعطوننا شيئا مما تتحدث عنه!

. بلى، بلى: قال ذلك الرجل. هذه البطاقة تخصك، وهي بطاقة هويتك...

قطع كلامه. قطّب جبينه دلالة الاهتمام، وبدأ مستغرقا كأنه يتذكر شيئا، ثم قال:

. لا أريدك أن تعتقد أنك تنتمي إلى هذا العصر؛ فهو ليس لك بعصر!!

وبعد هنيهة:

. ألا تعلم كم يفصلك من السنين عن هذا العصر؟

قلت:

. كلا.

قال بنبرة تأكيد:

. إن بينك وبينه لدهرا... نيّف وأربعمائة وألف من السنين.

. والحيّ، والحارة، والدّار، وأهلي... وجدّي، وكلّ الذين عرفتهم ههنا ونشأت معهم، ما شأنهم؟ سألتهم معولا.

. كلّ ذلك وهم فلا تصدّقه. لا تصدّقه...

. لماذا؟

. لأنّه مقدّر عليك أن تعرف نفسك مرتين، أوروبّا أكثر من ذلك! الآن،

أنت إنسان جديد.

صمّمتا كلاكما، وأنتما جالسان متقابلين، وجه أحكما يرنو إلى وجه الآخر... قرأت كلاما كثيرا تنطق به ملامحه، ولا تدري هل قرأ هو أيضا. مثلك. أشياء على وجهك. حرصت أن تكون غامضا، فلا تكشف نفسك بنفسك، وأغلقت كلّ جارحة فيك بالمرتاج الذي أدركته في القفل ثلاثا. وختمت عليه بالشّمع الأحمر... لا شك أنّ أمرك افتضح... لم

تنجح؛ فيها هو ذا يتطلع إليك، وابتسامة كبيرة تغزو كل وجهه... لا بدّ
أنّه عرف السرّ، كلّ شيء عنك، دون استثناء... استعدّ: لقد أصبحت
الآن عرضة لكلّ الضربات. ضرباته، وأتاهاماته، وربما أسئلته التي ما لها
حدّ... أدخل يده في جيب سترته ثانية، وأخرج علبة صغيرة، فضّ طرفا
منها، وسحب شيئاً غريباً مدّه إليك.

سألته:

ما هذا؟

قال، وهو يضحك:

إنّها سيجارة. وأنا أدرك أنّك إذا جرّبتها ستعودّ عليها... إنّها لذّة...
يذّة.

وما سيجارة؟ قلت متسائلاً بكلّ براءة.

إنّها دخان تسحبه إلى صدرك، فتتنفّسه رتاك، ثمّ تطلقه في الهواء
فينعقد حلقات متكاثفة. ثمّ يتلاشى، وهكذا دواليك إلى أن تتقلّص
السيجارة فترميها أرضاً. هل فهمت الآن؟
وما الفائدة منها إذا كنت سترميها؟

. ستشعر بنشوة إذا دخّنتها؛ وإذا كانت لديك مشاكل، سينسيك
الدخان إيّاها. أما إذا كنت غاضباً، فستهدأ ثورتك بمجرد أن تشعل
السيجارة، وتجذب النّفس الأوّل إلى صدرك.
ثمّ أضاف بخبث، وهو يسعى إلى إغرائك:
وأنّت، على ما أظنّ، غاضب الآن وتحسّ بقهر.

ومدّ يده بالسيجارة مرّة أخرى، فلم تقدر على ردّها؛ أخذتها منه
فأشعلها لك، غير أنّك لم تغامر مباشرة. انتظرته ريثما لثم سيجارته،
وشفط أنفاساً، فاندلق الدخان من أنفه وفيه، وكوّن سحائب متكاثفة
فوق رأسه. جاريته... قرّبت السيجارة من فيك على وجل. كانت يداك
ترتعثان. وضعتهما بين شفّتيك، وضغطت عليها بأسنانك، فكادت
تنكسر. كان يراقبك... يلاحظك بكلّ دقّة، وقد كشف طفوليّة موقفك.

ضحك بصوت خفيض متواطئ، وقال لك:

. لا تضغط بعنف... تمهل... لا تستعمل أسنانك؛ فقط ضع
السيجارة بين شفتيك. هكذا... اجذب الآن... أحسنت... دع صدرك
يمتلئ بالدخان... املا به رئتيك... أطلق الآن... أجل... هكذا... أحسنت.
أحسست بحرقه في حلقك، وأنت تنفث الدخان. سعلت بشدة،
وسال لعابك على شعر لحيتك، واتسخت ثيابك... لم تيأس، رغم ذلك،
وجذبت الدخان ثانية إلى صدرك، فوجدت طعمه لذيذا... شجّعك
بإيماءة من رأسه، فابتسمت له، وعدت إلى سيجارتك تلتهمها برغبة،
وقد ذهب عنك بعض ما بك من توتر وانفعال... رميت عقب السيجارة،
ومددت يدك إليه... ابتسم... أخرج العلبة، ونظر إليها هنيئة، ثم
أعطاكها كلها... أخذتها بكلتا يديك؛ وقلت له ممتنا:
شكرا.

فقال لك:

. ولماذا تشكرني؟ عندما تعود يوما ما إلى بلدك، ستعتاد كل شيء؛
ولن تكون مضطرا إلى شكر أي أحد... كل ما تفكر فيه، تفعله دون أمر،
وبكامل حرّيتك. ستصبح مواطنا.
وضحك. لم تسأله حتى لا يكتشف جهلك. فجأة، قال:
لم لا تنظر إلى بطاقتك؟

أخذتها، فقربتها من وجهك، وشملتها بنظرة أولى.
أه، حقّا إنّي أنا! صورتني في الأعلى إلى أقصى اليسار، وقد كتب
اسمي ولقي وتاريخ ميلادي بأحرف واضحة، جميلة؛ لا تشبه البتّة
تلك الأحرف المتعثرة، التي كتبها جدّي على تلك الوريقات بجهر أصفر
حائل.

. ما تكون هذه الكتابة يا ترى؟ قلت متسائلا.

. هذه الكتابة هي أحدث ما توصّل إليه العلم في عصرنا... لم نعد
في حاجة إلى الكتابة بأيدينا. لدينا الآن الحاسوب، وهو يكتب بدلا

عَنَّا. حَتَّى إِنَّهُ صَارَ يَخْطُطُ لَنَا، وَيَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِنَا، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا.

رَجَعْتُ إِلَى الْبِطَاقَةِ تَتَأَمَّلُهَا مِنْ جَدِيدٍ؛ كَانَ عَلَيْهَا أَخْتَامٌ عَدِيدَةٌ، وَتَوَارِيخٌ، وَبَصْمَاتٌ لَمْ تَفْهَمْ مَعْنَاهَا. قَطَعْنَا لَوْ جَعَلْتَ أَهْلَ الْحَيِّ بَظَاهِرِ الْبَلَدِ يَرُونَ هَذَا الشَّيْءَ لَضَحِكُوا مِنْكَ، وَنَعْتُوكَ بِالْمَجْنُونِ. هُمْ لَا يَمْلِكُونَ بِطَاقَاتٍ كَهَذِهِ، وَلَيْسُوا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا. يَعْرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ اسْمَهُ، وَاسْمَ أَبِيهِ، وَلَقَبَهُ، وَكُنْيَتَهُ، وَعَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ مِنَ الذَّاكِرَةِ. لَا يَخْطِئُ أَبَدًا... حَدَّثَنِي فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ، وَفُلَانٌ حَدَّثَهُ فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ، وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ... دَائِمًا هُنَاكَ مَا يَقَالُ، وَلَا يَفْنَى الْكَلَامُ، مَا دَامَ هُنَاكَ مَنْ يَنْقُلُ الْكَلَامَ... هَكَذَا لَنْ يَمُوتُوا، وَتَبْقَى أَسْمَاؤُهُمْ، لِأَنَّ هُنَاكَ دَائِمًا مَنْ يَذْكُرُهَا... مَا نَفْعُ الْبِطَاقَةِ إِذَنْ؟ هَلْ أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا حَقًّا؟

قَالَ:

الآن، أَن لَكَ أَنْ تَسْمَعَ الْحِكَايَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا جِئْتُكَ.

ثُمَّ، وَهُوَ يَضْحَكُ:

سَتَكْتَشِفُ نَفْسَكَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ!!



حدَّثني أبو موسى بن جبران، قال: حدَّثنا منصور ذو الشَّامة، قال: حدَّثنا عامر الأطرش، عن صالح (وقد نسيت كنيته)، في خبر ذكره عن أبيك، وعن أهل بيتك الأقربين في مرّة أخرى، قال: لمَّا بلغني الخبر، وأنا أعالج محرك سيارّة في الورشة، كدت أطير من الفرح، ونسيت، لدهشتي، أن أعطي الرّجل الذي جاءني بالخبر بشارته... ظللت للحظات جامدا، لا أعرف ماذا أفعل، ثمّ قرّرت أن أمنح نفسي إجازة بيوم بمناسبة المولود الجديد.

وحدَّثني ثقة من أهل بيتك، رأى المشهد عيانا، قال: لمَّا دخل المبشّر على أسعد (وهو والدك حسب ما هو موجود في البطاقة، واسمه كاملا أسعد عبد العظيم هنيدي)... لمَّا دخل على أسعد، سأله: «من أنت؟»، فأجابته: «أنا رسول». فسأله مرّة أخرى: «ومن أرسلك؟» قال: «أرسلتني أمّ العيال»... صمت أسعد، عقد ما بين حاجبيه، وقطّب جبينه، ثمّ أزهرت ملامحه فجأة، وسأل الرّسول: «هل ولدت زوجتي؟... ذكر أم أنثى؟» أجابه الرّجل فورا، وهو يتقدّم نحوه مصافحا: «مبروك، يا أسعد. لقد ولدت زوجتك مولودا ذكرا، سبحان من صوّره وأبدع صورته: وقد أرسلتني حرمكم المصون تقول: «ماذا تريد أن تسمّيه؟» ففكر أسعد قليلا، وهو يحكّ شعره بأنامله، ثمّ قال: «سأسمّيه سالما، تبرّكا بهذا اليوم السّعيد!» وأدخل يده في جيبه، فأخرج بعض النّقود دسّها في يد الرّسول، الذي أخذها منه، وغادر وهو يدعو له بطول العمر، ودوام سعيه، والتّمام شمل العائلة على خير.

وسمعت رواية أخرى بنفس الإسناد الأوّل، يتّصل متنها بمن ذكرنا، حتّى تنتهي إلى أسعد أبيك، وبعض من حضره، وهو يحدّثني في الورشة،

وقد سبق أن سألته عن اليوم والتاريخ الذي ولدت فيه.
قال: ولد سالم ابني ليلة النصف من شهر شعبان، وهي ليلة الجمعة، سنة ١٣٨٨، وقد عثرت بعد جهد كبير على ما يقابل ذلك التاريخ في حساب الأشهر والسنين الشمسية، وهو ٦ تشرين الثاني ١٩٦٨.
لمست بعض الوهن والتناقض، بين الروايتين الأولى والثانية، وبدأ لي من غير المعقول. إذا أغضينا عن التضارب بين الروايتين الأوليين، بالإسنادين المختلفين، وهو أن أباك أسعد قال إنه أغفل أن يمنح الرسول بشارته، في حين أكد لي الثقة، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه لم ينس أن ينفع الرسول بعض النقود. قلت: بدالي من غير المعقول أن تلد الحرمة ليلاً، وهي على فراش الولادة تعاني آلام المخاض، وتتعذب حد الموت، ولا يكون زوجها بجانبها، خصوصاً إذا كان زوجاً وفياً، يحرص على حياة قرينته أكثر من حياة الوليد.

كثيرون ممن سألتهم عن تصرفهم، وما يحسون به، وما يتمنونه، ساعة المخاض: وقد تأولت، ففهمت من كلامهم أنهم أوفياء، بالاستناد إلى ما قرأته واطلعت عليه من الكتب، لأني شخصياً لم أجرب تلك اللحظة، باعتباري لم أتزوج بعد؛ هؤلاء قالوا لي، وببرة لا تقبل الشك أو احتمال التكذيب:

. أمّ العيال قبل كل شيء... سلامتها بالدنيا؛ فإذا عاشت وعاش الوليد، فألف بركة ونعام عين. أمّا إذا لا قدر الله. كان الخيار بينهما، فالأولى أن تبقى أمّ العيال التي تلد العيال، وليأخذ الله أمانته، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قلت أسأل أباك، أمام الحضور في الورشة، وقد حرصت أن أكون صارماً كي لا تختلط عليّ الأمور، ويسود التناقض بين الروايات التي أحصل عليها:

. ألم تكن في البيت حين وضعت حرمكم المصون وليدها؟
بهت قليلاً، وغمزني بعينه إشارة أن أسكت، وقادني من يدي إلى ركن

قصي، وعندما ابتعدنا بما يضمن عدم سماع الآخرين كلامنا، قال، وهو يقرب فمه من أذني:

ليسامحني الله؛ لقد كنت تلك الليلة مخمورا في فراش امرأة أخرى. وصمت برهة، ثم أضاف:

وقد تبت الآن... طلّقت الماضي بالثلاث بعد ولادة سالم... أمّ العيال صارت كلّ ما أملك، لست مستعدّا لخيانتها مرّة أخرى، ولو بذلت لي ألف دولار! إنّها أمّ سعدي أنا... أمّ سالم سلّمها الله!!

حدّثتني والدتي أمّ صبيح، وكانت دائمة التّردّد على بيتكم، قالت: حدّثتني أمّ سالم، عن المربيّة الزّنجيّة التي أولّتها أمر العناية بك، وكان اسمها منكشة (أمّ سميح) قالت: كانت مدينة «الباب» ليلة ولادة ابني سالم (وكانت دائما تسمّيكَ كذلك لأنك نشأت كبيرا على ذراعها) مزهوّة بالأنوار. أنوار القناديل الصّغيرة ذات العلب المعدنيّة، المملوءة بزيت الزّيتون، وبوسطها خيط من القطن يضيء ويرسل في الجوارنورا ضئيلا أصفر. وكانت المئات من هذه القناديل تعلّق على الجدران، على أقواس النّصر المكسوّة بالسّجّاد وأغصان الحور والصّفصاف. وكان النّاس يسرون حاملين الأعلام المزخرفة بالألوان المتعدّدة، يقودهم شخص يصرخ بملء فيه: «أدام الله عزّ مولانا السّلطان»، فيردّد أولئك النّاس قوله، ويضيفون إليه أقولا أخرى مثل: «يعيش مولانا السّلطان»، «نموت، نموت، ويحيا مولانا السّلطان».

وحدّثني أناس آخرون، غير والدتي أمّ صبيح، منهم عبد الوارث صاحب الصّاغة المكنّى بأبي غالب، وكان بيته بالدّرب الأحمر، مواجها لبيتنا بنفس الرّزّاق، وعروة أبو قارة، ومحمّد الحلبيّ، وزين الدّين أبو حمزة. كلّهم حدّثوني بالحديث الذي سمعته من أمّي نقلا عن تلك القمرمانّة الزّنجيّة، وأضافوا عليه: ولد سالم أسعد عبد العظيم هنيدي في نفس اللّيلة التي سيحتفل في صباحها بذكرى ولادة مولانا السّلطان، أبواه الله وأدام عزّه: وكان ذلك في شهر شعبان من سنة

١٣٨٨، الموافق بالتاريخ الإفرنجي، ٦ تشرين الثاني ١٩٦٨.

وإني لذاكرلك أيضا جماعة غير من أوردت أسماءهم أنفا، جميعهم أكد صحة الرواية التي أشرنا إليها من قبل، مع بعض الإضافات الطفيفة التي لا تخل بجوهر الخبر. ومنهم:

أبوزيد السقاء: والسقاء اسم المهنة، غلب عليه حتى صار بمثابة لقب له؛ وشهادته لا تقبل الشك أو الدحض لأنه. أولا. يقطن في غرفة صغيرة بالبيت الخامس الذي يلي داركم من ناحية اليمين، ولأنه ثانيا. لا يفوته شيء من أحاديث الناس مهما كان ضئيلا أو تافها، ولأنه أخيرا. لم يترك بيتا بالحي إلا دخله، فكان يملأ القربة ماء من التهر، ويحملها على ظهره حتى يفرغها في الزير الذي يكون مركونا عادة في زاوية بالسقيفة، وقد تدعوه ربة المنزل لتناول كأس شاي أخضر منعنع، فيقبل ممتنا، ويظلل لبعض الوقت يتحدثان: فلانة زوجها طلقها، فلانة عملت لزوجها عملا لأنه لا يحبها، فلان ضبطوه مع امرأة فارهة في نهاية الطوار... وبالأمر المقدر، كان أبوزيد، في تلك الليلة، هو من أحضر الداية التي قصت حبلك السري، ولم يغادر داركم حتى اطمأن على خروجك إلى هذا العالم.

صبي القهوة عز أبو حلاوة، وهو يؤكد أنه سمع الزغاريد تنبعث من بيتكم، حوالي التاسعة والنصف ليلا، وعندما سأل أحد السابلة عن الخبر أجابه بيقين: «لقد ولد الليلة لأسعد مولود، ربنا يبارك له فيه!»

وعم جابر صاحب عربة اليد، التي يخرج بها من طلوع الفجر، بعد الصلاة، ولا يرجع بها إلا عند منتصف الليل؛ وأثناء ذلك الوقت الطويل، بين الفترتين، يكون قد عرف أشياء كثيرة لا يحدها الحصر، وألم بأنباء وأخبار قبلي وبحري. وقد قال، وهو يحتمي كوب شايه المعتاد، في قهوة «عنتر»، لبعض الأشخاص الذين تحلقوا حوله: «أسعد جاءه ولد بين الساعة تسعة والساعة عشرة. وقد سمعت صراخ الست أم سالم، وهي تعاني آلام المخاض، عندما جاءني شاب، وأنا أوقف العربة أمام

بيت سي أسعد، وطلب مَيَّ علبة سجائر.»

وفيما حدّثني والدتي أمّ صبيح، رحمها الله وتغمّدها بواسع مغفرته، إخبارها عن بعض الثّقّات ممّن نقل عن أهل بيتك، وقد يكون أحد إخوتك أو إحدى أخواتك، أنّه أو أنّها قالت: كانت فرحة والدي، بالمولود الجديد تفوق، بالطّبع، فرحته بعيد ذكرى ولادة السّلطان؛ غير أنّ حدوث العيدين في ليلة واحدة زاد القوم فرحا على فرح؛ ومما يبرّز ذلك أيضا أنّه مرّ على زواج والدي خمسة وعشرون عاما لم ينجب خلالها غير بنتين وغلّامين ماتا قبل أن يبلغا الثّالثة من عمرهما. وكانت أمّي سافرت إلى واحة الرّاهب والتجأت إلى جامع سيّدنا العالم العلّامة، الرّاهب المبروك صاحب الكرامات أبي سلمة الهوّاري، حيث صلّت واجتهدت إلى الله أن يهبها غلاما. ونذرت أن تسمّيه سالما تبرّكا باسم سيّدنا أبي سلمة، نفعنا الله ببركته. وهكذا سمّي أخي سالم باسمه وأضيف إليه اسم «فؤاد» نزولا عند رغبة أحد أصدقاء والدي، هو الشّيخ تقّي الدّين، نقيب الأشراف، وقد روى له أنّه رأى في المنام النّبّي صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «بشّر أسعد بفؤاد»، فتلقّى والدي هذه الرّواية بانسراح وتفاؤل، وأصبح اسم أخي «سالم فؤاد أسعد عبد العظيم هنيدي».

وحدّث أختي أيضا عن المربّية الرّنجيّة منكشة، أمّ سميح، فما لأذن هذه المرأة، قالت: أثّرت الولادة، وآلام المخاض، في سَيِّ تأثيرا كثيرا؛ وبقيت أيّاما لا تفارق السرير، وهي مهدودة الحيل، وقد جرّبت مرارا أن ترضع المولود الجديد بلبانها، غير أنّ قلّة أكلها، وعدم الاعتناء بصحّتها جعلتا ثدييها يجفّان من الحليب. قلت لها، غير مرّة: «المرضع عليها أن تتغذّى، وتأكّل كثيرا حتّى تجد حليبا ترضع به الوليد»، غير أنّها كانت تردّ عليّ باشمئزاز: «ليست لديّ رغبة في الأكل، يا أمّ سميح؛ وكلّما حاولت أصاب بالغثيان». اقترحت على سَيِّ أن أرضع سالما، فلم تمنع. ضمّمته إليّ، وصار كأحد أبنائي الذين ماتوا جميعا، ولم أنعم برؤية أحد منهم.

وهو يشبّ على عيني... الله يحفظ سالما من العين! مكث أكثر من عامين، وأنا أغدّيه من صدري. بالضبط عامان وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما كنت أعدّها دقيقة فدقيقة، وساعة فساعة، ويوما فيوما. لم أكن أتصوّر أبدا أنّه سيكبر، ويشتدّ عوده، إذ كان نحيلًا كجرادة، وكان هزيلًا وخفيفًا كريشة، حتّى إنّ والده كاد يموت خوفاً وجزعا عليه، ولم يترك دواء وصفه له الطّبيب إلّا اشتراه، ولم يدع نباتا أو عشباً وصف له نفعه إلّا جلبه؛ وقد حفيت قدمي أنا وسّيّ أمّ سالم، ونحن نطوف على الزّوايا والجوامع نتضرّع إلى الله أن يحفظه من السّوء، ويسبغ عليه صحّة وعافية. وقد انتهى بنا الأمر في صومعة عزّاف واحة الرّاهب. قصصنا عليه الحكاية من ألفها إلى يائها، فأغمض عينيه قليلا وطمأننا. قال إنّ الحالة ليست عويصة. طلب منّا فقط أن نمهله... يومين على أقصى تقدير. رجعنا إلى البيت، ونحن نتقلّى على نار القلق. انقضى اليوم الأوّل، وكذلك اليوم الثّاني، فرجعنا إليه... أعطانا ورقتين وشيئا ملفوفاً في خرقة خضراء... قال حلّوا الورقتين في قليل من الماء، واجعلوا الصّبّي يشربها، وعلّقوا الحرز في عنقه، وسينجبر حاله إن شاء الله تعالى... فعلنا كما أمرنا، ولم يمض شهر واحد حتّى غدا سالم زينة الولدان في الحارة.

رجع بنا الحديث إلى رواية أبي موسى بن جبران، قال: حدّثنا منصور ذو الشّامة، قال: حدّثنا عامر الأطرش، عن صالح، في خبر ذكره عن أبيك، وعن أهل بيتك الأقربين في مرّة أخرى، قال: لم تمض على ولادة ابني سالم سنة واحدة حتّى توفّي والدي، وهو جدّه؛ وما كاد يكتمل العام الخامس، حتّى لحقت به زوجتي، وهي أمّه أمّ سالم. كانت. رحمها الله. تحبّه حبّاً جمّاً. وتخاف عليه من هبوب النّسيم؛ وكانت آخر أمنياتها، وهي على فراش الموت، أن تراه بميدعة المدرسة، ثمّ تموت، بعد ذلك، قريبة العين، راضية مرضيّة.

(خبر وفاة أمك أمّ سالم بنت عبد الله بن الحاجّ عبد الحميد
السّدوسيّ)

كان مهلكها يوم الجمعة، في النّصف من شوال سنة أربع وسبعين
وتسعمائة وألف.

حدّثني أبو موسى بن جبران عمّن ذكره، عن منصور ذي الشّامة،
عن صالح في خبر ذكره عن أبيك، قال: توقّيت زوجتي أمّ سالم، رحمها
الله، يوم الجمعة، للنّصف من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة
وألف، فكان عمرها حين قضت أربعاً وأربعين سنة.

وأما أمّي، أمّ صبيح، فإنّها حدّثتني عن المربّية الرّنجيّة أمّ سمّيح،
عن أمّي زهوة القابلة، قالت: حدّثني الشّيخ عبد المقصود، عمدة حيّنا،
عن أبيه، قال: ولدت أمّ سالم، رحمها الله، عام الفيضان الكبير.

وقال آخرون: ماتت أمّ سالم بنت عبد الله بن الحاجّ عبد الحميد
السّدوسيّ بمدينة «الباب» يوم الجمعة للنّصف من شوال سنة أربع
وسبعين وتسعمائة وألف، فكان عمرها منذ يوم ولدت إلى يوم توقّيت
أربعاً وأربعين سنة؛ كانت ثلاث سنين منها تعاني داء القلب بمستشفى
الضّاحية.

(ذكر الخبر عن مبلغ سنّها يوم توقّيت)

اختلف أهل حيّ السّاروجة بمدينة «الباب» في ذلك، فقال أبو
موسى فيه. ما حدّثني منصور ذو الشّامة، عن صالح، قال: أخبرنا نافع
بن حمزة، قال: حدّثني أسعد بن عبد العظيم هنيدي، قال: ماتت
زوجتي أمّ سالم ولها أربع وأربعون سنة.

قال عبد المقصود، عمدة الحيّ: وقد روي لنا أنّها ماتت وهي بنت
أربع وأربعين سنة وبضعة أشهر.

(ذكر نسبها وكنيتها)

أما نسبها، فإنها فاطمة بنت عبد الله بن الحاج عبد الحميد السدوسي بن علي بن فرج بن هود بن عبد المغيث، إلى أن ينتهي نسبها إلى شعبان، وهو بطن صغير كان بالجزيرة، على عهد الخلفاء من أبناء عمومة الرسول صلى الله عليه وسلم. وأما كنيته فأمّ سالم. وأمها هذلة بنت شمran بن عبد الواحد العتيبي.

وقد سمعت من هؤلاء جميعا أطرافا من حكايتك؛ كلّ يورد حديثا، يختلف بلفظه عن حديث الآخر، إلا أنّ الأحاديث كلّها تتفق حول الكلّيات، مع اختلاف بسيط في الجزئيات الصغيرة، التي لا تؤثر كثيرا، على جوهر الحكاية. وقد جمعت ما توفّر لديّ، وربطت البدايات بالنهايات، وأخرت وقدمت، حسبما يقتضيه التسلسل المنطقيّ، وتوصلت في النهاية إلى جمع الشّتات المبعثر، ورتق الفتوق المنتثرة هنا وهناك، وسبكت الكلّ في قالب واحد، سمّيته بعد جهد كبير، اقتضاني أيّاما من الأرق والبحث والتّمحيص «حكاية الغائب».



((٥))

(** الاثنين ١٥ أيلول ١٩٧٤. الأحد ٣٠ يونيو ١٩٨٠)

لو أنّ أمّك . رحمها الله . عاشت لما وسعتها الأرض من الفرحة والانطلاق. في ذلك اليوم الخريفيّ من شهر أيلول سنة ١٩٧٤. لم يكن ذلك اليوم يوما عادياً، ليس بالنسبة إليك طبعاً، لأنّك بالكاد بلغت السادسة، ولم تكن بعد قادراً على فهم ما يدور حولك، لضيق فضاء رؤيتك، وصغر الطّفل المشاكس داخلك؛ وإنّما كان يوماً غير عاديّ في نظر العائلة التي انتظرت هذا اليوم بفارغ الصّبر، وكانت تعدّ حلوله الزّائع باللحظات والسّاعات... لو رأيت أباك، وهو ينتقل من مكان إلى مكان، رغم حمّى المشاغل في الورشة والمشاكل الطّائرة، حتّى صار له مع كلّ شارع في البلد حكاية، ومع كلّ ناصية أو زقاق قصّة... قضى يومين كاملين بين البيت ودكان الخيّاط، أصدر إليه تعليمات صارمة لا تحتمل الشكّ أو المراجعة، وأشرف بنفسه على تفصيل المبدعة... مبدعة ذات تكة على الكتف، وخمسة أزرار على الطّرف الأيمن؛ وقبل يوم الاثنين بأسبوع كامل، لم يطق صبراً على الانتظار، هزّته نشوة رؤية وحيدة يعبر الطّوار الضيّق إلى المدرسة التي لا يفصلها عن البيت سوى أمتار معدودات، حاول أن يسيطر على انفعاله، ويضبط نفسه متعلّلاً بقرب الأجل ودنو السّاعة، إلّا أنّه لم يتوفّق إلى المقاومة أكثر، خانتته إرادته، ضعف، جبن؛ وفي النّهاية، قادته خطواته إلى الكتيّ المحاذي للمقهى من ناحية اليسار، ومكث لحظات لا يدري ماذا يقول... إنّّه يريد كلّ شيء... ابني سيدخل بعد أسبوع إلى المدرسة... أعطني حقيبة مدرسيّة... أجل، تلك الحقيبة الحمراء... لا أريدها كبيرة، فابني ما يزال صغيراً، وهذه سنته الأولى... أريد لوحه أيضاً... وممحة... ولا تنس، من

فضلك، الدفاتر... أريد كل شيء، وهاك النقود!!

ظَلَّت الحركة لا تهدأ في البيت أيّاماً، وصوت والدك لا يتوقّف أبداً عن النداء، سيّما أيّام الأحاد، حيث يكون متفرّغاً، بلا عمل. في غرفته، يحسو كأس شايبه، برشقات بطيئة، وقد ازداد نداؤه، وارتفع، وعلا صوته وتضخّم قبل ذلك الاثنين من شهر أيلول بأسبوع. كان يصدر الأوامر تبعاً، صارمة، قاسية، مقتضبة، وما على أختيك إلّا التّنفيد: خذا سالماً إلى الحمام... نظّفاه جيّداً... سرّحاً شعره... أريده نظيفاً. وكانت أختك، في المقابل، لا تهدأ ولا تتدبّر، وقد انتقلت إليهما عدوى الانفعال، فكانتا هما أيضاً مستثارتين، تفعّلتان كلّ ما يطلب منهما بجِدّ وسرعة ودقّة، فإذا أدّتا عملهما على أكمل وجه، حملتاك إلى غرفة أبيك، ووضعتاك بجانبه، وجلستا في جانب من الغرفة، وهما ترنوان إليك بزهو وفخار. لقد كنت الأمل بالنّسبة إليهم جميعاً، الابن الوحيد بعد أختين وولدين ماتا قبل أن يشبّا؛ فهما، لذلك، تحبّانك إلى حدّ الجنون، وتخافان عليك من نسمة البرد العابرة... «عبير» أختك الكبرى تكبرك بثلاث عشرة سنة كاملة، وبينها وبين «عزّة»، أختك الثّانية، خمس سنين، وقد شهدت وفاة أمك، فهي لذلك دائمة القرب منك، لا تدعك تخرج وحيداً، تصحبك إلى حيث تذهب، وتسهر بقربك، وهي تجلس على حافة سريرك، تحكي لك حكاية قديمة عن طفل صغير ماتت أمّه، فإذا نمت خرجت وأغلقت باب الغرفة على مهل وعلى شفّتها ابتسامة أسيانة وفي عينيها دمعة كبيرة... هي ذي أختك «عبير» تقودك من يدك، وتضعك بجانب والدك، وتتخذ مجلسها، على حياء، في ركن من الغرفة، والدمعة لا تفارق عينيها. لماذا لا تفارق الدمعة عينيها يا ترى؟ لو مررت بغرفتها ليلاً، لو سمعتها تنشج وتبكي، لو اخترقت أذنيك عذوبة كلماتها، وهي وحيدة، لأدركت السّبب. لم تكن الإجابة عن هذا السّؤال صعبة على كلّ حال! انظر فقط حولك، تأمل جيّداً الأشخاص المحيطين بك، عدّهم فرداً فرداً. من ينقصهم؟ شخص ما ليس

موجودا؛ من يكون يا ترى؟ لقد رحل إلى الأبد... إلى الأبد!!
لو أنّ أمّك .رحمها الله . عاشت لما وسعتها الأرض من الفرحة
والانطلاق؛ وهي على فراش المرض، بين الحياة والموت، تكابد آلام
القلب، عيناها العسلّيتان تتمايان دون تحديد في فضاء الغرفة، شفتاها
منفرجتان قليلا، صدرها يعلو ويهبط، تلهث، تتنفس بصعوبة، أوامت،
أسرت، أشارت بيدها الصّغيرة إشارات خفيّة، حرّكت جسمها النّحيل
في الفراش، انزاح الغطاء، كانت تريد أن تجلب الانتباه، رغم ضعفها،
تريد أن تقول شيئا، أن تبلغ وصيّة، لا يخيفها الموت، لا تهابه، غير أنّها
ستذهب وفي نفسها حسرة... انحنّت جدّتك، قرّبت رأسها من فمها، رأت
عينها، شفتيها، صدرها، لهاثها، فلم تتمالك نفسها، استرسلت على
خديّها دموع، انحنّت أكثر، لثمت جبين ابنتها المحتضرة، هدأت قليلا،
كفّت الدّموع، بدأت تنشج.

قالت أمّك، وملامحها توضع طمأنينة:
. دنا الموت، ولا مفرّ من قضاء الله. سأترك سالما أمانة في عنقك.
احفظيه. ضعيه في عينيك.

ويقهرها المرض، ترزح على صدرها الآلام، يعلو لهاثها، تسكت قليلا،
تقاوم، تتنفس رغم الجهد والضّنى، تتوسّل إلى الله أن يمنحها القوّة
لتبلغ أمنيّتها الأخيرة، تجد أخيرا بعضا من شجاعة، تقول بنبرة ضعيفة:
كنت أتمنّى لو أراه بميدعته، وعلى كتفه محفظته، وهو يذهب إلى
المدرسة.

آخر الكلمات الّتي قالتها، لفظتها مع أشتات روحها المعدّية. آخر
الكلمات مؤثّرة. مدوّية، متقطّعة... استكانت الملامح، هدأت الشّفتان،
انطفأت النّظرة الحلوة في العينين، انطبق الفم، ارتخت اليدان،
سقطتا، تهدّل الشّعير الفحميّ المبلّل بعرق المرض... إنّه الموت إذن!
ذهب الجسد الطّاهر، ليبقى شبحه محوّمًا فوق فضاء الدّار، وتبقى
ذاكرة «عير» أقوى من النّسيان!!

هل عرفت إذن لماذا لا تفارق الدّمة عينيها؟!

عندما يلتئم الشّمل، في تلك الغرفة الصّغيرة، ويتخذ كلّ مكانه، يأخذ الوالد كأس الشّاي ويحسو منه، وهو ينظر إليك بحنان، برقة، تحوم حول رأسه ذكريات بعيدة، صور، مواقف، مشاهد، ذكرى ولادتك، البشارة، الاحتفال بأسبوع الولادة، وفاة الوالدة، يسترجع، تخونه دمة نافرة، يرفع يده، يمسحها قبل أن تسقط على خده، يبتسم متشجّعا، يحاول أن ينسى، ها أنتم أولاده حوله، يشعر بالاكتماء، بسعادة طافحة تغمره، لم يمت من أنجب الأبناء، إذا ماتت أمّ سالم لن تتوقّف الأرض عن الدّوران، يرحمها الله، إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

في ذلك اليوم، قبل اثنين الدّخول، أخذك بيديه الصّلبتين ورفعك، وهو يتأمّلك باسمًا، ثمّ ضمّك إلى صدره وتشمّمك طويلا، ذكرته رائحتك برائحة أمّك الرّاحلة، حنّ، تمّنى لو كانت بقربه، ضمّك أكثر، هي ماتت يرحمها الله، وأنت ما زلت حيّا ترزق، ما شاء الله كان، إنّك صلبه، من لحمه ودمه، فلذة كبده، ستحمل اسمه إن مات، تذكّره، حضورك يشير إليه، وإن بعدت المدّة، ونأت الشّقة!!

وقف، وذهب نحو الدّولاب، ففتحه وأخرج الميدة بعناية. كانت مطوية ونظيفة، وقد بدا لونها الورديّ زاهيا، جميلا، رائقا. رجع القهقريّ وأمرك بلطف أن تظلّ واقفا، مستقيما. فتح الأزرار، وجذب التّكة، وأخذ الميدة، فألبسك إيّاها. بدت لائقة، على مقاسك، الأكمام، الطّول، الحجم... رنا إليك بنظرة أبويّة حانية، وصفّق إذ استبدّ به الانفعال. سأل أختيك:

ما رأيكما؟

أجابته بصوت واحد، كأنّ الجواب كان حاضرا على لسانهما:
إنّها حقّا جميلة.

وجاء اليوم الموعود أخيرا...

اثنين الدّخول...

[الاثنين ١٥ أيلول ١٩٧٤]

الخريف الحزين يبسط كَفْيَه على كلّ شيء، ويغلف الأرض بأكوام من الأوراق الصفراء، التي تساقطت عن الأغصان، وذرتها الرياح الباردة النّديّة في كلّ مكان... كانت الأشجار المعمّرة الضّخمة، الممتدّة على جانبي الطّريق المؤدّية إلى المدرسة، شبه جرداء، عارية، تخالها أشباحا تائهة، تتناول بأعناقها، فتتاوّد وتميس، كأنّها تبتّ شكوى عزلتها في ذلك اليوم من أيّام الخريف... بعض العصافير تطير عاليا، وترفّ بأجنحتها ثمّ تحطّ على أغصان متفرّقة، وتشرع في زقزقة طويلة حنون، تتطلّع بأعينها الصّغيرة الضّيقة نحو مشرق الشّمس التي كانت تغطّي صفحتها بعض السّحائب السّوداء المتلكّنة... كانت السّاعة تشير إلى السّادسة والنّصف تقريبا ذلك الصّباح، والمقاعد الخشبيّة القليلة، المنتشرة في فيء ظلال تلك الأشجار العملاقة، في طريق المدرسة، ما تزال خالية، شاغرة، وقد اكتسبت جهامة كابيّة... مرّ شخص مسرعا، لا بدّ أنّه كان مستعجلا، يلبس كدرونا، ويتلفّع بشال كايّ أصفر. ربّما كان في طريقه إلى شغله، فلا يستيقظ أحد في تلك المدينة، وفي مثل تلك السّاعة من النهار! إلّا لأمر ما... خريف ذلك العام كان منذرا، كالحا، جهما... لا بدّ أنّها كانت على وشك أن تمطر... كان ذلك البرد نذير العاصفة!!

في ذلك الصّباح، كنتم متحلّقين حول المائدة، تتناولون طعام الإفطار، وقد بدا البشر على الوجوه، سيّما على وجه والدك الذي كان يطعمك بيديه، اللّقمة تلو اللّقمة، وكان من حين لآخر يمسح بمنديل آثار الأكل على ملابسك... صبّ القهوة في كوب كبير، وأعطاكها، فشرعت تشرب على مهل، وأنت تنظر إليه مبهورا. قد تكون تساءلت آنذاك، بطفوليّة وبراءة: ماذا يحدث في هذا اليوم؟ ولماذا يبدي والدي كلّ هذا الاهتمام؟ الحقّ أنّ طباع والدك لم تتغيّر حيالك كثيرا، إلّا أنّه في ذلك اليوم كان حريصا أن يبدي عطفًا زائدا، شعورا أبويًا خاصًا. لعلّه تذكّر

شيئا، نتفا، كلاما، أمنية ما، فأراد أن يكون لك أبا وأما معا!!
سحب من علبة سجائره سيجارة أشعلها، وراح يعبّ منها أنفاسا
شاردا مهورا، يتطلّع نحو نقطة في الفراغ. وقد بدأ يغيم، حول عينيه،
عالم الغرفة الذي يحوطه ويشكل كلّ عالمه الصّغير. كاد للحظة
ينساک، في غمرة أفكاره المشوّشة، ولولم تنبهه أختاك، بلباقة حيّة، إلى
اقتراب موعد الدّهاب إلى المدرسة، لأسلم لنفسه قياد السّهوم... أطفا
السّيجارة، ورمى بالعقب في المنفضة، ثمّ أمسك بيد، وباليد الأخرى
أخذ المحفظة، وسار بك عبر الزّقاق، في تلك الطّريق الّتي انطبعت
ملامحها في مخيلتك إلى الأبد، استواؤها، كمود إسفلتها، طولها،
انحناءاتها، انعطافاتها، خلجات الخطى عليها، منها ما هو خفيف
كريشة، متلکى متردّد، وما هو ثقيل، صارم، جبّار، كرصا ص مذاب...
المدرسة...

مبنى جميل، واسع، يمتدّ على منبسط فسيح من الأرض، تحوطه
الأشجار من كلّ جانب، وراء سور عال نسبيا، يتوسّطه باب ذو
مصراعين، من الحديد... والبناء إجمالا مستطيل، تتلاصق صفوفه،
وتتضام، تتوجّها أروقة تحجب عنها حرارة الشّمس صيفا، والمطر
شتاء... وفي الوسط، داخل الباحة، مربّع مسيّج بقضبان حديدية
قليلة الارتفاع، توجد به زهور فيحاء، وشجرتا حور عملاقتان، تلقيان
بظلالهما على مساحة من الأرض... دخلتما من الباب الكبير، يقودك
والدك؛ وقد سأل البوّاب، وهويهم بالدّخول، عن مكتب المدير، فأشار
إلى بناء متوسّط الطّول، تبدو عليه الأناقة وأثار الصّناعة، وله باب متين
من الأكاجو مطلي بالأحمر، وتزيّنه تخاريم من الأرابسك. كانت الباحة
تعجّ بالتلاميذ، من مختلف الأعمار، وقد علا صياحهم وضجيجهم،
وهم يجرون كالحباحب البيضاء، لا يلوون على شيء، هنا وهناك،
ويتقافزون، وينطّ بعضهم خلف بعض... راعك كلّ شيء حولك،
وانتابك شعور غريب، هو مزيج من الخوف والترّدّد والرّهبة... هل

هذه هي المدرسة إذن» لم يترك لك والدك فرصة الفراغ إلى نفسك، ولم يمهلك حتى تستعيد طمأنينة روحك المضطربة الجامعة... تقدّم بك نحو مكتب المدير، وقدمك لرجل بدين، واضح القسمات، منتفخ الأوداج، تتوسّط رأسه صلعة ملساء.

.سيدي المدير، أريد أن أرسم ابني بمدرستكم.
أجابه المدير، وأنت تكتشف صوته الجهوري لأوّل مرّة:
على الرّحّب والسّعة.

ونظر إليك، فتقلّصت وأحسست بنفسك تتضاءل. اختفيت وراء والدك، وظللت تنظر شزرا إلى الرّجل المتطلّع إليك، وإلى الوجوه المحدقة بك كأنّها تريد أن تلتهمك. رسم المدير ابتسامة حلوة على شفثيه المزرقّتين من أثر التّدخين، واقترب منك فضغط يدك الصّغيرة، وهو يقول بصوت ناعم:

.لا تخف، يا ولدي؛ كلّنا أهلك ههنا، ولن يمضي وقت طويل حتى تحبّ المدرسة كبيتكم.

ثمّ صمت هنيئة، وواصل قائلا:

والآن، انطلق إلى السّاحة، والعب مع أقرانك.

تركك والدك أخيرا... ودّعك بنظرة وادعة. وبجانب الباب، وهو يخرج، رفع يده مشجّعا، واختفى. بقيت وحيدا، مستوحشا، وقد خفت، حدّ الموت، أولئك الصّبية الصّغار الذين لا تهدأ حركتهم أبدا. هربت منهم، تجنّبتهم، لاحقوك، أصررت على الفرار، لاحقوك ثانية، اندمجت فيهم، صرت واحدا منهم.

وفجأة، دقّ الجرس في مكان ما...

أشار إليك المعلّم من بعيد، فانطلقت إلى الصّفّ وانضممت إلى الطّابور. كان هناك الكثير من التّلاميذ، جلّهم في مثل سنّك، يتهايمسون على وجل، ويتطلّعون بين الفينة والأخرى إلى داخل الصّفّ.
دخلت...

ثلاثة صفوف من المقاعد...

جلست...

تكلّم المعلّم كثيرا. حدّثكم عن كلّ شيء ولم تفهم شيئا. بدت لك المدرسة في البداية لغزا محيّرا، جميع ما فيها بمن فيها، ورغم ذلك، واطّبت على الحضور. كنت دائما تجلس على نفس المقعد، وبجانب نفس الطّفل الذي جلست معه في اثنين الدّخول.

ومرّت الأيام،

مرّت الشّهور،

مرّت سنوات طويلة... طويلة جدّا، تعلّمت خلالها كيف تشقّ لنفسك طريقا، رغم الأشواق، ورغم إدراكك العميق أنّ العناية الإلهيّة لم تشأ أن تمنحك صكّ الخلاص ومنبع الذّكاء... غطّيت على نقصك بمداومة الجهد وكدح المقاومة.

ونجحت!!

**[الاثنين، ١٥ أيلول ١٩٨٠، ٢٨ يونيو ١٩٨٧]

الاثنين، ١٥ أيلول ١٩٨٠، إشارة، علامة، نقطة فارقة، على درب بداية جديدة، طويت مرحلة، وها أنتذا تستقبل أخرى، ستّا من السّنين طويت، وتستقبل السّابعة الآن، علمها ما يزال في عالم الغيب، نسيت المدرسة أوكدت، تلك عالم صغير حقّا، رغم ذلك أحببتها، تمنّيت لو تبقى فيها أبدا، أحببت فيها كلّ شيء، ابتداء من ذلك المدير البدين، إلى الصّفوف الفسيحة البيضاء، وحتى ذلك البوّاب، كلّما رآك ابتسم لك، يضع يده على رأسك، ويدعوك، عرف أنّك يتيم، لا تدري كيف، سألك يوما متأثّرا: «هل ماتت أمّك؟»، أجبته: «نعم»، أصبح لا يكتفي بوضع يده على رأسك والدّعاء لك، شيء ما تغيّر، تبدّل، صار يعطيك نقودا، خذ اشتر حلوى، قلما، ممحاة، لمجة، أيّ شيء، وفي الأعياد يشتري لك الهدايا، وإذا لم يأت أبوك إلى المدرسة لاصطحابك، صحبك هو

إلى المنزل، قال لا تخف، يا بنيّ، أنا في مقام والدك، نادني يا أبي، وفي يوم من الأيام، جاء أبوك، سلّم عليه، تبادل معه حديثا قصيرا، أخبره شيئا، كان لي ابنا في مثل سنّه، وكان جميلا أيضا، أمّه ماتت عند وضعه مباشرة، أسلمت الرّوح، تأثّرت، ولكيّ تجلّدت، عمران تعزيتي، هكذا اسمه، رائحته نفس رائحة المرحومة، ربّيته، شقيت بتربيته، بدأ يكبر، عوده ينمو، وفي يوم خرج، ولم يعد، انتظرت ساعات، قلقا لأجله، سألت الجيران، لم يروه، توجّست خيفة، ذهبت إلى المستشفى، أقدم رجلا وأوخر أخرى، وصفته للممرّضين، استفسروا، طلبوا معلومات أدقّ، صبيّ، عمره سبع سنوات، شعره أسود فحميّ، يلبس قميصا أخضر، بلا أكمام، وسروالا قصيرا، فغروا أفواههم، قادوني إلى غرفة واسعة، تفوح منها رائحة الموت، أصابتنى رعدة، الجدران كالحة، صمّاء، الأرضيّة باردة، أشار إليّ ممرّض، تبعته، أزاح شرشفا أبيض، قال تأمل، دهشت، كان عمران ينام ميتا، مسجّى، قال إنّ سيّارة الإسعاف جلبته، كان يلعب في الطّريق، مع أطفال آخرين، عندما دهسته سيّارة كانت تمرّ بسرعة، تأثّر والدك كثيرا، ضغط يده بحميميّة، عزّاه، ومن ذلك اليوم لم يعد يأتي إلى المدرسة، صار ذلك البوّاب الطّيب، هو من ينتظرك بعد انتهاء الدّوام، مع كرور الأيام، لم تعد تجد ذلك الحرج في مناداته «أبي»، واليوم، الاثنين، ١٥ أيلول ١٩٨٠، تغيّر طريقك، لأوّل مرّة بعد ستّ سنوات، نحو مبنى آخر، أكبر من المدرسة، لا يبعد هو الآخر كثيرا عن البيت، غير أنّه فسيح، أرحب، بقاعاته، ومخابره، وردّهاته، وأدراج سلالمه المتعرجة... ذهبت وحدك هذه المرّة، اقترح والدك أن يصحبك، إلّا أنّك عارضت فلم يصبر، قلت له إنّك لم تعد صغيرا، وإنّك ستلتقي الكثير من الأصدقاء في الطّريق... أسفرو وجهه، أدرك أنّك كبرت فعلا، وشعربز هو معربد يهزّكيانه... اثنتا عشرة سنة، تمرّ الآن، هي كلّ عمرك؛ هل تذكر أوّل مرّة دخلت فيها إلى المدرسة؟! هل تذكر خوفك، خجلك، وقلة تجربتك؟! لقد ظللت دائما وحيدا، رغم المحاولات، الإغراءات،

الإيماءات الخفية من أقرانك؛ وأصحابك الذين تعرّفت إليهم هم أصدقاء على السطح فقط، لا يعرفون عنك شيئا سوى أنك لا أم لك، وهذا كلّ شيء، لقد أحسست منذ البداية أنك مختلف، لست مثل الآخرين الذين يملأون عليك المكان، إلا أنك لم تحفل بوجودهم، إذا صمت استرسلت، وإذا تكلمت اقتضبت، وكنت أثناء كلّ ذلك تنظر إلى نقطة غير مرئية في الفراغ، بعيدة، بعيدة جدًا، لا تدري أنت نفسك إلى أين ستقودك. حتى بعد أن كبرت كثيرا، وبدأت تفهم، وصارت المدية التي في مؤخرة جمجمتك الرائدة تلتهم كلّ شيء كغول متوحش، لم تعرف سرّ تلك النقطة، وكلّما حاولت الاقتراب منها نأت عنك... طالما حاول أصدقاءك في الفصل، سيّما الذين يجلسون بجانبك، أن يشاكسوك، يخرجوك عن إطار الدّرس، يضحكوك، إذ كنت تبدو. بالنسبة إليهم جميعا. صارما، متجهّما، صلبا، مغلقا كقناع؛ في النهاية أقلعوا، ينسوا منك، وصاروا يتفادون الجلوس بقربك كأنهم يخافون العدوى أن تسري إليهم... لم تهتمّ. اعتبرت الأمر سحابة صيف سرعان ما تعبر وتلاشي، أحسست براحة لا حدود لها، كما لو أنّ حملا ثقيلا كنت تنوء به وانزاح عن صدرك؛ هكذا الاكتفاء! لم تكن تنظر إلى الخلف، وحتى المقعد الذي يليك مباشرة لم تكن تعرف اسم صاحبه. لقد كنت دائما تنظر إلى الأمام، لا ترى المعلّم، تسمع كلماته فقط، لذلك غابت عنك الملامح، القسمات، لم تحفظها، كانت دقيقة، تتطلّب ملاحظة متأنية، وكنت ترنو إلى شيء أبعد من الملامح والقسمات. ما كان ذلك، يا ترى؟ هل عرفته؟

الفصل الجديد سرّا آخر، أبعد غورا من السرّ القديم الذي خلّفته وراءك، معاملته واضحة، صفوفه متناسقة، ورائحته عبقّة. نقّاذة، تلج أغوار صدرك وتتعلّق بشغاف قلبك. لم تجل عيناك في المكان، لم تمسح الفضاء بنظرة شاملة مكتشفة، وإنّما تقدّمت إلى حيث المقعد الأوّل، يشمخ شاغرا، وقد امتدّت على صفحته ظلال هافية، تنبعث

حنونا من وراء غلالة أغصان شجرة كبيرة في الخارج. جلست بانضباط وصمت، وولّيت وجهك نحو السّبّورة لا تنظروينظر إليك. كانت بعض الوجوه الصّاحبة تروك في حذر، وتتطلّع إلى بعضها مشيرة إليك، ورغم أنّك كنت تسمع الكلمات الهامسة وراءك، وتلتقط أذناك الكبيرتان، لا إردايا، صدى الضّحكات الخافتة المكتومة، ظللت ثابتا كصخرة نائمة في قمة جبل حزين؛ راقبت التلاميذ، وهم يدخلون، وينحرفون عنك إذ يمرّون بك، شغور المكان بجانبك، شموخه، تحدّيه، ووجهك الثّابت دوما إلى الأمام، بلا لفتات أو انحناءات أو استدارات، كلّ ذلك جعل الأجساد الصّغيرة تتأّنى في سريانها، تميل قليلا، وهي ترسم زاوية شديدة الانفراج، وتبتعد متوارية، تراقب منظرا فريدا لإنسان متوحّد، معزول، ومستوحش... أزّ باب الفصل فجأة، تنازعتك مشاعر فضول وتوق، وتمنّيت لو تكسر قانونك الطّفوليّ، ولو لمرة واحدة، بعد اثنتي عشرة سنة، فتحطّم جدار الصّمت القائم بينك وبين العالم سدّا عصيّ المغاليق، لكنّك لم تجد الشّجاعة، دست على نفسك بحذائك، في مازوكيّة مقيتة، ونظر الجميع ناحية الباب، وهم يسترقون إليك نظرات شزراء، ولم تنظر؛ تأكلك الخوف، وشعور بالرهبة تربّي في داخلك، ولا تجد له سببا. تساءلت: «لماذا؟ لماذا؟» أنت ربّما المحظوظ الوحيد، من بين جميع الأولاد، في حيّ السّاروجة، قطّ لم يرفع والدك عليك يدا، ولم يفكّر في ضربك، تخطّ فيغفر، وتتمادى وتلجّ فيتغاضى، وترتكب الحماقات، فيتظاهر بعدم الاهتمام، والدك رحيم، رؤوف، رحمان، فما كلّ هذا التّوجّس والريبة؟!!

هنا الطّيف، رفّ بجناحين شفيفين، احتضنه الفضاء، فرش له تختا من الأريج على وقع موسيقى باطنة، عبر إليه المدى، اكتنفه، استوعبه، تشربّ سحره الضّائع شذى، وعلت أصوات، زغردت، بذلت أيّ القداسة، تمسّحت ذوائها بطرف ثوبها، حفّ، تطاير شعاعا، وسرت الخطوات، لا تكاد تسمع، أرقّ من النّسيم، أسكن من روح... أزّ الباب

وراءها، حين أولته ظهرها. حضورها جليّ، واضح؛ جليّ وغامض؛ أشياء كثيرة تقول ذلك، عقصبة الشّعر، هزّة الكتفين، رفة العين اليمنى، انفراج الشّفتين، مشروع البسمة المؤجّلة، المشية، التّأني، كأنّها تمشي على أطراف أصابعها... تقدّمت، في خطّ شبه مستقيم، من الباب في اتّجاه المقعد الأوّل المحاذي للنّافذة. خطواتها تتراكم، تتراكم، تدهس قلبك الصّغير. توقّفت، صرعتك رقائيق عطرها. انتشيت، فكدت تذوب. نظرت إلها بطرف عين. هل ابتسمت؟ هل أومات؟ أنت لا تدري. كان المشهد غائما، وكنت مستغرقا حدّ الهلاك. جلست. استدعيت قوّتك جميعا، استنجدت بجيوشك المرابطة قرب المحيط، صرخت داخلك هتافات متشابكة: أريد... أريد... تريد ماذا؟ كفّت الهتافات، وكنت تنظر إلى السّبورة، والأسّاذ يتكلّم. حين دقّت السّاعة العاشرة، كنت تجلس وحيدا، والمقعد بجانبك شاغرا!

ألقت المشهد لكثرة ما تكرّر، ولم تعد تعيره كبير اهتمام. كلّ ما بقي من آثاره مسحة من الحزن الشّفيف، شجّة، كانت تصحو، بين الحين والآخر، كرفة جناح، كهبوب نسمة مباغطة، أو صوت يتمزّق، مشرّشا، عذبا، دافنا، تستلذه لبرهة، وتنساق وراءه، ثمّ ينتهي الألم شيئا فشيئا... الحلّ بيدك؛ أن تبذل جهدا إضافيا لتنسى هو الحلّ، أن تستدعي لحظات مازوكيّتك بعنف، وأن تضرب صفحا عن كلّ ما تراه حولك داخل هذا المبني الجديد، الأكثر رحابة من ذلك الذي تركته خلفك... قطعاً أنت مختلف، صارم، قاس مع نفسك... الحذاء الجديد رفضت أن تلبسه، وضعت في قدميك صندلا قديما مهترئا... شعرك لم تفكر يوما أن تسرحه، كنت تتناساه، وانتهى بك الأمر إلى تجاهله... سروالك حائل اللّون، باهت، ينتمي إلى زمن آخر، وقد كان مصدر تندر لدى أولئك التلاميذ الغرباء عنك... هؤلاء صاروا كلّما لحظوك ضحكوا، أشاروا إليك، تلاشى خجلهم، وذابت همساتهم في السّراب، صاروا أكثر جرأة، يستهزئون، يقولون كلاما خاليا من الحشمة... لم تبال، تجاهلتهم

كما تجاهلت نفسك من قبل، ما دمت تشقّ طريقك بثبات، فلا يهمّ، إلى الجحيم كلّ شيء: الملابس الجميلة، الجديدة، تسريحة الشّعر المغربية، انسياب العطر في نهاية الدّوائب والقذال والفودين!

مرّت السّنة الأولى بسلام...

وكذلك الثّانية...

والثّالثة أيضا...

والسادسة...

وأنتذا الآن تواجه سنتك السّابعة، بدأ قلبك يضعف، ينهار، تخبو مقاومة، وبدأت تراجع سجلّ حياة طويلة، مريرة، تلج الأتون، تبحث في الزّوايا المعتمة، لا أمل، ولا مصدر للضّوء، ظلمة مطبقة، سكون من فوق، وهوّة من تحت. ماذا جنيت؟ وعلى ماذا حصلت؟ الثّناء: إلى الجحيم هذا الثّناء! التّفوّق: فليذهب إلى غير رجعة، إذ لا حاجة لي به! شهادات الامتياز: ماذا استفدت منها؟! أصدقاؤك، من عرفوك عن قرب، لعبوا معك في حيّ السّاروجة، حسدوك، نوّهوا بذاكرتك الّتي ألهمت آلاف الأوراق، قالوا عنك كلاما كثيرا، وأطنبوا، لكن لم يعرفوا داءك الحقيقيّ، ذلك الصّوت الّذي ما يفتأ يصرخ بداخلك كلّما أويت إلى سريرك البارد، المحايد: «أنت لاشيء... أنت كائن لا تعرف الحبّ!»

ويضعف قلبك أكثر، تدميه جروح، وتتناوب عليه القروح، وتحطّ برحالتها عليه الدّمامل، تساءلت، في محاولة للتّأسيّ والذّكري، كم من الفتيات عبرن فضاء خيالك، كم رأيت منهنّ في الفصل، وكم من الفتيات صادفت عرضا في الطّريق؟ لا شكّ أنّهنّ كثيرات، بالمنات عددهنّ، كلّ منهنّ تمثّل عالما أثيريا، بمفردها، هؤلاء جميعا عرفتهنّ على السّطح فقط، لا تمتلك منهنّ، ولو واحدة لنفسك، حتّى مجرد النّظر إليهنّ حرمت منه! كيف كانت تلك؟ وما لون بشرة الأخرى؟ وما اسم تلك الّتي عبرت كطيف أمامك؟ هل كانت جميلة؟ عيناها ما لونها؟ هل كانت سامقة؟ فارهة؟ هه... هه، ماذا؟ دائما ذلك السّد؛ لقد ربّيته

بنفسك داخلك، حنوت عليه، حتى استطال وصار متينا كأبد، يسمق أمامك، طويلا أبدا، يحجب عنك أي شيء وكل شيء، ولم تحاول، ولو مرة واحدة، أن تحطمه، بل على العكس، شملته بالعناية، هدهدته، سهرت بجانبه ليالي طويلة، على حافة سريريه، ولم تفكر البتة أن تغتاله، فتخلص منه، ما بالك؟ كيف تفكر؟ هل أنت ميت؟ يقول لك الصوت، كلما زارك ليلا، لماذا لم تحاول؟... وحق السماء حاولت! آلاف المرات أضمرت، سعيت، وأقدمت، ولكن دون جدوى. المحاولة على كبر لا تجدي، ضرب من العبث، تمكن الخجل منك حتى استفحل، وتغلغل فيك الخوف، محتك العقد وتراكت حتى استحالت ركاما وأكواما، طأطأت رأسك، وغدا ذلك دأبك، وكلما هل نداء أجفلت، وأمضك فحيح كفحيح الأفعى... صارت الأنثى عدوا، حلما، حنيننا!

حياتك، ما حياتك، أنت ابن التسعة عشر ربيعا؟... خطوات، وراء العتبة، مخلفا الباب مفتوحا، ماد عنقك ضاجا بشلال لا يتوقف من الأريز والطئين، وسرت، المدى يمتد أمامك سرايبا، زئبقيا، تكاد تلمسه بيديك المحرشفتين، غير أن نور الشمس الساطع يهر عينيك المرمدين. هل رأيت شيئا؟ فإذا رأيت، هل تعتقد أن ما رأيته حق، بلا مرأ، وأنه مسفر بجلاء؟ المدى يضيق عليك الخناق، ويتقدم مصرا، فمهرك بكلابتيه، ولا مفر! بلقع حياتك، صفصف، قاع، يبس، نبع نضب، فلا ماء ولا أمل في حياة أخرى تهض من بين الأنقاض!!

أصبحت تحن كلما هبط المساء، ترجو، وتعربد على شفير قلبك الأمامي، وتزغرد الأحلام، تشكّل ما أردت بيديك، وتستحضر ما نأى ووئى، ترمي خيط صئارتك بعيدا، وتجذب، ترهز السمكة قليلا، تدلّ عليك، فترخي لها الخيط، وتناغمها، ويخرج الإغراء من بين شففتيك سلسبيلا بلا حدود، يهدأ اضطراب خيط الصئارة ونيدا، وتسري من بين أناملك كهرباء محرقة عبره إلى الخصر المتأوّد، فتسطع الأهات، تسمعها فتنتشي، تمدّ طرفك إلى حيث زرقة الماء، يصبح الرّهز منغما، تتخدر

سمكتك المرابطة هناك، وتسري بين ثناياها رجفة دافئة، تذوب لذّة، ومأخوذة تبتلع الطّعم... هي ذي حياتك الآن! صياد بالليل، ضحيّة في النهار، والسّرير القاسي، ذو الحشايا البكماء المحايدة، لا يتّسع لغيرك، وملاك النّوم لا يأتي مبكرا، فما العمل إذن؟ تشحذ ذاكرتك المكدودة، فتستحضر أوضاعا بعينها، وتستعيد التفاتات لم يرها غير عقلك الباطن، وتضرب بمتاريسك في بحر متلاطم عجاج... تصبح جريئا، سلاحك مشهر أبدا، وبضربة واحدة يسقط الجنود ضحايا، وتسقط الحصون وتصبح دكا. «يحيا الملك المظفر! يحيا الملك المظفر!» إذ تشرف على تخوم الفناء، وتبلغ الذّروة تستريح، وتتمازج على أنقاض خيبتك النّشوة والإحباط والشّعور بتبكيك الضّمير. لو فقط لم تكن جبانا! لو فقط أصغيت إلى حكمة البسطاء! لكن هيّات، فالبحر أعمق من دهر، ولا مجال للتّراجع، فتخت السّمكات الشّبكات يوجّه سهمه إلى القلب تماما، وإن خانك الصّمود سقطت، وذهبت حياتك شعاعا، بلا ثمن!!

حياتك...

ما حياتك؟

إنّها مجرد صور، أو بقايا، تغرق في دوامتها، وفي مداها المخمليّ، متعدّد الألوان، ترتّب الأحرف والأسماء، وتخبيّ في قاع شفتيك، أودية السّمرة، وبحور العسجد والفيروز، وتمسك بأناملك المرتجفة غابات الخصب الدّافئة، وتحني رأسك لتلثم العبق المهيّج، وتصعد قليلا قليلا، مغمض العينين، رأسك وحده يكتشف شموخ التّضاريس، امتداد السّهوب، والانحناءات النّافرة، وتثني الكثبان، المرربة، وهي تنساب بليوننة... ترجف بشدّة، وأنت تتقدّم، تنطّ من صدرك أهات، وتلهث إذ يعلوبك الشّوق من الرّبوة إلى الوادي، تنفتح عيناك، ويلطم أنفك أريج أخاذ، فيرتج رأسك، يتدلّدل، يغطس بين الضّفة والضّفة!!

**[٣٠ أيلول ١٩٨٧ . ٣٠ يونيو ١٩٨٩]

وضعت أشياءك الصّغيرة داخل الحقيقة...

حزمت الحقيقة جيّداً، ثم ركنتها جانبا...

ذهبت إلى محطة القطار، واقتطعت تذكرة، بعد أن حجزت لنفسك

مقعدا...

في طريقك إلى البيت، حرنت قدماك، توقفت أمام المقهى، في الحي،
لم تفكر يوماً أن تكون أحد رواده، ولم يدربخلدك أن تكسر إसार العزلة
الذي قيّدت به حياتك بالجلوس إلى أحد مقاعده الكثيرة، منتظرا
قدوم النادل بالطبق عليه فنجان القهوة وكوب الماء، كان المقهى دائما
مقترنا في ذهنك بفوضى الأشياء، وحمى القرف، ولطالما اعتبرته أولى
الخطوات على درب الانهيار، غير أنك اليوم تتوقف رغما عنك، وتأبى
ساقاك أن تطاوعاك، صوت بداخلك يحثك على المضيّ قدما، وبينهاك
عن الاقتراب، وأخريصر، يتحدثك، متهما إياك بالجبن والعجز. قال:
«علام تخاف من المقهى؟ ألاّك تخاف مواجهة الناس؟ ثم، إلى متى
ستظلّ تضرب هذا الحصار حول نفسك؟»... أبت ساقاك إلاّ إصرارا
ولجاجة، وحاولت أن تبتعد، أن تهرب من دائرة العدوى، فلم تستطع.
مال رأسك لأوّل مرّة عن الأمام الذي لم تحد عنه أبدا، ورمقت عيناك
المتعبتان واجهة المقهى، والنضد التي تتوسط رفيف المقاعد، المنسقة
بعناية، فحاولت أن تستدعي شعور الغثيان الذي تحسّه حيال الأشياء
المقرفة، فطفربدل ذلك إحساس بالرّضى، وخالجك انتشاء، كان يتموّج
ويعانق صدّى نغمات عذبة، تنبعث من حاك ربّما كان مخبوءا في مكان
ما... تحرّكت ساقاك، في الاتّجاه المعاكس للطّريق المؤدّية إلى البيت،
وسرت تتبع أصداء الأغنية، عبر الرّصيف الظّلّيل، الذي يفصلك عن
الهبّو الخارجيّ للمقهى. تساءلت: «هل هو الحنين فعلا إلى الأغنية؟ أم
الإحساس بدنوّ الفراق وقرب انفضاض الشّمل؟»

عند عتبة الباب، أُلقيت نظرة عجلى على المكان، فطالعتك القائمة، والأراكيل المصفوفة فوقها، ورأيت النَّادل يضع كؤوسا صغيرة وأكوابا على طبق نحاسيٍّ، ويمضي خفيفا نحو المناضد، حيث يجلس الزَّبائن، وسجائب الدَّخان تنعقد حلقات فوق رؤوسهم. لم تميّز من أحاديثهم شيئا، كانوا يضحكون بصخب، وقد علا ضجيجهم وضوضاؤهم، ورغم ذلك أحسست بصداقة نحوهم. لم يعودوا أعداء كما من ذي قبل. هم الآن أصدقاء إذ تراهم بعينيك الاثنين، وقد كنت تراهم دائما قبل ذلك بعين واحدة.

عندما جلست...

عندما جلست في مقعد قصيِّ الزَّاوية، أمام النَّافذة الزَّجاجيّة، جاءك النَّادل، وبكلِّ أدب سألك ماذا تريد. صمتَ برهة، وقد جاشت بباطنك مشاعر شتى. لم تعتد هذا الموقف، ولم يتدرَّب لسانك بعد على لغة المقاهي. نظرت إليه بغباء... أدرك حيرتك، وربما اكتشف من خلال عينيك التَّامهتين أنَّك تدخل المقهى لأوّل مرّة، فقال لينقذك من الارتباك:

هل آتيك بفنجان من القهوة...

وأضاف بنبهة ودّيّة، ربّما بدافع إدخال الأُنس عليك:
لاحظ، يا صديقي، أنّا في مقهى؛ والمقهى قريب من قهوة. سأتيك بقهوة إذن. لم تشأ أن تعارض. قابلت ودّه بودّ أرقّ، وإحسانه بأحسن منه، فقلت:

لا مانع عندي، وشكرا على كلّ حال.

مضى النَّادل...

ظلمت وحيدا...

أنغام الموسيقى تغزوك، وتهدم آخر معاقل وحدتك. كنت تصغي بعمق، وقد شطّط بك الذّاكرة بعيدا، عادت بك إلى عوالم موغلة في البعد، وجزر لم يرس فيها قاربك، وواحات كثيرة الماء، ومدن أكبر من

كلّ ما رأيته، وتساءلت لبرهة، وقد بدأت الأجراس في رأسك تطنّ من جديد، عمّا يمكن أن تجده هناك... على بعد أربعمئة ميل تقريبا، في الحاضرة الكبيرة، حاضرة البلاد. كلّ ما تعرفه أنّها عالم أرحب، أوسع، وربّما أضخم من كلّ ما رأيته في حياتك، فسيحة التّخوم، متضامّة المشارف، كثيرة الشّوارع، ملتوية الأزقة، نواصبيها لا تعدّ ولا تحصى؛ أمّا كيف ستستقبلك الحاضرة، كيف سترمقك، وهي تصوّب إليك النظرة الأولى، وكيف سيكون تأثير مظهرك عليها، فما زلت لا تعرف عن ذلك شيئا. هل ستتحرّر هناك، وتجد حدودا أكثر شسوعا للهروب؟ هل ستعلّم الحبّ، وتحرق أنقاض خوفك أخيرا؟! قال لك الطّيف الّذي زارك: «إنّك لا شيء...»، وما زالت كلماته، أصداؤها، تترجّع تترى في أذنيك، كلّما شطح بك الخيال... لا تعرف الحبّ... لا تعرف الحبّ. وقال صوت خبيء، ضعيف، يتقلّب كخلد صغير داخل روحك الباب: هه، تتحرّر! لكن ممّ ستتحرّر؟ لم يرغبك أحد على شيء، لم يحرمك أبوك، ولم يحدّد أمامك قواعد لما يجب أن يفعل، وما لا يجب! كنت دائما تتصرّف من نفسك، وقرارك أبدا ينبع من ذاتك. إنّ عدوك داخلك أنت... الخوف... الرّهبة... التّوجّس! وبصيغة أمريديّ صوته: «حطّم العدو الرّابض فيك كي تتحرّر!»

سحبك النّادل، ببسمته الرّائعة، من سهومك. فنظرت إليه بعطف، وهو يمسح المنضدة أمامك، ويضع الطّبق، وقد ضاعت منه رائحة القهوة نفّاذة، مخدّرة، رائحة. حين ولّى ظهره ليعود إلى القائمة، قلت له: «شكرا»، وعندما التفت نحوك ثانية، طفت على شفّيتك ابتسامة، وقلت له، ولا تدري لماذا: «سأذهب اليوم إلى الحاضرة». قالت لك عيناه: «موقّق إن شاء الله»، وذهب يسبقه رنين خطواته على البلاط.

في السّابعة والنّصف ليلا، كنت تجلس وحدك على مقعد في العربة الثّانية من القطار. وفي الثّامنة إلّا عشر دقائق تماما، أطلقت الصّفارة صوتا كالحا مبجوحا، وانطلق القطار بطيئا... بطيئا ومملا!

عشر ساعات كاملة، وأنت تجلس مركونا في مقعد... عشر ساعات طويلة كأبد؛ فكيف يمكن لهذه السّاعات الطّوال أن تمرّ، أن تترجّح، وتريحك من الملل الذي يلفّ كلّ ذرّة من جسمك؟ لو كان معك صديق، قطعاً كنتما ستزجيان الوقت بالحديث، وسيمرّ الوقت ولن تشعر به، لكن أين هذا الصّديق؟ وبسخرية ممضّة، قلت في نفسك: «جئت إلى هذا القطار وحيداً... وأنا الآن على مشارف العشرين، لم أسع إلى كسب صداقات أو علاقات، ولم أحفل بتودّد من هم حولي، لأنّي كنت أعتقد دائماً أنّي يمكن أن أظلّ مكثفياً بذاتي.» الجزء من جنس العمل إذن، وعليك أن تتحمّل مسؤوليّة اختيارك، هي ذي السّاعات أمامك، عشر بتمامها وكما لها، تشرئب بعنقها وتمتدّ أمامك، فما العمل؟ لو فقط تحاول أن تتسلّى بالأكل، شراء لمجة لا يضير، وقد قال أحدهم من قبل إنّ خير وسيلة للتّخلّص من القلق والاضطراب هو الأكل، كل بشراهة وسيذهب ما بك من ضجر، لكن ما الحيلة، وأنت تفقد شهيتك، سيّما إذا كنت مسافراً، وتشعر بالغثيان كلّما طالعتك ألوان الطّعام على تلك العربة المعدنيّة المجرورة. لم يبق أمامك إلّا النّوم، فماذا تقول؟! جرّب أن تغمض عينيك، وتعدّ إلى ألف، استرخ، وحاول أن تهدأ، لا تشغل رأسك بالتّفكير في أيّ شيء. استعدّ الآن، عدّ: واحد... خمسون... مائة... ألف. لا فائدة، جيوش النّوم تأتي أن تحطّ بكلّكها عليك، ومملكة السّبات ما تزال عصيّة المرام...

أصوات تسمعها...

ضحكات تنتاهي إلى أذنيك...

ضوضاء وأحاديث لا تنتهي أبداً...

وعيناك تطرفان ويأبى النّوم أن يكحّلهما...

ومرّت السّاعات؛

السّاعة الأولى،

وتلتها الثّانية...

كنت تنظرخلل النَّافذة، فترى الشَّمس الكابية ترسل أشعَّتْها الباهتة على الامتداد المترامي، وتتمسَّح ذوائها بأطراف الصَّحراء اللامحدودة، وقد انبثَّت فيها الأحراش، وبعض نبات لا حياة به، ينتشرهنا وهناك، في لامبالاة وكسل، والجبال المتسامقة، الظَّافرة، تنساب في شكل رفيف وراء خطِّ الأفق البعيد، وتكاد تناطح قممها صفحة السَّماء، فتأخذ عنها زرقتها وهدوءها الغسقي... غطس القرص الأزلي أخيرا داخل قمقمه، وتحصَّن به، وجاءت جنود الظَّلام، تغطِّي ما بين الخافقين، منذرة، متوعِّدة، تبسط أمامها سنجقا حالكا، أسود، لا يبين. انطفأ الكون الأرضي، وتلاَّأت في الفضاء بضع نجومات، وجاء القمر متلَّكنا، من جهة الغرب، ليسفر أخيرا.

ومرَّت السَّاعات...

الأولى،

والثَّانية.

والسَّادسة...

ولم تستطع النّوم، تبخلق عينيك في سقف القطار، دون تركيز كأنَّك تبحث عن شيء ما، جرت على شفتيك دندنة حزينة، وتذكَّرت آخر مشهد على عتبة البيت، في حيِّ السَّاروجة، الحقيبة بجانبك، ورأسك مندسّ في صدر أبيك: «لا تنس أن تكتب إلينا، يا بني... مرّة كلَّ أسبوع، وإذا لم تقدر، اكتب خطابا كلَّ شهر... الله يحفظك، ويكون في عونك، سمعت من كثيرين أنَّ الحياة في الحاضرة شيء مختلف، جديد، والدراسة بالجامعة تتطلَّب جهدا ووقتا... لا تستسلم إلى الإغراء، وتذكّرنا دائما... هناك العالم شاسع، وكلّ شيء فيه زاه ومغر، سيّما النِّساء... أنت لا تعرفهنّ، ولم تجرَّب مجاراتهنّ، بلا دين يشكمنّ، ولا ضمير يصفون إليه... الدِّراسة أولا، ضعها نصب عينيك، فإذا أحسست بالتعب استرح... لا تنس، يا ولدي، أنت محطّ الأمل ومنتهى الأمنية!» إذ يسكت، يمسكك من كتفيك، ويرنو إليك بنظرة حانية. هل رأى حقّا

آثار الدَّموع على خَدَيْكَ؟ هل سمع ذلك الصَّوت الخبيء الَّذي انحبس في حلقك كطلقة رصاص مكتومة؟ قد يكون لحظ كلِّ ذلك، لكنَّه لم يصرِّح، لم يعلِّق، ولم يفه بكلمة، قطعاً لا يريدك أن تضعف قبل الرِّحيل، إذا أفصح، ربَّما تنهار، وإذا ضعف ربَّما تردَّدت، وقرَّرت البقاء، ابتعد عنك، أولاك ظهره، وجاءت أختاك، تعلَّقتا بك، بكت «عبير»، سمعت نشيجها وهي تدفن رأسها في كتفك، وشدَّت «عزَّة» الصَّغيرة يدك بقوة، وبكت أيضاً، سحبت نفسك، خفت أن تنظر إليهما، حملت الحقيبة، واستدرت. قال صوت دافئ: «لا تنسنا»، وتبعه صوت آخر فيه خشخشة: «لا تنسنا، واكتب إلينا دائماً». خطوت، رغماً عنك خطوت، اقتلعت قدميك من أرض الرِّقاق اقتلاعاً، وسرت، لأوَّل مرة، منذ تسعة عشر عاماً، وحيداً، معزولاً، مستوحشاً؛ في نهاية الطَّوار، عند رأس النَّاصية، إذ أحسست بدنو الفراق، ووشوك البين، حانت منك التفاتة شاردة، مال جذعك، تباطأت خطواتك، وببطء رفعت عينيك، طالعتك أياد صغيرة، تلوِّح بشوق، «عبير» تبتسم أخيراً، لا تريدك أن تحمل المشهد الأخير بين جنبيك مفعماً بالدَّموع، و«عزَّة» وراءها، كانت تتمسِّك بأطراف ثوبها، ابتسمت هي أيضاً، وتلك اليد الكبيرة، لماذا ارتفعت يا ترى؟ ربَّما تمسح بقايا دموع، تحجب الضَّعف الدَّاهم فجأة! يبكي والدك وحده كي لا يجرحك، كي لا يثبِّط عزيمة، وينهي رحلة قبل أن تبدأ. لا شكَّ أنَّه يحبُّك... يحبُّك كثيراً، لكن على طريقته!!

الجو داخل القطار بدأ يبرد، والنَّوم يجفو جفنيك الثَّقيلين، والأصوات والضَّحكات تصلك الآن كأنَّما من فضاء سحيق، انكمش جسمك المقرور، والتأمت على نفسك، وأغمضت عينيك. دهمتكَ سجون الظَّلْمة، وتجمَّعت في مدى رؤيتك الباطنة نقطة سوداء، تبدو لك بعيدة، ثمَّ تأخذ في الاقتراب شيئاً فشيئاً، إلى أن تختفي تماماً، وتظهر نقطة أخرى، أكبر قليلاً، وتقرب ثمَّ تغيب، ونقطة أخرى... ونقطة أخرى. أخيراً مللت اللَّعبة، فتحت عينيك، ومددت يدك إلى محفظتك

على المقعد القريب بجانبك، فخرج من ثنايا الصّفحات شامخا، عتيّدا،
عيناه تروزانك من وراء نظّاراته المربّعة، والسّيجارة بين شفّتيه ترسلان
الدّخان بهدوء رقيق. أزاح المحفظة بلطف، وجلس، ثمّ أخذ الكتاب
وبدأ يقرأ:

أحبّك، أو لا أحبّك .

أذهب، أترك خلفي عناوين قابلة للضياع.

وأنتظر العائدين؛ وهم يعرفون مواعيد موتي ويأتون.

أنت التي لا أحبّك حين أحبّك، أسوار بابل

ضيّقة في النّهار، وعيناك واسعتان، ووجهك

منتشر في الشّعاع.

كانّك لم تولدي بعد. لم نفترق بعد. لم تصرعيني.

وفوق سطوح الرّوابع كلّ كلام جميل، وكلّ

لقاء وداع.

هزّ رأسه ببطء يتأمّلك، وصمت، ثمّ قلب الصّفحات تباعا... قلب
الكثير من الأوراق... كانت يداه النّحيلتان لا تكفّان عن الحركة، وعيناه
الحزينتان تلوبان بين السّطور تبحثان عن شيء ما، عن كلام ما. قرأ
بعد برهة:

عندما كنت صغيرا

وجميلا

كانت الوردة داري

والينابيع بحاري

صارت الوردة جرحا

والينابيع ظلّما.

هل تغيّرت كثيرا؟

ما تغيّرت كثيرا

عندما نرجع كالريّح

إلى منزلنا
حدقي في جبتي
تجدي الورد نخيلا
والينابيع عرق
تجديني مثلما كنت
صغيرا
وجميلا...
وقرأ أيضا، بعد أن خلع نظّارتيه ومسحهما بمنديل كان في يده:
نعرف الآن جميع الأمكنة
نقتفي آثار موتانا
ولا نسمعهم.
ونريح الأزمنة
عن سرير اللّيلة الأولى، وأه...
في حصار الدّم والشمس
يصير الانتظار
لغة مهزومة...
أمّي تناديني، ولا أبصرها تحت الغبار
ويموت الماء في الغيم، وأه...
كنت في المستقبل الضّاحك
جنديّين،
صرت الآن في الماضي وحيد.
كلّ موت فيه وجهي

.....

متى غفوت؟ متى توقّف؟ هل ظلّ جالسا، هناك، على المقعد
بجانبك إلى النّهاية؟ وهل قرأ غير ما سمعت؟ ألم يملّ ويضجر؟ وهل

كان مستوحشا مثلك؟ لا تعرف كيف تجيب، ولا تدري ما تقول؛ ربّما تكون غفوت، حين ثقل جفناك، وصارا يرقّان بلا انقطاع، دون إرادة منك؛ وربّما يكون لحظ ذلك، فطوى الكتاب، وأعادته إلى المحفظة، ثم غادر. وربّما يكون لم يتفطّن إلى ذلك، فاسترسل في القراءة، ومكث في نفس المقعد، يقلّب الورقة تلو الورقة، وهو يسترجع آلاف الكلمات الّتي لم تتوقّف ساعة عن التّزيف. وربّما... وربّما!!

ببطء كانت العجلات الثّقيلة تطقّ، فيتردّد أزيزها في أغوار الذاكرة النّائمة: وتصحو أصوات مبعثرة، مشاكسة، في كلّ مكان من الجسد المتعب، وتظلّ تنبح وتعوي؛ وتترأى على مبعدة، وسط ركام من الصّور المهشّمة، أشباح متاريس، وأسيّاخ، ورؤوس موتى، يدثّرهما الدّم، وهي مشرّبة جميعا بأعناقها نحوك، ثمّ تأخذ في المسير تجاهك، تتقدّم بثبات، حاملة أسيافا مسنّنة وتروسا... ظللت جامدا كجلمود، ولم تحاول الهرب... أحاطت بك المتاريس، وفقأت الأسيّاخ عينيك، وولجت مؤخّرتك مخترقة أمعاءك الصّدئة... ضحك الموتى... صار ضحكهم هستيريا... اخترقك الألم... ندّت عنك آهة مكظومة... صارت الآهة صرخة... صارت الصّرخة انفجارا... والقطار ساكن، غاف، يستعذب ندى الصّباح!

ارتفع صوت مناديا:

. المحطّة الأخيرة... المحطّة الأخيرة: الرّجاء من السّادة المسافرين الاستعداد للنّزول.

قمت، وأنت ما تزال تحت تأثير الكابوس، رأسك ينوء بعبء عشر ساعات كاملة من الأرق؛ رفعت يدك إلى السّطح المعدنيّ، وجذبت حقيبتك الوحيدة، وركنتها بلا مبالاة إلى جانب المحفظة على المقعد. خانك جسدك المرهق فكدت تسقط؛ وبجبلتكَ استندت إلى مقبض الباب؛ جالت عيناك داخل بهو القطار المؤدّي إلى الخارج، فرأيت في غبش النّور أطيايف المسافرين، وهم يندلقون بحقائقهم في شبه صمت...

فركت عينيك لتطرد بقايا النّوم الجاثمة على أجفانك الثّقيلة، ثمّ رفعت أناملك تسوّي خصلات شعرك المنفوش... اعتدلت... انحنيت، فأخذت حقيبتك والمحفظة، وخرجت.

أسراب النّور تتسلّل إلى الرّوايا المعتمة داخل المحطة، فيبدو الرّواق المفضي إلى الهو الدّاخليّ مباشرة... طويل، محدودب، ينهض على أساطين مستديرة، وإلى جانبه خطوط السّكة الحديد، كعملاق خرافيّ، تمتدّ مستقيمة، ثمّ تأخذ شيئا فشيئا في الانحراف، وتشكّل تعرّجات وانحناءات وانعطافات، إلى أن تتلاشى تماما وسط رفيف البنايات في أقرب ضاحية من الحاضرة... استدرت ومضيت، فانفتح باب المحطّة تلقائيّا أمامك؛ لطمت وجهك رائحة برودة خفيفة، فانتشيت رغم قشعريرة شعرت بها تتسرّب عبر مسامك... جاءك من أقصى المكان رجل يسعى: فارح الطّول، ذو سمرة غامقة، تشي ملامح وجهه أنّه جاوز الأربعين، في ابتسامته شيء مثل الحزن، وقد انفرجت شفّته عن أسنان كبيرة صفراء، في يده سيجارة ذهب نصفها. عندما اقترب منك قال:

.صباح الخير.

.صباح الخير.

.هات عنك الحقيبة، يا سيّدي؛ هناك سيّارة تاكسي أمام المحطّة.

لم تمنع، أعطيته الحقيبة في استسلام، وسرت وراءه.

فتحت باب السيّارة، وركبت.

سألك السّائق:

إلى أين؟

.كلية الآداب من فضلك.

بيتك الجديد غرفة. ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، طولها خمسة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار ونصف، رقمها ٣٤٩، تتوسط رواقا طويلا، مظلما دائما، ذا رائحة منبعثة من التواليت المواجهة للغرفة مباشرة، لها بابان، الباب الخارجي الذي يفتح على الرواق، وآخر تغطيه ستارة شفافة، يقود إلى ممر مبلط، في نهايته من ناحية اليمين دولا ب معدني، ومن ناحية اليسار صنبور وحوض للاغتسال، بجانبه سلّة مهملات. النافذة تمتد على طول الجدار، زجاجيّة، فسيحة، مترامية الأطراف، تختلف عن تلك النافذة بغرفتك في حيّ الساروجة، عيها الوحيد استقبالها الشمس، كونها عرضة لقساوة الحرارة، وإشرافها على بوابة الجحيم في فصل الصيف... الرواق طويل، في الطابق الثالث، ينتهي من الجانب الأيمن بباب يفتح تلقائيًا، ويفضي إلى الطابق الثاني بإحدى عشرة درجة... الغرف تتشابه، وليست هناك علامات فارقة بينها، الأبواب زرقاء، النوافذ زجاجيّة، والأرضيّة مبلّطة، يقيم بكلّ واحدة منها شخصان، وقد كنت محظوظا ذلك العام، إذ ستقيم وحدك، لأنّ زميلك الذي كان من المفروض أن يشاطركَ الغرفة قد غادر دون أن يفوه بكلمة... باب الطابق الأرضي له مصراعان، أطره من الخشب، وأثبت في وسطه زجاج سميك شفاف، أمامه ممر قصير، إسمنتي، في شكل مربعات، وعلى جانبيه بعض الأشجار، أوراقها صفراء، جافة، ذابلة... بالمركب السكّني ثلاثة أجنحة، وبين الجناح والآخر، شارع طويل، عريض، إسفلتي، شديد السّواد، ينضج لزوجة كلّما رنت عليه الحرارة بثقلها... على مبعده، وبين مفترق الأجنحة الثلاثة والمبنى العظيم الذي يكوّن المطعم والمشرب في نفس الوقت، تقوم الحديقة، مساحة كبيرة نسبيا، دائرية الشكل، تنتهي أطرافها بحزام مصفوف من الطّوب، نهاياتها المتاخمة أحراش، نبات أخضر يميل إلى الصّفرة، تتخلّلها تربة حمراء كامدة، في الوسط أربعة أشجار معمرة، سامقة،

فارعة، تلقي بظلالها على كلّ المساحة تقريبا، أغصانها مائلة، تتقارب أحيانا، تحتكّ، تحدث هسيسا، تتشابك أوراقها، فتتحرك الظلال، وتهبّ نسيمات باردة، بقرب الأشجار مقاعد خشبيّة، ذات دعائم ومساند حديدية...

هناك، في أحد تلك المقاعد، كنت تجلس مساء الزّابع عشر من تشرين الأوّل سنة ١٩٨٧، بمفردك، بيدك ذات الكتاب الذي كنت تقرأه في القطار منذ أربعة عشر يوما. كان المكان شبه خال، والشمس على وشك الغروب، والكلمات أمام عينيك بدأت تهت شيئا فشيئا. أغلقت دفّتي الكتاب، ووضعت به جانبك على المقعد. لم تر غير ظلال أطياف، تتسرّب بغشاوة رقيقة من السّواد، تتّجه صوب الممرّ الخارجيّ، أو تدلف إلى الفضاء الرّحب وراء جدران المبنى العظيمة... فجأة، رنوت إلى الأفق الغربيّ، فخامرك شعور بالطّمأنينة وأنت ترى القرص الأرجوانيّ القاني يغيب تماما بين ثنايا المتاه غير المرئيّ. اكتنفتك الظّلّمة، دثّرتك، فغدوت لامرئيا تنظر إلى الأشياء من حولك، فلا تستعصي عليك أسرارها، وتراها بإدراك عقلك الباطن، وتستمتع إلى فوضى الأصوات، فتميّزها جليّة، بوضوح... هي ذي أصوات جديدة لم تالفها أذنّاك، جرسها غامض، نبرها حادّ، يبلغ ذروة، يرتاد قمّة، يخفت بعد ذلك تدريجيّا، يسكن، يتحوّل بغتة إلى لهاث، أنين، تعقبه نجوى. لم تجرّب قطّ أن يكون صوتك هكذا، دسما، مشحونا، بعدوبة رائقة وأثيريّة تجهل مصدرها. فقط تخيلت، مواربا في جفاف سريرك، ومحاصرا بخشونة حشاياه، دون أن تجرّأ على الإفصاح، فأذان الحيطان دوما متوتّبة لتفضّح ما خفي، ما غاب وغام، صوتك أجرد دائما، ذو وتيرة واحدة، لا يتبدّل ولا يتغيّر، ولم يكن يوما ثرا، متقلّبا كحرباء. كنت فيما خلا من سنّيك المنقضّية، تصطاد في صمت، صناّرتك بيدك، والبحر أمامك امتداد، واللّيل شرشف أسود يحنو عليك، فلا يهتك سرّك، وكانت سمكاتك شهيات، دسمات، يستثرنك، ويتثنّين في غنج، فيسري خدر في مفاصلك،

وتتلاشى، تضحي السمكات، للحظة، الصياد، وتجد نفسك الصيّد
يعلق أخيراً بالصنارة... ترهف سمعك، تهدأ حواسك، يتحفّز جذعك،
المكان قريب جداً، نفس الأصوات، قصيرة، متقطّعة، تتخلّلها أهات،
يعقبها شخير، تعلو من جديد، تبلغ الذروة، تسري كلمات... «أقوى...
اضغط أكثر... أحبك»... كادت عينك تنطّان، بدأ دماغك يدور كآلة
محطّمة. أهذا هو الحب؟! أهذا هو الحب؟!

يجيبك صوت، ظلّ غافياً داخل أغوارك المظلمة:
لا تستسلم إلى الإغراء، وتذكّرنا دائماً...

من أين نبع هذا الصوت؟ ولماذا نبع الآن؟ ألا يصمت؟ ألا يكفّ؟
إنّك تعرفه جيّداً، غير أنّ صورته كادت تغيّب بداخلك، لم يبق منها سوى
تلك اليد وهي تمسح بقايا دموع ضعف قاهرة... انبجست بعض أنوار
شحيحة في المكان، أعادتلك إلى نفسك من جديد، فتحت الكتاب ثانية،
فلم تجد رغبة في القراءة... قمت، وتمشّيت قليلاً باتجاه المشرب. كان
النور ساطعاً هناك، والأطياف التي كنت تراها ظلالاً صارت حضوراً
لا مرأى فيه... حلقات الدخان... أحاديث لا تنتهي أبداً... ضحكات...
قهقهات... أوليت الجميع ظهرك، واستدّرت بجذعك قافلاً، رغم
حاجتك إلى البقاء، ولو للحظات قصيرة، ذات التّحقّظ القديم دهمك،
ذات الضّعف والخوف أمسكا بتلابيبك ووضعاً القيود الجارحة حول
معصميك. لو تحتجّ! لو تثور وتحطّم الأسماء القديمة والأشياء التي لا
نفع فيها! لو فقط تحاول! خطواتك تقودك إلى الأمام، وأسف ينهش
قلبك لاستعصاء الخلف الذي تركته وراءك، طريقك واضح، مسفر
الملامح، بادي التّقاسيم، تعبر الحديقة أولاً، تمضي في خطّ مستقيم
على الشّارع الإسفلتي، تستدير إلى اليمين، تلج الباب ذا المصراعين،
تصعد الدّرجات، الطّابق الثّالث، ثمّ الغرفة، وتلك الرائحة التي تضوع
عفونة!!

عندما أدّرت المفتاح في الأكرة، ودفعت الباب، وأوشكت على الدّخول، تنهّى إليك صوت دافئ، ضعيف، بجانب الغرفة المجاورة، يقول:

. أهلا بك، أنا جارك الجديد، أقيم بهذه الغرفة الّتي بجانبك، وقد وصلت منذ أيّام.

تركت الباب مواربا، وتأخّرت إلى الورا قليلًا، دهشت. كان الشّخص الّذي يقف أمامك أنثويّ الملامح، يطغى عليه جمال غير عاديّ، وفي مشيته حذريّ بشيء ما، يذكرك بشيء ما، لم تشأ أن تعترف به بينك وبين نفسك، ورغم دهشتك لم يداخلك استنكار، وبدل ذلك غمرتك من الدّاخِل نشوة لذيذة، فقلت بهدوء:

. سعيد بلقائك. أنا أيضًا وصلت منذ أيّام. وهذه غرفتي.

سألك بحياء، وقد زاد صوته دفنًا وضعفًا:

. من أين أتيت؟

. من الجنوب... أربعمائة ميل عن الحاضرة يقطعها القطار في عشر

ساعات.

ثمّ، وبعد فترة صمت:

. وأنت، من أين أتيت؟

. أنا من الشّمال... مدينتي لا تبعد كثيرًا عن الحاضرة...

وبعد برهة، واصل قائلاً:

. وأنا وحيد والديّ، لا أخ ولا أخت، لذلك أشعر بالوحدة، وأرغب أن

يكون لي أصدقاء. هل تودّ أن نصبح أصدقاء؟

بوغت قليلًا لغرابة السّؤال، وباغتتك أكثر غرابة الموقف، إلّا أنّك

سرعان ما استعدت هدوءك، فأجبت:

. لا مانع لديّ!!

**[الاثنين، ١٥ تشرين الأول ١٩٨٧]

ليلة الاثنين، ظللت مرابطا في غرفتك، لم تغادرها، وقد انتقلت مرّات إلى جانب النّافذة، تراقب سفور القمر، والنّجوم المتلألئة. وهي تذرو حفّات النّور على الشّارع الشّبيّ الغافي. كنت تريد أن تشغل نفسك كي لا تغزوك هواجس الوحدة المشاكسة، كما كنت تريد أن تذهب صداعا خفيفا ألّم بك فجأة، ودون سابق إنذار. لم تفكّر، من قبل، ولو عرضا، أن تجد نفسك مسحوبا بين أربع زوايا، رفيقك الصّمت، في مملكة اللّيل الطّويلة. كنت دائما، في ذلك الحيّ الذي تراه الآن بعيد المنال، وداخل ذلك البيت الذي تعرف غرفه جيّدا، تحسّ رغم عزلتك الاختيارية أنّك لست وحدك، غرفتك ملاصقة تماما لبقية الغرف، ولو حدث ما يزعجك، تكفي صرخة قصيرة، يطلقها حلقك المبحوح، لتستنفر جميع العائلة، على الطّرف الآخر من العالم الصّغير... ذلك العالم كان أباك وأختيك الاثنين «عبير» و«عزة»، أحبّوك كما لم يحبّك أحد، وزاد رحيل والدتك المفاجئ في تمّتين العرى، تقريب ما بعد ونأى. الآن، أنت بعيد، مقصّي، أشلاء المتاه تحاصرُك، وحياد اللّيل يبعث فيك رعبا. هل فكّرت اللّيلة أن تصطاد، كما كنت تفعل دائما في الغرفة بحيّ السّاروجة؟ هل أحضرت الطّعم وشكّكته في الصّنارة؟ كنت متعبا، مرهقا حدّ الغثيان، فلم تأنس نهوضا ونشاطا، وكنت حزينا، مشتّت البال والفؤاد، شارد اللّب، حسير الدّهن. الصّيد هذه اللّيلة مجازفة، والبحر أمامك عجاج متلاطم الأمواج، وسمكات البحر ينتظرون مداورة أسرع، ليرهنز حدّ تخوم اللّذة، يبغيّ مداعبة وجساّ وغزلا، وساعدك كليل، نصب، لا يقدر على إرضائهنّ. لا... لا... الصّيد هذه اللّيلة مستحيل!!

حوالي العاشرة الإربعا، جاء «مرتضى»، صديقك الجديد بالغرفة المجاورة، دقّ الباب، وكان مفتوحا، ثمّ دخل وجلس على السّرير دون أن يقول شيئا. أرسلت إليه نظرة جانبية، فيها أسى، من موقفك قرب

النَّافذة، وبقيت لحظات ترمقه كأنك تكتشف مواطن السرّ فيه. وجوده، هكذا، على حين غرة، دون موعد سابق أو إشارة، جعل عصافير الفرح ترقزق في شغاف قلبك، إلا أنك تماسكت لئلا تتلاشى في جاذبيّة إيساره، ومكثت تراقب القمر الذي اجتاز في سيرورته كبد السّماء بقليل. تمنّيت لو كنت بعيدا مثل القمر، ومضيئا مثل النّجوم، وتمنّيت لو اخترقت مجاز السّماء، وتناثرت ذرّات في حدود البرزخ اللامتناهي. وصلك صوته، كأنما من مجاهل قصيّة:

فيم تفكّر؟

ملت برأسك، موليا ظهرك إلى النّافذة، وقلت نافيا:

لا شيء على الإطلاق... مجرد شرود ما يفتأ أن يذهب في حال سبيله. نظر إليك بإمعان، لأوّل مرّة، منذ أن دخل الغرفة. قال:

لا أظنّ الأمر كذلك: يبدو عليك الشّرود صحيح، غير أنّ ملامحك يكتنفها حزن لا يفسّر. قل ما بك!!

قلت لا شيء.

قلت ذلك، واتّجهت نحو طاولة في الزّاوية. كان هناك كرسيّ، فسحبته بإعياء، ثمّ جلست. لاحقتك نظراته بإصرار، تفاديتها، طأطأت رأسك، وأنت تتوقّع مصدر هجومه، فكنت تزوغ كما الرّتبقي. مددت يدك إلى كتاب فوق الطّاولة، ففتحته، وقربته إلى وجهك متظاهرا بالقراءة. كنت تريد أن تهرب من مدى ملاحقته؛ أسئلته تبدو ممضّة، لا تخطئ هدفها أبدا، وأنت لا تريد أن تتكلّم، على الأقلّ الآن... استند بظهره إلى الحائط. وأرخی ذراعيه على جانبي السّريّر، وكفّت عيناه برهة عن حصارك، خمنت أنّه مشغول البال بشيء ما، ووشى رأسه ذوال الشّعر الأبعد، المشرئب نحو السّقف في استغراق بعبء ينوء، وأسرار خفيّة على وشك الانفجار في أية لحظة... أغلقت الكتاب، وضعته جانبا، صالبت ساقيك، وأنت ترنو إليه للمرة الأولى دون خوف.

قال، وهو ينظر صوب نقطة غير مرئيّة داخل الغرفة:

أما أنا فلديّ من المشاكل ما لو ألقيته على جبل لناء به... وصمت. كان ذلك المدخل فقط. إذ أنّ صوته بدا هادئاً، ثم أخذ في الارتفاع رويدا رويدا، وعند حدّ ما توقّف، تريّث، تثنى نهايته المشرشرة بأشياء كثيرة لم تقل، بمغاليق صلبة عصبية على الفتح، وأغوار لم تكتشف بعد. لذلك لم تضطرّ إلى سؤاله، ولم تكلف نفسك عناء تحفيزه على الكلام. هو سيتكلّم حتما دون مثير، ليس في حاجة إلى إشارة أو إيماء، إذا طفح الكيل فاض، وإذا امتلأ القلب، سال الشّجن مخترقا كلّ الرّوافد والحدود، هذا ما تعلّمته دون معلّم، لم يخبرك به أحد، ولم تقرأ عنه في سجلّ أو كتاب، بمفردك اكتشفته، كثافة الصّمت، وراء ستائر الظّلمة، وهبتك إيّاه دون مقابل أو بديل.

قال مواصلا:

في أحيان كثيرة، تمنّيت الموت ووددته، وقد قرّرت مرّة الانتحار، وفي اللّحظة الأخيرة، تطفّن والدي إلى الأمر، فنقلني إلى المستشفى... أغلقت غرفتي بالمفتاح، وأخذت زجاجة الدّواء وجرعته حتّى آخر قطرة، سقطت على الأرض دون حراك، وكان ذلك سببا لإحداث ارتطام، سمع والدي الصّوت فجاء يجري ولحقته والدتي، وهي تولول، ونقلوني إلى المستشفى، وهكذا أنقذت بأعجوبة. قال الطّبيب لو تأخّرتم دقيقة أخرى لفضى...

تململ في مكانه، أغمض عينيه كأنه يستعيد تلك الأحداث الّتي لا بدّ أنّها صارت بعيدة، فتحهما من جديد ونظر إليك بتحديد ليرى تأثير كلامه على ملامحك، ومن يدري لعلّه لمس تشجيعا، فقد قال:

منذ ذلك اليوم، أخذ والدي جميع مفاتيح البيت وأخفاها. لم يعد يطمئنّ لوجود الغرفة مقفلة، أية فرصة للسّهو من جانبه قد تودي بحياتي. كذلك أوصى والدتي بمراقبتي. قال لها: «حذاري أن تدعيه وحده! راقبيه ليل نهار، ولا تركيه يخل إلى نفسه!» وسمعت مرّة يقول، ودموع غزارتة مرمرة على خديّه الخاسفين: «إذا مات وحيدني لن أتأخّر حتّى

أموت بعده!» تعلّمت، رَقّ قلبي تجاهه، وكففت عن المحاولة، رغم أنّ والدي ظلّ يحتفظ بالمفاتيح لديه.

لحدّ تلك اللَّحظة، وهو مستند بظهره إلى الحائط، ينطق كلماته الأخيرة، وقد بدا عليه سهوم عميق، لم تكن تعرف السبب الذي من أجله قرّر الانتحار، كما أنّك لم تشأ أن تسأله، متأكداً أنّه سيصرّح بعد تلميح، ويسفر بعد غموض. ورغم ذلك، ظلّ يخالجك تردّد، ويخامركَ شكّ، هذا الجار الذي لم تمض على مصاحبته إيّاك سوى أيّام قلائل، وبالكاد تعرّفت إليه، ولولم يضعه القدر في طريقك يوماً، لما فكّرت البتّة في مصادقة مثله، ترى لماذا يحدثك أنت دون سواك؟ وهل ضاقت به الأرض بما رحبت فما وجد من يشكو إليه بته، ويطارحه همّه؟ هل يكون من نفس جنسك، من نسل مهذّب، في طريقه إلى الانقراض؟

في داخلك أنّ صوت مباغت مشاكس. سألك:

لندع كلّ أسئلتك جانبا، وأجبنى عن سؤال واحد أسالك إيّاه: هل تنكر أنّك تحبّه؟ هل تنكر أنّك ملّت إليه؟

لم تستطع أن تنكر، كما أنّك لم تقدر أن تعترف. صرت ممزّقا بين لامتناهيين لا حدود لهما على الإطلاق، شعورك بالتحقّظ والحياد يصدّك، وشعور آخر بالتعاطف المحتشم يدوس على إنكارك، ويطالبك بالمكاشفة، يجبرك على المصارحة. لم المكابرة إذن؟ هذه الصّدفة التي جمعتك بصديق القدر هذا أنت في مسيس الحاجة إليها أكثر منه!!

قلت، ولم تعد تهتمّ لوجود ذلك الصّوت المباغت المشاكس:

بلى أحبّه، ولا أنكر أنّي أميل إليه.

في الطّرف الآخر، كان «مرتضى» هو الآخر صامتا، كأنّما أدرك استغراقك، فاستغلّ الفرصة ليرتّب أفكاره المبعثرة. قال، وقد اتّجه بكلّيته نحوك، ليجلب انتباهك:

منذ أن فتحت عينيّ على الدّنيا، وجدتني وحيدا، لا أعرف أحدا ولا يعرفني كذلك أحد. كلّ عالمي البيت الذي أسكن فيه، بغرفة الضّيقة

الموحشة. وحديقته المحايدة. وأسواره العالية التي تحجب ما خفي في الطرف المقابل. حتى أشعة الشمس التي كانت تتسرب إلى الداخل بقدر مقدور. والداي. والدي ووالدي. بالغاً في الخوف عليّ كثيراً. وأوقعاني في غياهب سجن سحيق من حيث أراداً إخراجي إلى فضاء الحرية الزاهي. دوماً يذكراني بالخطر الداهم الذي يترصدني وراء الأسوار. ويمعنان في رسم صورة خرافية لعملاق مستعدّ لالتهامي في أية لحظة. كان ذلك العملاق مقترناً في ذهني. شأن الأطفال الصغار أمثالي. بصورة غيلان ذات أنياب مستنّة، تظلّ متوارية، لتنفّض في أوّل مناسبة على الفريسة فتخمشها وتدميها. لذلك لم أكن أخطو خطوة واحدة وراء الباب وحدي، بل لم أكن أخطو خارج باب البيت إلّا مصحوباً بوالدي التي كانت تتربّص بي كحدأة، عيناها ما تفتان تتابعاني، في أيّ مكان، دون كلل أو فتور، وأنفها الحادّ الأقنى يتحرى رائحتي حتى في بيت الاستحمام. لا تدعني أستريح ولا تستريح. تنظّف ثيابي، وتحرص أن تلبسنيها. وتحضر الأكل، ولا تتركني حتى أتمّ آخر الأطباق، وتعطيني كأس الحليب الذي كنت أمقته حدّ الغثيان، وتقول لي بأمر: «اشربه كله، حتى الثمالة، فالحليب مغذّ، وأنت عودك دقيق رقيق!» والدي هي من علّمني هذه العادة، صرت أصحو في الصّباح. وأوّل شيء أفعله، بعد أن أغسل وجهي، أن أصبّ كأس الحليب وأجرعه. والدي أيضاً أصيب بحمّى ما تفعله والدي، صار هو الآخر يبالغ في الخوف عليّ، يسأل عني في كلّ ساعة من ساعات اليوم، متى أفقت، متى نمت، متى وماذا أكلت، هل نمت جيّداً، يسأل عني إبان صحّتي ومرضي، فإذا مرضت، ولو كان ذلك مرضاً ليس بذی شأن، بالغ في الجزع عليّ، وبادر إلى استحضار الطّبيب... خيراً، يا دكتور... هل الأمر خطير، يا دكتور... هات الوصفة، يا دكتور. وحتى إذا قال له الطّبيب إنّ الأمر بسيط، ولا يستأهل، فإنّ القلق يظلّ يساوره، ولا يهدأ حتى تعاودني الصّحة من جديد. صدّقني إذا قلت لك: إنّی ضحیة والديّ، ووالدي على وجه الخصوص! لا يترك

مناسبة إلا أعطاني فيها نقودا، إذا طلبت وإذا لم أطلب، وفي الأعياد يغرق غرفتي بالهدايا؛ ثياب... أحذية... دمي... لعب كثيرة ومتنوعة. هل قصر في حقّي؟ لا، أبدا، غير أنّه بالغ في تدليلي، فصرت له ضحية من حيث لم يحتسب. والدتي في المقابل ما تفتأ تدكرني: حذار، ثم حذار، فكل مكان في الخارج زلق، موحل، يترص فيه خطر، عملاق يرصد لك في مكان ما، جعلني كل ذلك أخاف حقّا، ومع كل يوم يمرّ، ينضاف هاجس آخر في سلم الفرع القديم، ويستطيل حاجز، وتترسب مخاوف، صرت لا أطيق المكث وحدي، وإذا أويت إلى غرفتي فتحت الباب، ولا أنام إلا على صدى أصوات أحد والديّ، أمّا إذا أفقت ودهمني صمت البيت، فهي الكارثة، والطامة التي لا مردّ لوقوعها، أحسّ ببرودة تسري في مفاصلي، وخواء في أمعائي، وتيهت ملامحي، كما لو كان شبح يسمق بعنقه أمامي، وتنبأني أصوات، فأصرخ، وأطلق ساقّي وراء الباب، وأتكوّم على نفسي، أنكمش، وألطو كنعامة... عندما أدركت والدتي جليّة الأمر، واطّلت على جوهر مكنوني، كان الأوان قد فات، واستفحل الداء، فلم يعد يرجى لكسره جبر. صارت تأخذني معها حيثما اتّجهت، تأخذ بيدي، تضغط كفيّ كأنّها تخشى عليّ الضياع وسط المتاهة، وتقودني عبر أزقة ضيقة غير مطروقة... لا أناس... لا أصوات... لا ضجيج... ولا حتى مواء قطّة مستوحشة. معها تربيت، في حجرها، بين ذراعيها، عالمها عالمي، وأفقها أفقي، تسحبني بصحبتهما إلى الحمام، إلى المتاجر، إلى بيوت الصديقات... وباختصار، إلى كون النساء الرّهيب الممتع، حيث أخذت عنهنّ كلّ شيء. ألم تنظر إلى مشيتي؟ إنّها تشبه تأوّدهنّ! وإلى هذه الأرداف اللّعينة؟ إنّها مكورة كما لو كانت أرداف أنثى! وهذا الجمال المقيت؟ ورثته عن والدتي، ولم أرث عن والدي غير تسليمه قياده لسلطتها. تصوّر أنّي ظللت إلى وقت قريب أرى والدتي تضع أحمر الشّفاه فأقلّدها، وتشتري فساتين من السّوق فأجرّبها، وأنتعل الأحذية العالية، وكانت هي تتطلّع إليّ، غير أبهة، كأنّ الأمر ليس خطيرا، ولا يستحقّ اهتماما على الإطلاق... إنّني

أدرك جيداً ما تفكّر فيه الآن، لكن لا يذهبن بك الخيال بعيداً، فأقسم لك بجميع الأيمان التي تستوثقها أنني لم أكن في يوم من الأيام لوطياً، ممّن يتعبرون بأجسادهم. جوهر مأساتي خطأ قديم. صدر ساعة عمو، لم يفكّر خلالها والدي ولا والدتي أنّ الحذب الزائد لا يولّد غير مسخ!... لما كبرت، أن أوان خروجي، تردّدت، تقدّمت خطوة، وتأخّرت عشراً، لسبب ما تردّدت، منظر العملاق وأنياب الغيلان، لا مفرّ، صار الخوف قلعة حصينة، دفعت دفعا إلى الخروج، أوصد باب السور الكبير ورائي، تراجع القهقري، ضربته بيديّ حتّى دميّتا، اضطررت إلى التسليم، فتقدّمت، أول من رأيته نظر إليّ باشمئزاز، وأولاني ظهره، ثمّ بصق بصقة كبيرة، وكذلك فعل كلّ الناس. قرأت في نظراتهم اتّهاماً، استنكاراً وإدانة، وتلك الكلمة الصّاعقة... لوطي... لوطي!! إذ ذاك فقط، بدأت أضيق بنفسي، وتخامرني فكرة الانتحار... حياة من هم مثلي لا تقدّم ولا تؤخّر، شيء زائد على الحاجة، فوق النّصاب المقرّر، فضلة، نفاية، قاذورة لا تليق بها غير سلّة المهملات. هل تدرك الآن لماذا قرّرت الانتحار؟ وهل تعرف لماذا حدّثتك بحكايتي دوناً عن جميع النّاس؟ لأنّك، بكلّ بساطة، الوحيد الذي عرفته من بينهم.

كان صوته ما يزال دافئاً، وقد طغى عليه ضعف أكبر، وعندما صمت، ارتفعت من جانب السرير، حيث كان يجلس، حشجة حرى، مؤلمة، سرعان ما تحوّلت إلى دموع ممزوجة بأهات منهية. قلت أتركه يبكي. ومكثت في مكانك تفكّر في جميع الكلام الذي سمعته منه. لست الوحيد الذي يستحقّ الشّفقة إذن، فهي هوذا واحد آخر مثلك، معزول ومستوحش، مجرد مكثه منفرداً يسبّب له فزعا، ونظرات النّاس إليه دفعته إلى التّفكير في الانتحار. فهل فكّرت أنت في الانتحار؟ هل أغلقت على نفسك الغرفة يوماً وجرعت قارورة الدّواء حتّى ثمالتها، فسقطت على الأرض محدثاً ارتطاماً ودويّاً؟ لا... لم يحدث أن فكّرت في الموت نفسه، وهو منك قاب قوسين أو أدنى، يترصدّ في كلّ خطوة، يتردّد مع

الأنفاس، فكيف بالانتحار؟ الكلمة نفسها مرعبة، مقرفة، قشعريرة
تنتاب الجسم لذكرها، تقَرَّز يسفر، ثم أنت، رغم حزنك المقيم ووحدة
الكاوية، أمرك هين، حالتك أخف وطأة، وقد اخترت ما اخترت بنفسك،
بمحض إرادتك، دون ضغط أو دفع من أحد، وإذا جاز قلت: أنت ضحية
نفسك، أمّا هو، أمره مختلف، وضعه صعب، لم يتحمل الصدمة،
وكان خروجه كافيا لإحداث البلبلة في كيانه!!
تعال إلى جانبي.

وصلك صوته هذه المرة هادئا مطمئنا.

قمت من الكرسي، وتوجّهت نحوه، وعند اقترابك منه، بقيت واقفا
تنظر إليه بعينين حائيتين. كان هوي في المقابل يتطلع نحوك، وقد تشابكت
نظراتكما، وسال الكلام أنهارا، ما له حدود. ماذا قالت النظرات؟ كنت
تفهم عنه، وكان هو كذلك! نظراتكما واضحة، صريحة، لا تحتمل أي
شك أو تأويل. قال مومنا: «اجلس!» فجلست، وبإيماءة أخرى سألك
الاقتراب فاقتربت.

قال برجاء:

.إني خائف، ضمّني إليك!

ضممته.

.اهصرني بقوة أكثر كي أذوب وأتلاشى! لا أريد أن أخاف... لا... لا
أريد!

هصرته، فدفس رأسه في صدرك، وضغط بكامل قوّته. لم تحاول أن
تبعده، أن تتخلّص منه، ربّما لو حاولت، اعتراه إحباط، أصابته نوبة.
كان يهيمهم، قلبه يضرب بشدّة، فرائصه ترتعد، وأنت ساكن كتمثال،
رأسك مشدود نحو السقف، أفكارك مشتّتة، وذهنك لا يستطيع التركيز
في شيء محدّد.

كم لبث؟ متى سحب نفسه منك؟ هل النية صادقة، الجوهر نقي؟
لم تعرف كيف تجيب، خشيت كثيرا، إلّا أنّ الظنّ لم يذهب بك بعيدا.

كانت لديك الرّغبة في تصديقه، لو كان خلاف ما هو عليه، لكشفته، هتكت ستره، تسعة عشر عاما علّمتك أشياء ما لها حصرولا عدّ، وظلّت أشياء أخرى، كثيرة، ستعلّمها أنفا. عيناك شعلتان قاتلتان تخترقان القلب تماما، تلجان مصدر الأسرار، تنهار جميع المراتيج أمامهما، ينجلي ما خفي، يسقط ما ارتفع واستطال. وأذنك دوما مرهفتان، تسمعان ديب الحباحب في الليل الهميم، تتأثران صوت الجندب المنفرد، ولا يتوه عنها نقيق الضفدع المتوحد، وتلتقطان فوضى الهمهمات ورنّة الآهات. لا... لا، إنّه لا يمكن أن يكون كاذبا؟ حزنه يشبه ذلك الحزن الذي يغلف ملامحك! صمته صمتك! وصوته، إن تكلم، يكاد يكون هونفس صوتك، بنبرة أساه، وشروخه وأخايدده! رفع رأسه نحوك، وسألك:

هل أنت غاضب ممّا حصل؟

قلت صادقا، دون مداراة:

لا، أبدا.

فلماذا أنت صامت إذن؟ ألا تقول شيئا؟

لم تجد ما تقوله، ومع ذلك لم تشأ أن تجرحه.

قلت:

إنّي أفكر فيما سمعته منك، وهو حقّ مؤلم!!

اقترب منك، حتّى كاد يلامس كتفه كتفك، وسألك بفرح:

هل يعني هذا أنّك صدقتني؟

رنوت إليه، وجالت عيناك في ملامحه الطّفوليّة البريئة. «لا... لا

يمكن أن يكون كاذبا!»

قلت:

ولماذا لا أصدّقك؟ ألسنت تقول الصدق؟

بلى، بلى، وأقسم على ذلك.

نهض... خطا خطوات نحو الباب... أراد أن يغادر، غير أنّك عاجلته

قائلا:

انتظر، لا تذهب. ستبيت الليلة معي. هناك سرير شاغر.

استلقى على السرير، في الجانب الآخر، حتى قبل أن يخلع ملابسه، وراح يغطّ في نوم عميق. لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، ربع ساعة تقريباً، تزيد قليلاً، أو تنقص قليلاً، لا بدّ أنّ اعترافه المبرق قد أنهكه، استنفد جهده حتى آخر ذرّة. من لك الآن؟ لا يوجد أحد آخر كي تحدّثه أو يحدّثك، كي تتجاذبا أطراف الحديث، لوحدتك تعود، تنطوي على ذاتك من جديد كقوقعة، وسط كثافة الظلمة، وغياهب الديجور. قبل ساعتين على الأقلّ، كنت مأخوذاً بسفور القمر على صفحة السّماء الصّافية، وتتأمّل مملكة النّجوم، وهي تومض مرّة هنا، ومرّة هناك، والآن، مرّ كلّ شيء أمامك كحلم، الأطياف والموجودات انسحبت، ما هو مألوف يغيّم. حتى الأفكار استعصت، وحلّ محلّها في مؤخّرة رأسك خدر رهيب... غفوت، فتحت عينيك، أغمضتهما، فتحتهما، ثمّ عدت فأغمضتهما وغفوت... انتشر حواليك الامتداد فضاء بلا حدود. أطرافه لا تدرك، تخومه شتات، قصيّة، عصيّة المنال، لا يحيطها الخيال، مراميه غائمة، زواياه شفيفة، أسرارته مشتهاة، في مداه تلاشيت، انتهكت نشوة، واحتضنتك خضرة من كلّ اتجاه، أغصان ترفّ، أوراق تحفّ، أشجار عملاقة، عظيمة، شحيّة الحضور، هي الغابة. أصل البداية، عرض يزول، جوهر يولد، أزهار وأطياف، وحشائش تعبت بها النّسمات، تشمخ برؤوسها الصّغيرة، تتبع مصدر الرّيح، تقصد الوجهة، تستكمل الأهبّة، يخّر الماء عذبا سلسبيلاً، تجري الأنهار، تمتلئ الجداول، يغرد قمريّ، تمتزج البداية بالنهاية، ترى الجبل عالي القمّة، وعرا، حزيناً، يكتنف السّهل الأخضر، تلوح الرّبوّة، ما بين العدوّة والعدوّة، خفّافة رجراجة، تكنفها الأشعّة، يبلّها الندى، وفيها البيت، من لوح كان، محدودب السّقف، صقيل الأطراف، نوافذه مشرعة، ستائره متهدّلة، تذروها الأنسام، ذوائها تحفّ. والصّوت؟ هل سمعت صوتاً؟ رقيق، دافئ، فيه عذوبة، يضوع إيناساً، نبراته تغريد، جرسه يعيد الأبعاد إلى

الأقارب. فجأة، تجلّى طيف، شفيفا كان، لا تدركه جارحة أو لسان،
يهسّ جناحاه. يدفد فان، يعبر كالروح، كرفة، أنثى من الحسان، تشي
ملامحها بحزن مقيم، عينها بحريّتان، بسمتها المتألّقة، تصفح عن
أشياء بلا مسمّيات، قد تكون الألم، أو الأسى، أو التوجّس!!
جريت وراء الطّيف حتّى كلّت رجلاك، هذّك التعب، فجئوت،
وناديت:

من تكون أيّها الطّيف؟

في الصّباح، مبكرا، حوالي السّابعة والنّصف، حانت منك التفاتة
إلى النّافذة التي تركتها مفتوحة ليلة البارحة، فصفعتك موجة برد
على وجهك الذي ما يزال ملبّداً بسحاب النّوم. شددت اللّحاف حول
جسمك شبه العاري، واسترقت النّظر إلى الجانب الآخر من الغرفة
حيث ينام «مرتضى». بدا لك طفولياً بجمّته الجعداء المنكوشة،
وملابسه التي انحسرت في بعض المواطن عن جمال متوحّش، ووجهه
الغافي، لا يخفي شيئاً، وتقطر جنباته باستسلام وتيه وراء حدود
مجهولة. لم تتمالك نفسك عن التّساؤل، وقد هزّتكَ صورته هزّاً
عنيفاً، لا تدرك مصدره: «هل هو يحلم الآن؟ بماذا يحلم يا ترى؟» طفت
على شفّتك ابتسامة إذ استعدت حلم البارحة، وفكّرت في طيف تلك
الأنثى الشّاردة، واستبعدت أن يكون حلمه ممثلاً لحلمك! قلت: «لا
يمكن ذلك»، لكن، «لماذا؟» هل ما زلت تنظر إليه كما ينظر إليه بقيّة
النّاس رغم اطمئنّانك إليه؟ هل تعتبره من جنس آخر، من طينة أخرى،
دمه خلاف دمك، وملامحه خلاف ملامحك؟ لم تستطع الإجابة، هربت،
أردت أن تتفادى الإحراج... وضعت المنشفة على كتفك، وخطوت
صوب الممرّ، متّجهاً نحو الصّنبور. كان الماء بارداً جدّاً، لدرجة أنّك لم
تقدر أن تلمسه بيديك، ألقيت نظرة على النّافذة من جديد، فتناهت
إلى مسامعك أصوات زخّات الرّذاذ على الرّجاج، وتسامقت أمام عينيك
دكنة تحاصر المكان في الخارج... غسلت وجهك، متجاهلاً برودة الماء،

مستمدًا شجاعة إضافية من نعومة المطر، هذا الذي طالما جعل قلبك
المتعب يرقص طربا... فتحت الدّولاب، أخرجت ثيابك، ولبستها على
عجل، ثمّ قصدت ناحية «مرتضى»، فأيقظته.

قال بصوت ما تزال عالقة به بقايا النّوم:

صباح الخير.

رددت مهدوء:

صباح الخير.

قال سائلا:

كم السّاعة الآن؟

حوالي الثّامنة إلّا ربعا.

قال، وهو ينهض بغتة، متّكئا على مرفقه الأيمن:

لقد تأخرنا. لماذا لم توقظني حالما استيقظت؟

لا تخف، مازال لدينا متّسع من الوقت، فالكلّية لا تبعد عن هنا

سوى خطوات.

ثمّ أضفت:

قم الآن، كفاك كسلا، واغسل وجهك!

في الثّامنة إلّا دقيقتين بالضّبط، تصافحتما بحرارة في مشرب
الكلّية، ثمّ افترقتما. عبرت الممشى إلى قسم اللّغات، خطاك متأنّية،
متّئدة، محسوبة، لا تريد لأحد أن يلحظ شيئا، لا ترغب أن تجلب
انتباهها، واحد من آلاف، نكرة من بين نكرات لا تحصى، قصدت نحو
الباب، دخلت مع الدّاخلين، لهجات شتّى تسمعها، أحاديث جمّة،
لا تنتهي، ضحكات تفرقع بصخب، وأخرى تنطلق في حياء، لهجتك
مختلفة، حتما سيتفطّن إليك، مهما حاولت أن تنجو، كلّ شيء فيك
يكشفك، يشير إليك، لا يفيد التّكتّم، وتستّرِك عبث لا طائل من ورائه،
انظر!! دقّ جيّدا، هذه ملامحك ليست خافية، سمرك الغميقة تشي
بانتمائك، تقول صراحة إنّك من هناك، ملابسك أيضا، احتشامها،

بساطة تصميمها، تفاصيلها الساذجة، ألوانها، دقائقها، لا تشبه في شيء ما رأيت، الألوان ليست هي ذات الألوان، أخاذة، صارخة، ضالعة في منمنمات عصرها، متمكنة فيه، والملاح تضوع شبابا، مأوها رائق، تشي بأولى الخطوات في درب البداية، كما لو أنها لن تشيخ أبدا، ملامحك موعلة في التَّرهّل، عفت، لا تعرف الوسائط، من إيناع الطّفولة رأسا إلى حافة القبر... وراءك، أمامك، تحوطك الأصوات، تحاصرُك، تتساءل عنك:

من يكون؟

هل يدرس هنا؟

أحرى به أن يكون في أحد الأقسام الأخرى؟

والأسئلة لا تنتهي، لا تتوقّف، هربت، حثثت الخطى، استدرت ناحية اليمين، ومشيت، واجهك باب مفتوح، دخلت، كانت القاعة شبه شاغرة، لم تنظر، لم تلتفت، يمينا أو شمالا، انطلقت، كدت تسقط، التزمت الوسط، استندت بكفّك، وبالكاد وصلت، جلست على الكرسيّ، الكرسيّ الأوّل، أمامك السّبّورة، ووراءك... لست تدري، أغمضت عينيك للحظة، سرحت، تذكّرت فجأة حلم البارحة، غازلِك الطّيف، هجس صوت داخلِك، فتحت عينيك، ملت برأسك قليلا، إلى اليسار، قرب النّافذة، على الكرسيّ المواجه رأيّتها تجلس، أسر حضورها، شفيف، جذّاب مدارها، بسمتها غامضة لا تفصح، عليها مثل مسحة الحزن، عيناها عميقتان، خطرتان، توردان هلاكا، تصدران حياة...!!

تلاشى خوفك.

أينع جديك.

زقرقت عصافير قلبك.

**[ذاكرة لما بعد الصدمة]

الأيام التي قضيتها بعد ذلك ما أصعبها عليك، وما أقسى احتمالها، إِمّا مشدودا إلى غرفتك، في الطابق الثالث، مشمولا بوحدها، مواربا في صمتها، أو تائها بين ثنايا الشارع الإسفلتي، مستغرقا في قاعة الدرس، تنظر إلى المحاضر وهو يتكلم، يسهب، يفسر، ولا تفهم عنه، كلامه، على بساطته، يترأى لك خبيثا، كأنه يأتيك من آخر الدنيا، ملغزا، أسود، مشرشر الأطراف، وهو، على قربه، تبدو لك ملامحه ممحوة، دون معالم، مثل هيكل أتت عليه السّنون، ففقت آثاره، وتلاشت علاماته الفارقة. أحيانا يسألك، يطرح السؤال عليك، يمدّ بصره فلا يرى غيرك، أنت الأول دائما، تجلس على الكرسي في مواجهته، يكرّر السؤال، يومئ كي ينهك، يشير إليك من طرف خفي كي لا ينبّه زملاءك، فيغتنمون فرصة السّخريّة منك والضّحك عليك، لكن، لا حياة تدبّ فيك، لا مؤشّر يدلّ على كونك منخرطا في عالم الموجودات، عيناك مسترسلتان في تيههما، ممتدتان، تضيقان حيننا، تتسعان أحيانا، كما لو أنّهما تبخثان، تبعان، تهولان، تطيران، تحلقان بعيدا، ثم ترتدان من حائق إلى مساحة الشّروء من جديد. هل كانت ابتسامتك البلهاء تشي بشيء؟ ألم تفضحك؟ هل أحسنّ أستاذك بشيء مريب في نظراتك، استغراقك، رحيلك؟ لا، أبدا، منعه خوفك من اكتشاف السرّ، حجبته رعبك، هواجسك المضطربة غطّت على عينيه، جعلت مثل الوشاح الرقيق، مثل الحجاب؛ وأنت؟ ما أقربك، ما أخفّ خطواتك لو أقدمت! الجانب الآخر لا تفصلك عنه سوى مسافة الإضمّار، سوى تحطيم حاجز دقيق، وتمضي، غير هيّاب، لا تراعي، ولن يتكلم الآخرون، لا حقّ لهم في التّدخل، سيخرسون، وتجد نفسك وجها لوجه أمامها، تتملّى حسن التقاطيع، رحابة المدار، اتّساع المركز، وشسوع التّخوم. قد تستجيب لو خطوات الخطوة الأولى، صحيح ربّما بدت على محيّاها صدمة الاستغراب في البداية، هذه لا بدّ منها، تحدث دائما، كلّما تقدّم

أحد الأطراف. التقى الغرباء، ذكروأنثى، وسرت في الذكر كهرباء خفية، أسرته الجاذبية، وحاصره المدار، لكن قد تهدأ ملامحها فيما بعد، إذا عدلت نبرتك، نطقت الحروف بهدوء وليونة، إذ ذاك تتألق العينان، تبسق مسحة الحزن وتورق الشفتان، قد تحنّ؛ أو ليست أنثى؟ ألن يطنّ ذلك الوتر المرهف داخلها، وتزقزق تلك العصافير زقزقات طال احتباسها؟ كان اللقاء سيجري ببساطة، ودون تعقيد:

أهلا، سعدت بلقائك. أنا سالم.

بدءا، قد تظهر استغرابا، وهذا من حقها، ثم فجأة يزهر وجهها، وتقول مادة يدها الصغيرة:

وأننا أيضا سعدت بلقائك. اسمي...

لكن، يا إلهي، ما اسمها؟ من أين جاءت؟ ولماذا يبدو حزنها عميقا، موعلا، مدمرا؟ من بين كلّ هذه الأسئلة، توصّلت إلى معرفة اسمها، عرضا، لم تسألها، لم يصادف. في الأيام الأولى، أن اعترضت سبيلها، كما يفعل الآخرون، بهدف التودّد، أو المغازلة، أو المعاكسة، حتّى أنّك كنت إذا رأيتهما آتية من بعيد، تدخل من الباب الكبير، وتعبّر الممشى الأمامي القصير، ثم تستدير يسارا، وتتقدّم نحو قسم اللغات، تقف، مضطرب الدّاخل، متوترا، دمك يغلي، وقلبك يضرب بشدّة، ترجع القهقري، ترتدّ على عقبيك، مطأطئ الرأس، وتلطو في ناحية ما، أذناك فقط تلتقطان صدى خطواتها الخبيثة، التي لا تكاد تسمع، تستلذّ بها، وهي تطأ على خارطة جسمك المترهل، ثم تلج عبر مسامك، تتمسّح بشرايينك، تتمدّد بين الشّغاف، وتفتح باب القلب، وتنام. هل جرؤت مرّة أن تنظر إليها، وجها لوجه، ولو عن غير قصد؟ وهل كنت ستصمد أمام نظراتها؟ لا... هذا مستحيل، دوما كنت تنظر إليها بحذر، وبحذر كنت تستريح بعينيك المتعبتين على أفقها المهيب إذ يعبر، ويوشك أن يختفي، تفعل ذلك بسرّيّة تامّة، تتخذ احتياطاتك كاملة قبل أن تسترسل، أن تشقّ مسافة الخطر، وآية لمحة، أيّ صوت يتناهى إليك، من هنا أو هناك، كاف

بأن يؤجل اللحظة، يعلق الخطوة، لا ترغب أن يضبطك أحد، وأنت تسافر بعينيك في مدى ذلك التيه الخطر المترامي، فيبتسم لك ابتسامة متواطئة دلالة أنه عرف السرّ، لا تريد لنفسك أن تكون ضحية، وأن يشير إليك الآخرون كلّما مررت أمامهم، ويقولون: «هه، انظروا إليه، بالأمس كاد يلتهم بعينيّه التهمتين زميلة تمرّ!» وقد يذهبون بعيدا... بعيدا جدّا، فيتساءلون: «تري ماذا بينهما؟ هل يحبّها؟ أم...» ويقطعون كلامهم بغتة، ثمّ يغمزون بأعينهم، فتفهم كلّ شيء، وتدرك ماذا يعنون. لذلك كنت حريصا، زادك الترقّب، رفيقك التوجّس، تنتظرها على جمر، وإذ تجيء، لا ترصدها مطمئنا، لا تروّزها على مهل، تتأثّى، تولي وجهك للطريق، تستعجل خلوه بفارغ الصّبر، تقسو يدك اضطرابا، يتقلّص وجهك ألما، فإذا خلوتما، تفرّغت إليها تماما، دون منغصات، سرعان ما تلقي بنفسك من علوّ نشوتك، فتتلقّفك أبعادها، وتذروك مسافاتها، كونها طيّب ضائع، ممزوج برائحة طالما سبّبت لك قرفا، لكنك صرت الآن تعشقها، تتشرّبها ذرة ذرة، وهي تندلق من بين شفّتها الرقيقتين، أوّل امرأة تراها تدخّن، تفتح حقيبة يدها، تتناول علبة السجائر، تأخذ سيجارة، تشعلها دون خجل، وتشرع تنفث الدخان... هل أسرتك لأتمّها تدخّن؟ هذه المرأة الأولى التي انجذبت إليها بقوة وعنف، واستشعرت رغبة لا تقاوم في القرب منها والتحدّث إليها، فهل ما أغراك بها شيء لم تقربه يوما، ولم تأنس ميلا إليه، وجعلتك هي الأنثى تكتشف أنّ حنيننا طافحا تجاهه كان يترصد نائما في أعماق أغوارك الساكنة؟ قد يكون ذلك، ولكن ما شدّك إليها أكثر. شيء غامض على وجهها، في ملامحها، بين ثنايا صفحة شسوعها، يربكك بسرّ لا يفسّر.

تري ما اسمها؟

الأيام التي قضيتها بعد ذلك تفكّر في هذا السؤال ما أصعبها عليك، وما أقسى احتمالها! لو سألتها لانتهى الأمر، لو حاولت فقط أن تتقرّب منها، عن طريق صديق مثلا، أو صديقة، كلّ الأشياء كانت ستكون على

أحسن ما يرام، لكن من لك بهؤلاء الأصدقاء، وأولئك الصديقات، وأنت غريب، منقطع بك في هذا المكان الذي مازلت تجهل أكثر خباياه رغم اقترابك منه واندماجك فيه. هي نفسها (أه، ما اسمها؟) ليس لها أصدقاء أو صديقات، في أكثر الأحيان، تراها لوحدها، تمشي وحيدة، تجلس في الفصل وحيدة، وإذا كان أوان الاستراحة، خرجت من القسم كله، وابتعدت إلى التّخوم، إلى الأخاديد، والمناطق القصيّة للمكان، وذابت نفسها، في لحظة اتّحاد، تلتهم السيّجارة، وتشفط الدّخان، في حين عيناها مرسلتان، شاردتان، يتراءى أمامهما عالم كنت مستعدّا لدفع نصف عمرك في سبيل أن تعرف حدوده ومراميه!!

مرّة، وخلافا للعادة، انتظرتها على مضض أمام المكتبة، راقبت مجيئها قلّقا مستوفزا، عيناك لا تهدّآن، تبهلقان في باب المدخل، لا تفارقانه أبدا، يداك كانتا ترتجفان من الاضطراب، ووجهك ينمّ عن فزع لا يخفى. رأيت في اللّيلة السّابقة حلما أزعجك وأمّضك، رأيت فيما يرى النّائم نارا، والنّار في بيت، والبيت تتأكّله ألسنة اللّهب دون هوادة، وفي طرفة عين ندّت صرخة، انفجر صوت تعرفه جيّدا، صوته، وطفرت يد من نافذة ما، يد صغيرة. ناعمة، تستغيث، تطلب النّجدة، وبرزت مسحة حزن على وجه خفيف السّمرة، يا إلهي، كان وجهها، جريت نحوها، أضمرت إنقاذها، وعندما اقتربت طارطيفها غريا، أحمر قانيا كشعلة من نار، ثمّ اختفى. صرخت بدورك، ضربت يداك أطراف السرير، وعندما فتحت عينيك، وجدت نفسك ملفوفا بالظلمة. قلت: «إنّه كابوس!» ومع ذلك صمّمت، قرّرت الإطمئنان عليها، ليحرمك القدر كلّ شيء، وليرحل هذا الكون منطويا على جميع ما فيه، إلّا أن تسلب هذه الفرحة الوليدة، هذا الحلم الوحيد الحقيقيّ في صحراء حياتك اليباب؛ لبست ثيابك على عجل، أخطأت مواقع الأزرار، كدت تلبس بنطالك مقلوبا، صفقت الباب وراءك، وأنت تخرج، وبعد أن نزلت الإحدى عشرة درجة، تذكّرت أنّك نسيت المفتاح داخل الغرفة،

قلت لا يهمّ، أسرع في مشيتك، رغم حرصك أن تبدو هادئاً وطبيعياً، كان الوقت مبكراً جداً، والسّاعة لم تتجاوز السّابعة، والشّارع ما يزال خالياً، والمقاعد الخشبيّة في الحديقة خاوية، غافية، تستعذب ندى الصّباح البليل، باب المشرب فقط كان مفتوحاً، تنعكس على زجاج نوافذه ذبالة نور، خرج «تامر»، صاحب المشرب، اقترب من سيّارة في نهاية الممرّ، لمحك وهو يفتح الباب الخلفي، اصطادتك عيناه.

قال:

صباح الخير.

صباح الخير.

كيف حالك؟

على مضض أجبت:

بخير.

إلى أين تذهب في هذا الوقت المبكر؟

وصمت قليلاً، وقد لاحظت أنّه يلتهم ملامحك بعينه، ثمّ قال

مقترحاً:

. تعال معي، إنّني أدعوك لشرب فنجان قهوة، ولا تخف من دفع

الحساب، فهولك بالمجان.

اعتذرت بأدب، دون أن تنظر إليه، وقد اضطررت إلى سحب يدك

التي ظلّ قابضاً عليها بكفّه الضّخمة القويّة، دلفت من الباب، ومضيت

رأساً نحو المكتبة، جلست على صخرة عظيمة قرب الجدار، تطلّعت

نحو المدخل الرئيسيّ، أحسست بالقلق رغم أنّه لم تمرّ من الوقت إلّا

لحظات قلائل، وقفت، سرت يمنة ويسرة، ذهبت إلى الأمام، تراجعت

إلى الخلف، نظرت في ساعتك أكثر من مرّة، كان الوقت يمرّ بطيئاً، أبطأ

من سلحفاة، استقرّت عيناك على العقرب الصّغير، بالكاد تحقّقت

الرقم الأسود، في حمّى اضطرابك، صفقت يديك، شدّدتكما بقهر، قلت

غاضباً:

إنّما السّابعة. ألا تتحرّك هذه العقارب اللّعيّنة. متى تحين الثّامنة...

متى تجيء؟ وهل تجيء!!؟

قبل الثّامنة بعشر دقائق جاءت، جاء قبلها خلق كثير، رصدتهم شزرا بعينيك، عددتهم، كنت تمنع في مواطن الشّبه، كان يعرفون اضطراب، تنتابك قشعريرة فرح كلّما رأيت واحدة تشبهها، ثمّ يتظامن الاضطراب، تتلاشى الفرحة عندما يخيب حدسك، يغيم الشّبه، ليحلّ محلّه الاشتباه، تكرّرت اللّعبة أكثر من مرّة، خمس مرّات تقريبا، بل أكثر، كدت تيأس، غير أنّك لم تستسلم، وقبل الثّامنة بعشر دقائق، جاءت، أخيرا جاءت، ولم تكن وحدها، أخرى معها، تشبهها قليلا، نفس الطّول، نفس الملامح، إلّا أنّ أنفها محدودب قليلا، مع حدّة في المؤخّرة، عيناها تخفتيان وراء نظّارات سوداء، لم تتبيّن لونهما، تردّتي نفس الملابس تقريبا، هل هي أختها؟ قريبتها؟ ماذا يقولان، يا ترى؟ قرّرت تحطيم عادة دأبت عليها، حطّمتها تماما حينما اقتربتا منك، رمقتهما بعينين متّسعيتين جائعتين، وأرهفت سمعك حتّى خيل إليك أنّه يمكنك أن تسمع دبيب النّملة على الأرض ليلا؛ يا إلهي، إنّهما تقفان، تتبادلان الحديث، وهما بالقرب منك، لم تسمعهما جيّدا، مكثتا أكثر من ربع ساعة، ترقب حركاتهما، تدقّق في الملامح، تتلّبع حركات الأيدي، تفسّر الإيماءات، عند حدّ معيّن، في لحظة ما، وفجأة، استدارت صديقتها الجديدة، أولتها ظهرها، خطت إلى الأمام، فعلت هي مثلها، تحرّكت أنت أيضا، عند نهاية المشهد لا بدّ من إسدال الستّارة، خطوت مثلهما، إلّا أنّ صوتا داخلك ظلّ يخضّك، يرين بثقله عليك، يهدد رغبة أكيدة في المراجعة، التفت لإراديتا، رفعت رأسك تسترجع تفاصيل المشهد، لم يكن المسرح خاليا، والشّخوص الّذين غادروا الخشبة يعودون من جديد، ها هي الصّديقة الجديدة، تلوّح بيدها، ترفع صوتها، تنادي:

مي... مي، لا تنسي، انتظريني في الثّانية عشرة لنترجع معا بالسيّارة.

ما أوفر حظّك! ما أسعدك بهذا الاسم! اسمها «مي» إذن، ما أجمل

هذا الاسم! صحيح، لقد صبرت كثيرا، وها هو صبرك يتوجّ أخيرا، لم تسع، لم تستقص، لم تفحص، وتنقّب، حتّى أنّك لم تتخذ الخطوة التي كان عليك أن تتخذها منذ الوهلة الأولى، كيما تتضاءل المسافات، ويتداني الأبعاد، غير أنّك تستشعر في النهاية سرورا لم تكن السبب في إذكائه، وإنّما هو القدر، الصدفة، أو الحظّ، وقد يكون الرثاء من السماء لجذب لازمك، ولم تستطع الفكاك منه.

آن لعصافير قلبك أن ترقزق الآن...

آن لقلبك أن يرقص...

فاسمها «مي»... «مي»... «مي»!!

**[١٨ نيسان ١٩٨٩]

لم يتوقّف المطر عن الهطول منذ ثلاثة أيّام، ظللت خلالها معتكفا في غرفتك، لا تخرج منها إلّا إلى المطعم أو متابعة الدّروس في قسم اللّغات، وخلال ذلك كلّه، لم تتوقّف لحظة واحدة عن التّفكير في «مي»، تستحضر صورتها كلّما خلوت إلى نفسك، فيستبيك مداها، ترسم جاذبيّة حضورها على خارطة رغبتك، تحاورها عساك تظفر منها، ولو بهمسة، في خلوات الصّمت التي صارت تمتدّ وتمطّط، حتّى وأنت تراجع سيل المحاضرات الذي لا ينتهي، سيّما والعام الدّراسيّ قد أشرف على الانتهاء؛ على حافة السرير، ملتصقا بالطّاولّة ذات القاعدة الخشبيّة، والقوائم الحديديّة. وقد حشدت أمامك أكداش الأوراق، منها ما هو مكتوب بخطّ يدك، وما هو منسوخ، تتوقّف فجأة، فيتعلّق رأسك بالسّقف، وتدهمك فرحة ناشئة، ترتجف لها أوصالك، تحاول أن تفهم تلك الحالة الطّارئة، وتغوص عميقا متقصّيا الأسباب، تختلط عليك السّبل، وتشعر بنفسك مكبّلا، لا سبب إلّاها، ولا احتمال إلّا في اتّساع مدارها، واستحالة شسوعها، تستعيد التّقاسيم، تتلمّس التّقاطيع، تجد نفسك مربكا، يقول صوت حنون داخلك: لماذا تحاول

أن تفسّر ما لا يفسّر؟ ألا يكفيك اكتمال الجوهر، لتبحث عن العلل والأعراض؟ «مي» صارت هاجسا، استقرّت داخلك إلى الأبد، دائما تجدها حيث لا تتوقّع وجودها، فإذا أملت لقاءها في مكان ما، راوِغك حضورها، تلاشت ملامحها، مخلفة حسرة في القلب، وغصة في الحلق. هذا خيالها أصبحت له سطوة، والتّفكير فيها غدت له وطأة، تمكث السّاعات الطّوال في الفراش، تتقلّب على جنبيك، فيجفوك الرّقاد، وتكون مضني، مهودود الحيل، مشفيا على غور الإرهاق، فتطلب مسّ السّبات فلا يسعفك. هل صارت «مي» ثقلارين، وعبئنا ينوء به كاهلك؟ بلى، بلى، لقد صارت هي كلّ ذلك!!

في اليوم الثّاني من نزول المطر، الاثنين، ١٧ نيسان ١٩٨٩، حوالي السّاعة الواحدة بعد الزّوال، تسلّمت رسالة عليها ختم مكتب بريد حيّ السّاروجة، مؤرّخة في ١٠ نيسان ١٩٨٩، في البداية استغربت، وتساءلت عمّن يكون المرسل، وقد استبعدت أن يكون والدك، سيّما وأنّه لم يرسل إليك إلى حدّ الآن ولو رسالة واحدة. إنّه معذور، على كلّ حال، فكلّ الذّنب يقع عليك، والتّبعة كلّها ملقاة على عاتقك. ألم يوصك، وهو يفضي إليك بحديث الوداع، هناك، على مشارف الحيّ، الّذي كنت على وشك مغادرته لأوّل مرّة، أن تكتب مرّة، كلّ أسبوع، فإذا لم تقدر، وقد أوجد هولك عذر الضّنك المقيم، وأعباء الدّراسة الّتي لا تنتهي، فمرّة كلّ شهر، ومن يدري لعلّه كان يتعجّل نهاية كلّ شهر، فيذهب إلى مكتب البريد موقنا أنّه سيجد الرّسالة المرقوبة، إلّا أنّه يصدّم بنفس الجواب دائما: «ما من رسالة بهذا العنوان.» لوقدّرك أن تراه وهو يجرجر قدميه إلى البيت، مطأطيّ الرّأس تعلو قسماته آيات الحزن، وقد خاب أمله في ولده الوحيد، في صلبه، كيف كنت ستتصرّف؟ ماذا كانت ستكون ردّة فعلك؟ ما عذرلك؟ لوقدّرك أن تراه، لربّما تعلّقت بتلابيبه، واحتضنته ودفست رأسك في صدره، ونشجت: «سامحني، يا أبي، إنّ الأمر كان فوق احتمالي، ولم تكن لي

طاقة على صده. «مي» دمّرت كلّ قلاعي وحصوني، وتركت كلّ عالمي قاعا صفصفا، تنعب فيه الغربان. وينعق فيه البوم. رغم ذلك كلّه، لم أهن، لم أستسلم، وحافظت على وصيتك حرفا حرفا، الدّراسة أولا، فإذا أحسست بإرهاق أو تعب استرح... الشّيء الوحيد الذي خالفتك فيه مرغما، مكرها غير مختار، هو المرأة. اه، لو قدّرتك أن تعرف سبب دائي، ربّما كنت عذرتني! إنّها «مي»... «مي»!

طالعك وجه والدك على صفحة الرّسالة، وبين سطورها، أثار حزن تلقي بظلالها على عينيه، وتتراقص على زوايا شفّتيه، إلّا أنّه لم يكن غاضبا، أو منفعلا، قال إنّّه يعذرك، ويدعو الله أن يمدّ لك يد العون، قال أيضا، بقلق لا يكاد يبين، إنّ الحيّ تعرّض إلى بضع هزّات خلال أسبوع واحد، إلّا أن الله نظر إليهم بعين الرّحمة، ولطف وستر، فمرّ الأمر بسلام، لا ضحايا، لا خسائر، باستثناء حائط المقهى الخلفيّ، كان سيسقط، على كلّ حال، حتّى لو لم تكن هناك هزّات، الحائط قديم مهترئ، باضت عليه السّنون وفرّخت، والدك قال لا فرج يأتي إلّا بعد الشّدّة، فبعد أن مادّت الأرض بزلزالتها، ورجّ باطنها رجّا، انهمر السيل دقّاقا، انفتحت أبواب السّماء بماء مدرار، سقى اليبس، وامتلات به السّواقي وفاضت به الحقول، قال إنّ رحمة الله بلا حدود، فسبحان من يغيّر ولا يتغيّر، أخيرا زفّ إليك خبر خطبة «عبير»، أختك البكر، قال إنّ عريسا جاءها، وطلب يدها، فأمله ريثما سأل البنت، وقد سأل عنه من يعرفه، من يمتّ إليه بصلة، أصدقاءه، أناسا يعرفونه، فقالوا إنّّه موسر، وابن حلال، فماذا تطلب البنت أكثر من ذلك؟ عرض الأمر على «عبير»، نهبها إلى مواطن الخلل، وكذلك مواطن الصّواب على حدّ سواء، وقال لها اختاري، إنّّه لا يضيق بنفقتها، فرزق المخلوق على الخالق، إلّا أنّ البنت لا بدّ لها من سترة، وكما يقولون: «ظلّ رجل ولا ظلّ حائط». فكّرت «عبير»، قدرّت الأمر حقّ قدره، قلبته على جميع وجوهه، ثمّ أجابت بالقبول. اقترحت على العريس أن تأخذ معها «عرّة» لتقيم

معهما، فلم يمانع، الزّفاف سيؤجّل ريثما تنهي الامتحانات وتعود، إلّا أنّ الخطبة في نهاية نيسان، في الختام يقول إذا استطعت الحضور، فلا تتأخّر، غير أنّه يعلم جيّدا أنّ الظّرف ضاغط، وأنّ الدّراسة لا ترحم، قال لك الدّراسة ثمّ الدّراسة، النّجاح وبعده يكون أمر، فإذا فاتتك الخطبة، فما يزال الزّفاف، وهو الأهمّ!!

قبّلت الرّسالة؛ لم تعد قراءتها رغم شعورك بالذّنب وتبكيك الضّمير، طويتها، ثمّ وضعتها في الظّرف ثانية وأودعتها الدّولاب. لم تعد إليها مرّة أخرى، ولم تنشب أن نسيتها... جريت خلف «مي»، رحلت إليها، إلى عالمها الغريب الغامض، مكثت أياها ممضّة تلاحقها دون كلل، تراقب خروجها من الفصل، تسير وراءها إلى المحطّة، وتقف على مبعده منها، حتّى لا تشكّ في الأمر، تركب الحافلة، فتتبعها، تجلس على المقعد الأماميّ، تختار المقعد الثالث، وتطلّ ترنو إليها، إلى شعرها الفحميّ، الشّيء الوحيد المتاح إليك من الخلف، وتخيّل ملامح وجهها، مسحة الحزن، غموض السرّي عينيها. كانت تنزل وسط الحاضرة، على مفترق الطّرق، تندسّ في الرّحام، تجهد في اللحاق بها إلّا أنّها سرعان ما تزوغ، ويبتلعها المدى اللّامرئيّ، فتطلّ وحيدا تجرع مرارة الخيبة... في تلك الأيّام فقط، ليس قبلها ولا بعدها، بدأت تشعر بحميميّة الحاضرة، تحسّ حرارة تعاطفها، فرغم أنّك لم تتطلّع إلى تخومها إلا عابرا، ولم تنسحب إلى شغاف مطاويها، فقد مدّت إليك يدها واستقبلتك كما تستقبل أيّ أحد من نزلائها، من أفرادها ذوي الملامح المسفرة الّتي منحتها إيّاهم، شجّعك ذلك على الاقتراب، على المداومة، غدوت كثير التّردّد، لا تني عن الزّيارة، في المرض كما في العافية والسّلامة، تحنّ إليها حينيك إلى «مي»، وكلّما ذكرت إحداها طفرت إلى مخيلتك صورة الأخرى. أوليس هما وجهين لعملة واحدة؟ حتّى عندما أصبحت «مي» تغادر مع صديقتهما الجديدة بالسيّارة، كنت تنتظر في المحطّة، تركب الحافلة، وتعجّل الوصول إلى المدارات والشّسوع، تجوب الشّوارع،

تتخلّل الأزقة، تقف عند نهاية كلّ طوار، وتأسرك واجهات المحلات، فتبقى مشدودا إليها ردحا من الزمن. كنت تلج الزحام، تنخرط فيه، في البداية كنت تبحث عن «مي»، وبتطاول المدة، واكتمال العدة، ألفت الطابور، راقك امتداده، حركته التي لا تكفّ، كنت دائما تبحث عن شيء ما، عن شبيه، عن شخص تعرفه، وقد يسمق فجأة أمامك، فتبادلان التحيّة، ثمّ تمضيان، أو تتبادلان حديثا سريعا وأنتما تسيران جنبا إلى جنب. هل يعني ذلك أنّك نسيت «مي»؟ هل تقصد أنّك سلوتها؟ ذلك المستحيل بعينه، إذ من لك بمن ينسيك طيفها الذي أتى شؤبوب ناره على هشيم قلبك؟ أحيانا، حينما يطوّح بك التّجوال، ويهدّد قدميك المسير، تلجأ إلى مقبى معزول، عند نهاية ناصية قصيّة، تظلّل صمته كثافة الأغصان، تطلب قهوتك المعتادة، وتشرّد وراء خيوط الدّخان. في الحاضرة علّمتك «مي» كيف تذوب مع أثير السّجارة مواربة بين شفتيك!! بات صعبا نسيانها، باتت قدرا لا فكاك منه، وقد قرّرت أخيرا أن تخطو الخطوة الأولى إلى الأمام، أن تحزم أمرك وليكن ما يكون!

خرجتما من المدرج، وقد كنت طوال ساعة كاملة، تشرف عليها من عل، يتكلّم الأستاذ المحاضر، ويطنب ويسهب، وأنت تستدعي كلاما كثيرا إلى ذاكرتك، ترتّبه، تنتقي بداية مقبولة للقاء المرتقب، ماذا ستقول لها عندما تقابلها، كيف ستقبّل صداقتك المبدولة. أجل، أجل، تلك هي البداية الطّبيعيّة، تعرض صداقتك، أنت لن تفعل مثلما يفعل الآخرون، لن تقول لها «أحبّك» منذ اللّحظة الأولى، هذا غير منطقيّ البتّة، هذه الكلمة ستأتي في حينها، بعد أن تخطو الخطوة الأولى وتنجح فيها، بعد المضيّ أشواطاً، لا بدّ من تجربة، من رابط لمسار مشترك. كيف ستقبّل صداقتك، يا ترى؟ وهل ترضى أن تكون الوحيد فيما تستقبل من أيامها؟ خرجت، فخرجت وراءها، عند عتبة الباب، فردت مطرّتها، كان المطر ينزل بغزارة، دلفت خارجا، تركت لرذاذ المطر أن يبلّل شعرك، وولّيت وجهك ناحية مصدر البرودة، كنت تريد

أن تتشرب لذاذة الكون قبل احتدام اللحظة، أن تتبلغ من زاد يروي عطشك ويسكت سغبك، كانت تحت الخطى، الأمام وجهتها، حرصت أن لا تبتعد عنك كثيرا، سايرتها، لم تكن تفصلك عنها سوى خطوات، دخلت من باب المكتبة، فدخلت في إثرها. كانت المكتبة غاصة حدّ التّخمة، يتعالى ضجيج مسيطر في جنباتها، نزلت الدّرجات الخمس المؤدّية إلى الهمو الفسيح، اقتربت منها حتّى كدت تلامسها، قلت وأنت تحاول أن يبدو صوتك هادئا:
.أهلا.

إنّك، إذ تنسى فلن تنسى نظرات عينها، وهي تتطلّع إليك. كانت عيناها عميقتين، تعكسان مزيجا من الاستغراب والتّوجّس والغضب والخوف. لاحظت اضطرابا في يديها وتقلّصا في وجهها، كأنّها أخذت على حين غرة. حاولت أن تسكّن روعها. اعتدلت في وقفها، قالت وهي لا تنظر إليك مباشرة:
.أهلا.

.أنا أدرس معك في نفس الصّفّ.
.تشرّفنا.

.اسمي سالم أسعد.
.وأنا مي سالم.

.هل تقبلين أن نكون أصدقاء؟!
.ولم لا. سيكون ذلك أمرا جميلا.
(...) وكان الفراق على أمل لقاء مرقوب!!

**[٢٠ أيار ١٩٨٩]

العام الدّراسيّ على وشك الأفول؛ عام طويل مضمّن من الألم والتّرقّب والخشية والخوف . الألم لأنّك اصطدمت بدوامة الحبّ، فأصبحت تحتل همّا تنوء به الجبال الرّواسي في سبيل من تحبّ،

والترقّب، لأنّه لا يمرّ يوم، منذ تعرّفت إلى «مي»، إلّا فكّرت فيها، وترقّبت مجيئها بفارغ الصبر، حتّى بعد أن وهبتك صداقتها، والخشية والخوف، ما مصدرهما؟! ألم تطمئنّ بعد أنّك صرت تقضي معها كلّ يوم أوقات صفاء لم يجد بمثلها عليك جذب حياتك منذ ما يقرب من عشرين عاما؟ فما الأمر إذن؟! لطالما حاولت، جهدت أن تخمد الأصوات المتناوذة داخلك، وتمتّي النّفس بدوام الأنس، واكتمال المودّة، إلّا أنّ هذه الأصوات اللّعيّنة لا تكفّ، ما تفتأ تلحّ عليك، وتذكّرك بأشياء صغيرة، وتفاصيل بسيطة، دقيقة، غير أنّها هامة، كدت تنساها، تتجاهلها، لفرط استثارتك؛ أولست قد تعرّفت إليها صدفة؟ أولم تلاحظ أنّها لم تولك أيّ اهتمام زائد، ولم يندّ عنها ما يشي بانجذابها، بسمة موحية مثلا، أو إيماء ذات معنى، أو حتّى إشارة عابرة، رغم أنّ نفس الصّفّ يضمّكما، وقد مضى على مفتتح العام أشهر طوال، طوت بين ثناياها أيّاما وساعات ما لها حصر؛ فكيف تضمن وفاءها؟ وما أدراك بثبوتها على وعد قطعته في لحظة استغراب وانشداه؟ هذه الأفكار، والحجاب الكثيف للهواجس، كلّ ذلك لا ينفكّ يحاصرك، ويلقي بثقله المدمر على صدرك، سيّما إذا أوليت مشاغل التّهارظ، وأخلدت إلى الرّاحة، تتمدّد على السّير، وتستدعي أطيايف النّوم، إلّا أنّ السّهاد يعضّك، وتغمّر رأسك همهمات رتيبة، تتقاطر عليك من كلّ حذب وصوب، تتلاحم وتتشابك، حتّى لتكاد تستحيل إلى طنين لا يتوقّف أبدا، فجأة يعلو ما كان هامسا، تنفجر الهمهمات مدوّة، مرسلّة إليك وابلا من الأسئلة الّتي لا تني تتضخّم وتتشعب: ما تعرف عنها، عن «مي»؟ ألا يجوز أن يكون أحد آخر في حياتها غيرك؟ هل سألتها عن ذلك؟ قطعاً، لم تفعل! كنت دائما تخاف طرح هذا السّؤال عليها، بل كنت تكره طرحه، وتسعى دائما إلى تأجيله. ألأنّك كنت تخشى أن تواجهك بحقيقة لا تؤدّ سماعها، أصعب الأشياء دوما أن تقول لك امرأة أنّك لست الوحيد في حياتها، أنّ هناك آخر، يقف على الضّفة المواجهة، مستعدّا لاختطافها والهرب بها

على صهوة حصان أبيض. لكن «مي» لا يوجد آخر في حياتها. كنت تراها أبدا منفردة، منعزلة. لا تكلم أحدا. لا يكلمها أحد. لو كانت مرتبطة لعرفت ذلك، أدركته، غالبا ما كنت تلمح لها في حديثك معها. تريد أن تطمئن، إلا أنها لا تشير إلى وجود رجل عداك، الرجل الوحيد الذي عرفته كان أباه، وهذا لا يخشى منه. آه، ما أثقل هذا القلق، وما أقسى هذا التوجس الذي ما يفتأ أن يتحوّل إلى خوف من فقدانها! تتقلب أكثر من مرة في السرير، ومع كلّ هزة، يتضاعف الصّراع المتأجج داخل أغوارك، إنه لا ينتهي البتّة، كالمرجل تتدافع أمواهه، وتعلو منذرة بتحطيم كلّ شيء، وبعد ذلك يهمد لفترة، كي يعيد ثورته مرة ثانية، لم تستطع يوما أن تهزّمه، تحسّمه. تسكت أواره المستعر، وكم من ليلة مرّت عليك، وقد أضمرت فيها أن تنتصر على ذاتك. أن لا تغالي في الدّهاب بعيدا باتّهامك إيّاها، وإدانتها دون مبرّر أو سبب، أن تثق بها رغم المخاوف، أن تمنح نفسك فرصة الظّفريها، وشرف امتلاكها، إلا أنك لا تتوفّق، تأبى تلك الأصوات اللّعيّنة أن تكفّ عن النّواح، وتنام نوما متقطّعا لتصحو على ذات الكابوس، الذي ما انفكّت تعمر به لياليك.

في ذلك اليوم من شهر أيار سنة ١٩٨٩، بعد منتصف النّهار بقليل، وأنتما تجلسان على العشب، تحت ظلّ شجرة حور فرعاء، كانت تواجهك وهي تلبس نظّارت تخفي عينيها، وقد قرفصت أمامها، مستغرقا، تعبت ببعض حفّات من الحشائش الخضراء الطّرية، تدعكها بقسوة بين أصابعك. جذبت سيجارة، ومدّت لك أخرى، أشعلت سيجارتها، وظللت حيننا ننظر إليها تشفط الدّخان بهدوء. أشعلت سيجارتك، ورحلت تدخّن بدورك، شملتكما لحظات صمت ظننتها، لطولها، دهرا، وقد اعتقدت أنك إذا لم تحطّم بنفسك ذلك الحاجز الصّقيل القائم بينكما، فإنّها لن تفوه أبدا، ولو بكلمة واحدة. ارتاحت نظراتك على وجهها بشوق، فابتدرتك نفس مسحة الحزن. قلت:

تبددين حزينه هذا اليوم؟

قالت:

كيف عرفت؟

قلت:

وجهك يفضحك. إنه كالمراة، لا يقدر أن يخفي شيئا.

قالت:

أجل، عندك حق. هذه الحياة أقسى ممّا نتصور، وهي، على كلّ حال، ليست جميلة بالنسبة إلينا نحن النساء.

قلت:

ولكن، لماذا؟

قالت:

إنّي أعاني كثيرا في البيت، المشاكل تحاصرني من كلّ جانب، وقد بدأت أفكّر جدّيا في المغادرة... في الرّحيل.

قلت مأخوذا:

إلى أين؟!

قالت:

لا أدري!!

**[٢٩ يوليو ١٩٨٩]

السّاعة السّادسة مساء، باحة الكلّيّة تغصّ بخلق كثير، جاءوا مبكرا على متن حافلات باهتة، في السّاعة الواحدة، أو قبل ذلك بقليل... اليوم تعلن النّتائج، وقد حزمت حقيبتك، وأودعتها عند أحد أصدقائك، ثمّ سلّمت مفتاح الغرفة، وجئت، تتدافعك الأمال، وتمتدّ أمامك الأماني المونقات، لم تكن وحيدا، كان برفقتك «مرتضى»، هو أيضا خاض غمار الامتحان، وقد امتحنتما معا في نفس الفصل، حدّثته عن علاقتك بـ«مي»، ولم تسهب، احتفظت بالتّفاصيل، حجبت عنه بعضها، سيّما الحميمة منها، كان يعلم أنّك جئت لأجلها، وأنّ النّتيجة

لا تعني شيئا كثيرا بالنسبة إليك، لأنّه كان شبه متأكّد من نجاحك، طوال العام كان يراك قابعا في غرفتك، مندسّا بين زواياها الأربع، تقلّب ركام الأوراق، تلتهم ما فيها بذاكرة لا تفلّ، قال لك مرّات لا خوف عليك، ستنجح، وتكون من المتفوّقين: أجل، إنّك جئت لأجلها، ولا تستطيع أن تنكر ذلك، كلّ من يراك، تطالعه ملامحك، نظراتك المرتجفة، يداك المضطربتان، يقول إنّك تنتظر شخصا، وقد يذهب بعيدا، فيضرب على الوتر تماما، يبتسم ابتسامة ذات معنى، يتساءل في خبث: «أليست أنثى؟»

اليوم، في السّاعة التاسعة وعشرين دقيقة، ستستقلّ القطار، تقفل راجعا إلى هناك، إلى حيّ السّاروجة، إلى الأهل الذين طالت غيبتك عنهم، لا شك أنّهم في انتظارك على أحرمّ من الجمر؛ أمس صادفتها خارجة من باب القسم، استوقفتها، كعادتك، كلّما رأيتها، كانت مرحلة، خلافا لأيّام سابقة، يبدو على وجهها سرور طافح، قلت لها: «هل ستأتين غدا؟» قالت باسمه: «ربّما!» وخطت إلى الأمام قليلا، لحقت بها، كدت تتعلّق بذراعها، قلت متوسّلا: «أريد وعدا صريحا.» غير أنّها ردّت باقتضاب: «لا أستطيع.» وغادرت، حتّى من قبل أن تصحو من فورة دهشتك. هل تأتي اليوم؟ لا يمكن أن لا تأتي؟ اليوم تعلن النّتائج؟ وللنّتائج سحرها، فلماذا قالت لك: «لا أستطيع.»

حوالي السّادسة والنّصف مساء، بدأت الدّنيا تظلم، والسّماء تتّشح بغلالة شقّافة من السّواد، أضيئت المصابيح داخل الكلّيّة، وعلت خشخشة في مكان ما، إنّهُ صوت المضخّم، ستعلن النّتائج الآن، بحث بعينيك في كلّ مكان، اخترقت الطّوابير العظيمة المترابّصة، جلّت بنظراتك داخل الامتداد، خطوات، هرولت، جريت هنا وهناك، لم تجي «مي» إذن، صدقت مرّة ما وعدت، ترى ماذا آخرها؟ هل وقع لها مكروه، لا سمح الله؟ كان «مرتضى» يراقبك، لم تغب عن عينيه لحظة واحدة، كان ينظر إليك بأسى، ملامحه تقول إنّهُ يعرف أشياء كثيرة،

ولأنّه يعرف فهو يرثي لحالك، عندما اقتربت منه، عانقك، متفاديا
النّظر إليك مباشرة.

قال:

.هنيئاً... لقد نجحنا سوياً.

سحبت نفسك بهدوء، لاحظت أنّه يتجنّبك بعينه، أمسكته من
يده، شدّدها، ضغطت عليها، حينئذ التفت نحوك، صدمتك النّظرة
الأسبانية، والملامح الحزينة، حدست أنّ هناك شيئاً لا تعرفه، حدثاً قد
وقع، ربّما يهمّك.

قلت:

.اصدقني القول، هل تخفي عني شيئاً؟

قال موارباً:

.وماذا يمكن أن أخفي عنك؟

خانه صوته، نبراته كانت ضعيفة يغلفها شيء مثل الحزن.

حاصرته أكثر. قلت متوسّلاً:

.أرجوك أخبرني بما تعرف. هل هو أمر يتعلّق بـ«مي»؟

لم يستطع الصّمود أكثر من ذلك. كان سيتكلّم من نفسه، حتّى من
قبل أن تطرح السّؤال عليه. أخذ بيدك، قادك بعيداً عن مصدر الجلبة
والضّجيج. قال:

.أجل، إنّها «مي»!

.وماذا بها؟ قلت متلهّفاً.

قال:

.لقد سافرت.

ظللت متشبّثاً بخيط الأمل. قلت:

.لعلّها ستعود؟... متى تعود؟

قال:

.إنّها لن تعود؟

قلت:

ولماذا؟

قال:

لأنّها تزوّجت.

قلت، وقد كادت الدّموع تطفّر من عينيك كمدا وحسرة:

. ومن أخبرك بذلك؟ لا شكّ أنّ الخبر مجرّد إشاعة، وما أكثر

الإشاعات هذه الأيام!

قال:

. لا يمكن، لقد شهدت بنفسي حفل زفافها: أقيم في أضخم نزل

بالحاضرة، وبعد الزّفاف رحلت هي وزوجها... ذهباً إلى إحدى بلدان

الجليد!!



أنساتي،
سيداتي،
سادتي،

ليتصوّر أحدكم لو كان محلّي، على مشارف ذلك المكان الرّهيب،
الّذي تضوع جميع زواياه بروائح الموت، مع رجل تجهل عنه كلّ شيء،
مع أنّه يحدثك عن نفسك، ويورد كلّ كبيرة وصغيرة، يدّعي أنّها ثاوية في
مكان ما من مجاهل حياتك، أو حياة شخص آخر ربّما يمتّ إليك بسبب
وثيق، ويتبسّط معك، إلى أقصى حدود التّبسّط، كما لو كان يتوسّل
بإرث ماض قديم، مشترك، لا يحتمل شكّا أو ريبا؛ تصوّروا إذن ذلك .
أنساتي، سيداتي، سادتي .. وخبروني، كيف كان يمكن لردّة فعلكم أن
تكون، لو صادف أن جمعتكم الأقدار برجل مثل الّذي عرفت؟ وهل
كنتم تصدّقونه؟ أنا كنت مضطّرا إلى تصديقه، والتّأمين على كلّ كلمة
قالها. [أولا] أوليس جدّي، عفوا من كان جدّي، هو الّذي دفعه إلى
طريقي، ورغم ما بدر منه في تلك اللّيلة المشؤومة من إنكاره لقرايتي،
فقد بقيت أحنّ إليه، كأقصى ما يكون الحنين، وأودّ لو يأتي ثانية،
فيضمّني إليه كأحد أتباعه ومريديه. لن أناديه «جدّي» ثانية، سأقول
له أيّ شيء، ولكن ليأت، فهذا أقصى ما أتمناه. [ثانيا] أولم يعطني ذلك
الرّجل الغريب بطاقة هويّة، شهادة انتماء، عليها صورة، شبه طبق
الأصل، لم أستطع دفعه، مع أنّي حاولت ذلك، متعلّلا بذكريات البيت،
ومرايع الطّفولة في أحد الأحياء بالكوفة، وجدت بنفسني انجذابا إلى تلك
الصّورة، صورتني ربّما، إلى قريها منّي، رغم إحساسي بما بيني وبينها من

تعاقب السنين وطى القرون! [ثالثا] وأخيرا وليس آخرا، أو لم يحدثني من البدايات، عن الجذور، التي نمت، فصارت أصولا، أزهرت لتكون فروعا، فكيف لي بتكذيبه؟ لا شيء فيه ينم عن شك، عن موارد، عن محاولة للكذب؛ وجهه، وهويتكم، متحفّز، جادّ، ملامحه لا اضطراب بها ولا خلل، وحتى شروذاته القصيرة تابعتها عساني أكتشف موطنها للهنّة، أو فرصة لزلة، باءت محاولاتي جميعها بالفشل، شروذاته تلك كانت تتبعا لخيوط الذكري، كانت استنطاقا لصمت ماض، قصي في غياهب البعد والنسيان. من حين لآخر، كان يسحب سيجارة من علبة سجائره، يعطيني إياها، يأخذ أخرى، يدعوني صراحة لمشاركته، تقول ابتسامته الهادئة، إنّ الحكاية تطول، لا بدّ لها من فتيل، وبما أنّ الوقت ضيق، فلربّما لن يسمح القدر بلقاء آخر، عليه أن يقول كلّ شيء، وعليّ أن أسمع كلّ شيء، الآن، قبل أن تضيع الفرصة، ويتبخّر الأمل... عند حدّ ما، في لحظة ما، ودون سابق إنذار، صمت فجأة، وانحنى على الصخرة التي يجلس فوقها، ظلّ كذلك حيناً، ثمّ استقام بجذعه ثانية، وهو يحمل بيده مغلفاً كبيراً أصفر، مغلقاً، مختوما بمادّة حمراء لزجة، نظر إليه فترة من الزمن، كأنّ نفسه تتنازعه بين أن يسلمني إياه أو أن يحتفظ به لنفسه. أخيراً، مدّه إليّ، وهو يقول بنبرة واثقة:

هذه الأشياء تخصّك.

سألته باستغراب، وأنا أخذ المغلف:

وما هذه الأشياء؟

قال:

إنّما أشياء كتبها بخطّ يدك... مذكّرات... انطباعات؛ والأهمّ من ذلك كلّها، هي شهادة لي على صدق كلامي، وشهادة تؤكّد انتماءك؛ ولعلّك إذا قرأتها ربّما قرّرت الرجوع...
قاطعته مفزوعاً:
الرجوع إلى أين؟

اعتدل في جلسته، جذب نفسا من سيجارة أشعلها، ثم قال:
لا تدعي الغباء من فضلك، إنك سترجع إلى الوطن، إلى المنبت، إلى
الأصل، والديرة، والحي، والرفاق القدامى.

قلت:

ولكني لا أعرف شيئا عما تتحدث عنه. أنا وجدت نفسي في عصر
خلاف عصرهم، ومع أناس لا يمتّون إلى أناسكم برابط أو صلة. فكيف
يمكن أن أتأقلم بعد هذا العمر، أنسى ما أخلفه ورأيي لأستقبل ما يلوح
أمامي. وقد يبدو غامضا، غائما، أضرب فيه، فتزلّ خطاي وأغرق.
نظر إليّ بتحديد، رمقني مليّا، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة موحية:
افتح المغلف، واقرأ الأوراق!

قلت:

لا عليك، سأقرأها فيما بعد.

قال:

لا سبيل إلى ذلك، اقرأها الآن...

ثم صمت قليلا، وقال مواصلا:

ألم أقل لك إن القدر قد لا يسمح بقاء آخر! اقرأ الأوراق الآن،

فما زال لديّ الكثير لأخبرك به قبل أن نفترق!

جذبت الشمع فأزلته، فتحت المغلف ونظرت داخله، هالتي رزم
الأوراق، مئات منها كانت تتجمّع أكداسا متراكمة دون ترتيب، أدخلت
يدي، وأخذت ورقة، لم أقصد الانتقاء أو الاختيار، أريد أن ألقى
نظرة فقط، نظرة قصيرة، عارضة، رأيت كتابة بخط اليد، متأكدة في
الأطراف، حتى أنّها تتطلب جهدا لقراءتها، لم يكن الخط جميلا، بل إنّه
بالكاد يقرأ، لم أسع إلى قراءة ما هو موجود في الورقة، سأؤكد قبل كلّ
شيء، أخذت ورقة أخرى، وثالثة، ورابعة... نفس الكتابة لا تتغيّر، ومن
خلال تعرجات الحبر الذي يهت في مواطن، ويغمق في مواطن أخرى،
اكتشفت أنّها كتبت على فترات متفاوتة، وددت لو كانت تلك الأوراق
تحمل تاريخا، اليوم والسنة والشهر، سيساعدني ذلك على تتبع أنية

المشاعر، ثبوت الانطباعات في مهاوي الزّمن، تغلغل الأحداث، تشابكها مع أحداث أخرى، أصالة التّاريخ، لكن دون جدوى، ما من تاريخ واضح على الإطلاق، لا وجود لمؤشّر وحيد... أخرجت الأوراق جميعها من داخل المغلف، وبسطتها أمامي، حاولت أن أرّتها، بالحدس وضعت بعض الأوراق إلى جانب بعض الأوراق الأخرى، أفردت بعض الصّفحات غير المكتملة جانبا، بحثت ثانية، دقّقت، نبشت، وفجأة راعني ما رأيته، كدت أطيّر فرحا، مجموعة لا بأس بها من الأوراق كانت مشدودة إلى بعضها، يتجاذبها خيط، وعندما قلبت بعضها، وجدت عجبا، إنّها لا تحمل التّاريخ فقط، بل أسماء الأمكنة الّتي كتبت فيها أيضا، جعلني ذلك أتساءل، قلّقا، شاكّا: «تري لماذا تحمل بعض الأوراق تاريخا بينما الأخرى مجردة منه؟ أ تكون الأولى هامة، في حين أنّ الثانية غير ذات أهميّة؟ أم تكون هذه الأوراق مشتتة الانتماء، مثلي تماما، لم يكتبها نفس الشّخص؟» كدت أطرح هذه الأسئلة عليه، على الشّخص الغريب، القابع قبالي، لكنّ شروده، وهو منسحب مع نفثات الدّخان لم يشجّعني على ذلك، كذلك إدراكي المفاجئ أنّ الأوراق، كلّ الأوراق، تحمل طابع نفس الشّخص، وهو الّذي كتبها، هذا مفروغ منه، لا جدال فيه. فككت الرّزمة، في رأس الورقة الأولى، كان مكتوبا:

[حيّ السّاروجة/ ليلة الثّلاثاء، ١٢ يوليو ١٩٨٧]

انقضت أشهر الخريف سريعا، ثلاثة أشهر بأيّامها وليالها، وهذه القرية المنسيّة تنام على نباح الكلاب السّائبة ليلا، وتصحو، عند الفجر، على صياح الديكة المستوحشة. يظنّ حكماء الإغريق .لو كان قدّر لهم أن يروها يوما. أنّها استثناء من قاعدتي الفناء والخلود: فلا هي بالقرية العقيم حتّى تكتنفها أسطورة الفناء، ولا هي بالروح الخالصة حتّى تتجاذبها نعمة الخلود. هي بين بين. فضاء فسيح تحتلّ بعض أطرافه الصّحراء، والبعض الآخر احتواه الجبل. فعزل القرية عمّا يجاورها. أهلها شيع، فرق، لا يجمع بينهم سوى حلم الرّحيل الدائم المتواصل... شيوخها مسكونون بألق الأسطورة. إغراء السّحر، وشبابها، لفرط

توجّسهم المبالغ فيه من خطر داهم، وندرة فرص العمل، صاروا بين عشية وضحاها، مبهوتين بخرافة المدينة التي يقرأون عنها كل يوم في الصحف، ويسمعون عنها عبر تأثير موجات الإذاعة المحليّة، ويشاهدونها تقريبا، على مدار الأيام والشهور، عبر شاشات التلفزيون... أصبح كلّ همهم الهجرة، طلاق القرية بمن فيها وما عليها، دون ألم أو إحساس بالأسف أو الندم... كبراء القوم، وأرقاهم محتدا وشرفا، لاحظوا التغير، هزّهم قلق الأبناء، صدمهم نزوعهم إلى الرحيل، قالوا إنّ في الأمر سرا، يستعصي على الفهم، ربّما هو السحر، عمل مدبّر، أو قد تكون اللعنة التي طالما تحسّبوا لحلولها. قال أحدهم، وهو ينكت الأرض بعود في يده، لأصدقائه، وهم يجلسون تحت ظلّ جدار قبيل غروب الشّمس بقليل، وقد اكتسى وجهه كآبة كثيفة:

اعلموا أنّ السّحر قوّة لا تقهر، طالما تسبّب في اختطاف المرء من بين أحضان أهله، من بعد اجتماع الشّمل، ودوام الصّفاء، والتّئام ما انقطع... السّحر. كفانا الله شرّه. مجلبة للمصائب، وهو، فوق ذلك، معجّل بذهاب الحرث والنّسل، وقد قال تعالى، في محكم التّنزيل:

«وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١٠٢)

لذلك تراهم يديمون الصلّاة، لا طاعة لله وتقربا منه، بل قربانا يحفظ من العين ويذهب شبح الفناء المترصّ في مكان ما... شباب القرية، في المقابل، وخلافا لأبائهم والكبراء على حدّ سواء، ذهبوا في الحياة كلّ مذهب، منهم المتشائمون، ومنهم المتفائلون الذين طغت

عليهم مسحة من التَّشَاوُل، يدخَّنون كثيرا، ويقرَّرون، ثم ينهارون سريعا... يجتمعون، عند كلِّ مغرب شمس، في أحد المقاهي المتنثرة هنا وهناك، أو في أحد الأكشاك أو محطات البززين، عند تقاطع طرق فرعية وسط الشَّارع الرَّئيس، يتطارحون همومهم الَّتِي تضخَّمت حتَّى ملكت عليهم أُمُهم، ويتطلَّعون إلى مستقبل مضيء لم يعرفوا طريق الوصول إليه. هؤلاء تحسَّ إذا جالسَهم أنَّهم قادرون على حلِّ مشاكلهم، ومشاكل العالم من حولهم، في طرفة عين... فلان اكتشف طريق الخلاص، فوطَّن العزم على السَّفر إلى إيطاليا في مطلع الشَّهر القادم، وعلاَّن، مهووسا بفكرة المغادرة والرحيل، لاحظ عدم التَّهافت على مدن الثَّلج والجليد، فصار كلَّ همِّه الحصول على ألف دولار لحجز تذكرة إلى السَّويد... البعض الآخر ممَّن أثر البقاء، واتَّخذ شعارا: «ليس في الإمكان خير ممَّا كان»، تراهم يجوبون شوارع القرية شارعا شارعا، ليلا نهارا، ويتلقَّفون الصَّحف اليومية، لتزجية الوقت ونسيان مرارة التَّبطُّل. لا خيار. يتناسون قدر المستطاع حلم عبور البحر لأنَّ شبح الجنديَّة يهدِّدهم في كلِّ حين، فإذا ما حاول أحدهم، من باب التَّجربة اليائسة، الحصول على جواز سفر، طلب منه الاستظهار بشهادة إنهاء الخدمة العسكريَّة.

انقضت أشهر الخريف، حاملة معها أحلام ثلاثة أشهر وأوهامها؛ انقضت ثلاثة أشهر، بأيَّامها ولياليها، لم تتغيَّر من الظُّروف سوى القشور: الزَّمان هو الزَّمان، يوم يعقبه يوم آخر، وساعة تعقبها ساعة أخرى، ودقيقة تسمع فيها عن ارتفاع الأسعار وزواج فلان ووفاة علاَّن. والنَّاس هم النَّاس، فلان كان فلانا، ولكنَّه اليوم فلان يحمل في بنصره الأيسر خاتم الخطوبة، وينتظر عروسا سيُزفُّها قريبا. والمكان هو المكان، جامد لا يتحرَّك، فضاء فسيح تحتلَّ بعض أطرافه الصَّحراء، والبعض الآخر احتواه الجبل فعزل القرية عمَّا يجاورها. إذا حدث شيء في القرية ليلا كان حديث نساء القرية نهارا... نساء القرية يثرثن كثيرا، يحبن

متى شئن، ويبغضن متى شئن. إذا أعجبتهنَّ فلانة قلن عنها جميلة، ذات قدّ واعتدال، ممتلئة، تستطيع إشباع زوجها في الفراش. أما من خشين قربها، أو تمتعت منهنَّ ترفعت عن رفقتهنَّ، نعتها بأبى النعوت وأشنعها. فمثلا يقلن عنها فاسدة، متغطسة، أو ساحرة... نساء القرية عموما طبيّبات، يعانين من فراغ مقيت في حياتهنَّ، ليس المهم أن يعرفن الحقائق على وجوهها، بل الأهم من ذلك أن يفرغن ما في جعابهنَّ من أحاديث وأخبار، بعد أن يكنَّ قد أضفن إليها من عندهنَّ الكثير الكثير. إذا مات أحدهم أسرعن إلى تعزية أهله، ولو كانوا لا يمتّون إليهن بقربة من بعيد أو قريب. يروق لهنَّ أن يعاينَ الأمور عن قرب، فيستوعبها مع قليل من الصّدق، وغير قليل من الإضافات التي لا بدّ منها لصياغة حكاية محبوبكة، شقيقة. هكذا همهنَّ دائما. تعيش الواحدة منهنَّ، في بيت أبيها، حبيسة الجدران، تناغي وحدتها، وتبني أحلاما على الزّماد، فإذا ما تزوّجت، زارتها نسوة القرية، في محاولة لكسبها إلى صفهنَّ. ما يثير الدهشة فيهنَّ حقّا هشاشتهنَّ، ضعفهنَّ رغم ما يبدين من صلف وكبرياء في لحظة حق. فمهما بلغت الواحدة منهنَّ من حظّ ثقافة أو تعليم، ظلَّ كلّ همّها اختطاف عريس، وبناء أسرة وبيت. ما عدا ذلك، بالنسبة إليهنَّ، سراب وأوهام!!

انقضت أشهر الخريف ثقيلة رتيبة، لم تنزل خلالها الأمطار. أهل القرية يقولون هكذا أفضل، فلا أرض لهم يزرعونها، ولا محصول يخشون عليه من التّلف. صحيح أنّ الحياة أعطتهم القليل ومنعهم الكثير، ولكنهم ما عدا ذلك تحالفوا مع ظروفهم ضدّهم. هم أهل بداءة، أغرتهم المدينة بترفها وضجيجها، فباعوا الأرض أو تركوها، وأهملوا ماشيتهم وإبلهم حتّى أتى عليها الوباء جميعها، وشدّوا رجالهم إلى أرض موعودة يعمرونها، وجنّة موجودة يعيشون في وارف ظلالها... هكذا شأن الظّمان يشده السّراب فيغويه، فإذا ما بلغه وجده ملحا أجاجا، وهكذا حال أهل القرية، يتسرّعون فيخيّبون، ثم يندمون!!

[حي السَّاروجة/ الأربعاء عصرا، ١٣ يوليو ١٩٨٧]

هناك، وراء خطّ الأفق الخابي، حيث تلتقي السَّماء بالأرض، تمتدّ صحراء عاقر عقيم، رمالها الذَّهبيَّة ألهبها شمس الخريف. لا ماء ولا مرعى، ولكن أحراشا وأشباح خيام مهلهلة، ظلَّت تقاوم البرد والحرارة نصف قرن أو يزيد. قديما، كان هذا القفار نقطة وصل بين متاهتين: عالم البداوة بشظف عيشه، وعالم تطلبه العير أياما وأسابيع فلا تدركه، ذا عالم المدينة والرَّجاء... في هذا الفراغ اللامحدود، نبت جبل وفرخ، يعشق الأرض، يحنو عليها، فتحنو عليه، هي السَّلوى، المعاش، يقول من نزح عنها، وظلَّ يهدد حنيننا إليها في قرارة نفسه، بنبرة فيها حزن ممضٌ يخالطه خيلاء لا يكاد يبين: «هي الخير والبركة». ومع ذلك، في أوَّل فرصة لاحتمال حياة أفضل، وحالما مدَّت لهم المدينة، في الطَّرف الآخر، يدها الضَّائعة بالغواية والإغراء، ترك البدو البداوة خلفهم، نهبا لنعيق اليوم ونعيب الغريبان.

أهلي، كما بقية النَّازحين، ليسوا استثناء من عدوى الرِّحيل المقيم، ظلُّوا يتعاقبون على تلك الصَّحراء جيلا فجيل. جدِّي لأبي وجدّه من قبله، وجدِّي لأُمِّي وجدّه، ومن لفَّ لفَّهم، لم يعرفوا سكنا ولا وطننا غير الصَّحراء، فيها ولدوا وبها نشأوا، لكنَّ القدر أبى إلّا أن يحرمهم لذَّة الموت فيها... ليسوا موسرين حدَّ الإثراء، ولا فقراء حدَّ الإملاق، غير أنَّ الواحد منهم يغرق الأرض بعرقه، ويبيت في العراء: وفي مواسم الجذب والجفاف، ينكفئون على ذواتهم، مناجين الله في سرَّهم أن يمنَّ عليهم بالمطر، غيث يحبل الأرض من عقم. في هذه الظُّروف، كانت المناجاة تنبعث حارَّة، صادقة، يحتضنها القلب، يردها بين شغافه، فتنتفتح لها أبواب السَّماء. أمّا إذا نزل المطر، فسقى الزَّروع، وجاد بالأرزاق، فإنَّ لذَّة خفيفة تسري في الأجساد، وتعلو الشَّفاة المزرقَّة بسمات ذاوية. هكذا حالهم: صراع متواصل مع طبيعة قاسية من أجل عيش غير مضمون. لكنَّهم، مع ذلك، كانوا يصبرون، سلاح البدويّ صبره وساعده.

(...) عرفت هذه الصّحراء، السّاكنة الآن، سني شقاء وتعب ونصب، غير أنّ أهلها جاهدوا أن يجعلوها أرضا ولودا، يطأها الواحد برجله ومحراثه، ويخطّ التّربة خطوطا طولانيّة، ثمّ ينتظر... ساعات الانتظار صعبة جدّا... المطر... الغيث... وزغاريد النّسوة تتلاحق تباعا. موسم الجني والحصاد كان يتحوّل إلى عرس بدويّ، تغنيّ فيه النّسوة وترقص فيه قلوب الرّجال. وكذا الشيوخ والأطفال... القفار يرجع الصّدى ويرقص أيضا، يبعث صلاة صامته، تتلاقفها الرّيح فتدشرها، وتحولها في الأذان وشوشة لابتهاال سماويّ رخم.

الصّحراء... الأفق الممتدّ... الهدوء... وتتمّة لبقايا حكاية يردها الأهلون. اللّيل في الصّحراء غيره في المدينة، ينتظره الكبير والصّغير، يعرفونه في أوّل اختفاء للشّمس. لا يهتمّ أن يكون ليلا أو طيف ليل ضائع. الأحرى أنّه استئناس من وحشة، وبشير بانتهاء يوم من العمل المرهق المضني... ساعات العمل تمرّ كنيبة، طويلة، يتحامل فيها الواحد على نفسه، يصير قطعة من محراثه، الصّراع متواصل، الأيدي لا تهدأ ولا تكلّ. يدرك البدويّ بغريزته أنّ الأرض هي قدره، لها سلطان على نفسه، لذلك من أوّل بزوغ لخيوط الفجر الأولى، إلى اختفاء آخر شعاع للشّمس في اختيالها الكرنفاليّ المهيّب، ترى الصّحراء قد استحالت إلى أكوام من اللّحم البشريّ، تقلّ، تكثر، تتجمّع، غير أنّها لا تتراجع أبدا... ذا موسم الجماع الأبديّ الذي لا ينتهي، لا بدّ أن تحبل الأرض من عقم، ولا بدّ لهذه الأعناق المشرّبة إلى السّماء من رغيّف يسكت الجوع، ويقهر القلق والتّوجّس!!!

[الاثنين، ١ ايلول ١٩٨٧]

وصلنا، أنا وصاحبي، لا أعرف كيف، ولا يهمني أن أعرف. شخصان غريبان تجمع بينهما الصدف والأقدار، في ساعة نحس ليست من الزّمن. ينادي أحدهما الآخر «صاحبي» بحكم نفس الصّدفه والقدر

اللذين وضعاهما وجها لوجه، في عالم ليس فيه غيرهما... مشينا بضع خطوات، دون أن يتفوّه أحدهما بكلمة واحدة تقطع حبل الصّمت، لم ألّفت إليه، ولم يلتفت إليّ. صمت طويل، رهبة، خشوع. لا سماء ولا أرض. وحدنا في المتاه، معلقان خارج حدود الزّمان والمكان... ظللنا نمشي هكذا، خطوة خطوة، في نفسي ألم كبير وحبّ كبير أيضا، ذلك الحبّ لمجهول ما، لصديق ما، لامرأة ما، لا أدري تحديدا. كلّ شيء في هذا المتاه رهن بالمتحمّل والعارض والمحمول. صاحبي أشبه بصمت هذا الفضاء، لا أعرف فيما يفكر، كما لا أعرف أنا نفسي فيما أفكر. أقلقني الصّمت والضّجر، ورهبة المكان، فسألته في لامبالاة:

ما اسمك؟

ردّ في غير قليل من الحيرة والارتباك:

أنا لا أعرفك! اصمت أو اغرب عن وجهي!

لم أستغرب ردّة فعله، كما أنّي لم أنزعج. أقفلت فمي بمفتاح الصّمت السّري، ثمّ حاذيته وسرت، خطوة خطوة... فضاء منبسط، لا أثر فيه لانحناء أو التواء... كلّ شيء في هذا المتاه منبسط. النّور والظّلّة خطّان لا يبينان. فكّرت: «ربّما يكون قد استوى عالم الله والشّيطان، لا جنّة، ولا نار، لا نور، ولا ظلمة... الجنّة احتمال، وكذلك النّار مهزلة، النّور وهم والظّلّة باطل؛ الصّمت هو الإله وصاحبي نيّ الصّمت في هذا الفضاء اللّانهائيّ. في هينة مّي، قد تطول أو تقصر، رفعت يدي، وضغطت على الجزء العلويّ من جسمي، لأوقف تسلسل هذا التّيّار من الأفكار... في زمن ما، في مكان ما، لا أدري متى وأين، حدّثني شبح ما أو شخص ما، قال: «إنّ هناك مرضا اسمه الحمّى، تحسّسه في ارتفاع درجة حرارة جسمك وانخفاضها، تصاب إثره بالهذيان، ونوم متقطع أشبه بالغيوبة.» ربّما أكون قد أصبت بهذا المرض الآن، أظنّ أنّي قد هذيت، ليكن، غير أنّي لم أستسلم لشطحات الغيوبة بعد.

التفتّ يمينه ويسرة. موهما نفسي أنّي أركّز بصري أخيرا على صاحبي.

لم أتبيّنه، ولا أظنّني ميّزت شخصا بذاته. كلّ ما أراه ركام من الأشباح والخيالات، وكثافة الصّمت، تزداد ونيدا فتطبق على كلّ شيء. يئست. وفي محاولة أخيرة لاستنفار الأمل بداخلي، رفعت عقيرتي بالصّياح. فجأة، قطع نياط السّكون صوت هادئ رصين لهاتف، أو شيطان، أو ظلّ:

.ماذا أصابك؟ اصمت أو ابتعد!

كان الصّوت قاطعا، وفيه شيء من سلطة. رفعت يدي إلى شفتي، وأغلقتهما قليلا، كي أحدّ من تسرّب الأصوات في أعماقي؛ قلت:

.أنا لا أراك. أين أنت؟

.انظر بداخلك؛ فإذا رأيت كلّ شيء فيك، قبحك وحسبك، رأيّتي!

بدا لي الصّوت مشاكسا، مداعبا، وجادا في آن. فكّرت أن أهرب، لكن: «إلى أين؟» خاطبت نفسي قائلا؛ عدلت، التزمت صمتا أخرس.

داخلتني مشاعر شتى، وهواجس متعدّدة. من يكون نبيّ الصّمت هذا؟ ما جنسه؟ أيّ طالع سيّء أوقعني في صحبته؟ بدأت، في غفلة منّي، سلسلة أحداث كاملة تتصادم، وتخضّ باطني: نتف من أفكار عرجاء تتراقص أمامي وتضحك ببلاهة... الأرض تظهر وتختفي في مخيلتي، وتظلّ غائمة، تصرّ، تدّكرني بشيء، بانتماء قديم ربّما قد نسيته. أجل، عالم الأرض والنّاس هو عالمي، ولكن أتراني اجتثّ منه، غفلت عنه بغتة؟ أهو عالم الغيب ناداني فاستجبت، أم وسوسة الشّيطان؟! يا إلهي، أين الشّمس، الماء، الهواء، و«مارتا»؟ كلّ هذه الأشياء تذوب بداخلي كالثلج، وتسرّب عبر شرايبي، كما الهوة، أوفراغ الموت. هنا، لا شيء غير الظّلّة. وصاحبي الصّوت يرفض أن يفصح. لعلّه يعلم سبب مجيئي، وتاريخ مولدي، وأرضي، ويصرّ على الرّفص. حاذيت ظلّ صاحبي، ومشيت خطوة أو خطوتين. تحسّست نصفني الأسفل، وأدخلت يدي إلى جيبي. هناك، علبة ثقاب. أخرجتها. حاولت أن أشعل عودا. فطالعي نفس الصّوت الهادئ الرّصين:

.ماذا تريد أن تفعل؟

ردّد في وجل شديد.

.أريد أن أراك.

.لماذا؟

.لأستأنس بك من وحشة المتاه والظلمة.

ضحك ولم يحرجوا.

هو إذن يتجسّس عليّ. هو إذن يراقب كلّ حركاتي، ويرصد كلّ سكناتي. نبيّ الصّمت يعرف كيف يصطاد في الماء العكر، غير أنّي سأنتصر عليه، سأداريه، سأضحك أمام حضرة صوته الرّصين، وأكنّ له العداوة والمكر. ألعلّ صوته جاز أعماق نفسي فكشف سري؟ أتراه يفقه قولي، ويطلّع على الغيب، بداخلي؟ فليكن ما يكون! أنا أيضا أعرف كيف ومتى أصطاد، سأجعل منه خادم مصباح علاء الدّين، وأسخره لإرادتي... يظهر أنّه سئم لعبة التّخفّي أخيرا، فها هو ذا يطلع عليّ في هالة من النّور، نوره بهر عينيّ، فأخفيتهما بيديّ، حتّى إذا ما بدأنا تستأنسان، فتحتهما شيئا فشيئا... إنّ الذي يمثل أمامي الآن ليس ظلاً، ولا شبحاً، ولا هاتفاً. إنّهُ أشبه بجنيّ، وأقرب من شيطان، وليس فيه من الأدمي إلّا العينان والفم والأنف. أذناه طويلتان، وله ذيل في مؤخرته، وشعره أشعث، أجعد. لم أهرب منه، مكثت في مكاني، اقتربت منه، اقتربت منه أكثر. مدّ لي يده، فقبّلتهما ثلاثاً، وبعد ذلك أمرني أن أتبعه، ففعلت.

قال ملغزاً:

. أنا لست صاحبك، لا أعرفك... لا الصّدَف ولا الأقدار جمعتي بك... لم نبدأ لنصل، لم نبدأ أصلاً، ولم نصل بعد. أنت جئت، وهكذا كان... أنت حبة خردل احتواها باطن الأرض. فاقتلعتها كي أجعلك خادمي وأنيسي. بعد مائة عام نقضها على هذا الكوكب، ساورثك كلّ شيء، وأسمح لك بالعودة... سأحمّلك رسالة سلام ومحبة تبشّر بها بين

النَّاس، فَإِيَّاكَ واليَّاس، اليَّاس موت، والموت لا قيامة بعده... أنت البدء وأنت الفناء، فلا قيامة بعدك!!

وصلني صوته هذه المرّة أشبه بنشيش أسنان المنشار على الخشب، لكنّه الصَّوت ذاته بمشاكسته، ورسابته، وجده. لا يبدو عليه أنّه يمزح، أو يزيح بكلامه حلقة السَّكون السَّاجي. بدأت أخشى على نفسي منه، وخشيت أكثر أن أطرح عليه مزيداً من الأسئلة... صمت، صمت، صمت، ولا عزاء بهذا المتاه. محاباة أنيس الصَّمت أضمن. اخترت أن أتبعه في صمت، وهكذا كان! خارج حدود الزَّمان والمكان، الأفكار تتحوّل إلى مادّة لزجة كأنّها الزَّئبق، أو كثافة بخور محروق. أحسست بأمعاني تنكّمش بداخلي من الجوع. حلقي جفّ، وتهدّل لساني كما لو كان لسان كلب مدلولق من الظَّما. حاذيته وسرت. الاستئناس بوقع خطي خير من لا شيء!!

حاولت أن أتذكّر، حاولت أن أفهم، حاولت أن أنتبّع خيطاً في الصَّمت يقودني إلى فكرة ما، شعور ما، إحساس ما. فجأة. طالعتني صورة لامرأة خيل إليّ أنّي أعرفها، أو على الأقلّ رأيتها. إنّها هي، هي! أجل، لم تتغيّر، «مارتا»، فتاة بقوام ممشوق، كجذع نخلتنا بفناء ذلك البيت القديم، وجهها مستدير، وعيناها توغلان في بحر من الهدوء تحت أجفان متهدّلة... أذكر أوّل مرّة، رأيتها فيها. كان ذلك في خريف عام من الأعوام، وكانت سائحة. ضحكت فضحكت. تحدّثنا قليلاً عن بلادها، عن الطَّقس، عن النَّاس. ابتدأ كلّ شيء بطريقة عاديّة. لا تكلف ولا تصنّع. أحسست تجاهها بعاطفة هي أقرب إلى صيحة مكتومة من أيّ شيء آخر. وسافرت، بعد ذلك. رجعت إلى مدينة الثلج والضَّبَاب، إلى ذلك النّهر العظيم النَّائم تحت الجسر.

الأفكار تتّسع، تتمطّط، وتتقلّص، كما لو كانت حديدا يحمي داخل كور. صاحبي نسيني ونسيته. أردت مرّة أخرى أن أستفزّه بفضاظة متلطفّة. جمعت شتات نفسي، وأطلقت جماع الأصوات بداخلي.

سألته:

كم السّاعة الآن؟

غدا تطلع الشّمس من الغرب!

فوجئت. بدا لي ذلك منه غريبا. لغته خلاف لغتي. تترجّح في الصّمت، فيكون لها ما يكون لوقع الحصاة تلقى في قاع المحيط. فكّرت في سؤالها وإجابته مرّة أخرى، هو يلغز، لا شكّ في ذلك ولا مرأى... لغته لغة الطّلسم والنّبوءة، وأنا سجين. قطعت سكون المتاه. سألته ثانية: إلى أين نذهب؟

نصل قريبا. هناك، ستأكل وتشرب وترتاح!!

هناك أين؟ سألته مفزوعا.

في الطّرف الآخر من المتاه. هناك، يوجد كهف به سرداب.

لم تشجّعني إجابته على المضيّ أكثر في الحديث. انكفأت على ذاتي أعزّيتها. ذاكرتي ما زالت قويّة وتعمل جيّدا. سأبني جسرا من المشاعر والأفكار ثمّ أهدمه. سأجيد هذه اللّعبة حتّى أتقنها، فأنا مسجون هنا داخل مقبرة الظّلمة هذه، وما من بديل... كان هناك على الأرض حياة، ولادة، وموت، حبّ وكراهيّة، بعث وفناء. أمّا هنا، فأبحث عن نفسي فأجدها شظايا من ألم ممزوج باحتقار نحو لاشيء ونحو كلّ شيء... رحلة قد تطول أو تقصر في هذا المتاه وسط كثافة من السّكون الرّهيب، والموت الوشيك. يخيّل إليّ أنّ كائنات هذا المتاه لا يعيشون طويلا، يوما أو بعض يوم أو يومين على الأكثر. أين هم؟ وهل هم موجودون أصلا؟

رفعت يدي اليمنى إلى صدري، وتحسّست نبض قلبي. دقّاته، لطول الصّمت واتّساع الهوّ، تضرب بقوة. وتردّد داخل الخواء ووحشة الانتظار في تواتر شديد. نسمات شديدة البرودة، من كلّ الجهات، تلفح ذقني، فتتسرّب قشعريرة إلى بدني يهتزّ لها كلّ كياني. أرهفت سمعي عساني أسمع صوتا، أو هاتفا، أو حتّى صدى قطرات ندى، لم أسمع شيئا إطلاقا. أدخلت يدي إلى جيبي، عظيم! هناك علبة سجائر وورقة.

سحبت سيجارة وتركت الورقة. انتظرت قليلا، وأشعلت عود ثقاب.
فجأة، سمعت نفس الصّوت الهادئ الرّصين يقول:

ماذا تريد أن تفعل؟

جوعي يشتدّ والظّمأ يرهقني؛ سيجارة تريحني من كثافة المتاهة وثقل
السّاعات.

عمّ تتحدّث؟ ماذا قلت؟ ستارة! هل عندك ستارة؟!

...

لم أجبه، والتزمت الصّمت. فكّرت في صاحبي، هل هو غيّب أم
يتغابى؟ إصراره على عدم فهمي أزعجني، وأدخل الهلع إلى قلبي، دقّاته
الآن تتخلّى عن رتابتها الاعتياديّة، تغافلني وتضرب بشدّة. بدا كأنّ كلّ
شيء في جسمي ينفصل عن إرادتي، ويستأثر بكموني الغامض... فراغ...
تذكرت «يوكابد»، زوجة عمران، وأمّ موسى، في زمن ما، غزا فؤادها
الفراغ والخواء، هذه الآلهة التي تولد في صمت، تنام بالنّهار وتفيق
بالليل، تستغلّ انطوائي على ذاتي، وتضرب في اللّحظة المناسبة، عدوها
النّسيان وربّيتها الخوف. أنا خائف!!

حدّثت نفسي، أحكي لصاحبي حكاية، حكاية زراعة التبغ أعرفها
جيّدا، سمعتها في زمن ما ومكان ما. سأبدأ. قلت:
تجرّب؟ ومددت له سيجارتي، وأخرجت بدوري سيجارة أخرى.
أجرّب ماذا؟

تدخّن.

ظلّت يدي، وهي تمسك بالسيجارة، معلّقة، فوقها فراغ وتحتها
فراغ. لم يعلن صاحبي عن وجوده، ولم أكن في حاجة أن أستحثّه على
المثول أمام حضرة المتاهة يداعب السيجارة. قلت:

على الأرض، في القرن الخامس عشر، بدأت حركة الاستيطان
في العالم الجديد. من بين المستوطنين، رجل اسمه «جون رالف»،
مستوطن من بلد الجزر العائمة، اختلط بأناس يقال لهم الهنود،

عاشرهم فتعلّم منهم زراعة التّبغ. لم يكن هناك تبغ من قبل. ولكنّ «جون رالف» زرعه، وصدّره إلى بقاع الأرض بأثمان باهظة جدّا، يدخّنه الأثرياء عادة. وفي عصرنا يدخّنه الأثرياء والفقراء على حدّ سواء.

انطلقت ضحكته مجلجلة. صوت ولا جسد. نفس اللّعبة تتكرّر في كلّ مرّة. أدانيه. فإذا دانيته، لاذ متخفيا بهذه الغشاوة الّتي تفصل بيني وبينه. يصمت أحيانا، فإذا تكلم ألغزوضحك. لا بدّ أنّه يمتحنني. لو كان الزّمان خلاف الزّمان، والمكان خلاف المكان، لكنت ضربته، وأحدثت فيه نتوءات شبيهة بتلك النتوءات في حائط بيتنا القديم. مع ذلك، لن أستهلم له مهما كلّفني الأمر. أضفت قائلا:

هل تعرف «جون رالف»؟

. سمعت بشيء كهذا منذ عشرة آلاف سنة. كنت صغيرا، وكانت قبيلتي في حرب مع بعض القبائل الأخرى. الاستقرار كان همّنا الدّائم، حرب الماء والكلأ تدور رحاها كلّ يوم. في ذلك الزّمان أتانا رجل كثر اللّحية، طويل الشّعر، قال إنّ اسمه «جون» وأباه «رالف». سألناه: ماذا يريد؟ ارتبك ولم يجب. اعتقدنا أنّه عين علينا، فقيّدناه واعتقلناه. إنّّه الآن سجين عندي داخل ذلك الكهف، ستراه إذا وصلنا!

اندهشت وأسقط في يدي. قلت دون وعي مّي:

ولكن هذا مستحيل. الرّجل مات، ولا شكّ أنّ رفاته قد اختلطت

بتراب القبر.

ضحك صاحبي طويلا، وعربد في ضحكته حتّى ظننت أنّه لن يكفّ أبدا. صاحبي يهذي دون شكّ. أنا في كامل مدارك وعي، لا بدّ أنّه قد اختبل وأصبح لا يفرّق بين السّواد والبياض، بين الحقّ والباطل، بين الصّواب والخطأ.

قال أخيرا:

زماننا خلاف زمانكم. السّنة هنا بخمسمائة سنة ممّا تعدّون. النّاس على أرضكم لا يموتون، نتخطّفهم، ونعود بهم إلى هذا الكوكب. أنتم

تكذبون ونحن لا نكذب، وتسرقون ولا نسرق، وترتكبون في حقنا أثاما كثيرة فنعاقبكم. نحن أوّل من زرع التّبغ وصدره، ونحن من اكتشف قانون الجاذبيّة، والذرة، والمغناطيس، وحركة الكواكب، ونحن، ونحن... وأنتم سفلة!!

فجأة، استشعرت ضربة على أمّ رأسي. كانت الضربة قويّة، فكأثّها مطارق من حديد. أحسست بإغماء، فترنّحت وسقطت.

[بليموث/ الثّلاثاء ظهرا، ١٠ تشرين الأوّل ١٩٨٩]

حوالي السّاعة السّابعة والنّصف صباحا، سمعت طرقا خفيفا على الباب. انتفضت في فراشي مذعورا، وشتمت. في هذا الصّباح، أحسست رغبة شديدة في شتم أيّ شيء، حتّى لو كان هذا الشّيء جدران هذه الغرفة الصّماء... ألا تكفي هذه الكوابيس اللّعينة، وهذا النّوم المتقطّع المحموم، حتّى أحرم ساعات نوم هنيء أقضيها في سلام؟ أزحت الغطاء عن جسدي شبه العاري، وقمت مثقلا بأطياف النّعاس. مشيت خطوتين، ووقفت أمام النّافذة. أزحت السّتارة قليلا. لم تطلع الشّمس بعد. مازالت ساعة وبعض ساعة تقريبا على ظهورها الاحتفاليّ. عندنا هناك، في ذلك البلد على ضفاف المتوسّط، تشرق الشّمس باكرا. أمّا هنا، فالطّبيعة تتحرّك ببطء شديد، الطّبيعة وحدها تبطئ، كأثّها ليست على عجلة من أمرها، أمّا العالم والنّاس فشيء آخر، هؤلاء يلوبون، لا يتوقّفون أبدا، يفرحون لأفراحهم، ويحزنون لأحزانهم، غير أنّهم دائما يتحرّكون، لا يقفون البتّة، لا يستريحون، كأثّهم سلسلة في عجلة الزّمن، قدّت منه!

فركت عينيّ بكلتا يديّ، ورحت أتأمّل. وراء سياج منزلنا يقوم مرتفع من الأرض بخمس أو ست أقدام، حزام طويل تكسو سطحه حشائش خضراء لا أثر فيها لاصفرار أو بيبوسة. تظلّ هكذا دوما، على مدار الفصول، في الرّبيع والصّيف، والشّتاء والخريف، كذلك قالت «لندا»

العاملة بمؤسسة المعهد. دائما يعرفوني شعور غريب أمام مملكة الخضرة هذه؛ منذ وصلنا إلى هذه المدينة، وقلبي تستبد به مشاعر وعواطف متنافرة، في مواجهة هذا السيل الأخضر اللامتناهي، بألوانه الزاهية وروائحه النفاذة.

تراجعت قليلا إلى الوراء، وفتحت الباب على مهل. استطلت برأسي من وراء الفتحة الضئيلة، فطالعتني وجه صديق لي، جمعتني به الظُروف مصادفة. فتحت الباب على مصراعه، هذه المرة، ودعوته إلى الدُخول، فدخل. لم يفه بكلمة، وظلّ واقفا لا يتحرك. ربعة، ليس طويلا ولا قصيرا، في طول قامتي تقريبا. وجه مستطيل تتوسطه عينان ذكيتان لعساوان. خدان خاسفان قليلا، لكنهما ممتلئان ومورّدان. أنف حادّ، دقيق، وجميل. جبين أملس يستدير مع رأس صغير في تناسق تامّ. تحت الرأس، ومع سريان الشّعر، يمتدّ عنق دقيق التّقاسيم. واضح المعالم، أشبه بجيد أنثى في ليونته، أبيض كلون رقائق ثلج هذه المدينة... تقدّمت نحوه بلطف، وبحركة مسرحيّة أمسكت يديه، وبدأت أضغطهما بتلذّذ ونشوة. شعرت بارتخاء بدأ يسري فيهما، انعكس على كامل جسده، وكان أكثر وضوحا على تضاريس وجهه الرّائق... قدته إلى السّير، وأجلسته واضعا يديّ على كتفيه الرّخوين. قلت، وقد بدأ ثقل ليلة كاملة يزاح عن كاهلي، كما ينداح النّدى عن ميسم وردة فوّاحة ذات صباح ممطر: . بتّ ليلتي أصارع الأشباح والكوابيس... متاه... هواتف وأصوات.

ذكريات خلتها ماتت بداخلي... كلّ شيء كان يتمطّي في الظّلّة أمامي. أدار وجهه يمنة ويسرة في قلق. أظنّه كان ينتظر بزوغ الشّمس. لم تتعوّد عيناه الظّلّة، كما لم يتعوّد جسمه الرّخص برودة قد تصل أحيانا إلى ستّ درجات تحت الصّفّر. كان كما القوقعة المتمرّدة، لا تستسلم بسهولة، تمسكها بيديك فكأنّها السّراب، أو لغز لا تنفتح مغاليقه لكلّ النّاس، سريع التّأدّي، صموت، يميل إلى الانفراد والعزلة، برّ عميقة من الأسرار والأحجيات، ختمت بصفيحة هائلة من الشّع

التفت أخيرا إليّ، وتمعنّ في وجهي مليّا، ثمّ قال:

. ماذا قلت؟ sorry، كنت مشغولا عنك.

داريته بابتسامة خفيفة، انفرجت عنها شفطيّ دون إرادة مّي، قلت:

. لا عليك مّي، فأنا من تعلم: سوداويّ الطّبع، حادّ المزاج!

ارتسمت على شفّتيه ابتسامة عريضة، ودیعة، لسماعه قولي،
ومال عليّ قليلا، وربّت كتفي بضربات خفيفة أحسست بها كخيوط
من ألسنة لهب تضطرم، وتستقرّ بقلبي. ارتعشت، وسرت في بدني رعدة
أشبه بحفيف غصن هزّته الرّيح فترنّج وتمایل.

التفت إليّ وضحك، فضحكت. هكذا نحن دائما منذ التّقينا. كان
ذلك في مفتتح عام دراسيّ بإحدى الجامعات في ذلك البلد على ضفاف
المتوسّط. راغني صمته، وكذلك راعه صمّتي. غير أنّه كان أشجع مّي،
فانطلقت الضّربة الأولى منه. قال:

. أنا طالب، مثلك؛ وأنا أدرس بنفس الكليّة.

في تلك اللّحظة، كنت مشغولا عنه بعالمي الجديد، المفتاح في يدي،
وأنا أهمّ بفتح غرفتي في الطّابق الثّالث. تريّثت في صمّتي، ثمّ التفتّ.
قلت بشيء من ألفة يشوبها برود:

. سعدت برؤيتك. لا أعتقد أنّي رأيّتك من قبل... المعذرة، ما زلت لا

أعرف أحدا ههنا.

مدّ لي يده مصافحا، فصافحته، انداحت أنثذ غشاوة أولى عن
عيّني، لقاء أوّل، على مسرح الحياة الكبير، لم نتبادل فيه أكثر من تلك
الكلمات القليلة... أدرا المفتاح في الأكّرة ودخل، وأدّرت المفتاح بدوري
في القفل ودخلت غرفتي. نسيته بعد ذلك، ولم ينسني. الحياة هنا كبيرة،
ممتدّة الأوساع، تضيق فيها روحك وتتقلّص، عصفور أخرج من دائرة
الصّمّت الدّافئ إلى عالم مترامي الأطراف، شاسع المسافات، تتعاوره
التّواءات وانحناءات، لا أوّل لها ولا آخر.

رفعت يدي إلى وجهي لأمسح سحابة من الضيق الكثيف، ووقفت. تقدّمت نحو دولا ب لا يبعد عن السرير كثيرا، والتقطت علبة سجائري بحركة متشنّجة، سحبت سيجارة أشعلتها. جذبت كرسيًا، وجلست أنفث دخان سيجارتي ببطء. لم أتكلم. بقيت أتأمّل حلقات الدخان ترتفع بحركة دائرية، ثم تنتشر في الغرفة هاربة، مكوّنة خيوطا دقيقة، تتجه نحو النافذة المغلقة. أخذ صديقي الذي أهملته صحيفة «Washington Post» وراح يتأمّل صفحاتها، واجما، صامتا. عدت بذاكرتي إلى الليلة الماضية، وإلى ذلك الكابوس اللعين، الذي ما برح يحاصرني منذ أن غادرت الحيّ، وحللت بهذه الديار. أقررت للوهلة الأولى، ببني وبين نفسي، أنها مجرد أضغاث أحلام، شطحات خيال متعب، مجرد سراب عابر ما يفتأ أن تذروه النسمات الباردة لهذه المدينة النائمة، ويتبخّر مثل دخان عبر فجوات النواصي والمعابر الملتوية. لكن، هناك صوت بداخلي يثور ويتمرد، يقول بإصرار: «الناس عندكم لا يموتون، ولكننا نحفظهم»، ويقول: «أنتم تسرقون، ونحن لا نسرق، وتكذبون ولا تكذب...» وأرفع رأسي من السّام والضجر إلى السّقف المحدودب، فأجد مخطوطا على صفحته: «أنتم سفلة!» الكابوس إذن ليس وهما، إنّه يعبر عن نفسه في كلّ شبر من هذه الغرفة الميّتة، يلعب السّقف. يتمدّد على السرير، يتمطّى فوق زجاج النافذة، ويضحك بأنيا به الطويلة الحادة فوق الدولا ب... هناك، على تخوم قريتي الغافية البعيدة، كلّما ألحّ عليّ هاجس أو كابوس، ضجّ الألم بالداخل، دمي الباطن، هاج التوجّس، وكي يهدأ البال، ويستريح خاطر، نقصد العرافات، نتّخذهنّ بيننا وبين الله سببا، يجلون ما خفي، ما بطن وغمض... هناك، الأهلون يؤمنون بوهج الخرافة، بمشاكسة الأرواح والأشباح وحضرة الجنّ. أه، لو فقط كنت بينهم، أتحصّن بمراقبهم، وأسجّع عيني الكليّة داخل حدود مرآتهم!!

شيئا فشيئا، وبمضيّ الوقت وثيدا بطينا في هذا الصّباح، بدأت

خيوط من نور تتسرّب عبر فتحات النّافذة إلى الغرفة، خيوط رفيعة جدّا ترسلها الشّمس، فتتجمّع وتتكاثف في رعشات محمومة، وتضطّرم أخيرا بالنّافذة، تنكسر، تتمزّق في غباء، تلجأ في النّهاية إلى النّتوءات، إلى الفجوات، تدخل فكأنّها تشتم أو تستهزئ. لا بدّ وأنّ الشّمس الآن تطلع كسلى، بهالتها الجلييلة المزركشة... حمراء... صفراء... خضراء؛ ألوان تتمازج في حنين أبديّ إلى عناق أرض، تنفض عنها ثقل اللّيل، ووطأة السّاعات؛ كذلك خيوط النّور تتمازج وتتنافر في كسل. فمرة تحتكّ بالحائط وتزوغ، ومرة تتخلّل شعري، أو تتمسّح بيدي، وتلمث السّيجارة بإغراء. انزحت قليلا عن أفكاري، وطردت كابوس اللّيلة الماضية. قمت. السّاعة تتقدّم بتوّدة نحو الثّامنة والنّصف. في النّاسعة، يبدأ الدّوام بالمعهد الجديد، ولا مناص من الذّهاب مبكرا!

رفع صديقي رأسه عن الجريدة، ونظر نحوي مستفهما. حاولت ما استطعت تفادي النّظر إليه؛ عيناه الذّكيتان كانتا دائما تهدّداني، وتنفدان عميقا إلى أغوار سحيقة من نفسي. تحوّلت إلى الدّولاب المسند إلى الجدار، ففتحته. أخرجت منه قلما وبعض الأوراق، وضعت الجميع على المنضدة بمحاذاة سريري، وقلت مخاطبا صديقي الذي عاد إلى تصفّح صفحات الجريدة:

- انتظرني هنا قليلا، سأعود عمّا قريب.

وخرجت، لم أنتظر منه ردّا. كلانا يفهم دوره جيّدا، دون كلام كثير، مذ تعارفنا في ذلك البلد على ضفّة المتوسط... كلمات قصيرة، مقتضبة، تقال دون ضجّة أو ضوضاء، إشارات خفيّة، مصحوبة ببعض الإيماءات، ويغادر كلّ منّا صاحبه، متعلّلا بلقاء قريب. هناك دائما متّسع من الوقت للّقاء!

غرفة الحّمّام لا تفتح على غرفتي مباشرة، ولكنّها بجانبها تماما. في الرّواق لم أسمع شيئا، لا حركة ولا ضجيجا. لا شك أنّ بقيّة الرّفّاق لم يفيقوا بعد. فتحت غرفة الحّمّام ودخلت. غرفة أكبر من غرفتي بكثير،

تنتهي في الزاوية، المواجهة للباب، بدولاب ضخمة، طويل، مفتوح. أخذت الرّوب... سرت. أمامي، على الحائط المقابل للحديقة الصغيرة في الخارج، انتصبت امرأة بيضاء، جميلة، كبيرة. نظرت فيها. مازال الوجه الأسمر أسمر كما كان، لم تأت عليه بعد برودة الأيام الأولى في هذه المدينة. الشّعر، كعهدي به منذ ولدت، أشعث، منفوش. ما يزال صوت بعيد، قصي، موغل في النّسيان، يتردّد في أذني: «لماذا لا تمسّطه؟ إلى متى هذا الإهمال؟ لقد صرت رجلا الآن، ويستحسن أن تعني بمظهرك جيّدا.» غير أنّي في كلّ مرّة أتحمّز، أهمّ بتقريب المشط من شعري، أحسنّ بانقباض، وبأصوات تتناوح داخلي، فأرمي المشط وألعن، ثمّ أخرج. لكن... هنا عالم آخر، حياة أخرى، أكبر، أكبر بكثير من تلك التي خلّفها ورائي، هناك في ذلك البلد، على ضفاف المتوسط. العنّ يكبر، قليلا قليلا، في تأنّ وتؤدة، وهوة الصّمت تتضخّم وتتوتر، هالة الخوف، حلقة الخجل، مستحكمة المغاليق، التي زرعت بذورها، بمحض إرادتي، دما وغصّة. هناك، تضيق وتضيق، هنا... مناظر لصور طالما راقتني، وافتتنت بها، مشاهد طالما هزّنتي، مواقف، أشياء وأسماء، تتحوّل إلى مجرد نقاط سوداء، رأيها أوّل مرّة، في المطار. وأراها الآن، في كلّ شبر من هذه الغرفة الضّيقة، وهذا المنزل الغريب.

على بعد شبر منّي، كان نفس الطّيف يتضخّم ويبين: الشّعر، العينان، الأنف، الرّقبة، والفم بدأت ترتسم على شفّتيه بقايا ابتسامة ضائعة. لم يكن الوجه غاضبا، كما لم يكن سعيدا، ولكنّه غريب عنيّ، في كلّ شيء. هذه المرّة. أحسست أنّي ربّما بدأت أنفصل عنه، أحميد مبتعدا، أميل فارّا، كأنّي لم أكنه في يوم من الأيام. تمعّنت فيه أكثر. أراه يضحك إذا ضحكك، ويلتفت إذا التفت. كلّ شيء فيه معدّل ومضبوط. حاولت أن أخادعه فاستدرت. لا شك أنّ وجهه كان في مواجهة ظهري. أردت أن أمنحه أكثر وقت ممكن، ليأخذ حذره، ويفهم اللّعبة. قلت في نفسي: «ليس الآن!». ملّت على حوض الاستحمام.

أدّرت الصّنبور دورة أولى، ثمّ دورة ثانية. بدأ الماء يفرقع، وينساح على طول الحوض. وشوشة جديدة، وصوت جديد، لم تتعوّدهما أذنائي. شعرت كأنّ الماء في هذا العالم الجديد يراوغ البرودة والثّلج في الخارج، في ستار من الدّفء، وراء نوافذ مغلقة. سرت على امتداد الحوض، إلى أن بلغت جانب المرأة. أطللت بحذر شديد. دانت عيناها الحاقّة، فإذا عينان تروحان وتجيئان في محجرين خاسفين. دنوت أكثر من قبل، فإذا خصلات من شعر فحميّ، داكن السّواد، تتناثر هنا وهناك، على المرأة، كبيدر من القمح يذرى في الهواء. تقدّمت أكثر فأكثر. نفس الملامح تنطبع على المرأة، خطوة خطوة، ببطء إذا أبطأت، وبسرعة إذا أسرع. ما يزال الطّيف يلاحقني بإصرار، أرى فيه آثار تلك السّنوات العشرين، بأفراحها ومسراتها، بأحزانها وأتراحها، وآلامها ونشواتها، لم يتغيّر شيء بعد. كلّ شيء في مكانه: الرّمال المسفوعة بسياط الشّمس، والخيمة المهلهلة، تشدّها الجهات الأربع إلى نقطة ارتكاز في الوسط، ورحيل الرّعيان، الدّائم، المستمرّ، الذي لا يني، من بزوغ الشّمس إلى أوان غروبها، وتألّؤ الشّفق، قبل انبلاج الفجر، وتخثّر دم الغسق إبّان المغيب. كلّ هذه الصّور أراها الآن مطبوعة في هذا الوجه، على المرأة، بابتسامته الغريبة وعينيّه الزّائغتين. غطست في الماء، فأحسسته بركة من الدّفء يرحل عبر المسامّ إلى أخصّص بدني. أغمضت عينيّ واستسلمت لمداعبته. قالت: «لماذا لا تتكلّم. عامان وأنت تعتمصم بالصّمت. قل شيئاً على الأقلّ!» وافترقنا... الماء في كلّ مكان من جسمي، في شعري، تحت إبطيّ، وفوق بطني، يتسرّب عبر تضاريس فخذيّ، ويطوّق أصابع رجليّ. مزيج من أفكار وعواطف شتّى يوقظها الماء الآن. كادت تضمحلّ، تتمزّق، إلا أنّها، في هذه اللّحظة، تنبعث ثائرة، معرّبة، كما لو كانت عنقاء تنهض من تحت الرّماد... البركة الساكنة يحركها الماء، يتركها نهبا لحنين لا ينضب، أجنحة أبدا تدفد، وتضرب ميمّة صوب الشّرق المنسيّ.

في الخارج، كانت تسمع أصوات مبعثرة ونداءات متعددة... صديقنا الثالث، محمود، غرفته مفتوحة، وهي مواجهة لغرفة الحمام تماما. تناهت إلى مسمعي موسيقى «لومبادا»، وعندما ألقيت عبر الفضاء أمامي نظرة عجلى، ارتعت لمنظر الفوضى. كل شيء مبعثر على الأرض: المنشفة، القبة، الكتب والأشرطة، الغطاء، المخدة، والملاءة. لم يكن محمود موجودا بالداخل. أين تراه ذهب؟ لا بد أنه في المطبخ يتناول فطور الصباح. دخلت غرفتي فوجدت صديقي ما يزال هناك، ممتددا على السرير، موليا وجهه ناحية النافذة. قال:

- الشمس على غير عاداتها اليوم: لونها كامد... اليوم يومنا الرابع بهذه المدينة: أرجو أن نقضي معا وقتا طيبا.

- أرجو ذلك أنا أيضا. قلت ذلك بفتور، وأنا اتخذ مكاني أمام النضد. أخذت ورقة، تأملت. ما زالت بيضاء، لم يدون عليها شيء لحد الآن. ورقة من بين ثلاثين ورقة أخرى، جئت بها من هناك إلى هنا. سأستغل فرصة وجودي بهذه المدينة لأدوّن عليها بعض الحروف، الكلمات، وربما تترصف الكلمات، لتصبح سطورا، والسطور صفحات. لا يهم كيف تكون. المهم أن أصب جام قلقي فيها. نعم سأكتب!

«عزيزي،

تذكر تلك الجذازات، لا شك أنك أبديت رأيك فيها. أعطيتك متسعا كافيا من الوقت. قلت إنها غريبة ومهمة، الصور ممزقة، لا رابط يجمع بينها، أو خيط. لم أقل شيئا. قلت يطغى عليها الصليب، وهو مرسوم في كل طرف من أطرافها، منثور في كل طية من طياتها. أيضا لم أجبك وصمت. أثرت أن أستفزك بصمتي لأثير كوامن صمتك، فتتكلم. كنت أعلم أنني سأتي إلى هنا، وكنت تجهل كل شيء عن مشروع الصغير... كنت أعد له منذ سنوات، ولم أطلع عليه أحدا. أثرت أن أصمت، فأفاجئك أنت بالذات لأنني أحبك، هنا أيضا أحببت... أربعة أيام، كانت قطع الملح مذاقا، الناس هنا غيرهم هناك، عالم كبير... كبير جدا، لا

تجد فيه موطئا لقدم، أو فرصة للشُّرود قليلا، أو استراحة للمسافر التي يتخفّف فيها من وعناء السّفر. كلّ شيء يتحرّك وفقا لعقارب السّاعة... البرد ورقائق الثّجّ البيضاء يغرياني دائما، ويحرّكان في شهوة جديدة، ولذّة مفعمة بالغرابة والحيرة... أنا لست خائفا، زاد المسافر غربته وحيرته، هكذا قلت لي ذات يوم. كلماتك تظلّ عالقة بمخيلتي، دون وعي ممّي، تلج أغواري، وتستقرّ في نهايات التّخوم، وثنايا المسافات. أرجو أن لا تكون قدرتي، فأؤخذ بك وأعدم فيك!!»

مع أصدق التّمنّيات،
مخلصك الذي لا ينساك.
بليموث في: ١٠ تشرين الأوّل ١٩٨٩»

وضعت الورقة، بعد أن أنهيت كتابتها، في حافظة أوراق جليديّة. «لن أحدثه عن الكابوس الآن. في يوم ما سأحدثه عنه، وقد لا أحدثه عنه أبدا»، قلت في نفسي. كلّ هذه الأوراق الثلاثين، سأحتفظ بها لنفسِي. قد أبعث إليه برسالة أو رسالتين، ولكّني لن أرسل إليه الأوراق. ستكون شهادة لي وحدي، دون غيري. قد تتّسع الهوة، ولكن لا بأس. مازال هناك ليل سيّأتي، ويرخي سدوله، ويجثم على الأرض، كما أنّ نهارا جديدا ينتشر مفردا جناحيه، نحو الأفق، خلف مزارع الدّرة، بمقاطعات بلاد الثّجّ والضّباب والجليد. عرفت القليل، ومازال ينتظرني بحر متلاطم، ضارب بأطرافه في تخوم المحيط، مياهه السّاكنة الزّرقاء، ربّما كانت تحمل لي، في طيّاتها، أسراراً محيرة، مريكة، ونبوءات ضيّعها السّراب منذ ألف عام. لكن، لا يهمّ. مازال هناك دائما متّسع للقاء جديد.

نظر صديقي في ساعة يده. قال:

- السّاعة الآن التّاسعة والرّبع... ربع ساعة آخر يكفيك لارتداء ثيابك. هيا أسرع.

لا أدري تحديدا بأيّ عين لاحظت حركة صديقي، أو بأيّ أذن سمعت

كلماته. ربّما حركته الحيّة، الشّافّة، الخجول، بدت لي كرفّة طيف، وربّما كلماته القصيرة، المقتضبة دائماً، عبرت فراغ الذاكرة، جازت ثنائياها، رقراقة، لنبرتها الموسوسة وقع خريّر الماء في الجدول، في هذه اللّحظة، أحسست أنّي أنفصل عن عالم الهواجس والنّبوءات، ذلك الخيط الرّفيع الذي تتعلّق بأطرافه عوالم الاحتمال والممكن، وثقل السّاعات، بوطناتها، قد بدأ يتلاشى شيئا فشيئا.

تركت كلّ شيء في مكانه.

ارتديت ملابسي، ثمّ خرجنا.

[بليموث، الأحد صباحا، ١ تشرين الثاني ١٩٨٩]

عندما أرجع بذاكرتي قليلا إلى الوراء، إلى زمن يتسلّل من بين التّنوّات، في شرخ ذلك البيت القديم - البيت الثاني بعدما قلع جدّي وجدتي أوتاد تلك الخيمة المهلهلة، وحملها معها خارج حدود الصّحراء -، وإلى تفاصيل ذلك المكان الذي يظلّ ثابتا، جامدا، لا يتغيّر، أراني أستمريّ طعم سنوات طفولة غابرة... كلّ شيء متقلّب، ولا يثبت على حال، ولكن هناك دائما صورة لشيء ما، لحنين ما، يظلّ مواربا، مختبئا، وراء جدران الذاكرة، لا يحول ولا يزول، ويظلّ دائما بمنأى عن لعنة القدر، وعيب الزّمن. صرخة الميلاد الأولى، حشرجة الموت الّتي تنبع فجأة، صور لأشخاص ما تعرفهم ويعرفونك، تحبهم ويحبّونك، الصّحراء: ذلك البحر الممتدّ، المتاه المتلاطم بأكوام اللّحم البشريّ المتعبّة، وزغاريد تملأ الأفواه الكليّة حينما تجود السّماء بالغيث وينمو الزّرع. النّساء والأطفال، الرّجال والشّيوخ، كلّ ترف حول شفّتيه فرحة قصيّة، رائقة، بريئة... حياة الشّظف لا تدوم، غير أنّها كالقضاء المتربّص، تجثم في كلّ مكان، يقهرها اللّحم الفتي، المتوتّب، الّذي لا يكلّ ولا يملّ، يكثر، يقلّ، يتكاثف، يفتّر أحيانا، إلّا أنّه لا يتراجع أبدا إلى الوراء. تلك هي - سادتي - الحكمة الّتي تتعلّمها الأجيال، وسط أوساع

الصَّحراء، جيلا بعد جيل، وتزقها الأم رضيعها، وهي تقرب حلمة ثديها إلى فمه الطفولي الظَّامئ، وتهدهده مرتلة، بنبرات حلوة بعيدة، زجلا منسيا، موغلا بين ثنايا الأتون.

أحسن بغريزتي أني جزء من هذا العالم، وتد راسخ بداخله، لا يتزحزح، أنتظم فيه وأخذ مكاني منه، دون تعب أو عناء. لكن هذا الصَّوت الأخرق في أعماقي يرفض أن يصمت، ويأبى أن يستسلم. له رنين دائم، حادّ، مقرّر، وجرس مدوّ، أحسّه بثقل الدّنيا، وهول عذاب مقيت، ما يكاد يفتر إلا ليعود أكثر ألما ووطأة. حاولت دائما أن أحاصره، أن أقلّصه، أن أجعل منه قزما قميئا، لا يبين، لكن دون جدوى... لونه حائل، وبه فجوات، يرفض أن يتجسّد، له طعم الكابوس ولون الماء. أحيانا أقول، أدعه وشأنه، أنساه إلى الأبد. أتلاشى، أضمحّل، ويرجع الصَّوت ليعيد شتاتي من جديد، هو القدر الذي لا فكاك منه، يأبى إلا أن يكون بذرة للسَّرَفِ مزارع العقم ومدارات الإلغاز... في تلك الصَّحراء، وراء خطّ الأفق، حيث نبت أجدادي، وأجداد أجدادي، لم تكن هناك أصوات تموت بالهّار لتبعث ليلا. كان كلّ شيء جليّا، واضحا، مسفرا كحبّات الرَّمْل المغسولة بطراوة النّدى عند كلّ فجر، وجوه تسفعها سياط الشَّمس بعنف، ويأتي الغسق الليليّ، متمهّلا، حانيا، لي طرح عليها برودة النّسمات، ويذهب التّعب المقيم، الجاثم بين الأركان، داخل الأخاديد عبر الزّوايا.

بدأ كلّ شيء، كما لم يبدأ منذ ألف عام، برحيل أوّل، من متاهة صغرى إلى متاهة أخرى أكبر منها بقليل، من عالم اللّحم الفتّي الجامح إلى عالم اللّحم المحنّط... لم يحتجّ أحد، لم يعارض، كلّهم اتفقوا، عقدوا العزم، أجمعوا أنّ هذه الصَّحراء لا خير فيها. «ندعها ونرحل، هناك، بعيدا، سنرتاح من التّعب والشّقاء، سنحيا بلا هم ولا وجع رأس». وهكذا كان. كبراء القوم كانوا يطرقون مليّا، تعبس وجوههم ويقطّبون،

ينكتون الأرض، وفي لحظة تجلّ، يسترجعون، يتحدثون عن أحمال القمح والشّعير، عن رحلة لا تنتهي، تمتدّ أسابيع، بل أشهراً، مشياً حيناً، وعلى ظهور العير أحياناً أخرى، إلى مدن قصية، بعيدة، يقايضون، يبيعون ويربحون، يأكلون ويشربون، زاد الواحد منهم شجاعته وطول صبره، فرادى أو جماعات، يشدونّ الرّحال، في صمت، وسط المراح، تخرج النّساء، محجّبات، يحملن الزّاد، يقربنه منهم، لا يقلن شيئاً، العيون فقط تتكلّم، تقول كلاماً كثيراً، تبعث دعاء مشبّوها، تذهبون وتعودون إلينا بالسّلامة، وافرين غانمين، ينطلقون مبكراً دائماً، عندما يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، في ذلك الوقت، يكون الأطفال نياماً، ربّما يحلمون بأرض جميلة، موعودة، لا يشهدون لحظة الوداع أبداً، تظلّ لغزاً غامضاً بالنّسبة إليهم، عندما يكبرون ستنتفتح أمامهم مغاليق السّرّ، يدركون، يعرفون، غدا سيكونون هم الرّجال، يودّعون نساءهم، إيماء، وسط المراح، ينطلقون، نفس الواحد يعبق بروائح شتّى، متداخلة، عصيّة، مشتهة، حبّ الصّحراء آية الخصب، يعلّقها تميمة في صدره، في شغاف قلبه، داخل أغواره الباطنة... الأرض الموت تحبل في صمت وأناة، فرادى أو جماعات، تحتضنهم الصّحراء بأوساعها، وآلامها، وأوجاعها، تشاق إليهم، تدعوهم في كلّ مرّة بإغراء جديد، وغمزة رقيقة. ينحنون على محاريثهم، لا يبالون، الشّمس تصبح شاهداً على قصائد الفرحة واللّذة، الارتواء والظّمأ، والخيام المهلهلة أرواحاً حيّرى، تترقّب، تدعو، وتستسلم في طمأنينة راهب بعث منذ آلاف السّنين... تحكي جدّتي لأمي. تحكي جدّتي لأبي. يحكي جدّي لأمي، وجدّي لأبي. الكلام واحد، اللّغة واحدة، واللهجة أيضاً واحدة، غير أنّ الزّمان خلاف الزّمان، يغيّر ويتغيّر، والمكان ثابت لا يتحرّك، فوقه فراغ وتحتّه فراغ!!

البعض، من أهل القرية، يؤكّدون، يحلفون بأغلظ الأيمان، أنّ هذا الرّحيل المفاجئ أشبه بنبوءة أزلية، قدر مسطور في لوح محفوظ، ظلّ

سنين يتردد. يهوّم تائها، منطويا بين المسافات، محدودا داخل مرامي السماوات، وفي لحظة مباغته، غير منتظرة، أقرب إلى دفع ملهم، عبر البرزخ، وغزا قلوبهم، طواهم فردا فردا... ذلك الحنين الضّارب في مهاوي القدم، تلك الذكريات النّائية، الشّاطّة، المتباعدة، عن مواسم الحصاد، تثني الرّمال الغافية، طرواتها المشبعة بالنّدى اللّيلي، مراتع الخصب، قساوة الجذب أيضا، تنبع دون إنذار، من باطن الصّحراء، كلّ ذلك كان مجرّد حلم مغر، ومضى كوههم، ذلك الحلم داعب قلوبهم جميعا، وها هو ذا الآن يتلاشى فجأة، يرحل، كما هم أنفسهم راحلون... هم، في قرارة أنفسهم، راضون رغم كلّ ما حدث، لا يحسّون ذنبا أولوما، يتعلّلون، يقولون: أقوام قبلهم، وجدوا أنفسهم داخل حدود المتاه، مبعوثين بين الوهاد والكثبان، عمروها، كان الخوف من مجهول ما يترّص هاجسهم، وللتخلّص منه، لإسكاته، لإرغامه على التّسليم، شمّروا عن السّاعد، وطئوا التّراب، الّذي استحال تحت ضربات أقدامهم الثّقيلة المتعبدة ذهابا. رغم ذلك كلّ، رغم الجهد، والعرق، وقهر الموت، وكسر إساره، كما عمروا عبروا، ابتلعتهم فوّهة اللّحد الحزين، الكالج، الّذي لا يرحم. هم كذلك سيعبرون، سيسقطون يوما من شاهق، من علوّ، محدثين صوتا خبيثا، متقطّعا، حادّا، يشبه صوت إلقاء الحصاة في قاع النّهر. لا مفرّ إذن، عليهم أن يقابلوا ما يواجههم برضى واستسلام، دون عبارة تلفظ، دون رجاء أخير، حتّى ولا دون أمنية تمنح، سيكون المحكوم بالموت خيرا منهم آنئذ، هو على الأقلّ يحترم قبل أن يقضي، ولو للحظات، قد يشرب جرعة ماء على مهل، يستمرئ طعمها، وقد يعطونه سيجارة، يفكّون قيد يديه، عيناه مفتوحتان، يتطلّع إلى رحابة السّماء العميقة، ينفث الدّخان ببطء، وقد يشرد قليلا، يسترجع تاريخا بأكمله في طرفة عين، يستدعي ذكريات متباعدة، متناثرة، ضاربة بجذورها في مهاوي النّسيان. أمّا هم، فلن يظفروا ولو بعشر معشار ذلك... الحياة قدر، والموت قدر آخر، وعلى امتداد الشّوط، داخل الفسحة، وخلال

الرحلة المعلومة بين هذين القدرين، سيكون عليهم أن يلبّوا نداء خفيًا
لرغبة جامحة ومغامرة لا تهدأ ولا تني!

كنت ما أزال صغيرا، وكانت دنياي، عالمي، كلّ ما أعرفه صغيرا،
بحجم راحة الكفّ، بالكاد يمتدّ لبضع خطوات أمام عينيّ المستكشفتين.
ورغم ذلك، فاضت نفسي الجامحة، انساحت على كلّ شبر من المدى
الصّحراويّ اللّامحدود، لفحتني شمس الصّيف بتمتماتها الصّامتة،
وعينها الضّيقتين اللّتين لا تطرفان أبدا... بيوت الشّعْر، والخيام
الحائلة، كانت تبدو لمخيّلي ألغازا عسيرة الحلّ، عصيّة على الفهم،
تبعث فيّ رهبة ونشوة لا أعرف مصدرهما. كنت أراقب - بعيني عقلي
- سنابل القمح من البدايات المعلومة إلى النّهائيات المحتومة، أراقبها
وهي تنمو، من حين تكون شتلات طريّة، هشّة، تتلاعب بها الرّياح
المشاكسة الحارّة، إلى أن تصبح سنابل ذهبية، متوجّة الرّؤوس، تزهو
بألوانها القمحيّة الفاتنة. حينئذ، يطفرفرح غامض داخلي، يغمرني
من رأسي حتّى أخمص قدميّ. كان يروقني كثيرا منظر الزّراع، وهم
يولّدون الصّحراء دون كلل أو ملل، منظر يتكرّر كلّ يوم، كلّ ساعة، بل
كلّ دقيقة، وفي كلّ ثانية، لا يملّ ولا يملّ، كما لو كان يتجاذب أطرافه
قدر لا فكاك منه. بين الحين والآخر، ينوء الظّهر، طول الانحناء على
المحراث يبعث ألما، تزدادا الرّغبة في الهروب إلى الأقاصي، إلى المجهل،
يجيش الصّدر بحبّ دفين، مهم، فترتفع العقيرة بموأل رخيم، رائق،
ترجع أصداءه في كلّ الأنحاء، وتحمله الرّيح ابتهالا سرمديا إلى الأفق
البعيد... كان العالم صغيرا... صغيرا جدّا، كحبّات مسبحة جدّي، وكلّ
الأشياء فيه تسير بقدر معلوم، في رتابتها الاعتياديّة الحيّة. عدد الخيام
المتضائلة المهلهلة حفظته عن ظهر قلب، أسماء البطون التي عمرت
الصّحراء في الزّمن الغابر القديم، والأنساب المنسيّة يرتلها جدّي على
مسمعي دوما، وهو يحاول أن يللم شتات حكاية بدأها، رابطا خيوط
الذاكرة بعضها إلى بعض، من ولد، ومن تزوّج، ومن سافر، ومن وراه

القبر فيغيب زمنا عن الأحياء، ويرتسم بملامحه المنطوية وهيئته المغلقة في شرنقة الخيال وتلافيفه التي لا تبلى.

أسأل جدّي، وأريده أن يحكي لي دائما عن النَّاس في ذلك الزَّمان، وهل كانوا مثلنا. يطرق مليّا، وهو ينكت الرَّمْل بعود صغير في يده، ثم يقول:

- في ذلك الزَّمان، كان الرَّجُل مثل رجلين، شجاعا وفحلا، يكسر عظم البعير بأسنانه، ويحمل أعدال القمح والشَّعير على ظهره دون أن ينوء، أو يطرف له جفن، يأكل ما تيسر، ولا يتذمّر أبدا، قصارى ما يؤمله قدح حليب طيّب وحفنة من التَّمَر.

يصمت قليلا، يشرب بعنقه نحو نقطة غير مرئية، كأنه يستحضر ذكرى بعيدة جدًا. يواصل قائلا:

- كان والدي رجلا ولا كلّ الرِّجال، قوّته خارقة، تضارع قوّة ثلاثة رجال، يزرع، ويحرث، ويحصّد، وعندما يجمع القوم صابة القمح ويملأونها في الأكياس، يحملها على ظهور العير، ويرحل بها إلى الأقاصي المجهولة، في رحلة قد تمتدّ أسابيع أو أشهرًا طويلة، بأيّامها ولياليها. مرّة، طلع عليه قطاع الطّريق، وكان منفردا، لوحده، أرادوا أن يغصبوه حاله، ما لديه، ولكنّه واجههم، وحيدا، كالأسد الغاضب، وفرّق شتاتهم. أه، ذاك زمان، يا ولدي!!

جدّي كان مفتاحي إلى الكنز الكبير الذي أبحث عنه، هذا الكنز من الأسرار والطلّاسم، والغوامض والدّقائق، اليسيرة، الملمّزة، المحبّرة، التي ابتلعها جوف الصّحراء، وعلق منها شيء قليل، لا يكاد يذكر، نزر غاية في الضّمور، بذاكرة تنوء بها تلك الأجساد العجفاء الضّامرة... رجال القرية ونساؤها، ممّن لم يطل بهم المقام داخل حدود المتاه، وغادروا الصّحراء حديثا إلى المدينة، لم يكونوا يلقون بالا إلى السّرّ الكامن في كلّ ذرة من ذرات الرّمال المنتشرة هنا وهناك، على مدى البصر، ما رأوه شحيح، تجربتهم قاصرة عن إدراك اللّامرئيّ الغامض، مازال يعوزهم

الوقت كي ينفذوا إلى الأعماق، حبّ الأرض التي ما كادت تنبت بذرهم حتى تركوها، خلفوها وراءهم، قاعا صفصفا، لا أثر فيه لحياة أو نماء، كأن لم يعمر يوما. جدّي، في المقابل، وعى السرّ، استنفد مكانه، وولج أغواره، حمله في صدره، كما حملت جدتي بأبنائها التّسعة في بطنها. كان جدّي كالسرّ، ضامرا مستدقا، له نفس تجاوبه ومساربه الضّيقة. يحدثك، فتسرح مع حديثه، ويضحك فيجاوبك صدى ضحكه من عالم له طعم يشفّ عن الوصف والتّصوير. آه، ذاك زمن، يا ولدي!!

جدّي عبد العظيم وجدتي صالحة لم يكونا آخر شخصين يغادران الصّحراء، غير أنّهما من بين قلائل كانوا غادروها على مضض، وكره منهم، فكانوا بذلك آخر من تطأ أقدامهم حدود القرية. جاء، وكلّ متاعهما خيمة قديمة من الشّعر، نصباهما حال وصولهما، وسط مراح واسع، يحيطه الجبل من جهاته الأربع.

أسأل جدّي عن قدومهما، هو وجدتي، فيقول وهو يمسك بخيوط أصبحت الآن بعيدة جدّا:

- كنت يومئذ شابّا في الخامسة والعشرين، وكانت جدّتك في السّابعة عشرة من عمرها. في ذلك الوقت، كانت جدّتك حاملا، وكنا ننتظر ابننا البكر حامد رحمة الله عليه...

ويصمت جدّي لحظة، يرفع طرف عمامته البيضاء، ويمسح آثار دموع على وجنتيه. حامد هو كبير أبنائه، بكره، مات، وهو في الخامسة من عمره. لم يفرح به طويلا، اختطفه الموت، فأورثه ذلك حرقه في قلبه، لم تندمل أبدا، إلى أن قضى، وأهيل على جسمه التّحليل تراب القبر الثّقيل، الرّائن كأبد. لم يكن جدّي يصفه إذا تكلم، لم يكن يسهب في تحديد ملامحه، غير أنّه كلّما رَفَّ اسمه على شفّتيه الرقيقتين الحائلتين، يكبح دفق الحديث، يمسك عنه، ويستغرق في بكاء صامت ممضّ. أنجبت له جدتي بعده ثمانية أبناء: ستّة ذكور وبنتين، إلّا أنّ طيف حامد لا يفارقه أبدا، يزوره، مع كرور الأيام، في منامه، يتمثّل

أمامه. بعينه الكسطنائيتين الرائعتين، وتقاسيمه الدقيقة الجميلة.

يمسك جدّي بطرف الحديث مرّة ثانية، يقول:

- في المراح، كانت خيمة الشّعر منتصبّة بقامتها الفارعة، كالعروس ليلة الجلوة. ما شاء الله... أه، لو كنت رأيت ذلك، يا ولدي، في الصّيف، نفتح بها منافذ صغيرة، وكوى، ليتسنى دخول الهواء إلّهما، وفي الشّتاء، نجمع أكواما من الحشائش والأعشاب والعيدان وجذور الأشجار، فنسدّ بها الفتحات لنمنع تسرّب المطر إلى الدّاخِل. يا ولدي، نحن لسنا كغيرنا، لم نبع أرضنا للغريب، لم نرهن ذهابا، ولم نبع مواشينا بواهن الثّمْن وبخسه. لقد ظلّ كلّ شيء على حاله، كما كان من ذي قبل... عيرنا، غنمنا، وقطعان معزاننا تركناها جميعا في الصّحراء، في عهدة عمّك «حسين»، الله يرضى عليه، لم يقصّر معنا.

كان كلّما وصل بنا الحديث إلى نقطة بعينها. يستعذّبها كلانا، إلى فضاء مترام، لامتناهي الشّسوع، تترقرق فيه روائح شتّى، نفاذة العبير، وتسمع فيه زغاريد نسوة حاسرات، تظهر فجأة، ثمّ يتلاشى رنينها رويدا رويدا، كحنين دافق يطفح بالارتواء وسط فلاة، يشيح جدّي بوجهه عنيّ، يركّز عينيه في تجويف داخل بيته القديم كأنّه يرى، ويسمع، ويشمّ، ما لا أراه، ولا أسمع، ولا أشمّه، تلك لحظات أحاول أن أنأى فيها، جسدا وخيالا وقلبا، إلى أفق بعيد يتراءى فيه جدّي على مبعده منيّ، يتحدّث إلى أناس غرباء عنيّ، يغضب معهم إذا غضبوا، يضحك لضحكهم إذا ضحكوا، يتحرّك إذا تحرّكوا... أحاول الاقتراب منهم، أكثر فأكثر، فلا أصلهم، يظّلون في ابتعادهم عنيّ كسرّاب. أسمع حديث جدّي غير مرّة، وأسرّح معه مرّات ومرّات، في ذات البيت القديم، وفي ذات الحوش الّذي ولد فيه أشقاء والدي ووالدي.

أسال جدّي مرّة أخرى، حينما أراه ينكت أرض البيت بأنامله الطّويلة الرّقيقة:

- كم كان عمري آنذاك، يا جدّي؟

يرفع رأسه، ينظر إلى نظرات، تمتزج فيها ابتسامة حزينة بغرابة، يقول:

- أوه، يا ولدي، كنت صغيرا... صغيرا جدًا وقتئذ؛ وكنت أحملك، كلما سنحت الفرصة، إلى الصحراء، على ظهر الناقة أو الجمل. كان ذلك قبل وقت طويل، عبرت فيه السّنون وولّت. النّاس الآن بنوا البيوت، واشتغلوا، نسوا فجأة الصحراء، والأرض، وكلّ شيء. نحن، في المقابل، لم نسلّم، لم نرض بحياة الدّون، ورغم مجيئنا، نزولنا بهذه الأرض، خلفنا وراءنا ما يستر، ما ينفع وقت العوز والشّدّة. أعدال القمح والشّعير تأتينا من الموسم للموسم، أوعية الحليب، اللّحم المقدّد، كلّ شيء في أوانه... كانت لنا عشرون ناقة غبراء وجمل فحل، مات البعض منها زمن المجاعة، النّاس، من جوعهم، كانوا يأكلون كلّ شيء، حتّى الجراد!

ونظّل هكذا، نتجاذب أطراف الحديث، لساعات طوال، لا يقطع علينا صفولذاندنا إلّا قادم لحاجة، أو مستأنس من وهج الحرّ، ورتابة الضّوضاء في الخارج... قريتنا التي يحيطها الجبل من كلّ الجهات، ويرين بثقله عليها في بطحاء الوادي، لم تعد تلك القرية التي أعرف بيوتها الأحد عشر بيتا بيتا، وأناسها القليلين الطّيبين فردا فردا، إنّها، الآن، مدينة عامرة، كبيرة، بها سوق، ومقاه، وخليط من أجناس شتّى، جاءوا من الأطراف، والمدن المجاورة، والقرى المتاخمة... رائحة العشيّة، دفئها، رائحة الشّمس الغاربة على مهل، حلّت محلّها روائح أخرى، مقرّفة، تبعث في النّفس شعورا بالتّفرّز والغثيان. جدّي الوحيد، من بين من ظعنوا، كان يعيش منفردا، بين جدران بيت قديم، ويحتفظ بتلك الخيمة من الشّعير... يذكر دائما أنّ لكلّ شيء يحتفظ به، يملكه، حكاية يحفظها عن ظهر قلب، ولا يرويها لكلّ النّاس. يقول إنّ هذا البيت، وهو عبارة عن غرفتين من الطّوب الذي يضرب لونه إلى الحمرة القاتمة، شدّت كلّ طوبة منه إحداها إلى الأخرى، قد بناه،

حال وصوله، تساعده جدتي، هي تجلب له المونة بيديها الصغيرتين القاسيتين، وهو يسوّيها ليرصف فوقها كلّ طوبة بجانب الأخرى، في خطوط مستقيمة متناسقة. ويقول أيضا، إنه لم يكن يتصوّر، في يوم من الأيام، أنّه سيصير بناء، يضع حجرا على حجر، ولبنة فوق لبنة، لكنّها تصاريف الزّمان، ومتغيّراته التي تلحّ فتجعل من الحاجة أمّا للاختراع... ماتت جدتي، بعد ذلك، تغيّر مذاق الدّنيا في فم جدّي، ماتت أمّي بعدها بقليل، فاختارني جدّي، من بين أبنائه وأحفاده، أثرا على قلبه، أنا معه في نفس الفراش، وأكل معه، ولا أفرقه إلّا لأمّا!!

[بليموث - الملهى الليلي: ليلة الخميس، ٩ تشرين الثاني ١٩٨٩]
ضغطت «كاترين» بيديها الناعمين أطراف أناملي الهامدة القاسية، فخشيت أن أرفع عينيّ، وأثبتهما على صفحة وجهها الفاتن الجميل؛ ظللت طوال الوقت شاردا، محمّلما بنظراتي، نحو نقطة غير محدّدة من صالة الملهى... صديقي «مرتضى» تركني حال وصولنا، وانضمّ إلى حلقة بعض الأصدقاء في الطّرف الآخر. بقينا وحيدين، أنا و«كاترين»، لم أحاول أن أسحب يديّ، وظلّت هي متشبّثة بهما في عناد وإصرار. كانت صالة الملهى كبيرة، بها أناس كثيرون، من جميع الأجناس، بعضهم تجمّعوا حول نضد صغيرة، رصفت فوقها، بطريقة فوضويّة، علب البيرة، بين فارغة ومترعة، وأخرى مازالت بها بقيّة، وأكواب كبيرة، رحة، مستديرة، بها أدوار من الوديسكي. وآخرون، وهم في الأغلب الأعمّ، فرادى، كانوا منبثّين هنا وهناك، لم يكن بادي علمهم الاكتراث للحديث الصّახب، وحالة النّشوة الطّافحة، المتربّصة في كلّ شبر من أرجاء الصّالة، هؤلاء نأوا بأنفسهم، انسحبوا، عن طواعية، بأجسادهم المرهقة، واتّخذوا أماكنهم على مقاعد طويلة أمام النّادل وراء القائمة. الباقون، وهم الكثرة، انضمّوا إلى حلقة الرّقص، التي كانت تكبر شيئا فشيئا، تحت أضواء الحلبة الملوّنة، اللّولبيّة، الدّوّارة...

مضت عشر دقائق، أورتما ربع ساعة على أقصى تقدير، و«كاترين» لم تقل شيئا. كنت بين الحين والآخر، استرق نظرات خلسة إليها، بعينين ملجلجتين، دون أن أفكر في تخليص يديّ من يديها، بعدما فشلت بعض محاولاتى السابقة في ذلك... هنا، مرة أخرى، يضعني القدر وجهها لوجه أمام قوّة غامضة، أحسّها في يدين جريئتين، ووجه ما يزال صامتا على جماله وإغرائه. «كاترين»... مثلي تماما، طالبة بمعهد «Saint Mark & John» العالي، تدرس الآداب الشرقيّة، وتستهوئها حكايات ألف ليلة وليلة، وعالم الشرق الغرائبيّ، أشعار العرب القدامى، وأدب التّرسل... التقينا على مفترق طرق، على مدى الانحناءات المؤدّية دوما إلى مكان ما، تعارفنا مذ تبادلنا الكلمات الأولى، جاءت من «Midlands»، إلى «بليموث» مخلفّة وراءها شريطا من الذكريات مع أبوين، هي وحيدتهما، في منزل ذي طابقين، يطلّ على الخضرة الغازية في كلّ الاتجاهات... ممشوقة القوام، شعرها مسترسل حتّى الخاصرتين، وعيناها الخضراوان تمتزجان بدكنة غامضة تذكّرني بمنظر السّنابل الطّرية، ذات الرؤوس المتوّجة، وسط الصّحراء، أوّل مرّة رأيتهما، وجدت نفسي أستحضر، دون وعي متّي، شريط ليلة كاملة من الكوابيس، والهواتف، والأصوات المهذّدة، المتوعّدة، عندئذ، انبثق في سرايب ذاكرتي اسم لفتاة كنت تعرّفت إليها، أو هكذا خيّل إليّ... «مارتا»، اسم لفتاة، عبر في لحظة ليست من الزّمن، في متاهة على أطراف العدم، حيث تختلط الأسماء والأشياء، ويطالعنا مستحيل لانهائيّ. لكن، ألا تكون «مارتا» هي «كاترين»؟ ألا تكون صورة طبق الأصل منها؟ كلتاهاما نبعتا فجأة، هكذا، وسط متاه، على طرفيه يتربّص الانتظار والتّوقّع، وحيث تتشابك الحقيقة والوهم، في عناق سرمدّيّ محموم.

فجأة، أحسست بيديها البياضوين، البضّتين، تضغطان أكثر فأكثر على يديّ في مداعبة لطيفة مغرية. ابتسمت، ولم أقل شيئا، وابتسمت ثانية، وأشاحت بوجهها ناحية الباب. قلت، وأنا أتصنّع القلق، وقلبي

من الدّاخل يتضخّم ويتقلّص دونما سيطرة:
- كم السّاعة الآن؟

التفتت إليّ بعينها الخضراوين الذّكيتين، وقد طغى على وجهها طيف من دهشة انتشر على وجنتها المخضبّتين بحمرة، وانعكس على شفّتها المكتنزتين الشّهيتين. ظلّت تتأمّلي دون أن تنبس. مرّت لحظات ودقائق ثقيلة خلتها دهرا، يرين بكلّكله عليّ. كان هناك كلام كثير على وجهها لم أفهمه، يكاد يطفّر من انفراج وشيك في شفّتها. هذا الكلام الصّامت يفزعني، يرهبي دائما... نظرت إلى أسفل، وجلت بعينيّ في أماكن غير محدّدة من الصّالة، الّتي بدأت تترأى لعينيّ المتعبتين كموجات من السّراب المتماوج. أردت أن أتحدّى الفراغ، لذت بالصّمت، احتميت بهدوء الاستكانة، التزمت صبرا مازوكيا قاتلا، ولم أنظر إليها، نظراتي قد تفضّحني أمامها، قد تعرّيني أمامها، فأنهزم مرّة، وإلى الأبد... شعرت بيديها ترحلان خلل خصلات شعري، تغافلت، اقتربت منّي أكثر، ولم أتزحج. أمسكت رأسي بكلتا يديها الناعمتين، قالت تسألني:

- هل أنت متعب؟

أجبت:

- جدّا.

وبعد قليل:

- مازلت أحنّ إلى الضّفّة الأخرى، ومكان غير هذا المكان!

قالت، وطيف ابتسامة حزين يرفّ على شفّتها:

- تريد أن نخرج... سيّارتي في الخارج؛ إلى أين تريد أن نذهب؟

- حيث تريدين. المكان هنا غير مناسب، ورائحة اللّحم الفائّر

تضجّرني.

قالت، وهي تصنّع روح الدّعابة والمرح:

- لا أعرف لماذا أشتّم فيك رائحة «سانت أوغسطين» وقلق

القديسين. أوّل ما رأيته تخیلتك وأنت في مسوح راهب، تضرب في

الصَّحراء، وبيدك عصا.

سألتهما:

- ولماذا العصا؟

أطرقت لحظة، وهي تحدّق في كلّ مكان من جسدي عساها تجد تبريرا مقنعا، ثمّ قالت:

- لا أعرف تحديدا، هي مجرد خاطرة عابرة؛ يروى في الكتب المقدّسة أنّ الأنبياء والقديسين كان يروقههم منظر العصا. موسى، مثلا، كان يحمل عصا معه، تصاحبه دائما ولا تفارقه؛ وبحيرى بجزيرة العرب كان يتوكأ على عصا. أمّا أنت فلا تختلف عن هؤلاء كثيرا، وقد تحمل عصا في يوم من الأيام؛ العبور إلى الضّفة الأخرى لا بدّ له من عصا!! ضحككت في قلبي بخبث، وقرّرت أن أفاجئها ببقية ذكاء مازلت أحتفظ به رغم الشّعور بالوحدة والحزن. سألت:

- وهل أنا قديس أو نبي؟

- قد تكون قديسا أو نبيا من نوع آخر: المهمّ أنّي تخيلتك هكذا في لحظة من اللحظات.

قلت، وأنا أواجهها تماما، وقد تفاديت النّظر إلى وجهها مباشرة، فأحترق بنار عينها:

- كنت قديما أعبد الأصنام وأتقرّب إليها؛ في كلّ يوم، أكتشف فيها سلطة جديدة، واستبدادا جديدا. أمّا الآن، فقد أمسكت عن الإيمان. عصرنا عصر الكوابيس، والهواتف، والأحلام التي تخاطبك من وراء الذاكرة في صمت.

اعتدلت «كاترين» في جلستها، وقد بدا عليها شيء من الاهتمام المشوب بطيف ساخر، يتجمّع فجأة ويتراكم، ثمّ ما يفتأ أن يختفي كسراب مباغت. قالت:

- لعلّي أنا أيضا كنت أعبد الأصنام، أحنو عليها، وأنزلها من نفسي مكانا أثيرا، عصيا على الفهم أو الإدراك. على كلّ حال، عبدة الأصنام

أُصدق من غيرهم، يحبّون بصمت، يعشقون بصمت، ويدافعون عن
أنفسهم في عبادتهم لتلك الحجارة الصّلبة الصّماء!
قلت، مضمرًا استفزازها كي تمضي في الحديث أكثر:
- أنت إذن تؤمنين بشرق مدّس، ترتفع فيه الحجارة بدل الصّلبان،
والصّمت بدل المزامير؟
قالت، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة عذبة:
- ليس تمامًا: حتمًا أوّمن بالشرّق، فشرق العصيّ الطّويلة يغريني!!



في صمت، كنت أقرأ، أسترجع ما فات وعبر، ما ولى واندثر، ما حدث، لي، أو لشخص آخر غيري ربّما، لا أدري تحديدا؛ مشمولاً في قعدتي الساكنة، هناك، محاصراً بين جدران سور المقبرة، بوحدة ممضّة، رغم وجود ذلك الرّجل، الذي لا أعرف عنه شيئاً، بجاني، وموارباً، منطويّاً في حلقة وحشة ثقيلة، لا تريم. كانت الأوراق، بين يديّ، كثيرة، لا تحصى، لا تعدّ، أكثر من أن يتّسع ذلك الوقت القصير المتاح لقراءتها كلّها؛ أكوام، رزم، وريقات صفراء أقرب إلى مخطوطات قديمة متأكلة، وريقات أخرى تأكلت في أطرافها، وصار تمييز حروفها المندغمة أمراً مستحيلاً، أشبه بالمعجزات، أسئلة شتّى، ضاحجة، مؤرّقة، فارت بداخلي، وخضّت دمي خضّاً. أعترف - سيّداتي، أوانسي، سادتي. أنّي اضطربت كثيراً، فقدت توازني فجأة، وأصبحت مشبوحاً، متلاشياً، على حدود نقائض غريبة، بين شكّ سافر، ويقين مشكوك في ثبوته، مموّه في حقيقته. أين تراه عثر على تلك الأوراق؟ أين وجدها؟ كيف ومتى حصل عليهما؟ والبطاقة التي سلّمنيها، هل يكون وجدها مع الأوراق، أم اكتشفها مرميّة في زاوية ما، في ركن ما، رغم استحالاته وبعده واختفائه الحصين، فقد قادته الصّدفه إليه ودلّته عليه؟ قلت، ببني وبين نفسي، وقد نطّت بغتة في مخيلتي تلك البئر بفناء دارنا في ذلك البيت العتيق، قد يكون هو أيضاً رأى ما رأى، جاءه الهاتف ليلاً وألقى في روعه ما ألقى، وبعد ليالٍ أرق مضنية هداه إلى طريق بئر في مكان ما، حيث تمكّن من الحصول على هذه الأوراق. أليس ممكناً أن يحصل له ما حصل لي؟ حكايتي مع جدّي، عفوا، مع من كنت أحسبه جدّي، تتكرّر؟! ضحكت بمرارة، داخلي، وهممت، في لحظة ضعف وانهباء

وتحسّب، أن أبنته تساؤلاتي، إلا أنني تراجعت أخيرا أمام ابتعاده القصي، على قربه، وسهومه وراء حلقات دخان سيجارته... ركنت الأوراق جانبا، لم أرّتها، ولم تكن لديّ نيّة إرجاعها إلى المغلف ثانية، كنت أريد فقط أن أستريح قليلا، أن يهدأ خاطري، وأن أطرد أسراب تلك الأطياف المخيفة، التي كانت تحوم حولي كأنها تروم افتراضي... عدّلت جلستي، وصالت رجلي، ثم تناولت علبة سجائري، هديّته، وأخذت سيجارة أشعلتها. أمسكتهما لحظة بين وسطاي وسبّاتي أنظر إليهما بلذّة، وتشّة، قبل أن ألثم نسغها. قلت: كم كانت ستغدو الحياة فجّة، بلا طعم، لولا هذه اللّفائف البيضاء؛ وحينما جذبت النّفس الأوّل، قلت:

- حقّا ما أشهاها!!

هل سرحت أنا أيضا؟ هل شردت؟ أين ألقت بي عصا التّرحال يا ترى؟ وهل مقدّر على كلّ من يتعاطى لذّته ولذّتي أن يضرب بعيدا، أن يوغل في مجاهل تيه لا يحدّ، تبتعد به عن محسوساته الملموسة إلى مكنوناته المدركة، وتعيده إلى نفسه، إلى باطنه الهادئ، الزّاكّد، المؤجّج في تحفّز. على كلّ حال، هذا ما قاله ذلك الرّجل، صاحبي... رغم قربنا، حيث لم تكن تفصل بيننا سوى خطوات معدودات، هو على الصّخرة، وأنا قبّالته، ورغم ما صار يجمع بيننا، ولا يهّم في ذلك كثيرا إن كان الرّابط معقولا أو عكس ذلك، فقد التزم كلانا، على امتداد اللّحظات التي كانت تتمطّط بارتخاء، والتي استتبعّت تسليمه إيّاي الأوراق وقراءتي لبعضها، التزمنا صمتا أخرق، لم أقل فيه شيئا، ولم أستشعر الشّجاعة الكافية لتحطيم ذلك الحاجز الحادّ القائم بيننا، ولم يقل هو الآخر شيئا، وأظنّه لم يكن راغبا، حتّى ذلك الحين، في ربط جسور تواصل جديدة بيننا. فرغ كلّ منا لسيجارته، يداعبها بين أنامله، يلثم بياضها، يستكنه سرّها، ويناجيها، كما لو كانت آخر حصن يعتصم به من وطأة الواقع، وكرور السّنين؛ هل تصدّقون، أيّها السّادة الكرام المحترمون، أنّ بيبي وعالمي وصاحبي وعالمه قرون تطوى. وأماد

تعبر؛ وأننا رغم كل ذلك، يواجه أحدها الآخر، متقابلين، متأكدين، غير شاكين، على الأقل من جانبه هو، أننا نلتمي لنفس البقعة، وتحدنا نفس المدة وتمام العدة. لم يقتنع بكلامي المشتت، المضطرب، الحائر، ولن يقتنع أبدا بأي كلام يمكن أن أقوله لدحض مزاعمه، لنبذ مراميه، حرون، متسلط، لا يثنيه دليل، ولا تعقله حجة، الدليل ما أدلى به هو، والحجة ما قدمه على أساس أنه الحقيقة الدامغة. فهل بعد كلامه كلام؟ وهل بعد فصل خطابه فصل خطاب؟ أنست، غير مزة، رغبة في الاحتجاج، في المشاكسة، أو التحدي، وصفت، أكثر من مرة، أسلوبا لا يترزعزع في الهجوم، إلا أن الوهن ينتابني في اللحظة الأخيرة، وتموت بدايات الحديث على شفقي المتعبتين الحائلتين. يقول: «هذه البطاقة، هذه حجة، دليل لا يرد، فكيف لك أن تدحضه أو تردّه؟ ولنفترض جدلا أن البطاقة مزورة، ليست لك، وإنما هي لشخص غيرك، فما بالك بالأوراق، هه؟» هنا، يسفر وجهه، وتكتسي ملامحه تحديا شيطانيا، وتلوح على شفثيه ابتسامة غامضة خبيثة، كأنها تقول: «إنّي أتحدّك، إنّي أراهنك، صراحة، أن تدحض حججي، فهي لا تقبل نبذا أو شكّا!» يضيف إذ يلمح انفراجا عفويا، غير مقصود، في شفقي، نتيجة الدهشة والحيرة:

- لا يمكنك أن تنكر، أنّها لك، مكتوبة بخط يدك، وممهورة بتوقيعك... حيّ السّاروجة، بليموث، ألا تعني لك هذه الأماكن شيئا؟ إنّها، بكل بساطة، شواهد لا تحتمل الشكّ، على انتمائك!

بداخلي أصوات تتناوح، تمتدّ، ترتخي، نهايات مشرشرة كأسنان المنشار، وفي شراييني دم يغلي كالمراجل، تفركه حيرة قاتلة لجوج، لا تكفّ، تتمسّح به، وتعطلّ أحيانا سريانه، بفجاجة وقحة، وهناك، بعيدا... بعيدا جدّا، بين نتوءات أغوار المظلمة المهمة، كانت ترسم بهدوء بقايا صور، بل صور بأكملها، غير أنّها غائمة، غامضة نوعا ما، ما تكاد تبين حتّى تختفي، وتتلاشى مرة أخرى، ثم تعاود نفس الرحلة

الخطرة من جديد، عود على بدء. ماذا تراها كانت تحمل لي بين ثناياها، وبين طياتها؟! ولماذا لا تسفر عن جلاء، عن وضوح؟! هل تقصد بذلك زيادة التّشويش، والتّمويه، لطمس معالم رؤية محتملة؟! أنا، في الحقيقة، ما زلت لا أفهم شيئاً، رغم كلّ ما سمعت، وكلّ ما قرأت، ورغم استعدادي الفطريّ، وميلي الضّابط، ميل المشفي على الغرق، إلى من يمدّ له يد العون، ينقذه، يحنو عليه، يبادله ولو مجرد الكلام، على أنقاض متاهة، لا رفيق له فيها، ولا صاحب، بعد ذهاب الأهل، ورحيل من يمتّون إليه بصلة حميمة، وسبب كان يظنّ إلى آخر لحظة أنّه لن ينقطع أبداً، مهما ران الوقت بثقله، وألحّ بإصراره واصطخابه الزّمان... الصّور، تلك الصّور، التي كانت تغيم مرّة، وتمّحي مرّات، قد تكون تندسّ بين جنباتها اللّامرئيّة ملامح ذلك العالم القصيّ، المويّ، الّذي ربّما أكون فعلاً خلفته ورأيي: الحيّ، الحارة في الحيّ، البيت وسط الحارة، العائلة، أفرادها فرداً فرداً، ذكريات تضوع منها رائحة القدم، السّفر الاضطرابيّ، تلك المكبوتات المحاصرة. ورحلة الصّيّد الخطرة في كلّ ليلة، وكلّ شيء؟! لكن، ما بالي أعتنق هذه اللّهجة الجديدة فجأة، اتّخذها قرينة من قرائن صوتي الماسّة، المتاخمة! هل أكون قد اقتنعت حقيقة بما انتثر فوق هذه الأوراق؟ أم هي إعادة القراءة جعلت كلّ هذه الكلمات والأفكار تنطبع في ذاكرتي بكلّ هذه القوّة، وهذا الإصرار الملحّ؟ غير أنّ الذاكرة تطغى، تفور، تضحّج، تفيض عن إنائها، وهي من القوّة والصلابة بحيث لا تدع مجالاً لحذر أوروبية، بأنّ ما قرأته، في هذه اللّحظات المنسيّة، لا يمكن أن يكون، في الحقيقة، إلّا ما وقر في الفؤاد منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وأني رغم بعد المسافة، وإيغال الشّقة، أشعر بإحساس ينبع داخلي يقول بتأكيد أنّي فعلاً كنت طرفاً في كلّ ما حصل، كلّ ما وقع، وما القراءة، هذه اللّحظات من القراءة، إلّا مثير من شأنه أن يستدعي الأحداث، ويستحضر التّدايعات... الصّور، تلك الصّور، ألا يكون بين عناصرها، ما يدعوني إلى الحفاظ على مسافة

أمان، ببني وبين هذا الرجل القاعد قبالي، وببني وبين ما قرأت؟ أنا، حقيقة، مازلت لا أفهم شيئا رغم كلِّ ما حدث، فمن أصدَق؟ ذلك الصَّوت بداخلي، أو ما هو مكتوب على الأوراق؟

أسمع الصَّوت يقول لي بحياد ظاهر، وتحريض مضمر:

- فكّر قليلا قبل أن تتورّط، لا تسلم بكلِّ ما هو مكتوب أمامك، قد يكون مزوّرًا، ثم لا تنس أن هذا الرجل الَّذي طلع عليك بحضوره بغتة، والَّذي لا تعرف عنه شيئا تقريبا... هذا الرجل بينك وبينه ذكاء أربعة عشر قرنا. هل تدرك معنى ذلك؟ الذكاء ليس هدفا في ذاته، غاية، قد تروم الوصول إليها، وتتوقّف عندها. هو أكثر من ذلك بكثير، وسيلة إلى غايات أجلّ وأعظم. سلاح ذو حدّين كلاهما حول رقبتك مستعدّ للإطباق عليك في أيّة لحظة. ألم تفكّر أنّه ربّما زوّر على لسانك كلاما، أيّ كلام، مثل هذا الَّذي قرأته في الأوراق، هذا سهل جدا، ولا يتطلّب كبير جهد أو عناء!!

وعندما تصدمني لهجته المحايدة القاسية، ذات الوتيرة الواحدة، تحفّز للوثوب به، والهجوم عليه، أسأله بحقد:

- لنسلم جدلا بما قلت، ولنعترف أنّ كلّ ما قرأته مزوّر، فما شأن الكتابة نفسها، والخط الَّذي كتبت به الأوراق، هل هو مزوّر أيضا؟! حينئذ، يتعالى ضحكك، وهو يضحك كله براحة سخرية مقيئة مقرفة، ويقول:

- اعذّرني إذا قلت لك إنك غيّ، ما يزال الكثير من الأشياء بعيدا عن متناول يدك.

ويصمت قليلا، بل يسكن تماما، كأنّه يللم شتات كلماته المبعثرة، أو ينتظر ليرى أي ردّ فعل من جانبي، فإذا ما تأكّد من صلابة الأرض تحت قدميه، وأن لا خطريته دده، انفجر ثانيا، معريدا، مدويا، صارخا:

- لتعلم إذن أنّ هناك شيئا اسمه التّطابق، والتّطابق هو التّماثل التّام شكلا ومعنى، فكما أنّ هناك تطابقا في الأسماء، وفي الملامح، وحتى

في الخطى، وطريقة الإيحاء، فهناك أيضا تطابق في الخطوط. وهنا أقول إنَّ التَّطابق أو التَّشابه قد يبلغ حدًّا أو مبلغا يصعب معه، في أغلب الأحيان، التَّمييز أو التَّفريق، فلا تعرف هذا الشيء، مثلا، لشخص معيّن أو لصنوه، ولا تعرف إن كان هذا الخطّ للجاحظ أو لعبد الحميد، وكلاهما علما في علمهما، فريدان في عصرهما، ضليعان لا يشقّ لهما غبار، وقد ضربت هذا المثل على سبيل التَّمثيل، غير قاصد إلى تَوْحّي الحقيقة الصَّراح. ثمّ لتعلم أنّ قداسة هذا الماضي الذي تعيش فيه، مضيقا عليك فيه، بين أركانه وزواياه، قد انتهكت حين تطاول عليها الأمد، وقد أصبحت بعد مرور أربعة عشر قرنا، عرضة للتَّنقيب، والبحث، والتَّمحيص، والنَّقاش، والمساءلة أيضا. كتب الأولين، رقايعهم، مجلّداتهم، مخطوطاتهم، لم يسلم شيء من عبث أيديهم، حقّقوا، حلّلوا، ناقشوا، نشروا، ثمّ أعادوا النّشر مرّات ومرّات، وأنا لا أستبعد أن تكون إحدى مخطوطاتك، وهي كثيرة، قد وصلت عرضا، وبمحض الصدفة، إلى هذا الرّجل ففكّ رموزها، ونشر مفاتيحها مفتاحا مفتاحا أمامه، ثمّ، بعد المثابرة، توصّل إلى تقليد الخطّ، أو استأجر من يموّهُ له، ولم يبق أمامه إلّا صياغة الحكاية، وحينما حبك خيوطها، صبّها في القالب المذكور أنفا، فطلعت الأوراق كما ترى.

كان يتكلّم، وكنت في الظّاهر أستمع إليه، غير أنّي لم أكن أعي شيئا ممّا يقول، شيء واحد علق بذهني، وناء به فكري، فسألته وأنا أنتفض كأنّي مجذوب يفيق من إحدى شطحاته المفاجئة:

- لكن، ألا تخبرني كيف وصل هذا الرّجل إلى هنا؟

لم يجب فورا، كما لو كان لم يتوقّع هذا السّؤال الَّذي قد يكون باغته، على حين غرة. كان عليّ أن أنتظر لحظات أخرى، نزولا عند صمته الَّذي بدا محيّرًا، متحدّيًا. في لحظة ما، سمعته يضطرب داخلي، قال، وقد تخلّت لهجته هذه المرّة عن حيادها المقيت، وبدأت تكتسي شيئا من الاهتمام والجديّة:

- لو كنت سألته، لربّما عرفت الإجابة منه، هذا إذا لم يكذبك القول.

ثم أضاف سائلا بعد هنيئة:

- هل سألته كيف جاء؟ وعن الوجهة التي جاء منها؟

ولم يمهلي، لم يعطني حتّى فرصة سماع الأسئلة واستيعاب مكنونها. قال بنيرة رجراجة، مراوغة، تفتقر إلى الدقّة، وإلى كلّ مؤشّر تقريريّ:

- قد يكون جاء من الشّرق، من المتاه، عبر القفر المترامي الفسيح، ألقت به رمال الصّحراء إلى قساوة البادية، ولا يستبعد أن يكون من هذا شأنه، ووقع له مثل ما خمنته من ولوج أبواب المغامرة، وطوّحت به السّبل غير المؤدّية، من قفر إلى مهمه، وقادته المسالك المخوفة، من سهل إلى مرتفع، ومن نجاد إلى وهاد، دون أن يتعرّض إلى مكروه، أو يصاب بسوء، أو نازلة، لا يستبعد أن يكون مثل هذا حاملا للسّرّ الأعظم، ولا يهولنك ما بينك وبينه من انقضاء المدّة المعلومة، وهي، كما تعلم، فسيحة غير يسيرة، ومضيّ العدّة، فلطالما سمعت من ثقات وقرأت في أمّهات المصادر وعيون الأدب عن أناس مثله، عبروا من ضفّة إلى ضفّة، واتخذوا مسيرا لأقدامهم مسارب شقّة أفضت بهم إلى شقّة أخرى، أكبر وأبعد، هناك، عرفوا أشياء، ما كان لهم أن يعرفوها لولّد لهم طيب المقام، ولم يستهزم دأب المعرفة والتّرحال، وأيضا اندفعوا وجزّبوا، خبروا عادات أناس لا يمتّون إليهم بصلة أو نسب، تزوّجوا منهم، وعاشوا بينهم، كلّ ذلك والزّمان خلاف الزّمان، والمكان خلاف المكان، ساعدهم في ذلك وهج السّرّ وغموضه، تمكّنه، علوّه، شموخه، وقد يكون للرّجل تابع أو تابعة من الجنّ، دلّه، وهداه إلى تشابك الدّروب، ووضوح المحجّة، وقد يكون من السّحرة، المهرة، المتمكّنين، ذوي الوساطات، والمكانة الوطيّدة، ذوي القيافة والكهانة!!

ذلك الشّيء في الدّاخِل، صوته ينغل في دمي، يربكني، ولا يتوقّف

أبداً عن إثارتي، يجعلني أشك في كل شيء، حتّى في أكثر الأشياء بدهاءة عندي، تلك الأشياء التي كنت إلى حدّ هذه اللحظة أكثر اطمئناناً إليها من كل شيء عداها. صدّقوني، منذ تلك اللَّيلة المشؤومة التي كتب عليّ أن أعاني خلالها عذاب إنكار جدّي لي، وحدّته الصّارمة تجاهي، وأنا أحسنّ كأنّ أرضاً بأسرها تميد تحت قدمي، فتجبرني على السّقوط، وما من معين، أو منقذ في كلّ ذلك، وحيد، معزول، مستوحش، ومنقطع به أيضاً، فلا أهل، ولا صحبة، ولا رفقة. أصبحت أتصرف عفواً، دون ثبات أو رويّة، تعوزني الحيلة وسلامة النّيّة والرّأي، فكثيراً ما صرت أفعل الشّيء وأنا أقصد إلى نقيضه، وكثيراً ما سعيت في خير، فوجدتني أتهدى في قاع عميق بلا قرار. هل ضيّعت المسلك؟ أخطأت الاتجاه؟ شيء غريب، حارق، مؤلم، يتسرّب تحت جلدي، يزوغ متّندا، أشعر به يوغل بين فجوات عمودي الفقريّ، ويمضي صعباً، فيستقرّ في قمّة رأسي، ويلج بعنف حصانة التّلافيف الرّقيقة الغافية، يصبح قشعريرة سارية تخضّ كافّة جسمي ومسامي، وتناوئ بثقلها كلّ إلى راحة يدي، تتركّز بين إصبعي، الوسطى والسّبابة، لم أعد قادراً على التّفكير، انهارت مداركي على غير توقّع، ضيّعت التّركيز، ضعفت، كانت بدايات الأفكار تموت قبل أن تتشكّل، تجهض قبل أن تولد، وكنت أشعر كأنّي على تخت من نار، أتقلّى، أتعذب، دون سبب ظاهر، أو واضح، كان الألم يزداد عنفاً، يزداد عمقا، وإيغالاً بين الأتون، فقدت السّيطرة، ضيّعت المسار، لم أعد قادراً على التّحمل، أو المقاومة، صرت هشّاً، والألم لا يتوقّف، يزداد قوّة، دائماً في سريان، صحت، دون وعي، تطلّعت إلى يدي، كادت النّار أن تتأجّج في أصابعي، فتأتي عليها، رميت عقب السّيجارة، كانت السّيجارة تشتعل، ومن فرط اضطرابي واستغراقي، نسيتها فأحرقتي. اللّعة!!

قال الرّجل، وقد كان صامتا طوال تلك الفترة:

- ما لك تصيح؟ ما الذي أصابك؟ هل وقع شيء؟ حدث مكروه؟

رمى هذه الكلمات دفعة واحدة، وكما نطق صمت مرّة أخرى، كأنّه يتحدّث إلى شخص آخر، غيري، ولا تعنيه الإجابة عن الأسئلة، بقدر رغبته في الاطمئنان إلى وجود مصاحب، أو جليس. هو، ربّما، لن يستأنف الحديث، لن يصل البدايات بالنهايات إلّا إذا قرأت الأوراق كلّها، وإلّا لماذا يصمت كلّ هذه المدّة؟ لم تكن هذه عادته، منذ أن بدأ كلامه إليّ، كان فيفيض، يسهب، يدقّق، ويصف كلّ إيماءة، أو خلجة من الخلجات، أو شعور عصيّ، أغلب الأحيان، على الفهم، رغم تعاقب الحجج، وتباعد الفجوة. هل يوجد شخص، مهما بلغ حضور بدايته وقوّة عارضته، يستطيع أن يحتفظ بأنّيّة مشاعر وأحاسيس مؤلّية، وأحداث متباعدة، دابرة، رغم طيّ القرون وإيغال الحقب والسنين؟ هل يوجد مثل هذا الرّجل حقّا؟!؟

مددت يدي إلى الأوراق بجاني، وأخذت ورقة دون انتقاء، أخذتها بأطراف أناملي، وقربتها بطريقة متأنّية حذرة، وضعتها في مواجهة وجهي تماما، وبخلقت عينيّ فيها، لم أتبيّن غير غبش خفيف كان يلفّ الحوافّ، ويكتنف السّطور التي ما عادت سطورا، وإنّما مجرد آثار باهتة، كدبيب خطى النّمل على الرّمّل. إذ ذاك فقط، تذكرت قعدتنا، وما مضى علينا من وقت، ونحن منفردان، بعد أن رحل المشيّعون، وأهالوا التّراب على جثمان ذلك الميّت الغريب. تأملت صاحبي مقابلي، كان ما يزال مستغرقا كأنّه صنم أو تمثال، لم تندّ عنه حركة أو إيماءة، حتّى أنّه لم ينبس. ملت برأسي عنه قليلا، وأدرته بين الجهات، لفحت وجهي طراوة محبّبة، أغمضت لها عينيّ، ورحت أخترن النّدى في رثيّ المجهدتين، عبر خيشوميّ. هذا منظر اللّيل، أوائل اللّيل دون شكّ، وما أروعه دائما! فتحت عينيّ، وجلت بهما حولي، أمامي، وراني، كانت الأرض غارقة في شبه ظلمة، لم تلمس معالمها تماما، غير أنّها ألقت عليها ستائر رقاقا راحت تدثّرهما، وتداعب مناطق سكونها بإغراء، فمرة تلثم امتدادها، ومرة تتعلّق بنحرها، ومرة ثالثة، تمتدّ، باستطالتها، على سناها كأنّها

تروم الإغفاء أو التّوم، لم يكن القمر قد ظهر بعد... الأفق غدا قريبا، غاية في القرب، حتّى ليخيّل إليّ أنّي أستطيع أن ألمس صفحته بأطراف أصابعي، حمرة مشوبة بألوان شتّى، تطفئ عليها كلّها دكنة غامضة ساحرة، قد تبدولمن يراها بركة تجمّع فيها ألق دم مسفوح، يفور لذّة وتشهّيا، كما لو كان يغري بالانجذاب إليه، والغرق فيه، وقد ازداد رونقه، وروعة بهاء، بانعكاس وميض نجيمات تائهة عليه، ترفّ، تومئ، تشير في اضطراب، بأعينها الصّغيرة القميّنة، كأنّما تغمز، أو تستعدّ لولوج منافذ السّرّ عبر علاقة حميمة في انسياح المدى. ومن حين لآخر، كانت تعبر بعض سحبات بيضاء، سوداء، رائحة غادية، تتجمّع أحيانا، تتضامّ، تتحدّ، ثمّ تتفرّق فجأة، تتلاشى، ثمّ تختفي، لتظهر من جديد في أماكن أخرى أكثر بعدا، لتكرّر نفس اللّعبة، تتبع نفس المسار، إلى مصيرها المحتوم. هل كان المنظر سيغدو أجمل بظهور القمر؟ هل كان سيدثّر الجميع بدثار سفوره الأسر الجذّاب؟ بلى، هو ذا ييزغ ناحية الغرب، طابة مستديرة، في هدوء سكونها، لا مقرّفة ولا مذمومة، تمّهادى في خيلاء، هنا وهناك، توحى ببداة مواسم، وذكرى مواليد، ضاحكة، تبثّ الضّياء، وتنشره فوقنا، بجانبنا، أمامنا، خلفنا، وفي كلّ مكان... عندما قرّبت الأوراق مرّة ثانية، بدأت السّطور تتّضح، تبين، وتسفر. قرأت... قرأت... قرأت... ولم يمض وقت غير قصير حتّى انتهيت. إنّها كثيرة!!

قلت، محاولا إخراجه من دائرة سكونه الشّاملة، وشدّ انتباهه إلى فتنة الكون اللّيليّة التي طفحت بها أرض المقبرة من حولنا:
- ألا ترى إلى ذلك الأفق الغارق في حمرة الزّاهية، وذلك القمر الكبير المستدير؟ إنّهُ ليكاد يتكلّم، انظر إليه!

نظر إليّ بعينين زائغتين، وتأمّلي لحظة، كأنّه أت من مكان موغل في البعد، غريب الملامح، ثمّ رنا إلى حيث أشرت، مومنا بسبّابتي، وظلّ بصره حيننا معلّقا بالقمر الذي كان قد توسّط كبد السّماء؛ قال مؤمنا:
- حقّا، إنّ كلّ شيء رائع ههنا؛ في حياتي لم أر أفقا بكلّ هذه الحمرة،

أما القمر فنادرا ما كنت أتطلع إليه، ولم أذكر يوما أنني افتتنت به؛ اليوم أراه جميلا، رائعا، طاغيا!

ثم صمت برهة، اتجه خلالها نحوي، وقال متسائلا:

- هل أنهيت قراءة الأوراق؟

أومأت برأسي دلالة الإيجاب.

قال وهو يحك ذقنه، وقد بدأت تطفو على ملامحه سحابة من

الحزن:

- إن شينا غريبا أحسّه ينتابني الآن، ولم يكن لي عهد به من قبل،
ربما أثارتَه داخلي روعة المكان وفتنته...

قطع كلامه بغتة، ظلّ صامتا مدة، اشربّ ببصره إلى نقطة غير
مرئية وسط المدى الرّحيب، ثم قال مواصلا:

- إنّي، وإن كنت جئت موفدا إليك، لأعدل بك عمّا أنت فيه،
وأقنعك بالعودة، ناصحا لك ومشيرا، فإنّي أحسدك، بداخلي، على ما
أنت فيه... هناك، نادرا ما يخلو الإنسان إلى نفسه، في أويقات صفائه
وفراغه، يمرّ به الوقت ثقيلًا، رتيبا، له وطأة أشبه بثقل الموت.

اغتنمت فرصة تدفّقه في الحديث، وتخلّيه عن حياده وفتوره،
فقلت مشجّعا:

- قد يكون ما تشعر به السّاعة هو الحبّ!

عندئذ، نظرت إليه بتحديد، لأرى أثر كلماتي على صفحة وجهه. كان
وجهه مغلقا، صامتا، ترفرف عليه مسحة حزن شفيفة، لا تكاد تبين؛
قلت أسأله:

- هل أحببت في حياتك؟

قال:

- كثيرا.

ثم:

- أحببت بعدد المرات التي قرأت فيها عن الحبّ، غير أنّه لا حظّ لي

فيه ولا نصيب. كان الصّدود جزائي دائما. مرّة، أحببت فتاة في الحارة، وهمت بها حدّ الجنون، صارحتها، لم تصدّني، بقينا هكذا أيّاما، نتواعد على اللّقاء، نلتقي، تضمّنا خلوات، نناجي بعضنا، نشرد بعيدا، نبي بيتنا، نقيم الأسوار. ونزرع الورود في حديقة حبّنا... في يوم من الأيام، وإنّي لأذكر هذا اليوم جيّدا، لما أصابتنى فيه من خيبة، وطالني فيه من ألم، جاءت، على غير العادة، جهمة الوجه، كالحة الملامح، أقبلت، فادبرت، وانثنت فولّت، خاطبتها، تبسّطت معها، خفضت لها جناحي، ورققت لها لهجتي، بعد عناء قالت بحدّة وصرامة: «إلى متى سنظلّ هكذا؟ ما هي نهاية هذا الحبّ؟» فوجئت، ألمني صوتها، جرحتنى كلماتها، قلت لها إنّي لا أقصد سوءا، ونيتي سليمة، وكتعبير عن كلّ ما ذكرت، قابلت أباها، طالبا يدها، رازني، قبل أن يدعوني إلى الجلوس، من رأسي حتّى أخمص قدميّ، صعد نظره فيّ مليّا، لاحظت أطياف ازدياء بادية على وجهه، ومع ذلك، تحمّلت، من أجلها يهون كلّ عسير. جلست حينما دعاني، مطأطئ الرأس تأدّبا، شابكا أصابع يديّ، كنت، بين الحين والآخر، أنظر إليه من طرف خفيّ، قال: «اسمع، يا ولدي، الزّواج مسؤولية، مسؤولية صعبة جدّا، وثقيلة، تنوء بها الجبال، وأنت تريد الزّواج بابنتي، تريد الاقتران بوحيدتي، فلذة كبدي. هل تعرف ما معنى هذا؟ طبعا، لا تعرف!! اعلم، يا بنيّ، أنّ ابنتي مهرها غال، بل غال جدّا، المقدم قدر معلوم، والمؤخّر قدر معلوم أيضا، هذا عدا القلادة، والإسورة، والخاتم، وكلّ ذلك طبعا من الذهب الخالص، المطعم بفصوص من الحجارة الكريمة، وعليك أيضا بالبيت، ويشترط أن يكون مستقلاّ، رحبا، أربع غرف، وصالة، وبيت حمّام، ومطبخ، ومرافقهما. لا أريد لابنتي أن تعيش الحرمان، لا أريد لها أن تعيش الخصاصة، من أوّل يوم الزّفاف، سيكون لها بيتها، بيتها لوحدها، لا يشاركها فيه أحد، بأثاثه وملحقاته، وكلّ ما يلزمه من تبييض، وتنجيد، وتغليف... كنت أسمع، أنصت غير مصدّق، تلقّني ذلّة وصغار، وعندما خرجت من بيته، لم أكن قد يئست بعد، بعث كلّ

طارف وتلبد، بعث ما خفّ حملة وغلا ثمنه، وبعث ما لا ثمن له، بعث الأرض أيضا لأتدبر أمر المبلغ، اقترضت من هذا، ومن ذاك، وبذلت ماء وجهي، لمن لا يستحق، لكفّي لم أوفق، بآء كلّ مساعيّ بفشل ذريع، ومات ذلك الحبّ الكبير بداخلي، هي لم تنتظرنني، لم تشعر بتضحيتي من أجلها، ونزّوجت في أقرب فرصة!!

أضاف، بعد لحظات، وقد تجلّت في صوته نبرة عزاء:

- على كلّ حال، لست أنا أوّل من كابد آلام الحبّ، وقاسى مرارته؛ كثيرون غيروا ناءوا بحمله، وذاقوا في سبيل من أحبّوا الأُمّين، منهم من التاث، ومنهم من قضى نعبه، وطائفة أخرى عاشوا مهدودي الحيل، في حال لا يحسدون عليها، بين الحياة والموت. سألته، وكنت نصف هازل، نصف جادّ:

- هل قرأت «مصارع العشاق»؟

قال:

- بلى قرأته، وأظنّه للشيخ أبي محمّد جعفر بن أحمد بن الحسين السّراج القارئ؛ غير أنّ الزّمن أنساني أكثر ما جاء فيه، فلم أعد أحفظ أخباره لفظا، وإن كنت أحتفظ في ذاكرتي ببعض معنى مجمل منه.

ثمّ، سائلا:

- هل تحفظ بعضا ممّا جاء فيه؟

قلت، وأنا أرنو إليه:

- ولئن تريد أن تسمع من العشاق؟

قال:

- تستهويني أخبار جميل؛ لعلّه كان أقرب الجميع شيها بي، وما زدت فمن عندك.

قلت:

- سأورد لك في البداية أخبارا في معنى العشق...

قال الشيخ أبو محمّد السّراج القارئ:

أخبرنا أبو عليّ محمد بن الحسين الجازريّ بقراءتي عليه قال: حدّثنا أبو الفرج المعافي بن زكرياء الحريريّ، قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرّي قال: حدّثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال: حدّثنا أبو العالية الشّاميّ قال:

سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهتمّ بها قلبه، وتؤثرها نفسه. قال: فقال له ثمامة: اسكت يا يحيى إنّما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو في محرم صاّد ظبياً أو قتل نملة، فأما هذه فمسانلنا نحن. فقال له المأمون: قل يا ثمامة، ما العشق؟

فقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكة لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها، وقود تصرّفها، توارى عن الأبصار مدخله، وعمي في القلوب مسلكه.

فقال له المأمون: أحسنت والله يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.

وقال الشّيخ القارئ أيضاً في رواية عن ماهية الحبّ:

أخبرنا أبو طاهر محمد بن عليّ العلاّف بقراءتي عليه قال: حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان المروروذيّ قال: حدّثنا جعفر بن محمد الخالديّ قال: حدّثنا أحمد بن محمد الطّوسيّ قال: حدّثني عليّ بن عبد الله القميّ قال:

قال لي عبد الله بن جعفر المدينيّ قلت لأبي زهير المدينيّ: ما العشق؟ قال: الجنون والدّلّ، وهوداء أهل الظّرف.

وقال:

أنبأنا أبو بكر أحمد بن عليّ الحافظ إن لم يكن حدّثنا قال: أخبرني أبو الحسن عليّ بن أيّوب القميّ الكاتب بقرائتي عليه قال: أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران قال: أخبرني المظفر بن يحيى قال: قال بعض

الفلاسفة: لم أرحقاً أشبه بباطل ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزله
جدّ وجدّه هزل، وأوّله لعب وآخره عطب.

وقال أيضاً:

أخبرنا أبو القاسم عليّ بن المحسن التّنوخيّ قال: وأخبرنا أبو عمر
محمّد بن العباس قال: حدّثنا أبو بكر بن المرزبان قال: قال سقراط
الحكيم: العشق جنون، وهو ألوان كما أنّ الجنون ألوان.

وقال:

أخبرنا أبو بكر أحمد بن عليّ الحافظ بالشّام قال: حدّثنا رضوان
بن عمر الدّينوريّ قال: سمعت معروف بن محمّد بن معروف الصّوفيّ
بالريّ يقول: سمعت أبا بكر الصّينيّ يقول: سمعت إبراهيم بن الفضل
يقول: سمعت يحيى بن معاذ يقول: لو كان إليّ من الأمر شيء ما عدّبت
العشاق، لأنّ ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار.

وقال:

أخبرنا أبو بكر أحمد بن عليّ الحافظ قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ بن
أيّوب القميّ قال: حدّثنا محمّد بن عمران قال: حدّثني محمّد بن أحمد
بن مخزوم قال: حدّثني الحسن بن عليّ الأشنانيّ وأحمد بن محمّد بن
مسروق قال: حدّثنا سويد بن سعيد قال: حدّثنا عليّ بن مسهر عن أبي
يحيى القتّات عن مجاهد عن بن عبّاس قال: قال رسول الله صلّى الله
عليه وآله وسلّم: من عشق فظفر فحفّ فمات مات شهيداً.

وجاء في الخبر عنه، قال:

أخبرنا أبو بكر بن أحمد بن عليّ بدمشق قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ
بن أيّوب بن الحسين بن أيّوب القميّ إملاء قال: حدّثنا أبو عبيد الله
المرزبانيّ وأبو عمرو بن حيويه وأبو بكر بن شاذان قالوا: حدّثنا أبو عبد
الله إبراهيم بن محمّد بن عرفة النّحويّ الملقّب بنفطويه قال: دخلت
على محمّد بن داود الأصبهانيّ في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف
تجدك؟ فقال: حبّ من تعلم أورثني ما ترى.

فقلت: ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟
فقال: الاستمتاع على وجهين، أحدهما النَّظر المباح، والثَّاني اللَّذَّة المحظورة، فأما النَّظر المباح فأورثني ما ترى، وأما اللَّذَّة المحظورة، فإنه منعني منها ما حدَّثني أبي قال: حدَّثنا سويد بن سعيد قال: حدَّثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتَّات عن مجاهد عن بن عبَّاس عن النَّبيِّ، صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، أنَّه قال: من عشق وكنم وعفَّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنَّة، ثمَّ أنشدنا لنفسه:

انظر إلى السَّحري جري في لوحظه
وانظر إلى دمع في طرفه السَّاجي
وانظر إلى شعرات فوق عارضه
كأنَّهن نمال دبَّ في عـجـاج

وأنشدنا لنفسه:
مالهم أنكروا سوادا بخدي ... هـ، ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خدّه بدد الشَّع ... ر، فعيب العيون شعر الجفون
فقلت له: نفيت القياس في الفقه، وأثبتته في الشَّعر. فقال: غلبة
الهوى، وملكة النَّفوس دعنا إليه.
قال: ومات في ليلته أو في اليوم الثَّاني.
ومن أخبار جميل، أورد الشَّيخ القارئ الخبر الآتي:
قال:

أخبرنا أبو طاهر أحمد بن علي السَّواق، أخبرنا محمَّد بن أحمد بن فارس، حدَّثنا أبو الحسين عبد الله بن إبراهيم، حدَّثنا محمَّد بن خلف، حدَّثنا أبو بكر العامري، أخبرني أبو الحسن بن محمَّد بن أبي سيف، أخبرني أبو عبد الرَّحمان العجلاني عن سهل بن سعد السَّاعدي قال: بينا أنا بالشَّام إذ لقيني رجل من أصحابي فقال: هل لك في جميل تعود، فإنه ثقیل بالمرض؟ قلت: نعم! فدخلنا عليه، وهو يوجد بنفسه، وما يخیل إليَّ إلاَّ أنَّ الموت علق به، فنظر إليَّ وقال: يا ابن سعد! ما تقول

في رجل لم يزن قطّ، ولم يشرب خمرا قطّ، ولم يسفك دما حراما قطّ، يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدا عبده ورسوله، منذ خمسين سنة؟ قال: قلت: من هذا الرجل؟ فأنيّ أظنّه، والله قد نجا، لأنّ الله تعالى يقول: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما.

قال: أنا. قال: فقلت: والله ما رأيت كالיום أعجب من هذا، وأنت تشبّب ببثينة منذ عشرين سنة. قال: أنا اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة، فلا نالتني شفاعة محمّد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قطّ، وإن كان أكثر ما كان منّي إليها أني كنت أخذ يديها أضعها على قلبي، فأستريح إليها.

قال: ثمّ أغمي عليه، ثمّ أفاق فقال:

صدع النعيّ وما كني بجميل، وثوى بمصرثواء غير قفول
ولقد أجزّ الذيل في وادي القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة، فاندبي بعويل وابكي خليلك دون كلّ خليل

ثمّ أغمي عليه فمات.

ومن أخبار غيره، ما حدّث به الشّيخ السّراج القارئ عن عروة وعفراء:
قال:

نقلت من خطّ بن حيويه: حدّثنا أبو بكر بن المرزبان، حدّثني أبو العباس فضل بن محمّد اليزيديّ، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الموصليّ، أخبرني لقيط بن بكر المحاربيّ أنّ عروة بن حزام وعفراء ابنة مالك العذريّين، وهما بطن من عذرة، يقال لهم بنو هند بن حزام بن ضبة بن عبد بكير بن عذرة، نشأ جميعا فعلقها علاقة الصّبيّ، وكان عروة يتيما في حجر عمّه، حتّى بلغ، فكان يسأل عمّه أن يزوجه عفراء فيسوّفه، إلى أن خرجت غير لأهله إلى الشّام. وخرج عروة إليها، ووفد على عمّه ابن

عمّ له من البلقاء يريد الحجّ، فخطبها، فزوّجها إياه.
وأقبل عروّة على غيره حتّى إذا كان بتبوك نظر إلى رفقة مقبلة من
نحو المدينة فيها امرأة على جمل أحمر، فقال لأصحابه: والله، إنّها
شمائل عفراء، فقالوا: ويحك! ما تترك ذكر عفراء لشيء؟ قال: وجاء
القوم، فلمّا دنوا منه وتبيّن الأمر ببس وبقي قائما لا يتحرّك، ولا يحير
كلاما، ولا يرجع جوابا، حتّى بعد القوم، فذلك حيث يقول:

وأيّ لتعروني لذكراك رعدة ... لها ما بين جلدي والعظام دبيب
فما هو إلّا أن أراك فجاءة ... فأهيت حتّى ما أكاد أجيّب
فقلت لعرّاف اليمامة داوني ... فإنّك إن أبرأتني لطبيب
فما بي من حمى ولا مسّ جنة ... ولكنّ عمّي الحميريّ كذوب

قال أبو بكر: وعرّاف اليمامة هذا الذي ذكره عروّة وغيره من
الشّعراء، هورياح بن راشد ويكنّى أبا كحيلة، وهو عبد لبني يشكر، تزوّج
مولاه امرأة من بني الأعرج، فساقه في مهرها ثمّ ادّعى بعد نسبا في بني
الأعرج.

ثمّ إنّ عروّة انصرف إلى أهله وأخذ البكاء والهلاس حتّى نحل، فلم
يبق منه شيء، فقال بعض النّاس: هو مسحور؛ وقال قوم: بل به جنة!
وقال آخرون: بل هو موسوس، وإنّ بالحاجر من اليمامة لطبيبا يداوي
من الجنّ، وهو أطبّ النّاس، فلو أتيتموه، فلعلّ الله يشفيه، فساروا
إليه من أرض بني عذرة حتّى داواه، فجعل يسقيه السّلوان، وهو يزداد
سقما، فقال له عروّة: يا هناه! هل عندك دواء أورقية؟ فقال: لا
والله. فانصرفوا حتّى مرّوا بطبيب بحجر، فعالجه وصنع به مثل ذلك،
فقال له عروّة: والله ما دائي ولا دوائي إلّا شخص بالبقاء مقيم. فهو
دائي، وعنده دوائي.

وفي غير هذه الرواية: شخص بالبقاء مقيم هووراني، أي أمرضني،

وهزلني، والورى داء يكون في الجوف مثل القرحة والسَّل.

قال سحيم عبد بني الحسحاس:

وراهنَّ ربِّي مثل ما قد ورينني، ... وأحمى على أكبادهنَّ المكاويا

رجع الحديث قال: فانصرفوا به، فأنشأ يقول:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعرّاف حجران هما شفياني
فقالا: نعم! نشفي من الداء كلّه ... وقاما مع العوّاد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانهما ... ولا سلوة إلا وقد سقياني
فقالا: شفاك الله، والله ما لنا ... بما ضمنت منك الضّلوع يدان

قال: فلمّا قدم على أهله، وكان له أخوات أربع ووالدة وخالة، فمرض
دهرا، فقال لهنّ: اعلمن أنّي لو نظرت إلى عفراء نظرة ذهب وجعي،
فذهبن به حتّى نزلوا البلقاء مستخفين، فكان لا يزال يلّم بعفراء، وينظر
إليها، وكانت عند رجل كريم سيّد كثير المال والغاشية.

فبينما عروّة يوما بسوق البلقاء، إذ لقيه رجل من بني عذرة فسأله
عن حاله ومقدمه، فأخبره. قال: والله لقد سمعت أنّك مريض، وأراك
قد صححت. فلمّا أمسى الرّجل دخل على زوج عفراء فقال: متى قدم
عليكم هذا الكلب الذي قد فضحكم؟ فقال زوج عفراء: أيّ كلب هو؟
قال: عروّة! قال: أوقدم؟ قال: نعم! قال: أنت والله أولى بها منه أن تكون
كلبا، ما علمت بقدمه، ولو علمت لضممته إليّ.

فلمّا أصبح غدا يستدلّ عليه حتّى جاءه، فقال: قدمت هذا البلد،
ولم تنزل بنا، ولم ترأن تعلمنا بمكانك فيكون منزلكم عندنا وعليّ، إن
كان لكم منزل إلاّ عندي. قال: نعم! نتحوّل إليك اللّيلة، أو في غد. فلمّا
ولّى قال عروّة لأهله: قد كان ما ترون، وإن أنتم لم تخرجوا معي لأركبن
رأسي ولألحقنّ بقومكم، فليس عليّ بأس. فارتحلوا وركبوا طريقهم،
ونكس عروّة ولم يزل مدنفا، حتّى نزلوا وادي القرى.

وروى العمري عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين أن عفراء لما بلغها وفاة عروة قالت لزوجها: يا هناء! قد كان من أمر هذا الرجل ما بلغك، والله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل، وإنه قد يلغني أنه مات في أرض غربة، فإن رأيت أن تأذن لي فأخرج في نسوة من قومي فيندبنه ويبكين عليه. فقال: إذا شئت، فأذن لها، فخرجت، وقالت ترثيه:

ألا أيها الركب المخبون ويحكم! ... بحق نعيم عروة بن حزام
فلا هي الفتيان بعدك عادة ... ولا رجعوا من غيبة بسلام
فقل للحبالى لا ترجين غائبا ... ولا فرحات بعده بغلام

قال: ولم تزل تردّد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فبلغ الخبر معاوية، فقال: لو علمت مهذين الشريفيين لجمعت بينهما. وقد روي مثل هذا الكلام عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وحدثنا أبو عبد الله محمد بن زكرياء، حدثنا العيشي عن أبيه قال: لما زوجت عفراء جعل عروة يضع صدره في أعطان إبلها، وحيث كانت تجلس فقليل له: اتق الله، فإن هذا غير نافعك، فأنشأ يقول:

بي اليأس، أوداء الهيام سقيته ... فإياك عني لا يكن بك ما بيا

وفي موته، ذكر الشيخ القارئ السراج في رواية عن ثقات:

قال:

قال أبو بكر بن المرزبان وأخبرنا أحمد بن زهير، أخبرنا الزبير بن بكار، أخبرني أبي قال: قال عروة بن الزبير: مررت بوادي القرى فقيل لي: هل لك في عروة بن حزام؟ فقلت: الذي يلقي من الحب ما يلقي؟ قالوا: نعم! فخرجت حتى جنته، فإذا هو في بيت منفرد عن البيوت، وإذا، والله، حوله أخوات له أمثال التماثيل، وأمه وخالته. قال: فقلت له: أنت عروة؟ قال: نعم! قلت: صاحب عفراء؟ قال: صاحب عفراء، ثم استوى قاعدا فقال: وأنا الذي أقول:

قال:

وعينان ما أوفيت نشزا فتنظرا ... بما فيهما إلاّ هما تكفان
ألا فاحملاني، بارك الله فيكما ... إلى حاضر البلقاء ثم ذراني

ثم التفت إلى أخواته فقال:

من كان من أمّهاتي باكيا أبدا ... فاليوم إنّي أراني اليوم مقبوضا
من كان يلحوف إنّي غير سامعه ... إذا علوت رقاب القوم معروضا

قال عروة بن الزبير: فلما سمعن قوله برزن والله يضربن حرّ
الوجوه، ويشققن جيوبهنّ. قال عروة: فقامت، فما وصلت إلى منزلي
حتّى لحقني رجل فقال: قد مات.

كنت على وشك الاسترسال في الحديث، وقد بدأت تروقني كثيرا
هذه المحاولة، على عفويتها وبساطتها، في التّخلص من ثقل السّاعات،
وجثوم الصّمت، وغرابة اللّقاء، وقد كنت طوال الوقت، أعتقد أنّه
منصرف بذهنه إليّ، ومما زادني اقتناعا بهذا الاعتقاد ما رواه لي وحكاه
منذ قليل، عن حبّه الكبير، وخيبة أمله فيه، إلاّ أنّه في لحظة ما، وقد
كنت في ذروة الاستغراق فيما أنا فيه، هجس بداخلي طائف يغريني
بالتوقّف، ويحضّني على الصّمت، تحرّكت في مكاني قليلا، وتطلّعت
بطرف عيني إلى المكان الذي كان يجلس فيه، على مبعدة، فوق تلك
الصّخرة. كان شاردا، بعيدا، مشتّت الفكر، مولّيا وجهه نحو اللامكان،
مصالبا رجليه، قد يظنّ من يراه أنّه مسحور، أو به مسّ.

قلت مصمّما، بيني وبين نفسي، أن أخرجّه من حال السّكون التي
ألّمت به بغتة:

هل لك في المزيد؟ مازال لديّ الكثير أرويه لك إذا شئت.

التفت إليّ متباطئا. كانت عيناه ساهمتين، ونظراته متخثّرة، رفع
يده بلامبالاة، وقال بتلّكؤ:

. حسبك! حسبك! قد سمعت ما يكفي، وهذا الليل يمرّ، وما زال الكثير أقوله وتسمعه.

وبحركة آليّة، دسّ يده في جيبه، وأخرج مظروفا، متوسط الحجم، ليس كبيرا، ولا صغيرا، ومدّه إليّ قائلا:

. كنت إلى حدّ هذه اللحظة متردّدا، هل أسلّمه إليك أم لا. قلت: قد أنكأ داخله جرحا قد اندمل إذا سلّمته إيّاه. فإذا ما اطمأنّيت إلى هذا الخاطر، عاد ضميري يؤنّبني، وأحسست بألم يهصرني. يعصرني، وصوت يقول: واجبك أن تؤدّي الأمانة فقط، وليس عليك حرج فيما سيسبّبه له المظروف من الحزن والتّعاسة... لذا، ها أنذا، أعطيكه غير ملوم، خذه، فضّه، واقرأه.

شعرت بوخز سار في ظهري، وقشعريرة تدبّ في جسمي ديببا متواصلا، وأنا أبسط يدي لأخذ المظروف. ظللت لحظة أتأملّه، ثمّ فتحتّه، وفردت ما فيه.

[حاضرة البلاد. من شباط إلى أيار ١٩٩٠]

هل أكتب يا ترى؟ هل سأتمكّن من الكتابة فعلا إذا قرّرت وأزمعت؟ الظّروف، دون شكّ، مواتيّة، الباب مغلق، والمفتاح في جيبي، إذ لا أريد لأحد أن يشهد لحظة ضعفي وانهزامي، التّضدّ يتصدّر الغرفة تماما، فوقه الأوراق مصفوفة ومرتبّة، والأقلام، والمنفضة غير بعيد، وعلبة السّجائر لم تفتح بعد، والولاعة؛ لكن، هل أستطيع أن أكتب، وأنا في هذه الحال من الانفعال المسيطر القاتل. وقد خرجت للتوّ من دوامة تجربة معتمة الممرّات والدّهاليز؟ وإذا كتبت، ألا يحتمل أن تتجسّد بنات أفكار لي عينيّ مسخا سونيا؟ هذه التّجربة قاسية، قاصمة للظّهر، لو لم أظلّ صامدا إلى آخر رمق حيالها، لربّما كنت قضيت، وانتهى الأمر. كلّ الأمر، في ثوان معدودات؛ إلى حدّ هذه اللّحظة. اللّعيّنة ربّما، الحرجة ربّما، المستحيلة ربّما، وأنا لا أدري تحديدا أيدهمني شيطان الكتابة فجأة، وعلى غير انتظار، أم لا، ما زلت أتملل تحت العباء

الثَّقِيل الذي أفرزته التَّجربة المشؤومة، أتجرَّع الغصص جرَّاءها،
كلِّما لاحت لمخيلتي أبعادها وتفاصيلها. لم يكن الأمر هينًا عليّ، لم تكن
النتائج كما توقَّعت، جاءت عكس الأسباب التي خمَّنت، وهبَّأت لها!!
هل أكتب؟

هل أستطيع الكتابة حقًّا؟

وإذا كتبت، فلماذا أكتب؟ ولن أكتب؟

لا أدري. حقًّا! لا أدري، غير أنَّي أحسَّ إحساسا عميقا أنَّي إذا لم
أكتب ربَّما انتحرت. سأعضُّ أصابع النَّدَم حسرة، وأجرع مرارة الخيبة
ما ظلَّ فيَّ عرق ينبض، لكن لمن أكتب؟ وهل أريد حقًّا لهذه الأوراق التي
سأكتبها أن يطلَّع عليها كائن من كان؟ هل أقبل أن تدنَّس؟ وهل أستطيع
احتمال تلك اللَّحظة، التي ستكون أليمة دون ريب، وأنا أتخيَّل بعض
القوم يتطلَّعون إليَّ لاثمين، مستهزئين بي، بعد قراءتهم تلك الأوراق؟
الحقَّ أنَّه لم يتبادر إلى ذهني كلَّ ذلك، ولم أفكر، حتَّى من قبل أن أحمل
القلم وأخطَّ أولى الكلمات، في استنساخها، أو طبعها، أو نشرها، حتَّى
أنَّه صحَّ عزمي، بعد أخذ وردٍّ، على إخفائها، ومواراتها حيث لا يمكن
لبد البتَّة أن تطالها، إذا انتهيت منها... الرَّغبة وحدها كانت الدَّافع لما
أحسست به يومئذ، الرَّغبة الجامحة في أن أتخلَّص من عبء ما، في أن
أبوح، ولولنفيسي، ساعة غضب وحقد ومقت واستسلام، الرَّغبة في أن
أتخفَّف من وزرطالما أدمى كاهلي.

هل أكتب؟

قطعا، سأكتب!

عندما أمسكت القلم، وأدنيته من الورقة، كان كلَّ شيء محسوما
في ذهني، مفروغا منه، ومنتهيا، ولكن بمجرد أن لامس القلم الورقة،
وجدتني، رغما عني، أخطَّ الحرف الأوَّل من اسمها بدل كتابة اسمها
كاملا، الأنسة «ث»، الأسرة حدَّ الجنون، السَّاحرة حدَّ الهوس، ولا
تحاولوا، أيُّها السَّادة الكرام المحترمون، يا من تفصل بيبي وبينكم

مسافة لامتناهية الشَّسوع لن تتجاوزوها أبداً، أن تدفعوني إلى البوح بالسِّرّ، اسمها سرّ، كباقي أشياءها، وما يمتّ إليها، واسمها. على بساطتها، واختزال حروفه. مقدّس بالنسبة إليّ، لا أملك حرّية تدينسه أو تعريضه، فلا تحاولوا، لأنّ كلماتي التي أهمّ بلفظها داخل سكون هذه الغرفة المغلقة لا تخصّ أحداً غيري، ولا أريد لها أن تطالها أيديكم الفضوليّة الطويلة.

في غرفتي حين أكون وحيداً، منفرداً، في الشّارع حين يخلو، وتخفّ فيه الحركة، عند النّواصي المعزولة، وفي نهايات الأزقة الصّامّة المعتمّة، أوائل الغروب، بدايات اللّيل، أستشعر دوماً رغبة فائرة في تشرب اسمها قطرة قطرة، بيني وبين نفسي، محاذراً أن يغافلني صوتي المشاكس، الرّايض وراء حنجرتي متربّصاً. كان اسمها كلّ ما استطعت الهرب به من عالمها الزّآخر الشّفيف، فكأنّما ما عداه عدم، لا يستحقّ حتّى مجرد الالتفات إليه. سألت نفسي أكثر من مرّة، محاولاً استعادة ملامحها العصيّة المستحيلة: «ما الذي يغريني بها؟ هل وجودها ثابت، مادّي، كوجود باقي بنات جنسها؟» بمرور الوقت، نبتت بداخلي قناعة أنّها حضور يجلّ عن الوصف، ممتنع من التّجسيد، موغل في شفافيّة سماويّة لا ترى ولا تدرك، فلکم تطلّعت إليها وهي تخطر، وكم رصدتها بنية إثبات تقاسيمها في ذاكرتي، وكم أطلت الحديث إليها متملّياً صفحة وجهها، كم عددت خطاها، وكم استحضرتها في أحلام لياليّ المجدبة، لكن دون جدوى. تغيم صورتها، تبعد، تضمحلّ، تتلاشى، تتشظى، تندثر تماماً، ولا يبقى عالقا في ذاكرتي المجهدة سوى ذلك الحرف، أول حرف من حروف اسمها، الآنسة «ث»، الأسرة حدّ الجنون، السّاحرة حدّ الهوس!!

جميع ما كتب، بين طيّات الكتب، وفي ثنايا المعاجم، ما كتبه الكتبة، ما حبره الشعراء، وصاغه المتكلّمون، جميع ما سيكتب، إن الآن أو في ألف عام، أو في ألف ألف، جميع ما لن يكتب، وسيبقى طيّ الكتمان،

يتلجلج داخل الصّبور المتعبة المنكوءة، هل يكفي كلّ ذلك للإحاطة بروحها الشّاقة، للإلمام بباطن مكنونها، ووصف تجلّياها؟ هل سيعود ذلك أن يكون قطرة من بحر؟ هل ستصمد في نعت حضورها الأحرف والكلمات؟ سأعّج، سأشعر بخزي لا حدّ له، وستنتابني قشعريرة، تظّل تنهش أوصالي، كما لو أنّ ماء باردا غمرني على غير توقّع وانتظار، إذا صرّحت . هذا إن استطعت . بشموخ مثولها، إذا استدعيت مدن الكلام المستهلكة لفضّ مغاليق أسرارها. النّعوت خواء، موات هي الألفاظ التي تروم حصارها، ومهين ومتضائل هو الكون الذي يبغي حدّها واحتضانها! ماذا يعني: إنّ العيون التي في طرفها حور؟! وماذا يكون: لخولة أطلال بيرقة ثهد؟! و: ليت هندا أنجزتنا ما تعد؟! وهل يكفي: وكأنّها لما مشت أيم تأوّد في كتيب؟! وهل يسع الكلام، كلّ الكلام، أغوارها الغامضة الملعّزة؟ لقد وجدت الناس كلّما أحبّوا أو عشقوا، وأهاجهم الشّوق إلى من أحبّوا نزعوا إلى وصف محاسنه للسّلوى، وراموا ذكر حميد خصاله دون قبيح فعاله، فيقول أحدهم: أحببتها بكرا، أو عيناها بها دعج، وفي عينيها مرض، وهي ذات خدّ أسيل، وطرف كحيل، وشعر أسود طويل كالليل، وهلمّ جزّا، إلى آخر ما هنالك من كلام مكرور، وآخر سيبدعه عقل ما، ليصير هو نفسه مكرورا إذا انقضت المدّة وعبرت الفترة. طالما حاولت أن أفعل الشّيء ذاته، بعد أن تعرّفت إلى الأنسة «ث»، وجهدت أن أقدح شرر الذاكرة لاستدعاء عذب الألفاظ، ورقيق الكلام، غير أنّي في كلّ مرّة، وبعد كلّ لقاء، أو إثر كلّ فرصة سانحة، أخرج من حلبة الصّراع، من أتون المعركة، بطلا مهزوما، بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها!!

كيف هما عيناها؟ صغيرتان أم كبيرتان؟ هل هما زرقاوان؟ كستنائيتان؟ سوداوان؟ وشعرها، طويل هو أم قصير؟ هل هو أسود؟ أشقر؟

ووجهها؟ تقاسيمه؟ تقاطيعه؟ هل هو مستدير، أم يميل قليلا إلى

الطّول؟

خصرها؟

مواطن الفتنة فيها؟

هذه المرة الأولى، من بين المرات القلائل، التي يجتاحني فيها شعور قاهر بالحيرة والاضطراب، دون أن أستطيع حياله فعل أي شيء، كمقيّد، سجين ملقى بين أربعة جدران صخرية صلبة، فيما مضى، كلّ الفتيات اللواتي عرفتهنّ، تخيلتهنّ، أو التقيتهنّ عرضاً هنا أو هناك، لم أجد صعوبة قطّ في استكشاف معالمهنّ، في الولوج إلى مجاهلهنّ، حتّى أتّى في لحظات الفراغ، في ساعات الأرق والجذب، كنت أبداع بذهني صورا للنساء لم أرهنّ في حياتي البتّة، صورا للنساء غريبات فانتات، قد يكنّ عشنّ في زمن ضارب في القدم، أو في زمن سيأتي، أو قد يكنّ لم يوجدن أصلا، أرسم ملامحهنّ جزءا جزءا، وأخلقهنّ عضوا عضوا، ثمّ أبثّ الحياة فيهنّ، فيستقمن خودا ذوات قدود، وسحروا غراء، نتحاور في عتمة الليل، نتناحى، وفي لحظة ننأى إلى أقاصي اللذّة والتلاشي. الآن، الأمر مربك، متشابك كأطراف الأخطبوط، أشعر إزاءه برغبة في البكاء أو الانفجار. هذه المرأة، أين كانت؟ ومن أين جاءت؟ هل تصدّقون إذا أخبرتكم أنّنا ننتمي إلى نفس المكان، تحدّنا نفس المسافة، وتحضننا نفس الدّائرة؟ كلانا من هناك، نبعنا في ذلك الحيّ، كما ينبع الفطر في حديقة مهملة، جننا من قرب غائم، إلى بعد شفيف، غريبان كنّا حتّى وقت ليس بالقصير، أتجنّبا لأنّي أخافها ربّما، ولا تعيرني اهتماما لأنّها، بكلّ بساطة، لا تعرفني. هل تصدّقون؟! كنت أغار منها، واليوم صرت أغار عليها، لا أعرف كيف أصفها، مع ذلك، ونتيجة فشل محاولاتي المتكرّرة في استنبات كينونتها، ورسم أطرافها وتخومها، تأكّد لديّ أنّها بالروح أشبه، كائن كطيف، أو خيال، بلا ماض يشدّها إلى رثاة التّاريخ والانتماء، ولا حاضر يحدّد اتّجاهها صوب أمام غير مضمون... ما مربّي، ما عشته، جربته، أحسسته، وما سيمرّبي، ما هو مقدّر عليّ، منذ أكثر

من ألف عام، كان تمهيدا لذكرى ميلادها، في قلبي، وسيكون طريقا مؤدية، موصلة إليها، هي الأنسة «ث»، ذات الصّوت الشّافّ، المرهف، الهادئ، السّاكن، الخيء، هي الأنسة «ث»، ذات الصّوت الملائكي! نعم! هوذا ما شدّني إليها، ما دعاني إلى جاذبيّة قطبها ومدارها. إنّه صوتها، صوتها، صوتها!!

لا أدري ماذا يثوي وراء هذا الصّوت، أيّة قوّة تكتنفه، أيّة أسرار ينطوي عليها، تطالعني كلّما سمعته، أو تنأى إليّ، مما لك لامتناهية الاتّساع، أرى أبعادا لا يدركها قصور العين، وأحسّ مشاعر شتى، متضاربة، جامحة، تنبّث في كلّ ذرّة بداخلي، ولا أستطيع التعبير عنها. هل سمعت، في حياتي، من قبل، صوتا يضاهي صوتها، يحاكيه، أو يدانيه في نبره وتموجاته؟! أبدا. أبدا. صوتها لا أول له، لا آخر له، فريد، مسيطر، مدمر، ينساح عليّ، فأغرق فيه، لا أملّه، ولطالما تمنّيت أن أذوب فيه، أن أموت بين أعطانه، ولا أبالي... أصبح حضورها مقترنا في ذهني بصوتها، بخبره، بطاقة الحزن التي تندسّ بين جنباته، وأصبحت هي نفسها اختزالا لهذا الصّوت، فكان لا هيئة لها، ولا جسد، لا مثل، يطغى الصّوت على ما عداه، فتتهار مدائن التّكوين، وحصون الحصار، العينان، الشّعر، الأنف، ارتسامة الفم، الخصر، مواطن السرّ جميعا. قلت إنّها كائن يجلّ عن الوصف، لا تدركه الألفاظ أو الكلمات، يشفّ إلى درجة الذّوبان، حتّى كأنّه لا يرى، وينأى على قربه، مثل روح، تمقت الحدود، وتروم الأوساع دائما. هو الصّوت فقط، يدلّ عليها، يشير إلى دائرة وجودها، ويثني بآثار حضورها، همسة، وسوسة، زقزقة، من فوق غصن قريب، بجانب النّافذة، تطرق القلب على حين غرة، وتنام فيه، فتنتفتح جميع أبواب السّماء، وترتفع ابتهالات الجوقة الكوراليّة.

أيّ شعور انتابني، وأنا أنتظرها، مع ذلك الصّديق الذي تعرّفت إليه زمن الحرب، هي أيضا، حبيبة الزّمن الغائم، نتأت أيّام الحرب، ولم تكن وحدها، كانت الحرب أقوى من كلّ شيء، رهيبه، مخيفه، طاحنه،

وبدل أن تبثّ شجون موتها في النفوس، قربت وألفت، أدنت ووحدت، في ذلك الزمن، كان الوطن أقوى من الخوف، وكانت القضية تزرع كلّ يوم حصنا جديدا، وترتّب موطننا ثابتا لقدم راسخة. أيام الحرب، وبرغم الهول الجاثم في كلّ مكان، ولد الحبّ، أثمر، وأينع. أيام الحرب، كان هناك متّسع دائما لانقيار معاقل وقيام حصون، وتشيد ممالك!

أيّ شعور انتابني، وأنا أنتظرها في موقف الباص، مواربا في صمتي، أتطلّع إلى الجهة التي ستأتي منها، صحبة صديقتها؟ اعتادت دائما أن تسلك نفس الطريق، أن تتبع نفس المسلك كلّما اتّفقنا على الهروب بعيدا، وإلقاء أعباء الحرب وراءنا ساعة من نهار... كنت أحسن بوحدة مقرفة رغم وجود صديقي، ولم أكن أهتم كثيرا لمجيء الصديقة الأخرى، رغم أنّ الرحلة هي الأساس دعوة من أصدقاء لأصدقاء، وقد كان مفروضا أن تضمّ عددا كبيرا، لولا اعتذار البعض في آخر لحظة. ما كلّ هذا القلق إذن، ولا مجال لخلوة أو انفراد؟ سألت نفسي محتارا، وأنا لا أكاد أركّز ذهني حول شيء معيّن. تداولت عليّ، في ذلك الوقت قبل مجيئها، مخاوف وهواجس وأحاسيس جمّة، كنت أحاول جاهدا أن لا تظهر آثارها في اضطراب يديّ وعبوس وجهي، رغم حاجتي الملحة إلى التصريح والإفصاح. كان أكبر خوفي أن لا تأتي، ماذا لو أصابها ظرف طارئ، المكان حيث تسكن بعيد، وقد يتأخّر الباص، قبل أيام قالت إنّها مرضت، استبدّت بها حمى ثقيلة، ماذا لو عاودها المرض؟! استبعدت ذلك الخاطر بحركة من يدي، وغيّرت موقعي، في محاولة لتهدئة اضطرابي، والحدّ من تدفق تلك الأفكار السوداء... هل أحببتها؟ هل ما أحسن به تجاهها عاطفة الحبّ؟ لا أعتقد ذلك، إنّ ما أشعر به أكبر من الحبّ، ويفوق العشق، ولا يعدو الهيام أن يكون مجرد عنصر من عناصره. فماذا هو إذن؟ لا أستطيع أن أسمّيه، بلا اسم، هو اللامسمّى... منذ أن تعرّفت إليها، وتعارفنا، وتحطّم ذلك الحاجز بيننا، وأنا أكبر في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة، وفي كلّ لحظة، بما أحسنه نحوها. كان ينبت إحساس

جديد بداخلي، كلّما رأيتها، أو تحدّثت إليها، أو جلسنا صامتين نرنو إلى امتداد تلك الحديقة الكبيرة وسط الحاضرة، وكان الإحساس يعرّب ويتضخّم، ويستدعي أحاسيس ومشاعر أخرى، تتضخّم هي الأخرى حتّى تغدو عملاقة، تعجز كلّ لغات العالم عن تسميتها أو وصفها... كنت أقتنع يوماً بعد يوم أنّ الحبّ لم يعد منتهى الكلام، ومستودع العلاقة، إنّهُ يتضاءل حيال ما يتلجّج بداخلي، وعليه، يجب عليّ أن أستنبط كلمة أخرى تنسخها وتنوب عنها، وأن أستعيز عن مكرور الكلام بلغة جديدة، مستند فريد تتطابق فيه الأحاسيس والألفاظ. لكن، ما هذه اللّغة؟ ما هذا المستند؟ اللّغة قاصرة، والمستند شحيح، وستظلّ، مهما كان حجم العاطفة ورهافة الشّعور، تومئ وتقول، كما قال من عرفتهم وقرأت عنهم:

أحبّك... أحبّك... أحبّك.

جاءت بعد أن أشفيت على مهاوي اليأس، وعبرت برأسي آلاف الأفكار السّود عن عدم قدومها، وما يمكن أن يعوقها. كنت، طوال فترة الانتظار، كمن ينوء بعبء يزرع تحته، لا أعرف ماذا أفعل، أو ماذا أريد. ورغم أنّي كنت في حاجة إلى التّسرية عن اضطرابي ببعض الحركة داخل حدود المكان، إلّا أنّي تخلّيت عن هذه الفكرة لئلاّ يلحظ صديقي مدى معاناتي بهذا التّرقب الكاوي... أحسست بمجيئها. قلبي دلّني. قبل أن تتحقّق قدومها عيناى، وحينما التفتت، كانت تشير إلينا، ملوّحة بيدها، من وراء زجاج ذلك الباص الأصفر البائس. تبادلنا بعض الكلمات المقتضبة في الموقف، لم يبد عليها أنّها تعاني من أيّ مرض، صوتهما قال ذلك. كان سرّياً وموحياً، كعادته. اطمأنّيت. لم أقحم نفسي في الحديث، لم أقل شيئاً، واكتفيت بالرتوّ إليها من طرف خفيّ... جاء باص آخر. دخلنا من الباب الخلفيّ، هي وصديقتها، ودخلنا وراءهما، نحمل أمتعة الرّحلة. كان الباص، لحسن الحظّ، شبه شاغر، والمقاعد شبه خالية، ولا أثر لضجيج أو جلبة. سرنا جميعاً صوب الرّؤية

المواجهة للباب، بجانب نافذة مفتوحة، كانت بعض النسمات الرقاق
نسمات أواخر الربيع. تتسرّب منها، فتغمرنا بدفئها، وتبعث في المكان
سكوناً... مضت لحظات حميمة، رائعة، لم نقل خلالها شيئاً. وبقي كلّ
منّا يصوّب نظره نحو جهة ما، ثمّ نعود، فننظر إلى بعضنا. فجأة، تحرّك
صديقي في مكانه، واستدار مشيراً إلى بعض الأماكن غير المشغولة. قال:
«اجلسوا إذا شئتم، فقد وقفنا بما فيه الكفاية خلال الأيام الأخيرة
الماضية؛ والآن، حان الوقت لأن نستريح قليلاً!»

جلسنا، ونحن نضحك. كانت كلماته رغم غموضها واضحة موحية،
تذكّر بأيام كالحة شديدة السّواد، قضيناها هارين، مشرّدين، ينهشنا
برد الليل، وتضمّننا وحشة الغابات الخضراء، الصّامّة، المحايدة.
نعم، يا صديقي! فهمنا الإشارة جيّداً! معك حقّ، أن الألوان لأن نستريح
بعيدا، في مكان قصيّ عن العالم والنّاس!!

لم يطل بنا الجلوس، عاد صوت صديقي إلى الظّهور مرّة أخرى،
كان يتلو شعرا، استمعنا إليه منصتين، وكانت هي أكثرنا إنصاتاً، حادت
بعينها نحو النّافذة، شبكت أصابع يديها، ومهدوء واستسلام أراحتهما
على ركبتيها:

أتذكر؟

(إذ يصبح الفعل ذكرى يضيع التّساؤل)

يا سيّدي... أيّ طعم لهذا المساء؟

وفي حانة بالربّاط رأينا الرّجّاجات فارغة...

والرّجّاجات عشرون، فارغة في المساء

وفارغة في عيون النّساء

وفارغة كلّ تلك الرّجّاجات

حتّى الّتي قبعّت في اليسار المؤطّر بالزّخرف العربيّ

وتلك الّتي غلّفتني

وتلك الّتي خلّفتني على البار في حانة...

سيدي
سيدي
سيدي الأخضر المر
يا سيدي يا بن يوسف
من لي سواك إذا أغلقت حانة الرباط؟
ومن لي سواك إذا أغلقت بالعراق النوافذ؟
خلفتني في التعامل:
في أن تكون الرئيسي والثانوي
وفي أن أرى الثورة المرحلية
والطبقات الحليفة،
في أن تكون الرباط الحياء،
وفي أن يكون المحيط الخليج...
لماذا التقينا إذن؟
بأطراف تطوان أدركنا الليل والبندقية،
عبد اللطيف الذي لم يكن بعد في السجن أدركنا
والجبال الشقية بالماء أدركتنا
ولم يأتنا البربر المستريبون حتى بكأس من العشب...
كنّا يتامى إذن!
أه من أمة لم تجد بعد ما يفصل الليل والبندقية،
أو يصل الليل والبندقية
. . .
رأيتك في قرطبه
وكنت تبيع الجلود التي حملت رسمنا
والجلود التي حملت وسمنا
والجلود التي نرتديها.
. . .

في الدّار البيضاء
لم أسأل عنك الماء ولا الميناء
كان الشّرطيّ دليلي
والبار الخامس في شارع سيدي محمّد الخامس

سنجلس . إن شئت . حيناً
نفكر في أمرنا مرّة
نفكر في أمرنا مرتين
وننسى ثلاثاً

نسافرين الجواز المزور والثّورة المستحيله
ونأسى لأنّ القناعات أكبر ممّا
وأصغر ممّا،
وإنّ الجبال الّتي ناولتنا التّشردّ كانت جبال القبيله

ولكنّا بين هذا الجواز المزور والثّورة المستحيله
وبين الجبال . القبيله... كنّا غريبين:
لم نأكل القمح أخضر
والورد أخضر...

لم نعرف الورق المتساقط...
هذا البذار البعيد، وتلك النّجوم القليله
غريبين كنّا عن الصّخر تحت المياه
عن الماء تحت الصّخور...
أكنّا ضحايا الجواز المزور والثّورة المستحيله؟

فلنفتح أبواب الخشب الصّحراوية...

أبواب الأكواخ القصدير،
وأبواب الكتب الممنوعة في غرفات «القرويين»...
لنفتح باب الموت
وباب الصّمت
وأبواب القصر الملكي... لننسفها بالحجر الطّالع من أشجار الرّيف...
لنبن العالم أجمل...
أجمل
أجمل
وليرفضنا العالم

هدانا، إذن، يا ابن يوسف؟
فليهدأ البحر...
لل كلمات
ولي
ولك الآن... أن نستريح.

ويا سيّدي الأخضر المرّ...
يا سيّدي
يا بن يوسف:
من قال إنّنا شقين؟
ومن قال إنّنا لقينا؟
ومن قال إنّنا حكمنا معاً... بالتّداخل؟
ها نحن نشقى
وها نحن نلقى
وعبد اللّطيف على ساحة السّجن ملقى
«سعدي يوسف» (الأعمال الكاملة)

لم يغب عني استغراقها، ولا احتجابها بغلالة شرودها الكثيفة، منذ لحظة صعودنا، وقد تضاعف ذلك حين رأيت ذلك الشعاع المشاكس الرقيق يخترق زجاج الباص، وينعكس على دمعة كبيرة متألقة، كانت في طريقها إلى خدّها، إذن، هي تبكي! يا إلهي، إنها تبكي! وأمام من؟ أمامنا نحن، أنا، وصديقي، وصديقتنا الأخرى، نحن الذين لم نرها قطّ تذرف دمعاً، رغم سمت الحزن البادي على صفحة وجهها دوماً. كنّا جميعاً نعرف من هي، ندرك جيّداً أنّها تقاوم، تظلّ صامدة أمام الظروف، متحدّية العالم بأسره، على هشاشة الأنثى فيها. فماذا حصل يا ترى؟ إلى حدّ الآن، مازلت مشوّشاً، مائع الذّهن، لا أعرف شيئاً، لكنّي إن نسيت فلن أنسى صورتها بحدائنها الرياضيّة، وبنطلونها «دجينز»، وذلك البلوفر شديد الدّكنة، وهي تجتاز معنا الأزقة والممرّات الضيّقة هاتفة بحياة الوطن الكبير، وسقوط الظّلم، والشّهادة من أجل الحرّيّة والكرامة، شهدت معنا كلّ المشاهد، وخاضت عباب الخوف، كلّ الضّجيج، ولم يؤذها إطلاق الرّصاص، وارتدّ عنها غاز القنابل، حانياً، ضحوكاً، كأنّه يسعى إلى مفاكحة أو ملاعبة!! مرّة، كانت تجري خلفنا، لوحقنا، أمسكها دركيّ من ذراعها، وانّهال على كتفها ضرباً بالعصا، التفتت إليه، بحنق ومقت بصقت في وجهه، وركلت برجلها ما بين فخذه، صرخ، خار كنّور، وحينما أفلت يدها، قذفت في وجهه وأبلا من الشّتائم، وهربت، قذفت بالحجارة، معنا، بكلّ ما طالته يداها، ما كلّت يوماً، ولا هدأت! فماذا يحصل الآن؟! الوطن، على كبره، رغم شسوعه، مختصر في العائلة، عائلتها هي، قلبها مشطور بينهما، لا يستطيع حضور أحدهما إلّا أن يستدعي حضور الطّرف الآخر... بعد أن عرفت ذلك، الأمّت بسرّها، كنت دائماً أتساءل: كيف يمكن لها أن تتعهد هذا التّناقض داخلها؟ وهل يستطيع الشّيء الكبير حدّ التّضخّم أن يتزّوج مع شيء صغير جدّاً دون أن يبتلعه أو ينفيه؟!... كان الوطن الكبير هو عائلتها، وكانت عائلتها هي الوطن الكبير: ذلك الأب الهادئ الصّامت، وتلك الأمّ

الشَّامخة العمول، وأولئك الأبناء، إخوتها، سيِّما الصَّغير منهم، من كانت، وما زالت روحها متعلّقة به. ما تفتأ تذكره. تستعيد ملامحه كي لا تنساها، كأنَّها لونسيتها، ستدسى بذلك تضاريس خارطة الوطن الكبير، وتنطمس معالمه في ذاكرتها، ويموت إلى الأبد.

توقّف الباص.

كان علينا أن نستقلَّ التَّرام بعد ذلك.

ركبنا مرّة أخرى، وكان البحر في كلّ مكان. وراءنا، تركنا الحاضرة تجتَرّ حرارة أوائل النّهار. في صمت، نزلنا، حين توقّف التَّرام في المحطّة الأخيرة. كانت المدينة أجمل ممّا توقّعت. لم أزرها من قبل، وهذه المرّة الأولى الّتي أراها فيها... على مرمى، فوق مرتفع، تشرنّب برؤوس بناياتها البيضاء، ذوات الطّابق الواحد، وعلى امتداد البصر، في الوسط، يستطيل شارع عريض، تقوم على جانبيه أشجار معمّرة عملاقة، تحجب وهج الشَّمس، وترطبّ الهواء عند الأصائل. كان البحر الأزرق، الغميق، الضّاجّ بالأسرار، في الأسفل، على مبعده نصف ميل تقريبا، ويحدّه غير بعيد سياج خشبيّ طويل، كان يرتاح وراءه، في منبسط رمليّ فسيح، تحت مظلة كبيرة، على مقعدين متحرّكين، سائحان، عجوزان، يرنوان إلى ذلك القصر الشّامخ، المملّغز، الجاثم في هجعتة الصّباحيّة. إلى اليسار، في الأعلى، مقابل البحر، يستطيل مقهى كبير الحجم، عتيق، يطغى عليه الطّابع العربيّ القديم، وتضوع منه رائحة مازال شذاها يتردّد عبر العصور. ويكتنف كلّ الأركان والزّوايا، وحتّى الدّرجات الثّماني، المؤدّية إلى البسطة الرّحبة أمام المقهى.

نزلنا إلى الشّاطئ.

مشينا على امتداده.

رسم صديقي خارطة كبيرة.

جاءت موجة فمحتها.

أعاد الرّسم من جديد.

وجاءت موجة أخرى.

كان البحر هادرا، غاضبا، والنسيم الصّباحيّ يبرد، فانكمشت على نفسي، وظللت مكاني، في حين راح ثلاثتهم يتقدّمون ببطء، نحو الامتداد المائيّ، خلعوا أحذيتهم، وانحسرت ثيابهم عن سيقانهم، وطفقوا يتقدّمون أكثر... موجات صغيرة، رقاق، بيضاء، بلون الثلج، موجات ساهمة، كوقفتي، وأخرى كبيرة، مدوّية، تأتي من سكون التلاشي، من العمق اللأمنظور، تراشقوا بالماء حيناً، يملأون أيديهم بحفنات منه، منحني، يستوون قليلا، يتحرّكون باضطراب، ثمّ يقذفون كيفما اتّفق، ضحكوا مليّا. وكنت أشاهدها بينهم، أحوم حول مركزها، وتناهي شسوعها، مدركا أنّي لو كنت قريبا، منها، وتكلّمت في حضرتها، لهدمت صرح الفتنة، وأثيريّة سحرها، اللّذين أحسّ بألّقيهما بداخلي، وأنا بعيد، قصي، الآن، يكتنفي خدر ونشوة.

لم يمض وقت طويل، حتّى انضمّوا إليّ، وهم يتهايمسون، وبين الفينة والأخرى، تنطلق أصواتهم بضحكة أو قهقهة منطلقة، وتنبّث أعينهم المستكشفة الجائعة في كلّ اتّجاه، عبر البحر، وراءه، على جانبيه، كأنّها تبحث عن شيء عزيز أضاعته طوال الأيّام المريّة المنقضّية... تفتّح صديقي إلى سهومي، وسألني فيما أفكّر، التفّ ثلاثتهم حولي، وسألوني بصوت واحد، ومع ذلك ميّزت صوتها، لا يمكن أن أخطئه (المعذب لا يخطئ أبدا مصدر عذابه!)؛ قالوا:

لماذا تبدو حزينا؟! هذا يوم ممنوع فيه الحزن!

ومضينا صوب المقهى، صعدنا الدّرجات الثّماني، وقطعنا الباحة الأماميّة إلى الهو الداخليّ. كان كلّ شيء هادئا في الدّاخل، والنّضد، المنبّثة هنا وهناك، مرصوفة في تناسق أسر، وقد أضاف إليها خفوت الضّوء رونقا وغرائبيّة عجيبين، وقد كانت أصوات موسيقى خافتة، سرّيّة، مغرية، تنبعث من مكان ما، فتقرع باب القلب، وتدخل، ثمّ تتمدّد بين الغشاء والشّغاف، مثيرة كونا بأكمله من ذكرى مدبرة، وآمال كبار،

وحزن لا يضارع... قادتنا الخطى إلى زاوية شبه معتمة أقصى اليسار،
حيث نافذة كبيرة زجاجية، تنعكس عليها بدايات المدينة، القابعة غير
بعيد في الخلف، وجلسنا، متقابلين، حول طبق عليه فناجين القهوة،
ذات البخار الكثيف المتصاعد. مدّ لي صديقي سيجارة، وأشعل لنفسه
واحدة، ومع أول حسوة، وأولى الأنفاس، كان الموعد مع الشّعر للمرة
الثانية، في ذلك اليوم:

نبيّ يقاسمني شقّي
يسكن الغرفة المستطيله
وكلّ صباح يشاركني قهوتي والحليب، وسرّ الليالي الطويلة
وحين يجالسنني،

وهو يبحث عن موضع الكوب في المائدة
.وكانت فرنسيّة من زجاج ومعدن .
أرى حول عينيّه دائرتين من الزّرقة الكامده
وكانت ملابسنا في الخزانة واحدة:
كان يلبس يوما قميصي
وألبس يوما قميصه
ولكنّه حين يحتدّ...

يرفض أن يرتدي غير برنسه الصّوف...
يرفضني دفعة واحدة
ويدخل كلّ المزارع:
يحرث
أويشتري سكّرا
أويقول العلامة

ولمّا التقينا على حافة البار

أخرج من جيبه زهرة، وانحنى
هامسا: إنها لي... أتيت بها
عبر أسوار «وجدة»؛ حيث الحدود
التي ما تزال معارك... لكنها
ويقدّم لي زهرة الأس. ملك
لك الآن... افعل بها ما تشاء
سوى أن أراها بجيبك ذابلة...
آه؛ وجدة، وجدة... إنَّ طريق «الصّخيرات»
يعلّقه الحرس الملكي... أتيت بها
من هناك، وخبأتها بين جلدي وأحذية
الحرس الملكي التي أثقلتها المسامير
يكشف لي صدره مسرعا، ثمّ
يغمض عينيه. وجدة... وجدة...
كيف تكونين لو جئت عندي!

يرافقني في زيارة محبوبتي...
ثمّ يدخل قبلي
يقبلها في الجبين
وينظر في مقلتها طويلا، ويجلس في آخر الحجرة المعتمه.
وإذ أرسم الرّغبة المهمه
وسائد، أو منزلا
يرسم الرّغبة المفعمه
نسورا، طباشير، فوق الجدار الذي يحمل النّافذه
ويدنو...
ليأخذ كفّ الفتاة (أنا جالس لصقها)
ثمّ يمضي بها خارج الحجرة المعتمه

على باب سبّعة كان رجال الجوازات خلف مكاتبيهم
يحتسون النّبذ الرديء
وفي البعد...
حيث المدينة في ليلة العيد
تخترق الشّهب الاصطناعيّة الأفق المتلبّد
كانت تضيء
تضيء
تضيء
وظلّ رجال الجوازات خلف مكاتبيهم
يعلكون النّبذ الرديء

تتبّعته خجلا، ما يزال الذّراعان معتنقين،
انتظرت قليلا أمام التّقاطع، كانت
فتاتي تشير إلى واجهات المخازن ضاحكة...
كان يسخر منها، مشيرا إلى الشّجر المتطاوّل
في مدخل المسيح البلديّ... استدارا،
فأسرعت خطوي وراءهما... ها هما
يدخلان الحديقة: هل تبصرين الغصون الصّغيرة؟
هل تلمسين بها الخضرة البكر؟ هل تسمعين
بها النّبض مندفعاً؟ قرّبي ذلك الغصن
منك... اجعليه لصيق ذراعك... كوني
له نسغه، وليكن في ذراعك منه
ارتسام الوريقات... حرّية الطّفل حين
يلامس أهدابه في المرايا.
وقبّل زند الفتاة!
سأستخدم اسمك...

معذرة

ثمّ وجهك...

أنت ترى أنّ وجهك في الصّفحة الثّانيه

قناع لوجبي

وأنت ترى أنّي أرتدي الرّبطة القانيه

أتذكرها؟

يوم كنّا معا في «الحسيمة».

حيث اهتدينا إلّها

ويوم قصدت المصوّر، قبل جواز السّفر

وقبل السّفر

وقد كنت ألححت أن ترتديها

رجال الجوازات خلف مكاتهم

يعلكون النّبذ الرّديء

وكان جواز السّفر

يطالعه، واحدا، واحدا...

بين اختامهم والنّبذ الرّديء.

«سعدي يوسف» (الأعمال الكاملة)

انقضت سويّعات الرّحلة أسرع من ملح البصر...

مضت كحلّم...

مضت كوهم...

كسرّاب...

ورجعنا.

رجعت، وقد أصبحت خلال تلك السّاعات القصيرة، على شاطئ

البحر. وداخل المقهى العتيق، شاعرا. رغما عن أنفي، أقول كلاما، بيني

وبين نفسي، لم يسبق لي أن قلته، ولم أكن أتصوّر يوما أنّي سأقوله.

وكلّ ذلك لأجلها، وفي سبيلها. يومئذ، قرّ عزمي على مصارحتها، وقبل ذلك كنت أنقض في لحظة ما أبرمته خلال أشهر طويلة من العذاب، وأيام ثقيلة من التّرقّب. «لا بدّ من التّقدّم خطوة إلى الأمام! لا بدّ من اتّخاذ الخطوة الحاسمة، الآن، وقبل أن يفوت الأوان!» قلت لنفسي، وأنا في حال بين الضّعف والقوّة، في حال بين الرّجاء واليأس، وأضفت متشجّعا، متسلّحا بأخرخيطة واه من خيوط إصرار قديم: «هي كلمة واحدة، بضع كلمات على الأكثر، تسمعها، ثمّ ينتهي بعد ذلك الأمر.»

مع ذلك، كان عليّ أن أنتظر عدّة أيام آخر، خمسة عشر يوما على وجه الدقّة والتّحديد، كانت أخوف من وقع الموت، وأثقل على قلبي من الجبال الرّواسي، لا أدري كيف مرّت، ولا أستطيع، لو أردت، ضبط المشاعر التي اعترتني خلالها، أو تحديدها، لا أعرف أكانت تحسّبا، أو وهنا، أو انتشاء، أو توقّعا، ربّما كانت كلّ هذه الأحاسيس مجتمعة... كنت أنقلّي، كما لو كنت داخل قدر، أغلى في ماء على نار هادئة، وكنت أفكّر في الشّيء فأفعل نقيضه، وأظنّ حبيسا في غرفتي السّاعات الطّوال، أدخّن السّيجارة تلو السّيجارة، ويشرد بي خيالي وراء ممالك طيفها. لا بدّ أن أحسم الأمر! لا بدّ من لحظة مكاشفة ومصارحة!!

لكن، من لهذا الوطن الذي تأكّله الحرب إذا تفرّغنا للحبّ؟! الحرب تأكل كلّ شيء:

الأخضر واليابس!

الأبيض والأصفر!

البلاد والعباد!

لا تذر شيئا على حاله. ألا لعنت هذه الحرب!... كنّا قريبين جدّا رغم ذلك، قريبين وبعيدين في نفس الوقت. نتقابل يوميّا تقريبا، يومئ أحدنا إلى الآخر مشجّعا، نندمج وسط طابور الجمع الغاضب، ونخوض معمة الضّجيج اليوميّ، رافعي الأيدي في تحدّ، هاتفين بكلّ الكلام الكبير المزلزل، ما عدا تلك الكلمة الهادئة الحيّة الخجول التي

تصطرع في أعماقي، ولا أملك القدرة على سحبها من صدري، إلى دائرة الحياة، حيث الهواء يتنفّس دخانا، والأصوات تندلق مشبعة باللّعنات، والسّماء تصبّ غضبا من علياء استحالتها وتمتعها... كنت أرقها، أتأملها، أتتبع خطواتها، وأحرص أن لا تغيب عن مجال نظري، داخل الرّحام، وقد شعرت آلاف المرات بخوف داهم يجثم على صدري، حينما أرى وجهها وقد اسودّ واربدّ، وطغت عليه غلالة شفّافة من الغموض، وخصلات شعرها وقد تهدّلت في فوضى على كتفها، ويدها وهي تلوح متوعّدة، وتقذف الحجارة بسرعة وخفّة... شيء وحيد، لم يتبدّل فيها، أثناء تلك اللّحظات الوعرة، الخطرة، المهدّدة، وهو صوتها، أجل، صوتها، كنت أنس إليه حتّى حين تشتدّ حدّة نبره، وترتفع جهوريّة نغمه، وكنت ألمس فيه دائما تلك الخيوط الشّفيفة الواهنة من غرابة لا توصف، مواربة وراء حاجز رقيق من حزن دائم، مقيم، يأبى الإفصاح. ما السّرّ في صوتها؟ ما الغرابة؟ وما سرّ الغموض، يا ترى؟ كان يروق لي أن أسمّيها: ذات الصّوت، ويعجبني ذلك حدّ الجنون، ولا أقول لها ذلك، ربّما تغضب، أو تحسّ بجرح في كرامتها وصميم كبريائها!!

كثيرا ما تساءلت، وأنا ألاحظ تبدّل ملامحها، وجريها المتواصل الذي لا يني، داخل الرّحام، وكثافة الطّابور: هل يقبل من كان مثلها فكرة الحبّ بسهولة؟ فيطغى صوت من الأغوار السّحيقة المتاخمة، الضّاربة في أعماقي، قائلا في يقين: ولم لا؟ أليست أنثى؟ ثمّ يضيف، وقد اكتسب صرامة وقسوة: «انظر إلى نفسك، أولست أنت الآخر يعتريك ما يعترينا، ويستبدّ بك الألم والقهر، فتصرخ وتجري وتهتف، ثمّ انظر حولك جيّدا، هؤلاء الذين معك، يلتفّون من حولك، فتنصهر فيهم، الإناث كما الذّكور، أوليس لهم حقّ أن يحبّوا، أم أنّهم مكرّسون لحبّ الوطن، دون سواه.» وبعد قليل، يهّدأ، يقول، وقد غدا أقرب إلى المناجاة: «لا بدّ من تحرير الوطن كي يصفوز من الحبّ، كي يفرغ الذّكر للأنثى! الذّكر وطن، والأنثى وطن آخر، ولا بدّ من اتّحاد الوطنين كي يزهر الوطن الكبير

ويزدهي!»

أخيرا، وليس آخرا.

أخيرا، جاء الوقت المناسب، وحانت الفرصة المواتية.

ذات ليلة، من سنة جديدة، نذرها بادية، وآفاقها غائمة، وكنا في
القطار...

في القطار، داخله، وعلى جانبيه، وبين ردهاته، تسيطر حالة من
التحَفْز، وتكتنف الجلبة والضوضاء كلَّ المكان، حتَّى أَنِّي اضطررت
عديد المرات إلى إغلاق أذني بأطراف أصابعي. كانت المقاعد مشغولة،
وكذلك الممرّات، لا موطئ فيها لقدم، وكان المسافرون كلّهم متحلّقين
في مجموعات صغيرة، جماعات جماعات، حول أجهزة راديو بحجم
راحة الكفّ، ينتظرون اللّحظة الفاصلة... هذه اللّيلة، تنتهي المهلة،
ينقضي الزّمن المسموح به: إمّا الانسحاب اللّامشروط والاستسلام أو
الحرب الضّروس، الطّاحنة، الّتي لا تبقي ولا تذر، ولا خيارين هذين، لا
فواصل، لا فسحة من وقت آخر ممنوح.

دقّت الساعة منتصف اللّيل بالضّبط.

فجأة، هدأت الجلبة.

بعد فترة صمت، قال أحدهم:

انسحبت قوّاتنا!!

قال آخر:

أمر لا يصدّق!!

فآخر:

غير معقول!!

وصرخ آخر من مكان ما:

لا تصدّقوا، يا جماعة، إنّها خدعة. قوّاتنا لا تراجع أبدا، ولا شك أنّ

القيادة تريد أن تكسب الوقت، وتموّه على الدّول الأجنبيّة المحاصرة.

سرى ارتياح نسبيّ داخل القطار، وكأنّ الجميع كانوا ينتظرون مثل

هذا التّخمين للشّعور بالطّمأنينة والسّلوّ، وعادت الضّوضاء تسيطر على المكان من جديد بأكثر حدّة. ارتفعت أصوات عديدة في نفس الوقت، تردّد:

. أجل، صدقت. لا يمكن لقوّاتنا أن تتراجع! هذا هراء... كذب... وتزييف.

وعلت ضحكات مدوّية، ضحكات بهجة وسرور. كنت أجلس صامتا، وكانت تجلس ورأي تتحدّث إلى شخص بجانبها. كنت أتعجّل فراغها، وأنظر إليها، من حين لآخر، مضطرب الدّهن، مبلبل الخاطر.

حينما التفتَ إليها آخر مرّة، كانت ساكنة. شاردة قليلا، والمقعد بجانبها شاغرا. رجف قلبي بقوة، وأحسست بكلّ عصفير الكون تزقزق بداخلي. مضيت نحوها، ورجلاي لا تكادان تحملاني من الضّعف والتّوتر. كنت أعددت كلاما كثيرا لأقوله لها، ومكثت أيّاما بطولها أحاصر مشاعري الفائرة، وأحضّر أسلوبا ملائما للتّعبير عنها إذا قابلتها. وها أنذا أمامها، في هذه اللّحظة شبه المستحيلة، الطّوإلى جانبها، وقد انهار، فجأة، كلّ ذلك الصّبح الذي تعهّدته أيّاما، لبنة لبنة، ولم يبق منه سوى أنصاف رغبات باهتة، لفظتها دفعة واحدة، حين سألتني، في كلمتين جافّتين، لا حياة بهما:

أنا أحبّك.

كنت أريد أن أقول لها أكثر من ذلك، وددت لو طالعتها بكلام ما قاله بشر قطّ... أحسست يومئذ بخزي، واليوم أحسّ بخزي أكبر. إنّي لم أقتنع، ولو للحظة واحدة، بجدوى تينك الكلمتين، ومع ذلك قلتهما... كان البديل أكبر من الكلام، أكبر من التّجسّد والظّهور، وأكبر من الأسماء والأحرف والألفاظ! أنا حزين!

أجفّلت. تراجعت بجسدها قليلا إلى الوراء، وأمارات الحيرة بادية على وجهها. لعلّها لم تكن تتوقّع أن أقول لها ذلك، وفي هذا الظّرف

بالذات! أو لعلها لم تكن تظنّ أنّ علاقتنا يمكن أن تبلغ درجة من الحميمية، أقول لها على إثرها إني أحبها، وإذا وافقت يمكن أن نتزوج، ونقيم دعائم البيت، وننجب أطفالا سعداء، بإمكانهم أن يعوضوا جفاف حياتنا خيرا.

سمعت نشيجها.

كانت تبكي.

لم أنظر إليها، ولم أعرف آنذاك أرثي لها أم لنفسي الخائبة أرثي، في لحظة الحزن الشاقّة تلك. شعرت برغبة جارفة في الاعتذار. رفعت رأسي نحوها ببطء شديد. وقلت، وقد بدأ ينتابني مثل الدّوار:

سامحيني، لم أقصد أن أجرحك...

صمتّ برهة. قلت مستأنفا:

ومع ذلك يجب أن تفهمي جيّدا أنّي أحببتك أكثر من كلّ شيء في حياتي... أحببتك كما لم أحب شيئا من قبل، وأحبك، وسأظلّ أحبك، حتّى ولو لم تكوني تبادليني نفس الشّعور... لا يهمّ أن نتزوج، وأن يكون لنا بيت وأبناء. يكفي أن تكوني بقلبي... إلى الأبد.

حضنت يدي في يدها، وتطلّعت صوبي، وقد عاودها هدوؤها. خرج صوتها خبيثا رقيقا:

صدّقي، أنا لا أستطيع أن أحبّ.

لم أتمالك نفسي. صرخت دون وعي:

لماذا؟!

قالت:

من أجل العائلة... من أجل أخي الصّغير!!

وأضافت بعد لحظات بنبرة واثقة لا تحتمل المراجعة:

فلنبقِ أصدقاء، هذا أفضل.

لم أزد على كلامها شيئا.

وافترقنا.

فوجئت حينما عدت إلى الحيّ، لأنّ أغلب ما توقّعتَه لم يحدث. بل إنّ ذلك اللّقاء نفسه في القطار تلاشى في ذاكرتي أو كاد. لم تستشعر روعي وحشة الخيبة، ولم يقلّ زادي، ولم يتغيّر لوني، وبقيت نظراتي ترنو إلى البعيد، كالاعتاد، حتّى من قبل أن تظهر الانسنة «ث» في حياتي، وفي وقت ما، أحسست بطمأنينة تغمرني، ربّما لأنّ تلك العلاقة انتهت عند ذلك الحدّ. ولم تتطوّر إلى أبعد من ذلك.

لكن، هل ما حدث بعدئذ كان جرّاء القطيعة. هل ما حدث نتيجة جرعة حزن قاتلة؟ كنت في الفراش، بين اليقظة والنّوم، كلّ شيء داخل غرفتي غائم، مائع، حينما توقّف فجأة نبض قلبي، وفارقت جسدي كلّ حركته وحيويّته. هل تصدّقون. أيّها السّادة المحترمون الكرام. أنّي متّ في تلك اللّحظة بالذّات. نعم! لقد متّ ثمّ بعثت مرّة ثانية. إذن، أنا الحيّ الميّت!!

والذي قال لي، بعد الّذي حدث:

. فتحت الغرفة، في الصّباح، حين أبطأت في النّوم، ومن الباب ناديتك، غير أنّك لم تجبني. تقدّمت من السّرير، وهزّزت كتفك ببطء ورفق. كان جسدك باردا. رفعت يدك قليلا، وتركمتها، فسقطت تلقائيّا، من نفسها. أصابني صمت أبكم. عريدت بداخلي مشاعر متضاربة. كنت أريد أن أصرخ، وأريد أن أبكي، أحسست برغبة شديدة في العويل، غير أنّي لم أفعل شيئا من ذلك... صدّقني، يا ولدي، لقد غسّلتك بيديّ، وبنفسي وارتيت داخل الكفن، ثمّ سجّيتك، كان كلّ شيء قد انتهى فعلا، لكنّ رحمة الله بلا حدود... حين أوشكنا على إهالة التّراب عليك، قمّت، استفتقت، عدت بشرا سويا من جديد!!

كان صاحبي ما يزال قابعا في مكانه، فوق الصخرة مقابلي، وقد حدّثني فقال:

. سأحدّثك عن شيء لم تقرأه إلى حدّ الآن، لا في الأوراق، ولا في المظروف، وربما إذا لم أحدّثك، فلن يحدّثك به أحد غيري.

سحب سيجارة أشعلها، وجذب نفسا عميقا، ثم استأنف قائلا:

. اكتملت لك بذلك البلد الأجنبيّ، العائم فوق البحر، محاطا بمملكة الماء من جميع جهاته، وقد كنت زرتّه في بعثة دراسيّة، نظّمها إدارة الكلية التي تدرس فيها بالحاضرة، مدّة شهرين وعشرة أيّام بالتّمام والكمال، عدّا غير منقوص ولا مغشوش، ابتدأت في آخر يوم من شهر أيلول سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف، وانتهت في العاشر من شهر كانون الأوّل من نفس السّنة. كنت آنذاك ما تزال مغمورا بالأمل الكبير، في أن تسعك أطراف ذلك البلد الذي طالما قرأت عنه في المقرّرات الرّسميّة، وسمعت عنه من أساتذتك بقسم اللّغات الثّنيّ الكثير، إلى الحدّ الذي جعلك تعتقد جازما أنّه لو ألقي بك في جنباته القصيّة، ومراميه الوسيعة، فلن تتيه أو تضلّ، ولو كنت وحيدا، منفردا، دون صاحب أو دليل. لقد بدأت تشعر، في تلك الفترة، أنّك تعرف ذلك البلد حقّ المعرفة رغم أنّك لم تزره في حياتك البتّة، اللّهم إلّا بعض ما كان يطالعك من معالمه، ومدنه، وشوارعه، على قنوات التّلفزيون، تعرفه أكثر من الحيّ الذي ولدت ونشأت فيه، وكان شاهدا عليك في كلّ ما مرّ بك من أوقات صفاء، وحالات كدر، بل أحسست، في لحظات معيّنة، لكثرة ما سكنت أغوارك ملامحه، أنّك تعرفه أكثر من نفسك، ومن عشيرتك الأقربين، فتخيّلته وأنت تأكل، وطافت بك أرجاؤه وأنت تتأمّل

شاردا، ورأيته آلاف المرات في أحلامك. لم تكن قد عرفت الأنسة «ث»
آنذ، وكان قلبك فارغا كفراغ فؤاد أم موسى.

قبل انتهاء السنة الثانية من دراستك الجامعية بحاضرة البلاد،
بعده أشهر، أصبحت تنظر إلى الأشياء من زاوية مختلفة، وبدأت تشكّ
في أكثر قناعاتك رسوخا، وقد كنت تعتقد من قبل أنّ ما اكتسبته من
عادات، وتعهّدته بعنايتك وحنانك من أفكار، ومشاعر، وأحاسيس،
ومبادئ، ثابت، لا يتغيّر، ولو أتت عليه عشرات السنين، وهو مقدّس
كقداسة قبر والدتك في قلبك... وحدتك اخترتها بنفسك، وكنت راضيا
مطمئنا، انفرادك، استيحاك، والخوف من شيء ما يتربّص بك
دائما في مكان ما، وهروبك من كون المرأة الفاتن المغربي، وخشية أن
يأتي عليك يوم، فتتهار تماما أمام تعدّد أقنعتها، التي ما لها حصرولا
عدّ... كنت دائما تتوق إلى امرأة ما، وتستعيد في ذاكرتك الكليلة مجال
فتنتها الغامضة كلّما جنّك الليل، وحينما يضيء أوّل خيط من خيوط
الفجر، تتهار جميع ممالكك السرابية. الآن، تشعر أنّ هناك شيئا لا بدّ
أن يتغيّر، لا بدّ أن يتبدّل، ويتلاشى دونما رجعة. لقد فكّرت كثيرا قبل
أن تقدم، ومرتّ عليك أيام عسر صعب، وليال أرق طويلة وأنت تضرر
القرار تلو القرار، ثمّ في لحظة تهدم ما بنيته، مستأنفا نفس المسار
الشاقّ والرحلة المؤلمة. أخيرا، وبعد جهد جهيد، ألقي بك قاربك الأيل،
المشفي على الغرق والهلاك، إلى برّ الأمان، فتنفّست الصعداء، وهدأت
روحك هدوء أرقّ وأشفّ من الموت... قلت، وأنت متّكى بمرفقك على
سريرك بالغرفة، وتلبس بنظالا قصيرا بينما جذعك عار، وأناملك
تعبث بخراطوم غليون لم يمض عليه يومان من حين اشتريته، ومن
حين لآخر، ترسم على شفّتيك عامدا طيف ابتسامة رقيقة، كي لا تشعر
بالضعف والحرج: «هذا يكفي، لقد سنمت حياة المنفى التي أعيشها منذ
عشرين عاما!» خاطبك ذلك الشّخص الذي يجلس في مواجهتك على
السّير المقابل، والذي تعرفه جيّدا، قائلا: «ماذا تعني؟» تململت قليلا

في جلستك، وأرحت يدك على فخذك شبه العاري، بعد أن وضعت الغليون على السرير، وقلت وأطياف تلك الابتسامة مازالت تحوم حول شفيتك: «بكلّ بساطة أعني ما فهمته... لقد ضقت بجذب هذه الحياة العاقر، حياة الصوّفيّ، الذي تنسّك بعمق مغارته، لا يكلم أحداً، ولا يكلمه أحد، حتّى أنّه صار يخشى على نفسه من نفسه لكثرة ما فرغ لها ساعات أطول من لحظة الموت، مشمولاً بصمت قاتل أبكم... لقد سئمت، وأن لي أن أتحرّر!» سألك بهدوء، وهو ما يزال في نفس موقفه، محافظاً على نفس وضعه في جلسته: «وماذا تنوي أن تفعل؟» قلت: «سأستبدل حياة الوجودي بحياة الصوّفيّ، أعيش للحظّي، أفعل ما يحلو لي، كما يحلو لي، ومتى يحلو لي!» استقام في جلسته، كأنه يضمّر شيئاً، بدا لك حضوره جاداً إلى أبعد الحدود. قال، وقد تغيّرت نبرة صوته، فصارت أكثر صرامة دون أن تفارقها رصانتها: «فكّر جيّداً بالأمر، إنّك ما تزال هشاً، والعالم الذي ينتظرك في الخارج كبير، كبير جداً، وأكبر ممّا تتوقّع... ثمّ ألم تفكّر فيما يمكن أن يقوله الذين يعرفونك. ربّما يسخرون منك، أو يغتالون براءتك بكلماتهم الجارحة القاتلة... أرجوك، لتعط نفسك فرصة إضافية للتّفكير.» شعرت باستثارة، وغضب شفيف ينتابك فجأة، فنهضت، ورحلت تجوب أرض الغرفة جيئةً وذهاباً. قلت بعد أن هدأ انفعالك: «لن أكلف نفسي عناء التّفكير من جديد. لقد فكّرت بما فيه الكفاية، وحزمت أمري، وكلام النّاس، ما يمكن أن يقولوه، لا همّتي في قليل أو كثير. ليذهبوا إلى الجحيم، هم وكلامهم وسخريتهم وسخافاتهم!!»

انقضت السّنة الدّراسيّة بسلام، وكلّ تعب عام أكمله من المثابرة والصّبر والضّيق بنجاح باهر فرحت له، هذه المرّة، من كلّ قلبك، وكأنّك لم تشهد لحظات مماثلة من قبل، وكأنّك أيضاً لم تنتش حدّ السّكر بفورة نجاحات سابقة. أجل، لقد كانت فرحتك بهذا النّجاح لا توصف ولا تضارع، نجاحك هذا، شبه المتوقّع من بداية السّنة، ضروريّ للمرور

إلى الضفّة الأخرى، تأشيرة عبور لذاك البلد البعيد، الجاثم وراء البحر في شموخه الأزليّ الجليل.

عدت في أواخر شهر حزيران إلى الحيّ، والأهل، ودفع البيت، وانقضت الأيام الأولى لعودتك شهية، عذبة، رغم الرتابة ووهج الحرّ الذي لا يطاق. جاء الصيف مبكرا ذلك العام، وقال شيوخ الحيّ إنه صيف لم يشهدوا مثله منذ عشر سنوات أو أكثر، ومع ذلك لم تهتمّ لذلك، ولم يبد عليك أنك تبالي بالحرارة كثيرا. كنت تغادر البيت في حمارة القيظ، وتقطع الجادة المكشوفة، وتظلّ ساعات طوالا تتجول هنا وهناك دون غاية أو هدف، مصغيا فقط لذلك الصوت الأثيريّ الذي ما يفتأ يهتّنك بما أحرزته من نصر، وبرحلتك المنتظرة إلى مدائن الثلج والضباب. ومرة حملتك خطاك، بعد الظهيرة، إلى ذات المقهى الذي جلست في إحدى زواياه لعامين خلوا، فطفردا خلك نفس الحنين وأنت تسمع مستغرقا أنغام الموسيقى نفسها، وهي تنبعث من مكان ما في الدّاخل. تقدّمت. وقد زایلک ذلك الإحساس بالحرّج الذي شعرت به وأنت تدخل المقهى لأوّل مرّة، وجلست في نفس الزاوية، وحينما اقترب منك النّادل، ظلّ يتفرّس في وجهك لحظة، كأنّه يستعرض في ذاكرته شيئا ما، ثمّ قال، مادّا يده لمصافحتك:

أهلا وسهلا، أظنّ أنّي أعرفك، وجهك ليس غريبا عنيّ.

مددت له يدك في المقابل، وقد شعرت بسعادة غامرة تتسرّب عبر شرايينك، ثمّ قلت:

صديقت. أنا أيضا أعرفك، وقد جئت إلى هذا المقهى منذ عامين.

وسحبت يدك، بأدب، من يده، ثمّ أضفت، ولا تدري لماذا:

كنت في الحاضرة، وقد صار لي بها عامان، أدرس في إحدى كليّاتها،

وقد نجحت هذا العام. وسأسافر في نهاية أيلول القادم.

قال:

مبارك.

ولم يسألك «إلى أين؟»، وكنت راغبا أن تخبره عن وجهة سفرك، إلا أنك تراجعته. قلت في نفسك: «تكون قلّة أدب من جانبي أن أخبر عما لم أسأل عنه، وسأكون ثقيلا لوماتديت وألححت.»
تحرك ليذهب وهو يقول:

سأحضر لك قهوة، وسأدفع ثمنها. أنت ضيفي هذا اليوم.
في الأسبوع الثالث بعد عودتك، وكان اليوم جمعة، دهمت كآبة منذ الساعات الأولى من الصّباح، وأنت على السرير في غرفتك. وقد استيقظت لتوّك من نوم دافئ عميق، لولا ذلك الحلم المفاجئ الذي مرّ كطيف، رأيت كأنك في مكان منبسط فسيح، يحوطه سور صخري، من كافّة أطرافه، في البداية لم تر شيئا، وقد أوشكت أن تمضي في حال سبيلك، ولكن في وقت ما، سمعت صوتا وراءك يناديك باسمك فالتفت. عندئذ، شاهدت المكان المنبسط الفسيح، وقد انبثت في جنباته قبور متعدّدة الألوان والأحجام، وفي الوسط، رأيت قبرا ينفّث فجأة، وتخرج منه امرأة تلفّها هالة من البياض، ولها جناحان، تمدّ إليك يدها، وتقول بصوت عذب سلسبيل: «تعال، يا بني، ودعني أشتّم رائحتك، قبل أن أذهب ثانية. لقد استأذنت من الرّب أن يمنحني فرصة اللّقاء بك، بعد أن تيقّنت من نجاحك، وها أنذي أمامك، فتعال إليّ أضمّك.» اقتربت، بخطى وثيدة متردّدة في بادئ الأمر، ثمّ شعرت بانجذاب قاهر إليها فجريت... ابتعدت قليلا... جريت أكثر... كنت كلّما جريت أكثر ابتعدت بدورها أكثر، حتّى اختفت، وطواها امتداد الأفق. ممتلنا بالبكاء، والرّجاء، واليأس، حوّلت وجهتك، انطلقت نحو القبر، وجثوت أمامه، كان منغلقا، صامتا، مواربا في جموده وغيبابه.

قلت: إنّها إشارة!

لم يطل مكثك في الفراش، فلبست ثيابك، وغادرت البيت دون أن تبوح لأحد بوجهة مسيرك، وقد حرصت أيضا أن لا يلحظ خروجك أحد، ويمت شطر المقبرة، عبر الزّقاق الذي كان شبه خال في ذلك الصّباح

الصَّيْفِيَّ الحَارَّ. كنت مضطرباً، وكانت تتعاورك هواجس وأفكار شتى، لم تقدر أن تكبح جماح عريبتها المشاكسة. متى زرت المقبرة آخر مرة؟ وهل مازلت تذكرها، والدتك. تلك التي تكتنفها جهامة القبر؟ لقد عبرت أشهر بطولها، بل سنوات كاملة، لم تزر فيها القبر، ولم تستعد صورة تلك المرأة التي كانت في يوم ما أمك حتى كادت ملامحها تنطمس في ذاكرتك. واليوم، ها أنتذا تقودك خطواتك إلى هناك، إلى مملكة حضورها، فهل أنت متأكد أنك ستهتدي إلى الحفرة التي طمرت فيها رفاتها؟ غزتك رهبة داهمة، وأنت تقترب من السَّور الصَّخْرِي، وأحسست للحظة بسيطرة الموت الذي يمكن أن يطال كل شيء في أي وقت يشاء، في يقظة أو منام، في صحّة أو مرض، في جنون أو عافية، وتملكك إحساس باطني بحزن ما له حدود إذ فكرت أنّ الموت الذي اغتال والدتك قد يغتالك أنت أيضاً، بغتة، ودون استئذان، حتى من قبل أن تنعم بالسَّفر المرتقب إلى ما وراء البحر. قلت: «أنا لا أخاف الموت! لكن، لا أريد أن أموت الآن!»

دخلت من الباب، ورحت تجوس خلال المنبسط الفسيح، من أدناه إلى أقصاه، ما يقرب من ربع ساعة، دون أن تهتدي إلى قبرها، وسط مئات القبور الأخرى التي تتشابه إلى حدّ التماثل حجماً وشكلاً. كانت القبور جميعها إلا قليلاً منها شبه هرميّة، مبنية من الطين، وقد تآكل بعضها في مواضع عدّة جرّاء الأمطار، وعبث الكلاب السَّائبة. وحتى يميّز أهل الحيّ قبور موتاهم، عند الزّيارة، سيّما أيّام الجمعة، كان الواحد يضع على قبر فقيدته قطعة متوسطة الحجم من الرّخام الأملس، يسندها بحجر صغير من ناحية الرّأس، وقد خطّ عليها بعد البسملة، اسم الميّت وتاريخ الوفاة، وفي الأخير دعاء باستمطار الرّحمة على روحه. كذا أمرت جدّتك حينما زارت مرة قبر كبرى بناتها، وكنت ما تزال صبيّاً برفقتها، ولاحظت إذ ذاك خلوّ القبر من أيّة علامة فارقة، فقرّرت دون تردّد أن تضع بدورها قطعة رخام، وأشارت إليك قائلة، بعد أن لطت على مرتفع ترايب، يفصل قبر الوالدة عن قبر الجدّ: «انظر، هذا قبر أمك،

احفظه جيّداً، وتذكّر العلامة، فهي ستدلك دائماً.» بحثت عن العلامة فلم تجدها، غير أنّه خيّل إليك أنّك تستطيع تحديد موقع القبر بناءً على ما سمعته. وتحقّقته في صغرك: قبر طيّبٍ، يتوسّط القبور الأخرى، في أقصى الجهة الشّماليّة، بجانبه من ناحية اليمين قبر صغير... مضيت. سطعت أنفك رائحة الموت ممزوجة بشذى سكيّنة غريبة، وروائح أشياء أخرى لم تستطع تحديدها، أو وصفها، أو التّعير عنها. عند حدّ معيّن توقّفت، في نفس المكان الذي ضبطت حدوده وسماته، وصالبت يديك على صدرك، وأغمضت عينيك متمتماً، ثمّ جثوت على ركبتك، وقد استبدّ بك الانفعال، وخانك ضعف دفين، فاهمرت الدّموع كبيرة غزاراً، على خديك الخاسفين.

قلت بصوت متحشّج أشبه بالمناجاة:

لا عذر لي، أعلم ذلك، ولا مفرّ لي من الاعتذار، وأنا في حضرتك، وعلى اعتابك، في هذا المكان المنقطع، فسامحني لتقصيري، واغفري لي خطيئة نسيانك كلّ هذا الوقت. لقد كنت تائهاً، مشطوراً بين النّفائض، مشّتت البال، مضطرب الخاطر، ما أكاد أهدأ حتّى أنشغل بآلاف الأشياء من جديد. وها أنذا الآن أمامك، مجرداً من النّسيان، خلوا من أنانيّتي، متخلّياً دفعة واحدة عن غروري، ووحدي وانعزالي، فريّ من هذه الحفرة الضّيقة الصّماء، وصيّ عليّ سياط لعنتك إذا أردت، أو اضربي، أو اشتمي، أو احضيني. سيّان عندي ما تريدن وما تشتهين. المهمّ أن لا تتجاهلي ضراعتي بين يديك، وأن لا تنظري إليّ من علياء سمائك القصيّة، بحياد، دون أن تنبسي كأنك لا تمثّين إليّ بصلة أمومة، ولا أمت إليك بأواصر بنوّة مسكيّنة، محرومة. هيّ من قبرك إذن، فذا أنا أمامك، مستعدّ لسداد الدّين الذي عليّ، كاملاً، دون نقصان، ولك عليّ أن أظّل صامتاً، أبكم، لا أتزحزح من دائرة سكوني، رغم ما يعتورني من لّجاجة حانية وعتاب طالما تعهّدته بالعناية داخلي، ولك عليّ أن أتقبّل قرار حكمك أيّاً كانت النّتائج والعواقب، فليكن

القصاص كائننا ما يكون، الإدانة أو العفو، أو الإبعاد أو النفي، فأنا ما عاد يعني، في لحظتي المشحونة هذه، إلا سماع صوتك؛ أجل، سماع صوتك فقط. فتجلي، لأبتك شجن السنين، مذ كنت صبيًا لم أتجاوز السادسة بعد، لأقول لك كم أحببتك، وأحبك، وسأظل أحبك حتى أخرمق، وإنه حين يبرح بي الشوق أتناول صورتك وأتأملها كي تثبت الملامح في الذاكرة، فيلم بي طيفك ليلا، متوشحًا بهالته النورانية، عبر خيوط الحلم. لماذا لا تزورين؟ لماذا لا تطيفين، ولو لماما؟ لماذا لم تأتي قبل هذه الليلة؟ هل أنت عاتبة؟ هل أنت غاضبة؟ قولي، أستحلفك بكل مقدسات السماء والأرض، أن تتكلمي، أن تومني، أن تشيري، فمن يعلم؟ ربّما لا نلتقي مرّة ثانية... ربّما تتحطّم الطائرة فجأة... ربّما يطيف بي الموت، هناك، في ذلك البلد، بعيدا عن الديرة، والجيرة، والصحاب... لا شيء مضمون... ومع القدر ينعدم الضمان. فتجلي إذن، وقولي ما بدا لك، لكن لا تظلي صامتة! أعلم، لا عذري، ولا مفر من الاعتذار، فسامحيني... سامحيني... سامحيني!!!

استغفرك، بعد ذلك، شواغل السفر، فندست زيارة القبر والمقبرة. وكنت تؤمل أن تترود منها قبل الرحيل، فانتظرتها ليالي مؤرقة، بطولها، فلم تأت. ساءك ذلك، في البداية، ثم ما عتمت أن سلوت، أمام الحركة الدائبة في البيت من أجل تحضير الحفائب، وشراء بعض المستلزمات الضرورية، التي لاغنى عنها في ديار الغربة، من ملابس صوف، وقفازات، وبعض الملابس الداخلية... لقد تحوّل المنزل، في غضون عشرة أيام، إلى بؤرة لا تهدأ، أشبه بخليّة النحل، أطرافها الأب المستثار و«عزة» الصغيرة. الكبيرة و«عبير» التي أصبحت زوجة وأما لولدين. كان والدك ينهك إلى كل كبيرة وصغيرة، ويذكرك بما نسيته، وغفلت عنه، وقد اشترى بنفسه كل شيء، متعمدا الإسراف لأول مرّة في حياته، متخليا بذلك عن حسن تقشّف صاحبه سنين، وحينما أبدت اعتراضا تجاه ما يفعل، قال، وقد مازجت صوته نبرة فرح حزينة: «يا ولدي، مثل هذا

السَّفر لا يحدث كلَّ يوم. لا يتكرَّر دائماً! إنَّه فرصة تسنح مرَّة واحدة في العمر، وأنت وحيد، غاية المطلب والمراد، فدعني أفرح بك، قبل أن يحمَّ القضاء ويحين الأجل.» وسكت هنيئة. ثمَّ أضاف بنبرة مترققة: «تمنَّيت لو كانت والدتك حاضرة معنا في هذا اليوم، كانت فرحتها ستفوق فرحتنا جميعاً، لكن لا حيلة في الأمر، وما شاء الله كان!» «عزَّة»، أختك الصَّغرى، في المقابل، كانت كالحباحب، تنتقل من مكان إلى مكان، بخفَّة القطة المدرَّبة، تجمع الأغراض المبعثرة، ترتب ما انتثر، تسوِّي الملابس داخل الحقائب، و«عبير» تراقب بعينها المتفحَّصتين كلَّ شيء، وتحرص أن يتمَّ الأمر على أحسن ما يرام، فتلتحق بـ «عزَّة»، وتساعدُها، لا تتركها لحظة، لئلاَّ تخطئ، أو تنسى، وحينما تفرَّغ من كلِّ ذلك، تطيل الجلوس إليك، تقضي ساعات في غرفتك، تنصحك، ترشدك إلى ضرورة الاعتناء بصحَّتكَ، تجلب انتباهك إلى برد البقاع هناك، وتروم الحذر والتَّوقي.

ذات مساءً، من شهر أغسطس، حوالي السَّاعة السَّابعة والنَّصف، كنت أمام الباب الخارجيّ، ملتقاً بظلمة أوائل اللَّيل، أختاك في مواجهتك، ووالدك على يمينك يحمل حقيبة كبيرة، هو مصمَّم أن يصحبك هذه المرَّة رغم ممانعتك. لقد ذكَّرك هذا المشهد بآخر مرَّت عليه الآن سنتان، حينما كنت بصدد مغادرة الحيِّ لأوَّل مرَّة باتِّجاه الحاضرة الَّتِي كانت إلى حدِّ تلك السَّاعة سراً ملغزاً، وعالماً مترامياً، غامض المَجاهل والأتون. في المرَّة الأولى، كان والدك يقف بجانب «عبير»، و«عزَّة» تختبئ وراءها، وكنت في مواجهة الجميع تحاذران يثبي بك انفعالك، وقد مرَّت لحظات صمت، أعقبها فترة مناجاة، ثمَّ كان الوداع، واختراق الزَّقاق وحيداً، منفرداً. هذه المرَّة، كبرت الأخت الصَّغرى، بدورها، وهي تقف بمحاذاة أختها المتزوجة، ترنو على وجه كلِّ واحدة منهما ابتسامة حزينة، ووالدك، الَّذِي لم يلح في المرَّة السَّابقة، مصمَّم الآن، موطن العزم على اصطحابك.

عندما تحرّك الموكب الصّغير، قالت «عبير»:
تذهب وترجع بالسلامة إن شاء الله. خلّ بالك من نفسك.
وجرت «عزّة» نحوك، ورمّت بنفسها في حضنك، ودسّت رأسها في
صدرك، وبكت بصمت. قلت مواسيا:
لن تطول الغيبة، وستجدونني، بين يوم وآخر، بينكم، مرّة أخرى.
سحبت نفسك برفق، ولوّحت بيدك، ثمّ أوليتهما ظهرك.
الدّقائِق الأخيرة قبل انطلاق القطار، داخل صالة الانتظار في
المحطّة، كانت مشحونة بالانفعال، ومؤلّة إلى حدّ الإحساس بالعذاب.
لحظة وداع، أب وابنه، يجلسان جنبا إلى جنب، متقاربين، متماسّين،
يترقّق على شفّتهما الكلام، مثقلا بأطياف بكاء حيّة، تربض في مكان
ما، كي لا يزعج أحدهما الآخر، وهما على وشك فراق. وإن كان مؤقّتا،
فهو لا محالة ممضّ، مكدرّ. قال لك كلاما كثيرا، واكتفيت أغلب الوقت
بالاستماع. مطأطئ الرأس، تصغي إلى صوت ستفتقد نبرته أكثر من
شهرين متتابعين، ويعتريك في لحظة ما شرود. فيذهب خيالك بعيدا،
متحمّسا الدّروب، في يوم قرّ، إلى منزل غير منزلك، وغرفة جديدة. ربّما
تكون صغيرة. ستكون على ذمّتك، حتّى تنقضي المدّة. تتساءل: «متى
سيكون ذلك؟ متى نبدأ لنصل؟» وقبل أن تجيب، يختطفك صوت
الوالد ثانية، فيتأكّد حضورك داخل دائرة سيطرته، وتنظر من حولك،
فترى أنوار الصّالة السّاطعة، وأفواج المسافرين رائحة آيبة، وتتناهى
إلى أذنيك أصوات نافرة. وتسمع ضجيجا، فتسكن روحك، وتطمئنّ إلى
كونك لست الزّاحل الوحيد، وإنّما أنت واحد من بين مئات، سيكون
لكلّ منهم وجهة يقصدها، ومحجّة يؤمّها.
حين انتهت، كانت يد والدك تمتدّ إليك بلفافة حمراء، مستطيلة
الشّكل، وعندما تطلّعت إليه بعينيك مستفسرا، قال:
هذه النّقود خذها.
قلت:

دع هذه النقود معك، فإنّ عندي كفاية من المال.

كنت تكذب عليه. لم تشأ أن تثقل عليه. قال:

ومع ذلك، ستأخذها، وإذا احتجت إلى المزيد، فلا تتردد في الإرسال إليّ قبل أن تسافر.

نهض بعد ذلك، وأمسك بمقبض الحقيبة، وتقدّم إلى الأمام متّجها صوب باب الخروج. لحقت به، وقد دسست اللّفاة في جيبك، دون أن تتحقّق قيمة المبلغ. كنت. حقًا. أحوج ما تكون إلى المال، غير أنّك كنت تخشى أن يقال شابّ يعيش عالة، ويكلّف أباه من أمره رهقا. لما خرجت رأيته يقف أمام القطار، والحقيبة تستريح إلى جانبه. كانت الأبواب ما تزال موصدة، والمسافرون، إلى جانبهم أغراضهم، ينتظرون أمامها، وهم يزجون اللّحظات الأخيرة بأحاديث قصيرة، متقطّعة. ارتفع صفير القاطرة فجأة، وفتحت الأبواب تلقائيًا. نظر إليك والدك، ثمّ جذبك إليه، فأرحت رأسك الصّغيرة على كتفه، وحينما أحسّ بدنوّ المغادرة الوشيكة، تركك قائلاً:

اعتن بنفسك جيّدًا. تصرف بحكمة. ولا تتردد في إرسال المكاتيب.

ثمّ قذف، وأنت تدلف من الباب:

اذهب في عناية الله.

تحرك القطار في الثامنة... وفي السّادسة صباحًا، كنت تنزل حقيبتك في المحطّة الأخيرة، وتمضي صوب الهيّ الكبير، ومن هناك دلفت إلى السّاحة الأماميّة المواجهة له، حيث استقلّيت سيّارة تاكسي إلى الحيّ الجامعيّ. في نهاية الموقف، أخرجت تلك اللّفاة الحمراء. فتبيّن لك هزالها، وعدادت المبلغ، فكان مائة دولار، لا تنقص سنتًا واحدًا، ولا تزيد على ذلك، عشرورقات من فئة العشرة دولارات. تساءلت، بينك وبين نفسك: «ماذا يمكن أن يفعل مبلغ كهذا؟» وضحكت من كلّ قلبك، إذ تصوّرت نفسك مفلسًا في ثالث يوم. على أقصى تقدير، بعد نزولك بذلك البلد، وقد صرفت كلّ ما معك من نقود. عندئذ، ستعترضك صعاب، وتعيش أوقاتا عصيبة، فممن ستقترض؟ وهل ستقدم على

ذلك، دون أن تشعر بمرارة أو حرج؟ لقد علمت، فيما بعد، أن كثيرين ممن رافقوك في البعثة قد حملوا معهم أضعاف أضعاف ما معك. أحدهم مثلاً أخذ ألف دولار، ولم تمرّ عليه ثلاثة أسابيع، حتّى أرسل إلى قريب له بفرنسا، فأرسل إليه ألف دولار أخرى، مثلها! أنت لا أقرباء لك بأيّ بلد أوروبّيّ، وحتّى لو أرسلت إلى أهلِكَ تطلب مالا، فلن يتمكنوا من إرسال النّقود إليك. لا بدّ من وسيط ترسل عن طريقه العملة من أوربا. ذات يوم، وبينما كنت في مشرب الحّيّ، تدخّن شاردا، جاءك صديق، كانت جمعتك به الصّدْف، هو صديقك «مرتضى»، الّذي درس معك بنفس الصّفّ خلال سنتك الأولى بالكلّية، وظللتما على اتّصال حتّى بعد أن فرقت بينكما مشاغل الحياة وهمومها، وقد علمت في الإبتان أنّه نجح هو أيضاً، وستذهبان معا في نفس البعثة، الّتي ستضمّ أكثر من مائة طالب وطالبة. جلس، دون استئذان، كما هي عادته دائماً، وظلّ مدّة صامتا، ثمّ التفت إليك، وقال دون مبالاة:

هل ذهبت إلى الكلّية اليوم؟

قلت سائلا:

لماذا؟

رنا إلى الباب المفتوح، وقال بنفس النّبرة اللامبالية:
لقد علّقت إدارة القسم اليوم قوائم بأسماء الطّلبة الّذين سيكونون موزّعين على ثمانى مدن بالمملكة المتّحدة.

سألت:

وبأيّ مدينة ستقيم أنت؟

قال:

سنكون، أنا وأنت، بنفس المدينة. أليس هذا جميلا؟

قلت بعد أن جذبت نفسا من السّيجارة، ونفثت الدّخان:

طبعاً، سيكون ذلك جميلا. دائماً اثنان خير من واحد!!

راقته العبارة الأخيرة، فنَدّت شفّته عن ابتسامة حلوة، وقال دونما

سبب ظاهر:

هذه أول مرة، سأسافر فيها بعيدا عن الأهل والأصدقاء، وقد أصّر والدي أن يعطيني مبلغا هائلا، رغم محاولتي إقناعه بعدم تهويل الأمر. قال إنّ الرحلة شاقّة، ولا بدّ أن تمتّع نفسك، وتغتنم فرصة وجودك هناك.

وبعد فترة صمت، سألك، وقد تعمّد أن يكون فضوليا:

وكيف هي الحال معك؟

أحسست بحرج مفاجئ، وخشيت أن تصارحه، فيسخر منك، فقلت معتصما بالكذب:

مستورة، والحمد لله. لديّ ما يكفي، وهذا هو المهمّ.

صالب رجليه، وأخذ يداعب ذقنه بأطراف أنامله الطويلة، وظلّ كذلك فترة قصيرة، قال بعدها:

يشاع أنّ الإدارة الماليّة ستقدّم موعد إسناد المنح بمناسبة البعثة.

سألته، وقد اعترتك سعادة مداهمة، ما لها حدود:

وهل هذا الأمر مؤكّد؟

لفظت هذه الكلمات الأخيرة بهدوء، وسعيت قدر المستطاع أن تحافظ نبرة صوتك على حيادها المعتاد، حتّى لا يشي له أيّ انفعال من قبلك بحقيقة وضعك المحرج.

قال:

قد يكون ذلك مجرد إشاعة، ومع ذلك لا بدّ من المحاولة. أقترح أن

نذهب إلى مقرّ الإدارة فنتأكّد من الأمر. ما رأيك؟

برود قلت، وقد أضمرت الدّهَاب، ولكن بمفردك:

فكرة جيّدة.

ونَهَضت، فهَض بدوره، ومدّ إليك يده مودّعا، ثمّ افترقتما. دلفت إلى الخارج، ومضيت إلى غرفتك، فتمدّدت على السرير... كان الحرّفي الدّاخل لا يطاق، والشمس ما تنفكّ ترمي بسياطها الوهاجة اللاهبة على النافذة، فيعكسها الإطار الزجاجيّ نارا موقدة، تنبّث في كلّ أرجاء

المكان. قمت ثانية، فأزحت الستارة، وخلعت ملابسك، ركنت حذاءك جانبا، ثم عدت إلى سريرك، أغمضت عينيك، فتحتهما، وضعت يدك على صدرك، تقلبت على جنبك الأيسر، طالعك الجدار الخشبي الرقيق، وفي جانب منه، إلى الأعلى، شد انتباهك مشهد مرسوم بقلم الرصاص، قد يكون رسمه طالب قبلك، جاء إلى هذه الغرفة. في أسفل المشهد، كان التاريخ مخطوطا بأحرف واضحة: ١٥ يناير ١٩٨٨... شجرة عملاقة، شجرة سرو، أخذ بعض أوراقها في السقوط، وتحتهما مباشرة، مقعد خشبي، جلس عليه رجل في خريف العمر، يضع قبعة فوق رأسه، ويلبس معطفا أسود سميكاً، ويحمل في يده عصا. كان وجهه مغلقاً، وعيناه تنظران إلى البعيد، في اتجاه نقطة غير مرئية ناحية الشمال. وكانت السماء كأمدة، تنوء بثقل سحائب سود، تتخللها آثار بروق هنا وهناك، والمطر ممزوجاً بكرينات الثلج البيضاء يسقط هادئاً متأنياً... عندما غفوت، تداولت عليك الأحلام تباعاً، دون توقّف، ورأيت نفسك ذلك الرجل، وهو يجلس على المقعد، يرنو بحزن إلى هدف غير محدّد!! في اليوم التالي، استيقظت باكراً.

ذهبت إلى الإدارة المالية تحذوك آمال عراض، وبمجرد أن وصلت، استفسرت، تنقلت بين المكاتب، تسأل هذا، وتسترشد من ذاك، إلّا أنّ الإجابة كانت دائماً واحدة: ستصرف المنح في أوقاتها المعتادة، ولا مجال لتقديمها مهما كانت الأسباب!! فما العمل إذن؟ ما المخرج؟ هل ترسل إلى والدك تخبره بواقع الحال؟ وهل ترضى لنفسك أن تكون عبئاً ثقيلاً عليه إلى آخر لحظة؟ قادتك كلّ هذه التساؤلات إلى الشارع الطويل العريض، حيث يقوم مبنى الإذاعة والتلفزيون الهائل، وتتناثر المقاهي على الأرصفة المبلّطة المبلّلة، وتعرض واجهات المحلات أحدث تصاميم الملابس، وأنفس المصوغ، والمجوهرات، وقد كنت، لفرط أسفك، واستغراقك، وخيبة أملك، التي يخالطها أسى ولوعة، تدلّلد حافظتك الجلدية حيث دسست اللّفاقة الحمراء وأوراقك الشخصية، وتجرجر

رجليك كأنّ ألما مقيما يعتصر قلبك. شعرت، في لحظة معيّنة، أنّك لا تسير وحدك، أنّ هناك شخصا آخري تبعك، فتمهّلت، كبحت جماحك، فعدا خطوك أقلّ سرعة، ولما أدرت رأسك ببطء، رأيته يحاذيك، متأنقا، متناسق الهندام. بلا شكّ، هو شخص غريب، لا تعرفه، لم يسبق لك من قبل شرف التّعرف إليه. حاولت أن تعثر في ملامح وجهه على ما يشي بسمات المخادع الذي يمكن أن يكونه، أن تكتشف هويّة السّارق، أو المجرم، أو قاطع الطّريق، لكنّه كان يبدو وديعا، مسالما. لا، لا، المجرمون، واللصوص، وقطّاع الطّريق، سيماهم في وجوههم، لا يمكن أن تخطّهم العين!

قال متسائلا:

.جنوبيّ؟

لم يخطئ الهدف. اختار الوتر المناسب، وشرع فورا في العزف عليه. لا بدّ أنّه فكّر في الأمر مليّا قبل أن يقدم. لم تتخلّ، في المقابل، عن تحفظك دفعة واحدة، وبقيت إلى آخر لحظة تنفرّس فيه عساه يسقط في شباك حدسك وظنونك.

أجبت ببرود:

.أجل.

اقترب أكثر حتّى كاد يلامسك، وقال مبتسما:

.أنا أيضا من الجنوب.

وأخرج بطاقة هويّته فأراك إيّاها، كأنّه يريد أن تطمئنّ إليه، ويبدّد آخر خيط من خيوط شكوكك تجاهه.

وواصل قائلا:

.قدمت إلى الحاضرة نازحا، والدي رجل طيّب، كذلك والدي، وأهلي جميعا محافظون، ما زالوا يراعون حرمة التّقاليد، ويقيمون وزنا للعادات الّتي صار أغلب النّاس ينظرون إليها بعين السّخرية والاحتقار... والدي رجل زميت متديّن، آخر العنقود في سلسلة جيل باند، في حاله،

مسلكه يَبْنِ، من الجامع إلى البيت، ومن البيت إلى الجامع، وقد نسجت على منواله، لا أدخّن، لا أشرب، ولا أقرب محرماً. هل تصدّق أنّي زرت البيت الحرام حاجاً العام الفارط؟

والتفت مباشرة إليك، يستقرئ ردة فعلك، بثبات وجراً، وكنت على وشك أن تسأله عن السبب الذي جعله يخبرك بكلّ هذا الحديث الذي لا أوّل له ولا آخر، عن جزئيات حميمة لعلاقات شخصية. في حين لم تكن وطيد الصلة به، وبالكاد تحقّقت بعض ملامحه، في تلك المدة الوجيزة التي لا تتجاوز بضع دقائق بحساب الزّمن. أحجمت في اللحظة الأخيرة، حينما فتح فمه ليتكلّم، أسهب، مفيضاً في التفصيل، أورد وأصدر. خاض في أحاديث طويلة، قبلي وبحري، معقدة، متشعبة، ذكر أسماء لأشخاص لا تعرفهم، سمى مدناً وشوارع، وعيّن دروباً، وكان ينظر إليك، بين الفينة والأخرى، بعينيه الذّئبيتين الثاقبتين، ليحدّد مدى تركيزك، ليتأكّد من إيغالك داخل شباكه المفخّخة، فجأة توقّف، أشار بإصبعه إلى واجهة، لفت بصرك إلى لافتة مثبتة في الأعلى، نظرت لإرادياً إلى حيث أشار، انتابك جوع قاتل وأنت تقرأ اسم المطعم، وتغزو أنفك روائح شواء تنفذ من الباب عبر الشّارع المفتوح، انهار تحفّظك أمام الجوع.

قال، وهو يبتسم ابتسامة ظافرة، وقد تأكّد من وقوعك نهائياً:
.إني أدعوك على الغداء.

دخلت إثره إلى المطعم، وقبل أن تجلس، وضعت الحافظة الجلديّة، سهواً، على أحد النّضد، وذهبت إلى دورة المياه. كنت تسبح في بركة من العرق، وكنت في حاجة إلى مسّ الماء على وجهك وأطرافك. أمضيت وقتاً، نسيت خلاله كلّ شيء: رجل القدر، الحافظة، والجوّ الخانق في الخارج... خرجت، وقد بدأت تشعر بالانتعاش، وما أن رفعت رأسك، حتّى انهارت ذاكرتك على صخرة الواقع المرير الذي لا يرحم. اختفى الرّجل، واختفت معه الحافظة، عفواً، اختفت معه اللّفافة الحمراء

بكلّ ما فيها، خدعت، غششت. اللّعة! هرعت نحو الباب، تلّقت يمبنا، تلّقت شمالا، لكن ما من أثر. خسرت الرّهان إذن، في أوّل مواجهة مع عالم النّاس، وتذكّرت. أحدهم قال لك ذات يوم: «فكّر جيّدًا بالأمر، إنّك ما تزال هشا، والعالم الّذي ينتظرك في الخارج كبير، كبير جدّا، وأكبر ممّا تتوقّع.» فهل تيّأس؟!

قلت بحسرة:

.هي تجربة، على كلّ حال. وكلّ تجربة بمثابة الدّرس، والحمد لله أنّه ترك جواز السّفر وخلف وراءه بطاقة الهويّة، وباقي أوراق السّفر. مرّ أسبوع بعد ذلك، وكان أسبوعا رتيبا، مثقلا بحرارة أوائل الخريف.

وفي التّاسع والعشرين من شهر أيلول، حينما انتصفت السّاعة الواحدة، بعد الظّهر، كنت تضع حقائبك إلى جانبك في الباص، قاصدا المطار. وفي الطّريق، مررت بشوارع فسيحة، نظيفة، لم تكن قد مررت بها من قبل، رأيت مئات المقاهي المبنوثة هنا وهناك، وطالعتك واجهات المحلّات، ووددت بشغف لو كنت ملفوفا وسط الرّحام الّذي لا تفتّر حركته البتّة، عبر المضائق، والأزقة الضيّقة، والشّوارع الصّغيرة المتفرّعة عن أخرى أكبر منها. شهران وعشرة أيّام هي كلّ المدّة، هي تمام العدّة، الّتي ستهجر فيها الدّيار، سترين فيها على عينيك غشاوة الفراق، وتناى عن كلّ ما كان يشكّل عالمك الصّغير، الحيّ، الرّزّاق، والمقهى بظاهر الحيّ، وشوارع الحاضرة، مسالكها المؤدّية، وغير المؤدّية، منتزهاتها، أماسيها، وذكرياتها. فهل يمكن أن لا تحنّ؟ هل سيكون سهلا عليك أن تنسى؟

كان المطار بإحدى الضّواحي، يبعد مسافة لا بأس بها عن المدينة، كبيرا، مهيّبا، جميلا، تمتدّ أمامه رحبة واسعة، إسفلتيّة، وراءها دائرة يحيط بها سياج، من الأسلاك الرّقيقة المتشابكة، ولم تكن تلك الدّائرة سوى حديقة تزهو بألون خضرتها، تشعّ من أشجار ضخمة في الأطراف، وتهدّل أغصانها، مشكّلة ذوائب، تعكس في روعة أشعة

السَّمْسُ الدَّهَبِيَّةُ المتألِّقة، وبجانب الأشجار، على مبعده، وفي الوسط، تنبت أعشاب غزيرة، داكنة اللون، تتخللها الزهور والورود وبعض نخيلات تشرَّب بأعناقها في لامبالاة. وأمام المطار، وعلى امتداد واجهته الأمامية، كانت أعلام هائلة العدد، بمختلف الألوان، ترفرف، جزاء حفنات من الدَّسَمَات الخفيفة التي كانت تهب من حين لآخر.

على يسار الدَّاخل، يوجد محلّ صغير، مستطيل الشكل، مرتفع نسبياً، واجهاته الأربع من الرِّجاج الأبيض الشَّفَّاف، وبداخله مباسط عديدة، عريضة، ترتفع عن الأرض بدعائم معدنية، رصفت عليها زجاجات الخمور الفاخرة، وبطاقات الذِّكرى، وعلب السِّجائر، وأدوات الزِّينة، وأنواع أخرى من الهدايا المعفاة من الرِّسوم الجمركية. وقد كنت ترى المسافرين، مسافرين من مختلف الأجناس والجنسيات، يدخلون المحلّ تباعاً، يطيلون المكث هناك، يتحدثون، يضحكون، يشترتون، ثم يغادرون، ويتوزَّعون، دون نظام، كطواير النمل، حول مكاتب الاستعلامات، على امتداد البهو الكبير المبلّط على اليمين. إنّه عالم جديد، شاسع حقاً! في الجهة اليسرى، بموازة الجدار الطَّويل، مكاتب متلاصقة، لها نفس اللون والحجم، يقف وراءها موظفون وكالات الأسفار، ببرزهم الرسميّة، يستقبلون المسافرين، يتأكّدون من جوازاتهم، وتذاكرهم، التي كان يؤشّرون عليها بأختامهم.

انضمت إلى الطَّابور أمام أحد تلك المكاتب، تنتظر دورك في صمت، وقد رحّت تجوس بعينيك الفضوليتين خلل المكان، فلا ترى غير دفق لا يتوقّف من النَّاس، يدخلون، ويخرجون، ولا تسمع غير جلبة لا تنقطع ولا تنتهي، وأحاديث متقطّعة، تنطلق هامسة حيناً، وصاخبة أحياناً أخرى، وصوت مضخّم في الطَّابق العلويّ ما ينفكّ يعلو مذكراً بابتداء رحلة، أو معي طائفة، راجياً من المسافرين اتّخاذ مواقفهم أمام أبواب المغادرة. حينما جاء دورك، سلّمت جوازك وتذكّرة السَّفر إلى الموظّف، وبعد أن تأمّله لفترة، سألك مبتسماً:

.تسافر لأول مرة؟

أجبت به بحياد:

.بلى.

ختم الجواز، وأشر على تذكرة السفر، فتسلّمتهما ثم انحرفت قليلا مفسحا المجال لبقية المسافرين... أخذت بطاقة صفراء . بطاقة مغادرة . وذهبت صوب مكتب كان شاغرا، وأخذت قلما من جيبيك، وشرعت تخطّ بيد مرتعشة تحت تأثير الانفعال اسمك، لقبك، جنسيّتك، عنوانك، تاريخ ميلادك، جندك، مهنتك، وكلّ شيء يشهد عليك، ويشي بك، بلغة غريبة، ليست لغتك حتما، ورغم أنّها ليست المرّة الأولى التي تتخلّى فيها عن بصمات لغتك الفارقة، فقد شعرت هذه المرّة بحنين طافح نحوها، ووشيجة قربى حميمة تشدّك إليها، حدّ الذّوبان، وبحزن قاتم نبع فجأة، ربّما لأنّك ستستبدلها بأخرى، أجنبيّة الجرس والحضور، طيلة شهرين كاملين، وعشرة أيّام...

كنت قد تخفّفت من حقائبك بوضعها في ذلك المجاز الدّوّار، بينما احتفظت بحقيبة يدويّة صغيرة، بنية اللون، أبقيت فيها أشياءك الخاصّة القليلة. كانت عيناك المضطربتان تراقبانه بحذر شديد خشية أن تختفي بغتة أو يسرقها أحد، وكنت كلّما اضطرتت إلى فعل شيء ما، أو ملء وثيقة. أو ما شابه ذلك، تركنها إلى جانبك، ضاغطا عليها بساقيك، أو تضعها أمامك على المكتب كي تكون قريبة منك. تعلّمت!! ذلك الحادث اللّعين، في ذلك اليوم المشؤوم، علّمك أنّ الثّقة الزائدة تحبل حسرة، وتنجب ندمًا. قلت: «من الآن فصاعدا، يجب عليّ أن أكون حذرا، إذ من الضّعف أن نمنح ثقتنا لكلّ من هبّ ودبّ!!» قرب المكتب، من ناحية اليمين، كانت هناك بضع درجات تؤدّي إلى الطّابق العلويّ، صعدتها، وفي نهايتها، أشار إليك موظّف بزيّ مدنيّ، يقف بجانب كشك صغير. كانت بيده آلة إلكترونيّة، مرّرها على كامل جسدك، من أعلى إلى أسفل.

سأل بعد أن أنهى مهمته:

.ماذا في الحقيقة؟

قلت مؤكداً:

.لا شيء على الإطلاق، ما عدا بعض الأشياء الخاصة.

سأل ثانية:

.هل أنت متأكد؟ ألا توجد ممنوعات: عملة، مثلاً، أو ما شابه ذلك؟

.لا، لا شيء على الإطلاق.

أوما إليك بيده، وهو يبتسم، ثم قال:

.رحلة موفقة.

انطلقت إلى صالة الانتظار، التي كانت تعجّ بأفواج المسافرين، على كنبات وثيرة، يتجاذبون أطراف الحديث، ويثرثرون. اتجهت صوب كنبه حمراء شاغرة، في الزاوية، وجلست. فتحت الحقيبة، وأخذت كتاباً، فتحت في صفحة معينة، ورحت تقرأ، وما كدت تنغمس في القراءة، حتّى أحسست مساً رقيقاً على كتفك، فالتفت، وأمارات المفاجأة بادية على وجهك. فوقك، كان يقف «مرتضى»، متألق الملامح، مستثاراً، وسعيداً إلى أبعد الحدود. قال، وهو يجلس إلى جانبك:

.أهلاً، لقد شاهدتك وأنت تصعد السلم، فانطلقت وراءك.

وبعد قليل:

.متى قدمت؟

قلت:

.في تمام الواحدة والنصف. أخذت الباص إلى هنا.

بعد ربع ساعة تقريباً، ارتفع صوت المضخّم من جديد:

.الرجاء من السادة المسافرين القاصدين لندن الاتجاه صوب بوابة

الركوب رقم ٣. الانطلاق سيتم الآن.

كانت الساعة الجدارية المعلقة في صالة الانتظار تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. وكانت أشعة الشمس التي تتسلّل مخترقة الواجهة

الزَّجَاجِيَّة العريضة للصَّالَة قد بدأت حدَّتها تنكسر شيئا فشيئا،
مخلَّفة إحساسا عميقا بالطَّمَأْنِينَة والرَّضَى، كان باديا بجلاء على وجوه
المسافرين المنطلقة، وهم يعبرون المجاز القصير نحو باب الخروج.
انضممتما إلى الجمع المتأهَّب للرحيل، ونزلتما معهم الدَّرَجَات المؤدِّيَة
إلى موقف الباصات وسط فضاء إسفلتيّ فسيح، حيث امتطيتما
إحداها، قادتكما إلى سلَّم الطَّائِرَة، الرابضة ككائن خرافيّ، على مبعده،
مواربة في صمتها الغامض الرّهيب.

صعدتما السِّلَم، كنت تمشي وراء «مرتضى» بخطى متثاقلة، وأنت
ما تفتأ تنظر إلى الوراء، تريد لآخر المشاهد أن ينطبع في ذاكرتك، حتّى
إذا ما شعرت، يوما ما، هناك، بعبء الحنين الموجه يلقي بأطنابه على
صحراء كونك المجدبة، استدعيتها، وخاطبت فيها ملامحها الَّتِي لا
تمَّحِي، وتقاسيمها وهي تنطق دون حاجة للكلام. على الدَّرَجَة الأخيرة،
في نهاية السِّلَم، وقفت مليّا، متَّجها بوجهك إلى العالم الرّحب الَّذِي
سيبتعد موليا، ويتضاءل بعد دقائق معدودات. إنَّها اللَّحْظَة الحاسمة،
لحظة لا بدّ منها، هي لحظة الوداع، على الحدود المتاخمة!

أزّال الباب، مصراعه الضَّخَم الهائل تحرك بطيئا، متَّخذا مساره شبه
الدَّائريّ، ثمّ انصفق، حاجبا آخر ما تبقى من آثار حضور كان زاخرا
بالحياة قبل قليل!!

سمعت هدير المحرّكات، فأغمضت عينيك، وتركت جذعك يستريح
باسترخاء على مسند المقعد المتحرّك بجانب النّافذة، ويداك ملقاتان
بلامبالاة على فخذيّك. شعرت برجفة خفيفة، فأدركت للتوّ أنّ عجلات
الطَّائِرَة الضَّخْمة، قد بدأت تخطّ مسلكها داخل الامتداد الَّذِي بعده
الانطلاق. فتحت عينيك ثانية، وألصقت وجهك بزجاج النّافذة،
ونظرت إلى الأسفل. شاهدت الأرض تجري في جنون، كأنّها تطاردك،
والأشياء تبتعد متلاشية بسرعة... عند حدّ معيّن، طفقت تعلو، مع
الطَّائِرَة، رويدا رويدا، وتوقّفت الأرض عن جريها الجنونيّ، وهمدت،

عادت ساكنة كما كانت، إلّا أنّها كانت تصغر، وتصغر، والأشياء التي كانت تبتعد صارت أكثر بعدا... لم تلبث أن وجدت نفسك، لأوّل مرّة، في حياتك، محلّقا فوق جزر السّحاب البيضاء، وجناحا الطّائرة يندفان داخلها، كما لو كانا أصابع مدرّبة تدعك بالمخرز خيوط الصّوف حتّى تلتئم داخل المنول.

قال شخص بجانبك:

. انظر ما أجمل هذا المنظر! سحاب من تحتك وسحاب من فوقك.
في حياتي لم أشاهد شيئا كهذا.
. شعرت برغبة في الحديث، وفكّ قيود الوحدة التي كانت تحاصرك.
سألته:

. هل هذه المرّة الأولى؟

. أجل. وأنت؟

قلت:

. أنا كذلك أسافر أوّل مرّة على متن الطّائرة.

ثمّ أضفت:

. لقد سافرت مرّات عديدة، لكن برّا.

قال سائلا:

. أين ستنزل؟

قلت:

. بليموث.

قال:

. وأنا بسترنغ.

تناول سيجارة، فأشعلها، وجذب منها أنفاسا.

قال:

. سنمضي وقتا رائعا، دون شكّ؛ وسنكون أحرارا. أريد مرّة أن أشرب، دون أن يعترض عليّ أحد، وأن أرقص إلى ساعة متأخرة من

الصَّبَاح، وأن أمضي بقيّة النّهار مع امرأة... أجنبيّة طبعاً.

سألك:

هل تشرب؟

قلت:

لا.

قال:

خسارة.

وبعد أن شفط من سيجارته أنفاساً متتالية، أضاف:

لا يشعر المرء بالحرية إلا وهو بعيد، سيّما عن البيت، حيث الأوامر، ما يجب أن يكون، وما لا يجب، ما يجب أن يفعل، وما لا يجب. لا أحد يقدر موقفك أبداً، لأن لا أحد يستطيع أن يتنازل فينظر من الزاوية التي تنظر منها أنت. هل تفهم؟ أنا الآن صار لي ثلاثون عاماً، تعذّبت كثيراً خلال السنوات الثلاث الأخيرة الماضية، وبعد أن تخرّجت في معهد اللّغات بعد عناء وجهد، كان عليّ أن ألتحق بكلية الآداب حتّى أستكمل أربع شهادات أساسيّة أخرى. ماذا تبقى من هذا العمر حتّى نضيّعه عبثاً، فيما لا يعني، بين قاعات الدّرس، وأوقات المذاكرة؟ لقد سئمت كلّ شيء، وأريد الآن أن أرتاح!

وصمت قليلاً، ثمّ استدرك:

لكنّ الشّيء الوحيد الذي هوّن عليّ ما أنا فيه في هذا العالم الخرائيّ

هذه البعثة: إنّها حقاً لفرصة، لا تتكرّر كلّ يوم!

في المعبر الطّويل الضيّق، المفروش بالموكيت، كانت المضيفة الشّعراء التي قابلتك أمام البوابة، بقبعتهما الزّرقاء وبزّتهما القصيرة، تجرّ عربة معدنيّة ذات عجلات. وحينما اقتربت منكما، مدّ صديقك الجديد يده، فتناول طبقين، وبعد أن وضع أحدهما أمامك، قال:

أنا سأخذ بيرة. هل أجلب لك واحدة؟

قلت:

لا داعي، سأكتفي ببعض القهوة.

قال مشجعاً:

ولم لا تجرّب؟ تذوّقها، فإذا لم تعجبك، تركتها.

وبعد قليل، ونبرة ملغومة:

الإنسان يجب عليه أن يجرّب كلّ شيء، وأن لا يحصر نفسه داخل

حلقة مفرغة، إذ أنّ الوحدة المفرطة، والانعزال بعيداً عن دنيا النّاس، ربّما خلّفاً مسخاً مشوّهاً، تنهيه العقد والأمراض.

لم تعلق، وبدأت تأكل صامتاً. جارك. كان هو الآخر يأكل، ومن حين لآخر، يحسو حسوات من القارورة بجانبه ويتجشأً مطلقاً أصواتاً قصيرة مكتومة، ثمّ يلتفت حوله، ويتبادل كلمات سريعة مقتضبة مع بعض الأصدقاء، من فتیان وفتيات. هؤلاء كانوا، إلى حدّ ما، غرباء عنك، لا تعرفهم، باستثناء «مرتضى»، ورغم أنّ كثيرين منهم يدرسون معك بنفس الكلية، ويطالعونك كلّ يوم، متجمّعين في حلقات صغيرة، وهم يتجادلون أطراف الحديث أو يضحكون، فإنّك لم تسع إلى الاختلاط بهم، أو ربط علاقات معهم. ربّما، كنت تخشاهم، تشعر أنّ عالمهم غير عالمك، فهم يدخنون، يشربون، يأكلون، في باحة الكلية، على الرّصيف، في أيّ مكان، يكلم الإناث الذّكور، ويختلون ببعضهم أيضاً، وأنت الجنوبيّ التّائه، القادم من عمق الصّحراء اليباب، مازالت الظّلّة القاتمة تلفّ عينيك، فلا ضوء ولا نور. اليوم، على متن الطّائرة، في هذا المكان الضيّق، لا مجال للهروب، أو الاختفاء، حصار أمامك، وحصار خلفك، ولا مفرّ!!

أخذت منظّاراً مكبّراً من حقيبتك، وقربته من عينيك، ثمّ نظرت خلل النّافذة الرّجائية الصّغيرة، وأوّل ما صدمتك كتل ضباب خفيفة، ورقائق رصاصيّة شفيفة، كانت تنتشر منذرة بحلول ليل مبكر رغم أنّ السّاعة لم تتجاوز الخامسة بعد الزّوال بعد. ولمّا حانت منك النّفاتة إلى الأسفل، راحت تتجلّى أمام ناظريك بدايات المدينة الكبيرة المهولة،

وكانّ المشاهد العديدة، المتفرقة، الجذابة، التي قضيت ساعات بالغة الطّول تتطلّع إليها مفتونا، بين طيّات الكتب، بدأت تتجسّد واقعا ملموسا لا مراء فيه، البيوت الفاخرة المتضامّة، محدودة السّقف، ذات القرميد الأحمر، وأبراج الكنائس، التي تطاول برؤوسها عنان السّماء، ومملكة الخضرة!... كانت الطّائرة قد شرعت في الانخفاض، منذ قليل، وشيئا فشيئا، بدأت تحافظ على مستوى معيّن من العلوّ، ثمّ انطلقت شاقّة صدر المدينة، وقد تراصّ رفاقك الجدد حول التّوافذ، وهم يتطلّعون بانفعال خللها، وجاء «مرتضى» الذي كان طيلة الرّحلة يجلس إلى عجوز أجنبيّة يحادثها، فأخذ مكانك من النّافذة، وتسلم المنظار، وراح يسرّح طرفه في المدى المترامي أمامه. فجأة، نبع صوت أنثويّ من الدّاخل، قائلا:

. الرّجاء من السّادة المسافرين شدّ أحزمتهم... الطّائرة تستعدّ للتّزول.

ساد سكون أصمّ داخل الطّائرة...

مرّت ثوان معدودات، حطّت خلالها الطّائرة على الأرض، وراحت عجلاهما تنطلق مسرعة، محتكة بالمسار الطّويل الذي يخترق رحبة المطار، ثمّ توقّفت، وفتح الباب الأبيض المستطيل... بدأ المسافرون بالتّزول، الواحد تلو الآخر، وكنت آخرهم. على جانبي الباب، كان يقف مضيف ومضيفة، باديي المرح والبشاشة. لم يكونا أجنبيّين. كانا من نفس البلد الذي جنّت منه. قلت وأنت تدلف إلى الخارج، كأنك تودّع فيهما آخر شيء من رائحة البلاد:

. تصبحان على خير.

توقّفت حينما فوق أولى درجات السّلم، وسرّحت طرفك فيما حولك، على الجانبين، ذات اليمين، وذات الشّمال، فسطعت أنفك رائحة غامضة، أحسست بها تغمر جسمك كلّ. كانت رائحة قويّة، نفّاذة، وكانت اختصارا لروائح أخرى تكوّنها، شممت فيها عبق الطّراوة اللّيلية، ومسّ البرودة الدّافئة، تتمسّح على وجهك بحنو. ورأيت داخل

الامتداد اللانهائي، فيما يحيط بك، عددا من الطائرات ما له حصر، يغرق في بحر متلاطم من الأنوار الباهرة، التي تأخذ بالأبصار، وتكتسح المكان من أدناه إلى أقصاه. خطوت إلى الأمام، ونزلت الدرجات، فوجدت أفراد البعثة، ينتظرون صحبة الأستاذ المشرف، وقد استبد بهم انفعال عظيم، وهم يكتشفون بأعين مفتونة تفاصيل بدايات العالم الغريب الرابض في الدّاخل. وانطلقتم جميعا، في حلقات صغيرة، ودخلتم من الباب الكبير المشرع، حيث كان آلاف المسافرين يشكّلون طابورا طويلا. في انتظار ختم جوازاتهم... شملت ذلك الطّابور بنظرة خاطفة، فتملّكك ارتياح وبغته، وفي المقابل شعرت بضالة أسطورة العالم الخرافيّة، فضحكت، في سرّك، بسخرية. من قال إنّ العالم لامتناه؟ من قال إنّ عملاق جبّار، يظلّ ملغزا، منطويا على استحالة أسرارهِ؟ إنّهُ هراء، كلّ ذلك، فهذا هو ذا العالم الكبير المستحيل أمامك، أشبه بخليّة نحل صغيرة! أناس من كلّ الأجناس، قادمون من أمكنة قصيّة على الكرة الأرضيّة، يتخاطبون بلغات شتّى، ويحملون داخلهم انتماء إلى ملل ونحل، تسافر معهم، أينما حلّوا، ولا يخطئها النّاظر، فتبدوله جليّة في دقّة الملامح، ولون البشرة. ورهافة التّفاصيل، وحتّى في طرز الملابس، وكثافة الإشارات... مسافرون من أوربّا، من الخليج العربيّ، من إفريقيا الشّرقية، ومسافرون لا يظهر عليهم أنّهم غرباء، مدّتهم مؤقّته، ووجودهم مائع، بل على العكس من ذلك، يتصرّفون بحريّة، يتكلّمون اللّغة بطلاقة، يندمجون مع أهل البلد، كأنّهم منهم، هؤلاء مواطنو «الدّومنيون»، هنود بزيّهم المحليّ، آخرون من باكستان، من جزر الهند الغربيّة، ومن كلّ مكان امتدّت عليه السيّادة البريطانيّة يوما ما.

انطلق الموكب، بعد انتهاء الإجراءات الرّسميّة، إلى بهو المطار مترامي الأطراف، كثير الإنارة، وقد غصّ بآلاف الزّوار، رائحين غادين، أو مهتئين بنهاية الرّحلة، أو متحدّثين، تتخلّل أحاديثهم بين وقت وآخر ضحكات

قصيرة، مقتصدة، بدت لك للوهلة الأولى غريبة، مختلفة الجرس، ممّا دعاك إلى التساؤل فيما إذا كان اختلاف اللغة هو الذي يحدّد طبيعة السلوك، وطريقة التصرف، وأنواع الأمزجة، أم أنّ هذه الاختلافات غريزية تولد مع الإنسان داخل المجموعة البشرية التي ينتمي إليها... شاهدت رجلا كهلا وامرأة يتقدّمان نحو الأستاذ المشرف، ولما اقتريا منه، تكلم الرجل، وهو يضغط يده مصافحا:

. حللتهم أهلا ونزلتم سهلا.

وأشار إلى زميلته قائلا:

. هذه السيّدة جوسلين بوتر، ستكون المسؤولة عن أفراد البعثة طيلة أيّام التّريّص. قطعاً، ستكون هناك بعض المشاكل الصّغيرة؛ هي من سيقوم بإبلاغنا إيّاها في الإبان، ونحن سننتوّي حلّها. ستري أنّ كلّ شيء سيكون على أحسن ما يرام.

وأضاف بعد فترة صمت قصيرة:

. أمّا أنا فأدعى فرانك كلامنز، أمين مكتبة، والمشرف المباشر على

أفراد البعثة.

كان السيّد «فرانك كلامنز» ربعة، ربّما في العقد الخامس من عمره، أشيب الشّعْر، أصهب، تشوب بياض وجهه العريض حمرة خفيفة، وهو ممتلئ قليلا، يتكلّم بطلاقة مفرطة، مع عذوبة متناهية في نبره. أحسست تجاهه بانجذاب غريزيّ، وراقتك كيفيّة نطقه اللّغة الإنجليزيّة التي وجدتها، ربّما للمرّة الأولى منذ سبع سنوات، وهي عداد المدة التي قضيتها دارسا لها، جميلة، عذبة، رائعة إلى درجة الفتنة.

خارج المطار، كان هناك باص في انتظاركم، والسائق الذي عرفت فيما بعد أنّ اسمه «توماس»، يقف أمام الباب، منطلق الأساير، قد ملأ شارباه الكثيفان المعقوفان كلّ وجهه. كان غاية في الظّرف والتّهذيب، وقد حيّا الجميع، وهو يشير بيده النّاعمة إلى المقاعد الوثيرة في الدّاخل. في حدود السّاعة السادسة، كان الباص في طريقه إلى مدينة

«بليموث»، جنوب غربيّ لندن.

ارتفع صوت السيّد «فرانك» عبر الميكروفون، قائلاً:

قليلاً من الصّمت، أيّها السّادة، من فضلكم.

اشترأبت الأعناق جميعها إليه، وهدأت الضّوضاء نسبياً، وغابت آخر الضّحكات، وراء ذبالات النّور الّتي كانت تنبعث من مصابيح الباص الصّغيرة.

قال:

. نرحّب بكم جميعاً في بلدنا، ونرجو أن تقضّوا معنا وقتاً طيّباً في مدينتنا الّتي استقبلت بعثات عديدة من بلدكم؛ ومدينتنا الّتي ستقيمون بها، مدينة بليموث، تقع في أقصى جنوب البلاد، وتبعد حوالي خمسين ومائتي ميل جنوب غربيّ لندن. ولعلّكم قرأتم في كتب التّاريخ عن السّفينة «مايفلاور» الّتي أبحرت سنة عشرين وستّمائة وألف من مدينة بليموث التّاريخيّة، وهي تقلّ اثنين ومائة شخص، منهم خمسة وثلاثون صفوياً أو منشقّاً غادروا البلاد فراراً من الاضطهاد الموجّه ضدّهم من الكنيسة الأنكليكانية. وقد دُمّرت الجيوش النّازيّة هذه المدينة خلال الحرب العالميّة الثّانية، ولم يبق منها إلّا نصب قديم، وهو عبارة عن صخرة كبيرة، أقيمت عليها المدينة الحاليّة. وأحيطكم علماً أنّ أهل المدينة محافظون جدّاً، وأغلبيّهم من الفئات العاملة، مضيفون عموماً، رغم بعض التّحقّظ المعروف عنّا، نحن الإنجليز عموماً.

وهنا، ضحك ضحكة عالية، تردّد صداها من الميكروفون مخترقاً فضاء الباص، فجوابتها ضحكات أخرى أطلقها أفراد البعثة. وتكلّمت السيّد «جوسلين بورتر» أيضاً، فرحّبت بأعضاء الوفد، وقالت إنّها ترجو أن لا يتردّد أفراد المجموعة في إحاطتها علماً بكلّ المشاكل الّتي يتعرّضون إليها مهما كانت تافهة، حتّى تتمكّن من رفعها إلى الأطراف المسؤولة ليتمّ إيجاد الحلول المناسبة لها في أقرب فرصة.

عندما توقّف الباص أمام مدخل مضافة المعهد الرئيسي، كان كلّ المكان، إلى الورا، وعلى الجانبين، يغرق في هالة من الأنوار المتلألئة، رغم أنّ الساعة بدأت تقترب وثيدا من العاشرة مساء، ووجه السماء الهادئ تغمره دكنة كانت تلقي بستائر ظلمتها على الكون النائم في سكون. التفتت، وأنت تدلف من الباب، فترأى لك مضرب مسيخ، في منخفض من الأرض، يكسوه عشب أخضر، ويفصله حاجز حديديّ عن ملعب لكرة اليد. ومشيت على امتداد رواق قصير مبّط، خلف رفاقك، وحينما استداروا استدردت معهم داخل صالة كبيرة جرداء، يتصدّرها نضد خشبيّ، وتمتدّ على طول أطرافه بعض المقاعد.

قال السيّد «فرانك»، بعد أن أخذ الجميع أماكنهم، وهو يجمع فوق النّضد رزما من المفاتيح وأكياسا صغيرة من النّقود:

. أعلم أنكم مجهدون جدّا من هذه الرّحلة المضنية، وأنتم أشدّ ما تكونون حاجة إلى النّوم، ولكن قبل ذلك، سنقوم بتوزيعكم على الشّق التي لدينا. فلذا أرجو منكم أن يجتمع كلّ خمسة أشخاص، على حدة، وهؤلاء سنسجّل أسماءهم ليقيموا معا طيلة أيّام التّريّص. سنزوّدكم بالمفاتيح، وستكون لكلّ واحد منكم غرفته الخاصّة.

ثمّ صمت برهة، وبدأ يفكّ أكياس النّقود، ثمّ قال كمن تذكّر شيئا مهمّا:

. أريد أن أعلمكم أنّ مطعم المعهد لا يفتح يومي السّبت والأحد، وسنعتي كلّ واحد منكم جنهين، ليتدبّر أمره خلال هذين اليومين.

اكتملت المجموعات، ووَزعت المفاتيح والنّقود، وأن أوان المغادرة. كان الخروج هذه المرّة من الباب الخلفيّ، حيث أقلّكم «ميكروباص»، عبر شارع عريض، ملتو، إلى القرية السّكنيّة، التي كانت لا تبعد عن المعهد سوى بضعة أمتار. كان السائق يتوقّف من حين لآخر لينزل بعض الأشخاص، ويقوم شخص بجانبه بإعطاء كلّ واحد منهم كيسا كرتونيا يحوي لوازم الإفطار. وأخيرا توقّف أمام رفيف طويل من

الشَّقَق. يحده من اليسار مرتفع معشوشب، ينتهي في أطرافه بسياج، وراءه مطار مخصّص للطائرات الصّغيرة، وفي أقصى الأمام، كان المجاز مغلقاً، لا مجال لعبوره، حيث كانت تسدّ جوانبه أسلاك شائكة، شديدة الارتفاع، تعكس انفرجاتها الضّئيلة امتداداً لأرض بور مهملة. كلّ الشَّقَق متشابهة، لا شيء يفرّق بينها سوى أرقامها المثبتة على صفائح معدنيّة فوق الباب... كانت شقّتكم رقم ٥، يفضي إليها باب الحديقة الخشبيّ، تتكوّن من طابقين، طابق علويّ وآخر أرضيّ، ووراء الطّابق الأرضيّ حديقة أخرى، إضافة إلى الحديقة الأماميّة الصّغيرة. باب المدخل الرّئيسيّ تغطّيه ظلّة، والواجهة الأماميّة عبارة عن نافذة زجاجيّة كبيرة. سقف الشّقة محدودب كظهر الثّور. على يسار الدّاخل هناك «التّواليت»، وإلى اليمين المطبخ الفسيح، يفصل بينهما معبر يؤدّي إلى الصّالة، وبجانها سلّم خشبيّ منجّد يؤدّي إلى الطّابق العلويّ، المؤلّف من الحّمّام وأربع غرف أخرى، اثنتان منها متجاورتان، والثّالثة في نهاية المعبر، بينما الرّابعة، وهي أصغرهنّ، تكاد تشكّل امتداداً طبيعياً للحّمّام... كنت في حاجة شديدة إلى النّوم، ولم تكن مستعدّاً للخوض في جزئيّات اختيار الغرف، ودلفت إلى صغراهنّ، وأغلقت وراءك الباب، ثمّ ضغطت على الزّرّ الكهربائيّ، فأضاءت الغرفة. قدّرت أنّ المساحة الجمليّة لا تتجاوز تسعة متر مرّبع، وقد كسيت الأرضيّة بموكيت بنيّ سميك، وركنت وراء الباب سلّة مهملات فارغة. وكان إلى اليسار سرير حديديّ يغطّيه شرشف أبيض، وترتاح في نهايته بطّانية صوفيّة زرقاء، وفي مواجهة السرير دولاب كبير، وسطه مجوّف. وقرب الدّولاب، أسدلت ستارة سوداء طويلة على نافذة زجاجيّة، لم تشأ أن تفتحها. وضعت حقائبك جانبا، وجلست برهة على حافة السرير، وفجأة ثقل جفناك، فتمدّدت حتّى قبل أن تخلع ملابسك، ورحت تغطّ في نوم عميق. أفقت، وأنت تشعر بصداخ في رأسك، وألم يهصر جسدك كلّهُ، وبعد أن استندت بظهرك إلى المخدّة، عنّ لك خاطر طارئ، فأزحت الستارة،

وأطللت من خلال النَّافذة. كانت السَّماء متلبّدة بسحب ثقال، والمطر ينزل بغزارة، فخمّنت بحدسك أنّ الجوّ لا شكّ بارد في الخارج، وكمحاولة للاستثبات، جذبت المقبض بجانبك، فارتفعت واجهة النَّافذة، وولج إلى الدّاخل تيّار دافئ، وطراوة منعشة انتشرت على كامل وجهك، وجعلتك تحسّ بنشوة عارمة. امتدّت يدك إلى السّاعة، فأخذتها، ونظرت فيها، وإذ ذاك اعتورتك دهشة وجفول. كنت تظنّ أنّ الوقت ما يزال مبكرا، ولا يمكن أن تكون قد نمت أكثر من اثنتي عشرة ساعة. إنّها الثّانية والنّصف بعد الزّوال. نهضت، وذهبت إلى الحَمّام، فاغتسلت، ثمّ نزلت عبر درجات السّلم إلى الطّابق الأرضي، فلم تسمع أثرا لأصوات أو ضجيج. فتحت الباب وخرجت.

اليوم أوّل يوم في هذه المدينة.

إنّه يوم الأحد.

ماذا يمكن أن يفعل نزيل جديد في يومه الأوّل. وهو لا يملك سوى جنّيين؟

شققت نفس الطّريق الّتي سلكها «الميكروباس» البارحة. وأنّت تتأنّى في مشيتك، قصد اكتشاف المكان من حولك. مررت بزورق قديم على مسافة غير بعيدة من الشّقّة، وفي مواجهته من جهة اليمين، كانت هناك انفراجة قليلة الانحدار، قد غطّاها العشب كلّها، وهي تفتح على فضاء رحيب مخضوضر، مربّع الشّكل، يرتفع في أطرافه حزام من الشّقق، متشاكلة متماثلة؛ وإلى الأمام، وراء سلسلة الشّقق، وعلى مبعده يسيرة، مسلك شديد الانحدار، يحده من جهته اليمنى امتداد لامتناه، لا أثر فيه لاستواء، وقد كسّته الأعشاب من كلّ جانب، ومن الجهة اليسرى وهدة، في أسفلها غابة، متوسّطة الحجم، متكاثفة الأشجار والأغصان، يشقّها جدول صغير. وفي نهاية المسلك، موقف باصات، وشارع عريض عملاق يؤدّي إلى المدينة البعيدة.

غير بعيد عن القرية السّكنيّة، يجثم المعهد جليلا، ضخما، مهيبا،

وهو عبارة عن مبنى مستطيل الشَّكل، تتخلَّله فتحة من الجهة الأمامية، وأحد جوانبه الأربعة ممرٌ إسفلتيّ عريض، وراءه مرآب للسيَّارات. ويتكوَّن المعهد من عدَّة أجنحة، يفضي إلى كلِّ منها باب مستقلّ، عبر رواق طويل، يفتح على رحبة مبلَّطة، كبيرة، مترامية الأطراف. وللمعهد طابقان: علويّ وأرضيّ.

أمَّا الجناح الأوَّل فهو عبارة عن صالة للطَّعام، ومتجر صغير يبيع السجائر والحلويات والصَّحف، ومكتبة صغيرة تزوِّد طلبة المعهد بكتب في شتَّى الاختصاصات، في الأدب، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والسياسة، والأخلاق، واللاهوت. وكان هناك في أحد أركان الجناح الأوَّل عدد من الغسَّالات الكهربائيَّة، يستعملها الطلَّبة أيَّام الأحاد لغسل ثيابهم مقابل مبلغ معلوم كانوا يدسّونه بكلِّ دربة في أحد ثقوب تلك الغسَّالات حتَّى يتمكَّنوا من تشغيلها... ويتخلَّل هذا الركن ممرّ قصير، في نهايته، إلى اليسار، باب يؤدِّي إلى الخارج، وإلى يمينه سلَّم يقود إلى البار، وهو بمثابة صالة مرَّبعة، يحتلُّ أحد جوانبها مبسط مرمريّ، دائريّ الشَّكل، رصفت فوقه أطباق، وكؤوس، وبعض الأوعية الَّتِي يحفظ فيها العصير، وتنتهي بدوَّاسات صغيرة للتَّقطير، ونضدَّت وراء المبسط زجاجات بمختلف الألوان والأحجام، على دعائم خشبيَّة ترتفع قليلا عن الأرض، وقد كان الحائطان في الجانبين يكوَّنان امتدادا موعلا في الشَّسوع، تفصل بين واجهاتهما البلوريَّتين بعض دعائم خشبيَّة، رصفت على امتدادهما أرائك وثيرة حمراء اللَّون، حول نضد زجاجيَّة القواعد. أمَّا وسط البار المزخرف، فقد كان يحتلُّه المرقص اللَّيليّ، ويفضي إلى باب ذي مصراعين يقوم أمامه مجاز صغير يفتح على صالة جلوس مخصَّصة لعشَّاق البرامج التِّلْفيونيَّة.

مقابل البار، في أسفل الطَّابق العلويّ، وعلى مبعدة خطوات يسيرة، كان هناك مبنى كبير، تشكَّل أحد أقسامه كنيسة المعهد، والقسم الآخر، وهو أرحب وأوسع، عبارة عن مضافة بها بيانو وبعض الآلات

الموسيقية الأخرى، في حين يحتل الجانب الأكبر منه مسرح ذو مدرجات معدنية وخشبة شبه دائرية.

الجناح الأخير هو المعهد نفسه، في أقصى جزء منه، وبجانب المرائب مباشرة، يوجد مكتب العميد، وإلى يساره، على امتداد مساحة كبيرة، تربض المكتبة الرئيسية، التي يؤدي بابها الذي يفتح تلقائياً إلى بهو، هو في نفس الوقت صالة مذاكرة، ويتصل بقاعة للإعلامية، بها ما يقارب ثلاثون حاسوباً، ورفوف تضم أشرطة لتسجيلات متنوعة لشعراء مشهورين وكتاب وأدباء. ويمثل الجزء العلوي المكتبة نفسها، وهي تنقسم بدورها إلى أجنحة متعددة، كل جناح منها مخصص لفرع من فروع المعرفة، حيث كانت هناك كتب في الأدب بشق أنواعه، واللاهوت، وعلم الفلك والهيئة، والتاريخ، والإصلاح الديني، إلخ. وفي هذا القسم، كان مكتب السيد «فرانك كلامنز». وقد كانت باقي الأقسام والفصول تحتل الطابق العلوي كله الذي كان يحتوي بدوره على صالة الأساتذة، والمقتصدية، وبعض المكاتب المخصصة للأرشيف، وحفظ الوثائق، والمقررات، والمستندات. وكان كل فصل من الفصول خاصاً بوفد من الوفود الأجنبية القادمة من كافة أصقاع العالم لدراسة اللغة الإنجليزية، فكان هناك الوفد الماليزي، والوفد الصيني، ووفود من بعض الأقطار العربية، ووفد من زنجبار، إضافة إلى وفدكم الذي كان يشغل الفصل في نهاية الممر من ناحية اليسار، بجانب نافذة صغيرة، يتطلع منها الناظر مباشرة إلى الحزام الأخضر الممتد إلى ما لا نهاية، في الخارج.

يوم الاثنين، صباحاً، كان حافلاً.

جمع السيد «فرانك كلامنز» أفراد البعثة في بهو المكتبة، وبعد أن استقر في مكانه، وضع نظاراته الطبية حول عينيه، وتناول ورقة، ثم بدأ يتلو برنامج التريص... كنت تجلس في الصف الأول، وكان يجلس إلى جانبك صديقك «مرتضى» الذي كان يقيم معك في نفس الشقة. قال

السَّيِّد «فرانك» إنّ الأسابيع العشرة بالمدينة ستكون موزَّعة بالتَّوازي بين الدُّروس الاعتياديَّة، وهي دروس حول الأدب، ومناهج التَّدريس، والرَّحلات الَّتِي ستكون بمعدَّل رحلة في نهاية كلِّ أسبوع إلى إحدى المدن أو الأقاليم المجاورة لمدينة «بليموث». ويبدأ الدَّوام كلَّ صباح، باستثناء أيَّام السَّبْت والأحد، على السَّاعة التَّاسعة والنِّصف، وفي حدود العاشرة تماما موعد الإفطار، ثمَّ تنطلق الحصَّة الثَّانية حوالي العاشرة والنِّصف حتَّى الحادية عشرة والنِّصف، وفي الواحدة بعد الزَّوال يكون موعد الغداء. أمَّا الحصَّة المسائيَّة فتنتطلق في تمام السَّاعة الثَّانية وتدوم ساعتين... وقال أيضا إنّ الإدارة ستتكفَّل بإسناد بطاقة اشتراك مجانيَّة للنقل إلى كلِّ طالب، إضافة إلى سبعة وعشرين جنيا ستصرف لكلِّ واحد في نهاية كلِّ أسبوعين... (هنا، اعتركت فرحة طاغية أحسست بها تغمر قلبك كلَّه. هذا يعني أنّ ضائقك الماليَّة ستحلَّ جزئيًّا). أمَّا عن وجبات الطَّعام، فسيحصل كلُّ طالب على بطاقة، يقع تسجيل اسم صاحبها، في الكشوف المخزَّنة بحاسوب المطعم، وإثر كلِّ وجبة يخصم الثَّمَن من المبلغ الجمليِّ وهو مائتان وسبعون جنيا. وهنا، قال السَّيِّد «فرانك»، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة، إنّ الحرص والاقتصاد لازمان، إذ أنّ أيَّ شخص لا يحسن التَّصرُّف في المبلغ المتاح له سيكون عرضة لأوقات صعبة، ولن تكون الإدارة مسؤولة عن ذلك.

بعد الظَّهر.

حوالي الواحدة، أقامت إدارة المعهد مأدبة غداء على شرف أفراد البعثة حضرها الأستاذ المشرف، والسَّيِّدة «جوسلين بورتر»، والسَّيِّد «فرانك كلامنز»، وثلاث نساء أخريات هنَّ: السَّيِّدة «سنثيا ليبلنغ» أستاذة المناهج، والآنسة «كايتي سميث» أستاذة الأدب، والسَّيِّدة «ليز جونسون» المشرفة على أبحاث نهاية التَّربُّص.

مَرِّيوم.

وتلاه يوم آخر.

بدأت علاقتك تتوطّد مع باقي الزّملاء. كنت تحسّ خلال الأيّام الأولى أنّك قريب جدّا منهم، وأنّهم قريبون منك، وبغضّ النّظر عن الدّروس الّتي كانت فرصة مناسبة لاختلاطكم. فقد كنت تلتقي بهم في المطعم أو باحة المعهد خلال ساعات النّهار. وفي ساعات اللّيل الأولى، يصطحبك «مرتضى» إلى البار، حيث كنتما تلتقيان ببعضهم فتتجاذبون أطراف الحديث لبعض الوقت، حول بعض النّضد، ثمّ، وأنت تندسّ في إحدى الزّوايا، على إحدى الأرائك، تكتفي بعد ذهابهم، بالتّطّلع إلّهم، وهم يرقصون في الحلبة. («مرتضى كان ينضمّ إلى حلقة الرّقص من حين لآخر). تظل وحيدا، تلوك مرارة وحشتك، مستغرقا في لجج خوفك، تتنازعك رغبات معرّبة، فمن ناحية تهفو نفسك، الّتي بقيت سنوات طويلة غارقة في دياجير سكونها، إلى جوّ الصّخب، والجلبة المسيطرة على أرجاء المكان، ومن ناحية أخرى يقيّدك خوف لا تعرف مصدره، وينبع داخلك صوت أمر يدعوك إلى التّوقّف.

هل مازلت تتذكّر ما قلته يوما في غرفتك بالحاضرة؟ هل كنت تعني حقيقة ما تقول؟ الحرّية؟ السّأم من حياة النّاسك الّذي كنته، وما تزاله رغما عن كلّ شيء؟ إن كان ذلك كذلك، فلماذا لا تقدّم؟ لماذا تحجم؟ لماذا لا تكون صعلوكا ولو مرّة واحدة في حياتك؟

هؤلاء الحسان أمامك!

والشّراب!

أنت مازلت تذكر، دون ريب، ما قاله امرؤ القيس حين أتاه خبر نعي أبيه!... كان مع نديم له يشرب الخمر ويلعب معه التّرد، فقيل له: قتل حجر أبوك، فأمسك نديمه عن اللّعب، فقال له امرؤ القيس: اضرب، فضرب حتّى إذا فرغ قال: ما كنت لأفقد دستك؛ حينئذ سأل الرّسول القادم عليه عن أمر أبيه كلّّه، فأخبره. وكان قبل ذلك يسير في أحياء العرب يشرب الخمر على الغدران ويتصيّد؛ وقد أتاه خبر قتل أبيه وهو بدمون من أرض اليمن، فلمّا سمع الخبر قال:

تطاول اللّيل علينا دَمُون دَمُون إِنّا معشر يمانون
وَإِنّا لقومنا محبّون

ثمّ قال: ضيّعي صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر
غدا، اليوم خمروغدا أمر... امرؤ القيس كان تعسا، وسيّ الحظّ حيّا
وميتّا، ومع ذلك لم ينس حظّه من الحياة الّتي كانت تمدّ إليه ذراعها،
فلبّي من علياء مأساته، وشرب حتّى تعتعه السّكر. فما يمنعك أنت من
الاستجابة للنّداء الّذي يكاد ينفجر بباطنك؟ هل كنت خائفا؟ أجب. هل
رفض الصّوّفي أن يحرق جبّة الحلاج، ويدوسها بقدميه حقدا وقرفا؟
أقدم... كان رأسك يدور، وكلّ جارحة فيك تهتزّ انتشاء، وقشعريرة
مغرية تنغل داخل كلّ خلية من خلاياك. إنك تدرك للمرّة الأولى أنّ
للصّخب مثل هذا الجنون، مثل هذه القدرة على الضّياع والتّلاشي.
أيّ عالم حملتك إليه الموسيقى الصّاخبة؟ أيّ شعور ولّدته تلك الرّأوية
شبه المعتمّة الّتي كنت قابعا فيها، ورشاش الألوان القزحيّة المثبّنة في
السّقف، ذلك الرّشاش الّذي كان ينعكس على حلبة الرّقص الخشبيّة،
فتبدو وكأنّها مملكة أزليّة لألوان الطّيف؟ وأيّة رغبة كافرة فجّرتها في
رأسك تلك الفتاة؟ أه، من تلك الفتاة الغامضة المستحيلّة... تنتعل
حذاء جلديا طويلا، كان بَنِيّا، وجوارب صوفيّة ضيّقة سوداء، كانت
تبرز التّقاطيع الدّقيقة لساقها، وامتلأ فخذها، واستدارة الأرداف
البديعة، وكانت تلبس أيضا «جرزي» أسود، ضيّقا، طويل الأكمام،
تشي فتحتة الأماميّة ببياض العنق الطّويل المرمريّ ومنبت التّهدين
المربّرين... شعر أشقر، مهفّف، مسترسل، وعينان خضراوان داكنتان
ذواتا نظرة مستغرقة شاردة... ترقص في نهاية الحلبة، وحيدة، كأنّ لا
شيء من حولها يعني لها شيئا، ما دامت تغرق في عالمها الأنثويّ المدمّر.
انفجرت داخل ذاكرتك فجأة صورة صديق قديم، عرفته في
سنوات الشّباب المبكر، خلال الدّراسة الثّانويّة. كان شاذّ الميول،

غريب الأطوار، لم تسلم منه فتاة بالمعهد، يظلّ يلتهمها بعينيه ولسانه، غير عابئ بتحذيراتك المتواصلة. وقد كان يصطحب معه دائما صورا، يقتطعها عادة من مجلات الفضائح الملونة والمجلات النسائية، وبطاقات بريدية لنساء جميلات، شبه عاريات، بمشدّات ومايوهات مغرية، وبعد أن يريتها، يبقى وقتا طويلا، مبعلقا فيها، بعينيه التهمتين المتشبهتين، وهو يقول:

. انظر إلى هذا اللحم الشهيّ المررب. إني أودّ لو ألهم هذه التهود، وأنىخ برأسي على هذا البطن الأبيض الأملس كرقائق الثلج، وأمرّر يديّ على طول الفخذين، وأزرع الجيد بالقبليات.

ثمّ يغمض عينيه لحظة، ويطلق زفرة حرّى، كما لو كان ينتزعها من أعماق قلبه، ويصرخ قائلا:
. آه، لكم أنا جائع!!

لماذا تذكّرت صديقك القديم في تلك اللحظة بالذات، وقد مرّ دهر على آخر لقاء جمعتك به؟ هل هي المصادفة؟ لا يمكن!! هل هو الإحساس بالوحشة، وأنت تقبع وحيدا في ذلك المكان القصي؟ لا، مستحيل. فماذا إذن؟ هل كنت جائعا أيضا مثله؟ نعم، إنّه الجوع إلى تلك الفتاة بعينها، في ذلك المكان بالذات، وفي ذلك الزمان. قال هاجس خبيء: «لماذا لا تراقصها؟» فأجابه صوت في أعماقك: «لا أستطيع، فإني خائف وحزين!!»

بقي الخوف يلاحقك خلال الأسابيع الأولى كلّها، كسلطعون عملاق يضيق الخناق بك لألبتيه القويّتين على عنقك الناحل الضئيل، وتجهّد أن تتخلّص من ذلك الحصار القاتل فلا تستطيع فكّكا. وقد فكّرت طيلة ليال بكاملها، مضيقا على نفسك بين أرجاء غرفتك الباردة حدّ الانصعاق، وأنت منطرح فوق سريرك، منطويا، منكمشا داخل البطّانية الباهتة، فكّرت في خبايا حالتك التي أصبحت شبه مستعصية، ولا تتورّع في أحيان كثيرة عن وضع فرضيّات لأصل المشكلة، وتحاول أن

تبحث عن الحلول الناجعة للخروج من البوتقة المعتمة التي حشرت نفسك فيها دون رحمة. وتنجح، في لحظة تجلّ، أن تنتهي إلى قرار حاسم وتنام. بعد ذلك، قير العين هاننا، لكن ما أن تستيقظ من النوم، وتزيع الستارة، وتنظر لخلل النافذة الزجاجيّة، حتّى يتحطّم قرارك على المرتفع الأخضر المبلّل في مواجهة الشّقة، في الأسفل.

كانت السّماء خلال الأسابيع الأولى والأسابيع التي تلتها كامدة، رماديّة، مثقلة بسحب دكناء تظلّ تروح وتجيء، دون تعب أو كلل، وكان المطر ما ينفكّ يسقط وبلا هاميا، والثلج الأبيض الناعم يغرق الأرض، في أطرافها المعشوشبة، وشوارعها الإسفلتيّة، بزراب قشبيّة، سرعان ما تتحوّل إلى مجار مستدقّة، وسيول ملتوية صغيرة، ما تفتأ تجري دون انقطاع... ذات ليلة ماطرة، سئمت المكوث في البيت، ولم تجد رغبة في القراءة أو الاستماع إلى الرّاديو الصّغير الذي جلبته معك من ذلك البلد على الضّفة الأخرى من المتوسّط، وأمضيت ساعات مضطربة تقطع أرض الغرفة جيئة وذهابا، وأنت لا تكاد تركّز تفكيرك في شيء محدّد، وعندما أضناك المشي، وتلبّس رجلك خدر، حملت كرسيّا ولطوت أمام النّافذة المفتوحة، إذ ذاك زلزلت كيائك بارقة إلهام، كانت تثوي مندسة في ذبالات الضّوء المتميعة. المتفرقة، هنا وهناك، ورذاذ المطر، الذي يرتطم بالأرض، فيبعث صوته حنينا خارقا بلا حدود، وقد أسعفك الحظّ، فترأت لعينيك رقائق الثلج البيضاء، وقد اكتنفها سهوم أزلّيّ أثير، وهي تتطاير خفيفة، لتحطّ بلذّة حيثما شاءت.

قلت هامسا لنفسك:

لا بدّ من الخروج!

خرجت، وأغلقت الباب وراءك، ونزلت درجات السّلم، وقطعت المجاز القصير المؤدّي إلى الباب الخارجيّ. توقّفت قليلا حين بلغته، وأرهفت سمعك. كانت الشّقة ساكنة، هادئة، لا أثر فيها لحياة. فخمّنت أنّ الرّملاء قد انطلقوا إلى المقصف الذي يفتح أبوابه في تمام التاسعة.

كانت السّاعة تقترب من منتصف اللّيل.
وكننت حاسر الرأس.
تلبس قميصاً منشمر الأكمّام، مفتوح الأزرار.
وتلبس بنطالاً رياضيّاً.
وصندلاً دون جوارب.

دفعت باب الحديقة الخشبيّ وراءك، وخطوت بثبات، دون أن تحاول أن تتفادى قطرات المطر الكبيرة وهي ترتطم، متخلّلة خصلات شعرك، ووجهك، وذراعيك العاريتين: دوّت من أخصّ أعماقك نشوة مشاكسة، لمداعبة الرّطوبة، وموجات البرودة الّتي كنت تشعر بفحيحها يدبّ منتشياً، كتيار كهربيّ، عبر الشّرايين، مع الدّم المخضوض، إلى أعلى نقطة في الدّماغ... كنت قد حدّدت وجهتك سلفاً، على امتداد المسار المحاذي لواجهة المعهد، كانت هناك مجموعة من المقاعد الإسمنتيّة، دون مساند، يبتعد أحدها عن الآخر حوالي مترين... على مقعد من تلك المقاعد تمدّدت على ظهرك مشرعاً وجهك المقلّ حزناً وألماً إلى خدّ السّماء المكتحل بالسّواد، على يمينك باب المدخل الرّئيسيّ، وعلى يسارك تتألّأ أنوار المقصف رجراجة من الطّابق العلويّ... بقيت وقتاً طويلاً، على تلك الحال، لا تتحرّك، جامداً، كجثّة هامدة، وفجأة أحسست بحنين إلى الأنوار الّتي تنعكس باهرة على الواجهات الرّجاجة الضّخمة، فأملت رأسك، والتفتّ نحوها... بعد قليل، تنطفئ هذه الأنوار كلّها، وتبدأ حفلة الرّقص على الحلبة، تحت الأضواء الدّوّارة، ويعلو الضّجيج، ويقوم شيوخ وعجائز، وشبان في مقتبل العمر، وفتيات جميلات، فارحات، على أنغام الموسيقى الصّاخبة، فيخطون باتجاه المرقص، تسبقهم أجسادهم اللّدنة المرنة، وضحكاتهم المنطلقة. قلت في نفسي: «سوف يرقصون وحدهم، ولن أكون بينهم! هذه اللّيلة سأندرها للوحشة والخواء!»

قال «إليوت»:

«نحن الخاوون
نحن المكتظّون
نستلقي كحشية مملوءة بالقش
وأأسفاه
إنّ أصواتنا الجافة
حين نهمس فيما بيننا
هادئة لا معنى لها
كالريح التي تمرّ في الهشيم
أو كأقدام الفئران على الزجاج المكسور
في مستودعنا الجافّ.
شكل ولا حقيقة، خيال ولا لون
قوة مشلولة، إشارة ولا حركة
والذين عبروا بأعين صامدة، إلى مملكة الموت الأخرى
يذكروننا. إن ذكروا. لا كأنفس قويّة ضائعة
وإنّما يذكرون متّاً رجالاً فارغين
رجالاً متخمين»

نزلت عيناك من قمة الجبل إلى سفحه، وعلى ذبالة النور الضئيلة،
البعيدة، المنبعثة من الظلّة في الطابق السفليّ، رأيت طيف شخصين
ينزلان درجات السلم، متمهلّين، وقد خيل إليك أنّ أحدهما يمسك بيد
الأخر، وفي المنتصف وقفا واستدارا، مواجهها أحدهما الآخر... توقّف
دماغك الكليل عن التفكير برهة من الزّمن، وملأت وجهك دهشة حائرة
ووجوم. ماذا يمكن أن يحدث في تلك اللّحظة المملوغة، السّافرة،
المستوفزة؟! هل يمكن أن يحدث ذلك الشّيء، هناك؟ في ذلك المكان
العاديّ، حيث لا باب يغلق في حذر، ولا حيّطان ترتفع كالأسوار، منظوية
على حرارة جسدين؟!

اقتربا... تماسا... تعانق الجسدان، في ضمة مستغرقة، وتلاحم الوجهان، ملتصقين ببعضهما، وانطلقت الأيدي في رحلتها الخطرة تبحث عن مناطق الاستكشاف... انغمست في المشهد، وبدأت تستحضر مشاهد أخرى، مماثلة، ومع إيغالك في المجاهل، داخل الأطراف المظلمة، كانت الرغبة تزداد، والنشوة تتضخم في طريقها إلى قمة الفورة والتلاشي. متى انتهيا؟ متى انتهيت؟ لم تكن تشعر بغير التعب والإنهاك عندما استفتقت، وأنت لا تعي حقيقة ما حدث، عيناك تبهلقان في سهوم، ودماغك توقف فجأة عن الاشتغال... بدأت ذاكرتك تعمل شيئا فشيئا، وعاودك هدوء مرة أخرى، فاستنفرت ما تبقى لديك من قوة، واستقمت بجذعك ثم وقفت، وتحركت باتجاه المقصف. كنت تنظر إلى واجهة الظلة، وعيناك منصبتان على الدرجة الأخيرة، ولما رفعت رأسك الثقيل الضاحج بمرارة الخيبة، انصعقت، وأصابتك الدهشة، وكدت تسقط. ماذا كنت تظن في البداية؟ هل كانا ذكرا وأنثى؟ هكذا كان اعتقادك، أما ما تراه الآن، فمريع، عجيب، ولا يصدق!! ألا يكفي أن تكون قوادا، فتتحول إلى لوطي متعهر. يا إلهي، إنها اللعنة!!

حثلت خطاك مبتعدا، وأنت تكاد لا تميز موطن قدمك من الاضطراب. كنت تحسّ بخجل عارم يزلزلك، وبندم كاو. وكنت مشوشا إلى درجة أنك تمنيت لو انسحقت كحشرة، وابتلعك جوف الأرض، لتتخلص من هذا العار الذي لحقك، دون أن تحسب له أي حساب... قادتك رجلاك، بعد جهد، إلى شقة أحد الزملاء، في الطرف المقابل، ودلفت إلى المطبخ لاهثا جرأ الإعياء، ومحاولاتك غير المجدية لتفادي السقوط في بعض المستنقعات الموحلة التي كانت تحجبها عن عينيك أستار الظلام وسجوفه. هناك، وجدت الشمل ملتئما، ثلاثة أصدقاء يجلسون على مقاعد وطينة، متقاربين، حول فناجين القهوة، وهي ترسل أرجا شديا. قال أحدهم متعجبا:

أفي هذا البرد تلبس مثل هذه الملابس؟!

استشعرت طمأنينة جارفة تشملك بردائها، وسرى عنك تساؤله،
فبدأت تنسى ما حدث لك منذ قليل. أجبته مبتسما:
رائع أن نحى الطفل القابع داخلنا، ولومرة واحدة في هذا العمر
المنذر بالأفول.
وقرّبت مقعدا جلست عليه.

أخذ الزميل الجالس بقربك إناء القهوة، وصبّ لك فنجانا. وأخرج
زميل آخر صندوقا صغيرا فتحه بأنامل مدربة، وتناول لفافة بيضاء،
بسطها وأخذ يحشوها بتبغ نديّ، وبعد ذلك لقها، وهو يقول مفسرا:
هذا تبغ رفيع، رائحته قوية ونفاذة. اشتريته بثلاثة جنيهات كاملة.
قلت في محاولة للهروب من مطاردة الهواجس والخيالات:

هنيئا، نحن لم نعتد هذا البذخ من قبل. كنّا دائما ندخّن سجائر
رخيصة، وحتى هذه قد تمرّ علينا أوقات صعبة فلا نستطيع تدبّر ثمنها.
مرّر الصندوق، حتّى انتهى إليك، فلففت سيجارة أشعلتها، وقربتها
إلى أنفك، فسطعت رائحة لذيدة مخدرة. قربتها من شفّتك، مغمض
العينين، وضممتها بحنان، ثم جذبت نفسا عميقا. لم تنفث الدخان
مباشرة، ظللت تخزنه في صدرك، وفي لحظة أطلقته. شعرت بشيء مثل
الدّوار، وثقل رأسك، ورغم ذلك كنت منتشيا. لقد أحسست أنّك
تريد أن تهرب، أن تتشظّى إلى ذرات يحملها الهواء الدّافئ إلى الأقاصي
غير المرئية، وأن تذوب تماما، فتتشربك طراوة التربة المبلّلة، وتختفي
وتتلاشى!! مكثت تشفط الدخان، وقد بدأ تركيزك يتفتت رويدا
رويدا، حتّى أنهيت السّيجارة كلّها، ثم ألقى التّحية، وخرجت. عند
الباب، صفع وجهك تيار بارد، فأجفلت، ثم شعرت بالخدر يتخروّئدا
من رأسك، وبدأت قشعريرة خفيفة تهزّ جسدك اهتزازات مرتعشة،
مرتجفة، فيها من الألم بقدر ما فيها من اللّذة، وقد رافقتك هذه
المشاعر المتناقضة المتداخلة إلى السّرير حيث استلقيت شبه عار، وما
أن وضعت رأسك على المخدّة، حتّى رقت على جفنيك أطياف النّوم.

واجتذبتك إلى مدارها كوابيس وأحلام مزعجة.

ومرّ يوم.

ومرّ أسبوع.

ومرّت أسابيع.

لم تكن تزور المدينة إلا لماما، وكان عدد المرات التي زرتها خلالها لا يتجاوز الخمس على أقصى تقدير، في فترات ما بعد الظهيرة عادة، حينما تنتهي حصص الدّرس المسائيّة. وكنت تذهب إليها وحيدا بالباص، ورغم ضخامتها، وجمالها، وإغرائها، فقد ظلت طافيا على سطحها، لا تعرف عمّا يوجد في عمقها الزّاهر، والأطراف المشرفة عليها، المتاخمة لها، شيئا، غريب، ملامحك، تقاسيمك، حركاتك، وحتى سمرتك الدّاكنة، تشي بك، وتقول صراحة إنك من هناك، جنوبيّ، يحطّ جنونه لفترة على عتبات الشّمال الجليديّ، ثمّ يغادر ثانية إلى المضارب في متاه الصّحراء، وحرارة الهجائر الحارقة... بغريزتك حدست اتّجاهك على البوصلة، في حدود المكان، هكذا صدفه، حيث كانت تلك المكتبة المتواضعة التي تشكّل جزءا ضئيلا من متجر كبير يبيع الملابس واللّعب، أولى قبلة يمتّ شطرها، فهناك اشتريت أوّل كتبك، ودفعت فيه آخر بنس ممّا تبقى لديك من المنحة نصف الشّهريّة. ولما خرجت، أخرجته من الكيس الأبيض الذي كنت تحمله في يدك، وتأملتّه للحظة والفرحة تكاد تنطّ من عينيك. قلت لنفسك إنّها فرصة كبيرة حقّا أن يكون الواحد ههنا، قريبا جدّا، في متناول يده كلّ الكتب التي يريدّها، وباللّغة الأمّ، الأصل، فالكتب في الحاضرة، على ضفاف المتوسّط، شحيحة، لا تباع في المكتبات، والقليل المتوفّر منها لا يوجد سوى في مكتبة الكليّة، ولا يمنحه الأمناء إلّا لصديق أو ذي قرابة...

كان عنوان الكتاب: الأعمال الأدبيّة الكاملة لـ «شكسبير».

البحر الأزرق، الممتدّ، العملاق، الذي تضوع جنباته برائحة القدم، كان ثاني قبلة تؤمّها. تقف أمامه، تتأمّله، لا تملّه، ولا يملّك، كأنكما

خلقتما لبعضكما، ولا غنى لأحكما عن الآخر، وقد زاد انجذابك إليه والتصاقك به، سرمديته، وهذوؤه، ومقاومته للزمن، يمتد بمحاذاته شارع طويل، عريض، معبد، يتوسطه، في مواجهة البحر تماما، نصب عظيم، وشواهد تذكارية عديدة، تذكر إحداها أنه سنة عشرين وستمائة وألف أبحرت السفينة «مايفلاور» من ميناء «بليموث» وهي تقل اثنين ومائة شخص، من بينهم خمسة وثلاثون صفويا. ومما كان يضاعف ذلك الإحساس بالقدم أيضا، والإيغال في طيات التاريخ، بعض السفن الشراعية الكبيرة الضاربة بمراسيها في الأعماق، على بعد عشرات الأميال، وهي تبدو كأنها أشباح تتسامق برؤوسها لتعانق صفحة السماء الزرقاء... وكان الشارع ينساب مخترقا صفين من البنايات المتعالية، الشامخة، بديعة التشكيل، في انحنائها الدقيق، حتى تتصل ببداية كورنيش مفتوح، يفضي إلى مرتفع، يحده من اليمين سور من الحجارة الصقيلة الضخمة، وتنبث على طول جادته مقاعد خشبية، كان يجلس عليها عادة شيوخ مسنون ونساء، وأخلاط من الناس قدموا من مناطق مختلفة من العالم، منهم إيطاليون، وفرنسيون، وألمان، وسياح من أوربا الشرقية. كانت ثالث قبلة تجذبك إلى المدينة، وقد شدك إليها، إضافة إلى سحرها الأخاذ وعبقها الذي تضوع منه رائحة التاريخ. تلك المكتبة ذات الواجهة الزجاجية إلى أقصى اليمين، التي يدير شؤونها رجل أربعيني قصير، يحمل دائما غليوناً في يده، ويكون في أغلب الأحيان جالسا مستندا بظهره إلى الجدار، يراقب الرفوف المملأ كتباً، وقد أخذ، مع الأيام، يهش لك، متبسّطاً معك في الحديث.

حينما صرفت لك المنحة الثانية، بعد أسبوعين، سبعة وعشرون جنهما، لا تنقص ولا تزيد بنسأ واحدا، ذهبت إلى هناك، وبعد أن اخترت رزمة من الكتب، رميت فوق القائمة، أمام الكتي، بكل ما عندك، ورغم أنك خرجت خالي الوفاض، فقد كانت الأرض لا تسعك من الاغتباط.

كانت الكتب التي اقتنيتها تضم:

* تاريخ إنجلترا . لورد ماکولي
* شكسبير. عطيل . جون واين
* الثّورة الفرنسيّة . توماس کارليل
* ميناء دوفر . توماس أرمسترنغ
* فولبوني . بن جونسون
* دونبي وابنه . شارلز ديكنز

وخلال تلك المرّات الخمس الّتي زرت فيها المدينة، تعرّفت على مكتبات كثيرة جدّا، وتعرّفت أيضًا، في المقابل، على عالم غرائبيّ يعجّ بالحياة، عالم من الكتب والکتاب الّذين لم تسمع عنهم من قبل، أدباء، شعراء، مسرحيّون، سياسيّون، علماء اجتماع، علماء نفس، مؤرّخون، وعلماء فلك أيضًا، وقد كان الوقت الّذي تقضيه هناك يتجاوز ثلاثة أرباع الزّيارة الّتي لم تكن تتعدّى أربع ساعات، على أقصى تقدير، والجزء المتبقّي تصرفه وأنت مأخوذ بفتنة البحر. كانت المكتبة تمثّل قطب اهتمامك، محور الدّائرة الّتي تتحرّك داخلها، وكنت ترمي فيها بأخر ما لديك من تلك النّقود القليلة، دون تفكير في أيّام العسر الصّعبة، الّتي تمرّ عليك دون أن تطعم فيها ما يسدّ رمقك، ويقيم أودك. لقد كنت مهووسا، ومجنونا إلى أبعد الحدود، كما لو كنت لا تطيق أن يبقى جيبك عامرا، وتفضّله دائما خاويا، ونظيفا... سرعان ما كنت تفتن بكتاب أو مجلّد، وتتمنّى لو تملكه، وتضمّنه إلى مجموعتك الأثيرة القيّمة، غير أنّ اليد قصيرة، والظّرف قاس، والمال شحيح، والرّغبة كذلك قاتلة. قطعاً، ستحسّ بحسرة، ستنتابك غصّة، إذا لم تقنّ ذلك الكتاب، إذا لم تحصل على ذلك المجلّد. فما الحلّ؟ وكيف العمل؟ صرت، عند كلّ زيارة، إلى إحدى تلك المكتبات، وبمجرّد أن تجتاز عتبة المدخل، ترفع رأسك إلى فوق، أعلى الباب، وتتأمّل خفية، وبإمعان ذنبيّ، تلك الواجهة، فإذا لم تر ذلك الجهاز الصّغير، ذلك الفضّاح، الّذي يمكن أن يكشفك، حثث الخطى، ومشيت بجراة وثبات، إلى الأجنحة

شبه الخالية، وتقع أمام الرفوف، متحينًا لفرصة الانقضاض المفاجئ والهجوم الكاسح!!

أستاذ الفلسفة بالمعهد الذي درست فيه، لسنوات خلت، قال حينما أفضى الحديث إلى المعرفة، والقيمة الأخلاقية، وهل تعتبر سرقة ما قصد به المعرفة أساساً:

إنَّ السَّرقة المقصود بها المعرفة أمر لاغ، لا أساس له من الصَّحة، فالشيء الوحيد الذي لا يسرق هو المعرفة، لأنَّ المعرفة، بكلِّ بساطة، إرث إنسانيّ، نتيجة تراكمات ساهمت فيها أجيال، وإبداعات تساهم فيها أجيال أخرى لاحقة. لذا فمن حقنا أن نأخذ حظنا من هذه المعرفة، وسوف لن نكون لصوصاً إذا أعوزنا المال فقرّرنا الحصول على بعض الكتب بطريقة ما.

وأنت، ما رأيك في الأمر؟

ماذا كان شعورك وأنت تقدم على ذلك العمل لأول مرة؟

هل كان مشيناً؟

رغم عدم اقتناعك، فقد حاولت أن توجد مبررات بادئ الأمر، فقلت إنَّك تسترّد قطرة من البحر الذي سرقوه، هم سادة العالم، محتكروه، على امتداد عقود من الصَّمت والحقّد الكظيم، إلّا أنَّك استبعدت هذا الخاطر بإشارة من يدك، إذ لم تجده مقنعاً. وتذكّرت فجأة ما قرأته في إحدى روايات «مارك توين» عن ذلك الصَّبيّ الصَّغير «هاكلبري فين» الذي كان يقول لصديقه «جيم» العبد الأسود عندما يصيبه الجوع، ويكون ماراً بإحدى مزارع الجنوب الخصبة: «سأدخل لأستعير بطيخة». أو «سأستعير تفاحاً، فإذا حصلت يوماً على مال أرجعت ما استعيرته». راقتك الفكرة، وابتسمت لها في سرِّك، لأنّها خلّصتك، ولو إلى حين، من صراع داخليّ مقيت... مرةً، أقدمت، تحيَّنت فرصة، ودسست كتاباً في يدك ثمَّ خرجت. في الطَّريق، وأنت تتصفّح غلافه وتقرأ العنوان واسم الكاتب، انفجرت برأسك أصوات عاوية، وشعرت بموجة من التّدم

تخضّك، ومقارع توبيخ الضّمير تهال على ظهرك بعنف. إنّها المرة الأولى التي تفعل فيها هذا الشّيء؟ وقد كنت من قبل تستنكف من هذه العادة الأثمة، وتشير بيدك مدينا أصحابها؟ اليوم، صرت أنت نفسك واحدا من أولئك اللصوص الآثمين!!

مع الأيّام، بدأ تأنيب الضّمير يخفت في استسلام، وتعتري صوته بحّة خفيفة، ثمّ ينقطع، وغدت تلك المقارع التي توجع ظهرك بعنف أكثر نعومة وهدوءا على جلدك المتورّم من الضّرب والتّنكيل. نعم، قلت، سأفعل كما فعل ذلك الصّبيّ «هاك»، وأستعير، فإذا تحسّنت الحال، سأردّ ما استعرت!!

كان أوّل كتاب سرقته، عفوا، استعرتّه بعنوان:

* تاريخ الفلسفة الغربيّة لـ «برتراند راسل»

واستعرت بعده كتبا كثيرة من مكتبات متفرّقة:

* رأس المال (الجزءان الثّاني والثّالث) لـ «ماركس»

* عطيل لـ «شكسبير»

* الإلياذة والأوديسّة لـ «هوميروس»

* تروليس وكرايسيد لـ «شوسر»

إلا أنّك لم تكن تستعير في كلّ الأحوال، ولا تلجأ إلى ذلك إلاّ حينما تعوزك النّقود، وتستنفد أموالك اليسيرة، إلى آخر فلس أبيض، وقد كنت ترضى لنفسك أن تبقى يومي السّبب والأحد طاويا، دون طعام، ولا تصرف شيئا ممّا نذرته للكتب التي أصبحت، مع الأيّام، هوسا مسعورا ينغل في دماغك العكرة.

اشتريت:

* مول فلاندرز لـ «دانيال ديفو»

* روبنسون كروسو لـ «دانيال ديفو»

* مدام بوفاري لـ «غوستاف فلوبير»

* الأرض لـ «إميل زولا»

- * الشَّيَاطِين لـ «فيودور دوستويفسكي»
- * الإخوان كرامازوف لـ «فيودور دوستويفسكي»
- * حلم العم لـ «فيودور دوستويفسكي»
- * قرية ستيبانشيكوف لـ «فيودور دوستويفسكي»
- * أوليفر تويست لـ «شارلز ديكنز»
- * دوريت الصَّغيرة لـ «شارلز ديكنز»
- * ديفيد كوبرفيلد لـ «شارلز ديكنز»
- * القبله وحكايات أخرى لـ «انطون تشيكوف»
- * السيِّدة صاحبة كلب الحُضن لـ «انطون تشيكوف»
- * الخطيئة وحكايات أخرى لـ «انطون تشيكوف»
- * نساء متيمات لـ «ديفيد هربرت لورانس»
- * أربع مسرحيات شهيرة لـ «إبسن»

وكان أثر كتابين لديك، لم تستعرهما، وحرصت أن تبذل لأجلهما عشرة جنيهات كاملة، كنت قد اقترضتهما من أحد الزملاء، لقضاء حاجة طارئة، وحينما استقرت عليهما عيناك لم تستطع مقاومة إغرائهما. كنت تريد أن لا تشوب فرحتك بهما ساعات من تبكيت الضمير، سيِّما وأنَّ الكتابين لعلم جهيد من جهابذة الشَّعر الحديث، طالما حلمت أن تقرأ له باللُّغة الإنجليزيَّة، إذ كانت معظم قصائده المتاحة، متفرقة بين عدد قليل من المجلَّات النِّقدية، ومترجمة إلى اللُّغة العربيَّة بأسلوب رديء، في ذلك البلد الذي جنَّت منه، والذي أصبحت صورته غائمة أمام عينيك الآن. ولم يكن ذلك العلم إلا «توماس سترنز إليوت»، وكان الكتاب الأوَّل لـ «لندل غوردن»، ويتحدَّث عن سنواته الأولى، والكتاب الثَّاني عبارة عن مجموعة قصائد له كتبت فيما بين سنتي تسع وتسعمائة وألف واثنين وستين وتسعمائة وألف وإليوت:

ولد سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف بـ «سانت لويس»،

ميسوري، لأب تاجروأم مدرّسة من إنجلترا الجديدة. وقد عمّد كأحد رعايا الكنيسة الإنكليكانية بإحدى القرى الإنجليزّية بعد ثمانية وثلاثين عاما.

وعنه يقول «غوردن»:

«إنّ هذه الحقائق (أي حقيقة ميلاده وانتمائه) لا تميط لنا اللثام إلّا قليلا عن رجل كان هناك بون شاسع بين كلتا حياتيه، الاجتماعيّة والشخصيّة، بين السطح النّمودجيّ، الجليّ في سفور، والاهتياج الدّاخليّ. وقد رسم «وندهام لويس» وجه إليوت كما لو كان قناعا حتّى يتمكّن من إبراز خطوط الاختلاف بين السطح الصّوريّ والعينين المستبطنتين في اختفائهما، وبين خيوط سترته الدّاكنة الصّارمة وهي تخفي تحتها بياض مناكبه. وقد كتبت «فرجينيا وولف» أنّ عينيه الكستنائيّتين تبدوان غريبتين، وهما تشعّان حياة وشبابا وسط وجه شاحب، منحوت وثقيل..»

و «إليوت»:

(١) دفن الموتى

(٢) لعبة الشّطرنج

(٣) موعظة النّار

(٤) الموت بالماء

(٥) ما قاله الرّعد

إنّه ببساطة:

الأرض اليباب

والثّورة في الشّعر العربيّ الحديث:

وهو السيّاب،

وجيل الرّدة على المدرسة الكلاسيكيّة.

ويقول الدّكتور «إحسان عبّاس» في كتابه «فنّ الشّعر»، في الفصل السّادس تحت عنوان «بونود وإيليوت»، متحدّثا عن إليوت بالخصوص:

«نستطيع أن نتصوّر لم تصدر إليوت دنيا الشعرو رأى فيه الشباب رسولا ومبشرا وهاديا إلى عوالم جديدة، ورأى الناس في قصيدته «الأرض اليباب» مرآة جديدة من نوعها.

لقد استطاع إليوت أن يجمع في يده خيوط المدرسة الرمزية والمدرسة التصويرية، وأن يتحدث عن نظرة الناس القاتمة إلى الحضارة وعن ضياع الفرد واضطرابه النفسي في ظل تلك الحضارة النخرة، كما استطاع أن يخلص الشعر الإنكليزي من ذلك الانسجام المتأنق الذي غالت فيه مدرسة الشعر الرعوي. أما المؤثرات الرمزية فاستمدّها من فرع رمزي غير فرع الملامية. استمدّها من فرع كوربييه ولافورج وهما شاعران نجد محاكاة إليوت لهما في قصائده الأولى واضحة تمام الوضوح. أما التصويريون فقد تلقى أثرهم من خلال بوند، ومن هذا الشاعر استعار أيضا طريقته في الاقتباس لأنّ طريقة بوند تقوم على نقل الشعور الداخلي للإنسان الحديث ممزوجا بأصداء الماضي. وقد مشى إليوت في هذا الطريق إلى النهاية حتّى أنّه في قصيدة «اليباب» المؤلفة من ٣٠٤ أبيات، اقتبس من ما لا يقلّ عن خمسة وثلاثين كاتباً وشاعراً، ومن عدّة أغان شعبية. وحشد فيها جملاً من ست لغات أجنبية إحداها اللغة السنسكريتية. ولكنّ الفرق بين الرجلين، أنّ بوند ليس ذا سيطرة قويّة على الخيال، فهو يستطيع أن يمتّع القراء بتنوّع اطلاعه، أمّا إليوت فذو شخصية قويّة، وعلى كثرة ما يورده من اقتباسات فإنّ تأثيره الفني لا يضعف ولا يضيع. وهو في شعره يخلق شخصيات درامية ولذلك تذكره الناس ونسوا بوند. واستمدّ إليوت من بوند أيضاً ذلك التتابع الفجائي في القصيدة دون تهئية أو تفسير، إذ المهمّ في القصيدة أن يتتبّع القارئ التجربة العاطفية، لا تدرج البناء الفكريّ فيها، فإذا تلقى الصوّر المتلاحقة فذلك حسبه، وذلك هو الواجب الأوّل الذي لا بدّ للقصيدة أن تؤدّيه.

ثمّ ينطلق ليتحدّث بتفصيل أكثر عن قصيدة «الأرض اليباب»:

«... إنّ إليوت يرى في الإنسان المعاصر، إنسانا تافها مقفرا مشلول القوة محطّم الإرادة، ويتصوّر العالم الذي نعيش فيه مملكة أولى للموت، وهذه هي الفكرة التي يعرضها بتعمّق في قصيدة اليباب.

وكلمة اليباب توحى لنا بالجذب والجفاف وقلة الماء، وبهذا يرمز إليوت إلى الحضارة الحاليّة الخاضعة للآلة، التي قضت على الإنسان بالجذب العاطفيّ والروحيّ، ولا شكّ أنّ «الماء» هو العنصر الذي يخلّص اليباب من جذبه وجفافه، فالماء في القصيدة رمز الخصب، وهو القادر على أن يطفئ الظمأ الروحيّ.

وتستند القصيدة إلى نوع من الأساطير التي تصوّر بلدا موحشا قفرا يحكمه ملك عنيد، وقد توقّف عن التّموّ فيه كلّ ما هنالك من نبات وحيوان، وأصيب النّاس أنفسهم بالعقم، ولذلك نرى الشّاعر يشير من أوّل القصيدة إلى زهرة اللّبلاب (Hyacinth) وهي رمز لشعائر إله الخصب الذي ينقذ المدينة من العطش والقحط، كما يسمّيه في أوّل القصيدة زخّة من المطر تسقط في أوّل نيسان ليمثّل كيف كان الماضي غير مجذب كالحاضر. وتوحى لك القصيدة بما يدور في نفس رجل متبّرر متطهّر من صراع، وما يلمّح إلى اقترابه من الحياة على استحياء، وما يخالجه من هرب زهديّ يبعده عن الحياة الجنسيّة، وتشعر بأنّه يحاول أن يستعيد العاطفة الدّينيّة لتنقذه من ذلك الجفاف الجنسيّ.

ونحنّ أيضا أنّ النّفسيّات التي تمثّلها هذه القصيدة رموز للملايين التي تؤدّي أعمالا «روتينيّة» ممّلة، وتسير وهي حاملة نفوسها في اتّجاهات لا جدوى وراءها، وتعيش في عالم لا تحكمه الوحشة فحسب، بل ترين عليه وتتغلغل فيه ضروب من الشّكّ والفوضى. ولا بدّ لنا، لنفهم قصيدة اليباب، من أن نذكر ملحوظة أرفقها بها إليوت، تعدّ مفتاحا لها، وهي أنّ كلّ الرّجال فيها إنّما يمثلون مواقف لشخص واحد، وكلّ النّساء فيها امرأة واحدة، وفي شخصيّة تيريسياس يلتقي التّدكير والتّأنيث.

والقصيدة أقسام خمسة أحدها يسلم إلى الآخر ويفضي إليه فالأول يدل على الخوف من البعث والولادة الجديدة ويصور الخشية من شهر نيسان (إبريل) لأنه شهر الانبعاث الجديد:

نيسان أفسى الشهور

يولد الليلك من الأرض الموات، مازجا

الذكرى والرغبة، مثيرا الجذور المتلبدة بمطر الربيع

أما الشتاء فقد حفظ علينا الدّفء، غامرا

الأرض بجليد نيسان

وفي الثاني إغراق في تصوير معنى الجفاف وضرورة الموت، وفي الثالث صورة للشهوة، وفي الرابع يتحقّق الموت في الماء. أي فيما كان يظنّ أنّه سبب الحياة. ولأوضح هذا الذي أجملته بما يسمح به المقام. في القسم الأول تنتقل الصّورة من حزقيال إلى قلب مدينة كبيرة إلى مخدع سيّدة تصفّر الرّيح تحت بابه والجامع بين هذه الثلاثة وحدة الجذب، والشّخص الأوّل في هذا المنظر رجل عاجز مشلول الإرادة يرى ما يجري ولا يستطيع أن يعمل شيئا. يرى الأموات تطفو على جسر لندن فيتعجّب من كثرتها، ويرى بينها صورة نفسه، أمّا أزمته النّفسية فهي أزمة النّفس المعاصرة، كما يتصوّرّها إيليويت، وحياته هي حياة الشّعب الذي أقفرت نفسيّته، ولذلك أصبح في حاجة إلى منقذ. وهنا يجيء القسم الثاني ويظهر فيه المخلّص في ثوب جنديّ من المسرحين يحسّ بالإخلاص لزوجته بعد أن أصبحت لا تجذب انتباهه ولا تعجبه، كما أنّه في نظرها ونظر صاحبها يمثل الإخفاق، وعلى ذلك فهو ضحيّة لنظام فقد معنى قدسيّة الزّواج ولم يجد ما يحلّ محله. وفي القسم الثالث يجيء المنقذ في صورة تاجر غير حليق وجيبه مليء بالزّبيب، وتختفي شخصيّة ثانية ليظهر في شكل شابّ يحبّ شابّة تعمل على الآلة الكاتبة. وغاية إيليويت من هذا أن يصرّو لنا قلّة جدوى الحبّ والمال لإنقاذ الإنسان من الجذب. ثمّ يتحوّل المنقذ من جديد فإذا هو

شابّ يحلم بالحنين إلى الشّباب، إلى شيء لا يشبه الحياة العاديّة، ويجتزّر لحظات من التّخيّل والاستمتاع بالجمال ولكنّ نصيبه العجز أيضاً. ومنذ أوّل القصيدة كانت العرّافة قد تنبّأت عن الموت بالماء وحدّرت منه، فيصبح الخوف من الماء هو موضوع القسم الرّابع. وهنا يصبح التّاجر والشّيخ ممثّلين في شخصيّة واحدة هي شخصيّة فليبّاس الفينيقيّ، وهو شابّ ذو مصالح تجاريّة، فيتقمّص الشّخصيّتين معاً، والفصل قصير ولكنّه من أهمّ الفصول في القصيدة، وفيه يقول:

فليبّاس الفينيقيّ، مات منذ أسبوعين

ونسي... مدّ البحر العميق

والريّح والخسارة.

تحت البحر تيار استلّ عظامه في همس، ولمّا ارتفع وانحدر

مرّ بأدوار شبابه وهرمه، واحتوته الدّوامة.

يا أنت غويم كنت أو يهوديًا،

يا من تدير الدّولاب وتنظر صوب الريّح

اعتبر بفليبّاس. فقد كان ذات يوم جميلاً طويلاً مثلك.

ومعنى هذا أنّ الفينيقيّ يغرق في البحر أيّ تضيع الرّوح لأنّ صاحبها عاش على مبدأ «الريّح والخسارة»، وموته في الماء رمز قويّ إلى أنّ اليباب لا ينقذه الماء بهذه الطّريقة. وبموت الفينيقيّ يرتسم العجز من جميع النّواحي، فلا المال ولا الحبّ ولا الحنين تعني عن صاحبها شيئاً، ولا المنقذ يغني شيئاً لأنّه مات:

إنّ الذي كان حيّاً قد مات

ونحن الأحياء نموت، بصبر قليل.

تلك هي شخصيّة الرّجل في أطواره المختلفة، أمّا المرأة ففي القسم الأوّل تمثّل الحبّ المثاليّ ثمّ تروغ من بين يدي حبيبها وهي تقول له:

لقد أعطيتني زهرات اللّبلاب منذ عام

فسمّوني فتاة اللّبلاب

ولكنّا حين عدنا .متأخّرين .من حديقة اللّباب
وراحتاك ممتلئتان وشعرك بليل، لم أكن حيّة أو ميّنة
ولم أكن أعرف شيئا وأنا أنظر في قلب الضياء، في
الصّمت.

وتظهر في القسم الثّاني في صورة ديدون أو كليوبترّة تعيش بين
الجواهر والعطور ثمّ تستحيل إلى امرأة عصيّة عصبية تحاول أن
تغرق قلقها في أوجه من النّشاط لا فائدة فيها، ثمّ تصبح زوجة لرجل
عائد من الحرب وقد فقدت كلّ معنى لحياتها، ثمّ إذا بها عاملة على
الآلة الكاتبة التي ترضي شهوة الشّابّ وتجد من الاتّصال به لذة قليلة،
ثمّ هي إليزابث مع حبيبها لسترعلى نهر التّيمس، وهنا يورد الشّاعر أغنية
«بنات التّيمس» وكلّها تنضح بالفساد والإخفاق والإثم.

وكلّ هؤلاء النّساء صورة لامرأة واحدة كان من واجبها أن تعين
المنقذ، ليحطّم العقم الذي يسود اليباب، ولكن بدلا من ذلك، تزيده
العلاقة عجزا، وتورّطه في الإثم، ولا تقرّبه من الانتعاش الرّوحيّ.
اليباب لا ينتعش بهذه الطّرق وإنّما يحيا بالماء، والماء كثير التّردّد
في القصيدة وهذا يوهم أنّ الإنقاذ سهل، غير أنّ الإنسان أخطأ إليه
الطّريق، كما أخطأ الماء نفسه واجبه وأغرق فليباس.»

[قصيدة الأرض اليباب]

(.دفن الموتى)

نيسان أقسى الشّهور، يولّد

اللّيلك من الأرض الموات، مازجا

الذّكرى والرّغبة، مثيرا

الجدور المرتخية بمطر الرّبيع.

يجعلنا الشّتاء أكثر دفئا، موارد

الأرض في جليد النّسيان، مغذّيا

حياة صغيرة بعجرات جافّة.

فاجأنا الصَّيف، حاملاً فوق «ستاربرجسي»
وابلاً من المطر؛ توقَّفنا عند صفِّ الأعمدة،
وخرجنا إلى ضوء الشَّمس، في «هوفغارتن»،
وشربنا قهوة، وتحدَّثنا ساعة

وكنا صغاراً، نقيم بقنطرة الدَّوق،
ابن عمِّي، حملني في مزلجة.
وكنت خائفة. قال، ماري،
ماري، تمسَّكي جيِّداً. ونزلنا إلى أسفل.
عند الجبال؛ تشعر أنك حرّ.
قرأت كثيراً ممَّا يقوله اللَّيل، وذهبت جنوباً في الشَّتاء.
ما هذه الجذور الَّتِي تتقبَّض، ما هذه الأغصان الَّتِي تنمو
داخل هذه القمامة الحجريَّة؟ يا ابن الرِّجل،
إنَّكَ لا تستطيع أن تقول، أو تخمِّن، لأنَّكَ لا تعرف سوى
كومة من الصَّوَر المحطَّمة، حيث الشَّمس تحرق،
والشَّجرة الميَّتة لا تمنح ظلاً، ولا يمنح الكرسيَّ راحة،
ولا الصَّخرة الجافَّة أيَّ صوت للماء. فقط،
هناك ظلٌّ تحت هذه الصَّخرة الحمراء،
(تعال إلى ظلِّ هذه الصَّخرة الحمراء)،
وسأريك شيئاً يختلف عن
ظلك في الصَّباح وهو يخطو وراءك أو
ظلك مساءً وهو يرتفع ليدانيك؛
سأريك الخوف في حفنة من التَّراب

«أعطيتني يا قوتيات لسنة خلت:

فسمّوني الفتاة الياقوتية.»
لكن حينما رجعنا. متأخرين. من حديقة الياقوتيات،
ذراعاك ممتلئتان، وشعرك مبلّل، لم أكن أستطيع
الكلام، وخانتني عيناى، لم أكن
حية أو ميتة، ولم أكن أعلم شيئا،
ناظرا إلى جوهر النور. الصمت.
السيدة «سوزستريس»، عرافة مشهورة
أصابها برد، إلا أنّها
تعرف بأنّها أعقل امرأة في أوربّا،
برزمة أوراق لعبها التي لا تجارى. هنا، قالت،
ورقتك، البحار الفينيقيّ الغريق،
(تانك اللؤلؤتان اللتان كانتا عينية. انظرا!)
هنا «بلدوننا»، سيّدة الصّخور،
سيّدة المواقف.
هنا الرّجل صاحب العصيّ الثلاث، وهنا العجلة،
وهنا التّاجر صاحب العين الواحدة، وهذه الورقة
الخالية، شيء يحمله على ظهره،
وقد منعت من رؤية ما فيها. لم أجد
الرّجل المشنوق. عليك أن تخشى الموت في الماء.
أرى حشودا من النّاس، يخطون في جلبة.
شكرا. إذا رأيت السيّدة «أكيّتون»،
قل لها سأجلب الطّالع بنفسى:
على الواحد أن يكون حذرا هذه الأيّام.
مدينة وهم.
تحت الضّباب البنيّ لفجر شتويّ،

كان حشد يتقاطر على جسر لندن، كثيرين كانوا،
لم أكن أحسب أنّ الموت قد قضى على كثيرين.
أهات قصيرة ومتقطعة، كانت تطلق،
وكلّ واحد كان يثبت عينيه أمام قدميه.
يصعدون أعلى التلّة، نزولا إلى شارع الملك «وليم»،
إلى حيث القديسة «ماري وولنوٲ» تحفظ الساعات،
وقد حشرجت دقّة الساعة التّاسعة الأخيرة بصوت ميّت.
هناك رأيت رجلا أعرفه، استوقفني قائلا: «ستاتسن!
«أنت الذي صحبتني على متن السّفينة إلى «مايلي»!
«تلك الجثّة الّتي زرعتها السّنة الفارطة في حديقتك،
«هل بدأت تنمو؟ هل ستزهر هذا العام؟
«أم أنّ الجليد المفاجئ قد بدّد سريرها؟
«أوه، دع الكلب يريض بعيدا، ذاك صديق الرّجال،
«والّا حفر بمخالبه عنها مرّة أخرى!
«أنت! أيّها القارئ المداحي!، شبيهي، شقيقي!»

(٢) لعبة الشّطرنج

كان الكرسيّ حيث تجلس، مثل تاج براق،
يشعّ على المرمر، حيث المرأة
كانت مثبتة بأعمدة مزخرفة بكروم مثمرة
يطلّ منها كيوبيد ذهبيّ
(كان آخر يخفي عينيه وراء جناحه)
يضاعف ألسنة اللّهب الّتي ترسلها الشّمعدانات ذوات السّبعة
غصون
يعكس الضّوء على الطّاولة في نفس الوقت الّذي
يسطع فيه لمعان جواهرها ليدانيه،

من صناديق من السّاتان مسكوبة في وفرة غنيّة.
في قنان من عاج وزجاج ملوّن
بلا سدّادات، تكمن عطورها المؤلّفة الغريبة،
مرهم، مذرور، أو سائل، تعكّر، تمزج
وتغرق الإحساس في الرّوائح؛ مثارة من قبل الهواء
الذي يدلّف من النّافذة عنيفا، ترتفع
لتضخّم ذبالات الشّموع الممتدّة،
تطلق دخانها
مثيرة شكل السّقف المزخرف.
خشب بحريّ ضخم مطعم بالنّحاس
يحترق أخضر برتقاليا، مؤطّرا بالصّخرة الملوّنة،
التي كان يسبح في ضوءها الحزين دلفين منحوت.
فوق رفّ المدفأة القديم كان معروضا
كما لو أنّ نافذة كانت تضيء على المشهد الأجمي
تغيّر العندليب، من قبل الملك البربري
مجثتّ بفضاطة كبيرة؛ إلّا أنّ العندليب
كان يملأ المفازة بصوت منيع
وهو إلى الآن يصيح، والعالم إلى الآن يتابع،
«جق جق» للأذان المتّسخة.
وقد لفظت بقيّة أعقاب الوقت
على الحيطان؛ والأشكال المحدّقة
أميلت، تميل، باعثة السّكون داخل الغرفة المغلقة.
خطوات تضطرب على السّلم.
تحت ضوء النّار، تحت المشط، كان شعرها
ينتشر في نقاط ملتهبة
يشعّ في كلمات، ثمّ يهدأ بوحشيّة.

«إنَّ أعصابي منهارة هذه اللَّيلة. نعم، منهارة. ابقِ معي.
كَلِّمِي. لماذا لا تتكلَّم أبدا؟ تكَلِّم.
فيم تفكِّر؟ أيَّ تفكير؟ ماذا؟
لا أعرف أبدا فيما تفكِّر. فكِّر.»
أظنَّ أننا في زقاق الفئران
حيث فقد الموتى عظامهم.
«ما هذا الضَّجيج؟»
الريِّح تحت الباب.
«ما هذا الضَّجيج الآن؟ ماذا تفعل الريِّح؟»
لا شيء أيضا لا شيء.
هل
أنت لا تعلم شيئا؟ لا ترى شيئا؟ هل أنت لا تتذكَّر
شيئا؟»
اذكر
تانك اللؤلؤتان كانتا عينيَّه.
«هل أنت حيٍّ، أم لا؟ أليس هناك شيء في رأسك؟»
لكن
أوه أوه أوه هذه الخرقَة الشَّكسيريَّة.
إنَّها أنيقة جدًّا
ذكيَّة جدًّا
«ماذا سأفعل الآن؟ ماذا سأفعل؟
سأهرع خارجا كما أنا، وأمشي في الشَّارع
وشعري إلى أسفل إذن. ماذا سأفعل غدا؟
ماذا سنفعل دائما؟»
الماء السَّاخن في العاشرة.
وإذا أمطرت، سيَّارة موصدة في الرَّابعة.

وسنلعب لعبة الشطرنج،
ضاغطين أعينا بلا جفون ومنتظرين دقا على الباب.

عندما سرّح زوج «ليل»، قلت.
لم أقطع كلماتي، قلت لنفسي،
أسرع من فضلك لقد حان الوقت
الآن سيرجع «ألبرت»، اجعلي نفسك أنيقة قليلا.
سيكون راغبا أن يعرف ماذا فعلت بالنقود التي أعطاك
إياها

لتركي بعض الأسنان. لقد فعل، وكنت هناك.
اخلعهم جميعا، «ليل»، واحصلي على طقم جميل،
قال، أقسم، لا أستطيع تحمّل النّظر إليك.
ولن أستطيع، قلت، وفكرت في «ألبرت» المسكين،
لقد مكث في الجيش أربع سنوات، إنّه يريد وقتا طيبا،
وإذا لم تمنحيه إياه، سيكون هناك أخريات يفعلن، قلت.
آه، هل هناك؟ قالت. شيء من هذا القبيل، قلت.
ثمّ سأعرف من أشكر، قالت، ورمقتني بنظرة محدّدة.
أسرع من فضلك لقد حان الوقت
إذا لم ترغي في ذلك تستطيعين أن تتعوّدي عليه، قلت.
آخرون يستطيعون أن يلتقطوا ويختاروا إذا لم تستطعي.
لكن إذا غادر «ألبرت» فجأة، لن يكون ذلك سببه قلة البوح.
يستحسن أن تخجلي من نفسك، قلت، لأنك تبدين عتيقة.
(وعمرها فقط واحد وثلاثون.)
لا أستطيع احتمال ذلك، قالت، صاحبة وجهها يميل إلى الطّول،
إنّما هذه الحبوب التي أتناولها، للخلاص، قالت.
(لديها الآن خمسة أبناء، وقد كادت تقضي وهي تلد جورج الصّغير.)

قال الصَّيْدَ لَانِي إِنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا يَرَامُ، لَكُنِّي لَمْ أَعِدْ كَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلُ.

أَنْتِ غَبِيَّةٌ مُحْضٌ، قُلْتُ.
حَسْنَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ «أَلْبَرْتُ» لِيَتْرَكَ وَحِيدَةً، فَلِيَكُنْ، قُلْتُ،
لِمَاذَا تَزَوَّجْتَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ الْأَطْفَالِ؟
أَسْرَعَ مِنْ فَضْلِكَ لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ
حَسْنَا، ذَلِكَ الْأَحَدُ كَانَ «أَلْبَرْتُ» فِي الْمَنْزِلِ، وَكَانَ لَدَيْهِمْ
فَخَذَ خَنْزِيرَ مَدْحَنَ،
وَقَدْ دَعَوْنِي إِلَى الْعِشَاءِ، لَأَسْتَمْتَعَ بِهِ سَاخِنًا.
أَسْرَعَ مِنْ فَضْلِكَ لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ
أَسْرَعَ مِنْ فَضْلِكَ لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ
تَصْبَحْ عَلَى خَيْرٍ «بَيْلُ». تَصْبَحِينَ عَلَى خَيْرٍ «لَوْ». تَصْبَحِينَ عَلَى خَيْرٍ
«مَائِ». تَصْبَحُونَ عَلَى خَيْرٍ.
تَصْبَحْنَ عَلَى خَيْرٍ، أَيَّتُهُمَا السَّيِّدَاتِ، تَصْبَحْنَ عَلَى خَيْرٍ، أَيَّتُهُمَا السَّيِّدَاتِ
الْجَمِيلَاتِ، تَصْبَحُونَ عَلَى خَيْرٍ،
تَصْبَحُونَ عَلَى خَيْرٍ.

(٣) الْعِظَةُ النَّارِيَّةُ

خِيَمَةُ النَّهْرِ تَحَطَّمَتْ؛ آخِرَ أَظْافِرِ الْوَرَقَةِ
تَقَبَّضَتْ وَغَرَقَتْ فِي طَمِي الضَّفَّةِ. الرِّيحُ
عَبَرَتْ الْأَرْضَ الْبَنِّيَّةَ، فِي صَمْتٍ. حَوْرِيَّاتُ الْبَحْرِ غَادَرْنَ.
أَيُّهَا «الْتَّامِسُ» الْجَمِيلُ، اسْرْمْتَمِهَلَا، حَتَّى أَنِّي أَغْنِيَتِي.
لَيْسَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ قَنَّانُ فَارِغَةٍ، أَوْ رَاقُ لَفِّ اللَّمَجَاتِ،
مَنَادِيلُ حَرِيرِيَّةٍ، صَنَادِيْقُ وَرَقِيَّةٍ، أَعْقَابُ سَجَائِرِ
أَوْ أَيْ أَثَرِ لِّلْيَالِي الصَّيْفِيَّةِ. حَوْرِيَّاتُ الْبَحْرِ
غَادَرْنَ.

وأصدقاهُمنَ، ورثة مديري المدينة المتسكعون؛
 غادروا، دون أن يخلّفوا أيّة عناوين.
 قرب مياه «لمن» جلست وبكيت...
 أيّها «التّامس» العذب، اسرمتهملا، لأنّني لا أتكلّم عاليا أو طويلا
 لكن وراء ظهري إثرهبة ريح باردة سمعت
 خشخشة العظام، وضحكة خافتة تنتقل من أذن إلى أذن.
 زحف فأر يهدوء عبر الخضرة
 ساحبا بطنه الهزيلة على الضّفة
 في حين كنت أصطاد في القنال الرّتيب
 في مساء شتويّ وراء مصنع الغاز
 أتفكر في غرق سفينة أخي الملك
 وموت أبي الملك قبله.
 في حين الأجساد العارية على الأرض المبلّلة الوطنية
 والعظام الملقاة داخل علّية جافّة وطينة صغيرة.
 تخشخش بفعل قدم الفأرفحسب، من سنة لأخرى.
 لكن وراء ظهري، من وقت لآخر، أسمع
 صوت الأبواق والمحركات، التي ستجلب
 «سويني» إلى السيّدة «بورتر» في الرّبيع.
 آه، إنّ القمر يشعّ براقا على السيّدة «بورتر»
 وعلى ابنتها
 إنّهما تغسلان أقدامهما في مياه الصّودا
 وآه، من أصوات الأطفال هذه، التي ترتفع بالغناء في القبّة!
 توت توت توت
 جق جق جق جق جق
 مجتّنة بفضاظة.

Tereu

مدينة وهم

تحت الضباب البني لظهر شتوي
السيد «يوجينيدز»، تاجر من «سميرنا»
غير حليق، جيبه مليء بالكشمش
سي أي أف لندن: مستندات في متناول النظر،
دعاني، بفرنسية ركيكة،
إلى الغداء في فندق «شارع كانن»
تعبه نهاية عطلة الأسبوع في المتروبول.
على الساعة البنفسجية، عندما العينان والظهر
يستديران من على الطاولة، عندما المحرك البشري ينتظر
مثل سيارة أجرة تنبض منتظرة،
أنا تريسيس، رغم عملي، واضطرابي بين حياتين،
وكوني شيخا بثدي أنثى مجعدين، أستطيع أن أرى
على الساعة البنفسجية، الساعة المسائية التي تصارع
في اتجاه طريق العودة، لتحمل البحار إلى بيته من البحر،
والراقنة إلى بيتها ساعة الشاي، تزيل آثار فطورها، تنير
الموقد، وتضع الطعام في التناكات.
خارج النافذة، معرض للخطر ينتشر
قميصها المسرول الجاف الذي لسعته أخراشة الشمس،
على الديوان تكومت (ليلا سريرها)
جواربها، شبشبها، قميصولها، ومشدها.
أنا تريسيس، شيخ بثدين مجعدين
رأيت المشهد، وتنبأت بالبقية.
وانتظرت الزائر المتوقع أيضا،
هو، الرجل الشاب العقيقي، جاء،
موظف بمصنع صغير لأحد الوكلاء، ذو نظرة جريئة.

واحد من الأدين الذين ترتاح فوقهم الطمأنينة
كما قبعة الحرير على مليونير من «برادفورد».
إن الوقت مناسب، كما خمن،
انتهت وجبة الطعام، كانت ضجرة ومتعبة،
جهد أن يغرقها في مداعبات
كانت إلى ذلك الحين غير مستنكرة، إذا لم تكن مرغوبة.
مهيّجا ومصبّما، هجم حالاً؛
يداه المستكشفتان لم تلقيا صداً،
وخيلاؤه لا يتطلّب استجابة،
وأفسح المجال لحالة من اللامبالاة.
(وأنا تريسّياس من كنت قد تنبأت بكلّ شيء
ممثلاً على نفس هذا الديوان أو السرير؛
أنا الذي كنت جلست قرب طيبة تحت الحائط
ومشيت بين أسافل الموتى.)
منح قبلة مسيطرة أخيرة،
وتحسّس طريقه، إذ كان السّلم مظلماً...
استدارت ونظرت لحظة في المرأة،
بالكاد تعي حبيبها المغادر؛
دماغها يمور بفكرة نصف متشكّلة:
«حسنا الآن لقد مرّ ذلك: وأنا سعيدة بأنّه انتهى».
عندما تنحني امرأة جميلة للغباء و
تخطر داخل غرفتها ثانية، وحيدة،
تمسّد شعرها بيد آليّة،
وتضع إسطوانة على الجراموفون.»

«هذه الموسيقى تزحف حولي فوق الماء»

وعلى امتداد الشاطئ، إلى شارع الملكة «فكتوريا».
آه، أيتها المدينة، أيتها المدينة، أستطيع أحيانا أن أسمع
بجانب حان عام في شارع «التامس السفلي»،
انتحاب المندولين العذب
وقعقة وثرثرة من الداخل
حيث ينفق البحارة الوقت متبطلين عند الظهيرة: حيث جدران
الشهيد «ماغنس» تحتفظ
بعظمة لا توصف لأيوني ذهبي.
التهرينضح
نفطا وقطرانا
البروج ينساق
مع المد الموي
أشعة حمراء
رحبة
باتجاه الريح
تتأرجح على الصاري الثقيل
البروج تغسل
الأخشاب المندفعة
إلى بسط «غرينوتش»
بجانب جزيرة الكلاب.»
ويلا لا لايا
والالا لايا لا
«إليزابث» و«لستر»
يجذّان
كان الكوثل مشكّلا
قوقعة ممّوهة بالذهب

حمراء وذهبيّة
الموجة الهادرة
يصيب رشاشها كلا الشّاطئين
الريّح الجنوبيّة الغربيّة
تحمل معها التّيّار إلى أسفل
جلجلة الأجراس
القلاع البيضاء
وايا لالا لالا
والالا لالا لالا
«الترّامات والأشجار المغيرة»
«هايري» كان يضجرني. «رتشمند» و«كيو»
حطّمانى. قرب «رتشمند» رفعت ركبتى
مستلقيا على سطح قارب ضيق.»

«قدماي في «مورغيت»، وقلبي
تحت قدمي. بعد الحادثة
بكى. وعد «ببداية جديدة».
لم أعلّق. ماذا يستحسن أن أمقت؟»

«على رمال «مارغيت».
لا أستطيع ربط
أيّ شيء بأيّ شيء.
الأظافر المحطّمة لأياد متّسخة.
أناسي، أناسي المتواضعون لا يتوقّعون
شيئا.»
لالا

ثمّ قدمت إلى قرطاجة
محترقا محترقا محترقا
آه، يا ربّ أنت اقتلعتني
آه، يا ربّ أنت اقتلعت
محترقا

(٤) الموت بالماء
فليبّاس الفينيقيّ، منذ أسبوعين مات،
نسي هدير العواصف، وموجة البحر العميقة
والريّح والخسارة.
تيّارتحت البحر
التقط عظامه هامسا. حالما نهض وسقط
عبر مراحل عمره وشبابه
والجا الإعصار.
غويم كنت أو يهوديّاً
أوه أنت يا من تدير الدقّة وتشرئب صوب اتّجاه الريّح
اعتبر بفليبّاس، الّذي كان مرّة أنيقاً وطويلاً مثلك.

(٥) ما قاله الرّعد
بعد ضوء المشعل الأحمر على الوجوه المتعرّقة
بعد الصّمت الجليديّ في الحدائق
بعد الألم المبرّح في الأماكن الصخرية
الصّياح والبكاء
السّجن والقصر وتردّد صدى
رعد الرّبيع في جبال قصيّة
الّذي كان حيّاً توفّي الآن

نحن الذين كنّا أحياء نموت الآن
بصبر قليل
هنا لا ماء، لكن هناك الصّخر فقط
صخر ولا ماء والطريق الرّمليّ
والطريق مخترقا بين الجبال
التي هي جبال صخر بلا ماء
لو كان هناك ماء لكان يجدر بنا أن نتوقّف ونشرب
بين الصّخر الواحد لا يستطيع أن يتوقّف أو يفكّر
العرق جافّ والرجلان في الرمال
لو كان هناك فقط ماء بين الصّخر
فم جبل ميّت بأسنان نخرة لا يستطيع البصق
هنا الواحد لا يستطيع أن يقف أو يتمدّد أو يجلس
حتّى الصّمت لا يوجد في الجبال
لكن يوجد رعد عقيم جافّ بلا مطر
حتّى الوحدة لا توجد في الجبال
لكن وجوها جهمة حمراء تسخروتنكّم بغضب
من أبواب بيوت طينية آيلة
لو كان هناك ماء

ولا صخر
لو كان هناك صخر
وماء أيضا
وماء
نبع
بركة بين الصّخور
لو كان هناك صوت الماء فقط
وليس الرّيز

وعشب جافّ يغني
لكن صوت ماء على صخرة
حيث الدجّ يغني على أشجار الصنوبر
درب درب درب درب درب درب
لكن لا يوجد ماء
من الثالث الذي يمشي دائما إلى جانبك؟
عندما أعدّ. لا يكون هناك سواي وسواك معا
لكن عندما أنظر إلى الأمام عند رأس الطريق الأبيض
يكون هناك دائما شخص آخر يمشي بجانبك
ينسلّ مواربا في دثار بيّ، مقلنس
لا أعلم فيما إذا كان رجلا أو امرأة
لكن من ذاك الذي إلى جانبك الآخر؟

ما ذاك الصوّت العالي في الهواء
خريرا انتحاب أمومي
من هم أولئك الحشود المقلنسون الذين يتدافعون
على السّهول اللامتناهية، يتعثّرون في الأرض المشقوقة
يحوطهم الأفق الممتدّ فقط
ما هذه المدينة فوق الجبال
تتصدّع وترمّم وتنفجر في السّاعة البنفسجيّة
قلاع منهارّة
أورشليم أثينا الإسكندريّة
فيانّا لندن
وهم

امرأة سحبت شعرها الأسود الطويل بإحكام

وحرّكت يديها بموسيقى هامسة على تلك الأوتار
وخفافيش بأوجه طفليّة في الضّوء البنفسجيّ
تصفرّ، وتضرب بأجنحتها
وتزحف مطأطئة الرأس أسفل حائط مسودّ
ورأسا على عقب في الهواء كانت هناك قلاع
دقّات نواقيس حافلة بالذكريات، تحفظ السّاعات
وأصوات غناء تنبعث من صهاريج فارغة وأبار متعبة.

في هذا الشّقّ المضمحلّ بين الجبال
على ضوء القمر الشّاحب، كان العشب يغّي
فوق القبور المتعثّرة، قرب الكنيسة
هناك الكنيسة، مأوى الرّيح فقط.
ليس بها نوافذ، والباب يتمايل،
العظام الجافّة لا تؤذي أحدا.
هناك ديك فقط يقف فوق سطح الشّجرة
كوكوريكو كوكوريكو
في ومضة برق. ثمّ هبة ريح رطبة
تحمل المطر
«غانغا» غرق، والأوراق العرجاء
كانت تنتظر المطر، في حين السّحب الدّكناء
تتجمّع في البعد، فوق «هيمافانت».
الغابة تجثم، مجهدة في صمت.
ثمّ يهزم الرّعد
دا
داتا: ماذا منحنا؟
صديقي، الدّم يخضّ قلبي

الجرأة المؤلمة للحظة تسليم
لا يستطيع عمر من الحذر أن يسحبها قطّ
بهذه، وهذه فقط، وجدنا
التي لن توجد في لحظات نعينا
أو ذكريات يلقها العنكبوت المستفيد
أو تحت الأختام التي يفظها المحامي الهزيل
في غرفتنا الشاغرة
دا

ديادفم: سمعت المفتاح
يدور في قفل الباب مرة، ومرة واحدة
فكرنا في المفتاح، كل في سجنه
مفكرين في المفتاح، أكد كل واحد سجننا
فقط ساعة الغروب، إشاعات أثيرة
تحبي للحظة «كوريولنس» محطّما
دا

دامياتا: السفينة استجابت
بمرح، لليد الخبيرة بالشراع والمجذاف
كان البحر هادئا، وكان عليك أن تستجيب
بمرح، فيما لودعيت، مجذّفا طائعا
نحو الأيدي المسيطرة

جلست على الشاطئ
أصطاد، والسّهل المجذب ورأي
هل سوف أصف، على الأقل، أراضيّ بالترتيب؟
إنّ جسر لندن يسقط يسقط يسقط

أوه ابتلع ابتلع .

أمير «الأكيتان» في القلعة المحرّرة
هذه البقايا دعمتها رغم أنف انهياري
فلماذا أقسح لك المجال إذن. إن «هيرونيمو» قد جنّ مرة أخرى
داتا. ديادفم. دامياتا.
شنتيه شنتيه شنتيه

كان لا بدّ من مخرج، من منقذ يخلّصك من هذا الفراغ، لا بدّ من
عبورك الهوة سالما، لتقهر الخوف المعشّش فيك، ذاك الخوف من
مجهول ما، من الذين يطالعونك بأفواه مفتوحة وأسنان تندّد دائما
عن تكشيرة مقيتة، من المرأة اللّغز، من الخوف نفسه، وقد حاولت
مرارا، البحث عن بديل صعب، والهروب إلى ضفّة أخرى، إلى شاطئ
آخر يحتاج قليلا من الصّبر والكثير من المجازفة. في الرّياضيّات نظريّة
معروفة تقول: الخطّ المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين، وما أن
وطئت قدماك أرض المدينة الغربية، أوّل يوم، حتّى اهتديت إلى تطبيق
المعادلة، وفكّ رموز النّظريّة، بنسبتها إلى نظريّة أخرى شبيهة: أقصر
خطّ مستقيم هو الذي يؤدّي رأسا إلى مكتبة تربض في مكان ما، في ناحية
ما، ولم تكن هذه المكتبة بعيدة على كلّ حال، بل كانت أقرب ممّا كنت
تتصوّر. لا تفصلها عنك سوى المسافة القصيرة بين الشّقة والمعهد،
ورغم أنّك كنت تلوب ككلب هنا وهناك، متشّما بأنفك تلك الروائح
العبيقة الّتي يتكوّم بين ثناياها ألق ماض يقود بثبات إلى حاضر مشرق
يشرّب بعنقه بعيدا إلى مستقبل رحب الأرجاء، بلا حدود، إلّا أنّك كنت
دائما تعود إليها، بحنين متجدّد، بشوق يفيض على المسافات، ويغرق
الحواجز والفواصل.

هناك قرّرت أن تتفرّغ للبحث تماما، لتنيهيه في أقرب وقت ممكن،
ومن ثمّ، تندف بجناحيك الفتّين، اللّذين يكسوهما زغب أصفر،
ميمّما شطر المدينة، ناحية المجهول.

كان عنوان البحث الّذي وطّنت العزم على الاشتغال عليه:

«تاريخ الأدب الإنجليزي من البدايات إلى القرن العشرين»

عمل ضخّم، جبار، عظيم، لا بدّ فيه من جهد، وتفرض، وصبر ومثابرة، كما يتطلّب معاشة للغة، وتجربة حميمة، تخوّل الولوج عبر المسارب، والانتحاء إلى أوائل المنابع. تقريبا كان مخطّط المشروع مرسوما في ذهنك، بخطوطه الكبرى وجزئياته الدّقيقة: تقصّي الملامح والخطوط عبر سِتّة قرون على الأقلّ، من بذرة الأدب الأوّل، حبوه، نمائه، إلى بلوغه الأشدّ، والإشعاع أخيرا، تتبّع البدايات، المخطوطات، الشّعْر الإنجليزي المسيحيّ القديم، الكتابات اللاتينيّة في إنجلترا حتّى زمن «ألفرد»، «ألفرد» والنثر الإنجليزي القديم زمن حكمه، من «ألفرد» إلى زمن الفتح النورمنديّ، اللغة الإنجليزيّة في بداية تحوّلها، أسطورة «آرثر»، الرومانس، الحركات الدّينيّة في القرن الرابع عشر، «شوسر»، النثر الإنجليزيّ في القرن الخامس عشر، الإنجليز والتهضة الكلاسيكيّة، الأدب الإصلاحيّ في إنجلترا، «باركلي» و«سكالتن»: بداية التأثير الألمانيّ على الأدب الإنجليزيّ، الأدب الاجتماعيّ في العصر التّيودوريّ، السّير «ديفيد لندساي»، الشّعْر الإنجليزيّ الجديد، «جورج غاسكوين»، شعر «سبنسر»، السّوناطة الإليزابيثيّة، علم العروض من «شوسر» إلى «سبنسر»، النّقد الإليزابيثيّ، النثر الرّوائيّ الإليزابيثيّ، اللّغة من «شوسر» إلى شكسبير، السّير «ولتر رالي»، أدب البحر، أدب الرّحلات: تطوّر الأدب الجغرافيّ، الكتب الغنائيّة: «روبرت ساوثويل»، «جون ديفيس»، «وليم ورنر»، «صامويل دانيال»، «توماس كمين»، خلفاء «سبنسر»: «مايكل درايتن»، «دون»، بدايات الفلسفة الإنجليزيّة، لندن وتطوّر الأدب الشّعبيّ، تأسيس المكتبات، جذور الدّراما الإنجليزيّة: مقدّمة، التأثيرات الدّنيويّة على بداية الدّراما الإنجليزيّة: الكوميديّون، المهرجانات القرويّة، المسرحيّات الشّعبيّة، بداية الدّراما الدّينيّة: مسرحيّات المعجزات والفضائل، بداية التّراجيديا والكوميديا الإنجليزيّين، مسرحيّات المفكرين الجامعيّين، «مارلو» و«كيد»،

«شكسبير»: حياته ومسرحياته، «شكسبير»: القصائد، «شكسبير» في أوربّا وأمريكا، «بن جونسون»، «شابمن»، «مارستن»، «داكر»، «ميدلتن» و«راولي»، «توماس هايوود»، «بومنت» و«فلتشر»، «فيليب ماسنجر»، «تورنر» و«وابستر»، «فورد» و«شيرلي»، «درايدن»، «صامويل باتلر»، الهجاء الكنسيّ والسياسيّ، الدراما في عهد استرجاع الملكية: «دافنونت»، «ايثيرنج»، «كونغريف»، «فانبره»، «فاركهار»، الشعراء التراجيديّون، شعراء البلاط، علم العروض في القرن السابع عشر، كتاب المذكرات والرسائل، الأدب القانونيّ، «جون لوك» وبعض علماء الاقتصاد، تطوّر العلم، بداية النثر الإنجليزي الحديث، «ديفو»: الجريدة والرواية، «ستيل» و«أديسون»، «بوب»، «سويفت»، «باركلي» والفلسفة المعاصرة، «عصر «جونسون»: «ريتشاردسن»، «فيلدنج» و«سمولت»، «ستين» ورواية عصره، الدراما والمسرح، «تومسن» ووصف الطبيعة في الشعر، «غراي»، «يونغ»، «كولتز»، «جونسون» و«بوسوال»، «غولدسمث»، التأثير الأدبيّ للقرون الوسطى: «ماكفرسن»، «شاترتن»، «بيرسي» والورثيون، المؤرخون: «هيوم» و«روبرتسون»، «جيسون»، الفلاسفة: «هيوم»، «آدم سميث»، عصر الثورة الفرنسيّة: «بيرك»، الكتاب السياسيّ والخطباء، «بنثم» والمنفعيّون، «كاوبر»، «وردزورث»، «كالدردج»، «بليك»، علم العروض في القرن الثامن عشر، الدراما الجيورجية، تطوّر الرواية، القرن التاسع عشر: «سكوت»، «بايرون»، «شلي»، «كيتس»، «هازليت»، «لام»، «لاي هانت»، «دي كوينسي»، «جين أوستن»، حركة أوكسفورد، تطوّر علم اللاهوت الحرّ، «كارليل»، التّنسيّون، البروانغيّون، «ماثيو أرنولد»، «آرثر هيو كلاو»، «جيمس تومسن»، الرّوساتيّون، «وليم مورس»، «سونبورن»، «فتسجيرالد»، علم العروض في القرن التاسع عشر، دراما القرن التاسع عشر، «ثاكري»، «ديكنز»، الرواية الاجتماعيّة: «دزرايلي»، «شارلزنكغسلاي»، «جورج

إليوت»، البرونتيون، من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، الإمبراطورية وبعدها: الفلسفة من «ميل» إلى «رسل»، المؤرخون والبيوغرافيون والخطباء السياسيون من «ماكولي» إلى «تشرشل»، النثر النقدي من «باجهوت» و«راسكن» إلى «جافريز» و«ستيورت»، أدب الرحلة، الأدب العلمي، عصرت .س. إليوت: أدب أواسط القرن العشرين: مقدّمة، الشعر الأنجلو أمريكي: «إليوت» و«بوند»، الرواية في بريطانيا وأمريكا في عصر «لورنس» و«جويس»، الدراما القديمة والجديدة، النقد والثقافة.

هائل!

مهول!

هناك...

جالسا على أحد المقاعد، وراء طاولة بنّية كبيرة، في البهو، لم يكن هناك مجال للتراجع، أو التهاون، أو الاستسلام. صار البحث أمرا واقعا، هو أو الموت، وقد كنت تأتي كلّ يوم، في أغلب الأحيان بعد الظهيرة، حيث تكون قد أنهيت الدّروس الاعتيادية بالفصل، وتمكث السّاعات الطّوال، حولك الكتب، كتب شتى، على يمينك وشمالك، تقرأ فيها دون كلل أو ملل، ويمرّ الوقت سريعا، دون أن تشعر، يلفّك صمت حنون شامل، ووجوه، تحوّلت غرابتها، شيئا فشيئا، إلى ألفة محبّبة. هؤلاء الذين يجلسون قربك، على الجانبين، ويحوطونك، إحاطة السّوار بالمعصم، تشعّ ملامحهم بالصّحة والحياة، هم الذين طالما سمعت عنهم، وكنت تشتاق إلى عالمهم رغم بعد الشّقة، وإيغال المسافة، وظللت ترسم لهم صورة في خيالك: كيف يتكلّمون، كيف يتصرّفون، ماذا يفعلون، ماذا يفضلون، كيف يحبّون، هل قست عليهم الحياة مثل كثيرين غيرهم!!!

والآن، وأنت بينهم، تلقّك الدّائرة التي يتحرّكون فيها، وتشاهدهم يوميّا يضطربون على مسرح الدّنيا المترامي، وتطرب حدّ الانتشاء لنبرة

أصواتهم التي كنت تسعى إلى تقليدها، حين تخلو إلى نفسك، ويفرغ لك
سكون المكان، تكتشف أنهم جنس فريد، سلاله في طريقها إلى الانقراض،
وأن ما سمعته عنهم لا يتجاوز في الحقيقة بعض ما هم عليه في الواقع،
وهذا ما جعلك تحسّ بانجذاب عنيف إليهم، وتستشعر رغبة جارفة في
المكوث بينهم، إلى الأبد، في أن تصوير واحد منهم، لا يمكن لغير الموت أن
يبعدك عنهم. يعملون طيلة النهار، كالحمير، بصبر وأناة، لا يفرطون ولا
يفرطون، العمل كقيمة مقدّس لديهم، إحساسهم بالمسؤولية عميق،
جعلك تعتقد في ثبات أنّه ربّما ولد معهم، ثمّ أَرْضَعُوهُ، بعد ذلك، من
أثناء أمهاتهم، فإذا فرغوا، تركوا هموم الحياة جانبا، وانطلقوا في
تبسّط، يتحدثون عن كلّ شيء برعونة طفوليّة، عن الليل، عن الرغبات
التي عادة ما تنتهي في السّير، عن النّساء، والطّقس والنّاس، ويحثّون
خطاهم الباحثة عن حيّز صغير للاستراحة، إلى حانات في الأطراف،
وينبثّون، كالحباحب، على امتداد الأهواء، يشربون ويدخّنون، وعندما
تعلو أصوات الموسيقى في الأرجاء، يندفعون كقطط جميلة مهيجّة إلى
حلبة الرقص، النّساء والرّجال، يلتحمون في عريضة صاخبة. غالبا دون
معرفة سابقة، ويدورون حول بعضهم، يمسك الرّجال بخصور النّساء
المستدقّة، وتسري الهمسات والضّحكات، وتنغل في الدّماء الفائرة
أحلام وأوهام، ويستمرّ الرقص، وتمتدّ السّهرة، ينسكب الشّراب،
وترمى أعقاب السّجائر، إلى وقت متأخّر من الليل، في الثّانية أو الثّالثة
صباحا، ثمّ، فجأة، وكلّح البصر، يعود كلّ شيء كما كان، فتأوي
الأجساد المتعبة إلى الأسرّة الدّافئة، وتأخذ قسطا ضئيلا من الرّاحة،
لتستأنف في الثّامنة أو التاسعة رحلة العمر المقدّسة!! جعلك ذلك
تساءل مرارا، وتحتار مرارا، وتعجز عن إيجاد الأجوبة التي من شأنها أن
تشفي غليلك مرارا:

ألا يتعبون؟

هل يتظاهرون؟

إحكام أداء اللعبة يعني أنهم متفوقون، وأنّ البيض في مواجهة الملّونين والسّاميين هم سادة العالم، وأنّه حتّى بإدبار الزّمن الذي كانوا يحكمون فيه الكون بالحديد والنّار، سيظلّ العمل النّقطة الفارقة، العلامة الحادّة، وسترجح بذلك كفّة الشّعب النّقيّ المختار المكافح على كفّتنا نحن المرضى الكسالى المتخلّفين... وقد تكون مخطئاً، وقد تكون مصيباً، إلّا أنّ العاطفة الّتي شعرت بها حيالهم لم تتغيّر، لم تتلاش، وتذب (معرفة الحقيقة لا تعني دائماً أن نتخذ موقفاً مضاداً تجاه ما نحسّه!).

ما السرّ؟

لماذا لا نكون مثلهم؟

لقد سرت عدوى صبرهم إليك، ولفحتك موجة رقيقة من موجات إصرارهم، فاستأنست أخيراً بهالة الهدوء الّتي كانت تسيطر دائماً على المكان. وقد كنت في الأيام الأولى، من تردّدك على المكتبة، تبحث بعينيك القلقتين، على جانبك، عن صاحب تسرّ إليه ببعض ما عندك، تبادل به بضع كلمات، تشاركه الحديث، إلّا أنّك تصدم، في كلّ مرة، بالجدوع المنحنية على الطّاوله، والرّؤوس المطأطئة، والأعين الّتي ما تفتأ تنتقل بين الصّفحات، دون توقّف، ممّا دفعك، مرّات، إلى أن تضيق بنفسك، ويقتلك الضّجر، رغم ما بذلته من جهد لأن تركّز انتباهك في الكتب أمامك، وباءت تلك المحاولات كلّها بالفشل، في البداية، فكنت تغادر المكتبة بعد نصف ساعة، وأحياناً بعد ساعة على أقصى تقدير.

بمرور الوقت تماسكت، تعوّدت.

صرت تمكث أوقاتاً أطول، وتحمل معك الكتب، وتقرأ بهم، ثمّ تخطّ الملاحظات على دفترك، وتؤشّر على بعض الفقرات الهامّة بقلم الرّصاص في هذا الكتاب أو ذاك. وبعد أن كنت تسعى إلى الهروب قرفاً، والاحتجاب التّهايّ، بدأت تودّ لو يطول مكثك إلى ما بعد الدّوام العاديّ، لكن لم يكن ذلك ممكناً، كان الحلّ سهلاً، مع ذلك، إذ كان مسموحاً

لك بالاحتفاظ بأربعة كتب تأخذها معك إلى غرفتك، بعد أن تسلّم قصاصات إلى إدارة المكتبة مكتوباً عليها اسمك وصفتك وعنوانك، فإذا ما أرجعتها لوقتها، أمكنك استبدالها بأربعة كتب أخرى، وهكذا دواليك.

لم تتوان أبداً.

صرت تصل الثَّهَارَ بالليل، وأنت مستغرق في القراءة.

ومرّت أيام عديدة لم تخرج فيها مع «مرتضى» إلى المقصف.

وسمع زملاؤك بخطّتك، فقالوا في البداية: «إنّ مجيئنا إلى هنا الغاية منه أن نستمتع، ونروّح عن أنفسنا، لا أن نمضي الوقت كلّ في عمل مضمّن لا طائل من ورائه سوى التَّعب»؛ ولكنك حين أعلمتهم أنّك أنهيت البحث بعد أربعة أسابيع ويومين، حسدوك، وودّ كلّ واحد لو كان مكانك.

هذا هو السِّرّ إذن؟ أجل، هو بعينه، وقد انتقل إليك منهم، دون كلام كثير، أو أسئلة، أدركته بحسك الذي لم يخيبك لحسن الحظّ، واستعدادك الدائب لتعرف كلّ ما يدور حولك، وأنت الجنوبيّ القادم من عمق الصَّحراء، تركت حكمة الأجداد الميَّنة تحت الرَّمال المحرقة لتظفر بها هنا، وسط دوائر الضَّباب وكريّات الثَّلج البيضاء:

«لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد.»

حينما أوشتك على إنهاء البحث، خامرك خاطر مفاجئ، فقلت:

. ما دمت قد استعرت كتباً كثيرة من كلّ مكتبات المدينة تقريباً، فلماذا لا أستعير أيضاً من مكتبة المعهد.

وأضفت بعد لحظة صمت، وأنت تبتسم ابتسامة ذات معنى:

. وسيكون ما أقوم به بالتّالي «استعارة الاستعارة»، فأنا بالطَّبع أستعير من المكتبة عن طريق القصاصات، ثمّ أعود بعد استعادة القصاصات إلى الاستعارة من جديد، لكن من دونها هذه المرة. وهذا ما أسمّيه «استعارة الاستعارة».

وبعد تأمل، وتقليب الأمور على وجوه عدّة، تنهت إلى مسألة كانت خافية عنك، وهي أنّ مكتبة المعهد جهاز إنذار فوق الباب تماما، بقدر ما كنت تشرّب بعنقك نحوه وجلا. كان ينظر إليك متحدّيا، ويرمقك باشمئزاز مقيت. قلت: «هذا هو إذن العدو الذي سيكشفك ويفضح أمرك، فيما إذا أقدمت»، وقد سمعت من كثيرين، عن قصد أو غير قصد، أنّ عشرات من هواة استعارة الكتب قد وقعوا في شركه، وتعرّوا بين أحابيله، يتحّين الواحد فرصة خلو مفاجئ، لحظة شغور، تحدّد عيناه الذنبيّتان مكان الضحيّة، تنقضّ يداها المديرتان بسرعة، وتخفيان الكتاب بين طيّات الثياب أو داخل حافظة الأوراق، يتقدّم، ينزل السّلم خطوة خطوة، يمرّ مخترقا اليهو، حتّى إذا اقترب من تلك الرّحبة الصّغيرة المحرّمة، التي تحوطها أسلاك معدنيّة، دوى جهاز الإنذار بصفير قويّ مبجوح؛ حينئذ، يحاول، كفرصة أخيرة، أن يهرب، يتّجه صوب الباب، يجذب مصاريعه بأمل، لكن دون جدوى، الباب مغلق، ولا مناص من الفضيحة، رغم الحذر والتّحوّط.

إنّهُ الخوف.

رهبة الإقدام.

خشية الافتضاح.

لكن، ما العمل، وأنت كلّما ازددت اختلاء بهذه الكتب، وغرقت بين سطورها، ضاربا في مجاهل التّاريخ، وقطوف الأدب الدّواني، مخاطبا آلاف الأشخاص، من كتّاب وشعراء، ومؤرّخين، وأدباء، ومهرّجين أيضا، بلسان واحد، وعلى امتداد حقب متباعدة، فتشاركهم الحيرة، وتحسّ أنّ شواغلهم بقدر ما تعنيهم فإنّها أيضا تعنيك... يشير إليك «شكسبير» هاشا، تسمع «دون» يجلجل بصوته على المنبر، قبل أن ينزل ليغوي صاحبتة بتعجيل الوصال، وتصحّب «ملتون» في الرّحلة المضنية عبر الجنّة المفقودة، «جنّة الخلد وملك لا يبلى»، ولكنّ الجنّة تضيع فجأة، والملك يبلى... كلّما ازددت اختلاء بهذه الكتب طغت فيك شهوة

امتلاكها... كيف ستتدبر الأمور يا ترى؟ هل تستطيع أن تنجح أنت حيث فشل آخرون؟ قلت: «ولم لا، سأعقلها وأتوكل، وأستمدّ العصمة من صاحب العصمة. إن الله يعلم أنّي لا أطلب مجداً أو مالاً، لا أطلب سوى يسير من قليل وكثير، وأنا موقن أنّه سيغفر لي. هم حتماً يستطيعون تعويض ما سأستعيّره، وفي أقرب وقت، بإشارة من أيديهم. أمّا أنا فمن يمنحني فرصة أخرى إذا ضيّعت هذه! لا بدّ أن أطرق الحديد قبل أن يبرد!»

لكن، كيف الخلاص من ذلك الفضّاح!!
بالصدفة، بمحض الصدفة، اهتديت إلى مفتاح اللّغز، وكدت من فرط الاستثارة تطير دون جناحين، كان ذلك حين بدأت تتفحّص الكتب بعناية، قبل أن تقرأها، تمسك بدقّي الكتاب الصّلبتين، وتمرّر أصابعك المتحفّزة عليهما، فمن يدري؟ لعلّك تعثر على شيء ما، أو سرّ ما، يقودك إلى شاطئ الأمان دون مضاعفات، أو خطر الغرق المؤكّد، وبعد ليالٍ قاسية من الضّنى والقلق والرّجاء، تجلّت أمام عينيك حقيقة الكشف، وانكشف لك ما كان مستورا، إذ كانت جميع الكتب، دون استثناء، ناتئة قليلا في أسفل دفتها الأماميّة، ممّا جعلك تشكّ، تعتقد أنّ في الأمر خدعة... قرّبت أظافرك، وجذبت بها طرف غشاء دفّة كتاب أخذته دون تحديد، وشرعت تسحبه ببطء شديد خشية أن يتمزّق، وسحبت بإصرار، وسحبت بقلق، وسحبت حتّى بلغت النّوء، وكم كانت مفاجأتك كبيرة حينما رأيت تلك الصّفيفة الصّغيرة، وهي مثبتة بإحكام في أسفل الطّرف الأيمن. كان طولها لا يتجاوز ثلاثة سنتمترات، وكذلك عرضها، غير أنّك لم تكن متأكّدا من تلك المادّة البيضاء التي صنعت منها... فكّرت: «لا بدّ من التّخلّص منها الآن!» اقتلعتها بظفر خنصرك، وكوّمتها بظفر آخر ورّميت بها في سلّة المهملات، وأخذت كتابا آخر، وكتابا ثالثا، وفعلت بهما الشّيء نفسه، ثمّ تناولت علبة الصّمغ، وطلّيت أغشية الكتب الثلاثة وأعدتها كما كانت.

كانت الكتب الثلاثة:

. مختصر تاريخ «كيمبردج» للأدب الإنجليزي لـ «جورج سمبسون»

. التجربة الدينية للإنسانية لـ «نينا سمارت»

. مختصر تاريخ المسرح لـ «فيليس هارتنول»

في الصّباح ذهبت إلى المكتبة مبكرا، وأرجعت الكتب واستعدت قصاصاتك، ثمّ خرجت. وفي اليوم التّالي، مشيت عبر الرّواق، واستندت نحو اليمين، ثمّ دلفت عبر الباب إلى الهو، وصعدت درجات السّلم إلى الطّابق العلويّ، ومكثت قليلا على كرسيّ أمام النّافذة، تفكّر في الخطوة الموالية. كانت سحب داكنة كبيرة تروح وتجيء على صفحة السّماء السّاهمة، وتيّار بارد يتسرّب عبر المنافذ مشبعا بطراوة نديّة... نظرت حواليك بطرف عينك في كلّ الاتجاهات، لم تر أحدا، وقفت متّندا، خطوات صوب الرّفوف، حيث الكتب الثلاثة، كنت تعرف أماكنها واحدا واحدا، أخذت الكتاب الأوّل، تتأمّله، وعيناك تلوبان كالبنديل، وبسرعة أخفيته داخل المحفظة، تقدّمت نحو رفّ آخر، وسحبت الكتاب الثّاني، ورحت تقرّبه ويّدا ويّدا من المحفظة، وفي لحظة قصيرة جعلته ينزلق داخلها، يّممت بعد ذلك ناحية رفّ ثالث، أجلت عينيك من فوق إلى أسفل، بدقّة، وبحث من اليمين إلى اليسار، وفي الوسط، وسط الرّفّ، عثرت على الكتاب الثّالث، تفحصت المكان من حولك قبل أن تأخذه، لا أحد ينظر إليك، الهدوء، هدوء في الصّدر، هدوء في الأطراف، تحرّكت أصابعك، إلى الأمام، وبمهارة جذبت الكتاب وألحقته بصاحبيه.

لم تتبقّ غير الخطوة الثّانية، الخطوة الحاسمة!!

عود على بدء.

مشيت صوب بداية السّلم، مشيت هذه المرّة قلقل مضطربا، وأنت تدرك أنّك مقدم على خيارين لا ثالث لهما. يلوح في نهاية أحدهما الفوز والظّفر، وتنطّ من نهاية الآخر رؤوس الفضيحة، وبوادر الخسران

المبين، وربّما السّجن. إنّها سمعتك في ميزان الاختبار. ومازالت أمامك فرصة أخيرة للتّراجع... تستطيع أن تعيد الكتب إلى أماكنها، وتتنفّس بذلك الصّعداء، وكأنّ شيئاً لم يكن، تستطيع أن تنقذ نفسك من دوامة الرّهبة وكلاّبتيّ الخوف المطبقتين على خناقك بعنف، وتستطيع... تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة، إلّا أنّ الشّهوة طاغية، ملحة، بل مدمّرة. نزلت الدّرجات، إحدى عشرة درجة، كنت تعدّها في سرّك. كي يهدأ اضطرابك وتستكين روحك، ومشيت على طول الجهو، حتّى بلغت ذلك الحاجز، كادت رجالك تتسمّر، وأصاب ساقيك خدر كأنّ ماء مثلّجا أهرق عليهما. هل فكّرت حقّا أن تتراجع؟ أن تتخلّى عن الكتب؟ نعم... لا... نعم... لا، لا يمكن ذلك، وقد بلغت هذا الحدّ. لا بدّ من بلوغ الحاجز، تقدّم قليلا، تقدّم ببطء، نعم هكذا. اخط ثانية. هذا جيّد. لقد صرت في وسط الرّحبة، ولم يحدث لك شيء، إنّ ذلك مؤشّر جيّد. الباب أمامك، اتّجه نحوه، أمسك بالمقبض، رائع، اجذب المصراع. نعم، هكذا. اخرج. قلت حينما صرت في الخارج، ولفحتك نسمة باردة: «يا إلهي، لقد نجحت. كنت سأفتضح ولكنّ الله أسبل ستره على عبده الضّعيف.»

أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في غرفتك، وحيدا، تراجع البحث، وتصحّح بعض الأخطاء، وقد أضمرت أن تسلّمه إلى السيّدة «ليز جونسون»، لتلقي عليه نظرة، وتبدي رأيها فيه قبل أن تسلّمه إلى السيّد «فرانك كلامز»... شعرت بإحساس غريب، وأنت تقرأه بتأنّ لأوّل مرّة بعد أربعة أسابيع ويومين، وقد كنت قبل ذلك تجمع المعلومات، وتكدّسها، وترصفها، دون تركيز كبير... كان همّك الأوّل أن تتوفّر لديك مادّة البحث، أن تحصل على أوفر قدر منها، وها أنت، وجها لوجه، أمام ما كتبتّه، تبدولك اللّغة سلسة، متماسكة، والمسار محكما، لا أثر فيه لخلل أو سوء تخطيط. وهذا تماما ما أكّدته السيّدة «ليز»، وهي تتأمّل لفافة الأوراق الّتي سلّمها إيّاها في أوّل يوم من أيّام الأسبوع. وبعد أن

قرأت بعضها، سألتك وأمارات التّعجب بادية على محيّاها:

هل أنت من كتب هذه الأوراق؟

لم تفهم القصد من وراء سؤالها، فسألته بدورك:

ولماذا؟

قالت:

هذا البحث ممتاز جدّا، كلّ شيء فيه ممتاز: اللّغة، التّخطيط،

الدّقة، وتماسك الأسلوب. وقد خامرني شكّ أن تكون أنت من كتبه.

قدّرت أنّ من كتبه إنجليزيّ صميم، ضالع في اللّغة.

وسألتك، بعد ذلك:

كم استغرقت من الوقت في كتابته؟

أجبت ببساطة:

أربعة أسابيع ويومين.

قالت، ولم يزايل وجهها التّعجب:

إنّها مدّة قصيرة مع ذلك. إنّي أهنتك.

كانت السيّدة «ليز جونسون» امرأة أربعينيّة، متوسّطة الطّول،

قصيرة الشّعر، قمحيّة البشرة، ابتسامتها عذبة، يحسب من يراها

أنّ عمرها لا يتجاوز الثلاثين، لا أثر للتّجاعيد في جبهتها أو في عنقها،

تتحدّث بطلاقة، تحبّ الجميع، أمّ لولدين، وقد قالت مرّة إنّ عائلتها

قدمت من لندن، لتقيم في «بليموث»، وكانت نادرا ما تتحدّث عن

زوجها الطّبيب، الجراح الكبير، الرّحالة، الذي يفرض عليه عمله أن

يجوب بلادا كثيرة من العالم. في يوم من الأيام، دخلت السيّدة «ليز»

قاعة الدّرس، تعلو وجهها سجابة من الحزن، على غير عادتها، وبعد أن

دارت باضطراب حول المقاعد المرتبة في شكل مستطيل، قالت بصوت

مشروخ متلعثم:

سأضطرّ إلى مغادرتكم.

سألها أحد زملائك:

لماذا؟

قالت:

سنذهب إلى فرنسا. زوجي دعتة إحدى الدوائر الطبية هناك، ليدبر أحد المستشفيات في العاصمة، ولا بدّ لنا من اصطحابه.
ثمّ صمتت لحظة، وقالت بنفس الصوت المترقق:
يعزّ عليّ فراقكم. ولكنّ تعزيتي الوحيدة أنّنا قضينا مع بعضنا وقتاً طيباً.

بعد ذهابها، حلّت محلّها السيّدة «سنثيا ليبلنغ»، من «Midlands»، لها من العمر خمسة وأربعون عاماً تقريباً. قصيرة، يميل وجهها إلى الطّول، أنفها أقي، شعرها يضرب إلى الصّفرة. وعيناها زرقاوان، وتتضامّ شفتاهما، في فم جميل، تلبس تنوّرة زرقاء، وحبكة صوفيّة زاهية الألوان، وجوارب طويلة باهتة، وحذاء أسود، ذا كعب قصير... أوّل ما جاءت، ودلفت من باب القاعة، كانت تبدو جهمة، غاضبة، صارمة الملامح، لا تضحك مهما حدث، حتّى أنّها لا تبتسم، وإذا ما حدث أن تكلم أحد دون إذن، نهشته بفضاضة، أمره إتياء بالسّكوت.
قالت:

إنّي أعرفكم جيّداً، أو على الأصحّ عرفت كثيرين جاءوا من بلدكم، لا يعملون، كسالى، تعوزهم الحشمة، يقضون جلّ الوقت بين حانات المدينة ومواخيرها، وهناك البعض ممّن جاءوا، وانقضت أيّام التّربصّ، ولم أرهم ولو مرّة واحدة.

ثمّ أضافت:

أنتم معشر تنقصكم المسؤوليّة.

تكلم أحدكم، فسأل:

وما ذنبنا نحن؟

وسأل آخر متشجّعا:

ولماذا نؤخذ بجرائر غيرنا؟

وسادت للحظة حالة من الفوضى داخل الفصل، وتكلم الجميع، واحتجوا. وكانت أصواتهم تعلو من حين لآخر، وكانت السيِّدة «سنثيا» تصرخ بدورها، محاولة أن تعيد الهدوء إلى المكان ثانية... وكنت أنت صامتاً، شبه مستغرق، كأنَّ الأمر لا يعنك، وربما كان ذلك ما دفع السيِّدة «ليبْلنغ»، فيما بعد، أن تكن لك احتراماً خاصاً ووداً زائداً. جرت الأمور، على أحسن ما يرام، بعد ذلك، وكانت الأيام القادمة كفيلة أن تجعلها تغيّر نظرتها، وتنظر إلى الأشياء بشكل مغاير. قالت، بعد أسبوعين، كأنّها تعتذر:

. ما لمسته من انضباطكم وجديتكم جعلني أكتشف أنني كنت مخطئة.

وصارت تبدو هاشّة باشّة، مرحة، تتألق ابتسامتها كبيرة على وجهها كلّما دلفت من الباب، معلقة بعذوبة تحية الصّباح، أو تحية ما بعد الظّهر.

كانت في بعض الأحيان تحيد عن الدّرس، تلاحظ ثقل الوقت ورتابة الجوّ، فتروغ قليلاً، تشعر أنّها مطالبة بإدخال بعض المرح والحيويّة، لتستأنف الدّرس بنفس جديد بعد ذلك... تسترسل حينئذ، تنطلق على سجيّتها، تذكر أموراً شتّى، وأسراراً صغيرة، تتحدّث عن العائلة، عن الزّوج بشكل أخصّ، والبنات الصّغيرة، والبيت الرّيفيّ الّذي يحيط به سياج خشبيّ، وتنبتّ على جنباته أعشاب خضراء على مدار السّنة.

أه، كم كانت السيِّدة «سنثيا ليبْلنغ» طيِّبة!

أجل، كانت طيِّبة.

إنّها المرأة الوحيدة، منذ نزلت الجزيرة، الّتي لم تغتلبها عيناك كأنتي، وإنّما فتح لها قلبك شغافه كامّ، رغم تظاهرها بتلك السّدّة الصّارمة في البداية. طالما تساءلت، فأَمْضِك السّؤال: «لماذا لم تكن تقسو عليّ كبقية الزّملاء؟ ولماذا لا تهترني؟ ثمّ لماذا إذا استأذنها أحد في الخروج، عbstت في وجهه، وإذا أبديت أنت ولورغبة يسيرة في المغادرة، مهما كانت

الأسباب، بادرت إلى السّماح لك، وهي تبتسم، متمنية لك قضاء وقت طيّب؟!!»

آخرون كانوا يفعلون الشيء نفسه:

السّيد «فرانك كلامنز» نفسه.

والسّيدة «سازة رتشمين»، التي أمدّتك ببطاقة توصية إلى أحد الأطباء، ليعالج أثر برد مزمن على شفّتك، وقالت لك بودّ، وهي تضغط يدك مودّعة: «إذا صادف وأمطرت، فتعال لأوصلك بسيّارتي!» كانت السّيدة «رتشمين» سكرتيرة مكتب السّيد «فرانك»...

غير أنّ هؤلاء، رغم مسحة الحبّ التي كنت تلمسها في تصرّفاتهم، كانوا بنظرك كما لو أنّهم يتصنّعون إلى حدّ ما، كأنّهم يؤدّون واجبا، لا بدّ من تأديته، فأنت قبل كلّ شيء، مسؤول منهم. أمّا السّيدة «سنثيا ليلينغ»، فحبّها كان أعمق، تكتنفه براءة غريبة، سوف لن تدرك كلّها حتّى بعد أن تعود إلى ذلك البلد على ضفاف المتوسّط.

قالت، في إحدى المرات العديدة، التي أصبحت تحيد فيها عامدة عن الدّرس:

خلال الحرب، الحرب العالميّة الثّانية، وبعدها، جاء إلى إنجلترا عدد كبير من المهاجرين من أوربا، هروبا، في الغالب، من الزّحف النّازيّ الذي اكتسح الأخضر واليابس. فجاء بولنديّون، وإيطاليّون، وفرنسيّون، ومجريّون، وأقاموا بأحياء لندن، وأقام عدد قليل ببعض المدن الأخرى، وفي تلك الفترة بالذّات، تعرّفت على الرّجل الذي سيصير زوجي فيما بعد. كان غجريّا من المجر، طويل، له سواد شعر أهل الشّرق، ودكنة أعينهم، وكان يكبرني بعشر سنوات. التقينا في أحد الملاهي، وشدّني إليه من البداية شروحاته المتواصلة، وحيأؤه وخجله، وهو يشرب منزويا في ركن قصيّ، بعيدا عن جلبه الرّقص، وضوضاء الأصوات... كنت أرقبه مدفوعة برغبة الفضول، وتحولّ الفضول، مع الأيام، إلى إعجاب، وسرعان ما استحال الإعجاب إلى حبّ جارف عنيف. كلّ ذلك، وأنا

لم أكلّمه ولم يكلمني، ولم يجربيننا أيّ حديث من أيّ نوع. استبدّ بي الهوس، وأصبحت شديدة الانفعال، أغضب لأتفه الأسباب، وما أفتأ أفكر في ذلك الرّجل الغريب، وأنا أحسّ بأنّ حملا يرين بثقله عليّ... قلّ طعامي، وشخّ نومي، ولاحظ والدائي هزالي، وسألاني عن السّبب، فتعلّلت بحجج واهية، لا أصل لها من الصّحّة...

قطعت حديثها فجأة، ومرّرت راحتها على جبينها كأنّها تستحثّ تلك الذّكريات البعيدة على المثل أمام عينها من جديد، وقالت مواصلة بنبرة حاملة:

. ذات يوم، برّح بي الوجد، وتناهبتني أفكار سود، فقرّرت أن أكلّمه، رغم ما كنت أشعر به من خوف واضطراب، وتحسّس لما يمكن أن يحدث فيما إذا صدّني، أو جرح كبريائي. رحت إلى الملهى، وجدته هناك، جالسا وحده، كعادته، اقتربت منه، وحيّته بجرأة مرعوبة، فرفع إليّ عينين ساهمتين، ورنّت على شفّتيه ابتسامة حائرة خجول، وردّ التّحيّة بلغة ركيكة، ودعاني إلى الجلوس، فجلست، وطلب لي شرابا، فشربنا سويا... مرّت أيام على ذلك اللّقاء، كنّا خلالها نلتقي دائما، فنتحدّث طويلا، ونرقص حتّى وقت متأخّر من اللّيل، عرفت عنه كلّ شيء، وأخبرته عن نفسي وعائلي بتفصيل وإسهاب، إذ كنت أحسّ بحدسي أنّ علاقتنا ستطوّر إلى شيء أكبر من الصّدّاقة، إنّه الحبّ! حدّث والدتي عنه، وحدّث والدتي والدي، فذهل وقال مستحيل أن تتزوّج ابنتي بأجنبيّ، وقال بأية لغة سيحدّثها إذا تزوّجا، وما مصير الأولاد الذين سيأتون فيما بعد، هل سيكونون في صفّ أبهم، أم في صفّ والدتهم! إلّا أنّي ضربت بكلّ هذه الاعتراضات عرض الحائط، ولم أبال لقول والدي، فصمّمت على تنفيذ ما برأسي، وقلت لوالدي: «سيلغي الحبّ كلّ الحواجز». حينئذ، رضخ، وتزوّجنا. كان اسمه «كماترو»، ولديّ منه الآن ابنتي «شارون»، وهي في العشرين من عمرها.

الآنسة «كايت سميث»، على عكسها، كما أنّها تختلف أيضا عن

السيدة «ليز جونسون»، لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد، وهي غير متزوجة، ما تزال تعيش مع والديها، «جورج» و«ماري»، بإحدى ضواحي «Midlands»، سامقة، فارهة، تسبق حضورها عادة لحظة من الترقب الجامح، تضوع لذّة ونشوة تزرعان بغتة عبر المسامّ، فتجلبان حالة من الخدر، وحينما يسطع كمونها، وتلج عبر الفصل مجاهل أسرارها، يشرع مثولها في الظهور شيئا فشيئا، وعلى مهل ما كان أشبهاء: أول ما يبين منها رأسها الصّغير المستدير، ينساب فوقه شعر ذهبيّ طويل، يغطّي أذنين بيضاوين، يتدلّى منهما قرطان كبيران، من الذهب، منقوش في نهاية كلّ منهما شكل على هيئة السمكة، ثمّ يمتدّ عنقها المرمريّ الدقيق، ويتناول بتأنّ، كاشفا عن فتحة فسطانها السّميك الأخضر، الذي يحدّد، بإغراء منبت التّهدين، واستدارة تينك الكومتين الرّايبتين، فإذا تقدّمت وخطت صوب الصّدر، بانت رشاقة خطواتها، وانكشفت معالم كونها الأنثويّ في انبساط البطن وضمور الخصر، والامتلاء المحبّب بردفين صقيلين. باختصار، كانت الأنسة «كايتي سميث» مثالا لذلك الجمال الطّاغي المدمّر، ولا يمكن لمن يراها إلّا أن يطلق آهة تعقّمها صرخة تتردّد عبر دهايز القلب، وهذا ما حدث فعلا، حين دخلت قاعة الدّرس أول مرة... سرت تنهّادات، وعلا صفير خافت في الأرجاء، وحينما فتحت فمها، ونطقت أولى كلماتها، قام أحد الرّملاء، وقال بافتتان:

آنسة كايتي، إنّك جميلة جدّا.

ابتسمت، ولم تعلق.

والفتت زميل إلى زميل آخر، وقال يخاطبه هامسا:

كدنا نياس من رؤية هذا الجمال الأخاذ... إنّ ليز وسنثيا عجوزان

تقريبا، وقد جفّ ماء الحياة فيهما، أمّا هذه فشيء مختلف. إنّها شهيدة...

أتمنّى لو يضمّننا نفس الفر...

وصمت. لم يكمل جملة، وبدلا من ذلك غمز بعينه في فجور.

أنت أيضا تشبهتها! لا تنكرا! وعلى امتداد ذينك الشَّهرين، كانت صورتها لا تفارق خيالك، وتحلم بها آلاف المرات في جذب ليايك الطَّويلة!

كان أجمل ما فيها أنَّها تدخَّن، تدخَّن بشراسة، وتشرب أيضا. وقد عرفت ذلك مصادفة، في مساء أحد الأحاد، حينما قرَّرت صديقاتنا البنات أن يقمن بوليمة صغيرة على شرفها، وشرف السيِّدة «سنثيا ليلبنغ» في إحدى الشُّقق بالقرية السَّكنيَّة. وكانت تلك فرصة، تتزوَّق خلالها صنوف الطَّعام المحليِّ لذلك البلد على ضفاف المتوسَّط، ويلتئم الشَّمْل في تلك السَّهرة. في محاولة لتحطيم آخر العوائق الحائلة بين تقارب الشَّمال والجنوب!!

جاءا في الموعد.

على السَّاعة الخامسة والنَّصف بالضَّبط.

وكان كلَّ شيء جاهزا.

تناولت «كايتي» طبقها، وشرعت تأكل بلذَّة، حتَّى أتت على آخره. وقالت، وهي تتمطِّق، وتحرك لسانها في فمها لتزيل بقايا الطَّعام العالقة في أسنانها:

لم أكن أتصوِّر أن أطباقكم لها مثل هذه النِّكهة.

وسألها أحد الزَّملاء بخبث:

وهل هي ألذَّ من أطباقكم؟

التفتت إليه، ورازته بجرأة، وقالت بصراحة:

إنَّها ألذَّ وأشهى، وخير ما فيها توايلها.

دنت منها إحدى البنات، وأخذت الصَّحن الفارغ من على النَّضد،

وسألته:

هل أتيك بطبق آخر؟

فأجابته دون تردّد:

سيكون ذلك منك فضلا لن أنساه لكم.

وحىء لها بطبق آخر، فالتهمته، دونما خجل، رغم الأعين الجائعة التي كانت تحدّق فيها. قلت، وأنت ترنو إليها من طرف خفي: «نساء هذا البلد جريئات، لا يخجلن، لا يعرفن التّصنّع أو النّفاق، وهنّ أكثر ثقة من نساؤنا بكثير... نساؤنا الشرقيّات، في حضور الرّجال، يتدلّن، يتظاهرن بحياء زائف، ويعطين انطباعا كاذبا بشفافية أرواحهنّ. هنّ، قطعاً، يعلمن أنّ الرّجل تستهويه الرّقة المتناهية، والفتنة التي تشفّ عن كلّ ما هو عاديّ، ويوميّ، وسوقيّ، فتراهنّ يتناولن الطّعام بأطراف شفاههنّ، ويتمهلّن وقتاً طويلاً بين اللّقمة واللّقمة، يكابرن وهنّ في الواقع جائعات، فإذا خلت الواحدة إلى نفسها غالت في التّهم حتّى تصيها فورة التّخمة... إنّهنّ منافقات!!»

بعد أن فرغت تناولت «كايتي» حقيبة يدها، وأخرجت علبة سجائر فاخرة. كانت تلك مفاجأة للجميع، إذ أنّ أحدا لم يكن يتصوّر أنّها تدخّن، ولم يشاهدها تمسك سيجارة بيدها طيلة مكثها في الفصل، رغم المدة التي قضتها معكم، وهي طويلة نسبياً... فتحت العلبة، وتناولت سيجارة، قربتها من شفتيها البضّتين الشّهيتين، وقد علاهما أحمر شفاه كامد اللّون، وأشعلتها بأناملها الطّويلة من الولاة بجانيها، وأخذت تشفط الدّخان بنهم.

عادت بك الذّكرى، في ذلك المساء، إلى عالم «مي»، إلى أوّل حبّ في حياتك!

أحسست بحزن ثقيل يهصر قلبك، واستشعرت رغبة في البكاء. خفت أن تفضحك دموع مفاجئة. خرجت فاستقبلتك رحابة الشّارع، وشسوع المدى، وهويّز بدموع شهر تشرين الأوّل!!

«عيناي، أنا في الكتاب، وفي ارتجاف الباب أنا ومع اختلاج الحرف أبحث عن ذراعك، عن هوانا أستعجل اللّحظات، أحسهنّ في قلبي زماناً

عيناى، أنا فى الكتاب، وفى ارتجاف الباب أنا.
لوجئت لانهمر الصّباح دجى، وأظلمت الرّفوف
وتبسّست شفتاي من خجل، وخانتني الحروف.
قد كنت ملتهب الجبين، ممزّق الرّؤيا، مهانا
عيناى، أنا فى الكتاب، وفى ارتجاف الباب أنا.

وأُتيت...

فانتفض الممرّسنى، وأزهرت الرّفوف
وتبسّمت شفتاي من فرح، وأورقت الحروف
قد كنت هادئة الخطى، مضمومة الشّفتين، حين دنوت منّى
وتصافحت كفّان، وارتجفت رؤى... وسألت عيّ
يا نجمتي: عيناى غائمتان... لست أرى الأساور
فضيّة، والخصر، والثّوب البنفسج، يا بنفسجة المسافر
يا حلوة، ليليّة القبلات، يا شعرا يهيم بلاضفائر
أحبيته... حتّى كأنّ فمي بعتمته... يغامر.
وكقطّة مسحورة...

فارقت فارسك الخجولا

لم تنطقي حتّى بتمتمة الوداع
لم تركيه يقول عن شفّتك شيئا كم تمّنّى أن يقول
لكن ذهب بلاوداع
ومضيت، نحو الشّارع البحرىّ، وحدك...
كالشّراع.»
«سعدى يوسف». (الأعمال الكاملة)

.....

حتّى تنسى، وتحاصر القضبان الّتي بدأت تورق بنهاياتها المدبّبة
داخلك، وتسلو، مضمّدا بقايا جراحك الغائرة، راسخا، شامخا،

بثبات، على أرض صلبة، بلانتواءات أوأخاديد، كان لا بد أن تتحرك، لا بد أن تنخرط في سباقات المسافات الطويلة المضنية، كي يمتصّ تعرق مديتك الحادة في مؤخرة رأسك التعب والإجهاد، فتنام قير العين، بمجرد أن تضع رأسك على المخذة في مقدمة السرير وتغمض عينيك. من المعهد إلى صالة الطعام، إلى الغرفة، إلى المدينة الجميلة الكبيرة الرائعة العذبة. وتستمر الرحلة من جديد، فتطفو، في كلّ مرة، تفاصيل أخرى على السطح، وجزيئات، وأشياء تتكرّر، لكن بصيغة مغايرة دوما. فالأصدقاء هم الأصدقاء، إلّا أنّهم دائما يتزايدون، ينضاف إليهم واحد، وآخر، وآخر. والمكان هو المكان، إلّا أنّه ما ينفكّ يكبر ويكبر، فتمتدّ على خارطته، في بروز، خطوط غليظة، منحنية، أو منحرفة، وألوان تختلف من زرقاة إلى حمرة، وصفرة، وخضرة، وأشكال تخفي وراء أغشيتها ملامح لجبال شاهقة العلو، وأودية، وبحار، وقرى، ودساكر، وضواح، ومدن... الخارطة لا تني أبدا عن التّضخّم، ويزداد حجمها في صمت. إنّها تنمو، كما تنمو الخلجات الصّغار في قلبك المترهل، ويسري فيها دم غريب ينبض بالحياة.

آه، المدينة!

ورائحة السّماء، في صالة الطّعام، ساعة الغداء، حيث يطلّ من وراء الواجهات الرّجائية إطار المشهد اليوميّ المبروز، وهو يمسك بأنامله الرقيقة، ذوايب السّتارة، التي تنتظر في أية لحظة قدوم المتفرّجين، ليرتفع صداد الجوقة، وتخطو العناصر عبر الدّرجات الخشبة العارية... كانت العناصر الامتداد اللامحدود، وشريط الخضرة، الذي تتخلّله معابر متقاطعة من الإسفلت، ورذاذ المطر، مصحوبا في بعض الأحيان، برقائق الثّلج.

آه، المدينة!

ورائحة العزلة الحبيبة، في صالة الطّعام، متكوّما على نفسك، في أحد الأركان، تفكّرولا تفكّر، وتنظرولا ترى، ناسك ينتظر إلماعة الإشارة

ربّما، حتّى ينبتّ ذرّة في أرجاء الملكوت. هل كنت وحدك حقّا؟ متفرّدا؟ بلا شبيهه؟ وإن لم يكن كذلك، فما خطب تلك «الشّلّة» الفارين من صخب المدينة، عبر ثلم فيها، إلى مغارة التّوحد، وصليب يسوع؟ هللّوها! هللّوها! «تيم» من «كورنول»، «ديفيد» من إحدى ضواحي لندن، «تيم» من «بنزنس»، «مالك» و«بندكت»، وآخرون تعرّفت إليهم، جميعهم، فردا فردا، وفي مناسبات متقاربة جدّا. لقد كان ذلك حين قرّ عزمك على البقاء، هناك، على إيجاد وسيلة تسهّل لك الإقامة، وتبعث الأمل في الرّسوخ، على أرض غير الأرض، وبين أناس غير النّاس.

قال لك شابّ أشقر، ذو شعر طويل، يغزو وجهه النّمش، حين أطلّعه على نيّتك:

لي قريب يعمل بالبحريّة الملكيّة، برتبة كابتن، وقد مضى له الآن في عمله ما يقرب من العشرين عاما، وهو يقول إنّ البحريّة البريطانيّة تفتخر اليوم أنّها تضمّ إنجليز من أصول مختلفة، من الهند، وباكستان، وزيلندا الجديدة، وأستراليا، وقد جاءوا جميعا من بلدانهم، وما عثموا أن أصبحوا مواطنين بعد أن حصلوا على الجنسيّة. وسألك مقترحا:

لماذا لا تفعل مثل هؤلاء؟

وزاد فأمدّك بعنوان مقرّ البحريّة بالمدينة... كانت الفكرة رائقة فعلا، ولكن ما أن وقفت أمام الباب تتأمّل المكاتب الصّغيرة المتقاربة، واليهو الفسيح المبلّط برخام أصفر مجرّع، حتّى تلبّستك رعدة، وتراجعت... من ستقصد إذا دخلت؟ من سيحدّثك؟ وماذا ستقول له؟ أريد أن أعمل، لأصبح مواطنا في يوم ما، وأحصل على الجنسيّة. هل هذا معقول؟ هل تضمن أنّه لن يضحك عليك أحد إذا تفوّهت بمثل هذا الكلام.

ذلك كان امتحانك الأوّل. وفشلت فيه بامتياز! منفطر القلب، مكلوما، ومنسحقا من الصّغار، عدت إلى الموضوع

الَّذِي لَيْسَ لَدَيْكَ غَيْرُهُ لَتَذْهَبَ إِلَيْهِ، كَقَافِلَةِ الْقَدَرِ، بَعْدَ رَحْلَةِ الضَّنْكِ وَالضَّنَى، وَسُطَّ أَشْلَاءِ الْمَتَاهِ، وَمَعَانَاةِ الْجُوعِ وَالظَّمْأِ، بَعْدَ فَرَاغِ الزَّادِ، تَعُودُ يَوْمًا إِلَى الْمُضَارِبِ، رَغْمَ ارْتِثَائِهَا وَإِسْفَائِهَا عَلَى الْإِنْدَثَارِ وَالْهَلَاكِ، فَإِذَا مَا اسْتَجَمَّ رُكْبُهَا أَيَّامًا، بَيْنَ الْفَيْءِ وَالظَّلَالِ، عَادَتْ إِلَى الرُّكْبِ الْمُظَاعِينَ دِمَاءَ الْحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَصَارَتْ تَجْرِبَةُ الْمَوْتِ ذِكْرَى، وَلَكِنْ ذِكْرَى حَبِيبَةٍ، حِينَمَا يَتَطَاوَلُ عَلَيْهَا الْأَمَدُ، وَتَنْبُو بِهَا الْمَسَافَةُ. لَيْتَكَ كُنْتَ مَلْتَمًا تَقْدِمُ مَعَ تِلْكَ الْقَافِلَةِ، إِلَى دَفْعِ الْعَشِيرَةِ، فَتَنْسَى، كَمَا هُوَ مُقَدَّرٌ لَهُمْ أَنْ يَنْسُوا، وَتَسْرَحَ بِخَيَالِكَ وَرَاءَ خِيُوطِ الْحَدِيثِ، إِلَى أَنْ تَبْلُغَ، فِي لَحْظَةٍ بَعِينِهَا، مَمْلَكَةَ النَّسِيَانِ!

أه، المدينة!

وَصَالَةُ الطَّعَامِ، فِي أَوْقَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، بَعْدَ الظَّهْرِ، عَلَى السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ، وَعِنْدَ الْمَسَاءِ، ابْتِدَاءً مِنَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ، يَجِيءُ إِلَيْهَا غُرَبَاءُ، يَلْجُونَ إِلَيْهَا مِنْ مَنَافِذِهَا الثَّلَاثَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَنْتَهَوْنَ دَائِمًا فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، فَيُضَمُّهُمْ إِلَيْهِ الْهَوُ الْكَبِيرُ، الْمَصْفُوفَةُ بِعُنَايَةِ نَضْدِهِ، الرَّائِقَةُ أَنْوَارُهُ. كَانُوا إِذْ ذَاكَ يَجْلِسُونَ بِاسْتِرْخَاءٍ أَمَامَ أَطْبَاقِهِمْ، مُتَحَلِّقِينَ، يَجْمَعُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ انْتِمَاؤُهُ، وَنَادِرًا مَا تَتَقَارَبُ الْأَجْنَاسُ بِأَخْلَاطِهَا الْمُتَعَدَّدَةِ، وَيَحْدُثُ ذَلِكَ سَيَّمَا بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ الَّذِينَ تَعَرَّفُوا إِلَى بَعْضِهِمْ حَدِيثًا، إِمَّا فِي الْمَلْمَى اللَّيْلِيِّ أَوْ فِي الْقَرْيَةِ السَّكْنِيَّةِ... فَكَانَ هُنَاكَ أَفَارِقَةُ مِنْ «زَنْجِيْبَار»، وَهَؤُلَاءِ مُتَحَفِّظُونَ جَدًّا، حَتَّى التَّحِيَّةُ لَا يَلْقَوْنَهَا إِلَّا هَمْسًا، وَلَا يَكُونُونَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ هُمْ مَنْ يَبَادئُ بِهَا، عِدْدُهُمْ يَرْبُوعٌ عَلَى السَّبْعَةِ، ثَلَاثَةُ رِجَالٍ وَأَرْبَعَةُ نِسَاءٍ، أَعْمَارُهُمْ بَيْنَ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ، يَغْدُونَ سَوِيًّا، وَيَغَادِرُونَ سَوِيًّا، وَيَقْضُونَ وَقْتًا طَوِيلًا فِي الْحَدِيثِ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ. كَانُوا سَرًّا مُغْلَقًا. وَكَانَ هُنَاكَ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَمَا لِيَزَيُّونَ...

وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا «تِيم» مِنْ «كُورَنُوول» وَ«دِيفِيد» مِنْ إِحْدَى ضَوَاحِي لَنْدُنْ وَ«تِيم» مِنْ «بَزْنَس»، وَ«مَلِكَم» وَ«بَنْدِكْت»، هَؤُلَاءِ

«الشَّلَّة» الفارّون من صخب المدينة، عبر ثلم فيها، إلى مغارة التّوحد
وصليب يسوع!! هلّولوا! هلّولوا!

كان ذلك في إحدى الأماسي الممطرة، وكانت صالة الطّعام غاصّة
بالطلّبة، وكلّ المناضد محجوزة، وكنت وحدك أمامك الطّبق، في الزّاوية
اليسرى الّتي تفتح على الباحة الخارجيّة، وحولك ثلاثة مقاعد شاغرة،
تأكل في غير شهية، وتنظر من حين لآخر إلى وجه السّماء الكالح الموشك
على الانفجار بوبل من الدّموع. بدا لك الكون، في الخارج، حزينا،
وتصوّرت في وقت ما أنّه حزين لأجلك، ويشاطرك نفس حزنك الّذي
كنت تحسّ به آنذاك... فجأة جاءوا، وكانوا ثلاثة، ووضعوا أطباقهم،
وجلسوا تباعا، وقد كان حضورهم، إلى آخر لحظة، غائما أمام عينيك،
والتحية الجماعيّة الّتي ألقوها، وهم يستريحون على المقاعد، تناهت
إلى سمعك، وكأنّها تصّاعد من بئر سحيقة بلا قرار.
مضت لحظات ثقيلة من الصّمت.

وبعد لأيّ، تكلم أحدهم، فقال:

.أنا اسمي تيم. وهذان صديقاى ديفيد وتيم. ونحن ندرس بالمعهد
لنتخرّج فيه معلّمين. وأنا من كورنول، وهي قريبة من هنا، أمّا ديفيد
فمن ضواحي لندن، وتيم من بنزنس.
وضحك ضحكة ودود حلوة. وهو يقول مشيرا إلى صديقه الّذي
يجلس إلى جانبه:

.لحسن الحظّ، كلانا يحمل نفس الاسم.

وصمت هنيهة، ثمّ قال، وقد تغيّرت نبرة صوته، فأصبحت أكثر جديّة
وحزما:

.أنت الآن ربّما تتساءل، في نفسك، عن السّبب الّذي يجعلني أكلمك
وأنت لا تعرفني، لك الحقّ في ذلك، وأنا أعتذر، لكن، ليكون معلوما
لديك، أنّي أعرفك، ومنذ وقت طويل أيضا، وكنت أراقبك من بعيد،
فراقني صمتك، وعزلتك، وكنت أراك مختلفا عن بقيّة زملائك، فزادني

ذلك إعجابا بك، كذلك نحن أتباع يسوع، حامل أخطائنا وأوزارنا.
وأسفرت تقاسيم وجهه، فملأها ابتسامة كبيرة، وقرب رأسه وهو
يسأل بتحفظ:

.هل أنت مسيحي؟

أجفت للحظة، وتملكتك حيرة، وقلت أخيرا بنبرة متلعثمة:

.في الحقيقة، أنا... لست مسيحياً.

فسأل من جديد، وهو يقترب بجذعه منك أكثر:

.يهودي؟

.لا.

.فمسلم إذن؟

.نعم.

التفت إلى صاحبيه، ثم إليك، وقال كالمعتذر:

.ليكن. على كل حال، كلنا أهل كتاب، ولا ضغائن بيننا، فنحن لا

نكره المسلمين، وليست لدينا مشاكل معهم، وإن كان الدين يفرق بيننا،

فالإنسانية تجمعنا، ويظل الحوار مع ذلك قائما، أليس كذلك؟

قلت، ومازالت لم تزايلك حيرتك تماما:

.طبعاً... طبعاً.

حينئذ، ابتسم ثانية تلك الابتسامة الحلوة، وسألك مرة أخرى:

.هل تجد مانعا أن نخبرنا باسمك؟

قلت، وأنت تستقيم في جلستك، وتجلو حلقك من آثار بحة اكتنفت

صوتك:

.لا، أبدا. أنا سالم فؤاد عبد العظيم هنيدي، طالب بالسنة الثالثة،

جئت من بلد على ضفاف المتوسط في بعثة تدوم شهرين وأياما.

سأل:

.وكيف وجدت المدينة؟

قلت بانفعال:

حقًا إنها رائعة، بل أروع من كل ما رأيت في حياتي.
وهنا، تحفّز للكلام، فارتسمت على وجهه علامات الاهتمام، وقال
فخرج صوته واثقا صريحا:

إنّها، مع ذلك، مدينة حديثة، لم يمض على بنائها أكثر من خمسين
عاما. هل تصدّق أنّه شرع في بنائها إثر انتهاء الحرب مباشرة؟ والبعض
يقول إنّّه لم يبق من أثار المدينة القديمة سوى صخرة ضخمة، مازالت
قائمة إلى اليوم، وقد اعتمدت كأساس المدينة الجديدة.

ومرّت لحظة صمت، سأّل على إثرها مغيرا دقة الحديث:
لكن ألم تفكر أن تظلّ في البلد؟ يمكنك أن تحصل على الجنسيّة،
وتتزوّج وتنتهي دراستك، وتحصل على وظيفة بعد التخرّج وتبني بيتا،
وتنجب أطفالا.

يا إلهي، وما أدراه بما كنت انتويته؟ ومن أعلمه؟ هل تراه يعلم
الغيب، أم قرأ ذلك مكتوبا على صفحة وجهك المفتوح؟ إنّّه أصاب
الهدف تماما، ولم يخطئه، وشرع في العزف على الوتر الرقيق الحساس:
«ولكن. قلت. لا يهمّ، وسأجاريه إلى النهاية، حتّى أعرف ما يرمي إليه من
وراء كلامه.»

سألت بدورك، وقد بدأت تنفتح أمام عينيك آمال كبار:
وهل هذا ممكن؟
قال بتوكيد:
أجل.

قلت، وأنت تواجهه، وتنظر إليه بتحديد:
إني أعلم أنّ قوانين الهجرة التي يفرضها بلدكم قاسية جدّا؛ وليس
من السهل الحصول على تأشيرة العبور، فما بالك بالإقامة، والحصول
على الجنسيّة!!؟

هذا صحيح، إلّا أنّه يظلّ هناك دائما أمل، يلوح من وراء العتمة...
قاطعته. أحسست بعصافير الفرح تزقزق بداخلك، وتناغي قلبك.

سألته، وقد بدأ يعاودك الانفعال:

وكيف ذلك؟ وأي أمل تعني؟

قال:

تستطيع الكنيسة أن تمدّ لك يد العون.

ورفع رأسه وهو يتأملك، كأنما يقرأ آثار كلماته في وجهك، ثم أضاف

قائلا:

. إنّ الكنيسة لا تفرّق بين الأجناس، وهي تستقبل كلّ القاصدين من جميع أصقاع الأرض. وقد تدخلت. في الكثير من الأحيان، وتدخل دائما، لفائدة الأجانب الذين يطلبون المساعدة، فتقدّم لهم الطّعام، وتمنحهم المال إن أمكن، وتوفّر لهم المأوى، وقد تتوسّط لإيجاد أعمال لهم، ودافعها في ذلك تأكيد الأخوة التي بشر بها يسوع النّاصري.

اتّضحت الرؤية أمام عينيك ساعتئذ، وظهر ما كان خافيا بجلاء، بوضوح، إذ لم يستطع لفرط طبيته، أن يراوغ، أن يلجأ إلى لعبة الكذب التي كان ممكنا أن يتوخّاها، لكن لا يهمّ، ما دام يبذل إليك يده مبسوطة بالوعود، وما دمت تبغي الوسيلة، وتروم البقاء. هذا، إذن، باب، وسيكون عليك أن تطرقه، ومن يدري لعلّ العاقبة تكون خيرا في النّهاية.

قال، كأنما ليلخّص الحديث الذي كان يخوض فيه:

. إنّ مملكة الرّب أكبر ممّا تتصوّر، وتظنّ أبوابها مبدولة دائما،

تستقبل كلّ الفارين إليها، الراغبين في بركة الملكوت.

ووقف، وأخذ طبقه بكلتا يديه، فوقف معه صديقه الآخران،

وقبل أن يستدير، قال وقد غدا صوته أرقّ من ذي قبل:

. نحن الثلاثة نقيم بشقّة فوق التّلة، ليس بعيدا من هنا، فما رأيك

أن تتغدّى معنا غدا؟

بدت لك الدّعوة غريبة نوعا ما، وقد شعرت بقليل من الحرج، سيّما

وأنه لم يمض على تعارفكم سوى وقت قصير، لذلك ظللت برهة يعقل

لسانك الصّمت، وفي النّهاية، جرت على لسانك الكلمات دون تفكير:

لا مانع لديّ، وأشكرك كثيرا.

انبسطت أساريه، والتمعت عيناه ببريق خاطف، وقال مبتسما:

حسنا إذن، سأمرّ عليك في الواحدة لنذهب معا.

ومن الغد، في تمام الواحدة بعد الظّهر، كان ينتظرني أمام مدخل المعهد الخارجي، وبعد أن صافحك محييا، قادك عبر المرائب، إلى قَمّة التلّة، حيث يقوم المنزل الجميل الذي يشبه بقية المنازل في النّاحية. وحينما دخلتما استقبلكما «دفيد» و«تيم» وهما متحلّقان حول نضد مستطيل يتصدّر بهوا صغيرا، وقد صفّت فوقه، بعناية متناهية، أطباق تكوّمت فيها أكداس من الأرز الأبيض، وفي كلّ طبق سمكة كبيرة، وفي الوسط وضعت زجاجتان من الصّلصة... دعاك إلى الجلوس، فجلست، وجلس هو بدوره... كان غداء لذيذا تتخلّله، بين الفينة والأخرى، أطراف حديث، أو نكات، أو ضحكات قصيرة، محتشمة.

قال «نيم» سائلا، وهو يجمع الأطباق ليوصلها إلى المطبخ:

هل تشرب؟

قلت:

لا.

فقال:

هذا أفضل؛ ونحن أيضا لا نشرب، ولا ندخّن أيضا.

ثمّ، وهو يخرج من المطبخ، بعد أن أوصل الأطباق:

هل تحبّ الموسيقى؟

أجبت:

نعم. أسمع كثيرا الموسيقى الشّرقية، وتعجّبي السمفونيات.

وماذا تسمع من السمفونيات؟

كلّها تقريبا: باخ، بيتهوفن، براهمز، شايكوفسكي، موزار، شوبير...

وجلس من جديد على مقعد بجانبك، وقال:

أنا أيضا أحبّ الموسيقى، سيّما الهادئة منها، ولا تروقني الموسيقى

الصَّاحِبَةُ لَأَتَمَّا تَفْقِدَ الْإِحْسَاسَ بِالتَّأَمُّلِ، وَتَدْمَرُ الْأَعْصَابُ... هَلْ تَرِيدُ أَنْ
أَسْمَعَكَ شَيْئًا؟

فَسَأَلَتْهُ:

وَهَلْ تَعَزِّفُ؟

اعْتَدَلْ فِي جَلِيسَتِهِ، وَأَشَارَ بِإَصْبَعِهِ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ:

أَعَزِّفُ عَلَى الْغَيْتَارِ، وَلِي ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ وَأَنَا أُمَارِسُ هَذِهِ الْهَوَايَةَ.

وَنَهَضَ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَتَّبِعَهُ، وَمَرَّ بِكَ عِبْرَ مَرْمَرٍ قَصِيرٍ إِلَى الصَّالَةِ الْمُنَجَّدَةِ،
الَّتِي حَجَبَتْ عَنْهَا السِّتَانُ الْمُسَدَّلَةُ أَشْعَةُ الشَّمْسِ، وَجَعَلَتْهَا تَغْرُقُ فِي عَتَمَةٍ
خَفِيفَةٍ لَذِيذَةٍ... كَانَتْ هُنَاكَ مَدْفَأَةٌ، فِي الْوَسْطِ، لَصِقَ الْجِدَارُ، مِنْ جِهَةِ
الْيَسَارِ، تَتَّصِلُ بِمَدْخَنَةٍ، تَشَقُّ كَوَّةً صَغِيرَةً فِي السَّقْفِ، وَبَعْضُ الْأَرَاكَ
الْمُتَلَصِّقَةِ، تَحِيطُ بِمَنْضَدَةٍ دَائِرِيَّةٍ عَلَيْهَا مَزْهَرِيَّةٌ بِهَا بَعْضُ الْأَعْشَابِ
الْبَرِّيَّةِ، ذَكِيَّةُ الرَّائِحَةِ... جَاءَ «تِيم» بِالْغَيْتَارِ، وَبَدَأَ يَعَزِّفُ فِيمَا رَحَتْ أَنْتَ
وَالصَّدِيقَانِ الْآخَرَانِ تَسْتَمْعُونَ، وَمِنْ حَوْلِكُمُ السَّكُونُ لَا يَقْطَعُهُ سَوَى
صَدَى صَوْتِ الْأَوْتَارِ، تَرْسُلُهَا أَنْامِلُ الشَّابِّ الْمُدْرِيَّةِ...

انْقَضَى الْوَقْتُ سَرِيعًا!

«الْأَشْيَاءُ الْجَمِيلَةُ لَا تَدُومُ!» تَرَى مِنْ قَالِ ذَلِكَ؟ لَا شَكَّ أَنَّ الْقَائِلَ

أَحَدُ مَا، مِنْ عَشَّاقِ الْحَيَاةِ الْمُتَشَائِمِينَ!؟!

فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، اصْطَحَبَكَ «تِيم» إِلَى إِحْدَى مَكْتَبَاتِ الْمَدِينَةِ،
وَأَشْتَرَى لَكَ إِنْجِيلًا فِي طَبْعَةٍ عَالَمِيَّةٍ مَنْقُحَةٍ، وَقَالَ وَهُوَ يَسْلَمُهُ إِلَيْكَ:

أَرْجُو أَنْ يَذْكُرَكَ هَذَا الْإِنْجِيلُ بِي دَائِمًا.

وَكَانَ لـ «تِيم» أَخٌ شَقِيقٌ يَزُورُهُ مِنْ حِينٍ لِآخَرِ، بِالسَّيَّارَةِ، يَجِيئُهُ مِنْ
«كُورَنُوُول»، مَعَ نَهَايَةِ كُلِّ أُسْبُوعٍ، وَيَبِيتُ مَعَهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ، وَيَغَادِرُ
صَبَاحَ الْأَحَدِ، وَقَدْ اقْتَرَحَ عَلَيْكَ مَرَّةً، إِذْ تَقَابَلْتُمَا فِي صَالَةِ الطَّعَامِ بِالْمَعْبَدِ،
أَنْ يَأْخُذَكَ مَعَهُ إِلَى الْبَيْتِ، فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، لِيَعْرِفَكَ إِلَى الْعَائِلَةِ، وَيُطَوِّفَ
بِكَ أَرْجَاءَ الضَّيِّعَةِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا وَالِدُهُ هُنَاكَ، وَقَدْ وَاظَمْتَ... وَفِي صَبَاحِ
يَوْمٍ أَحَدٍ مِنَ الْأَحَادِ، كَانَتْ السَّيَّارَةُ تَقِفُ أَمَامَ الْمَنْزِلِ الَّذِي تَقِيمُ فِيهِ، وَمَا

هي إلا دقائق حتى كانت تشقّ الطّريق الإسفلتيّ العريض، الطّويل، إلى «كورنول» غربيّ «بليموث».

ما كدت تصل حتى تولّى «تيم» مهمّة تقديمك إلى والديه، وكافّة أفراد العائلة، وقد فرحوا بك، وبالغوا في إكرامك، وإثرائك الغداء بالبيت الذي كان يطغى عليه الطّابع الرّيفيّ، ذهبتما إلى الضّبعة الّتي لم تكن تبعد سوى بضعة أمتار، وهي مساحة كبيرة من الأرض، توجد في وسطها بركة صغيرة، تسبح في جنباتها إوزات وبعض البطّ، وتتخلّلها منحنيات ومرتفعات، تكسو سطحها أعشاب غزيرة، داكنة الخضرة، يحوطها سياج من الخشب، على امتداد غير قليل... وفي إحدى الزّوايا، يشمخ عاليا إصطبل هائل، مصنوع من دعائم خشبيّة ضخمة، وله باب ثقيل يتوسّطه مقبض حديديّ تقشّر دهانه. وكان الإصطبل من الدّاخل مقسّما إلى مجموعة من الأجزاء المنفصلة، كلّ جزء منها مخصّص لنوع من الحيوانات، ويقوم بين كلّ جزء وجزء حاجز قويّ، يرتفع على علوّ متر تقريبا. وأوّل ما دخلتما، وعلى مبعده من الباب، طالعكما منظر أنثى خنزير سوداء، عظيمة الجثّة، وهي ملقاة بكسل على بطنها، تبذل حلماتها البيضاء الكثيرة لعدد كبير من الخنايص، على كومة من القشّ المتسخ الموحل؛ وفي الجانب الآخر، كان هناك رفيف طويل من المساكن الوطنيّة، متّصل بعضها ببعض، ولكلّ منها باب ينتهي بمزلاج، ويرتفع قليلا عن الأرض، كاشفا عن حوافر خيول من مختلف الأنواع، بمختلف الأحجام. وقد قال «تيم» إنّ أباه مولع بتربية الخيول، ورث عن أبيه، وجده من قبله، عددا لا بأس به منها، واجتهد هو في شراء البعض الآخر، بما ادّخره من مال، ولديه الآن ما يقارب العشرين بين أفراس عربيّة أصيلة، وأخرى إنجليزيّة، وأخرى لا تصلح للسّباق، وإنّما للزّراعة وجرّ العربات.

وفي غضون أسبوع، من تلك الزّيارة، جاء شقيق «تيم» مرّة أخرى، وهو يدعى «توماس»، فاقترح «تيم» أن تقضّوا يوم الأحد في «أكستر».

وهناك، انهمرت بعظم الكاتدرائية، التي عرفت فيما بعد أن تاريخ بنائها يرجع إلى القرون الوسطى، وهي طاغية الحضور، تكاد تغطي على ما عداها، من بنايات، ومعالم، وأثار بالمدينة، بأبراجها العالية، ونبوءاتها المنمنمة، وتخاريمها وأبوابها، وهي تتوسط قلب المكان، ويستقبل الدّاخل إليها ممرّ طويل نسبياً، يؤدّي إلى بهو، تزينه الأساطين والعقود، فإذا ما تقدّم قليلاً، واجهه المذبح، الذي تفضي إليه درجات ثلاث، وتحيطه بعض العوارض المعدنية. المتّصلة ببعضها بشرائط مجدولة، زاهية الألوان، ومن حين لآخر، يشاهد بعض الأضرحة، وتماثيل لقديسين ماتوا منذ زمن بعيد.

قال «تيم»:

. هذه الكاتدرائية مشهورة جداً بقديسيها، ويزورها أناس من كلّ أصقاع العالم.

وأضاف بعد برهة:

. إنّ قيمة الكاتدرائية أو الكنيسة عندنا تتحدّد بعدد القديسين الذين تداولوا علمها، وشهرتها من شهرتهم، فبعض الكاتدرائيات أو الكنائس مثلاً لا يزورها سوى عدد قليل من النّاس لأنّها لا تضمّ ضرائح مقدّسة لقديسين معروفين.

وتحت رذاذ المطر، الذي تلفظه بحنان سماء متلبّدة مكفّهرة، قطعتم شارع المدينة، وجستم خلال أزقتها ونواصمها، وكنتم تقفون أحياناً أمام واجهات بعض المخازن، فتطيلون النّظر في السّلع المعروضة، وتبادلون بعض التّعليقات. وصادف أن مررتم بشارع ضيق، فاسترعت انتباهك واجهة محلّ، تشير إلى مكتبة لبيع الكتب، فاستأذنت صاحبك، وصعدت عبر سلّم خشبيّ إلى مكان، ليس كبيراً، أسندت إلى جدرانها رفوف متوسطة الأحجام، لا أثر فيها للصّنع، وشرعت تنتقل هنا وهناك، تتأمّل عناوين الكتب، وأنت تتحيّن فرصة غفلة الكتيّ الذي كان يجلس وراء دكّة مرتفعة على مقربة، وعيناه تروزان سمرك التي

بدت له غريبة، دون شك... «أليير كامو»، «شكسبير»، «صموئيل بكييت»، «بودلير»، «بوند»، و«إليوت»...

في المرة الثالثة، قر العزم على الذهاب إلى «مورولهم كي»... انطلقت السيارة، من أمام الباحة الخارجية للمعهد، حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحا، متجهة يمينا، لتخترق المعبد العريض الذي تحدّه على الجانبين أعمدة معدنية تتقاطع بينها ألواح قصديرية رقيقة، تشكل أسيجة متوازية، يمتدّ على يسارها مضرب التنس، وملعب كرة اليد، ويرنو فوقها، من الجهة اليمنى، مرتفع حزيز القمة... انسابت السيارة، تحتكّ عجلاتها بإسفلت الطريق المبلّل، وهي تهب الأرض نهبا، في انحناءاتها وتعرجاتها، وقد كان المنظر الذي يترأى من وراء النافذة التي تنظر منها يزداد جمالا كلما زاد «توماس» في السرعة، إذ كان يبدو كما لو أنّ عناصره التي يتألف منها، ترحل هاربة، مخلّفة كلّ شيء وراءها، فالمساحات الخضراء التي يشقّها الطريق، وبعض الأشجار الضخمة القائمة على مسافات متقاربة، والبيوت كامدة الألوان، محدودة السّقف، وهي تجثم كأشباح الموتى، في ذلك الصّباح الممطر، كلّ ذلك كان يلتمع للحظة خاطفة، ثم يغيب فجأة، ليضيع وسط هالة شفيفة من الضباب... عند حدّ معيّن، طفق «توماس» يخفّض في السرعة، حينما بدأت السيارة تنحدر باتجاه سفح، قد تضافرت وتضامّت حوله جذوع أشجار عملاقة، وهي تتعانق في تلاحم، وتسمق برؤوسها الفرعاء، ثمّ تنحني وتميل، لترسم سقفا مسطّحا، أشبه ما يكون برواق مقنطر. كان المكان ينوء تحت ظلال كثيفة، تشعّ نداوة وطراوة، وتسرّب من بين فجوات صغيرة في أرجائه نسيمات مشبعة بطلّ المطر... جازت السيارة السّفح أخيرا، إلى رحبة جرداء، وتوقّفت، ومشى ثلاثكم باتجاه الوادي المتعرّج، المنساب كثعبان أسطوريّ، فاتح فاه، مستعدّ لابتلاع العالم الصّغير من حوله، وعبرتم إلى الضّفة الأخرى قفزا، بين الصّخور الصلدة، الحمراء، العظيمة، التي كانت تملأ المكان كلّ، وتطفو قليلا

فوق مستوى الماء، وشرعتم في الصعود إلى قمّة التلّة، متّخذين مسلكاً منتظماً خلال التّوءات الحجرية. ولما أشرفت على نهاية المرتفع، برزت لأعينكم حدود الأمكنة وملاحمها، فكانت تضوع فتنة، وهي غافية مستسلمة لمداعبة خيوط المطر العابثة.

وكان بجانب الوادي، صالة عرض، شيّدت كلّها من الخشب، مظلمة من الدّاخل، وبها عدد من المقاعد يتوسّط الصّدر، وقد شاهدتم هناك شريطاً مصوّراً، يتحدّث عن تاريخ المدينة، صعدتم بعد ذلك إلى بناية بطابقين (ربّما كانت هي نفسها صالة عرض أيضاً)، وجستم خلال ردهاتها، وجلستم على بعض مقاعدها لفترة، ثمّ غادرتم إلى دكان لبيع التّحف والطّرائف، في نهاية طوار، يفتح على شارع المدينة الرئيسيّ... كان الدّكان ضئيلاً، مصنوعاً من الخشب هو الآخر، قد تراصفت بضائعه الكثيرة على مباسط، في فوضى، ودون نظام، وكان صاحب الدّكان يبدو غريباً عن أهل البلد، بشعره الأسود، وقصره، ووجهه المربّع، وعينيه الكستنائيتين، وسمرته الخفيفة، وقد تحنّ فرصة انشغال صاحبك بالابتعاد عن دكّته، وتقلب بعض الأشياء، فدعاك إليه، وهو يرسم على شفتيه طيف ابتسامة، حمّله طاقة عجيبة من الحنين؛ قال سائلاً:

هل أنت عربيّ؟

قلت، وأنت تبتسم أيضاً، مجازاة له، ولا تستشعر دهشة لتوقّعك ذلك السّؤال منه:

أجل.

أشار إلى كرسيّ بجانبه، ولما جلست، قال:

عرفت ذلك منذ دخلت الدّكان.

وأضاف بعد برهة:

أنا أيضاً عربيّ؛ من لبنان تحديداً، وصار لي بهذا البلد عشرون عاماً، لم أزر خلالها لبنان إلّا مرّة واحدة، كانت من أجل تشييع جثمان

والدتي إلى مقرّها الأخير.

سألته، على حياء، بصوت خفيض:

أليس لديك أقارب في لبنان؟

قال:

. كلاً. توفيّ والدي، وأنا لم أجاوز العاشرة من عمري، وتوفيّ أخي

الشقيق وله من العمر ثلاث سنوات، ومنذ أعوام قليلة ماتت والدتي.

سألت:

هل أنت متزوّج؟

قال، وهو يضحك، ويلتفت بكليته إليك:

نعم. تزوّجت من إنجليزية، ولديّ ثلاثة أبناء، ولدان و بنت.

شيء آخر جديد تكتشفه وسط هذه المتاهة، بمحض المصادفة، في

لحظة حسن طالع، على حدود هذه المدينة، في ذلك الصّباح الذي غدا،

الآن، موغلا في البعد.

قلت، وأنت تغادر بالسيّارة، بجانب الوادي:

. إنّ كلّ شيء في مورولهم كي مصنوع من الخشب... إنّها بحقّ مدينة

الخشب!!

[٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩]

١ . «روح الرّبّ عليّ لأنّ الرّبّ مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني

لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبّيين بالعتق، وللمأسورين

بالإطلاق... وللعميّان بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحريّة.»

(سفر أشعيا)

٢ . «الكتبة والفريسيّون... يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل

ويضعونها على أكتاف النّاس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم.

وكلّ أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم النّاس، فيعرضون عصائهم

ويعظمون أهداب ثيابهم، ويحبّون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجمع... لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون... أيها القادة العميان... أيها الجهال والعميان! تركتم أثقل التاموس، الحقّ والرّحمة والإيمان... تتقّون خارج الكأس والصّحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة!... تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا... إنكم أبناء قتلة الأنبياء، فاملأوا أنتم مكياك آبائكم! أيها الحيّات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنّم؟... إنّ العشارين والزّواني يسبقونكم إلى ملكوت الله.»

(من أقوال يسوع الناصري)

.....

**** حدثني صاحبي، وهو ما يزال يجلس على الصّخرة قبالي ويدخن، فقال:**

. اسمع متّي الآن ما وجدته مكتوبا في بعض الأوراق بخطّ يدك، تتحدّث عن الأيام الأخيرة بمدينة بليموث:

[يوم الأحد صباحا.]

قمت باكرا، فأصلحت من شأني، ونزلت المنحدر إلى موقف الباص. كان الموقف شاغرا، وكذلك رصيفا الشّارع اللذان كانا، في أوقات أخرى، يعجّان بالعابرين، والأطفال الصّغار الذين يجيئون غالبا للعب... انتظرت أكثر من نصف ساعة، وأنا أشرّب بعنقي إلى الجهة التي سيأتي منها الباص... جاء الباص أخيرا، بعد أن كدت أبأس، وصعدت الدّرجات القليلة إلى الدّاخل... استظهرت للسائق ببطاقة الاشتراك، وخطوت عبر السّلم إلى الطّابق الأول. واتخذت مكاني على مقعد في المقدّمة... كان الباص يتوقّف في كلّ المواقع، في طريقه إلى المدينة، وكان هناك عدد قليل جدّا من المسافرين، إذ كان جلّ الإنجليز، باستثناء طائفة قليلة منهم، يحبّذون المكوث في منازلهم أيام الأحاد، والفرار إلى أزواجهم

وأبنائهم... في الموقف قبل الأخير، أمام البحيرة، التي تطفو فوقها عشرات القوارب، وهي تقلّ على متنها بعض هواة السباق، بيناطيل قصيرة، وقمصان بلا أكمام، رغم برودة الطقس اللاذعة، نزلت، ويمّمت شطر الكنيسة، التي لم تكن تفصلني عنها سوى بضعة أمتار، ودخلت من الباب الأمامي الكبير، واتّجهت فوراً إلى صفّ المقاعد الأمامية وجلست، وما كدت ألقى بظهري على مسند مقعدي حتّى تقدّم منّي رجل عجوز، وهو يحمل طبقاً عليه كؤوس صغيرة من الخمر ورقائق من الخبز. تلقتّ يمنة ويسرة، ومددت يدي إلى الطبق، فأخذت كأساً جرعت ما فيها دفعة واحدة، وتناولت رقيقة خبز، بدأت ألوكمها على مهل. ورغم الدهشة اليسيرة التي اعترتني في البداية، فلم تغب عني دلالة ما كنت رأيته: الخمر كان الدّم الذي بذله يسوع لإنقاذ البشر من ذنوبهم، ورقائق الخبز جسده المصلوب على صليب الرّب... نبعت من الأسفل، من جهة المقاعد المصفوفة، في عناية، التي كان يجلس عليها أناس مغلقة وجوههم في صرامة، أغلّهم من العجائز والشيوخ، أصوات موسيقى، لم تلبث أن رافقتها أصوات الجوقة الكورالية، المؤلفة من بعض فتيات وفتيان مازالوا في ميعه الصبّ:

نشكرك، أيّها الرّبّ العظيم،

الواحد الذي أنت، والواحد الذي كنت،

لأنك أمسكت بزمام السّلطة،

وصرت الحاكم.

إنّ الأمم غاضبة،

وحلّ غضبك.

وحان الوقت لمحاسبة الأموات،

ومكافأة عبيدك وأنبيائك

وقدّيسيك وأولئك الذين يعظّمون اسمك

صغيراً وكبيراً.

وتدمير أولئك الذين يدمرون الأرض.

وغنّت الجوقة أيضا:
الآن جاء تخلص الربّ وسلطته ومملكته
وسلطة يسوعه.
لأنّ متهم إخواننا،
الذي يتهمهم أمام الربّ
ليلا ونهارا،
يرمون بقوة.
لقد تغلبوا عليه
بدم الكبش
وكلمة شهادتهم:
إنّهم لم يحبّوا حياتهم
إلى الحدّ الذي يجعلهم ينكصون عن الموت.
إذن، اسعدي، أيتها السّموات،
وأنتم يا من تقيمون بها!
لكن ويلا لك أيتها الأرض وأيتها البحر،
لأنّ الشيطان نزل إليكما!
إنّه مملوء غضبا
لأنّه يعلم أنّ عمره قصير.

ولم تكذ تنقطع أصوات الجوقة، ويخفت عزف الآلات، حتّى ظهر
القسّ من وراء باب جانبيّ، وتقدّم نحو منصّة تصل تقريبا إلى مستوى
صدره، ووضع فوقها كتابا، لا ريب أنّه كان الإنجيل. لم يكن يلبس
مسوحا، بل يرتدي بنظالا من الصّوف، وسترة من الصّوف أيضا،
سوداء اللون، تبدو عليها آثار القدم. وكان طويل القامة، أبيض الوجه،

مشربا بحمرة. وأنفه يميل إلى الطَّول قليلا. وشعره الغزير المشقوق في الوسط غزاه الشَّيب. ولم يسلم منه حتَّى الفودان... اقترب من المنصَّة، واستند إلى حافتيها بيديه. فتقوَّس ظهره، بينما ارتفع وجهه، إلى الأمام، في مواجهة الحضور، وقال بعد لأي:

. أيُّها الإخوة والأخوات، مرحبا بكم في ملكوت الرَّبِّ. لقد اجتمعنا اليوم ههنا، ككلِّ أحد. لنقدِّس اسم الرَّبِّ، ونخلِّف وراءنا، ولولحين، مشاغل الحياة، حياة الخطَّائين المذنبين، الَّذِينَ يرفضون التَّوبة. إنَّ الرَّبَّ يسوع، أبانا، قد بذل حياته من أجلكم، من أجل أن تتطهَّروا من الرَّجس، فتستحقِّقوا بذلك مملكة الرَّبِّ.

وأمسك عن الحديث برهة، وهو يروز بعينيه أرجاء المكان، يتأمَّل الأشخاص الَّذِينَ كانوا يستمعون إليه، منصتين في خشوع، ولما اطمأنَّ إلى تأثير صدى كلماته في نفوسهم، واصل قائلا:

. أيُّها الإخوة، لا بدَّ أنكم تتساءلون عن معنى المملكة الَّتِي بَشَّرَها يسوع المسيح: ألا فاعلموا أنَّ المملكة مثل خميرة تفعل فعلها في العجين، وهي مثل ربِّ البيت الَّذِي يخرج مبكرا في الصَّبَاح ليستأجر عمالًا ليقطفوا كرومه. إنَّها مثل حبة الخردل، وهي أيضًا مثل وليمة العرس... إنَّ المملكة، أيُّها الإخوة، هي مجموع أتباع يسوع الَّذِينَ يلتزمون قانون ما جاء به، ويوحِّد بينهم حبَّ الأخ لأخيه. فهل أنتم هؤلاء الأتباع؟... هللوا! هللوا! والمملكة هي عمل يسوع الَّذِي يقوم به بنفسه، ويمكن أن تتجسَّد المملكة عبر الأمثال، ولكنَّها تظهر أكثر جلاء عبر الفعل.

وصمت قليلا، ريثما التقط أنفاسه، ثمَّ قال بصوت جهوري: . لقد جننا اليوم لننتدكر حياة يسوع المسيح، ولننتعظ فيسمو إيماننا، فاثبتوا على دينكم، ولا تفرطوا فيه، فيحدث لكم ما حدث ليهود حين كفروا وتولَّوا.

وأضاف متحدِّثا عن مولد المسيح:

. يحدِّد متى ولوقا ميلاد المسيح في الأيام الَّتِي كان فيها هيرودس «ملكا

على بلاد اليهود»، أي قبل العام الثالث ق.م. على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان «حوالي الثلاثين من العمر» حين عمّده يوحنا في السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس، «أي في عام ٢٨ . ٢٩». وهذا يجعل ميلاد المسيح في عام ١٠٢ ق.م. ويقول كلمنت الإسكندري، في معرض حديثه عن اليوم الذي ولد فيه، إن بعض المؤرخين يحدّده باليوم التاسع عشر من نيسان وبعضهم بالعاشر من أيار، وإنه هو يحدّده بالسابع عشر من تشرين الثاني من العام الثالث ق.م. وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح في اليوم السادس من شهر كانون الثاني منذ القرن الثاني بعد الميلاد؛ ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتّى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من كانون الأوّل عيداً للميلاد في الشرق أيضاً. ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان في بيت لحم. ثمّ يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة في الجليل؛ وكانت أسرته كبيرة؛ وكان جيرانه يدهشون من تعاليمه القويّة. فأخذوا يتساءلون قائلين: «ترى أنّي له هذه الحكمة، والقدرة على القيام بهذه العجائب؟ أليس هو ابن النجّار؟ أليست أمّه تسمّى ماريّة، أليس إخوته هم يعقوب ويوسف، وشمعون. ويهوذا؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا؟» ورفع يديه من فوق حافّي المنصّة، واستوى بجذعه، وأخذ الكتاب ففتحه وبدأ يقرأ من إنجيل لوقا:

«وكان هناك رعاة يعيشون في الغابات القريبة، يحرسون قطعانهم بالليل، فتجلّى لهم ملاك الربّ، وشعّ حولهم مجده؛ أصابهم الهلع؛ ولكنّ الملاك قال لهم: «لا تخافوا، فإنّي جئتكم بأخبار مفرحة جدّاً لكلّ النّاس. لقد ولد اليوم بمدينة داود منقذ. إنّه يسوع الربّ. وهذه إشارة لكم: ستجدون رضيعاً ملفوفاً في قماطات، وملقى في مذود. فجأة ظهرت جماعة كبيرة من الحشد السّماويّ يقدّسون الربّ، ويقولون، المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السّلام،

لوقا: الإصحاح الثاني، الآيات ٩.٨.١٠.١١.١٢.١٣.١٤.

وأغلق الكتاب على صفحة أثبتها بورقة بيضاء صغيرة، وعاد إلى مثل وضعه الأوّل، وواصل قائلًا، وهو يتفرّس في الوجوه الّتي تنظر إليه باهتمام:

.واختن يسوع الرّبّ حين بلغ الثّامنة من عمره: واحترف مهنة أبيه، وهي النّجارة، وقتا ما: وكان يحسّ بما في الرّيف من جمال طبيعيّ، وما للزّهر من لون جميل، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون. وكان ذا عقل يقظ، طلعة، يتردّد على المجمع الدّينيّ، ويستمتع إلى تلاوة الكتاب المقدّس، ويبدو عليه السّرور حين يسمعه. وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاصّ. ولعلّه قرأ أيضًا سفري دانيال وأخنوخ، لأنّنا نجد في تعاليمه المتأخّرة أثرًا من رؤى يوم الحشر ومملكة السّماء. وقد تأثّر يسوع الرّبّ ببوحنا بن اليصابات، قريبة مريم.

وفتح الكتاب ثانية على تلك الصّفحة الّتي أثبتها بتلك الورقة الصّغيرة، وبدأ يقرأ مستبدلاً نبرته الهادئة الرتيبة بصوت خطابيّ جهوريّ:

. وكان يوحنا، حسب ما أورده مرقس في إنجيله، يرتدي ملابس مصنوعة من وبر الجمال، ويضع حزامًا جلدًا حول وسطه، ويأكل الجراد والعسل. وكانت هذه رسالته: «سيأتي بعدي واحد أكثر قوّة منّي، ولست أهلا لأنحني وأفكّ سيور صندله. إنّني أعمّدكم بالماء، أمّا هو فيعمّدكم بالروح القدس.»

مرقس: الإصحاح الأوّل، الآيات ٨٧.٦

وأضاف. وهو ما يزال ممسكًا بالكتاب بين يديه:

وكان يوحنا يلقب بالمعمدان لأنه كان يقف بجوار نهر الأردن، يدعو الناس إلى التوبة، ويعمدهم بالماء، وقد أضاف إلى عقيدة التطهير تنديده الشديد بالنفاق، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا للدار الآخرة، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور. ويقول لوقا إنه في «السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس» وبعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليعمّد على يديه.

وقرب الكتاب من عينيه وشرع يقرأ الآيات من إنجيل مرقس: في ذلك الوقت جاء المسيح من الناصرة في الجليل وعمّده يوحنا في نهر الأردن. وبينما كان يخرج من الماء، شاهد السماء تنشق وتنزل منها الروح عليه كأنها يمامة. وسمع صوتا مناديا من السماء: «أنت ابني الذي أحب؛ وبك أنا سعيد جدًا.» وفي الحال أرسلته الروح إلى الصحراء، وظلّ في الصحراء أربعين يوما يغريه الشيطان، كان مع الحيوانات المتوحشة، والملائكة تخدمه.

مرقس: الإصحاح الأول، الآيات ٩. ١١. ١٢. ١٣.

وقال، بعد ذلك، في معرض حديثه عن الرسالة: ولما سجن يوحنا، أخذ يسوع الربّ يقوم بعمل المعمدان، ويخطب في الناس مبشرا بملكوت الله. ويقول لوقا إنه «عاد إلى الجليل»، وإنه «كان يعلم في مجامعهم.» ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم تحمّل يسوع الربّ العبء وما استتبعه من خطر، وارتدّ أولًا في حذروحيطة إلى القرى الهادئة، ثم أصبح في كلّ يوم أعظم جرأة في إعلانه إنجيل التوبة، والإيمان، والنجاة، حتّى ظنّ بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الأموات... أيها الإخوة، إنّ أبانا يسوع كان يغفر جميع الأخطاء إلّا عدم الإيمان، ويوعد الكفرة جهنّم السرمديّة التي

يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التي لا تنطفئ أبداً والديدان التي لا تشبع من نهش أجسامهم. وهو يقول إن رجلاً فقيراً في الجنة لا يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غني في الجحيم. وينصحنا بنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا. ويلعن الناس والمدن التي لم تؤمن برسالته، ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمراً.

وصمت القسّ قليلاً، ورفع جذعه من فوق المنصة ليمنح نفسه فرصة للراحة، وقال بعد برهة:

.وهناك، أيها الإخوة والأخوات، حكايات كثيرة تروى عن معجزات المسيح، توردها الأناجيل كلها بالتفصيل، فهو يحي الموتى، ويشفي المصابين بالجذام والبرص، وبكلمة منه، يرجع المقعدون صحاحاً كما كانوا، ويبارك الأطفال، ويتجاوز عن الخطايا، ويقبل التوبة من أصحاب الذنوب؛ ولعلّ حكاية العاهرة التي جاءت طالبة الغفران لأكثر دليل على ذلك؛ ذلك أنّها أسرّت في قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين، فخرّت راكعة بين يديه، ودهنت قدميه بالطيب الثمين، وغسلتهما بدموعها، وجفّفتهما بشعر رأسها، وقال عنها يسوع إنّ خطاياها قد غفرت لها «لأنّها أحبّت كثيراً». وكانت الأمّهات يأتين إليه بأطفالهنّ ليمسحهم بيديه. ويحتضنهم ويضع يديه عليهم ويباركهم. وسأورد طرفاً من حكايات أخرى، لتتأكّدوا، أيها الإخوة، من عظمة معجزات يسوع الرّبّ.

وأمسك الكتاب، وراح يقلّب صفحاته، وبعد برهة كفّت يده عن التّقليب، وطفقت عيناه تنطّ فوق السّطور، ولسانه يتدفّق بتأنّ وطلاقة:

.يسوع يطرد روحاً شريرة

ذهبوا إلى كبرنوم، وعندما جاء يوم الأحد، ذهب يسوع إلى الكنيس وبدأ يدرّس. ذهل الناس لتدريسه، لأنّه كان يدرّسهم كواحد بيده

السَّطْلَة، لا كمدرسي النَّاموس. وفي ذلك الوقت، صرخ رجل في كنيسهم تملكته روح شريرة. «ماذا تريد منّا، يا يسوع الناصري؟ هل جئت لتحطّمنّا؟ أنا أعرف من أنت. ابن الرّب المقدّس!»

«اسكت!» قال يسوع بصرامة. «اخرج منه!» خضت الروح الشريرة الرّجل بعنف وخرجت منه مطلقة صرخة.

كان النَّاس مندهشين جدّا إلى الحدّ الذي جعلهم يسألون بعضهم، «ما هذا؟ تعليم جديد. وبسلطة! إنّه يعطي الأوامر حتّى للأرواح الشريرة، ويطيعونه.» وانتشرت الأخبار عنه بسرعة في منطقة الجليل كلّها.

مرقس: الإصحاح الأوّل، الآيات ٢١.٢٢.٢٣.٢٤.٢٥.٢٦.٢٧.٢٨

. يسوع يشفي كثيرين

ما أن غادروا الكنيس حتّى ذهبوا مع جيمس ويوحنا إلى بيت سيمون وأندرو. كانت حماة سيمون في الفراش محمومة. وأخبروا يسوع عنها. ذهب إلّهما، أخذ بيدها وساعدها على النهوض. زاليتها الحمى وبدأت تخدمهم.

في ذلك المساء بعد الغروب جلب النَّاس إلى يسوع كلّ المرضى والممسوسين. تجمّعت المدينة كلّها أمام الباب، وشفى يسوع كثيرين ممّن يعانون من أمراض شتّى. وطرد أيضا كثيرين من الشّياطين، ولكنّه لم يكن ليدع الشّياطين يتكلّمون لأنّهم يعرفون من هو.

مرقس: الإصحاح الأوّل، الآيات ٢٩.٣٠.٣١.٣٢.٣٣.٣٤

. رجل مصاب بالجذام

وجاء رجل مصاب بالجذام إليه وتوسّل إليه على ركبتيه، «إذا أردت، تستطيع أن تجعلني معافى.»

مغمورا بالشفقة، مدّ يسوع يده، ولمس الرّجل. «إنّي أريد»، قال.

«كن معافى!» وفي الحال زايله الجذام وأصبح صحيحا.
وأرسله يسوع بعيدا مصحوبا بتحذير حاد: «تأكد أنّ لا تخبر بذلك أحدا. لكن، اذهب، وأرشفك للكاهن وقدم القرابين التي أمر بها موسى لتطهيرك، كشهادة لهم. بدلا من ذلك، خرج وبدأ يتكلم بحرية، ناشرا الأخبار. وكنتيجة لذلك، لم يعد يسوع قادرا البتة على دخول مدينة علنا. ولكنه يظلّ خارجا في الأماكن المنعزلة. غير أنّ الناس ظلّوا يأتون إليه من كلّ مكان.

مرقس: الإصحاح الأول، الآيات ٤٠.٤١.٤٢.٤٣.٤٤.٤٥

. يسوع يشفي مقعدا
مضت عدّة أيام بعد ذلك، وعندما دخل يسوع كبرنوم ثانية، سمع النّاس أنّه رجع إلى البيت. فاجتمع كثيرون حتّى لم يعد هناك مجال، حتّى خارج الباب، وبشّهم بالكلمة. وجاء بعض الرّجال يحملون إليه مقعدا من قبل أربعة منهم. وبما أنّهم لم يستطيعوا أن يوصلوه إلى يسوع لكثرة الزّحام، فقد جعلوا منفذا في السّقف فوق يسوع، وبعد حفره أدلّوا الرّجل حتّى استقرّ على الأرض متمدّدا. ولمّا خبر يسوع إيمانهم، قال للمقعد، «يا بنيّ لقد غفرت خطاياك.»

مرقس: الإصحاح الثّاني، الآيات ١.٢.٣.٥

أمّا الإخوة والأخوات، لقد كان يسوع يعلم النّاس بالبساطة التي تتطلّبها حال مستمعيه، ويمزج هذه التّعاليم بالقصص الطّريفة والحكم والأمثال. وكان وضوح خطبه واتّجاهها إلى هدفها مباشرة، وروعة خياله وقوّته، وإخلاصه العظيم، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشّعير الملهم. ومن أقواله إنّ ملكوت الله قد أزفت ساعته، وإنّ الرّبّ سيقضي عمّا قريب على عهد الشرّ والخبائث، وإنّ ابن الإنسان سيأتي «على سحب السّماء» ليحاسب البشر الأحياء منهم والأموات. ومن أقواله إنّ الوقت

الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتُوبَ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ ذُنُوبِهِ يَمُرَّ مُسْرِعًا، فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَأَنَابَ، وَسَلَكَ سَبِيلَ الْعَدَالَةِ، وَأَحَبَّ اللَّهَ، فَإِنَّهُ يَرِثُ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ، وَيَسْمُو إِلَى الْقُوَّةِ وَالْمَجْدِ فِي عَالَمٍ قَدْ تَحَرَّرَ آخِرُ الْأَمْرِ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ وَالْأَلَامِ وَالْمَوْتِ. وَقَدْ كَانَ يَقُولُ أَيْضًا: «إِنَّ مَنْ الْقِيَامَ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ»؛ «لَا يَمْضِي هَذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ». وَكَانَ يَحْذَرُ رُسُلَهُ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلَا الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا الْابْنُ إِلَّا الْأَبُ». وَتَسْتَبْقِهِ عِلَامَاتُ: «وَسَوْفَ تَسْمَعُونَ بِحُرُوبٍ وَأَخْبَارِ حُرُوبٍ... تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ، وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ وَأَوْبَةُ وَزَلَزَلٌ فِي أَمَاكِنَ... يَعْتَرِكُنْ كَثِيرُونَ وَ... يَبْغِضُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذِبَةٍ كَثِيرُونَ، وَيَضِلُّونَ كَثِيرِينَ، وَلَكَثْرَةُ الْإِثْمِ تَبْرُدُ مَحَبَّةُ الْكَثِيرِينَ».

وَيَقْطَعُ الْقِسْمَ كَلَامَهُ مَرَّةً أُخْرَى، رِيثْمًا يَبْتَلِعُ رِيْقَهُ، وَيَهْدَأُ انْفِعَالَهُ، إِذْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ تَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحِمَاسَةُ وَالتَّأَثُّرُ، ثُمَّ يَواصِلُ قَائِلًا، مَدْلِيًا بِاسْتِشْهَادَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ:

يَا إِخْوَةَ الْإِيمَانِ، إِنَّ يَسُوعَ الرَّبَّ لَا يَخْفَى احْتِقَارُهُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَجْعَلُ هَمَّهُ فِي الْحَيَاةِ جَمْعَ الْمَالِ وَالْانْغِمَاسَ فِي التَّرَفِ، فَهُوَ يَتَوَعَّدُ الْفَتَى الْبَطِينُ بِالْجُوعِ وَالشَّقَاءِ؛ وَلَمَّا سَأَلَهُ شَابٌّ غَنِيٌّ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ بَعْدَ أَنْ حَفِظَ الْوَصَايَا الْعَشْرَ قَالَ: «بِعَ أَمْلَاكِكَ، وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونُ لَكَ كَثْرٌ فِي السَّمَاءِ، وَ... اتَّبِعْنِي». وَمِنْ بَيْنِ الْأَمْثَالِ الَّتِي قُلْنَا إِنَّ يَسُوعَ الرَّبَّ اعْتَمَدَهَا لِنَشْرِ تَعَالِيمِهِ:

مِثْلُ الزَّارِعِ .

وَمَرَّةً أُخْرَى بَدَأَ يَسُوعُ يَخْطُبُ قَرِبَ الْبَحِيرَةِ. وَكَانَ الْحَشْدُ الْمُتَجَمِّعُ حَوْلَهُ كَبِيرًا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهْ صَعَدَ عَلَى مَتْنٍ مُرَكَّبٍ جَلَسَ فِيهِ، لِيَقُودَهُ خَارِجَ الْبَحِيرَةِ، بَيْنَمَا كَانَ كُلُّ النَّاسِ يَقِفُونَ عَلَى امْتِدَادِ الشَّاطِئِ عَلَى حَافَةِ الْمَاءِ. لَقَدْ عَلَّمَهُمْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ خِلَالِ الْأَمْثَالِ، وَفِي تَعَالِيمِهِ قَالَ: «اسْمَعُوا! ذَهَبَ مَزَارِعُ لِيَبْذُرَ حَبَّهُ. وَبَيْنَمَا كَانَ يَنْثُرُهُ، سَقَطَ بَعْضُهُ

على امتداد الطّريق، وجاءت الطّير وأكلته. وسقط البعض في أماكن صخرية، حيث لم يكن هناك تربة كثيرة. ونما سريعاً لأنّ التّربة لم تكن عميقة. ولكن عندما طلعت عليه الشّمس، سفعت النّباتات وذبلت لأنّها لم تكن لها جذور. وسقط بعض الحبّ الآخرين الأشواك التي كانت تنمو وتضايق النّبات، وكنتيجة لذلك، لم يكن ذلك النّبات يحمل حبّاً. لكن سقط بعض الحبّ الآخر على أرض حسنة، فطلع ونما وأنتج ثمراً، مضاعفاً ثلاثين مرّة، أو ستين، أو حتّى مائة مرّة.

ثمّ قال يسوع: «ليسمع من كانت له أذان للسمع». عندما كان وحيداً، سأله الإثنا عشر والآخرين الذين يحيطون به عن الأمثال. فأخبرهم قائلاً: «إنّ سرّ مملكة الرّب قد أعطيتموه. ولكن للذين في الخارج يقال كلّ شيء في شكل أمثال حتّى، «يظّلّوا دائماً ينظرون ولا يرون،

ويسمعون دائماً ولا يفهمون:

والأمكنهم الرّجوع وغفر لهم!»

ثمّ قال لهم يسوع: «ألم تفهموا هذا المثل؟ فكيف ستفهمون إذن أيّ مثل؟ إنّ المزارع يزرع الكلمة. وبعض النّاس هم مثل الحبّ على امتداد الطّريق، حيث تزرع الكلمة. وما أن يسمعوها، حتّى يأتي الشّيطان ويأخذ الكلمة التي كانت زرعت فيهم. وآخرون، مثل الحبة المزروعة في أماكن صخرية، يسمعون الكلمة ويتقبّلونها بفرح في الحال. ولكن بما أن ليس لهم أصل، فإنّهم يدومون لبعض الوقت فقط. فعندما يحلّ ضيق أو اضطهاد بسبب الكلمة، فإنّهم سيتساقطون سريعاً. يظّلّ هناك آخرون، مثل الحبة المزروعة بين الأشواك، يسمعون الكلمة؛ ولكنّ مشاغل هذه الحياة، وخدعة الغنى، والتّوق إلى أشياء أخرى تظهر وتضايق الكلمة، وتجعلها غير مثمرة. آخرون، مثل الحبة المزروعة في تربة حسنة، يسمعون الكلمة، ويقبلونها فتنتج ثمرة. أكثر ثلاثين مرّة، أو ستين، أو حتّى مائة مرّة ممّا زرع من قبل.

مرقس: الإصحاح الرابع، الآيات ١٠.٩.٨٧.٦.٥.٤.٣.٢.١

٢٠.١٩.١٨١٧.١٦.١٥.١٤.١٣

. مثل حبة الخردل

وقال مرة أخرى: «بماذا سنشبهه مملكة الربّ، أو ما المثل الذي سنورده لوصفها؟ إنّها مثل حبة الخردل، التي هي أضالّ حبة تزرعونها في الأرض. ولكن عندما تزرع، تنمو وتصبح أكبر نباتات الحديقة، بغصون كبيرة جدًا إلى درجة أنّ طيور الجوّ تستطيع أن تتفياّ ظلالها.

مرقس: الإصحاح الرابع، الآيات ٣٢.٣١.٣٠

وأثبت الصّفحة، مرة أخرى، بورقة صغيرة، وأغلق الكتاب، وضعه فوق المنصّة، وقال مغيرًا نبرة صوته، التي غدت أكثر هدوءًا:

. لما زار المسيح الربّ الهيكل في اليوم الثّاني، بعد عيد الفصح، بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج، ومبادلات، فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشّديد، دفعتهم إلى قلب مناخذ الصّيّارة وتجار الحمام، وبعثرة نقودهم على الأرض، وإخراج التّجار من ساحته بضرب العصي. وظلّ عدّة أيّام بعد مجيئه يعلم في الهيكل دون أن يتعرّض له أحد. ولكنّه كان يخرج منه ليلا ويبيت في جبل الزيتون لخوفه أن يقبض عليه أو يغتال. وكان عمال الحكومة يراقبونه، ذلك أنّ الاستقبال الحماسيّ الذي استقبل به في أورشليم جعل زعماء اليهود يميّزون غضبا، ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السّنّهريّن إلى الاجتماع. وقال له: «إنّه خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب ولا تهلك الامة كلّها.» ووافقه أغلب الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على يسوع الربّ. وفي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبريّ (اليوم الثّالث من شهر إبريل) من العام الثّلاثين، أكل يسوع الربّ ورسله عشاء عيد الفصح في دار صديق له في أورشليم، وكانوا ينتظرون أن يدي المعلم بما لديه من معجزات، لكنّه لم يفعل شيئا من

هذا. وكان يأمل أن يتقبل الله موته على أنه تضحية يكفّر بها عن ذنوب شعبه. وقد قيل له إنّ أحد الإثني عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه؛ وفي هذا العشاء الأخير اتّهم الربّ المسيح علنا بهذا الإسخريوطي؛ وفي نفس العشاء بارك الخمر التي قدّمها للرسل ليشربوها، ثمّ غنّوا جميعا أغنية هاليل اليهودية.

ويقول يوحنا إنّ قال لهم:

«يا أولادي أنا معكم زمانا قليلا بعد... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبّوا بعضكم بعضا... لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعدّ لكم مكانا.»

وقد طلب إليهم في هذه الساعة الرهيبة أن يكرّروا هذا العشاء في مواسم خاصة إحياء لذكراه، وسألهم أن يتصوّروا أنّ الخبز الذي يأكلونه هو لحمه، وأنّ الخمر التي يشربونها هي دمه.

وشمل فضاء الكنيسة صمت عميق لبرهة، حتّى أنّه لو طنّت ذبابة، لسمع صوت طنينها في المكان؛ وبعد لأي، بدأ القسّ يتحدّث عن القبض على المسيح وصلبه بنبرة أسيانة مترققة:

واختبأت الجماعة الصّغيرة تلك اللّيلة في حديقة جثسيماني خارج أورشليم؛ وفيها عثرت عليهم سرّية من شرطة الهيكل، وقبضت على يسوع؛ وسيقّ أولا إلى بيت أونياس أحد كبار الكهنة السّابقين، ثمّ نقل منه إلى بيت قيافا. ويقول «مرقس» إنّ «المجلس» اجتمع في ذلك المكان. وشهد عليه شهود كثيرون، وذكروا بنوع خاصّ تهديده بتعطيم الهيكل. ولما سأله قيافا هل هو «المسيح ابن الله؟» أجابه: «أنا هو.» واجتمع السنّهدرين في صباح اليوم الثّاني وأثبت عليه جريمة التّجديف، وقرّر أن يسوقه أمام الحاكم الرّومانيّ، وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المحتفلة بعيد الفصح. وكان بيلاطس النّبطيّ رجلا قاسيا، وعندما جيء له بيسوع الربّ سأله: «أأنت ملك اليهود؟» فأجابه بقوله: «نعم.» حسب ما أورده مرقس؛ وينقل يوحنا عن يسوع الربّ أنّه أضاف

إلى جوابه السابق قوله: «لهذا قد ولدت أنا.... لأشهد للحق». وسأله بيلاطس: «ما هو الحق؟» فأجابه بأجلى بيان. وأمام اعتراف يسوع، لم يكن أمام القانون إلا أن يدينه. وكان الصليب من طرق العذاب الرومانية اليهودية. ووضع الجنود الرومان تاجا من الشوك على رأسه يسخرون بذلك من تلقيبه «ملك اليهود»، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية «عيسى الناصري هو ملك اليهود». وقد أذن لكل من يريد أن يشهد منظر الصليب الرهيب أن يشهده. ودقت يدا يسوع وقدماه إلى الخشبة. ويقول «مرقس» إن لصين صلبا معه وإثما كانا يسبانه. ويؤكد لنا «لوقا» أن واحدا منهما كان يدعوله.

«كانت هناك عبارة فوقه تقول: «هذا ملك اليهود».

وكان أحد المجرمين المصلوبين هناك يقذفه بالشتائم: «ألست المسيح؟ أنقذ نفسك وإيانا!»

ولكن الآخر كان يوبّخه. «ألا تخاف الله»، قال. «ما دمت تحت وطأة نفس العقاب؟» لقد عوقبنا نحن بعدل. لأننا نحمل وزرما تستحقه أفعالنا. أما هذا الرجل فلم يرتكب خطأ.

لوقا: الإصحاح ٢٣، الآيات ٣٨، ٣٩، ٤٠.

ولم يكن مع يسوع الربّ أحد من الرسل إلا يوحنا وحده، وكان معه ثلاث نساء تسمى كلّ واحدة منهنّ مريم، مريم أمّ المسيح، ومريم أختها، ومريم المجدلية؛ إضافة إلى نساء أخريات كنّ ينظرن من بعيد. وأشفق جنديّ على يسوع الربّ، فجاء بإسفنجة مغموسة في الخلّ وقربها من فيه، فشرب وقال: «قد أكمل». وفي الساعة التاسعة. الثالثة بعد الظهر. «نادى يسوع بصوت عظيم... وأسلم الروح. وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية قبر يسوع مع مريم أمّ يعقوب وسالومة فوجدته فارغا؛ فامتألت قلوبهنّ خوفا وسرورا معا، وجرين لينقلن ذلك النبأ إلى تلاميذه، والتقين في الطريق برجل حسبته يسوعا، فانحنين احتراما له، وأمسكن بقدميه...

وسادت فترة صمت، انطلق بعدها صوت القسّ وهورافع رأسه إلى السّقف، مشيراً إلى نقطة غير محدّدة:

انظروا أيّها الإخوة، هذا هو يسوع الرّب: لقد قهر الموت وأثبت أنّه هو المسيح المنتظر ابن الله: فملاً نبأ قيامته قلوب أهل الجليل بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدّقوا آية معجزة وأيّ وحي. وقد جاء في سفر أعمال الرّسل أنّ المسيح صعد بجسمه إلى السّماء بعد أربعين يوماً من ظهوره إلى مريم المجدليّة.

هَلِّلُويا

هَلِّلُويا

هَلِّلُويا

فتردّدت في الأرجاء أصداء الأصوات تردّد التّهليل وراء القسّ؛ ووقف الجمع الجالسون من على المقاعد، وقد تملّكتهم حماسة لا مثيل لها، يشوبها التّأثر والدّموع... ولم يلبثوا إلّا قليلاً، حتّى خيّمَت أطياف الصّمت من جديد، ونبعت بدايات موسيقى من الأسفل، وراحت الجوقة تهينم بعذوبة:

«سأمجّدك، أيّها الرّب

رغم أنّك كنت غاضباً عليّ،

وتلاشى غضبك

فواسيتني.

مؤكّد الرّب هو منقذي؛

سأثق ولن أخاف.

الرّب، الرّب، هو قوّتي وأغنيّتي،

إنّه أصبح منقذي.»

بفرح ستجلب الماء

من أبار الإنقاذ.

.....

كنت مأخوذاً بصدى الكلمات في أذني؛ وقد جعلني طول الموعظة أشعر بالنعاس، حتّى أنّي غفوت في لحظة ما، وحينما أفتت، أحسست بعينين صافيتين هادنتين تتطلّعان إليّ، ويد حنون تربّت على كتفي في رفق. دبّت في مفاصلي رعدة خفيفة وملأني شعور طاع بالخجل، كما لو أنّ ماء بارداً غمر ركبتيّ. كانت العينان، وتلك اليد، لرجل خمسينيّ يجلس بجاني على المقعد الأيمن، طويل، في وجهه وسامة. رغم تقدّمه في السنّ، وشعر رأسه غزير، يخالط سواده بياض كثير. وقد كنت أتوقّع منه كلمات عتاب أو تأنيب، سيّما وأني غريب، يأتي لأوّل مرّة إلى هذا المكان، متحقّماً بفضولي وفضاظة ملامحي قداسة الصّمت، واستغراق المصلّين، إلّا أنّه ابتسم فشعّ وجهه بنور رائق، وانحنى عليّ، وهو يقول:

لا عليك! يظهر أنّك أجنبيّ، تأتي إلى هنا لأوّل مرّة. لقد تعودنا نحن طول مثل هذه العظات من الطيّب ماثيو؛ على فكرة، ماثيو هو اسم القسّ. وهو رجل طيّب، سمح، كريم، عيبه الوحيد أنّه إذا استرسل في الكلام، نسي نفسه والنّاس من حوله. وقد حصل لي مرّات ما حصل لك اليوم، فقد كنت أغفو أحياناً في منتصف الموعظة. ولا أستفيق إلّا على جلبة المصلّين وهم يغادرون بعد انتهاء الصّلاة.

ولا شك أنّه كان يدقّق النّظر إليّ، فقد سألتني بنفس النّبرة الودود حين لاحظ ذهاب اضطرابي:

هل أنت أندونيسيّ؟

فوجئت. شعرت أنّي أخذت على حين غرّة.

قلت في نفسي:

لماذا أندونيسيّ؟ وليس مغربيّاً مثلاً؟ أو عراقياً؟ أو... أو...

وشيئاً فشيئاً، تقهقرت ذاكرتي قليلاً إلى الوراء، إلى صباح ذلك الاثنين، حين ابتدأنا الدّروس بالمعهد أوّل مرّة؛ فقد جاءنا في ذلك الصّباح مصوّر يحمل كاميرا، ذات مسند طويل، وبعد أن ثبتت الكاميرا فوق المسند، أخذ لنا صوراً واحداً واحداً. وصباح الاثنين

التَّالِي، ثاني أسبوع، وَزَع علينا السَّيِّد «فرانك كلامنز» بطاقات هَوِيَّة مسقَّرة، وجالت عيناى بفتور على الاسم واللقب اللذين كتبوا باللغة الإنجليزية، واستقرتْ أخيرا على الصَّورة فى رأس البطاقة إلى اليسار، فاندھشت وأصابني العجب لقرب الشَّبه الَّذى جعلني أبدو كواحد من سكاَن جنوب شرق آسيا: العينان الممطوطتان، الشَّعر القصير، الفم الصَّغير، والبشرة الَّتى تضرب إلى الصَّفرة.

قلت، وأنا أبتسم داخلى إذ استعدت تقاسيمي على تلك الصَّورة بعد سؤاله الَّذى لم يعد غريبا بالنسبة إليّ:

. صحيح أنا أقرب أن أكون أندونيسيّا، أو صينيّا أو يابانيّا، ولكيّى فى الحقيقة لست لا هذا ولا ذاك ولا الآخر، وإنّما أنا عربيّ، من بلد على ضفاف المتوسّط؛ واسمي سالم... سالم فؤاد أسعد عبد العظيم هنيدي.

قال:

وأنّا غراهام بلّامى.

ووقف فجأة، ومشى بضع خطوات صوب شابّ كان يهَمّ بالخروج، وجاء به، وقال، وهو يشير إليه:

. هذا رتشارد، ابني. رتشارد بلّامى.

قلت، وأنا أقف بدوري، مصافحا يد الشابّ الممدودة إليّ:

. سعدت بلقائك. أنا سالم.

فقال بصوت رقيق يكتنفه الخجل:

. وأنا رتشارد. سعيد بلقائك.

قدّرت أنّى أكبره بعام أو عامين، وهو فى نفس طولى تقريبا، يشي مظهره الخارجيّ بالتّواضع والتّقشّف، وقد زادتْه رقة ملامحه مسحة من البراءة سرعان ما تشدّ النّاظر إليه.

وجاء أناس آخرون، كانوا فى طريقهم إلى باب الخروج، ولكّهم حينما رأوا «غراهام» وابنه يقفان إلى جانبي، أقبلوا فى البداية بهدف

إلقاء التّحية، غير أنّهم ما عتموا أن سرت فيهم رغبة حبّ الاستطلاع عندما اكتشفوا اختلاف في عنهم، فطفقوا يمطرونني بوابل من الأسئلة التي لا تنتهي:

ما اسمك؟

من أين جئت؟

هل أنت مسيحي؟

هل تختلف إلى الكنيسة دائما؟

وأسئلة أخرى، كانت ربّما ستتحوّل إلى استجواب بلا نهاية لولا تدخل «غراهام» الذي حسم الأمر، وتولّى تقديمي إليهم باختصار، إذ كان هو نفسه لا يعرف عني أكثر ممّا أخبرته به؛ وقد توصّلت أنا إلى معرفة أشياء كثيرة عنه، رغم ضيق الوقت، وغرابة اللقاء، من خلال الأحاديث المقتضبة التي كانت تدور بينهم... لقد عرفت، مثلا، أنّه، إضافة إلى كونه موظّفا بشركة تأمين في المدينة، يشغل أيضا خطة قسّ، ويتولّى تقديم الدّروس والمواظع أيّام الأحاد في كنيسة قريبة، ومن حين لآخر، يأتي إلى هذا المكان للقاء بعض الأصدقاء. وكان من بين هؤلاء الأصدقاء رجل وامرأة يصطحبان بنتا صغيرة قريبة الشّبه منهما، أخذت من الرّجل بياض بشرته وصفرة شعره، ومن المرأة عذوبة التّقاسيم وجمال الملامح. لقد كان الرّجل والمرأة زوجين، «بيتر» و«إندرا»، إنجليزيّ وهنديّة، تعرّفا إلى بعضهما على متن إحدى السّفن البريطانيّة التي تمخرع باب المحيط الهنديّ، حيث كان هو ضابطا، وهي ممرضة، والتّقىا، وقد جمع بينهما الحبّ والدين، اللّذين أثمرّا في العام الأوّل، بعد زواجهما، هبة فريدة الرّوعة والجمال، على صغر سنّها، اسمها «كاترين»، وهي ابنتهما. وقد تعرّفت كذلك إلى آخرين غيرهما، وتحدّثت معهم، في البداية، بقليل من التّحقّظ، ثمّ ما لبثت أن ركنت إليهم، واستأنست بهم، فزال جدار التّحقّظ القائم بيننا، وحدّثهم، أمام إصرارهم، عن البلد الذي جئت منه، والحارة، والعائلة، ورحلة

العمر، إلى أن جئت إلى بلدهم. وقد سألتني أحدهم:

وهل ستبقى معنا؟

فأحسست بأنّ جرحاً داخلي قد نكئ؛ وأجبتّه بانفعال شديد لم أستطع إخفاءه، ولا بدّ أنّهم رأوا جميعاً مرتسماً بحزن على وجهي:

ليتني أستطيع، ولكيّ في بعثة، وسأغادرمتي أن الأوان.

وتدخّل «غراهام» فجأة، وسأل بطيبته المعهودة:

وهل تريد أن تبقى؛ أعني، ألن تشعر بالحنين إلى ما خلفته وراءك

إذا بقيت هنا؟

فأجبتّه، على الفور، وبصراحة قاطعة:

نعم، أحبّد البقاء. أمّا مسألة الحنين، فهي غير واردة، الآن على

الأقلّ.

وفكرت قليلاً في صمت، وقد غادر كلّ الذين كانوا حولنا، ولم يبق

إلاّ «غراهام» و«رتشارد» ابنه، وقلت وأنا ألتفت إليه، وفي عيني رجاء،

يتوسّل إليه أن يبذل ما في وسعه لمساعدتي، ومدّ يد العون إليّ:

لا يمكن أن تتصوّر مدى رغبتي في البقاء. لقد ظللت أياّما وليالي،

وأنا أفكر في وسيلة تقربني من هدي، ولكن عبثاً.

ثمّ، بقليل من الخبث:

وقد سمعت مؤخراً أنّ رجال الدين في هذه المدينة يستطيعون

مساعدتي، لما لهم من نفوذ، فجئت.

ثمّ، متسائلاً، وأنا بين الرجاء واليأس:

فهل يستطيعون مدّ يد العون لي حقّاً؟

نظر إليّ «غراهام» بإمعان، وعلى شفّتيه نفس الابتسامة المطمئنة،

وقال موجّلاً الحديث في هذا الموضوع:

سوف لن نخوض في هذا الحديث الآن. أولاً، سنذهب إلى البيت،

فأنت ضيفي، وسأقدّمك لزوجتي «فيفيان» والأب «جورج»، ثمّ

سنغدّي هناك، وبعد ذلك سنحدّث ونحن نشرب القهوة في الصّالون.

والتفت إلى ابنه، وقال له:

خذه، يا بني، بسيّارتك إلى البيت؛ وسألق بكما فيما بعد.

خرجنا جميعاً من الباب الكبير إلى المهو الخارجي للكنيسة، ودعاني «رتشارد» إلى سيّارته الرابضة في مأوى على بعد خطوات، فركبت إلى جانبه على المقعد الأمامي، وأنا أتعجب أن يملك مثل هذا الشاب، الذي سيتمّ سنواته التسع عشرة في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول، كما علمت، مثل هذه السيّارة. ولا أدري لماذا نطّلت في ذاكرتي صورة والدي في تلك اللحظة، بجلاء أسر، كما لو كنت أراه ماثلاً الآن أمام عينيّ؛ وقلت في نفسي بحسرة: «الحياة بنت كلب، تعطي إذا أقبلت كلّ شيء، لمن تختار، بمحض صدفة عابثة. ودون رويّة، وتحرم من تشاء كلّ شيء، بمحض نفس الصدفة العابثة؛ فهذا والدي يقترب من أرذل العمر، وهو ميكانيكيّ، أفنى عمره في معالجة السيّارات، وكم مرّت على يديه المديرتين منها، ومع ذلك لا يمتلك والدي، ولو دراجة؛ فأين العدل؟ أين العدل؟» ولكن ما كان ينتظرني ظلّ أعجب ممّا رأيته بكثير، إلى درجة أنّي بقيت صامتاً، مشدوها، مبجلقاً عينيّ من الدهشة، و«رتشارد» يتحدث عن نفسه، بانطلاق المجربّ الخبير، الذي عاش حياته بالطول والعرض، كما يقال.

قال، وهو ينظر إلى الأمام، ممسكاً بعجلة القيادة:

لقد انقطعت عن الدّراسة منذ ثلاث سنوات...

كانت تلك المفاجأة الثانية. «فماذا يفعل إذن؟» قلت في نفسي؛ ولم يتأخّر جوابه، فقد واصل قائلاً:

وتوفّقت في إيجاد عمل بمتجر كبير في وسط المدينة؛ إلّا أنّي بدأت أمله. فالشّغل هناك مضمّن ورتيب، والمكان تسوده الجلبة والضّوضاء، فدايماً هناك زبائن، والحركة لا تكفّ في الليل أو النهار؛ ولذلك فإنّي أفكّر جدّاً في إيجاد عمل جديد.

وصمت برهة، بينما كان يستدير في اتجاه زقاق متفرّع عن الشّارع

الرئيسي، ثم قال حين انسابت السيّارة تجرّ عجلاتها على الطّريق المسفلت من جديد:

كما أنّي أفكّر في تغيير السيّارة بأخرى أكبر منها . (كانت سيّارته صغيرة، بيضاء اللون)... إذ قريباً سأتزوّج؛ ولا بدّ أن يخطّط المرء للمستقبل من الآن، قبل مجيء الأولاد.

كانت هذه أكبر مفاجأة على الإطلاق، في هذا اليوم. فهناك، في ذلك البلد، على ضفاف المتوسط، حيث ولدت وترعرعت ونشأت، أصبح الزّواج حلماً عصيّ المنال، وإذا تزوّج الواحد في الثلاثين اعتبر محظوظاً، وأغلب الذين عرفتهم تزوّجوا بعد الثلاثين؛ وقد تزوّج عمّ لي، وهو في الخامسة والأربعين من عمره، وتزوّج عمّي الآخر في الثانية والأربعين. إنّه الحظّ!! مذ يفتح الواحد عينيه، تشرع له المدرسة ذراعها، الابتدائية، الإعدادية، ثمّ الثانوية، وبعدها الجامعة، وهناك حتّى تنجح وتنال الشّهادة، «لا بدّ»، كما يقول البعض في تهكمّ ممزوج بمرارة، «أن يكون لك حظّ يفلق الصّخر!» فإذا حدث ونجحت، سيكون عليك أن تنتظر عاماً أو عامين، أو حتّى ثلاثة، لتتسلّم الوظيفة؛ وسيكون عليك أيضاً، إذا تسلّمتها، أن تعضّ على نواجذك، وتعمل، بالليل والنّهار، كالحمار، لتتدبّر أمراً المال الذي ستبني به البيت، وتشتري به المرافق والمقتنيات، وتوفّر التّجهيزات، وتقيم السّور العالي، وتزرع الحديقة بأخر الأموال المتبقّية. حينئذ، تستفيق من أثر الصّدمة، وأنت تنسلخ من ربيع العمر، وتضع أقدامك على عتبات خريفك القاتم، ومن ثمّ تلجّ عليك حدود النّهايات، وتتخيّل فراغ الغرفة الحجرية، ذات شتاء بارد، وأنت معزول، وحيد، ومستوحش، فتعزّز عليك نفسك، تشفق عليها، فتبدأ التّفكير في طيف الشّريك، جسد آخر، يحفظ توازنك في السرير، وتحسّ معه بطمأنينة الأيّام القليلة القادمة، وسيطلب اختيارك وقتاً، وسينضاف ذلك الوقت إلى عدّة أيّامك الأفلة دونما عودة؛ لم تفكّر من قبل في الارتباط، كان النّجاح غاية ما تفكّر فيه، وقد

تضطرّ، في قتامة لياليك المجدبة المظلمة، حين يفيض بكأسك الحنين والشهوة، أن تشبع رغبتك المعرّبة في سرير ما، مع امرأة ما. مضى أمد مذ تساءلت: «العمر يعبر؛ فإلى متى هذا السّفر الذي لا ينتهي بين الأسرة والنّساء؟!» اليوم، أن لك أن يكون لك سريرك الخاص، وامرأة هي زوجتك، وأبناء هم أولادك من صلبك، ستعيش من أجلهم، وتمنحهم ثمرة ما تبقى لك من عمر، وأنت كهل على مشارف الأربعين!!

انحدرت السيّارة بين صفّين من المباني، وسط شارع عريض نظيف، ومالت قليلا إلى اليسار، ثم توقّفت بجانب حائط وطيء لسور منزل يشبه كثيرا بقية المنازل المخصّصة لنا في القرية السّكنيّة، إلّا أنّه أكبر بقليل، وأجمل، زاده لون طابوقه الأحمر الذي يزيّن الواجهة، والحديقة حسنة التّسيق، بزهورها الفيحاء، وأشجارها التي تضوع أوراق أغصانها بنداوة مغرية، زاده كلّ ذلك رونقا يهزّ القلب هزّا ناعما رقيقا. وخرج «رتشارد»، وأشار إليّ أن أتبعه، ثم سرنا عبر بوابة السّور إلى باب المدخل ففتحه ودخلنا. استقبلتنا والدته في نهاية الممر، وقد أحسّت أول ما رأني بدهشة مفاجئة، إلّا أنّ «رتشارد» تدخل بسرعة شارحا:

هذا سالم، ضيفنا، أمرني والدي أن آتي به إلى المنزل.

كنت أسترق النّظر إليها، فرأيت الدّهشة سرعان ما حلّت محلّها ألفة وأنس؛ وقالت وهي تمدّ إليّ يدا بيضاء ناعمة: أهلا بك، تشرّفنا.

ثمّ أضافت بعد برهة:

وأنا فيفيان: أرجو أن نصبح أصدقاء!

واستأذنت، ودخلت بعد ذلك غرفة حدست من الرّوائح الدّكيّة الّتي كانت تنبعث منها أنّها المطبخ... وقادني «رتشارد» إلى صالة كبيرة نسبيا، أرضيّتها مفروشة بموكيت حمراء اللّون، تمتدّ على طول حيطانها من ثلاثة جوانب أرائك وثيرة ذات مساند، وعلى الجانب الآخر نافذة كبيرة،

زجاجيّة، تطلّ من ورائها حديقة خلفيّة؛ وكان في أحد الأركان دولاّب، متوسّط الحجم، عليه جهاز تسجيل ضخّم، مغطّى بمنديل حريريّ شفاف، وإلى جانب الدولاّب نضد صغير عليه مجموعة من الأشرطة، وإنجيل قديم، من الحجم الكبير... اقترب «رتشارد» من النضد، وأخذ شريطا وضعه في المسجّل، وما عتم أن انبعثت أصوات موسيقى خافتة، كانت تتخلّلها بين الحين والآخر، أصداء التّهليل؛ ولم أعجب كثيرا حين قال لي إنّ عائلته، باستثناء أخيه «صموئيل» الذي يدرس الفيزياء بإحدى كليات العلوم في لندن، ولا يزورهم إلاّ أيام العطل السنويّة، لا تحبّذ غير هذا النّوع من الأغاني، التي تبشّر بقرب ملكوت الرّب، ومعجزات المسيح، وآلامه، وتمقت ما عداها، حتّى أنّه قال لي بنبرة يغلفها القرف والاشمئزاز:

. إنّ موسيقى العصر الصّاخبة هي نتاج حالة الضّياع التي يعاني منها الكثيرون.

وقال مغيرا لهجته، كأنّما يريد الوصول إلى استنتاج حاسم:
. الحلّ هو الإيمان؛ أن نعود لنشعر بالطمأنينة داخل المملكة.
وبينما نحن كذلك، إذ أطلّ «غراهام» برأسه من الباب، وقال بعد التّحيّة:

.لنتعدّ أولا، ولنؤجّل الحديث فيما بعد.
وسبقنا إلى قاعة الأكل التي لا يفصلها عن الصّالة إلاّ مجاز ضيق؛ وهناك رأيت رجلا طاعنا في السّن، لم أره من قبل، يرتدي معطفًا ثقيلا يصل حتّى ركبتيه، فوق سترة من نفس اللّون، وهو يجلس هادئا على مقعده حذو الطاولة المستطيلة التي تتوسّط صدر الغرفة، وقد حدست من خلال ملامحه التي تقرب إلى حدّ كبير من ملامح «غراهام» أنّه ربّما يكون والده، وأكّد حدسي ما قاله «غراهام» نفسه، وهو يقدّمه باحترام متناه:
.الأب جورج، والدي.

وجلسـت «فيفيان» إلى جانب الرّجل العجوز، وجلس «رتشارد» مقابلهما من النّاحية الأخرى، وذهبت لأجلـس بجانبه، إلّا أنّ «غراهام» أمسك بذراعي في رفق، وقادني إلى كرسيّ في رأس الطّاولـة، وقال باقتضاب:

اجلس هنا، ستكون أنت ضيف الشّرف اليوم.

وبعد أن اطمأنّ إلى إذعاني، جلس بدوره، وضّم يديه إلى بعضهما ورفعهما حتّى لامسا ذقنه، وكذلك فعل الآخرون، وتردّدت أنا لحظة، ثمّ فعلت مثلهم، وراح «غراهام» يرّدّد صلاة خافتة دامت لحظات... كان شروعه في الأكل إيذاناً لنا ببـداء الطّعام؛ وقد أكلت أنا، في تلك السّاعة، بعد الظّهر، كما لم أكل منذ حللنا بتلك المدينة، يدفعني فقري وقلة حيلتي بالدرجة الأولى، وخشيتي أن ينفد المبلغ المودع بتلك البطاقة الّتي سلّمتها إلّاي إدارة المعهد، قبل انقضاء الشّهرين وعشرة أيّام. وكنت أكل دون حاجة إلى تشجيع، إلّا أنّ «غراهام» كان يحثّني، على كلّ حال، كلّما توقّفت برهة، بين اللّقمة واللّقمة، وهو يحسب توقفي ذاك خجلاً منّي وتمنّعاً... وحينما انتهى الغداء، قامت «فيفيان»، وجاءت بمرطبان كبير به مرطّبات، وشرعت تأخذ منه وتضع في صحون صغيرة أماننا. وحين دنت منّي، قالت كالهامسة، وهي تروم إخراحي من الصّمت الّذي ألمّ بي طيلة مدّة الغداء:

أنت لم تأكل كثيراً، لا بدّ أنّ طبخي لم يعجبك.

شعرت بخجل يهزّ كياني، وقلت متلعثماً، وأنا أنظر إليها كمتمّهم قبض عليه متلبّساً:

بالعكس، الطّعام كان لذيذاً جدّاً.

وترتّبت قليلاً، ثمّ قلت بصوت عال ليسمعني الجميع، وأنا أبتسم ابتسامة مأكرة:

وددت لو أنّ لي بطناً أخرى، فأكل جميع ما على الطّاولـة.

فرقعت القاعة فجأة بالضّحك؛ وكان أكثرهم ضحكا الأب «جورج»

الَّذِي التفت إليّ وقال مداعبا:

. أنت تحسن النكتة حقًا، مثل باقي قومك.

(عرفت فيما بعد أنّ «غراهام» الذي جاء به في السيّارة أخبره عني،
وقال له إنّني عربيّ أت من ذلك البلد على ضفاف المتوسط.)
سألته مندهشاً:

. وكيف عرفت ذلك؟ وهل التقيت يوماً ما ببعض قومي؟

فأجاب بلهجة فيها اعتزاز:

. كنت جندياً في جيش المارشال مونتغمري حين غزا العلمين وطرده
الألمان سنة ١٩٤٢، وقد أتاحت لي فرصة وجودي بمصر التعرّف إلى
العديد من المصريّين، وهم .والحقّ يقال .طيّبون، أهل ظرف ونكتة...
وقاطعته بأدب قائلاً:

.ولكّني لست مصريّاً.

فقال يسألني بثقة وتأکید:

.ألسنت عربيّاً؟

قلت:

.بلى.

فقال:

.هذا هو الأهمّ.

ولم أشأ أن أخوض معه أكثر في تفاصيل مملة، فاكثفت بالصمت
متظاهراً بالأكل، إلى أن اقترح «غراهام» الذهاب إلى الصّالة من جديد؛
وقد تحوّل معنا «رتشارد» إلى هناك، وقال «جورج» إنّهُ سيتمشّى قليلاً
خارج البيت، بينما انصرفت «فيفيان» لتحضير القهوة... وفي الصّالة،
جلس كلّ منّا على أريكة، ما عدا «رتشارد» الذي سرعان ما خرج، ولبث
مدّة ثمّ عاد مرّة أخرى وهو يحمل شيئاً في يده؛ وقد فضّ مغلفاً أبيض،
وناولني قطعة ممّا فيه... أدركت للتوّ أنّها شكولا؛ ثمّ دنا من والده،
وناوله قطعة أخرى، ثمّ جلس على أريكة مقابلي.

لَمَّا اسْتَقَرَّبْنَا الْمَقَامَ، قَالَ «غَرَاهَام» مُوجِّهًا الْخُطَابَ إِلَيَّ:
. اسْمِعْ، يَا وَلَدِي، أحيانًا نَفَكَّرُ فِي أَشْيَاءَ، وَنَعْتَقِدُ أَنَّ تَحْقِيقَهَا لَا
يَسْتَدْعِي كَبِيرَ عَنَاءٍ، وَنَبْذِلُ الْجُهْدَ إِثْرَ الْجُهْدِ مِنْ أَجْلِهَا؛ لَكِنَّا نَكْتَشِفُ
فِيمَا بَعْدَ أَنَّ تَحْقِيقَهَا أَصْعَبُ مِمَّا نَتَصَوَّرُ فِي الْوَاقِعِ... وَأَنَا أَقُولُ هَذَا لَا
لَأَسَدِّ الطَّرِيقَ فِي وَجْهِكَ، وَلَكِنْ لِأَوْضَحَ لَكَ الْمَسَائِلَ. إِنَّهُ لَجَمِيلٌ حَقًّا أَنْ
تَفَكَّرَ فِي الْبَقَاءِ مَعَنَا، فَهَذَا شَيْءٌ يَسْعِدُنَا، غَيْرَ أَنَّهُ يَوْسُفُنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ
إِنَّ الْكَنِيسَةَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْتَ فِي أَمْرٍ خَطِيرٍ كَهَذَا؛ فَإِذَا كُنْتَ جَادًّا فِي
الْإِقَامَةِ بَيْنَنَا، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَبْذِلَ جُهْدًا مُضَاعَفًا، إِذْ الْأَمْرُ بِيَدِكَ وَهُوَ
يَتَوَقَّفُ عَلَيْكَ، وَأَنَا، مِنْ جِهَتِي، أَعِدُّكَ بِالْمُحَاوَلَةِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ.
وَلَبِثُ صَامِتًا بَرَهَةً، وَقَدْ انْعَقَدَ مَا بَيْنَ حَاجِبِيهِ دَلَالَةُ التَّفَكُّيرِ،
وَسَأَلَنِي بِإِشْفَاقٍ:

هَلْ فَهَمْتُ؟

قُلْتُ بِمَرَارَةٍ حَبَسَتْهَا دَاخِلِي، وَأَنَا أَجْهَدُ أَنْ لَا تَظْهَرَ أَثَارُهَا عَلَى وَجْهِهِ:
. أَجَلْ، فَهَمْتُ.

وَمَا كَدْتُ أَنْتَهِيَ مِنَ التَّلَقُّظِ بِتَيْنِكَ الْكَلِمَتَيْنِ الشَّاقَتَيْنِ الْمُزْعَجَتَيْنِ
حَتَّى سَمِعْتُ وَقَعَ خُطًى مُتَأَنِّيةً أَمَامَ الْبَابِ. كَانَتْ «فِيْفَيَان»، وَهِيَ تَحْمَلُ
بِيَدِهَا طَبَقًا عَلَيْهِ فَنَاجِينَ وَإِبْرِيْقَ مُزَخْرَفٍ مِنَ الْبُورْسَلِينَ، وَقَالَتْ، وَهِيَ
تَتَقَدَّمُ إِلَى الدَّخْلِ، بِأَسْلُوبٍ مُسْرَحِيٍّ مَرَحٍ:
. الْقَهْوَةُ، أَيْهَا السَّادَةُ.

تَوَلَّتْ هِيَ سَكَبَ الْقَهْوَةَ فِي الْفَنَاجِينَ، وَقَدَّمَتْ لِكُلِّ مَنَّا فَنَاجَانَهُ، ثُمَّ
جَاءَتْ فَجَلَسَتْ بَجَانِبِي، وَمَكَّثَتْ مَمْسُكَةً بِفَنَاجَانِهَا بِكِلْتَا يَدَيْهَا، وَهِيَ
حَيْرَى، عَلَى مَا يَبْدُو، لَا تَدْرِي أَتَرَشَّفُ مِنْهُ، أَمْ تَتَحَدَّثُ مَعِي، إِذْ لَا بَدَّ
وَأَنْ سَعِمَهَا إِلَيَّ وَمَخَاطَرَتُهَا بِالْجُلُوسِ إِلَى جَانِبِي كَانَا لَغَايَةَ الْاسْتِفْسَارِ
وَالسَّوَالِ حَتَّى يَحْصَلَ الْقَرَبُ، وَتَتَمَّنَّ الصَّلَةَ، وَلَكِنْ لَعَلَّ مَا مَنَعَهَا مِنَ
الْكَلَامِ اسْتِغْرَاقِي الْمُبَاغِتِ وَمَسْحَةُ الْحُزَنِ الَّتِي رُبَّمَا كَانَتْ تَمَلُّأُ وَجْهِي...
لَمْ تَدَمْ حَيْرَتَهَا طَوِيلًا، فَقَدْ ضَغَطَتْ بِيَدِهَا يَدِي، فَجَعَلَنِي ذَلِكَ أَسْتَفِيقَ

من شرودي، واقترحت عليّ، وهي تنهض، أن تأتيني بأطلس البلدان لأرهمها موقع بلدي على الخريطة. وخلال مساحة الصّمت التي خلفها ذهابها، توجه «غراهام» نحوي برثاء، وقال بعض الكلمات مواسيا، ونصح بالصّبر والتّضحية؛ وفي أثناء ذلك، انقطعت أصوات الموسيقى، فقام إلى الدّولاب واستبدل الشّريط بآخر، ثمّ استعاد مكانه على الأريكة، وقال هذه المرّة:

. ستهدئ الموسيقى أعصابك، فحاول أن تنسى إذن، ولو لبعض الوقت.

وعادت «فيفيان» إلى القاعة، ونشرت أمامي كتابا ضخما، تملأ صفحاته صور وخرائط ملوّنة، فتزحزحت في مكاني، وانحنيت قليلا، ثمّ أشرت بإصبعي إلى نقطة صغيرة جدّا، لا تكاد تبين، على خارطة العالم؛ وقلت بلهجة فارس مهزوم على خشبة المسرح:

. هذا هو البلد الذي جنّت منه.

فأكّبت هي بدورها على الخارطة. وقالت وهي تدقّق النّظر في ذلك المكان الذي أشرت إليه بإصبعي:

. إنّ بلدك صغير جدّا... وأنا لم أسمع به من قبل. يقولون إنّ معظم الأرض بتلك البلاد البعيدة صحراء قاحلة، لا حياة بها، والنّاس هناك مازلوا يسكنون في خيام من الشّععر؛ فهل هذا صحيح؟

وفتحت فمي لأتكلّم، ولكنّ «غراهام» كان أسرع منّي إذ قال:

. وما العيب في ذلك؟ أليس يسوع الرّب قد ولد بتلك البلاد أيضا، ونشأ بها وترعرع؟ ثمّ ألم تبدأ الرّسالة من هناك؟

وقصد إلى النّضد بجانب الدّولاب، وأخذ ذلك الإنجيل القديم، وما أن استقرّ به المقام حتّى قال بخشوع:

. إنّها مباركة تلك الأرض: أرض القديسين والأنبياء!!

وقلت مصحّحا، وقد قرّرت أن أهزم الحزن بداخلي:

. لقد كان ذلك منذ ما يقرب من نصف قرن، كانت البلاد خلاله كما

تقولين، والناس حفاة، جفاة، عراة، يعيشون على ما تنتجه الأرض حين تجود السماء بطلّها، ويتحمّلون أعباء السّفر إلى أماكن قصيّة، على ظهور الجمال ليقايضوا سلّهم بسلع أخرى يحتاجونها. أمّا اليوم، فقد تبدّل كلّ شيء، وجاءت الحضارة لتمحو آثار البداوة؛ حتّى أنّك لو زرت البلد الّذي جنت منه لما ميّزته عن أيّ بلد في أوربّا.

سألني «غراهام» مازحا:

فلماذا تريد أن تفارقه فراق مودّع إذن؟

فقلت بصدق:

لأتي أريد ذلك.

وأضفت مغيرا مجرى الحديث:

لقد تأخّرت كثيرا، وأريد أن أعود إلى المنزل قبل أن يخيم الظلام.

تدخّل «رتشارد» بحماس:

. مازال الوقت مبكرا؛ ستبقى معنا حتّى المساء، وسنذهب جميعا:

والدي، والدي، أنا وأنت، إلى اجتماع أهل الملة. حيث يلتقي هناك أناس من كلّ حذب وصوب، من الشّمال، من لندن، من بلاد الغال، ومن المدن القريبة من «بليموث». إنّها مناسبة ليتخفّف الإنسان من ذنوبه بالاعتراف. ولعلّك تجد هناك ما يمكنه أن يسري عنك. وحين ننتهي سأوصلك، بنفسني، بالسّيارة إلى حيث تريد.

سألت:

وآين سيقام الاجتماع؟

قال:

. ليس هناك مكان محدّد. ففي هذا المساء مثلا سنلتقي بمعهد في

وسط المدينة.

كان «غراهام» مواربا في سكونه. خلال مدّة الحديث بيننا، وهو يضع عويناته على عينيه، منشغلا بقراءة الإنجيل بين يديه. ويبدو من خلال سحنه الّتي كانت تغلفها سحابة شفيفة من الاهتمام أنّه كان

يقرأ شيئاً بالغ الأهمية. وكان، من حين لآخر، يتوقّف لبعض الوقت ليخطّ بقلم أمامه بعض السّطور على قصاصات صغيرة من الورق. قال، وهو يستند بجذعه إلى مسند الأريكة، ويضع الكتاب على ركبتيه: إنك تذكّرني بإبراهيم النّبي...

قاطعته، وأنا أسأله باستغراب:

وكيف ذلك؟ ليس لمثلي أن يكون ندّاً للأنبياء، فيشبه بهم!

قال:

«أعني أنّ حنينك إلى الرّحيل، وسعيك إلى الإقامة بيننا يذكّرني بسفر إبراهيم وتنقله بين ممالك الأرض؛ ولعلّ الفرق الوحيد بينكما أنّك تقبل على هذا الرّحيل بمحض اختيارك، بينما سبقت لإبراهيم دعوة من الرّبّ بكلمة منه، فهو موحى إليه.

وفتح الكتاب على صفحة معيّنة، وبدأ يقرأ:

«أصبح تارخ أب إبراهيم، ناحور وهاران. وأصبح هاران والد لوط. وتوفّي هاران في أور الكلدانيّين بأرض مولده، ووالده تارخ ما يزال حيّاً. وتزوّج إبراهيم وناحور كلاهما. كان اسم زوجة إبراهيم سارّة، واسم زوجة ناحور ملكاه، أخت هاران، والد ملكاه واسكاه. وقد كانت سارّة عاقراً، لا تنجب أطفالاً.

اصطحب تارخ ابنه إبراهيم وحفيده لوط ابن هاران وكنته سارّة، زوجة ابنه إبراهيم، وغادر جميعهم أور الكلدانيّين ليذهبوا إلى كنعان. ولكنّهم عندما وصلوا إلى هاران أقاموا هناك.

عاش تارخ خمسة ومائتي سنة، وتوفّي بهاران.

سفر التّكوين: الإصحاح ١١، الآيات ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢

نداء إبراهيم

كان الرّبّ قد قال لإبراهيم: «فارق بلدك، وأهلك، وبيت أبيك، واذهب إلى الأرض الّتي سأريكمها.

«سأجعلك في أمة عظيمة

وسأباركك،

سأرفع ذكرك،

وستكون مباركا،

سأبارك من يباركونك،

وكلّ من يلعنك ستحلّ عليه لعنتي؛

وكلّ من على الأرض

سيباركون ببركتك.»

وغادر إبراهيم كما أمره الربّ؛ وذهب معه لوط. كان لإبراهيم من العمر خمس وسبعون سنة حين غادر هاران، وأخذ معه زوجته سارة وابن أخيه لوط وكلّ ممتلكاته التي حصّلها والقوم الذين أحرزهم بهاران، وغادروا إلى أرض كنعان، وهناك وصلوا.
سفر التكوين، الإصحاح ١٢، الآيات ٥.٤.٣.٢.١

. إبراهيم في مصر

وحلّت مجاعة بالأرض، فنزل إبراهيم مصر ليقيم هناك إلى حين لأنّ المجاعة كانت قاسية. وعندما اقترب من الدخول إلى مصر، قال لزوجته سارة: «إني أعلم أيّ امرأة جميلة أنت. وحينما يراك المصريون، سيقولون: «هذه زوجته.» حينئذ، سيقتلوني وحيّة يدعونك. قولي إنك أختي حتّى أعامل بإحسان من أجلك، وتكوني سببا في نجاتي.»

وحينما قدم إبراهيم مصر، رأى المصريون أنّ سارة امرأة جميلة جدّا؛ ولمّا رأها عمّال فرعون، زيّنوا جمالها له، وإلى قصره حملت. وعامل فرعون إبراهيم معاملة حسنة لأجلها، واكتسب إبراهيم مواشي وأنعاما، وأحمرّة ذكورا وإناثا، وخبثا من النساء والرجال، وغيرها.

ولكنّ الربّ سلّط أسقاما شديدة على فرعون وأهل بيته بسبب سارة زوجة إبراهيم، وقال له: «ماذا فعلت لي؟» «لماذا لم تقل لي إنّها

زوجك؟ لماذا قلت إنها أختي، فجعلتني أصطفيها وأتخذها زوجا لي؟ هي
ذي الآن زوجك. خذها وانصرف!

وبعد ذلك، أعطى فرعون أوامر بخصوص إبراهيم إلى رجاله،
فقادوه إلى الطريق، مع زوجته وكل شيء يملكه...

وتلبّث «غراهام»، بعد ذلك، حيناً وهو صامت، يقلّب صفحات
الكتاب، بتؤدة، وقال لي بعد لأي، ولا أدري حقيقة الدافع وراء كلامه:

. الصّبر... عليك بالصّبر... علينا جميعاً بالصّبر. إنّي دائماً أقول
إنّ الصّبر هو المنفذ إلى الخلاص؛ وهناك أيضاً مثل يقول بأنّ الصّبر
مفتاح الفرج؛ والله يبتلينا ليدرك مدى صبرنا، ليرى إلى أيّ حدّ يمكن
أن نتحمّل بلاء بالصّبر. وقد ابتلي الأنبياء، وابتلي القديسون، فنالوا
ملكوت الرّب... يسوع، مثلاً، ابتلي بما لم يبتل به أحد من قبل، فتحمّل
الأذى والتّعذيب، واحتسب نفسه؛ وقد بذل في النّهاية نفسه فصليبه،
ليتحمّل عنا أخطاءنا، ويكون موته تكفيراً لذنوبنا؛ ولكنّه سيبعث.
أجل، سيبعث في زمان غير زماننا ومكان هو غير المكان القنرالذي نعيش
فيه. وأيّوب من قبل يسوع رضي بالبلاء في طاعة الرّب، فخرس كلّ شيء،
وانتهى به الأمر حتّى كانت الدّيدان ترعى في جسده. ويوسف، وداود؛
وإبراهيم، ألم تر إليه وقد حرم نعمة الأولاد حتّى بلغ من العمر عتياً،
ولكنّ الرّب لم يتخلّ عنه، وأثاب صبره خيراً.

كنت طوال حديثه محتاراً، لا أعرف حقيقة ما يرمي إليه؛ ولكنّي،
مع ذلك، كنت أجاربه مجاملة، بهزّات صغيرة من رأسي دلالة الموافقة،
أو بإمالة جذعي إلى الأمام، والاتّكاء بمرفقيّ على ذراعي الأريكة إشارة
أنّي منتبه، أستمع إليه. إلّا أنّه، رغم كلّ ذلك، ربّما لم تنطل عليه تلك
المظاهر الخادعة، فاكشف شيئاً مترتباً بين أساري يري يقول له إنّي لم
أفهم حرفاً واحداً ممّا كان يقول؛ لذلك اعتدل في جلسته قليلاً، وهو
ينظر إليّ بتحديد، وقال برقة:

. إنّي لا أريدك أن تكون حزينا... فإذا لم تتوفّق في البقاء، فليس

ذلك معناه نهاية العالم. هذا، وإنك مازلت لم تخسر شيئا، وسيظلّ أمامك أن تحاول، وأنا سأعينك، سأتصل بأصدقائك، وأحدثهم عنك، فمن يدري، لعلنا نهتدي إلى حلّ مناسب. ولا تنس دائما أنّ الخيرة فيما اختاره الله. وأنّ المستقبل ما يزال يلوح أمامك.

وقرب الكتاب من عينيه ثانية، وقال قبل أن يشرع في القراءة من جديد:

. سيكون مطمئنا، وحافزا لنا على الصبر أن نتعظ بمصائب غيرنا؛ فالنور الباهر الذي يظهر فجأة كلمع البرق، في ناحية ما، لا ندري متى يضيء أرواحنا الحائرة المضطربة. لعله يزيغ الآن؟! أو غدا؟! أو بعد غدا؟! أوفي الأسبوع القادم؟! ثم ضاحكا:

. أو قبل أن ترحل؟! وبمرح أيضا، واصل قائلا:

. ولنتابع الآن رحلة إبراهيم النبيّ عبر سفر الخروج، حتّى ندرك ضالّتنا أمام عظمتهم، هم الأنبياء الموحى إليهم من لدن الربّ القدّوس.

. الزائرون الثلاثة .

تجلّى الربّ لإبراهيم قرب أشجار «قط» العظيمة بينما كان جالسا عند مدخل خيمته في قيظ النهار. ونظر إبراهيم فرأى رجالا ثلاثة يقفون على مقربة. ولما رآهم، هبّ من مدخل خيمته للقائهم، وسجد على الأرض.

قال: «إنّي أنست بعينيك عطفًا، ربّ، فلا تغفل خادمك. دعوني أجلب قليلا من الماء، وبعد ذلك يمكنكم، جميعكم، أن تغسلوا أقدامكم، وتستريحوا تحت هذه الشجرة. دعوني آتيكم بشيء تأكلونه، حتّى تتجدّد قواكم، وبعد ذلك اذهبوا في حال سبيلكم. الآن وقد أتيتم إلى خادمكم.»

«حسن جدّا»، أجابوه، «افعل كما قلت.»

فهرع إبراهيم نحو الخيمة إلى سارة. «أسرعي»، قال، «خذي اثنين وعشرين لترا من طيب الدقيق واعجنيه واخبزي بعض الخبز.»
وذهب بعد ذلك إلى القطيع فانتقى خيارا، عجلا سمينا وسلّمه إلى الخادم الذي مرع ليحضّره. ثم أخذ إبراهيم بعض خثارة اللبن والحليب والعجل الذي كان تمّ إنضاجه، ووضع كلّ شيء أمامهم. وبينما كانوا يأكلون، كان هو يقف بجانبهم تحت شجرة.

قالوا يسألونه:

أين زوجتك سارة؟

فقال:

هناك، في الخيمة.

ثمّ قال الرّب:

. سأعود إليك بالتّأكيد في مثل هذا الوقت من العام القادم، وستنجب زوجتك سارة ولدا.

وكانت سارة تستمع إليه عند مدخل الخيمة، التي كانت خلفه.
وكان إبراهيم وسارة عجوزين في ذلك الحين، وقد تقدّما في السّن، وكانت سارة قد تجاوزت السّن التي تستطيع فيها الإنجاب. لذلك ضحكت في نفسها وهي تفكّر: «بعد أن فنيت وأصبح سيّدي شيخا، هل أظفر الآن بهذه الفرحة؟»

ثمّ قال الرّب لإبراهيم:

لماذا ضحكت سارة وقالت: «هل أحصل حقّا على طفل، وأنا الآن عجوز؟» هل هناك ما يصعب جدّا على الرّب؟ سأعود إليك في الأجل المضروب العام القادم وستنجب سارة ولدا.

خائفة كانت سارة، لذلك كذبت وهي تقول:

. إنّي لم أضحك.

ولكنّه قال:

. بلى، لقد ضحكت.

. مولد إسحاق

كان الرَّبُّ رؤُوفًا بِسَارَّةَ كما كان قال، وفعل الرَّبُّ من أجلها ما كان وعد. وأصبحت سَارَّةَ حَبْلِي وأنجبت ولدا لإبراهيم على كبر، في نفس الوقت الَّذي كان وعد به الرَّبُّ. ومنح إبراهيم اسم إسحاق للولد الَّذي أنجبته سَارَّةَ. وعندما بلغ ابنه إسحاق من العمر ثمانية أعوام، ختنه إبراهيم، كما أمره الرَّبُّ. وكان عمر إبراهيم مائة عام حين ولد له إسحاق.

. ابتلاء إبراهيم

وبعد مدَّة ابتلى الرَّبُّ إبراهيم، فقال له: «إبراهيم!» فأجابه: «ها أنذا.»

ثم قال الرَّبُّ:

. خذ ابنك، ابنك الوحيد، إسحاق، الَّذي تحبّه، واذهب إلى المروة، واذبحه هناك كقربان محروق على أحد الجبال الّتي سأخبرك عنها. وفي الصّباح الباكر نهض إبراهيم وأسرج حماره. وأخذ معه اثنين من خدمه وابنه إسحاق. وحينما قطع بما فيه الكفاية من الخشب للقربان المحروق، ذهب إلى المكان الَّذي دلّه عليه الرَّبُّ. وفي اليوم الثالث نظر إبراهيم فلاح له المكان. فقال لخدمه: «امكثوا هنا مع الحمار ريثما أذهب أنا والغلام إلى هناك، لنصلي ونعود إليكم بعد ذلك.»

وأخذ إبراهيم الحطب لزوم القربان المحروق، ووضع على ابنه إسحاق، وحمل بنفسه النّار والسّكين. وبينما كان كلاهما يمشيان معا، تكلم إسحاق وقال لأبيه إبراهيم: «أبت.» فردّ عليه إبراهيم: «نعم، يا بني.» فقال إسحاق: «هذه النّار والحطب، ولكن أين الكبش للقربان المحروق؟»

أجاب إبراهيم:

. سيمدّنا الرَّبُّ نفسه بالكبش للقربان المحروق، يا بني.» ومشى كلاهما معا.

وعندما بلغا المكان الَّذي أخبره عنه الرَّبُّ، بنى إبراهيم مذبحا هناك

وهيّا الحطب عليه. وقيد ابنه إسحاق ومدّده على المذبح، فوق الحطب.
ثمّ مدّ يديه فأخذ السكين ليذبح ابنه. ولكنّ ملاك الرّب ناداه من
السّماء: «إبراهيم! إبراهيم!»

فأجاب:

ها أنذا.

«لا تمدنّ يدا إلى الولد»، قال. «لا تفعل له شيئا. الآن، علمت أنّك
تخاف الرّب، لأنّك لم تمنع عنيّ ابنك، ابنك الوحيد.»
ونظر إبراهيم، وهناك في أجمة رأى كبشا ممسوكا من قرنيه. فذهب
وأخذ الكبش فضحّى به كقربان محروق بدلا من ابنه. وقد سمّى إبراهيم
ذلك المكان «سيمد الرّب».

.....

لم أشعر إلّا و«غراهام» يقول بصوت خفيض، كأنّه النّجوى، وهو
يغلق الكتاب ويضعه على ركبتيه:
كانت تلك عاقبة الصّبر!!

ووقف، فبدا كشيخ يتناول بعنقه إلى السّطح، ومشى نحو النّضد
فوضع فوقه الكتاب. وضغط على زرّ المسجّل فأطفاه... لم أحسّ بمرور
الوقت إلّا في تلك اللّحظة، وقد اكتسبت الصّالة لونا قائما، أضفى
على كلّ ما فيها مسحة باهتة تعطي انطبعا مريرا بالوحدة والحزن
والضّياع. من مكاني، هناك، على الأريكة، وأنا أجلس شبه مستغرق،
مقابل النّافذة، كنت أراقب جيوش الظّلام تداهم المكان عبر زجاجها
السّميك، وتحجب الرّؤية، فينهار أمامها الإحساس بالألفة الذي كان
سائدا حتّى وقت قريب، وشعور دافئ بالانتماء أحسست به مدوّيا في
ذلك اليوم، وقد افتقدته أكثر من عشرين عاما. قلت في نفسي، بحزن
يمارجه أسف: «في هذا المساء، كلّ شيء يقترب من النّهاية. والشّيء
الوحيد الذي يظلّ ثابتا كطود هي هذه الظّلمة البكماء، التي لا أمل بين
طياتها لحياة أخرى، أو بعث جديد.»
لقد حان وقت الانصراف إذن!

«إن أعصابي منهارة هذه اللَّيلة. نعم، منهارة. ابق معي.

كَلِّمْنِي. لماذا لا تتكلَّم أبدا؟ تكَلِّم.

فيم تفكّر؟ أيّ تفكير؟ ماذا؟

لا أعرف أبدا فيما تفكّر. فكّر.

وحملتنا السَّيَّارة إلى مكان، وسط المدينة، لم أعد أتبيّن ملامحه الآن جيّدا، لكثافة الظَّلْمَة من حوله، ما عدا ذبالات نور خافتة كانت ترسلها بعض الفوانيس المثبتة بقمّة أعمدة كهربيّة متناثرة هنا وهناك. وقال لي «رتشارد» حين ركن السَّيَّارة، ومشينا معا، جنبا إلى جنب، نتلمّس طريقنا إلى الأمام، إنّنا وصلنا إلى المعهد، وإنّنا صرنا على قيد خطوات منه؛ وما كاد يتمّ كلامه حتّى تراءت لنا على مقربة جحافل لا تحصى من السَّيَّارات، قريب بعضها من بعض، أمام مبني، لا أذكر، بعد أن كرّت الأيّام وعبرت السَّنون، سوى أنّه كان كبيرا جدّا، وضخما، وأنّ أصحاب تلك السَّيَّارات قد وفدوا بأعداد كبيرة، منهم النِّساء والرِّجال والشُّيوخ والعجائز والأطفال، من المدينة، ومن أماكن أخرى غيرها، وقد اجتمع كلّهم في قاعة رحبة فسيحة، لها باب ذو مصراعين، (وكان المصراعان مفتوحين على ما أذكر)، وامتدّت على طولها ثلاثة صفوف من الكراسي المتجاورة كان معظمها مشغولا... حينما جلسنا، قدم نحونا رجل كهل، ربّما في العقد الخامس من عمره، سلّم على «رتشارد» وسأله عن والده، وكان يومئذٍ يبطرف عينه كأنّما يستفسر منه عني. والحقيقة أنّي لم تعجبني نظراته تلك، وقرّ في نفسي حياله حقد واشمئزاز دون إرادة منّي. وليس مردّد ذلك إلى دمامة خلقته أو قبحه، إذ كان. والحقّ يقال. على جانب لا بأس به من وسامة رغم تقدّمه في السّن؛ ولكنّ إحساسا غامضا ظلّ طوال الوقت الذي مكث فيه معنا يهزّ أعماقي وينفّرني منه. جاء «غراهام» وحيدا، وقال إنّ «فيفيان» نامت مبكرا لأنّها تحسّ بإرهاق شديد، لذلك اضطرّ إلى تركها في البيت. ثمّ التفت إلى ذلك الرّجل، وقال بودّ ظاهر مشيرا إليّ: إنّي أتيتكم بضيف جديد.

هَبَ الرَّجُلُ نحوي، وأخذ يدي فضغطها، وهويضحك:
أهلاً بالضيف أولاً.

وأمال وجهه نحو «غراهام»، مكملاً جملته:
وأهلاً بك وبرتشارد ثانياً.

الآن، وقد مضى على ذلك اللقاء زمن بعيد، عشر سنوات تنقص بعض الشهور، لا أدري لماذا بدا لي سلوكه ذاك تصنعاً، رغم أنه كان في الحقيقة شديد التهذيب معي، حتّى أنّ عينيه لم تغفلاً عني لحظة واحدة، وكلّما التقت نظراتنا، هسّ لي كأنّه يقول: «إنّي حارسك الأمين هذه الليلة!» هل هو الكره الذي استشعرته حياله؟ وهل كنت أكرمه حقاً؟ لكن، لماذا أكرمه؟ لماذا؟!!!

اسمه «غريفثس»؛ وقد استنتجت، فيما بعد، من خلال حضوره المتواصل داخل القاعة، حيث كان هو من ألقى العظة، وكان يتكلّم بصوت مرتفع فيه سيطرة، ذكّرني بذلك القسّ وهو يلقي درس الصلّاة صباحاً بالكنيسة، كما كان يتحدّث مع كثيرين بتبسّط، دون كلفة، كما لو كان يعرفهم جميعاً، إنّه هو الآخر ربّما يكون قساً. أثناء وجوده بجانبنا، انطلق رأساً إلى الهدف، وقال يسأل بصراحة أزعجتني:

وهل صديقك مسيحيّ، غراهام؟

كنت إلى ذلك الحين لم أتخذ قراراً نهائياً بشأن هذه المسألة؛ وحتّى إقداми منذ اللحظة الأولى على هذه التجربة كان بدافع الرغبة في البقاء، كما أنّ الأمر كلّهُ لم يكن يعدو اقتراحاً من «تيم» الذي لم أكن أشكّ أنّه يفتح لي في الجنّة باباً، غير أنّه باب موصداً ودلفت إلى الخضمّ فتلقّفتي دوّامة القاع، وأنا لم أحزم أمري بعد، ولم أقرّر فيما إذا كنت سأقبّل فكرة أن أكون مسيحياً بسهولة.

ردّ «غراهام» بثقة، دون أن ينظر إليّ:

طبعاً إنّه مسيحيّ. لقد أصبح اليوم واحداً من أهل ملّتنا.

«هكذا إذن. لقد ظهر ما كان خافياً في غياهب صدره، وزال عن

وجهه القناع. وما حديثه الذي لفتني حباله طوال فترة ما بعد الظهيرة، عن الأنبياء والقديسين، والصبر والابتلاء، إلّا تمهيد للنطق بهذا التصريح الواضح الصريح، كأنّه حكم من على كرسيّ المحكمة المهيب ينطق بحكم نهائيّ، لا رادّ له ولا معقب، على متهم في قفص الاتهام. ولكن، هل هو الإحساس بأنّي خدعت؟ بأنّي أخذت على حين غرة؟ أكون مخطئاً إذا فكرت في ذلك! و«غراهام» لم يظلمني قبل كلّ شيء، وإنّما أحسن إليّ. وليس ذنبه أنّه استنتج أشياء؛ فأيّ شخص في مكانه شاهد ما كان شاهده ورأى ما كان رآه كان سيقول الشيء نفسه. فما معنى أن أذهب إلى الكنيسة؟ وما معنى أن أصرّح له بطلبي العون منها؟ وما معنى أن أكون معهم في هذا المكان؟ إنّه القبول، ولا يهم أن يكون صريحاً أو ضمنياً، بأنّي على استعداد أن أكون واحداً منهم، أن أكون بكلّ بساطة مسيحياً مثلهم... ابتلعت خيبتني إذن، وسكت؛ وقلت في نفسي، كمحاولة أخيرة لإيجاد تعزية ما لفشلي الذريع: «لا بدّ من مواصلة الشّوط إلى النهاية!!»

ما كاد ذلك الرّجل الذي يدعى «غريفثس» يسمع جواب «غراهام» حتّى احتملني بين ذراعيه، وقد كان من قبل متحفّظاً، لا يقدم إلّا بقدر، مع مراعاة مسافة ما، وقال لي، وأنا ما أزال تحت تأثير المفاجأة: إذن، وجب الاعتراف...

وقطع كلامه فجأة، وتطلّع نحوي، فطأطأت رأسي حتّى لا يلحظ الانفعال على وجهي، وقلت، وأنا أحاول أن أكون هادئاً: وأيّ اعتراف تعني؟ وهل ارتكبت خطأ ما، لأقرب جريرتي؟ فرنا إليّ متعجباً، وقال متضاحكاً:

وما العجب في ذلك. ليس هناك على الأرض من هو خلو من الذّنوب، وخلق الإنسان خطأ، لذلك فكلّنا نعتزف، لنظهر أنفسنا، ونستحقّ بذلك الدّخول إلى ملكوت السّماء.

ابتلعت خيبتني مرّة أخرى، وسكتّ إلى حين أتساءل عمّا يمكن أن أعترف به هذه اللّيلة أمام هؤلاء الذين يحيطون بي من كلّ جانب

كذئاب متحفزة للوثوب بي. ماذا لو تقدّمت، وواجهتهم، وقلت لهم هادئا إني لم أفكر يوما واحدا أن أكون مسيحيا، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد مهزلة. سيتوتّرون، بلا شك، وقد يسيئون إليّ، وأخسر بدوري صداقة «غراهام» و«رتشارد». لا، لا، لن أعترف؛ فهذا الاعتراف العليّ على الملأ ممّا يوتر أعصابي ويزرع القلق والخوف في قلبي.

قلت، وأنا ما زلت مطأطئا رأسي، لا أدري لمن أوجّه الكلام تحديدا: سوف لن أعترف الآن. سأمنح نفسي فرصة التفكير فيما يمكن أن أعترف به في المرة القادمة.

لكنّ «غريفثس» كان لي بالمرصاد، لا يروم إعتاقي، وكأنّه أخذ على عاتقه مهمّة محاصرتي حتّى اللحظة الّتي يراني فيها أسقط محبوسا في المصيدة:

ولم لا تعترف الآن؟ إنّ الوقت مناسب، وخير البرّ عاجله، كما يقال. كان هولجوجا، وكنت أنا حرونا، فقلت بثبات: ليس الآن!!

لا ريب أنّ لهجتي كانت قاطعة؛ فقد رأيت التّجهم يطغى على وجهه، و ينعقد ما بين حاجبيه دلالة الغضب، ويضطرب جسمه النّاحل الطّويل بهزّات سريعة كاوية. وقد تباعد حاجباه، وقاما أهلة فوق عينيه اللّتين بدأتا تضيقان بتقلّص، فبدا للحظة خاطفة كأنّه شيطان رجيم، سيقرب كلّ شيء رأسا على عقب. وقد تجاهلني تماما؛ وفكّرت بيني وبين نفسي أنّه لو طالّت يده شعلة من نار لقتذفها في وجهي دون تردّد؛ ومدّ يده أخيرا إلى «غراهام»، وودّعه، واتّجه نحو مجموعة أخرى في آخر القاعة من ناحية اليسار.

مضى وقت قصير، قصد جميع الحاضرين خلاله صفوف الكراسي المتجمّعة في تناسق وسط القاعة، وأخذ كلّ منهم. بمن فيهم نحن الثلاثة، أنا و«غراهام» و«رتشارد». كتابا صغيرا من على الكرسيّ الّذي قصده، ورحنا جميعنا نردّد مع «غريفثس» الّذي ترك أصدقاءه وتصدّر القاعة بعض المزامير بصوت واحد كانت تتردّد أصداؤه متجاوبة في الأرجاء، ثمّ

تتلاشى رويدا رويدا عبر مصاريع الأبواب المفتوحة... وتكلم «غريفش»، بعد ذلك، عن الأخوة والمحبة، وأورد أمثلة كثيرة من الإنجيل، وقال في نهاية موعظته إنه لا بد من إيمان جديد، يتطهر به المؤمن، ويخلد به في الملكوت.

وأشار إلى رجل كان يجلس في الصفّ الأمامي، فجاء وأخذ مكانه. كان ذلك الرجل ربعة، غزير الشعر، ناعمه، له شاربان رقيقان؛ وحينما فتح فمه ليتكلم، خرج نبره غريبا ملغزا، حتّى «غراهام» الذي كان يجلس بجانبه، اعترف بذلك، وقال حين أنهى الرجل اعترافه إنه وجد صعوبة في متابعة حديثه. أما أنا، فأرهفت سمعي إلى درجة أنه لو دبت نملة في الظلام لسمعت وقع خطواتها، وقد تمكنت بعد جهد جهيد من الإلمام بتفاصيل حياته من خلال ما رواه، إذ قال إنّ اسمه «لمبرت ولنغتون»، نشأ في قرية صغيرة جنوبيّ بلاد الغال لأبوين فقيرين، وقد اضطرته الظروف القاسية، وحالة الفقر التي تعاني منها عائلته الكبيرة إلى الفرار إلى لندن دون إعلام والديه، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره، مع رجل كان وعده بمساعدته والحصول له على عمل، يستطيع به تدبير أموره. وفي لندن، اكتشف أنّ ذلك الرجل كان يكذب عليه، إذ لم يكن في الحقيقة إلّا مروج مخدرات، يعمل على أوسع نطاق، ضمن عصابة لها علاقات ممتدة داخل المملكة وخارجها؛ وقد تورط معه، وانتهى به المطاف إلى الإدمان، وضبطته الشرطة في أحد الأماكن المشبوهة صحبة مجموعة أخرى من المدمنين، فعرض على النيابة، وحكم عليه بعشرة أعوام من الأشغال الشاقة دون مراعاة التخفيف لصغر سنّه.

صمت عند هذا الحدّ من حديثه، حين لم يعد حلقه المثقل بالدموع وصوته المتفرق يسعفانه بالكلام. وبقي لحظات ينظر إلى الحاضرين في سهوم، وقد سيطر عليهم هم أيضا صمت أخرس، كصمت القبور. وواصل قائلا حينما زايله انفعاله:

. وفي إحدى الليالي، بينما كنت صاحيا، وقد نام كلّ السجّناء،

رأيت نورا ينبع من كوة السّجن، ويقترب منّي رويدا رويدا، ففزعت، وكدت أموت فرقا، إلا أنّي سمعت صوتا مطمئنا يقول لي: «لا تخف فأنا يسوع!» ورأيت، أثناء ذلك، الثّور وقد استوى بشرا سويا، كان هو يسوعا. تقدّم منّي حين داناني ووضع كفّه المباركة على رأسي فمرّرها عليه وهو يتمتم: «لا تلبث أن تخرج من هذا السّجن؛ فتب عن خطاياك، وتوخّ الطّريق الّتي تؤدّي إليّ، وستجدني في انتظارك.» ولم يزد كلمة على ذلك، واختفى فجأة كما ظهر فجأة. ولم تمض سوى أيّام قلائل، حتّى تقرر الإفراج عنيّ قبل انتهاء المدّة لحسن سيرتي طوال الأعوام الّتي قضيتها في السّجن.

وختم قوله قائلا بفخرو واعتزاز:

ومنذ ذلك الوقت الّذي زارني فيه يسوع أمّنت وصدّقت؛ وعدت إلى عائلي في تلك القرية، فطلبت الغفران من والديّ، وأنا إلى الآن أعيش معهما، وقد تزوّجت وأنجبت أبناء كرّستهم لمحبة الرّب يسوع.

وعاد إلى مكانه، فقام «غريفيثس» وأشار إلى رجل آخر كان يجلس في الصّف الثّاني، قصير، يميل إلى البدانة، قصير الشّعر، وجهه مشرب بحمرة؛ ومشى حتّى أخذ مكانه أمام الحاضرين، وقال بصوت دافئ:

أنا دايفيد أونيل، متزوّج من شارون...

وهنا توقّف، ومدّ يده مشيرا إلى امرأة كانت تجلس بجانبه، قريبا من مكانه السّابق. وواصل قائلا:

. وكنت قبل أن أتزوّج، وأتعرّف إلى شارون، جنديّا في الحرس الجمهوريّ الإيرلنديّ، نفّذت العديد من العمليّات، وقتلت آلاف الأبرياء، وقد شهدت بنفسني مرّات كثيرة حفلات التّعذيب الجماعيّة، وتحطيم عشرات البنايات بالقنابل والمدافع؛ إلى أن كان ذلك اليوم الّذي قبض فيه عليّ وسجنت بتهمة الخيانة؛ ومرّت عليّ الأيام الأولى في السّجن قاسية لا تطاق، فحسدت أولئك الّذين قتلهم بيديّ، لأنّني أصبحت أتصوّر أنّ الموت أهون من حياة مآلها السّجن... لقد كنت قبل ذلك أهزا من السّجن والسّجناء الّذين يطلق سراحهم، فلا يدعون فرصة

إلا وعبروا فيها عن تدمرهم، وقرفهم من الظروف السيئة التي عانوها، وهم محصورون بين أربعة جدران، طعام سيء، ماء أجاج، ومكان لا يتسع في الواقع لخمسة أفراد على أقصى تقدير، يحشرفيه عشرات من السجناء، كأنهم في علبة سردين. طالما كنت أسخر منهم آنذاك؛ إذ كنت أتصور أنّ السجن خلق للرجال. وعندما دخلته، وصرت أنا السجن مثلما كانوا هم أنفسهم سجناء من قبلي، تغيرت نظرتي إلى الأشياء. ولم يعد السجن للرجال، كما كنت أتصور، بل صار مكانا قذرا ينحشرفيه المرضى، والمدمنون، والمنحرفون... آه، لكم كرهت نفسي!! ومرّ العام الأول ثقيلًا كالدهر، ومرّ الثاني أقلّ وطأة، وفي العام الثالث بدأت ألوّك مرارتي وأتعوّد حياة السجن التي كانت تمضي رتيبة، مضجرة؛ فكلّ الذي تفعله اليوم تكرّره غدا، وما تقوله الساعة تجد نفسك مجبراً على إعادته بعد ساعة أخرى. ولكن، رغم ذلك، وبقيني أنّ الأمور لا شك ستسير من سيء إلى أسوأ من الآن فصاعداً، بدأت أستمع لهدوء يدب في نفسي، وطمأنينة تغمر قلبي؛ وأصبحت كلّما تذكرت ما بدر مني في سالف الأيام من جرائم ارتكبتها في حقّ الأبرياء، يقتلني الخزي والصغار وأشعر بالندم وأتمنى صادقاً لو تنشق الأرض فتبتلعني، لأتخلص من العذاب الممضّ والآلام التي تحوطني وتسيج حياتي من كلّ جانب.

كان يبكي، وهو يتكلّم؛ صوته مشروخ، مليء بالدموع، وتعترى حلقة شهقات صغيرة مكظومة، من حين لآخر؛ ومع ذلك، لم يصمت، لم يمنح نفسه وقتاً ليسترخ قليلاً من ثقل اعترافاته، وما يمكن أن يستتبعها من استهجان أو اتهام من جانب الحاضرين، كأنه يستمتع بعذابه، أو يتصور أنّ خير يلسم للأوجاع هو الاعتراف والدموع.

وفي أحد الأيام، في الهزيع الأخير من الليل، سمعت صوتاً يناديني، ولكّني لم أر شخصاً بذاته. وقال لي ذلك الصوت: «إنّك الآن على الطريق التي ستوصلك إلى التوبة؛ فعليك بالصلاة. صل كثيراً، وابك لتتطهر، واستحضر الألم كي لا تنسى خطاياك. فلا توبة بغير ألم، ولا شهادة بغير تضحية.» وصمت الصوت لحظة، وطلع من مكان ما من الفراغ رجل

مهيّب الطّاعة، يعلّق في عنقه صليبا كبيرا، ويضع على كتفيه شملة بيضاء. وتقدّم نحوي، فسألته من يكون. عندئذ، ضحك بسعادة، وقال: «أنا الذي جعلتك تستشعر الندم في نفسك، وبثت الطمأنينة في قلبك. أنا يسوع» وأضاف وهو على وشك الاختفاء: «أبشر بقرب سراحك!»... ظننت الأمر لا يعدو أن يكون مجرد نكتة ثقيلة، واستبعدت أن أخرج من هذا السّجن المنيع، وأنا المحكوم بتهمة عقابها الموت، ولكن لحسن حظي خفف المحلّفون العقوبة إلى عشرين سنة مع الأشغال الشّاقة. «فكيف الخلاص إذن؟» قلت في نفسي، وضحكت داخلي بمرارة، موقنا أنّ عصر المعجزات قد ولى، وأنّ أمثالي لا يستحقّون سوى الموت. لكن... ما شاء الله كان! إنّها المعجزة حقّا تتحقّق! فقد استدعاني مدير السّجن ذات يوم إلى مكتبه، وقال لي، وهو يمدّ لي سيجارة: «أنت محظوظ، بل محظوظ جدّا: فمن هو في مثل وضعك، كان من المحتمل أن يحكم عليه بالموت، أو قد يكون مات وشبع موتا؛ ولكن يظهر أنّه ما يزال في عمرك بقيّة، وأنّ أجلك لم يحن بعد. والأكثر من ذلك أنّك ستخرج: نعم، ستخرج من السّجن كلّهُ إلى الحرّية.» فسألته، وأنا تحت تأثير انفعال جعلني لا أميز من كلامه الغامض حرفا واحدا: «وماذا حدث؟» فقال: «لقد صدر عفو بإطلاق سراح جماعة من السّجناء، وقد شملك العفو نظرا لنقاء سيرتك أثناء مدّة المحكوميّة.» وخرجت، فأنهيت علاقتي بالتنظيم نهائيا، وكرّست نفسي لخدمة يسوع، وساعدتني على ذلك زوجتي الرائعة شارون، التي أدين لها بكلّ شيء.

[في الواحدة، بعد منتصف الليل، كنت أتقلّب في الفراش، وقد

جفاني النّوم.]

تساءلت:

هل يأتي يسوع؟

وجاوبني صوت بداخلي:

ولماذا؟ يسوع يأتي فقط للذين يؤمنون به.

فقلت:

.وأنا أيضا أومن به.

فعاودني الصّوت مرّة أخرى بحياد:

.إذا كنت تؤمن به، فلماذا ترفض الاعتراف؟

فقلت:

. لن أعترف لسواه. ولست مخطئاً لأعترف. وإذا جاء سأقول له

متضرّعا: «تجلّ! تجلّ! ساعدني لأبقى. أنا لا أريد الكثير. ويكفيني

القليل؛ وهذا القليل هو البقاء! البقاء!»

[٩ كانون الأوّل ١٩٨٩]

رأيتك في جبال الشّوك

راعية بلا أغنام

مطاردة، وفي الأطلال...

وكنت حديقتي، وأنا غريب الدّار

أدقّ الباب يا قلبي

على قلبي...

يقوم الباب والشّبّاك والإسمنت والأحجار!

.....

كان الجواب على لسان «غراهام»، بعد الصّلاة. حين ذهبت

ثاني أحد إلى الكنيسة، قاتلا بالنّسبة إليّ. وإن كنت أتوقّعه، إلّا أنّي

كنت أعزّي النّفس بالآمال. لقد قال لي بأسف، ونحن نواجه المدخل

الرئيسيّ، في المهو الخارجي:

.مستحيل. سينتهي الأمر بنهاية المدّة المحدّدة بالتّأشيرة.

سألته بيأس:

.أليس هناك أمل؟

فقال، وهو يتفادى النّظر في وجهي:

.للأسف كلّاً.

ودعاني إلى سيّارته، حيث كان ينتظرنا «رتشارد» و«فيفيان»،

فذهبنا إلى مطعم بظاهر المدينة، وقد كان يحاول طوال مسافة الطّريق

أن يسري عتي، سيما أنه يعلم أن ذلك اليوم كان أخروم أقضيه معهم؛ وحاول كذلك «رتشارد» من جانبه أن يضفي على الجو حيوية، فحدثني عن عمله الجديد، وأدنت «فيفيان» رأسها متي وقالت إنها تدخر لي مفاجأة بعد الغداء.

وكننت حزينا، ومسكينا جدا، فلم أكل كثيرا، واكتفيت بشريحة لحم رغم إلحاح «غراهام» الذي كاد يتحول إلى أمر، والجو الهادئ، المفعم بالسكون داخل المطعم، ورائحة المطر، التي كانت تتدفق مشبعة بالرطوبة من المدخل القريب.

[وكتب إلي «غراهام» رسالة بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٩٢ يقول فيها:

«عزيزي سالم،

جميل أن أقرأ رسالتك وأطلع على أخبارك. إنني أحسن أنه علي أن أعذر إليك لأنني لم أنجح في الكتابة إليك بانتظام، ولأنني ربما أكون قد أهملتكم. فتقبل اعتذاري رجاء! أظن أنني كنت محتاطا قليلا أن أذكر المسائل الدينية لأنني لا أريد أن أسبب لك مشاكل مع العائلة. ولكن التعليقات في رسالتك جعلتني أكثر جرأة، وأحمد الله على ذلك.

لقد تمتعنا بأوقات جميلة معا عندما كنت في بليموث. هل تذكر الوجبة التي تناولناها في المطعم؟ لقد نسيت ماذا أكلنا، ولكنها وجبة إنجليزية بحق؛ وأذكر أنك لم تأكل كثيرا في ذلك اليوم.

وأتوقع أحيانا أن تفكر في تلك الكنيسة حيث التقينا، وأيضا لقاءات أماسي الأحد التي حضرناها في المعهد. لقد كانت تلك أياما جميلة، وتستحق أن نذكرها دائما بحب.

كل العائلة بخير. لقد تغيرت الأشياء كثيرا منذ آخر مرة كنت معنا. إن الجميع يرسلون إليك السلام، ويتمنون أن يروك ثانية.

فيفيان وغراهام بلامي»]

وحينما رجعنا إلى البيت، قادتنا فيفيان إلى الحديقة الخلفية، وعبرت مجازا قصيرا، وانعطفت بي يمينا إلى بركة صغيرة في وسطها،

كانت تسبح بها عدّة سمكات ملوّنة. وقالت، وهي مزهوّة، تريد أن
تخرجني من حالة الضيق التي ألمّت بي فجأة:
انظر؛ أليست مفاجأة سارّة؟

قلت مجاملا:

بلى، إنّها مفاجأة سارّة جدّا!!

وبينما نحن كذلك، إذ بدأ المطر ينزل؛ فاقترحت أن نعود إلى الصّالة،
حيث كان «غراهام» و«رتشارد» يجلسان على أريكتين متقابلتين،
يستمعان إلى الموسيقى، مشمولين بصمت عميق. وما أن دخلنا عليهما
حتّى دبّت الحيويّة إلى المكان من جديد، وخضنا في أحاديث شتّى، وقد
بدأت أحسّ بتحسّن، أنا الَّذي لم أختر في حياتي قطّ، وكنت أنتظر أن
يأتي أحد ما، أيّ أحد، لينتشلني من متاهة الخوف، ليأخذ بيدي،
كالأعمى، فيقطع بي شاطئ النّجاة إلى... أين، يا ترى؟ لا أدري؛ إنّني حقّا
لا أدري!!

هل قتلت الصّوفيّ بداخلي؟!

هل تبدّل شيء؟!

هل أنا هو أنا، أم أنا شخص آخر؟!

صحبتي هذه الأسئلة المشاكسة إلى غرفتي، وضجّت برأسي، وأنا
أتمدّد على السرير. وظلّت تخضّ دمائي، وتنغلّ في أعصابي، حتّى
أوشكت على الانهيار. أغمضت عينيّ، مغريا النّوم بهما، فرأيت نقطة
مضيئة على مدى البصر، كانت تتقدّم نحوي ببطء، وما أن تبلغ حدّا
معينا حتّى تتلاشى، ثمّ تظهر في مكان آخر. أعجبتني اللّعبة. كانت
مسلية، وقد أنستني شيئا فشيئا محاصرة تلك الأسئلة اللّعينة.

سمعت طرقا على الباب، كأنّه يأتيني من عالم آخر؛ فهضمت
وفتحته قبل أن أضيء النّور، وبالكاد تبيّنت وجه «مرتضى» الَّذي كان
يقف أمامي كتمثال؛ وقال دون مقدّمات:

تعال معي فورا.

سألته مندهشا:

. إلى أين؟

فقال:

. إلى المقصف.

قلت بثاقل:

. إنني متعب، وأريد أن أنام.

لكنه أصرّ قائلاً:

. أنت تعلم أنّ هذا آخريوم لنا بهذه المدينة. وقد ألحّت عليّ السيّدة

سنثيا ليلبلغ أنّ آتي بك معي. ثمّ إنّه من غير المعقول أن نرحل دون أن نودّع الأصدقاء.

وجدت كلامه معقولا، رغم التعب والإرهاق اللذين كنت أشعر بهما، وأطياف الحزن التي كانت تحوم من حولي كرفيف من الخفافيش الجائعة. أذعنت وذهبت معه.

كان الجميع هناك.

وجلس في مكان معهم. فأحسست رغبة شديدة في الشّراب، في أن أغيب عن الوعي في هذه الليلة الأخيرة... بعد الفشل، والخيبة، وسوء الطّالع، لا بدّ من الضّياح، لتهون أمامه الآلام. وفي لحظة الوداع، مع أناس. أعترف الآن أنّي أحببتهم، يجدر بي أن أشرب إكراما لخاطرهم، وسأسكر بعد ذلك إكراما لحزني.

طلبت «باينت» وجرعته دفعة واحدة، وأنا مغمض العينين، فاستشعرت مرارته في حلقي، إلّا أنّي أخذت قراري ولن أراجع.

وجرعت الثّاني.

وجرعت الثّالث.

وجرعت...

وجرعت...

حتّى أنفقت السّبعة وعشرين جنهما إسترلينيا إلى آخر بنس، وهي أخردفعة تصرفها لنا إدارة المعهد عن أسبوعين كاملين.

وفي فورة نشوتي، وقد تعتعني السّكر، قمت إلى حلبة الرّقص:

خيالي المجهد قادني إلى تلك الزاوية، حيث ترقص تلك الفتاة الفارحة،
التي رأيتهَا أوّل مرّة حين وصولنا، وحيدة، متوهّجة، أسرة؛ رأيتهَا في تلك
الليلة الأخيرة أميرة، وتصوّرت نفسي ملكا، درت حولها، تجاهلتهَا،
أصررت على الدّوران، وأصرّرت على التّجاهل، درت أكثر، ودرت، وغام
حضورها نهائياً في خيالي، ورقصت، بنفسي، ولنفسي، للنّصر، للهزيمة،
للحياة، للموت!!

أنا جبان!

لم أختر شيئاً بنفسي يوماً!

وكنت دائماً أنتظر أحداً ما، ليتّخذ القرار بدلا عني!

[١٠ كانون الأوّل ١٩٨٩ . ٣٠ يونيو ١٩٩٣]

١٠.

... قفا لحظة؛

نشرب الصّحّوثانية،

ولتغنّ سليمي على قمر واحد في الرّصيف.

أرح نجمتيك على وردة الدّار،

خبيّ بقايا العيون بمزودة الدّمع،

علّم صغيرك أن يقرأ الخطودون امتنان.

لكي يقتفيك...

ورتب كلاما يغني على مغزل الليل فوق النّوافذ،

سدّد ختوم البريد بيارق...

... قفا لحظة؛

نشرب الصّحّوثانية،

ولتغنّ سليمي على رجل واحد في الرّصيف.

أرح كاحليك... سليمي:

قفا لحظة؛

نبك هذي الدّيارا،
ففينا المدى للبعيد:
يقرب منا الدّيارا كظلّ لصيق.

سليمي:
أيا طللا دارسا شبّ فينا صغارا
ولاكته في مشمش العمر مقصورة الشعراء،
بنيناها في كلّ بيت يثلج الحروف،
حفظناه قبل الولادة
وبين الوساده،
وفي هجرة الرّمل بين الجزيرة،
كنت سليمي. كما المعجزات:
فبيت صليل /
وبيت شهاده.

٢٠.

غدا، بين كلّ الوجوه، ستأتي سليمي؛ ولن يهرب الظلّ فينا... سنأتي
لنهدم عشرين في صدر لندن. أه، ترى من سيلقي الشّوارع في راحتينا،
سليمي؟ ترى هل تطيب الجروح على قبلة في المعابر؛ والليل إذ يجمع
النّخل في نجمتين، تجوز الظلال على حدق في النّوافذ/ نزرع في ظلّة
الياسمين حروفا. نقول: غدا، سوف يأتي ربيع، ويمضي شتاء... يفيض
خريف، وصيف سيهدي مكاتيبنا سلّة المهملات!

لنا فندق واحد،
دفتر واحد... غرفتان،
ونافذة من رخام.
لها أن تمرّ القطارات في نفق واحد،
أن تزقّ الحمام أفرأها،
أن نسير...
نسير إلى زاويه.

فلتغنّ الميادين في كلّ لندن:
«يحيا السّلام...»

لنشرب على نخب صيف جديد؛
وندعو جميعا بأن يرحل الطّارئون،
فنحيا لعام جديد...!»

قفا نبك هذي الدّيارا
ونبك الطّلول ونبك مرارا
على جسرلندن كنّا بحارا
وفي جسرلندن صرنا كبارا
قفا لحظة نرث فينا المحارا
(«حصار المدائن المعلقة»)

.....

ثانية، كما أوّل مرّة، في المطار، غريب، بين غرباء، مسافرين، عابرين،
تداول عليّ أفكار، وهواجس، وشعور بأنّي عن قريب مفارق، مغادر،
ولا خيار آخر أمامي، سواء أحببت ذلك أم كرهته، إذ لا بدّ لكلّ شيء،
كما يقال، من بداية معلومة ونهاية محتومة؛ والبداية أنا من أضرم
أوارها، وتبقى النّهاية معلّقة، تنتظر بطلا مهزوما جديدا، يقف على
الخشبة، ويرفع يده بطريقة دراميّة، مشرّبًا بوجهه صوب الجمهور
الّذي ينتظر، بفارغ الصّبر، نهاية المأساة. فينطق بالحكم على نفسه،
بكلمات لم يخطّها مؤلّف الرّواية سلفا، وإنّما فرضتها سيرورة الأحداث،
تتعاقب في تواتر عجيب، تفلّت من قبضة الحبكة، ودقّة الإحكام،
لتفيض، بعفويّة، بكلّ بساطة، والبقية للحظّ، غير أنّ الحظّ، هذه
المرّة، لم يكن في صالحه، فاعترف البطل بإفلاسه، وأسدل الستار...
كنت مقتنعا تماما، آنذاك، بأنّي ذلك البطل، وإن لم أكن مشدودا إلى
خشبته، وإنّما مهزوم مثله، أحاول أن أندسّ بين الجمهور، بدل أن

أواجهه. إذ ماذا يمكن أن أقول له إذا واجهته؟ وهل أجد الشّجاعة للاعتراف أمامه بأنّها النّهاية والهزيمة؟ إنّي لست في حاجة إلى أن أقول؛ فأنا في حاجة إلى من يقول لي، من يحدثني، من يواسيني!!! وتكوّمت، كرزمة مهملة، على الكرسيّ، بجانب باب الطّائرة، وانكمشت على ذاتي، كقوقعة ملقاة، دون شفقة، على رمال الشّاطئ. وتساءلت، مستشعرا ندما وأسفا: «كيف تحلو الحياة، بعد، لمن لم يختر مسلكا لحياته، واضطرّ، ساعة نحس، أن يبتز من ذاكرته أصول الأشياء الّتي كان أحبّها، واستعذب نسغها طيلة ساعات محموعة من الشّوق العاصف.» وتساءلت عمّا كان يمكن أن يحدث لو لم تكن للإنسان هذه الطّاقة العجيبة على النّسيان. وضحكت بمقت وانكسار حين عبرت برأسي تلك الحكمة: سمّي الإنسان إنسانا لأنّه نساء!!

تأتي الذّكريات، ليست ذكرياتي، ولا الذّكريات الّتي أحكمت تثبيتها برأسي تلك الأيام القليلة، حيث المدينة بشموخها، ومن تعرّفت إليهم فيها، فوحّدت بيننا صلات حميمة، تطويها الطّائرة الآن، في لمح البصر، كأنّها لم تكن، وإنّما ذكريات الوطن، الحاضرة، الكلّية، وهي تتردّد بحنين مجنون على ألسنة أفراد البعثة، الّذين يجلسون خلفي، وبجاني، وفي كلّ مكان قريب منّي، والّذين كانت تصلني أصواتهم كأنّها قرع المطارق، تحرمني الرّاحة، والسّكينة، وهدوء البال. لقد كنت متكوّما على نفسي، أتعذّب في صمت، على نار هادئة، لذلك لم أكن قادرا على التّركيز، وترتيب أفكاري، أودّ الكلام، أوفعل أيّ شيء آخر... كنت أحوج ما أكون إلى غفوة، ولو قصيرة، تأخذني بعيدا إلى أيّ مكان، إلى آخر العالم، إلى المتاه، حيث لا ألم، ولا ذاكرة، ولا هذا الشّعور المقيت بالحدروالانتفاء. ولكن، في مثل هذا الوقت بالذّات، تعزّ هذه الغفوة، ويعزّ النّوم، ولا يبقى أمامي سوى أن أجترّ مرارة خيبة أخرى، وأضيف إلى العذاب الّذي أعانيه عذابا جديدا. لماذا لا يصمتون قليلا؟ لماذا لا تنكتم أنفاسهم دفعة واحدة، فان لم يكن إكراما لي، فإكراما لمن هم مثلي، تطوّح

بهم الرحلة المضنية، فتروم أبدانهم المجهدة بعض الراحة والنوم؟ أصدقائي، بلى أستطيع الآن أن أطلق عليهم هذا الاسم، بعد المدّة التي قرّبت بيننا، وقد كنّا قبل ابتداء الرحلة غرباء عن بعضنا، لا ندري من أمور بعضنا سوى أنّنا سنلتقي، حين نصل، في مدينة واحدة، غريبة، حتّى انقضاء الفترة وأقول المدّة. أصدقائي هؤلاء بقدر ما استأنست بهم في زمن الاغتراب، وتقت إلى الحديث إليهم، حين أزورهم، بنفس اللّغة الحبيبة التي تركناها وراءنا، أحسست في تلك اللحظة أنّي أكنّ لهم كرها مدمراً، وأمقت حنينهم، وأحتقر فرحتهم، هذه المسكينة. أعترف أنّي كنت متطرّفاً، غير أنّ الفشل أعمانى تماماً، فلم أعد أملك من زمام أمري شيئاً، وأنا مركون في زاوية الطّائرة كمريض بالجدام، لا يرجى شفاؤه.

صوت رصين، واثق، رقيق، تضوع منه رائحة أنثى كامنة في مكان ما، يعلن عن قرب الوصول، ويرجو الرّكّاب، بلطف، شدّ أحزمتهم استعداداً للزّول. فشددت حزامي، بيد مرتجفة، وألصقت وجهي بزجاج النّافذة وأطللت من خلالها فلم تطالعني غير ظلمة قاتمة كانت تلفّ كلّ شيء في الأسفل. ورحل بي الخيال، دون وعي، إلى الغرفة الصّغيرة التي كانت غرفتي قبل ساعتين، وإلى الأشياء التي كانت تستريح فيها بلامبالاة، وأحببتها، وإلى باحة المعهد، وصالة الطّعام، و«غراهام» و«رتشارد»، فوجدتني أبكي بداخلي، وبذرف قلبي دموعاً حري، تفور كدم نازف من جرح متورّم، رغم الجهد المضاعف الذي بذلته للتّأسيّ والسّلوّان. من يصدّق أنّ تلك المدينة، التي لا تفصلني عنها سوى ساعتين بحساب الزّمن، والتي أراها ماثلة أمامي، كأني أراها، بكامل جلائها وفتنتها، قد صارت بعيدة الآن، بل أبعد من حلم مستحيل، قد غامت تفاصيله في المسافات النّائية، والأتون القصيّة؟!!

هو الحزن وحده، والشّعور بأنّي شخص بائس، كلّ ما أحمله معي إلى المطار؛ لا هدايا، لا علب سجائر، لا لعب، لا زجاجات خمر، ولا

حتى بعض الملابس لـ «عبير» و «عزة»؛ ووالدك العزيز أبداً. رغم كل شيء، ماذا جلبت له؟ هم كل عائلتك، ما تبقى لك، فيما تبقى من رحلة العمر، فماذا أذخرت لهم في رحلة الاغتراب؟ وهل تنازلت ففكرت فيهم؟ أه، لكم أنا بائس وحزين! حتى المكاتب بخلت بها عليهم، فلا يدرون أحي أنا أم ميت! ولا أعرف أنا الآخر من أمرهم شيئاً! وكلّ الوزر أحمله على عاتقي، ولا ذنب لهم. فلو على الأقل، كتبت أدلّهم على العنوان، لكان والدي، دون شك، قد أرسل يستفسر عن حالي، ويطمأني بدوره عن نفسه وعن أختي. ولكن، استبدت بي أنانية مفرطة، وظننت، في وقت ما، أنني أستطيع أن أنسى العالم، أن أطلقه، وأهرب، حتى ولو كان ذلك على حساب أعزّ الناس عندي؛ ومن أعزّ من ذلك الوالد الذي كدت تنسى ملامحه؟ و «عبير» التي كانت لك أكثر من أم؟ و «عزة»... أختك الصغرى؟ ألم تفكر فيمن سيقوم بأمرها، ويعتني بشؤونها، إذا أصاب والدك مكروه، لا قدر الله؟ «عبير» تزوجت، وكفتك مؤنّها، وبقيت «عزة» الصغيرة، الهشة، التي مازال أمامها الكثير لتتعلمه، حتى تحنّكها الحياة؛ وإلى ذلك الحين، ستظلّ مثل الشوكة في حلقك، مثل مسمار تدوس عليه في الظلّمة، فيدمي قدميك.

هو الحزن وحده...

والشعور بأنّي شخص مسكين وبائس، وأكداس من الكتب الثقيلة التي تملأ حقائبي كلّها، وكلفتني من أمري رهقا حتى حملتها إلى موقف الباص، كلّ ما أحمله إلى المطار، في ساعة متأخرة جدّاً من الليل، ولا أحد على الضفّة الأخرى في انتظاري، لأنّي لم أكتب إلى أحد أعلمه بأوان قدومي. وتقدّمت من مكاني في الطابور الطويل، شخصاً متعباً مترهلاً، أحسّ أنّه قد انضافت إلى سنواتي الإحدى والعشرين في تلك المدّة الوجيزة عشرون أو ثلاثون سنة أخرى. وحينما دنوت من مكتب موظّف الجمارك سألني، بصيغة أمرة مقتضبة، عمّا أحمله معي، ففتحت الحقيبة الأولى أمامه، فتملّكته الدهشة، ومدّ يده يقلب الكتب عساه

يجد تحتهما شيئاً، ولما انتهى من فحصه، قال يسألني من جديد:

ألا تحمل شيئاً آخر غير هذه الكتب؟

قلت:

كلاّ.

فأشار بيده إلى طريق الخروج.

وانطلقت. الهو أمامي يبدو لعينيّ صحراء قفرا، أشبه بالمهمه، تنطرح عليه أشلاء يابسة ميّته، كأنّ حرباً ضروساً اندلعت، على غير توقع، وقلبت الهدوء الشّامل الأزليّ، إلى طنين مشرشر تلتقطه أذنيّ، وعصفت بأخرا الأحلام فأحالتها إلى نثار من الكوابيس، وصيّرت الامتداد المستلقي بكسل إلى ساحة للمأساة. ولا رجاء؛ بقيّة الأمل المندسّ بين جوانحي أراه يتقهقر، ويتخذ طريقه عبر مسرب ضيق إلى شقّ في جبل شاهق العلوّ، وينام نومته الأبديّة. وأتقدّم بخطى وثيدة، مهدودة، وسط التّلاشي، تأتيني صور غير مكتملة، لأشباح ووحوش ومردة، هياكل، جماجم، أسنان طويلة، مدبّية، حادة، توشك أن تنغرز في كتفي أو صدري، وتعقب ذلك ضحكات مخيفة، مجلجلة، وأصوات معرّبة، ممطوطة، ظافرة. وأتماسك، أتحامل على نفسي كي لا أسقط. وأواصل تلك الرّحلة القصيرة جدّاً، من الهو إلى الباب... وضعت الحقائب على الأرض، وتنفّست الصّعداء، غمرني تعب داهم، فجلست على إحدى الحقائب، وسحبت سيجارة من علبة سجائري ورحت أدخنها بتشّة.

كان اللّيل رمادياً، وبعض النّجومات تهوّم كأرواح تائهة، بين ثنايا الأقيانوس، والقمر مازال بحجم البرتقالة ناحية الغرب، متوجّاً بصفرة مشوبة بحمرة. وقد أصابني الضّجر، فسرعان ما أغضيت عن المشهد، وسمعت حولي فجأة صوت خفّاش، وما أن رفعت رأسي حتّى رأيته فوقّي تماماً، بوبره الأبيض القطنيّ الشّفاف، ووجهه الطّفوليّ؛ ولم أر عينيه، ولكيّ أعرف أنّهما ستظلّان مغلقتين إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يوماً ما... الحركة، في الخارج، ساكنة، خفيفة، أخفّ من هبة النّسيم

تداعب شغاف القلب المعنى، باستثناء الدفق المفاجئ الذي يندلق من داخل المطار، ثم ما يفتأ أن تبتلعه الظلمة... وتتضاعف وحدتي، ويلوكني الصمت، وأنا في ذلك الموقف، مشوشاً، مبعثراً، ومضطرباً، أرغب في المكوث، وأرغب في المغادرة، وأتمنى لو يحملني براق إلى فناء الدار، في الحي، فأرمني بنفسي بين أحضان والدي، وأقبل «عبيراً»، وأدفس أنفي في شعر «عزة» الليلكي الساجي: ثم أعود فتنتهيني موجة من التوجس والخوف... السكون وحده رفيقي، بعد أن خفت الحركة نهائياً، وانقطعت أصوات آخر المسافرين، الذين كانوا يمرّون بحقائبهم من أمامي، ويدلفون إلى سيارات كانت في انتظارهم، فتنتطلق بهم تهب الأرض حتى تختفي تماماً في خضم العتمة. وما من سيارة تاكسي واحدة، فالساعة قد جاوزت منتصف الليل منذ وقت طويل، وإذا أردت الذهاب إلى مبين الكلية، فعليّ أن أنتظر ثلاث ساعات أخرى على أقل تقدير، أي إلى حدود الثالثة صباحاً، أو بعد ذلك بقليل، موعد انطلاق عمل سائقي سيارات التاكسي... أشعلت السيارة الخامسة، من بعد وصولي إلى المطار، وبعد أن جذبت أنفاساً عميقة متتالية، عنت لي فكرة المبيت في الحديقة الصغيرة قبالي، فرميت السيارة، وحملت الحقائب، ثم سرت باتجاهها، مجتازاً الرحبة الإسفلتية الغافية. وسوّيت مكاناً، بعد أن أزلت منه بعض الحشائش والأشواك، وخلعت سترتي فبسطتها، وتمددت واضعاً رأسي على حافة إحدى الحقائب... أول ما استقبلت بوجهي صفحة السماء، انبهرت بشسوعها، وبمنظر القمر الذي صار كبيراً كالطابة، وبعدد النجوم اللامحدود. أين كانت كل هذه النجوم؟ وكيف يكبر القمر؟ وكيف تمتد السماء؟ ربما كانت النجوم تخفيها هذه السحب القليلة، وهي تحوم، هنا وهناك، خجولاً، متلكنة. دون هدف: أو ربما كانت تنثرها يد حنون خفية، من مكان ما، بهذه الأعداد، حتى يرى الربّ المتربّع على عرشه، على ضوئها، مقدار الحزن الذي يطفح به قلبي، وينعكس على سحنتي المترهلة... ويكبر القمر، مثلي، ومثل

كلّ النَّاسِ، لأنّه كائن حيّ، هو الآخر، يشعّ حيويّة، وربّما هو الآن يحزن لحزني، ويرجو لو أفرح فيفرح معي. ولكن، هل يمكن لذلك القمر الذي يتدلّى من السّماء فوق أن يشيخ، عشرين أو ثلاثين سنة، كما أحسست أنا شيخوختي في هذه اللّيلة؟ وهل يأتي يوم، فيموت القمر، إذا علم بموتي، فيكون ذلك منه قمّة التّضحية، وغاية الشّهادة؟... وامتدّي، أيّها السّماء، وسيحي وأنّسعي، وضمّيني بقوة، واهصريني لتذوب هذه الألام اللّعينة بداخلي، وتموت!!

شاطئ مهجور، على رماله الذّهبية تتكسّر موجات البحر: ويرتفع يسارا، في خطّ شبه مستقيم، عبر مسالك مفخّخة بصخور مدبّبة الأطراف، خشنة الملمس، ليتّصل برابية تقوم كرأس، تسنده من الأسفل جلاميد عملاقة، يهددها البحر، من حين لآخر، كلّما فاض به الشّوق إلى تحطيم جدران حصاره التي تسيّجه في حفرتة الجاثية العميقة. وينحدر يميننا، بانحناء ضئيلة، إلى منبسط، تميّعت رماله، بفضلات كان يلقيها اليمّ إلى السّاحل، وأكوام من القشّ المبلّل النّديّ، تحت عرائش النّخيل المتهدّلة بذوائب تنوء بها سيقان رشيقة، مائلة بغنج نحو الامتداد المائيّ. وكانت النّخيلات قريبة، تدنو حتّى لتوشك أن تتشابك، متّحدة، متلاحمة، في فسحة، لامتناهية الفتنة. أمامها الأمواج، وخلفها ذبالة نور، يطلقها مصباح الخمّارة الوحيدة في النّاحية. ووراء خطّ الأفق الشّفقيّ، تسمق منارة جبّارة، كطود مغروز في رحم البحر، وفي قمّتها يدور عمود الضّوء السّميك، مغطّيا على جميع الجهات، ومبتلعا في أوبته ذبالة النّور وشبح الخمّارة... ملاحون يسكرون ويغنون فترتفع أصواتهم متردّدة أصداؤها بين ثنايا الفضاء الرّحيب المفتوح، ويضربون على حوافّ المناضد بأيديهم الخشنة، فتعلو نقرات الدّربكة، وتزداد حمياّ الإثارة، وتبلغ النّشوة ذروتها قبل حلول لحظة الرّحيل... الفلّانك الصّغيرة تضطرب في الماء، بمحاذاة الشّاطئ الذي لم يعد مهجورا، وقمراتها الوطنيّة ترسل من كواها أضواء خافتة

لا تكاد تبين؛ وبعض المودّعين، في الطّرف الآخر، نساء ورجالاً وأطفالاً، أغلهم يلوّحون بمناديل مربّعة بيضاء، وتقذف أفواههم بلهفة: «السّلامة! مع السّلامة!» ورأيت نفسي بين المودّعين، فأنكرتها، ووجدتني أبحث عن قديم ما كان يمت إليّ، عن حزني، عن الآمال الكبيرة، عن الألام تمازجها الأحلام، فلم أظفر بشيء من ذلك؛ وجاء الملاحون، فرأيت شبها لي بينهم، كان ينظر إليّ، من بين جميع من هم حولي، وقد اصطبغ وجهه بغلالة من الحزن، وقالت لي ملامحه إنّ كلّ شيء كنت أبحث عنه قبل لحظات قد انتقل بالعدوى إليه، وسيرحل معه عمّا قليل، وإلى الأبد... وتقدّم البحّارة، وهم ما يزالون يهينمون، تحت تأثير السكر، فتقدّم معهم، وصعدوا إلى الفلّاتك، فصعد معهم، في إحداها، وأخذوا يجذّفون، فالتفت إليّ مرّة أخرى، وببد متشنّجة، ألفيته يلوح لي، ولم تغب عن بصري دمة كبيرة سقطت من عينه اليمنى على خده. وحاولت أن أستمطر رثاء حميماً لأجله، واستدعيت الدّموع، وهفوت إلى الكلام، ولكن دون جدوى. فقد شاهدته يعطيني ظهره، وأمسك بيديه مجذافين وراح يجذّف هو الآخر، نحو المتاه الغميق. ثمّ فجأة انفجر صوت فملاً الكون، وهو يردّد: «أنا أنت القديم! أنا هو ما كنت! أنا الماضي... ماضيك!» ولم ألبث إلا قليلاً حتّى رأيت مركبه يغمره الماء وينجذب إلى أسفل، بفعل قوّة التّيّار.

قلت:

إنّه يغرق.

وما عدت بعد راغباً في استمطار الرثاء الحميم لأجله، ولا استدعاء الدّموع، ولا الهفو إلى الكلام!!

مبنى الكليّة، حين وصلت إليه مبكراً في الصّباح، ووقفت برهة أتأمّله، ثمّ تجاوزته إلى الباب المؤدّي إلى المبيت، بدا لعيّني، للوهلة الأولى، وكأنّ شيئاً فيه لم يتغيّر، وكأنّ الشّهرين وعشرة أيّام قد مرّت عليه كطيف، دون أن تخلف أثاراً ملموسة. وغافلني خيط حنين رقيق، ساب كصدمة

كهرباء بين شرايبي، وعربد للحظة بعنف، اشتياقا، وحينما بلغ شفتي ارتسم في شكل ابتسامة شواء ممّوءة، وكأني بدلا من حقيقة أنني أستقبل فعلا موطن جذوري، الضارب في صخرة الانتماء، فإني أستدير مسخا أو جيفة، تدفعني رانحتها الكريمة إلى الهروب... رأسي المتنبّسة، القوقعة الصلبة الملتزمة على خيرها وشرها، وحروني، يأبى كلّ ذلك إلا أن يتحطّم على صخرة العناد، ويرفض الاستسلام بسهولة، حتّى ليضطرّني إلى الالتذاذ بتعذيب نفسي، واستجلاب التناقض المتأّتي من المحبة والكره، الطمأنينة والاضطراب، المقت والحنين، العشق والرغبة في القتل... مازوكية عمياء! مكابرة! تمنّع! كان يجب عليّ أن أفهم أنّ الرّجاج الذي انكسر لا يمكن أن يعاد سبكه، وقد انكسرت ذاكرتي كلّها، وتبعثرت كلّ ذكرياتي حال وصولي إلى المطار، ومغادرتي الطائرة. والأحرى بي أن أنظر إلى الانفساح، أمامي، من الآن فصاعدا، إذا أردت أن أتخلّص من التمرّق الذي يقتلع أحشائي اقتلاعا. سأتصوّر. قلت متأسيا. أنني عصفور لم يمهله الشتاء فهاجر إلى مناطق الدّفء، حيث يقضي أشهر الربيع، فإذا ما انتهت عاد إلى عشّه، في البلد الذي ولد فيه، لأنّه كان يجب عليه أن يرجع. فهو، قطعاً، بغريزته، يحنّ، وتشربّت رثاه الصّغيرتان هواء، لودّروا على وجهه ألف هواء غيره، لميّز رائحته، وتعوّدت عيناه منظر الغابة الخضراء، وخير الجدول الذي ينساب، بهينة، تحت عشّه، وأصدّرت ذاكرته وأوردت، واكتمل حنينه ووطنا، ماضيا وحاضرا ومستقبلا!! وسأتصوّر. قلت. أنني حوت ضخّم كبير، ألف بقعة معيّنة من المحيط اللّانهائي، وحينما نازعته نفسه إلى التّغيير جزاء الضّجروا الملل، تغيّر عليه الماء فمات!!

كنت أنوي، عند عودتي، أن أمكث أيّاما عند صديق لي في غرفته بالطابق الثّالث حتّى أتمّ بدوري كلّ الإجراءات مع إدارة المبيت لتمنّحي غرفة، إذ كان لي حقّ التّمتع بالخدمات السّكنيّة لعام آخر... وعندما طرقت الباب، فتح لي شخص آخر، لم أكن أتوقّع وجوده بالكلية، فما

بالك بوجوده في هذه الغرفة بالذات؛ ذلك أني كنت أعتقد أنه رُسب في الامتحانات السّنة الماضية، إذ كنّا من نفس المدينة. وكنت أعلم أن علاقته بصديقي الذي قصده طُحّة إلى أبعد الحدود. من أيام الدّراسة الثّانويّة، وهي تخفي في طيّاتها كرها متبادلا ومنافرة. فكيف يلتقيان تحت سطح واحد؟ وما الذي تبدّل طيلة فترة غيابي؟ وهل يا ترى ما خفي كان أعظم، كما يقال؟... واحتضنني بين ذراعيه الصّلبتين دائما، وهويقهقه، وظلّ كذلك حيننا، ثمّ دعاني إلى الدّخول فسألته، وأنا أضع الحقائق على الأرض، وأجلس على سرير في الزّاوية، عن صديقي، فقال لي باقتضاب، وقد بدأت حماسة اللّقاء تفتربشكل ملحوظ، إنه ذهب وسيعود؛ وأضاف مجاملا، بلهجة بدأت تلوح فيها أمارات الصّرامة والعبوس، أن ارتاح وأعتبر نفسي في بيتي. عفوا في غرفتي. وصمت، وهو مكبّ بوجهه على مجلّد فوق الطّاولة أمامه، يراجع فيه. فبدأت أفكّر... وجاء صديقي.

لم يكن هذا الصّديق، في الحقيقة، إلّا شقيق والدتي؛ ودخل، مدّي يده باحتشام، وكان وجهه مظلما، مغلقا، عليه مثل السّحابة، وحيّاني بكلمات لا حرارة فيها، وكأنّنا لم نفترق، ولم يرأحدنا الآخر خلال شهرين وعشرة أيام. وقد استغربت، آنذاك، غاية الاستغراب، وتعبّجت لشيين اثنين: أولهما، أنه لم يعد ذلك الشّخص المرح المتبسّط، الذي تستهويه المملذّات الصّغيرة والكبيرة! وثانيهما، انسحابه من كون لذّته واختلاطه بأناس، كهذا الصّديق الجديد مثلا. كان يستهم علنا أمامي، ويسخر منهم. والأدهى من كلّ ذلك، أنه ابتعد عني، خلال الفترة الّتي مكثتها في الغرفة. وظلّ جالسا معه على السّريريتسارران بحديث أشبه بالهمس، لم أميّز منه شيئا. لقد كان ذلك أصعب من أن أفهمه، وأكبر بكثير من طاقة احتمالي، فمن كان يصدّق أنّ هذين المتلازمين، جنباً إلى جنب، كان يكتّ أحدهما للآخر كرها دمويا واحتقارا لازبا؟! وحاولت، في الأيام الأولى من وصولي، الاتّصال بإدارة المبيت وإتمام

الإجراءات اللازمة، وظللت أتردد على الموظّفين هناك حتّى أجهديني الإصرار وحفيت قدمي، إلّا أنّ الجواب، في كلّ مرّة، كان واحداً: كلّ الغرف محجوزة. ولا غرف إضافية لديهم. واحتججت بعدد المرات التي ذهبت فيها إلى هناك، واستظهرت بالوثائق المطلوبة جميعها، وقلت إنّ الغرفة التي أطلب بها هي من حقّي، ولست أطلب صدقة من أحد. لكن، دون جدوى. فالأصوات الخافتة مثل صوتي تموت سريعاً دون صدى أو رنين، فلا تسعف بعد ذلك بالحياة! وبعد أن تمكّن منّي اليأس أو أوشك، سألتهم، وأنا أكاد أتوسّل: «فما العمل إذن؟ أليس هناك من حلّ؟» فقال لي أحدهم، بلامبالاة وحياد: «دبر نفسك!» فتدبّرت نفسي. وحتّى لا ينتهي بي الأمر إلى التشرّد في شوارع الحاضرة وميادينها، إذ لا فضلة من مال لديّ لكراء شقّة، قرّرت، بعد موافقة صديق شقيق والدتي، رحمة الله عليها، أن أقيم معهما، دون علم الإدارة طبعاً، متحمّلاً بذلك، فيما لو ضبطوني، ذلّ الطرد وشدة المساءلة... وبدأت أكتشف، بمرور الأيام، معنى للأشياء التي كنت أراها في البداية وعجزت عن فهمها؛ إشارة من هنا، وإشارة من هناك، وتشرع الرؤية في التجلّي والوضوح. صحيح أنّي كنت، إلى تلك اللحظة، أعيش لعزلي وقتامة وحدتي؛ وصحيح أيضاً أنّي لم أكن يوماً، في حياتي، بصاصاً أو جاسوساً، ولكن وجدتني نظراً لقربي من دائرة الأحداث، أنظر فلا أستطيع التّغاضي، رغم العنف الذي كنت أشكّم به نفسي، وأزجر أذنيّ فيغزوني الكلام الهامس دون إرادتي، ولا أملك إلّا أن أكون طرفاً في المأساة التي تتكرّر كلّ يوم، تقريباً، على خشبة الحياة الصّليّة. هنا، في الغرفة، كما في باحة الكلية، صرت أتعرف إلى أشخاص غرباء عتيّ، سواء بمحض المصادفة، أو بتخطيط ذكيّ مسبق من الصّديق، زميل شقيق والدتي... واسمحوا لي، سيّداتي، أوانسي، سادتي. أن أطلق عليه اسم «الصّديق رقم ٢»، بعد «مرتضى» طبعاً، فأنا لا أستطيع أن أذكر اسمه تصرّيحاً، لأسباب ستعرفونها لاحقاً، إذا استرسلت في سرد بقيّة الأحداث. المهمّ أنّ ذلك الصّديق رقم ٢ كان يرتّب

لقاءات، إن عفوا أو بالقصد، ويحرص أن يقدمني بنفسه إلى أشخاص لم أكن أحسب أنني سأصبح صديقا لهم، وسيصبحون، بدورهم، أصدقاء لي. وما يكاد يمر يوم إلا وأعرف فيه وجها جديدا، ولا تغرب شمس يوم إلا وأكون قد تبادلت بعض كلمات مقتضبة مع شخص أو مجموعة من الأشخاص... وفي وقت ما، أخذ حضور الصديق رقم ٢ يقل شيئا فشيئا، وملاحقته إياي تخفّ عن ذي قبل، بعد اطمئنانه أنه أحاطني بطوق ذهبي مفعّخ الأتون، يستحيل عليّ الإفلات منه، حتّى لو حاولت ذلك؛ وبعد أن تأكّد أنني بدأت أتهدهدى، كجرو مسكين، داخل الحفرة التي احتفرها لي ببده. وكان، إذا جمعنا الغرفة سويا، نحن الثلاثة، آخر النهار، يتطلّع إليّ تطلّعات موحية، مهمة، ويصمت وقد انبسطت أساريه. وكنت، حتّى ذلك الوقت الذي امتدّ على أكثر من ثلاثة أشهر، لا أعرف الغاية من وراء سعيه، كما أجهل ما يريد بي هو وأولئك الأشخاص الغرباء الذين أصبحوا ينبون عنه في ضمّ أشخاص جدد إليهم، وتقديمهم إليّ على أساس أنهم أصدقاء، وهؤلاء، بدورهم، يجلبون لي، بعد اختلاطي بهم أيّاما، أشخاصا آخرين. وقد كنت، في نفس الفترة، حين أخلو إلى نفسي في الفراش، مواربا بظلمة الغرفة، أتساءل عن معنى الدوامّة التي صرت أتخبّط وسطها، وأضحك ببلاهة وغباء حينما أدرك أنّ عدد الأصدقاء. (عفوا من سيصبحون أصدقاء حميمين فيما بعد). الذين تعرّفت إليهم خلال الأشهر الثلاثة الماضية يفوق أضعاف أضعاف عدد الذين عرفتهم طوال واحد وعشرين عاما! ولا يذهبن بكم الظنّ بعيدا، أيّها المحترمون، فتتصوّروا أنّ الصداقة التي علقت بصنارتها كانت كباقي الصداقات التي تنشأ عادة بين الأصحاب، بل كانت أغرب ما رأيت، وأعجب من كلّ ما سمعت: فإذا كان الأصدقاء، إذا توطّدت بينهم عرى الصلّات، فزاد تقاربهم، يحدث بعضهم بعضا، ويتساررون، أحيانا، بالخاصّ من أمورهم، ويتفاكهون، فإنّ هؤلاء، أي أصحابي الذين جمعني القدر بهم، كانوا لغزا، كانوا

أصلب من القواقع الملقاة على رمال الشاطئ، وأحكم من صندوق مرتج بسبعة أقفال ثقال، فلا كلام إلا بقدر، ويكون، في الغالب، عامًا لا يوحى بشيء، ولا يفضي إلى شيء، ولا يصدر عن أحد منهم تصرف، من أي نوع، إلا ويكون محسوبًا. هل تصدقون أن كل ما عرفته عنهم أسماؤهم الأولى وحسب، وبعضهم عرفت أسماءهم والمناطق التي جاءوا منها، وأن بشرة وجوههم لوحتها شمس الصحارى الحارقة فأحالتها إلى سمرة غامقة، وأنهم يدخنون كثيرًا، حدّ الذوبان، وعيونهم شاخصة إلى الامتداد، تحلم بشيء، سوف أمكث طويلا حتى أكتشفه، وأن غالبيتهم يتحدثون بلهجة أسرة، قوية، مثقلة بعنقاة أصلها الصحراويّ الفاتن، وأنهم... يظلّون على سجيّتهم، دون تحفّز أو احتراس، يخوضون في كلام قبلي وبحري، فإذا أهملت بطلعتي المهدودة، خفت الكلام فصار همسا، وانغلقت الأسارير على أسرارها، وكانت المجاملة ملفوفة في مياه التّحفّظ الآسنة؟ إن ذلك ما كان يحيرني منهم، ويدفعني إلى القسوة على نفسي وتوبيخها لأنني تسرّعت، وبذلت ماء وجهي رخيصا دون مقابل، لجماعة لا أدري من أمرهم شيئا. لماذا يحرصون على ضميّ إلى جانبهم إذا كانوا يتعاملون معي بهذه الطّريقة؟ ولماذا يصرون على تجاهلي؟ هل يختبرون ولائي؟ لكن، لماذا؟ وهل في الأمر كلّ ما يريب؟!!

كما في أرض المعركة حدود ومناطق محرّمة، لا يجوز لأيّ كان، مهما علا قدره وسما شأنه، أن يتعدّاها، فإذا تعدّاها كان هلاكه، كذلك أشرت بعينيّ على حدود ومناطق في أماكن معيّنة من مبنى الكلية، وآليت على نفسي أن لا أقربها، لئلاّ يجرفني تيّارها، وأغرق في مدّها الهدّار. وتلك الأماكن لم تكن سوى منابر الخطباء، وحلبات الحساسيات المتنافرة، بميولاتها ونزعاتها، وصراعاتها وصدامها، واحتجاجاتها التي ما تفتأ تزايد يوما بعد يوم. ونجحت عامين كاملين في الصّمود، وتجنّبت اللّقاءات والاجتماعات، وزغت من الإضرابات، التي لم أكن أعلم عن أسبابها شيئا؛ وكنت أدخل من الباب رأسا إلى قاعة الدّرس،

ضارباً صفحاً عن جميع الأصوات المحيطة بي، إلا صوتاً واحداً يأتيني هامساً حنوناً، من الرّحبة الخارجيّة لدارنا في الحيّ يقول لي: «... سمعت من كثيرين أنّ الحياة في العاصمة شيء مختلف، جديد، والدّراسة في الجامعة تتطلّب جهداً ووقتاً». وكيف الصّوت إلى حين، ثمّ يضيف بنبرة جادّة: «الدّراسة أولاً، ضعها نصب عينيك، فإذا ما أحسست بالتعب استرح... لا تنس، يا ولدي، أنّك محطّ الأمل ومنتهى الأمانة!» ولكيّ لم أسترح على امتداد عامين كاملين. ورغم التعب والإرهاق، والسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، بين الكتب والأوراق، أبيت إلا أن أتمّ الشّوط إلى نهايته؛ وعلى امتداد دينك العامين المضنيين لم أغب يوماً واحداً عن حلقات الدّرس. وكنت أمرض أحياناً، فأتحامل على نفسي، وأحضر المحاضرات، متحدّياً بذلك ضعفي بإرادة الشّهداء؛ فأين الإصرار الآن؟ وذلك الصّوت الهامس الذي يعلو على بقيّة الأصوات؟ لماذا لم أعد أسمعُه؟... وهنّ الصّوت، وغداً مزقاً وأشلاء!!... انتهى الزّمن الذي كنت فيه شامخاً صليداً كجلمود، وحرّونا كحمار؛ وجاء الزّمن الذي انهددت فيه، وضيّعت فيه توازني؛ فبعد أن كنت أمرّ سريعاً إلى قاعة الدّرس، وأنا أجتاز المسلك بجانب المنابر، أصبح خطوي أكثر بطناً، حين أعبر قريباً من هناك؛ وأجدني أتمهّل برغم تصميمي على الإسراع، وتلتقط أذناي رشاش الكلام الغاضب، أو الشّارح، أو المحتجّ، وترحّلان بي بعيداً وراء كلمات كبيرة، قرأناها في دروس الفلسفة وكنت أحفظها ولا يهمني من أمرها إلا أنّي سأمتحن فيها، ويتحقّق عليّ أن أحصل فيها علامات أو درجات جيّدة تخوّلني النّجاح؛ ولكيّ أجد لها جرساً مغايراً، وسحراً، الآن، كأنّ غشاوة انزاحت عن عينيّ، لأتحرّر أخيراً من عمائي... الحريّة... الوحدة... الدّيمقراطيّة... الاشتراكيّة... ودولة الوحدة... و... أه، من ذي اللّحية الكثّة ذاك! ذلك له في ذهني حكاية صغيرة وعجيبة، ابتدأت تفاصيلها في مبنى الكليّة، من على منابر الخطباء، وانتهت بصداقة عنيفة، بلغت حدود القداسة، من جانبي على الأقلّ، في إحدى

الغرف بالمبيت. كان خطيبا يتحدث بلسان أحد التيارات بالجامعة. وكنت طالبا عاديا؛ وكان ذا لحية طويلة. كثّة، تميّزه. وكنت أكرهه لأنّه صاحب لحية طويلة، وكثّة. فهل تصدّقون ذلك؟ رجل لا أعرفه، ولا يعرفني، ولا تربطني به أية صلة، من قريب أو بعيد؛ وكلّ ما أعرفه من أمره أنّ حضوره يطالعني كلّما دلفت إلى مبنى الكلية؛ وربّما لومرّأحدنا بالآخر مصادفة في الطّريق لما أعار أحدنا الآخر اهتماما. فلماذا أكرهه كلّ هذا الكره، وأبغضه كلّ هذا البغض، وأنا لا أعرف حتّى اسمه؟! وهل تلك اللّحية هي السّبب الحقيقيّ، أم هي مجرد تعلّة تخفي حقدا مازلت أجهل أنا نفسي مصدره؟!... المهمّ أنّي ظلمت أكرهه، وتجنّب رؤيته، لأنّي كنت أتشاءم من منظره؛ إلى أن جاء الوقت الذي تقابلنا فيه وجها لوجه، في غرفة أحد الأصدقاء؛ وبعد لقاء ظريف، سمح لي بالتّعريف إليه عن قرب، اكتشفت في التّهاية فضاغة ما كنت أحسّ به نحوه، ومدى بساطته التي كانت تخفي وراءها عبقرية فذة... طلعة كان، ومثقفا، يتحدث في كلّ شيء، وعن كلّ شيء، في الأدب، والفلسفة، والمنطق، ويحلّل الآراء السّياسيّة؛ وإضافة إلى كلّ ذلك، كان مرحا، ذا نكتة، وهي ميزة ما كانت تنعكس على وجهه الصّارم، وأساريره المغلقة الجادة إلى أبعد الحدود... يا للسّخرية! لقد صار أكره شيء فيه أحبّ شيء فيه إليّ، وهي نفس تلك اللّحية الطّويلة الكثّة؛ فما هذا الانقلاب؟ وما مردّه؟ إنّي أحاول أن أجد ولو تبريرا واحدا، فينتهي تفكيري دائما إلى تفسير مسلّم به، ولكنّه غير منطقيّ: فإذا قالوا إنّ الإنسان يحبّ، أحيانا، من أوّل نظرة، أفلا يجوز أن نطبّق نفس القاعدة على الكره، مثلا، أو الرّغبة، أو الشّهوة، أو الحقد، إلى آخره؟!

كياني انقلب رأسا على عقب... الرّغبة في النّجاح، والتّخرّج كفت عن الجيشان، وخفّ بريق إشعاعها... بوابات العالم تفتّح أمامي على عوالم أخرى... ذاتي أحسّها الآن شتاتا مبعثرا، تبحث عن شيء جديد، عن تغيير ما، هائمة، مضطربة، حائرة؛ زخم قدامي، ودويّ ورائي،

وطنين، وليس من خيار إلا أن أغرق، أو أمدّ يدي، مستنجدا بأولئك الأشخاص، أصدقائي، من بدأت أشعر نحوهم بعاطفة مهمة، هي بين الحب والرّهبة، والتّحسّب والخوف؛ وأثرت الخيار الثّاني، وتلك الأماكن المحرّمة الّتي كنت أشّرت عليها بعينيّ، أوّل ما وطنت قدماي أرض الكليّة، والّتي آليت على نفسي ألا أقرب ساحتها حتّى لا يحرقني أوار نارها... وأنست في نفسي الجرأة، والإقدام، وتقدّمت أكثر، من محيط الدّائرة، ووقفت وراء الحشود، ثمّ بدأت أدفع الجموع بمنكبي، وأخترق الصّفوف، لأتمكّن من رؤية الخطباء وسماع جرس تلك الكلمات؛ ولم أتفاجأ، ولم تتملّكني الدهشة أو الاستغراب، حين كنت أرى، من حين لآخر، شخصا أو أشخاصا، من الّذين أعرفهم، مندسّين داخل حلقات الطّلبة، مشرّبين بأعناقهم إلى الخطيب، وهو يسهب في التفسير والتّحليل؛ وكانوا كلّما التقت نظراتنا، يومئذٍ إلى مبتسمين... لقد بدأت أفهم، فكبر الطّفل بداخلي!! التّكتّم كان مشروعاً؛ والولاء أوّل الخطوات على درب الانتماء، لا بدّ له من مراحل، وقد بدأت أطوي المرحلة الأولى منه، متطوّعا، إذ رغم أنّي غدت من لفّهم، وعلى بعض معرفة بما هم عليه، فإنّ أحدا منهم لم يحدثني عن أيّ شيء، ولم يفاتحني في أيّ موضوع.

وكان يوم...

وكنّت أراجع بعض الدّروس بمفردي في الغرفة، وإذا بي أفاجأ بقدوم الصّديق رقم ٢، وهو يفتح الباب، ثمّ يدخل. وقد حيّاني بحرارة، لم أعودها منه، منذ ذلك اللّقاء الأوّل على إثر عودتي من البعثة، وتقدّم نحو سريره، فجلس عليه، وأخذ مجلّدا من الرّفّ بجانبه، وشرع يقرأ شيئا بصوت مرتفع قليلا، كأنّه يريدني أن أسمع:

«بيروت/ ظهرا:

يستمرّ الفجر منذ الفجر.

تنكسر السّماء على رغيف الخبز.
ينكسر الهواء على رؤوس النّاس من عبء الدّخان ولا جديد
لدى العروبة:
بعد شهر يلتقي كلّ الملوك بكلّ أنواع الملوك، من العقيد
إلى العميد، ليبحثوا خطر اليهود على وجود الله. أمّا
الآن فالأحوال هادئة تماما مثلما كانت. وإنّ الموت يأتينا بكلّ
سلاحه الجوّيّ والبريّ والبحريّ. مليون انفجار في المدينة.
هيروشيما هيروشيما
وحدنا نصغي إلى رعد الحجارة، هيروشيما
وحدنا نصغي لما في الرّوح من عبث ومن جدوى
وأمریکا على الأسوار تهدي كلّ طفل لعبة للموت عنقوديّة
يا هيروشيما العاشق العربيّ أمريكا هي الطّاعون، والطّاعون
أمريكا
نعسنا. أيقظتنا الطّائرات وصوت أمريكا
وأمريكا لأمريكا
وهذا الأفق إسمنت لوحش الجوّ.
نفتح علبة السّردين، تقصفها المدافع
نحتمي بستارة الشّبّاك، تهتزّ البناية. تقفز الأبواب. أمريكا
وراء الباب أمريكا
ونمشي في الشّوارع باحثين عن السّلامة،
من سيدفننا إذا متنا؟
عرايا نحن، لا أفق يغطّيها ولا قبر يوارينا
ويا... يا يوم بيروت المكسّر في الظّهيرة
عجّل قليلا
عجّل لنعرف أين صرختنا الأخيره..»

ولم أخطئ المغزى من وراء الأبيات؛ ومعنى مجيئه المفاجئ إلى الغرفة. في مثل ذلك الوقت، الذي تعود أن يقضيه خارجا، فلا يستبعد أن يكون قد علم بأوبتي، وانفرادي، فأراد أن يبلغني شيئا، أو يحدثني عن أشياء بالغة الأهمية... وأغلق المجلد ووضعه على الطاولة جانبا، ووقف، وخطا بضع خطوات؛ فقلت في نفسي إنه مضطرب، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من تصوّرات؛ واقترب منّي، حتّى كاد يدانيني، وقال يسألني دون أن ينظر إليّ: «ما رأيك؟» فأجبته سائلا بدوري: «في ماذا؟» فقال بحدّة خفيفة، وكأنّه برم بتجاهلي: «في الأبيات. إنّي أريد أن أسمع رأيك في الأبيات». فقلت بهدوء أقرب إلى البرود: «إنّها أبيات جميلة... أليست هي من قصيدة لشاعر البرودة؟» فأومأ برأسه، ثمّ أضاف، إنّ لم ينتظرمي أن أقول «جميلة»، بل كان يتوقّع سماع كلمة أخرى، وصمت برهة؛ فاستغلّيت تلك الفرصة، فسألته قائلا: «كلمة مثل ماذا؟» فأجاب فوراً: «ثوريّة، مثلاً».

وما كاد يغلق شفّتيه على تلك الكلمة الّتي كانت إلى وقت قريب غائمة في خيالي حتّى انفتح الباب، ودلف إلى الدّاخل شقيق والدتي. رحمة الله عليهما. مصحوبا بشخصين آخرين أراهما لأوّل مرّة. عندئذ، التفت إلى الصّديق رقم ٢، فرأيت وجهه ينقبض ويتشجّج، وتعمق سحنته، ويعتري حركته اضطراب خفيّ؛ ولكنّه تمالك نفسه، رغم ضياع فرصته الثّمينة للتّصريح بما في نفسه، وسألني فيما إذا كنت لا أمانع في الخروج معه «لتغيير الجوّ»، فأجبته إلى ما أراد مدفوعا بأمل غامض، لا أدرك مصدره، وفضول كان ينمو، مع الأيّام، حتّى صار مثل بركان مشرف على الانفجار؛ واستأذن الحاضرين بلباقة، وأشار إليّ بأن أتبعه... سلكنا الرّواق، واستدرنا يسارا، فزلزنا السّلام حتّى انتهينا إلى الطّابق الأرضي، وخرجنا من الباب الكبير إلى الباحة الخارجيّة، ومشينا على امتداد واجهة جناح المبنى الرّقّاء، ثمّ انحدرنا وراء الجناح من النّاحية الأخرى، حيث تنمو أعشاب طفيليّة مهملة، بلامبالاة، وتتكدّس بعض

الصَّخُور في جنبات السَّور المرتفع نسبياً، أمامنا. ولَمَّا اطمأنَّ إلى خلو المكان، تقدَّمني إلى بقعة ظليلة، وجلب صخرتين جلس على إحدهما، وطلب إليَّ أن أفعل مثله، ففعلت... كانت تلك لحظة حاسمة، مشحونة، خطيرة، يتواجه فيها شخصان، وجها لوجه، متقابلين، مستعدَّين للأخذ والعطاء، ومازالا لا يعلمان بعد هل يتَّفَقان أم يختلفان؛ فما سيقال ربَّما ينوء به الكاهل، ولا يحتمله العقل، ولا يطيقه السَّاعد؛ وما سيتخلَّل الكلام ربَّما يكون فيه خطر، وتكتنفه المجازفة، سيِّما أنَّ الوضع حرج والأزمة تكاد تكون شاملة... ظلَّ صامتا، منكمِّشا على نفسه، فجاريته، مقدِّرا أنه يرتَّب أفكاره، ويفكِّر فيما يمكن أن يبدأ به. ولَمَّا طال صمته، حاولت أن أهوِّن عليه جسامته الموقف، فمددت إليه سيجارة، أشعلتها له، فراح يسحب الدَّخان منها، وهو ما يزال باسطا نظره في حدود الأفق. وأشعلت لنفسِي سيجارة أخرى، قرَّبْتُها من شفتي، وأنا أسترق النَّظر إليه في قعدته المستغرقة... رمى السَّيجارة بعيدا بعد أن شفط منها أنفاسا عميقة، واستدار ناحيتي ورازني بحزم، مثبتا عينيه حادَّتي البريق في وجهي، الَّذي لا شكَّ أنَّ قناعا من الرَّهبة انسكب عليه جرَّاء المفاجأة، وقال إنَّ هناك أمورا يفني الإنسان سنين ثمينة من عمره لمعرفتها، منقِّبا بين طيَّات الكتب والأسفار، فلا يظفر منها بعلةٍ أو سبب، وتعلِّمه الحياة إيَّها، في أقصر وقت وأضال مدة، وذلك حين يقبل، وهو في كامل وعيه، أن يلقي بنفسه في خضمِّ مدارها؛ إذ الحقيقة... (وهنا رفع رأسه إلى السَّماء كأنَّه يتوقَّع أن يجد مكتوبا على صفحتها تعريفا أو تفسيرا للحقيقة!)... إذ الحقيقة لا بدَّ لمن ينشدها أن يبحث عنها بين الجماعة، لأنَّ الفرديَّة ضياع وموت؛ وإذا لم يجدها، لأنَّه ربَّما يكون أخطأ سبيله إليها، فيتعيَّن عليه أن يصحَّح منطلقاته، ليبلغ حدود الغايات. والفرد مهمما بلغ ذكاؤه وعبقريَّته وسلامة تفكيره. سوف لن يتوقَّع أبدا في العثور ولو على جزء من الحقيقة الكلِّية المتأصِّلة في الطَّبِيعَة والإنسان، لأنَّه فرد... واحد. وخذ لك مثلا الأنظمة الليبراليَّة

بأوربّا الّتي اتّخذت من الفرد أساسا فلسفيّا، ومن الرأسمالية أساسا اقتصاديّا؛ هذه الأنظمة لا تني تعلن إفلاسها دوما، عبر أزماتها الخانقة، ومشاكلها المستعصية، الّتي تفرزها مجتمعاتها البورجوازيّة... فسألته عمّن يمكنه أن يدرك سبيل الحقيقة إذا لم يكن الفرد مدرّكها؛ فتحرّف في قعدته، كما لو كان ينتظر هذا السّؤال، وقال بأريحيّة، إنّ الإنسان، ذلك الكائن العظيم، الّذي لم يجد مبرّرا لما يفعله داخل ذات المجتمع الّذي ينتمي إليه إلّا باعتباره جزءا من كلّ، دفعته الحاجة في مرحلة أولى إلى الامتداد أفقيّا، حيث اتّفقت حاجته مع حاجات أفراد آخرين، في مثل وضعه، وتمكّن في مرحلة ثانية من التّخلّي عن أنانيّته، وسحب خاصّه إلى عامّ غيره، فاتّضحت الغايات نحو المستقبل. ولما كانت المجتمعات لا بدّ لها من تنظيم محكم، فقد أبدع الإنسان المبدع مفهوم الدّولة كجهاز لإدارة المصالح داخل المجتمع الواحد، وأوجد سلطة صارمة لفرض اللّوائح والقوانين وحفظ النّظام. وتكتسب الدّولة شرعيّتها من مدى مطابقتها لحاجات الأفراد الّذين تمثّلهم، عن طريق الدّيمقراطية، كأسلوب ومنهج في الحياة. وإذا كان ذلك كذلك، وتحقّق الوعي بالحرية والضّرورات التاريخيّة أمكن التّطوّر، عبر انتهاج الاشتراكيّة كمبدأ يفترض تخطيطا اقتصاديّا شاملا... وقرب رأسه منّي، وقال هامسا، كأنّه يبوح بسرّ ويخشى أن يسمعه أحد، إنّ ذلك كان شأننا قبل أربعة عشر قرنا، حين أسّس العرب بالمدينة في القرن الأوّل للهجرة الدّولة النّوّة، وانطلقوا بالدّعوة إلى الأفاق، ففتحوا الجزيرة كلّها، وحرّروا العراق من أيدي الفرس، وطردو الرّوم عن سورّيّة، وتمكّنوا أخيرا من فتح المغرب كلّه. وفي تلك الفترة، تشكّلت الأُمّة، وبدأ العرب يشعرون بانتمائهم القوميّ لهذه الأُمّة، تربطهم وحدة الأرض، والشّعب، واللّغة، والتّاريخ، والمصير؛ لذلك زهت الحضارة العربيّة بعصورها الدّهبيّة، ونبغ في أفيائها جهابذة عظام، حملوا لواء العلم وإشعاع المعرفة، فألفوا، وصنّفوا، وحقّقوا، ونقّبوا، ومحصّوا، فكانت

الحصيلة كتباً ومجلدات في الطب، والفلسفة، والتاريخ، والطبيعات، واللاهوت، وعلم الكلام، والفلك، وعلم الهيئة، والتراجم عن أفلاطون، وأرسطو، والرواقيين، والفلاسفة الهنود، والآداب السريانية، والآرامية، والعبرانية.

.....

[حاشية ١]

نحن أمة وحد الزمان ظروفها، فلها وحدة اللغة، ووحدة الأرض ووحدة التاريخ: الذين لا يدركون هذا عن طريق معرفة التاريخ يدركون حصيلته فيهم شعوراً بالانتماء القومي. وعلى الذين لا يشعرون به أن يكتشفوا أنفسهم من غربتهم في الأمم الأخرى، فهم ثمة متميزون بعروبهم عن الأمم لا تقبلهم لأنهم لا ينتمون إليها.

[حاشية ٢]

دخلت أمتنا طور التكوين القومي منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، فسبقنا. في الزمان. أغلب أمم الأرض إلى الاستقرار وبناء الحياة المشتركة. وكان تكويننا القومي متميزاً ببدايته فميز وجودنا القومي عن كثير من الأمم. ففي خلال أحقاب طويلة من الهجرة والصراع استقرت قبائل متجاورة في رقعة من الأرض يحصرها من الشمال البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس، ومن الشرق هضبة إيران والخليج العربي، ومن الجنوب المحيط الهندي وهضبة الحبشة والصحراء الإفريقية الكبرى، ومن الغرب المحيط الأطلسي. وكانت تلك الجماعات القبلية الأصل متميزة بعضها عن بعض بما يميز القبائل في أول عهدها بالاستقرار على الأرض، أي بالأصل الخاص، واللغة الخاصة، وبتراث خاص من الثقافة والعقائد والتقاليد والطور الحضاري. وعندما استقر كل منها في مكانه دخل مرحلة التكوين القومي. ولو طال بها الاستقرار لتطورت أمماً متميزة، إلا أن الاستقرار لم يطل بأية جماعة منها حتى تتكون أمة، ولم يطل بها جميعاً حتى تتكون أمماً متجاورة، فقد اجتاحتها موجات

كاسحة من الغزو الخارجي، أما من أواسط آسيا، أو من أواسط إفريقيا، أو من أوربّا، كما أنّ موجات الهجرة الدّاخلية. السّلمية والمقاتلة. لم تنقطع، عابرة بجماعة ومستقرّة في جماعة أخرى. وكانت فترات الغزو تعطلّ نموّها وتعوّق تكوينها القوميّ. وما أن ينحسر الغزاة أو يستقرّوا لينشط التّكوين القوميّ، حتّى تدهمها. كلّها أو بعضها. موجة غازية أخرى. واستمرّ هذا الوضع فترات من الاستقرار فالاضطراب فالغزو فالاحتلال، تحبس نموّ الجماعات عند دور التّكوين القوميّ، حتّى ظهر الإسلام ثورة دينية وفكرية واجتماعية معا.

(الدّكتور عصمت سيف الدّولة. «في البعد الرابع»)

.....

**** وقال مواصلا حديثه إنّ دولة العرب الّتي بلغت، في مراحلها الأولى، شأواً منقطع النّظير، فدانت لها كلّ الدّول المحيطة، وأحنت لها بقيّة الممالك الرّؤوس والهجمات، أبت فظاظة التّاريخ إلّا أن تشدخ رأسها بصمصامتها، وسلّط عليها سوء طالعها سلاطين أشبه بالبيادق على رقعة الشّطرنج، تننازعهم الأهواء والشّهوات، فأهملوا شؤون رعاياهم، وتجاهلوه، واستأثروا بالملك من دونهم، وكان كلّ همّهم معاقرة الملذّات ومعاشرة النّساء، فكثرت المطامع، وساد الفرس، ومن بعدهم الأتراك، على رقاب النّاس؛ وتروى في شأنهم فظائع امتلأت بها أضابير المؤرّخين؛ ولم يكن الأمر وقفا على أوّلئك وهؤلاء فحسب، إذ ولجت بعض أمّهات السّلاطين وبعض نساءهم عالم السّياسة من بابها الكبير، فاستبدّين، وأمسكن بزمام السّلطة بأيّد من حديد، فكنّ يولّين ويعزلن، تبعاً لأهوائهنّ، في حالات الرّضى والغضب. فمن ذلك ما كان عليه أمر «شغب» والدّة المقتدر، الّتي كانت تتدخّل في كلّ كبيرة وصغيرة، بما لها من الدّالة على الخليفة ابنها، ويتقرّب إليها كلّ من له مطمح في جاه أو وزارة فيرتشونها بالأموال العظام، ويبدّلون لها العطايا والهبات، ويتمسّحون بأعتاب قصورها، رغم أنّ فيهم ذوي رأي، وعقلاء، ومتديّنين، وأهل قلم وكتابة، وهي الجاهلة المتغترسة.**

كتاب من الوزير علي بن عيسى إلى شغب أم المقتدر، يستعفي فيه من الوزارة:

بسم الله الرحمن الرحيم أطل الله بقاء السيّد وأدام عزّها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ عليها وزاد في إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنيّة عندها وبلغها في سيّدنا أمير المؤمنين أطل الله بقاءه وأدام له العزّ والتّمكين والنّصر والتأييد غاية محبّتها وأفضل أمنيّتها ووصل أيّام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الأمراء أستودعهم الله وأستوهبه أيّامهم كلّ سوء محظور ومخوف بمنّه ورأفته وصلت الرّقعة أعزّ الله السيّد وعرفت ما تضمّنت فأما الفتنة الّتي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضرةً وأقربهم محلّةً وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتّى بلغ الله أمير المؤمنين والسيّد في جميعها المحبّة وانتظمت في صدور الأعداء شرقا وغربا الهيبة وما أنفقت مع ذلك من مال بيت الخاصّة بعد الذّي رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمّد بن عبيد الله الخاقاني وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على ردّ ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله في أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصّة أضعاف هذه النّفقة وقد أنفق المكتفي بالله وكان من النّظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصّة جملة بعد جملة مع قلة النّفقات في أيّام المعتضد بالله وما أقول قولاً يدفع لأنّ الدّواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدلّ عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصّة منذ أيّام المعتضد بالله إلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدّق هذا مع رفقي بالرعيّة وعمارتي النّواحي المختلة وإزالتني عنها كلّ ظلم ومؤونة حتّى صارت أيّام أمير المؤمنين أطل الله بقاءه منذ خدمته أيّام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعيّة هيبة بعد أن كانت تثب على الرّؤساء وترمي

بالحجارة على ما قيل لي عند اجتيازهم في دجلة. وأمّا الاستحقاقات المتأخّرة فلست أعرفها وباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرّجالّة وما أحسب صنفا من هذه الأصناف يقدّر أن يقول إنّه قبض في وقت من الأوقات قبضا متّصلا وليس يقول أحد منهم إنّه دفع عن استحقاق ولا تأخّره شيء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة وهذه سبيلهم. وقد حضروا منذ مدّة بباب العامّة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة في الاستحقاقات وإنّما التمسوا الزيادة والنظر والصلّة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئا لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتّى لا يكون لهم شيء متأخّر ما كان هذا في زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيّدنا أمير المؤمنين أعزّه الله في ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أمّ عيسى مرّة بعد مرّة فيه وأمّا ما قيل للسّيّدة أعزّها الله في استعفاء فلم أستعف نصّا ولو حملت الرّماد على رأسي لما تكرّهت ذلك ولا تأيّيته وإنّي لألزم نفسي الصبر على كلّ نائبة في خدمة سيّدنا أمير المؤمنين: أيّده الله وأرى ذلك ديانة ولكفّي أعزّ الله السّيّدة أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يجب وأنا أبلغ جهدي في التّضحية وتأدية الأمانة فإن كان ذلك واقعا موقعه فهو الذي أقصد وإن كان يظنّ بي غير ما أنا عليه فهي المصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعني وما يحلّ لي أن أوخّر الصّدق في جميع الأحوال قاضيا بذلك حقّ الله عزّ وجلّ وحقّ سيّدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحقّ السّيّدة أعزّها الله وأسأل الله أولا وأخرا أن يصلح لهما أمورهما ظاهرا وباطنا صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهّمّ ويسهل الصّلاح بهما وعلى أيديهما بمنّه وقدرته وجوده وكرمه.

(أخذ نصّ الرّسالة من كتاب: «الدّولة العبّاسيّة» ل: المرحوم الشّيخ محمّد

الحضري بك)

تعليق الشيخ المرحوم على نصّ الرسالة:

وإنّما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبيّن كيف كان تداخل النّساء في سياسة المملكة. إنّ عليّ بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدروقد كان ممّا فعله في وزارته هذه أن أسقط المكس بمكّة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدي ونهر السّدرّة وكان يعترض في هذه المواضع على ما يجهر إلى البحر وما يرد منه وتؤخذ الضّرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بأرض بيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلّات بدار السّلام وغلّتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار على الحرّمين والثّغور فقبل رأيه ونصّب عليّ بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سمّاه ديوان البرّ. ولما كان بمكّة وجد الماء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السّلطان يسخّرون جمال النّاس وحميرهم لنقله من جدّة إليه فابتاع عددا كبيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الرّاتبية ومنع من السّخرة وحظرها وحفر بئرا عظيمة فخرجت عذبة شروبا وسمّاهما الجراحية. وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسّعها حتّى كثّر الماء بمكّة ووصل الرّفق به إلى أهل الضّعف والمسكنة.

ومع كلّ ما أجراه من الإصلاح فإنّ حكومة النّساء لم تتركه هادئ البال. قرب عيد الإضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرّم فجاءته أمّ موسى القهرمانّة في آخر ذي القعدة مخاطبة في ذلك ومقرّرة للأمر فيه وكان محتجا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم عليّ بن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيّدة وأغرتهما به وتكذّبت عندهما عليه وأدّى ذلك إلى القبض عليه في يوم الاثنين ثامن ذي الحجّة سنة ٣٠٤ فكانت مدّة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و٢٨ يوما.

وفي يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه

إلى دست الوزارة وردّ عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتّابه وأسبابه من الضّياح والأموال فارتجع ما كان حصل في أيدي النّاس القوّاد وخوَصّ الدّولة من ذلك وكان قد تعهّد وهو في السّجن أنّه متى ردّ للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التّغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماما وإدارا وأن يحمل إلى المقتدر كلّ يوم ألف دينار وإلى السيّدة والأمراء ٥٠٠ دينار فوفى بما تعهّد به.

(نفس المرجع السّابق)

.....

****** وقال إنّ مكنم الدّاء وأصل العلّة كان في مؤسّسة الخلافة نفسها، واجتراء الجيش والموالي عليها، فساهم ذلك في ضعفها، وضياع هيبتها في عيون الرّعيّة؛ فالقوّاد كانوا يولّون خليفة، إذا صفا لهم يوما ثمّ يعودون ثاني يوم فيعزلونه، في أحسن الأحوال، إذا لم يسمّلوا عينيه، أو يسجنوه، أو يسمّوه، أو يقتلوه، أو يصلبوه؛ وصار ذلك سنّة استنّها الأسلاف للأخلاف، فقتلوا خمسة من الخلفاء العبّاسيّين آخرهم المستعصم بالله؛ واستغلّ عمّال الإمارات والولايات حالة الفوضى والاضطرابات داخل بغداد، بين أصحاب الأطماع المختلفة، فاستقلّوا بإماراتهم وولاياتهم، مقتطعين بذلك أجزاء من الأرض العظيمة الّتي رتق التاريخ فتحها، ولملم شتات أطرافها وأتونها. فكانت الدّولة الأغلبية، ثمّ الفاطميّة بإفريقيّة، والدّولة الرّستميّة بالمغرب الأوسط، ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، والدّولة الأرمنيّة، وأتابكيّة دمشق، وأتابكيّة الموصل، وأتابكيّة سوريا، وأتابكيّة سنجان، وأتابكيّة الجزيرة، وأتابكيّة إربل، وأتابكيّة أذربيجان، وأتابكيّة فارس، وأتابكيّة لورستان، والدّولة الصّفاريّة، والدّولة الغزنويّة، والدّولة الغوريّة. وتعاضدت موجة الحركات الانفصاليّة مع بروز كثير من الفرق والدّعوات المناوئة، في طول البلاد وعرضها، في المشرق والمغرب، لأنّ المصائب إذا انفتحت لها باب، تدفّقت محطّمة أبوابا وأبوابا، محيلة كلّ شيء إلى حطام وخراب.

فمن ذلك مثلاً خروج بابك الخرمي، بين أذربيجان وأران في شمال بلاد
الفرس، في عهد المأمون والمعتصم، وكان خروجه سنة ٢٢١ في عهد
المأمون ومنتهاه سنة ٢٣١ في عهد المعتصم، ومشغبة الزط، وهم الذين
قال عنهم ابن خلدون: «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق
البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد»، وخروج العلويين، وقد خرج على
المعتصم منهم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن
الحسين بن علي، الذي كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان
من خراسان، فبعث إليه عبد الله بن طاهر أمير خراسان بالبعوث
فكانت بينهم وقعتات، هزم على إثرها محمد وأصحابه؛ ومن ذلك أيضاً
ثورة الزنج، ونسبة هؤلاء الزنوج إلى علوي البصرة الذي زعم أنه علي
بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن
علي بن أبي طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة. وكان مبدأ دعوته
بالبحرين، سنة ٢٤٩، وخروجه يوم الأربعاء لأربع من رمضان سنة ٢٥٥
وقتل يوم السبت ليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لدن
خرج إلى اليوم الذي قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام، واشتداد
أمر القرامطة الذين كان لرأسهم سعيد بن الحسن الجنابي صيت
وطول باع وذراع أيام المعتضد العباسي، حيث هزم له جيشاً بقيادة
العباس بن عمرو الغنوي في طريق البصرة... وواصل قائلاً بلهجة
تشوبها الحسرة والغضب والقهر، إن دولة هذا شأنها كان لا بد لها من
يوم مدلهم، تترزع في أركانها، وتهد في بنيانها، فتغدو قاعاً صفصفاً،
وتصبح أثراً بعد عين؛ وقد جاء ذلك اليوم بحلول الحادث العظيم في
البلاد العربية، وصعود نجم هولاكو والمغول على مآذن بغداد وقباها.

.....

[حاشية ٥]

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية:
قد أكثر المؤرخون في ذكر الأسباب التي دعت جنكيز خان وقومه

للخروج إلى البلاد الإسلامية فقال بعضهم إنَّ خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيز خان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه وينشغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بني العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرل بك شاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكنَّ الفرق أنَّ هؤلاء كلَّهم كانوا مسلمين وأمَّا المغل فكانوا كفارا ولا نبدي هذا الفرق استبعادا للمكانبة لأنَّ ذلك الملك لا يبالي بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغي إلاَّ أنَّ المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنَّه لم يكن يظنَّ أن يكون من التتر ما كان لأنَّ بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينهم وبينه ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظنَّ به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيز خان كالحمامة تجفل من صقرها. وهذا السبب وإن كان مطمعا لجنكيز خان في البلاد الإسلامية ولكنه كان يتطلب سببا آخر يتيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنَّه في سنة ٦١٢ أرسل رسلا إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لترد التجارة من كلِّ جانب إلى الآخر وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيز خان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيز خان ومكث الأمر على سداد مدَّة والتجارة والزوار يترددون آمنين مطمئنين.

وفي سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتَّى وصلوا إلى بلدة أترار وهي بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل سيحون (سرداريا) وبها

وال كان من قبله فلمّا ورد عليه هؤلاء التجّار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم فأرسل قاصدا إلى خوارزمشاه يخبره أنّ جواسيس جنكيز خان قد قدموا في زيّ تجّار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالي المشؤوم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرّقها على تجّار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها. فلمّا بلغ علم ذلك جنكيز خان أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبر بصورة الحال ويطلب منه غاير خان ذلك الوالي ليقصّ منه فلم يكن من الأحقّ خوارزمشاه إلا أن قتل الرّسول فلمّا بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضبا وصمّم على قصده وحرّبه. وعلم خوارزمشاه أنّه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطّين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئا بالعدوان حتّى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوّه فلقي هناك جموعا قليلة متخلّفة في الصّبيان والنّساء لأنّ جنكيز خان كان غائبا بجنده في داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدد القليل فعلم أنّ له يوما ضروسا إذا تحرّك عليه جنكيز خان وهو لا بدّ فاعل فأمر خوارزمشاه سكّان تلك المدن العظيمة الّتي على حدود بلاده أن يجلو عنها خوفا عليهم من التّروكانت من جنان الدّنيا فأصبحت بذلك بالاقع وسهّل بهذا العمل السّبيل إلى عدوّه ثمّ عاد. وأمّا جنكيز خان فإنّه جمع عساكره الجرزارة الّتي تفوق عدد العادّين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتّى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزميّة فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزّاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضي بدر الدّين قاضيخان بطلب الأمان للنّاس فأمنهم جنكيز خان ودخل هو وجنده البلد في رابع ذي الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كلّ ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا ثمّ طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجّار الّتي باعكم إيّاها خوارزمشاه

فإنّها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم فأحضر كلّ من كان عنده شيء منها ما عنده ثمّ أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجرّدين من أموالهم وأعمل التّتر النّهب وقتلوا من وجدوا فيه ثمّ أمر أصحابه أن يقتسموا النّاس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

ثمّ رحلوا نحو سمرقند وهي قصبة ما وراء النّهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيان المشي قتل.

ولمّا وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فحاموا عن اللقاء لما دخل قلوبهم من الرّعب والخور أمّا أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوّة فقابلتهم العساكر الجنكيزيّة ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتّى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدّوا لهم كميناً يأتهم من خلفهم فلمّا جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السّيف من كلّ جانب وقتل عظيمهم ولمّا رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأنّ الكلّ أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا إلى التّتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن يزعموا أسلحتهم فزعموها وإذ ذاك وضعوا فيهم السّيف وقتلوه عن آخرهم وفي اليوم الرابع نادوا في البلد أن لا يتأخّر بها أحد ومن تأخّر قتلوه وهكذا فعل التّتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك في المحرّم سنة ٦١٧.

ولمّا تمّ لجنكيز ملك سمرقند سيّر عشرين ألفاً من أشدّ جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان لو تعلّق بالسّماء حتّى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيماً بغربيّه يستعدّ وقد ملئ قلبه رعباً فلمّا علم بقدوم التّتر عليه لم ير إلاّ أن ينهزم

عنه قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلوي على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكدر يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى مازندان والتتر على إثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له في البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا إلى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التي قصدت البلاد الإسلامية بالتخريب والإفساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا إلى مازندان فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الري وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار من المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا يهيمون في طريقهم كل قرية مروا عليها. ثم ساروا إلى همذان فطلب صاحبها الأمان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا إلى قزوین فدخلوها عنوة ويقال إن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفا. ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن المهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصده من إدمان الشراب ليلا ونهارا لا يفيق وإنما أرسل إليهم وصالحهم فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتقوا فيه فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في طريقهم إلى بلاد الكرك فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم في دفع التتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب حلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعا أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف إليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أفوش وجميع أهل تلك

الجبّال والصّحراء من التّركمان والأكراد وغيرهم فاجتمع إليه خلق كثير وأرسل التّتر في الانضمام إليهم فأجابوا إلى ذلك للجنسيّة فاجتمعوا جميعاً حتّى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بعدها وحديدها لكنّ ذلك لم يجدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التّتر من كلّ جانب فقتل منهم ما لا يحصى وكانت الوقعة في ذي القعدة سنة ٦١٧. ولما دخلت سنة ٦١٨ كزّوا راجعين إلى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا السّيف في أهلها ونهبوا كلّ ما صلح لهم وما لا يصلح أحرقوه ثمّ رحلوا عنها قاصدين إربل لكنّهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع الجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا إلى همذان وساروا إلى أذربيجان ومنها ساروا إلى دربندشروان فاستولوا على مدينة شماخي عنوة وخرجوا من الدّربند إلى البلاد الشّماليّة وهي دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركيّة فأمعن التّتر فيهم قتلاً وسبياً والذي لقي حدّ هذه الحروب أمّة القفجاق فكثّر فيهم القتل والأسر ففترّقوا أيدي سبأ في جميع الأقطار وكان هذا أوّل ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصريّة فاشتري منهم الصّالح نجم الدّين أيّوب مماليكه البحريّة ملوك مصر بعد الدّولة الأيوبيّة ومنهم المعزّ أيّوب والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثمّ قصد التّتر بعد ذلك بلاد الرّوس فاتّفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يداً واحدة ضدّ التّتر ومع هذا فكان الظّفر للتّتر وانهزم عنهم الرّوس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التّتر بلادهم ثمّ عادوا عنهم وقصدوا بلغارسنة ٦٢٠ فلمّا سمع أهل بلغاربقرهم منهم كمّنوا لهم في عدّة مواضع واستجروهم إلى أن جازوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير.

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التّتر وما فعلته.

أمّا جنكيز خان فإنّه لما سيّر تلك الطّائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سيّر جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا

التَّهْر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرَّضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرَّضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنَّهم كانوا يتَّخذون الرِّجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض إلا القليل حتَّى دخل معظم البلاد الفارسيَّة تحت حكم التَّتر. وأرسل جيشا آخر وجهته الشَّمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم لما فعله التَّتر المغربة من إضعاف القوى الَّتِي كانت بهاتيك البلاد على أنَّها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتَّى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزي أن يستولي على الدَّشت كلَّه في أسرع ما يمكن. فتمَّ بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقا من بلاد الصَّين وتنتهي غربا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الرُّوس وجنوبا ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشَّمالي كلَّ ذلك تمَّ له في مدَّة قصيرة.

ولما أحسَّ بقرب منيَّته قسَّم الممالك الجنكيزيَّة إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجي وجغطاي وتولي وأوكداي. فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الدَّاغستان وخوارزم وبلغار والرُّوس وما يؤمِّل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربيِّ لولده الأكبر جوجي. وجعل بلاد إيغور والتَّركستان وما وراء التَّهر بأسره لولده الثَّاني جغطاي.

وجعل خراسان وما يؤمِّل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر الخيل لولده الثَّالث تولي.

وجعل بلاده الأصليَّة والخطا والصَّين إلى منتهى المعمورة الشَّرقيِّ لولده الرَّابع أوكداي وجعله وليَّ عهده من بعده ويصير قانأنا على الكلِّ أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقيين بمتابعته وكذا كلَّ من يصير قانأنا من ذريَّته يجب على الباقيين طاعته

ومن أتباعه ومن خالفه يجب على الباقيين حربه حتّى يفيء إلى يساق جنكيزخان.

هكذا قدر الرجل العظيم همّته أن يملكّ أولاده الدّنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتّم كلّ ما توقّعه.

وفي سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العبّاسيّ حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمّد الظّاهر.

وجد من آل جنكيزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتمّت الفتح حتّى تهيّأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءاً من أوربّا.

وبيت تولي هو الَّذي كان على يده سقوط الخلافة العبّاسيّة ببغداد وامتداد سلطان التّتر على الجزيرة والشّام وبلاد الرّوم وسنذكر ذلك في حينه.

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف النّاس وظلمهم فقد كان قبيح السّيرة في رعيّته ظالماً فخرّب في أيّامه العراق وتفرّق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيراً ما يفعل الأشياء ثمّ ينقضها وجعل جلّ همّه في رمي البندق والطّيور المناسب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة في البلاد جميعاً إلّا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطّيور المناسب لغيره إلّا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرّمي بالبندق إلّا من ينتمي إليه. هذه كانت مشاغله العجيبة والتّتر يمعنون في بلاد المسلمين قتلاً وأسراً وتخريباً ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بالفخريّ ثناء جمّاً ومن ضمن ما وصفه به أنّه كان يرى رأي الإماميّة والظّاهر أنّ هذا هو الَّذي حبّبه إلى المؤرّخ المذكور.

(نفس المرجع السابق)

قال المؤرخون إنّ أهل السّنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمرّ وقد أدّى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السّنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد في مساءته أنّ أهل البيت العباسيّ كانوا يساعدون أهل السّنة لأنّهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السّنة على الكرخ وهو محلّة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إنّ الوزير كاتب هولاءكو يحرّضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجلّ رغبته أن تسقط الخلافة العباسيّة ولا يهّمه بعد سقوط عدوّه من تولّى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة ممّا ساعد هولاءكو على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرّخين يّتهمون ابن العلقميّ بهذه التّهمة الشّنيعة حتّى نقل ابن الورديّ في تاريخه ما يؤكّد هذه التّهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقميّ إلى وزير إربل منها أنّه قد نهب الكرخ المكرّم وقد ديس البساط النّبويّ المعظم وقد نهب العترة العلويّة واستؤسرت العصاة الهاشميّة وقد حسن التّمثّل بقول شخص من غزيّة.

أمر تضحك السّفهاء منها ويبكي من عواقبها اللّبيب

وقد عزموا على نهب المحلّة والنّيل منها بل سوّلت لهم أنفسهم أمرا فصبر جميل:

أرى تحت الرّماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
فإن لم تطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التّعجب ليت شعري أيقاظ أميّة أم نيام

ومنها:

وزير رضي من حكمه وانتقامه ... بطي رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهي حمامة ... وليس لها نهي يطاع ولا أمر

فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون.

ووديعه من أسر آل محمد ... أودعتها إن كنت من أمنائها
فإذا رأيت الكوكبين تقارنا ... في الجدي عند صباحها ومساءها
فهناك يؤخذ ثار آل محمد ... وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم.
وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي. قال في
تاريخه وقد نسبته الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى
الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة فإن السلطان هولاكو
لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه
فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه. والله أعلم بمقدار
هذا البرهان في الإنتاج.

سارت جيوش هولاكو الجزارة قاصدة بغداد في منتصف المحرم
سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعدّ عدّة الحصار ولم يكن عند
الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى بقفال الأبواب فجاء
المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام
وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاكو فأمر هولاكو أن
ينزل باب كلواذي أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة
التي كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدّم بإحضار الخليفة فأحضره ومثل
بين يديه وقدّم له هولاكو جواهر نفيسة ولألى ودررا معتبة في أطباق ففرق
هولاكو ذلك كله على أمرائه.

وفي رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة في أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستّة نفر من الخصيان وقتل ابنه الأكبر ومعه جماعة من الخواصّ على باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العبّاسيّة من بغداد بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويّين من بني عمّهم بما حلّ بهم من هذا الخراب والدّمار.

(نفس المرجع السّابق)

[حاشية٧]

ذكر أوليّة التّرو تخريبهم بخارى وسواها:

كان تنكيز خان حدّادا بأرض الخطا، وكان له كرم نفس وقوّة وبسطة في الجسم، وكان يجمع النّاس ويطعمهم، ثمّ صارت له جماعة فقدّموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوي واشتدّت شوكته واستفحل أمره فغلب على الخطا، ثمّ على ملك الصّين، وعظمت جيوشه وتغلّب على بلاد الختن وكاشغرو المالق.

وكان جلال الدّين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النّهر، له قوّة عظيمة وشوكة، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرّض له، فاتّفق أن بعث تنكيز تجّارا بأمّتعة الصّين والخطا من الثّياب الحريريّة وسواها إلى بلدة أطرار، وهي آخر عمالة جلال الدّين، فبعث إليه عامله عليها معلما بذلك، واستأذنه ما يفعل في أمرهم، فكتب إليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثّل بهم، ويقطع أعضاءهم ويردّهم إلى بلادهم لما أراد الله من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنّتهم رأيا فائلا، وتديرا سيّئا مشوّوما، فلمّا فعل ذلك تجهّز تنكيز بنفسه في عساكر لا تحصي كثرة برسم غزو بلاد الإسلام، فلمّا سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره، فذكر أنّ أحدهم دخل محلّة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل، فلم يجد من يطعمه، ونزل إلى جانب رجل منهم، فلم ير عنده زادا، ولا أطعمه شيئا، فلمّا أمسى أخرج مصرانا يابسة

عنده، فبلّها بالماء وفصد فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنّار، فكانت طعامه فعاد إلى أطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم، فاستمدّ مليكه جلال الدّين فأمّده بستين ألفاً زيادة على من كان عنده من العساكر، فلمّا وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة أطرار بالسّيف فقتل الرّجال وسبى الدّزاري.

وأتى جلال الدّين بنفسه لمحاربته، فكانت بينهم وقائع لا يعلم في الإسلام مثلها، وآل الأمر إلى أن تملّك تنكيز ما وراء النّهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ، وعبر النّهر، وهونهر جيحون، إلى مدينة بلخ فتملّكها، ثمّ إلى الياميان (الباميان) فتملّكها، وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم، فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ما وراء النّهر فكرّ عليهم ودخل بلخ بالسّيف وتركها خاوية على عروشها، ثمّ فعل مثل ذلك في ترمذ فخربت، ولم تعمر بعد، لكنّها بنيت مدينة على ميلين منها هي الّتي تسمّى اليوم ترمذ، وقتل أهل الياميان (الباميان) وهدمها بأسرها إلّا صومعة جامعها، وعفا عن أهل بخارى وسمرقند، ثمّ عاد بعد ذلك إلى العراق وانتهى أمر التّتر حتّى دخلوا حضرة الإسلام ودار الخلافة بغداد بالسّيف: وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسيّ، رحمه الله.

فقال ابن جزى: أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات بن الحاجّ أعزّه الله، قال: سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول: لقيت بمكّة نور الدّين ابن الرّجّاج من علماء العراق، ومعه ابن أخ له، فتفاوضنا الحديث فقال لي: هلك في فتنة التّتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه.

قال: ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح آباد، حيث قبر الشّيخ العالم العابد الزّاهد سيف الدّين الباخريّ، وكان من كبار الأولياء. وهذه الزّاوية المنسوبة لهذا الشّيخ، حيث نزلنا، عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصّادر، وشيخها من ذريّته، وهو الحاجّ السيّاح يحيى الباخريّ، وأضافني هذا الشّيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القرآن بالأصوات الحسان. ووعظ الواعظ، وغنّوا بالتّركي

والفارسيّ على طريقة حسنة، ومَرّت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب اللّياالي.

ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة، وكان قد قدم من هراة، وهو من الصّالحاء الفضلاء، وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبي عبد الله البخاريّ مصنّف الجامع الصّحيح، شيخ المسلمين، رضي الله عنه، وعليه مكتوب: هذا قبر محمّد بن إسماعيل البخاريّ، وقد صنّف من الكتب كذا وكذا؛ وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم، وكنت قيّدت من ذلك كثيرا وضاع منّي في جملة ما ضاع لي لما سلبني كفّار الهند في البحر.

(رحلة ابن بطّوطة)

.....

****** وقال إنّ التّنافس قبل سقوط بغداد، بين بغداد والقاهرة كان على أشدّه، وهو يعكس في جوهره صراعا مذهبيّا بين السّنة والشّيعّة؛ وقد كان كلّ طرف يسعى إلى تأكيد سيطرته على الآخر، باذلا في ذلك ما أوتي من حكمة وجهل واستبداد وطول نظر وقصره وغنى وفقر على السّواء، دون مراعاة الانتماء إلى الأرض الواحدة، والتّاريخ الواحد، والمصير الواحد، حتّى كان هجوم التّتر والقضاء على الدّولة الإسلاميّة العربيّة بالعراق، فتتنفّس من بالقاهرة الصّعداء رغم ضعف خلفائهم وسلّاطينهم ووزرائهم، حيث لم يكن لهم من الأمر إلّا ما يخولهم إيّاه حفنة من مماليكهم جاءوا خدما وخولا، فأصبحوا أصحاب نفوذ، وحلّ وعقد، وساموا النّاس عسفا وخسفا، واستبدّوا، وطفّوا وتجبرّوا. ولم يكن همّهم سلامة الدّولة أو صلاح الرّعيّة بقدر ما كان مقصورا على جمع الأموال، وتديير مؤامرات التّصفية، وبذلك آل حالهم إلى الضّعف؛ وبما أنّهم لم يكونوا يملكون رابطة أو جامعة تلملم شعّتهم وشتاتهم، فقد تفرّقوا أيدي سبّا، وسهل على العثمانيّة القضاء عليهم وقطع دابرهم.

استولى على مصر بعد الخلفاء الفاطميين كثير من السلاطين، ظلت تحكم باسمهم إلى أن آل أمرها إلى الماليك، فاستبدوا في أحكامهم، وضع أهلها بالشكوى منهم. واستمر الحال على هذا المنوال حتى غزاها الخليفة التركي السلطان سليم، في عهد سلطانها الغوري، فتم له فتحها ودخلها بعد قتله في وقعة مرج دابق، حيث شنق خليفته طومان باي، فصارت مصر منذ ذلك الحين تابعة لتركيا.

ونظرا إلى بعدها من دار الخلافة، رأى السلطان سليم أن يجعل في إدراتها انقساما يأمن معه خروجها من طاعته، فجعل حكومتها مؤلفة من ثلاث سلطات:

أولا. سلطة الباشا: وهو الوالي الذي يرسله من الأستانة، ومقره في قلعة القاهرة، ويختص بتلقي أوامر السلطنة ومراقبة تنفيذها.
ثانيا. سلطة البكوات: وهم بقية الحكام الماليك، وقد عهد إليهم في إدارة المديرية وحفظ الأمن والنظام في البلاد، كما هو شأن المديرين الآن.

ثالثا. سلطة الوجاقات: وهي القوة العسكرية. وكانت مؤلفة من الإنكشارية، والمتفرقة، والدلاية (جند المغاربة)، وغيرهم. وعليها جباية الضرائب والإعانات والغرامات وما إليها من الأموال التي تؤخذ لخزانة الدولة، كما أن عليها الدفاع عن البلاد عند الحاجة إلى ذلك.
على أن البكوات الماليك لم يقنعوا بالسلطة الكبيرة التي منحت لهم، فما لبثوا قليلا حتى عادوا إلى الاستبداد.

وكان من بينهم (شيخ البلد). المنوط به حكم القاهرة والسهر على استتباب الأمن والنظام فيها كما هو شأن محافظها الآن. غير أنه لم يكن يقنع بما دون السلطة المطلقة، ولم يكن للبasha التركي بجانبه من السلطة إلا مظاهر جوفاء، لا أثر لها على الإطلاق.

فلما كانت سنة ١٧٦٣، وألت مشيخة البلد إلى علي بك الكبير، كان

أكثر الممالك شهامة وأعظمهم همّة وأشدّهم بطشا. ولكنّه طمع في الاستقلال بمصر، وحدّثته نفسه بافتتاح البلاد المجاورة لها أيضا.

ولم تكن القاهرة في تلك الأيام على ما هي عليه الآن من اتّساع العمران وكثرة السكّان. فالأحياء المعمورة فيها حينذاك لم تكن تزيد على أحياء: الحمزاوي والغوريّة والجماليّة والنّحاسين وما جاورها. أمّا الفجّالة وشبرا والعبّاسيّة والإسماعيليّة والجزيرة وغيرها من الأحياء الحديثة فلم تكن قد أنشئت بعد.

وكان للمدينة سور منيع به أبواب عدّة ضخمة تغلق عقب غروب الشّمس كلّ يوم، فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن يدخل المدينة أو يخرج منها إلا بإذن خاصّ، وما زالت بعض هذه الأبواب وأثار السور باقية حتّى اليوم.

أمّا أغنى هذه الأحياء كلّها وأكثرها سكّانا ورّوادا، فكانت هي الأحياء الواقعة في منطقة الجماليّة وما جاورها من الغوريّة وخان الخليّ حيث تقوم مختلف المتاجر وقصور الأغنياء.

وهناك في الجماليّة كانت توجد وكالة الصّابون، وهي يومئذ مجتمع كبار التّجار وأصحاب الثّروة، فلا تخلو ساحتها الرّحبية من مئات منهم طول النّهار، بين بائعين ومشتريين ومتفرّجين.

وكان من بين تجار تلك الوكالة، في العهد الّذي جرت فيه وقائع روايتنا هذه، تاجر مصريّ يقال له: (السّيّد عبد الرّحمان). اشتهر رغم ضخامة ثروته واتّساع تجارته بالتّواضع الجَمّ والاستقامة والبرّ بالفقراء، مع رجاحة العقل والاتّزان. وقد تعود أن يقضي نهاره في الوكالة يشرف على حركة البيع والشّراء في متجره الكبير، فإذا جاء المساء عاد إلى منزله في شارع الكعكيّين في الغوريّة حيث زوجته، وولده الوحيد منها، وبعض السّراري الشّركسيّات والحبشيّات.

ولولا ما كان يقاسيه هو وغيره من استبداد الممالك وجورهم، وكثرة الضّرائب الّتي يطلبونها من وقت لآخر لكان له من ثروته الضّخمة

وتجارته الرَّابحة وحياته المزلية الهادئة ما يجعله أسعد السَّعداء، ولا سيَّما أنَّ ولده الوحيد السَّالف الذَّكر، واسمه حسن، كان قد أتمَّ تعليمه في الجامع الأزهر، ثمَّ التحق بالبيمارستان المنصوري القائم في شارع النَّحَّاسين أمام الطَّريق المؤدِّي إلى بيت القاضي، حيث أبدى تفوقًا في دراسة الطَّبِّ على يد أستاذ مغربيّ فيه، واشتهر بين زملائه وعارفه بالاستقامة والذكاء والاتزان كأبيه. فلم يكن يغشى مكانا غير البيت والمدرسة، ولا يملُّ المطالعة للاستزادة من المعارف والعلوم. («استبداد المماليك» لـ جرجي زيدان)

[حاشية ٩]

بدأ الإسلام عقيدة تجمع المسلمين، ولكنَّه عندما دخل عنصرا في التَّركيب القوميَّ للأمة العربيَّة، أصبح مضمونا للحياة، أسهم في بناءه المسلمون وغير المسلمين، فكان لهم تاريخا وكانوا به أمة واحدة: أصبح جزءا من الوجود القوميَّ العربيَّ، يقدِّم مع غيره من عناصر الطَّرف إمكانيَّات بناء مستقبل العرب جميعا، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. فنحن العرب . مثلا. أيَّا كانت عقائدنا الدِّينية، لم نعرف في تاريخنا القوميَّ أزمة الحرِّية التي عرفتْها أوربا في القرون الوسطى. لم نحتج إلى كتاب أوفلاسفة، من أمثال روسو، ليضعوا لنا نظريَّات تبرِّر أنَّ النَّاس متساوون أمام القانون، وأنَّ لكلَّ منهم حقَّ الرأْي وحقَّ التَّمَلُّك وحقَّ العمل. ولم نقض قرونا لنعترف بالملكيَّة حقًّا للنَّساء. ولم نخض حروبا لنكسب الحرِّيات المدنيَّة والسِّياسيَّة. لم تعوزنا يوما الحجَّة لندين الاستبداد، لقد كنَّا نخضع للاستبداد عاجزين عن مقاومته، متربِّصين له، وكنَّا نعرف دائما أنَّه استبداد غير مشروع، وكان المستبدُّون أنفسهم يعرفون. ونحن العرب . مثلا آخر. لم نعرف قطَّ نظام الإقطاع الذي عرفته أوربا. كانت لدينا ملكيَّات كبيرة من الأرض، تمكَّن أصحابها من الاستبداد الذي يخالف القانون والعرف والتَّقاليد والعقيدة السَّائدة. كنَّا نعرفه. حيث وجدنا في تاريخنا. عدوانا مادِّيًّا وكان المعتدون أنفسهم

يعرفون. ولم يكن الإقطاع في أوربا مجرد ملكيات كبيرة من الأرض، بل كان نظاما من الحقوق المشروعة التي يمارسها أمراء الإقطاع في مواجهة تابعيهم. كان الإقطاع سيادة يدعمها القانون، وتؤيدها التقاليد والعقائد. وتطبيقها الأخلاق، وقد يتغنى بها الفن قصيدا وألحانا. ولما لم نعرف الإقطاع نظاما لم نعرف البورجوازية ثورة فالبورجوازية الثورية كانت «الطبقة الوسطى» بين الإقطاعيين والفلاحين التي قادت ثورة التحرر من عبودية النظام الإقطاعي الأوربي. وكان خروج البورجوازيين على سيادة الإقطاع ثورة، لأنها كانت تحطيمًا لإطار شرعي من النظم والقيم والتقاليد. أما الذين كافحوا ويكافحون استبداد كبار المالكين في أمّتنا فإنهم لا يحطّمون حقوقا مشروعة، بل يدفعون عن أنفسهم وعن غيرهم اعتداء غير مشروع. إنهم حماة الحرية ولكنهم ليسوا بورجوازية. كذلك ملأنا العلم كسفا عن أسرار الطبيعة المادية. وأرسلنا كثيرا من قوانين تحوّل المادة، ولم ننزلق إلى القيم المادية الأوربية التي سادت في القرن الثامن عشر. وملأنا الفكر فلسفة واجتماعا، ولم ننزلق إلى القيم الفردية التي سادت أوربا في القرن التاسع عشر. وملأنا الحياة أخوة وتضامنا، ولم ننزلق إلى القيم الجماعية التي سادت أوربا في القرن العشرين. وملأنا الأرض حضارة، ولم ننزلق إلى القيم الاستعمارية التي سادت أوربا وتسودها إلى حين.. إلخ.

كنّا محصنين ضدّ الانزلاق بحكم تكويننا القومي. فقد قضينا معا أكثر من ثلاثة عشر قرنا نحيا الحياة، ونصنعها كل يوم، في أرضنا، وحيث كنّا من الأرض، في ظلّ الفكر والثقافة والقيم الإسلامية الكامنة في تكويننا ذاته، فملأنا الزمان تاريخا عربيا خالصا وإن كانت لبناته من الإسلام. حتّى عندما عبرنا. معا. مرحلة الصّراع الدّاخليّ الذي يصاحب بداية التّكوين القوميّ. كان الصّراع عربيا خالصا، دار بين الرّواسب القبليّة العربيّة والنّزوع القوميّ العربيّ، واتّخذ موضوعه الاستثناء بالسلطة في الدّولة القوميّة الواحدة. ولقد انتقلت به الدّولة من

المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة، وقامت أكثر من عاصمة واحدة في وقت واحد، إلا أن كل عاصمة من تلك كانت تعصم العرب جميعاً، أو تحاول هذا، أو تدّعيه، ولكنّها لا ترضى. في أيّ حال، أن تكون دولة إقليمية. كان ذلك صراع الماضي والمستقبل في طور الأمة العربية، ولم يكن صراعاً بين أمم يغزو بعضها بعضاً. لقد كان الأمويون والعباسيون والحمدانيون والأيوبيون والفاطميون... إلخ، أحزاباً من العرب، ولم يكونوا أمماً في الأمة الواحدة. لهذا كان الصراع مقصوراً على العرب، تعبيراً عن مشكلة تطوّرهم القومي، ولم يتجاوزهم إلى الأمم الأخرى في دولة المسلمين. لم يكن فيه طرف من المسلمين في إيران أو أفغانستان أو تركيا أو الهند... إلخ.

ولمّا أن اكتمل للعرب وجودهم القومي كانوا قد أصبحوا أمة صنعت تاريخها الخاصّ حتّى خلال الصراع الداخليّ الذي كان مقصوراً عليها. فلمّا أن أرادت الأمة التركيّة أن تصل إلى الخلافة كان عليها أن تغزو الأمة العربيّة، بمن فيها من مسلمين وغير مسلمين، غزوا دامياً. وبينما كانت الجيوش التركيّة متميّزة بانتماؤها القوميّ، لا تخفيه راية الإسلام، كان ضحاياها في كلّ مكان من الخليج إلى المحيط عرباً متميّزين بعروبتهنّ وإن كان بعضهم من غير المسلمين. كذلك كنّا أمة واحدة.

سيّان بعد هذا أن نكون ساميّين أو من أجناس أخرى، وسيّان أن نكون من أجداد نزحوا من الجزيرة العربيّة أو نكون من أصول شتّى، وسيّان أخيراً أن نكون مسلمين أو غير مسلمين، فقد تمّ التكوّن، وأصبحت لنا وحدة الوجود القوميّ، لا نستطيع أن نلغيه ولا يجدي أن ننكره، فنحن كما نحن أمة عربيّة واحدة. قد لا يشعر الذين ينكرون هذا الوجود به، ولكن الوجود القوميّ. كما قلنا، تميّز عن القوميات الأخرى. وإنّ كلّ الأمم لتنظر إلينا وتعاملنا كأمة واحدة، لأنّها تعرف بالقياس على وجودها القوميّ ذاته أنّ لنا وجوداً قومياً متميّزاً عنها. كذلك عاملتنا حتّى الأمة التركيّة في ظلّ الدولة الواحدة.

فقد درج العثمانيون في أوّل عهدهم بالخلافة على سنن الإسلام الأولى، فكانت الخلافة دولة مشتركة تتحقّق بها وحدة جهاز الإدارة والردع. كانت دولة كلّ أمة داخل الدّولة الواحدة، فقد كانت تلك المساواة حكم الشريعة السّمحاء المطهّرة تماما من الاستعلاء والتسلّط والاستعمار. وإذا كانت الدّولة الواحدة قد قسّمت الأرض، أو أبقت قسمتها السّابقة إدارات، منها المقصور على مدينة واحدة ومنها ما يضمّ إقليما كاملا، فلم يكن ذلك خلقا لدول عربيّة داخل الدّولة الواحدة. حتّى المتمردون من حكام الأقاليم وولايتها، والطّامعون منهم والطّامحون، كان تمردهم وطمعهم وطموحهم يدور داخل الدّولة الواحدة ولو أدّى إلى القتال طريقا إلى إقناع السّلطة المركزيّة بما يريدون. وإذا كان لكلّ ولاية مجنّدون من أرضها، فتلك جيوش وكثائب من جيش المسلمين، تذود عن الدّولة الواحدة، ولو ذهب الجند من وادي النّيل إلى جبال القرم. كانت مصر ولاية وكانت عكا ولاية، ولم تكن مصر كما لم تكن عكا دولة، ولا كانت أيّهما أمة. وفي ذلك تساوتا قسمين إداريّين، ولو كان سكان مصر أضعاف سكّان عكا. كان تقسيما إداريا في دولة واحدة تضمّ قوميات عدّة. ولم يحدث قطّ. منذ الفتح الإسلاميّ حتّى الاحتلال الأوروبي. أن احتاج عربيّ إلى إذن من أحد لينتقل، ويعيش، ويمتلك، ويتاجر، ويتعلّم، ويثور، أين شاء من الخليج إلى المحيط. كان يسعى أيّان يسعى على أرضه في أمّته.

غير أن الأمر لم يلبث كثيرا حتّى انقلبت الخلافة من دولة للمسلمين إلى دولة للترك، يسخّرونها في بناء مستقبل الأمة التركيّة من إمكانيّات الأمة العربيّة. ويفتدون بقاءهم كأمة بأجزاء من الوطن العربيّ. فقد تأمر الاستعمار الأوروبي على دولة المسلمين. وكان خطر الغزو الأوروبي الاستعماريّ يتجاوز دولة الخلافة إلى الأمم التي تعيش في ظلّها. لهذا تحصّن كثير من العرب بالوحدة الإسلاميّة ضدّ التهديد الأوروبي. وكان ذلك الموقف يمثل قمّة الوعي وقمّة الثّوريّة في ذلك الزّمان حاربته

أوروبا المستعمرة بالموقف المضادّ دعوة إلى الإقليمية. وأغرت الأقاليم الإدارية، داخل الأمة العربيّة، بالاستقلال عن تركيا، لتفرض العبوديّة بعد الاستقلال، وتلتهمها لقمة معزولة فسانعة. وقدّم المتعاملون من خريجيّ مدارس أوروبا، والإقليميّون من المشايخ والأمراء والسلاطين أكبر عون للاستعمار باسم الاستقلال. ولم يفتن أحد منهم إلى ما فطن إليه المستعمرون، وخطّطوا الطريق إليه ونفذوه، أن تكون الدّول التي تستقلّ عن الدّولة العثمانيّة، ليحتلّها الاستعمار الأوروبيّ بعد هذا، قائمة على أسس إقليمية وليس على أسس قوميّة. وستثبت الأحداث فيما بعد أنّ الاستعمار الأوروبيّ كان يخشى أن يستقلّ العرب دولة قوميّة واحدة أكثر ممّا يخشى بقاء الدّولة العثمانيّة ذاتها. ولعلّ ذلك أن يكون وراء كلّ تلك المحاولات التي بذلتها الدّول الأوروبيّة، وصاغتها اتّفاقا على المحافظة على الدّولة العثمانيّة، في الوقت الذي كانت تلتهم فيه أجزاءها العربيّة واحدا بعد آخر. كان تحالفا استعماريّا «أوروبّا. تركيا» ضدّ العرب. لهذا وقفت الدّول الأوروبيّة تساند الخليفة وتحرّضه ضدّ أحمد عرابي قائد ثورة «أولاد العرب» في مصر، واجتمع المستعمرون، أوروبيّون وأتراكا، في مواجهة ما نسب إلى عرابي من أنّه كان يهدف إلى قيام دولة عربيّة تضمّ أطراف الأمة العربيّة جميعا. فلمّا أن خان الخليفة أحمد عرابي وخذله، دخل الإنجليز مصر باسم الخلافة، وسار موكب المستعمرين يتقدّمه الخديوي التّركي. على أيّ حال لم يفتن المتعاملون والإقليميّون في ذلك الوقت إلى أنّ الصّراع كان بين الأمم الاستعماريّة الأوروبيّة والأمة التّركيّة في جانب، والأمة العربيّة في جانب آخر، وأنّه كان دائرا على أسس قوميّة، وأنّ الإقليمية. حينئذ. كانت تتعدّى الاستقلال عن تركيا إلى تمزّق الأمة العربيّة دولا، لن تلبث أن تذهب جميعها ضحيّة الاستعمار، بينما تبقى تركيا دولة مستقلّة. هكذا خطّط الاستعمار ونفّذ.

وقد أثبت موقف الخلافة، خلال الصّراع العربيّ ضدّ الاستعمار

الأوربيّ، أنّها دولة تركيّة متأمرة مع الدّول الأخرى في أوربّا المستعمرة، ضدّ الأّمة العربيّة، وأنّ العرب قد فقدوا بذلك دولتهم القوميّة. فبينما كان الأسطول العربيّ من الجزائر محتشدا في نافرين، حيث دمّر وهو يدافع عن الدّولة العربيّة الواحدة، انهمزت فرنسا الفرصة واحتلّت الجزائر سنة ١٨٣٠ ولم تفعل دولة الخلافة شيئا مضحيّة بإقليم عربيّ للمحافظة على الوجود التّركي. كذلك لم تفعل الخلافة شيئا عندما حاصرت فرنسا قصر الباي في تونس سنة ١٨٨١، لتفرض عليه معاهدة تمهّد بها لاحتلال تونس العربيّة. وفي ذلك العام أيضا تأمرت الخلافة التّركيّة مع الاستعمار الإنجليزيّ ضد ثورة «أولاد العرب» في مصر، وتمّ الاحتلال الإنجليزيّ سنة ١٨٨٢. ولم يلبث الإنجليزيّ أن قمعوا ثورة «العرب» في السّودان. فلمّا أن قضى الأمر قبل الأتراك مشاركة الإنجليزيّ في إدارة السّودان العربيّ اتّفاقا سنة ١٨٩٩. ومن قبل هذا كلّه احتلّ الإنجليزيّ الشّواطئ العربيّة على الخليج، وفي الجنوب، سلسلة من المعاهدات فرضت أولا على أمير الحجّ وعدن سنة ١٨٠٢، ثمّ أمير البحرين سنة ١٨١٤ ثمّ أمير... إلى آخر الأمراء والمشايخ والسّلاطين الّذين نشرت بهم إنجلترا احتلالها على طول شاطئ الجزيرة العربيّة. وبينما كانت الخلافة في تركيا تدير سياستها على أسس قوميّة تركيّة خالصة، فتعقد مع المستعمرين الأوربيين الاتّفاقات والمعاهدات، محاولة الإبقاء على وحدتها كأّمة (كادت الأّمة العربيّة أن تهضمها)، كان المستعمرون الأوربيّون يعقدون الاتّفاقات معا قسمة للوطن العربيّ فيما بينهم في اتّفاق سنة ١٩٠٢ تحتلّ فرنسا مراكش مقابل أن تحتلّ إيطاليا ليبيا وفي اتّفاق ١٩٠٤ تحتلّ إنجلترا مصر مقابل أن تحتلّ فرنسا المغرب. ويوم أن أصبح احتلال إقليم عربيّ شرطا، ومقابلا، لاحتلال إقليم عربيّ آخر، قدّم التّاريخ أكثر الأدلّة مرارة على وحدة المصير. وقد تحقّق المصير الواحد في مراكش سنة ١٩١١، وفي ليبيا ١٩١٣ وأعلن رسميا في مصر سنة ١٩١٤.

كان كلّ ذلك كافيا، وأكثر من كاف، ليدور الصّراع في قلب الإمبراطورية العثمانية المتداعية على أساس قوميّ خالص. في معركة الوجود القوميّ، أمة العرب ضدّ أمة التّرك. وعندما طرحت تركيا دستور الإسلام وأصدرت دستور ١٩٠٨، بدأت حركة تترك العرب، وأصبح الصّراع على الوجود القوميّ بين الأمتين سافرا. وكان طبيعيا أن تكون طليعة النّضال العربيّ، وضحاياه، من أولئك الذين لم يحسبهم الاستعمار الأوربيّ في الدّول التي اصطنعها، فحمل أبطال العروبة في المشرق العربيّ كلّ العبء الإقليميّ وإن كان السّتار الحديديّ الذي عزل به المستعمرون الأوربيّون الأجزاء المحتلّة عن معركة المصير الواحد، لم يمنع كثيرا من العرب في كلّ مكان من أن يسهموا في النّضال القوميّ، ولو كان الطّريق إليه هروبا إلى أوربا أو إلى الأستانة ذاتها. كان النّضال من منطلق قوميّ إلى غاية قومية. وبرغم دولة التّرك تأسست جمعية الإخاء العربيّ، وجمعية المنتدى الأدبيّ، وقامت منظمات سرّيّة، عسكريّة ومدنيّة، مثل الجمعية القحطانيّة، وجمعية العهد، وجمعية العربيّة الفتاة. وفي قلب البرلمان التّركيّ تكوّنت كتلة من النّواب العرب، تميّزت بعروبها في ظلّ الدّستور الواحد. كانت كلّها جهودا ثوريّة تهدف إلى استقلال العرب ووحدتهم ويسهم فيها أبناء العروبة من جميع الأقطار. وكان طبيعيا، عندما دخلت تركيا المستعمرة، حرب المستعمرين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، أن يحدّد العرب موقفهم على ضوء غايتهم القوميّة في الاستقلال والوحدة، فقامت الثّورة العربيّة ١٩١٦ ضدّ الأتراك، على اتّفاق مع أعدائهم أن يكون للعرب الاستقلال بعد النّصر. وانهزمت تركيا وانتصرت الثّورة العربيّة. أمّا العدو التّركيّ الذي انهزم فقد بقيت له وحدته. وأمّا الحليف العربيّ الذي انتصرف فقد مزّقه إربا. كذلك خطّطوا منذ البداية، وكذلك حقّقوا في النّهاية، وكذلك كنّا دولا، حتّى متصرفيّة «البلقاء» التي كانت قسما إداريا تابعا لولاية الشّام أصبحت دولة «شرق الأردن». وأكمل مصطفى كمال الشّروط فألغى

الحروف العربيّة واستعار الحروف اللاتينيّة، وأكمل المستعمرون الشّوط فجمعوا نفاية الرّجعيّين من أممهم ودقّوهم إسفيناً استعماريّاً في قلب الوطن العربيّ باسم إسرائيل.

كذلك كنّا دولاً في أمة واحدة، تحدّياً من التّاريخ لكلّ الإقليميّين. إنّ أحداً منهم لا يستطيع. مهما بلغ من التّبجّح. أن يضع إصبعه على خريطة «دولته» ويقول: أنا خطّطت حدودها. فقد رسمت حدود الدّول المتعدّدة على أرض الوطن العربيّ الواحد، بالخيانة أو الخديعة أو العدوان، وفي أيّ حال من تلك كانت تنفيذاً لإرادة المستعمرين وقهراً لإرادة العرب.

(الدّكتور عصمت سيف الدولة. «الأسس ٢»)

[حاشية ١]

جسر على السّويس

(١)

كان «نابليون بونابرت» هو صاحب المقولة الشهيرة «إنّ مصر هي أهمّ بلد في العالم».

ولقد صكّ «نابليون بونابرت» هذه العبارة، وفي خواطره ذلك الصّراع الإمبراطوريّ المتأجّج دائماً والدّامي أحياناً. بين بريطانيا وفرنسا اللّتين خلت لهما السّاحة الاستعماريّة بعد أن جرى حصر أو تحجيم قوى سبقت إلى البحار والقارّات البعيدة، ترفع عليها أعلامها، مقدمة لإخضاع شعوبها ونزح ثرواتها.

لقد جرى حصر أو تحجيم إمبراطوريّات إسبانيا وهولندا والبرتغال، واقتصرت ساحة الصّراع، بالتّالي، على بريطانيا وفرنسا وحدهما، وفي تلك اللّحظة بدا مؤكّداً أنّ مصر بالتّحديد أصبحت بؤرة الصّراع بين الإمبراطوريتين، فهي الدّرة الغالية في تاج الخلافة العثمانيّة الّتي تكالبت عليها كلّ العوامل المؤدّية حتماً إلى سقوط الدّول وأولّها غفلة السّلاطين عن أداء حقوق الرّعيّة، وما ينجم عن ذلك في المقابل،

وبالضرورة من سقوط عهود الولاء.

ووقع الشعب المصري فريسة الجماعات من الجند والمماليك والمشايخ، تجمعهم نزعة الاستغلال وتفرقهم قسمة غنائمه. في الوقت الذي كان فيه السباق الإمبراطوري يحوم حول مصر من كل الاتجاهات، والخطري يترص بها في البحار القريبة ينتظر اللحظة لكي ينقض.

وكانت الإمبراطورية البريطانية تزحف من الهند إلى شطآن الخليج العربي قاصدة عدن، وهي المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وهدفها النهائي اجتياز هذا البحر إلى الشمال حيث نقطة اقترابه من البحر الأبيض عند برزخ السويس.

وكانت الإمبراطورية الفرنسية التي قدّرت أن يتحوّل البحر الأبيض ليصبح بؤرة للصراع حاسمة مع عدوّها العتيد قد نقلت اهتمامها بسرعة إليه، فراحت تضغط على شواطئ شمال إفريقيا العربية الإسلامية، وراحت تمدّ بصرها من المغرب إلى المشرق وتفكّر وتخطّط. ثمّ قرّر «نابليون بوناپرت» أنّ أقصر الطرق أسرعها، فإذا هو يعبر البحر من طولون إلى مالطا، ومن مالطا إلى «أبوقير». إلى الإسكندرية والقاهرة مباشرة!

وفي إطار هذه الخريطة للصراع. كانت مصر بالفعل هي «أهمّ بلد في الدنيا».

وربّما لم يكن «نابليون بوناپرت» يتصوّر. حتّى في أكثر أحلامه جموحاً. أنّ بلاده. بعد قرن ونصف القرن وبضع سنوات. سوف تتحالّف مع عدوّها القديم (بريطانيا) في مغامرة مشتركة بغزو مصر سنة ١٩٥٦، وأنّ مصر في إطار صراع عالمي من نوع آخر وفي زمان مختلف. سوف تؤكّد من جديد أنّها «أهمّ بلد في الدنيا» وأنّ شعبيّ الذي رآه بنفسه منها من استغلال الجند والمماليك والمشايخ. سوف يقف وحده في ميدان قتال أمام غزو الإمبراطوريتين الكبيرتين.

وفيما بين معركة «أبوقير» البحريّة قبل أن يبدأ القرن التّاسع عشر، وحتى معركة السّويس بعد أن انتصف القرن العشرون. تغيّرت خريطة القوّة في العالم، وتبدّلت الموازين، واختلّفت قوانين الحركة. تدافعت أمواج عالية وعاتية في البحار والمحيطات طوال مسافة الزّمن بين بداية فجر القرن التّاسع عشر، وإلى ما بعد ظهر القرن العشرين:

... الحلف المقدّس للملوك الّذي هندس له «مترنيخ» مستشار النّمسا و«كاسلرو» وزير خارجيّة بريطانيا، سنة ١٨١٥، لكي يمسك بموازين أوروبا بعد هزيمة «نابليون». ... ثمّ إعلان المانيّستو الشّيعيّ سنة ١٨٤٨ بتوقيع «ماركس» و«إنجيلز».

... ثمّ قيام الوحدة الألمانيّة بتخطيط «بسمارك». وتحقيق الوحدة الإيطاليّة بتاج «عمانوئيل» الأوّل.

... ثمّ وصول القوّة البريطانيّة إلى مداها في عصر «فيكتوريا». ... ثمّ انكسارفرنسا في حرب السّبعين. غفلة من «نابليون الثالث». ... ثمّ خروج ألمانيا الموحّدة، وإيطاليا الموحّدة كلتاهما إلى دور استعماريّ راح يلحّ. وبتهديد القوّة إذا لزم. على إعادة طرح التّقسيم القائم للمستعمرات على نحو يكفل العدالة بين الغاصبين.

وحين أهلّ القرن العشرون كان تدافع المتغيّرات في العالم قد ازداد تعقيدا، فقد ظهرت مع بداياته إشارات وعلامات تومئ إلى أنّ هذا القرن قد يصبح قرن الرّأسماليّة الأمريكيّة.

واختلط القديم والجديد، وامتزج خطر الأفكار الرّاحفة مع خطر المدافع الرّابضة، وتصادمت الحقائق البازغة مع الأمر الواقع الّذي بدأ يضطرب أمام مهابة عصر من الاكتشافات العلميّة والجغرافيّة غيرت كلّ الآفاق والتّضاريس الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ولم تعد الخرائط

المعتمدة من قبل قادرة على تحمّل الضغوط النّازلة عليها. وبدأ أنّها تتمزّق. ووقعت الحرب العالميّة الأولى، وانتهت بالسّلام القلق والمتوتر الذي صاغته معاهدة «فرساي»!

وكانت دولة الخلافة الإسلاميّة في استانبول قد ذابت وتلاشت. في نفس الوقت الذي تحوّلت فيه الشّيعيّة من مانيفستو وقّعه «ماركس» و«إنجيلز» إلى دولة في روسيا أقامها «لينين» و«ستالين». وأدّى سلام «فرساي» المتوتر والقلق إلى ظهور فاشستيّة «موسوليني» في إيطاليا ونازيّة «هتلر» في ألمانيا، وعسكريّة «توجو» في اليابان، وتهمياً المسرح لحرب عالميّة ثانية عام ١٩٣٩.

وحين انتهت هذه الحرب العالميّة الثّانية، كانت مواقع القوّة قد انتقلت من مكّانها السّابقة إلى موقعين جديدين: واشنطن، وموسكو. وكانت تلك واحدة من أهمّ وأخطر عمليّات الانتقال لمراكز القوّة في التّاريخ، ذلك أنّ عمليّة الانتقال الجديّة لم تكن في إطار دول وإمبراطوريّات وإنّما أصبحت الدّول والإمبراطوريّات عقائد اجتماعيّة في نفس الوقت وفوق ذلك فإنّ أدوات القوّة المتاحة للمركّزين العالميّين الجديدين فتحت أبواب عصر يختلف عن كلّ ما سبق أن عرفته البشريّة طوال تاريخها من قبل، فهو العصر النّوويّ بكلّ محاذيره ومحظوراته!

(«سنوات الغليان»: ل: محمّد حسنين هيكّل)

.....

**** وقال إنّه كان لزاماً في ظلّ هذه الظّروف المتفجّرة، أن يتزلزل البناء داخل الأمتة، وتستسلم لضربات العدو الاستعماريّ، لغياب البدائل، والدور الطّليعيّ الذي كان يمكن أن تؤدّيه بعض الفئات الطّليعيّة؛ فكان بذلك الاستعمار، في أسوأ أشكاله، باسم المدنيّة الأوروبيّة، والمهمّة الحضاريّة، في مرحلة أولى؛ ثمّ الاستعمار المقنّع الذي فرضته الولايات المتّحدة الأمريكيّة على أكثر مناطق الوطن العربيّ أهميّة وثراء، في مرحلة ثانية، فصار الخليج العربيّ مطمورة تصبّ عائداتها مباشرة في خزينة**

أمريكا... ثم التَّجزئة، حيث نجح الاستعمار في هندسة خارطة الوطن الكبير، فاستحالت الخطوط طولانية، وعرضانية، على السَّواء، اعتباطا، إلى مثلثات، ومربَّعات، ومعيَّات، ومستطيلات، وذلك حسب القاعدة الاستعماريَّة الذَّهبيَّة الَّتِي تقول: «فرِّق تسد»؛ وليس هذا فحسب، فوفقا لنفس هذه القاعدة، يتيسَّر للقوى المستعمرة الاستغلال ومزيد الاستغلال، واستنزاف الإمكانيَّات الماديَّة والبشريَّة المتاحة... إذن، فمشاكلنا محدَّدة. وهي الاستعمار. التَّجزئة. الاستغلال؛ وتتطلَّب هذه المشاكل المحدَّدة حُلولا محدَّدة أيضا، تراعى فيها طبيعة المشاكل، مروراً بعملية الجدال الَّتِي تفترض صراعا بين ظروف الإنسان، بين ظروف الشعب، والطَّموحات والأمانِي الَّتِي يؤمِّلها هذا الإنسان أو ذاك الشعب؛ وحتى يكون الحلّ من جنس المشكلة، وجب التَّزام الخطوات الأساسيّة للجدل: التَّذكُّر. الإدراك. التَّصوُّر. العمل؛ ووفقا لهذه الخطوات تكون حلول الاستعمار. التَّجزئة. الاستغلال هي الحرِّيَّة. الوحدة. الاشتراكيَّة... وعلى هذا الأساس، ومن نفس المنطلق، كان لا بدّ لهذا الوطن الكبير. ولهذه الأُمَّة المقيَّدة، من مهندس مهندس لهذه الحرِّيَّة، ويخطِّط لهذه الوحدة، ويستشرف حدود الاشتراكيَّة المؤمَّلة... وهذا المهندس هو الطَّليعة... إنَّها الطَّليعة العربيَّة!!

.....

[حاشية ١١]

فصل في جدل الإنسان:

كما أنَّ المعرفة العلميَّة بسيطة وغير غامضة فإنَّ جدل الإنسان بسيط وغير غامض إذ نلمسه في كلّ حركة من حركاتنا اليوميَّة. فالإنسان كما أنَّه كائن عضويّ مكوَّن من لحم ودم وعظم وآلاف المركَّبات الكيميائيَّة، كائن ذكيّ أيضا، فهو وحدة نوعيَّة من الذِّكاء والمادَّة. وقد استطاع أن يكشف كثيرا من القوانين الَّتِي تنظِّم نشاط الإنسان وأن يثبتها بالاختبار والتَّجربة. وليس الطَّبَّ البشريّ إلّا فرعا

من تلك العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوعا للدراسة، ومن بينها أيضا علم النفس. وعلم النفس وإن كان حديثا لم يكتمل بعد فئمة حقائق أولية ثابتة به وحتى بدونه من الملاحظة العادية، وهي أنّ للإنسان قدرة على التذكروالإدراك والتصور والعمل. إذا كان بافلوف العالم الروسي قد استطاع أن يدرس المخ في المعمل «بوصفه الجهاز الخاص بالعلاقات بين الكائن العضوي كله وبين الوسط المحيط به.» فلا شك في أنه عرف الذاكرة والإدراك والمخيلة كحقائق علمية لا يرقى إليها الشك. وقد عرفنا نحن القدرة على العمل بدون معامل. والتذكر استرجاع الماضي. فالماضي الذي لا تدركه سائر الكائنات لا ينقضي بالنسبة إلى الإنسان بل يحتفظ به ويسترجعه في ذاكرته. ويستطيع أن يدرك الروابط التي حكمته وعلل وقوعه، ثم يستطيع أن يتصور المستقبل مستخدما ذات العناصر التي استرجعها من الماضي، وأن يعيد تركيبها على أساس القوانين التي أدركها. وبذلك القدرة على استرجاع الماضي وإدراكه وتصور المستقبل يتحدد بأي نمط من سلوك الإنسان. فالذي يحس بالجوع مثلا يسترجع تجارب الإحساس بالجوع في الماضي ويدرك أنّ بقاءه بدون سعي إلى الطعام يؤدي إلى مزيد من الجوع فيتحرّك ويذهب إلى منزله ويأكل فيشبع أي يحلّ مشكلة الجوع. وبذلك يغيّر بإرادته وعمله السير التلقائي للظروف ليحقق نتيجة ملائمة لحاجته. وإذا استيقظ موظف في الصباح فإنه يتذكر من ماضيه أنّه إذا لم يذهب إلى مقرّ عمله في الساعة الثامنة صباحا فإنه سيخضم من مرتبه أجريوم، ثم يدرك أنّه لو ظلّ في مخدعه فإنه لن يكون في مكتبه في الساعة المحددة، فينهض إراديا ليغادر منزله إلى حيث يكون موجودا في الموعد المحدد. وإذا أخذنا مثلا أكثر تعقيدا أحد موضوعات التخطيط الاقتصادي، نجد أنّ الخبراء يدرسون ما تجمّع من إحصائيات عن الزيادة السنوية لعدد السكّان في السنوات العشر الماضية. ويدركون معدّل الزيادة السنوي، ويدرسون إحصائيات الزيادة في إنتاج المواد

الغذائية. ويدركون أنّ السّكان كانوا يتزايدون في الماضي بنسبة تزيد على معدّل الزّيادة في إنتاج الموادّ الغذائية، فيتوقعون أنّ استمرار هذا في المستقبل أي السّير التّلقائيّ للظّروف سيؤدّي إلى أنّه بعد عدد معيّن من السّنين لن تكفي الموادّ الغذائية حاجة الشّعب، فيضعون خطة برفع نسبة إنتاج الموادّ الغذائية، أي يغيّرون السّير التّلقائيّ للظّروف بحيث أنّه في الموعد الذي كان متوقّعا للمجاعة يجد الشّعب كفايته من الموادّ الغذائية. وعلى ضوء هذا يمكن فهم جميع الأمثلة التي ضرمها الماديّون الجدليون للجدل في موضوعات اجتماعيّة أي متضمّنة الإنسان، ومنها المثل الذي سبق أن نقلناه والذي ضربه بولتزر ليدلّل على القانون الجدليّ الرّابع، مثل الصّراع بين الجهل والمعرفة في حركة دراسة الماركسيّة.

هذه الحركة نفسها هي الجدليّة التي قلنا إنّها خاصّة بالإنسان... يهّمنا هنا أن نسارع إلى القول بأنّ كون الحركة الجدليّة تتضمّن «التّدكّر فالإدراك، فال تصوّير» لا يعني أنّها حركة فكريّة، وأنّ الجدل جدل فكريّ، فال تذكّر هو تذكّر يشمل المادّة، والإدراك يشمل إدراك قوانين المادّة، والتّصوير تركيب ذهنيّ للمادّة. فالمادّة هي محتوى الفكر، والفكر محيطها الذي يتحدّد بها وتتحدّد به، وتكون معه وحدة لا يمكن انفصامها. ولذا قلنا إنّ جدل الإنسان، ولم نقل إنّ جدل الفكر، فالفكر ليس إلّا خاصّة من خصائص ذلك الكائن من مادّة وذكاء الذي يسمّى الإنسان. وقد قلنا إنّ العمل . وهو ماديّ . هو الحركة الأخيرة في الجدل. فالحركة الجدليّة إذ تبدأ من مشكلة تسهم فيها المادّة تنتهي إلى حلّ ماديّ يسهم فيه الفكر.

لو كانت هذه الحركة التي يقوم بها الإنسان والتي تضبط أيّ نمط من سلوكه وبالتالي تعتبر بالنسبة إليه قانونا نوعيا حركة جدليّة لكان حتما أن تكون منظوية على نقيضين في محتوى واحد، وأن يكون التّقيضان في صراع دائم، وأن يخرج من الصّراع شيء ثالث أكثر تقدّما

من النقيضين.

النقيضان في جدل الإنسان هما الماضي والمستقبل اللذان يتبع أحدهما الآخر ويلغيه ولا يلتقي به قط، ومع هذا يجمعهما الإنسان ويضعهما وجها إلى وجه في ذاته.

والماضي . بالنسبة إلى الإنسان . ماديّ جامد غير متوقّف عليه وغير قابل للتغيير، وبمجرد وقوعه يفلت من إمكانية الإلغاء. ولكن الإنسان إذ يعرف عن طريق استرجاعه كيف وقع يدرك امتداده التلقائي في المستقبل. والمستقبل بالنسبة إلى الإنسان تصوّر لا يحده قيد من الزمان أو المكان. وأقصى مستقبل لأيّ إنسان أن تتحقّق جميع احتياجاته. وفي الإنسان يجتمع النقيضان وتثور المشكلة بالصراع بين الماضي ممتدّا تلقائيًا في المستقبل، وبين المستقبل الذي يريده الإنسان. بين الماضي يريد أن يمتدّ فيلغي ما يريده الإنسان، وبين ما يريده الإنسان يريد أن يتحقّق فيلغي امتداد الماضي. وتكون المشكلة . التي تعبّر عن الصراع . هي ذلك الفرق بين الواقع المسترجع من الماضي والمستقبل الذي يريده الإنسان. ويعبّر عنه تعبيرًا سلبيًا بالحاجة، أي شعور الذات بعدم الاكتفاء (من تجربة الماضي) ونزوعها إلى الاكتفاء (في المستقبل) ومقاومة الظروف (الماضي ممتدّا تلقائيًا في المستقبل) لإشباع تلك الحاجة. وبقدر ما يكون الفرق كبيرًا يكون التناقض عميقًا، فيكون الصراع قويًا، فتكون المشكلة حادة وبقدر ما يسترجع الإنسان من ماضيه يتصوّر من مستقبله ويتحدّد شمول المشكلة التي لا بدّ من حلّها. ويظلّ الصراع قائمًا: ظروف الماضي تفرض نفسها على المستقبل وتقاوم الإلغاء لتلغي المستقبل الذي يتصوّره الإنسان لنفسه، والمستقبل الذي يريده الإنسان ويتصوّره يفرض نفسه ليتحقّق فيلغي ظروف الماضي من المستقبل. ويتمّ الصراع بين الماضي والمستقبل حيث يلتقيان، ولا نقول الحاضر إذ لا وجود لما يسمى الحاضر بين الماضي والمستقبل إلا إذا ألغينا الزمان. عند نقطة الالتقاء

تلك . وفي الإنسان . يكون الصِّراع ويكون الحلّ الذي يتحقّق بالعمل متضمّنا إضافة جديدة.

أما كيف يحلّ التناقض فقد قلنا: إنّ صراع النقيضين يطرح المشكلة التي لا بدّ أن تحلّ، ثمّ يستعمل الإنسان إدراكه ليعرف كيف نشأت مشكلة، أي ما هو وجه التناقض بين الظّروف وحاجته (الظّروف تعبير عن امتداد الماضي والحاجة تعبير عن المستقبل الذي يريده) ويستفيد الإنسان من قدرته على معرفة الماضي وقوانين وقوعه ليعدّل شروط تحقّق تلك القوانين، ويحول دون استمرار الماضي في المستقبل وهو ما أسميناه الامتداد التلقائي للظّروف، كما يستفيد من معرفته العلميّة للظّروف لتعديل المستقبل الذي يتصوّره إلى المستقبل «الممكن علميّا»، أي يجد حلاّ يتضمّن ما يريده الإنسان، وتسمح به قوانين الظّروف معا. هذا الحلّ يتحقّق بالعمل الماديّ أو الذهنيّ تبعا لطبيعة المشكلة. هذا الحلّ يلغي من الظّروف كما يحدّدها الماضي ما لا يتفق مع المستقبل كما يريده الإنسان ويلغي من المستقبل الذي أراده الإنسان ما لا يتفق مع إمكانيّات الظّروف وقوانين تغييرها النوعيّة. فيخلق في كلّ لحظة وفي كلّ مكان . مستقبلا متّفقا مع حاجة الإنسان وظروفه، أي خاليا من جمود الماضي وخيال المستقبل. أمّا أداة الحلّ فهو العمل، الذي يحلّ التناقض وتتمّ به الحركة الجدليّة.

كيف تتّسق الحركة الجدليّة بعد هذا؟

بفعل الماضي والمستقبل ذاتهما. إذ أنّ الحلّ الذي يتحقّق بالعمل إضافة ينتهي بها تناقض، وينشأ بها تناقض جديد، لأنّ ما يتحقّق فعلا يلحق فور تحقّقه بالماضي فالزّمان لا يتوقّف. ولذلك تنشأ نقطة التّقاء جديدة بين الماضي والمستقبل، أي صراع جديد ومشكلة جديدة. ويسهم الحلّ الذي كان مستقبلا ثمّ أصبح ماضيا بتحقّقه في إغناء الماضي الذي يسترجعه الإنسان وهو يواجه مستقبله الجديد، فيزيد من مدى تصوّره المستقبل، ويكشف له مدى جديدا من حاجاته

وينشأ بذلك صراع جديد ثم يحلّ وهكذا. وكلّ ما يتحقّق في الواقع يعتبر خطوة إلى الأمام، لأنّه إضافة. وهكذا تتتابع المشكلات وتتتابع الحلول ويتقدّم الإنسان وحاجته معلّقة دائماً على بعد أمامه في سباقه مع ظروفه، يندفع إلى المستقبل وكلّما حقّق جزءاً من مضمونه امتدّ أمامه وظلّ مستقبلاً ذا مضمون جديد وفي تاريخ الإنسان سار هذا الجدال من البسيط إلى المركّب، ومن المحدود إلى الأكثر شمولاً، وكلّما زادت تجارب الإنسان اغتنّت ذاكرته فالتسّعت تصوّراته، وزادت حاجته فزادت مشكلاته، فأبدع لها مزيداً من الحلول. ولهذا لم يستوتقدّم الإنسان على نسبة واحدة وأصبح يحلّ في شهور ما كان يحلّه في قرون مع أنّ مشكلاته قد تضاعفت أضعافاً.

وإذا كان الجدال قانوناً خاصاً بنوع الإنسان فالإنسان لا يفلت من القوانين الكليّة التي تحكم الطّبيعة، وهو جزء منها يتأثّر ويؤثّر في حركة دائمة وتغيّر مستمرّ، وتحكمه تلك القوانين كوحدة من الذكاء والمادّة، فهو لا يستطيع مهما كان ذكياً أن ينفصل عن الظروف التي تحيط به، أو لا يتأثّر بها، أو أن يتوقّف عن التّأثير فيها. ولا يستطيع مهما كانت إرادته أن يثبت نفسه فلا يتغيّر عضويّاً وفكريّاً. كما لا يستطيع مهما بلغ من تصوّره أن يخلق طبيعة غير الطّبيعة الموجودة فعلاً والتي تشملها. لهذا فإنّ جدل الإنسان كقانون يعطلّ إذا لم يكن الجدال في حركته مستنداً إلى المعرفة الصّحيحة للطّبيعة وقوانينها واستعمال تلك القوانين استعمالاً صحيحاً. وإذا كنّا قد ذكرنا من قبل أنّ كلّ قانون مشروط حتّى لو لم يظهر الشرط في صياغته فإنّا نقول هنا: إنّ المعرفة العلميّة بقوانين الطّبيعة هي شرط قانون الجدال. فالقول بأنّ الجدال يتمّ بدون أن تتحقّق المعرفة العلميّة الصّحيحة بقوانين الطّبيعة كالقول بأنّ الماء يصبح بخاراً في الضّغط العاديّ بدون حرارة وكلاهما لغو غير علميّ. ومن هنا يختلف جدل الإنسان عن الجدليّة المثاليّة. لأنّ التّناقض لا يقوم بين أفكار ويحلّ بأفكار بعيداً عن المادّة، ولكنّه تناقض بين ماضٍ

مادّي وتصوّر مستقبل للمادة يحلّ بتشكيل ذكيّ للمادة. فجدل الإنسان يسفر عن إبداع واقعيّ، وجدل الفكر لا يسفر إلاّ عن أفكار معلّقة في رؤوس أصحابها. ويختلف جدل الإنسان عن الماديّة الآليّة التي يعبر عنها لابلاس فيما نقله عنه جايتان بيرو في «مقدّمة الاقتصاد السياسيّ» بقوله: «لو أمكن لعقل ما أن يعرف في لحظة معيّنة كلّ القوى التي تقود الطّبيعة والوضع الدّسيّ للكائنات التي تكوّنها، ولو كان من ناحية أخرى من السّعة بحيث يستطيع أن يخضع كلّ هذه المعطيات للتحليل لكان هذا العقل قادرا على أن يضمّ في صيغة واحدة حركات أكبر الأجسام في الكون، وحركات أخفّ الدّزّات فيه وعندئذ يصبح واثقا من كلّ شيء، كما أنّ المستقبل والماضي يصبحان حاضرين أمام عينيه»، فإنّ جدل الإنسان يضيف: وعندئذ يكون الإنسان الذي يحمل ذلك العقل قادرا بالعمل المناسب على تحقيق المستقبل الذي يريده. كذلك يختلف عن الجدليّة الماديّة لأنّ الجدل لا يتمّ إلاّ في الإنسان فهو الجدليّ الوحيد والمادة غير جدليّة.

عن طريق جدل الإنسان يقود الإنسان مصيره ويبعد مستقبله. وقد استطاع فعلا أن يحقّق هذا في المجالات التي أحاطت بها المعرفة العلميّة. فاستطاع العلماء أن يطلقوا الصّواريخ كتلا ثقيلة إلى أماد بعيدة في الفضاء. وقبل أن تنطلق الصّواريخ كانت موادّ راكدة نسبيا تحوّلت إلى صواريخ بعد أن أضاف إليها جدل الإنسان حلاّ نظريّا لعدد من المشكلات، واستعمالا بارعا لقوانين الطّبيعة ذاتها ثمّ نفّذها عملا هو وحده القادر عليه. وكلّما زادت معرفة الإنسان الطّروف المحيطة به، وقوانين حركتها كانت حلوله لمشكلاتها أكثر قابليّة للتحقيق، أي كانت إرادته أكثر تأثيرا في مستقبله.

وفي التّطبيق أي تنفيذ حلّ لمشكلة يتبيّن الدّليل الحاسم على ما إذا كنّا قد استخدمنا مقدرتنا الجدليّة استخداما صحيحا أم لا. قال فريدريك إنجلز فيما نقله عنه بولتزر في كتابه «المبادئ الأساسيّة

للفلسفة»: «بمجرد أن نستخدم هذه الأشياء استخداما خاصا بنا على أساس الصفات التي ندرکها فيها نضع بذلك دقة إدراکنا الحسی أو عدم دقته في محک اختبار لا یخطئ، فإذا کان إدراکنا خاطئا کان من الخطأ استعمال الشئ الذي أوحى لنا به ومن ثمّ لزم أن تفشل محاولتنا. أمّا إذا نجحنا في بلوغ هدفنا، وإذا قرّرنا أنّ الشئ یتطابق تصوّرنا له، وأنّه يعطينا ما کنا ننتظره من استعماله، فإنّ هذا یكون الدلیل الإيجابي على أنّ إدراکنا الشئ وصفاته یتفق في حدود هذا الاستعمال مع الواقع الموجود خارجنا. وإذا انقلب الأمر وفشلنا فإننا لن نلبث أن نکشف عن فشلنا: إمّا بأن نجد أنّ الإدراک الذي کان أساس محاولتنا ناقص أو سطحيّ في حدّ ذاته، وإمّا بأن نجد أنّه ارتبط بمعطيات إدراک آخر بطريقة لا یبرّرها الواقع، وهذا ما نسمیه بالتدلیل الخاطی. وبقدر ما نهتمّ بتثقیف حواسنا واستخدامها استخداما صحیحا... وبقدر ما نقصر فعلنا على الحدود التي یرسومها لنا إدراکنا المتحصّل بطريقة صحیحة (أي تحت توجيه العلم) والمستخدم استخداما صحیحا، بقدر ما نجد أنّ نتيجة فعلنا تبرهن على اتّفاق إدراکنا مع الطبیعة الموضوعیة للأشياء المدركة». وما قاله إنجلز تطبیق دقیق «لجدل الإنسان» ولكن ليس معنى هذا أنّ «جدل الإنسان» لا یختلف عن الجدلیة المادیة، بل معناه أنّنا إذا جرّدنا الحلول الصّحیحة التي یقولها الجدلیون المادیون من القشرة المادیة التي یغلّفونها بها نجد أنفسنا أمام الحلول التي یقول بها «جدل الإنسان». فقد استطاع إنجلز مثلا. أن یبتکر فیما قاله ترکیبا لغویا هو «تثقیف الحواس» لیصغ الجملة بصیغة مادیة. ولكنّه لم یستطع أن یجد کلاما یحلّ محلّ کلماته: «على أساس الصفات التي ندرکها» وهي حصیلة الذّاكرة و«قرّرنا أنّ الشئ یتطابق تصوّرنا له» وهي المعرفة العلمیة و«يعطينا ما کنا ننتظره» وهو تصوّر الحلّ نضعه للمشکلة. وکلّ هذه عناصر من الإنسان الذّکی الذي یختفي في ضمیر المتکلم.

والواقع أنَّ هذه الفكرة البسيطة: «جدل الإنسان» تفسّر تفسيراً علمياً تلك الظاهرة التي أثارت أعنف المناقشات ونعني بها البدهيات. وعلى ضوءها. وليس على ضوء الجدلية المادية. يمكن أن نفهم ما قاله مؤلفو «أسس الماركسيّة. اللينينية» من أن «قوة الفكر تتمثل في قدرته على تجاوز اللحظة الحاضرة، بإدراك الماضي وتصور المستقبل بواسطة القوانين التي اكتشفها». وقولهم: «يوفق الحيوان بين ذاته وبين الطبيعة سلبياً مستفيداً بما تقدّمه الطبيعة ذاتها. أمّا الإنسان فيوفق بين نفسه وبين الطبيعة إيجابياً، فيغيّر الطبيعة ليحقّق غايته، ويخلق لنفسه ظروفاً لوجود لم تكن معدّة له» وقولهم: «إنّ القوانين التاريخية ذاتها لا تصنع التاريخ بدون الإنسان. إنّما يتحدّد مجرى التاريخ خلال عمل الإنسان فقط: النضال والتوجيه الواعي لجهود الملايين من الناس»... إلخ.

إنّ كلّ هذا يعني بوضوح، أنّ الظروف بدون الإنسان، بما فيها الحيوان والطبيعة والتاريخ، لا تصنع المستقبل، أي أنّ قوانين تحوّلها أو «تطورها» لا تفسّر كيف تطوّر الإنسان، وكيف تطوّرت الطبيعة في ظلّ الإنسان وبفعله، وأنّه لكي نفهم تلك العملية الخلاقة التي غيّر بها الإنسان نفسه وغيّر الطبيعة معه، لا بدّ أن نرجع إلى الإنسان وقوانينه. ولما كان الخلق والإضافة حصيلة التطور الجدليّ، فإنّ الجدل أحد قوانين الإنسان النوعيّة، وإنّ كلّ شيء عدا الإنسان «ليس جدليّاً».

وفكرة «جدل الإنسان» تستطيع أن تكشف لنا مدى صدق لينين، عندما استطاع أن يقول في الجزء ٣٨ من كتاباته، بالرغم من الضّرورة السياسيّة للتّعصّب الماركسيّ:

«من واقع الحياة إلى التفكير المجرد، ثمّ من التفكير المجرد إلى الممارسة العمليّة، تلك هي عمليّة الجدل لمعرفة الحقيقة، أي معرفة الواقع الموضوعيّ.»

كلّ ما فعلناه، أنّنا قد تحرّنا من التّعصّب للماركسيّة أو لغير الماركسيّة فاستطعنا أن نقول بصراحة وحسم، إنّ الطبيعة غير

جدلية، وإنَّ الإنسان جدلي وإنَّ الطَّبيعة تتحوَّل وإنَّ الإنسان يتطوَّر وإنَّ الطَّبيعة خالية من التَّنَاقُض والإنسان هو محتوَى التَّنَاقُض والصَّرَاع. وإنَّ الطَّبيعة لا تَفْنَى ولا تتجدَّد وإنَّ الإنسان يخلق كلَّ يوم جديداً في نفسه وفي الطَّبيعة.

(«نظرية الثَّورة العربيَّة». (الأسس ١) ل: الدَّكتور عصمت سيف الدَّولة)

[حاشية ١٢]

فصل عن الغايات من «الغايات»:

وبعد،

فإنَّ غاياتنا تبدو متعدّدة: استرداد فلسطين، التَّحرُّر من الاستعمار، الوحدة، الدِّيمقراطيَّة، الاشتراكيَّة... مع أنَّنا قد قدَّمنا لها بأنَّنا نبحث عن حلٍّ لمشكلة واحدة متواضعة: الحياة بما هو متاح في الأرض. لا أكثر ولا أقلَّ. فكيف تكون كلَّ هذه الغايات حلاً لمشكلة واحدة؟ لأنَّها غاية واحدة. إنَّها دولة الوحدة الدِّيمقراطيَّة الاشتراكيَّة. التَّحرير استرداد لأرضها. والوحدة شكلها السِّياسي. والدِّيمقراطيَّة أسلوب شعبها في التَّطوُّر. والاشتراكيَّة نظامها الاقتصادي في التَّطوُّر. لا أكثر.

ليست لنا غايات متعدّدة إذن. ليست غاياتنا الحرِّيَّة والوحدة والاشتراكيَّة. إنَّ هذا شعارنا. أمَّا الغاية العينيَّة لنضالنا في هذه المرحلة من تاريخ أمَّتنا العربيَّة فهي: إقامة دولة الوحدة الدِّيمقراطيَّة الاشتراكيَّة في الوطن العربيِّ. على هذه الغاية نلتقي وبها نلتزم وإلها نحتكم.

(«نظرية الثَّورة العربيَّة». (الغايات) ل: الدَّكتور عصمت سيف الدَّولة)

من الطليعة العربية...؟

(١)

ضرورة

عرفنا من الأسس أن الظروف غير جدلية، وأن الإنسان وحده هو مبدع مستقبله وقائد مصيره، وأن الزمان وحده لن يحلّ مشكلات الوطن العربيّ، بل لا بدّ من قوّة إنسانيّة تتصدّى لمواجهة تلك المشكلات، على يقين منها بأنّ جهودها الخلاقة هي الطريق الوحيد إلى تحقيق المستقبل، وأنّ ما يبدو مستحيلا لا يستحيل على مقدرة الإنسان أن تنجزه. من هنا يكون وجود الطليعة العربية ضرورة قوميّة، إذ هي قائدة التطوّر إلى الحرّية والوحدة والاشتراكية. فهي التجسيد الحيّ لمصير الأمة العربية وأداة تحقيق هذا المصير. هذا حتم علمي لا يتحقّق المستقبل الحرّ إلّا به... كذلك تدرك الطليعة العربية ذاتها إدراك الواثق بحتميّة وجوده لتحقيق مصير أمته.

(٢)

وتنظيم

إنّ وعي الطليعة العربية أنّ الحلّ الجدليّ للمشكلات لا يتأتّى إلّا بالمعرفة الجماعيّة لها، والتّصميم الجماعيّ للحلول، والتّنفيد الجماعيّ للمستقبل، يحتمّ عليها أن تكوّن تنظيما جماعيا يلتحم داخله كلّ التّقدميين الثّوريين في حركة عربيّة واحدة، يتبادلون خلالها الجدل، فيصقل كلّ منهم وعي أخيه، ويغني ثقافته، ويدعم نضاله، في سبيل الحرّية والوحدة والاشتراكية.

(٣)

عقائديّ

إذا كانت الطليعة العربية تهدف إلى تحقيق الحرّية والوحدة والاشتراكية، فإنّها تتجاوز في هذا كلّ الحركات السياسيّة القائمة في

الوطن العربي، التي رفعت شعارات الوحدة، أو الحرية، أو الاشتراكية، أو كلها معا. فأغلب تلك الحركات تفتقر إلى الحلول متأثرة في هذا بالظروف المتغيرة، فلا تزيد على أن تكون رد فعل لا بد من أن يتغير بتغير الظروف التي خلقتها، ويزول بزوالها. غير أنها تزعم أن حلولها مبادئ وقواعد فكرية، ثم تسمي نفسها حركات عقائدية. وما أن تتغير الظروف المتغيرة حتما. حتى يتسع الشق بين الحركة المنغلقة على مبادئها وبين الظروف المتغيرة دائما. وتلهث الحركات، التي تدعي لنفسها القيادة، وراء الظروف محاولة إدراكها، وعبثا تجري، أو تقفز، فإن الوقت الذي كان لازما لدعوة الجماهير وتنظيمها وقيادتها إلى تطبيق حلول الانطلاق، كان كافيا أيضا لتسبق الظروف ما اجتمعوا عليه ونظموا أنفسهم من أجله. وعندما يحين وقت التنفيذ، تكون المشكلات قد تجاوزت الحلول والمبادئ والوعود. ويكون الشق قد اتسع حتى أصبح هاوية، يتردى فيها الداعون والمدعوون، فيتهم بعضهم بعضا، وتآكل الحركات نفسها ويأكل منها غيرها، وتترك وراءها خيبة أمل تعرقل النضال العربي. وهكذا كان الارتباط الجماهيري بحلول لا يربطها ذاتها أساس فكري واحد يمثل جرثومة الضحالة الفكرية التي فتكت بكثير من الحركات السياسية العربية.

لهذا تبدأ الطليعة بالبداية. والبداية منهجها العقائدي الواضح المحدد، الذي يصلح لتقييم المشكلات ومعرفتها، وينير الطريق إلى حلولها. ويرسم النضال في سبيل المستقبل، ويقوم حكما غير جاهل عندما يختلف الرأي، فيكشف الحق والباطل، وبذلك تكون الطليعة العربية قادرة دائما على قيادة الظروف مهما تغيرت مضمونها. ومهما تعقدت وتحصن ضد وباء الانتهازية الذي يسر الكثيرين ركوب أمواج الثورات الشعبية، ثم تغيير جلودهم بين حين وحين. إن وحدة المنهج هي الرباط الذي يحفظ للطليعة العربية وحدتها وينسق نضالها ويحكم بين أعضائها، ويساعدها على أن تضع لنفسها برنامجا للتطبيق تحدّد به مسؤوليتها أمام الجماهير العربية.

(٤)

قومي

ويحدّد وعي الطليعة العربيّة وجودها القوميّ ميدان نضالها، فتنظّمه وتديره على مستوى الأمة العربيّة كلّها، رفضاً للتجزئة وتحقيقاً للوحدة في ذاتها؛ ليمتدّ إدراكها إلى منبت كلّ مشكلة في الوطن العربيّ، فتعرفها على حقيقتها، ولتقدّم لها الحلول السليمة مستفيدة في هذا بإمكانيّات الكلّ لحلّ مشكلات الأجزاء ومشكلات الكلّ جميعاً. غير أنّ الطليعة العربيّة تعرف عن طريق منهجها الفكريّ أنّ كلّ مشكلة تحلّ في حدود ما تقدّمه الظروف من إمكانيّات، ولا تحلّ بالأمانى المثاليّة. وتعرف، من ناحية أخرى، أنّ تجزئة الوطن العربيّ قد تركت أثراً متفاوتة على مستوى تطوّر الأجزاء، ونوع بعض المشكلات المحليّة الّتي تطرحها. لهذا فإنّ وحدة الطليعة العربيّة كحركة وتنظيم لا تمنع أن تكون الطليعة العربيّة في كلّ جزء متميّزة عنها في باقي الأجزاء بعَبء مضاف إلى رسالتها القوميّة، ينعكس عليها تنظيمًا فرعيًا من التّنظيم الواحد، ونضالاً محليًا مضافاً إلى نضالها القوميّ. وقد ينعكس هذا على نوع التّنظيم والنضال، فهي مقاتلة حيث الاستعمار والرجعيّة الباغية، مسالمة حيث الديمقراطيّة، علنيّة حيث الحرّيّة، سرّيّة حيث الاستبداد، تكافح في كلّ الظروف طبقاً لإمكانيّاتها، منطلقة من الواقع المتخلّف إلى أقصى ما أدركته الأجزاء المتقدّمة، في إطار الغايات القوميّة الّتي تمثّلها الطليعة العربيّة ككلّ، مستعينة في هذا بكلّ إمكانيّات الطليعة العربيّة كتنظيم قوميّ واحد.

(٥)

ديمقراطيّ

ويحتّم وعي الطليعة العربيّة أنّ الجدل الاجتماعيّ هو الأسلوب العلميّ الوحيد لمواجهة الظروف، وحلّ مشكلاتها، وتحقيق المستقبل، ووعياً أنّ الصّراع يعوق الجدل، أن تطهّر نفسها من إمكانيّات الصّراع

في داخلها بأن تنظّم تنظيمًا حديدًا على أسس ديمقراطية صلبة: حرية الرأي للجميع، وعمل الجميع تنفيذًا لرأي الأغلبية، أيًا كان نوع التنظيم الذي تسمح به الظروف في الأجزاء، فإن ديمقراطية التنظيم في الطليعة العربية مميّز لها كطليعة، وحصانة لها ضدّ التخريب والانحراف والانتهازية والفاشية، لا تهاون في هذا، ولا استثناء، مهما كانت الظروف. ولو كان على حساب المقدرة الوقتية على النضال السياسي، فإنّ المقدرة غير الديمقراطية مغامرة، ولو كان على حساب الكثرة فإنّ الكثير الفاسد، فساد كثير.

«حرية الرأي للجميع، وعمل الجميع تنفيذًا لرأي الأغلبية»، قاعدة ديمقراطية مفروضة على الجميع أيّ انحراف عنها رجعية قاتلة.

(٦)

في سبيل الوحدة

ينطلق نضال الطليعة العربية على أساس أنّ الوجود القومي شرط التطور، فتعي، وتخطّط وتناضل على هدي وعيها، لتحرير الوطن العربي من الاستعمار الظاهر والاستعمار الخفي، وتقتلع السرطان الصهيوني اقتلاعًا، مدركة في هذا أنّ تحرير الوطن العربي من العدوان عليه أول خطوة إلى تطويره، وأنّ تطويره الكامل لا يتمّ إلاّ بالوحدة السياسية. بهذا الوعي القومي تقاتل الطليعة العربية الاستعمار والصهيونية وتسحق المستعمرين وعملاءهم. لا رحمة في هذا أو تردّد. ثمّ تفرض الطليعة العربية الوحدة على إثر التحرّر، لا تقبل في هذا عذرا ولا تسمح للرجعية الإقليمية في أيّ جزء بأن تبقى التجزئة لحسابها، وأن تعطل انطلاق الشعب العربي بقيود من الدّاخل بعد تحطيم القيود التي كانت مفروضة عليه من الخارج. والوحدة السياسية عند الطليعة العربية حتم لأنّها التعبير السياسي عن الوجود القومي السابق عليها، لا تتطلب شرطًا سوى التحرّر من إرادة الاستعمار التي فرضت عليه التجزئة. فوعي الطليعة العربية الوجود القومي لا يعرف سبيلا إلى الوحدة إلاّ أن

ترفع الحواجز ليلتحم الشعب العربي في جدل حياتي يحقق به مصيره الواحد. ولا تنتظر الطليعة العربية حتى تكون المشكلات في كل جزء قد حلت لكي تحقق الوحدة، لأنها تعلم أن الوحدة العضوية للأمة العربية تعني ألا تحل مشكلات الأجزاء حلاً سليماً إلا في الكل الشامل. بهذه الثورية ترفض الطليعة العربية تبرير الإبقاء على التجزئة بأثار التجزئة، وترفض أن توضع منها شرط لإلغاء ما يمزق الكيان الواحد. غير أن الأسلوب العلمي الذي تنتهجه الطليعة العربية لا يسمح للمثالية أن تضللها فتتجاهل ما تتطلبه المشكلات المحلية من إرادات محلية لأنها تعلم أن الدولة القومية لا تلغي الإرادات المحلية بل تدعمها، وتمدها بمزيد من المقدرة على مواجهة ما تطرحه الظروف المحلية من مشكلات، إضافة من إمكانيات الأمة الواحدة إلى أبناء الأمة الواحدة في أي مكان من الوطن العربي. كما أنها لا تتجاهل ما صنعتته التجزئة، التي امتد بها الزمن، من أثار تنظيمية واجتماعية، ميزت بها الأجزاء في مدى التقدم الحضاري، وبما صاغته من ألوان الحياة، فهي تدرك أن هذا ذاته مشكلة يجب أن تحل بالقضاء على التمايز المصطنع، وأن أسلوب حلها يجب أن يكون علمياً، وتصبر في ظل الوحدة. على ما يبقى من أثار التجزئة، باذلة الجهد المضاعف لتطهير الوطن العربي من تلك الآثار.

(٧)

والحرية

في سبيل الحرية، حرية الإنسان العربي، وكل إنسان، تناضل الطليعة العربية على أساس أن الحرية ليست مقدرة على الفوضى ولكن مقدرة على التطور، وأن جوهر الحرية أن تقهر الظروف، وتفرض إرادتها لتحقيق مزيدا من الحرية. لهذا لا تعرف الطليعة العربية حرية الرجعية، والسلبية، واللامبالاة، كما لا تعرف، ولا تعترف بالاستغلال حرية. وهي في نضالها في سبيل الحرية تعرف حدودها، وترفض الادعاء

بالحرية المطلقة الخالدة التي لا تعرف الحدود. فحرية الوجود القومي شرط لحرية التطور. وحرية المعرفة شرط لحرية الرأي. وحرية الرأي شرط لحرية العمل.

وكما تلزم الطليعة العربية غيرها حدود الحرية تلزم هي تلك الحدود. فحيثما تنصدى للمشكلات، لا تعرف غير الديمقراطية سبيلا والشعب سندا. فالشعب إذ هو الامتداد الأفقي للمجتمع، يكون المصدر الوحيد لمعرفة المشكلات لأنها مشكلاته. إن ألف نظرية في وصف الجوع أقل بلاغة من صرخات الجائعين. وكل ما يقال عن الدكتاتورية لا يفسرها كما تفسرها آلام المضطهدين. ولا تمتد المشكلة رأسيًا إلى حيث تصبح مشكلة عامة إلا بمقدار الناس الذين تعبر عن آلامهم، وفي هذا لا يمتاز إنسان بمهنته، ولا بثقافته، ولا بلونه، ولا بدينه، ولكن بحدة المشكلة التي يعانها كإنسان، ولا تميز الطليعة العربية حدة المشكلة إلا بمدى اتساع جبهة الناس الذين تفسد حياتهم، فهي ترفض التقسيم الطبقي، كما ترفض التقسيم على أساس من الدين، أو اللون، أو المهنة، وتحترم الإنسان كإنسان، وتتخذ نقطة انطلاق وغاية. ويعلمها هذا الاحترام أن ترفع عن الإنسان العربي كل ما يضغط إرادته وأن تحرره، أولاً وقبل كل شيء، من الخوف.

ثم تلقي الطليعة العربية بنفسها في أحضان الشعب العربي، وتلتصق به، وتتفاعل معه تفاعلاً حياً، وتشاركه آلامه مشاركة تسمح لها بمعرفة مشكلاته ومدى آلامها. وهي تفعل هذا بحب وتسامح وصبر، لأنها تعلم أن تبادل المعرفة بالمشكلة أول حركات التطور الجدلي، كما تعلم أن التصميم الجماعي لحل المشكلة هو الحركة الثانية في قانون الجدل. لهذا فهي إذ تستفيد من إدراكها الشامل للمشكلات، فتقترح الحلول، تعرض هذه الحلول للجدل الاجتماعي لتصلحها خلال المناقشة المتحررة من الخوف والتعصب، ولتختبر مدى سلامتها على ضوء قبولها أو تعديلها أو رفضها من الناس أنفسهم أصحاب

المشكلات التي هي حلول لها. وهذا يصبح الشعب العربي قاعدة الطليعة العربية ومصدر ثقافتها. ولا تفرض الطليعة العربية على الشعب العربي إرادتها، ولا تتهمه؛ إذ أنها تعلم أن وجود المشكلة لا يغي عن إدراكها حتى تحل، وأن عليها، بحكم وعيها الشامل، أن تفجروعي الناس لمشكلاتهم وحلولها، وأن عليها أن تصل إلى هذه المقدرة القيادية لتتوافر لها الوسيلة الوحيدة لتحقيق الحرية والوحدة والاشتراكية: توعية الجماهير وتنظيمها وقيادتها. بهذا تتحصن الطليعة العربية ضد الفاشية والانهزامية، وتحفظ بثقتها التي لا حد لها بالجماهير العربية، وبهذا تكون طليعة عربية ديمقراطية حقًا، فإن الثقة التي لا حد لها بالشعب هي جوهر الديمقراطية، وكل شكل لها ليس أكثر من تنظيم لإطار التعبير عن تلك الثقة.

(٨)

والاشتراكية

بالوحدة وخلال النضال الديمقراطي تقود الطليعة العربية تطوّر الوطن العربي إلى الاشتراكية. ففي أي مكان من الوطن العربي، وأيا كانت درجة النمو الاقتصادي فيه، تلغي الطليعة العربية الاستغلال أيا كانت أسبابه. لا تسمح الطليعة العربية بأن تتخذ حرية الملكية ذريعة ليمتلك نفر كل شيء تاركين الشعب العربي بدون ملكية على الإطلاق، أو أن تكون أداة للقهر الاقتصادي. وحيثما قامت الملكية بدون استغلال فإنها تدعمها حرية مكتسبة. وفي سبيل الاشتراكية تحشد الطليعة العربية جهود الجميع في عمل منظم على خطة واحدة، غايتها أن تحقق، بالأسلوب العلمي، كل ما تستطيع ظروف الوطن العربي أن تقدمه من ثروات تكفي ليتحقق لكل عربي المضمون المادي لحياته، إذ الاشتراكية عند الطليعة العربية حرية كاملة، وبهذا تلتحم الحرية بالاشتراكية لتصبح الاشتراكية حياة حرة.

في سبيل هذا لا تقبل الطليعة العربية الاحتجاج بأي نظام مختلف

في الملكية، أو الانتاج، أو التوزيع، ولا تنتظر حتى تعلّمها التجربة المرة ما تعلّمته الشّعوب من مرارة الحياة في ظلّ الاستغلال الرأسمالي، بل ترفض أن تنمو في الوطن العربيّ بذور الرأسمالية المستغلة أصلاً، وتقتلع جذورها أينما نمت، متّجهة بالتّخطيط الاقتصاديّ العلميّ من حيث انتهى التّطوّر الاقتصاديّ إلى الاشتراكية رأساً، في طريق مطّهر من بدايته إلى نهايته من الاستغلال والقهر الاقتصاديّ.

غير أنّ الطّليعة لا تخلط بين الاشتراكية كغاية ووسائل تحقيقها. ولا تتجاهل عدم استواء النّمّو الاقتصاديّ في الأجزاء. ولا تتجاهل ما تركته التجزئة من آثار على التّطوّر الاقتصاديّ في أقطار الوطن العربيّ. لهذا فإنّ التّخطيط الاقتصاديّ، ومواجهة مشكلات التّطبيق، ستكون على الوجه الذي تقتضيه الأساليب العلميّة لتجاوز التّخلّف إلى التّنمية ثمّ الرّخاء، مع الاحتفاظ دائماً بالحرية غاية من الاشتراكية. لهذا لا تقبل الطّليعة العربيّة أن يحلّ مستند محلّ مستند، وأن يقوم مستغلّ مقام مستغلّ، ولا تنذرّ بالاشتراكية لفرض العبوديّة. ولا تقبل الفاشيّة ولو أمّمت، وبهذا تبقى حرية الإنسان العربيّ في الاشتراكية العربيّة غاية الطّليعة العربيّة وحدّاً لا يتجاوزه التّخطيط الاقتصاديّ. بهذا الوعي تكشف الطّليعة العربيّة الانتهازيّين ولا تكون هي الانتهازية، وتسحق الفاشيّة ولا تكون هي الفاشيّة، وتبقى طليعة عربيّة اشتراكية ديمقراطيّة.

(٩)

أشمل وعيا

غير أنّ الطّليعة العربيّة تتجاوز كلّ الودويّين والديمقراطيّين والاشتراكيّين، بوعيا الشّامل لتكامل الحرية والوحدة والاشتراكية في الاشتراكية العربيّة، التي هي حلّ واحد لمشكلة حرية الشّعب العربيّ، ينطوي على مضامين غير قابلة للتّجزئة، لا في المحتوى، ولا في التّطبيق فحرية وجود الشّعب العربيّ تقتضي تحرّره من الاستعمار الذي

ينتقص من هذا الوجود، إذ يجد الشعب العربي نفسه، فينطلق إلى تحقيق حرّيته في مواجهة ظروفه، يحتاج إلى الوحدة السياسيّة، أي أداة التّطوّر التي تحتمها وحدة المشكلات. وإذ تكون المشكلات مشكلات الشعب، والحلول حلول الشعب، فلا بدّ من أن يعرف الشعب مشكلاته، ويقترح لها الحلول، ويسهم في تنفيذها، أي لا بدّ من الديمقراطيّة. وفي سبيل أن تتحقّق للشعب العربي حرّيات ذات مضمون مادّي، وليس حرّيات شكلية، لا بدّ من أن ينظّم اقتصاد الوطن العربي إنتاجاً، وتوزيعاً، واستهلاكاً بحيث يتحقّق المضمون المادّي لحرّيات الشعب بغير استغلال، أي لا بدّ من الاشتراكية. كلّها يكمل بعضها بعضاً لتؤلّف معاً نوع الحياة الواحدة التي تناضل الطليعة العربيّة في سبيل تحقيقها تحت اسم الاشتراكية العربيّة. وكما تتكامل مضامين الاشتراكية العربيّة في المحتوى تكون حلاًّ واحداً، تتكامل في التّطبيق لتكون ثورة واحدة. فالوحدة السياسيّة هي أداة التّطوّر التي تحتمها وحدة الوجود القوميّ. والوحدة تطرح مشكلات التّطبيق على مستواها الحقيقيّ، وتقدّم الإمكانات الكاملة للحلّ الشّامل. غير أنّ هذا الحلّ الشّامل لن تحقّقه الظروف تلقائيّاً، فابتداءً من الوحدة يقع على الجماهير العربيّة عبء استعمال إمكاناتها لحلّ مشكلاتها. ولا يتمّ هذا إلّا عن طريق الجدل الاجتماعيّ، فلا بدّ إذن من الديمقراطيّة ومن هنا لا تغني الوحدة عن الديمقراطيّة ولا تغني الديمقراطيّة عن الوحدة. إذ الوحدة نقطة انطلاق، والديمقراطية تنظيم لخطى هذا الانطلاق، أمّا غاية الانطلاق فالاشتراكية. الوحدة شرط لمعرفة المشكلة معرفة صحيحة، والديمقراطية شرط لحلّها حلاًّ سليماً، والاشتراكية تنفيذ لهذا الحلّ، ولذلك تكوّن معاً الحركة الجدلية للنظام العربيّ.

لا ينقص التّقدميين العرب إلّا الوعي الشّامل ليعرفوا هذه الوحدة العضويّة لغايات الشعب العربيّ. وبهذا الوعي الشّامل تتجاوز الطليعة العربيّة التّقدميين العرب لتكون به طليعة النضال العربيّ.

(١٠)

نقطة الانطلاق

في سبيل تلك الغايات، وعلى هدي وعيها الشّامل، تقود الطّليعة العربيّة نضال الشّعب العربيّ على أسس علميّة، لا مدّعية ولا متمنيّة، إذ لا مكان للمثاليّة في تطوير الشّعب. فالخطوة الأولى في سبيل الحرّيّة والوحدة والاشتراكيّة تبدأ من حيث انتهى التّطور. من واقع الاستعمار وفي ظلّه يبدأ النّضال في سبيل التّحرّر. وفي الأقطار المجزّأة يبدأ النّضال في سبيل الوحدة. ومن التّخلّف الاقتصاديّ تبدأ المسيرة إلى الاشتراكيّة. لهذا تعلم الطليعة العربيّة أنّ التّطبيق الاشتراكيّ في مصر مثلاً لن يكون مماثلاً في نفس الزّمان للتّطبيق الاشتراكيّ في اليمن أو العراق أو الحجاز أو السّودان أو غيرها من الأقطار العربيّة. ولن تتحقّق الديمقراطيّة في الوطن العربيّ بمجرد توحيد نظم الانتخاب والتمثيل. ولن يعود كلّ قطر عربيّ إلى حظيرة الوطن العربيّ الكبير بأسلوب واحد. ولن يتحقّق كلّ هذا بالوعود، أو العهود، أو بالألفاظ ترصّ رصاً في البيانات والدّساتير والقوانين. وإنّما يتحقّق بالمواجهة الثّوريّة للظّروف، وتطبيق الحلول العلميّة الملائمة لمشكلاتها، للقضاء في النّهاية على التّجزئة والتّخلّف والاستبداد، مع احتفاظ الطّليعة العربيّة دائماً، وفي كلّ الظّروف بالغايات القوميّة. فتقود الظّروف إلى تلك الغايات لا تنحرف ولا تتوه ولا تتراجع.

(١١)

ثمّ الثّورة

إنّ عمق الوعي وشموله، ووضوح المنهج الفكريّ يحدّد الثّورة أسلوباً لنضال الطّليعة العربيّة. تستمدّ المقدرة عليها من ثقمتها بأمتها، وبنفسها، وبأمتها تناضل في سبيل غايات منتصرة. وفوق هذا تعرف الطّليعة العربيّة ما الثّورة: وضدّ من تثور، وتحدّد على ضوء هذا مواقفها من الظّروف، ومن النّاس، ولا ترفع شعار الثّورة ادّعاء وتضليلاً،

ولا تتخذ ذريعة إلى الإجرام الدّامي، فحيثما كان الشّعب العربيّ قادرا مقدرة مشروعة قانونا على الكفاح الدّيمقراطيّ في سبيل غاياته، يكون أسلوب نضال الطّليعة العربيّة توعية الجماهير، وتنظيمها، وقيادتها، في نضال ديمقراطيّ لتحقيق غاياتها، إذ حيث تقوم الدّيمقراطيّة لا يوجد مبرّر الثّورة إلّا مجازا ببذل المجهود المضاعف لبناء الحياة. أمّا حيث تفرض على إرادة الجماهير قيود تسلّم حرّيتهم: ببطش المستعمر، أو الاستبداد الفاشستيّ أو القهر الاقتصاديّ، أو القتال الباغي، فإنّ الطّليعة العربيّة تحطّم النّظم والقوانين والعلاقات التي يصوغها المستبدّون قيودا على إرادة الجماهير. وحيث تبجح القوانين العنف ضدّ الشّعب تردّ الطّليعة العربيّة العنف بمثله وتحطّم القيود لتعود بالشّعب إلى الحرّية، فتعود إلى توعيته وتنظيمه وقيادته لا تقتل ولا تقهر ولا تستبدّ. وعلى هذا تحدّد الطّليعة العربيّة موقفها من أعدائها، فلا تطغى ولا تقبل الطّغيان. عندئذ فإنّ مسؤوليّة الدّماء ستكون على رؤوس المعتدين، ولن تتوقّف الثّورة أخيرا احتراما لإرادة المستعمرين والمستبدّين والرجعيّين. أمّا التّقدّميون فإنّ الطّليعة العربيّة مفتوحة الأبواب لكلّ طليعيّ منهم.

(١٢)

فمن الطّليعيّ

لا يكفي الوعي الأكاديميّ لأفكار الطّليعة العربيّة وقبول مبادئها، ولا يكفي الانضباط الدّيمقراطيّ داخل الطّليعة، ولا تكفي المقدرة على النّضال الثّوريّ، ليكون التّقدميّ طليعيّا. فقد تعلّمت الطّليعة العربيّة من التجربة المرّة كيف ينحرف من كانوا يبدون أكثر النّاس وعيا، وكيف يخون من كانوا يبدون أكثر النّاس إخلاصا، وكيف ينهزم من كانوا يبدون أكثر النّاس مقدرة على النّضال. ورأت الطّليعة العربيّة. وتعلّمت ممّا رأت. خيانة فقهاء الوحدة للوحدة، وخيانة فلاسفة الاشتراكيّة للاشتراكيّة، وخيانة الدّيمقراطيّة من دعاة الدّيمقراطيّة. وتّضح من

التَّجربة المَرَّة في الوطن العربيَّ أَنَّ المَعوَل النَّهائِيَّ في آيَّة حركة سياسيَّة على نوعيَّة أعضائها، وأنَّ انضباط التَّنظيم، واتَّساع القاعدة، وحتَّى سلامة الاتِّجاه في آيَّة حركة سياسيَّة ككَلِّ، لا تمنع الخيانة والانحراف والتَّخريب، عندما تصل إلى مرحلة التَّنفيذ وتحمل المسؤولية. لقد أثبتت التَّجربة كيف أنَّ أروع المبادئ تصبح نفاية قذرة في الأيدي الملوثة، وأجمل الدَّعوات تصبح تضليلاً قبيحاً من أفواه الكذَّابين. ولذلك أثبتت الحياة ذاتها أنَّ أيَّ مذهب أو نظام لا يكون قابلاً للتَّرجمة إلى ما يغني حياة الإنسان مادِّيًّا وخلقِيًّا وفكريًّا لغو لا يستحقُّ أن يبذل جهد من أجله، وأنَّ الاستقامة الخلقيَّة ليست ضرورة في الأعضاء فحسب، بل غاية في الحركة أيضاً. ولهذا لم يعد مفهوماً كيف يؤدِّي الفقر الخلقيُّ إلى إغناء حياة النَّاس، وكيف يمكن لأَيَّة حركة تجرَّد أعضائها من غاياتها أن تحقِّق تلك الغايات. كان هذا حصاد التَّجربة، فلمَّا أن ثبت علميًّا أنَّ الإنسان غاية كلِّ تطوُّر. أصبحت آيَّة حركة مفرغة من مضمون أخلاقيٍّ عاجزة حتماً عن تحقيق مستقبل أفضل، لهذا لا بدَّ للطلَّيعة العربيَّة من أن تكون غنيَّة حتَّى تغني، وأن تكون الاستقامة الخلقيَّة شرطاً في أعضائها، وغاية من غاياتها، وبذلك تتجاوز الطَّلَّيعة العربيَّة كلَّ الحركات السَّياسيَّة المعاصرة، ويصبح لها، بالإضافة إلى الفكر الَّذي تقيس عليه مدى الوعي، والتَّنظيم الَّذي تقيس عليه مدى الانضباط الدِّيمقراطي، والثَّورة الَّتِي تقيس عليها مدى القدرة على النُّضال، مفهوم أخلاقيٍّ تقيس عليه مدى صلاحية الوعي المنظَّم المناضل ليكون طليعيًّا.

(١٣)

أخلاق الطَّلَّيعة

إنَّ ضرورة المضمون الأخلاقيِّ في آيَّة حركة سياسيَّة لا تعني اصطناع نماذج خلقيَّة لا جذور لها في المجتمعات الَّتِي تعيش فيها. تلك مثاليَّة عقيمة. ولكن تعني أنَّ تكون شاملة لقضايا الإنسان تأكيدا لأصالتها،

وصدق تعبيرها عن ضروريات الحياة التي تتصدى لتطويرها. وقد تكفلت الممارسة الطويلة للحياة المشتركة، وتفاعل الناس في كل مجتمع بإرساء قواعد السلوك السوي والسلوك المنحرف. واستمدت الشعوب القيم الخلقية السائدة فيها من التجارب التي صقلتها حتى انقلبت إلى حقائق في وجدان المجتمع تصلح للحكم دون تقصي علّة الإدانة. ففي كل مجتمع حصيلة غنية من القيم التي كانت وليدة تاريخه الخاص. ومهما بعدت المبررات الاجتماعية التاريخية للقيم الخلقية، فإن تلك القيم حقائق كافية تظهر عند أي استفزاز سلوكي، فتدينه الجماهير طبقا لمقاييسها السائدة. وتكون هذه الحصيلة من القيم عنصرا هاما من عناصر ظروف كل أمة، فيه أصدق الدلالات على إمكانيات تطويرها واتجاه هذا التطوير. لهذا يكون عبثا أن تحاول أية حركة سياسية الإسهام في تحقيق مصير أمة متجاهلة خصائصها الخلقية، غير مقومة تلك الخصائص، وغير معدة لمستقبلها قيمه الخلقية، وغير مبصرة هذا على هدي نظرية علمية صلبة. ذلك أن المقاييس المستمدة من الماضي قد تصلح للحكم على مثل ما كان موضع تجربة ماضية، إلا أن الحياة تطرح في كل يوم جديدا. وتحتاج في كل يوم إلى تقييم أنواع من السلوك لم يكن لها مقابل فيما مضى. ولا شك في أن التاريخ الطويل الذي قضته الأمة العربية في ظل الدين تكونت به أمة، ثم صنعت الحياة على هدي القيم التي أرساها، قد وفّر لها حصيلة بالغة الخصوبة والسمو معا يمكن أن تسمى أخلاقا إسلامية. ولا يزال العربي يتميز بالعزة والصدق والشجاعة والمروءة والكرم... إلخ. مميزات لم تأت من البداوة الضاربة ولكن من حياة الأخوة في ظل الثقافة الإسلامية. غير أن السمة الإنسانية العامة للقيم الخلقية الإسلامية تركت الفرصة للمغرضين من أدياء الدين، الجاهلين به، لكي يتلمسوا من تاريخ المسلمين ما يثبتون به قيم التخلف والهزيمة. يعارضون بحصيلة الانحطاط في بعض مراحل التاريخ أسمى القيم الخلقية كافة، بحجة أن المنحطين

كانوا حينئذ مسلمين. لهذا لا بدّ أن يتفق مع الحقّ ممّا ينسب إلى الدّين؛ لأنّ جدل الإنسان لا ينقض الأديان، ولكن يفسّر بالمنهج العلميّ في زمان معيّن ما يخصّ زمانه، قدرا ممّا جاءت به الأديان لكلّ زمان.

وسيلة الطليعة العربيّة إلى تحديد الأساس العلميّ لنظريّتها في الأخلاق لا بدّ أن تكون ذات المنهج الذي يحكمها حركة ووعيا ونضالا. واستيعاب ذلك المنهج والإحاطة بأبعاده يضع في أيدي الطليعة العربيّة مقاياسا دقيقا لاستواء السلوك الخلقيّ أو انحرافه. لهذا تركّز الطليعة العربيّة على نضج الوعي العقائديّ والالتزام الديمقراطيّ لتثبيت القيم الخلقيّة واستواء السلوك المعبر عنها. وهكذا لا تعرف الطليعة العربيّة الفصل بين القيم الخلقيّة وبين أهدافها السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. ولا يمكن أن تقلّل من دلالة الانحراف الخلقيّ على الانحراف العقائديّ والنضاليّ معا، وشعارها في هذا أنّ الإنسان المفرغ من القيم الخلقيّة لا يمكن أن يكون واعيا أو مناضلا أو تقدّميا.

وجدل الإنسان يزود الطليعة بمقياس التّقييم الخلقيّ. معنى هذا أنّها تستطيع على هديه تحديد القيمة الخلقيّة لأيّ نمط من السلوك مهما كان مضمونه. وأنماط السلوك لا حصر لها؛ لهذا يكفي عرض بعض المفاهيم الخلقيّة التي يمكن أن يؤدّي إليها استيعاب جدل الإنسان.

في الإجابة عن السّؤال الأوّل: ما الفضيلة وما الرذيلة؟ ما الخير وما الشرّ؟ يقدّم جدل الإنسان إجابة غير مشوبة بالمعاني المجردة التي تصاغ لتأييد مواقف سابقة. فإذ يحدّد جدل الإنسان الحركة الجدليّة التي يتمّ خلالها التّطوّر تكون الإجابة على الفور. إنّ كلّ ما يسهم في التّطوّر ويساعده فضيلة، وكلّ ما يقف في سبيل التّطوّر ويعرقله رذيلة. وبذلك يكون للفضيلة وللرذيلة أساس علميّ فلا تختلطان؛ فهما قيمتان مرتبطتان بحركة المجتمع نفسه. ولما كانت حركة المجتمع تتمّ على أسس علميّة، وكان تحليل الحركة ذاتها يكشف عن ترتيب خاصّ،

فإنَّ الانضباط المحكم لحركة التَّطوُّر هو ذاته الَّذي يضبط تقييم الفضيلة والرَّذيلة، دون أن يترك ثغرة للمثاليَّة العقيمة. هذا الارتباط بين الفضيلة والرَّذيلة وبين حركة التَّطوُّر يحدّد أبعاد الفضيلة والرَّذيلة أيضًا.

فإذا كان التَّطوُّر اندفاعا من الماضي إلى المستقبل يخلّف وراءه في كلّ وقت ما يفقد قيمته، فيما يكون جديدا يصبح ماضيا ليخرج منه جديد، فإنّ مؤدّى هذا أنّ قيمة مضمون التَّطوُّر مرتبطة بالزَّمان الَّذي يقتضيها، والزَّمان الَّذي تتمّ فيه، وأنّها قيمة نسبيّة في الزَّمان. ومن هنا لا يصحّ ما يقال له الخير المطلق أو الشرّ المطلق. إنّ أسمى الفضائل في عصر من العصور قد تكون أخطّ الرَّذائل في عصر غيره، لأنّ الفضيلة والرَّذيلة، إذ هما مرتبطتان بالتَّطوُّر، لا يمكن أن تتخطّياه. فكما أنّ حاجة المجتمعات متغيّرة، فإنّ القيم المعبرة عنها متغيّرة معها. لا يقدح في هذا اختلاف مدى التَّغيير وإمكان إدراكه. فإن كانت بعض الفضائل تبدو كما لو أنّها مطلقة لأنّ الإدراك لم يتّصل بالماضي الَّذي سبقها، ولم يتّصل بالمستقبل الَّذي يتخطّاها، فليس معنى هذا أنّها خالدة أو مطلقة، ولكن معناه، أنّه على مدى الإدراك في زمان معيّن، تبدو تلك الفضائل متّفقة مع ضرورات الحياة الّتي يحيط بها الإدراك، لا أكثر من هذا.

كلّ شيء نسبيّ في الزَّمان حتّى الفضيلة والرَّذيلة، غير أنّه منذ وجد الإنسان وجدت معه قيم متّصلة به كإنسان، فهي وإن كانت عامّة، إلّا أنّها ليست مفهوما مجردا، أو فكرة مطلقة، بل قيمة إنسانيّة لا تنتسب مثلا إلى الحيوان ولو كان الحيوان قد سبق الإنسان وجودا. وسنلتقي فيما يرد من حديث ببعض من هذه المفاهيم الّتي استمدّت سمة الفضيلة فيها من أنّها للإنسان وحده وأنّها بعض إنسانيّته.

أول أثر لهذا أنّ الفضائل الّتي تتّصل بالإنسان كإنسان فضائل عامّة لا يحدّها مكان. وفيما بعد هذا تتحدّد نقطة انطلاق كلّ مجتمع

من ظروفه، وتطبع الظروف المشكلات التي تطرحها بطابعها، وتقدّم إمكانيات الحلول الخاصة بها، ليستطيع الإنسان الذي يعيش في تلك الظروف أن يحقق مستقبلاً خاصاً به. ومعنى هذا أن مضمون التطور يختلف من مجتمع إلى مجتمع في المكان. وتختلف معه القيم المعبرة عنه. صحيح أن هذا التخصيص غير دائم، لأن المجتمعات الإنسانية مندفعه إلى تخطي حواجز التخلف بينها، ولكن إلى أن يستوي التطور على درجة إنسانية واحدة، تبقى لكل مجتمع مشكلاته الخاصة، وفضائله الخاصة، ويمكن هنا القول بأن الفضيلة والرذيلة ليستا مطلقتين في المكان كما أنهما ليستا مطلقتين في الزمان. لكل مجتمع فضائله ورذائله. لكل مجتمع أخلاقه.

(١٤)

أخلاق الطليعي العربي

على هذه الوحدة بين الوعي والتنظيم والأخلاق، يتّحد موقف الطليعي حيال سلوك غيره ويتحدّد سلوكه هو. فالطليعي العربي لا يدين سلوكاً كان وليد ظروف مجتمع غير المجتمع العربي، إلا أن يكون عدواناً على إنسانية الإنسان، لأنه وهم شركاء في المجتمع الإنساني أمّا في غير هذا ففضيلته الخاصة أن يحترم عادات وتقاليد وأخلاق الشعوب كافة، لأن الطليعي العربي يعرف أنه مهما تبدّلت العادات والتقاليد وقواعد السلوك شاذة في نظره، بل حتّى لو بدت له رذائل يعجب كيف يطبقونها، فإنّها من صنع ظروفهم، وإنّ تعبيرها رهن بمعاناتهم حيث يعيشون، ومن حيث ينطلقون. وبذلك يتميز الطليعي العربي بهذه النظرة المتسامحة المفعمة بحبّ الناس كلّهم، وقبولهم كما هم، المؤسسة على إدراك القيمة النسبية المتساوية لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهذه النظرة ذاتها يرفض الطليعي العربي التّفوق الطّبيعيّ الذي تدّعيه بعض الأجناس، ولا يدّعيه لنفسه. وإدراك الطليعي العربي نسبة القيم الخلقية تحرّره من الشعور

بالنقص إزاء إخوة له من بني البشر، وتعني ثقته بنفسه وبأَمّته وتقاليدها وأخلاقها وتمنحه الوضوح الكافي لكشف الوسائل المغلفة بدعوات أخلاقيّة التي تهدف في حقيقتها إلى فرض قيم غريبة على أَمّته تمهيدا لإهدار ذاتيّته. كما أنّ الطليعيّ العربيّ لا يضيق بما تفرضه عليه أَمّته من قواعد الأخلاق، ولا (يصطنع) لنفسه سلوكا مستعارا من خارج بيئته. لأنّه يعلم أنّ السلوك السيّ لا يكون بالإفلات الفرديّ من الظروف القوميّة، والانتماء المشبوه إلى مجتمعات غريبة، بل يكون بالتعاون الجماعيّ لحلّ مشكلات الظروف المشتركة.

وفي مواجهة نفسه يستمدّ الطليعيّ العربيّ من وعيه قيمه الخلقيّة كإنسان:

فهو يعرف أنّه متأثر بغيره مؤثّر فيه غير منفصل عن النّاس أو عن الظروف، وأنّه في تأثّره وتأثيره متحرّك جزءا مع الكلّ حركة دائمة، ومتغيّر معه تغيّرا غير منقطع حتّى لو لم يدركه حسّيّا، وأنّ التّأثير والتّأثّر والحركة الدّائمة والتّغيير المستمرّ قوانين حتميّة تحكمه وتحكم كلّ شيء معه. من هذه القاعدة الأولى يكوّن الطليعيّ العربيّ قيمه الخلقيّة الأولى، فلا يكون سلبيا، أو لامباليا، لأنّ السّلبيّة واللامبالاة ليست انحرافات خلقيّة فحسب بل جذب وفراغ خلقيّ أيضا إذ هي مضادّة لقوانين الحياة. كذلك كلّ ما يتّصل بها ويتفرّع عنها من أنماط السلوك كالأنانيّة، والطّمع، والغرور، والاستعلاء، انحرافات خلقيّة؛ لأنّها تعبّر عن إنكار، أو تجاهل، التّأثير المتبادل بين الإنسان والنّوع الذي ينتمي إليه، وبينه وبين الظروف التي يحيها. إنّ الطليعيّ العربيّ الوحيد لا يمكن أن يتصوّر لحظة واحدة أنّه قائم بذاته، غنيّ عن النّاس، وعن الأشياء، وأنّه المحور الوحيد الذي يجب أن تدور عليه أفكاره وأحلامه. ولا يمكن أن يسقط كلّ مصلحة إلّا مصلحته، أو يحاول أن يحقّق مستقبلا موهوما على حساب مستقبل غيره، ولا أن يحلّ مشكلاته على أنقاض حياة النّاس. تلك قيم خلقيّة تضبط سلوكه استمدّها من علمه أنّه جزء من كلّ وأنّه ليس المؤثّر الوحيد في كلّ شيء الذي لا يتأثّر

بأي شيء.

ثم إنَّ الطَّلِيعِيَّ العربيَّ، يعرف أنَّ التَّأثير المتبادل يؤدي في حركته إلى تغيُّر دائم، وأنَّ أحدا، أو شيئا، لا يفلت من هذا المصير. عندئذ تصبح التَّقدمية خلقا طليعيًا. وتصبح الرَّجعية عقما أخلاقيًا محضًا. إنَّ الطَّلِيعِيَّ العربيَّ لا يعرف شيئا، أو أحدا، يستحقَّ الخلود. لأنَّ قوانين الحياة لا تسمح بهذا الخلود. ويعرف بهذا أنَّ معرفة التَّاريخ علم، ومحاولة إعادته انحراف جاهل. لهذا يطهِّر نفسه من كلِّ القيم والتقاليد والأخلاق التي كانت حصيلة الأطوار التاريخية التي انتهت إلى غير رجعة. لقد ولَّى العهد القبليَّ فحتم أن يكون الطَّلِيعِيَّ العربيَّ مطهَّرًا من التَّعصُّب القبليِّ، وانقضت المجتمعات الدِّينية فحتم على الطَّلِيعِيَّ العربيَّ أن يكون مطهَّرًا من التَّعصُّب الدِّينيِّ. إنَّ الطَّلِيعِيَّ العربيَّ لا يتحرَّز للماضي، ولا يعطلَّ المستقبل، ومن هنا يعرف لماذا لا يمكن أن يكون الانفصاليِّ، أو الإقليميِّ، أو الرأسماليِّ على خلق. ومن هنا أيضًا يعرف الطَّلِيعِيَّ العربيَّ لماذا تمثِّل القومية والديمقراطية والاشتراكية قيما خلقية بالإضافة إلى كونها حلولًا اجتماعية وسياسية واقتصادية. ويعرف أخيرا لماذا لا يمكن الاعتداد بנדاءات الحرية والوحدة والاشتراكية تخرج من أفواه المنحرفين أخلاقيًا، ويعرف أنَّ انضباطه الخلقية ليس أكثر من تعبير عن وعيه العقائديِّ وجدية نضاله السياسيِّ.

وإذ يعرف الطَّلِيعِيَّ العربيَّ أنَّ الإنسان وحده هو الجديُّ وصانع المستقبل، يكسب من معرفته فضيلة حبِّ الإنسان والثقة في قدرته الخلاقة، فيدين بشدة، وبأي وسيلة مناسبة، أيَّ احتقار للإنسان، أو حطٍّ من قدرته، أو حجب للثقة التي هو أهل لها. لهذا يدين الاستبداد ولا يكون مستبدًا، ويدين العنصرية والكراهية والحقْد ولا يتعصَّب هو ولا يكره ولا يحقد. والثقة المطلقة بمقدرة الإنسان تطهِّر الطَّلِيعِيَّ العربيَّ من الانهزامية. إنَّ يقينه بأنَّه وحده. كإنسان. قادر على تحقيق مصيره

تكسبه الجراءة والشجاعة اللّازمتين لتحقيق هذا المصير. إنّ شجاعة الطّليعيّ العربيّ فضيلة غير قائمة على الاندفاع الجاهل بالظّروف، ولكن على معرفة الواعية بأنّه سيّد الظّروف وقائدها.

ويعرف الطّليعي العربيّ أنّ الإنسان إذ يبدع مستقبله، يتوقّف نجاحه على المعرفة الشّاملة بالظّروف، وأنّ هذا لا يتمّ إلاّ بالمساهمة الجماعيّة في هذه المعرفة، ثمّ الاشتراك في تصميم الحلّ بحكم أنّ المشكلات من ماضٍ مشترك، وأنّ المستقبل للجميع، وأنّ هذا كلّهُ يقتضي اتّصال الظّروف بوعيّ النّاس كما هي بغير تحريف، وأنّ التعبير عن الظّروف بغير صدق ليس تعويقاً للتّطوّر فحسب، بل تضليل يهدر الجهود الإنسانيّة إذ تنطلق من واقع غير صحيح. لهذا فإنّ الطّليعيّ العربيّ لا يكذب ويعتبر أنّ الكذب قاع الانحطاط الخلقيّ، إذ هو تزيف للظّروف وتخريب لمعرفة النّاس بها معرفة صحيحة. وإذا كان الطّليعيّ العربيّ لا يكذب لأنّه لا يزيّف الظّروف فإنّه لا ينافق ولا يضلّل ولا يغش ولا يغدرو ولا يخون، ويعرف من وعيه قوانين التّطوّر أنّ كلّ تلك الأنماط من السّلوك تحول دون الكشف الصّادق عن المشكلات، وتبدّد طاقات الإنسان في حلول مشكلات غير حقيقيّة، أو تحول تلك الجهود عن مشكلات قائمة، فيدينها كقيم خلقيّة منحرفة. والأساس العلميّ الذي حدّد الكذب والنّفاق وأخواتهما انحرافات خلقيّة إيجابيّة، هو الذي يحدّد الاستبداد بالرّأي والتّبرّم بالنّاس والضّيق بآرائهم انحرافات خلقيّة سلبية. لهذا يبرأ الطّليعيّ العربيّ من التّزوع الدّكتاتوريّ والتّسلّط. إنّ الدّيمقراطيّة عنده فضيلة خلقيّة ونظام سياسيّ معاً. والدّكتاتوريّة انحطاط خلقيّ.

وبعد الحلّ يتحقّق التّطوّر بالعمل المشترك من الجميع لحساب الجميع. لهذا يميّز الطّليعيّ العربيّ بالشّعور الجماعيّ، والتّعاون؛ ويعتبرهما قاعدتين أخلاقيتين يلتزمهما، ويدين على هديهما الفرديّة والاستغلال والانتهازيّة، وكلّ نمط من السّلوك يخرّب علاقات النّاس ويقف بينهم حاجزاً دون التّعاون ويذرّ فيهم بذور الكراهيّة والتّفكّك،

لهذا فإنَّ الطَّلِيعِيَّ العربيَّ لا يعتدي على حرّيات النَّاسِ أو أعراضهم أو كراماتهم أو مشاعرهم ولا يقبل هذا. تلك بعض القيم الخلقية التي يحدّدها الطَّلِيعِيَّ العربيَّ على أساس منهجه العلميّ، ويقيس عليها أيّ نمط من السّلوكة، سلوك النَّاسِ وسلوكه. عندما يرى الطَّلِيعِيَّ العربيَّ أنَّ أغلب ما يهتدي إليه من القيم الخلقية طبقا لمنهجه متّفق مع ما يعرفه من القيم الخلقية العربيّة، يصبح الاقتناع الفكريّ عقيدة، فلا يحتاج إلّا إلى الممارسة الفعلية للنّضال المنضبط في الطّليعة العربيّة ليتخلّص من رواسب القيم المنحرفة ويتحصّن ضدّ إغراءات الانحراف. فمع الوعي العقائديّ، والمقدرة على النّضال السّياسيّ، والانضباط الديمقراطيّ، تمثّل الاستقامة الخلقية في الحياة الخاصّة والعامة كليهما شرطاً لازماً ليكون التّقديميّ العربيّ طليعيّاً عربياً.

(١٥)

ومدرسة

إذ تعرف الطّليعة العربيّة أنّ القيم الخلقية مرتبطة بالوعي العقائديّ، فإنّ أوّل مراحل الانتماء إليها تكون مدرسة للوعي، لا يدان فيها أحد، ولا يحقر، ولا تسخّف آراؤه، ولا يتهم، بل يؤخذ بيده في تسامح وحبّ، ورغبة صادقة في التّعاون، ليعي بنفسه عقيدة الطّليعة العربيّة كما هي بدون ادّعاء أو مبالغة، وليكشف بنفسه ما يكون من نقص في وعيه، أو ضعف في مقدّراته الثّورية، أو انحراف في خلقه، بدون خجل أو سخرية، فإنّ وعي المشكلة أوّل الطّريق إلى حلّها. إنّ الطّليعة العربيّة لا تشهّر بالنّاس، ولكن تضع إمكانيّات المعرفة والثّقافة والوعي تحت تصرّف الإخوة العرب ليختاروا بأنفسهم القيم التي يرضونها. وإذا كانت الطّليعة العربيّة تدين القيم المنحرفة فإنّها لا تدين المنحرفين دائماً، وإن كانت تردّد الانحراف في كلّ وقت؛ لأنّها تعلم أنّ المشكلات بنات الظّروف. ويلزمها تفكيرها العلميّ أن تعرف الأسباب قبل أن تدين الضّحايا المنحرفين، ففي هذا إمكانيّات التّغلب على الانحراف. إنّ احترام الطّليعة العربيّة للإنسان، والثّقة به... تحول دون اعتباره

مذنباً دائماً، وإنّما المذنب. عند الطليعة العربيّة. يمثل مشكلة لا بدّ من أن تحلّ. إنّ غضبة الطليعة العربيّة كلّها، ونضالها كلّها، ضدّ الظّروف التي تسمح بتخريب حياة الإنسان، ثمّ ضدّ الذين يحاولون دون أن تحلّ مشكلات تلك الظّروف، أو يعمّقون جذورها. وفي هذا كلّها لا تعوّل الطليعة العربيّة على ما يدّعيه أيّ واحد لنفسه من وعي ومقدرة وخلق، ولا على ما ينسبه إلى غيره من جهل وعجز وانحراف، بل تترك للممارسة الحيّة مهمّة الكشف عن نوعيّة التّقدّميين. ومن خلال النّضال المنظّم، تتاح لكلّ فرد في الطليعة العربيّة أفضل الوسائل لوضع وعيه ومقدرته وخلقها موضع التّجربة. وبهذا تكون الطليعة العربيّة مدرسة للوعي وتربية للخلق وقائدة للنّضال معاً.

(«نظرية الثّورة العربيّة». (الأسس ٢). ل: الدّكتور عصمت سيف الدّولة)

[حاشية ١٣]

في الحرب. عن الحرب: «حكاية شباب»

يا عمّ حمزة	كنّا تلامذة
أيّام زمان	وزمان ده راح
النّار في سينّا	حرقت يدينا
قبل الأوان	دقنا الجراح
جراح أليمة	يوم الهزيمة
قبل الأوان	حطّت وشالّت
حطّت رجولة	بدل الطّفولة
كتبت كتابنا	على نجمة غابت
نجمة بلدنا	الّي ولدنا
على ضيّ نورها	نحلم ونلعب
أحلام شباب	مع الكتاب
تستنّى دورها	تبني ونتعب
تبني خميلة	لكلّ عيلة

شجرها يطرح	سلام وحسب
سلام وغنوة	وعيشة حلو
في كل مطرح	لكل قلب
وفي كل يوم	كنّا نعو
في بحور خيالنا	أحلامنا تكبر
أحلام روائع	والنجم ساطع
وخيوط أملنا	شعاع منور
وفي يوم صحيننا	لقينا سيننا
مليانة نزار	لهب ورعد
لهب لمسننا	وشم نفوسنا
يلفظ «عمار	اليوم وغد»
اليوم مغامر	إلا مؤامره
والأفساد	فين الجواب؟
فين الوعدود	فين الجنود
فين العتاد	هاتوا الحسب
هاتوا الدفاتر	مخفي وظاهر
من شهر يولي	نفحص كشوفنا
نكشف ونضرب	اللي تسبب
في خمسة يونيو	وغدر بجيشنا
جيشنا اللي راح	فوق البطاح
تحت التابالم	بالأمريجري
أمر القيادة	والغدر عادة
لها ألف اسم	وعدوى تسري
تسري تخش	في كل كشر
تشبع زياده	من كده غير
غيره بيـزرع	غيره بيصنع
وصاحب السياده	على سريـره

مكسي حريـر	سرير كبيـر
ولا في المنـام	ما شافه حد
وشد الحـزام	ما نام وقـام
يبيع الكـلام	ووقف يجـد
على فرخ أبيـض	كلام بينـبـض
فصل الخطـاب	اسمع يا شعـب
دا كان أمـر	خطاب خطـر
لولا الضـباب	يدخل في حرب
دا أصله ضيف	ضباب وصيف
شدّه وضيق	كان حاله حال
ومعاه عيالـه	شادد رحالـه
تاه في الطـريق	رايح شمـال
ما طلع أسـود	لولا الهنـود
ولا عندي علم	آخر نوفمـر
وإيماني قـرر	كان علمي قـدر
أحسمها حـسم	أول ديسـمـر
ما كان دقيـق	لولا الصـديـق
وكش إيـده	في حساب مصالـحه
حديد ولانـت	إيده اللّي كانـت
وأبوس خـدوده	وأنا باصافـحه
ولولا تركـه	لولا أميركـا
ما كان له لازمـه	خصام وطـيش
والفرحة هلـت	لا الأزمة تحلّـت
وأخذنا رزمـة	وأكلنا عيـش
ما كان يسـار	لولا اليسـار
ما كان يمينـا	لولا اليمينـن
ما كان وسـط	لولا الوسـط

كان من زمـان	حرّرت سينـا
لولا ولولا	لأتـه دي
غير لولا ديـه	إن كنت تفهـم
إذ أنّ لولا	تلك الّـي فاتت
غير الّـي جايبـة	والله أعلم
وفاتت سنيـن	وحل طيـن
وحيلنا صابـر	على الكبـار
خلاص جهزنا	الّـي عاوزنا
تعدّي حاضـر	خذنا القـرار
قرارنا حـازم	الحـرب لازم
أبدا ما نرجـع	استنوبكـره
كلام خطيـر	يروح في بيـر
لا حدّ يسمـع	ولا حد يدري
مسرح وزفـة	في أمة واقفـة
وسط الظّـلام	على جمر نـار
والأرزقيـة	الفهلويـة
نازلين كـلام	ورا السّـتار
جات الإشـارة	رفعوا السّـتارة
قمنا نبـصّ	«شلة عوالـم»
نيكسون يزـمـر	تقوم تشمـر
وهات يا رقص	على السّـلالـم
بصّينا فـوق	بكلّ شـوق
شفنا شهيد	طويل وأسمـر
راكب سحابـة	فيها كتابـة
بقلم حديـد	ودم أحمر
أحمر حريق	سدّ الطّريق
على كلّ هـارب	من القتلـال

أمر شبابنا	نسيب كتابنا
ونروح نحارب	شرق القنال
أدي الحكاية	من البدايات
يا عمّ حمزة	وسبب القطيعة
إحنا رجاا	عايزين قتال
محناش تلامذة	إحنا طليعة

(الدكتور عصمت سيف الدولة)

تحطّم بداخلي شيء لا أعرف ما هو. انتفض وارتجف مثل عصفور مبلّل، وتكسّر ثم تحطّم. والدنيا التي كانت، قبل ذلك، تسير على هينة، في غفلة من الزمان، اغتالها فجأة الزمان: فأرى صرحها الجبارينهدّ أمام عينيّ، وينقلب كلّ شيء فيه رأساً على عقب: هداة الماضي، تسليمه، رتابته، طمأنينته الوادعة... وبكلّ بساطة جوهره اللامرئيّ. أنا ما خفت، ولم أرهب، وكنت ألج الحياة من كلّ أبوابها ودهاليزها وكواها، وأنا واثق من صلابة خطوي، ورسوخ الأرض تحت قدميّ، رغم الإحساس بالضّياع واللاجدوى أحياناً، والشّعور الداهم بالضّحالة والقرف. واليوم أجدني خائفاً، متحفّزاً وخائفاً، حيث أقف على الأطراف الخطرة، وأشرف منها على هوة بلا قرار، يكتنفها العمق والسّواد؛ فينتابني حيالها سكون واضطراب، يشبهان ذلك الصّمت المنذر، في لحظة قصيرة جدّاً، وهو يمهّد لوقوع المأساة، وتتعاورني هواجس أخالها، لطغيان هلعي، تتجسّد متّخذة شكل تلك الكائنات التي كنت أكثر استبعاداً لها وخوفاً منها: أشباح، هياكل موتى، جثث بلا رؤوس، أنياب ترشح دماً... الخوف من الخطوة الأولى، الخوف من اتّخاذ الخطوة الأولى دائماً أكثر خطراً من اتّخاذها فعلاً؛ وعلى المشارف، تتجدّد الجروح والدّمامل والآلام، وأسعى جاهداً إلى ضبط نفسي، وكبح سريان المشاعر التي بدأت تفيض على شغاف القلب، وأنا أستمع إلى الصّديق «رقم ٢»، وقد بدأ صوته يرقّ ويشفّ بعد أن عاد من تهويماته البعيدة عبر الأقاصي والمجاهل

والنّتوءات؛ فتصيبني رجفة، وتعتريني قشعريرة أحسّ بها كمسّ الكهرباء، تتدفّق عبر سراييني، وتخضّ دمائي خضاً... «كلّ شيء يتوقّف على موافقتك؛ وأنا متأكد أنّك ستوافق، لأنك من طينة طيبة!» وتتردّد نهايات كلماته صدى في أذني، وتتمطّط، وتتكّرر، ثمّ تتردّد ثانية وتعنف حتّى يمتلئ بها كياني كلّ. ولا أستطيع منها فكاكاً. لماذا هذا الخوف كلّ؟ والتّحسّب؟ والتّحقّر؟ لقد خَمّنت، منذ البداية، ما كان يريد الإفضاء به إليّ، وفهمت محاولته الاختلاء بي في الغرفة، ثمّ دعوته لي إلى هذا المكان الجاثم في سكونه، لكنّ نبرة صوته، انفعاله، غضبه، وإمعانه وراء خطوط النّار المحرّمة. كلّ ذلك جعلني أصطدم بصلاية الحائط الذي رأيته يرتفع أمامي شيئاً فشيئاً، وهو يتكلّم، وأدرك أنّ ما حسبته، منذ البدء، مجرد لعبة، وأنا أقف على مبعدة من منابر الخطباء، يتحوّل، في ملح البصر، إلى واقع مرير، ممضّ، شديد السّفور، أنا في أصل محوره، قائماً، مكشوفاً، وعليّ أن أختار؟! فمن أكون؟!

ما يريدونه لي؟!

أم ما أريده لنفسِي، وقد يكون غير ما يريدون؟!

لم يأت ردّي سريعاً، بل منحت نفسي فرصة للتّفكير، حيث لم يصبر هو، وخان توجّسي شهامتي، فنكصت أنا. وخلال المهلة التي قرّرت أن أمنح نفسي إيّاها، لم يتطرّق الصّديق «رقم ٢» إلى الموضوع ثانية، حتّى أنّه لم يلمح إليه من قريب أو بعيد، وكلّما قادنا الحديث، ونحن في الغرفة ليلاً، إلى الأوضاع العالميّة المتفجّرة والظّروف والملابسات المحيطة بها، ومواقف الأطراف السّياسيّة منها، أدار دقّة الحديث إلى الضّفّة المعاكسة، فربّما أورد نكتة، أو قام لقضاء بعض الشّؤون، وكنت أحاول أن أبدو طبيعياً، وأسعى قدر المستطاع أن لا أهول الأمر، حتّى لا ينقلب إلى مرض عضال يحرمني بقيّة راحتي وهُدوئي، لكن عبثاً؛ فكثيراً ما تساءلت، بيني وبين نفسي، وأنا أقف في باحة الكلية أستمع إلى مداخلات الخطباء الطّويلة، ولا أعني شيئاً ممّا يقال، عن مدى حرّيتي في

اتَّخَذَ القرار، وهل حقيقة يتوقَّف كلَّ شيء عليَّ كما قال، ويظلَّ الخيار منوطاً بي، دون سواي، أم أنَّ في الأمر خديعة، ما زالت خيوطها تحاك بعيداً عن عيني... وإذِ يعنِّي لي خاطر مشاكس، أضحك من نفسي بتقرُّز، واكتشف عمق ضالتي، فأعترف بأنِّي مخدوع كبير. رغم أنفي؛ فما دلالة أن ينفرد بك شخص ما، أيَّ شخص، ويرمي أمامك أوراقه كاملة، ويدلق أسرارها كلّها، دون خوف أو وجل، ويعلن بتلميح صريح انتماءه. وآراءه، ومبادئه؛ وفوق هذا كلّه، يجهمك بحقيقة كونه عنصراً من تنظيم سرّي، غير مكترث لإمكانية الوشاية أو السّعاية به، إلّا أن يكون قد «ملأ يده منك جيّداً»، كما يقال في الأمثال. ولكن، ألا يجوز أن يخطئ تقديره، فلا تكون عند حسن ظنّه؟ ألا يقولون إنّ الإنسان إذا حوصر، ووجد نفسه بين برائن الخطر، سلّم، وباع أقرب النّاس إليه؛ وأنت إنسان، قبل كلّ شيء، ضعيف، ناقص، مثقل بالأخطاء، وأكثر من هذا كلّه، مازلت تحبّ الحياة لأنّها عزيزة عليك، بدرجة أولى، ثمّ إنّك لم ترمها، إلى حدّ الآن، ما كنت تؤمّل أن تجده فيها، بدرجة ثانية... الحياة! أجل، بنت الإبرة هذه، المرغوبة دائماً. أمن السّهل أن أفرط فيها هكذا، وقد كنت أخطّط لمستقبل أعيشه في ظلّ أفيائها الظليلة بعد التّخرّج، ثمّ أستفيق فجأة، فأجد ما كنت أفكر فيه يتحوّل إلى سراب يلفّه ضباب، وأنا سجين بين أربعة جدران، أموت على مدار السّنة، من الحرارة صيفاً ومن البرد شتاءً، عدا حفلات التّعذيب في أقباء الزّنازين؟! لماذا كان يبدو واثقاً؟ وأيّ شيء أقنعه بالوثوق بي؟ كوننا من نفس المدينة! وأننا في عداد الأصدقاء! الطّينة الطّيبة، كما قال! لا، لا، إنّها الحاجة! حاجتي إلى رفقة يسندون حائطي المنهار، وأنا الديناصور الوحيد المهتدّ بالانقراض، بعدما مللت وحدتي، واستيحاشي. حاجتي إلى زاوية، في هذا المتاه، أكنّ فيها وأدراي فيها سوأتي، وأنا الفقير، المشردّ، بلا مال أدبر به نفسي، ولا وسطاء يرتضون الأخذ بيدي دون ثمن... موافقتي هي الثّمن، اختياري كما أراده لي الصّديق «رقم ٢»، وأعضاء التّنظيم من ورائه!!

المهم أني وافقت. وحينما أبلغته رغبتني في الانضمام إليهم، لم يبد عليه شيء من التأثر أو الاندهاش، بل اكتفى بابتسامة رقيقة رسمها على شفتيه بثبات، كأنه كان يعلم الردّ سلفاً، وأنّي سأرتدّ على عقبي، ككلب مدلولق اللسان، ثمّ أكعّ، فأمدّد قوائمي أمامه، مبدّيا الرّغبة والضّراعة والطّاعة والاستسلام. وضغطّ يدي بحرارة، وأومأ برأسه مرّات مشجّعاً، وأمرني بالانتظار، ريثما تسوّى وضعيّتي، على ضوء الموافقة، الصّادرة من «فوق»: «ولمّا سألته: «إلى متى؟» قال: «مازال لدينا متّسع من الوقت. والأهمّ من ذلك أن تكون مقتنعا بالخطوة التي اتخذتها!»

بدأت نفسي تفتري شيئاً فشيئاً إزاء الدّروس والمذاكرة، وتعااف قاعات الدّرس؛ ولم أعد أطيق منظر الدّفاتر والكتب التي صرت ألقى بها أينما اتّفق، وكيفما اتّفق. والمواظبة التي كانت شيمتي على امتداد عامين كاملين طلقّتها ثلاثاً، دونما رجعة. ولعلّ الغريب في الأمر أنّي لم أستغرب ذلك من نفسي. ولم أتساءل قطّ عن علاقة الموافقة التي أبديتها بالعزوف المفاجئ عن مواصلة المشوار نحو التّخرّج ونيل الشّهادة، نغلاً كنت، وحروناً، أحرّن من بغل، لا وجود للوسائط أبداً في حياتي، وأيّ قرار اتّخذته يكون على حساب قرار آخر، ربّما يكون أسلم منه وأوفق مصلحة... عادة سيّئة! ما في ذلك شكّ، إلّا أنّ الطّبيعة طاغية، والعرق دسّاس؛ وما اكتسبته وتعهّدته بالرّعاية من سلوك طيلة واحد وعشرين عاماً، يصعب التّخلّي عنه دفعة واحدة. وفي ظرف يسير، رغم قناعاتي بعقمه وعدم جدواه... كان لي عمّ صيّد، اسمه «أبو مرزوق»، وكانوا يلقّبونه في الحيّ بـ «أبي طرطورة»، وعلى قدر مهارته في الصّيّد وبراعته فيه، سيّما الصّيّد بالفخاخ والعصا، كان مخالطاً، به شيء من مسّ، وهو إلى ذلك زمّيت مشاكس عنيد؛ وربّما كان جنونه السّبب الحقيقيّ في تلقيبه بـ «أبي طرطورة»، لأنّ المجانين والمفانين في حيناً اشتهر أمرهم بطرايطير حمراء طويلة كانوا يلبسونها، تميّزاً لهم عن بقية العقلاء؛ ولم يكن ذلك الاختيار عن سابق تخطيط أو تدبير، بل محض اتّفاق

ليس إلا، سلكه «أبو عودة» شيخ المجانين في الحيّ، منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، فصار تقليدا بين «المريدين»... كان عمّي «أبو مرزوق»، إذن، صيادا حرونا عنيدا، ولا أدري أين ورث عن صاحبه العناد، فمنذ أن فتحت عينيّ على دنيا النّاس، كان هؤلاء النّاس يقولون كلّما رأوني: «عنيد كعمّه أبي طرطورة!» وكلّما رافقهم عمّي في الطّريق، أو في حلقة من حلقاتهم، أو في صيد، ولجّ معهم في مساءلة أو مناقشة، طفقوا يتندّرون قائلين: «إي، والله، يا أبا طرطورة، ما ندرى أنت أعند أم ابن أخيك!» وإذا لم يكونوا هم قد بتّوا في المسألة، فالأغلب على ظنيّ أنّي أنا من ورثت العناد وعباسة الرّأس عنه؛ وشاهد ذلك أنّي حينما يفعت، وشببت عن الطّوق، كنت أسمع جدّتي في البيت، والنّاس خارج البيت، يرمون عمّي «أبا مرزوق» بصلاية رأسه، في محلّ وفي غير محلّ، حتّى ذهب عناده مثلا، فيقال: «أعند من أبي طرطورة!» وأنفق، ذات يوم، أن خرجت جماعة، معهم عمّي، للصيد في مفازة، ظاهر الحيّ؛ وفيما هم ينصبون فخاخهم، انصرف عنهم عمّي إلى مغارة على مبعدة منهم، رأى يربوعا صغيرا يلج من فتحها، وبينما كان يشمر عن كمّ عبااته ليدخل يده ويمسك بالربوع، سمع صوتا وراءه، يحذّره: «أبا طرطورة، لا تدخل يدك إلى المغارة، فقد كنت هنا في الصّباح ورأيت ثعبانا كبيرا يزحف نحوها». فما كان من عمّي إلا أن قال، وهو يضحك: «غبيّ أنت؛ إنّ حراشف يدي صارت مثل أشواك السّيال، ولو عضّها ثعبانك الّذي دخل صباحا لارتدّ إليه سمّه ومات من فوره. سأسمّ أنا الثّعبان ولن يسمّي هو!» وأدخل يده إلى الحفرة، وما لبث أن أطلق صيحة مدوية رجّع أصداءها المهمة الخلاء، وبذل أن يظفر بالربوع، ظفر بلسعة سمّ قاتلة. فمن أعند: «أبو طرطورة» الّذي عضّه الثّعبان فمات، أم أنا الّذي لم يعضّني الثّعبان، فبقيت عنيدا؟!!

وانقضت، بعد ذلك، أيّام قلائل، كنت خلالها أجوس خلل أرجاء الكليّة، وقد بدأت أعتاد الهدوء والطّمأنينة اللّذين دهماني، على

غير توقّع؛ وأخرجت سيجارة أشعلتها، ثم جلست على صخرة وحيدا، وراء أحد الأقسام... كان الجوّ رائقا، ليس حارّا، وليس باردا، بين بين، وقد تكسّرت أشعة الشّمس وراء ستار السّحب الّتي كانت تغطّي وجه السّماء؛ وارتفعت من مكان ما، ربّما من غصن شجرة قريب، زقزقة عصفور، يظهر أنّه كان مستوحشا، لأنّ الصّوت كان حزينا، فالتفت لإراديا إلى الجهة الّتي نبع منها الصّوت، فرأيت العصفور يضطرب، ويرفّ بجناحيه، ويتحوّل بنقلات سريعة على امتداد الغصن، مشرّوبا برأسه الصّغير إلى الفضاء الرّحيب، ربّما بحثا عن أنثاه الّتي خلفها وراءه في عشّ ما... وجذبت نفسا عميقا، وأنا مغمض العينين، وسحبت الدّخان إلى صدري بتشه، ثمّ مججته؛ وحينما فتحت عينيّ أصبت بالذهول، وأحسست بخيبة أمل سرعان ما طغت على إحساسي الأوّل بالطّمأنينة والهدوء، فقد كان الصّديق «رقم ٢» ينتصب بقامته أمامي، كرمسيس الثّاني الّذي رأيت صورته بينما كنت أقلب صفحات أحد كتب التّاريخ؛ وبعد أن ألقى التّحية، جلس بجاني بغفّة المعهودة، وقال، وهو يرسم نفس تلك الابتسامة المحايدة على شفّتيه: «مبروك». ولم يمهلي ريثما أستفسر منه عن السّبب، فواصل قائلا: «لقد أبلغت الإخوة استعدادك للانضمام إلينا، وأكّدت لهم حسن نيّتك وأمانتك، فأبدوا بدورهم رغبة، ووقع ضمّك فعلا إلى إحدى خلايانا النّشيطة...» ووجدتني أقاطعه، تحت تأثير الانفعال، وأسأله ببلاهة، مغفلا أمر هذه الخلايا ونوعيّة نشاطها: «ومتى تلتقي هذه الخلايا؟» فأجاب، دون أن تختلّ وتيرة صوته، أو تتبدّل نبرته: «ستلتقي كلّ جمعة بعدد من الإخوة في إحدى الغرف، وهناك ستتعرف على طبيعة نشاط الخلايا، والهدف من وراء اللّقاءات الدّوريّة.» وقام ليذهب... كما جاء ذهب. في صمت، في مطلق السّكون. وبقيت وحيدا، كما أنا أيضا، مع السّيجارة، وقد طار ذلك العصفور الّذي كنت سمعت زقزقته منذ قليل... حاولت أن أنسى اللّقاء المباغت القصير، وجهدت أن أستعيد لحظة الصّفاء الّتي كانت

سائدة قبله، فتمثلت العصفور المباح، بهيئته القميئة، أمامي، ورحت
أناجيه... مملكة الطَّير، لا متَّسع فيها لغير الحبِّ، بلا منغصات، بلا
هواجس، ورحلة النَّهار، بين الغابات، والأكام، والأجمات، تذوب أصداء
تعبها وآلامها، بين مناجاة اللَّيل، وهديل العشق الأزلي!!
غير أنَّ ذلك كلُّه، مضافة إليه آلاف الكلمات العذبة، ومئات
الأساطير عن الحبِّ، ومجلَّدات العشق، لم تكن كافية لتوقف ثورة
البركان، الّذي انفجر، بما في باطنه، من حمم ونيران. فإلى أين؟ إلى أين؟
هذه الخطى اللَّعينة الّتي تقودني، دون اختيار، ربَّما إلى هوة مظلمة، بلا
قاع، حيث يدقَّ عنقي، وتحدث على إثر ذلك المأساة!!
ألم تختر بنفسك؟

كان صوت بداخلي يسألني في لجاجة.

فأجيبه بتوجَّس:

إنَّه اختيار المضطرِّ، يا صديقي، ولا مناص.

ولا مناص حقًّا، من هذه الدَّوامة، وحلقات الدَّخان، فوق الرُّؤوس،
داخل الغرفة، ببابها المغلق، وستائرهما المسدلة، علينا، نحن، بناء
العالم، نهدم، على سطح الطَّاولة الصِّفراء، ذات القوائم الحديدية،
عوالم ودولا وحصونا وقلاعا، ونبي، في طرفة عين، دولة الوحدة،
ونشيد مملكة الفقراء على الأرض، ونستبدل بجَنَّة الرِّبِّ الموعودة، جَنَّة
موجودة، واضحة معالمها، سافرة حدود تجلِّها، جمهوريّة أفلاطون،
مدينة الفارابي الفاضلة، ونهدم ونبي، ونعود لنهدم من جديد ما كنَّا
شيدناه لأنَّه صارعتيقا، أيلال للِسْقوط، ونبي... نحن أمة، نحن الشَّعب،
على هذه الأرض البكر، من المحيط إلى الخليج، «ومن المحيط إلى
الجحيم/ من الجحيم إلى الخليج/ ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسط/
شاهدت مشنقة فقط/ شاهدت مشنقة بجبل/ واحد/ من أجل مليوني
عنق.»(*)

(محمود درويش)...

ونظّلْ نهتف، من الأعماق، حتّى تبحّ الحناجر، وتحقن العروق، في
الباحات، والطّرقات، والشّوارع بصوت واحد: من مراكش للبحرين.
شعب واحد لا اثنين /و/ شعب عربيّ واحد. بيت عربيّ واحد. أمل عربيّ.
حلم عربيّ واحد. والشّعب هو الشّعب؛ والبيت سيظّل بيتا من ورق حتّى
تشيدّه السّواعد لا الحناجر. والأمل مازال غريبا، يتوق إلى النّور،
فيتمسّح بوجهه الكليل على صفحة الماء، ويصرخ بأعلى صوته أن
تعالوا إلّي فأنا الحصن الحصين، والملاذ الأمين. والحلم يجرّ أحلاما
وأحلاما، وليت الحلم يصير حقيقة، ولو مرّة واحدة، ثمّ يتبخّر بعد ذلك.
و«تفّاحة للبحر، نرجسة الرّخام،/ فراشة حجرية بيروت. شكل الرّوح
في المرأة، ورائحة الغمام./ بيروت من تعب ومن ذهب، وأندلس وشام./
فضّة، زبد، وصايا الأرض في ريش الحمام./ وفاة سنبله. تشرّد نجمة
بيني وبين حبيبيتي بيروت./ لم أسمع دمي من قبل ينطق باسم عاشقة
تنام على دمي... وتنام...»(*) وتندفع الأصوات في صرخها العريد،
وتتعاضد، حتّى لكأنّها صوت واحد، وتدوّي، وتعنف، ثمّ تدوّي، وتعنف،
ثمّ تدوّي، وتنفجر محطّمة، في ثورتها، كلّ الحدود الفاصلة والخطوط
الوهميّة على الخارطة /و/ فليسقط الاستعمار اليوم. فليسقط
الاستعمار غدا. ولتسقط أمريكا في كلّ يوم. ونحن، بناء العالم نحن،
نهدم آخر ما تبقى، ونشيد من أمل الحزاني مملكة الأرض الجديدة،
ونمسح بالأكفّ دماء الموتى، وفقر الفقراء، ودموع اليتامى /و/ ارفع
رأسك يا أخي، وامدد يدك جسرا لملايين العابرين إلى الضّفّة الأخرى.
«سبايا نحن في هذا الزّمان الرّخو/ أسلمنا الغزاة إلى أهالينا/ فما كدنا
نعصّ الأرض حتّى انقضّ حامينا/ على الأعراس والذّكرى فوزّعنا
أغانينا على الحراس./ من ملك على عرش/ إلى ملك على نعش/ سبايا
نحن في هذا الزّمان الرّخو/ لم نعثر على شبه نهائيّ سوى دمنّا/ ولم نعثر
على ما يجعل السّلطان شعبيّا/ ولم نعثر على ما يجعل السّجّان وديّا/
ولم نعثر على شيء يدلّ على هويّتنا/ سوى دمنّا الذي يتسلّق الجدران...

ننشد خلسة: بيروت خيمتنا/ بيروت نجمتنا.»(*) ونعلن العرس، عرس الشعب يخطب ودّ الأرض، وعرس الأرض تحتضن شعبيها بعد رحلة الضياع أربعين سنة في عمق الصحراء؛ ونلتقي في أقصى فورة انتصارنا . أهل العرس وضيؤفا ومدعوّين، فتعزف الموسيقى أنغامها، وتهتزّ أجساد الرقص، بعد أن كانت تهتزّ في حلبة الصّراع للحرب والكفاح؛ ونغني كما لم نغنّ منذ أربعة عشر قرنا، مذ كانت نطفة الإخصاب فينا تزرع في البطون رجالا، يحزرون بعزم الجوائر السّبيّة والأمواء المقيّدة، ومذ كانت الدّولة، وكان الفتح، والنّصر؛ وتضخّم النّصر حتّى كان هزيمة. ويا... أيّها السّلطان «سليم»، لماذا قتلت السّلطان «قانسو الغوري» في موقعة مرج دابق؟! وكلوا، واشربوا، وإذا... شلّتم فأسرفوا قليلا، حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض أبيض، والخيط الأسود أسود/و/ المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السّلام، وبالنّاس المسرّة. ونحن، بناء العالم نحن، نهدم آخر ما تبقى، ونبني مملكة الفقراء على الأرض. ثمّ نهتف: للأمة... للشعب... للأرض. «بيروت شاهدة على قلبي/ وأرحل عن شوارعها وعني/ عالقا بقصيدة لا تنتهي/ وأقول: ناري لا تموت.../ على البنايات الحمام/ على بقاياها السّلام.../ أطوي المدينة مثلما أطوي الكتاب/ وأحمل الأرض الصّغيرة مثل كيس من سحاب/ أصبحوا وأبحث في ملابس جثّي عني/ فنضحك: نحن مازلنا على قيد الحياة/ وسائر الحكّام/ شكرا للجريدة لم تقل إنّي سقطت هناك سهوا.../ أفتح الطّرق الصّغيرة للهواء وخطوتي والأصدقاء العابرين/ وتاجر الخبز الخبيث، وصورة البحر الجديدة/ شكرا لبيروت الضّباب/ شكرا لبيروت الخراب/ تكسّرت روحي، سأرمي جثّي لتصيبني الغزوات ثانية/ ويسلمني الغزاة إلى القصيدة.../ أحمل اللّغة المطيعة كالسّحابة فوق أرصفة القراءة والكتابة:»/ «إنّ هذا البحر يترك عندنا أذانه وعيونه»/ ويعود نحو البحر بحريّا.»(*) ويعقب السّؤال السّؤال، بينما تشكل المسألة ويستعصي الجواب؛ ولا نفهم رغم المحاولة تلو المحاولة؛ فالحلم بسيط، والأمل

أبسط منه: أن نعيش! أجل، أن نعيش، بالبساطة التي حرمانها،
بالبساطة التي حسدنا عليها، فوق افتضاضها كما تفتض بكرة
العروس ليلة «الجلوة». ويظل السؤال معلقاً، بين دفتي الكتاب، وراء
السطور، تحتها؛ وتمتد أيدينا، كل الأيدي، مرة واحدة، تتشابك؛ وما
تعجز عن نchte الأحرف والكلمات الجافة، تشكّله الأصابع النابضة
بالحياة بيّارة برتقال... واحة نخيل... غابة زيتون... عريشة عنب... في
الجزيرة... في الجليل... يافا... عكا... بعلبك... في كل مكان من الوطن
الكبير/ والحلم صغير، ولكن يكفي لأن نعيش به؛ وترتفع الأصوات من
جديد، تطلقها الحناجر التي اعتادت الصياح، فلم تعد تبع: شعب
واحد لا شعبين. من مراكش للبحرين. «وداعاً للذي سراه/ للفجر الذي
سيشنقنا عمّا قليل/ لمدينة ستعيدنا لمدينة/ لتطول رحلتنا وحكمتنا/
وداعاً للسيوف وللنخيل/ لحمامة ستطير من قلبي محروقين بالماضي/
إلى سقف من القرميد... هل من المحارب من هنا/ كذيفة في الحرب؟/
هل كسرت شظاياها كؤوس الشاي في المقهى؟/ أرى مدناً من الورق
المسلح بالملوك وبدلة الكاكي؛/ أرى مدناً تتوّج فاتحها/ والشرق عكس
الغرب أحياناً/ وصورته وسلعته.../ أرى مدناً تتوّج فاتحها/ وتصدّر
الشهداء كي تستورد الويسكي/ وأحدث منجزات الجنس والتعذيب.../
وهل من المحارب من هنا/ كذيفة في الحرب؟/ هل كسرت شظاياها
كؤوس الشاي في المقهى؟/ أرى مدناً تعلّق عاشقها/ فوق أغصان
الحديد/ وتشرّد الأسماء عند الفجر.../ ... عند الفجر يأتي سادن
الصنم الوحيد/ ماذا نودّع غير هذا السجن؟/ ماذا يخسر السجناء؟/
نمشي نحو أغنية بعيدة/ نمشي إلى الحرية الأولى/ فنلمس فتنة الدنيا
لأول مرة في العمر.../ هذا الفجر أزرق/ والهواء يرى ويؤكل مثل حبّ
التين/ نصعد/ واحداً/ وثلاثة/ مائة/ وألفاً/ باسم شعب نائم في هذه
الساعات/ عند الفجر عند الفجر، تختتم القصيدة/ وترتب الفوضى
على درجات هذا الفجر/ بوركت الحياة/ وبورك الأحياء فوق الأرض/ لا

تحت الطّغاة/ تحيا الحياة!/ تحيا الحياة!«(*) كانت الجماعة، وكان غصن الزّيتون، وكانت الدّارة والبيّارة؛ ذاك البحر الشّريد يعانق في شروده كلّ بوابات الخليج منطرحا على كفّ المحيط؛ ورمى الحمامة الصّيّاد، فشكّت الطّالقة أحشاءها، عن كبد مفتّت، وقلب سجّته الدّماء؛ وشهد غصن الزّيتون لحظة الفجيعة، ونذر المأساة، فانكسر جرّاء ثقل الهمّ الّذي انزاع فيه، فلطالما تأوّدت على أفنائه تلك الحمامة القتيلة، وهي تهدل لرفيف الحبّ، ودفق الحياة... بكى الغصن وناح، وما أن لامس وجه الأرض حتّى تبعثر شعاعا، وصاغ من ألقه كفن الحمامة!! على الخارطة، في قلب الخارطة، نقطة دم كبيرة، مائعة، متخثرة، لزجة، تتجاذب أطرافها مشارف الوجه القبليّ وتخوم الوجه الغربيّ، كجناحين، مشرعين، يظللان على ذكريات الألم والولادة والنّشوة... وتفيض الدّموع أنهارا. وتسيل الدّماء أنهارا. وتجيئ الأحزان أنهارا. وتهرق أنخاب الهزيمة أنهارا. وتكون الأنهار أنهارا، ثمّ بحارا، وخلجانا، ومحيطات، وأنت، يا بلادي، سأعني لأجلك من قلب منكوء الجراح؛ فلمن أغنيّ إذا لم أغنيك: بلادي. بلادي. لك حيّ وفؤادي/ يكتب اسمك يا بلادي ع الشّمس الّتي ما بتغيب. لا مالي ولا ولادي. على حبّك ما بي حبيب. يا دار الأوفى دار... وتترقرق النّهاية، فيكون الصّمت، ثمّ الدّموع. «... من مبنى بلا معنى إلى معنى بلا مبنى وجدنا الحرب.../ هل بيروت مرآة لنكسرهما وندخل في الشّظايا/ أم مرايا نحن يكسرنا الهواء؟/ تعال يا جنديّ حدّثني عن الشّرطيّ: / هل أوصلت أزهارى إلى الشّبّاك؟/ هل بلغت صمتي للذين أحبهم ولأولّ الشهداء؟/ هل قتلاك ماتوا فيك من أجلي وأجل البحر.../ أم هجموا عليّ وجردوني من يد امرأة/ تعدّ الشّاي لي والنّاي للمتحرّبين؟/ وهل تغيّرت الكنيسة بعدما خلّعوا على المطران زيا عسكريّا؟/ أم تغيّرت الفريسة؟/ هل تغيّرت الكنيسة/ أم تغيّرنا / / / شوارع حولنا تلتفّ/ خذ بيروت من بيروت، وزّعها على المدن/ النّتيجة: فسحة للقبو/ ضع بيروت في بيروت، واسحبها من

المدن/ النتيجة: حانة للهو... نمشي بين قبيلتين/ . هل نعتاد هذا الموت؟/ . نعتاد الحياة وشهوة لا تنتهي/ . هل تعرف القتلى جميعاً؟/ . أعرف العشاق من نظراتهم/ وأرى عليها القاتلات الراضيات بسحرهنّ وكيدهنّ/ / .../ ونحني لتمرّ قبلة؟/ نتابع ذكريات الحرب في أيّامها الأولى/ . ترى ذهب قبلة قصيدتنا سدى؟/ . لا... لا أظنّ/ إذن، لماذا تسبق الحرب القصيدة/ . نطلب الإيقاع من حجر فلا يأتي/ ولشّعراء آلهة قديمة/ / / وتمرّ قبلة: فندخل حانة في فندق الكومودور/ يعجبني كثيراً صمت رامبو/ أورشائله التي نطقت بها أفريقيا/ . وخسرت كافافي/ . لماذا؟/ . قال لي: لا ترك الإسكندرية باحثاً عن غيرها/ ووجدت كافكا تحت جلدي نائماً/ وملائماً لعباءة الكابوس، والبوليس فينا/ . ارفعوا عني يديّ/ . ماذا ترى في الأفق؟/ . أفقا آخرًا/ . هل تعرف القتلى جميعاً؟/ . والذين سيولدون.../ سيولدون/ تحت الشجر/ وسيولدون/ تحت المطر/ وسيولدون/ من الحجر/ وسيولدون/ من الشظايا/ يولدون من المرايا/ يولدون/ من الزوايا/ وسيولدون/ من الهزائم/ يولدون من الخواتم/ يولدون من البراعم/ وسيولدون/ من البداية/ يولدون/ من الحكاية/ يولدون بلا نهاية/ وسيولدون، ويكبرون، ويقتلون،/ ويولدون، ويولدون، ويولدون...(*) . فهل ولدنا نحن؟ لا: . وآلاف غيرنا، هل ولدوا بدورهم؟ لا: . وسنولد؟ لا: . ويولدون؟ لا: حتى يسقط الضحايا، ويتلاشى القتلى، وتمتزج الدماء بالدماء: في سبيل النصر، نعم: في سبيل الحرية، نعم: في سبيل الرغيف المنضوج، واللّقمة السائغة، نعم: في سبيل أن نزرع بأنفسنا لأنفسنا، نطأ الأرض، نحرق الغيطان، نعزقها، نتقيأ ظلال أشجارها، ونعود مساءً، بعد التعب، إلى أحضان الأمّهات، أمّهاتنا، حبيباتنا، حائلنا، فيروي الكبار للصغار حكايا، سيروونها، إذا كبروا، لصغارهم، وصغارهم لصغارهم: والحياة جميلة لأنّها بسيطة، والضّحكة جميلة، لأنّها غير ممّوّهة. والحلم جميل لأنّه حلمنا أسكنناه أغواراً من أنفسنا لنعيش به ما تبقى، ولننزود به لما تبقى، ولنبني به ما

تبقى: الدّارة والبيّارة والخضرة وحدود الحقل ومشارف الغابة: ونظّل
نغنيّ للبلاد دائما، ونكتب لها بدل القصيدة آلاف القصائد:

[بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ... وقومي وإن ضنّوا عليّ كرام]...

«هل ضاق الطّريق/ ومن خطاك الدّرب يبدأ يا رفيق؟/ محاصر
بالبحر والكتب المقدّسة/ انتهينا؟/ لا. سنصمد مثل آثار القدامى/ مثل
جمجمة على الأيّام نصمد/ كالهواء ونظرة الشّهداء نصمد.../ يخلطان
الليل بالمتراش. ينتظران ما لا يعرفان/ يخبّنان العالم العربيّ في مزق
تسمّى وحدة.../ يتقاسمان الليل:/ ليلي لا تصدّقني/ ولكيّ أصدّق
حلمتها حين تنفضان.../ أغرتني بمشيتهما الرّشيقة:/ أبطلا ظمي،
وساق غزالة، وجناح شحورور، وومضة شمعدان/ كلّما عانقتها طلبت
رصاصا طائشا/. ملك هو الملك الجديد/ إلى متى نلهو بهذا الموت؟/ لا
أدري، ولكنّا سنحرس شاعرا في المهرجان/. لأيّ حزب ينتمي؟/ حزب
الدّفاع عن البنوك الأجنبية واقتحام البرلمان/. إلى متى تتكاثر الأحزاب،
والطبقات قلت يا رفيق الليل؟/ لا أدري،/ ولكن ربّما أقضي عليك،
وربّما تقضي عليّ/ إذا اختلفنا حول تفسير الأنوثة.../ إنّها الجمر الذي
يأتي من السّاقين/ يحرقنا/. هي الصّدر الذي يتنّفس الأمواج/ يغرقنا/
. هي العينان حين تضيعان بداية الدّنيا/. هي العنق الذي يشرب/. هي
الشّفتان حين تناديان الكوكب المالح/. هي الغامض/. هي الواضح/.
سأقتلك. المسدّس جاهز. ملك هو الملك،/ المسدّس جاهز./ بيروت
شكل الشّكل/ هندسة الخراب... [الإهداء: إلى كلّ المناضلين في سبيل
حرية الإنسان، ذلك الكائن العظيم الذي أحبه. (الدّكتور عصمت
سيف الدّولة)] «هناك اتّصال عضويّ بين الاشتراكية والديمقراطية
حتّى ليصدق القول بأنّ الاشتراكية هي ديمقراطية الاقتصاد كما أنّ
الديمقراطية هي اشتراكية السّياسة. (جمال عبد النّاصر) [«فأما الزّيد
فيذهب جفاء، وأما ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض» (الرّعد: ١٧).]
إهداء ثان: نهدي هذا الكتاب (إرنستو غيفارا) إلى ذكرى كاميلو

سيانفويغوس. كان مفروضاً أن يعيد قراءته ويجري فيه التّصحّحات اللازمة، إلّا أنّ القدر لم يتح له ذلك. ويمكن اعتبار هذه السّطور تكريماً من الجيش الثّائر إلى رائده الكبير، إلى أعظم قائد مغاور أنجبته هذه الثّورة، إلى الثّوري النّاصع، إلى الصّديق الأخ.

كان كاميلو رفيق مئة قتال، كان موضع ثقة فيدل في اللّحظات العصيبة من الحرب، كان المناضل المفعم نكراناً للذّات، الّذي اتّخذ الفداء دوماً أداة لإسقاط طبعه وتصليب طباع الجنود. اعتقد أنّه كان قميناً أن يوافق على هذا الكتاب الوجيز الّذي جمعت فيه تجاربنا في حرب الغوار، لأنّها نتاج الحياة ذاتها. إلّا أنّه كان خليقاً أن يرفد هذه الصّفحات بالحيويّة العميقة الّتي يفيض بها خلقه وذكاؤه وإقدامه، تلك الصّفحات الّتي لا تبلغ مثل هذا الكمال إلّا في نفر من شخصيّات التّاريخ.

بيد أنّه لا ينبغي للمرء أن يتصوّر كاميلو كبطل أسطوريّ، يحقّق مآثر خارقة بحافز من عبقرية وحدها. يجب النّظر إليه كفيض من الشّعب الّذي صنعه، على نحو ما يصنع أبطاله وشهداءه وقادته، في الاصطفاء العظيم إبان النّضال وظروفه القاسية.

لا أدري هل كان كاميلو يعرف قول دانتون بصدد الحركات الثّوريّة: «الإقدام، ثم الإقدام، الإقدام أبداً!» على أيّ حال، كان كاميلو قد مارسها في أعماله بعد أن قرنها بالظّروف الخاصّة بالمغاور، وهي تحليل الوضع بدقّة وسرعة، وملكة التنبؤ بالمسائل الّتي يطرحها المستقبل.

وإذا كانت هذه السّطور بمثابة تكريم شخصيّ وتكريم شعب بأسره لبطلنا في أن، فهي لا تستهدف أن تروي سيرته وتقصّ مآثره، إلّا أنّي أقول إنّ كاميلو كان رجل ألف مآثرة، كان يرسلها بصورة طبيعيّة، إذ كان، إلى جرأته واحترامه للشّعب، يجمع شخصيّة الخاصّة، ذلك العنصر الّذي كثيراً ما ينسى وينكر شأنه، والّذي كان كاميلو يطبع به كلّ ما يخصّه. إنّها الأصالة الثّمينة الّتي قلّما تجد رجالاً يدمغون بها كلّ عمل من أعمالهم.

لقد قالها فيدل مرة: لم تأت ثقافته من الكتب، بل كان له ذكاء الشعب الفطري، فاختاره الشعب بين ألف رجل ليرفعه إلى المكانة الممتازة التي تبوأها بفضل إقدام وصلابة وذكاء واجتهاد لا مثيل لها.

كان كاميلو يمارس الصدق ديناً، وقد نذر نفسه له: الصدق تجاه فيدل الذي يجسّد بشخصه إرادة الشعب، والصدق تجاه الشعب ذاته. كانت هاتان العاطفتان لا تنفصمان لدى هذا المغاور الغلاب، تتلاحمان تلاحم فيدل والشعب.

حريّ بنا أن نتساءل: من الذي أزال كيانه الجسماني من الوجود؟ لأنّ حياة أمثاله تتمادى في الشعب ولا تنتهي إلا عندما يقرّر الشعب ذلك.

إنّ العدو هو الذي قتله، لأنّه كان يبغى موته، لأنّه ليس ثمة طائرات مضمونة، لأنّ ملاحيها لا يستطيعون اكتساب كلّ الخبرة اللازمة، ولأنّه وهو مثقل بالأعمال، كان يريد الوصول إلى لاهابانا بأسرع وقت... وإنّ ما قتله هو طبعه أيضاً، لم يكن كاميلو يزن الخطر، كان يستخدمه للإلهاء، يداعبه، يثيره كما تثار ثيران الحلبة، يجتذبه ويداوره. ففي عقلية الغوارية لم تكن هناك عثرة تستطيع إيقاف أو تشويه الخطّ الذي ارتسمه لنفسه.

ذهب عندما كان شعب بأسره قد عرفه وأعجب به وأحبّه. كان من الممكن أن يحدث ذلك في وقت أبكر وكانت سيرته عندئذ لن تعدو سيرة أيّ قائد مغاور. قال فيدل: «سوف يجيء كثير من أمثال كاميلو، ويمكنني الإضافة أنّه ظهر كثير من مثل كاميلو. وقد انتهت حياتهم قبل أن يتمّوا ذات الدّورة الرائعة التي أدخلتهم في التّاريخ: إنّ كاميلو، والكاميلويين الآخرين (الذين لم يحقّقوا أنفسهم، والقادمين)، هم البرهان على قوّة الشعب، والتّعبير الأسمى عمّا يمكن أن تنجبه أمة شاكّية السّلاح دفاعاً عن أصفى مثليها العليا وعن إيمانها في إنجاز أنبل غاياتها.»

لن نثبته لنحبسه في قالب، ففي ذلك قتله. لنبدعه هكذا، على هيئة

ملاح، دون تحديد دقيق لفكرانه الاجتماعي والاقتصادي الذي لم يكن محددا تماما. ولنتذكر فقط أنه لم يوجد في هذه الحرب التحررية جندي يضارع كاميلو. ثوري مكتمل، رجل شعبي، صناع في هذه الثورة التي صنعتها الأمة الكويتية لنفسها، لم يكن عقله ليتصور أقل هنة من الإعياء أو القنوط. إن كاميلو المغاور هو موضوع دائم للتخيل كل يوم. إنه الذي فعل هذا أو ذاك من الأعمال، «شيئا من كاميلو»، إنه الذي طبع الثورة الكويتية بسمته الدقيقة التي لا تمحي، والذي يبقى حاضرا في قلوب كل من لم يحققوا أنفسهم، والقادمين.

إن كاميلو، في تجده المستمر الخالد، هو الشعب. (شي غيفارا)

(**)... «فسر ما يلي: / بيروت (بحر. حرب. حبر. ربح) / / البحر أبيض أورصاصي، وفي إبريل أخضر. / أزرق، لكنّه يحمرّ في كلّ الشهور إذا غضب/ والبحر: مال على دمي/ ليكون صورة من أحبّ / / الحرب تهدم مسرحيتنا لنلعب دون نصّ أو كتاب/ والحرب: ذاكرة البدائيين والمتحضرين/ والحرب: أولها دماء/ والحرب: آخرها هواء/ والحرب: تثقب ظلّنا لتمرّ من باب لباب / / الحبر: للفصحى، وللضباط، والمتفرجين على أغانيها/ وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين/ الحبر: نمل أسود، أو سيد/ والحبر برزخنا الأمين / / / والريح: مشتقّ من الحرب التي لا تنتهي/ منذ ارتدت أجسادنا المحرّات/ منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء/ حتّى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي إفريقيا! والريح: يحكمنا/ يشردنا عن الأدوات والكلمات/ يسرق لحمنا، وبيعه/ بيروت: أسواق على البحر/ اقتصاد يهدم الإنتاج/ كي يبني المطاعم والفنادق.../ دولة في شارع أو شقة/ مقهى يدور كزهرة العباد نحو الشمس/ وصف للرحيل وللجمال الحزّ/ فردوس الدقائق/ مقعد في ريش عصفور/ جبال تنحني للبحر/ بحر صاعد نحو الجبال/ غزالة مذبوحة بجناح دوري/ وشعب لا يحبّ الظلّ/ بيروت. الشوارع في سفن/ بيروت. ميناء لتجميع المدن.»(*) ... [الدرس الأول: مقدّمة . جوهر . خاتمة . درس في الجدل.

ج . د . ل . تجادلنا، نتجادل، مجادلة، فنحن متجادلون، متجادلون، متجادلون، كي لا ننخدل في مسار الرحلة، بين خطّ البداية والنهاية، متهاكين، منخذين. ط . ل . ب . ة، فنحن طلبة ثأر الأرض؛ وهم خلف الستائر، وراء الظهور، ق . ت . ل . ة، فهم قتلة الأرض، قتلنا، من الدرس الأوّل إلى الدرس الأخير، عن العروق تشرط بالمواسي فتزّدما، وعن الدّم كيف يرشح دما، وعن الدّم كيف يكمد، وعن الدّم كيف يتجمّد، وعن الدّم أخيرا كيف ينفجر، ليخطّ أولى مقدّمات الدرس، نحو الخواتم... نحو مقدّمات جديدة أكثر وضوحا: في الحياة، على درب الحياة، للحياة أولا وأخيرا. مقدّمة لا بدّ منها: كان من عادة «شي»، في حياته كمحارب، أن يدوّن ملاحظاته اليومية بكلّ عناية واهتمام. وخلال المسيرات الطويلة، في الأراضي الوعرة الصعبة، وفي الغابات الرطبة، وعندما كانت قافلة الرّجال، وقد ناءت ظهورهم بعبء حقائبهم وذخائرهم وأسلحتهم... تتوقّف للاستراحة، أو عندما كان الرتل يتلقّى أمرا بالتوقّف لإقامة المخيم في نهاية نهار مضن... كنّا نستطيع أن نرى «شي». كما سمّاه الكوبيون بكلّ مودّة منذ الأوقات الأولى. وهو يخرج دفترًا صغيرًا ويسجّل فيه ملاحظاته بخطّ الطّبيب الذي تصعب قراءته لصغر حروفه.

إنّ ما استطاع حفظه من مذكراته ساعده فيما بعد على كتابة ذكرياته التاريخيّة البديعة عن الحرب الثّوريّة في كوبا، الغنيّة بمحتواها الثّوريّ والإنسانيّ والتّربويّ. ونحن في هذه المرّة وبفضل تلك العادة التي لم يتخلّ عنها، عادة تسجيل الأحداث البارزة في كلّ يوم، نمتلك معلومات مفصّلة في غاية الدقّة، معلومات ثمينة عن الأشهر البطوليّة الأخيرة من حياته في بوليفيا.

إنّ هذه اليوميات التي لم تكتب في الحقيقة كي تنشر كانت تفيده كأدوات عمل للحكم باستمرار على الأحداث والحالات والأفراد، وكانت تتيح له إطلاق العنان لفكر النّقاد الثّاقب. وقد كتبت بشكل بسيط،

وهي تشكّل من البداية حتّى التّهاية كلاً متناسقاً كلّ التّناسق. ويجب أن لا ننسى أنّها قد كتبت في لحظات الرّاحة النّادرة. وفي زحمة جهد جسديّ وكفاح بطوليّ يفوق طاقة البشر، كتبت في وسط التزاماته المضنيّة كرئيس لجماعة المحاربين، في المرحلة الصّعبة من بداية نضال قام في ظروف مادّيّة، بلغت من القسوة مبلغاً لا يصدّق: وهذا ما يكشف النّقاب مرّة أخرى عن طريقته في العمل وعن إرادته الحديدية. يبرز «شي» في هذه اليوميّات، وفي سياق تحليله المفصّل لحوادث كلّ يوم، الأخطاء والانتقادات والمآخذ الّتي تلازم بشكل حتميّ نموّ الحرب الثّوريّة.

إنّ مثل هذه الانتقادات، لا يمكن أن تكون سوى السّجلّ اليوميّ للفصيلة المحاربة. وخاصّة في مرحلة لا تزال فيها هذه الفصيلة مجرّد نواة صغيرة: فهي ملزمة بمجابهة شروط مادّيّة في غاية الصّعوبة وعدوّ متفوّق عدديّاً... وقد يقود أقلّ إهمال وأبسط خطأ إلى الدّمار، وعلى القائد أن يكون متشدّداً كلياً، وأن يستفيد من كلّ واقعة ومن كلّ حادثة، مهما بدت ضئيلة، كترية المقاتلين والإطارات المقبلة لفصائل المحاربين الجديدة.

إنّ قيام العصابات يتطلّب التّوجّه باستمرار إلى شرف وضمير كلّ فرد، وقد كان «شي» يعرف كيف يستثير الأوتار الحسّاسة للثوريّين. وعندما وجّه الملامة مرّات متتالية إلى ماركوس، وهدّد هذا الأخير بالفصل من الجماعة المحاربة، صرخ قائلاً: «اقتلوني رمياً بالرّصاص قبل أن تفعلوا ذلك!» وقد وهب ماركوس حياته فيما بعد بكلّ بطولة... وكان الرّجال الّذين محّضهم ثقته... ثمّ اضطرّ ذات يوم لسبب أو لآخر، إلى تقييعهم، يسلكون المسلك نفسه. كان قائداً أخاً، وإنساناً، ولكنّه كان يعرف أيضاً، كيف يتشدّد ويقسو حينما يتطلّب الأمر ذلك... وكان قاسياً صلباً مع نفسه إلى أقصى الحدود وأكثر ممّا كان مع الآخرين. لقد أقام «شي» الانضباط على أساس الوجدان الأخلاقيّ للمحارب، وعلى

القوة العظيمة النابعة من ذاته كمثال وقدوة.

إنّه يتحدّث أحيانا عن دوبريه في يومياته: فيكشف عن مدى الشّجن الذي سببه له توقيف واعتقال الكاتب الثّوري، الذي كان قد عهد إليه بمهمّة في أوربا، على الرّغم من أنّه تمّنى في أعماق قلبه بقاءه في حرب العصابات. ولهذا فإنّه يظهر بعض التّردّد وأحيانا بعض الشّكوك، في حكمه على سلوكه.

إنّ «شي» لم يتمكّن من معرفة الملحمة التي عاشها دوبريه بين مغالب أجهزة القمع، ولم يتمكّن أيضا من معرفة موقفه الحازم الشّجاع أمام أولئك الذين قاموا بتوقيفه وتعذيبه. ومع ذلك، فقد أشاد بالأهميّة السياسيّة الهائلة لمحاكمته، وكتب في يومياته في الثّالث من تشرين الأوّل، أي قبل ستّة أيّام من موته، وفي وسط وضع متوتّر ومরিّر: «لقد سمعنا عن مقابلة مع دوبريه، وكان شجاعا للغاية في مواجهته لطالب قد استفرّه.» وكانت هذه الكلمات بمثابة آخر إشارة إلى الكاتب.

ولمّا كانت هذه اليوميّات، تشير مرّات عديدة إلى علاقات الثّورة الكوبيّة بحركة العصابات فقد يزعم بعضهم أنّنا حينما نقوم بنشرها، نقوم بعمل استفزازيّ من شأنه أن يزوّد أعداء الثّورة والإمبرياليّين اليانكيّين وحلفاءهم طغاة أميركا اللاتينيّة، بالذّرائع لتعزير خططهم المستهدفة محاصرة كوبا وعزلها والاعتداء عليها.

ومن الخير أن نذكر أولئك الذين يطلقون مثل هذه الأحكام، بأنّ الإمبرياليّة اليانكيّة لم تكن في ذات يوم من الأيّام بحاجة إلى تبريرات للقيام بأعمالها المشينة في أيّ مكان من العالم، وبأنّ جهودها من أجل سحق الثّورة الكوبيّة قد بدأت مع صدور القانون الثّوري الأوّل في بلادنا، للسّبب الواضح البيّن المعروف، وهو أنّ هذه الإمبرياليّة تقوم بدور الحارس للرّجعيّة العالميّة، وهي المحرك الأساسيّ للثّورة المضادّة، وحامية البنى الاجتماعيّة المتأخّرة واللاإنسانيّة القائمة في العالم.

قد تتخذ من التضامن مع الحركة الثورية ذريعة، ولكنه لن يكون أبدا سبب الاعتداءات اليانكية. إن نفي التضامن الأممي لانتزاع الذريعة من الإمبريالية، ما هو إلا سياسة نعامة مضحكة وغريبة تماما عن الطابع الأممي للثورات الاجتماعية المعاصرة، كما أن الانقطاع عن التضامن مع الحركة الثورية، لا يعني انتزاع الذريعة من الإمبريالية اليانكية، وإنما يعني في الواقع التضامن معها ومع سياستها التي تستهدف السيطرة على العالم واستعباده.

إن كوبا بلد صغير، واقتصادها متخلف، شأنها في ذلك، شأن جميع البلدان، التي سيطر عليها الاستعمار والإمبريالية واستغلالها طيلة قرون عديدة. وهي كائنة على بعد ٩٠ ميلا عن الولايات المتحدة وللأخيرة قاعدة بحرية في أراضها... وهي تواجه عقبات عديدة في سعيها لتحقيق نموها الاقتصادي والاجتماعي.

ولقد أهدقت أخطار كبيرة بوطننا منذ انتصار الثورة، ولكن الإمبريالية، لم تتوصل أبدا إلى إخضاعه، ونحن لا نقيم وزنا كبيرا للمصاعب التي يجرحها علينا انتهاج خط ثوري صحيح.

أما من وجهة النظر الثورية، فإن نشر يوميات «شي» في بوليفيا، أمر لا يحتمل التردد لحظة واحدة. فقد وقعت يوميات «شي» في أيدي بارينتوس، الذي أسرع إلى تقديم نسخة عنها إلى المخابرات المركزية الأميركية. وإلى البنتاغون، وإلى حكومة الولايات المتحدة. وقد استطاع بعض الصحفيين المرتبطين بالمخابرات المركزية الأميركية سبيلا إلى الحصول على هذه اليوميات في بوليفيا ذاتها، وصورها متعهدين بالامتناع عن نشرها في الوقت الحاضر.

إن لدى حكومة بارينتوس وكبار القادة العسكريين، أسبابا كثيرة لطى هذه اليوميات، التي تتيح لنا أن نلمس مدى العجز الكلي الذي يعاني منه الجيش البوليفي، وكذلك الهزائم العديدة التي مني بها على أيدي قبضة من المحاربين المصممين الذين استطاعوا، في بضع أسابيع

فقط من القتال، أن ينتزعوا منه قرابة مائتي قطعة من السلاح. إضافة إلى ذلك فإنّ «شي» يصف باريانتوس ونظامه بعبارات بلغت من الصّحة والدّقة مبلغا سيخلّدها التّاريخ إلى الأبد، وقد كان للإمبرياليّة أسبابها الخاصّة. و«شي» ومثاله الفذّ يزدادان قوّة في العالم يوما فيوما. إنّ أفكاره... والصّورة المرسومة عنه، واسمه، ونضاله ضدّ المظالم الّتي يتعرّض لها المضطّهدون والمستغلّون، تثير اهتماما وتعاطفا قويا لدى الطّلبة والمثقّفين في العالم أجمع.

ففي الولايات المتّحدة نفسها، رفعت الحركة السّوداء والطّلاب التّقديميّون... صورة «شي»... ورفعت صورته في التّظاهرات النّضاليّة الكبرى من أجل الحقوق المدنيّة وضدّ العدوان على فيتنام... وكأثّرها شعارات المعركة. إنّ التّاريخ لم يكشف لنا إلّا نادرا، إن لم يكن أبدا، عن صورة واسم ومثال، فرضت نفسها على البشريّة بهذه السّرعة الكبيرة، وبهذه القدرة العظيمة. ذلك لأنّ «شي» يجسّد الرّوح الأمميّة الّتي تميّز عالم اليوم، وأكثر منه عالم الغد... في شكل هو أكثر أشكاليها صفاء وطهارة.

ومن تلك القارّة المضطّهدة، حتّى الأمس القريب، على أيدي الدّول الاستعماريّة، الّتي تستغلّها حتّى اليوم، الإمبرياليّة اليانكيّة، وتبقىها في حالة من التّأخّر والتّخلّف الظّالم الرّهيب، ينتصب هذا الوجه العجيب فيحمل النّضال الثّوريّ، عاصفة شاملة حتّى إلى قلب العواصم الإمبرياليّة والاستعماريّة.

إنّ الإمبرياليّين يخشون قوّة هذا المثال وكلّ ما يساعد على تعريفه... إنّ الّذي منعهم حقّا من نشر هذه اليوميّات... هو قيمتها الأساسيّة: وأعني في كونها تعبيراً حيّاً عن شخصيّة عجيبة، ودرسا في حرب العصابات، كتبت بحرارة وتوتر كلّ يوم، وبرميلا من البارود، وبرهانا حقيقيّا على أنّ الإنسان الأميركيّ. اللّاتينيّ، ليس بالإنسان العاجز أمام أولئك الّذين يستعبدون الشّعوب، وأمام جيوشهم المرتزقة.

وقد لا يكون من مصلحتهم أيضا، كشف النّقاب عن الثّوريّين . المزيّفين، والانتهازيّين والدّجالين من كلّ الأنواع، الّذين يعتبرون أنفسهم ماركسيّين وشيوعيّين ويتباهون بالكلام، والّذين لم يتردّدوا في الحكم على «شي» بأنّه قد أخطأ. وأنّه ليس سوى مغامر، أو مثاليّ، في نظر أولئك الّذين يبدون أقلّ تهجّما، وما موته سوى اختصار النّضال الثّوريّ المسلّح في أميركا اللّاتينيّة... يقولون: «إذا كان «شي»، وهو أعظم مدافع عن هذه الأفكار والمحارب المجربّ، قد سقط قتيلًا في حروب العصابات، ولم تحرّر حركته بوليفيا... فإنّ ذلك يدلّ على مدى توغّله في الطّريق الخاطئ!...»

كم من الأشقياء فرحوا لموت «شي» دون أن يحمرّوا خجلا، من أن تكون مواقفهم وتعليلاتهم، متّفقة كلّيا مع مواقف الطّغاة الممعنين في الرجعيّة، كما تتّفق مع الإمبرياليّة...[...] «في آخر اللّيل التقينا تحت قنطرة الجبال/ منذ اعتقلت، وأنت أدري بالسّبب/ الآن أغنية تدافع عن عيبر البرتقال/ وعن التّحدّي والغضب/ دفنوا قرنفلّة المغنيّ في الرّمال؟/ . / علما ن نحن، على تماثيل الغيوم الفستقيّة/ بالحبّ محكومان، باللّون المغنيّ؟/ كلّ اللّيالي السّود تسقط في أغانينا ضحيّة/ والضّوء يشرب ليل أحزاني وسجني/ فتعال، مازالت لقصّتنا بقيّة!/ . / سأحدّث السّجّان، حين يراك،/ عن حبّ قديم/ فلربّما وصل الحديث بنا إلى ثمن الأغاني/ هذا أنا في القيد أمتشق النّجوم/ وهو الّذي يقتات، حرّا، من دخاني/ ومن السّلاسل والوجوم!/ . / كانت هويّتنا ملاينا من الأزهار،/ كنّا في الشّوارع مهرجان/ الرّيح منزلنا،/ وصوت حبيبتي قبل./ وكنت الموعدا/ لكنّهم جاؤوا من المدن القديمة/ من أقاليم الدّخان/ كي يسحبوها من شراييني،/ فعانقت المدى./ والموت والميلاد في وطني الموّله توأمان!/ . / ستموت يوما حين تغنينا الرّسوم عن الشّجر/ وتباع في الأسواق أجنحة البلابل/ وأنا سأغرق في الرّحام غدا، وأحلم بالمطر/ وأحدّث السّمراء عن طعم السّلاسل/ وأقول موعدا القمر» (السّجين

والقمر) (*)... في الثورة... عن الثورة... للثورة... لكل الثائرين والثوار...
«أحرقنا مراكبنا. وعلّقنا كواكبنا على الأسوار. نحن الواقفين على
خطوط النّار نعلن ما يلي: بيروت تَفّاحة/ والقلب لا يضحك/ وحصارنا
واحة/ في عالم يهلك/ سنرقّص السّاحة/ ونزوّج اللّيلك/ أحرقنا مراكبنا.
وعلّقنا كواكبنا على الأسوار/ لم نبحث عن الأجداد في شجر الخرائط/
لم نسافر خارج الخبز النّقي وثوبنا الطّيبيّ/ لم نرسل إلى صدف البحيرات
القديمة صورة الآباء/ لم نولد لنسأل: كيف تمّ الانتقال الفدّم ما ليس
عضويّاً/ إلى العضويّ؟/ لم نولد لنسأل.../ قد ولدنا كيفما اتّفق/
انتشرنا كالنّمال على الحصيرة/ ثمّ أصبحنا خيولاً تسحب العربات.../
نحن الواقفين على خطوط النّار/ أحرقنا زوارقنا. وعانقنا بنادقنا/
سنوقظ هذه الأرض الّتي استندت إلى دمنّا/ سنوقظها، ونخرج من
خلاياها ضحايانا/ سنغسل شعرهم بدموعنا البيضاء/ نسكب فوق
أيديهم حليب الرّوح كي يستيقظوا/ ونرشّ فوق جفونهم أصواتنا:/
قوموا ارجعوا للبيت يا أحبّابنا/ عودوا إلى الرّيح الّتي اقتلعت جنوب
الأرض من أضلاعنا/ عودوا إلى البحر الّذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء/
عودوا مرّة أخرى/ فلم نذهب وراء خطاكم عبثاً/ مراكبنا هنا احترقت/
وليس سواكم أرض تدافع عن تعرّجها وحنطتها/ سندفع عنكم النّسيان،
نحميكم/ بأسلحة صككناها لكم من عظم أيديكم/ نسيّجكم بجمجمة
لكم/ وبركبة زلقت/ فليس سواكم أرض نسمر فوقها أقدامنا.../ عودوا
لنحميكم.../ «ولو أنا على شجر ذبحنا»/ لن نغادر ساحة الصّمت الّتي
سوّت أياديكم/ سنفديها ونفديكم/ مراكبنا هنا احترقت/ وخيمنا على
الرّيح الّتي اختنقت هنا فيكم/ ولو صعدت جيوش الأرض هذا الحائط
البشريّ/ لن نرتدّ عن جغرافيا دمكم./ مراكبنا هنا احترقت/ ومنكم...
من ذراع لن تعانقنا/ سنبنّي جسراً فيكم/ شوتنا الشّمس/ أدمتنا
عظام صدوركم/ حقّت مفاصلنا منافيكم/ «ولو أنا على حجر ذبحنا»/
لن نقول «نعم»/ فمن دمنّا إلى دمنّا حدود الأرض/ من دمنّا إلى دمنّا/

سما عيونكم وحقول أيديكم/ نناديكم/ فيرتد الصدى بلدا/ نناديكم/ فيرتد الصدى جسدا/ من الإسمنت/ نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي:/ لن نترك الخندق/ حتى يمر الليل/ بيروت للمطلق/ وعيوننا للرمّل/ في البدء لم نخلق/ في البدء كان القول/ والآن في الخندق/ ظهرت سمات الحمل.»(*)... في الثورة... عن الثورة... للثورة... لكل الثائرين والثوار. في حرب فلسطين ١٩٤٨. للضباط الأحرار في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. لشهداء حرب السويس والعدوان الثلاثي في ١٩٥٦. لذكرى إنشاء الجامعة العربية في ١٩٤٥، كخطوة أولى على درب الوحدة. لسواعد الرجال بناء السد. وكل النساء اللواتي بذلن ما عليهن من حلي لأجل الحلم الكبير، دعما لمكاسب الثورة... «وثورة، ثورة حتى النصر!». لسمود سورية في المبتدأ والمنتى؛ ومهندسي أول نواة وحدة، بين مصر وسورية، تحت اسم «الجمهورية العربية المتحدة» في ٢٤ شباط ١٩٥٨... «إن القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة السورية، شعورا منها بمسؤوليتها القومية ودورها التاريخي ووفاء منها للشعب العربي في سوريا الذي حملها مسؤولية الدفاع عن بقائه وسلامته لتعلن أن كل وحدة لا تنبني على الأسس السابقة الذكر. ليست إلا تحالفا بين جيشين تابعين لدولتين منفصلتين، ذلك أن متطلبات الدفاع وسلامة الأمة وحفظ كيانهما في عصرنا الحاضر تقتضي دمج الشعوب العربية المتحررة في كيان واحد لتساهم في تحرير بقية الوطن العربي، وتقوم بواجبها لصون السلم العالمي.

كما تعلن القيادة العامة باسم جميع القوات المسلحة أنها على أتم استعداد لتحمل جميع الواجبات الدفاعية التي تقتضيها الوحدة الفورية، وتعتبر نفسها منذ الآن ملزمة بتنفيذ كل ما تلقاه من أوامر وتوجيهات تعطى إليها من القيادة العامة الموحدة مهما ترتب على هذا التنفيذ، وفي الوقت نفسه تحمل كل حكومة أو فئة قد تهاون في تنفيذ هذه الوحدة خطورة ونتيجة عملها تجاه الشعب العربي بأسره،

وتجاه الأجيال العربيّة الصّاعدة.» (نصّ بإمضاء أربعة عشر ضابطا من المجلس العسكريّ السّوريّ). «وجرى الاستفتاء، وكانت نتيجةته موافقة كاسحة على إقامة دولة الوحدة، وعلى انتخاب «جمال عبد النّاصر» رئيسا لها.

ووصل جمال عبد الناصر إلى دمشق لأوّل مرّة في حياته يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٨. رئيسا منتخبا لبلد لم تطأه قدماه من قبل، وكان وصوله واستقباله في دمشق مشهدا من التّاريخ العربيّ لا ينسى وإن ابتعدت بعده السّنين...

وكتب السيّد «عدنان مندريس» رئيس وزراء تركيا إلى وزير الخارجية الأميركيّة «جون فوستر دالاس» يقول: «إنّ تطوّرات الموقف في حاجة إلى إعادة تقدير. فلقد نمت أمّس، وعلى حدودي الجنوبيّة دولة تعدادها ستّة ملايين، واستيقظت صباح اليوم، وعلى حدودي الجنوبيّة دولة تعدادها ستّة وثلاثون مليونا.»

ولم تكن دمشق محاصرة، وإنّما كانت دمشق على موقف الهجوم.» (محمّد حسنين هيكّل. «سنوات الغليان») ... ولمن ظلّوا، حتّى آخر لحظة، يأملون في عودة الوحدة، بعد الانفصال، في أيلول ١٩٦١، متشبّثين بأخر خيط للخلاص، أملا في إعادة الأمل: ولمن خرجوا في جميع البلاد، في المحافظات، في الدّساكر، في الأزقة، في الحواري، إلى الميادين، إلى الشّوارع، إلى الطّرق، إلى السّكك المؤدّيّة، وغير المؤدّيّة، هاتفين احتجاجا. غاضبين احتجاجا. مهذّدين احتجاجا. باكين احتجاجا!! ولمن لم يخرجوا من دورهم، منطوية قلوبهم على مرارة وخيبة، وقد أعقبت نصرهم ذا الألف أب هزيمة يتيمة... في الثّورة... عن الثّورة... للثّورة... لكلّ الثّوار والثّائرين... لرجال ثورة تمّوز في العراق سنة ١٩٥٨، ولفدائيّ الثّورة الجزائريّة: لكلّ هؤلاء، ولمن سيحمل بعدهم الأمل، وكلاكل الغضب، يأتي النّداء مترقّقا، هامسا، عذبا، معذّبا: يا إخوتنا، يا أشقّاءنا، يا أبناء أمّنا وأبيّنا، يا فلذاتنا، يا من نقاسمكم نفس العذاب،

يا من ستحلّ فينا أرواحكم، نهديكُم السّلام، ألف سلام، ونبعث إليكم بالتّحايا، ترسلها القلوب قبل الشّفاء، ونناديكم أن تعالوا... تعالوا... تعالوا نعبّر النّيل من الضّفة إلى الضّفة، نقود شيخا عجوزا إلى النّاحية الأخرى من الرّصيف، نكفكف دمة طفل يتيم مات أبوه غداة الثّورة، نزرع الغيطان نخلا، وحبّا، وفاكهة وأبّا، وحدائق غلبا، لنا جميعا، ولتكن جنّة موجودة، ثمّ جنّة موعودة بعدها، واحدة في الأرض، وأخرى في السّماء؛ و... «ثورة، ثورة حتّى النّصر!»... «وهكذا فإنّهم يبرّرون أنفسهم، أو يبرّرون القادة الخونة، الّذين لم يتردّدوا في لحظة معيّنة من تبّي النّضال المسلّح، بينما كانت نواياهم الحقيقيّة، كما تأكّد ذلك فيما بعد، تستهدف تدمير جماعات المحاربين، وإعاقة العمل الثّوريّ، وفرض حلولهم السياسيّة المخجلة والمضحكة، لكونهم عاجزين كليّا عن انتهاج خطّ آخر... وهكذا، فإنّهم يجدون المسوّغات لأولئك الّذين لا يريدون القتال، والّذين لن يقاتلوا أبدا من أجل الشّعب ومن أجل تحريره، لأولئك الّذين شوّهوا الأفكار الثّوريّة، وحولوها إلى أفيون مذهبيّ، لا يقدّم للجماهير لا مضمونا ولا رسالة، لأولئك الّذين حولوا منطلقات الشّعب النّضاليّة إلى أدوات للتّفاهم مع المستغلّين في الدّاخل والخارج، إلى أدوات للدّفاع عن سياسات بعيدة كلّ البعد عن المصالح الحقيقيّة للشّعوب المستغلّة في هذه القارة.

لقد اعتبر «شي» موته في المعركة شيئا طبيعيا ومحمّلا، وقد اجتهد، خاصّة في كتاباته الأخيرة، بإبراز هذا الحدث، ألا وهو أنّ موته لا يوقف المسيرة الحتميّة للثّورة في أميركا اللاتينيّة. وقد أكّد مرة أخرى ما كان يؤمن به في رسالته إلى مؤتمر القارّات الثّلاث: «إنّ عملنا كلّهُ هو صرخة حرب ضدّ الإمبرياليّة... وأهلا وسهلا بالموت أينما فاجأنا، شرط أن نسمع صرختنا هذه وتمتدّ يد أخرى لتحمل سلاحنا...» لقد اعتبر نفسه جنديا في الثّورة، ولم يكن يهتمّ على الإطلاق بالحفاظ على حياته. إنّ أولئك الّذين يرون في نهاية نضاله في بوليفيا فشلا لأفكاره،

يستطيعون بنفس هذا التفكير الساذج أن ينكروا قيمة أفكار وكفاح جميع المناضلين والمفكرين الثوريين العظام الذين سبقوه... بما فيهم مؤسسو الماركسية، الذين لم يتمكنوا من إنجاز رسالتهم وتأمل ثمار جهودهم النبيلة قبل مماتهم.

وفي كوبا لم يمنع مصرع مارتى أو ماسبيرو في ساحة القتال... وما أعقب ذلك في نهاية حرب الاستقلال، من تدخل يانكي... وموت مدافعين رائعين عن الثورة الاشتراكية منذ جوليو أنطونيو ميلا، الذي اغتاله عملاء الإمبريالية، لم يمنع هذا كله، وعلى المدى الطويل، انتصار حركة بدأت منذ مائة عام... ولن يستطيع أي شخص على الإطلاق أن يشك في العدالة الخالصة للقضية التي كافح من أجلها هؤلاء المناضلون السابقون، وفي صحة أفكارهم الأساسية التي ألهمت على الدوام الثوريين الكوبيين.

إن يوميات «شي»، تتيح لنا بفضل الملاحظات الواردة فيها، أن نقدركم كانت إمكاناته في النجاح حقيقية، وكم كانت عجيبة القدرة الانقلابية لحرب العصابات، وأمام الأعراض الأكيدة لضعف النظام البوليفي، وانهيائه السريع، كتب يقول: «إن الحكومة تهارب بسرعة... لو كنّا نمتلك في هذه اللحظة مائة رجل إضافي!»

وكان «شي» يعرف، بحكم تجربته الكوبية، عدد المرات التي كانت فيها جماعتنا الصغيرة الثائرة على وشك أن تباد. ولو حدث ذلك، لكان مرده الوحيد تقريبا، الصدف وظروف الحرب الصعبة... ولكن هل كان ذلك يعطي الحق لأي إنسان في اعتبار خطنا، خطأ خاطئا... وتقديمه كمثال من شأنه إخماد الثورة وحمل الشعوب على الشّعور بالعجز؟ إن التاريخ مليء بالحركات الثورية التي منيت بالفشل مرات عديدة، وفي كوبا نفسها ألم نعش تجربة المونكادا، قبل ست سنوات تقريبا من الانتصار النهائي لنضال الشعب المسلح؟ لقد اعتبر كثيرون بين السادس والعشرين من تموز ١٩٥٣، موعد الهجوم على ثكنة مونكادا،

في سنتياغو كوبا، والثاني من كانون الأول ١٩٥٦، موعد النّزول في «غرانما»، أنّ النّضال الثّوريّ لا أمل له على الإطلاق في وجه جيش عصريّ، حسن التّجهيز، وأنّ عمل حفنة من المقاتلين ليس سوى مجرد وهم من أوهام المثاليّين وأصحاب الرّؤى البعيدة، الذين يخطئون بشكل عميق.»

وجاءت الهزيمة السّاحقة، الّتي منيت بها الجماعة النّائرة غير المحنّكة، وتشتّتْها الكامل في الخامس من كانون الأوّل ١٩٥٦، ليؤكد كلّياً صحّة هذه التنبّؤات المتشائمة. ولكن بعد مضيّ ٢٥ شهراً فقط... اكتسب ما بقي من هؤلاء المقاتلين القوّة والتّجربة الضّروريّتين لسحق هذا الجيش.

سيكون هناك دائماً المزيد من الذّرائع... في كلّ الحقبات وفي شتّى الظّروف، للامتناع عن القتال... ولكنّ هذا الموقف سيكون دوماً الطّريق الوحيد الّذي لا يقود إلى الحرّية. إنّ «شي» لم يعيش ليرى صحّة أفكاره ولكنّه أخصّصها بدمه. وإنّه لمن المؤكّد أنّ منتقديه الثّوريّين المزيّفين... بجبنهم السّياسيّ وافتقارهم الأبديّ إلى العمل... سيعيشون حتّى يلمسوا حقيقة تفاهتهم الخاصّة.

وممّا له مغزاه، أن يدّعي أحد نماذج هؤلاء الثّوريّين، الذين يظهرون كلّ يوم في أميركا اللاتينيّة. أعني به ماريو مونجي، الّذي كان يحمل، كما سنرى في اليوميّات، لقب سكرتير الحزب الشيوعيّ البوليفيّ. أنّ من حقّه انتزاع القيادة السّياسيّة والعسكريّة للحركة من «شي». ولما كان قد التزم بالتّخلّي عن منصبه في وسط الحزب، في سبيل استلام القيادة المذكورة... فقد بدا له أنّ مجرد شغله هذا المنصب يعطيه حقّ المطالبة بهذا الامتياز. وبالطّبع لم يكن ماريو مونجي يمتلك أيّة تجربة في حرب العصابات، وهو لم يقاتل على الإطلاق... وعندما اعتبر نفسه شيوعيّاً فهو لم يشعر ذات يوم، أنّ من واجبه تجاوز الشّوفيّنة الحقيرة والدّنيويّة لمقاتلي الاستقلال الأوّل، كما عرف ذلك المناضلون

السابقون. لقد بقي «قادة شيوعيون» من هذا النوع وبمثل هذا المفهوم للنضال المعادي للإمبريالية في هذه القارة، دون المستوى الأممي الذي تميّزت به القبائل الوطنية، في صدها لغزو المستعمرين الأوروبيين.

ها هو ذا إذن زعيم الحزب الشيوعي في بلد يحمل اسم بوليفيا وتحمل عاصمته التاريخية اسم «سوكرا» على شرف محرّريها الأولين، وكلاهما من فنزويلا... كان يستطيع أن يعتمد من أجل تحرير شعبه نهائياً، على مساعدة الموهبة السياسية والعسكرية لعلاقات ثوري حقيقي، لم تكن قضيتّه مطلقاً محصورة ضمن الحدود الضيقة والمصطنعة وحتى الظالمة لهذا البلد... ولكنه لم يجد شيئاً أفضل من الدخول في مطالبات مخجلة وغير صحيحة... في سعيه لاستلام القيادة.

إنّ بوليفيا لا تملك أيّ منفذ على البحر... وحتى تتحرّر وتنجو من حصار رهيب، فإنّها في حاجة أكثر من أيّ بلد آخر، إلى انتصار الثورة لدى جاراتها... وكان في نفوذ «شي» الواسع وإمكاناته وتجاربه... ما جعل منه حقاً الإنسان المهيأ تماماً لدفع حركة التحرر فيها. وقبل أن يتمّ الانشقاق في الحزب الشيوعي البوليفي، أقام «شي» علاقات مع بعض قادته ومناضليه، وطلب منهم مساعدة الحركة الثورية في أميركا اللاتينية. وعمل معه بعض هؤلاء المناضلين، وبترخيص من الحزب في مهمّات مختلفة طويلة سنوات عديدة.

وقد أوجد الانشقاق في الحزب وضعاً خاصاً... وتوزّع المناضلون الذين تعاونوا معه بين الفريقين. ومع ذلك فإنّ «شي» لم يكن يعتبر النضال في بوليفيا حدثاً معزولاً، وإنّما جزءاً من حركة التحرر الثورية... التي لن تتأخّر في الامتداد إلى البلدان الأخرى من أميركا الجنوبية.

وكان ينوي تنظيم حركة مجرّدة من كلّ روح انعزالية، تعبئ جميع أولئك الذين يريدون النضال من أجل تحرّر بوليفيا، وجميع الشعوب الخاضعة للإمبريالية في أميركا اللاتينية. ولكنه كان مرتبطاً في المرحلة الأولى من إعداد قاعدة حرب العصابات، بشكل أساسي بمساعدة

جماعة من الأعوان الشجعان والكتومين الذين بقوا في حزب مونجي أثناء الانشقاق. وهكذا واحتراما لهؤلاء، فقد دعا أولا مونجي للقدوم إلى زيارته في المعسكر، رغم أنه لا يميل إليه بشكل خاص. ودعا بعد ذلك أيضا موازيس غيفارا وهو زعيم نقابي لعمال المناجم وزعيم سياسي قطع صلاته بالحزب الشيوعي، ليشترك في إيجاد تنظيم آخر، ثم ابتعد عن هذا التنظيم أيضا من بعد أن اختلف مع أوسكار زامورا... كان زامورا شبيها بمونجي فقد التزم هو أيضا من قبل أمام «شي» بالعمل على تنظيم النضال المسلح في بوليفيا، ولكنه بدلا من الوفاء بالتزاماته... وقف مكتوف الأيدي بشكل خسيس... حين دقت ساعة العمل... وقد أصبح فيما بعد، وبعد موت «شي» أحد نقاده وأكثرهم حقدا عليه... باسم «الماركسية. اللينينية».

أما موازيس غيفارا فقد التحق بـ «شي»، دون تردد، ليقدم له دعمه الذي كان قد عرضه عليه قبل قدومه إلى بوليفيا، وقد وهب حياته ببطولة من أجل القضية الثورية. «(*)»... «شوليت انتظرت صاحبها في مدخل البار،/ من الناحية الأخرى يمر العاشقون،/ ونجوم السينما يتسمون./ ألف إعلان يقول:/ نحن لن نخرج من خارطة الأجداد،/ لن نترك شيئا واحدا للأجئيين./ / شوليت انكسرت في ساعة الحائط،/ عشرين دقيقة/ وقفت، وانتظرت صاحبها/ في مدخل البار، وما جاء إليها./ قال في مكتوبه أمس:/ «لقد أحرزت، يا شولا، وساما وإجازة/ احجزني مقعدنا السابق في البار./ أنا عطشان، يا شولا، لكأس وشفه/ قد تنازلت عن الموت الذي يورثني المجد/ لكي أحبو كطفل فوق رمل الأرصفة/ ولكي أرقص في البار./ / من الناحية الأخرى،/ يمر الأصدقاء/ عرفوا شولا على شاطئ عكا/ قبل عامين، وكانوا يأكلون الدرة الصفراء../ كانوا مسرعين/ كعصافير المساء../ / شوليت انكسرت في ساعة الحائط، خمسين دقيقة/ وقفت، وانتظرت صاحبها/ شوليت استنشقت رائحة الخروب من بدلتها/ كان يأتي، آخر الأسبوع

كالطَّفل إلها/ يتباهى بمدى الشَّوق الَّذي يحمله/ قال لها: صحراء سيناء
 أضافت سببا/ يجعله يسقط كالعصفور في بَلور نهدبها/ وقال: ليتني
 أمتدَّ كالشَّمس وكالزَّمَل على جسمك،/ نصفي قاتل والنَّصف مقتول،/
 وزهر البرتقال/ جيّد في البيت والزَّهه. والعيد الَّذي أطلبه/ من فخذك
 الشَّاع في لحمي... مميت/ في ميادين القتال!.. / وأحسّت يده تفترس
 الخصر،/ فصاحت: لست في الجبهة.. / قال: مهنتي!/ قالت له: لكنني
 صاحبتك/ قال: من يحترف القتل هناك/ يقتل الحبّ هنا./ وارتدى في
 حضنها اللاهث موسيقى،/ وغنّى لغيوم فوق أشجار أريحا.. / يا أريحا!
 أنت في الحلم وفي اليقظة ضدان،/ وفي الحلم وفي اليقظة حاربت هناك/
 وأنا بينهما مرّقت توراتي/ وعذّبت المسيح.. / يا أريحا! أوقفي شمسك.
 إنّنا قادمون/ نوقف الرّيح على حدّ السّكاكين،/ إذا شئنا، وندعوك إلى
 مائدة القائد،/ إنّنا قادمون.. / وأحسّت يده تشرب كفيها. وقال/ عندما
 كان النّدى يغسل وجهين بعيدين/ عن الضّوء: أنا المقتول والقاتل/ لكنّ
 الجريدة/ وطقوس الاحتفال/ تقتضي أن أسجن الكذبة في الصّدر،/
 وفي عينيك، يا شولا، وأن أمسح رشّاشي/ بمسحوق عقيدته!/ أغمضي
 عينيك لن أقوى على رؤية/ عشرين ضحيّة/ فيهما، تستيقظ الآن،
 وقد كنت بعيدة/ لم أفكّر بك. لم أخجل من الصّمت الَّذي/ يولد في ظلّ
 العيون العسليّة./ وأصول الحرب لن تسمح أن أعشق/ إلّا البندقية!/ .
 / سألته شولميت:/ ومتى نخرج من هذا الحصار؟/ قال، والغيمة في
 حنجرتة:/ أيّ أنواع الحصار؟/ فأجابت: في صباح الغد تمضي،/ وأنا
 أشرح للجيران أنّ الوهلة الأولى/ خداع للبصر.../ نحن لا ندفع هذا
 العرق الأحمر.. / هذا الدّم لا ندفعه./ من أجل أن يزداد هذا الوطن
 الضّحاري.. حجر./ قال: إنّ الوقت مجنون،/ ولم يلتئم اللّيلة جسمانا/
 دعيني.. / أذب الآن بجسم الكستنا والياسمين/ أنت. يا سيّدتي. فاكرتي
 الأولى./ وناما.. / وبكى في فرح الجسمين، في عيدهما لون القمر. / . /
 شولميت استسلمت للذكريات/ كلّ رَواد المقاهي والملاهي شبعوا رقصا/

وفي النَّاحِيَةِ الأُخْرَى، تدوخ الفتيات/ بين أحضان الشَّبَابِ المتعيين./
وعلى لائحة الإعلان يحتدّ وزير الأمن:/ لن نرجع شبرا واحدا للأجّين../
والفدائيّون مجتثّون. منذ الآن/ لن يخمش جنديّ. ومن مات/ على تربة
هذا الوطن الغالي/ له الرّحمة والمجد.. ورايات الوطن!./ / شولميت
اكتشفت أنّ أغاني الحرب/ لا توصل صمت القلب والنّجوى إلى
صاحبيها/ نحن في المذيع أبطال/ وفي التّابوت أطفال/ وفي البيت صور../
. ليتهم لم يكتبوا أسماءنا/ في الصّفحة الأولى./ فلن يولد حيّ من خبر../
. وعدوا موتك بالخلد، بتمثال رخام/ وعدوا موتك بالمجد، ولكنّ رجال
الجنرال/ سوف ينسونك في كلّ زحام/ وسينسونك في كلّ احتفال.././
شولميت اكتشفت أنّ أغاني الحرب/ لا توصل صمت القلب والنّجوى
إلى صاحبيها./ فجأة، عادت بها الذّكري/ إلى لذّتها الأولى، إلى دنيا غربيها/
صدّقت ما قال محمود لها قبل سنين/. كان محمود صديقا طيّب
القلب./ خجولا كان، لا يطلب منها/ غير أن تفهم أنّ اللّاجئين/ أمة
تشعر بالبرد./ وبالشّوق إلى أرض سليبه/ وحبّيا صار فيما بعد./ لكنّ
الشّبابيك الّتي يفتحها/ في آخر اللّيل.. رهيبه/ كان لا يغيضها، لكنّه كان
يقول/ كلمات توقع المنطق في الفخّ./ إذا سرت إلى آخرها/ ضبقت ذرعا
بالأساطير الّتي تعبدها/ وتمزّقت، حياء، من نواطير الحقول../ صدّقت
ما قال محمود لها منذ سنين/ عندما عانقها، في المرّة الأولى، بكت/ من
لذّة الحبّ.. ومن جيرانها/ كلّ قومياتنا قشرة موز./ فكّرت يوما على
ساعده./ وأتى سيمون يحميها من الحبّ القديم/ ومن الكفر بقوميّتها./
. / كان محمود سجيناً يومها/ كانت «الرّملة» فردوساً له.. كانت جحيم./
كانت الرّقصة تغريها بأن تهلك في الإيقاع. أن تنعس، فيما بعد، في صدر
رحيم./ سكر الإيقاع. كانت وحدها في البار/ لا يعرفها إلاّ النّدم./ وأتى
سيمون يدعوها إلى الرقص/ فلبّبت/ كان جندياً وسيم/ كان يحميها من
الوحدة في البار./ ويحميها من الحبّ القديم/ ومن الكفر بقوميّتها../.
/ شولميت انتظرت صاحبيها في مدخل البار القديم/ شولميت انكسرت في

ساعة الحائط ساعات.../ وضاعت في شريط الأزمنة/ شوليت انتظرت
سيمون. لا بأس إذن/ فليأت محمود.. أنا أنتظر الليلة عشرين سنه/ كل
أزهارك كانت دعوة للانتظار/ ويداك الآن تلتفان حولي/ مثل نهري من
الحنطة والشوك./ وعيناك حصار/ وأنا أمتد من مدخل هذا البار/
حتى علم الدولة، حقلا من شفاء دمويته:/ أين سيمون ومحمود؟/ من
النّاحية الأخرى زهور حجرته./ ويمر الحارس الليلي./ والإسفلت ليل
آخر/ يشرب أضواء المصابيح، ولا تلمع إلا بندقية... (كتابة على ضوء
بندقية) (*)... «وحدت حذوه جماعة المحاربين البوليفيين، الذين بقوا
حتى ذلك الوقت في تنظيم مونجي... وكان يقودهم أنتي وكوكو بيريدوا،
الذّان برزا فيما بعد، كمقاتلين شجاعين ومرموقين... انفصل هؤلاء
عن الحزب وساندوا «شي» بكلّ تصميم... ولكنّ مونجي استاء من هذه
النتيجة، فكرّس جهده لتخريب الحركة، وذلك بتوقيف المناضلين
الشيوعيين المدربين في لا باز، وكانوا على وشك الالتحاق بالمحاربين. إنّ
هذا يبيّن لنا وجود رجال مستعدين كلّ الاستعداد للقتال في الصّفوف
الثّورية، ثمّ لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وقد انحرفوا بشكل إجرامي،
نتيجة لمناورات القادة العاجزين... الدّجالين.

لم يكن «شي» يكنّ أيّ اهتمام شخصيّ بالمناصب والقيادات
وحفلات التّكريم، ولكنّه كان يؤمن إيمانا جازما، بأنّ القيادة العسكريّة
والسياسيّة في النّضال الثّوري المسلّح. حرب العصابات وهي شكل
أساسي للعمل من أجل تحرّر شعوب أميركا اللاتينيّة نظرا للوضع
الاقتصادي والسياسي والاجتماعي السّائد في جميع بلدان القارّة. يجب
أن تكون موحّدة. كما أنّ النّضال لا يمكن قيادته إلّا من خلال حرب
العصابات، وليس من مكاتب بيروقراطيّة مريحة في المدن. ولم يكن
حول هذه النّقطة بالذّات، مستعدّا لأن يتنازل قيد أنملة، كما لم يكن
مستعدّا لأن يعهد إلى دماغ فارغ لا تجربة له ونظرته ضيقة وشوفيّنة،
بقيادة نواة من المحاربين الثّوار، مهيّأة للقيام بنضال واسع في أميركا

اللاتينية. حالما تتعزّز صفوفها. كان «شي» يعتبر أن لا بدّ من مكافحة هذه الشّوفينية المنتشرة أحيانا بين العناصر الثّورية في بلدان مختلفة من أميركا اللاتينية، كعاصفة رجعية مضحكة وعميقة. وقد قال في رسالته إلى مؤتمر القارات الثلاث: «يجب أن ننمي أُممية بروليتارية حقيقية.. بحيث يمسي العلم الذي نناضل تحت ظلّه، القضية المقدّسة لخلاص البشريّة، وبشكل يصبح فيه الموت، تحت شعارات فيتنام أو فنزويلا أو لاووس أو غينيا أو بوليفيا. إن لم نرد سوى ذكر المسارح الحالية للنّضال المسلّح. مشرّفا ومرغوبا فيه، سواء بالنّسبة للأميركيّ أو الآسيويّ أو الإفريقيّ وحتى للأوروبيّ. إنّ كلّ نقطة دم تهرق على أرض وتحت علم لم تولد تحته.. تجربة ثمينة للمناضل الذي عاشها من شأها أن تساهم في تحرير موطنه الأصليّ، وإنّ كلّ شعب يتحرّر.. مرحلة تكسب في المعركة لصالح تحرير شعب آخر».

وكان «شي» يعتقد أيضا أنّ الجماعة الثائرة، يجب أن تضمّ محاربين من مختلف البلدان الأميركيّة. اللاتينية، وأنّ حرب العصابات في بوليفيا يجب أن تكون مدرسة للثوريين، يقومون فيها بالتدريب على القتال. وقد رأى أيضا أن تقوم بمساعدته في هذه المهمّة إلى جانب البوليفيين، نواة صغيرة من المحاربين المجريين، الذين كانوا تقريبا جميعا، من رفاقه في السّيرة ماسترا أثناء النّضال الثّوريّ الكوبيّ، وكان يقدر كفاءتهم ومقدرتهم وحمّهم للتّضحية. لم يتردّد أيّ منهم في الاستجابة لندائه، ولم يتخلّ عنه أحد، ولم يستسلم كذلك أحد.

لقد قاد «شي» المعركة في بوليفيا بعناد ومهارة وثبات جنان وسلوك مثاليّ، أصبح مضرب المثل. ونستطيع أن نقول إنّه، ولإدراكه العميق لأهميّة الرّسالة التي ارتضاها لنفسه، قد تصرّف في كلّ لحظة بروح خالصة من المسؤوليّة لا يرقى إليها اللّوم. وعندما ارتكب المحاربون الثّائرون بعض الإهمالات، هبّ لتحذيرهم ومعالجة هفواتهم وذكر ذلك في يومياته.

لقد تشابكت مجموعة عجيبة من العوامل المعادية ضده. وطال الانفصال الذي ظنّ أنّه لن يتجاوز أيّاماً قصيرة معدودة، انفصال قسم من المحاربين الأكفاء، كان بعضهم مريضاً أو قيد النّفاة.. طال شهوراً لا تنتهي.. كرّس خلالها «شي» كلّ جهده للبحث عنهم.. ذلك لأنّ الاتّصال بين المجموعتين قد قطع في أرض وعرة للغاية.. وفي تلك الفترة هاجمه مرض الرّبو الذي اعتاد على تهدئته بأدوية بسيطة للغاية.. والذي كان يتحوّل إلى عدوّ مخيف حالما تنقصه المسكّنات، هاجمه بلا رحمة وأصبحت المشكلة خطيرة بعد أن اكتشف العدو الأدوية التي قام بتخزينها للمحاربين على سبيل الحيلة.. وكان لهذا الحدث، كما كان لإبادة جماعة من المحاربين في نهاية آب والتي فقد الاتّصال بها، أهميّة أساسيّة في مجرى الأحداث. ولكنّ «شي» سيطر على الألم الجسديّ بإرادة فولاذيّة ولم يضعف ذلك من عمله أو يقلّل من شجاعته.

كانت اتّصالاته بالفلاحين البوليفيّين عديدة.. ولم تكن طباع هؤلاء، المتوحّشة الحذرة، لتفاجئ «شي»، الذي كان يعرف تماماً عقليّتهم، لكونه قد عاشهم في مناسبات أخرى. كان يدرك أنّ من الضّروريّ قيادة عمل طويل وصعب وصبور في سبيل كسبهم إلى جانب قضيتّه، ولم يتطرّق الشكّ مطلقاً إلى نفسه في أنّه لن يتوصّل إلى تحقيق غايته مع مرور الزّمن. ولو تابعنا بانتباه مجرى الأحداث، لرأينا أنّ حرب العصابات حافظت حتّى في شهر أيلول، أي قبل بضعة أسابيع من موته، وعندما انخفض عدد رجاله إلى أدنى مستوى.. على إمكانيّتها في العمل، وأنّ بعض الإطارات البوليفيّة كالأخوين أنتي وكوكو يريدو قد تميّزت وبشّرت بإمكانات قياديّة. إنّ كمين هيغيراس هو العمل الوحيد الذي قام به الجيش ضدّ الجماعة التي يقودها «شي» وتكلّل بالنّجاح، حينما قتل طليعة الجماعة، وجرح عدداً من أفرادها في وضح النّهار.. بينما كان هؤلاء في طريقهم إلى منطقة يتمنّع فلاحوها بوعي سياسيّ أفضل (لم يذكر هذا الهدف في اليوميات وقد أوردته لنا بعض من نجوا

من الكمين).

هذا الكمين بالذات، وضعهم في موضع صعب لا يمكن التغلّب عليه. إنّ هذه المسيرة النهارية طويلة أيام متتالية وفي نفس الطريق أثارت شبهات سكّان هذه المنطقة التي يجتازونها للمرة الأولى، مع إيمانهم المطلق بأنّ العدو سيَعترض سيرهم في لحظة معيّنة.. كانت هذه المسيرة حقًا مفعمة بالمخاطر، وكان «شي» مدركا حقيقة ذلك وقد قرّر المجازفة بها بغية مساعدة الطّبيب الذي كان في حالة جسدية سيئة للغاية، كتب في عشية الكمين: «وصلنا إلى بوجيو.. كان هناك أناس رأونا البارحة في الأسفل.. وبعبارة أخرى لقد أعلن عن وصولنا واديو بامبا.. لقد أمسى من الخطورة بمكان أن نسير مع البغال، وجلّ جهدي أن تتمّ رحلة الطّبيب في أطيب الظروف الممكنة فقد أصبح في غاية الضّعف...» وكتب في اليوم التالي: «مضت الطليعة في السّاعة الواحدة (السّاعة الثالثة عشرة) في محاولة الوصول إلى جاغوي واتّخاذ قرار هناك بخصوص البغال والطّبيب...» وكان يبحث إذن عن حلّ للمريض حتّى يستطيع مغادرة هذا الطريق واتّخاذ الاحتياطات الضّروية. ولكنّ الكمين القاتل تمّ بعد ظهر هذا اليوم بالذات قبل أن تصل الطليعة إلى جاغوي، ممّا وضع الفصيلة في مأزق لا مخرج منه، وبعد أيّام قليلة شنّت الفصيلة معركتها الأخيرة بعد أن حوصرت في وادي اليورو.

إنّ العمل البطوليّ الذي قامت به هذه القبضة من الثّوريين.. لعمل مدّهب للغاية. إنّ مجرّد النّضال ضدّ الطّبيعة المعادية التي كانت تحيط بهم.. تشكّل صفحة بطوليّة. أن يأخذ مثل هذا العدد الصّغير من البشر، على عاتقهم القيام بهذه المهمّة العملاقة. فذلك لم يشهد التّاريخ له مثيلا.

إنّ إيمانهم واقتناعهم بأنّ القدرة الثّورية الهائلة لشعوب أميركا اللّاتينيّة يمكن إيقاظها.. وأنّ ثقتهم العميقة بأنفسهم وقرارهم بتكريسها لتحقيق هذا الهدف، كلّ هذا يقدّم لنا الأبعاد الحقيقيّة

لهؤلاء الرجال.

قال «شي» ذات يوم للمحاربين في بوليفيا: «إنّ هذا النوع من النّضال، يتيح لنا فرصة التّحوّل إلى ثوريّين، وبلوغ أعلى مستوى للجنس البشريّ. ولكنّه لنا أيضا أن نصبح رجالا وعلى أولئك الذين يشعرون بعجزهم عن بلوغ هاتين المرحلتين أن يشدّوا رحالهم ويتخلّوا عن حرب العصابات..»

إنّ الذين ناضلوا معه للحظة الأخيرة، قد برهنوا على جدارتهم بهذه الصّفات المجيدة. إنهم يرمزون إلى نوع الرّجال الثّوريّين الذين يدعوهم التّاريخ في أيّامنا للقيام بمهمّة صعبة وشاقّة حقّا: مهمّة التّحويل الثّوريّ لأميركا اللاتينية.

كان العدوّ الذي جابهه أبطال النّضال الأوّل من أجل الاستقلال، يتمثّل في السّلطة الاستعماريّة المنحطّة. أمّا الثّوريّون في أيّامنا فعدوّهم يتجسّد في أقوى معقل للمعسكر الإمبرياليّ، مزوّد بالتّقنيّات والصّناعة الحديثة. لقد أقام هذا العدوّ جيشا بوليفيا جديدا وزوّده بالمعدّات في بلد قام فيه الشعب بتدمير القوّة العسكريّة القديمة الإرهابيّة، ثمّ قدّم له معونة السّلاح وساعده عسكريّا من أجل مكافحة حرب العصابات.. وهو يقدّم بنفس الطّريقة مساعدته العسكريّة والتّقنيّة إلى كافّة قوى الإرهاب والقمع في القارّة. وعندما لا تكفي هذه الإجراءات، فإنّه يتدخّل مباشرة بقوّاته.. كما فعل في الدومينيكان.

إنّ انتصار النّضال ضدّ هذا العدوّ يتطلّب هذا النوع من الثّوريّين والرّجال الذين تحدّث عنهم «شي». وبدون هذا النوع من الثّوريّين والرّجال المستعدّين للقيام بما قاموا به، بدون هذه الشّجاعة في مواجهة العقبات الكبيرة، بدون قرار الموت هذا الذي رافقهم في كلّ لحظة، بدون هذا الاقتناع العميق بعدالة قضيتهم، وبدون إيمانهم الذي لا يتزعزع بقوّة الشعوب التي لا تقهر، في وجه سلطة الكالامبريالية اليانكيّة تشمل مواردها العسكريّة والتّقنيّة والاقتصاديّة العالم

أجمع.. بدون هذا كله، لا سبيل إلى تحرير شعوب هذه القارة.
إنَّ الشَّعبَ الأمريكيَّ الشَّمالِيَّ نفسه، قد بدأ يدرك أنَّ البنية السَّياسِيَّةَ العليا الهائلة الَّتِي تدير بلاده، لم تعد ومنذ زمن طويل، تلك الجمهورِيَّةُ الشَّاعِرِيَّةُ الَّتِي أَقامها مؤسَّسوها منذ مائتي عام تقريبا.. وهو يتعرَّضُ في كلِّ يوم وبقساوة إلى بربريَّة نظام لاعقلانيٍّ ومهووس، لا إنسانيٍّ وشرس ينال بشكل متعاضم الأمريكيَّين، من ضحايا حروبه العدوانية وجرائمه السَّياسِيَّةِ وانحرافاتهِ العنصريَّةِ وتمييزهِ التَّعِيسِ بين الكائنات البشريَّةِ وتبديده المفضوح للموارد الاقتصاديَّةِ والعلميَّةِ والبشريَّةِ العائدة لجهازهِ العسكريِّ الرَّجعيِّ الإرهابيِّ، في عالم يعيش ثلاثة أرباعه في جوع وتخلُّف.

إنَّ التَّحوِيلَ الثَّوريَّ في أميركا اللاتينيَّة هو وحده الَّذي يستطيع أن يتيح لشعب الولايات المتَّحدة تصفية حساباته الخاصَّة مع الإمبرياليَّة.. وفي الوقت نفسه فإنَّ نماء حركة نضال الشَّعب الأمريكيِّ ضدَّ هذه السَّياسة الإمبرياليَّة تؤهِّله لأن يصبح حليفا حاسما للحركة الثَّوريَّة الأمريكيَّة اللاتينيَّة.

إنَّ على هذا الجزء من نصف الكرة الأرضيَّة أن يعرف تحويلا ثوريا عميقا؛ وإلاَّ فإنَّ الاختلاف الهائل والاختلال الَّذين استتبنا في بداية هذا القرن بين الأُمَّة القويَّة من جهة، والَّتِي كانت تتصنَّع بسرعة، بينما كان قانون ديناميَّتها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بالذَّات يحملها إلى الدَّرى الرَّفيعة، وبين المجموعة «المبلقنة» في بقية هذه القارة من جهة أخرى، إنَّ هذا الاختلاف وهذا الاختلال سيزدادان بشكل رهيب، ليس فقط بسبب التَّباين الحاليِّ الشَّاسع في الاقتصاديَّات والعلوم والتَّقنيَّات، وإنَّما أيضا بسبب الاختلال المخيف الَّذي ستفرضه الإمبرياليَّة خلال العشرينات المقبلة على شعوب أميركا اللاتينيَّة وبدرجة متسارعة.

إنَّنا مهَيَّئون في سلوكنا هذا الدَّرب، لأنَّ نصح أكثر فقرا وأكثر ضعفا وأكثر ارتباطا بهذه الإمبرياليَّة وعبوديَّة لها، هذه النُّظرة القائمة إلى

المستقبل تنطبق على شعوب إفريقيا وآسيا بقدر ما تنطبق على بلدان أميركا اللاتينية وإذا كانت الأمم الصناعيّة المرتبطة بأوروبا، بسوقها المشتركة ومؤسساتها العلميّة على مستوى القارة المذكورة، يساورها القلق من جزاء إمكانية البقاء في مؤخرة السّباق وتتدارس بخشية إمكانية تحوّلها إلى مستعمرات اقتصاديّة للإمبرياليّة اليانكيّة، فما الذي يخبئه المستقبل لشعوب أميركا اللاتينيّة؟» (**)... «إنّه أنطونيو بيريز، وقد كان الرفاق/ أبداً يلقون أنطونيو العزيز/ بالتّحايا والعناق.../ كان أنطونيو قويّاً/ لامع العينين، تغفو أغنيته/ من أغاني الأوديه/ أبداً في شفّيته/ كان عند الأمسيه/ يلتقي في الحزب بالعمّال:/ أنا يا رفاق.../ ويضيء الشّوق عينيه ويغشاه انطلاق/ / كان أنطونيو نبياً/ كالذين/ لَوْنُوا تبريز في الفجر الحزين/ كان أنطونيو نبياً دون دين/ / كان أنطونيو مع الدّرب المضاء/ مثل آلاف الرّفاق/ في بلادي.../ في العراق/ / إنّه أنطونيو بيريز... لقد كان جميلاً/ مثل بحّار صغير/ أسمر الخدين من شمس الجنوب/ / إنّه مات قتيلًا/ أنت يا أنطونيو بيريز العزيز/ أنت يا من مرّقوك/ قرب مبني الحزب.../ إنّ غواتيمالا/ والهوى، والرّاية الحمراء، ممّا تتعالى.» (أنطونيو بيريز من غواتيمالا). («سعدى يوسف» (***)... «أمام لوحة هذا الوضع الحقيقيّ الظّاهر والذي يتيح بشكل حتميّ على مصير شعوبنا... إذا استطاع ليبراليّ أو إصلاحيّ بورجوازيّ أو ثوريّ مزيف ودجّال، عاجز عن القيام بأيّ شيء، إذا استطاع تقديم حلّ للتأخّر الاقتصاديّ والعلميّ. التّقنيّ المتراكم خلال عصور عديدة، بالنّسبة للعالم الصّناعيّ وخاصّة بالنّسبة للولايات المتّحدة التي ترتبط بها وسوف ترتبط بها بشكل أوّثق في المستقبل وإذا لم يكن هذا الحلّ تحويلاً ثوريّاً عميقاً وعاجلاً يعبّي القوى الأخلاقيّة والماديّة والبشريّة في هذا الجزء من العالم لدفعها إلى الأمام: وإذا تقدّم بالصّيغة السّحريّة وأشار إلى الطّريق السّحريّ للتّوصّل إلى ذلك وإذا كان هذا الطّريق مختلفاً عن الطّريق الذي رسمه «شي» والذي يكنس الديكتاتوريات

والطّغاة والسّياسيّين، وأعني الأجراء اليانكيّين وسادتهم من أصحاب الاحتكارات اليانكيّة.. فليفعل ذلك بأقصى سرعة تتطلّبها الظروف ولينهض حينئذ ليفنّد «شي». ولكن ليس من يملك في الواقع جوابا مشرفا ولا عملا منطقيا يبعث الأمل الحقيقي في قلوب ٣٠٠ مليون كائن بشريّ هم سكّان أميركا اللاتينيّة، الفقيرة بشكل بائس في أغلبيّتها السّاحقة، هؤلاء السكّان الذين سيبلغون ٦٠٠ مليون في مدّة ٢٥ سنة، والذين لهم الحقّ كل الحقّ في الحياة المادّيّة الثّقافيّة والحضارة: أليس من الأناقة المفرطة أن نصمت أمام بادرة «شي» وأمام أولئك الذين سقطوا إلى جانبه ليدافعوا بكلّ شجاعة عن أفكاره... ذلك أنّ الملحمة الّتي حقّقها هذه الحفنة من البشريّ حدها ذاك المثل الأعلى النّبيل في إنقاذ قارّة كاملة، ستظلّ أسمى برهان على ما تستطيع أن تفعله الإرادة والبطولة والعظمة الإنسانيّة، إنّ مثالهم سوف يضيء الضّمائر ويرشد نضال شعوب أميركا اللاتينيّة، لأنّ نداء «شي» البطوليّ سوف يليه الفقراء والمستغلّون، الّذين ضيّعوا بحياتهم من أجلهم، ولأنّ الأيدي الّتي سوف تمتدّ لحمل السّلاح وتحقّق تحرّرها التّهايّ ستكون عديدة.

.....

كتب «شي» الأسطر الأخيرة من يومياته في السّابع من تشرين الأوّل. وفي اليوم التّالي، وفي السّاعة الثّالثة عشرة، وفي واد ضيق قبع فيه ورفاقه بانتظار هبوط، لفكّ التّطويق.. هاجمهم قوّات غفيرة من الأعداء. وقاتل الرّجال القلّة الّذين كانوا يؤلّفون الفصيلة في ذلك التّاريخ ببطولة حتّى قدوم اللّيل وهم يتحصّنون في مواقع فرديّة في مجرى الجدول وعلى الأطراف العليا في وجه جميع الجنود الّذين كانوا يحيطون بهم ويهاجمونهم من كلّ حذب وصوب. ولم يبق من المجموعة القريبة من «شي» حيّ واحد. ولما كان يصحبه الطّبيب الّذي ذكرنا من قبل خطورة حالته الصّحيّة وكذلك محارب بيروفيّ (من بيرو) يعاني هو أيضا من سوء حالته الصّحيّة، فإنّ كلّ شيء يدلّ على أنّ «شي» قد

بذل كل ما في وسعه لحماية انسحاب رفاقه نحو مكان أكثر أمنا وهذا ما يفسر كونه قد جرح بالذات... ذلك لأنَّ الطَّبيب لم يمت في هذه المعركة. وإنما بعد عدة أيَّام من وقوعها، في مكان لا يبعد كثيرا عن وادي اليورو. وكانت طبيعة الأرض الصَّخريَّة الوعرة المنتظمة تجعل من الصَّعوبة الفائقة، إن لم يكن بحكم المستحيل، الاتِّصال البصريِّ بين المحاربين أنفسهم، فالذين كانوا يدافعون عن الموقع في المدخل الثَّاني للوادي، على بضع مئات من الأمتار من «شي». ومن بينهم أنتي بيريدو، صدَّوا الهجوم حتَّى مقدم اللَّيل ثمَّ نجحوا في الابتعاد عن العدو والتَّوجَّه نحو نقطة الالتقاء الَّتِي حدَّدت سابقا.

وقد استطعنا أن نعرف بكلِّ دقَّة أنَّ «شي» قد استمرَّ في القتال، على الرِّغم من جراحه، حتَّى دُمِّرَت سبطانة بندقيَّة م. ٢٠ من جِراء رصاصه طائشة وأمست غير صالحة للاستعمال. ولم يقدِّم له المسدَّس الَّذي كان يحمله أيَّة فائدة بعد ضياع مخزنه... إنَّ هذه الطُّروف العجيبة تفسِّر لنا كيف استطاعوا أن يقبضوا عليه حيًّا... كانت الجراح الَّتِي أصيب بها في ساقيه تعيقه عن المسير وحيدا ولكنَّها لم تكن بالجراح القاتلة.

نقل «شي» إلى قرية هيغيراس، وبقي حيًّا قرابة ٢٤ ساعة وقد رفض أن يتبادل كلمة واحدة مع أولئك الَّذين أسروه، أمَّا الضَّباط الثَّمَل الَّذي حاول إذلاله، فقد تلقَّى منه صفعة على وجهه.

وفي لاباز حيث اجتمع باريانتوس وأوفاندو والقادة العسكريُّون الآخرون.. اتَّخذ هؤلاء قرارهم باغتيال «شي» بدون أن تطرف له عين. ولدينا معلومات مفصَّلة عن إجراءاتهم لتنفيذ هذا القرار المشين في مدرسة قرية هيغيراس. أعطى المايجور ميغيل أيوروا والكولونيل أندريس سيلينش، وهما ضابطان تدريبا في مدارس اليانكيين، التَّعليمات الضَّروريَّة لضباط الصَّفِّ ماريوتيران من أجل تنفيذ عمليَّة الاغتيال. وعندما دخل هذا الأخير، بعد أن ثمل تماما، إلى المدرسة، كان «شي»

قد سمع طلقات الرصاص التي أودت بحياة محاربين: أحدهما بوليفي والآخر يروفي (من ييرو).. ولما لمس تردّد الجلاّد قال له بشجاعة نادرة: «أطلق النّار! لا تخف!» وتراجع ضابط الصّفّ مخذولاً ممّا دفع برئيسه آيورا وسيلنيش إلى إعادة الأمر مرّة أخرى على مسامعه فعاد لتنفيذه بإطلاق عدّة أعيرة نارية من رشاشه من الأعلى إلى الأسفل، تحت الخصر...» (**)... «وحيد بمقهاك... إنّ ليالي الشّتاء/ بباريس ليست وحيدة.../ وفي شقّة ما بوارسو تغني فتاة/ أغاني شريده.../ أغاني بعيدة.../ وفي الصّيف، في بمبلونه/ أحبّتك، كانت تحبّ النّبيلذ/ وكانت تناديك في أمسيات المدينة: /Amigo/ وكان زجاج المطار/ ندياً... وفي ثغرها/ ورائحة اللّيل... في شعرها/ رأيت النّهار/.../ / وحيد بمقهاك، إنّ الليالي/ هنالك... ليست وحيدة...» (اغتراب) (***)... غيفارا مات!... غيفارا مات!... «لقد تلقّى الجلاّدون أمراً بعدم توجيه نيرانهم إلى القلب أو الرّأس حتّى لا تودي جراحه بحياته على الفور خاصّة بعد أن أشتيت رواية مصرعه بعد مضيّ عدّة ساعات على القتال، وهكذا فقد أطيّل احتضار «شي» بقساوة إلى أن قام رقيب ثمل بإطلاقه رصاصة من مسدّسه في الجانب الأيسر منهيا بذلك حياة الشّهيد. إنّ هذا المسلك يتعارض بشراسة مع الاحترام الذي أبداه «شي» بدون استثناء، لحياة ضباط وجنود عديدين من الجيش البوليفي كانوا قد وقعوا في أسره.

لقد كانت السّاعات الأخيرة من حياته بين أيدي أعدائه الحقيرين في غاية المرامة ولكنّ «شي» كان مهيباً أكثر من أيّ رجل آخر في العالم للصّمود أمام هذه التّجربة.

*لا يمكننا الآن أن نكشف النّقاب عن كيفيّة وصول هذه اليوميّات إلينا ويكفي أن نقول إنّنا قد حصلنا عليها بدون مقابل.. وهي تتضمّن جميع الملاحظات التي كتبها بين السّابع من تشرين الثّاني ١٩٦٦، موعد وصول «شي» إلى نانكا موازو، والسّابع من تشرين الأوّل ١٩٦٧، وهو اليوم الذي نشبت في مسائه معركة وادي اليورو، هناك بعض صفحات

ناقصة لم تصل إلينا بعد، وبما أنها تعود لأَيام لم يجر فيها أيّ حدث هامّ، فإنّ مضمون اليوميات لم يتأثّر من جرّاء غيابها، على الإطلاق. إنّ أصالة هذه الوثيقة لا يرقى إليها الشكّ مطلقاً ومع ذلك فقد أخضعت جميع النسخ المصوّرة إلى فحص دقيق وليس ذلك للتحقّق فقط من الأصالة وإنّما أيضاً من أيّ تشويه ممكن، مهما بدا صغيراً. ومع ذلك، فقد قورنت الأحداث بيوميّات أحد المحاربين الذي نجا بحياته وتطابقت الوثيقتان في جميع النقاط. ثمّ إنّ الشّهادة المفصلة الّتي أدلى بها المحاربون الآخرون الّذين نجوا بحياتهم والّذين عاشوا جميع الأحداث لم تترك ذرّة من الشكّ في صحتها. وهكذا فقد حصلت لدينا القناعة التامة من أنّ جميع هذه النسخ المصوّرة تنقل إلينا بكلّ أمانة يوميات «شي».

إنّ فكّ رموز هذه الكتابة الصّعبة الصّغيرة... كان عملاً مضنياً وقد تحقّق بفضل مشاركة جادة من رفيقته أليدا مارش دي غيفارا. ستقوم دور النّشر والمجلّات التّالية بنشر هذه اليوميات في أن واحد، دار ماسبيرو في فرنسا، دار فيلترينيلي في إيطاليا، دار تريكونت فيرلاغ في الجمهورية الاتّحادية الألمانية، مجلّة رمباري الولايات المتّحدة، دار رويدو أبيريكو في فرنسا بالّلغة الإسبانيّة، مجلّة بونتوفينال في الشّيلي، دار سيلغوفي المكسيك... وسوف تنشر في بلدان أخرى أيضاً. فحقّ النّصر دوماً. «يوميات بوليفيا». قدّم له الدّكتور فيدل كاسترو (**)...

«١»

في صباح بعيد سأنهض/ محتمياً بالطّريق الّذي ينحني هادناً مثل قشرة بطيخة/ سوف أمنح نفسي إجازة يوم/ وأطلق عينيّ من قاعة القصد/ «لا شيء لي» هكذا سوف أهتف/ «لا شيء لي» سوف أهتف حتّى لقبرة عابره/. ثمّ ماذا إذا ما مضى اليوم؟/ ماذا سأفعل بالنّظر الطّلق/ بالمنظر الطّلق/ بالنّاظر الطّلق/ باللّحظة السّافره؟/. في مياه جنوبيّة يهطل التّوت، أبيض، أحمر، أسود... خضراء، خضراء... إني

أريدك خضراء (يدخل لوركا!) وخضراء كانت أصابعنا، الرّيح خضراء،
والغصن أخضر... أفواهنا في الظّهيرة حمر، هو التّوت يهطل، والظّل
يهطل، أغصان رمانة مثقلات بزورقنا. سمك دائخ في القرار القريب.
النّساء ينادين مستوحداث بحنّائهنّ. الضّفائر ملساء من غرين الشّمس.
نسمع هجس السّلاحف. في بغتة تختفي كالحصاة حبيبة توت... تو...
تو... تركض بها السّلحفاة نحو قاع شفيف./

«٢»

في صباح قريب سأمض/ مستطلعا مثل آدم (ويتمان يدخل!/) ذاك
الصّباح القريب سأمضي إلى سرورة ما/ وأبحث عن جندب ضجّ فيها/
سأسأل فاخنة عن بنينا، وأسألها أن تنادي ولو لحظة، غافلا أو نبيها/
وأسأل عن طائر الطّيّطوى.../ولكنّه مرّ.../ هل مرّيا فاخته؟/ مرّ.../
. والصّوت يا فاخته؟/ ليس من سامع بينكم/ ليس من راحل بينكم.../
. أه... ما أهدأ الموت يا فاخته!/. / ربّما أتلّمس رائحة لو غفوت على
زندها خمس عشرة تهيدة. هل سنسمع في الفندق السّاحلي اضطراب
الحصا في شواطئ مهجورة؟ أنت ملتبس أيّها الرّعفران. البخور الرّماد
على شعرها. والملابس متروكة كالأريكة. كانت حبال القوارب تقطر. لو
كانت الأرض نرجسة وانطوت لفتحنا شبابيكها. غير أنّا الدّوار الذي لا
نريد له غير طعم الدّوار. الملاءات قد تتوضّأ في اللّيل. والقارينضح من
قارب في الظّهيرة. يقطر، يقطر... أهو اضطراب الحسا في الشّواطئ؟/
أهو الرّماد الجليل؟/

«٣»

قبل هذا الصّباح انتهضت/ أتركت على طرقات الجبين العواسج
والوخز/ ألح من ركن نافذتي أرزة في القمامة مقطوعة/ ثمّ ألح
أخرى ببيت قريب... أتقطّع؟/ من جمع العنكبوت إلى نجمة البحر؟/
ماذا تخبّي تلك التّلال البعيدات؟/ كان الضّبّاب (غريب هو الصّيف
/) يدنو كبحر من القطن/ كيف ستعلو البساتين والقطط المنزليّة من

وحشة القاع؟/ كيف السبيل إلى أن نرى؟/ كيف نسأل؟/ برج الكنيسة في البعد.../ ناقوسه يرتنّ/ يرتنّ/ يرتنّ.../ / أن نحبّ إلى أن نموت (وبودلير يدخل!) تلك البلاد التي شاهتتنا، البلاد التي أطعمتنا بذور الشفّاح، كمأتمها، والرصاص الغزير... البلاد التي سكنت دمها مثل بيت يضيق بمستأجر... أو ما أن ألاّ نحبّ بها؟ أو ما أن أن ننتهي كي نقول لها:/ لا تميلي علينا/ لا تمدّي يدا/ نحن جننا إلينا/ فسكنّا الغدا/ هكذا، كلّ صبح يحجيء الصّباح.../ وفي كلّ صبح نقول الكلام الشّبيه... الكلام الذي/ قد حفرناه طول الليالي المديدات. لا بأس./ لكنّما اللّيل أقصر من أن تطول به شجرات هلام/ لتصبح قمصاننا.../ هو أقصر من أن تطول الأفاعي به وهي تلتفّ حول الضّلوع.» («ثلاثية الصّباح» . نيقوسيا ١٩٨٦/٧/٢١) (***)...

«نعود من الصّمت للصّمت: في الصّمت نحلم بالريّزفون، ونحلم أيضا . كما كنّا نحلم . بالانتظار... ونحلم بالتّيه كم مرّة سيعود من الأغنيات، وفي طبق الشاي... نحلم بالراحلين، وبالعائدين بأسمائهم من مساءات «بليس».... نحلم كم مرّة. كم شتاء تقمّصت الرّوح فيه الخريطة/ كم دمة في سلال البكاء.../ نعود إلى الجسر في كلّ يوم،/ نخاطبهم في رحيل المياه./ وفي الشّرفات.../ على دمة في الكنائس:/ كم «لندنا» سنخاطب؟/ نعود إلى الجسر من كلّ وجه./ ليحتكم الماء فينا لصمت المدينة.../ غنّ،/ فبعد انتشار العصفير في جوقة اللّيل / يأتي الرّجاء.../. سنمضي.../ فمن أيّ وجه سنمضي؟/ ومن أيّ بيت من الشّعريّات المتنتيّ/ بأنّ النّبوءة في صرخة الجرح محض انطفاء؟/ لنا المتنتيّ/ وفيض النّبوءة./ دعنا ليحتكم الماء فينا لصمت المدينة/ يهجرها الشّعراء!/ لنا ما تبقى من الجرح./ يكفي لأن يلد الماء رحم القصيدة.../ نعود من اللّيل ليلا: رأنا النّوافذ حين انتظرنا، ولم يرنا العابرون.../ لماذا نأت قطة في الشّوارع،/ خافت سوادي.../ ولم تنتظر خطوة الراحلين؟/ فوحذك،/ هذي النّوافذ تعطيك سفر الخروج:/

ووحذك، / خلف النجوم تخطّ المواعيل / دمعا لوجه النهار الجديد. /
سنمضي: / لنا ما تبقى / وما سوف يبقى، / لنا أن نحار إذا غيمة عانقت
لوزة: / قرأت من نشيد الليالي التي سبقتنا، / مدائح تذيب للبحر في كلّ
عام... لهم أن يكونوا بوجهين مثل الظلام: / لهم ما لنا... خيمتان: / لهم
ما لنا... زورقان: / لنا ما لنا... / ما لنا، / ما لهم، / رحلة العزل للمرzbان
الأخير: / لنا ما لنا، / ما لهم / غفوة للصباح على عتبات السرير. / لنا
ما لنا... / كم لنا من أنا؟! / كم لهم من جواب على دية العاشقين، / كم
لاذ فهم سؤال على صهوة النّاج / فوق الأمير؟ / لنا ما لنا... / كم لنا...
ما لنا، / ما لنا... / كم لنا من شتا؟! / ما لنا / لوعة الورد بين الأقاصي، /
ونافذة علّقنا على رثتها جديلة مريم: / والمسيح احتسى في رضاب
المساء: «ولدت من التّوت في بيت لحم، / تعلّمت في سفركم هفوة اللّوح
/ كيف تصير الخرائط أكبر من حجمها، / كيف أعطي الحليّ خوارا، /
وكيف السّلاطين يفشون سرا / على جثة البؤساء!... / ولدت من
الريّح، / هل تعلمون؟ / وأمي استعازت برّب الشّمال. / وربّ الجنوب... /
استعازت بصبر النّخيل... / ولدت صفيّا لبوابة الطّور في التّيه: / ما كان
طورى شقيّا، / وما كنت موسى تريقون فيه الخوار عتيا. / سلام عليّ
إذا عشت فيكم، / ويوم أموت سلام عليّ، / وفي رحلة الاغتراب سأبعث
حيّا... / سلام عليّ، / سلام إذا عمّفته الحروف، / سيهرب مني إلى...!)
«حصار المدائن المعلقة» («المؤلّف») (****) ...

«من مطر على البحر اكتشفنا الاسم، من طعم الخريف وبرتقال
القادمين من الجنوب، كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروت كي نأتي إلى
بيروت... / من مطربينا كوخنا، والريّح لا تجري فلا تجري، كأنّ الريّح
مسمار على الصّلصال، تحفر قبونا فننام مثل النّمل في القبو الصّغير /
كأنّنا كنّا نغنيّ خلصة: / بيروت خيمتنا / بيروت نجمتنا. » (*) ... «هنا، مرّة
ثانية: / تولد المدن السّراب، ويهرب ملح البساتين بين السّماء وبينّي: أرى
من بعيد مزامير داود ترقص في بيدر التّوت، قرطاج تعلو وتعلو، وسيفا

يهاجم ناعورة الماء. هذي سفائن عوليس تحجب بهو البلاط... بعيدا على شاطئ الحزن. كم سنة وشَّح الحبّ مرجانة البحر، ومن ذا يعلّق متراس بابل خلف المحيط، ومن غيرك الآن قد يحتسي خمرة المهرجان، حبيبي؟! ستولد في جبّة الله، من فرح القادمين وهففة القلب في خوص النخل، إليّاذة السّفر المعتق شوقا وتين. وتولد أسماؤك المترعات بأقباء كلّ القصائد: طوبى لبوّابة الطّور! طوبى لمن دفّاته حروف التّباريح، من ألف عام، بلغز المعاني فلم يكثرث للذين يدسّون أحلامهم رقية بوشيش الشّموع وسرّ الجراب! متى سوف تاتي، ويأتيك من هرب المتعبين سباتي؟ حبيبي، متى سوف نهرب من كلّ حلم، ومن كلّ عمر، ومن كلّ نجد ومن كلّ فارس؟... غبار مسافات حبّ بنيناه بالشّمع؛ سحر نثار الورود بباحات كلّ الغزل. إذا متّ قبلي... وإنّ متّ بعدك، أمل للضّريح نواقيس «بلييس»، واكتب نشيد النّجوم على الشّاهدة: «سوف يحرقنا اللّيل مثل القمر،/ سوف يأتي الخريف بأحزان أيلول،/ يأتي النّدامى، وكأس التّبيذ وبعض من الذّكريات!!» («تباريح الزّمن المرّ») (****)...

«... ونافذة تطلّ على رصاص البحر/ يسرقنا جميعا شارع وموشح/ بيروت شكل الظّلّ/ أجمل من قصيدتها وأسهل من كلام النّاس/ تغرينا بألف بداية مفتوحة وبأبجديات جديدة: / بيروت خيمتنا الوحيدة/ بيروت نجمتنا الوحيدة/ هل تمدّدنا على صفصافها لنقيس أجسادا محاها البحر عن أجسادنا./ جننا إلى بيروت من أسماننا الأولى/ نفتّش عن نهايات الجنوب وعن وعاء القلب.../ سال القلب سال.../ وهل تمدّدنا على الأطلال كي نزن الشّمال بقامة الأعلال؟/ مال الظّلّ مال عليّ، كسرني وبعثرني/ وطال الظّلّ طال.../ ليسرو الشّجر الّذي يسرو ليحملنا من الأعناق/ عنقودا من القتلى بلا سبب.../ وجننا من بلاد لا بلاد لها/ وجننا من يد الفصحى ومن تعب.../ خراب هذه الأرض الّتي تمتدّ من قصر الأمير إلى زنازننا/ ومن أحلامنا الأولى إلى... حطب/

فأعطينا جدارا واحدا لنصبح يا بيروت! / أعطينا جدارا كي نرى أفقا
ونافذة من اللهب. / وأعطينا جدارا كي نعلق فوقه سدوم/ التي انقسمت
إلى عشرين مملكة/ لبيع النفط... والعربي/ وأعطينا جدارا واحدا/
لنصبح في شبه الجزيرة: / بيروت خيمتنا الأخيرة/ بيروت نجمتنا
الأخيرة.»(*)...

«هنا، مرة ثانية، / لا تقف في ممر الخرائط، لا تحترف لعبة الاختفاء
وهرب خطاك بصنارة القلب. ارم من الشارع المستطيل مذابح نيرون،
كي يصطلي بضياح المدينة أهل المدينة. هدهد ليالي المريدين، واكتب عن
الجوع كي لا تجوع. سيدخل من فوهة القلب سرب النوارس؛ قد يلتقي
ساحل التيه نجما أخيرا وبعض الحروف... بلى، تستحيل القصيدة
يختا يجذف في القلب، يصحب سر النخيل على دقة الروح، بين اغتراب
الشوارع... عوليس! من قرأ البحر واحترف الهرب السامري. خوار...
خوار. ولا شيء في مدن الملح. طروادة النار أعطت حصان الجزيرة كل
المفاتيح، وامتدت الأغنيات على سحنة الآلهة. وحدك، الآن، عوليس:
إسفنجة، دارة وامتداد. تليك الأصائل، يشربك الماء مثل القطا...
شاطئ يرتخي. وحدك، الآن، عوليس: شرنقة وهديل يمازجه الامتلاء!»
«تباريح الزمن المر»(****)...

«بيروت! من أين الطرق إلى نوافذ قرطبه/ أنا لا أهاجر مرتين/ ولا
أحبك مرتين/ ولا أرى في البحر غير البحر.../ لكّي أحوم حول أحلامي/
وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبه/ وأريد أن أمشي/ لأمشي/ ثم
أسقط في الطريق/ إلى نوافذ قرطبه.»(*)... «بلى، يا امتداد المسارات، يا
أفقا ليليكيا، يا آخر الليل في وبدء الكلام؛ بلى، يا رجوعي إلى آخر الظل،
يا نصف جرحي لجرحي، يا آخر الأنبياء ويا واهب الانتماء؛ بلى... مدن
المهرجان المهرب/ خارطة جمعت مبعديها من النشوة المحرقة. آه... آه،
لنبعد قصاص النشيد، نسكب بقايا الدموع؛ فأرض البنفسج. هذا
الشتاء المفاجئ. تستل عمق الشوارع/ تهرب بين الخطى. آه من عوسج

البحر/ أرض البنفسج. هذا السراب. يبددها الفجر فوق المضائق/ أرض
البنفسج حلم الحقيقة بين الدفاتر والسفر المستمر؛ وطعم المحيطات
مرّ. وهمس التّباريح مرّ، ولقياك يا جوع روجي قرّوصر. وآه...! بلى؛
أولّ البذر/ ما تشتهي بعنف وما يشتهي: وما يعترك طويلا لتؤمن أنّ
انقسام الخليج توحد روحين في جسدين، وأنّ انسياب الحنين جنون،
وأنا مسافات تحتدّ/ تمتدّ/ ينكسر العمق فيها وتأتي لتمضي، فلا مدن
التّوت برّ، ولا أنت أنت. تموج على نغم العود، شيد على دمي المتخثر هو
البلاط وسور الحديقة. وآه، لكم، إن سألت تألمت مثل الخزامى: فهات
مدامك، هات انسكاب الموشح في شفتين: أريد اليماما... أريد الهديل
المرصع بين التناهي على خانة في المقام، أريد أترجم ما لا يترجم؛ هات
المدام، أريد اليماما...! «تباريح الزّمن المرّ» (***)...

«وأحمل أرض كنعان التي اختلف الغزاة على مقابرها/ وما اختلف
الرّواة على الذي اختلف الغزاة عليه/ من حجر ستنشأ دولة الغيتو/
ومن حجر سننشئ دولة العشاق/ أرتجل الوداع/ وتغرق المدن الصّغيرة
في عبارات مشايهه/ وينمو الجرح فوق الرّمح أو يتناوبان عليّ/ حتّى
ينتهي هذا النّشيد.../ وأهبط الدّرج الذي لا ينتهي بالقبو والأعراس/
أصعد مرّة أخرى على الدّرج الذي لا ينتهي بقصيدة.../ أهذي قليلا
كي يكون الصّحو والجلاد.../ أصرخ: أيها الميلاد عدّني لأصرخ أيها
الميلاد.../ من أجل التّداعي أمتطي درب الشّام/ لعلّ لي رؤيا/ وأخجل
من صدى الأجراس وهو يجيئني صداً/ وأصرخ في أثينا: كيف تنهارين
فيينا؟/ ثمّ أهمس في خيام البدو:/ وجهي ليس حنطياً تماماً والعروق
ملينة بالقمح.../ أسأل آخر الإسلام:/ هل في البدء كان النّقط/ أم في
البدء كان السّخط؟/ أهذي، ربّما أبدو غربا عن بني قومي/ فقد يفرنقع
الشّعراء عن لغتي قليلا/ كي أنظّفها من الماضي ومنهم.../ لم أجد جدوى
من الكلمات إلا رغبة الكلمات/ في تغيير صاحبيها...» (*).

.. «أشرب بنان لكأس المدام** تعانق صدى الوتر المستهام/ وجمّع

فؤادك حيث انتهيت**هنا، يا حبيبي، يماط اللثام/ فإن صار فيك
الهوى مستطابا**وأزقك الصمت حين استقام/ تمهل على مترعات
الكؤوس**وهات: عقيق صبا أو هزام... («تباريح الزمن المر»)(****)...
«دارت علينا واستدارت. أدبرت واستدبرت/ هل غيمة أخرى تخون
النّاظرين إليك يا بيروت؟/ هندسة تلائم شهوة الفئة الجديدة/
طحلب الأيام بين المدّ والجزر/ النّفايات التي طارت من الطبقات نحو
العرش.../ هندسة التحلل والتشكّل/ واختلاط السّاثرين على الرّصيف
عشيّة الزلزال.../ دارت واستدارت/ هندسيّتها خطوط العالم الآتي
إلى الشّوق الجديد/ يشتري ويباع. يعلو ثمّ يهبط مثل أسعار الدّولار/
وأونصة الذهب التي تعلو ثمّ تهبط وفق أسعار الدّم الشّرقى/ لا... بيروت
بوصلة المحارب.../ نأخذ الأولاد نحو البحر كي يثقوا بنا.../ ملك هو
الملك الجديد.../ وصوت فيروز الموزّع بالتساوي بين طائفتين/ يرشدنا
إلى ما يجعل الأعداء عائلة/ ولبنان انتظارا بين مرحلتين من تاريخنا
الدّمويّ...(*) «هَلَلُويا./ هَلَلُويا./ سوف تهضّ أورشليم!/ هَلَلُويا./
هَلَلُويا./ سوف تولد أورشليم!/ هَلَلُويا./ هَلَلُويا./ سوف يأتي الرّاحلون./
ويزهّر البيت القديم جدائلا/ في أورشليم!/ الأربعون فراشة:/ الأربعون
متاهة./ تحاول أن تكون فلا تكون./ والسّامريّ المنتهى أبدا:/ يحاول أن
يكون فلا يكون/ يحاول أن يموت فلا يموت/ ستظلّ تهضّ أورشليم./
هَلَلُويا./ هَلَلُويا./ يزهّر البيت القديم.../ هَلَلُويا./ هَلَلُويا./ جدائلا في
أورشليم!» («ذاكرة المنفى» ٢٥/١٢/١٩٩٧)(****)... «الأربعاء. السّبّت.
بائعة الخواتم/ حاجز التّفتيش. صيّاد. غنائم/ لغة وفوضى./ ليلة
الاثنين./ قد صعدوا السّلالم/ وتناولوا أرزاقهم. من ليس منّا/ فهو من
عرب وعاربة. سوائم/ يوم الثلاثاء. الخميس. الأربعاء./ وتأبّطوا تسعين
جيتارا وغنّوا/ حول مائدة الشّواء الأدميّ./ °/ قمر على بعلبك/ ودم على
بيروت/ يا حلو، من صَبّك/ فرسا من الياقوت/ قل لي، ومن كبّك/ نهريّن
في تابوت/ يا ليت لي قلبك/ لأموت حين أموت...(*)... «مذكّرة مرفوعة

إلى الرئيس: إنّ هناك من الدّخان أكثر ممّا هناك من نار في السّطر المشهور الذي كتبه جو السّوب من أنّ ناصر سيغزو المملكة العربيّة السّعوديّة. وأنّ البنتاجون تتلّيف على استخدام الأسطول السّادس ولكنّ السّدّج في وزارة الخارجيّة يعارضون ذلك.

لقد قمنا فعلا بالكثير في سبيل نبي الجمهوريّة العربيّة المتّحدة عن التّصعيد. وجعلنا المدمّرات تزور ميناء سعوديّا، وقاذفات القنابل تطير إلى هناك. والآن هناك فريق لقوّة خاصّة. وقد أنذرنا ناصر مرّة أخرى بالأيدوس على أصابع أقدامنا. أمّا فيما يتعلّق بلهفة البنتاجون (عبارة محذوفة). وقد قدّرنا باستمرار (وهو تقدير صحيح حتّى الآن) أنّ ناصر سيقوم بالتّصعيد عوضا عن الخروج من اليمن. وها هو قد استأنف القصف فعلا، واكتشفنا ان مظاهرات الجمهوريّة العربيّة المتّحدة أسقطت مؤّنا على من يفترض أنّهم مشايعون لهم في الحجاز، ويعتقد بعض (عبارة محذوفة) بأنّ الجمهوريّة العربيّة المتّحدة قد تحاول إحداث ثورة في الحجاز أو الإغارة على مستودع سعوديّ للمؤن. ونحن ننذرنا ناصر مرّة أخرى (عبارة محذوفة).

ولئن كان جهدنا الحاليّ مؤلّا وغير مؤكّد، كما هو حاله، فلست أرى له بديلا. (عبارة محذوفة). (ر.و.كومر) «...» «تفّاحة في البحر، امرأة الدّم المعجون بالأقواس./ شطرنج الكلام./ بقية الرّوح، استغاثات النّدى./ قمر تحطّم فوق مصطبة الظّلام/ بيروت. والياقوت حين يصبح من وهج على ظهر الحمام/ حلم سنحمله. ونحمله متى شئنا. نعلّقه على أعناقنا/ بيروت زنبقة الحطام/ وقبله أولى. مديح الرّنزلخت. معاطف للبحر والقتلى/ سطوح للكواكب والخيام/ قصيدة الحجر. ارتطام بين قبرتين تختبئان في صدر.../ سماء مرّة جلست على حجر تفكّر./ وردة مسموعة بيروت. صوت فاصل بين الضّحيّة والحسام./ ولد أطاح بكلّ ألواح الوصايا والمرايا/ ثمّ... نام... (*) «...» «١» الظّهر إلى الحائط. والرّصاصة تنتظر. ليس في ظهره إلا وشم الإسمنت العربيّ.

أرضية السّجن وجزمة الفتى المتخصّص بكسر الفقرات. الرّصاصة
تنتظر. أيّها المتدرّج بالعينين... السّماء هابطة. السّماء ضيقة. مثل
حجر على ورده. وأنت في المسافة بين الحجر والوردة تفتح عينيك.
ياخذك المقاتل إلى الملعب الرّياضيّ. تسدّد: طلقة واحدة في الشّاحص
الحجريّ... والطلقات الباقية تطير كالعصافير نحو النّجم والبحر. زمن
في عنق الرّجاجة. والدّربة في محاورة القتل فقط. الطلقات لم تستقرّ
بعد. هكذا انسللت من معادلة الموت المحكمة. الظّهر إلى الحائط.
والرّصاصة تنتظر. دع عينيك مفتوحتين في إغماضة الدّهشة. دع لنا
مسافة للحلم. حتّى لو كانت بقدر رصاصة / . / للبحر أرجع مرّة أخرى/
كأنّي أحتوي عدنا بقميصي الصّيفيّ.../ هل تجد الطّيور مغارة في البحر/
أو تجد الفتاة فراشها في الصّخر/ أو يجد المقاتل خندقاً؟/ لكنّي للبحر،
هذا البحر، أرجع/ أحتوي عدنا بجيب قميصي الصّيفيّ/ ألمسها كأنّي
ألمس امرأة السّواحل/ والقباب البيض/ والأهل الذين نأوا.../ ومهتف
بي دمي:/ إنّي إلى الأمواج أرجع/ أحتوي عدنا بجيب قميصي الصّيفيّ/
أحملها كوردة ساحر/ وأقول للعشّاق: هذي وردتي/ فتقدّموا للبحر/
إنّ سمّيّه صدف/ وإنّ شميمه أحمر.../ «٢» اسميك التّراب أيّها الوجه
العربيّ. اسميك موشحاً من سواحل مجهولة. اسميك سنبله متناثرة
بين مضائق وصخور. اسميك وأنت الغياب. أتقرّاك في ظلام اللّحظة
اللزّجة. من يهبنا أسماء أمهاتنا؟ من يترك على الوسادة ريشة العنقاء؟
هكذا نستيقظ في صباح الخرافة. نغسل أيدينا من المعتقد... ونقول:
ها نحن أولاء أبرياء كالزّمل. نقول: الجليل لنا ولا نخجل. في صباح
الخرافة تكون الكلمات أجساداً. لن أسخر من الثّورة. السّفن تحفر باب
المنذب. والطّيور أكثر ارتفاعاً من الجبل. مرّة قالت لي فتاة فلسطينيّة،
ونحن بين صيّادي بيروت: من هناك تأتي طائرات العدو. كانت سبّابها
تمسح العالم كلّهُ. / . / عمّان في صنعاء، أم عجمان في بيروت/ أم بغداد
بستان تسوّره الرّياض/ أم المدائن قد خلت أسماؤها فتداخلت/ حتّى

كأنَّ حروفها نسيت رواسمها وراسمها/ لتنسينا البلاد وعشيمها/ والله
 والأرضين والميلاد/ وتنسينا عروقا شدّت الأضلاع بالأضلاع/ والعريّ
 بالنجم المخبّأ/ والصبيّ بلعبة الأحفاد/ ولكنيّ أخبئ للصبيّة وردة
 أخرى/ أقول: ظفار.../ ثمّ تطير أغنيتي بأجنحة العمانيات/ بالأثواب
 من كحل ونرجسة/ ومعنى النّدّ/ معنى الضدّ/ معنى الرّمح والأملود/ أو
 أصغي إلى تنويع هذا العود/ في عدن/ ومن عدن/ ومن نجد/ إلى يمن/
 أخبئ للصبيّة وردة أخرى/ وأرسمها على باب المضيق وبدلة البحار/
 وأنحتمها على الأحجار إذ أتوهم الأشجار/ وأحفرها على الأحجار إذ أنذرك
 الأحجار/ وأفتحها:/ أعدّ وريقة لدع/ ثمّ وريقة للد/ ثمّ وريقة لدن/ ثمّ
 أكون في عدن.../ ومن عدن أخبئ للصبيّة من عمان الوردة الأخرى/ «٣»
 نتناهى المطر في الحلم كأنّه زند غزال. الحلاج رئيس جمهورية. وبيننا
 كنوز الأرض والغيمة غير العابرة. أيها الوطن الذي ضاق. أيها الوطن
 الذي مضى. نحن مانحوك الهوية وحضور المائدة. علّقناك ملصقا في
 «الفاكهاني» وجلسنا نحرسك ببنادق الفقراء. زرعناك وردة في القبلة
 اليدوية. وقلنا: لن ننزع الصّاعق. الأمر لك. فلتسكن غرفنا المهمّدة.
 لتقطع معنا الشّارع الأخير. المائدة معدّة في الدّامور. فلتشرب معنا هذه
 الكأس. اشرب معنا هذه الكأس ولا تجرّعناها حتّى القتل وكسرناها
 على رأسك./ / كهذا الماء، نزرا، أنت/ تأتي في ابتهاج يدين ضارعتين/
 أو شفتين فاحمتين/ أو لبلابة تمتدّ بين عريشة الرّؤيا وسامراء.../ مثل
 الماء، نزرا، أنت/ تسكن بين لجج والمكلاّ./ في مسایل أخطأت أبارها زمنا/
 فدارت في متاه العمق/ مثل الماء، نزرا، أنت/ ترجف لاقتراب النّجم/
 تلمح في بريق القطرة الأولى... السّديم/ كأنّ بين الماء والمكوت سرّ الغفلة
 الأولى/ وسرّ الرّعيّة الأولى/ وتمتدّ الأنامل... بغتة/ وتتمتم الشّفتان:/
 تحت خطا الصّبيّة شهقة الينبوع./ «٤» في القوقعة البحرية تنصت
 إلى نداء الحوريات. في ذرّة الرّمّل تسنبت الأرجوانة. يا لهذه البلاد...
 تأخذك ولا تأخذ. مثل النّجم لا يتّسع إلّا في العينين. مثل أغنية تقترب.

الراقص ذو التّرس الصّغير والخنجر القوس يدخل السّاحة لتكون
سفينة والنّساء عيون. من أيّ دارة أنت أيتها الحضرميّة المزركشة
كشجرة الميلاد؟ إذن... إلى دمّون انتسب، لأقول: غدا أمر. وفي الحقيقة
الخصوص رائحة/ من عرق سري يتقطّر في الوادي/ فلنختبئ وراء بوّابة
الصّندل والنّحاس./ لنختبئ في مجمرة الولي./ لنختبئ لحظة.../ أريد أن
أحبّك./ أريد أن أجدش ذراعك لأعرف دمي.../ وأريد أن أستروح اليمن
اليمن/ أريد أن أجد الشّجيرة حيث أرخى الجّد خصلته/ أريد الرّيشة
الأولى لأشعلها/ فلعلّ ذاك البرق يأتي بالسّحابة من بلاد الجان.../ هل
كان لي أن أسكن اليمن اليمن/ شهرا.../ ليسكنني/ فينسج من خيوط
قميصي الصّيفيّ مئزره/ ويكشف صدري العاري لنجمة أرجوان؟/
أم أنّ لي في أوّل اليمن اليمن/ غصنا/ ومتكأ/ وخطأ مسندا/ وحجارة
شفت بها العينان..» («الينبوع». عدن ٢٠/٣/١٩٨٢) (***)

.....

في السّماء غيوم متلبّدة تنذر بهبوب العاصفة... والجوينوء بعبء
رائحة ثقيلة غريبة. تنتشر في جنباته فتزكم الأنوف، وتبعث في النّفوس
إحساسا أقرب إلى الغثيان... والفضاء، حتّى حدود الأفق، تترجّع عبر
ثناياه أصداء الكلمة الخطيرة. بعنف، لا يضارع؛ هذه الكلمة من «فئة
الوزن الثّقيل»، الّتي كان سحر جرسها، إلى وقت غير بعيد، يغطّي
عمّا تنطوي عليه، في الحقيقة، من الخطر... المجازفة... واحتمال
الضياع!!

...م

...ظ

...ا

...هـ

...ر

...ة

وتكون مظهره، بكلّ احتمالاتها، وإيحاءاتها، ونتائجها، دون اعتبار، ساعة الدّهشة، للأسباب التي تتلاشى، فجأة، تحت ضربات العصي، والشتائم، وغازات القنابل المسيلة للدموع، ونباح الكلاب ذات الأطواق الجلديّة، المدرّبة على الصّيد، في مؤخّرة الطّابور!!... قلت لنفسي، وقد أيقنت بفوات اللّحظة التي كنت خلالها قادرا على الصّباح بأعلى صوتي بأنّي: «براء ممّا تفعلون!»، كما كنت خلالها قادرا على التّراجع دون شعور بالذّنب، من جانبي، أو تقريع، من جانب الصّديق رقم «٢»؛ قلت إنّ بعض الكلمات تظلّ جميلة، فاتنة، ما دامت كلمات، حتّى إذا ما انطلقت، من حيّز الذاكرة، صبيّا، يحبو، بعينين فاحصتين ثاقبتين، وأنف، كأنف الكلب، يشتم رائحة الطّريدة على بعد أميال، ويد عابثة، لا تعترف بالضّوابط والحدود، انهار جدار السّحر والفتنة، ليحلّ محله وعي ممضّ بدنوّ الخطر ووشوك الفجيعة. إنّها ليست المرّة الأولى التي يرنّ فيها جرس هذه الكلمة الخطيرة في أذني، فلطالما اشرأبت بعنقها الدّقيق نحوي، وأنا أقلّب، أثناء المذاكرة، صفحات كتب التّاريخ الإنجليزي والأميريكيّ، على حدّ سواء، فتطالعني، بين سطورها، ذكريات أحداث، كنت أحسبها أخاذة، أشبه ببطولات العصور الخوالي، وامتناع الموت من عصمة فرسان المائدة المستديرة، والتّوق الدّائم إلى إثبات الشّرف والحكمة، في معركة عادلة، خلال القرون الوسطى، في مواجهة الظّلم و... الشرّ... و... ولم يكن يدرّ بخلدي أنّذ أنّ ما كنت أحسبه رومانسيّا، فروسّيّا، يضمّ في طيّاته أحداثا دامية عنيفة، عن الثّورات، والمظاهرات، وسنوات الجوع، و... الموت... والانتحار... والجنون، قد لا تكفي أكثر كلمات المؤرّخين شناعة ودمويّة لتصويرها أو الإلمام بخباياها؛ وكنت أرى، على شاشة التّلفزيون، بنظرات عجلى، وأنا نصف مستغرق، صوراً تتالي، كأنّها تنطّ من قرار سحيق، فلا أعيرها كبير اهتمام، وهي تجسّد مناظر، لا أدري لماذا كنت أعتبرها غير حقيقيّة، كما لو كانت مناظر لفلم سينمائيّ... عربات البوليس الكبيرة

الطويلة، فرق الشرطه بخوذهم، وعصيم ودروعهم، وهم يتقدمون بثبات... كلاب تنبح... يافطات... لافتات... طلبة... رجال... نساء... يهتفون جميعا بكلام لم أكن أفهمه؛ وعند الالتحام، تسقط اليافطات واللافتات، ويتفرق الطلبة والرجال والنساء... ويظهر وجه المذيع، الذي يفيض صحة، على الشاشة، وهو يعلن ببشاشة: «سيداتي، أوانسي، سادتي... لقد تمكّن البوليس والشرطة من السيطرة على الموقف؛ كما تمّ إلقاء القبض على زعماء المشاغبين!» فأستشعر راحة باطنية، وتذبّ طمأنينة حيّة إلى أعماق نفسي، وأنفّس الصعداء أخيرا، إذ تكون النتيجة مطابقة لما كان مرسوما في ذهني، عن انتصار الحق، وانكسار الباطل حقيرا ذليلا!!!... هكذا تعلّمت ممّا رأيت وشاهدت، منذ تفتّحت عيناى على غول رهيب، وعملاق جبار، اسمه أميركا؛ وأمنت بمبدأ الحقّ القائل: ما التقت السلطة مع طرف ثان، إلّا وكان الحقّ إلى جانب السلطة!... الشرطة على حقّ... البوليس أيضا على حقّ... والكلاب المدرّبة على الصيد في مؤخّرة الطّابور هي أيضا على حقّ؛ فلماذا يثور الطلبة والرجال والنساء، ويرفعون اليافطات، ويقولون كلاما كبيرا؟ لم أكن أفهم سببا لذلك!!

إلّا أنّه جاء اليوم الذي كان لا بدّ لي فيه أن أفهم؛ عفوا. لم يكن الفهم هو الكلمة الدّقيقة، بل . بمعنى أدقّ . الاستفاقة على صدمة الواقع، حيث يتحتّم عليّ، بدافع مسؤوليّة الانتماء، مراجعة كلّ مبادئى، التي كوّنتها، في فترة وجيزة من حياتى، عبر إدماهى النّهم على أفلام العنف، والحرب، والقوّة، والخيال، التي كانت تستبطن مثال التّفوّق الغربى، وإنّ... «المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب.» وأنا كنت مغلوبا على أمرى!!

ذكريات كانون الأوّل!!!

ذكريات الحجارة الصّغيرة تطلقها أياد صغيرة ناعمة، في إصرار، فتنتطلق الشرارة!!!

ذكريات واحد وأربعين عاما، من الرّحيل، والإبعاد، والخوف، بين
مخيّمات اللاجئين...!

ذكريات المنفى...!

أول ما اخترقت أذني «الانتفاضة». كلمة بأحرفها التسعة، تتألق
في شفتي الصديق رقم «٢»، حتّى نطّ إلى ذاكرتي، دونما وعي أو تحسّب،
السّطر التّالي: «يا ليت الفتى حجر...»: ورحت أتخيّل المشهد أمام
ناظري، بعيدا عن تهويمات الشّعراء ومبالغة الشّعور؛ فطفر من رحم
الفراغ فتى صغير، تشبه صورته صورة الصّبيّ حنظلة، كما رأيتهما
مرسومة في إحدى المجلّات، بملابسه الرّثة المرقّعة، ورجليه الحافيتين،
إلاّ أنّه لم يكن مشبوك اليدين، مستديرا بظهره، في محاولة لإخفاء
آلامه الّتي تنطوي عليها سحنه وجهه، بل كان متلقّعا بشال ذي شراريب،
تتقاطع عليه، بالطّول والعرض، خطوط طويلة سوداء، ولا يظهر سوى
عينيه الغاضبتين المتحجّرتين؛ ويده اليمنى مشهورة، تقبض، في حزم،
حجارة كبيرة مدبّبة، وحينما كان يستعدّ لقفزها، استحال هو نفسه إلى
تمثال حجريّ، راح يصعد، ويصعد، ويصعد... وفي لحظة معيّنة، سقط
محدثا جلجلة عظيمة وزلزلة؛ ورأيت كأنّ آلاف المدافع تغيّر وجهتها
عكسيّا، وترمي كراتها المشتعلة فيالق العدو، ومئات الدّبابات تنقلب
بما عليها، وتدقّ أعناق راكبيها، وصواريخ «أرض . أرض»، وصواريخ
«أرض . جو»، وصواريخ «الباترويت» و«السّكايروك» تنفجر، فتتناثر
أشلاء، وطلقات الرّصاص تدوّي، كأنّها تردّد قائلة: «اخرجوا من أرضنا.
من زرعنا. من خارطة وطننا. فالأرض أرضنا، والزّرع زرعنا. والتّاريخ
لنا، والمصير...» ثمّ يهدأ صوت الرّصاص لحظة، ويعود عنيقا كما
كان: «اشربوا البحر»!

خلال أيّام أكملها، لم تتح لي فرصة الإخلاء إلى نفسي، فقد كنت
أشبه بالسّجين، محاطا بالحديث والأصدقاء، ومزيد الحديث، ومزيد
الأصدقاء؛ وجاء خبر المظاهرة. (إحياء لذكرى الانتفاضة). ليزيدني

بلبالا جديدا، على بلبالي القديم، فأدمنت التّدخين؛ ومع التّدخين تعلّمت لعبة الصّمت: كيف أكون مكتّما، وأميّنا؛ وأن لا أذيع أيّ سرّ مهما بدا تافها! وإن بدا لي إدمان التّدخين. حيث أصبحت أدخّن أكثر من ثلاثين سيجارة يوميا. شيئا جديدا لم أعوده من قبل، فقد كان صمّي الجديد تعميقا لصمت أزلّي قديم، مع اختلاف يسير، وهو الانفلات من صمت الفرد إلى صمت الجماعة... صرت دائم التّفكير في السيّء، فالأسوأ، رغم جهدي المبذول لمحاولة الثّبات، واعتناقي المبدئيّ للمثل القائل: «خذ الأمور ببساطة»؛ وأحسست، ربّما لأوّل مرّة، أنّ ما لم يكن يعنيني، وكنت أعتبره مجرد سحابة صيف ما تفتأ أن تمرّ بسلام، قد غدا أشدّ التصاقا بي، حتّى لكأنّي أشعر بكعب نعاله على معدتي، ويديه القاسيتين المحرّشتين حول عنقي. فماذا لو عادت بي الذاكرة سنين، عددا، إلى الوراء، وطفرت من على شاشة التلفزيون نفس تلك المناظر التي طالما كنت أراها: سيّارات البوليس الكبيرة الطويلة، الكلاب المدرّبة، صوت الرّصاص، واللافتات تتقدّم جموع الطّلبة والرّجال والنّساء؟ هل كنت سأظّل نصف مستغرق، كما اعتدت أن أكون؟ وهل كنت سأحافظ على نفس القناعة بأنّي لا أشاهد أحداثا حقيقيّة، وإنّما أشاهد فلما أميركيّا، من إنتاج استديوهات هوليوود؟ وهل كنت أخيرا سأنتظر ظهور وجه المذيع، الذي يفيض صحّة؛ وأنا أهجس بنفس تلك الفكرة الصّغيرة في مؤخّرة رأسي، عن النّصر والهزيمة، والحقّ والباطل، و«ما التقت السّلطة مع طرف آخر إلا وكان الحقّ إلى جانب السّلطة قطعاً»؟ لا أعتقد أنّي أمتلك الشّجاعة الكافية لأعترف أنّي كنت أستطيع أن أكون ما كنته؛ وأنّي كنت سأتميّ لتلك اللافتات والياقطات أن تسقط، والجموع الغاضبة أن تتفرّق، والرّعماء أن يقبض عليهم، والكلاب أن... تنهش اللّحم، فإذا ما انتهى اللّحم أتت على العظم. آه، لشدّ ما تغيّرت في تلك الأيّام القليلة الحزينة؛ فكان الذي كنته كان إنسانا نأى، في غفلة منّي، بين ذرات الملوكوت، وحلّ محلّه آخر،

يشعر، بعمق، أنّه مذنب (جهله جعله يشعر بالذنب)، وأنّه بائس، وأنّه مسكين؛ وكلّما طافت به، وهو نصف مستغرق، صور من المظاهرات على شاشة التّلفزيون، ينتابه الخجل، لأنّه خيّل إليه، يوما أنّ أميركا لا تربض وراء الباب، وإنّما تبسط كفّهما احتفاءً بالقادمين إليها من وراء بحر الظّلمات!!! هل كنت أحتاج إلى ضربة مطرقة على رأسي، أو إلى آثار المقارع والسيّاط على ظهري، لاتصوّر أنّه كان يمكن لمن هو مثلي، أن يكون مندسًا بين تلك الحشود، يحمل يافطة كما يحملون، ويهتف بسقوط الاستعمار والإمبرياليّة، كما يهتفون؛ وإذا ما احتدم التّزال، لاذ بزقاق جانبيّ، أو ممرّ ضيق، فارًا بجلده؟! كلاً. أنا الآخرون. والآخرون أنا!!!...

ذلك الاعتقاد، وتلك القناعة، اللّذان نبتا في رأسي، أثناء تلك الأيّام، جعلاني أطرح على نفسي أسئلة لم أكن أتصوّر قطّ أنّه سيأتي عليّ يوم لأطرحها فيه؛ وليس مردّد ذلك إلى صعوبة تلك الأسئلة، أو استعصاء الحدس بأجوبة لها، وإنّما مردّها بالأساس إلى ظنيّ أنّها قد تخصّ أيّ أحد إلّاّي... أنا الذي عشت عمري كلّهُ، بطفولته الشّريفة، وشبابه الشّائخ المترهّل، منزويا، منفردا، مستوحشا، كقوقعة ملقاة، دون مبالاة، على شاطئ لبحر مهجور؛ متخيّلا، في لحظة غائمة، مخادعة، أنّ من ولد وحيدا، على أصوات تأتيه من وراء عالم موغل في النّسيان، يستطيع، إلى آخر نفس فيه، أن يظلّ مستمسكا بتلك الوحدة، عالما منغلقا، كأننا ممتلنا، ينظر من برجه العاجيّ، إلى الأشياء من عل، فتنهار أنقاضا ورمما وبقايا... رأ... سي... رأسي يضحّ، كقفير النّحل، بالأسئلة: أيجتاج الأمر إلى ملابس من نوع خاصّ؟ أم قميصي ذو الأكمام الطّويلة، وبنطلوني اللّذي يصلح لحفل راقص، وحذائي اللّذي اشتريته من أحد محلات «بليموث» الفاخرة، يكفون للإيفاء بالغرض؟ ألا يستحسن أن ألبس حذاء رياضيّا وبنطلونا مدموغا بماركة «دجيتز»؟ وسألّت الصّديق رقم٢»، على حياء، عمّا يحبّده هو شخصيّا من الملابس في مثل

هذه المناسبات، عفوًا. في مثل هذه المظاهرات؛ فضحك ملء فيه، حتى بانت نواجذه. وقال بصوت تشوبه غنة خفيفة: «دائمًا تبدوا الأمور في البداية صعبة نوعًا ما، ولكن بمرور الوقت، نكتسب طاقة كبيرة، ومقدرة عجيبة على التأقلم. المهم أن نحافظ على برودة الأعصاب، ونلتزم الثبات؛ ولك بعد ذلك أن تلبس ما تريد، غير أنني أفضل. وهذا مجرد رأي. خفة الحذاء الرياضي، وصلابة «دجينز»...» أنا لم ألبس، في حياتي، بنطلون «دجينز»، لأنني، بكل بساطة، كنت أكره تلك الماركات، ولا أرتاح إليها كثيرًا، عدا أنها موضوعة العصر في ذلك الزمن، وقد كنت أنا أرفض أن أتموقع في خانة الأغلبية؛ ولكن، الآن، سأكون مضطراً إلى لبسه؛ إذ لا مفر، «فالسَّيَّارات ستكون أمامك، ووراءك ستكون السَّيَّارات، وبين السَّيَّارات والسَّيَّارات، سيكون هناك عسكر وكلاب؛ ولن يكون لك، والله، إلا الجري حتى ينقطع نفسك، فإما النجاة ظفراً، أو القهر صبراً!!»... سألت نفسي مراراً، على كره مني: ماذا لو مسكوني... ووقعت في قبضتهم، ماذا تراهم فاعلين بي؟! إلا أنني أتغافل. في اللحظة الأخيرة، ولا أجيب، وأدير ظهري مغمض العينين، كما لو كنت أتفادي مواجهة السؤال الذي كنت أتخيله مرسوماً أمامي، بأحرفه المشاكسة، يتحداني: غير أنني ما أكاد أنجح في استبعاد ذلك السؤال، حتى ينبع، من مكان ما، سؤال آخر جديد، وبقدراً كنت ألج في طمس معالم خاطر شنيع، كان خاطراً أشنع منه يزداد إلحاحاً علي... يعذبونك!... يعلقونك من أذنك!... يغمسون وجهك في الماء حتى يضيق نفسك!... يشبعونك ركلاً وضرباً ورفساً وكدماً ولطمًا!... ويرمونك أخيراً في قاع قبو شديد الرطوبة ويمنعونك من النوم طوال الليل، حيث تنقل أذناك إلى قاع دماغك المستنفر الكليل قطرات الماء، تنبعث من الصنبور الجهنمي، قطرة... قطرة... قطرة!! وسألت الصديق رقم «٢»، مرة أخرى، لما ضقت بهواجسي ذرعاً، فاكسب وجهه جديةً، وتقلصت عضلاته، ولاحظت أنه لم يضحك ملء فيه، ولم تظهر في صوته تلك الغنة الخفيفة،)

هكذا إذن. فلست الوحيد الذي ترعبه هذه الخواطر، التي تظلّ لها رهبتها الخاصة، حتّى بالنسبة إليه هو، وبالنسبة إلى آخرين غيره، دون شكّ. ألا يقال: «كلّنا أمام العذاب سواء، قياساً على القاعدة القانونية المشهورة: كلّنا أمام القانون سواء!»

قال:

نحن نحاول أن لا نقع في قبضتهم!

فسألته في لهفة:

كيف؟ وهل نستطيع ذلك؟

فأشار إلى رجله، وقال وهو يغتصب ابتسامة رقيقة على شفثيه:

الأمر في غاية البساطة: وكلّ ما عليك أن تفعله هو أن تجري.

سألته معولاً:

إلى متى؟

قال:

حتّى ينقطع منك النّفس...

فقاطعته إذ ذاك قائلاً، وأنا أتصنّع ضحكة مسكينة:

فإمّا النّجاة ظفراً أو القهر صبراً!

ذكريات كانون الأوّل...!

أُمسّت ذكريات بعيدة الآن، تكتنفها ظلمة تسع سنين...!

وإن نسيت، فلن أنسى تلك اللّيلة، في غرفة المبيت، بالطّابق الثّالث،

محشوراً مع خمسة آخرين، استعداداً لحدث الثّامن من كانون الأوّل،

وقد قرّنا السّريّين الوحيدين في الغرفة إلى بعضهما، وتمدّدنا عليهما،

بشكل عرضيّ، حتّى يتّسع للجميع. وممّا أذكره جيّداً، عن تلك اللّيلة

الغريبة، من باب الطّرافة المضحكة المبكية، في نفس الوقت، بالنّظر

إلى ما ينتظرنا في طيّات الغيب، أن زميلاً لنا كان طويلاً جدّاً، طوله متران

وعشرة سنتيمترات، حاول جاهداً أن يؤقلم نفسه مع وضع السّريّين،

إلاّ أنّه ما أن يتخذ مكانه، ويتمدّد مفرداً ساقيه، حتّى تغيض ساقاه

في الهواء، ثم تسقطان، مرتطمتين بقوائم السّرير الثّاني الحديدية؛ وقد حاول، في تلك اللّيلة، مرارا أن يجد لنفسه وضعا ملائما، غير أنّه يصاب بخيبة أمل في كلّ مرة، وانتهى به الأمر، في النّهاية، إلى ثني رجليه، مشكّلا رسما هرميّا، رأسه ركبته المتضامّتان، وقاعدته قدماه الكبيرتان المتباعدتان، وظلّ كذلك حتّى ساعات الصّباح المبكرة، بعد أن فكّر أن يفرش حشّية على الأرض لينام عليهما؛ ولكنّ إصرار بقيّة الزّملاء جعله يعدل عن فكرته، الّتي كانت ستجلب له، حسب تعبير أحد الزّملاء: «روماتيزم العظام!»... أنا، رغم اضطرابي والرّعدة الخفيفة الّتي كانت تنتابني من حين لآخر، بدأت أشعر شيئا فشيئا بالأمن والرّاحة، من جرّاء الدّفء الّذي بدأ يتسرّب إلى أوصالي، وأنا تحت الغطاء الصّوّفي السّميك، أولا، ثمّ انغماسي، ثانيا، في مجريات الحديث الطّريف، الّذي لم يكن كفيلا بجعلي أنسى أمر المظاهرة فقط، بل كان حريّا أيضا أن ينسيني هموم واحد وعشرين عاما، دفعة واحدة. وقد تكلمت، في البداية، وشاركتهم في الحديث، مدفوعا برغبة طاغية في الهروب من حصار الخوف، ثمّ ما لبث أن تحطّم بداخلي ذلك الحصار، وانبرت أتحدّث معهم، بكل عفوية، حتّى أنّي ضحكّت أكثر من مرّتين بصوت مسموع... وكانت السّجائر، الشّهية، وسط برودة اللّيل، تحت النّور الخافت للمصباح، وأقداح الشّاي الصّغيرة، سببا آخر لجلاء جيوش الرّهبة من حصون نفسي المنهارة المضعضعة؛ وكذلك نيّة الزّملاء المبيّنة عن عدم ذكر أيّ شيء عن مظاهرة الغد، فقد كنت الوحيد، من بينهم، الّذي لم يشارك في أيّة مظاهرة بعد؛ وعلى هذا الأساس، فكلمهم، دون استثناء، مجرّبون... محنّكون... مناضلون؛ واثنان، من بينهم، مازالا يحملان أثارا قطعية، كالشّاهدة، لا تمّحي، على جسديهما؛ إذ في وجه أحدهما، على الجبهة، ناحية اليسار، ندبة جرح، أحدثتها ضربة عصا، على إثر اشتباك مع أحد أعوان البوليس؛ وعلى ذراع الثّاني آثار جرح غائر، بفعل رصاصة طائشة كانت ستودي بحياته.

وفي ساعات تلك اللَّيلة الطَّويلة، دَخْنَا كثيرا، حتَّى انعقدت حلقات الدَّخان دوائر، بمختلف الأحجام، صغيرة وكبيرة، فوق رؤوسنا في فضاء الغرفة...

وفي الصَّبَاح الباكر أيضا...

لم نكن في حاجة إلى الإفطار؛ بل كانت بضع سجائر تكفي، فدَخْنَا ونحن ما نزال على السَّريرين، تحت ذلك الغطاء الصَّوفِي السَّميك، وقبل أن نرتدي ملابسنا، وقد تبادل بقيَّة الزَّملاء بعض الكلمات، وضحكوا قليلا فيما بينهم، ثمَّ نظروا إلَيَّ جميعا، وابتسموا مشجَّعين... وحاولت أن أجارهم، لأبيِّن لهم أنَّي لست خائفا، وأنِّي على استعداد لأن أكون شجاعا مثلهم، وانفجرت شفتاي، عن ابتسامة كنت أريد لها أن تكون مضبئة منطلقة، فجاءت شاحبة ميَّنة... وكادت قواي تخونني، ويندلق لساني ليقول: «إنِّي لن أذهب معكم!» ولكيَّي أطبقت عليه بأسناني المتوحَّشة، في اللَّحظة المناسبة، حتَّى كدت أدميه. صحيح أنَّي مضطرب... ومضطرب كثيرا أيضا، تكاد رجلاي المرتجفتان لا تحملا بقيَّة جسدي. وصحيح أنَّ ذلك الأمن وتلك الرَّاحة اللَّذين استشعرتهما البارحة، مع سريان الدَّفء، ورطوبة الدَّحان، وطلاوة الحديث، قد تلاشيا مع تلاشي الدَّفء، وزوغان الدَّخان، وانقضاء الحديث. وصحيح أنَّي أتضاءل... وأتضاءل... مثلما تتضاءل الذَّبابة في زوبعة داخل الفنجان؛ ولكن، محال أن يزلَّ لساني بصكِّ الإدانة أدمغه بنبرات صوتي الخائفة. فماذا سيقولون عنك؟ وإذا لم يقولوا، لأنَّهم قد يخجلون من مواجهتك بحقيقة رأيهم فيك، فهل ستخطئ ما قد تفيض به نظراتهم من سخرية وإدانة واحتقار؟ لا. لا. لن أسمح بهذا أبدا! وقلت في نفسي: «إنَّك قطعت أشواطًا، يصعب معها أن تتراجع الآن! زمن التَّراجع قد ولى، وصارت رائنا! فإذا لم يكن من أجل القضية، فمن أجل الرَّجولة، وإنقاذ الشَّرَف!!» وسكَّت... سكَّت كصنم!!

ارتدينا ملابسنا على عجل، وانطلقنا إلى موقف الحافلة... كان هناك

آخرون، مثلنا، يقفون في حلقات صغيرة، متباعدة، يختلسون نظرات وجلى، إلى رحابة المكان، ويتبادلون، بينهم، كلاما هامسا، ويشيرون، ويومنون. ولم تمرّ لحظات قلائل، حتّى جاءت الحافلة، صفراء، فاقعا لونها، تسرّ الناظرين؛ وصعدنا، جميعنا، من الباب الأمامي... ومن الباب الخلفي، وساد السكون ثقيلًا لدنا منذرا، كأنّ على رؤسنا طيرا...
أبابل!!

في المحطّة الأخيرة، نزلنا، وتفرّقنا، أيدي سبأ، كلّ إلى وجهته. وكان يلوح لي، حيث أمدّ بصري، في الامتداد من حولي، أشباها آخرين مثلنا، يشي بهم صمتهم، وأحذيتهم الرياضيّة و... بنطلوناتهم «دجينز»؛ يمشون بخطى سريعة ثابتة، مرفوعة رؤوسهم، وأيديهم في جيوبهم؛ هدفهم محدّد نحو نقطة الانطلاق، رغم التّباعّد، والتّشتّت الفوضويّ على جغرافيا المكان، فكأنّهم سيول رقيقة، متدفّقة، تنحدر من أعلى الجبل، لتلتقي عند حدود المصبّ، ومن ثمّ تضيع أشتاتا، في متاه البحر المتلاطم العملاق العظيم... تفرّق، أيّتها الحشود، ثمّ تجمّع؛ وتجمّع، ثمّ تجمّع، لتكوّن طوفانا من اللحم البشريّ يعبر مضائق الأزقة، إلى انفراجات السّاحات!!

وبانت أخيرا بناية السّفارة... سفارة إحدى الدّول الأجنبيّة العظمى، وأمام رحبتها الخارجيّة الفسيحة، وعلى أطرافها غير البعيدة، كانت تحطّ، من كلّ حذب وصوب، رجال الطّاعنين، الاتّين من ظمأ الصّحارى، وسديم الضّبّاب، فينحشرون وسط طابور من النّاس، لا ينتهي، غادين رائحين، لا تفتّر حركتهم ولا تهدأ... ويحطّ آخرون، وينضمّون بدورهم إلى الطّابور، ويأتي الفجّ العميق، بسكونه الذي يسبق العاصفة، ويقذف ما في رحم بطنه، من الكثرة والامتلاء، أناسا... وأناسا... ثمّ أناسا. من أين؟ وإلى أين؟ هما سؤالان طرحهما أحد البخلاء على ضيف جاء يعود، فكأنّته بذلك أراد أن يختصر المسافة، ويقطع عليه الطّريق، بمنطق كيّس وعبارة مهذّبة ظريفة؛ وهما التّرجمة الوقحة لـ «أراك

جئت تأكل طعامي وت تلف مالي!» ولكن هؤلاء الناس جميعهم ليسوا ذلك الضيف، كما أنّ هذا الرّزاق الضيّق الطويل المتعرج الذي يخترق صفيّين من البنايات القديمة الشاهقة لا يمكن أن يكون ذلك البخيل... هذا الرّزاق مضيف، وكلّ الناس . فتيانا وفتيات . ضيوف يتضايفون! فما جدوى أن تطرح: من أين؟ وإلى أين؟... من أين؟ من رأس الرّزاق، الذي يلي السّفارة، على مبعده خطوات فقط. وإلى أين؟ إلى التّوقّعات والاحتمالات والتّخمينات و... «من عمل مثقال ذرّة خيرا يره. ومن عمل مثقال ذرّة شرا يره»!

وانفجرت كلمة السرّ...

دوّت في الفضاء، كقصف الرّعد، وزوبعة العاصفة...

«أطفال الحجارة»... «أطفال الحجارة»... «أطفال الحجارة»...

فجأة، مرقت من خضمّ الطّابور، صفوف متراصّة، كمثل الكراديس، وانتظمت، هي الأخرى، في طابور جديد، طويل. فكان المنظر هائلا، مهولا، يحاكي، في احتدامه، هسهسة حبّات القمح، وهي تنفصل عن قشورها، وتسقط شغربغر، فتتناثر أكداسا ذهبية برّاقة، على مفارش البيدر... وأمسكت الأيدي بالأيدي، وعلت الأصوات وتماست المناكب، والأكتاف، مخترقة عطفات الرّزاق... وأطلّت من الكوى في الأعلى، ومن فتحات النّوافذ والشّبابيك، وجوه لنسوة حاسرات، كنّ، في البداية، ينظرن مندهشات متعجّبات، وما أن طرقت آذانهنّ ثورة الكلمات الغاضبة، حتّى ارتفعت عقائرهنّ بالزّغاريد، والهتاف، وكان بعض الأطفال الصّغار ينطّون حولهنّ، محاولين رؤية ما يجري، ولكن دون جدوى، فتمتدّ إليهم أذرع تلك النسوة، تساعدنهم على الصّعود إلى الأفاريز... ويستمرّ الطّابور في التّقدّم، بثبات، وتضامّ، وتمتدّ جلبه الأصوات، وتتمطّط، ممرّقة سكون الرّزاق النائم الهادئ، وتشرع نوافذ أخرى، وتشرّب نساء أخريات برؤوسهنّ، وهنّ يزغردن، فإذا ما ابتعد الموكب، شيعنه بدعواتهنّ الحارة الصّادقة... «الله يحرسكم!... الله لا

يشمت بكم عدواً!... الله يسمع منكم!...» ويهزم الرعد، ويعنف، وينزل المطر رذاذاً، ثم وبلاً؛ فتحتد الأصوات حتى يشق رنينها عنان السماء، ويلج الطابور في التقدّم... وتجيش نفسي بالدموع، وأحاول. جاهداً. أن أشكم انفجارها، إلا أنها تغشى بوابات العين الخلفية، وتهمر مدراراً، دون إرادة مني... كنت الوحيد الذي يبكي، وكانت الكلمات تنطلق من فمي مترققة، مشروخة، يتخللها شهيق وإعوال، وأردت أن أتماسك. كما يليق برجل استفاق، بغتة. فوجد نفسه وحيداً، وسط متاهة بلا طعام ولا ماء. ولكي كلما حاولت ذلك، ازدادت إمعاناً في البكاء. وازدادت دموعي فوراناً... والتفت ناحيتي شخص لا أعرفه، ولا أذكر أنني رأيته من قبل، فلاحظ مدى مسكنتي وضعفي، فدنا مني عند ذلك، ووضع يده على أصل كتفي، وضغط برفق، ثم بحدة، وقال لي بمودة وعطف: «تماسك، يا أخي، ولا تبك. فكلنا في الهم شرق!»

وانتهت المظاهرة بسلام، بلا خسائر ولا ضحايا، تحت سماء رحيمة، وفوق أرض أرحم؛ وتفرقت تلك الجموع الكثيرة، واختفت عبر الأزقة الضيقة، والطرق الجانبية، ثم تلاشت وذابت، كأنها لم تكن. ولما أمنت، ونزلت السكينة على قلبي برداً وسلاماً، استخفني طرب، فضحكت من نفسي ملياً، حيث تذكّرت تلك الأيام العصبية التي مرّت بي، يتأكلني التحسّب والرّيبة، وتملّكني إحساس بالتضاؤل والصغار، وبأنّي، دونا عن جميع الرجال، رجل ليس برجل؛ وهذا الإحساس بالذات هو ما نكأ جرحي القديم فغداً أكثر تفرحاً، إلى درجة التورم والتقيح.

لم يحدث شيء إذن!

وما فكّرت فيه كان مجرد تهويل، من نسج خيال مشطّ! فأين تلك السيّارات الكبيرة الطويلة؟ وأين رجال الشرطة والبوليس بخوذهم ودروعهم وعصيم؟ وأين الجلاوزة والبصّاصون؟ وأين الكلاب المدربة على الصّيد في السّاقة، والميمنة، والميسرة، والقلب؟ وأين...؟ وأين...؟ وأين الخوف؟ هل كنت خائفاً حقاً؟ أجل، كنت كذلك، في البداية، ولكن

بمجرد أن انطلقت الشرارة الأولى، وعلا أول صوت، حتى بحثت عن
الخوف بداخلي، فلم أجده، وشككت، ساعثنذ، أنه ربّما يكون اختفى
متواربا في مكان ما، وما يلبث أن يعاود هجمته كزة فكرة، (ووضعت
كفّي على قلبي، لاعتقادي اليقيني أنّ القلب أكثر أجزاء الإنسان عرضة
للزهوة والخوف)، ولكن كان كأنّما صرح شامخ عملت في أصله معاول
الهدم، فاستحال إلى ذرات قمينة، أطارتها في أرجاء الفضاء الرّحب،
نسمات الهواء الرّقاق: وقد لاحظت أنّه كلّما رفعت صوتي أكثر، غدوت
أكثر صلابة، وكلّما كنت صادقاً، نزلت سيول الدّموع، فغسلت بقلبي
مرضاً، وأينعت ثمرًا... يؤتي أكله في كلّ حين!! ترى آية قوّة في الإنسان
تقهر الخوف، الّذي ورثناه عن أبينا آدم، منذ ارتكابه الخطيئة الأولى
ونزوله إلى الأرض؟ وهل ما يقهر الخوف قوّة أكبر من الخوف؟ أو لا
يعدو الأمر أن يكون مجرد قدرة على تناسي الخوف لقهر الخوف؟!...
سمعت وقرأت عن أناس هدّوهم بالقتل فلم يخافوا؛ وعدّبوهم فلم
يطرف لهم جفن، وأغلقوا دونهم أبواب الرّنازين، وأثخنوهم جراحاً،
وأشبعوهم قتلاً، ولم يستسلموا. وقال «شي غيفار» لجلّاده، لمّا أشهر
في وجهه المسدّس: «أطلق النّار!» فكعّ وجبن!

وانقضت، بعد ذلك، شهور... خمسة.

رحل خلالها الشّتاء، بيرده ومطره وعواصفه.

وجاء الرّبيع بفتنته، متوشّحاً بأطيّاره وأزهاره، ومكّلاً بروعة آماله
وأمانيه.

ومضى هو أيضاً، وكما جاء رحل.

وهلّت أشهر الصّيف منذرة بحرارة حارقة، تنوء تحت وطأتها الجباه،
وتسفع من هولها الجلود... واقتربت الاختبارات، فدبّت في شراييني دماء
جديدة، ووطّنت العزم على تدارك ما فاتني، بالذاكرة و(سهر اللّيلي!!)؛
وقد أخلد الباقون أيضاً، الرّملاء الإخوة، إلى الرّاحة، وراحوا يستعدّون
لاجتياز اختبارات آخر السّنة.

أقسم أنني لم أقصّر!

وأقسم أنني تحمّلت مسؤوليتي كاملة، وزيادة!

وأقسم أيضاً أن صورة والدي نطّلت إلى ذهني ثانية. وتذكّرت وصيّته لي، كما سمعتها منه أوّل مرّة، وهو يودّعني، أمام باحة الدّار الخارجيّة عند الرّحيل: واستمددت منها، صادقاً، النّبراس والعزم والقوّة، ونجحت، قبل انطلاق الاختبارات بأيّام قلائل، في مذاكرة جميع المقرّر، الّذي تمكّنت من الحصول على نسخ منه من بعض الزّملاء (مشكورين) ... وراودني حلم جميل ما فتئ أن تحوّل إلى قناعة راسخة بأنّي سأنجح، كما في كلّ مرّة، ما في ذلك شكّ؛ ومن حين لآخر، حينما أخلو إلى نفسي، في ساعات اللّيل الأخيرة، وأنا متمدّد على حشيتي، يداعب قلبي صوت هاجس خافت أسمعُه يقول لي مطمئناً: «لا عليك، يا صديقي، أنا أضمن أنّك ستنجح، وستعود ظافراً كما في كلّ مرّة!!» ثمّ يصمت قليلاً، حتّى أظنّ أنّه لن يعاود مرّة أخرى، ويستطرد سائلاً: «إذا كنت تنجح كلّ سنة، منذ سنّك الأولى بالمدرسة، فلماذا لا تنجح هذه السّنة، سيّما وقد أعددت لكلّ شيء عدته؟» وأهمّ أن أواجهه بحقيقة أنّي، خلافاً لكلّ السّنات، لم أعر مسألة المواظبة كبير أهميّة في هذه السّنة بالذّات، ولكنّي كنت أتراجع حتّى لا أقتل ذلك الأمل الّذي ملأ بصيصه مفازة روحي!

وجاء اليوم الموعود!

يوم انطلاق الاختبارات؛ حيث، كما يقال: «يكرم المرء أو يهان!» وكنت، على امتداد الأيّام الخمسة، الّتي استغرقتها الاختبارات، راضياً عن المردود الّذي قدّمته، وقلت لنفسي، فيما يشبه نشوة الانتصار: «أظنّ أنّ نبوءة الصّوت ستتحقّق.» وذهبت بعيداً، فأقررت، بيني وبين نفسي، أنّه فيما لو نجحت، لأقدم نذراً، ذبيحة. أدعو إليها «بهايل» الحيّ، وأنفج «سنقر». صديق عمّي المرحوم أبي طرطورة، وهو شيخ جاوز عقده السّابع، به عرج خفيف، وبعض من مسّ، عشرة

دنائير، تعينه على همّ الزّمان. ولكم كانت فرحتي عارمة، حين تخيلت نفسي، في دارنا، بجي السّاروجة، بعد ظهور النّتائج، وأنا بين والدي وأختي، بعد غيبة ثمانية شهور، أقصّ عليهم، في ابتهاج، خبر انتصاري!! ولكن...

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه* تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن
أعلن عن النّتائج، عبر مضخّم الصّوت، في باحة الكليّة، وكنت أستمع مستثّارا، منتظرا، إلى آخر لحظة، سماع اسمي يذكر بين الأسماء. وكان المنادي يمعن في مناداته، متوخّيا ترتيبا أبجديّا، وأتى على جميع الأسماء التي تبدأ بحرف «ء»، وكذلك الأسماء التي بدايتها بحرف «ب»، وحرف «ج»، و«د»، و....، و....، وكان كلّما همّ بذكر اسم، توقّعت، في أمل، أن يلفظ اسمي، حتّى كاد يوشك على الانتهاء؛ وبدأت أحسّ باليأس ممزوجا بالخيبة والمرارة... وخبا الصّوت أخيرا، وأقفرت الباحة، ولم يبق سواي، وأنا ما أزال تحت تأثير الصّدمة، غير قادر على استيعاب ما كان يدور حولي منذ قليل. وفجأة، وبمثل إلماعة الإلهام، ألّم بي طائف، أحسست به يطرق بوّابة القلب، ويقول لي متسائلا: «وما يدريك أنّ المنادي لم يخطئ؟ أو ليس هو بشرا نساء؟ قد يكون سها عن اسمك، فقد يحدث كثيرا أن لا تذكر بعض الأسماء!» وتماسكت. وثبتت إلى نفسي. ثمّ جريت، مدفوعا بمداعبة الأمل الجديد، إلى ركن المعلّقات، ورحت أتفحص، بإمعان شديد، قوائم النّاجحين...

مات الأمل الأخير...

أصيب بنزيف داخليّ.

احتقن وجهه، وتصلّبت شرايينه، وخرّ صريعا.

غسلته بيدي الضّارعتين، وكفّنته بدموع غزار، ثمّ واريته حفرة القبر.

«أيتها الجبال انهدي فوق رأسي، وزلزلي زلزالا، ثمّ انهدي فوق رأسي؛
ويا أيتها العواصف الهوج مزّقي جلدي، ولا ترحمي ضراعتي إذا توسّلت:

ويا أيتها الأرض انشقي، وليتئتم فكّك الجائعان عليّ؛ ويا جميع نصال السيوف شقيّ صدري، واستقرّي في القلب تماما!... إنّها الهزيمة النكراء؛ ولم يبق أمامي إلّا أن أعول مثل النساء المزروعات وأدعو بالويل والثبور... إنّها الصدمة تنشب أظفارها ومخالبها، وتصيبني في مقتل!

خمس عشرة عاما، لم أعرف أثناءها هزيمة واحدة؛ واليوم أمني بأولى هزائمي. فهل ستكون الأخيرة، أم أولى النكبات في انتظام عنقود التعاسة والخيبة؟

ولم يبق لي بالحاضرة ما أفعله، فاستقلّيت القطار، محفوفًا بأثار الهزيمة أمامي، وأثار الهزيمة ورائي، وأثار الهزيمة عن يميني، وأثار الهزيمة عن شمالي، وأثار الهزيمة في حقائي، وأثار الهزيمة تنغل في دماغي... ووجدت، في انتظاري، بالمحطة، أختي «عبير» وزوجها، وودت، أوّل ما رأيتهما، لو تعلّقت بها وبكيت طويلا على صدرها، غير أنّ تلك الأمنية سرعان ما غاضت بين جوانحي، وتقدّمت نحوها ببطء شديد، وأنا أجهّد أن تثبت بي قدمي على الأرض؛ وما أن دنوت منهما، حتّى استبدّت بي دهشة مباغتة وتسمّرت في مكاني. هل هي «عبير» هذه الّتي أراها أمامي؟ أم هي شخص آخر، لا يمتّ إليّ بأيّة صلة أو قرابة؟ ونسيت مصابي، دفعة واحدة، ورحت أفتحّص بعينين راثيتين تلك المرأة الواقفة أمامي. لقد تغيّرت «عبير» كثيرا... كثيرا. لقد كبرت عشرين سنة، على الأقلّ، ومن يراها يقول إنّها في الخامسة والخمسين، في حين أنّها تجاوزت الخامسة والثلاثين بقليل، في الرّبيع المنقضي؛ واشتعل رأسها شيبا، حتّى غدا بياضه يغطّي على سواده، وتمكّن منها الضّعف والهزال، حتّى صارت أشبه بهيكل عظميّ لا يكسوه سوى جلد خلو من كلّ لحم. ترى ماذا حدث لك يا أختي... يا من كنت لي أكثر من الأمّ؟ وأيّة داهية رانت بثقلها على كاهلك؟ ورأيتني... التفتت فجأة، فرأيتني، وهبت، كغزال شرود، لملاقاتي، وتعلّقت بي، ودفنت رأسها في صدري، وراحت

تبكي بحرقه، حتّى اخترقت دموعها قميصي، وبلّلت جسدي. آه، لشدّ ما أخطأت التّقدير! إنّها «عبير»، لا أنا، من كانت في حاجة إلى دسّ وجهها في صدري، لتنفّس عن ألمها بالبكاء. وتركتها تبكي؛ وفي لحظة، سحبت نفسها، وهي ما تزال تمسك بيديّ، وطفقت تنظر إليّ، كأنّها تراني لأول مرّة، وأثار الدّموع ما تزال تتألّق على خديّها اللّذين خسفا وعرتّهما صفرة بغيضة، ثمّ عادت فألصقت رأسها بصدري، وهي تشرق بدموعها، وقالت بأنفاس متقطّعة لاهثة:

لماذا، يا سالم؟

وأدركت، على الفور، مغزى سؤالها الّذي كان يتضمّن عتابا، فقلت بحزن وندم:

أنا أسف، يا ابنة أبي.

وما أن نطقت الكلمة الأخيرة، حتّى انخرطت «عبير» ثانية في البكاء؛ وكان بكاءؤها، هذه المرّة، ملتاغا، أشبه بهستيريا مجنونة. يتخلّله بين الفينة والأخرى، شهيق، تكاد تنفطر له نياط القلب. وفطنت، في الحال، إلى أنّ في الأمر سرا، وأنّ هذا السّر يتعلّق بوالدي، فسألتها وأنا أمسك وجهها بكلتا يديّ، محاولا أن أقرأ الإجابة على صفحته:

وكيف حال والدي، يا أختي؟ هل جرى له شيء؟

ولكنّ وجهها تقلص، في ألم، فأشاحت به عني؛ وكان ذلك محاولة منها للزّوغان والهروب، وبدل أن تجيب عن سؤالِي، قذفت في وجهي: ثمانية أشهر بأكملها... إنّها مدّة طويلة جدّا...

وقاطعتها. أصبحت متأكّدا، الآن، أنّها تخفي أشياء كثيرة عني، وراء شيخوختها المباغطة، وشيها، وهزالها، وصفرة وجهها:

قولي، يا عبير، ماذا جرى لوالدي؟

ألم تفكّر يوما، أن ترسل إلينا...

وقاطعتها ثانية:

وعزّة، كيف حالها؟ هل هي بخير؟

آه، يا أخي، شدّ ما اشتقنا إليك! في غربتك انتظرنا جوابك بفارغ الصبر...

كانت تتكلّم بصوت ضعيف، يشوبه الوهن والحزن؛ وقد بدت كالسّاهمة أو الشّاردة الّتي تخاطب نفسها: وأوشكت أن أقاطعها مرّة أخرى، إلّا أنّي أحجّمت أمام نظرات زوجها الّتي كانت تحاصرنا، فجذبتهما إلّيّ، واحتضنتهما، ثمّ همست في أذنها: «اهدئي الآن. اصمتي، وسنحدّث فيما بعد!» أهاجها البكاء، فانقطعت عن الكلام، وصمتت بدوري، رغم لهفتي لمعرفة جليّة الأمر. ولكن، ما العمل ما دام زوجها يعكّر صفو خلوتنا الحميمة؟ إنّه، أولاً وأخيراً، غريب، يجدر به أن لا يطّلع على كلّ شيء، سيّما لحظات الضّعف!!

ولمّا أشرّفنا على باحة الدّار، وكان زوجها قد فارقنا في منتصف الطريق متعلّلاً بقضاء بعض شؤونه، أسندت ظهرها بكفّي، وقدمتها إلى غرفتي، وأغلقت الباب بالمفتاح. وبعد أن جعلتها تجلس على سريري، جلبت كرسيّاً وجلست قبالتها صامتاً، إلى حين، محترماً سحائب الحزن الّتي كانت تحوّم حول وجهها.

سألتهما، وأنا أنظر إليهما، مشفقاً عليهما، متحسّبا من اندفاعها في نوبة عنيفة ثانية:

قولي لي الآن، ماذا حدث لوالدي، يا عبير؟

وسادت فترة صمت بيننا، أشاحت بوجهها خلالها عنيّ، وشرعت تندش بصوت عال. أمسكتها من كتفها، برفق، وقلت بصوت خرج مسكيناً مزرياً:

نحن، الآن، وحدنا، يا عبير: وإذا لم تخبريني أنت، فلن يخبرني أحد غيرك.

نظرت في وجهي برهة، بعينين محمّرتين، أضناهما البكاء، وقالت، وهي ما تزال كالسّاهمة، بصوت مشروخ مترقّق:

غرفة والدنا قريبة... قريبة جدّاً: اذهب إليه لتر ما به...

ولكنّي قاطعتها معاتباً:

. هكذا إذن، يا عيبر؛ صرت تحملين كلّ هذا الحقد عليّ في قلبك الكبير.

وكأنّما كانت تبحث عن أيّ مبرّر لتبكي؛ وجاءت كلماتي في اللحظة المناسبة، فاسترسلت في موجة حادة من البكاء، وهي تمسك بوجهها بين كلتا يديها كأنّها تتفادى رؤية وحش على وشك التهامها. وأردت أن أهدئ من روعها، فلم أجد خيراً من الكلمات عزاء لقلب جريح مقروح. قلت:

. إيه، يا أختي. ماذا جرى لتفعل بنفسك كلّ هذا؟ إنّ الدّنيا بأسرها لا تستحقّ دمعة واحدة من دموعك هذه.

....

وألححت، وقرّرت أن أكمل الشّوط إلى نهايته. قلت بعناد:
. قولي شيئاً... أيّ شيء؛ ولكن لا تظلي صامته كصنم، فصمتك هذا يقتلني.

....

. عيبر، يا عيبر. أريد أن أسمع منك أنت كلّ شيء؛ وسيكون هناك متّسع من الوقت لرؤية والدي والاطمئنان عليه.

....

. ألم تفهمي بعد، بعد مرور كلّ هذه السّنوات، أنّي لا أرتاح لأحد سواك؛ وأنك أغلى ما أملك في هذا الزّمن، ابن الكلب... أنت أمي التي لم تكتحل عيني برويتها، واستأثرت بها ظلمة القبر...

ووجدتني أصمت فجأة، وتداهمني الدّموع؛ فضغطت بأصابعي عينيّ حتّى كدت أدميها، وقد تضاعف ألمي بتذكّري حبال الهزيمة التي جئت محاصراً بها، كخطيئة الزّمن القديم... وشعرت بذراعها تطوّقاني، فهدمت، وتشابك جسدانا، فذاب أحدا في الآخر، وظللنا كذلك، نتساقى الشّجن كؤوساً مترعة، في صمت أثيريّ مستكين.

وقالت عبير أخيرا، وهي تستعيد مكانها على السرير:
تكون مخطئا إذا فكرت يوما أن قلبي يمكن أن يحمل حقدا وضغينة عليك. انظر إليّ... انظر جيدا، وأخبرني ما الذي جعلني أشيب، وأنا في عمر الزهور؛ وأشيخ حتى أصبحت أبدو وكأني فزاعة لإخافة الطيور. هل تستطيع أن تدرك السبب؟ أم أخبرك أنا بذلك... لا بأس، سأخبرك أنا بالسبب: إن مردّ هذا كله لأنني حملت همّ هذه العائلة صغيرة وكبيرة، عزباء ومتزوجة؛ وأهملت شؤون زوجي كثيرا، لأكون لعزّة أمّا ولوالدنا سندا، وكان زوجي رجلا عاقلا، فتغاضى عن الكثير من تجاوزاتي التي زادت عن الحد، ولو كان زوجا آخر لقرف في النهاية وطلقني. هل فهمت، الآن، لماذا فنيت، قبل الأوان، وأصبحت زهرة ذابلة؟ هل فهمت أن القلب الذي طفح بالتضحية والحب لا يمكن أن يعرف الحقد والضغينة طريقهما إليه؟

سألتهما متصاعرا:

فلماذا تصرّين على تعذيبي، إذن، يا عبير؟

قالت مطاطئة رأسها:

أنا لا أصرّ على تعذيبك؛ ولكّني، على عكس ذلك، أريد أن أجنبك هذا العذاب.

مندفعا سألتهما، وقد لاحظت من خلال نبرات صوتهما أنّها أصبحت مستعدة لقول كلّ شيء:

فما الذي حدث؟

رفعت رأسها، ونظرت إليّ بتحديد؛ فأحسست كأنّ عينها تخترقان قلبي وتستقرّان فيه:

هل أنت مصمّم أن تعرف منّي؟

أجل.

فتنحنحت قليلا قبل أن تتكلّم، ثمّ قالت، وهي ما تزال تنظر إليّ، ولكنّ نظراتها غدت مشفقة هذه المرّة:

لم يعد والدنا قادرا على الحركة...

بهت. لم أتُحقّق معنى الكلمات جيّدا في البداية، ولم أفهم ما كانت تعنيه بذلك. فرنت على وجهي ابتسامة صفراء، باهتة، بلهاء، ومكثت، ساعة، صامتا، لا يسعفني لساني بكلمة، ولا أدري في الحقيقة ماذا يمكن أن أقول. وتوصّلت، بعد لأي وجهد، أن أقول سائلا، وقد خرجت الكلمات من فمي ميّنة، لا حياة فيها:

ماذا تعنين؟

فأجابت «عبير» كالمسّخرة:

وهل تعني كلماتي شيئا آخر غير ما قلته؟

وقلت، وأنا أريد أن أتأكّد:

هل تعنين أن والدي صار مقم... مقم...

ولم يطاوعني لساني لأتمّ ما بدأته، فأسرعت «عبير» تكمل في أسي:

أجل. لقد صار والدنا مقعدا.

لكن، كيف؟ هل هذا معقول؟

قالت، مهدوء، وكأنّها بدأت تسلّم بقبول الأمر الواقع:

لقد حدث الأمر بعد سفرك بأشهر... كان والدي يصلح سيّارة في ورشته، وقد أراد أن يجربها فأدار المفتاح، وانطلق على مهل؛ وبينما كان يستعدّ للدخول بالسيّارة إلى الرّقّاق المحاذي للورشة صدمته سيّارة أخرى كانت آتية من جهة اليمين، وحملناه إلى المستشفى ولكنّ الأطباء أجمعوا أنّ حالته ميؤوس منها...

وصمتت قليلا، كأنّها تسترجع الأحداث كما رأتها أوّل مرة، ثمّ واصلت:

وفكرت آنذاك أن أبعث إليك مكتوبا، وحاولت جاهدة أن أحصل على عنوانك، ولكن دون جدوى؛ واستدعاني والدي بعد أن ثاب إلى وعيه، وحذّرني قائلا: «احذري، يا ابنتي، حتّى فيما إذا حصلت على العنوان، أن ترسلي مكتوبا إلى أخيك؛ فقد يصيبه شيء، وهو في دار

غريبة، ومن يدري؟ لعلّ الخيرة فيما اختاره الله...» وهكذا قرّرت أن أنسى أمر الرّسالة.

استندت بمرفقيّ على ركبتيّ، ورفعت ذراعيّ، ثمّ شبكت أصابع يديّ، وأرحت على قبضتهما جبّتي المتعبة. وفي تلك اللّحظة بالذّات، اكتشفت أنّ «عزّة»، أختي الصّغيرة، لم تكن في استقبال، رغم أنّها لم تكن تتأخّر لحظة واحدة عن ملاقاتي في مثل هذه المناسبات؛ فهزّزت رأسي بعنف قاس، ووقفت نصف قومة، ثمّ عاودت الجلوس، وسألت «عبيرا» بانفعال، وأنا أستشعر سكاكين حادّة النّصال، تقطع أوصالي، رائحة أيّبة:

وعزّة، يا عبير؟ أين هي؟ ولماذا لم تأت معك إلى المحطّة؟

بكت «عبير» في صمت، وقالت بصوت هامس لا يكاد يبين:

عزّة أعطتك عمرها، يرحمها الله!

لم أتمالك نفسي؛ صحت، غير مصدّق كلمة واحدة ممّا قالتها:

ماذا تقولين؟ أنت تمزحين، دون شكّ.

واقتربت منها، فأمسكتها من كتفيها، وأنا أقول متوسّلاً:

قولي إنّك تمزحين... قولي إنّ هذا غير صحيح... وإنّ عزّة الصّغيرة ما

تزال حيّة... أرجوك، يا عبير؛ قولي إنّك تمزحين.

ولكنّ إصرار عبير على صمتها لم يدع لي مجالاً للشكّ؛ وأحسست

بخدر، فلم أعد قادراً على الوقوف، وضعفت قبضتاي، فتركت كتفيها،

وسقطت على ركبتيّ، وأنا أحتضن رأسي بين يديّ... وبدت لعيني أرضيّة

الغرفة مغرية، تدعوني إليها، مادّة ذراعها، فرحت أقرب رأسي على

مهبل، شيئاً فشيئاً، ثمّ شرعت أميله ذات اليمين، وذات الشّمال،

وفجأة أطلقتته فارتطم بالأرض، وأعدت الكرة مرّة... ومرتين... وثلاثاً...

وأربعاً؛ وما عدت أشعر بشيء بعد ذلك؛ وتخيّلت أنّ يديّ ناعميتين

تحاولان الإمساك بي، ومنعي من مواصلة الرّحلة الخطرة، وظننت أنّي

سمعت صيحة هلع، وما فتئت الصّيحة أن غدت صيحات، وما عتمت

الصَّيحات أن أحدثت جلبة... وخلت أني سمعت بكاء، يتخلله شهيق ونشيج... وأنا أغيب... قليلا قليلا... عن الوعي؛ وأسقط أخيرا، في دوامة غيبوبة عميقة بلا قرار!!

صحوت، ثاني يوم على صوت والدي في حجرته، وهو يحدث «عبيرا»... داهمني حنين مباغت إلى الارتواء في حضنه، ومعانقته، ثم البكاء طويلا على صدره؛ فهببت من سريري، وما كادت قدماي تلامسان الأرض، حتى ترنَّج جسدي المهدود فسقطت؛ وجاءت «عبيرا» تجري، وساعدتني على النهوض، ثم أسندتني بيدها، حتى استعدت مكاني فوق السرير، وتمددت عليه من جديد... وأحسست بثقل في رأسي. ولم أكن قد تذكّرت بعد ما حدث لي عشية أمس.. فرفعت كلتا يديّ أتحمّسه، فإذا به ملفوف في عصابة لقا محكما. التفت إلى «عبيرا»، وهي ما تزال بجاني، فقلت لها بصوت ضعيف:

لماذا رأسي ملفوف هكذا؟ ماذا حصل لي؟

فقالت بحدة يخالطها أسف وخوف:

لقد ستر الله ولطف؛ ولولا جاد (كان ذلك اسم زوجها) لكنت قتلت

نفسك...

وتدخل والدي، الذي لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة، منذ

استفتت، وخاطب «عبيرا» قائلا:

اتركينا وحدنا، الله يرضى عليك، يا ابنتي.

وخرجت «عبيرا»، وأغلقت الباب وراءها؛ فملت لإراديا، ناحية

والدي، ووجدتني أصعد فيه نظراتي، مستكشفا، من رأسه إلى أخمص

رجليه المشلولتين! يا إلهي، لقد شوّهته يد الزمان، كما شوّهت «عبيرا»

من قبله، وأحالت ملامحه التي طالما كانت متوهجة، إلى أخرى خابية،

ترين على أطلالها بوادر الشيوخوخة، وتكتنف زواياها ستائر حزن مقيم،

حتى أنك لو كنت ترى والدي، لخمس سنين خلت، ورأيتك الآن، لأنكرته،

وجزمت أن الشخص الذي كانه قد انتهى، وحلّ محله آخر غريب...

صلعته الحمراء الكبيرة، تلك التّجاعيد على جبينه، في رقبته، وتحت أركان شفّتيه، وفوداه اللّذان غزاهما الشّيب، فصارا أشبه بصوفة بيضاء، وذبول عينيه، وخبؤ نورهما، وشحوبه، وتهدّل حنكيه، و... ما أمضَ تلك القشعريرة المزمّنة، الّتي كانت تهزّ يديه دون انقطاع، فتجعلهما دائمتي الارتجاف، كما لو كانتا ريشة في مهبّ الرّيح!... شعرت بأسى حقيقيّ من أجله، ونبع في أعماقي تعاطف، لوفاض على كلّ العالم لأغرقه، وتضاعف حنيني الأوّل إلى معانقته والبكاء لأجلنا... معا!!

قال والدي:

. لقد أخبرتني عبير بما حدث أمس، فأمرتها أن تنقل سريريك إلى حجرتي حتّى تكون قريباً مِنّي.

طأطأت رأسي.

قال مستطرداً:

. لقد أخطأت، يا ولدي. هل كنت ترضى أن تموت، فأموت بحسرتي وأقضي من بعدك؟ ثمّ، هذا أمر الله وقضاؤه، ولا اعتراض على قضاء الله!... مقدّر أن أصير إلى ما صرت إليه، والحمد لله على كلّ حال، ومقدّر لأختك. يرحمها الله. أن لا تحتمل الصّدمة، فتموت بنوبة قلبية... وبعد فترة صمت:

. والله يقول، يا ولدي: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.»

ثمّ، مغيّراً مجرى الحديث:

. ماذا فعلت هذه السّنة، يا ولدي؟ هل رفعت رأسي؟ هل أستطيع أن أقول «مبروك»؟

ولكّي، لم أجه، وطأطأت رأسي أكثر من ذي قبل، وقرّرت أن أعتصم بصمت أحرص.

. لماذا سكّت؟

ولم أتكلّم مرّة أخرى، وانتابني شعور بالتّضاؤل أمامه. رغم أنّه كان، بأسئلته الكاوية القاسية، ينكأ بداخلي جروحاً كادت تطيب وتندمل.

وسأل . كان في تلك اللَّحظة لجوجا كما لم يكن في حياته قطّ ..
وعذرته وعزوت ذلك إلى مرضه وعجزه:

ماذا يعني صمتك، يا بني؟ هل يعني حقًا ما فهمته، وأنّ آمالي، التي
علّقتها عليك وعلى نجاحك، قد خابت؟

واعترى صوته الإجهاد. فسكت وهويلهث؛ وما عثم أن قال معولا:
لكن، لماذا الآن؟... بعد موت أختك، وعجزي عن العمل والسّعي!
كنت أعلّل نفسي بأنّ نجاحك سببنا بعض الوثوق في المستقبل،
وسينقذنا من الفاقة، وبذل ماء وجوهنا، لمن يستحقّ، ولمن لا يستحقّ،
ولكن ذهب كلّ ما فكّرت فيه أدراج الرّياح. فمن أين سأصرف عليك
الآن؟ من أين سأصرف عليك؟ من أين؟... من أين؟

غالبته الدّموع فغلبته... ورفعت رأسي إليه فألفيت يديه المرتعشتين
تحيطان وجهه، وتخفيان ضعفه المقهور. قلت في نفسي: «لا بدّ أن أقول
شيئا؟ لا يجوز أن أبقى صامتا، فيما هو يتعذّب..»

. أرجوك، لا تحمل همّي؛ فلم أعد صغيرا الآن... سأتدبّر أمري...
سأعمل، وأوفّر مصاريف الجامعة، ولن تكون مضطرا إلى حمل كلّ
أعبائي. يكفيك ما قمت به من أجلي، ولن أنسى لك ذلك. ما حييت..
توقّف عن البكاء فجأة، ونظر إليّ نظرة أسيانة، معاتبة، وقال برقة:
اعذرني، يا ولدي، فلم أقصد أن أجرحك. أنت تعلم مدى الحبّ
الذي أكنّه لك، وقد جهدت، طول حياتي، أن أكون الأب والأمّ والأخ
والأخت؛ ولكن ما حصل لنا يفرض عليّ أن أكون صريحا معك. هل
تفهمني؟

فقلت، مجارة له، بصوت خبيء:

أجل أفهمك.

فقال حينئذ:

صدّقني، يا ولدي، إذا قلت لك إنّني ما زلت لم أصدّق أنّك فشلت...
إنّها المرة الأولى منذ خمسة عشر عاما. فما الذي جرى هذه السّنة؟ هل

قَصَرْتُ فِي حَقِّكَ؟ أَمْ أَنَّكَ لَمْ تَذَاكِرْ بِمَا فِيهِ الْكُفَايَةُ؟... اصْدَقْنِي الْقَوْلَ،
يَا وَلَدِي، حَتَّى يَهْدَأَ بَالِي وَيَطْمَئِنَّ خَاطِرِي.
فَتَحَفَّزْتُ لِلدَّفَاعِ، وَقُلْتُ صَادِقًا:
. أَقْسَمُ أَنِّي بَذَلْتُ مَا بَوَسَعِي، وَلَكِنْ...
وَلَكِنْ مَاذَا؟

قُلْتُ وَأَنَا أَتَحَاشَى النَّظَرَ إِلَيْهِ:
. خَانَنِي الْحِظُّ هَذِهِ الْمَرَّةَ.

سَمِعْتَهُ يَضْحَكُ ضَحْكَةً قَصِيرَةً سَاخِرَةً. وَيَقُولُ لِي بَعْدَهَا:
. اسْمَعِ، يَا وَلَدِي، لَا يَجِبُ أَنْ نَعْلَقَ خِيَابَتَنَا وَفَشَلْنَا عَلَى الْحِظِّ. لَقَدْ
عَلَّمَتْنِي الْحَيَاةُ أَنْ أَخْذَ مَا أُرِيدُهُ بِالْقُوَّةِ، وَلَا أَتَوَانِي فِي الْحَصُولِ عَلَيْهِ،
فَإِذَا مَا تَوَانَيْتُ ضَيَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَانَتِ الْخِيْبَةُ مِنْ نَصِيْبِي. إِنَّ الْحِظَّ
هُوَ سِلَاحُ الضَّعْفَاءِ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ لَكَ أَنْ تَكُونَ ضَعِيفًا، فَتُخْسِرَ دُنْيَاكَ
وَتَنْدَمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ التَّندَمُ.

ثُمَّ، وَكَمَنْ تَذَكَّرْ شَيْئًا، لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ إِلَّا السَّاعَةُ:

. اصْدَقْنِي الْقَوْلَ، يَا وَلَدِي، هَلْ لِفَشْلِكَ عِلَاقَةٌ بِالسِّيَاسَةِ؟

أَهْ، هَذَا مَا كُنْتُ أَخْشَاهُ، وَأَتَحَسَّبُ مِنْ وَقُوعِهِ! لَكِنْ، أَيُّ شَيْطَانٍ
لَعِينٍ دَسَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْمَشْؤُومَةَ فِي رَأْسِهِ؟ وَقَالَ لِي ذَلِكَ الصَّوْتُ،
الَّذِي أَسْمَعُهُ دَائِمًا بِدَاخِلِي، وَكَذَبَ عَلَيَّ مَرَّةً قَبْلَ انْطِلَاقِ الْاِخْتِبَارَاتِ،
سَائِلًا: «أَوَلَيْسَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ؟ وَاجِهْ أَبَاكَ بِهَا، أَيُّهَا الْعَبْقَرِيُّ، وَقُلْ لَهُ
إِنَّ السِّيَاسَةَ وَرَظَّتْكَ، وَأَوْرَدَتْكَ مَوَارِدَ الْفَشْلِ وَالْهَلَاكِ... هَيَّا، قُلْ.»
بَلَى، بَلَى، يَجِبُ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا... يَجِبُ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ لِأَبَدِّ شُكُوكِهِ. لَنْ
يَنْفَعَنِي الصَّمْتُ، إِذَا انْتَوَيْتِ الْاِعْتَصَامُ بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ أَكْبَرَ دَلِيلٍ عَلَى
إِثْبَاتِ التَّهْمَةِ.

نَكِسْتُ رَأْسِي، اسْتَعْدَدْتُ لِلْكَذْبَةِ الْكَبِيرَةِ، وَثَأْنَاتُ:

. أَبْدَأُ... أُو... بَدَأُ. لَا... عِلَاقَةٌ لِهَذَا بِتِلْكَ.

وَرَمَقْتُهُ شُزْرًا، فَقَالَتْ لِي مَلَامِحُهُ إِنَّهُ لَمْ يَصْدَقْنِي، وَلَمَحَتْ طِيْفًا

حزينا يرتسم على سحنته المغلقة؛ إلا أنه لم يشأ أن يواجهني بحقيقة ما يعتقده. وقال مدعنا في أسى:

. السياسة، يا ولدي، لا طائل من ورائها، وهي الحمار القصير الذي يمتطيه الفاشلون، والسفلة، والخائبون، ومن في قلوبهم مرض. هؤلاء لا يريدون الخير لأحد، ويودّون لو يرون جميع الناس مثلهم، فاشلين وخائبين... يومياً نسمع عنهم في الإذاعة والتلفزيون، لا يهدأون، ولا يريدون لأحد أن يهدأ. ماذا يقصدون بما يفعلونه؟ ماذا يريدون؟ ولماذا يناطحون الحكومة؟... يخرجون في مظاهرات لا أدري من أجل ماذا؟ ويشوّهون وجوه الأبرياء، ويخرّبون، ويحطّمون... هل يعتقدون أنّ بفعلهم هذا سيشيّدون عالماً جديداً؟ أبداً، أبداً، كلّ ما في الأمر، أنّهم يريدون أن يصعدوا، أن ينقّسوا عن عقدهم المكبوتة بداخلهم. إنهم ضدّ القانون، ضدّ السّلطة... إنهم مجرمون!

فسبقني لساني، وزلقت، فسألته مغتاضاً:
ومن قال لك ذلك؟

. ذلك ما نسمعه دائماً في الإذاعة، وينقلونه في التلفزيون؛ وما نسمعه هو الصّحيح دائماً، وما ينقلونه هو عين الحقيقة.
ثمّ غير مجرى الحديث، وقال بتأكيد:

. كنت أعلم أنّك صرت واحداً منهم، يا ولدي، ولطالما حدّثني قلبي بذلك، وأنت بعيد؛ وكلّما سمعت عن مواجهة بين الطّلبة والبوليس، توجّست خيفة، ودعوت الله أن يعيدك إليّ سالماً... اسمع، يا ولدي، إنّك لست ندّاً لهم، بل أنت ومن معك، وكلّ النّاس لو وقفوا ضدّ الحكومة لما طالوا منها شيئاً؛ وقد قيل، ما فاز من كان خصمه الحكومة؛ وقد اختصم اثنان إلى المحكمة، وحضر والد المدّعي كشاهد في القضية، وما أنّ وقف أمام القاضي، ما كان منه إلا أن قال له، بسذاجة الفلاح الأمّي: «يا سيّدي القاضي، لقد نصحت ابني كثيراً (وأشار إليه بإصبعه)، وحسّنت له عدم تقديم الدّعوى. وقلت له إنّ الحكومة ظالمة.» فما

كان من القاضي إلا أن أمر رجال الدرك قائلا: «خذوا ابن الكلب هذا . يعني الأب . إلى السجن حتى يتعلم كيف يكون مؤدبا في المرة القادمة.» وأجل القضية... يا ولدي، إن الأمر ليس بالبساطة التي تتصورها؛ ولا يذهبن بك الظن بعيدا، فتعتقد أن الحكومة يمكن أن تفرط في حقها، بسهولة: إنها تضرب دائما بيد من حديد، وفي اللحظة المناسبة، فهناك السجن، وأقواء التعذيب، وأشياء أخرى يشيب من هولها الولدان... لقد سمعت أن كثيرين ذهبوا ولم يعودوا: قذفوهم داخل سيارات مخيفة، قادتهم إلى أماكن بعيدة لا أحد يعلم عنها شيئا!! يا ولدي، إني لا أتصور أن تكون أنت واحدا من هؤلاء المبعدين، أو أن تموت تحت التعذيب؛ سأموت لو حدث ذلك، ولن أعيش بعدك يوما واحدا...

لم أكن أستطيع الإنكار، بعد أن افترض أمري، ولما قال لي وهو يبكي: «عدي، يا ولدي، بأنك ستبتعد عن السياسة، وتهتم بدروسك.» وعدته، وأنا أدرك جيدا، إني لن أستطيع الوفاء بهذا الوعد... كنت أحس بأنني أكذب عليه، وكان ضميري يؤنبني لذلك. وخلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في غرفته، كنت أتعذب ألف مرة، كلما تطلعت إليه أو التقت نظراتنا؛ لذلك حينما جاءت «عبير» في اليوم الرابع لزيارته، أومأت إليها متوسلا رجوتها أن تعيد سريري إلى حجرتي، وقد سألتني عن السبب، فقلت لها متهريا إني أفضل أن أكون وحيدا، ولم أقل لها إني بدأت أسقط . (أو لم يقولوا إن الكذب بداية السقوط!)، وإني أصبحت أخاف أن أنظر في وجه والدي، لأن معيائه، الذي غدا طوال الأيام الثلاثة الماضية، أول ما يطالعني حين أستفيق في الصباح، وآخر ما أغمض عليه جفني، وأنا أستسلم للنوم، كان يذكرني دوما ببداية سقوطي!!

وأبليت من مرضي...

وصرت أتعمد أن لا أمكث كثيرا في البيت، فما أن أستفيق في الصباح، حتى أغادروا أنا أحاذر أن لا يلمحني أو يسمع وقع خطواتي أحد،

سَيِّمَا والدي، الَّذِي حرم نعمة المشي، لِيمنح سمعا مرهفا، يكاد يميّز وقع خطوات التَّمَلَّة في اللَّيْلِ الهِيم؛ وفي أحيان كثيرة، كنت أخرج من الدَّار، حتَّى دون أن أَتناول الإفطار، وأذهب إلى المقهى، حيث أَظَلَّ ساعات طوالا، بجانب الركن الَّذِي اعتدت أن أَجلس فيه، خاليا إلى نفسي، في صمت، أدخَن، مستمعا إلى أصوات الموسيقى الَّتِي كانت تنبعث من المذياع القائم على نضد وراء القائمة.

كان الصَّمت هو السَّلوى...

وعرف الغضب طريقه إلى قلبي أيضا، فامتزج بعنادي؛ وبحثت في أعماقي عن «سالم»، ذلك الطَّفل الصَّغير الَّذِي كنته، وهو يذرع الرِّفاق، مع أترابه ولداته، من أقصاه إلى أقصاه، في مرح صاخب، أو يركل كرة القماش الصَّغيرة برجله، ويلعب مع الصَّحَاب، حتَّى إذا ما أضناه التعب، عاد إلى الدَّار، ليضمَّه الفراش الدَّافئ، أو يغني مع الأولاد للمطر، أو... أو... بحثت عن ذلك الطَّفل فلم أجده؛ وعنه بحثت يافعا، مراهقا، يحلم، كغيره، بالحبِّ، ويودّ، من أعماق قلبه، لو يحبِّ، لو يعشق ويعشق، غير أنّه أخطأ الطَّرِيق إليه، لأنّه أفرط في العزلة ففرط في الحبِّ... فلم أجده أيضا؛ وبحثت عنه شابًا فوجدته شيخا، ينوء بأعباء ثقال، وتطوَّح به السَّبل، وتتقاذفه قوَّة غامضة مدمِّرة من مهمه إلى مفازة. ومن قارة إلى يباب!!

هو ذا «سالم»، يا أبت... شخص ينكر نفسه؛ فلا جناح عليك إذا أنكرته أنت أيضا!

غير أنّي أضرع إليك.

بحرمة حبِّك الَّذِي يبذل نفسه فداء لخطاياي!

وحرمة ذكرى والدتي الَّتِي لم تتشرَّب صورتها ذاكرتي!

وحرمة ذكرى «عزّة» الصَّغيرة!

وحرمة الدَّار الَّتِي شيَّدتها بساعدك لتسع أحلامنا وأمالنا، وسني

خصبنا!

وحرمة ذكراك... في قلبي!
. أن تغفر خطأي وتسترسوأتي.
إذ:

على نفسي جنت نفسي.
وكما يقال في المثل: «على نفسها جنت براقش.»
وأنا، يا والدي العزيز، أحسّ إحساسا غامضا أنّي قد انقلبت إلى
«براقش»، وأنّي قد جنيت على نفسي؛ ولكنّ طريق التّراجع محفوف
بالأشواك، وإذا «لم يكن من أجل المبدأ والقضيّة، فمن أجل الشّرف
والرجولة!!!»

وجاء يناير، من سنة ١٩٩١.
واندلعت الحرب.
ودوّت أصوات القنابل والمدافع.
وارتجّت الأرض رجًا.
ونقلت جميع إذاعات العالم الخبر مقتضبا، ومفصّلا، ومموّها.
وجميع قنوات التّلفزيون.
وساد الهرج والمرج.
وانقسم العالم.
إلى معارض.
ومؤيّد.
وبدأ المعارضون يتكاثرون.
وبدأ المؤيّدون يقلّون، ثمّ يتضاءلون، ثمّ... ينتفون.
وصحونا، ذات يوم، فوجدنا أميركا متريّصة وراء الباب، بجلاوزتها،
وكلاهما، وصواريخها، ودبّاباتها، ومدافعها، وجمعيتها العامّة، ومجلس
أمنها، وشرعيتها الدّوليّة، و«أصدقائها» الذين يربون على الاثنين
والثلاثين، يقولون بصوت كوراليّ واحد: «لا للاحتلال... لا للضمّ... نحن
مع الشرعيّة الدّوليّة. مع غربستان ضدّ شرقستان.»

وشرّع. يشرّع. مشرّع. تشريع إلى درجة التشنيع.
وقائل يقول، من أعلى منابر البيت الأبيض، وهو يصيح بملء فيه:
على قدر الطاعة يكون الجزاء!
افتح يا غلام. سجلّ الأوفياء. الأنبياء. الأمناء. الخالصاء:
** الدرس الأول في الطاعة:

+ يعطى لخرابستان قرض طويل الأمد بفائدة قدرها ٢,٥ ٪ جزاء
تطوعها اللأمشروط لمساندة الحملة التي تستهدف تأديب شرقستان
وإعادة الحق إلى أصحابه. اللاجئين في أفخم فنادق لندن وكازينوهاتها،
وهم يرقصون على أنغام السامبا، قائلين باعتزاز: «لقد تركنا الحرب
للعسكريين، فنحن مدنيون!!»
** الدرس الثاني في أصول الطاعة:

+ يسدّد عن دولة بادستان جميع الديون المتخلّدة بذمتها، والتي
ستتخلّد بذمتها، إلى عشر سنوات من الآن جرّاء تكفّلها بتأمين خمسة
آلاف جارية لمتعة الجيش المظفر.
** الدرس الثالث في فنون الطاعة:

+ يمنع على جميع الدّول المشاركة في الحملة أن ترفع قطعاتها
أعلامها الوطنيّة. وترفع بدل ذلك أعلام الولايات المتّحدة الأميركيّة، كما
ترمى جميع اللّغات الرّاحفة في الرّعة، وتعوّضها لغة الدّولار... ويتحتّم
على كلّ ضابط، وعلى كلّ ضابط تحت التّدريب، وعلى كلّ جنديّ، وعلى
كلّ جنّتلمان، وعلى كلّ سيّد، وعلى كلّ جارية في فراش سيّدها، وعلى كلّ
عقال، وعلى كلّ كوفيّة، وقفطان، أن يستبدل «صباح الخير» بـ«Good morning» صباحاً، و«مساء الخير» بـ«Good evening» مساءً، و«
تصبح على خير» بـ«Good night» عند الدّهاب إلى النّوم.

أمين... أمين... أمين. والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين.
والحمد لله، ربّ أميركا والعالمين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله على أميركا...
والجلاوزة... والكلاب... والصّواريخ... والدّبّابات... والمدافع... والجمعيّة

العامّة... ومجلس الأمن... والشرعيّة الدوليّة... والاثنين والثلاثين دولة
تقول بصوت كوراليّ واحد: «لا للاحتلال... لا للضمّ... نحن مع شرعيّة
الدّنب يلتهم الحمل!!»

أبتاه ماذا قد يخطّ بناني**والحبل والجلاد ينتظراني
هذا الكتاب إليك من زنزانة**مقرورة صخريّة الجدران

[**أواخر أيلول. سنة ١٩٩٠ **]

ذهبت إلى والدي في غرفته لأودّعه، فوجدته حزينا صامتا، عيناه
ساهمتان، معلقتان بالسّقف؛ فأخذت يديه المرتجفتين بين يدي،
ودعكتهما دعكا خفيفا، حتّى استفاق من شروده، وتطلّع إليّ، من وراء
غشاوة رقيقة، كانت تظلل أهدابه، وتوشك أن تنفجر بما يحمل باطنها
من دموع... وأكبت على يديه أقبلهما بوله، وأنا أقول له، بصوت لا يكاد
يسمعه سواي: «سامحني، يا أبت... سامحني بحرمة جميع المقدّسات
التي تؤمن بها». وسحب يده اليمنى، وبدأ يملّس بها، برفق، على شعري،
كما كان يفعل في الأيام الخوالي، حين كنت ذلك الصّبيّ الذي لم يكن
يتجاوز الرّبيع السّادس، وهو يقول: «الله يشهد، يا بنيّ، أنّي سامحتك؛
وأنّ قلبي الذي ملأه حبّك، لا يستطيع أن يكرهك، الآن، ولو حاول
ذلك... وما دمت قد اخترت طريقك، رغم معارضتي وعدم موافقتي،
فعدني على الأقلّ أنّك ستكون حريصا، وستأخذ بالك من نفسك». ووعدته،
عندئذ، صادقا، وقد انزاح عني بعض ما ألمّ بي من همّ كبير...
وعرّجت في طريقي، على بيت «عبير»، فألفيتها وحيدة، تنظّف باحة
الدّار، فودّعتهما. وأنا أعانقها، طاقت برأسي صورة «عرّة»، وتذكّرت
لقاءات وداعنا، أمام مدخل البيت، منذ سنين خلت، حيث كان الشّمْل
ملتئما، فطفرت من عينيّ دمعتان...

**** إلى الحاضرة مرة أخرى إذن!**

إلى الكلية...!

إلى الهدوء الذي يسبق العاصفة!

وتوقّف القطار في المحطة الأخيرة، كعادته دوماً، فحملت أغراضى، وذهبت إلى موقف الحافلات... للحظة، بدأ دماغى يعمل، وبدأت أفكر فيما سيحدث في مستقبل الأيام؛ وأيقنت أنّ الظرف سيكون عصبياً؛ وأنّ ما حدث من قبل في كفة، وأنّ ما سيحدث منذ الآن فصاعداً في كفة أخرى... لقد كان أيّ حادث بسيط، يقع في الكلية، أو في البلاد نفسها، أو فيما وراء الحدود، خارج البلاد، كافياً أن يقلب كلّ شيء رأساً على عقب، فما بالك، وهذه حرب؟! إنّها ليست أيّ حادث بسيط! إنّها الطامة العظمى!... إنّها الصاخة التي ستأتي على الأخضر واليابس، وسيذهب ضحيتها المجرمون والأبرياء، والأقوياء والضعفاء، والشجعان والجبّاء، و... و...

وحملتني هذه الأفكار إلى الكلية من جديد، إلى عالم الاحتمال والممكن والمحمول والعارض، والكلام الذي لا ينقطع، والغضب المدمر... والمظاهرات!! وفي الأيام الأولى، من مفتتح العام الدراسي، وفيما تلاها من أيام، أعلنت حالة الاستنفار القصوى، واستحالت باحة الكلية الكبيرة إلى منابر للخطباء، وميدان للمظاهرات، وساحة كبرى للاشتباكات مع الشرطة والبوليس. وشيئاً فشيئاً، ضاق عالم الكلية، على رحابته، وخرجت الحشود إلى الشوارع، والتحمت، وهاجت، وماجت، ولم تعد الأزقة الضيقة تسعها... طلبة... رجال... عمال... نساء بـ«الرّوب دي شامبر» يصحبن أبناءهنّ، كلّهنّ يهتفون، فترتفع أصواتهم مدوّية، حتّى يعانق مداها صفحة السماء الشامخة... وكانت تلك الحشود تتقدّم، وفي تقدّمها، تنضمّ إليها أعداد غفيرة أخرى، وتذوب أصواتها في أصواتهم... وفي وقت ما، عندما بدأت الجموع، تلوا الجموع، تتدفّق، من كلّ حذب وصوب، ومن كلّ فجّ عميق، وتشقّ طريقها عبر

الممرّات الجانبية. والحارات، والأحياء، في التحام وانتظام، إلى المدى الأمامي، المفتوح، ومشارف السفارة العظيمة! إذ ذاك، صدر بيان بأنّ الموقف قد أصبح حرجاً... وجاءت السيّارات الطويلة الكبيرة، والعصيّ الثقيلة القصيرة، والدروع، والخوذ، والكلاب، والقنابل المسيلة للدّموع، وجهاز اللاسلكي، تحمله يد مدير الأمن اللدنة، وفرق الشرطة، وفياق الجيش... وطوّقت الدّبابات المكان.

اتّصل وزير الدّاخلية شخصياً.

خاطب مدير الأمن.

قال له: «الموقف موشك على الانفجار. لا بدّ من إيجاد حلّ سريع!»

فردّ عليه مدير الأمن، بنبرة غير واثقة: «إنّنا مسيطرون على الموقف، يا سيّدي، إلّا أنّ جموع المتظاهرين تتقدّم بثبات نحو السفارة الأميركية. وأخشى أن نضطرّ إلى إطلاق النّار لتفريقهم.»

صاح الوزير بإعوال: «حذار! حذار! لا تطلقوا النّار الآن. سنمنحهم فرصة أخرى! استعملوا مضخّمات الصّوت، وامروهم أن يتفرّقوا.»

وخاطب مدير الأمن الحشود المتظاهرة. قال لهم: «تفرّقوا، وإلّا أطلقنا عليكم النّار... سيسوء الموقف، وسيكون هناك ضحايا...»

ولكنّ الصّباح ما ينفكّ يزداد، والهتافات تعنف، وأعداد الجماهير الهائلة تغدو أكثر هولا. وجاء أمر الوزير إلى مدير الأمن: «أطلقوا طلقتين في الهواء، فإذا لم يتفرّقوا عند ذلك فافتحوا النّار عليهم.»

ولم يبال المتظاهرون بالتحذير.

ولعلّ صوت الرّصاص... فارتدّت الجماهير إلى الوراء، وبدأ الصّباح يتقطّع، والهتافات تتمزّق، وتضيع في جنبات الفضاء الرّحيب. وأعطى الأمر برمي القنابل المسيلة للدّموع: فانهمرت فجأة كأنّها السّيل العرم... واختلّ نظام المظاهرة، فتراجع المتظاهرون، وبدأوا يتسلّلون هرباً، عبر المضائق والأزقة. وقد شاهدت، وأنا ألوذ، بطريق جانبيّ، شرطياً جهماً، أسود، صليبا، غليظ الرّقبة، أفطس الأنف، يرمي القنبلة تلو القنبلة،

بعنف وشراسة، وفيما كان زملاؤه يتأخرون، كان هو يتقدّم، غير مبال، وبين القنبلة والقنبلة، كان يشهر عصاه، ويضرب أحد المتظاهرين، في المؤخّرة، وبدرعه ينهال ضرباً على رأس آخر؛ وكانت شفتاه الغليظتان تتحرّكان دون انقطاع، فأدركت أنّ جوفه الهائل يقذف سباً وشتائم... أحسست بكره دمويّ حياله، وودت، آنذاك، لو أنّ لي مسدّساً، فأصّب رصاص مخزنه في رأسه. لماذا كان يبدو عدوانياً؟ وهل بينه وبين المتظاهرين جميعهم ثأر لا ينسى إلاّ بإراقة الدّم؟! «أول الغيث قطر».

وكانت تلك المظاهرة أوّل الغيث... فقد بات ثابتاً أنّ البوليس سيقوم بعملية تمشيّط واسعة، وسيلاحق كلّ من كانت له يد في هذه المظاهرة وكلّ المظاهرات الّتي تلتها... وداهموا الكلية ليلاً، وأرسلوا كلاهم تشمشم داخل الغرف، وساقوا من وجدوهم هناك إلى أسفل وجعلوهم يجثون على ركبهم، وهم يضربونهم بأعقاب بنادقهم وعصيّهم... وفعلوا نفس الشّيء داخل كلّيات الحاضرة جميعها... «يا أبناء الق (...)!»، «يا أبناء الزّواني والعاهرات!»، «يا كلاب...!»، «أنتم لستم رجالاً، أنتم نساء بشوارب!...» وصرنا، منذ تلك اللّيلة المشؤومة، جواً بالليل، رخالة بالهّار، يقودنا شارع لغابة، وطوار لناصية، هرباً من المطاردة، لا ننام إلاّ كما تنام الكراكي.

حتّى جاء أمر الانسحاب قاتلاً!

وانسحب كلّ من كان له صوت، أو لسان في المظاهرات السّابقة، قائلين: «لقد انتهى كلّ شيء!» ولكنّ الصّديق رقم «٢» أتاني، ذات يوم، يدعوني إلى إحدى الغرف، فذهبنا معاً، ولكم كانت دهشتي كبيرة، حين وجدت جميع الأصدقاء، الإخوة مجتمعين، في سكون الغرفة، يدخّنون وكأنّ على رؤوسهم الطّير. وأغلق الصّديق رقم «٢» الباب وراءه، ثمّ جاء فجلس بقربي.

وقال صديق:

لا بدّ أن نخرج في هذه المظاهرة...

فقاطعه صديق آخر، وهو يقول:

ولكن، ألا تلاحظ أن كل الأطراف الأخرى تقول إن الأمر قد انتهى!
وتدخل ثالث، تشي نبذة صوته بمرارة:
إن ما حدث يعدّ هزيمة قاصمة للظّهر. فلماذا نخرج ثانية لنكون
عرضة لمطاردة البوليس؟
فوقف الصديق الذي تكلم أول مرة، وقال محتدًا، وهو يشير إلى
الصديق الثالث:
لا مكان بيننا للجبناء.

أنا لست جبانًا، والكل يعرف ذلك.
حينئذ، أوما الصديق رقم «٢» إلى الجميع بالسكوت، وقد لاحظ
أن الجو بدأ يحتدم ويتوتر، وقال بصوته الجهوري الحازم:
سنخرج جميعًا في هذه المظاهرة، وسنؤكد بذلك أننا لم نهزم بعد،
وإذا كنّا قد خسرنا هذه المعركة، فما زالت هناك معارك أخرى؛ وقد
قال بونابرت: «خسرنا المعركة، ولكننا لم نخسر الحرب».
وخرجنا إلى الشارع... وصحنا هاتفين، ولكن بأسى وحزن؛ وحينما
تفرقت المظاهرة، كان البوليس يجري وراءنا، وقد كدت أقع بين أيديهم،
وأنا أهمّ بدخول دكان حلاق، لولا أن أحدهم أمسكني من معطفي،
ورماني بعيدًا، إلى الخارج!!

.....

[الآن، بعد أن انتهى الأمر كلّهُ، ولم تبق من الماضي سوى صور
باهتة، سأقول مردّدًا، وراء ذلك الرجل المحترم جدًّا، وهو يزور ذلك
الشارع، بعد غيبة عشرين عامًا: «أهلكني السياسة، يا صالحة».
وسأعترف أمامكم سيّداتي، وأواني، سادتي. بعد توالي هزائمي، طيلة
عامين متعاقبين بالكلية، بأنّي اقتنعت بأنّي صرت حمارًا كبيرًا، ذا أذنين
طويلتين، ولكن ليس أيّ حمار، بل ذلك الحمار الذي كان «سعيد أبو
التحس المتشائل» فضلتَهُ!!]

.انتهت.

.الجزء الثالث.
((الغائب لا يعود))

((١))

[الغائب لا يعود]

رجع الحديث إلى «صاحبي» والمقبرة...

أو. كما تشاؤون. إلى المقبرة و«صاحبي»...

و «صاحبي» هذا غريب عتي، غامض، ملغز، وهو خلاف جميع «أصدقائي»، أو من يخيّل إليّ أنّهم أصدقائي (أنا، إلى حدّ الآن، لم أبتّ في الأمر بعد، فلست أدري إن كنت أنتمي إلى عصره حقًا رغم دلائله وقرائنه التي يبدو أنّها غير قابلة للشكّ فيها أو الدحض لها)؛ وقد حدّثني هو بنفسه عنهم، بلهجة العارف الواصل: وقد فهمت من كلامه أنّ هؤلاء الأصدقاء، رغم بعدهم الآن عتي، وإغرابهم في الزّمان، كانوا قريبين منّي جدّا، إلى حدّ أنّي أستطيع أن أستحضرهم أمامي، في هذه السّاعة، بكامل هيئاتهم، وأرسم ملامحهم وتقاطيعهم بأدقّ تفاصيلها. أمّا هو أي «صاحبي» .. وعلى الرّغم من تدانيه في المكان، وقربه منّي، حتّى أنّه لا تكاد تفصلنا سوى بضعة خطوات لا غير، فبعيد، مغرب في ابتعاده، لا يجمعنا سوى ضيق المكان، وما عداه ففيض أوهام وقبض الرّيح... عفوا، فبالإضافة إلى المكان، وهو فضاء المقبرة، كان هناك فمه وهو يتكلّم، وصوته الأثيريّ تنقله النّسمات إلى أذنيّ، غريبا، مغريا، ومخيفا في آن، وكان هناك أيضا ذلك المظروف، وما فيه من أوراق مهترئة، قال إنّها دليل، أو شاهد، أو حجة، أو لا أدري ماذا أيضا؛ ولكن دليلا لمن، على من، وشاهد أو حجة على ماذا؟!

... «صاحبي»، هذا الذي لم أعرف حتّى اسمه، ويبدو أنّه يعرف عتي الشّيء الكثير، بل يخيّل إليّ أنّه يعرف عتي أكثر ممّا أعرفه عن نفسي... فهو يحدّث عن الزّمان الأوّل، في بلد غير البلد، وفي حيّ غير الحيّ، وفي زقاق غير الزّقاق، وبين أناس غير النّاس؛ تحدّث عن بحبوحة الصّبا،

بحلوها ومرّها، وشرخ الشّباب وزمن الآمال الكبار، والحبّ الّذي لم يكن، والحبّ الّذي لم يأت، والحبّ الّذي مات، والحبّ الّذي لم يولد... ذكرى الأنسة «ث»! (هذه الذّكرى بالذّات هي ما جعلني أفكر بجديّة في كلّ الحكاية الّتي سردها على مسامعي، وأنتهي إلى إعارتها بعض الاهتمام؛ وأنا، إن أزمعت الرّجوع إلى العصر الّذي ما أن يشعّر في الحديث عنه حتّى ينتابه نشاط وفورة وجيشان... أقول إن أزمعت، فمسألة الرّجوع غير مؤكّدة، عدا أنّها غير مضمونة، فبسبب تلك الذّكرى، ذكرى الأنسة «ث». وأتساءل: «تري هل هي كما وصفها؟ وهل هي في الحقيقة كما يحكي لسان حاله عنها؟ ألا يجوز أن يشوّه الخيال الجامح أصول الأشياء، فيحيلها إمّا إلى مسخ مقزّز، أو إلى صورة للكمال لا وجود لها في الواقع؟» ثمّ أحاول أن أفلسف المسألة، بيني وبين نفسي، فأقول في شبه حيرة: «إذا ظللت مصراً على القبوع في هذا العصر، موارباً بين طياته، كما بين دفتي سجلّ، وكانت الأنسة «ث» قبيحة، أو شوهاء، أو بها عاهة، فلن أخسر، في النّهاية، شيئاً؛ ولكن ماذا لو كانت على خلاف ذلك، جميلة، فاتنة، رائقة، وبقيت مصمّما على سياسة رأسي، ألا يجوز أن أفقد دنيا مفعمة بالأريج والعبير؟! «حقاً، إنّ اتّخاذ القرار في هذه الحال أصعب ممّا كنت أتصوّر، وهو مغامرة غير مأمونة العواقب، الشّيء الّذي جعلني أحسّ بداية تمزّق يهصر قلبي، ويطفئ فيه تلك البارقة، الّتي ما إن أستشعرها بداخلي حتّى أتصوّر أنّه يمكنني أن أتخذ أخطر القرارات في طرفة عين... عندما أعياني التّفكير، ونوّت بثقله، قلت فالأوجّل لحظة الحسم إلى حين ذهاب «صاحبي»، وخلوّي إلى نفسي ساعة صفاء!

«صاحبي»، هذا الّذي لم أعرف حتّى اسمه تكلم كثيراً... كثيراً... كثيراً جداً، وممّا أخبر به شيء، إذا قارنته بواقع الحال والهدوء الّذي يحيطني والطّمأنينة الّتي نشأت عليها عمرا، في حيناً بالكوفة، وسط عائلي حتّى ذهاب والدي ووالدتي، وكلّ من يمتّ إليّ، وانتقالهم إلى

رحمة الله. تغمّدهم جميعا برحمته وتعطف عليهم بغفرانه وأسبغ عليهم نعماءه في حياض جنانه.. بين جناحي وال عادل، وفي كنف عهد سعيد، وتحت حماية خليفة أعدل (مولانا أبي العباس أحمد بن محمد بن المعتصم المستعين أيده الله بنصره، وثبت أركان دولته، ونصر جنده، وهزم أعداءه، وشئت شيتهم، وفرق جمعهم، وخارله في أمره، وألهمه الرشد والصواب في سياسة رعيته، واختيار ولاته وأمنائه وندمانه، أمين، يا رب العالمين)، وفي ظلّ خلافة أسعد؛ قلت إنّه أخبر بشيء، إذا قارنته بكلّ ما مرّ ذكره وعبر، بان هوله، وظهر موضع الإشفاق فيه، لصعوبة استساغته وعدم تصديقه، بل لاستعصائهما على الفهم، واستحالتهما على كلّ ذي عقل لبیب! وهو أنّي... (إنّي أحاول الآن أن أسيطر على انفعالي واضطراب نفسي، حتّى أستعيد سكينتي من جديد وأتذكر نبذة من آخر حديثه!)... أجل، تذكّرت السّاعة! وهو أنّي كنت عضوا في تنظيم سياسيّ سريّ!! ما معنى هذا الكلام؟ وما تنظيم سياسيّ؟ وما شكله؟ ما لونه؟ وهل هو مثل الطّعام، يؤكل، ويسهل هضمه أو يعسر؟! ولكن لماذا أكون عضوا في هذا الشّيء أصلا؟ قال: سيّارات... كلاب... مدير الأمن والشرطة... عصيّ... دروع... دبابات... قنابل؛ ولا أدري ماذا أيضا! أنا، في حياتي، لم أر أشياء كالتي يتحدّث عنها، وقصارى ما رأيته وشاهدته بعيني رأسي حرس دارالإمارة، والجنود الذين يمتشقون سيوفهم، ويحملون رماحهم، تتقدّمهم دروعهم، وهم يجوبون الأسواق، لجباية الضّرائب والمستحقّات المتخلّدة بدمّة التّجار لأمرنا الرّبانيّ العادل، الّذي سيرفعها بدوره إلى بيت مال أمير المؤمنين . خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، رضي الله عنه وأرضاه، وأطال لنا في عمره، وأمدّه بالصّحة والعافية، إلى حين بذلنا أنفسنا فداء له في ساحة الشّرف والولاء. كيف ومتى طلب مولانا، سليل البيت العبّاسيّ الهاشميّ القرشيّ العدنانيّ العربيّ. ذلك؛ وأكبر شيء رأيته، إلى حدود اللّحظة الّتي نتجالس فيها، كتائب الجيوش المجيشة، وهي تتيه بميمنتها وميسرتها وقلبيها وساقطها، تحت أقدام أبناء عمومتنا الأتراك الميامين،

المظفرين، الذين لا تلين لهم قناة، وهم يشهرون المجانيق الخشبية،
الثقيلة. اللدنة، الطويلة، العريضة، المشمّرة، المدمّرة، الأخذة،
الأخاذة، الرائعة، المروعة، في وجه أعداء ابن عمّ رسول الله صلى
الله عليه وسلّم، وأعدائنا. نحن المسلمين الصادقين المصدّقين. على
السّواء. فلماذا يتهمني «صاحبي» في صدقي وتصديقي وولائي إذن؟ وهل
أنا مجنون لأثور علي سيّدي ووليّ نعمتي؟ أكون ناكرا للجميل، وابن
ستين ألف كلب لو فعلتها؟ وقد ستر الله ولطف بي، فلم يكن في المقبرة
غيرنا، ولو سمعه أحد من عيون أمير المؤمنين وبصاويه وجلاوزته
الطيّبين، لكان حتّى الموت قليلا عليّ. ولكن ما أدراني أنّه لم يسمعنا
أحد في هذا الليل البهيم. أليس لحيطان سور المقبرة أذان؟ أليست
نجوم السّماء عيوننا علينا؟ ألا يضحك ذلك القمر الشّاحب الذي كان
يختفي باستمرار وراء جزة سحاب رمادية قاتمة لأنّه كشف سرّنا، أو
بالأحرى سرّي وحدي، فأنا الوحيد الذي سأؤخذ بجريرة ما قاله هو، إذا
وقع المحظور؟ اللهمّ إنّي أسالك سترًا ساترًا، لا كاشفا، وظلمة تحجب
عنيّ عيون الأعوان، وصمما لا يحول ولا يزول، تقرّبه أذان الجلاوزة
والأعداء، آمين... عيون أمير المؤمنين، بصاصوه، أذانه، في كلّ مكان، في
ذرات الهواء، تحت الصّخر، في الماء، في الفراش الذي يضمّك وزوجك،
في الهمسة التي تسرّها إلها، فوق السّطوح، وبين الجدار والجدار...)
وفي أشياء أخرى قد أنذكرها فيما بعد!

كم لبثنا؟

كم قضى «صاحبي»، بحساب الزّمن، وهو يتحدث؟

قال (قائل): لبثت يوما أو بعض يوم...

قال: «بل لبثت مائة عام،

فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه،

وانظر إلى حمارك،

ولنجعلك آية للنّاس.

وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحما.

فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.»

عفوا، عفوا، يا من إذا قَدَّرَ لهذه الأوراق أن تسقط بين أيديهم، فيقرأونها، فسأكون شاكرًا بفضلهم، ما أتصل بعمرى خيط الحياة، أمَّا إذا لم يقدر لهم ذلك، فسأحاول إيجاد العذر لهم، وأعيش على أمل أنَّها قد تنتهي إلى أيديهم يوما، فيلقون عليها، ولو مجرد نظرة عابرة. لقد جرفني تيار الحديث، وتداخلت عليَّ الأحداث، كبيرها وصغيرها، واختلطت برأسي الصُّور، قديمها وجديدها، حتَّى لم أعد أستطيع أن أركِّز تفكيري في شيء واحد محدَّد. وتواردت عليَّ الخواطر تباعا، ووجدتني أروي قرءانا، دون إرادة منِّي، حكاية ذلك الرَّجل الَّذي أَمَاتَهُ اللَّهُ مائة عام، ثُمَّ بعثه، فسأله كم لبثت؟ فأجابه بما هو مذكور أعلاه، مثبتا حرفا وعبارة في الآية التَّاسعة والخمسين بعد المائتين من سورة «البقرة»... أرجو المعذرة والصَّفح مرَّة أخرى!!

أذكر أنَّنا التقينا بعد انتهاء الجنازة، ومغادرة المشيَّعين المقبرة. ويمكنني أن أقول، بعد أن تذكَّرت، أنَّه ربَّما نكون قد التقينا بعد أن فرغ المصلُّون من صلاة العصر، بالمسجد الجامع، من حوالي ساعتين، أو ثلاث، أو أربع، أو حتَّى خمس، فلربَّما لم أعد أذكر هذه النِّقطة بالذَّات، ربَّما جرَّاء التعب، أو كثرة التَّركيز، أو مرور الوقت، أو الظَّلمة!!

(ولا أدري حين أفكر مليًّا في الأمر، بيني وبين نفسي، دون أن أطلع «صاحبي» على طويَّة قلبي، ما العلاقة بين هذه الظَّلمة، الَّتِي زلَّت سهوا من قلبي. وظاهرة النِّسيان! فهل يكون النِّسيان مظلما؟!)

وأذكر أنَّ لقاءنا كان في يوم من الأيام الَّتِي تقصر فيها ساعات النَّهار وتطول فيها ساعات اللَّيل؛ لذلك حينما فتح «صاحبي» فمه ليتكلَّم كانت جيوش الظَّلام قد بدأت تهجم، منذ فترة، وما عمت أن بسطت سربالها الأسود على البقعة الَّتِي تضمُّنا خاصَّة (أي أرض المقبرة)، وعلى الكون من حولنا عامَّة. ولعلَّ من سيسعفه حسن أو سوء حظِّه فيتصفَّح هذه الأوراق أو يقرأها، لا يخطئ فهم مقصدي في أنَّ الوقت

الَّذِي عَنِيتِهِ، وَهُوَ مِيقَاتُ لِقَائِنَا. أَنَا وَ«صَاحِبِي» الْغَرِيبُ، الْمَلْغُزُ، الَّذِي لَا أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، حَتَّى اسْمِهِ. كَانَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ، أَوْ بِالْأُخْرَى يَوْمًا شَتَوِيًّا؛ إِلَّا أَنَّهُ، وَالْحَقُّ يُقَالُ، لَمْ يَكُنْ بَارِدًا جَدًّا، وَلَا مَعْتَدِلًا جَدًّا، وَإِنَّمَا كَانَ مَعْتَدِلًا يَمِيلُ إِلَى الْبُرُودَةِ أَوْ بَارِدًا يَمِيلُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ... وَالْيَوْمُ الشِّتَوِيُّ. كَمَا يَنْبَغِي إِلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ الْجُغَرَفِيَا وَالْهَيْئَةِ الْعَرَبِ الْأَفْحَاحِ أَوْ الْعَرَبِ الْمَوْلَدِينَ أَوْ الْعَرَبِ بِالنَّسْبَةِ مِنْ أَمْثَالِ الشَّرِيفِ الْإِدْرِيسِيِّ، وَهُوَ وَاضِعُ أَوَّلِ رَسْمِ خَرِيطَةِ تَقَرُّبٍ، فِي شَكْلِهَا، مِنَ الْخَرَائِطِ الدَّقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا الْجُغَرَفَاوِيُّونَ فِي عَصُورٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَى عَصْرِنَا بِقُرُونٍ. مَسَى اللَّهُ سَيِّدَنَا الشَّرِيفَ الْمُشْرِفَ الْإِدْرِيسِيَّ «بَاشَا» بِالْخَيْرِ لِأَنَّهُ رَفَعَ أَقْدَامَنَا وَنَعَالَنَا عَالِيًا فَوْقَ رُؤُوسِ بَعْضِ الْأُمَمِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَ رُؤُوسِ كُلِّ الْأُمَمِ جَامِعَةً قَاطِبَةً؛ وَمِنْ أَمْثَالِ ابْنِ خَرْدَاذِبَةَ. نَفَعْنَا اللَّهُ بِسَرِّحَلَاتِهِ الظَّاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ، الْخَفِيَّةِ الْمَعْلَنَةِ، مَا نَشْرُ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَنْشُرْ، مَا ضَاعَ مِنْهَا وَمَا ظَفَرَتْ بِهِ بَعْضُ الْأَيْدِي الْمُتَطَفِّلَةِ، فَجَعَلَتْ مِنْهُ مَادَّةً لِلتَّحْقِيقِ، وَالتَّنْقِيبِ، وَالتَّمْحِصِصِ، وَالدَّرْسِ، وَالتَّحْلِيلِ؛ كَمَا جَعَلَتْ مِنْهُ أَيْضًا مَادَّةً لِنِيلِ شَهَادَاتِ «الْمَاجِسْتِير» وَ«الدَّكْتُورَاه». سَوَاءٌ أَكَانَتْ دَكْتُورَاهُ مَرَحَلَةً ثَالِثَةً أَوْ دَكْتُورَاهُ دَوْلَةً أَوْ دَكْتُورَاهُ قَائِمًا مَقَامَ عَفَا دَكْتُورَاهُ كُرْسِيًّا؛ وَمِنْ أَمْثَالِ الْمُقَدَّسِيِّ، الَّذِي سَمِّيَ مُقَدَّسِيًّا لِأَنَّهُ وَلِدَ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، الَّذِي بِدَوْرِهِ لَمْ يَعُدْ مُقَدَّسًا مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً حِينَمَا غَزَاهُ الصَّلِيلِيُّونَ الْقَدَامَى الْمُتَوَحِّشُونَ، وَعَاثُوا فِيهِ فُسَادًا، حَتَّى عَبَّرَ السَّيِّدُ صِلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيُّ، الْبِكْبَاشِيُّ الْجَلِيلُ، وَالشَّهْمُ الْمَفْضَالُ، النَّهْرُ سَبَاحَةُ، وَهَزَمَهُمْ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ فِي مَوْقِعَةٍ حَطِّينَ، وَبَدَّدَ شَمْلَهُمْ، وَبَعَثَهُمْ فِي الْبِلَادِ، ثُمَّ أَجْلَاهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أُمِّهِمُ الَّتِي طَلَّقَهَا أَبُوهُمْ لِأَنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَعْمَدُوهَا، وَمَرَّةً، حِينَ تَنَاهَى إِلَيْنَا نَبَأُ تَهْوِيدِهِ، عَبَّرَ قُرُونٌ ارْتَدَادًا إِلَى الْخَلْفِ، بِأَيْدِي النَّشَامَى، الصَّلِيلِيِّينَ الْمُتَحَضِّرِينَ الْجَدِّدِ، أَبْنَاءَ عَمَّنَا إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَخِي أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا، وَابْنَ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوْقَ سَلَامِ أَبِينَا وَسَلَامِ عَمَّنَا! وَمِنْ أَمْثَالِ عَمِّي، أَخِي وَالِدِي «لِزْمَا»، الْمَرْحُومِ أَبِي طَرطُورَةَ، الَّذِي كَانَ عَلَى دَرَايَةِ بِأَصُولِ الْهَيْئَةِ الْبَشَرِيَّةِ

والهيئة الطبيعية، وقام برحلته الشهيرة في حيننا، حي السكاسك المعظم، وبعض الأحياء المتاخمة، دون أن تسعفه لسعة التعبان بزيارة بغداد، أم الدنيا، حاضرة الإمبراطورية، وجمع رحلته في كتيب صغير («بروشور») وسمه بـ«جوع المريدن إلى مأدبة الإبريسيم». أمدنا الله بوافر بركته ونفعنا بغزارة علمه حيا وميتا، أمين. وغير عمي هذا كثيرون، ولكي أثرت الاختصار على التّطويل وإيراد ما لا نفع فيه. قلنا إذن إنّ اليوم الشّتويّ، حسب ما ذهب إليه هؤلاء جميعا، هو خلاف اليوم الخريفيّ، الذي يميّزه الاعتدال، وتتساوى فيه ساعات ليله وساعات نهاره؛ وهو أيضا يختلف عن اليوم الصّيفيّ، شديد الحرارة، حيث تطول ساعات النّهار، في حين تقصر ساعات اللّيل، وتتقلّص، (حتّى لا يعود. كما ذكر لي بعض الأصدقاء وهو همس في أذني مازحا. الرّوّج قادرا على مجامعة زوجته، ولا المولّه على معاشرة حليلته، ولا السيّد أو الملك أو السّلطان أو الخليفة على الحجّ بين مقاصير جواربه؛ وهذا القول. حرصا على توحيّ الأمانة التاريخيّة. لم يذكره أيّ من الشّريف الإدريسيّ أو ابن خرداذبة أو المقدسيّ، وخطّه عمي أبو طرطورة بحبر مغشوش في كتيّبه «جوع المريدن إلى مأدبة الإبريسيم»، فنقله ذلك الصّديق بحرفه إلى أذني همسا! ... لنعد، بعد ذلك، من حيث بدأنا، حيث قلنا إنّ اليوم الشّتويّ خلاف اليوم الصّيفيّ؛ وهو أخيرا لا يوافق اليوم الرّبيعيّ، ذلك المعتدل الطّقس، كثير الأزهار، وافر الطّيّار، غزير الأعشاب، نافذ الرّيح، فوّاح العبير، حيث تندمج فيه ساعات النّهار وساعات اللّيل في عناق محموم، لا يفيقان منه إلّا على مدافع حرارة الصّيف القاتلة.

وأذكر أنّه قبل أن يبدأ «صاحبي» في الحديث، كانت الشّمس تهوي ببطء إلى مرقدها الأزليّ، والأفق المشوب ببعض سحبات بيضاء هائلة يكتحل بحمرة الشّفق القانية، مكوّنا حول الشّمس الدّاوية هالة قزحيّة أشبه ببركة دم فائرة.

انطلق حديثنا غبّ النّهار مبتدأ الظّلّة!
وانتهينا منه غبّ النّهار مبتدأ الظّلّة أيضا!

فكم لبثنا يا ترى؟

فسيقولون يوم منتهاه ليلتان.

وسيقولون يومان منتهاهما ثلاث ليال.

وسيقولون ثلاثة أيام منتهاه أربع ليال.

وسيقولون أربعة أيام منتهاه خمس ليال.

وسيقولون...

وسيقولون...

«رجما بالغيب،

ويقولون سبعة ثامنهم كلهم،

قل ربّي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلّا قليل،

فلا تمارفهم إلّا مرأ ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا.»

أرجوالمعذرة هذه المرّة أيضا، فقد اختلطت عليّ الأمور مرّة أخرى،
لشدّة انفعالي، وعجزي عن لمّ شتات تفكيري في شيء واحد محدّد، عدا
أنّ ذلك الخيط الرفيع الذي كان له الفضل في جعل أعصابي متضامّة،
ومستحكمة طيلة سنوات مديدة، قد بدأ ينفرط، كما تنفرط حبّات
العقد، في غفلة من الحسناء، الّتي تزيّن به عنقها المستدقّ الطويل.
لكن، مهلا! واسمحوا لي أن أحطّم حاجز التّحفظ الّذي يقوم بيننا
فأسألكم، بكلّ صدق، لتتمكّن عرى الثّقة بيننا، وتجيّبوني، بعد ذلك،
بدوركم، بكلّ صدق أيضا؛ ألا تستهويكم حكاية أهل الكهف . حكاية
الفتية الّذين أووا إلى الكهف (فقالوا ربّنا اتّنا من لدنك رحمة وهيّ لنا
من أمرنا رشدا)، وبعثهم الله ليعلّم (أيّ الحزين أحصى لما لبثوا أمدا)،
وقصّ (نبأهم بالحقّ، إنهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى). وربط على
(قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السّماوات والأرض لن ندعو من دونه
إلها، لقد قلنا إذا شططا.) وهم الّذين تحسبهم (أيقاظا وهم رقود،
ونقلهم ذات اليمين وذات الشمال وكلّهم.) (وليس قطعهم أو دبرهم أو
سبعهم أو حمارهم، فالحماركان حمار ذلك الرّجل الّذي (مرّ على قرية

خاوية على عروشها، قال أتى يحي هذه الله بعد موتها، فأما الله مائة عام، ثم بعثه...) وزلّ بحكايته لسانی سهوا، بحرفها وعبارتها، فعرفتوها لذلك، أو ربّما تكونون قد نسيتموها دهرا، وذكرتموها بمجرد أن أومات إليكم بشفتي الحبلى بتفاصيلها () . باسط ذراعيه بالصيد، لو اطّلت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا)... أعود لأسألكم، بعد أن فقأت بظفري الطويل عيني آخر ذرّة تحفّظ داخلي؛ ألا تستهويكم هذه الحكاية، ولو لبعض الوقت؛ لنقل خمس دقائق مثلا، أو سبع، أو عشر، أو ربع ساعة على أقصى تقدير، عندما تخلصون إلى أنفسكم في الظلّمة، وراء جدران غرفة مغلقة، تحت اللّحاف، وقد أبى النّوم أن يكحلّ أجفانكم، فأحسستم لذلك بالأرق والتّعاسة والملل، ودفعكم ذلك إلى التّفكير في شيء يذهب عنكم كلّ ذلك، وما دام الأرق لا يولد غير الأفكار السّوداء الّتي تشبه إلى حدّ كبير أرجل ذلك الفأر الّذي تمخّض عنه الجبل العملاق فولده، فلربّما تكون حكاية أهل الغار، أو أهل الكهف، أو حكاية الفتية، (ولكم أن تختاروا، بعد ذلك، أيّا من هذه الأسماء، فلا فرق بينها على الإطلاق، سوى بعض حروف المعجم الّتي تكوّن هذه التّسمية دون تلك!)، قد نطّت إلى أذهانكم الكليّة، ولطول ما داعبتكم في لياليكم الطّويلة المؤرّقة، قبل أن يحلّ على أعينكم بجلاله ملاك النّوم، فقد أصبحت حكايتكم المفضّلة. كما قال لي «صاحبي»، في أحد استطراداته، أنّ لكلّ واحد من النّاس، في العصر الّذي جاء منه، حكاية مفضّلة، وخمرة مفضّلة، وسجائر مفضّلة، وعادة... سرّيّة مفضّلة، وامرأة مفضّلة . إذا كان المتكلّم رجلا أو حتّى امرأة، فعلى أيّامه، الّتي لن يقدر لمن كان مثلي بلوغ آمادها إلّا بقدرة قادر، انتشر سحاق المرأة للمرأة.. ورجلا مفضّلا. إذا كان المتكلّم امرأة أو حتّى رجلا، فأيامهم، كما قال هو بعظمة لسانه، هي أيّام لواط ودعارة، والله أعلم . وهواية مفضّلة . ولا أدري ما هواية؟ . غير أنّه ذكر شيئا مثل «تنّس»، و«باولنغ»، ورماية بالرّصاص، ولمّا استعصت الكلمة الأخيرة. رصاص . على فهمي، ولمّا كان من غير الممكن سؤاله عن

معناها صونا لشعوري بالكبرياء والتفوق من كل خدش أو كسر أو بتر، فقد سخرت منه كثيرا . في نفسي طبعا ،، وضحكت منه كذلك كثيرا . وطبعا بيني وبين نفسي أيضا . وقلت لنفسي في النهاية: إنه ربّما يكون مجنوناً لا يعي ما يقول!... أنا لم تستهوني حكاية أهل الغار. عفوا «أهل الكهف»، كما لا شك أنكم اخترتم هذه التسمية بالإجماع :. إذن، لم تستهوني هذه الحكاية خمس دقائق، أو سبع، أو عشر، أو ربع ساعة على أقصى تقدير، وإنما استهوتني دائما، وحتى من قبل أن أُولد؛ (وهذا اعتقاد غريب بشكل أو بآخر لا أعرف كيف نبت في ذهني مع مرور الأيام)؛ فمنذ نعومة أظفاري وقصص الكهوف والجَنِّ والعفاريت والمصاييح، أو قصص الخيال، كما يسمّيا «صاحبي»، تروقني، وأحسّ بانجذاب عنيف ومدمّر نحوها، ولعلّ الفضل في ذلك يعود إلى جدّي . قبل أن يتنصّل من حفودتي. وجدّتي كليهما، رحمهما الله جميعا، برغم أنّ الشكّ ما فتئ يداخلني في خصوص وفاة جدّي منذ تلك الليلة الّتي زارني فيها وخلعني خلع البعير المعبّد، في غرفتي في دارنا بالحيّ؛ ولكن لا يهمّ ذلك ما لم أذنب، وما دمت أحبّ جدّي حبّا يفوق حبّ المرأة لجميع الرّجال، ولا يضيرني من دعائي له بالرحمة شيئا، ولو كان حيّا، فقد سمعت على ألسنة فقهاء جامع الكوفة وقراءها، وقرأت في آباء الكتب، وعثرت بمحض المصادفة على الحكمة الّتي تقول إنّ رحمة الحيّ أولى من رحمة الميت، مكتوبة بخطّ كوفيّ رائع، ومموّهة بماء الذهب، على إحدى الرّقاع، الّتي يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام... جدّي كان يحكي لي، ولا يملّ، وجدّتي كانت تحكي أيضا، غير أنّها سرعان ما تملّ، متعلّلة بمرضها حيناً، وتعبها حيناً آخر، ووضوئها أحيانا كثيرة، وصلاتها في أغلب الأحيان، ثمّ تعود لتنخرط في الحكاية من جديد، تحت وطأة بكائي وإلحاحي وتوسّلاتي. وجدّي كان يحكي لي عن رحلات السّنْدباد السّبع، ومصباح علاء الدّين، وعلي بابا والأربعين حرامي، وحكايات أخرى غيرها، وكان يقول لي بتوكيد فور فراغه، مستغلاً صغر سنّي، وهشاشة عقلي: «اسمعني، يا ولدي، جيّدا، واحفظ عنيّ هذه الحكايات، عن ظهر

قلب، فهي حكايات من تأليفي، ولعلَّ الله أن يمدَّك بطول العمر،
ويقدِّرك فتفردُها في مؤلَّف باسمي! ولم يكن بوسعي، وقتئذٍ، وأنا على
ما عليه من «رومانسيَّة» (وهذه الكلمة نحلَّتها من كلام «صاحبي»)،
وجموح خيال، وإيمان لا يحده حدُّ بقدره جدِّي على «الإبداع» (والكلمة
الآخيرة أيضًا منحولة)، إلَّا أن أصدِّقه، وسوف لن ينتابني الشكُّ فيما
قاله إلَّا في فترة متقدِّمة، عندما اكتشفت أنَّ المؤلِّف الذي أناط جدِّي
بعهدتي تأليفه، هو موجود في الواقع، وموسوم بحكايات «ألف ليلة
وليلة»، ومما ورد فيها من القصص، إضافة إلى ما سمعته من جدِّي فما
لأذن، حكاية مسرور التاجر مع معشوقته زين الموصف، وحكاية عليّ
نور الدِّين مع مريم الزناريَّة، وحكاية الشَّابِّ البغداديّ مع جاريته التي
اشتراها، وحكاية أبي قير، وحكاية جدِّ مولانا القائم بأمر الإمبراطوريَّة
رفع الله ذكره أبي العباس أحمد بن محمَّد بن محمَّد بن المعتصم... جدِّ مولانا، أبي
محمَّد هارون الرُّشيد بن محمَّد المهديّ بن أبي جعفر عبد الله المنصور
أخي أبي العباس عبد الله السَّفَّاح، مؤسِّس الدَّولة وحافظ الملَّة، بن
محمَّد ذي الثَّنَفات بن عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس عمَّ رسول الله
صلَّى الله عليه وسلَّم، تغمَّدهم الله جميعا بروح رحمته وريحانه، ووقى
رفاتهم الطَّاهرة الزكِّيَّة من أنياب الدَّود وتطَلَّ السَّوس... حكاية جدِّ
مولانا هارون الرُّشيد مع الشَّابِّ العمانيّ، وحكاية إبراهيم بن الخصيب
مع جميلة بنت أبي اللَّيث عامل البصرة، وحكاية أبي الحسن الخرسانيّ
الصَّيرفيّ مع شجرة الدَّر، وحكاية قمر الزَّمان مع معشوقته، وحكاية
عبد الله بن فاضل عامل البصرة مع أخويه، وحكاية معروف الإسكافيّ،
وجملة حكايات تتضمَّن عدم الاغترار بالدُّنيا والوثوق بها، وحكاية
حاسب كريم الدِّين، وحكاية في شأن الجانِّ والشَّياطين المسجونين في
القماقم من عهد سيِّدنا سليمان بن داود عليهما السَّلام، وحكاية مدينة
النَّحاس، وحكاية تتضمَّن مكر النِّساء وإنَّ كيدهنَّ عظيم، وحكاية جودر
بن التَّاجر عمرو وأخويه، وحكاية هند بنت النِّعمان، وحكاية جدِّ مولانا
هارون الرُّشيد مع البنت العربيَّة، وجملة ما حكاها الأصمعيّ لجدِّ مولانا

هارون الرّشيد من بعض أخبار النّساء وأشعارهنّ، وحكاية جميل بن معمر لأمير المؤمنين جدّ مولانا هارون الرّشيد، وحكاية أحمد الدّنف وحسن شومان مع دليلة المحتالة وبنّتها زينب النّصّابة، وحكاية زواج الملك بدرباسم بن الملك شهرمان ببنت الملك السّمندل، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال، وحكاية حسن الصّائغ البصريّ، وحكاية الثّعلب مع الذّئب وابن آدم، وحكاية عليّ بن بكار مع شمس الثّهار، وحكاية قمر الزّمان بن الملك شهرمان، وحكاية نعم ونعمة، وحكاية علاء الدّين أبي الشّامات، وحكاية الملّعون الأعور عدوّ آل بيت مولانا هشام بن عبد الملك مع غلام من الأعراب، وحكاية إسحاق الموصليّ وزواج عمّ مولانا عبد الله المأمون. رفع الله ذكره كما رفع للإسلام ذكرا. بخديجة بنت الحسن بن سهل، وحكاية الحشّاش مع حريم بعض الأكابر، وحكاية جدّ مولانا هارون الرّشيد مع محمّد بن عليّ الجوهريّ، وحكاية جدّ مولانا مع العجميّ وما يتبع ذلك من حديث الجراب والكرديّ، وحكاية جدّ مولانا مع جعفر. لعنه الله. والجارية والإمام أبي يوسف، وحكاية خالد بن عبد الله القسريّ، وحكاية أبي محمّد الكسلان مع جدّ مولانا. معذرة مولانا أمير المؤمنين أحمد بن محمّد بن مولانا المعتصم المستعين على زلّتي هذه وهفوتي، إذ الأحرى بي أن أقول: حكاية جدّ مولانا هارون الرّشيد مع أبي محمّد الكسلان، لا أمده الله بصحة، إذ أتى لاسمه الكسلان، كما فعله، أن يتقدّم في الشّرف أبهة أسماء خلفائنا ومواليّنا وجلالها.، وحكاية عليّ شار مع زمرد الجارية، وحكاية بدور بنت الجوهريّ مع جبير بن عمير الشّيبانيّ، وحكاية الجوّاريّ المختلفة الألوان وما وقع بينهنّ من المحاورّة، وحكاية وردان الجرّار، وحكاية تتضمّن داء غلبة الشّهوة في النّساء ودواءها، وحكاية الحكماء أصحاب الطّاووس والبوق والفرس، وحكاية أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام، وحكاية تودّد الجارية، وحكاية الملك شهریار وأخيه الملك شاه زمن، وحكاية الحمار والثّور مع صاحب الزّرع، وحكاية التّاجر مع العفريت، وحكاية الصّيّاد مع العفريت، وحكاية وزير الملك يونان والحكيم ريان.

وحكاية الحمّال مع البنات، وحكاية الوزير نور الدّين مع أخيه شمس الدّين، وحكاية الخياط والأحذب والمهوّديّ والمباشر والنّصرانيّ فيما وقع بينهم، وحكاية مزّين بغداد، وحكاية الوزيرين الّتي فيها ذكر أنيس الجليس، وحكاية التّاجر أيّوب وابنه غانم وبنته فتنة، وحكاية الملك عمر النّعمان وولديه شرّكان وضوء المكان... وقد تضجّون من صفاقة وجهي، ونزوعي إلى هذه الكثرة الّتي لا نفع من وراءها ولا طائل، وجنّوحي إلى التّطويل في غير تقصير، ولكن أرى لذلك أسبابا لا بدّ لي من ذكر بعضها، على الأقلّ، وأولّها أنّي أنست في نفسي شيئا من كبر، فتنازعني عواطفي إلى الظّهور أمامكم، وارتفاع مكاني في قلوبكم، وارتسام صورتني في بآبٍ أعينكم، وثانها أنّي قصّدت إلى إحاطة علمكم بما ربّما قد تكونون لم تحيطوا به، إمّا لقصور، أو تجاهل، أو نسيان (وما أكثره!)، أو تناس، أو خمول، أو كسل، أو قلّة حيلة، أو قصور ذات يد على الامتلاك، أو قصور موهبة على التّحصيل، وأخيرها، وليس آخرها، أنّي أردت أن أخبركم، في إضمار وتلميح دون تصريح، أنّي قرأت كلّ ما ذكرته أجمعه، بل لم أغفل حتّى الغثّ منه والمملّ. وهذا وارد حدوثه، ليس في حكايات «ألف ليلة وليلة» فحسب، بل في كلّ ما كتبه الأدباء، وجادت به قرائح الجهابذة، ودبّجه الشعراء في قصائدهم كلّها، ما يستحقّ منها التّعليق على أستار الكعبة، وما لا يستحقّ منها التّعليق حتّى على غطاء صندوق قمامة، أو قاع سلّة مهملات... قرأتها كلّها، حكاية حكاية، وفصلا فصلا، وبابا بابا، ونصّا نصّا، وفقرة فقرة، وسطرا سطرا، وكلمة كلمة، وحرّفا حرّفا. وكان من وُلعي بها وشدّة وُلّهي أنّي لم أكتف بقراءتها، فأعدت قراءتها مرّة، ومرّتين، وثلاثا، وأربعا... وألّفا، ولم أشبع منها، رغم أنّه تكوّن لديّ اعتقاد جازم أنّها قد تكون شبعت هي منّي، وسلّتي، وعافّتي، وقرّفت منّي، وأصابها من ملاحقتي إيّاها اشمئزاز وامتعاظ. ولمّا أصبح بريق قراءتها يخبّو في نفسي، وجاذبيّتها تقلّ وتضعف يوما بعد يوم، بدأت أفكر في البحث عن جوانب أخرى للفتنة فيها، واستغرقني ذلك أيّاما معلومات، مليئة بالجهد والقلق والتّمحيص والتّنقيب

وتقليب الأمر على جميع وجوهه، وقد حرمت، خلال ذلك الوقت كله،
 نعمة الراحة وسكينة النوم، إلى أن عنت في بالي فكرة الترجمة، ذات
 مساء هادئ رائق، وأنا مغمض العينين، متمدد في استكانة وخمول،
 تحت ظل نخيلة عجوز هرمة بفناء دارنا، فاستوفزت، وارتفعت بجذعي
 قليلا، واستندت إلى ساق النخلة، وفتحت عيني فجأة بانتباه، ووجدتني
 ألفظ أسماء لأشخاص، لو ظللت دهرا، خارج حدود تلك اللحظة
 العجيبة، لما ذكرتهم أو خطروا على قمقم ذاكرتي، لكونهم أبعد ما يكون
 مسافة عن مرابع لعبي أو دائرة اهتمامي! وقد ذكرتهم آنذاك، مع ذلك،
 وخلتهم يتناولون بأعناقهم أمامي، ضاحكين، كأنهم يمنحوني مفتاح
 الكنز، أو يهبوني جنة الخلد وملك لا يبلى، هم بختيشوع وميمون بن
 إسحاق وقسطا بن لوقا، وكنت، في زمني الأول، أواخر الصبا وأوائل
 شرح الشباب، قد أحطت بقدر عظيم من لغات الأقدمين، حينها وميتها،
 فقرأت «ألف ليلة وليلة» باللغة الفارسية، وقرأتها باللغة المسمارية،
 وهي لغة الهنود القدامى، وقرأتها باللغة السريانية، وباللغة الآرامية،
 وباللغة الكلدانية، وباللغة العبرانية، وكذلك باللغتين الإغريقية
 واللاتينية. وقد تجدون ذلك مني مبالغة وتفخيما، وربما رغبة مني في
 الظهور والتكشير عن أنياب تفوقي. كما كنت اعترفت على نفسي في
 مناسبة سابقة، ولذلك تتساءلون: «كيف حصلت على كل هذه
 التراجم، التي لا تخفى قيمتها ولا تنكر، والتي لا توجد عادة إلا في خزائن
 الخلفاء أو الملوك أو الأمراء، ومكتبات عمداء الأدب، وأساطين الأثرياء،
 سيما وأنك من بيت مغمور الاسم، حامل الذكر، خفيف الباع، قصير
 الذراع؟!» فأقول، في زهو وفخار، إن لكل علة معلولا، وإن لكل سبب
 مسببا، وإن لكل صنع صانعا، وإن لكل خلق خالقا، وقد قال رسول الله
 صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما: «لو تعلقت همّة المرء بما وراء
 العرش لناله». وأنا لم تتعلّق همّتي بما وراء العرش، وإنما بأذيال تابع
 من أهل بيتنا كان ينادم أميرا من أمراء بغداد، وكان يتردد، من حين
 لآخر، على حيننا، فاغتنمت يوما فرصة مروره بدارنا زائرا، فتعاليت

أمامه، وتعاضمت، ثم تصاغرت إليه، حين جلس، ومدحته بقصيدة طويلة مطلعها:

جئت الأمير مهتئنا بحلوله ... ومؤملا يوم التلاقي مغنما
وما كدت آتي على أخريت في القصيدة، حتى رقص طربا، ووعديني
خيرا، وأعطاني مائة دينار ذهبيا. وجاء هذا الخير يوم رحيله إلى بغداد،
فصحبني معه، وصرت من التابعين. وفي بغداد عملت أديبا وشاعرا،
في الليل حين أخلو إلى مولاي التابع، وفوَّلا وجسَّارا بين دجلة والفرات،
وسمَّاكا وزعَّارا، وعيَّارا. وشاطرا، ومتطرَّحا، في النَّهار حينما يكون مولاي
التَّابع في حضرة الأمير. وبالمال الذي أحصَّله، كنت أشتري كتباً، وأقراها،
وأعيد قراءتها مرارا، حتَّى أشتري كتباً غيرها، وقد ظللت على تلك الحال
فترة، حتَّى أدمنت القراءة، ولم أعد أصبر على قضاء يومي، وكلَّ ساعة
من يومي، دون أن أقرأ كتابا وأتصفَّح وريقاته بين يدي، ولكن لم تكن
نقودي القليلة لتفي بحاجتي، فرجوت مولاي، وتوسَّلت إليه، وتعطَّفت،
وبست يده ورأسه، ولثمت أصابع رجليه الرقيقة إصبعا إصبعا، بأن
يصحبني إلى قصر الأمير، دون أن أبوح له بشيء ممَّا أضمرت، وبعد
إلحاح مني في التَّصاغر، وطول إدلال منه، وافق على اصطحابي معه،
ودُهِبت ثاني يوم بصحبته. وتفقَّ شخصي عن مدَّاح لودعي، وصرت
أمدح الأمير بقصائد عصماء، إلى أن أصبحت المعصوم الوحيد في
قصره... وكنت أمدحه وأشتري كتباً، وأعاود مدحه، وأعود فأشتري
كتباً، ومدحته مثنى وثلاث ورباع، واشتريت الكتب أكداسا وأكداسا،
حتَّى صار البيت الذي أقطن فيه، وقد ابتاعه لي الأمير، جازاه الله عني
كلَّ خير، مرصوفا كتباً، كتباً، كتباً. وبعض الكتب. وهذا سرُّ أستاذكم
على حفظه. حصلت عليه غصبا وخطفا ونشلا!! وذاع صيتي، وسارت
بذكرى الرِّكبان في كلِّ ركن من أركان بغداد، وفي كلِّ شبر منها، وجرى
اسمي خفيفا سلسا على ألسنة حاشية مولانا الأمير لأنِّي كنت ملازمه
ومدَّاحه، في قصره وخارجة، وفي منتديات العرب بالأباطح والمسامر
لأنِّي كنت أفخر بمفاخر كلِّ القبائل المنحدرة من نسل عدنان، وفي كلِّ

خَمَّارة، لأَنِّي كنت، في أحيان كثيرة، أنحو منهج ابن هانئ النَّوَاسِيَّ في خمرياته، وكنت، عدا ذلك، شاعرا خفيف الظَّلِّ، ذا نكتة، وفي كلِّ حارة ودرب، لأَنِّي كعَيَّار محنَّك، ضليع في مهنة السَّطو والاعتصاب والنَّشل والرَّمي بالبندق، كنت ألتقي في طريقي ببعض العبيد والغلمان والإماء، فيحلوني أن أسخر من غفلتهم وغياهم شعرا، وقد وجد ذلك هوى في نفوس الصَّبيان، فكانوا يردِّدون ما أقوله وهم يتصايحون ويتمارشون، وأحبَّتي، في بغداد، كلَّ حصان، وبكر، وثيِّب، وأرملة، وثاقل، لأَنِّي كنت أخطب في كلِّ منهم شيئا لا يحسن غيبي مخاطبتهم به. والطَّرِيف في الأمر كلُّه، أنَّ البغداديين، بطمَّ طميمهم، عالمهم وجاهلهم، فقيمهم وقارهم، سليمهم وقعيدهم، غنَّهم وفقيرهم، موسرهم ومعسرهم، عائلهم وعاقرهم، سيِّدهم وسوقتهم، قد خبا في نفوسهم ذكر الجهابذة العظام، والكتَّاب الكبار، والفظاحل الذين لا يشقَّ لهم غبار في كلِّ ما نطقت به لغة الضَّادِّ، من أمثال الجاحظ وسهل بن هارون وعبد الحميد الكاتب. ولم أسرَّ بذهاب صيت الأخيرين كما سررت بأقول نجم أبي عثمان عمرو بن بحر مولى كنانة، وذلك أنَّي كنت أستشعر عاطفة الغيرة حياله، وهو على نباهته وسرعة بداهته وذكائه. كان يحبَّ رياضة العقل، فيغلِّبها على رياضة الجسم، ولذلك أفلج، بعد أن أصابه خمود الحركة، وهو قابع في مكتبته، لا يحول ولا يزول، حتَّى سقطت عليه بكلِّها وكلِّكلها، وكنت أنا أحبَّ رياضة العقل ورياضة الجسم كليهما، وكنت مولعا بالحركة وبذل المجهود، وكانت المكتبة تجيئني ولا أجيئها، في أيِّ حالاتي كنت، سواء أكنت نائما أو مفيقا أو قاعدا أو ماشيا أو ساريا أو جاريا أو ناشلا أو خاطفا... إلى آخره!!

تري كم...

تري كم لبثنا...

تري كم لبثنا ونحن نتحدَّث؟

قد نكون لبثنا يوما وليلة، أو يوما وليلتين، أو يومين وليلتين أو ثلاث، أو ثلاثة أيام وثلاث ليال أو أربع، غير أنَّ الأهم من هذا السَّؤال، هو أننا

مكثنا زمنا طويلا في الحديث من لدن ابتدأناه، وحتى حين انتهينا منه، وبين البداية والنهاية. وبعد النهاية، بدأ دماغي، الذي كان طاويا غافيا خاويا على امتداد سنين، يتفتّح على دنيا جديدة، هي دنيا لا تمتّ إلى هذا العصر، الذي صحوّت ذات يوم فوجدت نفسي قابعا بين أعطافه، موعلا في تلافيفه وتجاعيده المتغضنة الهرمة... ودنيا «صاحبي» خضرة نضرة، واعدة، ومكتنّلة بالحياة والحركة والنشاط، ما تكاد تهدأ إلّا لتعاود من جديد، فترتفع ضجّة الأصوات في الشوارع، وتطأ إسفلتها بأرجل دؤوب، لا تكلّ ولا تملّ، سواء في صيف أو شتاء، كأنّها على موعد دائم مع قوّة خفية تشدّها إلى الأمام اللامتناهي في الغياب... ودنيا «صاحبي» ميكانيزم (عبارة منحولة) هائل جبار كالجسد الحيّ، دقيق ومعقد، كلّ شيء فيه منظمّ، ويسير وفقا لقانون: البنائيات، الدروب، الدور، عالم النّاس، عاطفة الحبّ نفسها، يتبادلها المحبّ ومن يحبّ دون فواصل أو نقاط تعترض فضاء الورقة العذراء، فيسرّ إليها، وتسرّ إليه، مبتدأ الكلام مناجاة، وأواسط الكلام همس، وأواخر الكلام تكون ولادة وردة حمراء على درب المصير المشترك، وتتلاحم المقدّمة والخاتمة، والبداية والنهاية، والمحمّتل وغير المحتمل، لتكوّن جميع هذه الأشياء مملكة للحبّ، التي لا تعترف بالقيود التي تقوم، في عصرنا نحن، حبلا دوننا وما نريد: الشّرف، رغبة الأب التي تنتفي فيها وأمامها رغبة الابن، القبيلة، وحتى الموت والحياة يرتدّان جبلين قاهرين صليبين، فلا حياة إلّا «ل» ومن «أجل»، ولا موت إلّا في «سبيل»، ولكن لأجل من؟ وفي سبيل من؟... ودنيا «صاحبي» ملوّهة الحرّيّة والانطلاق، فلا شرف إلّا ما تصنعه أنت فتعتقده، وكلّ رغبة طارئة، أو ثانويّة، إزاء رغبتك أنت، وما تريده أنت، ولا حدود للقبيلة خارج منطقة تفكيرك، ومدارك وعيك، فالقبيلة شعورك العميق بأنك مكتف، وأنك تتصرّف بحرّيّة، وفي نفس الوقت من باب المسؤوليّة، التي تتكافأ بها مع غيرك، ممّن يفترض فيهم أن يتعاملوا معك دون مركّبات أو عقد (عبارتان منحولتان)، فتكون قبيلة الانتماء، والأفكار الحرّة، ووطن الجميع الذي يسع الجميع.

ولهنأ، بعد ذلك، بالحياة محبّوها الخلّص، وعشّاق أبعادها ومرامها، ومن سيملاونها وتمتلئ بهم، وفيهم، وليأت الموت، على هينة، فمرحى به ومرحى، صديقا متوقّعا قدومه، لا هادرا ولا مغتالا، لا فخورا، ولا مختالا، بأنّه سيغتصب روحا، بل أرواحا، وينأى بهم إلى برزخ الضياع... ودنيا «صاحبي» الموت فيها شريف، فارس، شهم، قاعدة ثابتة تنتظم في دولاب الكون المنظم، دون أن تضطرّ إلى خرق نفسها في عنف ووحشية الغاصب، والموت جميل لأنك تعلم، بكلّ بساطة، أنك ستموت يوما، دون أن تكون في حاجة إلى ذريعة كالمأساة لتبرير حدوثه، لا أن تموت كلّ يوم، على أيّامنا هذه، إمّا منسيّا في الثّغور، أو مسموما، أو مقتولا بسيف الجلاد، دمك على النّطع، وجثّتك بجانبه، ورأسك بجانب أولى الدّرجات المؤدّية إمّا إلى عرش سيّدنا الوالي في دار الإمارة، أو إلى عرش مولانا أمير المؤمنين سليل البيت العريق أبي العباس أحمد بن محمّد بن مولانا محمّد المعتصم... ودنيا «صاحبي» كم تمنيت، وهو يحدثني، لو كنت حتّى مجرد شجرة نابطة على قارعة شارع من شوارعها، أو غصن في تلك الشّجرة، أو ورقة ذابلة في نهاية ذلك الغصن، أو ملقاة في لامبالاة، في مقبرة أو مزبلة، فكلا الأمرين سيّان عندي، وكم حلمت، في غمرة نشوتي، لو كنت بطل تلك الأوراق، على الرّغم من خيبته، فقلت ما قال، وفعلت ما فعل، واعتنقت ما اعتنق، غير أنّ الخيال ذهب بي بعيدا، فتصوّرت نفسي شابّا رطيب العود، مدملج الخدين، مرسل الشّعر، أنيق الهيئة، رشيق المشية، تحت تعريشة (عبارة منحولة) تحوطها الظلال من جميع جوانبها، وبجانبني فتاة أحلام، هي جماع لجمال كلّ الفتيات، على البسيطة، في كلّ العصور، أعاطيها وتعاطيني كأحسن ما يكون، نجوى، وهمسا، ولثما، وتقبيلا، وعناقا و... (توجّل اللحظة الحاسمة إلى حين غير معلوم فالجوّ ثقيل!!) ... ودنيائي رتيبة، فاترة، لا شيء فيها جديد، ولا بشرى فيها بحياة!!

هززت يدي، ولوّحت بها أمام وجهي، كأنّما لأطرد الاضطراب الذي ألمّ برأسي فجأة، والتفتّ إلى «صاحبي» الجالس على مقربة منّي، ثمّ

سَرَّحت طرفي وراء سور المقبرة، وأجلت عينيَّ الأسيانيتين في الأرض الخلاء التي تتصل به، ثمَّ تمتدَّ إلى ما لا نهاية، حيث لا يعود البصر يدرك مرماها. كنت أحاول عدم الاصطدام بحقيقة أنَّه يجب عليَّ أن أختار، وفي أقرب مناسبة ممكنة، وأنَّه لا مناص من الرِّسْوَة على برِّ واضح المسالك والمعايير، خارج حدود المفترقات والتَّعاريج والمتنقيات غير المؤكَّدة. إذ لا خيار إلَّا ما يكون بين النقيضين، ولا وجود لبديل ثالث بينهما يصلهما، فيأخذ شيئًا من هذا وشيئًا من ذاك. لا. لا. إمَّا أبيض، وإمَّا أسود!! إمَّا بارد، وإمَّا حار!! إمَّا حسن، وإمَّا قبيح!! إمَّا أسد يخمش بمخالبه أو ضبع يتمدّد على ظهره ويرفع قوائمه!! لكن، هل تراه حان وقت الاختيار حقًّا؟ ألا يجوز تأجيله، ولو قليلًا، إلى لحظة قادمة، أوفق زمنًا، أكون فيها أهدأ بالًا، وأثبت جنانًا، وأكثر شجاعة؟

وحَتَّى أنسى الألم المصطرع في أعماقي، خطرت لي أن أجاذب «صاحبي» أطراف حديث غير الذي كنَّا نخوض فيه، سيِّما وأننا مازلنا لم نتعارف بعد، كما ينبغي، أو على الأقلِّ مازلت أنا لا أعرف عنه شيئًا سوى أنَّه أت من قادم الزَّمان. وكان أنسب ما أفتتح به الحديث أن أسأله عن اسمه، فسألته، وأنا أنظر إليه، كما لو كنت أريد أن تتحقَّقه عينا ي قبل لساني:

ما اسمك؟

ولكنَّه لم يجب مباشرة، بل رازني بنظرة معاتبة، وهو يجيب على سُؤالي بسؤال آخر:

ألم تعرف اسمي بعد؟ حسبت أنَّك تذكَّرتني، بعد كلِّ ما أخبرتكَ به.

فقلت، وما زال كثير من الشَّكِّ يداخلي:

ولكنِّي. وأريد أن أصارحك حقيقة بذات نفسي دون مواربة. مازلت

غير متأكَّد تمامًا ممَّا ذكَّرتني به...

ثمَّ سألنا، بعد فترة صمت:

ألا يكون المقصود شخصًا آخر... يشبهني.

غير أنَّه تطلَّع إليَّ بعينين فيهما ثبات وتحدُّ، وقال وقد أضاءت شفَّتيه

ابتسامه ذكيّة، مأكرة، ساخرة:

.أبدأ. معلوماتي لا تخطئ أبدا.

فقلت، مغيرة مجرى الحديث، متفاديا الاشتباك معه في مهارات قد لا تؤمن عقباها:

. دعنا من كلّ هذا الآن. فسيكون لديّ متسع من الوقت لأتخذ قرار. وقل لي السّاعة: ما اسمك؟

لم يكن يبدو عليه الاهتمام إلى حدّ تلك اللّحظة، فقال ممعنا في إدلاله وتعذيبه إياي:

. أمّا اسمك فسالم فوزي أسعد عبد العظيم هنيدي. مولود بحيّ السّاروجة، في بلد على ضفّة المتوسط.

كنت أشمّ رائحة الاستفزاز في كلامه، ولم أشأ معارضته أو مناطحته، فاكتفيت بالقول محاذرا:

.قد يكون...

إلّا أنّه كان مستعدّا للهراش، فقاطعتني قائلا:

.بل الصّدق كلّ الصّدق ما قلته.

نفد حينئذ صبري، وبدأت أطيايف المشاكسة تحوم حول رأسي، فقلت مداعبا في سخرية:

.يظهر أنّك متأكّد من كلّ شيء تقوله!

.أجل، كلّ التّأكّد.

اتّجهت بكليتي نحوه، وسألته، ولم تزايلني رغبة مداعبته والسّخرية منه:

.وما يدريك؟

فقال، وقد غدت ابتسامته الذّكيّة المأكرة السّاخرة ضحكة ذات صوت:

.مؤكّد أنّك سمعت بالقاعدة الّتي تقول: البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر، وأنا لا حاجة بي إلى اليمين، فإنّي أمتلك البيّنة، وها هي ذي البيّنة بين يديك، مظروفا به أوراق تؤرّخ لحياتك باليوم والشّهر

والسّنة. فهل بعد ذلك تروم الهروب من دائرة قدرك؟!؟

هل أفحمني؟ لا، ليس تماما، فحتّى لو كان ما جبني به هو الحقيقة الثّابتة الأكيدة، فسيظلّ القرار الثّائي، والأخير، بيدي أنا، أنا الّذي سأمنح نفسي فرصة للتّفكير قبل لحظة الاختيار.

لم يفحمني تماما، وكنت أرغب أن لا نفترق على خصام، فقلت وأنا أتخلّى عن نبرتي السّاخرة، في حين بقيت محافظا على روح الدّعابة:

فنلّذع الخصام جانبا الآن، وأخبرني عن نفسك قليلا.

لان بدوره. قال سائلا:

ماذا تريد أن تعرف؟

قلت:

فلنبداً من البداية: ما اسمك؟

قال باقتضاب:

أبو الرّوس.

بقيت متطلّعا إليه أنتظر، عساه يتمّ بقيّة الاسم، فلمّا يئست منه، لويت شفتيّ في دهش، وحملت فيه مليّا، ثمّ سألته بشيء من الاستغراب:

وما أبو الرّوس؟

ضحك بعريضة حتّى كاد يستلقي على ظهره، وقال ببساطة:
اسمي.

فسأله معترضاً:

.ولكن هذا، حتّى بغضّ النّظر عن معناه الغريب، ليس اسماً، وإنّما هو مجرد كنية، كقولنا: أبو محمّد، أبو بكر، أبو عبد الله، أبو صالح، وهكذا...

قال بخبث:

.كقولنا يعني كقولي أنا، وكقولك أنت، في العصر الذي جيئت منه أنا، لا العصر الذي تقبع فيه أنت، أي يجدر بك أن تسلّم أنّك سالم فوزي أسعد عبد العظيم هنيدي.

فسأله محتدّاً قليلاً، وقد بدأت أعجب من إصراره على التّأثير عليّ:
ولماذا لا أكون علاقة بن صابئ السّكسكي.

هو ضاحكاً:

.لأنّه يجب أن تصدّقني. فما أقوله هو الصّحيح.

فسأله ساخراً:

.ولماذا لا يكون العكس صحيحاً أيضاً؟

قال:

.لديّ الحجّة. وهي هذه الأوراق أمامك.

فقلت بنفس لهجته:

. وذكري ميلادك، وفتح عينيك على وجوه من أخرجوك إلى هذا العالم، والإخوة، والبيت، وفناء الدّار، والحيّ، ثمّ العمر الذي قضيت جلّه في الكوفة، وشطراً منه في بغداد: أليست كلّ هذه الأشياء حجّة كافية، أم أنّك تريد أن تؤثر عليّ حتّى أنتهي إلى اتّخاذ القرار الذي كنت

فضحك عاليا ليداري عناده وحرجه. وقال:
. على كلّ حال، سيكون الخيار بيدك أنت.

أعجبني تراجععه، فأضمرت في نفسي أن أتراجع بدوري، وقلت
متبسّطاً:
. هيّا، هات ما عندك.

جذب سيجارة أعطانها، وأخذ أخرى، فأخذت الولاعة وأشعلت
سيجارته وسيجارتني، ولما سحب إلى صدره نفساً عميقاً، ثم نفثه، قال
وهو شارد قليلاً:
. اسمعني جيّداً! فسأحكى لك حكاية طريفة.

وتحقّزت في مكاني لسماعه، فاقتربت منه حتّى لم يعد يفصلنا سوى
مسافة ضئيلة. حينئذ، قال:

. لقد كان والدي . يرحمه الله . جزّاراً . جلّ وقته يقضيه في الدّكان
مع الزّبائن، وكان من عادته أنّه ما يفتأ يتحدّث عن الهائم والأنعام،
ويتفنّن في وصفها، حتّى صار حجة في هذا الميدان، وقبل أن ينهي معاملة
الزّبون، يمدح أمامه اللّحم الذي سيبيعه إياه، كأن يقول له مثلاً، إنّهُ
لحم فتيّ، ثنيّ، سهل الهضم، من أجود أنواع اللّحم، من فخذ خروف
مرعاه أجود العشب، والماء الذي يشربه من أنقى المياه... وقد يحدث
أحياناً، أن يمازحه أحد الحرفاء فيقول له متخابثاً: «كأنّك والله تصف
بشراً سوياً!» ويضحك منه آخر، ويقول له متشجّعاً: «لم يبق أمامه
إلاّ أن يتبع نظام حمية في الأكل!» ولكنّ والدي لم يكن يعرف الهزل
في هذه المسألة بالذّات، فيحنق كثيراً، ويزمجر قائلاً: «العمى! أناس لا
يستحون! والله، لرأس هذه البهيمة المذبوحة (ويشير بإصبعه إلى الرّأس

المعلّقة على واجهة الدكان) خير ألف مرّة من رؤوسكم الكبيرة اللّحيمة. ومَرّت الأيام تباعا، ووالدي لا يكفّ عن التّنويه بمزايا الرّأس المعلّقة كلّما أحنقته دعاة زبون، إلى أن جاء يوم، شاعت فيه حكاية والدي مع الرّأس، في الحيّ وخارجه، فكان الصّبيان كلّما رأوه قادما من رأس الرّفاق أشاروا إليه وهم يتضحكون: «جاء أبو الرّوس... جاء أبو الرّوس...» فيجري وراءهم والدي، وقد بلغ منه الغضب مبلغا شديدا، وهو يقذف وراءهم: «وماذا عليه، يا أبناء الزّواني، أبو الرّوس، على الأقلّ، أحسن بكثير من آبائكم الطّرايطر... هزلت، والله!» ومَرّة، وقف في وسط الحيّ، منتصبا بقامته المديدة، وقال بصوته الجهوري: «اسمعوا، يا أهل الحيّ، لقد نذرت لنن رزقني الله غلاما لأسمّيه «أبو الرّوس»، ولأولنّ يوم مولده وليمة أذبح فيها عشرين رأسا من سمان الأغنام.» وقد برّ بقوله، ووفى بنذره، فكان يوم مولدي يوما حافلا.

وصمت قليلا، ثمّ جذب آخر نفس من السيّجارة الّتي رماها بعيدا، وقال كأنّما لم يرد لهذه الحكاية أن تنتهي دون خاتمة: وهكذا، سمّيت «أبو الرّوس».

فسألته، وقد تمكّن منّي الفضول، حتّى لم أعد أستطيع مقاومته: وما اسم أبيك؟

قال:

والدي، رحمه الله، كان اسمه «حلمبو».

فردّدت وراءه في شيء من الدّهشة والاستغراب وعدم التّصديق: حلمبو!

هو بنبرة حادة:

أجل حلمبو. وماذا في ذلك؟

لم أستطع استساغة الاسم بسهولة، فتنازعني نفسي إلى مشاكسته ثانية. سألته، وأنا أحاول أن أكبت ضحكة ساخرة كادت تنفجر بداخلي: وما «حلمبو»؟

أجاب، وقد بدا لي من نبرة صوته أنه بدأ يضيق بي ذرعا: «حلمبو» يعني «حلمبو»، لا أكثر ولا أقل.

قلت:

ولكنّ هذا الاسم لا يبدو عليه أنه عربي أصلا، عدا أنه خلو من الحركات الإعرابية. يفترض في الاسم أن يكون لائقا، مهذبا، تستسيغه الأذن، ويقبله الذوق العام. ألا ترى إلى أسمائنا: محمد بن القاسم بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، أبو جعفر بن جرير الطبري، الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، بشر بن هارون النصراني، موسى بن أشناس، وأسماء أخرى غيرها لو رمت الإمام بها كلّها، لما وسعني الوقت لفعل ذلك، ولا واتني القدرة... ثمّ انظر إلى هذه الأسماء، تصدّر بكنية صاحبها، فيقال أبو فلان، إشارة إلى أنه مخصب وأنّ زوجه ولود، فيعيش حياته ذائع الصيت، عالي الهمة، موفور الذّكر، ثمّ يخلد، إذا قضى، في آثار ذريته وأعقابها، وتلي الكنية الاسم، وبعد الاسم يذكر اسم الأب، واسم الجدّ، وأب الجدّ، وجدّ الجدّ، وأب جدّ الجدّ، وهكذا دواليك، حتّى تنتهي الفروع إلى الأصول، والأفخاذ والبطون إلى القبائل العريقة، وكلّ ذلك حتّى تحفظ الأنساب، ولا تضيع وتتلاشى، فيفقد بذلك الواحد هوّيته، إنك حين تقول مثلا: أنا عربيّ، فإنك تعرّف بنفسك، وتقصد ضمنا أنك لست

فارسيًا، أو هنديًا، أو صابئيًا، أو زردشتيًا، أو ماوياً... وأنتم أسماؤكم مقتضبة، متداخلة في بعضها، ومنكمشة، كما الشرنقة، لا تخفي وراءها سوى نكرات. ألا تخبرني عن الفخذ الذي تنحدر منه، والبطن الذي يضمّ فخذك، وعشيرتك التي تؤويك، وقبيلتك التي تذود عنك إذا كشرت الملمات عن أنيابها؟ لا، لا أظنّ أنك تتوقّق إلى ذلك.

نظرت ناحيته، فوجدته شاردا، يسرح طرفه في الأفق الممتدّ أمامه، فخمّنت أنّه لم يسمع معظم حديثي، غير أنّه رغم ذلك قال:
.إنّ الشّقة لواسعة، وإنّ البون لشاسع، بين هذا العصر. والعصر الذي خلفته ورائي، فلا مجال للمقارنة بينهما، ثمّ أنّه من غير المعقول أن يعكف كلّ من ولد له مولود جديد على قاموس ليتخيّر له اسما يكون خاضعا لمواصفات المعنى والدّوق والإعراب، وكلّ هذه الأشياء التي لم يعد لها كبير قيمة في عصرنا، فإذا رغبت، يمكنك أن تسمّي غلامك «كبشا» أو «تيسا» أو «هرمة» أو «أبا العينين»... عظم النّاس في بلدي فقراء، مساكين، أبناء حظّ، أمّيون، فيهم الطّيّبون كما فيهم قطع الطّريق والمجرمون، لا يتسّع وقتهم الذي استغرقت مشاغل الحياة وتحصيل الرّزق للعلم أو الثّقافة. قد تقول: إنّنا نكرات! هذا صحيح، ولكن لا تنس أنّ كلّ عصر فتنته...

قاطعته قائلا:

.إنّ أسماءنا كبيرة... كبيرة جدًا. كبيرة في لفظها، وكبيرة في معناها، ولنطقها جرس وأبهة، لو قذفت بها حائطًا، لاخترقته، وتحطّم الحائط. وأسماؤكم صغيرة... صغيرة جدًا... ضئيلة وهشة، لا تعمّر طويلا، وتموت بموت صاحبها.

قال، وقد غاب عني مغزى كلامه:

لّه فينا علم أمرن نحن صائرون إليه!

فقلت:

نسأل الله حسن العاقبة.

وصمت كلانا، ويبدو أنّ عدواه قد انتقلت إليّ، فشردت أنا أيضا، مستسلما للأفكار التي بدأت تتراكم في رأسي تباعا، كدولاب العربة. وقد كان الظلام يعمق ويغمر، باسطا ملاءته السوداء على الكون من حولنا، والسكون يرين شاملا فوق المقبرة وما حولها، إلا ما كان من صوت صرّار مستوحش أهاجه الليل، أو هسهسة أثارها هبة نسيم مفاجئة، أو رقة جناحي خفاش، أو خشخشة كنت أحسّها قرب قدمي من حين لآخر. واختفى «صاحبي» في جوف الظلام، فلم أعد أراه، وأحسست لذلك براحة طارئة، حيث سيتيح لي كلّ من صمته واختفائه فرصة مواتية للتأمل... وبدأت خيوط حكايته الطويلة تتوارد على دماغي الكليل من جديد، والصّور تتراءى أمام عينيّ شديدة الوضوح، في جلاء عجيب يأخذ بالأبصار، واختلطت مشاعري وتداخلت حيالها، فأصبحت مقيدا لا أدري ما أفعل، كالسجين الذي قدّمه السيّاف للنّطع، فراح يستغيث، ولكن ما من مغيث. أه، لو لم يكن لأجل خاطر الأنسة «ث»! أه، لو لم تضمّ اسمها المقدّس، وروحها الهفافة، هذه الأوراق أمامي! أه، لو لم يضعف قلبي عند سماع اسمها! كنت سأقرّر دون تردّد، وسأقول بملء فمي، غير هيّاب: «لا، لا، لن أعود، ولو أعطيتُموني ثقل بغداد ذهبا!...»

أحسست فجأة كأنّ شيئا يذهب ويعيى أمامي، وأنا ما زلت لم أستفق بعد من سرحتي المبالغتة، فانتفضت، وحركت رأسي بعنف، وركزت عينيّ بانتباه كي تؤوبا من سفرهما الجموح إلى قساوة الواقع، ورفعت رأسي إلى فوق، فبدت لي النجوم كالنّخس تتغامز وتتعاين بلذّة، والقمر قد بان أخيرا، متّشحا بهالته البرتقاليّة السّاحرة.

جاءني صوت «صاحبي»، كأنّما من قرار بئر عميق:

اسمع، ما رأيك أن أعلمك شيئا، حتّى تذكرني به دائما إذا قرّرت

البقاء في هذا العصر؟

فأجبتة دهشاً:

وما ذاك؟

قال كالمضحك:

.التنويم المغناطيسي.

فسألته، وأنا ما أزال تحت وطأة استفاقتي المبكرة من شرودي:

وما هو التنويم المغناطيسي؟

فقال، وهو ينظر نحوي، وقد تألق في عينيه بريق أخاذ:

.التنويم من الحيل التي لجأ إليها علم مستحدث في عصرنا، هو علم

النفس، لمعالجة المرضى والمجاذيب، والمجانين.

فاندفعت أسأله، وأنا نصف هازل، نصف جاد:

وهل معنى كلامك أنني مريض، أو مجذوب، أو مجنون؟

ولكنه ردّ كالجاد، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

.سنرى.

قام، واتّجه نحوي، فاستوى بجذعه أمامي، فكان طويل القامة، متناسق تقاطيع الجسم، فارعا، تبدو ملامح القوة في وجهه الواثق، وصدره الواسع، ويديه الطويلتين الجميلتين. أوما إليّ أن أرفع رأسي، فرفعته، ومدّ يده، حتّى صارت في مجتلى بصري، وأفرد سبّابته، فراح يمرّرها ببطء أمام عينيّ. وأعاد الكرة مرّات ومرّات، إلى أن بدأت أستشعر خدرا لذيذا يدبّ في أوصالي، ويسري في دمي مع الشرايين،

ويسعد رويدا رويدا إلى تلافيف دماغي. وبدأت أفقد صلتني بالعالم،
وبدأت عينايا تغيمان، على الرغم من أنهما ظلّتا مفتوحتين، فلم أعد
أميّز شيئا ممّا أرى.

سمعت صدى صوته يأتيني حنونا، رقراقا، واضحا:
هل تسمعني؟

وجدتني أقول دون إرادة مني، مأخوذا بصوته الذي كان مسيطرا
حازما رغم رفقته وعذوبته:
نعم أسمعك.

من أنا؟
أنت «صاحبي».

وأين نحن الآن؟
نحن في المقبرة.

ومتى جننا؟

.....

تكلم. قل متى جننا؟

لا أدري.

وكيف تقابلنا؟

رأيتك قادما نحوي بعد انتهاء الجنازة.

.ومن أين قدمت؟ هل تعلم؟

.لقد جئت من عصر بعيد... بعيد جدًا.
.ولماذا أردت مقابلتك؟

.لقد أخبرتني بحكاية طويلة جدًا.

.وما هذه الحكاية؟

.إنّها سيرة شخص حدّثتني عنه.

.وما اسم هذا الشخص؟

.سالم فوزي أسعد عبد العظيم هنيدي.

.ومن سالم هذا؟

.لا أدري؟

.ألست أنت سالمًا؟

.لا أدري؟

.ألا تريد أن تكون سالمًا؟

.لا أدري.

.هل قرّرت أن تعود؟

.إلى أين؟

.إلى عصرك.

.وما هذا العصر؟

.عصرنا.

.لا أدري.

.قل إنك ستعود.

.لا أدري.

.لا شيء يربطك بهذا العصر الذي أنت فيه.

.لا أدري.

.سيكون رائعا أن تشهد عصرين وتعيش تجربتين.

.لا أدري.

وسمعت صوته أخيرا يأمرني:

.افتح عينيك الآن!

ففتحتهما، ولدهشتي لم أجده حيث كان يقوم أمامي، فقامت
مذعورا كالمسوع، ودلفت إلى المقبرة ورحلت أبحث هنا وهناك، ولكن

بلا فائدة. وحانت مَيّ التفاتة إلى مغرب الشَّمس، فرأيت، وأنا كالمسرنم، كأنّ شيئاً يبتعد، محلّقاً في السَّماء، وكان يتضاءل شيئاً فشيئاً، وظلّلت عينيّ بكفّي، ودقّقت النّظر، فخيّل إليّ أنّي أرى حمامة بيضاء، ناصعة البياض، لا شبةَ فيها، فزادني ذلك ذعراً، على ذعري الأوّل، ورحت أتساءل، مقلّباً طرفي في الأفق كالمجنون: هل يكون «صاحبي» انقلب إلى حمامة؟! فكيف يكون ذلك؟! ومن قلبه؟! وهل يكون ساحراً؟!»

قادتني هذه التّساؤلات إلى مجلسي، وقد جلست من حيث لا أدري، فشعرت كأنّ شيئاً خشناً، قاسياً، غليظاً، تحتي، فمددت يدي اليمنى وتناولته، فإذا هو المظروف وبداخله الأوراق. أعادني ذلك من الذّعر الذي انتابني، والدّهشة والشّروء اللّذين سبّهما اختفاء «صاحبي»، فوجدت نفسي وجهاً لوجه أمام المشكلة الّتي لا بدّ لها من حلّ فوريّ، وحاسم أيضاً: هل أبقى؟ هل أعود؟ وقال قلبي، وصورة الأنسة «ث» تغمره: «بل العود أحمد!»، وقال عقلي: «لتبق، وليكن بقاؤك من أجل حكاية أخرى!» وتبيّنت لي وجاهة ما قاله عقلي، فقرّرت البقاء في حزم، كاتماً على قلبي بيد لدنة وحشيّة، لا ترحم. وشعرت، ساعتئذ، أنّي باتّخاذي هذا القرار، قد قتلت آخر إغراء للأوراق بداخلي، فشعرت، من فوري، في البحث عن وسيلة للتّخلص منها... كانت القدّاحة في جيبي، فتحسّستها بأطراف أصابعي، وقلت: «أحرقها، فكذلك فعل التّوحيدي حينما اضطرّ إلى أكل الخضر في الصّحراء، وفعل آخرون غيره!» ثمّ عدلت عن هذه الفكرة في تأقّف، وقلت في نفسي ثانية: «لا بدّ أن أفعل شيئاً لم يسبقني إليه شاعر، أو أديب، أو إنسيّ على الإطلاق!» وبينما أنا ألقّب الأمر على كافّة وجوهه، إذ رأيت غرايين أسودين أسحمين يحلّقان نحوي، فلمّا اقتربا مَيّ، حطّاً قبالي، وراحا يتعاركان عراقاً مقيتاً، ويتمّشان هراشاً مميتاً، حتّى نتف أحدهما ريش صاحبه، وفقاً عينيه، ثمّ قتله، وبعد ذلك حفر له حفرة في الأرض طمره فيها، ثمّ حلّق عائداً من حيث أتى. نعم، هذا هو! إنّها إشارة! فهذا الغراب يريدني

أن أفعل بالأوراق ما فعله هو بصاحبه، أن أطمرها في حفرة في الأرض،
دون أن اضطر إلى حرقها. سأطمرها إذن! نعم، سأطمرها!!
(وأنتم .ربّما، أو دون شكّ . تعرفون حكاية الغرايين اللّذين جاءا
قابيل بعد قتله أخاه هابيل، وهي، على كلّ حال، مشهورة شهرة النّار
في كومة التّبن، يعرفها القاصي والدّاني. وأهل العلم يختلفون في اسم
قابيل، فيقول بعضهم: هو قين بن آدم، ويقول بعضهم: هو قايين بن
آدم. ويقول بعضهم: هو قابيل. واختلفوا أيضا في السّبب الدّني من
أجله قتله:

فقال بعضهم في ذلك ما حدّث به موسى بن هارون الهمدانيّ أبا
جعفر بن محمّد بن جرير الطّبريّ، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد، قال:
حدّثنا أسباط، عن السّديّ. في خبر ذكره. عن أبي مالك وعن أبي صالح
عن ابن عبّاس . وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن مسعود . وعن ناس من
أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: كان لا يولد لآدم مولود
إلاّ ومعه جارية. فكان يزوّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن [الآخر
] ويزوّج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر. حتّى ولد له ابنان،
يقال لهما قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب
ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكانت له أخت أحسن من أخت قابيل، وأنّ
هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي ولدت معي،
وهي أحسن من أختك، وأنا أحقّ أن أتزوّجها، فأمره أبوه أن يزوّجها
هابيل، فأبى... وأنهما قرّبا قربانا إلى الله أيّهما أحقّ بالجارية، وكان آدم
يومئذ قد غاب عنهما وأتى مكّة ينظر إليّهما. قال الله لآدم: يا آدم، هل تعلم
أنّ لي بيتا في الأرض؟ قال: اللّهمّ لا، قال: فإنّ لي بيتا بمكّة فاته. فقال
آدم للسّماء: احفظي ولدي بالأمانة. فأبت، وقال للأرض، فأبت، وقال
للجبال: فأبت، فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك
كما يسرك. فلمّا انطلق آدم قرّبا قربانا، وكان قابيل يفخر عليه فيقول:
أنا أحقّ بها منك هي أختي وأنا أكبر منك، وأنا وصيّ والدي، فلمّا قرّبا،

قَرَّب هابيل جذعة سمينة، وقَرَّب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلية عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركزت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتَّى لا تنكح أختي، فقال هابيل: «إنَّما يتقبَّل الله من المتّقين. لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليّ لأقتلك»، إلى قوله: «فطوّعت له نفسه قتل أخيه»، فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأثاء يوما من الأيام وهو يرعى غنمه في جبل وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه، فمات وتركه بالعراء، لا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرايين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه قال: «يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي»، فهو قوله عزّ وجلّ: «فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه». فرجع آدم فوجد ابنه قد قتل أخاه، فذلك حين يقول الله عزّ وجلّ: «إنّا عرضنا الأمانة على السّموات والأرض والجبال». إلى آخر الآية. «إنّه كان ظلوما جهولا». يعني قابيل حين حمل أمانة آدم، ثم لم يحفظ له أهله.

وحَدَّثه ابن حميد، قال: حَدَّثنا سلمة، قال: حَدَّثنا محمّد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأوّل، أنّ آدم عليه السّلام كان يغشى حواء في الجنّة قبل أن تصيب الخطيئة، فحملت له بقين بن آدم وتوءمته، فلم تجد عليهما وحما ولا وصبا، ولم تجد عليهما طلقا حين ولدتهما، ولم ترمعهما دما لطهر الجنّة، فلما أكلا من الشجرة وأصابا المعصية، وهبطا إلى الأرض واطمأنّا تغشّاهما، فحملت بهابيل وتوءمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب، ووجدت حين ولدتهما الطلق ورأت معهما الدّم، وكانت حواء. فيما يذكرون. لا تحمل إلّا توأما ذكرا وأنثى، فولدت حواء لآدم أربعين ولدا لصلبه من ذكر وأنثى في عشرين بطنا، وكان الرّجل منهم أيّ أخواته شاء تزوّج إلّا توءمته التي تولد معه، فإنّها لا تحلّ له، وذلك أنّه لم يكن نساء يومئذ إلّا أخواتهم وأمّه حواء. حَدَّثه ابن حميد، قال: حَدَّثنا سلمة، عن محمّد بن إسحاق، عن

بعض أهل العلم بالكتاب الأوّل أنّ آدم أمر ابنه قينا أن ينكح توءمته هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته توءمته قينا، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى ذلك قين وكره تكرّما عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنّة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحقّ بأختي. ويقول بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأوّل: بل كانت أخت قين من أحسن النّاس، فضنّ بها عن أخيه، وأرادها لنفسه. والله أعلم أيّ ذلك كان. فقال له أبوه: يا بنيّ لا تحلّ لك، فأبى قين أن يقبل ذلك من قول أبيه، فقال له أبوه: يا بنيّ، فقرب قربانا، ويقرب أخوك هابيل قربانا، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحقّ بها، وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية. فقرب قين قمحا، وقرب هابيل أبكارا من أبكار غنمه. وبعضهم يقول: قرب بقرة. فأرسل الله جلّ وعزّانا بيضاء، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قين. وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله الله عزّ وجلّ: فلمّا قبل الله قربان هابيل. وكان في ذلك القضاء له بأخت قين. غضب قين، وغلب عليه الكبر واستحوذ عليه الشّيطان، فاتّبع أخاه هابيل، وهو في ماشيته فقتله. فهما اللّذان قصّ الله خبرهما في القرآن على محمّد صلى الله عليه وسلّم؛ فقال: «واتل عليهم» يعني أهل الكتاب «نبا ابني آدم بالحقّ اذ قرّبا قربانا فتقبّل من أحدهما» إلى آخر القصّة، قال: فلمّا قتله سقط في يديه ولم يدركيف يواريه، وذلك أنّه كان. فيما يزعمون. أوّل قتيل من بني آدم: «فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوء أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوء أخي». إلى قوله: «ثمّ إنّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون».

قال: ويزعم أهل التّوراة أنّ قينا حين قتل أخاه هابيل، قال الله له: أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيبا، فقال الله له: إنّ صوت دم أخيك ليناديني من الأرض! الآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها، فتعلّقت يد أخيك من يدك، فإذا أنت عملت في الأرض، فإنّها لا تعود تعطيك حرثها حتّى تكون فزعا تائها في الأرض، فقال قين:

عظمت خطيئتي من أن تغفرها، قد أخرجتني اليوم عن وجه الأرض
[وأتوارى] من قدامك، وأكون فزعا تائها في الأرض، وكلّ من لقيني؛
قتلني. فقال الله عزّ وجلّ: ليس ذلك كذلك؛ فلا يكون كلّ من قتل قتيلا
يجزى بواحد سبعة، ولكن من قتل قينا يجزى سبعة، وجعل الله في قين
آية لنلّا يقتله كلّ من وجده، وخرج قين من قدام الله عزّ وجلّ من شرقي
عدن الجنّة.

وحدّثه الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام، قال:
أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، قال: لمّا قتل قابيل أخاه
هابيل أخذ بيد أخته ثمّ هبط بها من جبل بوذ إلى الحضيض، فقال آدم
لقابيل: اذهب فلا تزال مرعوبا لا تأمن من تراه، فكان لا يمرّ أحد من
ولده إلّا رماه، فأقبل ابن لقابيل أعمى، ومعه ابن له، فقال للأعمى ابنه:
هذا أبوك قابيل، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله، فقال ابن الأعمى:
قتلت يا أبتاه أباك، فرفع الأعمى يده، فلطم ابنه فمات ابنه، فقال
الأعمى: ويل لي! قتلت أبي برميتي، وقتلت ابني بلطمتي!

وذكر في التّوراة أنّ هابيل قتل وله عشرون سنة، وأنّ قابيل كان له
يوم قتله خمسة وعشرون سنة.

وذكر أنّ قابيل لمّا قتل أخاه هابيل بكاه آدم عليه السّلام فقال. فيما
حدّثه ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي
إسحاق الهمداني، قال: قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: لمّا قتل
ابن آدم أخاه بكاه آدم، فقال:

تغيّرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغيّر كلّ ذي طعم ولون ... وقلّ بشاشة الوجه المليح

قال: فأجيب آدم عليه السّلام:

أبا هابيل قد قتلّا جميعا ... وصار الحيّ كالميت الذّبيح

وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

وقتل قابيل أخاه.

قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

قتل بشرا من لحم وشحم ودم.

وقتل... الأوراق.

وجاء الغرابان الأخوان، فاقتتلا أمامه، حتى إذا ما قتل أحدهما

الأخر وراه التراب، كي يهديه بفعله كيف يدفن أخاه!

وجاء غرابان أسحمان أسودان، فاقتتلا أيضا أمامي، ليرياني كيف

أفعل بالأوراق. فهل هما نفس الغرابين الأخوين اللذين جاء قابيل

بعد قتله أخاه هابيل، وقد حفظهما الله عنده، مدخرا إياهما لمثل

هذه اللحظة؟ أم هما غرابان آخران جاء من نفسيهما، ليحاكيا ذينك

الغرابين؟ فليربما يمتان إليهما بسبب متين، أو سمعا عن قصتهما من

شيخ الغرابان، فآثرا أن يعيدا ذلك الدور القديم أمامي.

ولجت أرض المقبرة من باب سورها، وأنا أحمل المظروف تحت

إبطي، وتقدّمت إلى فسحة بين قبر والدي وما كنت أظنّه قبر جدّي،

فحفرت حفرة عميقة، طمرتها فيها. ووقفت كالسّاهم، وقد بدأت ذكرى

الأنسة «ث» تزلزل كياني من جديد، فشعرت بموجة داهمة من تبكيت

الضمير. قلت في نفسي بعد تفكير: «لا أقلّ من أن أودّع هذه الذكرى بما

يليق!»

استقبلت القبلة.

صلّيت صلاة الجنازة.

وقرأت سورة «يس».

وقرأت سورة «الملك».

وختمت بالدعاء، وسورة «الفاتحة»، والصلّاة على النّبيّ.

ثم خرجت.

وانطلقت إلى الحيّ، وقد بدأ الفجر يتسلّل على وجل، وخيوطه البيضاء الأخاذة تنبّث في أطراف الغبش الليليّ، فيعطي انطبعا بالسكرينة الشاملة وطمأنينة ما لها حدود، كما لو كنت تتأمل طرحة شديدة السواد وقد انسدت على وجه أمة حسناء، وتخلّلتها ثقوب ضئيلة، يشعّ منها رواء بشرتها الحليبيّة الضّائعة بدفء الحياة. وكانت عيناى تتعلّقان، من حين لآخر، بصفحة السّماء التي كان لونها يتغيّر بالتدرّج من دكنة ثقيلة كامدة، إلى بياض سراييّ شفيف، تعروه زرقاة خفيفة. واختفت النّجوم كلّها، متعثّرة بإرهاق ليلة بأكملها، يتنازعها جثوم السّهر وثقل السّهاد المؤرّق، الطّويل. ولم يبق إلّا بعض منها، كانت غارقة في تهويمات شاردة، تسبق عادة لحظات النّزع والاحتضار، قبيل حلول الموت المفاجئ، النهائيّ.

كنت أسير متمهّلاً، في غير عجلة، فلم يكن هناك ما ينتظرني من مشاغل الحياة، بعد أن تخفّفت من القلق الذي حلّ بي على إثر زيارة جدّي في تلك اللّيلة البعيدة، وشهود الجنّازة، واختفاء «صاحبي» غير المنتظر، وتخلّصي من الأوراق! وقد أضمرت، وأنا في طريقي إلى الدّار، أن أتمدّد على السّرير حال وصولي، لأنعم بساعات طويلة من النّوم الدّافئ العميق.

مشيت أكثر من المعتاد لبلوغ الحيّ، إذ كانت تكفي ربع ساعة، على أقصى تقدير، حتّى أجد نفسي أجتاز رأس الرّقاق إلى باب دارنا. وها أنذا الآن قد نال مّنيّ التّعب والإجهاد، وأشرقّت الشّمس كبيرة، ساحرة، مشعّة، ومازلت لم أصل بعد، كأني بين ثنايا مّتاه، بلا حدود ولا معالم.

وفجأة، وحينما ألقيت بصري وراء خطّ الأفق، لاحت لعيّني بدايات

عمران، وقد أنكرتها لأوّل وهلة، وبدت لي غريبة في هيئتها وشكلها، وكأنّما لا تنتمي إلى هذا العصر، وإنّما هي آثار من دابر، ضارب في القدم، موغل في النسيان. كلاً، لم تكن تلك بدايات الحيّ التي اعتادتها عيناى صغيراً، ويافعا، وشاباً، ولا هي المعالم التي انطبعت مبكراً في ذاكرتي إلى حدّ أنّي غدوت أستحضر كلّ صورها بأدقّ تفاصيلها حتّى من قبل أن أراها. فماذا حدث، يا ترى؟ وهل يمكن لكلّ شيء أن ينقلب رأساً على عقب في غضون هذه الفترة القصيرة التي قضيتها خارج الدّار؟ ولكن مهلاً! هل هي فترة قصيرة حقاً، أم تراني أكون واهماً؟ فكم لبثت، يا ترى؟ يوم... يومان... ثلاثة... مائة! ولكن، لا. لا يمكن. مهما كانت الشّقة بعيدة. أن تختلط العوالم إلى هذه الدّرجة، فيختفي عالم ليحلّ محلّه آخر، سيّما إذا كان هذا العالم الآخر طاويا في مهاوي القدم. ألا، فما أسخف هذه المصادفات!! أريدني «صاحبي» الذي دبر على الرّحيل إلى عصر بالغ التّعقيد، وأرفض، فأجد نفسي ضارباً في سفوح التّاريخ!!

أفقت من أثر الصّدمة في قلب العالم الجديد. يا للهول! أنائم أنا أم يقظان؟ أفي حلم أنا أم في يقظة؟ قرصت خديّ، ثمّ ضربته ضربات خفيفة بباطن كفّي، وأغمضت عينيّ، ثمّ فتحتهما بعنف وشدّة. ودرت حول نفسي، أتأمّل الأشياء من حولي مشدوها، مأخوذاً بما أرى. إذن، فأنا لا أحلم، وهذا الذي أراه أمامي حقيقة واقعة، لا مرأى فيها.

هذه بلاد اليونان!

بلاد الفلاسفة والسّفسطائيّين.

بلاد سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس.

بلاد الأدباء والمؤرّخين.

بلاد العلم.

آه، يا إلهي! هل يكون هذا معقولاً؟ أرثدّ إلى القرن الخامس قبل المسيح، فأنيّ عقل بشريّ يستطيع أن يصدّق ذلك؟ وهل سيصدّقني

القوم فيما إذا لوقدّر لي أن أرجع فأحكي لهم حكايتي، هذه الغربية!!؟

نظرت متعجّبا. فبدأ لي أنّي أعرف هذه المدينة. صحيح أنّي لم أراها من قبل، ولكنّي قرأت عنها الشّيء الكثير من أحد الكتب التي ابتعتها في بغداد إبّان حلولي بها تابعا لذلك الرّجل من أهل بيتنا. وصفيّا للأمير.

هذه «أتكا»، دون ريب. وهي مدينة عظيمة، كما أراها الآن أمامي، تفوق سائر بلاد اليونان في كثرة ما أقيم بها من أبنية، وفي حسن هذه الأبنية، بطرازها الدّوريّ الذي اكتسب الكثير من الرّشاقة والانسجام الأيونيين، وقد أضيف إلى خطوطها اللّون، وإلى تناسيها تحلية وبهرج... رأيت، وأنا أنتقل بين أرجائها، معبد «البسيدون» على رأس شديد الخطر عند «سنيوم»، وهيكل «دجبر» الرّحب العظيم، وقد زانته الأعمدة والعقود الصّقيلة الجميلة. وشدّ انتباهي بناء المجلس الجديد الذي شيّده الأثينيّون بعد معركة «سلاميس»، ودار البلدية، والمنازل الفخمة، وهي تزدهي بشرفاتها وحدائقها الرّائعة، على جانبي شارع واسع نظيف، وأروقة جديدة ذات أعمدة... وأسوار حديثة... وأرصعة ومخازن. وقد خطر ببالي، وسط انهاري بشكل المدينة التي لم يكن حيننا أمامها سوى كوخ خرب، «هبودامس» الملطيّ، أشهر من خطّطوا المدائن في الزّمن القديم، وهو الذي وضع فرضة جديدة مكان «بيرية»، ووضع أساس مدينة «أتكا» على طراز جديد، فقد استبدل بالحواضر القديمة وبالأزقة الملتوية التي كانت تشقّ المدينة على غير نظام شوارع واسعة مستقيمة تتقاطع متعامدة.

وفي مخطوط نادر، أهدانيه ذلك الأمير البغداديّ، حينما علم بشدّة ولعي بأخبار القدامى، وأثارهم، وكيفيةّ تحصيل معاشهم، والاستعداد لآخرتهم ومعادهم، قرأت نبذة لا بأس من إيرادها:

«وشاد فنانون مجهولون على ربوة تبعد عن الأكربوليس بميل

واحد ذلك البارثنون الأصغر المعروف بالسيوم أو هيكل ثسيوس. وملاً المثالون قواصر البناء ووجهاته بالنقوش المحفورة. وأنشأوا له إفريزا فوق الأعمدة الداخليّة القائمة على جانبيه. وطلى الرّسامون (الكرانيش) والحزوز، والواجهات والإفريز، كما طلّوا بالألوان الرّاهية الجدران من الدّاخل الّتي لا يدخل إليها إلّا قليل من الضّوء ينفذ في المرتعات الرّخاميّة.

وكان خير ما قام به البناؤون في عصر بركليز هو الأكربوليس، الحاضرة القديمة لحكومة المدينة ودينها؛ وقد بدأ ثمستكليز تجديده، فاختطّ هيكلًا طولُه مائة قدم سمّي لهذا السبب «ذا المائة قدم». فلمّا سقط ثمستكليز وقف العمل في بنائه لمعارضة الحزب الأَلجركي في ذلك، بحجة أنّه إذا أُريد إقامة بيت للإلهة أثينة لا يكون شؤمًا على المدينة وجب أن يقام هذا البيت في موضع الهيكل القديم هيكل أثينة يوليّاس (أثينة المدينة) الّذي دُمّرهُ الفرس. لكنّ بركليز، الّذي لم يكن من طبعه أن يعنى بهذه الأوهام، رأى أن يقيم البارثنون في موضع الهكتميدون وسار في العمل وفقًا لهذه الخطّة رغم احتجاج الكهنة. وشاد فنّانوه على منحدر تلّ الأكربوليس الجنوبيّ الغربيّ بهوا للموسيقى يمتاز عن جميع أمهات أثينة بقببته المخروطيّة الشكل. وقد أتاح هذا البناء لهجائيّ بركليز المستمسكين بالقديم فرصة اغتنموها فأخذوا من ذلك الحين يسمّون رأس بركليز المخروطيّ «أودينة أي بهو غنائه» وأقيم معظم الأوديوم من الخشب فلم يلبث إلّا قليلًا حتّى عدا عليه الدّهر. وكانت تقام فيه الحفلات الموسيقيّة، ويتدرّب فيه الممثلون على تمثيل مسرحيّات ديونيسس. وتجرى فيه كلّ عام المباريات الّتي أنشأها بركليز في الموسيقى الصّوتيّة والوترية. وكثيرا ما كان السّياسيّ الّذي نبغ في كثير من الأعمال يقوم بالحكم في هذه المباريات.

وكان الطّريق الموصل إلى قمّة التّل في الأيّام القديمة ملتويًا متدرّجًا، على جانبيه تماثيل وقرايين الشّكر للإلهة. وكان بالقرب من قمّة التّل

مجموعة من الدّرج الرّخاميّة العريضة الفخمة تستند إلى بروج على كلا الجانبين. وشاد كلكراتيز فوق البرج الجنوبيّ أنموذجا مصغّر الهيكل أيونيّا لأثينة في صورة نيكى إيتروس أو النّصر غير ذي الجناح. وكانت نقوش جميلة (...) تزين الحاجز ذا العمدة الصّغيرة هي وطائفة من التّمائيل تمثّل النّصر المجنّح وتحمل لأثينة الغنائم الّتي جاءت بها من أماكن قصيّة. وقد صنعت هذه التّمائيل على صورة أجمل تماثيل فدياس. وهي أقلّ قوّة وعنفا من تماثيل الإلهيّات الضّخمة الّتي في البارثنون، ولكنّها أكثر منها رشاقة في حركتها وأرقّ منها وأقرب إلى الطّبيعة في شكل ملابسها؛ وتمثال النّصر الّذي يربط خفيه خليق باسمه لأنّه نصر حقّ للفنّ اليونانيّ.

وأقام سنكليز في أعلى سلك الأكربوليس مدخلا ذا خمس فتحات أمام كلّ واحدة منها رواق ذو عمدة دوريّة من طراز الأبواب الميسينيّة، ولكنّها أكثر منها إحكاما. ومن هذه العمدة أخذ الاسم الّذي أطلق على البناء كلّهُ فيما بعد وهو اليروليا أي ما أمام الأبواب. وكان لكلّ رواق إفريز ذو واجهة محزّزة، من فوقه قوصرة. كان في داخل الممشى طائفة من العمدة الأيونيّة لم يتحرّج من شادوها أن يضعوها داخل هذا المحيط الدّوريّ. وزين داخل الجناح الشماليّ برسوم من صنع بولجنوش وغيره من الفنّانين، ووضعت فيه لوحات نذور من الأجر أو الرّخام؛ ومن أجل ذلك سمّيت اليناكتكا أي بهو الرّخام. وبقي جناح صغير في الجهة الجنوبيّة ناقصا، فقد تعطلّ العمل فيه بسبب الحرب أو بسبب الانتقاض على بركليز. فترك مدخل البارثنون مجموعة مشوّهة من القطع الصّغيرة المتفرقة الجميلة.

وكان إلى يسار الدّاخل من هذه الأبواب مزار الأركثيوم ذو الطّراز الشّرقيّ العجيب. وهذا أيضا قد أدركته الحرب فلم يتمّ أكثر من نصفه حين وقعت أثينة في مخالب الفوضى والفاقة على إثر نكبة إيجسيتماي. وقد بدئ العمل فيه بعد موت بركليز بإيعاز المحافظين الّذين كانوا

يخشون أن يعاقب البطلان القديمان أركثيوس وسكريس هما وأئينة ساكنة الضريح القديم، والأفاعي المقدسة التي كانت تأوي إلى هذا المكان، نقول كانوا يخشون أن تعاقب هذه كلها مدينة أثينة لأنها شادت البارثنون في مكان غير مكانه الأول. وكانت الأغراض المختلفة التي شيّد من أجلها البناء هي التي عيّنت شكله، وقضت على وحدته. فقد خصّص أحد أجنحته لأئينة يوليّاس (أثينة المدينة)، ووضعت فيها صورتها القديمة، وخصّص جناح آخر لأركثيوس وبسيدون، ولم يكن يحيط بالمحراب أو جسم المعبد رواق بين أعمدة يضمّ أجزاءه المتفرقة، بل كان يستند إلى ثلاثة أروقة متفرقة. وكان المدخلان الشمالي والشرقي تسندهما أعمدة أيونية رفيعة لا تفوقها في جمالها أية عمدة أخرى من نوعها. وكان المدخل الشمالي بابا كامل البناء مزينا بأزهار محفورة في الرخام. ووضع في المحراب تمثال أثينة الخشبي البدائي الذي هبط، في اعتقاد الصالحين، من السماء. وهناك أيضا كان المصباح العظيم الذي لا تنطفئ ناره أبدا، والذي صاغه كلمكس، سلميّي زمانه، من الذهب المصفرّ وزينه بأوراق الأكتثوس كتيجان الأعمدة الكورنثية. وكان المدخل الجنوبي هو باب العذارى أو الكريتيدات الدائع الصيت. وأكبر الظنّ أنّ تلك النساء الصابرات كنّ من نسل حاملات السلال الشرقيّات. وفي تراليس من أعمال أسية الصغرى عمود قديم في صورة امرأة لا يترك مجالا للشكّ في أنّ هذا الطراز من العمدة شرقيّ الأصل، وأكبر الظنّ أنّه بابليّ. والثياب التي تغطّي أجسام العذارى فاخرة، وبدلّ انحناء الركبة على أنّهنّ مستريحات في وقفتهنّ، ولكنّ أولئك الفتيات أنفسهنّ لا يشعرن الإنسان بأنّ فيهنّ من القوة ما يعينهنّ على حمل ذلك البناء، كما الانسان حين ينظر إلى أجمل أنواع الأبنية. لقد كان هذا انحرافا في الذوق أكبر ظننّا أن فدياس لم يكن يجيزه قط..»

... أصبحت الشمس بطول قامة الرجل في سماء صافية زرقاء، لا سحب فيها، وقد أخذت حرارتها تعنف وتشتدّ، وترسل سياطا لاهبة

كأنّهما أوار النّار إذا علا ضرامهما، انحزّت إلى ظلّ شجرة وارفة على حافة الطّريق، وجلست، وأنا أمسح بكُمّي عرق جبيني، وأقلّب طرفي في رفيف المنازل القائمة على الطّرف الآخر من الشّارع، وهي تشمخ بطوابقها الأنيقة، وتكاد تبلغ هام السّماء. وبينما أنا كذلك، إذا برجل يتقدّم نحوي، حاملا في يده اليمنى شمعة، وممسكا في يسراه كتابا. وقد شغلّني دهشتي من حملهِ الشّمعة في واضحة النّهار عن التّدقيق في ملامحه الّتي كانت تبدو هي الأخرى غاية في الغرابة... ثمّ ثبت إلى نفسي، فوجدته يقف قبالي، بوجهه الّذي تكاد تنطّ منه عينان جاحظتان، وأنف يميل إلى الكبر، وحنكان مرتحيان، ورأس تتوسّطه صلعة حمراء كبيرة، واسترسل شعر طويل على طرفيه، الأيمن والأيسر، وعلى قذاله حتّى كاد يبلغ منتصف ظهره. وهو يرتدي جبّة بيضاء طويلة، قصيرة الأكمام، منمنمة الحواف، وشالا عريضا أشبه بالعمامة قد استرسل هو الآخر من كتفه الأيسر، متعامدا مع صدره، ومنتهيا بثنية في مستوى مرفقه الأيمن. ويلبس في رجليه نعالا من الجلد، مشدودة بسيور ملفوفة حول ساقيه.

سألني بلغة إغريقية قحّة، لم أستغريها لإمامي بالكثير من أسرارها، وعيناه معلّقتان برأس الشّجرة:
ألم تجدّها؟

ذهب في ظلّي على الفور أنّي في مواجهة رجل مجنون، رغم وقاره، وكان ذلك الوقار هو ما دفعني إلى عدم مواجهته بما خمنته، فاكثفت بدوري بسؤاله:
أجدّ ماذا؟

قال:

عجبا، حسبت أنّك وجدتها؟

سألته مرّة أخرى دهشاً، وأنا أكاد أنهض من مكاني لوقع المفاجأة:
وهل تعرفني؟

هو مبتسماً، ودون أن يحوّل عينيه عن قمّة الشجرة:
بلى، فهيئتك تدلّ عليك وتشي بك.

وبنبرة معولة سألته من جديد:
ولكن كيف تعرفني ونحن لم نلتق إلا هذه السّاعة؟

فقال بلهجة العارف الواصل ممّا يقول:
هكذا يخيّل إليك. أمّا أنا فأعرفك حقّ المعرفة، ولذلك لم أستغرب
قدومك، رغم أنّ كلّ شيء فيك يوحي بالغرابة، ابتداءً من ملابسك
المضحكة، وملامحك المدغمة الغامضة، وحلوك المفاجئ. لقد كنت في
انتظارك، كما قضيت عمري في انتظار آخرين غيرك، كانوا يجيئون كلّهم
من أزمنة بعيدة جدّاً للبحث عنها.

أنا وقد بدأت أحسّ مشاعر متضاربة، هي مزيج من الدهشة
والإشفاق والحيرة:
عمّ يبحث هؤلاء النّاس الذين قضيت عمرك في انتظارهم؟

قال:
إنّهم يبحثون عن الحقيقة... يبحثون عن الخلود.

قلت سائلاً:
وهل هذه الحقيقة لا يجوز البحث عنها إلّا في هذا العصر؟

قال:

.أجل. إنّ الحقيقة هنا، وستموت هنا.

سألت:

.وهل وجدتها أنت؟

قال:

.ليس بعد. إنّ حكومة أثينا تفرض ضرائب باهضة جدّاً على محاولة البحث، ولكن ما يهوّن عليّ أنّ هذه الحقيقة موجودة، وسأجدها يوماً ما، فإذا لم أجدها، فلا شك أنّ الأجيال التي ستجيء بعدنا ستعثر عليها حتماً.

وما كاد يتمّ كلامه حتّى علت ضجّة في نهاية الشارع، ارتجّت لها أركان المكان. فانتفضت كديك مبلول، واستوفزت قائماً وأنا أنظر ناحية الجهة التي جاء منها الصوت.

سمعت الرّجل بجاني يقول بصوت خفيض، لكنّه هادئ:
.لقد جاءوا. هيّا اهرب!

التفتّ نحوه، فالتقت نظراتنا لأوّل مرّة، وسألته:
من هم؟

.إنّهم الجنود جاءوا ليقبضوا عليّ.

قلت:

.هيّا نهرب معاً.

ولكنّه أوماً برأسه دلالة النّفي، وهو يقول:
لا فائدة، يا ولدي. إنهم، بلا شكّ، واجدونى فقابضون عليّ فمعدمي.
لقد صدر حكم الإعدام في حقّي ولا مفرّ.
سألته مشفقاً:
ولكن لماذا؟ ماذا فعلت حتّى تستحقّ حكم الإعدام؟

قال بنفس نبرته الهادئة، دون أن يبدو عليه الجزع:
يقولون إنّي أفسد أخلاق النّاس.

وهنا، تبادر إلى ذهني ما كنت قرأته عن بعض الفلاسفة اليونان،
وذكرت هذه الحكاية، فابتدريته قائلاً:
وهل أنت سقراط؟

فأجاب بتأكيد:
أجل، أنا سقراط.

وبعد قليل:
هيا اهرب؛ لقد اقترب الجنود.

والتفت ورائي، وأنا أطلق ساقّي للريح، لائذا بالفرار، فرأيت شرذمة
من الجنود المدجّجين بالسّلاح، المتمنطقين بالسّيوف، يحيطون به،
وهم يصبّون عليه اللّعنات والشّتائم، فلم أتمالك نفسي عن إرسال
دمعة سخينة، وقلت حينما بلغت مأمني:
رحم الله سقراط فقد كان أكبر من جلّاديه.
وكان ذلك آخر عهدي به.

ووجدت نفسي أستدير إلى أوّل عطفة في الشّارع الّذي جاء منه

أولئك الجنود، فسرت في أوصالي رعدة ما أن تناهت أصواتهم إليّ، وهي تصلني الآن كأنها رجع الصدى، أت من الأفاصي البعيدة، وتخيلت في جزء من الثانية، مدى الخطر الذي يمكن أن يحدث بي فيما إذا لوعثروا عليّ، فإنهم سيزجون بي حتما أمامهم، أسيرا، مغلوبا على إرادته، وإذا لم يكن السّجن مصيره ومأواه، إلى ما شاء الله من السنين، فسيضيق على رقبتة حبل المشنقة دون رحمة. هذا سقراط، فيلسوفهم، وحامل راية مجد أثينا، لم يتورّعوا عن فعل ما فعلوه به، وهم إلى ذلك جادون في محو آثاره من على وجه الأرض. فكيف بي أنا؟ أنا القميء، المتطفّل، خامل الذّكر، إذا لم أكن عديمه، في عالم مازلت لا أعلم عنه شيئا، اللهم إلا ما قرأته عنه، وليس الخبر كالعيان!!

جريت في أوّل الأمر بدافع الخوف، ثم زدت من سرعتي حبّا في النّجاة، وقد جريت حتّى كاد ينقطع نفسي، ولم أعد أحسّ بالألم في ساقي، وقد ذاب كلّيا في شعوري الهائل بالخوف والرّعب، ولم أحاول في أثناء ذلك أن ألتفت ورائي، فقد كان تفكيري كلّه منحصرًا في الابتعاد عن المكان بأقصى سرعة ممكنة. وكنت أخشى أنّ مجرد الالتفات إلى الوراء سيضيق عليّ لحظات ثمينة نحو الخلاص، وبالتالي سيسهل على الجنود إمكانيّة القبض عليّ، فيما إذا لو حاولوا ذلك... في وقت ما، بلغ مّي الإعياء كلّ مبلغ، وأحسست أنّه لم يعد بإمكانني الجري على نفس الوتيرة، فتوقّفت، وحنيت جذعي لإرادتي، وأنا أستند بكفّي على ركبتيّ، ولهات متواصل، كفحيح الأفعى، ينبعث من حلقي قويا متواصلا، دون أن أستطيع السيطرة على تدفّقه. وبدأت أشعر بقليل من الرّاحة يعاودني، وبشيء من الطّمانينة السّابقة يثوب إليّ، فرفعت رأسي، ونظرت خلفي، فإذا المدينة قد اختفت، وامّحت ملامحها وراء سديم ضبابيّ، فانتعشت، ومددت رأسي إلى الأمام مستطلعا، فلم يبد لعيني، في البداية، سوى رحابة المدى، التي لا يحدها سوى خطّ الأفق،

الَّذِي يَتَمَسَّ بِدَوْرِهِ، فِي نَقْطَةِ مَعْيَنَةٍ، مَعَ ذَوَابَاتِ السَّمَاءِ... وَأَطْلَتِ
النَّظَرُ، وَقَدْ بَدَأَ يَزَايِلُ بِصَرِي كَلَالِهِ شَيْئًا فَشِيئًا، وَفَجْأَةً رَأَيْتُ كَمْثَلَ
الْبِنَاءِ، يَرْتَفِعُ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ ذَلِكَ الْمَدَى، فَفَرَكْتُ عَيْنِي غَيْرَ مُصَدِّقٍ، ثُمَّ
أَعَدْتُ فَتْحَهُمَا، خَشْيَةً أَنْ يَكُونَ قَدْ لَعِبَ بِي الْإِجْهَادُ، فَجَعَلَنِي أَغْرَقَ فِي
مَوْجَةٍ شَفِيفَةٍ مِنْ أَحْلَامِ الْيَقِظَةِ. لَكِنْ لَا، لَيْسَ مَا أَرَاهُ الْآنَ أُمَامِي حَلْمًا،
وَإِنَّمَا حَقِيقَةٌ بَلَا مَرَاءٍ... بِنَاءٌ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ هَذَا الْمَدَى الْمُتْرَامِي... وَحَثَّتْ
الْخَطَى، مَدْفُوعًا بِرَغْبَةٍ طَارِئَةٍ فِي الْاسْتِنْسَانِ، وَوَسَّعَتْ مِنْ خَطْوِي، وَأَنَا
أَكَادُ أَجْرِي فَرَحًا، وَبَعْدَ لَأَيٍّ، بَلَغْتَ الْبِنَاءَ، وَلَكُمْ كَانَتْ دَهْشَتِي عَارِمَةً،
مَمْرُوجَةً بِبَهْجَةٍ تَكَادُ تَفِيضُ عَلَى أَرْكَانِ نَفْسِي حِينَ وَجَدْتَنِي أُمَامَ دَارِنَا!
أَجَلْ، إِنَّهَا دَارِنَا، لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَلَكِنْ، مَا الَّذِي جَاءَ
بِهَا إِلَى هَذَا الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ؟ هَلْ هُوَ جَنِّي الْخَاتَمُ أَوْ خَادِمُ الْمَصْبَاحِ؟ وَأَيْنَ
الزَّفَاقُ؟ وَالشَّارِعُ وَالِدَوْرُ الْقَائِمَةُ عَلَى طَرَفِيهِ فِي حِينِنَا بِالْكُوفَةِ؟ وَمَحَتْ
هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ الَّتِي كُنْتُ أَحْسَنَ بِهَا تَغْلِي كَالْبِرْكَانِ فِي رَأْسِي بِبَهْجَتِي كُلِّهَا،
كَمَا تَمْحُو مِيَاهُ الْبَحْرِ أَثَارَ كِتَابَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ الدَّهْشَةُ
مَمْسُكَةً بِتَلَابِيْبٍ وَعِي.

وَدَفَعْتُ الْبَابَ الْكَبِيرَ، فَانْفَتَحَ دُونَ كَبِيرِ عَنَاءٍ، وَمَدَدَتْ عُنْقِي إِلَى
الدَّخْلِ قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ تَحَسُّبًا مِنْ ضَرْبَةٍ مَفَاجِئَةٍ أَوْ كَمِينَ مَتْرَصِدٍّ،
فَلَمَّا لَمْ يَطَالِعْنِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، دَخَلْتُ، وَتَوَقَّفْتُ قَلِيلًا عِنْدَ الْعَتَبَةِ، ثُمَّ
تَقَدَّمْتُ، فَسَمِعْتُ الْبَابَ يَنْزُورَانِي، ثُمَّ يَنْغَلِقُ تَلْقَائِيًا، مِنْ نَفْسِهِ. أَوَّلَ مَا
طَالَعْنِي مِنْ مَعَالِمِ الدَّارِ تِلْكَ الْبُئْرِ الْعَتِيقَةِ، جَائِمَةً، صَامِتَةً، كَعَمَلِاقٍ
مَتَرَبِّعٍ، وَقَدْ ذَكَرْتُ، وَأَنَا أَشْرَبْتُ نَحْوَهَا بِافْتِتَانٍ مَشُوبٍ بِتَوَجُّسٍ، الْأَوْرَاقِ
الَّتِي انْتَزَعَتْهَا مِنْ أَحْشَائِهَا، وَطَفَرْتُ فِي مَخِيلَتِي صُورَةَ جَدِّي، فَلَمْ أَتِمَّالِكْ
أَنْ تَسَاءَلْتُ حِينَ شَاءَتْ مَصَادِفَاتُ الذِّكْرِ أَنْ تَقْرَنَ، فِي نَفْسِ الْوَقْتِ،
وَمَرَّةً أُخْرَى، صُورَةَ جَدِّي وَرِزْمَةِ الْأَوْرَاقِ، نَفْسَ السَّوَالِ الْقَدِيمِ: هَلْ
يَكُونُ جَدِّي هُوَ مَنْ كَتَبَ تِلْكَ الْأَوْرَاقَ حَقًّا؟... وَتَرَامْتُ إِلَيَّ، أَوْ هَكَذَا تَخِيلْتُ
أَصْوَاتَ صَغِيرَةٍ، هَامِسَةٍ، مُنْقَطِعَةٍ، مَقْتَضِبَةٍ، كَأَنَّهَا مَدَاعِبَاتُ نَجْوَى.

من وراء باب حجرتي المغلق، فجمدت في مكاني من أثر الصدمة، وطافت
بذهني تصوّرات غاية في الغرابة، لا رابط بينها، عمّا كنت سمعته في فترة
متقدّمة، أوقرأته في فترة متأخّرة نسبياً، ممّا جعلني أعتقد في عالم آخر
خارج حدود العالم الذي نعيش فيه، مليء بالغيلان، والأرواح والجنّ
والعفاريت والشياطين أيضاً. فقلت في نفسي لعلّ في الحجرة أرواحاً أو
عفاريتاً، وكدت أنقلب على عقبي هارباً، إلّا أنّي تراجعت في آخر لحظة
بدافع الفضول من ناحية، والخوف من الجنود الذين قد يدركوني إذا
خرجت من ناحية أخرى... مشيت ببطء، على أطراف أصابعي، درت
حول البئر، ولبثت برهة واقفاً بجانبها، لا أدري هل أقدم أم أحجم،
ووجدت أخيراً شجاعتي، فاتّجهت صوب الحجرة، محاذراً أن لا أتّي أيّ
حركة قد تشي بوجودي، ولمّا اقتربت منها، بدأت الأصوات التي سمعتها
أوّل مرّة تتّضح أكثر فأكثر. يا إلهي! ما هذا؟! إنّها همسات... هذه الهمسات
التي لا يمكن أن أخطئ معناها! إنّها مناجاة، حبيبة وحبيبة، دون شك...
إنّهما يلهثان... هذا التلّفّف المستكلب الشّبق... ما الذي جاء بهما إلى هنا
يا ترى؟ وهل ضاقت بهما الدّنيا على رحابتهما، فلم يجدا غير غرفتي؟...
ودفعت الباب ببطء شديد، وحولت رأسي، فنظرت من خصاصه إلى
الدّاخل جهة السرير. كان المكان تكتنفه ظلمة مطبقة، لا تمرّقها سوى
ذبالة نور شحيحة كانت تنبعث من شمعة مثبتة في أصل دولاب صغير
بجانب النّافذة المغلقة... ونقلت بصري بسرعة خاطفة إلى السرير،
وضيّقت عينيّ في محاولة للتركيز، فلم أتبيّن غير شيء أسود، كالشّلو،
كان يهتزّ بانتظام، فيرتفع حيناً وينخفض حيناً آخر، في تناغم جميل،
وبقدر ما كان يأتي تلك الحركات في انتظامها وتناغمها، كان يهمس صوت
أنثويّ رقيق، يقطر عذوبة، وهو يقول: «يا حلوي الجميل، اضعطني
أكثر!» وكنت، في موقعي ذاك، أنتظر أن أسمع استجابة، أن يهمس إلّهما
ذلك الشّلوكما همست إليه، وقد أخذت تعتمل داخلي مشاعر شتّى من
الغيرة والاستنفار واللهفة، إلّا أنّه لم تكن تتناهى إلى أذنيّ غير مقاطع
صوتيّة مدغمة، معجمة، غامضة، أشبه بأصوات حيوانيّة... لا يصلني

غير صوتها. صوتها فحسب، وهو يذوب رقّة، في تدرّجه عبر تلك الرحلة
الخطرة إلى بلوغ الذروة المنتشية السعيدة، حتّى ليكاد يشفّ مثل روح
خفيفة هفهافة... وعلى ذبالة النّور، رأيت ذلك الشّلو يرتفع بجسده
عن جسد حبيبته، ويستدير... كانت تلك لحظة خطيرة، مشحونة،
ملينة بشئ الاحتمالات والتّوقعات المدمّرة. فماذا لو تكون تلك الجارية
المنطرحة على ظهرها فوق السّرير ضجيعة حيوان؟... أنشبت عيني...
ضاعفت تركيزي... كان المرمى محدّدا أمامي... السّرير هناك... استدار
حتّى غدا مقابلي تماما... تحقّقه... لا، لم أتحقّقه تماما... أرسلت
بصري... جحظت عينايا... كادتا تنطّان من محجرهما... وتحقّقه...
تحقّقه جيّدا... هل ما أراه الآن أمامي حقيقة يا إلهي؟!!
صرخت، وقد انهارت حصون حذري الّتي شرعت في بنائها مذ وطأت
قدماي عتبة الدّار:
.قرد!

انبعثت صرخة أخرى من الدّاخل على إثر صرختي، وقد سمعتها وأنا
في شبه غيبوبة:
.من؟ من هناك؟

ثمّ نداء آخر:
.دمرياط... دمرىاط... دمرىاط.

وردّ صوت جهوريّ، مجلجل، مدوّ، أعادني إلى رشدي دفعة واحدة:
.لبيك، يا مولاتي.

فسمعت ذلك الصّوت الّذي كان يذوب رقّة منذ قليل، فوق
السّرير، وقد استحال إلى آخر صارم، مشرشر، أشبه بأسنان المنشار

على الخشب:

. انظر من الباب!

وبدأت أكَع. وما شعرت إلا والباب يفتح، ويمرق منه مارد عملاق،
رجلاه الحافيتان الغليظتان، مغروستان في الأرض، ورأسه الكبيرة
الملفوفة في عمامة من اللبد تطاول عنان السماء. فيما عدا ذلك، كان
كل شيء فيه كبيرا أيضا، يوحى بالهول والرَّهبة: أنفه الضخم العظيم
بمنخرية الفسيحين الواسعين، كخصين من القش، وعيناه الحمراوان،
وهما تقدحان شررا، تحت حاجبين كثيفين تهدل شعرهما على جفون
محدودة مرتخية. وأذناه الطويلتان العريضتان اللتان تنتهي كل منهما
بحلقة نحاسية كأنها القرط، ووجهه الجبار المحتقن، وكرشه الضخمة
التي كان شحمها يغطي على الحزام الذي شدَّ به وسطه. وقد كان
جذعه عاريا، يكشف عن صدر قوي وساعدين مفتولين فتيين قويين،
وتغطي نصفه الأسفل سراويل فضفاضة بيضاء اللون، غطس فيها
فخذه المليئان لحما وساقاه المبربتان... أمسكني بإصبعين من ياقة
جلبائي، وحملني إلى داخل الغرفة، ووضعني بجانب السرير، وأنا أكاد
أموت فرقا، وقد حانت مَيَّ التفاتة يسيرة مرتجفة إلى الأمام، فوجدت
الجارية قد انحسر عنها اللحاف، الذي شدته حولها، فبرزت يداها
الطويلتان البضتان، ونصف نهديها، وقد انفرج ما بينهما، عن فضاء
منبسط أشبه بالرحبة بين هضبتين وطبئتين. وارتفعت عيناها، على
وجل، فاصطدما بقلقة فجر، ورأتا من الحسن ألوانا، لم تريا مثله
من قبل... الشعر الذهبي الضارب إلى الحمرة، وقد زاد تشويشه من
فتنة إغرائه، والبشرة البيضاء الشفيفة، والعينان اللتان يغلب عليهما
حور خفيف... والفم . يا إلهي! . لكم سيكون جميلا لو لثمت شفثيه
الرقيقتين السمرأوين!
اختفى القرد فجأة!

سألتني بحدّة:

.من أنت؟

قلت:

.أنا أشرم بن صابئ السّكسي.

هي سائلة، من جديد، وهي تروزني بغضب:
.وكيف جئت إلى هنا؟ هل دسّك أحد علينا؟

قلت صادقاً:

.هذه داري... هذه الحجرة حجرتي.

فبدأ الغضب في عينيها الجميلتين، وقالت حانقة:
.وتجترئ أيضاً على قول هذا، يا ملعون.

ثمّ مخاطبة ذلك العملاق:

.خذه، يا دمرباط، فاصلبه على دعامة البئر، ثمّ قنّعه بالسّيّاط
ثلاثاً، مدّة ثلاثة أيّام عساه يبرأ من هذيانه وجنونه.

فأطبقت عليّ يداه كأنّهما كالأبّتا سلطعون، واخترق بي أرض الغرفة
إلى الفناء في لمح البصر، وقد كنت، بين يديه، أشبه بذلك الشّلوّ الذي
كانت تضاجعه سيّدته. وشدّني وثيقاً إلى دعامة البئر يحبل متين، وأخرج
من حزامه سوطاً ذا ضفيريّتين، راح ينهال به على جسدي في كلّ مكان
منه... كنت أصرخ وأستغيث وأتوسّل إليه أن يكفّ، ولكنّه كان كلّما
ارتفع صوتي بالصّياح، زادت ضربات سوطه ضراوة... شيئاً فشيئاً، بدأ
صوتي يخفت، وبدأت أوصالي يتسرّب إليها الخدر، ثمّ غبت، في النّهاية،
عن الوعي تماماً.

في المساء، من اليوم التّالي، جاء ففعل بي مثل ذلك.

وجاء مساء اليوم الثّالث...

وبينا كان يشرع سوطه، لينهال به عليّ، فرقع صوت غليظ ارتجّت له أركان المكان، فرفعت رأسي المثقل بالألم إلى مصدر الصّوت، فلمحت في الجانب الشرقيّ بساطا طائرا كان يتّجه نحونا، ولما غدا غير بعيد، فرقع ذلك الصّوت ثانية، وهو يقول في أمر: دمرياط، أنزل سوطك، وكفّ عمّا تفعله.

فما كان من ذلك العملاق المخيف إلّا أن صدع بالأمر قائلا، كأنّه على سابق معرفة بصاحب الصّوت:
.أمر مولاي!

وسأله الصّوت:
.من أمرك أن تفعل ذلك؟

فأجاب:
.مولاتي راحيل.

فزجره الصّوت:
.إنّها ليست مولاتك أيّها العبد اللّعين. أنا مولاك!

ثمّ سائلا:
.وأين هي الآن؟

قال:

.في الحجرة هناك، يا مولاي.

وأشار بإصبعه نحوها.

فسأله الصّوت بسخريّة:
.وحدها؟

.لا، يا مولاي.

قال الصّوت سائلا، بنبرة تخفي وراءها معرفة بكلّ ما كان يحدث:

.فمن معها إذن؟

.قردها، يا مولاي.

الصّوت بغضب يمازجه تهكّم:
.فماذا كانا يفعلان؟

.كانا يتفاحشان، يا مولاي.

قال الصّوت مزمجرا بأمر:
.اذهب فامسخهما صنمين، حجرين، جزاء اجترائهما على قداسة
حرمتي.

وغاب ذلك العملاق في الظّلمة... وسمعت وقع خطوات تقترب منّي،
وذلك الصّوت يسألني برفق، وقد تغيّرت لهجته، فأصبحت هاشّة باشّة:

.ألم تعرفني بعد؟

نَبَّهَنِي صَوْتُهُ إِلَى حَقِيقَةِ كَانَتْ غَائِبَةً عَنِّي حَتَّى مَجِيئِهِ، وَهِيَ أَنَّ
الصَّوْتَ الَّذِي كُنْتُ أَسْمَعُهُ. أَيْ صَوْتَهُ. مِنْذُ قَلِيلٍ لَيْسَ غَرِيبًا عَنِّي، وَأَتَمَّهَا
لَيْسَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَسْمَعُهُ فِيهَا. فَأَيْنَ سَمِعْتَهُ؟ وَمَتَى سَمِعْتَهُ؟ وَبِمِثْلِ
لَمَعَ الْبَرْقِ، أَنْارَتْ صُورَةَ جَدِّي أَرْجَاءَ ذَاكِرَتِي، فَصَرَخْتُ، وَهَمَمْتُ بِالْقَاءِ
نَفْسِي عَلَيْهِ، نَاسِيَا الْحَبَالَ الَّتِي تَقَيِّدُنِي، فَتَسَبَّبَ لِي ذَلِكَ فِي إِهَاجَةِ الْأَلَمِ
فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَاتِ جَسَدِي الْمَتْعَبَةِ:
.أَنْتَ جَدِّي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

فَقَالَ بَرَقَةً مَتْنَاهِيَّةً:

.أَجَلْ، أَنَا جَدُّكَ.

أَنَا سَائِلًا، وَالْدَّمُوعُ تَكَادَ تَطْفُرُ مِنْ عَيْنَيَّ:
.فَلِمَاذَا أَنْكَرْتَ حَفُودَتِي آخِرَ مَرَّةٍ؟

.لَأَتْنِي أَرَدْتُ أَنْ أُمْتَحِنَكَ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ:

.أَتَدْرِي لِمَاذَا وَقَعَ لَكَ مَا وَقَعَ؟

قُلْتُ بِاقْتِضَابٍ مُسْتَعْرِبًا:

.لَا.

قَالَ:

.لَأَنَّكَ لَمْ تَصَدِّقْ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي تِلْكَ الْأَوْرَاقِ.

سَأَلْتُ، وَقَدْ أَنْسَتَنِي أَلَامُ التَّعْذِيبِ الْأَوْرَاقِ الَّتِي كُنْتُ اسْتَخْرَجْتُهَا مِنْ
قَعْرِ الْبَيْرِ:

وأية أوراق، يا جدّي؟

قال:

. ما أسرع ما نسيت! الأوراق التي وجدتها في بطن البئر. أنا كتبتها
بخطّ يدي.

وصاح مناديا:

. شهرزاد. يا شهرزاد، تعالي إلى هنا.
فجاءت امرأة من أطراف الدّار لم أتبيّن ملامحها لكثافة الظّلمة من
حولنا.

قال يخاطبها:

. قولي له، يا شهرزاد، من كتب تلك الأوراق.

قالت، وقد انبعث صوتها كالحنين الآتي من أعماق النّفس:
. أنت كتبتها بخطّ يدك، يا سيّدي.

قال:

. وقولي له أيضا: من وضع على لسانك تلك الحكايات الكثيرة التي
جاء حافلا بها مؤلّف «ألف ليلة وليلة».

قالت:

. أنت رويتها لي، يا سيّدي، فأنقذت بها نساء العالمين من غدر الملك
شهریار.

حينئذ، التفت نحوي، وقال كالظّافر:

فهل ذهب شكك الآن؟

قلت متصاعرا:

اللهم نعم.

ثم، وقد أحسست أن الألم بداخلي أصبح لا يطاق:
والقيود، يا جدّي، ألا تفكّها عني، أم أنك تريد أن تمعن في تعذيبي
جزء هفوة أنا أبرأ إليك منها باستغفاري عنها؟

هو ضاحكا:

بل سنفكّها عنك، ونزيد في إكرامك بأن نكافئك بما لو ظلمت عمرك
تفكر فيه، لما طلت منه عشر معشاره.

ثم صاح مناديا:

دمرياط!

فجاء العملاق مليّيا. قال له:

فكّ قيد حفيدنا.

ففكّني.

ثم قال له:

أريد لهذه الدار أن تصير من هذه اللحظة قصرا منيفا، مليئا خدما،
وحشما، وبما لاعين رأت ولا أذن سمعت!

فأجاب العملاق:

لبّيك، يا سيّدي، منك الأمر وعلينا الطّاعة.

وأشار إشارة يسيرة بيده، فإذا الدّار، بالبئر الجاثمة في فنائها، قد
انشالت، وحلّ مكانها قصر عظيم الأركان، متين البنيان، فسيح الأرجاء،
واسع الأفناء، تتوسّطه بركة مرمرية، قد انساب الماء في جنباتها، عذبا
سلسبيلا، واحتلّ صدره إيوان من المخمل، ممّوه بماء الذهب، وفي
أعلاه فصّ ياقوتيّ زنته ثلاثون مثقالا... وتأملت نفسي فألفيتني في حلّة
من القصب، منمنمة حوافها بخيوط ذهبية رائعة، وعلى رأسي تاج
مرصّع بالدرّ والجوهر، وقد اكتنف المكان نور ساطع، مختلفة ألوانه،
ما بين أصفر وبرتقاليّ وبنفسجيّ وأحمر وأزرق، وقلّبت طرفي، فوجدت
إلى جانبي فتاة عشرينيّة، سبحان من سواها، مكحولة الطّرف، دعجاء
العينين، نحيلة الخصر، ثقيلة الأرداف، مبسوطة البطن، في امتلاء
خفيف مغر، وقد استرسل شعرها حتّى كاد يلامس باطن ركبتها، وهي
في مثل ما أنا فيه من الأبهة والجلال وفاخر الثّياب.

قال جدّي، وهو يشير إلّها، باسماء:
هي لك، فاتّخذها، إن شئت، زوجا.

وركب بساطه، وقبل أن يطير به، قال ملوّحا بيده نحونا:
أستودعكما الله.

وشيّعته عيناى حتّى اختفى عن بصري، وأنا أشعر حياله بامتنان
كبير، لتجديد اعترافه بحفودتي، ومنحه إيّاي هذه الجنة المنيفة،
وحورية من حورها!... وأخذت بيد شهرزاد، حبيبتي، وقدمتها إلى صدر
الهبو، فأجلسها بجاني، على الإيوان، وقد عنّت ببالي أسئلة كثيرة،
رمت أن أسألها إيّاها.

سألتها، وأنا أتملّى حسنها الرائق الفتان:

.كيف جئت إلى هذا المكان المقطوع؟

فضحكت ضحكة قصيرة أسرة، وقالت بخبث بريء:
.ولكنّه لم يعد مقطوعاً؟
فاستدركت قائلاً:
.حقاً إنّهُ لم يعد كذلك.

وبعد برهة صمت:
.وكيف عزّ عليك أن تتركي قصر زوجك شهريار، وقد رضي عنك
أخيراً، وحملت منه، وأنجبت له البنين والبنات.

طافت بعينها نظرة حزينة، زادتها جمالا على جمالها، وقالت:
.ولكنّه لم يعد زوجي.

.وكيف ذلك؟

فتطلّعت نحوي، ورمقتني بنظرة ذات معنى، ثمّ قالت، وهي تغضّ
طرفها حياءً:
.لقد طَلَّقني.

.ولماذا؟

قالت:

.لقد كتمته حكاية لم أروها لأحد بعد، وهي الحكاية الثّانية بعد
الألف.

فسألتهما متلهّفاً:
.ولكن لماذا كتمتما إياه؟

فقلت، وهي تضغط مخارج حروف كلماتها:
هي حكاية أَدخَرتها لك من دون النَّاس جميعاً.

سألتها دهشاً:
ولماذا أنا دون غيري.

فقلت باسمه:
أولن تصبر زوجي؟

وبعد قليل:
وهذه الحكاية هي مهرِك.

وما اسمها؟

فأجابت:
إنَّها حكاية الغريب الَّذي لن يعود!

قالت شهرزاد: بلغني، أيها الملك السعيد، أنَّ أصعب المسار بداياته، وأصعب بداياته الخطوة الأولى، لمن لم يَألف السَّعي، ويخبر فراق الدَّيار، فخرج مضطراً، وقد عاجلته ظروفه، المدى أمامه غائم، سديم، سرايٍ، ما وراء احتمال، لا يستطيع أن يقطع فيه برأي، وما تركه خلفه أكبر من كلِّ ذاكرة، يحاول أن يستعيده فلا يستطيع، مراميه قصيَّة، متباعدة، فلو ذكر عمره، ممتدًا كما هو وقد غدا مستحيلًا الآن، بتفاصيله، بدقائقه، بلحظاته الحميمة الفائرة، لذكر ماضيه، وهو رضيع متعلِّق بئدي والدته، وهو صغير يحبو، وهو يافع، وهو شاب يتقلَّب بين طيَّات الحياة... ما يستقبله مازال لا يعرف عنه شيئاً، لا يقدر أن يلمَّ بحدوده، أو يدرك خفاياه، ولا يجد رغبة أن يتساءل: هل هو مألوف؟ أم غريب؟ هل هو مأهول أم قفر بلقع؟ هل هو غائر كالجرح أم سطح كالأديم؟ حين تداهمه صور الأُمس، يفجأه بعض ما تجود به عليه ذاكرته الكليَّة، يستبعده، يطرده بإشارة من يده، وهو يرفعهما أمام وجهه، مغمضاً عينيه، كأنه يشفق أن تهاجر البدايات إلى النِّهايات، تذوب فيها، فيرتدَّ كلُّ شيء . كما كان . نقطة للبدء، تختصر الزَّمان، بأينيته الزَّاهنة، وسرمديته التي لا تنتهى بعدها. طالما استهواه شكل الدَّائرة، حينما كان صغيراً، يذهب إلى كتاب الجامع، في حيِّه الذي تميّعت صورته في ذهنه، وقد واظب على هذه العادة على مدار الفصول، في أشهر الخريف الثلاثة، وأشهر الشتاء كلّها، وشطرا من الربيع، وطيلة الشهر الأوَّل من الصَّيف، وكان يحلوه أن ينتبذ ركنًا قصيًّا في الكتاب، بعيداً عن أذن الشَّيخ الضَّير المتلصَّصة، وعبث الأولاد الصَّغار، فيخطَّ بذلك الحبر الأصفر الذي يشبه لون الزَّعفران، على لوحه الخشبي، وهو

يضعه على ركبتيه المتقاربتين المتضامتين: «وعلى الباغي تدور الدوائر»، ويمحوها متعجلاً، مضطرباً، متحسباً، خشية أن يلحظه أحد الأطفال، فيشي به إلى شيخه، ثم يعيد كتابتها من جديد، بأناة لا تناسب مطلقاً مع حركة يديه الصغيرتين الخائفتين. أين سمع هذه العبارة؟ ومن كان يردها؟ وكيف استطاعت أذناه أن تلتقطها دوناً عن جميع العبارات الأخرى، على سهولتها، وسرعة انطباعها في الذاكرة؟... الآن، وهو متمدّد داخل الخيمة، على بساط رقيق فوق حبات الرمل النديّة، لا يذكر شيئاً محدّداً، لا يتذكّر شخصاً بذاته. واضحة معاملته، مسفرة تقاطيعه، كلّ ما يعيه، بعد كرور الأيام ومزّ السنين، ينسرب إلى ذهنه أشبه ما يكون ببصيص نور شاحب يخترق ظلمة حالكة السّواد، طبقاتها متكاثفة، يبدو له أنّ طيفاً قد يكون طيف أبيه. يجلس قابعاً، مستكناً، مطمئناً إلى صمته في رحبة البيت القديم، وغير بعيد منه، تقف امرأة. قد تكون قريبته. وهي تسحب الماء بدلوتلي به في برّ قريبة، صائحة، مولولة، شاتمة، لا يكفّها زجر، ولا يقنعها حمد أو ثناء، فإذا ما تعثّرت بذيلها، فسقطت على الأرض، أو كانت تشعل النّار، فأحرق يدها أو جزءاً من جسدها لهيها، أو اشتبكت مع أحد الجيران في معركة حامية الوطيس، فلحقها أذى وضرر. تطلّع إليها ذلك الطّيف من الرّحبة، وعلى شفّتيه ابتسامة رثاء، ولسان حاله يقول: «إنّ الله يأبى على نفسه الظّلم، ولا يرتضيه لعباده؛ وعلى الباغي تدور الدوائر!» ومنذ ذلك اليوم، الّذي يخيل إليه أنّه سمع فيه تلك العبارة، وخلال كلّ الأيام الّتي تردّدت فيها على مسامعه، وقرت في نفسه الطّريّة، وحفظها قلبه الغضّ، وردّها عقله الفتيّ المتوثّب، وصارت ملتبسة في ذهنه بالعقاب، الخاطيّ ستدور عليه الدّائرة، سيقتصّ الله منه بأن يوقعه في هذه الدّائرة، وقارنها. أي العبارة. بعبارة أخرى كان شيخه الضّرير كثيراً ما يلهب بها آذانهم في الكتّاب: «من حفر جبّاً لأخيه أوقعه الله فيه»، إشارة إلى معابثاتهم الّتي لا تكاد تتوقّف أثناء الدّرس، واقتصاصه منهم لذلك، واستهوته صورة الجبّ حدّ الكلف، ولم يجد بينه وبين الدّائرة فرقاً كبيراً، فالجبّ أيضاً له

شكل الدائرة، جعله ذلك يقرن الخطأ والعقاب بكل ما هو دائري، وصار يتجنب أن يغضب والديه، أو يعابث شيخه، لئلا يجبه والده بالدائرة، أو يلقيه شيخه في الحب، كثيرا ما تسأل فأعياه الجواب: «إذا كان الباطل دائريًا، فما شكل الحق، يا ترى؟ هل يكون مربعًا، أو مستطيلًا، أو مثلثًا مستقيم الزاوية، أو متساوي الأضلاع؟ وما لونهما، الباطل والحق؟ هل الباطل أسود؟ وهل الحق أبيض؟» ينظر إلى السماء ليلا، فيرى القمر، يترقق بنوره الرائق على فناء الحوش، فيعجبه برهه، ثم يرتد إلى قوقعته، متسربلا بالخوف والجزع؛ «أليس القمر دائريًا؟ ألن تدور دائرته عليّ إذا هفوت أو زللت؟ لكن هل القمر مقعر مثل الحب؟» ويرى الشمس نهارا، فيغطي عينيه بيديه حتى يحتجب بجسده عنها، وحتى لعبة الكرة، التي كانت أثيرة لديه، عزفتها نفسه، وعافتها، وغدا يتحاشاها، لأن شكل الكرة دائري، حياته كانت ظلالة من دوائر، ذات عمق، قرارها عميق، إذا ألقيت فيها حصاة، سمعت صداها، الرهبة تلفها، من جميع جهاتها، ويكتنفها التحسب، ويحاصرها الخوف، غزته العبارة، ملأته، فاضت عليه، وكلما خلا إلى نفسه، أو أنس غفلة من شيخه أو زملائه في الكتاب، كتبها، وأعاد كتابتها مرّات ومرّات!!

مع كلّ نفثة دخان، تنبعث ذكرى، ومع كلّ حلقة من حلقاته تأخذ في الاتّساع، فوق رأسه، يتكأ مأضيه على نفسه، من فوهته التي انحسر عنها الغطاء، يتدفّق ما كان طاويا، مزيجا عن نفسه غبار النسيان، تترقق ذاكرته من جديد، فتسطع في رأسه الصّور تلو الصّور، ويشرب عالمه بعنقه أمامه حيّا، يشع حيوية وحركة، كأنّه لم يطو في يوم من الأيام، ويصبح أثرا، بعد أن كان عينا على امتداد أحقاب؛ ساعتئذ، حين يجفوه المنام، فيلج عليه الأرق، لا يجد مناصبا من التفكير، على كرهه إيّاه، يغمض عينيه عامدا، يركّز كلّ إرادته في ثقب ذاكرته، ومن لاشيء في فراغ محيطه، يستحضر سدّادة ليسدّه بها، ولكن يستهلكه الوقت، فيتعب، تهمد أعضاؤه في وقت ما، تنفتح عيناه تلقائيا، ويجد

نفسه غارقاً في سلسلة من الأفكار لا تنتهي. ساءل نفسه مراراً، من قبل لم يسأل، لم يكن لديه متسع للتفكير، كانت حياته السابقة حركة دائبة، ما يكاد ينتهي من شيء حتى ينخرط في غيره، فإذا ما أدركه التعب وركبه الإجهاد، نام دون عناء، ساءل نفسه مراراً، غدا يسألها، منذ وطأت قدماه أول خطوة، وراء آخر حدٍّ للعمار، في البداية، لم يجد برأسه شيئاً، لم يدرسبها لضياح ذاكرته فجأة، لم يفهم لماذا يأتي القدر إلا أن يحرمه آخر ما يمكن أن يكون عزاء في نهارات غربته الطويلة، في محنته التي لا يعلم مالها إلا من ألقى به في أتون هذا المتاه، ثم انساح شريط ذكرياته بغتة، كما ضاع بغتة، مع أول نفثة من نفثات الدخان، يسحبها إلى صدره، المتدافع بالهواجس، من ذلك الغليون العجيب، الذي أعطاه إياه رئيس القافلة، وتساءل: «تري لماذا لا يدهمنا التفكير في الماضي إلا حين ننأى عنه، على غربة؟ فهل نخشى أن يضيع منا، فنعيش بلا ذاكرة؟» الذاكرة... الذاكرة، هذا الغول العجيب، الساحر، ذوا القرون الذهبية، التي ما أن تطالعك، حتى تذكر الخطيئة، يستهويك ألقها، وترتسم في ذهنك، بدافع الخطيئة، هيئة حواء الجميلة، تخصف على عورتها من ورق الجنة، وتذكرك حواء بشجرة التفاح، بالمعرفة المطلقة، بالمتعة المطلقة، بغاية الخلود في الوجود، وأي وجود؟! ويورق عالم الجنة أمام عينيك المثقلتين بألم مفزع، عند أقصى لحظات الظم والجوع، والإشفاء على حالة أقرب إلى الغثيان. هل هي رغبة الحياة، والتنفور من الموت؟ هل يتعلّق المشفي على الهلاك، ولو بقشة؟... أدنى ما تستعيده الذاكرة أقرب العوالم إليك، عالم المنشأ، وأقصى ما تفكر فيه الجنة، التزوع من وطأة ما هو موجود إلى لذة ما هو مرغوب، فما يقهر الإحساس بالموت إلا استدعاء الإحساس النقيض بالحياة!!

أول ما تبادر إلى ذهنه، وهو مستغرق في شروذاته، تلك البطاقة الصغيرة، بطاقة في حجم الكف، هي بطاقة هويته، وتذكر برهبة ممزوجة بحنين وشوق موقعها، من ذلك النضد، المكون إلى إحدى

زوايا حجرته، على الحافة تماما، ربّما مقلوبة، بحيث يختفي أوّل ما يختفي، صورته، لكبرها من ناحية، واستثنائكلّ ذي ألّقى ولون بمحيط نظرة العين من ناحية أخرى، ثمّ يختفي اسمه بحروفه المرقونة، المتقاربة، المستوية، بلا اعوجاج، ولقبه، وتاريخ ميلاده، وانتماؤه أيضا، وأخيرا الرّقم المكوّن من سبعة أعداد، مؤطّرا داخل صندوق، مستطيل الشكل، بقي عليه أن تسعفه ذاكرته بالاسم، لتعاوده أطياف الطّمانينة الرّاحلة، ويشعر، مرّة أخرى، ولو إلى حين، أنّه كائن له اسم، مثل هؤلاء الّذين ينامون حذوه جميعا، في خيامهم، في هذا اللّيل السّاجي، لقد أصبح، رغم قصر المدّة، يعرف أسماءهم فردا فردا، وانطبعت كلّ ملامحهم في مخيلته، على قدر ما سمحت به تلك الألّثمة الّتي كانت تغطّي جانبا كبيرا من وجوههم، ولم يميّطوها حتّى وهم بصدد الإخلاد إلى النّوم، كأنّهم يخشون خطرا يترصّدهم، في مكان ما، يتحجّن الفرصة المواتية للفتك بهم جميعهم... «أشعيا»... «صموئيل»... «شمعون»... «تارخ»... «بنوقيا»... فماذا يكون اسمه هو، ليتخذ له مكانا بين كلّ هذه الأسماء؟ أوّل حرف منه «ص»! فهل يكون اسمه «صالحا»، اقتداء بنبيّ الله، صاحب النّاقة، أم «صابرا» لشعور والده بحاجته إلى الصّبر، في عالم إذا قصّرت عن بلوغ أيّ شيء فيه، تذرّعت بحصن الصّبر، أم «صخرا» لعجزه، أي والدك. أن يكون هو نفسه صخرا، في خضمّ حياة أشبه بالجلمود قساوة، فسّمّاك بهذا الاسم حتّى تكون أنت الصّخرة الّتي سيرتدّ عنها الزّمان خائبا، أم... أجل، أجل، إنّهُ على طرف لسانه، يكاد ينطق به، فيه «الصّاد»، و«الدّال»، وفيه «القاف» أيضا، «صدق»، أو «صديقي»، أو... «صادق»، نعم «صادق»، هذا هو الاسم، غمرته سعادة، رفع رأسه قليلا عن مخدّة اللّبد، كتعبير عن هذه السّعادة، وارتفع بجذعه، في نصف قومة، وهو ينو إلى القمر الّذي بات قريبا من مجال عينيه، من خصاص الخيمة، كأنّه يريد أن يبتّه فرحة كشفه، لم يدم ذلك طويلا، استعاد نفس هيئته السّايقة على الفراش، قرّب خرطوم الغليون من شفّتيه، حتّى كاد يلامسهما، لكنّه لم يشفط

الدّخان، استهواه المنظر، ليس قصارى غاية الغليون أن تسحب منه الدّخان فحسب، منظره مغر كذلك، ينأى بك إلى ممالك بعيدة جدّا، ممتدّة الشّسوع، باللغة المسافات... ولقبه أوّل حروفه «ش»، ويخيّل إليه أنّ بقيّة الأحرف منه تحوي «نونا»، و«عينا»، و«باء»، و«ألفا»، قد يكون «شعبان»! ولم لا يكون ذلك؟ نعم، نعم، هو «شعبان»... «صادق شعبان»، من مواليد...!! أيّ يوم؟ أيّ شهر؟ أيّ سنة؟ يشحذ ذاكرته، يلجّ عليه خاطر مشاكس، في لحظة تستعصي عليه مغاليق الماضي، يتقلّب في فراشه، ذات اليمين، وذات الشّمال، يستشعر رغبة ثاكلا في التّدكّر، يلجّ داخله الطّيف المشاكس، حتّى ليكاد يعطلّ مجرى الدّم في شرايينه، فجأة يتركّز وعيه في يده، في الغليون المشتعل دخانه، يبتسم في ظفر، ثمّ يعبّ، ويسحب الدّخان من صدره، فينعقد في فضاء الخيمة الرّطب كتلا، جائمة، في كثافة، التمتع أمام عينيه أرقام متشابكة، غائمة، آتية من قرار سحيق، موغل في الغياب، حاول أن يرتبها، مستعينا بما تبقيّ لديه من آثار حقيقة، أصبحت الآن شاطّة، وازن، واءم، قارن، تهجّ، في هدوء اللّيل، بصوت، لا يخفى في نبراته إحساس بالغلب والقوّة، الرّابع والعشرون من شهر آذار سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف، يا له من تاريخ بعيد، شاسع، مهول، يشعر، بعكس قانون التّطوّر، الذي يشدّ كلّ الكائنات والجمادات إلى أمام، أنّه يرتدّ عنه إلى الخلف، إلى ماضٍ خلاف ماضيه، فلماذا كلّ فرد، كلّ حيوان، كلّ طائر، كلّ حشرة، ينبثق مولده في ماضٍ، ويشهد نهايته مستقبل، وفي فسحة الزّمن بينهما يرى كلّ يوم أشياء جديدة، تختلف عمّا كان رآه من قبل، إلّا هو يقوده ماضٍ قديم إلى ماضٍ أقدم منه؟ مولده هو في عصر يعتقد أنّه انتمى إليه لفترة، أو آخر السّتينات، في محلّة كفرشاهد، إنّّه مجرد تخمين، أمّا أن يقطع برأي أكيد، يصدع بحقيقة ثابتة، فهذا ما لا يستطيع ادّعاءه... رقم البطاقة انطبع في ذاكرته جملة، لم ينسه، على خلاف ما كان يتصوّر، فلماذا لم ينسه؟ هل ذاكرته قويّة إلى هذا الحدّ، أم للمسألة تبرير علمي؟ حينما كان طالبا، في السّنة النّهائية من

المرحلة الثَّانَوِيَّة، حدّثهم أستاذ الفلسفة عن «فرويد»، وعلم النَّفس التحليلي، الَّذي أنشاه، وأفاض في حديثه عن المنظومة النَّفسِيَّة، فقال إنَّنا لا ننسى الأشياء الَّتِي نتعلَّمها، وإنَّما تظلّ قابضة في اللاشعور، حتَّى نستدعيها ثانية بالتذكُّر!!... ذكر الرِّقم، فكاد يصرخ من النَّشوة، إلَّا أنَّه تفكَّر فيما يمكن أن يحدثه ردّ فعله من استياء، في هذا الوقت من اللَّيل، فكفّ، راح يرّد الرِّقم، رَدَّده مرَّات، ٣١٦١٣٢٤، لم يسأم البتَّة من ترديده.

الاسم: صادق.

اللقب: شعبان.

تاريخ الميلاد والمكان: ٢٤ آذار ١٩٦٨، بكفرشاهد.

رقم البطاقة: ٣١٦١٣٢٤.

ذكريات سنواته الأولى، ككلِّ واحد من النَّاس، لم يعيشها بوعيه، لم يستمرئ طعمها أو حيويَّتها، وإنَّما علقت بذهنه سماعا، في الأغلب على مراحل متفاوتة، فتكوَّنت لبنة لبنة، من أشنات متنافرة، وأخلاق شتَّى، تحكي له جدّته طرفا منها، كلّما اختلّى بها فأسبلت عليه جناحها، طالما كان يفعل ذلك، وأبوه كلّما فرغ له، وأمّه كلّما سألها، وهي منشغلة بعمل المطبخ، لو وعى غيره لحظة ميلاده، لوعاها هو أيضا، لو حفظت ذاكرة غيره الصَّغيرة أويقات حبه في إحدى حجرات الدَّار، أو في فنائها، لحفظها هو أيضا، لو أدرك بوعيه تلك اللَّحظة الأثيرة، الرَّائعة الفريدة، وهو يستند إلى الجدار، ليخطو بقدمه أولى خطواته، ليخطّ أوّل سطر في سجلِّ حياته العذراء، لأدرك هو ذلك، لكن أنَّى يتأتَّى إحساس الصَّغير الغضّ الطَّريّ بصغره، إذا لم يكن هناك وسيط يملأ نفسه وعيا بذلك الصَّغر، كان وحيد أبويه، ليس لأنّ والدته لم تنجب غيره، وإنَّما لأنّ كلّ من ولدتهم لم يكتب لهم أن يفتحوا أعينهم على الدُّنيا، ونزلوا من الرِّحم أمواتا، لا نفس بهم، كانوا خمسة، ثلاث إناث، وذكرين، ولدت الأولى، إثر

زواج والديه بعام، ودفنها والده بيديه، وقلبه يكاد يتفطر جزعا وحزنا، أما والدته فقد أحسّت كأنّ أحدا استلّ قطعة من جسدها بسكين، ومع الأيام سلوا عنها، وجاءت الثانية، بعد وفاة الأولى بعام، وكانت ميّنة، فشقت والدته جيها، ومنتفت شعرها، وندبت حظّها العاشر، حتّى أدمت خدّيهما، وقبل مجيء الثالثة، تأكّد لدى الوالدين سوء بختهما، اقتنعا أنّهما من نسل جنس لا يعمر، لكن ما باليد حيلة. والأمر لله من قبل ومن بعد، وجاءت الثالثة، وبعدها الذّكران تباعا، كلّهم دفنهم الأب الواحد تلو الآخر، كأنّ القضاء لم يقنع إلّا بتجريحه جام المارّة قطرة قطرة، هرم قبل أوان هرمه، صار من يراه يحسبه ابن خمسين، وهو لم يجاوز الخامسة والأربعين، غدا كثير السّهوم، رأسه إلى الأرض دائما، لفقدانه الثّقة في عدالة السّماء، فإذا رفع رأسه، ويكون ذلك في الغالب مضطرا، لم ير، وإذا كلّّمه أحد، مرّ به كالطّيف، كأنّه لم يسمعه، لاحظت الجدّة منه ذلك، فخافت عليه، كانت هي الأخرى مشمولة بوقع المأساة، إلّا أنّها كانت تؤمن أنّ شرا خيرا من شرّين، فإذا لا قدر الله. وقع لولدها مكروه. فمن لها هي ووالدته. هو «صادق» لم يكن قد جاء إلى الدّنيا بعد، ترفّقت به على قدر الطّاقة، كانت له الأمّ الرؤوم والأب والأخت والزّوجة، توقّظه صباح كلّ يوم، وتحضّر له الإفطار قبل الذّهاب إلى العمل، تغافله عند كلّ مساء، فتنقل فراشه إلى حجرته، إذ دأب، منذ ثقل المصاب، على المبيت خارجا، غير مبال في الشّتاء بلاذع البرد، وفي الخريف بهوج الرّيح، مع الأيام، بدأ يثوب إلى رشده، زائله بعض سهومه، صار أكثر حيويّة، وشرع جرحه في الاندمال، وقرت في قلبه كلمات الجدّة لطول تكرارها: «لا ييأس من رحمة الله إلّا الكافر، وأنت مؤمن، فما يدريك أنّ الله يريد اختبار إيمانك!! ثمّ إنّّه سبحانه وتعالى يقول: «إنّ بعد العسر يسرا» والدته، على عكس والده، ظلّت متسرّيلة بحزنّها، حتّى رسم على وجهها مثل الوشاح القاتم الكثيف، نفرت من كلّ ملذّات الحياة، عافت نفسها الطّعام، وحتّى الماء لم تعد

تشربه إلا حين يبرّح بها الظلماً، فإذا شربت، اكتفت بجرجعات قليلة، لا تكفي حتى لإزالة يبوسة شفتيها، فإذا صادف أن خرجت من الدّار في حاجة من حاجاتها، واعترض سبيلها صبية يلعبون أشاحت بوجهها بعيداً، وقد طفرت من عينيها دموع غزار، لم تعد تلك المرأة المرحّة، النّشيطة، «زينة النّساء»، كما كان يحلو لنسوة المحلّة أن يسمّينها، الّتي ما أن تضحك حتى تلعلع ضحكتها، ويسمع أصداءها القاصي والدّاني، وما أن تتحدّث حتى تسبي عقول النّساء بحلاوة حديثها وطلاوته، احتواها انطواؤها، فرغت له عن طيب خاطر، ودعوة جاراتها لزيارتها، رغم إلحاحهنّ، سيّما بعد أن ألمان بعمق مصابها، كانت ترفضها بإصرار لا يخلو من أدب جمّ، قصارى ما غرقت فيه من مشاغلها الجديدة، أن تخرج من البيت مع أذان الفجر، وتقضي عظم الصّباح في زيارة القبور، والزّوايا، والأضرحة المباركة، متوسّلة، باكية، مستشفعة بالأولياء، ضارعة إليهم أن يتوسّطوا لها عند الله أن يرزقها، ولو بمسوخ من البشر، لا يسمع، لا يرى، لا يتحرّك، إلى ذلك، لم تكن تسمع بقارئ كفّ، أو يهلول، أو مستطلعة بخت، أو وليّ إلا قصدته، وفي كلّ مرّة، يخيب مقصدها، إلّا أنّها لم تيأس، لم تعضّ أصابعها ندماً، واضطبت على سعيها، لم تخب إرادتها، لطول ما أصبحت تطالع أهل المحلّة في غدوّها ورواحها، أطلقوا عليها بمزيج من الرّثاء والحسرة والشّجن لقب «النّحلة»، في يوم من الأيام، علمت بمجيء شيخ وليّ، قيل إنّ صاحب أحد كبار أولياء الله ردحا من الزّمن، تتلمذ على يديه، حفظ القرآن جميعه منه، تلقّى عنه أكثر من ستمائة حديث شريف، ثلاثة أرباعها أحاديث حسنة، لما قضى ذلك الوليّ الكبير، سار الشّيخ في الأرض، ضرب في أرجائها، مشرّقا، ومغربا، أسفرت كراماته، بان خيره، لا يقبل على ما يؤتیه إحسانا من أحد، يقول إنّ لا يبيع ما وهبه الله بثمن، فكّله خالص لوجهه، ذهب إلىه، في جولتها الصّباحيّة، كعادتها، استرشدت عنه باسمه، طلقة المحيّا، استغرب منها ذلك من صادفها في الطّريق،

فعرفها، وقر في قلبها، الذي لم يكذبها قط. أن الفرج، هذه المرة، قريب، أن الله سيأخذ بيدها، سيرفع محنته عنها، عندما دخلت على الشيخ الولي هش في وجهها وبش، زاد في إيناسها وإكرامها، بدا لها كما لو كان يتوقعها، وإلا لماذا هذه الهشاشة والبشاشة، هذا الإيناس والإكرام إن لم يكن متوقعا لمجيئها؟ لو كان الرجل يأخذ مقابلا لما يفعل، لقاتل إن الأمر لا يعدو أن يكون حيلة لاستدراار المال، لكن الرجل صالح، كل الناس يقولون ذلك، وإلى ذلك فهو ليس مجاملا أو منافقا، فيخفض جناحه لكل قاصد، لقد اختارها هي بالذات، من بين جميع قصاده، أرادت أن تطمئن، سألته لماذا يظهر الرفق، لماذا يبالغ في التودد؟ قال لها إن السر في وجهها، سألته: «أي سر؟» فأجابها بتلطف شديد إن السر الذي يعنيه هو سر المحنة! سألته أيضا، وقد بدأ إحساسها بقرب الفرج يتضاعف ويتجسد أمامها: «وهل عرفت؟» فقال، كأنه يواصل حديثه السابق، دون أن يسمع سؤالها الأخير: «خمسة حملت بهم وهنا من بعد وهن، وشاء الله أن يختارهم إلى جواره، سبحان الله. لا راد لقضاء الله، لكن أبشرك بدنو انتهاء المحنة، وقرب الفرج.» امتلأت فرحا، رقصت كل جارحة فيها، وغنت بصوت غير مسموع، زيادة في الاطمئنان سألت: «أريد إشارة؟» قال، وهو يرقب آثار فرحتها، بهدوء: «لا تعجلي، يا أمة الله. لقد أخبرني شيخي بذلك؛ وليس بعد قول شيخي إشارة. قال لي في المنام ستأتيك الممتحنة الصابرة، فبلغها عني خيرا، وأخبرها أن العين التي أصابها أن لها أن تنكشف عنها... فلتذبح شاة، وتغسلها، وتكفنها، ثم تدفنها وتؤننها كما تؤنن عزيزا عليها، وستحبل. إن شاء الله. بعد عام من ذلك!» شكرته، أثنت عليه طويلا، لو كان فقط يقبل مالا، لكانت أعطته منه كل ما تملك، رغم أنها تعلم أنه لا يمكن أن توفيه حقه من المكافأة، وهو لن يقبل، على كل حال. فبماذا تكافئه؟ هوت على يده تبوسها، قبل أن يلامسها فمها، سحيا، قال: «أستغفر الله العظيم، ما نحن إلا عبيد الله، ولم أزد على أن بلغت نبوة سيدي!»

رجعت إلى البيت، فعلت كل ما أمرت به، دون زيادة أو نقصان، انتظرت، ألفت انتظارها، لم تشك، لم تتألم، بدأت تستشعر حركة في بطنها، حركة الجنين دون شك، تملكها سعادة مقرونة بالخوف، برهبة المجهول، في إحدى الليالي، زارها الولي الكبير، غارقا كله في البياض، ربت رأسها بيده الطيبة، وقال لها في اقتضاب: «أبشري بصادق!» ثم ذهب، لم يعاود زيارتها، بعد ذلك، توقعت ظهوره، انتظرت، لكن عبثا، مع اقتراب وضعها، سيطرت عليها حالة من الانزعاج والقلق، دهمها شعور غامض لا تدري مصدره، وأصبحت كثيرا ما ترى أبناءها الخمسة في المنام، وهم يتقدمون إلى حفر صغيرة، فيمال عليهم التراب بعد أن يلجوها، كادت تموت فرقا وهلعا، استنجدت بالأولياء الذين تعرفهم، والذين لا تعرفهم، نذرت النذور، في قمة رأسها، وصاحت وهي تعاني آلام الطلق الأخيرة: «يا ولي الله الكبير مدد»، خرج الجنين من الرحم أخيرا، إلى الدنيا، مفتوح العينين، سمعت صرخته تملأ فضاء الحجرة، صرخة طالما تمتت لو سمعتها من أحد أولئك الأبناء الخمسة الأعزاء، الذين دفنهم الوالد ببيديه المقهورتين على أمرهما، بكت، نشجت طويلا، امتزجت دموعها باللعب السائل من فمها، المفتوح على دهشة فرحة، لقد جاء الولد، لقد جاء «صادق»، بعد اليأس!!

فرحة والدته أعظم كانت أم فرحة والده؟! والدته التي أطلقت زغرودة طويلة، منعمة، إثر الولادة مباشرة، متناسية آلامها، شيء لم يعتده أهل المحلة من قبل، لم تقدم عليه أي امرأة غيرها، أم والده الذي بلغ به السرور مداه، فباع نصف البيت، هو أيضا، مثل الزوجة، نذرندرا لئن قبض الله عنه بلاءه، ليولن وليمة، لم تشهد المحلة مثله، وليذبحن من كرام الغنم ما طاب، فيطعم الجائع والسائل والمسكين وابن السبيل، وجاء وقت الوفاء، فوفاه على عسرة من أمره، لكنه لم يتردد، أخذ قراره، دون استشارة أحد، ليس أمامه إلا أن يبيع نصف البيت فباعه، واشترى ببعض ثمنه ثلاثة رؤوس من الغنم، وبما تبقى

بقية الحاجيات لزوم الوليمة، كما أذخر شيئا منه لخمسمة قراء اتفق معهم أن يختموا القرآن كله، في داره، ليلة ميلاد وحيدته، وعرفت المحلة يوما مشهودا، قدم الأقارب والأباعد، الجيران بالجنب والجيران في الأطراف، فامتلأت بهم السرادقات، واختلطت أصوات الغناء في الديوان، وأصداء الزغاريد المنبعثة من بيت الحريم، واستخف بعض الرجال طرب، فقاموا يتمايلون، رقصوا فرادى وجماعات، لعلت أصواتهم في فضاء المكان، فجاءتها من الداخل أصوات النسوة الرقيقة العذبة الحية، وفي المساء، قبل صلاة العتمة، أكل الجميع هنيئا، وشربوا مريئا، واستمعوا، بعد الصلاة، إلى آيات القرآن تتلى في خشوع، زاده سكون الليل لطافة وقداصة، تفرق القوم، وهم يتهايمسون، في البداية، ثم غدا همسهم حديثا مرسلًا على السجية: ليس أسعد اليوم من أبي صادق وأم صادق!! ولكثرة ما ترددت هذه العبارة، في المحلة، في قابل الأيام، اتخذها الكثير مثلا، يستدعون في الحالات السعيدة المماثلة!!

أحبّ الوالد والوالدة ولدهما «صادقا» حبّا لا يوصف، ما عليه من مزيد، وكلفت به الجدة كلفا لم تحسّ به تجاه أيّ واحد من أولادها، كأنّ «صادقا» انزرع بذرة خصبة في رحمها هي، وبرغم عسر الظروف ورقة الحال، فلم يأل الوالد جهدا في تدليله، فلا يدع مطلبًا من مطالبه إلّا لبّاه، ولا حاجة إلّا سدّها، ولا رغبة إلّا أبدى حيالها الموافقة، وقد اضطرّ، في غير النادر من الأحوال، إلى الاقتراض، شيء طالما عافته نفسه وألف الصّدود عنه، وضاعف من استغراقه في العمل، غير مبال بآثار الجهد والإنهاك التي كانت تبدو في شحوب وجهه، وتردّد لهائمه متتابعًا متدافعًا، حتّى وهو مغلّد إلى الراحة، عدا بوادر الشيخوخة، وإحساس ملحّ بدنوّ الأجل، فإذا ما وقع المحذور، وهو لا محالة واقع، فلمن يترك «صادقا» وأمّه؟ هو الذي أصبح والدا على كبر، والدا عمره الآن سبعة

وستون عاما، في حين لم يتجاوز ابنه الرضيع ستة أشهر، وقد كان يبدو أكبر من عمره بكثير. شيخا كبيرا هرما فانيا، أغرق نفسه في العمل، لم يكتف بعمل الحكومة، عمل أشياء أخرى، صبي حانوتي، فاكهانيا على عربة يد، دهانا، اشتغل عند نجار، وعلى سيارة أجرة، يدخر ما يربحه، يعطيه للأُم، ينصح بالحرص، يشدد على التقدير في النفقة، فمن يدري؟ لعل صباح اليوم التالي يطلع عليه، وهو في عداد الأموات، تضع الأُم يدها الخشنة من آثار الخدمة على فمه، ترنو إليه بعينين دامعتين، تقول له في صوت هامس مترقق تعروه بداية غصة: «لا قدر الله، لا تقل هذا، ربنا يطول لنا في عمرك». فيها المتلجلج تقول هذه الكلمات الخائفة، الزجاجية، أما قلبها فمتهزأضطرابا، تحسبا من المجهول الذي يقبع في مكان ما، حالته لم تكن خافية على أعين الناس جميعا، فكيف تخفى على عينيها هي، زوجته، التي عاشرتة، وقطعت معه رحلة العمر، الموشكة على استيفاء وقتها، أول ما لاحظت إنهاكه، أشارت عليه بالراحة، رفع يده في لامبالاة كأنه يقول لها أن لا شيء به، صمتت على مضض، لكنّها غدت تراقبه من قريب بحرص، لهائه كان يفزعها، يزعجها، سعاله في الليل، وهونائم، لم يكن سعالا عاديا، هكذا خمّنت بحدسها، كان كأنه يلفظ قلبه مع كل سعلة، كأنه ينزع، وهو في ذلك كله، رغم ألمه، كان يسعى ألاّ يجهر بشكواه، كي لا يقلقها هي بالذات، زوجته التي يعتقد بينه وبين نفسه متألما أنّها لم تعرف معه يوما واحدا من السعادة، أجل كان يحبها، وما يزال على حبها، رغم أنّ زمن الحب البنيء قد ولى. وأحبته هي أيضا، فبادلته حبا بحب، لو أخضعته لمنطق عقلها، ونزوع والدها إلى المساومة، لما تزوّجته أبدا... كانت تصحو، في أغلب الأحيان، بعد اشتداد المرض على زوجها، فتتنظر في قلق مستبّد إلى الناحية الأخرى من الفراش، تراه يعصّ على الوسادة بعنف، تسمع أُناته المتألّمة الخافتة، فتهرع إليه، تعاتبه في حنو، كان يحرص ألاّ يزعجها، ألاّ يسبّب لها تعباً مضاعفا، يكفّ ما تلاقي من إجهاد نهارياتها

الطويلة، يتكتم هو، يمعن في تكتمه، تلاحقه هي، لا تدعه لنفسه، لألمه، تواسيه، تطببه، تلومه أحيانا قائلة: «ما لنا غير بعض! تصور أيّ أنا المريضة، ألم تكن تفعل معي مثل ما أنا أفعل معك!» في ليلة، نامت نوما عميقا، لم تفق. كعادتها، أواسط الليل، لم تسمع سعاله، كانت في قرارة نفسها مطمئنة إلى استقرار حالته منذ أيام، آخر ما كانت تفكر فيه، بل ما لم يكن متوقعا لديها أن تستيقظ في الصباح، مليئة بنشاط وحيوية مفعمين، فتجد رجلها جثة هامدة، بلا حراك، في اللحظات الأولى، لم تع حقيقة الموقف، حطت يدها على رمانة كتفه. كما كانت تفعل من قبل. لتوقظه، لم يبد منه ما يشي بأنه تأثر بتلك الهزة اللطيفة، أعادت الحركة، هذه المرة، متبوعة بنداء رقيق أن «انهض»، لكن عبثا، بدأ القلق يغزوها، وجدت يديها الاثنتين تهزّانه، تقلبان جسده ذات اليمين وذات الشمال، ولكم كان إدراكها للحقيقة قاسيا! سرت إليها رعدة، لم تلبث طويلا لتكشف معنى يبوسة الجسد، أبعدت يديها تلقائيا، بكت في أعماقها قبل أن تطفر الدموع إلى عينها، بكت في صمت المضطرّ، وفجأة انطلقت الأصوات المتناوحة التي كانت حبيسة داخلها، ولولت، عدّدت، ساءلت نفسها بحرقة، وهي شاردة: «هل كان تحسّن حالته في الأيام الأخيرة إيدانا بذهابه إلى الأبد؟ ومتى يذهب؟... حين تولد في فضاء حياتي المجدية بارقة الأمل!!»

ما أن وافي مرور أربعين يوما على وفاته، على رحيله عن البيت الذي ملأه طفلة سبعة وستين عاما، مذ كان في المهد صبيّا، وإلى حدّ الساعة التي قبض فيها، حتّى كان الحزن قد برّح بها، وغدا سمة من سماتها الملازمة، أحال كلّ متعة أحسّت بها على إثر ولادة «صادق» إلى مرارة بطعم العلقم، ولولا بقية إدراك، ظلّ عالقا بذهنها، بما ينتظرها من ثقل الحمل، ووظأة المسؤولية، لربّما كانت تخلّصت من حياتها، على أهون سبيل، راودتها فكرة الانتحار، مرارا، ليس بسبب وفاة زوجها

على التّحديد، فلقد طالما أَلَمّت بها كلّما قرفت من قهرها وسوء طالعها، ولكن تضاعف افتتاحها بهذه الفكرة عقب الوفاة، تمكّنت في النهاية من طردها بقوة عزيمتها، جمعت إرادتها كأخر حصن للمقاومة، جابهت الحزن نفسه، وانتصرت عليه، لم يمت زوجها، رجلها وحبيبها ورفيق دربها، إنّهُ يعيش في صورة ابنه «صادق»، في سواد عينيه، في أنفه الأَقنى، في شفّتيه اللّتين تميلان قليلاً إلى الامتلاء، في يديه اللّتين تشبهان إلى حدّ كبير يدي الرّاحل العزيز، أليس يقولون: «ما مات من خَلَف، ولا يهَمّ إن كان الخلف أنثى، فما بالك بها هي، وقد أنجبت ذكراً، ما يفتأ أن يصبح رجلاً صليب العود، عالي الهمّة.» امتلاؤها بهذا اليقين دفعها إلى مضاعفة الجهد، للقيام بشؤون المنزل، لإعالة الجَدّة والصّبيّ، عملت خادمة في البيوت، تعلّمت الخياطة، احترفتها، فامتلاً ببيتها بالزّبائن من نسوة الحيّ اللّائي يعرفها، اشتغلت بالليل والنّهار. لا تهدأ أبداً، حتّى بعد رحيل الجَدّة، الذي كان مفروضاً أن تخفّ به مؤنّتها، صارت تعمل وتُدخّر، كما أوصاها المرحوم، تحفظ مدّخراتها في علبة مستديرة صفراء، لها غطاء، تضعها بعناية في صندوق كبير مستطيل مزركش، تخفيه تحت السّرير، بعد أن تحكم إغلاقه... كان «صادق» يكبر أمام عينها، يوماً فيوماً، شهراً فشهرًا، سنة إثر سنة، تمتلئ غبطة، ترى فيه رجل المستقبل القادم، في لحظات استغراقها، وقت النّوم، في حجرة نومها، بعد أن تكون قد اطمأنت أنّه قد غرق في أحلامه اللّذيذة، في الحجرة المجاورة، تغزوها أفكار عن المستقبل، مستقبله هو، تطيف بها متراقصة زاهية ضاحكة، ما تريد له أن يكون؟ تتمنّى صداقة، لو يطيل الله في عمرها، فتدخله كلّية الطِّبّ، أو العلوم، أو الهندسة، فإذا ما تخرّج طبيباً أو عالماً أو مهندساً، خطبت له، وزفّته بنفسها، تتمنّى لو تطوى السّنّوات الطّويلة في شهور، والشّهور في أيّام، وفي طرفه عين تلفي كلّ ما فكّرت فيه، يتحقّق واقعاً محسوساً، لا لبس فيه، فمتى يضحك لها الحظّ أخيراً؟!

طوى هو. «صادق». مرحلة الدّراسة الابتدائيّة قفزا، الحقّ أنّه أبدى نجابة وذكاء نادريّن استحقّ عليهما شكر معلّميه وتشجيعهم، وغيّط زملائه الصّغار، الّذين كانوا يتودّدون إليه، مع إحساسهم الباطنيّ بالإعجاب الممزوج بالقهر، لعدم قدرتهم على مجاراته، وفي السّنة الرّابعة من الدّراسة المتوسّطة، بدأت حواسّه المنطلقة تطلّع على دنيا جديدة، لم تعرفها من قبل، دنيا الحبّ الغامضة، متمثلة في صورة بنت الجيران، «كوثر»، الّتي كان حائط منزلها ملاصقا لحائط منزله، في السّنة الأولى من تعارفهما، كان كلّما رآها مازة بجانبه، أو لاحظها خارجة من الباب المفضي إلى الشّارع، أو التقى بها مصادفة في طريق المعهد، خفض بصره حياء، وانطلق مسرعا، كأنّه يفرّ من خطر داهم، كانت هي أشجع منه، أعجبها حيّؤه، وجدته مختلفا عن بقيّة التّلاميذ الّذين لا همّ لهم سوى الشّيطنة ومعاكسة البنات، بدأت تعترض سبيله، تبتسم ابتسامة عذبة لتشدّ انتباهه، ومع الأيام، وبتشجيع منها، لم يعد يخفض أمامها بصره، صار يتملّأها بتأنّ كأنّه يروم اكتشافها، يطيل نظرتّه إليها، يسطع عينيه حسنّها، كما لم يعد يخافها، ومن ثمّ لم تعد الأنثى تمثّل لغزا محيّرًا بالنّسبة إليه، «كوثر» كانت أوّل أنثى يتعرّف إليها، وبالركون، والاطمئنان إليها، أمسى حسن الظّنّ، واثقا من جنس النّساء، جميعا، تنتظره، إذا خرجت هي قبله، عند رأس الرّقاق، فيذهبان إلى المعهد، أو ينتظرها هو إذا صادف أن خرج قبلها، نادرا ما يفترقان، وفي أيّام الأحاد، يلتقيان في المكتبة، يبتّ أحدهما للآخر، يشكو إليه، يودّ لو يظلّ معها طول العمر، لكن ما كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه، إذ غالبا ما تعترض الرّياح العاتية سبيل تقدّمه، إنّّه ما يزال يتشوّف إلى آخر لقاء جمعه بها، قالت له في لوعة غير خافية إنّهم سيغادرون إلى مدينة أخرى، عمل ولدها حتّم ذلك، الانتقال سيتمّ في ظرف أسبوع على أقصى تقدير، إذا لم يكن قبل ذلك بيوم أو يومين.

كان حائرا، يعوزه الحسّ السليم في تقدير الموقف، هل يقابلها ثانية؟ هل يقاطعها؟ إذا قابلها، سيتضخّم إحساسه بالوحدة عند الفراق، وستهيجه لحظة المغادرة دائما في شكل ذكرى مريرة، وإذا قاطعها، سيشعر بندم لن يسامح عليه نفسه، سيبكّته ضميره، سيرى في ذلك خيانة لا تغتفر، في اليوم الذي سترحل الأسرة في مسائه، التقاها، لم يجد ما يقوله لها، خانه قلبه، كلّ ما فعله أنّه ظلّ طوال الوقت ينظر إليها، كأنه يريد لصورتها أن تنطبع في ذاكرته، ليتزوّد منها في الأيام العجاف التي ستعقب اختفاءها إلى الأبد، قاسية ساعة الانفصال كانت، دامية، تشابكت أيديهما في رجاء، مكثا وقتا طويلا واقفين، يرنو أحدهما إلى الآخر، أعينهما تشي بلحظة الانفجار، اختفت «كوثر» من عالمه، لكي ينسى ثابر على الدّراسة، أفنى طاقته فيها، لم يذهب جهده هدرًا، ختم الدّراسة الثّانوية بتفوّق، وبرّت والدته بوعدها، فأدخلته كلىة الهندسة، وصرفت عليه بسخاء، لم تبخل عليه ببضياء، أو صفراء، شجّعته، بثّته روحا جديدة، حتّى تخلص من آلام حبه الأوّل، وتخرّج مهندسا ناجحا، في إحدى كليات الحاضرة!!

هي ذي ذاكرة النّسيان . ذاكرة المنفى . تنشر بعد طيّ سنين، وميمتر العمق الذي كان منغلقا على ذاته محدثا أوّل الأمر وشوشة، أشبه ما تكون بذلك الصّوت الذي يتكوّن حال التّفاء أمواج البحر برمال الشّاطئ، ثمّ بعد ذلك تتلاشى الوشوشة لتعوضها جلبة صاخبة وبداية هدير، ويطغى الهدير، ويبلغ ذراه، شبيها بإعصار، يلتحم مع العاصفة ليدمر كلّ شيء، ليقطب كلّ شيء رأسا على عقب، لكن ما يفتأ السّكون أن يعقب العاصفة، وتستعيد الأشياء سيرتها الأولى، وبديل الصّمت الأسود، الذي كانت تغلفه شتّى المخاوف والهواجس، ترين سكيّنة وطمأنينة، كان، وهو على فراشه، يكاد يلمس هذه السّكيّنة بأنامله القلقة، ويرى الطّمانينة تتجسّد طائرا أبيض، غاية في الجمال، يعاّبث

خياله في بهجة، ألا يحقّ له قبل كلّ شيء أن يسعد بكشفه الجديد؟ أن يطمئنّ لظفره المفاجئ بهويّته الضائعة؟ وقف، بهدوء، على قدميه، ألقى نظرة فاحصة على ما حوله، على رئيس القافلة الذي ينام بجانبه، على الرّجال المتمدّدين في أطراف الخيمة، فنَدّت عنه ابتسامة خفيفة، اختصرت جميع ما يعتلج ب صدره من سعادة ورثاء وشفقة وأمل وحنين، خطأ ببطء، وحذر، مخافة أن يوقظ أصحابه، عند بلوغه الكوّة المفضية إلى الخارج، توقّف من جديد، ورنّا بعينين مترقّبتين إلى الفضاء الذي كانت تلفّه ظلمة خفيفة أمامه، الخيام المتناثرة هنا وهناك، الرّمال النّدية برذاذ المساء الرّاحل، منظر الجمال الباركّة الذي بقدر ما يأنس إليه، ويشعر حياله بالاستكانة، يذكّره دوماً بدنو الرّحلة وبدء السّفر، بأنّه مفارق، مؤقّت، عابر، كانت الجمال المتخفّفة من أحمالها، أكياس من اللّيف محمّلة بالقمح، موقّرة شعيرا وتمرا، جلس الخيام، كانت هذه الجمال على قيد أنملة منه، نظراتها لا تمتّ بسبب إلى هذا العالم، علويّة الألق، شفيفة الأبعاد، صافية الحضور، تطلّ أشداقها تلوك، تدور في فراغ، طردا لبقايا التّعب، ودرءا للسّأم، وسط هذا المتاه الذي لا يعلم له أوّل من آخر، مضى يطلق رجليه في رحابة المكان، الغليون في يده، وقد نسيه، مشرّبًا بعنقه إلى مشرق الشّمس، زائغ النّظرات، تتأمّل عيناه الحمرة الشّفقيّة التي تبشّر باقتراب الفجر، دون أن يستثير ذلك ما كان يستثيره عادة من شعور بالانطلاق، بأنّه بعد قليل سينتظم في عالم النّهار الهيج، غائبا كان، جسده مائل في كونه الجديد، راسخ في ثبات، أمّا فكره فعلى مفترق طرق، ينأى به إلى الماضي البعيد تارة، ويمهرب به إلى تخوم مجهولة خطرة تارة أخرى، أعادته قطرة مطر سقطت على خدّه إلى نفسه، وعى أنّه كان مهوّمًا، أنّه ابتعد كثيرا، إلى حيث لا يجوز له الآن، وقد لا يسعفه الرّجوع، قد لا يهتدي إلى الوصول، عليه أن يخفّف حدّة شعوره بالغربة بالسّلو، هذه القافلة هي وطنه، هؤلاء النّيام في الخيام هم كلّ شعبه... قويت حدّة المطر،

مضت بضع ثوان نزل فيها بغزارة، زخّات متتابعة متدافعة، اضطرب جسمه، لكنه لم يحاول الانسحاب إلى داخل الخيمة، افترّ ثغره عن ابتسامة، رفع يديه إلى السّماء، كما كان يفعل، وهو صغير، أوشك أن يرقص، إلّا أنّه أمسك، هينم صوته ببقايا أغنية قديمة، اقترب من أحد الجمال، فربّت بعطف على سنامه، فحرّك الجمل بدوره رأسه، ورنّا إليه في لامبالاة، وهو عائد إلى داخل الخيمة، أدرك أنّ مصيره قد تحدّد بمصير القافلة، سيكون له من بدء لحظة الانطلاق ما لها، وعليه ما عليها، بوحه، مسارته إلى رئيس القافلة، سيسهل الاندماج، سيختصر المسافة، ارتاح إلى خواطره هذه، فجلس القرفصاء، محيطاً بذراعيه ساقيه، ثقل جفناه، غافله وعيه، فسقط رأسه ما بين ركبتيه، إذ ذاك فقط، اكتشف أنّه لم ينم، أنّه استغرقه التفكير طوال ليلة كاملة تقريبا، بدا على إثرها كأنّه مخدّر، ألا ما أثقل حمل الماضي عليه! استلقى على الفراش، وسرعان ما راح يغطّ في نوم عميق.

عند الضّحى، استفاق، ونظر إلى جانبه، وهو ما يزال يفرك عينيه ليطرّد آخر بقايا النّوم، فلم يجد رئيس القافلة، واعتدل في جلسته، ثمّ قلب ناظريه حوله، فلم ير لأحد ممّن كان رآهم البارحة نياما في الخيمة أثرا، ومدّ بصره إلى الخارج فلاح له نور ساطع وحلقة الرّجال، ارتفع صوت فناده، عرف فيه صوت رئيس القافلة، ذكرّه صوته بعزمه، بما عقد عليه النّيّة في الهزيع الأخير من اللّيل، خفّ ملتبّيا، يستخفّه طرب ونشاط، وحين داني الحلقة أطلق تحيّة جامعة، وهو يرفع يده اليمنى إلى مستوى رأسه: «حيّا الله الرّجال... حيّا الله الرّجال.» طأطأ رأسه تأدّبا، تطلّعت إليه وجوه الرّجال الملتّمين، ولم تخف على عينيه اللّتين ظلّتا تسترقان النّظر إليهم، من حين لآخر، دلّائل التّرحيب، والدّعوة في عيونهم، أشار له رئيس القافلة إلى مكان شاغر بجانبه الأيمن، كان أفسحه أحد القوم، فجلس ممتنّا ولسانه يلهج بالثناء

والحمد، ناوله الرأس مشرباً مترعاً بلبن النّوق، ودفع أمامه بتنكة بها بعض التّمر، وهو يقول: «بعض اللّبن الجيّد وبعض التّمر على الرّيق مفيدان للصّحّة، قد يغنيان ليوم كامل!» رجاء أن يأكل معه، ألحّ على البقيّة أن يشاركوه زاده، حتّى يكون «ماء وملحاً»، لكنّه اعتذر، واضعاً راحة كفّه على صدره دلالة الاكتفاء، فاعتذروا هم لاعتذاره، قال له الرأس إنّهمْ أفطروا، وهذه حصّته، كلّ شيء في البريّة بقدر، المشي بمقدار، الرّكوب بمقدار، التّعب بمقدار، الراحة بمقدار، السّرى في النّهار، الهجوع بالليل، والطّعام كذلك بمقدار، ولا يجوز لأحد من أفراد الجماعة أن ينال أكثر ممّا هو مقدّر له، سيكون ذلك، لو حدث، امتيازاً يأباه العدل والحقّ، سيكون باطلاً زهوقاً! لم يستطع أن يلتزم القصد رغم محاولاته، فإذا ما انتوى أن يزدرد حبة تمر واحدة وجد نفسه يزدرد حبتين، وإذا ما عقد النّية على التهام حبتين، تلهّفت شهيتّه إلى أربع أو خمس، وفكر أنّه لا أقلّ من أن يدع خثارة اللّبن بالمشرب، طرداً لرميه بتهمة التّم، فوجد نفسه تتنازعه إليها، وعيناه تطرفان نحوها، في نظرة جانبية، اشتياقاً ولهفة، ولم يشعر إلّا ويده تمتدّ، لإرادياً، إلى المشرب قبالتة، وفمه يحسو البقيّة الباقية فيما يشبه الرّفير، ردّد الجميع في صوت واحد، عند انتهائه: «أكلت هنيئاً وشربت مريئاً.» فشكر لهم ودّهم وكرمهم ونجدهم، ثمّ لاحظ الرأس تردّده، وهو يأكل فالتفت نحوه هاشاً باشاً وهو يقول في صوت أراده أن يكون رقيقاً خافتاً: «يستحسن بالطّائر مثلاً، في هذه الصّحراء، أن لا يخجل من لقمة يأكلها أو جرعة يشربها، فالجوع، كما الظّمأ، هنا، عادة قاهرة علاجها الاستمسك بالصّبر والاكتفاء على قدر الحاجة!» ألمته ملاحظة الرأس، والذي ألمه أكثر أن تصدر هذه الملاحظة عن الرأس نفسه، جلاً ما بين شفّتيه، أحسنّ رغبة لا تقاوم في إيجاد تبرير أو عذر، قرّب فمه من أذنه كأنّه يهمس، قال: «كنت جائعاً. لم أحتط لهذا الخروج غير المتوقّع؛ ومن جوعي اضطررت إلى التّقوّت بحبّات الرّمّل!!» رانت فترة صمت بينهما،

بعد ذلك، وهفت نفسه خلالها إلى ربط الاعتذار بالمساررة، بمكاشفته بما وطن عليه النية، ساعة خلوه وفروغه الليلة الماضية، استجمع شجاعته، استعدى على خوفه وقلقه بما تزود به في ذلك الصباح من نشاط وإيناس وألفة، أحسن الكلمات تتلبس بدفق دمائه، وتصعد مندفعة في تراكض، حتى بلغت حلقه وكادت ترسلها للهاء، كان الرأس يحاصره بنظراته دون أن يشعره بذلك، ولعله أحاط ببعض ما يعتمل في أعماقه من صراع باطني، والمؤكد، الموثوق به، أنه رثى لاضطرابه صادقا، فلما أن فتح فمه ليتكلم، سبقه إلى الكلام بأساير مسفرة وابتسامة كبيرة غطت على كامل وجهه، بعد أن أوما إليه بيده إشارة الكف والترث، قال: «قال الأقدمون: بعد الأكل والشرب لا بد من السبيس». ومن الدهشة البادية على قسمات جليسه، حينما اختلس نظرة عجل إلى، ومن اضطراب أجفانه وتقلص سحنته، أدرك غرابة موقع الكلمة الأخيرة على مسامعه، واجهه حتى التقت عيناها، تفرس فيه مليا، قال شارحا إن «السبيس» اصطلاح جرت عليه ألسنتهم، تكنية عن الدخان، لطول ما ردتها أفواههم ألفوها، اعتادوها، كما لو أنها قبس ينير أفناء نفوسهم المظلمة... كان الحديث عن الدخان إيذانا لـ «بنوقيا» بأن يبدأ واجب الخدمة، قام من مكانه، وانتحى جانبا لمدة قصيرة، ثم عاد ويده غليون كبير أعطاه للرأس، تسلّمه الرأس، وشفط منه أنفاسا متتاليات، نفث الدخان، مدّ يده بالغليون لـ «صادق»، فراح يجذب منه بدوره، انتقل الغليون بعد ذلك إلى الجماعة، بالتداول، الأقرب فالأقرب، ثم الأبعد فالأبعد، انتهز الرأس فرصة انشغال الرجال عنهما، قال هامسا: «يبدو من قلقك واضطرابك أنك تريد أن تخبرني شيئا!» ثم أمرا، بنبرات مطمئنة: «اسبقني إلى الخيمة، وسألحق بك بعد قليل». نهض، دون أن يجلب انتباه الجلوس، دلف إلى الخيمة فانتبذ جانبا منها، يرتب في ذهنه طريقة يبدأ بها الحديث، وبينما هو في استغراقه دخل عليه الرأس، مشمولا بهيبته ووقاره، اتخذ مكانا قبالة،

وابتدره مشجعاً: «هات!»... أخبره بجليّة الأمر، منطلقاً، بسلاسة، وقد زائله التردّد والتّوجّس، لم يحاول أن يخفي عنه شيئاً، فما أن أتى على آخر الحديث، حتّى أشرقت ملامحه وأضاءت، هنّاه الرأس وشدّ على يده، وقاده إلى الخارج، أمام الخيمة، حيث واجه الجميع قائلاً:

آن لكم، أيّها الركب الظّاعن، أن تهنّئوا ظاعنا جديداً، سينظّم منذ اليوم إلى القافلة في رحلة القدرالتي لا يعلم مآلها إلاّ الله تعالى، اسمه صادق، والله نسأل أن نهتدي ببركة أحرفه التّامّات إلى وضوح المحجّة، وجلاء الطّريق، وحسن الختام!

تداولوا على تحيته واحداً واحداً، هنّاه جميعهم بالسلامة، ووعدوه في رفقتهم خيراً، لم يدم حالهم غير ثوان معدودات، تبدّت على قصرها دهرًا طويلاً، قطعها عليهم الرأس بأن اعتلى سنام بعيره، وأخذ بخطامه، لاكراً إيّاه بعضاً صغيرة في جنبه، دون أن يلتفت إليهم، قال باقتضاب: «حيّ على الرّحيل!» أخذ الكلّ مكانه، وانتظم القطار، سائراً، متتابعاً، حاشداً، منساباً، على ليونة الرّمْل، تحت شمس لم تكن حدّتها قد اشتدّت بعد، على تبسّطه وجمّ أدبه خلال فترة الإقامة، لم يخل من مخاوف، دهمته هواجس شتّى، ما المرحلة التّالية؟ ماذا ينتظرهم؟ ترى أين ستطلع عليهم شمس النّهار التّالي؟ مسؤوليته هو لم تكن حيال نفسه فحسب، لو كان الأمر كذلك، لهان، كلّ فرد في القافلة، على حدة، مسؤول، بشكل أو بآخر، عن سلامته، أمّا هو فمسؤول عن الجميع، جملة، دون استثناء، فعليه الإشراف، والمتابعة، والنّصح، والتّوجيه، والإرشاد، منذ أن لفّتهم طيّات المتاه. وذلك منذ عهد بعيد. لم تهدأ أعضاؤه، لم تفتّر حركته، إذا أرق أحدهم سامره حتّى ينام، إذا شكّا أيّ واحد منهم تألّم معه ورقّ لحاله، إذا مرض طبّبه وسهر على راحته، حتّى يعاوده نشاطه وصحّته، بينه وبين نفسه لا يحسّ بالنّدم على كلّ ما

فعله، ذلك كان واجبه، أليس هورئيس القافلة، ولم يعد أن أدّى مهمّات الرئاسة بتفان؟ لكن ما يحزّني نفسه، في هذه المرحلة من الرحلة، عجزه، قصوره عن إيجاد المنفذ، تلمّسه لبصيص الأمل وسط هذا اللاتناه، والأمر، الأدهى من كلّ ذلك، أن يكلّل سعيه، بعد هذه الأشواط، بالخيبة، أن يقود القافلة إلى تهلكة، وهو مناط الرّجاء، قياد الجميع بيده، أسلموا إليه أمرهم طائعين راضين، إنّ أحيانا يتساءل: ما ذنبه؟ يوسوس له صوت بداخله، لا يكفّ عنه في ليل أو نهار، يضاعف ذلك من ألمه، يقتنع أنّه مذنب، يقول له الصّوت: «إنّ الإخلال بالمسؤوليّة إثم عظيم، عقابه عند الله وخيم، فلا أقلّ من محاسبة، على إثرها تكون جهنّم مقامه ومآله!...» حينما يهدأ بلباله، يطمئنّ، يهوّن عليه أنّه ليس بخيرهم، بل هو واحد منهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم، إذا جاعوا جاع معهم، إذا ظمأوا ظمأ معهم، إذا توجّسوا توجّس، إذا أرقوا أرق، ونجاتهم أو هلاكهم ليس رهنا بأحدهم دون الآخر، بل رهن بالكلّ، وهو. من كلّ قلبه، يسأل الله كشف الكربة، والسّتر، والفرج بعد الشّدة، كان كثيرا ما يتساءل: لماذا التّبست عليه السّبل؟ لم يحدث له ذلك من قبل، لماذا نسي علم الميقات، كأنّه لم يكن أحد العلماء النّادرين العارفين به يوما؟ لماذا لم تعد حواسّه قادرة على الاهتداء بالنّجوم، فضيّع الاتّجاه والجهات؟ لماذا، حين رام نشدان حاسته السادسة القويّة، في الملمّات، أعوزته، وقد كانت من قبل ذلك لا تخونه أبدا ولا تكذّبه؟ فماذا طرأ؟ ما الّذي استجدّ؟ الحكمة لا يعلمها سوى الله؟ أسوء حظّ ملازم، مقيم؟

لم يفض بهذه الهواجس إلى أحد من القافلة، مهما كانت وطأتها، وثقلها على نفسه، وقد أفضى بها إليه هو. «صادق». وهو يسايره، على ناقة مهريّة، يحاكي لونها لون الأديم، وبثّه مخاوفه سرا، قال له إنّ لم يصارح أحدا بما عنده، لئلاّ يثبّط همّة، أو يفقد أملا، وقد همس إليه بدخيلة نفسه لسبيين اثنين: أولهما أنّه لم يعد في قوس الصّبر منزع، فوساوسه أصبحت أشبه بالمرض العضال، لا تكاد تكفّ حيناً، إلّا

للتجّد في كلّ حين، مسبّبة له كربا ينوء به ظهره، وغصّة يضطرب بها حلقة؛ وثانيتها أنّه ارتاح إليه، أنس به كأخ لم تلده أمّه، منذ أن سمع حكايته أحبّه، وجد فيما رواه له عزاء، أعاد ثقته التي بدأت تزعزع في قضاء الله... وقد أمّل الرأس، إضافة إلى هذين السببين، وهو مأخوذ مهور بما سمعه من تفاصيل ذكرى صاحبه، أن يستعين بخبرة ماضيه، ماض رآه مغايرا لما ينتسب إليه هو، معقّد في جزئياته، يفوق في أبسط تعقيداته أقصى مستقبل يمكن أن تطمح إليه أسماء قديمة جدّا، على غرار «تارخ» و«ناحور» و«أشعيا» و«بنوقيا» و«شمعون». فلماذا صدّق إذن ما سمعه على غرابته؟ لماذا لم يبد استنكارا أو على الأقلّ سخرية خفيفة، تلوح كالطيف على شفّته الكالحتين؟ لم يكن لديه خيار آخر، غير التصديق، فعدمه لن يجديه نفعا، أو لا يقولون: إنّ الغريق إذا أعجرتة الحيلة في النجاة تعلق بقشّة!

سأله، ودائما بنفس النبرة الهامسة، وهويميل بجذعه إليه:
ماذا ترى فيما نحن فيه؟

لم يتحقّر للكلام مباشرة، على العكس فقد طال صمته، وهويتلّع أمامه إلى المدى اللامحدود، في استوائه حيناً، وارتفاعه أحيانا أخرى، في رماله المبتوثة حيثما امتدّت العين، في شكل طبقات رقيقة متراكبة، مناسبة، مع هبات الهواء الساخنة، أو عروق، أو كثبان، أو في شكل مجال سرائية، تلوح مجسّدة لأمنية مضمرة، تنطوي عليها صدور ظماء عجاف... واحات تظهر بين الفينة والأخرى، ثم تختفي بنخيلها وطيب ثمرها وغدرانها، برك من الماء تترقرق متراقصة، ظلال كثيفة تتخلّل مروجاً خضرا، أطيّار وأنهار، أصوات منغّمة كأنّها الغناء، تأنس إليها الرّوح من استيحاش... عنّ له فجأة أن يقول، دون تفكير، وقد استهواه تسريح الطّرف في «الأمام» اللامتناهي:

.علينا بالتزام الأمام!
مال عليه الرأس ثانية. بدا محتارا وهو يسأل:
.أي أمام تعني؟ إنك حيثما وليت وجهك طالعك الأمام!

ثم مضيفا بعد صمت وإطراق:
.لو كنّا على الأقل نستطيع تحديد الجهات!

قال له هو كأنّه لم يسمع كلامه:
.أنصح أن نتّبع خطأ مستقيما، لا نحيد عنه، فنجعل تلك الجبال
البعيدة التي أمامنا وجهتنا.

طرقت كلمة «الجبال» أذن الرأس، فكان لها وقع غريب عليه. ليس
منشؤه أنّه يسمع هذه الكلمة لأول مرة، ولكن عجبه من أنّه لم ينتبه إلى
سلسلة الجبال القائمة أمامه، على قريبا، إذ لو كلّف نفسه عناء هزّة
رقيقة من رأسه لكان طالعه سموقها وشموخها، ولكن لعلّه لم يلق إلها
بالألّاهة لم يكن يتصوّر أن يكون المنفذ في طرف تلك الصّخور الصّماء.
قال:

.لا أعتقد أن يكون في تلك الجبال خلاصنا! حتّى يتسنى لنا العبور
إلى الجهة الأخرى سيكون علينا تسلّق ذروتها، وهذا مستحيل!! سيكون
في ذلك مخاطرة وأيّ مخاطرة!!

أجابه، وهو مقتنع بكلامه تمام الاقتناع، إلّا أنّه لم يشأ أن يفقد
الأمل:

.وما يدرينا لعلّ خلاصنا يكون حيث لا نظنّ أننا ملاقو خلاصنا؟ ثمّ ألا
يجوز أن نجد في مكان ما من تلك الكتل الصّخرية ولو مخرجا واحدا؟

قال الرأس باقتضاب، وباستسلام من لا يملك بديلا آخر:
يجوز.

الجمال تخبّ في مشيها، ترتفع أضلاعها المستديرة المحرشفة وتنخفض، تغطس في الرمال اللينة، في حركة محسوبة، متّسقة، لا تتغيّر أبدا، بطونها الضّامرة المشدودة، تندفع، آليا، إلى الأمام، ثمّ إلى الخلف، على جوانبها تسترسل الأكياس محشوة، عامرة، في حين رؤوسها الوقورة، الهادئة، تشرّتب إلى الأقصي البعيدة، إلى نقاط غير مرئية، لا يراها سواها، ربّما رغبها في الإناخة، في تفيؤ الظلال، أظهر من رغبة أفراد الركب، ربّما تسامقها برقابها المديدة العريضة يخفي وراءه شوقا إلى المراح الفسيح، حيث صفائح الماء وأوعية الإبريسم المملوءة، ربّما تتمي، في قرارها، لو كانت حركتها أسرع، لو كانت لها أجنحة تطوي بها المكان، وتسابق الزّمن!... عند حدّ ما، اختفت عنده آثار المشقّة، غدا خفيفا، منسجما على ظهر ناقته المهرية، وقد أسلس لها القيادة، أبدى حركة تشي بأنّه يريد التّزول، مال قليلا بشطر جسده الأيمن، رفع رجله اليمنى حتّى صارت في مستوى نهاية السّنام، وتحقّز بباقي جسده، ساعتنذ طغى عليه اعتقاد أنّه بلغ غاية الراحة، وأن له أن يفسح فرصة الاستجمام لغيره، مادام كلّ شيء بقدر، لكنّ الرأس الّذي لم يتفطّن إلى نيّة قصده إلّا في اللّحظة الأخيرة، جرّاء شروده، بدر منه في البداية اعتراض خفيّ، سرعان ما تحوّل إلى تصريح حازم، لا يقبل الشّكّ، تقلّص وجهه في انقباض، وغاضبت الابتسامة الّتي لم تكن تفارقه، مفسحة المجال لرنوة غضب يمازجها عتاب، أمّا التّصريح فقد ترجم عنه بالكلام، لم يكن رقيق اللّهجة، ولا شديدها، ولكن بين بين، فيها عتاب وفيها رقة، فيها حدّة خفيفة وفيها ليونة، فيها ترفّق وفيها حزم: «ارجع إلى مكانك، ولا تحاول التّزول، ففي هذا اليوم لك النّاقة خالصة لك وحدك، لا يشاركك فيها راكب، فطب نفسا!!!» نازعته نفسه إلى الرّفص، إلى إبداء الاحتجاج، ليس هو خيرا من غيره، كلّهم سواء،

القريب من الرأس والبعيد عنه، الأثير لديه والقصبي عنه، صوته خانه
فتراجع، ما طمأنه أنّ هذا الامتياز لن يتكرّر في قابل الأيام... كان قرص
الشّمس يكبر فوقهم، ببطء ينتظم في المدار، ولا سحابة واحدة، سوداء
هامية حبلى، أو بيضاء، شاحبة باهتة، تحجب لهما، أو تدفعها عنهما،
المناه امتداد لا ينتهي، والحرارة امتداد آخر، يبدو للحظة كالأبد، يفنى
الفناء ولا يفنيه، خيوط شاقّة، مستدقّة، هفافة، تجمع كلّ الألوان،
تنطلق من القرص، تميل متنافرة، تخترق الخواء، إلى الهدف مباشرة،
تنوء الرؤوس، تلافيف الدّماغ يعتورها الخدر، حيث لا فواصل بين
الأشياء، لا بدايات، لا نهايات، لا حدود بين الحلم والواقع، شعور واحد
بالعطش، شعور مماثل بالإعياء، يحدّان الرّاكب، وكذلك الرّاحلة،
ولا مأمّن من الوهج، من أوّار الجحيم المتقد، حيثما مددت طرفك، لم
يطالعك سوى رفيف من شجيرات صغيرة، مستدقّة الأطراف، شوكة
اللّحي، لا ظلّ تحتملها لمستجير، أو كثبان من الرّمال، تسفعها حرارة
الشّمس فتغدو هي نفسها أشد على الإنسان من الحرارة ذاتها... «هنا
لا ماء ولا شيء عدا الصّخر/ الصّخر ولا ماء والطّريق الرّملي...» الآن،
فقط، يدرك معنى أن يكون كلّ شيء بقدر: الماء، الزّاد، السّرى، الإدلاج
بليل، أمّا الرّاحة فسيعرّض عليه طعمها، حين يفقدها. وسيكون ذلك
قريبا، بانتهاء فترة المجاملة، الرأس نفسه لا يستنكف من التّخلّي عن
ترك ظهر مطيّته لغيره، هذا نظام معروف، لا يشدّ عنه إلّا جاحد ناكر
للجميل، أو مارق طامع... عطاش، ينزّ العرق من جباههم المتحلّبة،
والماء في ركائهم، ولا يشربون، هذا أغرب ما رآه بعينه، ولم يسمع عنه
من قبل، ذكر البيت المشهور: (كالعير في الببغاء يقتلها الظّمأ*) والماء
فوق ظهورها محمول)، وأعادته مرارا، وهو يضحك من القهر، قال
الرأس: الشّرب لميقات والطّعام لميقات، ولا بدّ من التّدنّع بالصّبر!...
أجل، الصّبر، ليس لديه غيره، وإذا لم يتعلّمه في السّابق، فعليه أن
يروض عليه نفسه من الآن فصاعدا، الشّمس من فوق تلهب الرؤوس،

والرّمال من تحت أقدام رواحلهم تفور، وعلى الجانبين لا مهرب من لبح الهجير، دفعه ذلك إلى التّفكير في الجحيم. تضخّم وعيه بها إلى درجة لا تطاق، لم يصدّق عقله أنّ هناك نارا تستطيع أن تفوق نار هذه الحرارة القائلة، وزجره قلبه، رماه بالكفر، محتجّا بأنّ هذه النّار الّتي يتقلّب بين أتونها، لا تساوي شيئا أمام نار الله الموقدة... حلّ المساء أخيرا على الكون كالبلسم الشّافي، وضعفت حدّة الشّمس. راق النّسيم وبدأ يبرد، وما فتئ أن هجم اللّيل، مسدّلا جميع ستائره الّتي كان القمر والنّجوم يبدون فيها كالثّقوب، التأم القوم جماعات صغيرة، حول أبنية الخيام، غير بعيد عن الجمال الباركة، والأكياس المتراففة في عناية، وطعموا، وارتووا، وتسلطنوا في حضور «السّيس»، ومملكة الدخان.

دعا الرّأس «بنوقيا»، فاشراّبّت أعناق جميع الرّجال نحوه، إنهم يدركون أنّ وقت السّمردق حان، وإذا ما دعي «بنوقيا» فمعنى ذلك أنّ هناك حكاية في الأفق، انفضّت الحلقات الصّغيرة، لتصبح حلقة واحدة، واسعة، كبيرة، وأفسح الرّأس لـ«بنوقيا» مكانا إلى يساره، وما أن استقرّ به المقام، حتّى ابتدره باقتضاب أمرا:

هات.

تطلّع «بنوقيا» إلى الوجوه بعين فاحصة ثاقبة، وعدّل في جلسته، ثمّ قال بعد أن عبّ من الغليون الّذي مدّه إليه الرّأس:

«يحكى أنّه كان لبعض السّلاطين ابنة وقد تعلّق قلبها بحبّ عبد أسود فافتضّ بكارتها وأولعت بالنّكاح فكانت لا تصبر عنه ساعة واحدة فكشفت أمرها إلى بعض القهرمانات فأخبرتها أنّه لا شيء ينكح أكثر من القرد فاتّفق أنّ قردا مرّ من تحت طاقتها فأسفرت عن وجهها ونظرت إلى القرد وغمزته بعيونها فقطّع القرد وثاقه وسلاسله وطلع لها فخبّأته في مكان وصارا ليلا ونهارا على أكل وشرب وجماع ففطن أبوها بذلك

وأراد قتلها...

وصمت برهة سحب خلالها الدخان من الغليون، ثم واصل قائلاً: «... لما فطن [السُّلطان] بأمر ابنته وأراد قتلها شعرت بذلك فتزيت بزي الممالك وركبت فرسا وأخذت لها بغلا وحمّلتها من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف وحمّلت القرد معها وسارت حتّى وصلت إلى مصر فنزلت في بعض بيوت الصّحراء وصارت كلّ يوم تشتري لحما من شابّ جزّار ولكن لا تأتيه إلاّ بعد الظّهر وهي مصفرة اللون متغيرة الوجه. فقال الشاب لا بدّ لهذا المملوك من سبب عجيب فلمّا جاءت على العادة وأخذت اللحم تبعها من حيث لا تراه قال ولم أزل خلفها من حيث لا تراني من محلّ إلى محلّ حتّى وصلت إلى مكانها الذي بالصّحراء ودخلت هناك فنظرت إليها من بعض جهاته، فرأيتها استقرّت بمكانها وأوقدت النّار، وطبخت اللحم وأكلت كفايتها، وقدمت باقيه إلى القرد الذي معها فأكل كفايته. ثمّ إنّها نزعّت ما عليها من الثّياب ولبست أفخر ما عندها من ملابس النّساء فعلمت أنّها أنثى أحضرت خمرا وشربت وسقت القرد ثمّ واقعها القرد نحو عشر مرّات حتّى غشي عليها. وبعد ذلك نشر القرد عليها ملاءة من حرير وراح إلى محلّه، فنزلت إلى وسط المكان فأحسّ بي القرد وأراد افتراسي، فبادرته بسكين كانت معي فضربت بها كرشه. فانتبهت الصّبيّة مرعوبة فرأت القرد على هذه الحالة فصرخت صرخة عظيمة حتّى كادت أن تزهدق روحها ثمّ وقعت مغشياً عليها. فلمّا أفاقّت من غشيتها قالت لي ما حملك على ذلك، ولكن بالله عليك أن تلحقني به. فلا زلت لأطفها وأضمن لها بأنّي أقوم بما قام القرد من كثرة النّكاح إلى أن سكن روعها وتزوّجت بها فعجزت عن ذلك. ولم أصبر عليه فشكوت حالي إلى بعض العجائز، وذكرت لها ما كان من أمرها فالتزمت لي بتدبير هذا الأمر، وقالت لي: لا بدّ أن تأتيني بقدر وتملأه من الخلّ البكر وتأتيني بقدر رطل من العود القرح. فأتيت لها بما طلبته فوضعت في القدرو وضعت القدر على النّار وغلّته غليانا قويّا...

كانت أمارات الجدّ بادية على وجه «بنوقيا»، وهو يتكلّم، وسحنته كانت تنقلّص باستمرار كلّما بلغ به الحديث مواضع المواقعة، وقد صمت عند هذا الحدّ ريثما يستردّ أنفاسه المبهورة، إلّا أنّ صمته قد طال، فدفع ذلك بعض السّمّار أن ينهيه قائلا:
وماذا بعد؟

تطلّع إلى الوجوه من حوله كأنّه يؤوب من عالم مجهول، أو فضاء سحيق، وقد بدا شاردا، زائغ النّظرات، غير أنّه اغتصب ابتسامة في التّهاية رنت على شفّتيه بوداعة، وقال:
«إنّ الشّابّ قال: وقد صرف الله عنها تلك الحالة وتعجّبت من ذلك فأخبرتها بالقصة واستمرّت معه في أرغد عيش وأحسن لذة واتّخذت عندها العجوز مكان والدتها وما زالت هي وزوجها والعجوز في هناء وسرور إلى أن أتاها هازم اللّذات ومفرّق الجماعات فسبحان الحيّ الذي لا يموت وله الملك والمملوكوت.»

ما كاد يأتي على آخر الحكاية، حتّى التفت إليه الرّأس، وقال يسأله بدعابة:
أراك لا تورد حكاية من حكاياتك إلّا وتكون المرأة مندسّة في إحدى جنباتها، فما علّة ذلك، يا ترى؟

قال «بنوقيا» ببساطة، وهو يقرب خرطوم الغليون من شفّتيه:
إنّه التّعلل، يا سيّدي!... وهو كلام يقال، على كلّ حال، أشبه بقبض الرّيح، له حلاوة ما تعتم أن تتلاشى، ومتعة لاتدوم غير ثوان!

ثمّ، وبما له عليه من دالّة، أوجمها طيب مخبره وحسن مسامرته:

لقد خرجت، يا سيدي، مغادرا، مفارقا، وأنا الآن لا أذكر شيئا عن المكان الذي جئت منه، أو القوم الذين عاشرتهم، أو العشيرة التي أنتمي إليها، وبرغم ذلك كله، يخيل إلي أن حقيقة واحدة ظلت عالقة بذهني من آثار العهد الأول...

سحب الدخان إلى صدره ثانية من الغليون، وهو يرنو إلى الأعلى، إلى القمروتخت النجوم، كما لو كان يستنجد بهم جميعا على إسعافه ولو بقبض يسير من الذكرى الزاحلة.

قال الرأس، وهو يلکزه بمرفقه في جنبه، كأنه يقول له: «حرم عليك الشُّرود وقت المسامرة!!» سأله في لهجة بين اللففة والتعجل: وما هذه الحقيقة؟

أجابه:

لقد غادرت وما شخص على البسيطة أخبر بالنساء مني، وما أعشق مني لهنّ، أو أكثر تبسّطا وترقّقا بهن مني... أحببت كثيرات ممّن صادفتهنّ، أبكارا وثيبات ومطلقات وأرامل، وحتى المتزوّجات لم تنقذهنّ حصانتهن مني. لقد كنت في ذلك العهد كالثور الهائج، وما أنتذا الآن ترى أن لا ملجأ سوى التعلّل!!

الحديث يطول أو يقصر، يضيق أو يتشعب، تبعا لرغبتهم من ناحية، أو حالة أجسادهم من ناحية أخرى، فكثيرا ما فرغوا إلى النوم، وما زال الهزيع الأول من الليل لم ينقض بعد، وفي أحيان أخرى، وهي كثيرة أيضا، تستغرقهم الشّجون، وتستمرّ بهم المسامرة إلى وقت متأخّر من الليل، بل قد ينفصّ سامرهم حين حلول الفجر، حينما يسفر الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولولا علمهم وإدراكهم بما ينتظرهم كلّ يوم من ضنك المشقة، والجهد، عدا الجوع والعطش، لما كان إحياء الليل كلّ كثيرا عليهم، ولولا إحساس الضياع، وغلبة

المتاه على تفكيرهم، لاستقبلوا الرحلة بقلوب مطمئنة، منشرحة، لا تشوبها عكارة حزن... عزاء المحزون دائما هو النوم، النوم إذا كان خلوا من الأرق والكوابيس! فبعد النوم، وعقب الإفافة الأولى، يحتد الوعي بالشّوط الذي سيقطع خلال اليوم، بالحرارة المطلقة، كملكة مطلقة تبسط جناحها على الصّحراء اللامتناهية، بالعذاب الذي لا مهرب منه، والخوف من نفاذ الزّاد الذي بدأ يتناقص يوما بعد يوم، حتّى اضطرّ الرأس إلى إعطاء كلّ واحد منهم حبة واحدة من التّمركلّ يوم، والماء المتبقّي لم يعد يفي بالحاجة، جفّت منه جميع الركاء، سوى ركوة واحدة، احتفظ بها الرأس في رحل مطيته، لا يعطي منها إلّا بقدر، جرة لكلّ واحد بعد كلّ ستّ ساعات من المسير المتواصل، مازالت ذكرى اليوم الأوّل مع القافلة تطنّ في رأسه، يومذاك أسبغوا عليه كرمهم، منحوه راحة يوم كامل على ظهر النّاقة المهرية، النّاقة الفارهة، لكم تمثّى لو خلص له ظهرها دون شريك، أو منازع! أكل من زادهم، وارتوى من لبنهم، كم مرّ على ذلك اليوم؟ كم يوما؟ كم شهرا؟

لا مفرّ، داخل الصّحراء، في انتظام المدار، وسط الرّمال الملتهبة، اللّاهبة، لا أقلّ من الانطواء على النّفس، لا أقلّ من الانكماش، يودّ لو يكلم دابّته، راحلته، يودّ لو كانت تسمعه، فيبثّها ألمه وشكواه، هي أيضا، دون شكّ، تشكو من بعد الشّقّة ولاتناهي المسافة، تدرك بحواسّها الخفية أنّه رام ركوبها، أنّها ما ذلّلت له إلّا لأنّه مطبوع بغريزته على ضعف، على لّجاجة، لكنّ دابّته لا تتكلّم، قد لا تفقه عنه إذا خاطبها، وأفراد الرّكب لا يريدون الكلام، لا يجدون في أنفسهم رغبة فيه، لا يستطيعونه لو حاولوا، أجسادهم، كما جسده هو، رأسه، أذناه، منكباه، كاهله، جذعه، بطنه، فخذه، ساقاه، قدماه، اختصرت كلّها في نظرة واحدة، ساهمة، جامدة، ملقاة إلى الأمام، إلى نقطة في ذلك البعيد الذي لا تحدّ انطلاقه الجبال... في وقت ما، بل في كلّ وقت،

من النهار الطويل اللامتناهي، الصمت يهدم ويجمد، لا يعود بالإمكان سماع أي صوت، داخل القافلة أو حولها، اللهم إلا ما يكون من إيماءة باليد، أو تحريكه رأس لإرادية، أو عضبة على شفة، تجسد ما وراءها من تقلقل الحال، وتشوش الدماغ، شريط الأفكار لا ينقطع، لا ينتهي، تتواتر الصور تلو الصور، غير مرتبة، تتلاحق الأحلام والأمانى في تراكم غير واندفاع، يغدو الرأس كقفير النحل...! في غضون لحظة، شاقة، غير ملموسة، لا يحيط بها الإدراك، حين يصبح من الإغماء على قيد خطوة، ويستعد ليلاج غيبوبة داهمة، يوسوس في أذنيه صوت مدغدغ، تعروه انتباهة، فيجتث نفسه بسرعة، ويستسلم لإغراء الحياة من جديد، يرتفع الصوت مردداً مكرراً، في جهورية مدوية:

.إنها واحة... إنها واحة...!

حينئذ، تنخس أعقاب الأقدام بطون الجمال، فتجعر هذه الأخيرة في نفس الوقت جعيراً متواصلاً مسترسلاً، وتتدافع في عدو، كأنها أحست هي أيضاً قرب الفرج، ويثوب الرجال، وراء الرواحل، إلى أنفسهم من بعد شروء، فيرفعون أذيال أثوابهم ويطلقون سيقانهم للريح... ساعة بلوغ الواحة عجيبة، فريدة، متفردة، بالغريزة يسعى الجميع باحثين عن الغدير، عن مصدر الماء، فإذا ما وجدوه أقعوا، كما تقعي كلاب لاغبة، يحفنون من الماء حفناً صغيرة، يمسحون بها وجوههم المترية، ويبلون شفاههم التي كادت تتشقق من العطش، بعد ذلك يشربون، لا يتحفظون في شربهم، لبرودة الماء رونق، لمسه سحر. يفردون أجسامهم إذا ارتووا، يتفياؤن الظلال لمقيل مبكر، حتى من قبل أن يطعموا شيئاً، يكفي الارتواء في البداية، فإذا ما سرت فهم الراحة، تفرقوا في الواحة، جماعات جماعات، بحثاً بين كثافة الأشجار والتخيل عن طعام يأكلون منه ويدخرون لبقية أشواط الرحلة، إحساس واحد، أمنية واحدة،

يستشعرها كلّ واحد منهم، في الوقت نفسه، عند المغادرة، أن يكفّوا عن إلقاء عصا التّرحال، هذه الواحة تمنّوا أن تكون موطنهم الأخير، أن تكون آخر الشّوط، لكن لا حيلة في الأمر، لا بدّ من المضيّ قدما إلى الأمام!!

متى بلغوا الجبال؟ كم مضى لهم في المتاه بعد انضمامه إليهم؟ قد يكون مضى على سراهم ما شاء الله من الأيام، قد تكون المدّة شهورا، تنيف على الستّة! هو، على كلّ حال، لا يعلم، على وجه التّحديد، وربّما قد لا يهّمه أن يعلم مادام غير متأكّد من أسباب النّجاة، وساعة الأوبة، ليخبر عمّا خبره وعرفه أثناء رحلته. كلّ ما يذكره أنّهم وصلوا، ذات مساء، إلى الجبال، فوجدوا منظرها عجبا من الأعاجيب، كتلا من الصّخر الصّلد، الضّاربة رؤوسها الحادّة في جوف السّماء، إدلالا بشموخها واستحالة مرقاها، ما بينها وديان، غاية في الانخفاض، كأنّها مهاوي الجنّ، يستحيل على القاصد التّزول إليها، يخشى لو فعل ذلك الهلكة، ووراءها، لا وجود لمنبسط واحد، كلّها انحدارات تفضي إلى انحدارات أخطر منها، تأمل الرّأس الكتل جيّدا، دقّ سطحها بأنامله، قرّب منه أذنه، فلم يسمع شيئا، دار حولها، فلم يعثر على كهف واحد، يمكن الولوج منه إلى الدّاخل، أو مغارة. قال، بعد تفكّر، وهو يوجّه خطابه إلى الجميع، دون استثناء:

. ترون لا مخرج من هذه المتاهة، سوى التّزول إلى هذه الوديان العميقة، وفي ذلك مخاطرة بحياتنا، أو تسلّق الجبال للمرور إلى الجانب الآخر، وهذا متعذّر علينا، ولو ظللنا دهرا نروم ذلك. لذا أرى أن نقسّم أنفسنا إلى مجموعتين، واحدة تيمّم شطر اليمين، والأخرى شطر اليسار، ولنتقي بعد ثلاثة أيّام في نفس هذا المكان، ستكون غاية كلّ مجموعة البحث عن منفذ في قلب الجبال.

وتفرقوا.

في اليوم الثالث، اجتمعوا من جديد، يملؤهم اليأس والعجز. قالت المجموعة الأولى:
لم نجد ولا كهفا واحدا!!!

وقالت المجموعة الثانية:
ونحن أيضا لم نجد شيئا.

وما أن سادت لحظة صمت، حتّى أظلمت الدّنيا من حولهم، وهبطت ظلمة كثيفة، ألقت بسوادها على الوجود، حتّى لم يعد الواحد يميّز الآخر، ولاح فجأة لمع برق من جهة الشّرق، ثمّ اختفى، وأعقبه آخر من جهة الغرب، وانجابت الظّلمة، فأسفرت السّماء من جديد، بنجومها المتألّنة، وقمرها السّاطع، تحوطه هالة من الضّوء المهيّج. ودوّى صوت عظيم، ملأ ما بين الخافقين، محدثا صدى مدوّيا، أت من اللّامكان وكلّ الأمكنة، في نفس الوقت، وهو يقول بأمر:
افتح يا كوسك.

كانت مفاجأة القوم، مثل الصّوت، عظيمة، تجلّ عن الوصف، جعلتهم يحملقون في الجبال أمامهم بغباء... انفجرت شقّة بين جبلين، وظهرت صخرة جبّارة، بدأت تتزحزح عن مكانها ببطء، حتّى انفتحت تماما، كاشفة عن هوّة عميقة يلفّها سواد متكاثف.

علا الصّوت ثانية، ولم تخفت حدّته بعد، قائلا بأمر:

ادخلوا!!!

((٣))

[المتاهة... مرة أخرى]

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد. حفظك الله وأمتع بك. أن أفراد القافلة دلفوا إلى فوهة المغارة. وقد ألقى في روعهم من الخوف أثقال لا قبل لهم بها. ومن الذعر مثل ذلك بما لا طاقة لهم به. مستنامة أعصابهم. لا يجسرون على شيء سوى الصّدوع بالأمر المفاجئ. يأمرهم بالطاعة والدّخول. ولم يسلم من هول ذلك حتّى الرأس نفسه. وقد كان في مواقف مماثلة. ذا رأي سديد وعزم حديد. فلم يكن وقع الصّدمة التي أملت بكلّ ذرة من كيانه قد فارقتة بعد. واستمرت بحساب الزّمن وقتا قد يقصر أو يطول. غير أنّ زمام نفسه انفرط منه. إلى درجة أنّه لم يسمع صلصلة الصّخرة. وهي تتقدّم لتسدّ الفوهة من جديد. وتنبّه إلى صيحات الفزع الجزعة. التي كانت أصداؤها تتردّد في الظّلمة. تطلقها أفواه أصحابه. فأخذ يستعيد. شيئا فشيئا. علاقته بما حوله... صاح بصوت جهوريّ فيه أمر: «اصمتوا من فضلکم!» شمل المكان لبرهة صمت. صمت جاثم هامد. لم يكن يقطعه سوى صوت اجترار الجمال. أو صوت احتكاك أضلاعها بأرض الكهف. قال الرأس. وقد جاءت نبراته مخالفة تماما لما يعتلج في باطنه من إحساس باليأس والتّشاؤم: «لا تيأسوا. يا أصحاب! علينا أن نتدبّر بالصّبر. فهو السّلاح الوحيد الذي تبقى لدينا. ولنندع الله جميعا أن يمنّ علينا بالفرج القريب!!» وزيادة في التّهدئة والملاطفة. ضرب لهم مثلا على قدرة الله. وأنّ هذه القدرة ما لها حدود. أو ليس أمره. سبحانه وتعالى. بين كاف ونون. لا يجليّه إلّا لحكمة لا يعلمها إلّا هو. قال إنّ نفسه نازعته. ذات يوم. إلى السّفَر في البحر. لكم تاق إلى الإمام بأقسام الدّنيا القصيّة. لكم ودّ لو يقطع أسبابه بحيّ القديم. ورفقة دربه. مذ عرف أنّ في الأسفار سبع فوائد.

سيكون بإمكانه لو حزم أمره أن ينتقل من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة في نفس البلد. يطّلع على عمارها المأهول، وبالاحتكاك يكتسب تجربة وخبرة، يروي ظمأ طالما اشتدّ به إلى ملذّات الحياة ومباهجها، قال إنّه لم يطل به التفكير ليتوثّق من صدق رغبته، صار الخروج غاية ما يشغله ويبتغيه، والمغادرة مطلبه الذي يلحّ عليه بعد كلّ أن وحين، في يوم من الأيام، جهّز نفسه، توطين العزم شرط لازم، إضمار النّيّة، قد يخامر فكره التّراجع في بعض أشواط الرّحلة، انتقاء الصّحبة لا محيد عنه، إذا تأكّد الشّوق، والأقدمون المحنّكون قالوا: الرّفيق قبل الطّريق... المهمّ أنّه طلع في مركب مع جماعة من التّجّار، ولم يزالوا يبيعون ويشترّون ويتفرّجون على النّاس في كل بلد يزولون بها، حتّى طلع عليهم الرّيس، ذات يوم، وهم وسط البحر، صارخا صائحا راميا بعمامته أرضا لاطما وجهه واقعا في بطن المركب من شدّة الغمّ والقهر، اجتمع عليه جميع التّجّار والرّكّاب وقالوا له: «يا ريس ما الخبر؟» فقال لهم: «اعلموا يا جماعة أنّنا قد تهنا بمركبنا وخرجنا من البحر الّذي كنّا فيه ودخلنا بحرا لم نعرف طرقه وإذا لم يقيّض الله لنا شيئا يخلّصنا من هذا البحر هلكنّا بأجمعنا فادعوا الله تعالى أن ينجّينا من هذا الأمر.» قام الرّيس، صعد على الصّاري، أراد أن يحلّ القلوع، قويت الرّيح على المركب، ردّته على مؤخّرتة، فانكسرت دقّته قرب جبل عال، نزل الرّيس، وقال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، لا يقدر أحد أن يمنع المقدور، واعلموا أنّنا قد وقعنا في مهلكة عظيمة، ولم يبق لنا منها خلاص ولا نجاة.» بكى جميع الرّكّاب على أنفسهم، ودّع بعضهم بعضا لفرّاغ أعمارهم، وانقطاع رجائهم، ومال المركب على ذلك الجبل، فانكسر وتفرّقت ألواحها، فغرق جميع ما فيه ووقع التّجّار في البحر، فمَنهم من غرق ومَنهم من تمسّك بذلك الجبل وتسَلّقه، وكنت أنا من جملة من طلع على ذلك الجبل...

ما كاد الرّأس ينتهي إلى هذا الموضع من حديثه، حتّى شقّ كثافة الظلمة صوت معول، كما تشقّ الحصاة سكون بركة هادئة:

. لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. ضعنا!!

واندفع صوت آخر محتجًا، وهو يسأل:
. وأين قدرة الله؟!

وثالث:

. لماذا لم ينجّكم الله جميعاً؟ هل هان عليه أن يهلك بعض خلقه دون
جريرة ارتكبوها؟

ارتفع صوت الرأس قائلاً بحدّة حتّى غطّى على جميع الأصوات
المحيطة به:

. حرج الظّرف يدعوننا إلى الضّراعة والتّوسّل لا إلى اللّجاجة والكفر!
أيّها الصّحاب، لا تلجّوا في عتوّكم، فتهلك، كما لجّ بنو إسرائيل من
قبلكم فهلكوا، لمحاججتهم موسى بغير وجه حقّ... استغفروا الله أن
تحلّ علينا لعنته!!

انطلقت أصوات مشتّتة، من كلّ مكان، حارة، حادّة، متوسّلة:
. أسْتَغْفِرُ الله العظيم... أسْتَغْفِرُ الله العظيم.

واصل الرأس قائلاً حين استعاد المكان هدوءه ثانية:
. ثمّ ألا تعلمون أنّ بعض البلاء أرحم من البلاء كلّ، وأنّ الشّيء
القليل أهون على العباد من الشّيء الكثير الَّذي لا قبل لهم به؟

قالوا جميعاً مؤمّنين على قوله:
. بلى... بلى.

حينئذ، ارتأى الرأس، وقد لمس في نبرات أصواتهم قدرا غير يسير من التخاذل والاستسلام، أن ينأى بهم، ولو إلى حين، عن كدورات الحزن، وأن يسرد على أسماعهم تَمَّة حكايته في البحر، ليفرخ روعهم، سيّما وأنّ عقبى المسعى كانت سلامة. قال:

. كان في الجبل الذي تسلّقنا جزيرة عظيمة، فيها مراكب مكسّرة كثيرة، وأرزاق بلا حصر على شاطئ البحر، مخلّقات البحر من المراكب الّتي حطّمتها العواصف ولم يكتب لركابها النّجاة. وكان فيها شيء كثير يحيرّ العقل والفكر من المتاع والأموال... فعند ذلك طلعت على تلك الجزيرة ومشيت فيها، فرأيت في وسطها عين ماء عذب جار خارج من تحت أوّل ذلك الجبل وداخل في آخره من الجانب الثّاني، فعند ذلك طلع جميع الرّكّاب على ذلك الجبل إلى الجزيرة وانتشروا فيها وقد ذهلت عقولهم من ذلك وصاروا مثل المجانين من كثرة ما رأوا في الجزيرة من الأمتعة والأموال على ساحل البحر، وقد رأيت في وسط تلك العين شيئا كثيرا من أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت واللّائى الكبار الملوّكية وهي مثل الحصى في مجاري الماء في تلك الغيطان، وجميع أرض تلك العين تشرق من كثرة ما فيها من المعادن وغيرها... ورأينا كثيرا في تلك الجزيرة من أغلى العود الصّينيّ والعود القماريّ، وفي تلك الجزيرة عين نابعة من صنف العنبر الخام وهو يسيل مثل الشّمع على تلك الجزيرة من شدّة حرّ الشّمس ويمتدّ على ساحل البحر فتطلع الهوايش من البحر وتبتلعه وتنزل في البحر فيحمى في بطونها، فتقذفه من أفواهها في البحر فيجمد على وجه الماء فعند ذلك يتغيّر لونه وأحواله فتقذفه الأمواج إلى جانب البحر فيأخذه السّوّاحون والتّجار الّذين يعرفونه فيبيعونه... وأمّا العنبر الخام الخالص من الابتلاع فإنّه يسيل على جانب تلك العين ويتجمّد بأرضه، وإذا طلعت عليه الشّمس يسيح وتبقى منه رائحة ذلك الوادي كلّهُ مثل المسك، وإذا زالت عنه الشّمس يجمد وذلك المكان الّذي هو فيه هذا العنبر الخام لا يقدر أحد على دخوله ولا يستطيع

سلوكه فإنَّ الجبل محاط بتلك الجزيرة ولا يقدر أحد على صعود ذلك الجبل، ولم نزل دائرين في تلك الجزيرة نتفرّج على ما خلق الله تعالى فيها من الأرزاق ونحن متحيّرون في أمرنا وفيما نراه وعندنا خوف شديد... وقد جمعنا على جانب الجزيرة شيئا قليلا من الزاد، فصرنا نوفره ونأكل منه في كلِّ يوم أو يومين أكلة واحدة ونحن خائفون أن يفرغ الزاد منّا فنموت كمدا من شدّة الجوع والخوف، وكلّ من مات منّا نفسله ونكفّنه في ثياب وقماش من الّذي يطرحه البحر على جانب الجزيرة حتّى مات منّا خلق كثير ولم يبق منّا إلّا جماعة قليلة فضعفنا بوجع البطن من البحر وأقمنا مدّة قليلة، فمات جميع أصحابي ورفقائي واحدا بعد واحد، وكلّ من مات منهم ندفنه وبقيت في تلك الجزيرة وحدي، وبقي معي زاد قليل بعد أن كان كثيرا فبكيّت على نفسي فقلت يا ليتني متّ قبل رفقائي وكانوا غسّلوني ودفنوني فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم... ثمّ إنّي أقمت مدّة يسيرة ثمّ قمت حفرت لنفسي حفرة عميقة في جانب تلك الجزيرة وقلت في نفسي، إذا ضعفت وعلمت أنّ الموت قد أتاني أرقد في هذا القبر فأموت فيه وتبقى الرّيح تسفي الرّمْل عليّ فيغطّيني وأصير مدفونا فيه وصرت ألوم نفسي على قلة عقلي وخروحي من بلادي ومدينتي وسفري إلى البلاد بعد الّذي قاسيته أوّلا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا ولا سفرة من الأسفار إلّا وأقاسي فيها أهوالا وشدائد أشقّ وأصعب من الأهوال الّتي قبلها وما أصدّق بالنجاة والسّلامة، وأتوب عن السّفري في البحر وعن عودي إليه ولست محتاجا لمال وعندي شيء كثير والّذي عندي لا أقدر أن أفنيه ولا أضبيّع نصفه في باقي عمري وعندي ما يكفيني وزيادة، ثمّ إنّي تفكّرت في نفسي وقلت والله لا بدّ أنّ هذا النّهر له أوّل وآخر ولا بدّ من مكان يخرج منه إلى العمار، والرّأي السّديد عندي أن أعمل لي فلكا صغيرا على قدر ما أجلس فيه وأنزل وألقيه في هذا النّهر وأسير به، فإن وجدت لي خلاصا أخلص وأنجو بإذن الله تعالى وإن لم أجد لي خلاصا أموت داخل هذا النّهر أحسن من هذا المكان وصرت أتحرّس على نفسي... ثمّ إنّي قمت وسعيت فجمعت

أخشابا من تلك الجزيرة من خشب العود الصيّني والقماريّ وشددتها على جانب البحر بحبال من حبال المراكب التي كسرت وجئت بألواح متساوية من ألواح المراكب ووضعتها في ذلك الخشب وجعلت ذلك الفلك على عرض ذلك النهر أو أقلّ من عرضه وشددته شدّا مكينا وقد أخذت معي من تلك المعادن والجواهر والأموال واللؤلؤ الكبير الذي مثل الحصى وغير ذلك من الذي في تلك الجزيرة وشيئا من العنبر الخام الخالص الطيّب ووضعته في ذلك الفلك، ووضعت فيه جميع ما جمعته من الجزيرة وأخذت معي جميع ما كان باقيا من الزّاد ثمّ إنّي ألقيت ذلك الفلك في هذا النهر وجعلت له خشبتين على جنبيه مثل المجاذيف، وعملت بقول بعض الشعراء:

ترحلّ عن مكان فيه ضيم ... وخلّ الدّارتني من بناها
فإنّك واجد أرضا بأرض ... ونفسك لم تجد نفسا سواها
ولا تجزع لحادثة الليالي ... فكلّ مصيبة يأتي انتهاها
ومن كانت منيّته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها
ولا تبعث رسولك في مهمّ ... فما للنّفس ناصحة سواها

وسرت بذلك الفلك في النّهر وأنا متفكّر فيما يصير إليه أمري، ولم أزل سائرا إلى المكان الذي يدخل فيه النّهر تحت ذلك الجبل، وأدخلت الفلك في هذا المكان وقد صرت في ظلمة شديدة فأخذتني سنة من النّوم من شدّة القهر فنمت على وجهي في الفلك، ولم يزل سائرا وأنا نائم لا أدري بكثير ولا قليل حتّى استيقظت فوجدت نفسي في النّور، ففتحت عينيّ فرأيت مكانا واسعا، وذلك الفلك مربوط على جزيرة وحوالي جماعة من الهنود والحبشة، فلمّا رأوني قمت نهضوا إليّ وكلموني بلسانهم فلم أعرف ما يقولون وبقيت أظنّ أنّه حلم وأنّ هذا في المنام من شدّة ما كنت فيه من الضّيق والقهر... فلمّا كلموني ولم أعرف حديثهم ولم أردّ عليهم جوابا تقدّم إليّ رجل منهم وقال لي بلسان عربيّ السّلام عليك يا

أخانا من أنت ومن أين جئت وما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ ونحن أصحاب الزَّرْع والغيطان وجئنا لنسقي غيطاننا وزرعنا فوجدناك نائما في الفلك، فأمسكناه وربطناه عندنا حتَّى تقوم على مهلك فأخبرنا ما سبب وصولك إلى هذا المكان فقلت له بالله عليك يا سيدي ائتني بشيء من الطَّعام فإني جائع وبعد ذلك أسألي عما تريد، فأسرع وأتاني بالطَّعام فأكلت حتَّى شبعت، واسترحت وسكن روعي وازداد شعبي وردَّت لي روحي فحمدت الله تعالى على كلِّ حال، وفرحت بخروجي من ذلك النَّهر ووصولي إليهم وأخبرتهم بجميع ما جرى لي من أوله إلى آخره وما لقيته في ذلك النَّهر وضيقه... ثمَّ تكلموا مع بعضهم وقالوا لا بدَّ أن نأخذه معنا ونعرضه على ملكنا ليخبره بما جرى له، قال: فأخذوني معهم وحملوا معي الفلك بجميع ما فيه من المال والنَّوال والجواهر والمعادن والمصاغ وأدخلوني على ملكهم وأخبروه بما جرى، فسلم عليَّ ورَّحِب بي وسألني عن حالي وما اتَّفَق لي من الأمور فأخبرته بجميع ما كان من أمري من أوله إلى آخره فتعجَّب الملك من هذه الحكاية غاية العجب وهنَّأني بالسَّلامة... فعند ذلك قمت وأطلعت من ذلك الفلك شيئا كثيرا من المعادن والجواهر والعود والعنبر الخام وأهديته إلى الملك، فقبله مِنِّي وأكرمني إكراما زائدا، وأنزلني في مكان عنده، وقد صاحبت أخبارهم وأكابرهم وأعزَّوني معزَّة عظيمة وصرت لا أفارق الملك وصار الواردون إلى تلك الجزيرة يسألوني عن أمور بلادي فأخبرهم بها، وكذلك أسألهم عن أمور بلادهم فيخبروني بها إلى أن سألتني ملكهم يوما من الأيام عن أحوال بلادي، وعن أحوال حكم الخليفة في بلاد مدينة بغداد فأخبرته بعدله في أحكامه، فتعجَّب من أموره وقال لي والله إنَّ هذا الخليفة له أمور عقلية وأحوال مرضية، وأنت قد حبَّبتني فيه ومرادي أن أجهز له هديَّة وأرسلها معك إليه فقلت سمعا وطاعة يا مولانا أوصلها إليه وأخبره أنَّك محبٌّ صادق ولم أزل مقيما عند ذلك الملك وأنا في غاية العزِّ والإكرام وحسن المعيشة، مدَّة من الزَّمان، إلى أن كنت جالسا يوما من الأيام في دار الملك، فسمعت بخبر جماعة من تلك المدينة أنَّهم

جهّزوا لهم مركبا يريدون السّفر فيه إلى نواحي مدينة البصرة، فقلت في نفسي ليس لي أوفق من السّفر مع هؤلاء الجماعة... فأسرعت من وقتي وساعتي وقبّلت يد ذلك الملك وأعلمته بأنّ مرادي السّفر مع الجماعة في المركب الذي جهّزوه، لأنّي اشتقت إلى أهلي وبلادي فقال لي الملك الرّأي لك وإن شئت الإقامة عندنا فعلى الرّأس والعين، وقد حصل لنا أنسك فقلت والله يا سيّدي لقد غمرتني بجميلك وإحسانك ولكن قد اشتقت إلى أهلي وبلادي وعيالي... فلمّا سمع كلامي أحضر التّجار الذين جهّزوا المركب وأوصاهم عليّ ووهب لي شيئا كثيرا من عنده ودفع عني أجرة المركب وأرسل معي هدية عظيمة إلى الخليفة هارون الرّشيد بمدينة بغداد... ثمّ إنّي ودّعت الملك وودّعت جميع أصحابي الذين كنت أتردّد عليهم ثمّ نزلت المركب مع التّجار وسرنا، وقد طاب لنا الرّيح والسّفر ونحن متوكّلون على الله سبحانه وتعالى، ولم نزل مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة إلى أن وصلنا بالسلامة بإذن الله إلى مدينة البصرة فطلعت من المركب ولم أزل مقيما بأرض البصرة أيّاما وليالي، حتّى جهّزت نفسي وحملت حمولتي وتوجّهت إلى مدينة بغداد دار السّلام، فدخلت على الخليفة هارون الرّشيد وقدمت إليه تلك الهدية وأخبرته بجميع ما جرى لي... ثمّ خزّنت جميع أموالي وأمتعتي ودخلت حارتي وجاءني أهلي وأصحابي وفرّقت الهدايا على جميع أهلي وتصدّقت ووهبت، وبعد مدّة من الزّمان أرسل إليّ الخليفة فسألني عن سبب تلك الهدية ومن أين هي فقلت: «يا أمير المؤمنين والله لا أعرف المدينة التي هي منها اسما ولا طريقا ولكن لما غرق المركب الذي كنت فيه طلعت على جزيرة وصنعت لي فلكا ونزلت فيه في نهر كان في وسط الجزيرة..» وأخبرته بما جرى لي في السّفرة وكيف كان خلاصي من ذلك التّهر إلى تلك المدينة، وبما جرى لي فيها وبسبب إرسال الهدية فتعجّب الخليفة من ذلك غاية العجب، وأمر المؤرّخين أن يكتبوا حكايتي ويجعلوها في خزائنه ليعتبر بها كلّ من رآها ثمّ إنّه أكرمني إكراما زائدا.

رغم حلقة الظّلام، التي كانت تلف كلّ شيء في الدّاخل، ومن نبرات

صوت الرأس التي كانت تصل إلى مسامعه واضحة الحروف والمخارج،
أيقن «صادق» أنَّ المسافة التي تفصلهما عن بعضهما ليست بعيدة،
بل ليخيّل إليه أنّه يكاد يلامس منكبه لو تحرّك قليلا ناحية اليسار...
ارتدّ على عقبه في حركة شبه دائرية، ومال برأسه إلى الحدّ الذي ظنّ
معه أنَّ الرأس سيتمكّن من سماعه فيما إذا أراد الإفضاء إليه بما
يخامر ذهنه؛ وقال هامسا، كأنما يخاطب السّكون المظلم نفسه:
كأنّي سمعت هذه الحكاية من قبل، يا سيّدي؟

بلغه من الطّرف الآخر صوت هامس بدوره، فيه إشفاق مشوب
بحيرة:

بل أكاد أقطع أنّك سمعتها مرارا، إن لم تكن قد قرأتها!

الصّوت الأوّل، وهو يسأل متعجّبا:
وهل تعني...

وقاطعه الرأس قبل أن يتمّ تساؤله، كأنّه حدس ما يجول في دماغه:
أجل، هو ذاك. إنّها حكاية تخصّ غيري.

ثمّ متسائلا، بعد فترة صمت، في نبرة الغرض من ورائها التذكير:
هل تعرف حكاية السّندباد البحريّ؟

الصّوت الأوّل، وقد وشت نغمات صوته بفرحة عارمة، وظفر وليد
لحظة تذكّره:

تذكّرت الآن، إنّها حكايات السّندباد البحريّ.

وهو يسأل، كأنما يتحدّث إلى نفسه:
لكن، أيّ حكاياته هي يا ترى؟

قال الصّوت الثّاني، وقد علت درجته فجأة، لكن ليس إلى الحدّ
الَّذي قد يفصح عن وجوده:
إنّها رحلته السّادسة.

وبعد قليل، وهو يضحك ضحكة حيّية، ضمّنها ما بنفسه من حنين
وإغراء وحسرة:

ذاك هو السّندباد البحريّ، وقد استكان لحياة الرّاحة والدّعة بعد
رحلته السّابعة، خشية أن يعثر به الحظّ، فيما لو عاود المغامرة فتجهّز
لرحلة ثامنة، أمّا نحن . سندبادات البرّ. فما زلنا لا نعرف من مصيرنا
شيئا، داخل كهف تغطّيه ظلمة داهمة، وتقوم على فوّته صخرة
جلمود.

سأل الصّوت الأوّل الصّوت الثّاني، بنفس النّبرة الهامسة، وقد بدأ
يعروها هذه المرة عتاب خفيف:
أرجو المَعذرة، يا سيّدي. لكن، لماذا قلت إنّك صاحب الحكاية؟ ألا
يكون ذلك تضليلا؟ ثمّ إذا علم الرّجال...

أحسّ بيد تطال منكبه، وتضغط على كتفه، فكفّ، وتطلّع بعينه
في الظّلام إلى حيث تصوّر الرأس ماثلا بحضوره الجليل، وهيئته
الوقور، اللّذين زادهما تقدّمه في السّنّ مهابة وإكبارا. وما عثم أن تناهى
إليه قوله:

.ألم تسمع، يا بنيّ، ما قاله بنوقيا، وقد سأله عن سبب شغفه
الكبير بالنّساء؟

أجاب الصّوت الأوّل محرجا:
بلى سمعت.

قال الرأس معيدا، كأنه يروم من التكرار الإمعان في التذكير:
قال بنوقيا، حين سألناه، إنَّ التعلل ما يدفعه إلى ذلك؛ ونحن، يا
ولدي، لم نزد على ذلك... نتعلل ما أمكننا التعلل!

ثم مضيفا:

يا ولدي، إنِّي لا أريد أن أقتل بذرة الأمل الأخيرة في قلوبهم... الأمل في
النَّجاة، الأمل في العودة إلى الذاكرة التي فقدوها، إلى ماضيهم، تختلف
التفاصيل، تتميع الجزئيات، أمَّا الجوهر فواحد، دفء العشيرة، ضجة
الأبناء، الرنوّ بحنان إلى وجه الزوجة، بقدر ما نعتاد القساوة في هذا
المتاه، تخشوشن طبائعا، بقدر ما يحنننا نفس هذا المتاه، ولو إلى
مجرد حادثة بسيطة، منظر في رأس الرزاق، أو نهاية عطفة، أو لمسة
مرتجفة في الظلام.

وصمت الرأس فجأة، وكأنما برم بهذه المناجاة التي لا تتناسب مع
حرج الموقف، أو كأنما سئم سلبيته وإحساسه بالعجز اللذين ابتعدا به
كثيرا عن دائرة التأثير بالفعل واتخاذ القرار.

علا صوته مجلجلا. ترامت أصداؤه إلى العمق، مرتطمة بجداري
الكهف الصخريين، ولم تلبث أن ارتدت على أعقابها، إلى جهة انطلاقها
الأولى، ثم خفت حدتها شيئا فشيئا، وبدأت أخيرا في التضاؤل والتلاشي.
انفجر الصوت قائلا:
افتح يا سمسم!

للتوّ أدرك «صادق» أنّه يخاطب الصخرة التي تسدّ المنفذ، ولم
يفته أنّ الرأس الذي كان يقف قبالة، منذ قليل، وهو يخاطبه، قد
أولاه ظهره. موليا وجهه قبلة المخرج العتيد، لكن خيل إليه، بل هو شبه
متأكد، أنّ كلمة السرّ التي سمعها الآن، ليست هي نفسها الكلمة التي

نطق بها ذلك الصّوت الّذي نبع مدوّيا من السّماء، فصدع بأمره جوف
الجبل.

سمع الرّأس يقول بحماس:
. ليخاطب الصّخرة كلّ واحد منكم باسم يتخيّره، عساها تستجيب
لنداء أحدكم!

سرت همهمة مضطربة داخل المغارة، أسفرت في النّهاية عن صوت
قويّ حادّ، فيه فورة وحماس، يقول:
. افتح، يا فوم!

ولكنّ الصّخرة لم تتزحزح من مكانها.

صوت ثان:
. افتح، يا بصل!

صوت ثالث:
. افتح، يا قثاء!

صوت رابع:
. افتح، يا عسل!

في غمرة الأصوات المزمجرة، تذكر «صادق» كلمة السّرّ، فقال، وهو
يتّجه صوب المدخل:
. افتح يا كوسك!

غير أنّ حظّه لم يكن خيرا من حظّ بقيّة أفراد القافلة.

اكتنفت المغارة لحظات من صمت أخرس كاو، قطعه قائلا صوت
محتجّ غاضب:

.لقد غرّر بنا ذلك الصّوت العظيم خارج الكهف منذ حين!

أعقبه صوت آخر بجانبه كأنّه يحاكيه:
.بالصّواب نطق.

وكادت أن تسري جلبة مداهمة، وفوضى عارمة داخل الكهف، لولا
أنّ الرأس. كالعادة. وضع حدّا لها بنبرة صوته الّتي لا تحتمل المراجعة
أو المقاطعة:

.مهلا! مهلا! يا صحاب، لا تسمحوا لردود فعلكم الغاضبة أن تذهب
حكمتكم، ولا لحديثكم أن يكون رجما بالغيب، على غير هدى وروية.
وقد يكون الصّوت مرشدا! قد يكون وحيا من السّماء! ألم تكن حيارى،
نبعث عن منفذ منذ ثلاثة أيّام، فلم نعثر له على أثر، وجاء الصّوت
ليفتح أمامنا المنافذ الموصدة؟! أمّلوا من مستقبل أيّامكم خيرا،
يرحمكم الله.

ثمّ قائلا، مغيرا نبرة صوته الّتي غدت حازمة صارمة:

.ليس أمامنا خيار سوى التّقدّم إلى الامام!

ومستدركا:

.وقبل ذلك سيكون علينا أن نتخلّص من عيرنا وأحملنا حتّى لا

تعطلّنا أثناء المسير.

قال الرأس أيضا إنّ الحذر واجب، عليهم أن يسيروا خلفه، أن
لا يحاولوا الانحراف يمينا أو شمالا، قليلا أو كثيرا، مجرّد التّخلّف،
مهما كانت الأسباب، ولو لقضاء حاجة بشريّة قاهرة، فيها ما فيها من

الخطورة، بهذه الحركة اليسيرة اللأواعية الّتي تنمّ عن رعونة قد يضع الواحد حياته في الميزان دون أن يدري، سيّما والظّلام كثيف، مهاويه زلقة، لا يدرك لها أوّل من آخر، نصح بالتّريث، شدّد على أهميّة أن يسير كلّ فرد، قابضا بيده اليمنى على اليمنى صاحبه الّذي يليه، وبأنامل يسراه متحمّسا صفحة جدار الكهف، حتّى لا يضيّع الجادّة، ويفقد الطّريق، بين الفينة والأخرى، وجب أن يعلن كلّ واحد عن نفسه، ليعلم البقيّة أنّه مازال موجودا معهم، أنّ النّصاب مكتمل، غير منقوص، ذكر الاسم أوّلا، متبوعا بعبارة: «أنا هنا!»

لم تكن الأرضيّة تحت أقدامهم ممهّدة، من تعثّروهم، وشكّهم أحيانا على السّقوط، اتّضح أنّ المسار مضن، شاقّ، تتخلّله نتوءات، ذات رؤوس مدبّبة، تنفذ برؤوسها إلى العمق المتألّم فيهم، عبر أصابع الأقدام، الرّأس، وهو يتقدّم الجميع، وحين تعود به ذاكرته الّتي بدأت تتخلّص شيئا فشيئا من الغشاوة الّتي تلتّفها، لا يعتقد أنّه مرّ بظرف مماثل، هذه التّجربة مختلفة، متفرّدة في كمون، مجهدة في غير احتمال، كان الطّقس في الدّاخل باردا، يبرد كلّما أوغلوا في المسير إلى الأمام، والجوّ يزداد رطوبة، لكم استخفّه الطّرب، وهو صغير، لمقدم الشّتاء، لكم أحبّ المطر، وعشق حبّاته الصّغيرة والكبيرة، وهي تتخلّل خصلات شعره، وتسقط على وجنتيه المتورّدتين، الآن يحسّ كم كان مخطئا، البرد إغراء ثوان، فإذا تجاوز ذلك صار لا يطاق، غاص في أخمص عمق العظام، النّهاية الحتميّة لذلك قشعريرة تعقبها حمى دامية لا براء منها!!

أصوات بالكاد تسمع، تأتي من البعيد، من الجنبات المتواربة في مكان ما، أشبه بالحنين، بصوت موسيقى هادئة، تتسرّب في غفلة من الفكر الضّاح إلى شغاف القلب، لتستقرّ فيه. فما هذه الأصوات؟ وأين يذكر أنّه سمعها من قبل؟ في أيّ حلم؟ في أية يقظة؟ بمجرد أن تناهت إليه تلك الأصوات، دهمه شعور مفاجئ بالعطش، وبدأ ريقه يتحلّب،

وحلقه يجفّ، التفت إلى الوراء، إلى «صادق»، سأله راغبا في التأكّد، لقد خَمَن في نفسه شيئا، تعاورته آمال، ويخشى الآن أن تتبخّر، كما تتبخّر السحب الكاذبة في السّماء، هذه أصوات قطرات الماء، أجل هي كذلك، لا يحتاج الأمر إلى كبير عناء، للتأكّد من ذلك، هو يعلم أنّ هناك مسارب، مجاررقاق، منبثقة في أصل الصّخر، تكوّنت مع السّنين نتيجة عوامل التّعرية والانجراف، ظلّ طوال أحقاب متوالية يرتوي منها الصّادروالوارد، في هذا المتاه، لولاها لقضى كثيرون، كما يعلم أنّه لا يستبعد أيضا أن تكون هناك في الدّاخل برك، مختلفة الأحجام، ماؤها عذب زلال مثلج، أبرد من كلّ عيون الماء في الخارج، محظوظين سيكونون لو اهتمدوا إليه، لقد نبّه، قبل المسير، حتّى حينما نصح بالتخلّي عن العيروالأحمال، أن يأخذ كلّ واحد معه ركوة، لسابق علمه بوجود مثل هذه البرك في بطون الجبال، وتحسّبا منه لأيّ طارئ غير متوقّع، لولا هذه الظّلمة المطبقة، كثافتها تغرق كلّ شيء، لولا الخشية من الضّياع في هذا الكهف المجهول، لسعى، بنفسه، دون الحاجة إلى أحد منهم، للبحث، لجدّ في التّنقيب حتّى يعثر على طلبته، طلبه الظّمان في قلب المتاه الماء، وما عداه شيء ثانوي؛ دون توقّع، وبينما كان كلّ مطرق في القافلة مستغرقا في أفكاره، خاليا إلى نفسه وهواجسه، نبع ذلك الصّوت الّذي كان ألحّ عليهم في الدّخول، فملأت نبراته أرجاء المكان، وهو يقول ثلاثا:

أضئ، يا كوسك!

لم يكونوا قد أفاقوا بعد من هول المفاجأة، عشت أعينهم، أصاب أذانهم صمم داهم، استغرقهم لحظات ثقيلة حتّى يتخلّصوا منه، انتشر الضّوء، كما ينتشر لمع البرق في ليلة ماطرة، أو كما ينساح الأمل في أرجاء نفس أمضها اليأس، أوّل ردّ فعل أبدوه أن عاودهم صحو الذّاكرة وصفائها، أن اشرأبوا بأعناقهم الواهنة إلى السّطح، موطن

النَّورُ الأعالي دائماً، النَّجومُ في السَّمَاءِ كالمصابيح، وكذا القمرليلاً، وفي النَّهار، تسطع الشَّمْسُ لتضيء كلَّ الوجود، إلى الأعلى تطلَّعت أعينهم، في البداية، بدهشة. امتزجت الدَّهْشة بانمهاروعجب، في النِّهاية، انقلب الانمهاروالعجب إلى صيحات فرح وأهازيج غناء، انفرط العقد، تباعد الطَّابور الَّذي كان إلى حدِّ اللَّحظة الَّتِي سبقت الصَّوت متضاماً، محاذراً، متخوفاً، تفرَّق الركب في المكان، كيفما اتَّفَق، فرادى، جماعات صغيرة، مثنى، ثلاث، ورباع، مادت الأجساد، كادت أن ترقص... الرَّأس، و«صادق»، الَّذي كان بجانبه. ظلاً محافظين على هدوءهما، يرنوان إلى السَّقْف الصَّخْرِيَّ المحدودب، غيرالمتناسق، بارز النَّتوءات، تنبَّثَ خلله رؤوس أقرب ما تكون شبيهاً بعواميد التَّلج، وهي تقطرماء، كلّها دائريّة القاعدة، وتأخذ في الانكماش والصَّغر، حتَّى تكون رؤوساً، مستنّة النِّهايات، تحاكي في مضائها وحدتها أسنّة الرِّماح، أو مقدّمات السيوف، والغريب في الأمر أنَّ أحداً لم يتساءل عن مصدر النُّور، كان الصَّوت الأمر، في خفائه، قد محا في أنفسهم أيَّ استفسار عن الأسباب والعلات، أو كأنَّ الأمر، بكلّيته، وبما يحفّ به من قداسة يجعل عن التَّساؤل، أشار الرَّأس بسبّابته اليمنى، أوماً برأسه، ليس إلى مكان محدّد، بل إلى كلّ الاتِّجاهات، في الأعلى، إلى نِهايات تلك الرُّؤوس الحزيرة المدبّية، إلى ما علق بها، كانت هناك كائنات عجيبة في تفرد، جميلة في غرابة، رؤوسها إلى تحت، وسيقانها إلى فوق، أعينها كانت ترسل نورا مشعّاً خاطفاً، ذات وجوه طفليّة آدميّة، أمّا أجنتها النَّاعمة الحريريّة البيضاء، فملتفّة، حول حواصل ضئيلة فاتنة. قال الرَّأس باقتضاب دون أن ينظر إلى شخص محدّد:

لا تعجلكم الفرحة عن أخذ حذرکم من هذه الرُّؤوس في الأعلى حتّى لا تسقط على رأس أحدکم.

ثمّ مضى:

.ولا يمنعكم ظهور الضوء من أخذ الحيطه والسّير جنباً إلى جنب
كما في السّابق.

النّور في كلّ مكان، تتجلّى وسط هالته السّاطعة بدايات الأشياء،
ونهاياتها، قريبا وبعيدها، كاشفة عدا السّطح، الحيطان الصّخريّة،
والنتوءات، والعطفات، وكذلك الامتداد الأمامي، الحيطان . كما
السّطح . غريبة، قاسية، تستوي في أمكنة، وتنحني في أمكنة أخرى،
هشّة حيناً، تتشظى طبقاتها الجيريّة، تحت أدنى لمسة، صلبة حيناً،
تدمي لحاها السّميكة الخشنة الحادّة راحة الكفّ، على جانبي المجاز
الرّئيسيّ، الملتوي، غير المنتظم، وعلى مسافات غير متساوية، تلوح
دياميس، مهاوالمغاور، بعضها فوّهته واطئة، يضطرّ من يريد الدّخول
إلى إحداها أن يحني جذعه، أن يخفض رأسه حتّى يكاد يلامس القاع،
وبعضها الآخر له مداخل ليست بالواطئة، وليست بالمرتفعة جدّاً،
أشبه ما تكون بأبواب البيوت، أمّا الغالبيّة العظمى فشاهقة العلوّ،
فوّهاتها كنهايات المقاصير، شبه دائريّة، حبّ الاستطلاع غلب عليهم،
دفعهم الفضول إلى ولوج بعض هذه المغاور، على خطورتها، غير اليئنة،
على ضوء النّور المنبعث من الخارج، انكشفت لهم بعض الخبايا،
تجلّت أسرار، تراءت لهم بعض المصاطب الحجريّة، لم تكن منحوتة،
بدت لهم كأنّها نتوءات طبيعيّة تابعة للحيطان، بعضها مستطيل،
بعضها الآخر مربع، منها ما هو واطئ، منها ما هو عال، فوق بعض هذه
المصاطب وجدوا بقايا عظام، أحيانا هياكل عظميّة كاملة، لا أثر فيها
لكسر أو بتر، تساءلوا إن كانت عظاما بشريّة أو حيوانيّة، أكّد بعضهم
أنّ منها ما هو آدميّ، ومنها ما هو حيوانيّ، قال «صادق» إنّها ترجع،
بأصولها، إلى فترة ما قبل التّاريخ، أكثر من خمسة آلاف سنة، دقّقوا في
صفحة الجدران، وهم يتأمّلونها، حدّوا النّظر، ضيّقوا أعينهم، ما هذه
التّصاوير؟ ما هذه الخطوط الرّفيعة؟ ترى من رسمها؟ كيف رسمها؟...

قد يكون من رسمها استعمل مسمارا أو آلة حادة أخرى! مشاهد متعددة متنوعة. مناظر صيد، الإنسان البدائي وجهها لوجه مع الطبيعة المرعبة. المليئة بالأسرار، إنسان ينحدر من سلالة الرئيسيات العظمى، هيئته الغريبة تنم عن شبه قريب جدًا بالشمبانزي، الجعدة الوافرة، الوقفة المنحنية، اللحية الكثّة، والوجه المنكمش، والعينان الدائريتان الصغيرتان، جذعه عار، لا شيء يستر عورته سوى خرقه، قد تكون من جلد حيوان مفترس، تستر وسطه، يده المشهورة بشيء كالفاس، ليس حادًا، خام الصنع، حجريّ، في مواجهة حيوان ضخّم، هائل، عظيم الجثّة، صار الآن منقرضًا، ما اسمه؟ مشهد من العصر الحجريّ! في إحدى هذه المغاور، على مصطبة طويلة، مستطيلة، نظيفة نسبيًا، لولا ما يغطّي سطحها من طبقة غبار شفيف تمدّد، في استواء، جثمان عملاق، ليست فيه غلظة العمالقة، أو فظاعتهم، ولكن تعلو ملامح وجهه طمأنينة مغرية، عدا وسامة، وشيء كبير من جمال أسر، يسم كلّ عضو من أعضاء جسمه، يداها متصالبتان، ساقاه متضامتان، متّسقتان، أصابع قدميه العاريتين مشرّبة إلى الأعلى، ثيابه البدائية بالية، يكتنف البلى كلّ حوافها، لكتّها نظيفة، لا أثر فيها لوساخة، عيناه مغمضتان، بشرته بيضاء مشربة بحمرة، لحيته طويلة، شعرها سبط، يغطّي رقبته ويغمر صدره، حتّى منتصف البطن، كان الانطباع الأوّل الذي خلّفه لدى الجميع غريبًا، مال أكثرهم إلى عدم التّصديق، من يراه على تلك الحال يظنّ أنّه نائم، هكذا أخبر شكله، بذلك باحت تقاسيمه وملامحه، تقدّم منه الرأس، في حين نكص الآخرون، استبدّ بهم خوف غريزيّ، وسرت داخلهم رعدة، في حياتهم لم يروا عملاقًا بهذا الحجم، ربّما طوله ستون ذراعًا أو يزيد، بعد أن تفحصه الرأس مليًا، من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، بعد أن جسّه، ألصق أذنه بصدره، موضع القلب، اتّجه نحوهم قائلاً كأنّه يؤكّد حقيقة لم تكن معلومة لديهم من قبل، أو يشدّ من عزمهم على عدم الخوف والثبات:

إنّه ميّت منذ زمان بعيد!

سأل سائل:

فمن يكون الرّجل؟

أجابه «بنوقيا»، وقد أحاطت بوجهه أطياف من بقايا نور، كانت تدلف من الخارج، إدلالا بما يحفظه من حكايات وأخبار عمّن عبر في الزّمن القديم:
لعله بقيّة العماليق.

قال «صادق» الّذي ظلّ إلى ذلك الوقت صامتا:
إنّي لأرى أوصاف أبينا آدم تنطبق عليه انطباقا لا اختلال فيه؛ فقد ورد في الحديث عن ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن بن أبي الحسن، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أباكم آدم كان طوالا كالنّخلة السّحوق، ستين ذراعا، كثير الشّعر، موارى العورة، وأنّه لما أصاب الخطيئة بدت له سوءته فخرج هاربا في الجنّة فتلّقاه، فأخذت بناصيته، وناداه ربّه: أفرارا منّي يا آدم! قال» لا والله يا ربّ ولكن حياء منك ممّا [قد] جنيت، فأهبطه الله إلى الأرض، فلمّا حضرته الوفاة بعث الله إليه بحنوطه وكفنه من الجنّة، فلمّا رأت حواء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم إليه، فقال: خلّي عنيّ وعن رسل ربّي، فإنّي ما لقيت ما لقيت إلّا منك، ولا أصابني ما أصابني إلّا فيك. فلمّا قبض غسلوه بالسّدروالماء وترا، وكفّنوه في وتر من الثّياب، ثمّ لحدوا له فدفنوه، ثمّ قالوا: هذه سنّة ولد آدم من بعده.»

قال قائل في سخريّة خفيفة:

لكن انظر الرجل؛ إننا لا نراه أمامنا مدفونا، وإنما هو مسجى على مصطبة!

قال صوت جديد بنبرات فيها تعاضم وزهو:
ثمّ إنّي سمعت. والله أعلم. أنّ أبانا آدم قد مات على بوذ...

قال «صادق» مقاطعا:
ذاك في رواية أخرى عن ابن عباس فيما حدّث عنه الحارث، قال:
حدّثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام بن محمّد، قال: أخبرني أبي، عن
أبي صالح، عن ابن عباس، قال: «مات آدم عليه السّلام على بوذ. قال
أبو جعفر يعني الجبل الذي أهبط عليه. وذكر أنّ حواء عاشت بعده
سنة ثمّ ماتت رحمها الله، فدفنت مع زوجها في الغار الذي ذكرت، وأنّهما
لم يزالا مدفونين في ذلك المكان، حتّى كان الطّوفان، فاستخرجهما نوح،
وجعلهما في تابوت، ثمّ حملهما معه في السّفينة، فلمّا غاضت الأرض
الماء ردهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطّوفان، وكانت حواء قد
غزلت. فيما ذكر. ونسجت وعجنت وخبزت، وعملت أعمال النّساء.»

قال الرّأس:
أولا يكون هونبيّ الله إلياس المذكور في التّوراة؟!

أجابه «بنوقيا»، وما تزال أطيايف النّور مطيفة بوجهه في شكل
هالة:

الأمر على خلاف ما تزعم، يا سيّدي. إنّ ما سمعناه وقرأناه عن
إلياس يؤكّد بأنّه لم يمّت!!

قال «صادق» مؤكّدا:

بلى، يا سيدي. صدق بنوقيا. ففي الرواية فيما حدث به ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: ذكر لي أنه أوحى إليه (أي إلياس بوحى من الله): إنا قد جعلنا أمر [أرزاق بني إسرائيل] بيدك وإليك، حتى تكون أنت الذي تأمر في ذلك. فقال إلياس: اللهم فامسك عنهم المطر. فحبس عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر، وجهد الناس جهدا شديدا... وكان إلياس. فيما يذكرون. حين دعا بذلك على بني إسرائيل قد استخفى شفا على نفسه منهم، وكان حيث ما كان وضع له رزق، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في دار أو بيت قالوا: لقد دخل إلياس إلى هذا المكان، فطلبوه، ولقي أهل ذلك المنزل منهم شرا. ثم أنه أوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل، لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب، به ضر، فأوته وأخفت أمره، فدعا إلياس لابنها فعوفي من الضر الذي كان به، واتبعه اليسع فأمن به وصدقته ولزمه. فكان يذهب معه حيثما ذهب. وكان إلياس قد أسن وكبر، وكان اليسع غلاما شابا. فيزعمون. والله أعلم. أن الله أوحى إلى إلياس أنك قد أهلك كثيرا من الخلق ممن لم يعص، سوى بني إسرائيل ممن لم أكن أريد هلاكه بخطايا بني إسرائيل من الهائم والطير والهوام والشجر، بحبس المطر عن بني إسرائيل. فيزعمون. والله أعلم. أن إلياس قال: أي رب، دعني أكن أنا الذي أدعولهم به، وأكن أنا الذي آتهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم، لعلمهم أن يرجعوا وينزعوا عما هم عليه من عبادة غيرك. قيل له نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال لهم: إنكم قد هلكتم جهدا، وهلك الهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور. أو كما قال لهم. فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك وتعلموا أن الله عليكم ساخط فيما أنتم عليه، وإن الذي أدعوكم إليه الحق، فاخرجوا بأصنامكم هذه التي تعبدون وتزعمون أنها خير مما أدعوكم إليه؛ فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتهم، ودعوت الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفت، فخرجوا بأوثانهم وما يتقربون

به إلى الله من أحداثهم التي لا يرضى، فدعوها فلم تستجب لهم، ولم تفرّج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، حتّى عرفوا ما هم فيه من الضلالة والباطل، ثمّ قالوا لإلياس: يا إلياس، إنّنا قد هلكنا، فادع الله لنا، فدعا لهم إلياس بالفرج ممّا هم فيه، وأنّ يسقوا، فخرجت سحابة مثل التّرس بإذن الله على ظهر البحر. وهم ينظرون، ثمّ ترامى إليه السحاب، ثمّ أدجنت، ثمّ أرسل الله المطر فأغاثهم، فحييت بلادهم. فراح عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فلم يزعوا ولم يرجعوا وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه. فلمّا رأى ذلك إلياس من كفرهم دعا ربّه أن يقبضه إليه فيريحه منهم، ف قيل له. فيما يزعمون: انظريوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى بلد كذا وكذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس، وخرج معه اليسع بن أخطوب حتّى إذا كان بالبلد الذي ذكر له في المكان الذي أمر به أقبل فرس من نار، حتّى وقف بين يديه فوثب عليه، فانطلق به فناداه اليسع: يا إلياس. يا إلياس، ما تأمرني؟ فكان آخر عهدهم به، فكساه الله الرّيش وألبسه النّور، وقطع عنه لذّة المطعم والمشرّب، وطار في الملائكة، فكان إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سمائيّاً.

الوقت يلجّ، كلّ ساعة منه، بل كلّ دقيقة، كلّ ثانية، ينبغي أن لا تضيع هباء، في غفلة من استغراقهم جميعاً، حتّى ولو كان هذا الاستغراق بهدف استكشاف المكان، معرفة الموضع الذي تطأه أقدامهم، العارفون، من حصلوا العلوم، درسوا ونقبوا، ولا يستبعد أن يكونوا قد خوّضوا في تجارب الدّنيا، قالوا الوقت من ذهب، حريّ أن لا يفرط فيه، قالوا أيضاً الوقت كالسّيف، إن لم تقطعه قطعك، وكم من نفس بشريّة، كان خلاصها مرهونا بجزء من الثّانية، كم من مطرّق، كثّرهم المنقطع بهم، في قلب الصّحراء، الّذين أشفوا على الهلاك، وفي لحظة من الزّمن، فريدة، ثمينة، أثمن من كنوز الأرض، لاح لهم ترقق الماء، بانّت أمام أعينهم أوائل الغدير... ساروا، كعادتهم، منذ أن دخلوا

الكهف، الرأس في المقدمة، والبقية في شكل طابور، حذر الضياع، رغم سطوع النور، أبصارهم متطلعة إلى الأمام، أحيانا تنخفض إلى الأرض، تفاديا لصخرة ناتئة، أو مستنقع موحل، أو حفرة، بين الفينة والأخرى، تند عن أحدهم آهة، تعلو تهدة، فيها ألم، كانت الرطوبة تنفذ إلى العظم مباشرة، وكلما ازدادوا إيغالا في المسير، تدققت عليهم موجات البرد من كل مكان، من الأخاديد، عبر الفجوات المرئية وغير المرئية، من كوى غير منظورة، ومع الإحساس بالبرد القارص، يتضاعف شعور قاهر بالظما، جفاف الحلق، خواء في الأعماق، تيبس الشفتين، هذا أمر فظيع، ظرف لا يطاق احتماله... دليل المرء قلبه، في مثل هذه الملمات، الأمل، ولو مجرد ذرة منه فقط. هو ما يجعله يتشبث لأخر لحظة بخيط النجاة، لو ألقى بكامل حمله على العقل وحده، لأسقط في يده، ربما قضى قبل انقضاء المرحلة، أما القلب فدافع إلى الأمام، يخبر عن الأشياء قبل وقوعها، يجلي المرئيات قبل ظهورها، كذا استشعر وجود الماء، كان على مسافة غير بعيدة منهم، من الطقطقات المتقطعة، التي تتواتر بين الثانية والأخرى، من وقع القطرات ذات الجرس المنعم، الصادرة من أمكنة متعددة، في نفس الوقت، حدسوا وجوده، خطاهم شالتهم، حضهم إحساس باطني على الإسراع، وفي لحظة كانوا محيطين ببركة صاف ماؤها، عذبه، كأنه لجة فضية، وجوههم انعكست على صفحته، وهم ينحنون، لو التقت نظراتهم بنظراتهم في الماء، للمسوا في عمقها بلوغ الجهاد، لطالعهم التعب متكائنا على نفسه، لم يطل بهم المقام، أخرجوا ركاءهم من تحت آباطهم، ملأوها، وانتظم الطابور ثانية، لا أصوات سوى ما يحدثه وقع الأقدام، كأن الصمت قدر، ولد لينشأ ويشب، ليصلب عوده، بينه وبين الكلام عداوة، لا تمحي، آثارها لا تنطمس... السبيل أمامهم بدأ يتميع، تغيم معابره، المدى نفسه ارتد مواربا في الظلمة التي رنت من جديد، كم خطرت للرأس لحظة النجاة النهائية، كم أمل العثور على تلك الفجوة المؤدية إلى الخارج في الضقة الأخرى! أما أن تغيض الفرحة في الشفاه بمثل هذه السرعة، أن يرتد

كلّ شيء إلى نقطة البدء، حيث المصير رهن باحتمال غير مؤكّد، فهذا ما لم يتوقّعه أبدا!!! أين المنفذ؟ قال الرأس، وهو يتذكّر قول «صادق» له بلزوم الأمام: «التمزموا الأمام! سيروا خلفي! لا يحيدن أحد منكم عن الطّابور!!» الزّمن يتمطّط، يثقل، يرين. أسنانه منشبة في رحم الظّلمة، أظفاره مغروزة في القلوب المضطربة، الأسئلة القديمة، الأسئلة الجديدة، على كثرتها، على ضخامتها، صعوبتها، يختصرها سؤال واحد محيّر: «متى نصل؟!» في لحظة ما... في وقت ما... في ساعة ما... ذلك النّور الذي لاح في نهاية الطّرف الآخر: متى لاح، يا ترى؟ ذلك المنفذ: متى ظهر؟ ذلك الأمل: متى ولد؟

قوّة بالغة الغموض، ملغزة حدّ الحيرة، لا يدري مصدرها، تتجاذبهم جميعا، كما المغناطيس، تشلّ أعضائهم، وتضغط على أعصابهم، الرأس، والأربعون البقية، انتفت داخلهم الأحاسيس جميعها، الخوف، التّحسّب، الرّعب، الإحساس بالهول، التّشاؤم الذي يستوجبه ظرف كهذا الطّرف، ولم يبق إلّا إحساس واحد، دون سواه، ظلّ يقاوم حتّى انصهرت فيه كلّ المشاعر الأخرى، متألّقة في بريق، برغبة في الخلاص، كثيرا ما تساءل الرأس، رحلاته الخطرة في الصّحراء، مغامراته، ما اكتنفها من لحظات يأس، كلّ ذلك علّمه أن يتساءل، وهو منزو، منعزل عن أصحابه، في مكان قصي، تحفّ به ظلمة الباطن، وهو متأمّل: لماذا يتكثّف الإحساس بالنّجاة لحظة الخطر؟ لماذا يصمّ الإنسان أذنيه عن طرح الرّعب في باطنه ليتعلّق بخيط أمل قد يكون مجرد وهم؟ هل معنى ذلك أنّه يرفض الموت، يكره أن يقبله كحقيقة واقعة إلّا حين يستنفد طاقاته كاملة في الحياة؟... يا لهول الرّوعة! يا لفرط الفرحة! إنّ النّور أخيرا، براعم الضّوء، المتسرّبة من منفذ، كالطّاقة، لكن ما بال أشعته لا تسترسل في خيوط ذهبيّة، أو رقائق حريّة برتقاليّة، ويلج في كثافة، دفعة واحدة، ضخم الانتشار، أسر الحضور، يطغى على الألوان، ويختصرها في نفس الوقت، بياض يعانق سوادا، حمرة

تمتج بصفرة، خضرة وزرقة، لون بنفسيّ يختزل كمونه ألوانا شتى، شاقّة البريق، رائقة التّألق، ربّما ألوان الطّيف ما يرونها الآن مأخوذين، متسمّرين في أماكنهم، أو قوس قزح، بفتنته، يتشاطر ألوانه شموخ الشّلال، الذي كانوا يسمعون هدير مياهه، ولا يسمعون، ينظرون إليه، ولا يرونه، طالما كان الماء، لآلاف السنين، عند الفلاسفة، وغيرهم في الزّمن القديم، لا لون له، لا طعم، لا مذاق، وفي هذه اللّحظة الغريبة، تنقلب الحقيقة رأسا لعقب، فهي هو ذا الماء، مجتمعا لكلّ الألوان، في نفس الخطّ، وبالتّوازي، ينظم الأبيض متناغما مع الأحمر، الأصفر مع الأخضر، الأسود مع البرتقاليّ، تقدّم الرأس، وتبعه الآخرون، حينما تلاشت لحظة المفاجأة الأولى، تحسّس الطّريق أمامه بقدميه محاذرا، وبأطراف أصابعه كان يتلمّس صفحة حائط الكهف المحدودة، غير المنتظمة، عند الحاقّة، تبعثر على وجهه رشاش الماء، غطّته برودة مباغتة، نكص أول ما سرت فيه البرودة، ثمّ بدأ يستأنس، تذكّر جفاف الصّحارى، الظّمأ، صهد الشّمس، في المتاه، فودّ لو يلقى بنفسه في اللّجة الهادرة، لكنّ تذكّر في الوقت نفسه أنّه الرأس، وأنّ على عاتقه ملقاة مسؤوليّة قيادة الرّكب إلى مأمن من الخطر، فلوأتى حركة، مهما كانت غير معقولة، أو لامنتقيّة، لأنّوها بدورهم، دون تردّد، حتّى لو كانت هذه الحركة الإلقاء بأنفسهم في هوة الشّلال السّحيقة... كان هناك مسرب صغير، بمحاذاة نهاية الكهف، ما يفصله عن الهوة مسافة ضئيلة، قيد خطوات ربّما، بضعة أشبار على الأكثر، كان الرأس أول المبادرين، تلبّس ظهره، كلّ ظهره، بالحائط، غيّر وضعه، من وضع المشي العاديّ، إلى وضع المحاذرة، لا ينظر إلى تحت، إذا شعر بالدّوار سقط، ما في ذلك شكّ، نصح أصحابه، شدّد على الحروف وهو يتكلّم، لا بدّ من تقليده، السّير على منواله، حتّى بلوغ اليابسة من الطّرف الآخر، كانت اللّحظات الأولى مشحونة بالخوف، من شدّة الهول، لا ينظرون لا إلى فوق، ولا إلى تحت، أعينهم مغمضة، صوب خطّ الأفق، تتخيّل ساعة مدانة الخطّ الأخير، الفاصل عن الموت، الواصل للحياة، لكن هل يمكن أن

تكون الحقيقة أروع بكثير من أقصى حلم يمكن أن يتخيله أي إنسان؟ هل يمكن للحقيقة أن تكون بهذا الجمال، حتى في قلب المتاهة؟ لا تسل عن أولئك الركب، وهم يرون ما يرون، لا تسل عنهم وهم يفيقون من إغماءة الخوف، لا تسل عنهم، وهم يقفون مشدوهين كالمسرتمين، تنظر أعينهم، فيودون لو يصدقون ما تراه أعينهم، غير أنهم يجدون أنفسهم حيال حقيقة هي أكبر من كل الحقائق التي عرفوها، في شدتهم وفي رخائهم، عدا أنها أكبر آلاف المرات من أكبر حلم مولود وغير مولود!! الليل والنهار، الظل والنور، الخضرة والأشجار، الشتاء والصيف، الربيع والخريف، مطر وحر، العطر والأزهار، الأطيوار والثمار؛ لا شك أن هذه الجنة! لا يمكن أن تكون غير ذلك! قال «صادق» في صرخة دهشة، وهو ينظر إلى الرأس:
إنها مملكة سبأ!

قال الرأس في نبرة بين الجد والهزل:
عسى أن لا يفرقنا الله أيديهم!

كانت الظلمة مخيمة في أمكنة، وكان النور ساطعا في أمكنة أخرى، كلاهما متناغمان، يكاد لا يفصل بينهما شيء، سوى خط شفيف، تراه العين المجردة في عسر، وبعد تأمل وتدقيق، كأن لا تعاقب بين الليل والنهار، ولا إسفار بعد حلقة، ولا ديجور بعد إصباح وإيضاح... حيث حلالك التواجد انوجدت، حيث رمت البقاء بقيت، فإذا ما أحسست بضنى أو تعب، رحلت إلى عالم الليل، وإذا ما لفك ألق النشاط كان عالم النهار منك غير بعيد، لا شيء متحوّل في المملكة، لا شيء زائل، كل شيء ثابت، مقيم، لا يعدو فيه شيء على الآخر، لكل شطر ميزاته، علاماته الفارقة، عالم الليل ساكن، هاجع هادئ، تتألق في سمائه نجوم صغيرة، هي من الكثرة بحيث يصعب حدس عددها، ملايين، آلاف مؤلفة، القمر يتوسطها، تحيط به هالة متشعة بسفور، والظلمة فيه

ستارمهفهف، رقيق، مصطبغ بعذوبة النسيم... عالم النهار، وما أدراك ما عالم النهار! ظلّ وظلّ، طراوة ونقاوة، ينعدم فيه الإحساس بالتعب، إذا دلفت إليه شعرت بحركة غريبة تدبّ في أوصالك، إذا تقلّبت بين زواياه، حاطك أريجه، غزتكم مراميه، وجاءت إليك كلّ مسافاته... قال الرأس، بينه وبين نفسه، وقد تعمّد أن يغلق سحنته عمّا به من دهشة، حتّى لا يلحظ أحد من رفاقه آثار ذلك عليه: «إمّا أن أكون في حلم، وهذا شيء وارد، وإمّا أن أكون قد خولطت!!» وجد نفسه مع رفاقه، لا ينتمي إلى عالم الليل، ولا إلى عالم النهار، مازالوا على مفترق الطّرق، تجول لحاظهم هنا وهناك، تستقرّ لحظات على إغراء هذا، ولحظات أخرى على دعوة ذاك، لم تكن تتنازعهم نفس الرّغبة، كانوا يدركون أنّ لحظة التّفكير لن تمتدّ بهم طويلا، وسيضطرونّ بعد برهة إلى الاختيار، منهم المتعب، المرهق، ومنهم من بعث فيه دفق الحياة من جديد، منهم ليليّ الميول، ومنهم النّهاريّ، كانوا كلّهم ينتظرون الإشارة ليتفرّقوا.

قال الرأس:

تصرّفوا على راحتكم!

كسرب مفزوع تفرّقوا، إلّا أنّ تصرّفهم هذه المرة، لم يكن دافعه الفزع، كانت الاستئارة وراءه، ندّت عنهم صيحات فرح قصيرة، وهم يتدافعون، إمّا شمالا، وإمّا يمينا، صدرت من حلوقهم الجأفة تنهّدات، لكم حنّوا إلى مرحلة للاستراحة، إلى وقت، ولوقصير، يستجمّون فيه، يستجمعون قواهم المتناثرة، ثمّ يعاودون المسير دون شعور بالتّدم أو الحسرة! أمّا أن يصحّوا بغتة ملفوفين بهذا الفلق السّماويّ، أن يتطامنوا على هذا السّحر الذي ما بعده سحر، فشيء لا يصدّق؛ أجل إنّ المعقول البشريّ ليصطدم بصخرة الإعجاز فيما إذا لو حاول أن يربط البدايات والنّهائيات، بسيرة المنطق وحتميّة الأشياء؛ فأيّ منطق يستطيع أن يفسّر ملازمة الليل لتلايبب النهار؟ أيّة قوّة يمكنها أن تخرق

القانون الطَّبِيعِيّ بمثل هذا الإغراء، فتجتمع في الآنيّة كلّ فصول السّنة، دون أدنى خلل أو انتقاض؟ متى كان اليبس والخصب مجتمعين؟ هذه ثمار الشّتاء، تقابلها ثمار الصّيف، النّخيل، الكمّثرى، البطّيخ، الخوخ، الرّمان، الموز في بداية أوانه، النّارنج يذوق نضوجا، التّفّاح تتشاطر حمرته وخضرته، إذا جلس الواحد تحت النّخلة الشّامخة السّامقة، تساقط عليه رطب جيّ، ناعم الملمس، متناهي الحلاوة، إذا تفيّأ ظلّال شجرة، وارفة أغصانها، متطاولة أطرافها، تناثر ثمرها فملاً حجره، حتّى لكانت الثّمرة تبلغ فم أحدهم، وهو مستلق برأسه على الجذع المخمليّ، دون أن يكلف نفسه عناء قطفها، وتسري في حلقومه، دونما حاجة إلى مضغها، كانت عصافير، من مختلف الألوان والأحجام، منها الضّئيلة بحجم عقلة الإصبع، منها الكبيرة بحجم راحة الكفّ، تحطّ على يد الواحد من الرّكب، تهترّ فوقها، تدور حول نفسها، ترقزق حتّى إذا ما نام، استعادت مكانها على الأغصان، دون أن ينقطع شدوها، إلى حين يستيقظ من جديد على شذا أصواتها، الدّوريّ، المكّاء، الحسّون، اليمام، أبوالحناء، طيور مشويّة، في مجتلى البصر، موائد عامرة، عليها ما لا يخطر على بال، ماء سلسبيل، خمور معتقة، أطعمة، نقل، بقل، فائنات حسان، لم ينكحهنّ إنس ولا جانّ، ذوات قدود، يتمايلن، ذات اليمين وذات الشّمال... وكان أهل اليمين النّهاريّ يفيضون على أهل الشّمال الليليّ، من لبن الجنة أنواعا، من اللّحوم، من أفانين المفتحات، من ضروب المأكّل، وقد تهفو نفوس أهل النّهار، فيشدّون الرّحال إلى عالم اللّيل، وأهل اللّيل إلى عالم النّهار، تعلو أصوات المعازف، تتأوّد الخود، تتوتّر أصوات الآلات... فإذا ما انكفأت الأعضاء على خدر، ألقي التّعب كلاكله على التّعب، وامتزجت أجساد المطرّقين في لحظات الصّمت اللّيلي، بهفافة أجساد الحور، المقصورات في الخيام. تلا «صاّدق» في قَمّة نشوته، شعورا بالفضل، وإقرارا بالامتنان:

[لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربّكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور (١٥) فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتّهم جنّتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازي إلاّ الكفور (١٧) وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدّرنا فيها السيّر سيروا فيها ليالي وأياما آمنين (١٨) فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كلّ ممزّق إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبار شكور (١٩) ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقا من المؤمنين (٢٠)]

سأله الرّأس، وكان بجانبه، والوحيد الذي يستمع إلى تلاوته
الهامسة:

لماذا تتلو الآن، ونحن على ما نحن عليه من تبسّط وانشراح؟

أجابه «صادق» صادقا:

الله أعلم. إنّهُ كلام ألّقاءه الله فجأة على لساني، فأعدته دون وعي
مّي!

سأل الرّأس ملحّا:

فلماذا هذه الآيات بالذّات؟

قال «صادق»:

لا أدري!

سأل الرّأس:

هل يمكن أن تكون نبوءة؟ هل تكون هذه إحدى جنّتي سبأ؟

قال «صادق»:

قد يكون!

سأل الرّأس:

فمن تراه يكون فريق المؤمنين النّاجين؟

المعونة في مثل هذه الحالات واجب مقدّس، فرض عين، يحسن الله لفاعله المثوبة، ويضاعف لتاركه العقاب، أمر الرأس «صادقا» أن يطلق النداء ثلاثا: «الجمع... الجمع... الجمع». اجتمع القوم كلّهم، لم يتخلّف منهم أحد، في نقطة وسط، بين عالم الليل وعالم النهار، تحلّقوا، ذلك يعني أنّ الأمر غاية في الأهميّة، قيام الاجتماع في عالم الليل ينقص الرّغبة في المناقشة، ينعدم الانتباه، لليل نزواته، قد تطيف بجفونهم أطيايف النّوم، قد تلمس الأجساد الرّاحة في أحضان الأجساد، قيامه في عالم النهار لا يسنح، لا يتسنى للجمع أن يكون ملتئما، فرادى دائما، مطوّفين بين الحداثق، متفيتين تحت الظلال، أوهاجين مقيلين، نشر كلّ واحد طويّته، أبدى ما كان مضمرا في سريره، قالوا إنّهم سمعوا النداء أيضا، في نفس اللّيلة، وفي نفس اللّحظة. قال الرأس:

فما العمل؟

قالوا جميعا:
الرأي رأيك!

قال:
نرحل.

لكنّ «صادقا» اعترض بلباقة:
أنصح أن نرتيث قليلا، علّ النداء يظهر ثانية فيكون أمره صريحا.

قالوا:
لن ننتظر. وجب أن نرحل!

لم يسعه إلّا الرّضوخ، الفرد دائما من أجل الجماعة، إذا أقروا
أقروا كانوا مخالفين، ما هي إلّا أيّام قلائل حتّى تواروا، ما عتموا أن

ابتعدوا، مخلفين الجنة وراءهم، تساءل «صادق»: «هل كانت هي الجنة حقًا؟ هل مررت بها؟ ألم أكن واهما؟» كل شيء، بعد هذه المسافة رهن الاحتمال، الممكن، قد يكون وهما ما تخيلناه يوما، واعتبرناه حقيقة ساطعة، لا مراء فيها، وقد يكون حقيقة ذلك الوهم الذي قرّفي أذهاننا على أنه وهم؟ كم طالّت المدّة. بعد ذلك؟ يقول «صادق» إنهم ظلّوا في المتاه، من لدن تواربهم حتّى بلوغهم ما بلغوه، أربعين يوما، لا يزيدون يوما واحدا، ولا ينقصون مثله، وفي اليوم الأربعين، وجدوا أنفسهم أمام حاجز طويل جدًا، بدا وكأنّ لا متقدّم بعده، يرين وراءه ضباب كثيف مطبق، لا يسمح برؤية ما ينطوي عليه، سوى دعامات الحديد الضخمة، المتقاربة، المتضامة، لا يكاد يفصل الدّعامة عن الدّعامة غير فجوة، عرضها لا يتجاوز الإصبعين، مسنّنة النهايات، يكلّ البصر عن بلوغ منتهاها، تخترق السّحب الملتئمة إلى اللّاحد. طفر ذلك الصّوت الّذي سمعوه أمام الكهف، مدوّيا، مجلجلا، وهو يردّد ثلاثا:

برئت منكم الدّمة... برئت منكم الدّمة... برئت منكم الدّمة...!

أخذوا بنبرة الصّوت، ركبهم فزع رهيب... قال «صادق»: «كنت أسمع أصواتا وراء القضبان، خافتة حيناً، صارخة حيناً، منذرة أحيانا أخرى، مهدّدة، متوعّدة، أصوات جنود، قعقة سلاح، صليل سيوف، خبيا، جريا، إطلاق أوامر...» قال: «في وقت ما، انفتحت طاقة كالبوابة وسط الحاجز، دقّتها الوحيدة حين ارتطمت بقضبان الحديد أحدثت صوتا منقرا، منذرا بالخطر، سمعت جلبة، دلفت الأصوات الّتي تناهت إليه، منذ قليل، من الدّاخل إلى الخارج، دلفت من رحم الضّباب، ولكم كانت موجة الخوف عامّة، عند أفراد الرّكب، وهم محاصرون في البداية، يحيط بهم جنود غلاظ، غارقون في زردياتهم، لا يبين منهم سوى عيونهم الّتي تقدح شررا، على رؤوسهم قلانس تنتهي بذوائب كذيول الأحصنة، شاكّي الرّماح، شاهري السيوف، ولكم كانت مفاجأتهم كاوية، وهم

يتطلّعون بغباء إلى الحلقة المحيطة بهم، لا يقدرّون على شيء من أمرهم، أرجلهم مسمّرة إلى الأرض، وجوههم ذهب رواؤها، تشنّجت حركة أيديهم، بعضهم ساب على نفسه، وقال الرأس همسا:

. هذا ما جنته علينا أيدينا! نحن سباً وكانت الآيات نبوءة! فمن ستكون الفئة المؤمنة؟

قال «صادق»: «أدخلت يدي إلى جيبي، وأخرجت علبة السجائر التي أعطانيها صاحبي الذي التقيته في المقبرة، سحبت سيجارة، وما كدت أشعلها، وأضعها بين شفتيّ، حتّى أحاط بي جنديّان عابسان، قال لي أحدهما سائلا، وقد بدا لي أنّه أعلى رتبة من صاحبه، من نياشين زاهية كانت معلّقة على صدره:

. ماذا تفعل؟

قال «صادق»: «قلت له وقد برح بي الاضطراب:

. إنّني أدخّن. وهذه سيجارة.

سأل الجنديّ عالي الرتبة، للمرّة الثّانية، بعربيّة محطّمة النّبرات:

. وما أدخّن؟ وما سيجارة؟

قال «صادق»: «وجدت تلك فرصة مواتية لإنقاذ رقبتيّ، فمددت إليه يدي بسيجارتيّ المشتعلة، وقد بدأ يزايلني بعض خوفي، وترين على قلبي أطياف سكينه، وأنا أقول بهدوء واستخذاء، معنيا رأسي قليلا، متظاهرا بالدّلّة والصّغار: . هل لك أن تجرّب! أبدى ريبة، في البداية، تمثّلت في شكل تقطّيبه صغيرة على جبينه، ثمّ بسط يده إليّ متحسّبا، فأخذ السّيجارة. قلت له مشجّعا، وأنا أستعيد أولى توجّهات صاحبي الرّاحل إليّ: . ضعها بين شفتيك، واسحب الدّخان إلى صدرك بعمق، وستشعر بعد ذلك بخدر لذيّذ... قرّب السّيجارة من شفتيه، احتواها

بينهما، شفط الدخان على مهل، ثمّ بعمق، سعل، لكن سرعان ما استردّ أنفاسه... عرفت أنّ حيلتي قد انطلت عليه، وأنّ الأمر قد راق له، من خلال انطلاق أساريه، وتحديقه فيّ مستكشفا من فوق لتحت، ومن تحت لفوق، قال لي مشيرا:

قف جانبا، فقد عفونا عنك، جزاء ودك!

قال «صديق»: لقد فكّرت مليّا، وأنا أنظر إلى الجنود يصلبون أصحابي بمن فيهم الرأس، على جذوع نخل مثبتة في أصل تلك الدعامات الحديدية. وتساءلت مرارا: ترى ما الذي دعاهم إلى استبقائي؟ أ تكون تلك السيارة وحدها التي أهديتها إلى كبيرهم؟ قال: وألقيت نظرة فاحصة على نفسي، فتخيلت أنّي اهتديت إلى الإجابة الصحيحة؛ لقد بدوت غريبا لعيني، ولعلّ هذه الغرابة هي ما دفعهم إلى استبقائي... كنت ألبس ملابس لا عهد لي بمثلها، لم تعتدها عيناى قطّ، من ألبسها؟ كيف عثرت عليها؟ إنّه صاحبي، قبل رحيله العجيب تركها لي في جملة ما ترك، فلبستها زهوا، ولم أكن أدري أنّي سأصير مدينا لها بحياتي، هي والسيارة!!

قال «صديق»، الذي أصبح يدعو نفسه «النّاجي»، بعد حدوث المجزرة، إنّ الضّباب سرعان ما انقشع عن فضاء فسيح، منبسط، حينما دخل وراء الجنود، من تلك البوابة الوسيطة، ما راعه حالة الإقفار، عقم المكان، كأن لا أثر لحياة، رغم الوجوه التي كانت تعاصره، أينما حلّ، في غدوّه ورواحه، انطلاقه وإدباره، وجوه، على جمالها، موغلة في الغرابة، لا يدري لماذا ظنّ أنّ حملة مثل هذه الوجوه أشخاص من جنس آخر، فريد منقرض، لا أثر لطفل أو شيخ، بينهم، كلّهم في شرح الشّباب، شبّان وشابات، بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، للذكور وسامة فياضة، تضاهي جمال الإناث، الشّعرا السّبط الأصهب، العينان الواسعتان المستديرتان الجذابتان، لولا حمرة غريبة،

غير آدمية، الصّدور القويّة، السّواعد، الإناث فارعات، شعورهنّ طويلة، مسترسلة، وجوههنّ تتألّق ببياض أخاذ، مع تناسق في الملامح والتّقاسيم، ما بدا له غريبا حقّا حالة العري التي تميّز الجنسيتين، دون شعور منهم بالخلج أو الخطيئة، لا يكاد يستر أبدانهم سوى خرقة في الوسط، مشدودة في غير إحكام حول العورة، حتّى أنّه إذا اضطرّ أحدهم إلى الجلوس أو الإقعاء، بان مستودع أسرارها، كان يطيل التّطلّع إلى الذّكور، بقدر نوره إلى الإناث، تتشرب عيناه نفور النّهود، ابتعادها، انفراجها، تضامتها، انبساط البطون، ضمورها، نحول الخصور، تربرب الأفخاذ، استدارة السّاقين، جمال متوحّش ما يراه، يغزو مداره، يحيط بتضاريسه من كلّ مكان، فيجيش برجفة في عينيه، وقشعريرة تسري في يديه، يتحرّكون دائما، ألا يهدأون؟ ألا يتعبون؟ فإذا ما تعبوا، أين يهجعون؟ وإذا ما تاق الذّكر إلى الأنثى، فأين يمارسون ذلك الشّيء؟!... قاده تفكيره المشوّش، وخيط الأسئلة الذي لا يتوقّف، إلى كوخ صغير، في أقصى الجانب الشّمالي، مصنوع من خوص النّخيل، مستدير، أعلاه في شكل قبة، له باب أشبه بالكوة، أمامه يمينا، سمقت نخلة طويلة، النّخلة الوحيدة، في ذلك المتاه المنبسط... لم يستدلّ على شيء ممّا فيه إلى هويته، إلّا أنّ منظر الشّيخ الذي رآه حين دخل، وهو جالس وراء نضد عليه بعض زجاجات وبعض الكؤوس، جعله يعتقد أنّه ربّما يكون خمّارة، لكن خمّارة لمن؟ لأولئك الذين رآهم في الخارج؟! إنّ حقيقة لا يتصوّر ذلك؛ لا يدري لماذا سوّلت له نفسه أنّ مثل تلك الوجوه الطفليّة التي يحملونها، والبراءة التي تشعّ بها أعينهم تقوم حاجزا دون معاقرتهم اللّذة المحرّمة!!... كان الشّيخ كبيرا، يلبس عباءة، شعره الطّويل الحاسر، ليس به شعرة واحدة سوداء، مختلف عن البقيّة، لا تجمعهم بهم سوى تينك العينين الحمراوين، هشّ له، دعاه، أشار إلى كراسي بجانبه، وحين جلس قدّم له كأسا، وهو يقول:

مرحبا بالغريب.

سأله النَّاجي:
وما أدراك بغرابتي؟

قال الشَّيخ العجوز، وهو يبتسم في إشفاق:
انظر إلى نفسك ترا!

ثمّ، وبعد أن صعد في وجهه مدّة غير يسيرة:
إنّي لأقرا في وجهك أسئلة كثيرة؛ فإذا لم يكن لديك مانع، فسل
عمّا بدا لك!

تملّم النَّاجي قليلا في مكانه، وأمسك الكأس بكلتا يديه، وعبّ ما
فيه دفعة واحدة، حتّى إذا ما ضجّت برأسه معابثة الخمر، سأل، وهو
يفحص بدوره وجه الشَّيخ:
ما هذا المكان؟

قال الشَّيخ، وقد بدأ صوته يرقّ:
هذا وادي الجنّ... كلّ الذين رأيتم في طريقك قبل الوصول إلى هنا
هم من سلالة من الجنّ، باد أكثرهم، ولم يبق سوى هؤلاء، فإذا ما بادوا
اندثرت السلالة جميعها.
قال النَّاجي بصوت مبهوس، فكأنّما يحدث نفسه:
إذن فهمت لماذا كانت أعينهم حمراء.

ولكنّ الشَّيخ كان مرهف الحسّ، حادّ السَّمع، فالتقط كلماته: قال
وهو يتّجه بكلّيته نحوه:
أجل، إنّ حمرة أعينهم تشي بنسبتهم.
سأله النَّاجي، ولم تخف عنه هذه الحقيقة من جلسه أيضا:
فإنّك أحمر العينين، فهل أنت منهم؟

قال، وهو يضحك ضحكة صغيرة:

ليس تماما، أنا نصف نصف. لست منهم، كما لست منكم. إني إنسي من ملوك بني الأصفر، وأمي جنية، كانت تعشق والدي، تأتيه كل ليلة، فيكون بينهما ما يكون بين المرأة وزوجها، حتى ولدت أنا، فكانت فرحتهما بي كبيرة، عند بلوغي السادسة من عمري، توفي والدي، فحملتني والدتي إلى هذا المكان، به ترعرعت، نشأت، وقد شخت فيه، حتى بلغت أرذل العمر.

سأله النّاجي:

فأين منازل القوم؟

قال:

إنها تحت الأرض، لا يأوون إليها إلا ليلا، أما نهارا فيخرجون لشمّ النّسيم.

سأله:

فإني أرى في أعناقهم قلاند من حديد؛ فما شأنها؟
أجاب الشيخ، وقد اعتدل في جلسته، كأنه يستعدّ للإفضاء إليه بسرّ خطير:

. تلك القلاند عليها ختم الملكة عاشقة الرّجال، ساكنة القلعة، تثبت ملكيتها لهم، فهم لا يخرجون عن طوعها، ما دامت تلك القلاند في أعناقهم، وعلى كلّ قلادة اسم صاحبها، والوقت الذي ولد فيه، وجنسه، والقبيلة التي ينتمي إليها، فقبائل الجنّ بعدد رمال الصحراء.

سأله:

ما اسم هذه الملكة؟

أجاب الشيخ بنبرة فخمة، كأنّه يزهو بما يعرفه:
اسمها الملكة شرشير خذاه، وقد سمّيت بعاشقة الرّجال لولعها
الشّديد بهم، وهي تسكن قلعة في الأعالي القصيّة، لا تبلغها النّسور،
على مبعده من الحاجز في الجهة القبليّة.

وأشار إليها بإصبعه، من كوّة صغيرة في الكوخ.
وأضاف بعد قليل، وهو يغمز بعينه، ويضحك ضحكة ذات معنى:
وما تفتأ مولاتنا الملكة أن تدعوك إلى قلعتها!

انتفض النّاجي في مكانه، كأنّ به مسّا، أو كمن لدغه ثعبان، وسأله
بتلجلج:
تدعوني؛ ولماذا؟!

قال العجوز متظاهرا بالغباء:
الملكة أعلم!

سأله:
فمن سيخبرها بقدومي على بعد المسافة؟

قال، ورنّة ضحكته تغطّي على المكان كلّهُ:
ذاك رسولها الهدهد!!

** [حاشية] **

التصق به اسمه الجديد، حتّى نسي القديم، النَّاجي، به أصبح يعرف من «نسطاس»، الشَّيخ العجوز، صاحب الخمّارة، وبين الجنود الذين يحرسون الحاجز، أمّا أولئك المضطربون الصّغار، هنا وهناك، من سلالة الجنّ المهذّدة بالانقراض، فلم يكن له بهم اختلاط، كان يتحاشاهم ما استطاع، الإناث منهم خاصّة، لما يثرن فيه من شوق، يخشى لو أبدي، لو هفا، لو أقدم، ثمّة سيعاقب، العقاب أهون الأمور في مثل هذه الحالة، ما خفي كان أعظم، هؤلاء الجنّ، سيّما الكفرة منهم، لا يتسامحون، الخطأ عندهم، ولو بحسن نية، غير مشروع، سمع، في زمن قديم، لم يعد يذكره، من أصدقاء عن مصير صديق ربطته به صلة حميمة مدّة، سأل عنه كثيرا عندما لم تعد تسنح الفرصة لرؤيته، ذهب إلى الأماكن التي كان يؤمّل أنّه سيجده فيها، المقهى القديم بحومة السّوق، «مقهى خليل»، «القهوة العالية»، لكن لا أثر، كأنّ الأرض انشقت فجأة فابتلعتة، لم تطل عليه المدّة، مع ذلك، كي يعرف الحكاية، كان ذلك ذات يوم ماطر، أمام أحد الدّكاكين القليلة التي تبيع كلّ شيء في ظاهر الحيّ، هناك عثر على صديقين، هما في نفس الوقت صديقا صديقه المختفي، بعد التّحية الحارة التي ألقاها، كما ينبغي لصديق حميم إزاء أصدقائه الحميمين، جرى الحديث على عواهنه، بالمصادفة، وبمحض المصادفة، عرف تفاصيل الحكاية الأليمة! خولط صاحبه!! لكن، كيف؟ ما الذي حصل له، وقد رآه منذ أيّام قلائل خلت صحيحا معافى؟ أكّد كلاهما، قال أحدهما فأمن على قوله الآخر، كان الصّديق المختفي شديد الوله بالصّيد، لا تحلوه الفسحة إلّا في الجبال، هناك يرين عليه صفاء غريب، يتحرّر شعوره بالانطلاق، يرفعه آل، ويخفضه آل، وبقوسه وكنانة نشابه، كان يترصدّ في المغاور، في الوديان العميقة، ويتحرّر في أكتاف الجبال، ربّما رأى غزالا قيرديه قتيلا، أو عزا وحشيا، أو أرنباً بريّا، أمّا أفضل صيده على الإطلاق فالثّعابين الكبيرة المربربة، إذا ظفر بأحدها، بعجه بالخنجر، وأكله نيّنا، حتّى من قبل أن يكشط غشائه، ينسى أن يسمّي الله، ذكر اسم الله قبل الأكل واجب، لا يجوز

نسيان ذلك، مهما كانت الظروف، في التعب، عند الإرهاق، في حال عدم القدرة، حتّى في حالة الشلل أو العجز الكلّي، قال... وفي يوم من الأيام وقع المحذور من حيث لم يحذر، إذ كان أحد تلك الثّعابين مسكونا، غدا صديقنا المختفي بدوره ممسوسا، تلبّسته جنّية لا يدري من أمرها شيئا، شرّيرة كانت، لا تعتقه في ليل أو نهار، وتحلّولها معابثته سيّما في التّهار حينما يكون في جمع، لا تخجل من ذلك، تداعبه، تقرصه في خده. وهو في كلّ ذلك لا يراها، كأنّ الأمر سيكون هيّنا لو ألقى عليها، ولو مجرد نظرة عابرة.. تلحس شحمة أذنه، تمصّها، تلصق جسدها بجسده، تمصر صدره، تنقضّ على شفّتيه في قبلة محمومة، تضغط على قضيبه بوسطها، حينئذ لا يستطيع الاحتمال، يخشى أن يفتضح أمره، فيغادر المكان هاربا، غالبا ما كان يسمع ضحكة شامته، وراء ظهره، وهو يدبر، هي ضحكاتها دون شك... قطعاً، لم تكن تلك حال من تتعشّق من الجنّ إنسيّا، لو كانت تحبّه حقّا لما كلّفته من أمره رهقا، نفس العذاب يتكرّر كلّ يوم، بل كلّ ساعة من النّهار، لم يترك عزّافا إلّا ذهب إليه، واستنصحه، ولا كاهنة إلّا زارها تسبقه هداياه، صار معروفا من الجميع، ويعرف الجميع، وبعض النّاس، لطول تطوافه، رَقّوا له، فما يكادون يسمعون بوصول وليّ أوسائح أو عارف إلّا دلّوه على مكانه، لكن عبثا، وجاءت اللّحظة الحاسمة، حين أخبرته جارة، تسكن غير بعيد منه، أنّها رأت امرأة غريبة تفتح باب بيته، وتخرج منه، ثمّ تعود إليه، وقد فعلت ذلك ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة تعود ومعها حفنة من الرّمْل، عند ذاك أدرك سبب علّته، لم يعر اهتماما لحفنة الرّمْل، ولكن سألها، وهو يرجف من الدّاخل: «وكيف هي المرأة؟!» قالت إنّها في حياتها لم تر أبشع منها ولا أقبح، امرأة طوال كالنّخلة، شبه عارية، بعين واحدة، وأنف أفطس، وفم منحرف، كانت الصّدمة أقوى من احتماله، لم يستطع أن يتصوّر أنّ المرأة التي كانت تضاجعه نهارا جنّية قبيحة، فخلوط!!... لذلك كلّه، وقر في نفسه، هو النّاجي، خبر الحكاية، لم ينسها رغم عبور المدّة، واضمحلال الشّقة، نادرا ما يرفع عينيه، إذا سارتملّ،

وإذا مشى تفادى الالتفات إلى يمين أو شمال، أمّا إذا جلس، ولا يحلّ له الجلوس إلّا تحت ظلّ النخلة الوحيدة أمام الخمّارة. فيطيل المكث متفكّراً متأمّلاً، حتّى أنّه لا يكاد يرى بعض الذين يتوافدون على المكان، فيقفون مدّة، قد تقصر أو تطول، وهم يتفرّسون في ملامحه وقيافته الغريبة... علّمته الأيام التي قضّاها، شبه منفيّ، وراء الحاجز، ينتثر متحسّبا، في أية لحظة، من أمر الملكة عاشقة الرّجال، ساكنة القلعة، بالقدوم عليها؛ علّمته تلك الأيام أن يتصامم حتّى تمكّن منه الصّم، أن يتعامى عمّا حوله حتّى انسدل على عينيه مثل الغشاوة، وأن لا يتكلّم إلّا همسا، أو مشيرا من طرف خفيّ إذا دعاه «نسطاس» ليتناول كأسا معا... قليلة جدّا هي اللّحظات التي يمكث فيها داخل الخمّارة، أمّا عظم وقته، فيستغرقه في الأطراف، حول التّخوم، عبر الجهات، متبّعا درجات الظلّ. وتبدّل الضّوء، وحركة الشّمس، في الصّباح يقعي تحت النخلة، فإذا ما مسّه عند الظّهيرة لفح الهجير، استدّار مع الظلّ، حتّى ينتهي به المقام، عند المساء. وراء الكوخ الصّغير...

«مصيف» صارت هوسه المقيم، جنونه وكلّ سحره!!

و«مصيف» هي القلعة اللّغز، محيرة إلى حدّ الإرباك، ممعنة في أسرارها إلى حدّ الخبل، هكذا عرف قلعة الملكة عاشقة الرّجال باسمها، من «نسطاس»، لا هي مشدودة إلى عالم الأرض ليقول إنّها أرضيّة، ولا إلى السّماء ليقول إنّها سمائيّة، وإنّما هي أرضيّة. سمائيّة تتجاوزها قوى غير منظورة، قد تكون الملائكة أو الشّياطين أو الجنّ الذين خدموا حيناً من الدهر نبيّ الله سليمان عليه السّلام، أو كلّهم مجتمعين، كبرزخ، حدودها، هيئتها، محيطها، مساحتها، معروفة ومجهولة، في نفس الوقت، تبعا للجهة التي تراها منها، وفقا للمكان، فهي دائريّة إذا تحوّل النّاجي إلى الجهة الشرقيّة، مربّعة إذا رُمقها من الغرب، مستطيلة فيما لو تطلّع شمالا، مثلثة إلى جهة الجنوب، هذا ممّا زاد في انزعاجه وقلقه، جعله دائم التأمّل والتفكير، والغريب أنّه

أتى عليه حين رغب عن الفهم، ملّ الاستفسار لغاية المعرفة، وتشبّث بالتأمل والتّفكير لذاتهما، في أيّ من مواقعه التي اعتادها، كان يروق له أن يديم النّظر إلى فوق، إلى أعلى، إلى حيث كان يرى ثورا أحمر، عظيما، معقوف القرنين، هائل الجثّة، في حركة دائريّة دائبة، لا تتوقّف، على أحد قرنيه صخرة كالجبل، ذات بريق، تتجاذبها ألوان شتى، تبدو للعين أضخم من الثور بعشرات المرات، لكن لا يظهر عليه أنّه ينوء بها، وفوق الصخرة قبة زمردية خضراء، قاعدتها سبائك من ذهب مطعّمة بماسات قد تصل زنة الواحدة منها إلى ثلاثين مثقالا، كلّها على مسافات متقاربة متساوية، ومحاطة بأحزمة فضيّة، دقيقة السّمت، محكمة الصّنع، بأعلى القبة، تشرئبّ بقممها القلعة، حتّى لتكاد تبلغ عنان السّماء، في أشكالها المتعدّدة: دائريّة. مستطيلة. مربّعة. مثلثة، ما رابه، ما حيره حقّا ذلك الثور، لشدة ولعه به، يخاف عليه، موجس في كلّ لحظة، متحسّب، قد يسقط، قد يتناثر، ساعتئذ ينهار البناء وتتقوّض القلعة!!

ترى ما يمسكه؟

كان يرى تحته مثل المويجات الصّغار، تهمسّ، رائحة آيبة، متثنيّة، ملتوية، مغناج، في الغدوّ والرواح، ما تنفكّ تحيط حوافره، وتدفعها في دقّة، تشدّ إذا شدّ، ترخي إذا أرخى، كأنّهما روحان في جسد واحد... هل هي الرّيح؟! و«مصيف»!!

صارت هوسه المقيم، جنونه، وكلّ سحره! فما شكلها من الدّاخل؟ وكيف يكون سكن الملكة عاشقة الرّجال، ساكنة القلعة؟

قال صاحب «تاريخ التّمدن الاسلامي» و«روايات تاريخ الاسلام»:

«... وركب جواده قاصدا جبل السّماق. وهو جبل عظيم من أعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلّها للإسماعيلية، وفيه بساتين ومزارع، لكنّ المياه الجارية فيها قليلة إلّا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع خاصّة ومع ذلك تنبت فيه جميع الأشجار والفواكه وغيرها حتّى المشمش والقطن والسّمسم.

وقد اشتهر جبل السّماق بالقلاع الّتي فيه لطائفة الإسماعيلية وهي عديدة أشهرها مصيف وكهف والخوابي وعليقة ومرقب والرّصافة وغيرها، ويهمّنا هنا مصيف وفيها يقيم زعيم الإسماعيلية راشد الدّين وهي على مسافة ١٢ ساعة غرب حماة.

.....

وقد اشتهرت هذه القلعة في زمن الإسماعيلية بإقامة شيخ هذه الطّائفة فيها وهي واقعة على جبل مصيف، وهو جبل شامخ يحيط به من الشّرق والغرب مستنقعات واسعة، وينتهي من الشّمال بقمّة عالية فوقها قلعة منيعة هي مقرّ شيخ الإسماعيلية. ومن أسباب مناعتها أنّها قائمة على صخر جوانبه عموديّة يعسر تسلّقها. وتشرف على ما يحيط بها من المستنقعات من كلّ ناحية ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشّعير. وعلى مسافة من الجبل بلدة مصيف يسكنها طائفة من العامّة.

أمّا القلعة فإنّها محاطة بسور سميك ليس له إلّا باب سقفه عقد متين إذا دخل الرّجل منه سار في ممرّ كلّ معقود يصل من الدّاخل إلى قمّة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف وكلّها مبنية من الحجر الصّلد. وعلى السّور أبراج متلاصقة تقيم بها الحامية ترمي الهاجمين عليها بالسّهام أو الحجارة قبل وصولهم إلى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلّا بعد قتل المئات والألوف.

((٤))

[عاشقة الرجال]

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد . سدّد الله خطاك وثبّت أركان دولتك . أنّ النّاجي . رغم توقّعه . في أيّة لحظة . قدوم الجنود عليه لاصطحابه إلى القلعة . فقد أحسّ حين رآهم يقدمون نحوه بتزلزل كيانه؟ . تزعزعت آفاقه وأبعاده . وذوى بريق مداره . قد يكون سبب ذلك أنّه لم يكن مهيباً للقاء . قد يكون استغراقه الدّائم . اشترئابه ناحية القلعة . قد زاغاً به حيناً . فسوّلت له نفسه حصانة لا تطل . ممّن كان . حتّى ولو كانت الملكة نفسها . هذه مازال لا يعرف عنها شيئاً . أمرها مستعص . استعصاء الصّناديق السّبعة . ذوي المفاتيح السّبعة . قطعاً . حاول أن يرسم لها صورة معيّنة في خياله . لا كما اتّفق . بل وفق نماذج معيّنة . انطبعت في ذاكرته . قضى وقتاً غير يسير في المقارنة بينها . في مواءمتها ومطابقتها . ربّما تخيلها مرّة في صباحة زوجة أمير الكوفة . وقد رأى موكبها غير مرّة يخرج من دار الإمارة . أيام الجمع . إلى المسجد الجامع . ولم تفته طلاّتها المستكشفة . عبرزيق في الهودج . لحظتنه كان يملّي عينيه من صفاء بشرتها وسحر عينها الدّعجاوين . أو قد يكون تصوّرها في جمال أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان . أخت عمر بن عبد العزيز . زوج الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك بن مروان . من هام بها وضّاح اليمن حبّاً ووجداً . وقد كان جمالها . في زمانه . مضرب الأمثال . حتّى لقد سارت بذكره الحداة والركبان . أو قرن في لحظات توهّج وإلهام . صورتها بصورة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور . ربّة الجمال . سليلة المجد والحسب . أو... أو... كانوا خمسة . أربعة جنود . لا يختلفون كثيراً عن جنود الحاجز الحديديّ . وواحد . وهو الخامس . غريب الهيئة . عجيب القيافة . على علوّ مرتبته . وظهوره .

تغطّي رأسه قُبعة واسعة، متهدّلة الأطراف، دائريّة، منمنمة حوافّها بالدانتيل، بيضاء، أمرد، لا أثر في وجهه لشعر، ويعروه سحر شيطانيّ، النظرة الكسلى في العينين، التّسديدة الجذّابة، الشّهوة الّتي لا توصف في الشّفتين، كانتا ريّانتين، عليهما مثل الأحمر، وتحت الحاجبين سواد، وعلى الوجنات مثل المساحيق، تساءل: «هل هورجل؟ امرأة؟» تضاريسه العامّة، تكوينه يقول إنّه رجل، ملابسه، التّنوّرة الملوّنة، المصنوعة من قماش نفيس، سميك، الجوارب الطّويلة، الحريريّة، القميص الرّقيق، ذي الشّرايب في الأسفل، الشّافّ عن حاملات للتّهود، كلّ ذلك يؤكّد خلاف ذلك، ذاك ما زاده اضطرابا، كاد يطغى على خوفه، حين رآهم وقف لا إراديا، أحنى رأسه، بدا وكأنّهم يعرفون أين سيجدونه، وكأنّهم على علم مسبق به، لم يخطئوا الطّريق إليه، خطواتهم ثابتة، واثقة، في غير تردّد، وجهتهم تنتهي عنده، لا مجال لأن يفهم غير ذلك، ابتساماتهم المرحّبة من بعيد، على خلاف ما آنسه من جنود الحاجز الحديديّ، لا بدّ وأنّ واحدا، ولا يمكن أن يكون هذا الأحد غير الملكة نفسها من دلّتهم عليه. أشار إلى علامات جنسه، عن اسمه، هيئته، موضعه، عن جلسته المفضّلة حذاء الخمّارة متطلّعا إلى القلعة... تقدّم منه أرقام مرتبة، شبيه المرأة، لم تخف عليه دماثته، انطلاقه، سفور أساريه، وهو يتقدّم منه، حرّك ساقه اليمنى إلى الأمام قليلا، بقيت اليسرى إلى الوراء، تناول قُبعتة بيده، مدّها إلى الأمام، خفضها حتّى أصبحت في مستوى ركبتيه، انحنى بجذعه ورأسه، وهو يقول بعربيّة خالطها عجمة:

.مرحبا بك، يا سيّدي.

لم يدرك كيف يجيب، تلعثم لسانه، شعر بلجلجلة، حلقة ترقرق، ثمة سرّ ما لا يعلم كنهه، النّبرات الّتي سمعها، تؤكّد بما لا يقبل شكّا، أنّهم على دراية، ترحيبيهم، أدبهم الجمّ، لا بدّ أنّ هناك توصية من جهة ما، أمر

بالكفّ عن الغلظة، وإبداء الملاطفة، فجأة، تذكّر ما قاله «نسطاس» عن الهدهد، فهل يكون هو من أخبر عنه، بلّغ عن مكانه؟ لا معوّل للملكة إلّا عليه، هو عينها التي لا تغفل في مملكتهما الشّاسعة! أو شك أن يسأل، أن يستفسر، ثمّة أمور ودّ معرفتها، إلّا أنّه تراجع، ربّما قلب له ذلك الكبير ظهر المجنّ، من يدري لعلّ تلك الدّمّاة تنقلب تكشيرة، والانطلاق قعقة سيوف وإشهار رماح! لم يطل الصّمت بذلك الكبير حتّى قال باقتضاب:

.أجب الملكة!

أقبل الجنود الأربعة، اثنين اثنين، في ترتيب منظمّ، كلّ واحد منهم مقابل للآخر، تفصل بينهم مسافة، محدّدة، دقيقة، يمسك كلّ واحد بأطراف أنامله زاوية بساط أخضر، طويل، عريض، كانوا نشره بأمر من ذلك الكبير، عالي المرتبة، وحينما لم يعد يبعد عنهم سوى أشبار قليلة، فرشوه على الأرض، تأخّروا تأدّبا، حرّك الكبير رأسه نحو النّاجي، دعوته صريحة، لكنّها أمرّة أيضا، خطأ نحو البساط، تردّد في البداية، اعتوره توجّس، وإحساس أنّه مقدّم على مغامرة، حدودها غائمة، متميّع كنهها، مع ذلك صعد، تغلّب على تردّده، بما تبقى له من قوّة إرادة، تبعه الكبير، وبعد ذلك الجنود، طار البساط محلّقا في الجوّ، وجهته القلعة، لا يدري كم دام تحليقهم، المسافة التي كان يصوّر لها ذهنه لانهائية من موقفه حذاء الخمّارة كانت تطوى بسرعة هائلة، أسرع من وميض البرق، في وقت ما، كان ينظر إلى البساط، وهو يخترق جزز السّحاب، شدّه المنظر بعنف، قال في نفسه إنّ السّحب التي تبدو لنا دائما بعيدة، تصبح مثل مخدّة مخملية حين نقترّب منها، حاول أن يعثر على شيء بذاته في ذلك الامتداد، كان يودّ لو يلمسه بيديه، قديما، حينما كان طفلا يتقلّب مع صحبه في أزقة الحيّ، وقبل نزول المطر، كان ينظر إلى فوق، إلى السّحب الهاربة، فيرى حيوانات متوحّشة، ثيرانا،

أسودا، نمورا، ورؤوسا آدمية، في أحيان أخرى، يشاهد مراكب جميلة تجرّها خيول مطهّمة، وأطفالا صغارا، مثله ومثل أصحابه، يلعبون، يتصايحون ويصرخون، إنّه ليتساءل الآن أين ذهب سحر الطّفولة ذاك الجميل؟ وهل يكون ذلك كلّ شطحة من شطحات خياله الجامحة؟... عند حدّ معين، بدأ البساط ينزل تدريجيّا، كان ذلك على مبعده، غير يسيرة من القلعة، بإمكانه لو أراد أن يخترق فضاءها، دون الاضطرار إلى انتظار فتح البوّابة، قال له الكبير، وكأنّه حدس ما يجول بخاطرهِ، إنّ للقلعة حرمة مقدّسة، لا يجوز انتهاكها البتّة، كلّ من تسوّّل له نفسه التّطاول من طيور الجوّ، ووحش البرّ، ومن إنسان طارئ، يحاكم بالموت، بقطع النّظر عن أعذارهِ، أكانت وجيمة، أم بخلاف ذلك، قال إنّ النّسر محرّم عليه التّحليق فوق فضاء القلعة، كذلك الباز والصّقر، وأنواع أخرى ذكرها، ولورام الأسد أو الدّب أو الدّنب التّسلّل إلى داخلها من فجوة من فجواتها لراح ضحيّة الفخاخ المبتوثة على امتداد محيطها، قال إنّهم عثروا مرّة على أسد كثيف الجمّة، ضخّم الجنّة، وقد علقت إحدى قوائمه الأماميّة الرّيّانة، بين فكّي أحد تلك الفخاخ القويّة المحكّمة، فأطبقتا عليه، كما تطبق كلابتا السّلطعون على سمكة صغيرة مسكينة، وجاء موكب الملكة الجليلة، يتقدّمه الرّماحة، ومروّضو الأسود، وفرقة الكلاب السّلوقيّة، وكلاب الشّمال المتوحّشة، وكلاب تشبه الدّئاب، كانت الملكة تحتفظ بهم في أقفاص مغلقة مظلمة، لا تسمح بمرور الضّوء، وكانت تكلف من حاشيتها من يقوم على خدمتها وتدريبها، في كلّ يوم تحمل إليها كمّيات هائلة من اللّحم، والبيض، والسّمك الطّازج، وعند حلول الظّلام، يفتح المروّضون أبواب تلك الصّناديق، ويضينون زواياها بمصابيح خاصّة، وهم يحملون سياطا جميلة، ناعمة الملمس، مصنوعة من فرو الثّعالب، ويشرعون في تعليمها أصول الدّفاع، وأساليب الهجوم، وأنّ خير طرق الدّفاع المتطوّر الهجوم، قال ذلك الكبير إنّ تلك الكلاب المحاصرة نشأت متوحّشة، مفترسة، دامية، وقد تعلّمت في وقت مبكر أن تهاجم كلّ من يلبس ثيابا

حمراء أو صفراء، هكذا شاءت إرادة الملكة، لكلاهما حساسية ضدّ اللونين الأحمر والأصفر... حينما بلغوا مكان الأسد، هبّ من مرقده كالجريح، زار، حاول أن يقتلع الفخّ، أثاره الجمع، تطاير الشرر من عينيه، غير أنّه في النهاية لطا كجرو صغير، بلا حول ولا قوّة، أومات الملكة إلى رجل كان يحمل كمّاشة في يده، خطا نحو الأسد، تتألّق على أركان فمه ذبالة ابتسامة ساحرة، دار حول الأسد، بخفّة، سرعته فائقة، جهد الوحش في مجاراته، رmqه بنظرات حانقة، تنطق ثأرا، لم يبال الرّجل، فجأة، ضغط جمّته الجعدة بيده اليسرى، وباليمنى خطمه بالكمّاشة التي يحملها، جاء بعد ذلك رجلان، يجرّان عربة ملئت جرابا من عسل، أخذا يصبّانها على الأسد الذي استكان دفعة واحدة، حينئذ أطلقت الكلاب السلوقيّة، تفرّقت، كانت تعرف هدفها جيّدا، نبحت نباحا متقطّعا بادئ الأمر، ثمّ ارتفع النّباح وتواصل، وهي تحيط بالحيوان المهزوم، كانت تتعاضم، وكان يتصاغر ويتضاءل، أمسكه خمسة من رأسه، عضّوا على جعده بعنف، أربعة على قادمتيه الأماميتين، أربعة على قادمتيه الخلفيتين، في حين أخذ البقيّة يلحسونه على مهل، ببطء، بتشوّ، بتشّف، بشهوة عارمة، وفي الأخير، حان دور كلاب الشّمال، والكلاب المدرّبة على الافتراس، ألبسوا الأسد خرقة حمراء، لقّوه بها لقّا، وأطلقوا الكلاب، قال إنّ المنظر كان حقّا رهيبا، مازال إلى الآن مرتسما في خياله، إلّا أنّه لا يستطيع التّعبير عنه، كان هوله لا يوصف، كلّ ما يستطيع قوله إنّّه لم تمرّ ثوان معدودات حتّى كان ذلك الأسد العظيم كومة من العظام، صلبت على برج القلعة الكبير، وكتب فوقها على لوح، بالخطّ الفارسيّ: «هذا جزاء من تسوّل له نفسه انتهاك حرمة الملكة»... ما من أثر لحياة في الأرجاء، لا حدائق، لا بساتين، لا غابات، كلّ المكان أجرد، خلو من الخضرة، يطالعه الجذب حيثما ولّى وجهه، الحكاية التي رواها الكبير أصبح يشكّ في مدى صوابها، فمن أين يتأتّى لهذه الحيوانات والطّيور أن تعيش في مكان لا زرع فيه، ولا ضرع، ولا نبات؟ الشّيء الوحيد الذي يطالعه، حيثما سرّح طرفه،

مستنقعات آسنة، بلا عدّ ولا حصر، مياهها متغيّر لونها، تميل إلى خضرة داكنة تشي بعفونة متأصلة، رائحتها الكريهة ضائعة في الجو، في أطرافها، على حوافها، نباتات ذات لحى، مدبّبة التّهايات، شوكيّة، في وسط مستنقع، واسع المساحة، يشبه البحيرة الصّغيرة، رأى جسرا خشبيّا، يربط اليابسة بالقلعة، أثار فيه ذلك حبّ استطلاع مفاجئ، ذكر القلعة، فأراد أن يقارن بين صورتها: صورتها الحاليّة، وصورتها القديمة، كما كوّنها في أيّام تأملّه، عند جذع النّخلة في فناء الخمّارة، تكاد الصّورتان تكونان واحدة، غرابية الأشكال، مثلما رآها من هناك، يراها الآن هنا، دونما احتمال لأيّ تبديل أو تغيير، مهما كان طفيفا، فجأة مستطيلة، وأخرى مربّعة، وثالثة دائريّة، ورابعة مثلثة، وهولنن أبدى في بداية طلاّته الأرضيّة. حينذاك، دهشة يسيرة، لم تصل به إلى حدود المغالاة، تحت تأثير اكتشافه الطّارئ، وما لبث أن عزى الأمر كلّ إلى إغراء الخيال، الذي يخدع الإنسان عن نفسه، فيجعله يتصوّر أشياء كثيرة غير موجودة في الواقع، فقد بلغ به الاستغراب ذروته، وهو يقف الآن أمام القلعة اللّغز، وتأكّد لديه أنّ ما كان يظنّه وهما، ما هو في نهاية المطاف إلّا الحقيقة الوحيدة الممكنة، لقد اعترف، في صمت، بينه وبين نفسه، بروعة القلعة كمعلم معماريّ، بتفردّها، واستعصاء بلوغ ذراها، لم يكن يتوقّع أنّ معمارا، أو مهندسا، أو مهندسين، يمكنه أو يمكنهم أن يشيّدوا مثل هذا الأثر، الأبراج السّامقة، وهي ملأى، من جميع الجوانب، بحاميات الدّفاع، الحجارة الّتي بنيت بها، زنة الواحدة منها قد تصل إلى بضعة آلاف من الأرطال، مربّعة الشكل، صوّانيّة اللّون، فمن يا ترى استطاع أن يثبّتها في مكانها دون أن يعي بحملها؟ العبيد؟! لكن يخيّل إليه أنّ عبيد الأرض جميعهم لا يقوون على مجرد زحزحتها، فكيف بحملها وتثبّيتها في مكانها! على الفور قاده تداعي أفكاره إلى عصر موغل في النّسيان، إلى بضعة آلاف من السّنين إلى الوراء، إلى فراعنة مصر، إلى مصر نفسها، «هبة النّيل»، كما قال عنها المؤرّخ اليونانيّ، الفقير إلى ربّه، الرّاجي ثوابه، عبد الله هيرودوت، ذكر أهرامات

الجيزة العظيمة، تلك جلب حجارته «خوفو» على متن سفن جبارة، من أماكن قصية، سخر لحملها رجالا، من العبيد، ومن غير العبيد، كلف بناؤها سنين من السخرة، من الجوع، من الموت الجماعي، كل سنة، ضرائب، أموالا طائلة، حتى بنيت، ومن بعده «خفر»، وصاحب الهرم الأصغر «منكورع»، هذه القلعة التي أمامه، تفوق الأهرام حجما، يفوق حجمها كل تصور، لا يمكن أن تكون من صنع بشر، قد يكون بناها الجنّ لنبيّ الله سليمان عليه السلام، واستعانوا على بنائها بالشياطين، والمردة، وأصحاب القماقم، ثم آلت ملكيتها بعد قرون إلى الملكة... عاشقة الرجال!! سمع أزيز السلاسل، واستدارة البكرات، فثاب إلى نفسه، بعد طول تهويم، كان ينظر إلى الجنود، وهم يضطربون في الأعلى، على الأبراج، قوادهم يصدرون إليهم أوامر قصيرة قاطعة، رأى بابا خشبيا تدعمه السلاسل، ينزل ببطء شديد ناحية الجسر، كان الباب مخيفا مهيبا، عبارة عن ضلفة عملاقة، سمكها يزيد على أمتار أربعة، عرضها، وكذلك طولها، لا يقدران، خياليتان، تتخلل مساحتهما حلقات حديدية، نصف دائرية، كثيرة، لا تكاد تخلو منها بقعة، اصطدمت الضلفة بالجسر، أحدث ارتطامها به صوتا مكتوما، مثل الآلة التي تظلّ طويلا محبوسة في الحلق، فإذا ما أنست غفلة انسحبت بسرعة، إلى الفضاء الرّحب، لكنّها لا تعمّر أكثر من ثوان، طوى الجنود في الخلف البساط بعناية، تقدّموا، الكبير والتّاجي، يسيرون جنبا إلى جنب، الجنود وراءهما، تفصلهما مسافة، هي المسافة اللازمة لحفظ المراتب، عند نهاية الجسر، من الجهة الأخرى، ارتفع باب ثان، به فجوات، كلّ من الحديد، نهاياته في الأسفل مشرعة، كرؤوس الرّماح، أوما الكبير قائلا: «انتظر!» وسار وحده، عند اقترابه من البوابة، رآه يلصق رأسه بها وينادي: «الباشق... الباشق». كانت تلك، على ما اعتقد، كلمة السرّ، الواجب إصدارها إلى جند الحراسة قبل العبور، ولم يخطئ في اعتقاده، فقد سمع دفّتي البوابة، تترّان، ثمّ تفتحان على مصراعهما، محدثتين صريحا قويا له صدى، اضطرب الجنود الأربعة

وراءه، فأدرك أنّه يجب عليه مواصلة السّير، بالكاد اجتثّ قدميه المتصلّبتين المتشنّجتين من الأرض تحته، وخطأ، حذرا، تتنازعه مشاعر متضاربة، غلب الخوف عليها كلّها، ودّ لو كان مختارا، مالكا لزام أمره فيعود، إنّها رهبة الخطوة الأولى، صدمة بداية الشّوط، ربّما لو انكشف له بقيّة المشوار، وتجلّت لعينيه مراحل الطّريق، لكانت رهبته أقلّ، ربّما خفّت صدمته... لقد سمع عن كثير من أصحابه ممّن خوّضوا في المتاه، واحتوتهم مجاهل الصّحراء، هؤلاء تمكّن منهم الجوع، أضناهم العطش، وفي لحظات كان الإجهاد البالغ يهلكهم، لكم واصلوا السّير، ولم تنبّق في ركائهم قطرة ماء واحدة، كم استعاضوا بأكل الرّمال عن الزّاد النّافذ، وكم ناقة نفقت في تيه الفيافي، متوارية بأمل أحدهم في النّجاة، أو ليس يقولون إنّ سلامة المطرّق في سلامة راحلته! روى له أصحابه أطرافا من مغامراتهم، وصفوا له تلك اللّحظة العجيبة الّتي تنعدم فيها كلّ سبل النّجاة، فلا يبقى أمام أحدهم إلّا التّسليم. بيأس. لقد رغامض، كثيرون ماتوا بمجرد تفكيرهم في الموت، آخرون ابتلعهم الفراغ، أخبره ثقة فقالوا إنّ اليأس بلغ بهم حدّا جعلهم يدركون أنّ ساعة الموت قد أزفت، أنّ ساعة القضاء قد حمّت، تشهّد بعضهم، قالوا لا خير من ملاقة الله بقلب سليم. شرع عدد منهم في حفر حفر بطول قاماتهم، واندسّوا فيها، مصالين أيديهم على صدورهم، سيقانهم مستوية، كان لديهم اعتقاد أنّ الرّياح ستسفّ عليهم الرّمال إذا وافي الأجل، دائما يحكون الحكايات، بلا كلل، عن الغرائب والأعاجيب، حيوانات لم يروها من قبل، واحات في قلب المتاه، مياه موجودة حيث لا يتوقّعون وجودها، مضارب خيام، أصوات يسمعونها ولا يرون أثرًا لمناد، لكن هل منهم من رأى مثل هذه القلعة؟ هل منهم من أحسّ بمثل خوفه؟

تسمّرت قدماه، وقد اجتاز بالكاد عتبة الباب، الّذي شرع الجنود

فورا في إغلاقه من جديد، العدو المدهام متوقّع في آية لحظة. سدّ الطريق أمامه قبل وقوع المحذور من الحكمة. امتدّ عنقه، دون شعور منه، إلى الضّفة اليسرى، إلى التّخوم، إلى الأطراف، ثم ارتدّ إليه طرفه من جديد، على غير مبعدة منه. كان نهر يشطر القلعة شطرين، إلى يسار البوابة الرئيسيّة من الجهة الأخرى، كأنّه مشقوق بإرادة بشريّة، ليس بالعميق، ولا الخفيض، ماؤه مثل اللّجين السّاري، يبدو لمن يدقّ النّظر فيه، وكأنّه بحيرة من الألوان القزحيّة، هائل العرض، لا أثر فيه لاعوجاج أو التواء، كما لو أنّ أحدا سطره بدقّة متناهية، مظهرا إلماما جزلا بالهيئة وعلم الهندسة، وطرائقه وفنونه، على مدّ البصر، قريبا من خطّ الأفق، لاحت لعينيه آثار خيام، مضارب متباعدة، بعضها عن البعض الآخر، مهلهلة، قد تكون مصنوعة من الشّعر، أو وبر الجمال، لم تطالعه، كما أمّل قبل دخوله القلعة. بدايات المدينة، لم تشمخ أمام عينيه طوابق المباني بشرفاتها الرّائقة. لم ير الميادين التي رسم لها صورا جميلة في خياله، الشّوارع، الأزقة، الحواري، التّواصي، لقد خابت آماله لدى أوّل لقاء، واعتراه ما يشبه السّرنة في وقفته الحائرة تلك، كثيرا ما تمثّى، وهو في عمق المتاه، معزولا، منفردا، مستوحشا، أن يغادره إلى أرض ذات خصب وموارد، إلى مدينة كمدينته التي رحل عنها مضطرا، أو المدن التي سمع عنها، منذ أن شبّ كانت حدود المدن واضحة عنده، سواء في ذلك المدائن التي استوجبت بناءها غايات حربيّة، فبناها القوّد بأمر من الخلفاء، كثكنات للجيش، تنطلق منها الفتوح، وتقوم كحصون للدّفاع، أو المدن التي شيّدت أيام السّلم، بأمر الملوك، وفق متطلّبات الذّوق والجمال. في كلا الحالين، ورغم بعض الفوارق الدّقيقة، كان شكل المدينة واحدا، في بغداد، كما في الكوفة، أو البصرة، أو الرّقة، كانت الأسوار دائما تدفع الأذى، المسجد في الوسط، يبني بعد تحديد القبلة، بجانبه قصور الخليفة والحاشية، لا غنى عن الأرباض في المدينة، الشّوارع لازمة، لا غنى عنها، ضرورة، تتخذ الأسواق

الرحبة، يؤتى بالبضائع إليها براً وبحراً، غير بعيد منها، يقيم العامة مساكنهم، حتى القلاع تخضع لنفس هذا التخطيط، لا تحيد عنه، وإن استحدثت أشياء طفيفة في أوقات معينة: فما بال قلعة الملكة؟ هل هي استثناء؟

في أفنية المضارب، جلس الخيام، نساء استغرب هينتهنّ، يجللنّ الصمت والسكون، لا وجود لعجوز بينهنّ، ملامهنّ تكسوها غشاوة لا يدري ما تحتها، هل هو حزن؟ هل هو أسى أو تأس؟ هل هو الخوف؟ الفزع؟ منهنّ واقفات، غير جالسات، ينظرن إلى اللأوجه، لا يأتين حركة، كأنهن أصنام مثبتة إلى قاعدة من الصخر، ومنهنّ الجالسات، منحنيات، كأنّ همّا يثقلنّ، أيديهنّ في وضع سفليّ، كما لو كنّ يردن أن يخططن شيئاً على الأرض، أو ينكتن الرمل، بعضهن مضطجعات، مستندات بظهورهنّ، وجوههنّ منشده، معلّقة بصفحة السماء في حالة استغراق، قد يحدسه أنّهن يتراوحن بين التاسعة عشرة والحادية والعشرين، في كامل زينتهنّ، الذهب يكسو التيجان التي تحلّي رؤوسهنّ، والأساور حول معاصمهنّ البضة، والخلخال الكبيرة المتوهّجة، وهي تلفّ كواحل مثل الممرنقاء، ثمّة إichاء في العيون، لا يفسر، ولكنّه في نفس الوقت لا يخطأ كنهه... بوادر دعوة، بل هي حقاً دعوة، تطيف بها لهفة، جامحة، مدمرة، وتلك الانفراجة على الشفاء: ما أقساها!! تبعث على الرثاء والشفقة، هل رأى في حياته شفاها بذلك الامتلاء؟ هل تخيل أن تمهصر شفتاه. هو. الظمأوان. يوماً. شفاها كتلك الشفاء. المتشهيّة. الهافية. الباحثة؟ في وقفته تلك، وهو مسمر في مكانه، بدا له أن الشيء الوحيد الذي ينطق به كلّ عضو من أعضاء أولئك النسوة، الملفوفات في هدوئهنّ، لا يمكن أن يكون غير الجوع، وأيّ جوع! أولئك النسوة المتوحّدات، المشيحات بوجوههنّ إلى اللأحد بلا رجال! ما من شيء يكتشفه إلّا ويكون أكثر إرباكاً وحيرة له من الشيء الذي قبله، ما من حقيقة في واقعه الجديد، إلّا وتمحو في نفسه حقيقة قديمة، تنسخها

دونما رجعة. كأنما يشهد لحظة ميلاد جديد، الإنسان الذي كانه، على امتداد سني عمره، يضمحلّ، يتلاشى داخله شيئا فشيئا.

الرجال الذين يراهم، كسرب النمل في الوادي، بحذاء ضفة النهر اليسرى، ليسوا رجالا، أشباه، ما يشدهم إلى الرجولة مجرد الشكل، الملامح العامة، التي تعرف في الشارين، غزارة اللحية، السواعد المكسوة شعرا، وكذلك السيقان، وحتى هذه الأشياء فيهم كانت مجرد أثر، أشبه بطلل أورمم من زمن غابر، جلهم يجلل شعره الشيب، ومن سلم رأسه من الشيب لم يسلم من الصلع، بعضهم كان شعر لحيته، وشاربيه، يتناثر، يتساقط، فتطير به ربح خفيفة إلى لجة النهر، السمة الغالبة هرم مبكر، كان الفناء معششا في كلّ تجعيدة، في كلّ أخدود غائر، وفي كلّ عضلة مرتخية، يجلسون فما يكاد يستقر بهم المقام حتى ينطرحوا على ظهورهم كالموتى، يقفون فلا تقوى سيقانهم على حملهم، فإذا ما ساروا ترنحوا كالسكاري، يتمايلون، ينوءون بحمل لا يعرف ما هو، هل هو حمل الحياة؟! لا، لا، الحياة لا تفعل كل ذلك، كانت نظراتهم شاردة، يحدقون في اللاشيء، إلى الفراغ، فرادى، لا يكاد يجتمع منهما اثنان، حتى إذا ما صادف أن التقى أحدهما بالآخر، تجاوزه في إعياء، كأنه لم يره، إحساس مقيم بالتعب، عدم القدرة، في ومضة زمنية قصيرة جدا، لا تكاد تتجاوز عشر معشار الثانية، هفت عليه ذكرى سگان الحاجز الحديديّ، أولئك الشبان والشابات، استرجع جمالهم الوحشيّ في ذهنه، فتوتهم، فقارن بينهم، غبط أولئك ورثى لهؤلاء، تساءل إن كانوا جميعا ينتمون إلى نفس السلالة المهددة بالانقراض، وهل يمتون إلى بعضهم بأسباب، أجال عينيه بتفحص ثاقب، أراد أن يتبين تلك الخطوط الدقيقة التي تثبت عادة أصول النسب، حاول مرّات، فلم يتوصّل إلى نتيجة تشفي فيه رغبة الفضول، كانت تلك الخطوط منعمة أصلا في هذه الوجوه المنطمسة الخابية... صعد النظر مرارا عديدة، عيناه الكليتان جالتا هنا وهناك، إلى ما قبل خطّ الأفق مرّة، صوب النسوة، وإلى ما بعد الضفّة، حذاء النهر، حيث

الرجال، تساءل فجأة عن العلاقة بينهم، قال لنفسه، وقد استشعر رهبة لا يعرف مصدرها، أيجوز أن تكون أولئك النسوة زوجات هؤلاء الرجال؟ هزّيده بلامبالاة أمام وجهه كأنه يطرد الخاطر الذي ألمّ به، قال لو كانوا رجالا لما صبروا على فتنة أولئك النسوة، المقصورات قرب الخيام لحظة واحدة، إنّه يشكّ في رجولتهم أصلا، فما البال إذا تعلّق الأمر بذلك الشيء الذي يكون عادة بين الرجل والمرأة، شأنهم شأن العنين، إذا تجرّدت أمامه الحسناء من كلّ خيرها وشرّها!! مرّ وقت، طويل على ما يظنّ، فما يدري إلّا ويد رقيقة تضغط عليه باغراء في أصل الكتف، حينما التفت، وراءه، وكأنّه يفيق من أضغاث حلم، لا يدري أيفرح له ويسرّ أم يحزن، رأى ذلك الكبير يتطلّع إليه، وعلى شفّيته ابتسامة موحية، قال بصوت فيه بحّة وعذوبة:

فلننطلق الآن، يا سيّدي، فلا شكّ أنّهم في انتظارنا!

في التفاتة أولى، كان مقدّرا أن ترتدّ إليه خاسئة حسيرة، لسابق فكرة كان استنتجها عن تشابه المكان، لم تصمد كلّ تقديراته طويلا أمام اكتشافه الجديد، أتبع الالتفاتة الأولى بالتفاتات أخرى، كثيرة، غير مصدّقة، مستطلعة، ما بعد النهر شيء، ما قبل النهر شيء آخر، مختلف جدّا، لو أنّ عفريت القمقم مثل بين يديه الآن، لما قدر أن يبتّ فيه رعبا مشابها... كالماخوذ، أو المنوم، وجد نفسه يسير في طريق معبّدة، رحبة، على اتّساع لم يرمثله من قبل، أرضها فرشت بشقّى أنواع الزهور، وأزكى الورود، قطع المرحلة الأولى ماشيا على تخت من الفلّ، في المرحلة الثانية ألّفى نفسه يدوس على مزيج من أقحوان وريحان، وبتقدّمه لم يعد يستطيع أن يميّز الروائح الشدّية عن بعضها، كان يشمّ رائحة الرّجس، في الوقت الذي يشمّ فيه رائحة الفلّ والنّسرين، والكاميليا، على جانبي الطّريق، كانت هناك دعائم لا تحصى، مستديرة

الشَّكْل، ترتفع كلّ واحدة منها على طول مترين تقريبا، المسافة بين الواحدة والأخرى، تقارب الخمسة أمتار، تسند تعريشة، ضخمة، هائلة، من أوراق أغصان متنوّعة، متشابكة، ذات لون أخضر داكن، لا يسمح بولوج أشعة الشَّمْس إلّا بمقدار، فإذا ما انسابت، تناطر في أماكن معيّنة، بإغراء، مثل لآلئ بحريّة ملقاة على شاطئ مهجور... عن يمينه، كما عن شماله، أشجار معمّرة، ذوات جذور قويّة، تمتدّ على مساحات من الأرض الّتي أمامها، مثل أخطبوط مستثار، الواحدة بجانب الأخرى، منتظمة في تناسق عجيب، ظلال كلّ واحدة منها تكفي لأن يتفياها جيش بأكمله، في منتهى عتاده وعدّته، وراء تلك الأشجار، على الجانبين، انبثّت أعشاب خضراء غزيرة، إذا سار فيها الرّجل بلغت ركبتيه، لا موطن لقدم إلّا على هذه الأعشاب، لامتناهية الطّراوة، نديّة، يهفّ عليها دائما ألق النّسيم، ثمّة جنان تترأى لعينيّه، في كلّ مكان، مروج، أشجار مثمرة، سمع ببعضها ولم يسمع ببعضها الآخر، عرف التّفاح، المشمش، الموز، البطيخ، البرتقال، الكمثرى، الخيار، التين، الخوخ، التوت، القسطل، الأترج، العنّاب، الإجاص، وشهد كثيرا من الثّمار الأخرى، انهمر بمنظرها وألوانها، ولم تسعفه ذاكرته بأسمائها، هناك واحات، فيما يلي الأشجار، كما لو كانت واحات صحراويّة، رمال ذهبيّة، منبسطة حيناً، منحدرّة أحيانا، مرتفعة هنا، منخفضة هناك، مبنوثة في جنباتها أشجار النّخيل المتسامقة، المهدّلة، منها ما ينوء بعراجينه الثّقال، ومنها ما هو للزينة فقط، بلا ثمر، يرجّح أنّها جلبت من مناطق الغرب، فيما وراء البحر الأعظم، ولم يفتّه وجود بحيرات صغيرة، صافية المياه، كانت الشَّمْس تنعكس على سطحها، بأشعتها المضئية المتألّنة، رأى أسماكاً كثيرة، تتقاذف فوق الماء، ضاحّة، صاحبة... البوري، البلمو، البرو، البتّ، البلس، الشكسا، الأران، الشّموس، النّسا، الطّوباد، اليقشمار، الأحناش، الأنكليس، المعية، البني، الإبليل، الفويض، الدّونيس، المرتنوس، الأسقلموس، النّفط، الجبال،

البُلْطِيّ، الجحف، القلاريّة، الرّخص، العبر، التّون، اللّت، القجّاج، القروص، الكليس، الأكلس، الفراخ، القرقاح، الزّليخ، اللّاج، الأكلت، الماضي، السّلاء، البرقش، الصّدّ، البلك، المشط، القفا، الشّور، حوت، الحجر، البشين، الشّربوث، النّشّاس، البرعاد، الشّعور، المحبرة، اللّبس، السّطور، الرّأس، الرّيف، اللّبيس، الأبرميس، الأبونس، اللّباء، العميان، المناقير، القلميدس، الحليوة، الرّقاص، القرندس، الجزر، هوكبارة، القبيج، المجزع الدّليس، الأشباله، البسال الأبيض، الرّقروق، أمّ عبيد، البلو، أمّ الأسنان، الأنساريّة، اللّجاه... لم يكفّ، في أثناء سيره، في طريقه إلى الملكة، عن إجاله النّظر، باضطراب، دون تحديد، أو تدقيق، المناظر كانت تأتي إليه تباعا، المشاهد تغزو ذهنه، من أغرب الأشياء الّتي طالعت، في رحلته الاستكشافيّة، كثرة الحظائر، عدد الزّرائب، مساحات مسيّجة، من خشب سميك، يمتدّ في شكل عرضانيّ، على عوارض، لا سبيل إلى اقتلاعها من الأرض، لقوّة إحكامها، هناك حيوانات كثيرة في الحظائر، على أشجار داخلها علّقت أقفاص مختلفة الأشكال والأحجام، فيها طيور... من الحيوانات المتوحّش مثل الدّب، الضّبع، البرنيق، الكركدن، الغرّي، الهزبر، الفيل، التّنين، الثّعلب، الدّئب، النّمر، السّبع، ابن آوى، الخزير، وفيها من غير المتوحّش مثل اللّامة، القندس، الكنغر، الزّرافة، القطّ، الكلب، الثّور، الحمار، النّيس، اليحمور... ومن غير الحيوانات من الزّواحف كانت هناك الأفعى، الحرياء، السّلحفاة العملاقة، الثّعبان، التّمساح، العظاءة، الفقمة، السّحليّة، السّقاية... ومن الحشرات الجرادة، الجعل، الرّيز، الجدجد، العقرب، الدّبابه، الدّزّاح، القرني، العنكبوت، الرّتيلاء، البرغشة، البقّة، أمّ أربع وأربعين، اليعسوب، القمّلة، البرغوث، فراشة دودة القزّ، النّملة، النّحلة، هديبة الدّئب، الفراشة، بنت قردان، الصّرصور... الطّيور في الأقفاص أكثر من حبّ الرّمْل، أعجبت ألوانها، أخذ بأصواتها الّتي. رغم اختلاطها. كانت متناغمة. ما من صوت يشبه

الأخر، ما من طير، هناك صغار الطّير، هذه ضئيلة لا تكاد ترى من على مبعده، حركتها خفيفة، تنتقل بخفة على الأغصان داخل الأقفاص، أحيانا تنقر بمناقيرها الحمراء الحبّ من أوان صغيرة في الأسفل، من أوان أخرى بجانيها، تلتقط قطرات الماء، ترفع رؤوسها إلى الأعلى، ريثما تبلغ القطرات حلوقها، تفعل ذلك مرّات حتّى ترتوي، الطّيور الكبيرة هادئة، مستكنّة، ثقل أجسامها لا يطاوعها، ذلك ما جعلها تبدو وقورا، تسرح نظراتها فيما حولها، في كسل... السّلو، البقج المملوح، النّصطفير، الزّرزور، الباز الرّوميّ، الصّفريّ، الدّبسيّ، الليل، السّقاء، القمرىّ، الفاخت، التّواج، الزّريق، الهويّ، الزّاغ، الهدهد، الحسيّ، الجرادىّ، الأبلق، الرّاهب، الحساف، البرين، السّلسلة، دردارىّ، الشّماس، البصيص، الأخضر، الأبهق، الأزرق، الخضير، أبو الحنّاء، أبو كلب، أبو دينار، وارية اللّيل، برقع أمّ عليّ، برقع أمّ حبيب، الدّورىّ، الزّنجى، وارية النّهار، الشّامىّ، شقرق، صدر النّحاس، البلطين، الخضراء السّنة، الأطروش، الخرطوم، ديك الكرم، الضّريس، الحمراء الرّقشة، الزّرقاء الرّقشة، جوز الكسر، ابن السّمان، ابن المرعة، النّوسية، السنّ، الوروار، الصّردة، الحمراء، القبرة، المطوق، السّقسق، السّلال، المرغ، السّكسكة، الأرجوحة، الخوخة، فرد قفص، الأورث، السّلونىّة، السّكة البيضاء، اللّبس، العروس، الوطواط، عصفور، الزّوب، اللّقاب، الجوين، القليلة، العسر، الأحمر، الأزرق، السّير، البون، البرك، البرسيّ، الحصارىّ، الرّجاسىّ، البج، الحمر، الرّومىّ، الملاعىّ، البطّ الصّينىّ، العراق، الأقرح، البليو، الشّطرف، البشروش، وزّ الفرط، أبو قلمون، أبو قير، أبو منجل، البجع، الكركىّ، الغطاس، اللّجوبة، البطميس، البحبوحة، الرّقادة، الكروان البحرىّ، أبو مسكة، الكروان الحرّجىّ، القرّىّ، الخروطة، الحلف، الأرميل، الفلفوس، الأزد، العقق، اليوم، الورشان، القطا، الدّراج، الحجل، البازى، الصّردىّ، الصّقر، الهام، الغراب، الأبهق، الباشق، الشّاهين،

العقاب، الحداء، الرّخمة، فسبحان من خلق الذي نعلم والذي لا نعلم. على قمة مرجة، مخضوضرة، معشوشبة، محاطا بأساطين رخامية ذات عقود في أعلاها، على شكل نصف دائرة، تنتهي في واجهتها بألواح شفافة من البلّور، تتوسطها بوّابة، يوجد فسطاط بالغ المهابة، منيع الجانب، ثابت الأركان، يرفل في حلّة من الألوان الزّاهية، مصنوع من أنسجة شتّى، عرف فيها الطّيلسان، والدّيباج، والحرير الأحمر، والأبيض، كان لا يختلف عن القبة، في طريقة تشييده، رجب، تكاد مساحته تحتلّ كلّ المرجة، عظيم، غاية في الضّخامة، قال في نفسه، مخمّنًا، أنّ الذي شاده على ذلك المرتفع، قصد أن يجعله أوّل ما يطالعه الدّاخِل إلى القلعة.

تمهّل، وهو يقترب، غدت خطواته أقرب إلى بعضها، الكبير يتقدّمه خفيًا، لم يشأ أن يسرع ليلحق به، مخاوفه القديمة بدأت تعاوده، لكن أشبه بلمسة الحنين هذه المرّة، فقد بدأ يستأنس إلى عناصر الكون من حوله... رأى الكبير أمامه يشير إليه بيده، دلالة التّوقّف ريثما يستأذن في الدّخول، عاد بعد قليل، لم يلبث سوى لحظات، أوّما إليه من طرف خفيّ، فتبعه، عند الباب أفسح لهما جنديّان مدرّعان، تتقاطع بأيديهما حربتان طويلتان، بسمل، وهو يدخل، تردّدت البسملة في صدره بهمس، كان اضطرابه عارما، فهدأ، عند تجاوزهما المدخل، لاح لهما دهليز، شبه معتم، إلّا من مصابيح صغيرة، في أطراف معيّنة، أنوارها شحيحة، مغرية، تبعث في النّفس نشوة لا يدري مصدرها، النّاظر إليها ينتابه خدر شهوانيّ، تطوف برأسه أخيلة وأوضاع، يرى أشياء، بل تغزو الأشياء ذاكرته دون وعي منه، أباد مدرّبة، يحسّها ولا يراها، ترحل مستكشفة عبر صفحة تضاريسه، تستيقظ منابع إحساسه، في تيقّظ، توشك أن تندّد عنه أمة، ودّ لو كان وحده، فلم يكتمها، طيف شفيف يدعوه، يشير إليه، يرهز، يتأوّد متمايلًا... لم يدر أيفرح أم يحزن حينما بلغ هو وصاحبه نهاية الدّهليز، أزيحت ستارة خمريّة جانبًا، ارتفع عنقه

لا إرادياً إلى الدّاخل، طبقات النّور لا تزال هي ذاتها، شبه ظلّمة، نزوع متعمّد إلى الإعتماد، في الحدود القصوى، عند نهاية الحدّ، بدا له الصّدر متوارباً في مهابة، تظهر منه دكّة، ترتفع عن الأرض بضعة أشبار، عليها إيوانان، لم يتبيّهما جيّداً، خيل إليه أنّه رأى عليهما طيفي شخصين، هل يكونان الملك والمملكة؟ تردّد قليلاً، قبل أن يجزم، بينه وبين نفسه، أنّ شخصين لا يمكنهما أن يتصدّرا المجلس، بكلّ تلك الأريحية والثّقة، إذا لم يكونا هما الملك والمملكة، بالكاد ميّز الدّرجات الثلاث الطّويلة الموصلة إلى الإيوانين، والمسار المنجّد، في زخرفة، بنمارق توشك أن تضيء لصفائها ونقاوتها... لم يعتم أن سمع حركة في الصّدر، التقطت أذناه حفيف الثّوب، على ضالّته، وهو يرتفع عن الإيوان، عند التفاته، شاهد الطّيف، الّذي كان يجلس إلى اليسار، يقوم ويختفي كالشّبح، في صمت، دون أن يحدث جلبه من حوله، مضى وقت قبل أن يتناهى إليه صوت أمر، يشقّ السّكون:

تعال!

لم يذهب في باله أنّ الأمر موجّه إليه هو بالذّات، لم يتصوّر أنّ ذلك الصّوت الّذي تكاد نبراته تذوب لطافة، وتضوع لهجته عذوبة، يمكن أن يخاطبه هو، ولم تكّد تمضي على مجيئه إلّا بضعة ثوان، ربّما المملكة تقصد شخصا آخر غيره، ربّما تدعو إحدى جواربها، أو أحد غلمانها لحاجة طرأت، على كلّ حال، لم يكن ظنّه في محله، فالصّوت الّذي بدا غامضاً في البداية، قد حدّد قائلاً:

أنت!!

رأى يدا تشير إليه، ليست يدا عاديّة، أحسنّ انجذاباً غريباً إليها، تحرّكت قدماه صوبها، دون أن يكون له من أمره شيئاً، إرادته، وعيه، إدراكه، كلّ ذلك تبخّر فجأة، كما تبخّر من قبل، وهو يطأ ممشياً الدّهليز، حين صار قرب أولى الدّرجات، أشارت اليد إليه ثانية، رقى

الدَّرَجَات، حتَّى غدا بجانب الإيوان تماما، أغرته اليد الممدودة، فأكبَّ عليها يقبِّلها، أغراه بياضها، بضاضتها، دفعته شهوة مهمة، عصية على التفسير، ربّما يكون منشؤها الظلال الخافتة، أو الأريج النفاذ الذي كان يتسرّب إليه، من جسد الملكة، عبر يدها المكبّ على تقبيلها، قد يكون مصدرها الروائح الممزوجة، في عبقرية، التي يعبق بشذاها فضاء المكان، رائحة الندّ والعنبر والصنّدل المحروق.

ضغطت اليد خدّه ضغطة مفعمة بالإيحاء، قادتة إلى الإيوان الشماليّ، وهو يخالس النّظر إليها بطرف عينه، لم يطالعه من منظرها شيء عدا القلنسوة التي تزيّن رأسها، والحليّ القشبية المحلاة بالقصب، الموشاة بالذهب، والسراويل العسجدية الشّفيفة الفضفاضة، في قمة دهشته التي أثارها التناقض النّاجم عن اعتقاده الجازم كون صاحب الأمر بهذه القلعة الملكة عاشقة الرّجال، وكون هذه الملكة قد فضّلت أن تتزيّا بزّي الرّجال، لسبب من الأسباب مازال إلى حدّ الآن يجمله، لم تغب عن إدراكه بضاضة اليد، لم ينس وقع الجذبة اللّطيفة من قلبه، حنّ إلى رؤية الوجه، إلى تنسّم روائه، إذا كانت اليد بتلك البضاضة، شهية، لدنة، فما بال الوجه؟ واثته فرصة سانحة، التفت إلى يمينه، كأنّما عن غير قصد، ولكنّ الوجه كان مواربا، يغطّي أوتونه برقع أسود!!

قالت امرأة:
.أضيئوا الشموع.

أضيئت شموع كبيرة، على ضوءها، اتّضح ما كان غائما، على الجانبين، وفي الأطراف، أخبية عديدة، كثيرة، لم تسمح مداخلها المغلقة برؤية ما فيها... إلى اليمين، ستّ أرائك من المخمل الفاخر، إلى اليسار ستّ وسائد وثيرة، ثمة إحساس بالغموض، شعور غريب بالإلغاز، يكتنف كلّ

شيء، على كل أريكتين يجلس شخصان متشابهان، كأنهما توأم، تعجّب للشّبه الشّدِيد بين الكبير الَّذِي صحبه إلى القلعة والشّخصين اللّذين يقتعدان الأريكتين الوسطيين، ثلاثهم يلبسون نفس الملابس، نفس الانطباع بالانتماء إلى كينونة المرأة يشعّ من نظراتهم الجموح الجفلى، الشّخصان اللّذان يليان الإيوانين مباشرة تشي تقاطيعهما بعقب أنثويّ أيضا، لم تنجح في إخفاها شوارب حمراء قصيرة، وأودية ناعمة من الشّعْر، أشبه بنبات السّعدة، على صدرين مرتخيين ناهدين، ينتهي كلّ منهما بحلمتين مضمومتين، كان الشّخصان عاريي الجذع، حليقي السّاقين، يضع كلّ منهما على عورته خرقة من الحرير الأحمر، أمّا الشّخصان في الطّرف الأقصى فكاسيان، جلابيب حريريّة فضفاضة، يشي وجهاهما ببقية رواء وشباب... تساءل. لم يملّ من التّساؤل، لماذا صار هؤلاء الرّجال نساء؟! لأنّ الملكة عاشقة الرّجال، وهي امرأة، فحقّ للرّجال أن يستنوقوا لها، وحقّ لها أن تستتيس؟!

من النّاحية الأخرى، جهة اليسار، بدا وكأنّ الجنس البشريّ يتبادل، بالتّناوب، الميزات الوراثيّة للذكورة والأنوثة. للحظة خاف على نفسه من الوضع الجديد الَّذِي وجد نفسه فيه، أليس هو غريب؟! فما يدريه إذن بعبادات هؤلاء القوم؟ وماذا لو أصبح فجأة واحدا من بين هؤلاء الرّجال النّساء؟ لقد أوْشك أن يخالط، وهو يرى بأنّ عينيه أولئك النّسوة الجالسات على الوسائد، وقد تمنطقن، وتزرنن، وقصصن الشّعور، رغم صباحتهنّ الّتي لا تضارع، أرغبة عن طبيعة الأنوثة فيهنّ؟ هل هو الحنين إلى عالم الرّجل الغريب عليهنّ؟ كان الأمر واضحا لديه، واقع الحال لا يتطلّب تفكيرا طويلا لفهم التباساته، وهو أنّ للملكة ساكنة القلعة طبيعة شاذّة، ميل إلى رغبة شيطانيّة مدمّرة، إلّا أنّ جانبها مظلما في دماغه ظلّ يغالطه، يوهمه بخطأ ما توصّل إليه، أنّه يتمنّى لو كان ما توصّل إليه محض هذيان، لا أصل له من صحّة على الإطلاق.

لكن هل ينسى ضغطة يدها، وما يوحى به اسمها «عاشقة الرجال»؟ استدعت هواجسه إلى ذهنه أطرافاً من حكايات شتى، سمعها تروى في أسواق الكوفة وميادينها، حكايات أصعب من أن تصدّق، تشبه في تفاصيلها ما يحدث حوله الآن، إلا أنّ صاحبها رجل، وأيّ رجل، لم يكن رجلاً مثل الرجال، كان خليفة، ابن خليفة، حفيد خليفة، ضليع في شجرة الخلافة، اسمه محمّد الأمين، واسمه محمّد المخلوع، واسمه محمّد بن زبيدة، هذا التّشابه دفعه إلى أن يسأل نفسه دون هوادة: هل هذا الشّدوذ فتنة بين الملوك؟ ولا يكون شاذّاً إلاّ من كان ملكاً أو خليفة؟ لقد علم، فيما ذكر عن حميد بن سعيد، قال: لمّا ملك محمّد، وكاتبه المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخصيان، وابتاعهم، وغالى بهم، وصيّهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه: وفرض لهم فرضاً سمّاهم الجراديّة، وفرضاً من الحبشان سمّاهم الغرابيّة، ورفض النّساء الحرائر والإماء حتّى رمي بهنّ: ففي ذلك يقول بعضهم:

ألا يا مزمّن المثوى بطوس ... غربياً ما يفادى بالنّـة ————
لقد أبقيت للخصيان بعلاً ... تحمّل منهم شؤم البس ————
فأمّا نوفل فالشّان فيهِه ... وفي بدر، فيا لك من جلي ————
وما العصمىّ بشّار لـديه ... إذا ذكروا بذى سهم خسي ————
وما حسن الصّغير أحسن حالاً ... لديه عند مخترق الك ————
لهم من عمره شطرو شطر ... يعاقر فيه شرب الخندري ————
وما للغانيات لديه حظّ ... سوى التّقطيب بالوجه العبوس ————
إذا كان الرّئيس كذا سقيماً ... فكيف صلاحنا بعد الرّئيس ————
فلو علم المقيم بدار طوس ... فكيف على المقيم بدار طوس ————

قال حميد: ولمّا ملك محمّد وجّه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمّهم إليه، وأجرى لهم، ونافس في ابتياع فره الدّواب، وأخذ الوحوش والسّباع والطّير وغير ذلك، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقوّاده،

واستخفَّ بهم، وقسَّم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في
خصبائه وجلسائه ومحدثيه، وحمل إليه ما كان في الرِّقَّة من الجواهر
والخزائن والسَّلاح، وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواقع خلوته ولهوه
ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر
المعلّى ورقّة كلواذى وباب الأنبار وبناورى والهوب، وأمر بعمل خمس
حرّاقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحیة والتّرس،
وأنفق في عملها ما لا عظيمًا، فقال أبو نواس يمدحه:

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا ... لَمْ تَسْخَرْ لِمُصَاحِبِ الْمُحَارِبِ
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سَرَنَ بِـ____ رَا ... سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثٌ غَابَ
أَسَدًا بِاسْطَا ذِرَاعِيهِ يَهْـ____وَى ... أَهْرَثَ الشَّدَقُ كَالْحِجَابِ الْأَنْيَابِ
لَا يَعْانِيهِ بِاللَّجَامِ وَلَا السَّـ____و ... ط وَلَا غَمَزَ رِجْلَهُ فِي الرُّكَّابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْكَ عَلَى صَو ... رَةٍ لَيْثٌ تَمَرَّمُ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذَا رَأَوْكَ سَرْتَ عَلَيْهِ ... كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعِقَابِ
ذَاتَ زُورٍ وَمَنْسُورٍ جَنَاحِـ____ ... يَنْ تَشَقُّ الْعِبَابُ بَعْدَ الْعِبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسـ____ ... تَعَجَّلُوهَا بِجِيئَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَـ____ ... هُ وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشُّبَّابِ
مَلِكٌ تَقْصِرُ الْمَدَائِحُ عَنْـ____ه ... هَاشِمِيٌّ مَوْقِفٌ لِلصَّـ____وَابِ

وذكر عن الحسين بن الضَّحَّاك، قال: ابتنى الأمير سفينة عظيمة،
أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم، واتَّخذ أخرى على خلقة شيء يكون في
البحر يقال له الدَّلْفِين، فقال في ذلك أبو نواس الحسن بن هانئ:

قَدْ رَكِبَ الدَّلْفِينُ بَدْرَ الدَّجَى ... مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ لَحَجَا
فَأَشْرَقَتْ دَجَلَةٌ فِي حَسَنِهِ ... وَأَشْرَقَ الشَّطَّانُ وَاسْتَبْهَجَا
لَمْ تَرَعْنِي مِثْلَهُ مَرْكَبَا ... أَحْسَنُ إِنْ سَارُوا إِنْ أَحْنَجَا
إِذَا اسْتَحَثَّتْهُ مَجَازِفُهُ ... أَعْنَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَجَا
خَصَّ بِهِ اللهُ الْأَمِينَ الَّذِي ... أَضْحَى بِنَاجِ الْمَلِكِ قَدْ تَوَجَّأَا

وذكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما المغني الكوفي أنه قال: كان العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر من رجال بني هاشم جلدا وعقلا وصنيعا، وكان يتخذ الخدم، وكان له خادم من أثر خدمه عنده يقال له منصور، فوجد الخادم عليه، فهرب إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظي عنده حظوة عجيبة. قال: فركب الخادم يوما في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة، فمر باب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يري خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها. وبلغ ذلك الخبر العباس، فخرج محضرا في قميص حاسرا، في يده عمود عليه كيمخت، فلحقه في سويقة أبي الورد، فعلق بلجامه، ونازعه أولئك الخدم، فجعل لا يضرب أحدا منهم إلا أوهنه، حتى تفرقوا عنه، وجاء به يقوده حتى أدخله داره. وبلغ الخبر محمدا، فبعث إلى داره جماعة، فوقفوا حيالها، وصف العباس غلماؤه، ومواليه على سور داره، ومعهم الترسه والسهم، فقال أحمد بن إسحاق: فخفنا والله النار أن تحرق منازلنا؛ وذلك أنهم أرادوا أن يحرقوا دار العباس. قال: وجاء رشيد الهاروني، فاستأذن عليه فدخل إليه، فقال: ما تصنع! أتدري ما أنت فيه وما قد جاءك! لو أذن لهم لاقتلعوا دارك بالأسنة، ألسنت في الطاعة! قال: بلى، قال: فقم فاركب. قال: فخرج في سواده، فلما صار على باب داره، قال: يا غلام! هلم دابتي فقال رشيد: لا وكرامة! ولكن تمضي راجلا. قال: فمضى، فلما صار إلى الشارع نظر؛ فإذا العالمون قد جاءوا، وجاءه الخلودي والإفريقي وأبو البط وأصحاب الهرش. قال: فجعل ينظر إليهم، وأنا أراه راجلا ورشيد راكب. قال: وبلغ أم جعفر الخبر، فدخلت على محمد، وجعلت تطلب إلى محمد، فقال لها: نفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم أقتله! وجعلت تلج عليه، فقال لها: والله إنني لأظنني سأسطو عليك. قال: فكشفت شعرها، وقالت: ومن يدخل علي وأنا حاسر!

(...) علت أصوات غناء انتزعته من خطرات خياله، أصوات على عذوبتها وشجوتها، لم تستطع، رغم ذلك، أن تستأثر باهتمامه كلّها، كان عليه أن يتخلّص أولاً ممّا كان، ليصفو بكلّ قلبه إلى ما هو كائن، أن يدوس على منابع تحفّظه إزاء عالمه الجديد، يجتثّ خوفه من مكانن وعيه، أو ليس يقولون إنّ أخطر الخوف ما كان نابعا من الدّاخل؟ أو ليس يقولون أيضا إنّ المرض إذا كان خفيّا في الباطن استحال البرء منه وكان الهلاك؟! المهمّ... أن يستكين إلى استقرار وضعه، لا ينبغي له أن يتوقّع الأسوأ ما لم يقع، وحتىّ لو وقع، ما عساه أن يفعل، ودون النّجاة مجاهل لا تعرف!... ألقى نفسه محاصرا بضرب الآلات، أذناه قد صمّتا عمّا عدا الألحان، تأتبه الأصوات من الخارج، من الدّاخل، ومن وراء أستار الأخبية، من الدّهليز، يمتزج تفرق العود بنبرات عميقة القرار، ويأتلّف انسياب القانون مع تدرّج في الخانات والطّبقة، خيل إليه، وكان إرهاقه يمتصّه صفير النّاي، أنّ شجنه ينهار في شدّات يد حاذقة على الطّنبور، ولم يلبث أن بدأت خلايا جسده كلّها تتجاوب، في اضطراب اليدين، وفرقة الأصابع، في اهتزازات جذعه، وتمايل رأسه، لعلّه نسي، في لحظة ما، حضور الملكة، فودّ لو يستسلم لرغبة جامحة في الضّياع، ولو على سبيل التّخييل!

أنشد صوت:

يا راكبا إنّ الأثيل مظنّة ... من صبح خامسة وأنت موقّق
أبلغ به ميتا بأنّ تحيّة ... ما أن تزال بها النّجائب تخفق
مئي إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بدرّتها وأخرى تخنق
هل يسمعن النّضر إن ناديته ... إن كان يسمع هالك لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقّق
صبرا يقاد إلى المنيّة متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

أحمد ولأنت نسل نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فليأتين ... بأعز ما يغولديك وينفق
والنصر أقرب من أخذت بزلة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

وصوت ثان:

ليت شعري وأين مني لبيت ... أعلى العهد يلبن فبـرام
أم كعهدي العقيق أم غيرته بعدي الحادثات والأيام
وبأهلي بدلت عكا ولحما ... وجذاما وأين مني جذام
وتبدلت من مساكن قومي ... والقصور التي بها الأطام
كل قصر مشيد ذي أواس ... يتغنى على ذراه الحمام
أقرمي السلام إن جئت قومي ... وقليل لهم لدي السلام

(قال علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن
بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي
العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، الأموي، أبو
الفرج، الأصمعي المولد، البغدادي المنشأ: عروضة من الخفيف غناه
معبد، ولحنه ثقيلا أول بالخنصر في مجرى البنصر. و«يلبن» و«مram»
موضعان. والأطام: جمع أطم وهي القصور والحصون. وقال الأصمعي:
الأطام: الدور المسطحة السقوف. وفي رواية ابن عمار: «ذي أواس»
بالشين معجمة كأنه أراد به أن هذه القصور موشية أي منقوشة.
ورواه إسحاق: «أواس» بالسين غير معجمة. وقال: واحدها آسي، وهو
الأصل، قال ويقال: فلان في آسية أي في أصله. والآسي والأساس واحد.
وذرا كل شيء: أعاليه. وهو جمع، واحده ذروة.)

وصوت ثالث:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما
قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها
وأهلي قريب موسعون ذوو فضل
أفق أيها القلب اللجوج عن الجهل
ودع عنك «جملا» لا سبيل إلى جمل
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلابها لما فات من عقلي

(قال أبو الفرج: الغناء للغريض ثاني ثقيل بالوسطى عن عمرو في الأول والثاني من الأبيات. وذكر الهشامي الأبيات كلها ووصف أن الثقيل الثاني الذي يغني به فيها لمعبد. وذكر يحيى المكي: أن لابن محرز في الثالث وما بعده من الأبيات ثاني ثقيل بالخنصر والبنصر. وفي هذه الأبيات التي أولها الثالث هزج بالبنصر يمان عن عمرو. وفي الرابع الخامس لابن طنبورة خفيف رمل عن الهشامي. وفيها لإسحاق ثقيل أول عن الهشامي أيضا. وذكر حماد عن أبيه: أن لنافع الخير مولى عبد الله بن جعفر في هذه الأبيات لحنا، ولم يجنسه. وذكر حبش أن الثقيل الأول لابن طنبورة.)

وغنى صوت رابع من شعر عمر بن أبي ربيعة:
فقال وأرخت جانب السّتر إنّما ... معي فتحدّث غير ذي رقبة أهلي
فقلت لها ما بي لهم من ترّقّب ... ولكنّ سرّي ليس يحمله مثلي
جرى ناصح بالودّ بيني وبينها ... فقربني يوم الحصاب إلى قتلي
فطار بجدّ من فؤادي، وقارنت ... قريبتها حبل الصّفاء إلى حبل
فما أنس ملاءمات لا أنس موقفي ... وموقفها يوما بقارعة النّخل
فلما تواقفنا عرفت الذي بها ... كمثّل الذي بي حذوك النّعل بالنّعل
فعاجت بأمثال الطّباء نواعم ... إلى موقف بين الحجون إلى النّخل

(قال أبو الفرج: غنى في هذه الأبيات ابن سريج، ولحنه رمل مطلق في مجرى البنصر عن إسحاق وعمرو. وذكر يونس: أن فيه لحنا مالمك

لم يجنّسه، وذكر الهشامي: أنّ لحن مالك خفيف ثقيل. وذكر حبش: أنّ لمعبد فيه لحنًا من الثقيل الأوّل بالبنصر، ولابن سريج ثاني ثقيل بالوسطى. [وليس حبش ممّن يعتمد في هذا على الرواية]

أخبرني الحرّميّ بن أبي العلاء قال حدّثنا الزّبير بن بكار قال: أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبي ربيعة شاعرا من أهل دهره في النّسب، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه، والتّحليّ بمودّته، والابتيار في شعره، والابتيار: أن يفعل الإنسان الشّيء فينكره ويفخر به. والابتهار: أن يقول ما لم يفعل.

أخبرني محمّد بن خلف قال أخبرني عبد الله بن عمر وغيره عن إبراهيم بن المنذر الحزامي عن عبد العزيز بن عمر قال: قال ابن أبي عتيق لعمر وقد أنشده قوله:

صوت

بينما ينعتني أبصرنني ... دون قيد الميل يعدوي الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى ... قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصّغرى وقد تيمّتها ... قد عرفناه وهل يخفى القمر

. الغناء في هذه الأبيات لابن سريج خفيف رمل بالبنصر. فقال له ابن أبي عتيق: وقد أنشدها. أنت لم تنسب بها، وإنّما نسبت بنفسك؛ كان ينبغي أن تقول: قلت لها فقالت لي. فوضعت خدي فوطئت عليه).

وغنى صوت خامس:

تقول غداة التقينا الزّباب ... أيا ذا أفلت أفول السّماك
وكفّت سوابق من عبّرة ... كما ارفضّ نظم ضعيف السّلاك
فقلت لها من يطع في الصّدي ... ق أعداءه يجتنيه كـذاك
أغرّك أنّي عصيت المـلا ... م فيك وأنّ هوانا هـواك

وَأَلَا أَرَى لَذَّةَ فِي الْحَيَاةِ ... تَقَرَّبَهَا الْعَيْنُ حَتَّى أَرَاكَ
فَكَانَ مِنَ الذَّنْبِ لِي عِنْدَكُمْ ... مَكَارِمِي وَاتَّبَاعِي رِضَاكَ
فَلَيْتَ الَّذِي لَامَ فِي حَبِّكُمْ ... وَفِي أَنْ تَزَارِي بَقْرَنَ وَقَاكَ
هَمُومَ الْحَيَاةِ وَأَسْقَامَهَا ... وَإِنْ كَانَ حَتَفَ جَهِيرِ فَدَاكَ

(قال أبو الفرج: الغناء لابن سريج ثاني ثقيل بالوسطى. وذكر
إبراهيم أنَّ فيه لحنا لحكم. وقيل: إنَّ فيه لحنا آخر لابن جامع.)

وصوت سادس:

طال ليلي واعتادني اليوم سقم ... وأصابت مقاتل القلب نعم
حزة الوجه والشَّمائل والجو ... هرتكليمها لمن نال غنم
وحديث بمثله تنزل العَصْـم ... م يشوب ذلك حـلـم
هكذا وصفت ما بدا لي منها ... ليس لي بالَّذي تغيَّب علم
إن تجودي أو تبخلي فبحمد ... لست يا نعم فيهما من يذم

(قال أبو الفرج الأصبهاني: الغناء لابن سريج رمل عن الهشامي.)

وصوت سابع:

عاود القلب بعضف ما قد شجاه ... من حيث أمسى هوانا هـواه
يا لقومي فكيف أصبر عمَّن ... لا ترى النَّفس طيب عيش سواه
أرسلت إذا رأْتَ بعادي أَلَا ... يقبلن بي محرَّشا إن أتاه
دون أن يسمع المقالة مَنَّا ... وليطعني فإنَّ عندي رضاه
لا تطع بي فدتك نفسي عدواً ... لحديث على هواه افتـراه
لا تطع بي من لوراني وإيَّا ... لك أسيري ضرورة ما عنـاه
ما ضراري نفسي بهجري من لي ... س مسيئاً ولا بعيداً ثـراه
واجتنباي بيت الحبيب وما الخل ... د بأشهى إليَّ مـن أن أراه

(قال أبو الفرج الأصبهاني: الغناء لمعبد خفيف ثقیل بالخنصر في مجرى الوسطى عن إسحاق؛ وفيه لابن جامع ثاني ثقیل بالوسطى عن عمرو، وابتدأه نشيد أوله: «ما ضراري نفسي» وقال الهشامي: وفيه لعلية بنت المهديّ وسعيد بن جابر لحنان من الثقیل الثاني.)

(...) تَمَّت من الأصوات سبعة، لم يدر. لجذله. بأيّ أذن سمعها، ولا بأيّ قلب تنسّم أنغامها، ولو أتاحت له من الزّمن غفلات، وامتدّت بخياله المساحات، وهو مضغ لما ملّ الإصغاء، ولو لم تنقطع الأصوات فجأة، معيدة إيّاه إلى جلسته وجلّاسه، لاستمرّ مستغرقا في إغفاءة أبدية. ولعلّ لحظة الصّحو، على ما كان مقدّرا أن تبثّ في نفسه من هزة أسيّ وشجيّ، ما كان أجملها من لحظة، انقلب فيه التّفكير إلى ضده، وذلك حينما بلغه صوتها سائلا، من مجلسها الجليل على الإيوان، فأحاطه بأثيريّة شقّافة غمرت أشتات روحه الغافية، فانبجس داخلها عبق سناء وسحر، بلا حدود: «هل تحسن الغناء؟ فإذا كنت تجيده فهل تحفظ عن المغنّين أو تروي عنهم؟» قال إنّّه يستشعر خجلا ممزوجا بأسف، إذ يجد نفسه مضطّرا أن يعترف أنّ الغناء حلم عزيز المنال، طالما أمّل أن يظفروا ببعض فرائده في حياته، ولكن ما ذنبه وقد حرّمه الله عذوبة الصّوت، كم تمثّى صادقا لويحذق العزف على إحدى الآلات، استهواه القانون، وكذلك العود، وميله كان إلى العود خاصّة، حتّى أنّه بذل مبلغا لا بأس به لاقتناء أحد هذه العيّدان الّتي تباع في دكاكين، تحفّ بها المهابة، ويديرها أشخاص من أهل الصّناعة، كلّ همّهم تقديم المساعدة، إرشاد الحريف إلى الآلة الجيدة وإطرائها، وتنبيهه إلى الأخرى السيّئة كي لا يخدع بها، قال له أحدهم إنّ الآلة الموسيقية مثل الخمر سواء بسواء، كلّما أصابها القدم شقت، الخمر عن لذيذ مذاقها، والآلة عن عذوبة صوتها، ونقاء نبرها... قال إنّّه لم يقصّر، ولقد أعياه البحث عن معلّم حتّى وجده، رغم مشاغله الكثيرة، التّحصيل وما يتطلّبه من جهد وتفرّغ، شؤون البيت الكثيرة الملقاة على

عائقه... المهمّ أنّه أكبّ على دروس الموسيقى بعزيمة لا تفلّ، وقلب لا يعرف الكلل، كلّ يوم يقصد بيت معلّمه، والعود في يده، كان كلّ همّه أن يتعلّم، أن تتوصّل أصابعه إلى الانتقال بسلاسة بين الخانات، ربّما رأى بعيني خياله، في إحدى شطحاته العديدة، ذلك اليوم وقد زایل يديه ثقلهما، وهو يستنطق الأوتار، كما ينبغي لجهبذ عظيم، من جهابذة الموسيقى الكبار، قال له معلّمه مفاخرا إنّهُ علّم كثيرين، أشخاصا معروفين، كتابا في الدّواوين، قصّادا لا يعرف من أمرهم إلّا شغفا لا يضارع بالطّرب، جوّاري استوصوه بهنّ خيرا، لقد علّمهم ولم يتقاض فلسا واحدا لأجل تعليمهم، كان يقول لهم: «إنّما علّمكم لوجه الله». ويردّد مرارا على مسامعهم ما جاء في الآية الكريمة: «إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا». كذلك وعده أن يفعل معه، سوف لن يطالبه بأجر معلوم، لن يجبهه بإلحاح أو إلحاف، حسبهُ أن يقال. إذا برّز في العزف على العود. تلميذ فلان، سيكون ذلك في حدّ ذاته مكافأة له. سوف يشعر أنّ جهده لم يذهب هباء، لكن ما أقسى الحقيقة التي كان يدّخرها له القدر، ما أعظم خيبته بمعلّمه الذي بنى عليه آماله قبل أن تذروها رياح الخماسين، كان لا يستقرّ بمكان، كالنحلة لا يهدأ أبدا، فإذا جمعتهما حجرة الدّرس، أمعن في لجانة من يستهدف خصما، لا يريد له الخروج من المعركة سليما معافى، ولا يترك موشحا إلّا غناه، ولا لحنا إلّا عزفه، ولا أغنية إلّا ترنّم بمقاطعها، ولا كتابا من كتبه الكثيرة في الموسيقى إلّا استعرض ما فيه، لم يكن يرمي في كلّ ذلك إلى تعليمه، كان كأنّما يريد أن يعلم نفسه، أن يقتنع بطول باعه في الصّناعة، والأدهى من كلّ ذلك، عدم التزامه بخطة للعمل، وأثناء الوقت الذي يقضيانه معا، لا يترك له فرصة لتطويع أصابعه، بل يمضي يعزف بنفسه، حتّى ينفض المجلس، كان بقدر ما يزداد فورة وحماسة، كان معلّمه يتدهدى إلى حالة من الفتور، زادها ولعه بالخمر ترسيخا وتأصيلا، سكبّير على مذهب الحسن بن هانئ، لا يكاد يصحّو في يومه، يصل في الشّراب ليله بنهاره، ولا يستيقظ، إذا نام، إلّا إذا بلغت

الشَّمْس عنان السَّمَاء، يذكر أنه زاره مرّة في بيته يوم عيد التّضحية، وجده ثملا، أمام مركبة، وهو بصدد الصّعود على دكّتها، فلمّا رآه آلى عليه أن يصعد، اعتذر، حلف عليه بالطلاق، فما كان منه إلّا أن أذعن، سأله في حيرة إلى أين، فتجاهل سؤاله، قال له إنّه ليس مهميّاً للسّفر، لم يتزوّد، لم يخبر أحدا، في منتصف الطّريق، التفت إليه، وأخبره بنبرات محطّمة، أثّر فيها السّكر، أنّهما يقصدان البصرة! قال إنّه عزّ عليه كثيرا أن يكون مالكا لعود، ولا يحسن العزف عليه، حرّ ذلك في نفسه، صار غصّة في قلبه، ما تنفكّ تهشه في ليل أو نهار، أسعفه القدر ثانية، فوضع في طريقه معلّما جديدا، غير أنّ حظّه معه لم يكن بأحسن من حظّه مع المعلّم الأوّل، على إفراط في المثابرة، وإظهار لجديّة مشطّة... باختصار، كان يريد أن يغدو عازفا بين عشية وضحاها! قرّر أن يتوقّف، أن يضع حدّا لأمل طالما راوده، عذره أنّه وإن لم يحسن العزف، فإنّه يحسن الاستماع على كلّ حال... قالت الملكة تخاطبه إنّ في فسطاطها امرأة راوية، جمعت إلى حلاوة حديثها عذوبة صوت، تخبر عن الأمم السّالفة أخبار العارف، طلعة في كلّ شيء، وهي وإن كانت تطرب للغناء جميعه، فإنّها تتعصّب لابن جامع، الذي دوّنت كلّ أخباره في سجلّ لا يفارقها أبدا، في يقطة أو منام، في حلّ أو ترحال، تحمل أيضا رقّا من جلد المعزى، خطّت عليه نسبها الذي يرجع إلى لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صدّ بن عاد الأكبر، قالت الملكة إنّ أحدا لا يبدو أكثر سعادة بشيء كما تبدور أويتها بهذا النّسب!

صمتت برهة، ثمّ صقّقت، فجاءت تسعى امرأة، هي من بين النّساء أغربهنّ، غارقة في السّواد، من رأسها إلى أخمص قدميها، جلبابها، ملأته، باستثناء العصاة الرّزقاء التّليّة التي كانت معصوبة بها، لا يجاوز الحقيقة من يقول إنّها تعدّت عقدها السّادس، كما لا يجاوز الحقيقة أيضا من يدّعي أنّها مازالت في منتصف العقد الرابع، جميلة، إلى أبعد حدود الجمال، وقبيحة لامتناهية القبح، طويلة وقصيرة، ثابتة

ومتحوّلة، هادئة وقور، ومضطربة الحركة لا يكاد يستقرّ بها المقام، تتسامق حتّى ليكاد رأسها يخترق قبة الفسطاق، وتتضاءل حتّى توشك أن تنسحق فتبتلعها الأرض، إنّها تعطي انطبعا خارقا بكلّ هذه الأشياء مجتمعة، بالشيء ونقيضه، الحقّ أنّ ملامحها جامدة، منغلقة، لا تفصح!

أومات إليها فجلست على إحدى الوسائد، التفتت إليه، قالت تخاطبه فيما يشبه الهمس:

. إنّها لا تبلغ غاية التبسّط إلّا إذا أسمعت جلاّسها ما هو مكتوب بذلك الرّق إدلا لا منها بعلوّ شأنها، ورفعة حسيها.

ثمّ، وكمن نسي شيئا لا يجوز إهماله أو نسيانه:

. إنّ هذه المرأة مفخرة مملكتنا وصاحبة سجلّها!

وملتفتة إليها هي، قائلة لها:

. هات أسمعينا.

فتحت الرّق، وضعته في حجرها، قرّبت رأسها منه حتّى يتسنى لها قراءة ما فيه بوضوح.

قالت بلهجة فخمة:

. يقول أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، في رواية لابن إسحاق عن ابن حميد وسلمة، أنّ عادا لما أصابهم من القحط ما أصابهم قالوا: جهّزوا منكم وفدا إلى مكّة فيستسقون لكم، فبعثوا قيل بن عرزولقيم بن هزال بن هزيل بن عتيل بن صدّ بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير. وكان مسلما يكتّم إسلامه. وجلهمة بن الخيريّ، خال معاوية بن بكر أخته، ثمّ بعثوا

لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صدّ بن عاد الأكبر، فانطلق كلّ رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه، حتّى بلغ عدّة وفدهم سبعين رجلا، فلمّا قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وصهره. وكانت هزيلة ابنة بكر أخت معاوية بن بكر لأبيه وأمه كلدة ابنة الخبيريّ عند لقيم بن هزّال بن عتيل بن صدّ بن عاد الأكبر، فولدت له عبيد بن لقيم بن هزّال وعمرو بن لقيم بن هزّال وعامر بن لقيم بن هزّال وعمير بن لقيم بن هزّال، فكانوا في أخوالهم بمكة عند آل معاوية بن بكر، وهم عاد الأخيرة الّتي بقيت من عاد الأولى. فلمّا نزل وفد عاد على معاوية بن بكر أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر، وتغنّهم الجرادتان، قينتان لمعاوية بن بكر. وكان مسيرهم شهرا، ومقامهم شهرا، فلمّا رأى معاوية بن بكر طول مقامهم، وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء الّذي أصابهم، شقّ ذلك عليه فقال: هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندي، وهم ضيفي نازلون عليّ، والله ما أدري: كيف أصنع بهم! أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه، فيظنّوا أنّه ضيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا، أو كما قال.

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعرا نغنّهم به لا يدرون من قاله، لعلّ ذلك أن يحركهم! فقال معاوية بن بكر حين أشارتا عليه بذلك:

ألا يا قيل ويحك قم فهينهم ... لعلّ الله يسقينا غماما
 فيسقي أرض عاد، إنّ عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
 من العطش الشّديد، فليس نرجو ... به الشّيح الكبير ولا الغلاما
 وقد كانت نساؤهم بخيـر ... فقد أمست نساؤهم عيامى
 وإنّ الوحش تأتهم جهـارا ... ولا تخشى لعادي سهامـا
 وأنتم هاهنا فيما اشتـهيتـهم ... نهاركم وليلكم التمامـا

فَقَبِّحْ وَفَدَكُمْ مِنْ وَفَدٍ قَـوْمٌ ... وَلَا لَقُوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا!
فَلَمَّا قَالَ مُعَاوِيَةُ ذَلِكَ الشَّعْرَ، غَنَّتَهُمْ بِهِ الْجَرَادَتَانِ. فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ
مَا غَنَّتَا بِهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمُ إِنَّمَا بَعَثَكُمْ قَوْمَكُمْ يَتَغَوَّثُونَ
بِكُمْ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ. وَقَدْ أَبْطَاتُمْ عَلَيْهِمْ. فَادْخُلُوا هَذَا
الْحَرَمَ فَاسْتَسْقُوا لِقَوْمَكُمْ، فَقَالَ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَفِيرٍ: إِنَّكُمْ وَاللَّهِ
لَا تَسْقُونَ بِدَعَائِكُمْ؛ وَلَكِنْ إِنْ أَطَعْتُمْ نَبِيَّكُمْ وَأَنْبِئْتُمْ إِلَيْهِ سَقِيتُمْ. فَأَظْهَرَ
إِسْلَامَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ جَلِيمَةُ بْنُ الْخَيْبَرِيِّ، خَالَ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ
حِينَ سَمِعَ قَوْلَهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ تَبَعَ دِينَ هُودٍ وَأَمَّنَ بِهِ:

أَبَا سَعْدٍ فَإِنَّكَ مِنْ قَبِيلِ ... ذَوِي كَرَمٍ وَأَمَّكَ مِنْ ثُمُودٍ
فَإِنَّا لَنْ نَطِيعَكَ مَا بَقِينَا ... وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تَرِيدُ
أَتَأْمُرُنَا لِنَتْرِكَ آلَ رَفْدٍ ... وَزَمْلَ وَآلَ صَدٍّ وَالْعَبُودِ
وَنَتْرِكَ دِينَ آبَاءِ كِرَامٍ ... ذَوِي رَأْيٍ وَنَتَّبِعَ دِينَ هُودِ

وَرَفْدُ وَزَمْلُ وَصَدِّ قَبَائِلٍ مِنْ عَادٍ، وَالْعَبُودُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ
بَكْرِ وَأَبِيهِ: احْبِسَا عَنَّا مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ فَلَا يَقْدَمَنَّ مَعَنَا مَكَّةَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ اتَّبَعَ
دِينَ هُودٍ، وَتَرَكَ دِينَنَا، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ يَسْتَسْقُونَ بِهَا لِعَادٍ، فَلَمَّا وَلَّوْا
إِلَى مَكَّةَ خَرَجَ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ مَنْزِلِ مُعَاوِيَةَ، حَتَّى أَدْرَكَهُمْ بِهَا قَبْلَ أَنْ
يَدْعُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ مِمَّا خَرَجُوا لَهُ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَامَ يَدْعُو اللَّهَ، وَبِهَا وَفَدَ
عَادٌ قَدْ اجْتَمَعُوا يَدْعُونَ. فَقَالَ: االلَّهُمَّ أَعْطِنِي سُؤَالِي وَحْدِي، وَلَا تَدْخُلْنِي
فِي شَيْءٍ مِمَّا يَدْعُوكَ بِهِ وَفَدَ عَادٍ. وَكَانَ قَيْلُ بْنُ عَتْرَأْسَ وَفَدَ عَادٍ. وَقَالَ
وَفَدَ عَادٍ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ قَبِيلًا مَا سَأَلْتُكَ، وَاجْعَلْ سُؤَالَنَا مَعَ سُؤَالِهِ». وَقَدْ
كَانَ تَخَلَّفَ عَنْ وَفَدِ عَادٍ لِقَمَانُ بْنُ عَادٍ، وَكَانَ سَيِّدَ عَادٍ، حَتَّى إِذَا فَرَّغُوا
مِنْ دَعْوَتِهِمْ قَالَ: االلَّهُمَّ إِنِّي جِئْتُكَ وَحْدِي فِي حَاجَتِي فَأَعْطِنِي سُؤْلِي.
وَقَالَ قَيْلُ بْنُ عَتْرَحِينَ دَعَا: يَا إِلَهِنَا، إِنْ كَانَ هُودٌ صَادِقًا فَاسْقِنَا فَإِنَّا قَدْ
هَلَكْنَا. فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابًا ثَلَاثًا: بَيْضَاءَ، وَحُمْرَاءَ، وَسُودَاءَ، ثُمَّ نَادَاهُ مَنَادٌ
مِنَ السَّحَابِ: يَا قَيْلُ، اخْتَرَلَنْفَسَكَ وَقَوْمَكَ مِنْ هَذَا السَّحَابِ. فَقَالَ: قَدْ

اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: اخترت رمادا رمدا، لا تبقي من عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته همدا، إلا بني اللوذية المهدى. وبنو اللوذية بنو لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنة بكر: كانوا سگانا بمكة مع أخوالهم، لم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عاد الآخرة، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد.

وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختار قيل بن عتر بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث. ولما رأوها استبشروا بها، وقالوا: (هذا عارض ممطرنا). يقول الله عز وجل: (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها)، أي كل شيء أمرت به. فكان أول من أبصر ما فيها أنها ريح. فيما يذكرون. امرأة من عاد يقال لها مهدد، لما تبينت ما فيها صاحت ثم صعبت، فلما أفأقت قالوا: ماذا رأيت يا مهدد؟ قالت: رأيت ريحا فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما)، كما قال الله: والحسوم: الدائمة؛ فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك.

فاعتزل هود. فيما ذكر. ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ الأنفس؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه، فانزلوا عليه، فبينما هم عنده، إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة مسي ثالثة من مصاب عاد، فأخبرهم الخبر، فقالوا: فأين فارقت هودا وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر؛ فكأنهم شكوا فيما حدثهم، فقالت هزيلة ابنة بكر: صدق ورب الكعبة. ومثوب بن يعفر بن أخي معاوية بن بكر معهم. وقد قيل. فيما يزعمون والله أعلم. لمثد بن سعد ولقمان بن عاد، وقيل

بن عتر حين دعوا بمكة: قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم، إلا أنه لا سبيل إلى الخلد، فإنه لا بدّ من الموت، فقال مرثد بن سعد: يا ربّ، أعطني برّاً وصداقاً، فأعطي ذلك، وقال لقمان بن عاد: أعطني عمراً، فقبل له: اختر لنفسك، إلا أنه لا سبيل إلى الخلد: بقاء أيعارضان عفر، في جبل وعمر، لا يلقي به إلا القطر، أم سبعة أنسر إذا مضى نسر خلوت إلى نسر؟ فاختر لقمان لنفسه النّسور، فيأخذ الذّكر منها لقوّته، حتّى إذا مات أخذ غيره، فلم يزل يفعل ذلك، حتّى أتى على السّابع. وكان كلّ نسر فيما يزعمون يعيش ثمانين سنة، فلمّا لم يبق غير السّابع قال ابن أخ للقمان: أي عمّ، ما بقي من عمرك إلا عمر هذا النّسر: فقال له لقمان: أي ابن أخي: هذا لبد. ولبد بلسانهم الدّهر. فلما أدرك نسر لقمان، وانقضى عمره، طارت النّسور غداة من رأس الجبل، ولم ينهض فيها لبد، وكانت نسور لقمان تلك لا تغيب عنه: إنّما هي بعينه. فلمّا لم ير لقمان لبدًا نهض مع النّسور: نهض إلى الجبل ينظر ما فعل لبد، فوجد لقمان في نفسه وهنا لم يكن يجده قبل ذلك، فلمّا انتهى إلى الجبل رأى نسره لبدًا واقعا من بين النّسور، فناداه: انهض لبد، فذهب لبد لينهض فلم يستطع، عريت قوادمه وقد سقطت: فماتا جميعاً.

وقيل لقيط بن عتر حين سمع ما قيل له في السّحاب: اختر لنفسك كما اختار صاحبك فقال: اختار أن يصيبني ما أصاب قومي، فقبل: إنّ الهلاك، قال: لا أبالي: لا حاجة لي في البقاء بعدهم. فأصابه ما أصاب عاد من العذاب فهلك، فقال مرثد بن سعد بن عفير حين سمع من قول الرّاكب الذي أخبر عن عاد بما أخبر من الهلاك:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشا ما تبلّهم السّمماء
وسيّرو فدهم شهرا ليسقوا ... فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهم برّهم جهّاراً ... على آثار عادهم العفّاء

أَلَا نَزَعَ إِلَهُ حُلُومَ عَمَّاد ... فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ قَفَرَهُمْ ——— وَاء
مِنَ الْخَبَرِ الْمُبَيَّنِّ أَنْ يَعْمُوه ... وَمَا تَغْنِي النَّصِيحَةُ وَالشَّفَاء
فَنَفْسِي وَابْنَتَايَ وَأُمَّ وَلَدِي ... لِنَفْسِ نَبِيِّنَا هُودَ فَمَدَّاء
أَتَانَا وَالْقُلُوبَ مَصَمَّ رَات ... عَلَى ظَلَمٍ، وَقَدْ ذَهَبَ الضَّيَاء
لَنَا صَنَمٌ يُقَالُ لَهُ صَمُود ... يُقَابِلُهُ صَدَاءٌ وَالْهَبَاءُ
فَأَبْصَرَهُ الَّذِينَ لَهُ أَنْابُ ——— وَا ... وَأَدْرَكَ مِنْ يَكْذِبِهِ الشَّقَاءُ
فَإِنِّي سَوْفَ أُلْحِقُ آلَ هُودَ ... وَإِخْوَتَهُ إِذَا جَنَّ الْمَسَاءُ

قَالَتْ صَاحِبَةُ السَّجَلِ: فَإِنِّي مِنْ نَسْلِ رَجُلٍ مَعْمَرٍ، أَتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أُمَّةً وَحْدِي، وَقَدْ جَمَعَ لِي خُلُودَ الدُّنْيَا إِلَى خُلُودِ الْآخِرَةِ!

قَالَتْ لَهَا الْمَلَكَةُ:

. حَدَّثِينَا بِطَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ ابْنِ جَامِعٍ: فَلَا سَمَرٍ يَحْلُو الْيَوْمَ بِغَيْرِ حَدِيثِ
الطَّرَبِ، وَلَا مَجْتَلَى لِكُدْرِ النَّفْسِ سِوَى الْغِنَاءِ.

فَقَلَّبَتْ صَفَحَاتِ السَّجَلِ سَلِيلَةَ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ: نَظَرَتْ فِيهَا مَلِيًّا.
قَالَتْ:

. يَقُولُ صَاحِبُ «الْعَقْدِ الْفَرِيدِ» إِنَّهُ: قَدِمَ ابْنُ جَامِعِ السَّهْمِيِّ مَكَّةَ
بِمَالٍ كَثِيرٍ فَرَّقَهُ فِي ضِعْفَاءِ أَهْلِهَا؛ فَقَالَ سَفِيَّانُ بْنُ عَيِينَةَ: بَلَّغْنِي أَنَّ هَذَا
السَّهْمِيُّ قَدِمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَعَلَامَ يُعْطَى؟ قَالُوا: يَغْنَى
الْمُلُوكُ فَيُعْطُونَهُ. قَالَ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَغْنَمُهُمْ؟ قَالُوا: بِالشَّعْرِ. قَالَ: فَكَيْفَ
يَقُولُ؟ فَقَالَ لَهُ فَتَى مِنْ تَلَامِيذِهِ: يَقُولُ:

أَطُوفُ بِالْبَيْتِ مَعَ مَنْ يَطُوفُ ... وَأَرْفَعُ مِنْ مِثْرَتِي الْمَسْبِلَ

قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ، مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ! ثُمَّ مَاذَا قَالَ:
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ ... وَأَتْلُو مِنَ الْمَحْكَمِ الْمَنْزِلَ

قال: وأحسن أيضا، أحسن الله إليه، ثم ماذا؟ قال:
عسى فارح الهم عن يوسف ... يسخر لي ربة المحمل

قال: أمسك! أفسد آخر ما أصلح أولا!

قالت:

وقال إسماعيل بن جامع السهمي محدثا عن نفسه:

«ضمّني الدهر ضمّا شديدا بمكة، فانتقلت منها إلى المدينة، فأصبحت يوما وما أملك إلا ثلاثة دراهم، فهي في كمّي إذا أنا بجارية حميراء على رقبته جرة تريد الركيّ تسعى بين يديّ، وترنم بصوت شجيّ تقول:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأنّ النّوم يغشى عيونهم ... سراعا وما يغشى لنا النّوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضّرّ لذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنّهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فأخذ الغناء بقلبي، ولم يدر لي منه حرف. فقلت: يا جارية: ما أدري أوجهك أحسن أم غناؤك! فلو شئت أعدت. قالت: حبّا وكرامة. ثمّ أسندت ظهرها إلى جدار قرب منها ووضعت إحدى رجلها على الأخرى، ووضعت الجرة على ساقها، ثمّ انبعثت تغنيّه؛ فوالله ما دار لي منه حرف. فقلت: أحسنت! فلو شئت أعدت مرّة أخرى! ففطنت وكلحت وقالت: ما أعجب أمركم! أحدكم لا يزال يجيء إلى الجارية عليها الضّريبة فيشغلها! فضربت بيدي إلى الثلاثة الدّراهم فدفعتها إليها، وقلت: أقيمي بها وجهك اليوم إلى أن نلتقي. فأخذتها كالكارهة وقالت: أنت الآن تريد أن تأخذ منّي صوتا أحسبك ستأخذ به ألف دينار وألف دينار وألف دينار؛ وانبعثت تغنيّ؛ فأعملت فكري في غنائها حتّى دار لي الصّوت وفهمته،

وانصرفت مسرورا إلى منزلي أردده حتى خفّ على لساني.
ثمّ إنّ خرجت أريد بغداد، فدخلتها فنزل بي المكارّي على باب محوّل؛
فبقيت لا أدري أين أتوجه ولا من أقصد! فذهبت أمشي مع الناس، حتى
أتيت الجسر فعبرت معهم، ثمّ انتهيت إلى شارع المدينة، فرأيت مسجدا
بالقرب من دار الفضل بن الرّبيع مرتفعا، فقلت: مسجد قوم سراة؛
فدخلته وحضرت صلاة المغرب، وأقمت بمكاني حتى صلّيت العشاء
الأخرة على جوع وتعب، وانصرف أهل المسجد، وبقي رجل يصلي، خلفه
جماعة: خدم وخول ينتظرون فراغه، فصلى مليّا ثمّ انصرف؛ فرآني
فقال: أحسبك غريبا. قلت: أجل. قال: فمتى كنت في هذه المدينة؟ قلت:
دخلتها أنفا، وليس لي منزل ولا معرفة، وليست صناعاتي ممّا يمتّ بها
إلى أهل الخير. قال: وما صناعتك؟ قلت: أتغنى. فوثب مبادرا، ووكل بي
بعض من معه، فسألت الموكل بي عنه، فقال: هذا سلام الأبرش.

قال ابن جامع: وإذا رسول قد جاء في طلبي، فانتهي بي إلى قصر من
قصور الخلافة، وجازبي مقصورة إلى مقصورة، ثمّ أدخلت مقصورة في
آخر الدهليز، ودعا بطعام فأتيته بمائدة عليها من طعام الملوك، فأكلت
حتى امتلأت.

فإنّي كذلك إذ سمعت ركضا في الدهليز وقائلا يقول: أين الرّجل؟
قيل: هو ذا، قال: ادعوا له بغسول وخلعة وطيب. ففعل ذلك بي،
فحملت على دابة إلى دار الخلافة. وعرفتها بالحرس والتكبير والنيران.
فجاوزت مقاصير عدّة، حتى صرت إلى دار قوراء فيها أسرة في وسطها،
وقد أضيف بعضها إلى بعض.

فأمرني رجل بالصّعود فصعدت، وإذا رجل جالس، عن يمينه ثلاث
جوار في حجور من العيدان، وفي حجر الرّجل عود، فرحب الرّجل بي،

وإذا مجالس حياله كان فيها قوم قد قاموا عنها، فلم ألبث أن خرج
خادم من وراء السّتر: فقال الرّجل: تغنّ، فانبعث يغني بصوت لي وهو:
لم تمش ميلا ولم تركب على قتب
ولم تر الشّمس إلّا دونها الكلل
تمشي الهوينى كأنّ الرّيح ترجعها
مشي اليعافير في جيئاتها الوهل

فغنيّ بغير إصابة، وبأوتار ودساتين مختلفة، ثمّ عاد الخادم إلى
الجارية التي تلي الرّجل، فقال لها: تغني، فغنت أيضا بصوت لي، كانت
فيه أحسن حالا من الرّجل، وهو:

يا دار أضححت خلاء لا أنيس بها
إلّا الطّباء وإلّا النّاشط الفرد
أين الذين إذا ما زرتهم جذلوا
وطار عن قلبي التّشواق والكمد!

ثمّ عاد الخادم إلى الجارية التي تليها، فانبعثت تغني:
فوالله ما أدري أيّ غلبي الهوى
إذا جدّ وشكّ البين أم أنا غالبه؟
فإنّ أستطع أغلب، وإن يغلب الهوى
فمثل الذي لا قيت يغلب صاحبه

ثمّ عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنت:
مررنا على قيسيّة عامريّة
لها بشر صافي الأديم هجان
فقلت: وألقت جانب السّتر دونها
من أيّة أرض أو من الرّجلان؟
فقلت لها: أمّا تميم فأسرّتي

هديت، وأما صاحبي فيمان
رفيقان ضمّ السفر بيّني وبينه
وقد يلتقي الشّتيّ فيأْتلفان

ثمّ عاد إلى الرّجل فغنّى صوتا فشبهه فيه وهو:
أُمسى بأسماء هذا القلب معمودا
إذا أقول صبحا يعتاده عيدا
أجري على موعد منها فتخلفني
فما أمل ولا توفي المواعيدا
كأنّ أحور من غزلان ذي بقر
أعارها شبه العينين والجيدا
قامت تراءى وقد جدّ الرّحيل بنا
لتنكأ القرع من قلب قد اصطيذا
بمشرق كشعاع الشّمس بهجته
ومسبكيّ على لبّاتها سودا

ثمّ عاد إلى الجارية، فتغنّت:
تعيّرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها: إنّ الكرام قليل
وما ضربنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
وإنّا لقوم ما نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حبّ الموت آجالنا لنا
وتكرهم آجالهم فتطول

وتغنت الثانية:

وددتك لما كان وذاك خالصا
وأعرضت لما صرت نهباً مقسماً
ولا يلبث الحوض الجديد بناؤه
على كثرة الورد أن يتهدماً

وتغنت الثالثة:

وما كزّ إلا ما كان أول طاعن
وما أبصرته الخيل إلا اقشعرت
فيدرك ثأراً وهو لم يخطه الغنى
فمثل أخي يوماً به العين قررت
فلمست أرزاً بعده برزيرة
فأذكره إلا سلت وتجلّت

وغنى الرجل:

لحي الله صعلوكا مناه وهمّه
من الدهر أن يلقي لبوساً ومطعماً
ينام الضحى حتى إذا ليله انتهى
تنبه مثلوج الفؤاد مورماً
ولكن صعلوكا يساور همّه
ويمضي على الهيجاء ليثاً مقدماً
فذلك أن يلقي الكريمة يلقيها
كريماً، وإن يستغن يوماً فربّما

وتغنت الجارية:

إذا كنت ربّاً للقلوص فلا يكن

رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما
فذاك، وإن كان العقاب فعاقب

وتغنت الثانية:

ألم تر لما ضمّني البلد القفر
سمعت نداء يصدع القلب يا عمرو
أغثنا فإنّا عصابة مذحجية
تزار على وفرو ليس لنا وفر

وتغنت الثالثة:

فلما تواقفنا وسلّمت أسفرت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفنني
وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا
ولما تنازعن الأحاديث قلن لي
أخفت علينا أن نغرو نخدعا

قال ابن جامع: وتوقّعت معي الخادم إليّ، فقلت للرجل: بأبي أنت!
خذ العود، فشدّ وتر كذا وارفع الطّبقة، وحطّ دستان كذا، ففعل ما
أمرته.

وخرج الخادم فقال لي: تغنّ، عافاك الله! فتغنّيت بصوت الرجل
الأوّل على غير ما غناه، فإذا جماعة من الخدم يحضرون حتّى استندوا
إلى الأسرّة، وقالوا: ويحك! لمن هذا الغناء؟ قلت: لي. فانصرفوا عني
بتلك السّرعة، وخرج إليّ الخادم وقال: كذبت! هذا الغناء لابن جامع.
ودار الدّور، فلما انتهى الغناء إليّ قلت للجارية الّتي تلي الرجل: خذي

العود فعملت ما أريد، فسوّت العود على غنائها للصّوت الثّاني فتغنّيت به؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخدم فقالوا: ويحك! لمن هذا؟ قلت: لي. فرجعوا وخرج الخادم فقال: كذبت، ثمّ تغنّيت بصوت لي، فلا يعرف الأبّي، وهو:

عوجي عليّ فسلمّي جبر ... فيم الصّدود وأنتم سفر
ما نلتقي إلا ثلاث منى ... حتّى يفرّق بيننا الدّهر

فتزلزلت والله الدّار عليهم، وخرج الخادم فقال: ويحك! لمن هذا الغناء؟ قلت: لي. فرجع، ثمّ خرج فقال: كذبت! هذا غناء ابن جامع، فقلت: فأنا إسماعيل بن جامع. فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلّا من وراء السّتر الّذي كان يخرج منه الخادم. فقال لي الفضل بن الرّبيع: هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليّ؛ فلمّا صعد السّير وثبت قائما، فقال لي: ابن جامع؟ قلت: ابن جامع، جعلني الله فداك، يا أمير المؤمنين! قال: ويحك! متى كنت في هذه البلدة؟ قلت: أنفا، دخلتها في الوقت الّذي علم بي أمير المؤمنين، قال: اجلس، ويحك يا ابن جامع!

ومضى هو وجعفر، فجلسا في بعض تلك المجالس، وقال لي: أبشر وابسط أملك؛ فدعوت له. ثمّ قال: غنّني يا ابن جامع، فخطر بقلبي صوت الجارية الحميراء، فأمرت الرّجل بإصلاح العود على ما أردت من الطّبقة، فعرف ما أردت، فوزن العود وزنا، وتعاهده حتّى استقامت الأوتار، وأخذت الدّساتين مواضعها، وانبعثت أغنّي بصوت الجارية الحميراء:

شكونا إلى أحبّابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر اللّيل عندنا!
وذاك لأنّ النّوم يغشى عيونهم ... سراعا وما يغشى لنا النّوم أعينا
إذا ما دنا اللّيل المضّرّ لذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنّهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فنظر الرّشيد إلى جعفر وقال: أسمعت مثل هذا قطّ! فقال: لا والله ما خرق مسامعي قطّ مثله. فرفع الرّشيد رأسه إلى خادم بالقرب منه، ودعا بكيس فيه ألف دينار، فجاء ورمى به إليّ فصيرته تحت فخذي ودعوت لأمر المؤمنين.

فقال: يا ابن جامع؛ ردّ على أمير المؤمنين هذا الصّوت، فرددته، وتزّددت فيه، فقال له جعفر: يا سيّدي؛ أما تراه كيف يتزّدد في الغناء! هذا خلاف ما سمعناه أولاً، وإن كان الأمر في اللّحن واحداً.

فرفع الرّشيد رأسه إلى ذلك الخادم، ودعا بكيس آخر فيه ألف دينار، فجاءني به، فصيرته تحت فخذي، وقال: تغنّ يا إسماعيل ما حضرك، فجعلت أقصد الصّوت من بعد الصّوت، ممّا كان يبلغني أنّه يشترى عليه الجوّاري فأغنيّه، فلم أزل أفعل ذلك إلى أن عسعس اللّيل. فقال: أتعبناك يا إسماعيل هذه اللّيلة بالغناء؛ فأعد على أمير المؤمنين الصّوت (يعني صوت الجارية) فتغنّيت؛ فدعا الخادم وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه ألف دينار؛ فذكرت ما كانت الجارية قالت لي فتبسّمت، ولحظني؛ فقال: ممّ تبسّمت؟ فجثوت على ركبتيّ وقلت: يا أمير المؤمنين؛ الصّدق منجاة، فقال لي بانتهار: قل! فقصصت عليه خبر الجارية، فلمّا استوعبه قال: صدقت، قد يكون هذا، وقام.

ونزلت من السّرير ولا أدري أين أقصد، فابتدرني فراشان فصارا بي إلى دار قد أمر بها أمير المؤمنين، ففرشت وأعدّ فيها جميع ما يكون في مثلها من آلة جلساء الملوك وندمائهم، ومن كلّ آلة وخول إلى جوار ووصفاء، فدخلت بغداد فقيراً وأصبحت من جلة أهلها ومياسيرهم!«

قالت:

«يقول أبو الفرج الأصمانيّ إنّه: قدم ابن جامع قدمة له من مكّة على الرّشيد. وكان ابن جامع حسن السّمت كثير الصّلاة، قد بان أثر السّجود في جبهته، وكان يعتّم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة، ويلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مريسيّاً في زيّ أهل الحجاز.

فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن، إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانيس، فلمّا هجم على الباب نظر إلى رجل يقف إلى جانبه ويحادثه فوقعت عينه على ابن جامع، فرأى سمته وحلاوة هيئته، فجاء فوقف إلى جانبه، ثمّ قال له: أمتع الله بك؟ توسّمت فيك الحجازيّة والقرشيّة، قال: أصبت، قال: فمن أيّ قريش أنت؟ قال: من بني سهم. قال: فأيّ الحرميين منزلك؟ قال: مكّة، قال: ومن لقيت من فقهاءهم؟ قال: سل عمّن شئت، ففاتحه الفقه والحديث. فوجد عنده ما أحبّ: فأعجب به، ونظر النّاس إليهما فقالوا: هذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على المغنيّ. وأبو يوسف لا يعلم أنّه ابن جامع؟ فقال أصحابه: لو أخبرناه عنه! ثمّ قالوا: لا، لعلّه لا يعود إلى مواقفته بعد اليوم فلم نغمّه!

فلمّا كان الإذن الثّاني ليحيى غدا عليه النّاس وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابن جامع فرآه، فذهب فوقف إلى جانبه، فحادثه طويلاً كما فعل في المرّة الأولى، فلمّا انصرف قال له أصحابه: أيّها القاضي: أتعرف هذا الذي تواقف وتحادث؟ قال: نعم؛ رجل من قريش من أهل مكّة من الفقهاء. قالوا: هذا ابن جامع المغنيّ، قال: إنّنا لله! قالوا: إنّ النّاس قد شهروك بمواقفته وأنكروا ذلك من فعلك.

فلمّا كان الإذن الثّالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكّبه، وعرف ابن

جامع أنّه قد أنذره، فجاء فوقف فسلم عليه، فردّ عليه أبو يوسف
بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به، ثمّ انحرف عنه.

فدنا منه ابن جامع، وعرف الناس القصّة، وكان ابن جامع جهيرا،
فرفع صوته. ثمّ قال: يا أبا يوسف؛ ما لك تنحرف عنيّ! أيّ شيء أنكرت؟
قالوا لك: إنّ ابن جامع المغنيّ، فكرهت مواقفتي! أسألك عن مسألة
ثمّ اصنع ما شئت ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون. فقال: يا أبا
يوسف لو أنّ أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من
لسانه وقال:

يا دارميّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد

أكنت ترى بذلك بأسا؟ قال: لا، قد روي عن النّبيّ صلى الله عليه
وسلم في الشّعرقول وروي في الحديث.

قال ابن جامع: فإن قلت أنا هكذا... ثمّ اندفع يتغيّ فيهِ حتّى أتى
عليه، ثمّ قال: يا أبا يوسف؛ رأيتني زدت فيه أو نقصت منه؟ قال:
عافاك الله؛ أعفنا من ذلك؟ ثمّ قال: يا أبا يوسف؛ أنت صاحب فتيا،
ما زدتَه على أن حسنته بألفاظي، فحسن في السّماع ووصل إلى القلب!
ثمّ تنجّى عنه ابن جامع!

قالت:

ويقول أيضا: «قال الرّشيد يوما لجعفر بن يحيى: قد طال سماعنا
هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها، فهلّم أقاسمك إيّاها وأخايرك؛
فاقتسما المغنين، على أن جعلّا بإزاء كلّ رجل نظيره؛ وكان ابن جامع في
حيّز الرّشيد، وإبراهيم الموصليّ في حيّز جعفر بن يحيى، وحضر النّدماء
لمحنة المغنين.

وأمر الرّشيد ابن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كلّ الإحسان، وطرب الرّشيد غاية الطّرب، فلماً قطعه قال الرّشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصّوت فغنّه. فقال: لا، والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه؛ وظهر الانكسار فيه، فقال الرّشيد لجعفر: هذا واحد.

ثمّ قال لإسماعيل بن جامع: غنّ يا إسماعيل؛ فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأوّل، فلماً استوفاه قال الرّشيد لإبراهيم: هاته يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا! فقال: هذان اثنان! غنّ يا إسماعيل؛ فغنى ثالثاً يتقدّم الصّوتين الأوّلين يفضلهما. فلماً أتى على آخره قال: هاته يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا أيضاً، فقال له جعفر: أخزاك الله.

وأتمّ ابن جامع يومه، والرّشيد مسروره، وأجازه بجوائز كثيرة وخلع عليه خلعاً فاخراً، ولم يزل إبراهيم منخدلاً منكسراً حتّى انصرف. ومضى إلى منزله، فلم يستقرّ فيه حتّى بعث إلى محمّد المعروف بالزّفّ. وكان من المغنّين المحسنين، وكان أسرع من عرف في أيّامه في أخذ صوت يريد أخذه، وكان الرّشيد قد وجد عليه في بعض ما يجده الملوك على أمثاله، فألزمه بيته وتناساه. فقال إبراهيم للزّفّ: إني اخترتك على من هو أحبّ إليّ منك لأمر لا يصلح له غيرك، فانظر كيف تكون! قال: أبلغ في ذلك محبّتك، إن شاء الله تعالى. فأدّى إليه الخبر، وقال: أريد أن تمضي السّاعة إلى ابن جامع، فتعلمه أنّك صرت إليه مهناً بما تهياً له عليّ وتتنقّصني وتثلبني وتشتمني، وتحتال في أن تسمع منه الأصوات وتأخذها منه، ولك ما تحبّه من جهتي من عرض من الأعراض مع رضا الخليفة إن شاء الله.

فمضى واستأذن على ابن جامع فأذن له، فدخل وسلّم عليه

وقال: جئتكم مهتئاً بما بلغني من خبرك، والحمد لله الذي أخزى ابن الجرمقانيّة على يدك، وكشف الفضل في محلّك من صناعتك، قال: وهل بلغك خبرنا؟ قال: هو أشهر من أن يخفى على مثلي، قال: ويحك! إنّه يقصر عن العيان. قال: أيّها الأستاذ: سرّني بأن أسمع من فيك حتّى أرويه عنك: قال: أقم عندي حتّى أفعل، قال: السّمع والطّاعة.

فدعا له ابن جامع بالطّعام فأكلا ودعا بالشّراب، ثمّ ابتدأ فحدّثه بالخبر حتّى انتهى إلى خبر الصّوت الأوّل. فقال له الرّف: وما هو أيّها الأستاذ؟ فغنّاه ابن جامع إيّاه، فجعل محمّد يصفّق وينقرويشرب وابن جامع مجتهد في شأنه حتّى أخذه عنه، ثمّ سأله عن الصّوت الثّاني فغنّاه إيّاه. وفعل مثله فعله في الصّوت الأوّل، ثمّ كذلك في الصّوت الثّالث.

فلما أخذ الأصوات الثّلاثة وأحكمها، قال له: يا أستاذ: قد بلغت ما أحبّ فتأذن لي في الانصراف؟ قال: إذا شئت.

فانصرف محمّد من وجهه إلى إبراهيم، فلما طلع من باب داره قال له: ما وراءك؟ قال: كلّ ما تحبّ: ادع لي بعود، فدعا له به: فضرب وغنّاه الأصوات. قال إبراهيم: وأبيك هي بصورها وأعيانها: ردّدها عليّ الآن، فلم يزل يردّدها حتّى صحّت لإبراهيم، وانصرف الرّف إلى منزله.

وغدا إبراهيم إلى الرّشيد فلما دعا بالمغنّين دخل فيهم، فلما بصر به قال له: أوقد حضرت! أما كان ينبغي لك أن تجلس شهراً في منزلك بسبب ما لقيت من ابن جامع! قال: ولم ذلك، يا أمير المؤمنين؟ جعلني الله فداك! والله لئن أذنت لي أن أقول لأقولنّ، قال: وما عسالك أن تقول! قل. فقال: إنّه ليس ينبغي لي ولا لغيري أن يراك نشيطاً لشيء، فيعارضك، ولا أن تكون متعصّباً لحيز وجنبه فيغالبك؛ وإلّا فما في

الأرض صوت لا أعرفه. قال: دع ذا عنك؛ قد أقررت أمس بالجهالة بما سمعت من صاحبنا، فإن كنت أمسكت عنه بالأمس على معرفة كما تقول فهاته اليوم، فليس ها هنا عصبية ولا تمييز.

فاندفع فأمر الأصوات كلها، وابن جامع مصغ بسمع منه، حتى أتى على آخرها، فاندفع ابن جامع فحلف بالأيمان المخرجة أنه ما عرفها قط ولا سمعها، ولا هي إلا من صنعته، ولم تخرج إلى أحد غيره، فقال له ويحك! فما أحدثت بعدي! قال: ما أحدثت شيئا.

فقال: يا إبراهيم؛ بحياتي، اصدقني. فقال: وحياتك لأصدقك؛ رميته بحجره، فبعثت إليه بمحمد الزف وضمنت له ضمانات، أولها رضاك عنه؛ فمضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه ونقلتها حتى سقط الآن اللوم عني بإقراره، لأنه ليس علي أن أعرف ما صنعه هو ولم يخرج به إلى الناس، وهذا باب من الغيب، وإنما يلزمي ألا يعرف هو شيئا من غناء الأوائل وأجهله أنا، وإلا فلولزمي أن أروي صنعته للزومه أن يروي صنعتي ولزم كل واحد منا لسائر طبقته ونظرانه مثل ذلك، فمن قصر كان مذموما ساقطا.

فقال له الرشيد: صدقت يا إبراهيم ونصحت عن نفسك وقمت بحجتك. ثم أقبل على ابن جامع، فقال له: يا إسماعيل: أتيت أتيت! دهيت دهيت! أبطل عليك الموصل ما فعلته به أمس، وانتصف اليوم منك، ثم دعا بالزف فرضي عنه.

قالت:

. يقول أبو الفرج الأصبهاني في المفاضلة بين ابن جامع وإبراهيم الموصل: «ولقد أخبرنا يحي بن علي بن يحي المنجم عن حماد عن إسحاق عن أبيه:

أنّه أتى أباه إبراهيم بن ميمون يوما مسلّما فقال له أبوه: يا بنيّ ما أعلم أحدا بلغ من برّولده ما بلغته من برّك، وإنيّ لاستقلّ ذلك لك، فهل من حاجة أصير فيها إلى محبّتك؟ قلت: قد كان، جعلت فداك. كلّ ما ذكرت فأطال الله لي بقاءك ولكيّ أسالك واحدة: يموت هذا الشّيخ غدا أو بعد غد ولم أسمع، فيقول النّاس لي ماذا وأنا أحلّ منك هذا المحلّ. قال لي: ومن هو؟ قلت ابن جامع. قال: صدقت يا بنيّ، أخرجوا لنا. فجئنا ابن جامع، فدخل عليه أبي وأنا معه، فقال: يا أبا القاسم، قد جئتك في حاجة، فإن شئت فاشتمني، وإن شئت فاقدفني، غير أنّه لا بدّ لك من قضائها. هذا عبدك وابن أخيك إسحاق قال لي كذا وكذا، فركبت معه وأسالك أن تسعفه فيما سأل. فقال لي نعم، على شريطة: تقيمان عندي أطعمكما مشوشة وقلية وأسقيكما من نبيذ التمرّ وأغنّيكما! فإن جاء رسول الخليفة مضيّنا إليه وإلاّ أقمنا يومنا. فقال أبي: السّمع والطّاعة، وأمر بالدّوابّ فردّت. فجاءنا ابن جامع بالمشوشة والقلية ونبيذه التمرّ فأكلنا وشربنا، ثمّ اندفع فغنّانا، فنظرت إلى أبي يقلّ في عيني ويعظم ابن جامع حتّى صار أبي في عيني كلا شيء. فلمّا طربنا غاية الطّرب جاء رسول الخليفة فركبا وركبت معهما. فلمّا كنّا في بعض الطّريق قال لي أبي: كيف رأيت ابن جامع يا بنيّ؟ قلت له: أوتعفيّني جعلت فداك! قال: لست أعفيّك فقل. فقلت له: رأيتك ولا شيء أكبر عندي منك قد صغرت عندي في الغناء معه حتّى صرت كلا شيء! ثمّ مضيا إلى الرّشيد، وانصرفت إلى منزلي، وذلك لأنّي لم أكن بعد وصلت إلى الرّشيد. فلمّا أصبحت أرسل إليّ أبي فقال: يا بنيّ، هذا الشّتاء قد هجم عليك وأنت تحتاج فيه إلى مؤونة، وإذا مال عظيم بين يديه، فاصرف هذا المال في حوائجك. فقمّت فقبّلت يده ورأسه وأمرت بحمل المال وأتبعته، فصوّت بي: يا إسحاق ارجع، فرجعت. فقال لي: أتدري لما وهبت لك هذا المال؟ قلت: نعم، جعلت فداك! قال: لم؟ قلت: لصدقي فيك وفي ابن جامع. قال: صدقت يا بنيّ، امض راشداً.

وأدرك صاحبة السَّجَلِ الصَّبَّاح فسكتت عن الكلام المباح.
[حاشية: «ظَلَّ ملك»]

لفترة غير مسمّاة. سوف لن يغيب عن ناظره ذلك المشهد أوّل ما وطئت قدماه نهاية الدّهليز، لأجل غير محدّد، سوف يظلّ يذكره، كما يذكر شيئا خطيرا ليس من السّهل نسيانه، رغم بلوغ الجهد في محاولة طرحه، الكرة تلو الكرة. أو على الأقلّ تجاهله، ليخفّ بعض الوطأة، ويعاود السّلو، إنّهُ لمشهد يبدو له غريبا، غامضا كلّما استحضره، لا يملك حياله إلّا الشّعور بالرّهبة، يراه عصبيّا على الفهم، إذا رام التّعبير عنه زاغت أفكاره، واستبدّت بها عطالة قاتلة، بحيث لا يعود قادرا على التّركيز في شيء، سوى إغراء إحساس بالعدميّة والتّلاشي!... إنّهُ ذلك المروق من لاشيء الظّلمة إلى لاشيء المجهول، كمروق الظّلّ الباهت من تحت حائط متهدّم، هروبا من أشعة الشّمس الحارقة، في أواسط أغسطس، لحظة لو لم يشهدها بنفسه، ويظيف بأبعادها وحدودها، لو سمع عنها من غيره، بل حتّى لو تناهى إليه ما روي عنها من ثقة، لظلّ في حيرة من أمره، ولما صدّق؛ فإذا كان هو قد بهت، وأحسّ بما يشبه المباغطة، وهو يرى الملك يمرق كبرق خلّب، أو كلمح البصر، حتّى أنّه في اللّحظة التّالية لاختفائه أو زوغانه قد بدأ يشكّ حقّا في مدى مصداقيّة ما رآه. فكيف يقرّ رواية غيره فيما لوروى؟ كيف يصدّق أنّ أحدا من البشر. مجبول بطبعه على النّقص والقصور. يمكن أن يصف تلك اللّحظة. لحظة مروق الملك. على استبدادها وسيطرتها وانغماسها في لعبة الاحتمال... ودّ لو ينسى، قال. مستجمعا ما تبقى له من عزيمة وقوّة وإرادة. كما ينسى غيره، يمكنه هو أيضا أن ينسى، علّل نفسه بأنّ أصعب المواقف حرجا، وأشدّها مساسا بالكرامة، قد تنسى يوما ما، كأن يضربه أحد مثلا، فيحسّ بالقهر والانخذال، أو يسخر منه، أو يهينه

شخص ذو مقام ورفعة، فيتضاءل أمامه، مع عجزتاه على ردّ الفعل، ألم يسمّ الإنسان إنساناً لأنّه نساء؟! وانتظر اليوم الذي سيباغته فيه النسيان، على طول مدّة إقامته في الفسقاط، انتظر اليوم الذي سيحلّ عليه فيه ملاك الرّحمة، فيخلّصه من الفوضى الكاوية التي تؤرّقه، ولكنّ ذلك اليوم لم يأت، أبى المشهد إلّا أن يتغلغل فيه كما يتغلغل الألم في جرح غائر، واستسلم، في استكانة، لمداهمات الخيال الملحّة. أحاطت به هواجس شتّى فحرمته المنام ليالي أصبح، من كثرتها، لا يطيق الإلمام بعدها، كثيراً ما كان ينتفض في فراشه ليلاً، من الأرق، انتابته الحمى مرّات، وكانت تضطرّه الكوابيس إلى الإفافة من النّوم فزعا، وهو يصرخ بملء فيه، كأنّ غيلانا تستعدّ لافتراسه، دون هوادة! ظلّ ملك! ما ظلّ ملك!؟

هبط عليه إلهام حيّ مثلج كلمسة حانية، وكنسمة أثريّة هفت على قلبه ومضة دافقة من الطّمأنينة، لقد شعر بفرحة عصيّة على التّقدير، لا تضاهيها قيمة سوى فرحة مريض بداء عضال أيس من البرء، استدعى الطّبيب تعلّلاً، وهو يعلم سلفاً استعصاء دائه على كلّ دواء، ورجاه مستعطفاً أن يجزّب أساليب العلاج الممكنة، من حجامة وفصد، عليه، ناسياً أو متناسياً لحظة الحسم، حيث يقول له الطّبيب حازماً، وبنبرات صارمة: «لا فائدة، فأخّر الطّبّ الكي!» وعلى جزعه، لا يجد مناصاً، فالمشفي على الهلاك يتعلّق بقبضة، ويتغلّب أمله في الحياة على اليأس فيذعن، كلّ آلامه، عذاباته، التي يختزنها كلّها في صيحة ممضّة، تتلاشى فجأة، وكأنّها لم تكن، أمام الشّفاء، كذلك كانت حاله، وفرحته فرحة ذلك المريض، حين عبر أمام ناظره ما يمكن أن يكون مسكناً لجيشان صدره واضطرابه، كانت فكرة المطابقة الحلّ السّحريّ للإجابة عن السّؤال، فكما يدأب اللّغويّ الضّليع على مطابقة الأسماء ببعضها، وكذلك الأفعال والقواعد وغيرها، اعتقد هو أنّه يمكنه أن

يطابق الصّور ببعضها، ومن حسن حظّه، لم تكن ذاكرته عطلا من تلك الصّور، كانت تتوراد عليه آلاف منها، تحوم حوله تلقائياً، تتمسّح بوجهه، تضطرب داخله دونما تردّد... شأن اليانس مثله أن يحسب كلّ بادرة أملا، وكلّ خاطر منقذا، وكلّ عدوّ يمدّ إليه يده على حافة النّهر، وهو يخفي وراءه خنجرا لطعنه، صديقا!!

غامضة هي الصّورة الّتي سنحت له من بين الصّور الأخرى، في ذاكرته، غريبة، إلى حدّ الإلغاز والإرباك، كصورة الملك، وهو ينسحب بسرعة، كلتاها متميّعتان، تعتري حوافهما ظلمة كالحة، إلّا أنّ الثّانية، قد تتّضح قليلا، إذا سلّط عليها ضوء، من زاوية ما، قد لا يجد صعوبة كبيرة في استعادة تضاريسها وجزئياتها، لانطباعها جملة أو تفصيلا في ذهنه، عامل السّنّ، قد لا يعتبر عائقا كبيرا أمامه، إذ للصّورة علاقة بماضيه البعيد، كثيرون يقولون إنّ الأشياء تتشوّه بمرور الوقت، تفقد حيويّتها إذا نظرنا إليها بعد توالي المدّة وانقضاء الفترة، لكن أليست هذه الأشياء نفسها هي حصيلة طفولة عشناها، قد يهزّنا طرب بلا حدود إذا أسعفتنا الذاكرة ببعضها في وقت ما؟!

... كان لا يراه إلّا عابرا، منسحبا، حتّى في قمّة إقباله ودنوّه، على قربه في المكان، دائما يبدو بعيدا، منغلق الأسارير، كالح السّحنة، طالما خمن، وهو ما يزال في ميعة الصّبّا، فيما عسى أن يفكر فيه إنسان بتلك الصّفات، فلم يسعفه عقله الصّغير بغير احتمالات صغيرة، هي الأخرى، لا رابط بينهما، نادرا ما يظهر، مقلّ في غدواته وروحاته، لا يخرج إلّا بمقدار، ولا يدخل إلّا بمقدار أيضا، كان إذا خرج لم يطل، فإذا ما دخل اعتقد أنّه لن يخرج أبدا!!؟! تساءل كثيرا، بدافع الفضول أحيانا، ومدفوعا برثاء كئيب أحيانا أخرى: لماذا يقبع دائما في البيت؟ ألا يملّ؟ باب البيت لا يفتح أبدا، وحتّى المنفذ الوحيد في أعلى الباب الحديديّ،

الَّذِي يَفْتَحُ عَلَى الْبَاحَةِ الدَّخْلِيَّةِ، فِيمَا وَرَاءَ السَّورِ، تَعَمَّدَتْ زَوْجَهُ
سَدَّهَا بِخَرْقَةٍ، نَكَايَةً فِي أَعْيُنِ الْفَضُولِيِّينَ وَأَنْوَفِهِمُ الْمَشْمَشِمَةَ، مِنْذُ
مَدَّةٍ بَعِيدَةٍ انْقَطَعَ عَنْ زِيَارَةِ أُخْتِهِ الْأَثِيرَةِ إِلَى قَلْبِهِ، وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، قَاطَعَ
أُخْتَهُ الْكُبْرَى، وَإِخْوَتَهُ الذُّكُورَ الَّذِينَ يَكْبُرُونَهُ وَالَّذِينَ يَصْغُرُونَهُ عَلَى حَدِّ
سَوَاءٍ؛ أُخْتَهُ الصَّغْرَى لَمْ يَكُنْ يَصْبِرُ عَلَى زِيَارَتِهَا يَوْمًا وَاحِدًا، يَزُورُهَا فِي
أَيَّةِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ شَاءَ... يَتَحَدَّثُ... يَضْحَكُ... يَأْكُلُ مَا طَابَ، وَيَشْرَبُ مَا
طَابَ! فَمَاذَا طَرَأَ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ الْحَقُّ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ اسْتَغْرَبُوا، وَذَهَبُوا
فِي تَفْسِيرِ الْأَمْرِ مَذَاهِبَ شَتَّى، وَبَلَّغُوا بِهِ فِي الْإِحْتِمَالِ أَقْصَاهُ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ
أُخْتُهُ الَّتِي كَانَتْ تَرَقُّ لَهُ وَتَهْتَشُّ؟ أَلَمْ تَكُنْ دَائِمًا بِلِسْمَا شَافِيَا لَجُرُوحِهِ؟ أَلَا
تَذُوبُ أَمَامَهُ رَقَّةً وَتَحْنَانًا؟ أَيْنَ ذَهَبَتْ ضِحْكَتُهُ الْمَجْلِجَلَةُ الَّتِي كَانَتِ الْقَوْمُ
يَحْدِسُونَ بِهَا قَرَبَ قُدُومِهِ؟ إِنَّهُ كَلَّمَا تَطَلَّعَ إِلَيْهِ، لَا يَطَالَعُهُ غَيْرُ عُبُوسٍ
وَجْهِهِ، وَجْهَامَةً تَقَاطِيعُهُ الْقَاتِمَةَ، حَتَّى أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْخِيَالُ مَرَّةً مَذْهَبًا
بَعِيدًا فَاعْتَقَدَ أَنَّ شَخْصًا بِهَذِهِ الصَّرَامَةِ الْمَشُوبَةِ بِحُزْنٍ إِذَا ضَحَكَ سَيَعِدُّ
ذَلِكَ مَعْجَزَةً، قَدْ يَضْطَرِبُ لَهَا نَامُوسُ الْكُونِ، قَالَ أَنَاسٌ إِنَّهُ مَمْسُوسٌ،
بَعْضُ النِّسَاءِ قُلْنَ إِنَّ زَوْجَهُ «عَمِلَتْ لَهُ عَمَلًا»، كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَخْتَطِفَهُ
مِنْهَا امْرَأَةٌ أُخْرَى، فَتَتَزَوَّجَهُ، الْعَاقِرُ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ «تَرْبِطَ» الزَّوْجَ
بِالْأَبْنَاءِ، «تَجْلِبُهُ بِعَمَلٍ كَبِيرٍ»؛ وَهَلْ «عَمَلٌ كَبِيرٌ» أَكْبَرُ مِنَ السَّحَرِ؟!
هَكَذَا كُنَّ يَقُلْنَ، أَوْلَيْكَ النِّسْوَةُ، وَهَنْ يَهْمَسْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ، وَقُلْنَ أَيْضًا
إِنَّهَا أَكَلَتْهُ «قَلْبَ حَمَارٍ»! وَهُوَ لَا يَعْلَمُ!! يَا لَهَا مِنْ امْرَأَةٍ! لَا يَدْرِي تَحْدِيدًا
كَيْفَ تَعْرِفُ إِلَيْهَا، رُبَّمَا قَبْلَ وَفَاةِ زَوْجِهِ بِأَشْهُرٍ، رُبَّمَا بِسِنَوَاتٍ، فَلَا أَحَدٌ
يَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ، الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ الْإِلْمَامِ بِهَا، بِحَيْثُ لَا يَكَادُ
يَمْرِيومُ إِلَّا وَيُزَوِّرُ فِيهِ دِيَارَ أَهْلِهَا، قَدْ يَمْكُثُ الْأَيَّامَ الطَّوِيلَةَ دُونَ أَنْ يَفْكَرَ
أَنَّ لَهُ زَوْجًا مَرِيضَةً فِي حَاجَةٍ إِلَى عِلَاجٍ، وَأَنَّ لَهُ ابْنًا فِي حَاجَةٍ إِلَى رِعَايَةٍ،
وَمَاتَتْ زَوْجَهُ، أُمُّ وَلَدِهِ، مُتَأَثِّرَةً بِمُضَاعَفَاتِ الْقَلْبِ، لَمْ يَلْقَ عَلَيْهَا وَلَوْ
طَلَّةً وَدَاعَ، كَمَا كَانَ يَجْدُرُ بِشَخْصٍ ذِي نَخْوَةٍ، فَجَعَهُ الْقَدَرُ بَعِيزًا، لَمْ
يَتِمَّ رَبِيعُهُ الرَّابِعَ وَالْعِشْرِينَ...! تَزَوَّجَ بَعْدَ تَشْيِيعِهَا بِشَهْرٍ، فَكَانَ مَا كَانَ!

لم يعد من شخصه القديم إلا بقايا طيف، مجرد ملامح غير محدّدة، ظلّ يغيم، ثم يختفي فجأة كأن لم يكن، وزوجه الجديدة: شابة، بقدر ما كان يلجّ هو في الاختفاء، كانت هي تلجّ في الظهور، وبقدر ما كان الباب يواربه، كانت الباحة الداخليّة تسفر عن لدانتها وزواق وجهها الغارق في الأصباغ، وهي امرأة ترغب أن تحلّو في عيون الرّجال... هي امرأة عاشقة للرّجال، وهو ظلّ ملك!!

كان هو أباه!
وكانت هي زوج أبيه!

((٥))

[النطفة القاتلة]

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد، ذو العرش الوطيد، والعزّ التليد، أنّ الملكة «شرشير خذاه» لم تزعجه، لم تسأله من أمره شيئاً، طوال سبعة أيام كاملة. وهي فترة الضيافة!.. بدا وكأنّه لن يسمع الأسئلة المعتادة، التي يجبه بها الغريب عادة، فور حلوله بمضارب غريبة، بين أناس غرباء، من أين؟ إلى أين؟ الحقّ أنّه تعجّب غاية العجب، وذهبت به أفكاره المشوّشة مذاهب شتى، فوسوس داخله خاطر أنّ الملكة تعرف عنه كلّ شيء، لذلك لم تكلف نفسها عناء سؤاله، وهجس بباطنه صوت يقول إنّها لم تسأله إلى الآن مراعاة لواجب الضيافة، ثمّ أنّ الغريب مثله، في حاجة إلى الاستجمام والراحة، من وعناء السفر، ريثما ينشط من ضنى، ويستأنس من وحشة، سيّما إذا كان هذا الغريب مسالماً، لا يبغي شراً أو غدرًا، ولكن ما يكاد يطمئنّ إلى تخميناته هذه، حتّى يهرّبه الشكّ من جديد، تنضاف إلى حيرته هواجس ومخاوف، ما تعتم أن تجثم على صدره، فتوشك أن تكتم أنفاسه، قال لنفسه، غير مرّة، إنّ فترة الضيافة قد طالت أكثر من اللازم، سبعة أيام بكاملها عوضاً عن ثلاثة! لم يسمع عن شيء مثل هذا من قبل، جاء خارقاً لكلّ النّواميس والعادات والتقاليد المألوفة بين بني البشر، عبر مراحل التّاريخ الطّويل، لكن لماذا يكلف نفسه من أمرها رهقاً؟ أليست القلعة نفسها غريبة، معلّقة بين السّماء والأرض؟ ثمّ ما يدريه أنّ الذين هو بينهم بشر؟ ألا يجوز أن يكونوا... غيلانا مثلاً، أو جنّاً، أو أشباحاً، أو ظلالاً؟

رغم الحفاوة البالغة، وأبهة المجلس، وألقه المونق، فما يكاد يمر يوم إلا ويرى فيه شيئاً جديداً يأخذ بلبه، ويهره، وما تكاد تنقضي ساعة من ليل إلا ويضطرب فيها حدّ الافتتان لطرافة الغناء وأصالة الأصوات، فقد ظلّ هناك بقلبه شيء من «حتى»، ألم حادّ يخزه وخز الإبر، كلما استسلم، أو أسلم لنفسه قيادها من فرط نشوته، خلال تلك الأيام السبعة المتصرّمة، لم تغفل عيناه عن ملاحظة أشياء معيّنة، لم يعرّها في البداية كبير اهتمام، بيد أنّها لفرط تكرارها أصبحت تلحّ عليه، صارت ملازمة له، قد تدهمه في أجلى أوقات صفائه، فتكدّر صفوه، وقد تطيف به في منامه، وقد تعترض فجأة سيل أفكاره، فتشوشها وتغطّي عليها، من ذلك اختفاء رجلين، كلّ يوم، من أولئك الرجال الستّة. الذين يجلسون على يمين الإيوانين، والذين بدت له هيناتهم الأنثوية باعثة على الريبة إلى الحدّ الذي بعث هلعاً شديداً في قلبه، واستبدالهما بأخرين، كان الرجلان الجالسان على الأريكتين الأخيرتين، بمحاذاة مدخل الدهليز، هما اللّذين يختفيان دائماً، وفجأة، ما تكاد تنقضي اللّيلة الحافلة، حتّى يختفيا صبيحة اليوم التّالي، إلى أين؟ كيف اختفيا؟ من الذي أخفاهما. إنّه لا يعلم عن ذلك شيئاً، كلّ ما يعلمه أنّ الرجلين اللّذين ظلّاً طوال اللّيلة المنقضية يجلسان على الأريكتين الوسطيين، ينتقلان في اللّيلة التي تليها إلى الأريكتين الأخيرتين الشّاغرتين، فيحتلّ مكانهما الرجلان صاحباً الأريكتين الأوليين، اللّذان يؤتى بدلا عنهما. برجلين آخرين في مثل قيافتهما، لكن يفوقانهما جمالا وأنوثة! فماذا يعني كلّ ذلك؟ ما سرّ ذلك؟ ودّ من كلّ جوارحه. لو يفهم، نازعته نفسه إلى السّؤال، إلى الاستفهام، إلّا أنّه يتراجع في كلّ مرّة تحسّبا من سوء العاقبة، أو خجلا من الملكة التي كانت أولى منه بسؤاله، فلم تقلق راحته، فكيف يزعجها هو بسؤالها عن شيء لا يعنيه!

ذات ليلة أرق، جفاه النّوم، كان يتقلّب في سريره، كما لو كان

يتمرغ على تخت من الشوك، بغتة، ضاق بنفسه، وأحسن بانسداد في شرايينه، في تلك اللحظة، تمنى لو يسعفه الصراخ، حاول أن ينهض فلم يستطع، تجمد جسده كله، رأسه، صدره، يده، ورجلاه، كان يشعر أن حلقه متغلغل بالنداء، يكاد ينفجر، إلا أن الأصوات المعرّبة لا تكاد تبلغ الآلهة، اهتز جذعه تلقائياً، دفع رأسه بعنف إلى الأمام، فبدأ يتحرر قليلاً من عجزه، استقام واقفاً، ودون أن يشعر، وجد نفسه يهرول خارجاً، عبر رواق الدهليز المظلم... لفته برودة الفجر المبكرة، فسرت فيه رعدة، أحسن بها تتغلغل في مسامه، ارتفع رأسه فعبّ الهواء بأنفه، إذ ذاك انفجرت أساريه، وترقرقت عيناه بسعادة مدوية وهما تتطلّعان إلى الشفق اللألاء، فيما وراء الأفق المتشح بحمرة بداية الفجر، وما يدري بعد ذلك إلا وأذناه تلتقطان ما يشبه الأصوات، فيلتفت غريباً ناحية النهر، تخرق عيناه غيبش الظلمة، مسدّتين نظرات ثاقبة فاحصة إلى الضفة الأخرى، رأى أشباحاً، لا تكاد تبين، تندف بأذرعها وأرجلها في الماء، رأى تلك الأشباح تعبر الضفة عدواً، ورأها تتفرق وتبعثر، ورأها أخيراً تتقافز على حواجز الحظائر المخصّصة للحيوانات، ماذا تريد؟ هل هم لصوص؟ وهل جاءوا ليسرقوا؟! لكم دهش بعد ذلك، لكم تمنى لو يتشظى إلى ذرات غير مرئية، لكم رغب أن يبتلعه جوف الأرض قبل أن يرى ما رأى، ويسمع ما سمع وهو يختلس النظر، من إحدى الفجوات، إلى داخل تلك الحظائر! من كان يصدّق أن أولئك النسوة اللاتي رآهن يرفلن في جمالهنّ، جلس الخيام، جامدات أو شبه جامدات، يتحصن بسواد الليل، يجازفن بعبور النهر، ليلقين بأجسادهنّ إلى شهوة الكلاب المسعورة، وجموح القردة، الأجساد الرخصة اللدنة، تتحرر من كلّ زينتها، تكشف عريها، تند عنها أهات شبيقة، يتلّثن، يعاطين حيواناتهنّ كأحسن ما يكون العطاء، فتقعي الكلاب بين منابع السرّ، تهرّ، يتضاعف هيجانها، كلّما مالت الخصور المغناج، وتذوب القردة لذّة، فتموت أولئك النسوة ألف مرة، يندمجن حدّ الهلاك بدءاً، ويبلغن

ذروة انسجامهنّ وعلى شفاههنّ ما يشبه الرّضى، فإذا ما انتهين رحلن
باكيات نادبات، إلى ما وراء الضّفة الأخرى، المقطوع به أنهنّ جائعات؛
فأين الرّجال؟ أين الرّجال؟!!

المعمّيات المفزعة تلاحقه كما لم تلاحقه فيما ولى من أمره وانقضى،
ما من هول استعظمه من قبل، وعجز تفكيره عن تصوّر هول أعظم
منه، إلّا ويتضاءل بالقياس إلى ما خبره على امتداد تلك الأيّام السّبعة،
ما من رهبة، ما من فزع ارتدّت عنه شجاعته، وكاد يشفي منه على
موت مبین، إلّا ويتبحّر كلّ ذلك كلا شيء إزاء ما يتوارد عليه يوما بعد
يوم، من أسرار، لا يجد إلى حلّ مغاليقها سبيلا، كأنّها قواقع منكمشة
على ألغازها الأبديّة، هل للضّيف مثله مطلق الحرّيّة في أن يفعل ما
يشاء؟ هل تخوّل له الأخبية كلّها، فتغدو طوع بنانه، بما حوت، من
جوار، وآلات طرب، وأسباب منادمة، اللّهم إلّا ما كان من أمر ذلك
الخباء الّذي أمرته الملكة بعدم الاقتراب منه. وهي تشدّد على نبراتهما،
وتشير إليه بسبّابتها محدّرة؟ في ذلك الوقت، لم يلق بالا إلى التّحذير،
بل أنّه قد نسيه، كأنّه لم ينتبه إليه، ما دام قد ظفر بما لم يظفر به
أحد من قبله. أخبية لا حصر لها على ذمّته، بما تحويه من متعة، خود
كأمثال الأقمّار، رياش وزراب، جوار وغلمان، لبذل الخدمة، فما شأنه
هو بذلك الخباء الممنوع منه، سيّما وأنّه لا يختلف عن باقي الأخبية،
بسيط، عاديّ، لا شيء يميّزه على الإطلاق، الآن، بدأ الشكّ يلحّ عليه،
وما لم يكن يعيره انتباها أصبح يحسب له ألف حساب، لماذا حدّرت؟
لماذا أصرت على ذلك الخباء دون غيره؟ الأمر ما، له علاقة بكلّ ما مرّ
به، من عجائب يشيب لهولها الولدان، أم لغاية في نفسها الأيّام كفيّلة
بأنّ تكشف عنها نقاب الغموض الكثيف؟ كلّ يوم، وعلى إثر انفضاض
المجلس اللّيليّ، ومغادرة الملكة، يقوده عبدان إلى الخباء الّذي سيبيت
فيه، إلى المكان الّذي سيقضي فيه ليلته، لا يضمّه سرير خباء واحد في

ليلتين متواليتين، كلّ ليلة في خباء، وقد كان ذلك حرّياً أن يثير شكوكه من جديد، أن يشعل نار خوفه، لكن وبمجرد أن يتحفّز للتّساؤل، حتّى تفتّت لذائذ اللّياالي المعتمة خلايا تفكيره، تستوعبه رحلة الضّيايع والتّلاشي وراء حدود اللاّوعي، قبل بداية السّهرة، كان يشدّ من عزمه، يصمّم على قهر ضعفه، يقول لنفسه اصمدي وحذاري أن تغفلي، غير أنّ ما كان يشيّد عالياً، في صمت، بقوة إرادته، كان سريعاً ما يتهاوى كليّاً مع أولى النّغمات المنبعثة من التّخت، ويتلاشى وسط أثريّة الغناء، ويندوب نهائياً إثر أوّل آهة يصعدها، وهو يعلو على أولى درجات لذّته، فوق السرّير؛ ما باله؟ أين صمود الأيّام الخوالي؟ من أين كلّ هذا الضّعف الذي يدبّ في أوصاله دبيب رفيف من التّمّل على عرق رملّي؟ ما يدري إلّا وهو يدبر، لحظة بلوغه قمة تصميمه على الرّسوخ، يتقهقر، وهو يضمّر الاندفاع إلى الأمام، يوطّن العزم على اتّخاذ القرار، فما يدري إلّا وهو يرتدّ إلى نقيضه، يسرّ الاعتراض، فيلغي نفسه يذعن، باذلاً آيات القبول، طالما راوده حلم الهروب، أن يفرّ بجلده، لا يهمّ إلى أين، بل الأهمّ أن يتوارى فلا يسعه إلّا أن يختلي بنفسه، فلا يرى أحداً، ولا يراه أحد، ويقدم، ولكن ما أن يخطو خطوة إلى الأمام، حتّى يرتدّ بعدها عشر خطوات إلى الخلف، فما باله؟ أتكون الملكة قد ملكت أمره؟ أتكون الملكة قد سحرته!!

فوجئ بصمت المجلس، في إحدى اللّياالي، أحسّ أنّه أخذ على حين غرة، أصوات الآلات التي كانت تصدح طيلة اللّياالي السّابقة انطفأت، واختفت أولئك الجوّاري الرّافلات في زيّ الغلمان، انقطعت أسباب الغناء، لم يكن يدري أنّ تلك اللّيلة ستشهد انقضاء مدّة ضيافته، كان في غفلة وأنّ له أن يستفيق، قال لنفسه، وقد أوجس خيفة، ماذا يختبئ وراء كثافة الصّمت؟ وهل تسأله الملكة عن شأنه؟ وهما سألته، أيكون عليه أن يجيبها بصدق، دون مراوغة، وقد أصبح يشكّ

في كلّ ما حوله؟ سرعان ما انقطع دفق مناجاته، هزّه صوتها الواثق، وهي تسأله معيدة إتياء إلى مرارة الواقع: «ما اسمك؟» امتزج السؤال في ذهنه بغموض، فتعطلت كلّ حواسّه، ترسّخ شعوره كلّ في إحساس داهم بالوحشة، وغزاه خوف جارف، بدا له الموقف حرجاً، سيّماً وأنّه لم يكن مهياً لتبادل الحديث، في جوّ من الرّيبة، وعدم الثّقة، ومع شخص يزداد إلغازاً بقدر ما يزداد منه قرباً، هل كان مصراً حقيقة على الصّمت، أم أنّ فزعه هو الّذي اضطرّه إليه؟ قالت له الملكة، أو هكذا خيل إليه أنّه سمعها تقول، إنّهُ غير مجبر على الكلام، بإمكانه اللّيّاذ بالصّمت إذا أراد، هي تقدّر مدى ما يمكن أن يعتمل داخله من خوف ورهبة، لذلك ستكتفي بمخاطبة إحدى شعيرات رأسه، أو مأت إلى أحد عبيدها، استوى وراءه حتّى داناه، خلع العمامة عنه، وبحدق وخفّة، جذب من رأسه شعرة، حملها إليها، دعتها بين سبّابة يمينها وإمهامها، أعادت دعتها مراراً، كأنّها تستنطقها، قالت باقتضاب: «أيتها الشعرة، هاتي ما لديك!» ارتاع، أصابه ذهول لذلك الصّوت الّذي سمعه يقول بثقة وثبات: «ماذا تريد مولاتي أن تعرف؟!» فمن أين نبع؟ هل تتكلّم الشعرة؟! أم أنّ في الأمر خدعة لا يعلمها؟!... قالت الملكة: «ماذا تعرفين عن ضيفنا؟ اسمه؟ نسبته؟ لماذا جاء؟ كيف وصل إلى هنا؟» قال الصّوت الّذي سمعه أنفاً: «أسماءه، يا مولاتي، عدّة: فمرة يدعى علاقة بن صابئ السكسكي، ومرة سالم فوزي أسعد عبد العظيم هنيدي، وثالثة غريب، ورابعة صادق شعبان! أمّا نسبته فمشكوك فيها، ينتمي ولا ينتمي، مقيم وغير مقيم، جوهره واحد وأمكنته شتّى، فهو كوفي تارة، ومنسوب إلى بلد على ضفّة البحر تارة أخرى، قد تكون فاس أو طنجة أو مراكش: إنّهُ، يا مولاتي، جاء ولم يعي، وصل ولم يصل، ملغز، غامض، كالماء، لا لون، لا طعم، لا مذاق!!»

قالت الملكة، وقد عرى صوتها تهدّج، ربّما جرّاء انفعال باطني، لا

يدرك مصدره:

وما كوفي؟!

قالت صاحبة السَّجَل، وهي تقلِّب صفحات سجلِّها، حتَّى توقفت عند صفحة بعينها: كوفي، أَيْتها الملكة، نسبة إلى مدينة الكوفة.

وقلِّبت عينها على الصَّفحة الَّتِي حدَّدتها، وهي تقول بتفاخروتعاضم: ذكرها صاحب التَّحفة في رحلته، وفيها يقول: «وهي إحدى أمَّهات البلاد العراقيَّة، المتميِّزة فيها بفضل المزيَّة، مثنوى الصَّحابة والتَّابعين، ومنزل العلماء والصَّالحين، وحضرة عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، إلَّا أنَّ الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان الَّتِي امتدَّت إليها، وفسادها من عرب خفَّاجة المجاورين لها، فإنَّهم يقطعون طريقها. ولا سور عليها، وبنائها بالأجر، وأسواقها حسان، وأكثر ما يباع فيها الثَّمَر والسَّمك. وجامعها الأعظم جامع كبير شريف، بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة، قد صنعت قطعاً ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرَّصاص، وهي مفرطة الطَّول.

وهذا المسجد آثار كريمة: فيها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال إنَّ الخليل صلوات الله عليه كان له مصبًى بذلك الموضع، وعلى مقربة منه محراب محلَّق عليه بأعواد السَّاج مرتفع، وهو محراب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهناك ضربه الشَّقِيّ ابن ملجم، والنَّاس يقصدون الصَّلَاة به.

وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلَّق عليه أيضاً بأعواد السَّاج، يذكر أنَّه الموضع الَّذِي فار منه التَّنُّور حين طوفان نوح عليه السَّلام. وفي ظهره خارج المسجد يزعمون أنَّه بيت نوح عليه

وإزاءه بيت يزعمون أنّه متعبّد إدريس عليه السَّلام. ويتّصل بذلك فضاء متّصل بالجدار القبليّ من المسجد يقال له أنّه موضع إناء سفينة نوح عليه السَّلام. وفي آخر هذا الفضاء دارعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الَّذي غسّل فيه. ويتّصل به بيت يقال أيضًا أنّه بيت نوح عليه السَّلام. والله أعلم بصحّة ذلك كلّه.

وفي الجهة الشَّرقيّة من الجامع بيت مرتفع يصعد إليه، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه. وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السَّلام.

وأما قصر الإمارة بالكوفة، الَّذي بناه سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، فلم يبق منه إلّا أساسه.

والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقيّ منها، وهو منتظم بحدائق النّخل الملتقّة المتّصل بعضها ببعض. ورأيت بغربيّ جبّانة الكوفة موضعا مسودّا شديد السّواد في بسيط أبيض. فأخبرت أنّه قبر الشَّقِيّ ابن ملجم، وأنّ أهل الكوفة يأتون في كلّ سنة بالحطب الكثير فيوقدون النّار على موضع قبره سبعة أيّام. وعلى قرب منه قبة أخبرت أنّها على قبر المختار بن أبي عبيد.

ثمّ دخلنا ونزلنا بئر ملاحه، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل. ونزلت بخارجها وكرهت دخولها، لأنّ أهلها روافض.»

قالت:

وورد ذكرها أيضا في الإقليم الثالث من مؤلف الإمام العالم زكريّا بن محمّد بن محمود القزويني «أثار البلاد وأخبار العباد»؛ «هي المدينة المشهورة التي مصّرها الإسلاميون بعد البصرة بسنتين، قال ابن الكلبي: اجتمع أهل الكوفة والبصرة وكلّ قوم يرجّح بلده فقال الحجّاج: يا أمير المؤمنين إنّ لي بالبلدين خيرا؛ قال: هات غير ممّهم! قال: أمّا الكوفة فبكر عاطل لا حلي فيها ولا زينة. وأمّا البصرة فعجوز شمطاء بخراء دفراء أوتيت من كلّ حلي وزينة! فاستحسن الحاضرون وصفه إياهما.

قال ابن عبّاس الهمداني: «الكوفة مثل اللّهاة من البدن يأتيها الماء بعدوبة وبرودة، والبصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغييره وفساده.

ولمسجدها فضائل كثيرة، منها ما روى حبة العرنّي قال: كنت جالسا عند عليّ فجاءه رجل وقال: هذا زادي وهذه راحلتي أريد زيارة بيت المقدس! فقال له: كل زادك وبع راحلتك وعليك بهذا المسجد، يريد مسجد الكوفة. ففي زاويته فارالتنور، وعند الإسطوانة الخامسة صلى إبراهيم، وفيه عصا موسى وشجرة اليقطين ومصلّى نوح، عليه السّلام. ووسطه على روضة من رياض الجنّة، وفيه ثلاث أعين من الجنّة. لو علم النّاس ما فيه من الفضائل لأتوه حبوا.

بها مسجد السّهلة؛ قال أبو حمزة الثّمالي: قال لي جعفر بن محمّد الصّادق: يا أبا حمزة، أتعرف مسجد السّهلة؟ قلت: عندنا مسجد يسمّى مسجد السّهلة. قال: لم أرد سواه! لو أنّ زيدا أتاه وصلى فيه واستجار فيه برّبّه من القتل لأجاره! إنّ فيه موضع البيت الذي كان يخطط فيه إدريس، عليه السّلام، ومنه رفع إلى السّماء، ومنه خرج إبراهيم إلى العمالقّة، وهو موضع مناخ الخضر، وما أتاه مغموم إلّا فرّج الله عنه. كان بها قصر اسمه طماريسكنه الولاة. أمر عبيد الله بن زياد بإلقاء

مسلم بن عقيل بن أبي طالب من أعلاه قبل مقتل الحسين، وكان بالكوفة رجل اسمه هاني يميل إلى الحسين، فجاء مسلم إليه فأرادوا إخراجهم من داره فقاتل حتى قتل، قال عبد الله بن الزبير الأسدي:

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظري
إلى هاني في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد عفر السيف وجهه
وأخريلقى من طمارقتيل

وكان في هذا القصر قبة ينزلها الأمراء، فدخل عبد الملك بن عمير على عبد الملك بن مروان وهو في هذه القبة على سرير، وعن يمينه ترس عليه رأس مصعب بن الزبير، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت في هذه القبة عجباً! فقال: ما ذاك؟ قال: رأيت عبيد الله بن زياد على هذا السرير، وعن يمينه ترس عليه رأس الحسين، ثم دخلت على المختار بن عبيد وهو على هذا السرير، وعن يمينه ترس عليه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت على مصعب بن الزبير وهو على هذا السرير، وعن يمينه ترس عليه رأس المختار، ثم دخلت عليك يا أمير المؤمنين وأنت على هذا السرير، وعن يمينك ترس عليه رأس مصعب! فوثب عبد الملك عن السرير. وأمر يهدم القبة.

زعموا أنه من أصدق ما يقوله الناس في أهل كل بلدة قولهم: الكوفة لا يوفي! ومما نقم على أهل الكوفة أنهم طعنوا الحسن بن عليّ ونهبوا عسكره. وخذلوا الحسين بعد أن استدعوه، وشكوا من سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقالوا: إنه ما يحسن الصلاة! فدعا عليهم سعد أن لا يرضيهم الله عن وال ولا يرضي واليا عنهم. ودعا عليّ عليهم وقال: اللهم أمرهم بالغلام الثقفي! يعني الحجاج.

وَادَّعَى النَّبُوءَةُ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. وَلَمَّا قَتَلَ مَصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ، أَرَادَتْ زَوْجَتُهُ سَكِينَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ الرَّجُوعَ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ وَقَالُوا: حَسَنَ اللَّهُ صَحَابَتَكَ يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَتْ: لَا جَزَاكَمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا وَلَا أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ الْخُلَافَةَ! قَتَلْتُمْ أَبِي وَجَدِّي وَعَمِّي وَأَخِي! أَيَتَمْتَمُونِي صَغِيرَةً وَأَرْمَلْتُمُونِي كَبِيرَةً!

تَظَلَّمَ أَهْلُ الْكُوفَةِ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنَ وَالِيهِمْ فَقَالَ: مَا عَلِمْتُ مِنْ عَمَّالِي أَعْدَلَ وَأَقْوَمَ بِأَمْرِ الرَّعِيَّةِ مِنْهُ! فَقَالَ أَحَدُهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ أَحَدٌ أَوْلَى بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ مِنْكَ! فَإِنْ كَانَ هُوَ هَذِهِ الصِّفَةِ فَعَلَى الْأَمِيرِ أَنْ يُوَلِّيَهُ بَلَدًا بَلَدًا لِيَلْحَقَ كُلُّ بَلَدَةٍ مِنْ عَدْلِهِ مَا لِحَقْنَاهُ، فَإِذَا فَعَلَ الْأَمِيرُ ذَلِكَ لَا يَصِيبُنَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِ سَنِينَ! فَضَحِكَ الْمَأْمُونُ وَأَمَرَ بِصَرْفِهِ.

يَنْسَبُ إِلَيْهَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ، كَانَ عَابِدًا زَاهِدًا خَائِفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَدَعَى أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى الْقَضَاءِ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَصْلَحُ لَذَلِكَ! فَقِيلَ: لِمَ؟ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ صَادِقًا فَلَا أَصْلَحُ لَهَا، وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَالْكَاذِبُ لَا يَصْلَحُ لِلْقَضَاءِ. وَأَرَادَ عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ أَبَا حَنِيفَةَ لِلْقَضَاءِ فَأَبَى، فَحَلَفَ لِيُضْرِبَنَّهُ بِالسَّيَاطِ عَلَى رَأْسِهِ وَلِيَحْبِسَنَّهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُ أَبِي حَنِيفَةَ وَرَأْسُهُ مِنَ الضَّرْبِ، فَقَالَ: الضَّرْبُ بِالسَّيَاطِ فِي الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ مَقَامِعِ الْحَدِيدِ فِي الْآخِرَةِ.

قال عبد الله بن المبارك:

لقد زان البلاد ومن عليها ... إمام المسلمين أبو حنيفة
بأثار رفقته في حديث ... كآيات الزبور على الصّحيفة
فما إن بالعراق له نظير ... ولا بالمشرقين ولا بكوفة

وحكي أنّ الرّبيع صاحب المنصور كان لا يرى أبا حنيفة، فقال له

يوما: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس، فإنَّ جدك يقول إذا حلف الرَّجل واستثنى بعد يوم أو يومين جاز، وأبو حنيفة يقول: لا يجوز! فقال أبو حنيفة: هذا الرَّبيع يقول ليس لك في رقاب جندك بيعة! قال: كيف؟ قال: يحلفون عندك ويرجعون إلى منازلهم يستثنون فتبطل اليمين! فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرَّض لأبي حنيفة. فلمَّا خرج من عند المنصور قال له الرَّبيع: أردت أن تشطَّ بدمي! قال: لا، ولكنك أردت أن تشطَّ بدمي فخلَّصتكم وخلَّصت نفسي! وحكى قاضي نهروان أنَّ رجلا استودع رجلا بالكوفة وديعة ومضى إلى الحجِّ. فلمَّا عاد طلبها، فانكر المودع وكان يجالس أبا حنيفة، فجاء المظلوم وشكا إلى أبي حنيفة فقال له: اذهب لا تعلم أحدا بجحوده! ثمَّ طلب الظَّالم وقال: إنَّ هؤلاء بعثوا إليَّ يطلبون رجلا للقضاء فهل تنشطُّ لها؟ فتمانع الرَّجل قليلا ثمَّ رغب فيها. فعند ذلك بعث أبو حنيفة إلى المظلوم وقال: مرَّ إليه وقل له: أظنَّك نسيت، أليس كان في يوم كذا وفي موضع كذا؟ فذهب المظلوم إليه وقال ذلك، فردَّها إليه. فجاء الظَّالم إلى أبي حنيفة يريد القضاء فقال: نظرت في قدرك أريد أن أدفعه بأجلٍ من هذا.

وذكر أنَّ أبا العباس الطَّوسيَّ كان سيِّء الرَّأي في أبي حنيفة، وأبو حنيفة يعلم ذلك. فرآه يوما عند المنصور فقال: اليوم أقتل أبا حنيفة! فقال له: يا أبا حنيفة، ما تقول في أنَّ أمير المؤمنين يدعو أحدا إلى قتل أحد، ولا ندري ما هو، أيسع لنا أن نضرب عنقه؟ قال أبو حنيفة: يا أبا العباس، الأمير يأمر بالحقِّ أو بالباطل؟ قال: بالحقِّ! قال: أنفذ الحقَّ حيث كان ولا يسأل عنه! ثمَّ قال لمن كان بجانبه: هذا أراد أن يوبقني فربطته! توفيَّ سنة خمسين ومائة عن اثنتين وسبعين.

ينسب إليها أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثَّوريَّ منسوب إلى ثور

أطل، كان من أكثر النَّاس علما وورعا. وكان إماما مجتهدا، وجنيد البغدادِي يفتي على مذهبه. كان يصاحب المهديَّ، فلَمَّا وَلَّى الخلافة انقطع عنه. فقال له المهديَّ: إن لم تصاحبني فتعظني! قال إن في القرآن سورة، أولها ويل للمطففين! والتطفيف لا يكون إلا شيئا نذرا فكيف من يأخذ أموالا كثيرة؟

وحكي أنَّ المنصور رآه في الطَّواف فضرب يده على عاتقه فقال: ما منعك أن تأتيَنا؟ قال: قوله تعالى: ولا تركنوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فتمسكم النَّار! فالتفت المنصور إلى أصحابه وقال: أَلقينا الحبَّ إلى العلماء فلَقَطُوا إلا ما كان من سفيان فَإِنَّهُ أَعْيَانَا! ثُمَّ قال له: سَلْنِي حاجتك يا أبا عبد الله! فقال: وتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: حاجتي أن لا ترسل إليَّ حتَّى آتيك، وأن لا تعطيني شيئا حتَّى أسألك.

وخرج ليلة أراد العبور على دجلة فوجد شطِّها قد التصقا، فقال: وعزَّتْكَ لا أعبر إلا في زورق! وكان في مرض موته يبكي كثيرا، فقال له: أراك كثير الذَّنوب! فرفع شيئا من الأرض وقال: ذنوبي أهون من هذا وإنَّما أخاف سلب الإيمان قبل أن أموت. وقال حمَّاد بن سلمة: لَمَّا حضر سفيان الوفاة كنت عنده، قلت: يا أبا عبد الله أبشرف قد نجوت ممَّا كنت تخاف، وإنَّكَ تقدم على ربِّ غفور! فقال: يا أبا سلمة، أترى يغفر الله لمثلي؟ قلت: إي والذي لا إله إلا هو! فكأنَّما سري عنه. توفي سنة إحدى وستين ومائة عن ستِّ وستين سنة بالبصرة.

وينسب إليها أبو أمية شريح بن الحارث القاضي، يضرب به المثل في العدل وتدقيق الأمور، بقي في قضاء الكوفة خمسا وسبعين سنة، استقضاه عمرو وعليّ، واستعفى من الحجَّاج فأعفاه، ذكر أنَّ امرأة خاصمت زوجها عنده وكانت تبكي بكاء شديدا فقال له الشَّعبي: أصلح

الله القاضي! أما ترى شدة بكائها؟ فقال: أما علمت أن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة؟ الحكم إنما يكون بالبينة لا بالبكاء. وشهد رجل عنده شهادة فقال: ممن الرجل؟ قال: من بني فلان. قال: أتعرف قائل هذا الشعر:

ماذا أوّل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد إيّاد

قال: لا! فقال: توقّف يا وكيل في شهادته فإنّ من كان في قومه رجل له هذه النّباهة وهو لا يعرفه أظنّه ضعيفا.

وكتب مسروق بن عبد الله إلى القاضي شريح، وقد دخل زياد بن أبيه في مرض موته ومنعوا النّاس عنه. وكتب إليه: أخبرنا عن حال الأمير فإنّ القلوب ببطء مرضه مجروحة، والصّدور لنا حزينة غير مشروحة! فأجابه القاضي: تركت الأمير وهو يأمر وينهى! فقال: أما تعلمون أنّ القاضي صاحب تعريض؟ يقول: تركته يأمر الوصيّة وينهى عن الجزع! وكان كما ظنّ. والقاضي شريح توفّي سنة اثنتين وثمانين عن مائة وعشرين سنة.

وينسب إليها أبو عبد الله سعيد بن جبير، كان النّاس إذا سألوا بالكوفة ابن عبّاس يقول: أتسألونني وفيكم سعيد بن جبير؟ وكان سعيد ممّن خرج على الحجاج وشهد دير الجماجم، فلمّا انهزم ابن الأشعث لحق سعيد بمكة، وبعد مدّة بعثه خالد بن عبد الله القسريّ، وكان واليا على مكة من قبل الوليد بن عبد الملك، إلى الحجاج تحت الاستظهار، وكان في طريقه يصوم نهارا ويقوم ليلا، فقال له الموكل به: إنّني لا أحبّ أن أحملك إلى من يقتلك، فاذهب أيّ طريق شئت! فقال له سعيد: إنّّه يبلغ الحجاج أنّك خلّيتني وأخاف أن يقتلك! فلمّا دخل على الحجاج قال له: من أنت؟ قال: سعيد بن جبير! قال: بل أنت شقيّ بن

كسير! قال: سمّني أمي! قال: شقيت! قال: الغيب يعلمه غيرك! فقال له الحجاج: لأبدّلنك من دنياك نارا تلظى! فقال سعيد: لو علمت أنّ ذاك إليك ما اتّخذت إليها غيرك! قال: ما تقول في الأمير؟ قال: إن كان محسنا فعند الله ثواب إحسانه، وإن كان مسينا فلن يعجز الله! قال: فما تقول في؟ قال: أنت أعلم بنفسك! فقال: تب في علمك! قال: أذمّ أسوءك ولا أسرك. قال: تب! قال: ظهر منك جور في حدّ الله وجراة على معاصيه بقتلك أولياء الله! قال: والله لأقطعنك قطعا قطعا ولأفرقنّ أعضائك عضوا عضوا! قال: فإذا تفسد عليّ دنياي وأفسد عليك آخرتك والقصاص أمامك! قال: الويل لك من الله! قال: الويل لمن زحزح عن الجنّة وأدخل النّار! فقال: اذهبوا به واضربوا عنقه. فقال سعيد: إنّي أشهدك أنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله، لتستحفظه حتّى ألقاك بها يوم القيامة! فذهبوا به فتبسّم، فقال الحجاج: لم تبسّمت؟ فقال: لجرائك على الله تعالى! فقال الحجاج: أضجعوه للذّبح! فأضجع. فقال: وجّهت وجهي للذي فطر السّموات والأرض. فقال الحجاج: اقلبوا ظهره إلى القبلة. قال سعيد: فأينما تولّوا فثمّ وجه الله! قال: كبّوه على وجهه. فقال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى! فذبح من قفاه، فبلغ ذلك الحسن البصريّ فقال: اللهمّ يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج.

وعن خالد بن خليفة عن أبيه قال: شهدت مقتل سعيد بن جبير، فلمّا بان رأسه قال: لا إله إلاّ الله مرتين والثّالثة لم يتمّها. وعاش الحجاج بعده خمسة عشر يوما، وقع الدّود في بطنه، وكان يقول: ما لي وسعيد بن جبير؟ كلّما أردت النّوم أخذ برجلي! وتوفيّ سعيد سنة خمس وتسعين عن سبع وخمسين سنة.

وينسب إليها أبو الطيّب أحمد المتنبي. كان نادر الدّهر شاعرا مقلّقا

فصيحاً بليغاً، أشعاره تشتمل على الحكم والأمثال، قال ابن جني:
سمعت أبا الطيّب يقول: إنّما لقّبت بالمتنبّي لقولي:
ما مقامي بأرض نخلة إلّا ... كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة، تداركها اللّٰه ... هـ، غريب كصالح في ثمود

وكان لا يمدح إلّا الملوك العظماء، وإذا سمع قصيدة حفظها بمرّة
واحدة، وابنه يحفظها بمرّتين، وغلامه يحفظها بثلاث مرّات، فربّما قرأ
أحد على ممدوح قصيدة بحضوره فيقول: هذا الشّعري! ويعيدها ثمّ
يقول: وابني أيضاً يحفظها، ثمّ يقول: وغلامي أيضاً يحفظها.

اتّصل بسيف الدّولة وقرأ عليه:
أجاب دمعي وما الدّاعي سوى طلل

فلمّا انتهى إلى قوله:
أقلّ أنلّ اقطع احمل سلّ علّ أعد ... زد هشّ بشّ تفضّل ادن سرّصل
أمر سيف الدّولة أن يفعل جميع هذه الأوامر الّتي ذكرها فيقول
المتنبّي:
أمر إلى إقطاعه في ثيابه ... على طرفه من داره بحسامه

حكى ابن جنيّ عن أبي علي النّسويّ قال: خرجت من حلب فإذا أنا
بفارس متلثّم قد أهوى نحوى برمّح طويل سدّده في صدري، فكدت أرمي
نفسي من الدّابة، فثنى السّنّان وحسر لثامه فإذا المتنبّي يقول:
نثرت رؤوساً بالأحيدب منهم ... كما نثرت فوق العروس دراهم

ثمّ قال: كيف ترى هذا البيت أحسن هو؟ قلت: ويحك قتلتني! قال

ابن جنيّ: حكيت هذا بمدينة السّلام لأبي الطيّب فضحك.
وحكى الثّعالبي أنّ المتنبي لما قدم بغداد ترفع عن مدح الوزير المهلبيّ،
ذهاباً بنفسه إلى أنّه لا يمدح غير الملوك، فشقّ ذلك على الوزير فأغرى
به شعراء بغداد في هجوه، ومنهم ابن سكرّة الهاشميّ والحاتميّ وابن
لنكك، فلم يجبهم بشيء وقال: إنّني قد فرغت عن جوابهم بقولي لمن هو
أرفع طبقة منهم في الشّعـر:

أفي كلّ يوم تحت ضبني شويـعـر ... ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل ... وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعـب من ناداك من لا يجيبه ... وأغيـظ من عاداك من لا تشاـكل
وما التّيه طيّي فهم غير أنـني ... بغـيـض إلـيّ الجاهـل المتعاـقل

وفارق بغداد قاصدا عضد الدّولة بفارس ومدحه بقصائده
المذكورة في ديوانه، وربحت تجارته عند عضد الدّولة، وبقي عنده مدّة،
ووصل إليه من مبرّاته أكثر من مائتي ألف درهم، فاستأذن في المسير
ليقضي حوائجه فأذن له وأمر له بالخلع والصلّات، فقرأ عليه قصيدته
الكافية وكأنّه نعى فيها نفسه ويقول:

ولو أنّي استطعت حفظت طرفي ... ولم أبصر به حتّى أراكـا
وفي الأحباب مختصّ بوجد ... وأخريدعي معه اشتراكـا
إذا اجتمع الدّموع على خـدود تبين من بكى ممّن تباكـا
وأنت شئت يا طريقي فكونـني ... أذاة أو نـجاة أو هلاكـا

وهذه الأبيات ممّا تطيّرها، وجعل قافية آخر شعره هلاكا فهلك.
ولمّا ارتحل من شیراز بحسن حال ووفور مال، فلمّا فارق أعمال فارس
حسب أنّ السّلامة تستمرّ كما كانت في أعمال عضد الدّولة، فخرج
عليه سرّية من الأعراب فحاربهم حتّى انكشفت الوقعة عن قتله، وقتل

ابنه محسد، ونفر من غلمانه في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.»

امتدَّ الصَّمت وطال حتَّى شَفَّ، الظُّلَّة تكاثفت حول عينيه رغم الأنوار المتألُّثة، الَّتِي تسيل على المكان، من شموع مثبته بعناية في الزُّوايا، متجمِّداً كان، متسَمِّراً، كالتمثال، تتخايل أمامه أطياف جلاسه كأنها أشباح آتية من أزمنة غابرة، الأصوات تنهاى إلى أذنيه شحيحة، ضعيفة، ربَّما إحساسه بخطر متمخِّض ما يشغله، شعوره بأنَّ نظرة غير متأنية من عينيه التَّاهتتين، قد تفضح شكَّه، فتكشف أمره، الصَّمت كالمطارق، كرقائق من رصاص محمَّى تنهال على رأسه دون هوادة؛ أين المفر؟! اجتاحت رغبة أن يرفع يديه، أن يضغط براحتيه رأسه، فيوقف سيل المخاوف، المهدد بفيضان وشيك، بيد أن إدراكه بأنَّه مراقب، بأنَّ كلَّ حركة يأتيها لا يمكن أن تمرّدون أن تضاعف وعيه بوشوك النهاية المحتملة، جعله يفكر ملياً قبل أن يقدم، جعله يحجم! حين التفت فجاءة. زائغ النَّظرات. إلى حيث مجلس الملكة، خيَل إليه أنَّها كانت تومئ برأسها، وتشير بيديها، كأنَّها تتكلَّم إلى شخص ما، كأنَّها تخاطب ظالماً، لكن من يكون هذا الشَّخص إذا لم يكن هو نفسه؟ ظلَّ من هو ذلك الظلُّ إذا لم يكن ظلُّه؟ وأصغى لأوَّل مرَّة بانتباه، جمع أشتاته المبعثرة، لئلاَّ يَتَّهم فيما لو ضبط، متلبساً بجرمه الَّذي يجلَّ عن كلِّ مغفرة، وأليس ترك الملكة الجليلة، تخاطب نفسها خطيئة، لا يغسلها إلَّا الدَّم؟! قالت إنَّ التَّفاصيل لا تهمُّها، لا تعنيها، بقدر ما تهتمُّ لشخصه، لهذا المزيج الَّذي يكتنف مداره، فرادته، غموض انتمائته، كلَّ ذلك شدَّها إليه، سيَّان أن يكون آتيا من جميع الأمكنة، أو من اللامكان، أن تكون الكوفة موطنه، أو جزر واق الواق، أن يكون اسمه سالماً أو علاقة، المهمَّ أنَّه أصبح لها وحدها، قالت إنَّها لم تن تتوقَّع حلوله، إحساسها لم يكذبها أبداً، شخص بنفس صفته الَّتِي أخبرت عنها، كما تراه الآن، فيزايِّلها برؤيته شعور التَّوقُّع الَّذي طالما لازمها، إنَّه قطعاً هو! لا، لا يمكن إلَّا أن يكون هو! خضَّه يقينها، ثبات نبراتها، واتته

الشَّجَاعَة بَغْتَة، بعد أن كان قد أيس ولو من استرجاع جزء ضئيل منها، سأل، بدا صوته متحشرجا، مشروخا: «من... من المبلغ عني؟» أجابت، باقتضاب، تسبقها ضحكة غريبة، محايدة، تشي بالشيء ونقيضه في نفس الوقت: «ومن غيره؟! إنه الهدهد!!» ثم مضيفة، وما تزال الضحكة تملأ فمها: «الهدهد بقية نبي الله سليمان، ورثته عنه، فأنا إحدى صرائحه التي لم يبق غيرها!!» للتوّ، عبرت ذهنه سحائب الذكري، لكن في تشابك واختلاط، صور لأشياء قديمة قرأ عنها، تتوارد عليه، حكايات الزمن الدابر، طغى على سطح رأسه الماضي العتيد بأنبياؤه وأوليائه، بأسمائه الكبيرة والصغيرة، بطوره ووحوشه، فتمثلت لعينه صورة النبي الجبار الذي لم يفلح أبدا في رسم بعض ملامحه رغم استحضاره لأطراف الأعياب الخيال البشري، وتخيل الهدهد قريبا حتى ليكاد يلمس جناحيه بأطراف أنامله، وتساءل: «آية امرأة تكون تلك التي تحوز إعجاب الأنبياء؟!»

بلقيس...

«... وهي فيما يقول أهل الأنساب . يلمقة ابنة اليشرج . ويقول بعضهم: ابنة أيلي شرح، ويقول بعضهم: ابنة ذي شرح . بن ذي جدن بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.» وقد راسلها، «وكان سبب مراسلته إياها . فيما ذكر . أنه فقد الهدهد يوما في مسير كان يسيره، واحتاج إلى الماء فلم يعلم من حضره بعده، وقيل له علم ذلك عند الهدهد، فسأل عن الهدهد فلم يجده . وقال بعضهم: بل إنما سأل سليمان عن الهدهد لإخلاله بالنوبة .

فكان من حديثه وحديث مسيره ذلك وحديث بلقيس، ما حدثني العباس ابن الوليد الأملي، قال: حدثنا علي بن عاصم، قال: حدثنا

عطاء بن السائب، قال: حدّثني مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: كان سليمان بن داود إذا سافر أو أراد سفرا قعد على سريره، ووضعت الكراسي يمينا وشمالا، فيأذن للإنس، ثم يأذن للجنّ عليه بعد الإنس، فيكونون خلف الإنس، ثم يأذن للشياطين بعد الجنّ فيكونون خلف الجنّ، ثم يرسل إلى الطير فتظلمهم من فوقهم، ثم يرسل إلى الريح فتحملهم وهو على سريره، والناس على الكراسي فتسير بهم، غدوها شهر ورواحها شهر، رضاء حيث أصاب، ليس بالعاصف ولا اللين، وسطا بين ذلك. فبينما سليمان يسير. وكان سليمان اختار من كلّ طير طيرا؛ فجعله رأس تلك الطير، فإذا أراد أن يسأل شيئا من تلك الطير عن شيء سأل رأسها. فبينما سليمان يسير إذ نزل مظلة فسأل عن بعد الماء هاهنا، فقال الإنس: لا ندري، فسأل الجنّ فقالوا: لا ندري، فسأل الشياطين، فقالوا: لا ندري، فغضب سليمان، فقال: لا أبرح حتى أعلم كم بعد مسافة الماء هاهنا! قال: فقالت له الشياطين: يا رسول الله لا تغضب. فإن يك شيئا يعلم فالهدهد يعلمه، فقال سليمان: عليّ بالهدهد، فلم يوجد، فغضب سليمان فقال: (ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذّبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو ليأتيّ بسلطان مبين). يقول: بعذر مبين / لم / غاب عن مسيري هذا؟ وكان عقابه للطير أن ينتف ريشه ويشمسّه فلا يستطيع أن يطير، ويكون من هوامّ الأرض، إن أراد ذلك، أو يذبحه، فكان ذلك عذابه.

قال: ومّر الهدهد على قصر بلقيس، فرأى بستانا لها خلف قصرها، فمال إلى الخضرة فوق عليها، فإذا هو بهدهد لها في البستان، فقال هدهد سليمان: أين أنت عن سليمان؟ وما تصنع هاهنا؟ قال له هدهد بلقيس: ومن سليمان؟ فقال: بعث الله رجلا يقال له سليمان رسولا، وسخّر له الريح والجنّ والإنس والطير. قال: فقال له هدهد بلقيس: أيّ شيء تقول! قال: أقول لك ما تسمع، قال: إنّ هذا لعجب، وأعجب

من ذاك أنّ كثرة هؤلاء القوم تملكهم امرأة، (أوتيت من كلّ شيء ولها عرش عظيم)، جعلوا الشكر لله أن يسجدوا للشمس من دون الله. قال: وذكر الهدهد سليمان فهمض عنه، فلما انتهى إلى العسكر تلقته الطير وقالوا: توعّدك رسول الله، فأخبروه بما قال. قال: وكان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه فلا يطير أبدا، فيصير من هوام الأرض، أو يذبحه فلا يكون له نسل أبدا. قال: فقال الهدهد: أو ما استثنى رسول الله؟ قالوا: بل قال: أو ليأتيّ بعد زمبين، قال: فلما أتى سليمان، قال: ما غيبك عن مسيري؟ قال: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين) حتّى بلغ (فانظر ماذا يرجعون) قال: فاعتلّ له بشيء، وأخبره عن بلقيس وقومها ما أخبره الهدهد، فقال له سليمان: قد اعتلتت، (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) قال: فوافقها وهي في قصرها، فألقى إليها الكتاب فسقط في حجرها أنّه كتاب كريم، وأشفقت منه فأخذته وألقت عليه ثيابها، وأمرت بسريرها فأخرج، فخرجت فقعدت عليه، ونادت في قومها، فقالت لهم: (يا أيّها الملأ إني ألقى إليّ كتاب كريم. وإنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا عليّ واتوني مسلمين) ولم أكن لأقطع أمرا حتّى تشهدون، (قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين)، إلى (وإني مرسله إليهم بهديّة)، فإن قبلها فهذا ملك من ملوك الدنيا وأنا أعزّمه وأقوى، وإن لم يقبلها فهذا شيء من الله.

فلما جاء سليمان الهدية قال لهم سليمان: (أتمدّون بمال فما أتاني الله خير ممّا أتاكم) إلى قوله: (وهم صاغرون)، يقول: وهم غير محمودين. قال: بعثت إليه بخرزة غير مثقوبة، فقالت: اثقب هذه، قال: فسأل سليمان الإنس فلم يكن عندهم علم ذاك، ثمّ سأل الجنّ فلم يكن عندهم علم ذاك، قال: فسأل الشياطين، فقالوا: ترسل إلى الأرضة، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها فثقبتها بعد

حين، فلما رجع إليها رسولها خرجت فرعة في أول النهار من قومها وتبعها قومها. قال ابن عباس: وكان معها ألف قيل.

قال ابن عباس: أهل اليمن يسمّون القائد قبلا، مع كل قيل عشرة آلاف. قال العباس: قال عليّ: عشرة آلاف ألف.

قال العباس: قال عليّ: فأخبرنا حصين بن عبد الرّحمان، قال: حدّثني عبد الله بن شدّاد بن الهار، قال: فأقبلت بلقيس إلى سليمان ومعها ثلثمائة قيل واثنا عشر قبلا، مع كل قيل عشرة آلاف.

قال عطاء عن مجاهد، عن ابن عباس: وكان سليمان رجلا مهيّبا لا يبتدأ بشيء حتّى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يومئذ فجلس على سريره، فرأى رهجا قريبا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس يا رسول الله، قال: وقد نزلت منّا بهذا المكان! قال مجاهد: فوصف لنا ذلك ابن عباس فحزرتة ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ: قال: فأقبل على جنوده فقال: (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) الذي أنت فيه إلى الحين الذي تقوم إلى غدائك. قال: قال سليمان: من يأتيني به قبل ذلك؟ (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يمتدّ إليك طرفك)، فنظر إليه سليمان، فلما قطع كلامه ردّ سليمان بصره على العرش، فرأى سريرها قد خرج ونبع من تحت كرسيّه، (فلما رآه مستقرّا عنده قال هذا من فضل ربّي ليلبوني أشكر) إذ أتاني به قبل أن يرتدّ إليّ طرفي (أم أكفر) إذ جعل من تحت يدي أقدر على المجيء به منّي. قال: فوضعوا لها عرشها، قال: فلما جاءت قعدت إلى سليمان، قيل لها: (أهكذا عرشك)؟ فنظرت إليه فقالت: (كأنّه هو)! ثمّ قالت: لقد تركته في حصوني، وتركت الجنود محيطة به، فكيف جيء بهذا يا سليمان!

إني أريد أن أسألك عن شيء فأخبرنيه، قال: سلي، قالت: أخبرني عن ماء رواء، لا من سماء ولا من أرض، قال: وكان إذا جاء سليمان شيء لا يعلمه بدأ فسأل الإنس عنه، فإن كان عند الإنس فيه علم وإلا سأل الجن، فإن لم يكن عند الجنّ علم به سأل الشياطين، قال: فقالت له الشياطين: ما أهون هذا يا رسول الله! مر الخيل فلتجرثم تملأ الأنية من عرقها، فقال لها سليمان: عرق الخيل، قالت: صدقت، قالت: أخبرني عن لون الربّ، قال: قال ابن عباس: فوثب سليمان عن سريره فخرّ ساجدا، قال العباس: قال عليّ: فأخبرني عمرو بن عبيد، عن الحسن، قال: صعق فغشي عليه، فخرّ عن سريره.

ثمّ رجع إلى حديثه قال: فقامت عنه، وتفرقت عنه جنوده، وجاءه الرسول فقال: يا سليمان، يقول لك ربك: ما شأنك؟ قال: سألتني عن أمري كابرنى، أويكابدني، أن أعيده، قال: فإنّ الله تعالى يأمرك أن تعود إلى سريرك فتقعد عليه، وترسل إليه وإلى من حضرها من جنودها، وترسل إلى جميع جنودك الذين حضروا فيدخلوا عليك فتسألها وتسألهم عمّا سألتك عنه، قال: ففعل، فلمّا دخلوا عليه جميعا، قال لها: عمّ سألتني؟ قالت: سألتك عن ماء رواء، لا من سماء ولا من أرض، قال: قلت لك: عرق الخيل، قالت: صدقت، قال: وعن أيّ شيء سألتني؟ قالت: ما سألتك عن شيء غير هذا، قال لها سليمان، فلاي شيء خررت عن سريرى؟ قالت: قد كان ذاك الشّيء لا أدري ما هو، قال العباس: قال عليّ: نسيت، قال: فسأل جنودها فقالوا مثل ما قالت، قال: فسأل جنوده من الإنس والجنّ والطير وكلّ شيء كان حضره من جنوده، فقالوا: ما سألتك يا رسول الله إلا عن ماء رواء، قال: وقد كان قد قال له الرسول: يقول الله لك: عد إلى مكانك فإنّي قد كفيتكم، قال: وقال سليمان للشياطين: ابنوا لي صرحا تدخل عليّ فيه بلقيس، قال: فرجع الشياطين بعضهم إلى بعض، فقالوا: سليمان رسول الله قد سخر الله

له ما سَخَّر، وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد له غلاما، فلا ننفك من العبودية أبدا.

قال: وكانت امرأة شعراء السّاقين، فقالت الشّياطين: ابنوا له بنيانا ليرى ذلك منها، فلا يتزوّجها، فبنوا له صرحا من قوارير أخضر، وجعلوا له طوابيق من قوارير كآته الماء، وجعلوا في باطن الطّوابيق كلّ شيء يكون من الدّوّاب في البحر من السمك وغيره، ثمّ أطبقوه، ثمّ قالوا لسليمان: ادخل الصّرح، قال: فألقي لسليمان كرسيّ في أقصى الصّرح، فلمّا دخله ورأى ما رأى أتى الكرسيّ فقعده عليه، ثمّ قال: أدخلوا عليّ بلقيس، فقبل لها: ادخلي الصّرح، فلمّا ذهبت تدخله رأّت صورة السمك وما يكون في الماء من الدّوّاب، فحسبته لجة (حسبته ماء) وكشفت عن ساقها لتدخل، وكان شعر ساقها ملتويا على ساقها، فلمّا رآها سليمان، ناداها. وحرف بصره عنها: إنّهُ صرح ممرّد من قوارير، فألقت ثوبها فقالت: (ربّ إنّني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين) قال: فدعا سليمان الإنس فقال: ما أقبح هذا! ما يذهب هذا؟ قالوا: يا رسول الله موسى. قال: المواسي تقطع ساق المرأة. قال: ثمّ دعا الجنّ فسألهم فقالوا: لا ندري، ثمّ دعا الشّياطين فقال: ما يذهب هذا؟ قالوا مثل ذلك: موسى، فقال: المواسي تقطع ساق المرأة. قال: فتلكئوا عليه، ثمّ جعلوا له النّورة. قال ابن عبّاس: فإنّهُ لأوّل يوم رثيت فيه النّورة. فاستنكحها سليمان.

حدّثنا ابن حميد: قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبّه، قال: لما رجعت الرّسل إلى بلقيس بما قال سليمان، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكائرتة شيئا، وبعثت إليه أنّي قادمة عليك بملوك قومي حتّى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك. ثمّ أمرت بسرير ملكها الذي

كانت تجلس عليه. وكان من ذهب مفصّص بالياقوت والزّبرجد واللؤلؤ. فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض، ثمّ أقفلت على الأبواب، وكانت إنّما تخدمها النّساء، معها ستمائة امرأة تخدمها. ثمّ قالت لمن خلّفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد ولا يرينّه حتّى أتيك. ثمّ شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل معها من ملوك اليمن، تحت يد كلّ قيل منهم ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجنّ فيأتونه بمسيرها ومنتهاها كلّ يوم وليلة، حتّى إذا دنت جمع من عنده من الجنّ والإنس ممّن تحت يديه، فقال: (يا أيّها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين). قال: وأسلمت فحسن إسلامها. قال: فزعم أنّ سليمان قال لها حين أسلمت وفرغ من أمرها: اختاري رجلا من قومك أزوّجكه، قالت: ومثلي يا نبيّ الله ينكح الرّجال، وقد كان لي في قومي من الملك والسّلطان ما كان لي! قال: نعم، إنّه لا يكون في الإسلام إلّا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرّمي ما أحلّ الله، فقالت: زوّجني إن كان لا بدّ ذا تبّع ملك همدان، فزوّجه إيّاها، ثمّ ردها إلى اليمن، وسلّط زوجها ذا تبّع على اليمن، ودعا زوبعة أمير جنّ اليمن فقال: اعمل لذي تبّع ما استعملك لقومه. قال: فصنع لذي تبّع الصّنائع باليمن، ثمّ لم يزل بها ملكا يعمل له فيها ما أراد؛ حتّى مات سليمان بن داود عليه السّلام.

فلما حال الحول وتبيّنت الجنّ موت سليمان أقبل رجل منهم، فسلك تهامة حتّى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجنّ، إنّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم. قال: فعمدت الشّياطين إلى حجرين عظيمين، فكتبوا فيهما كتابا بالمسند: نحن بنينا سلحين، سبعة وسبعين خريفا دائبين، وبنينا صرّاح ومراح وبينون برحاضة أيدين، وهندة وهنيدة، وسبعة أمجلة بقاعة، وتلثوم بريدة، ولولا صارخ بتهامة، لتركنا بالبون إمارة.

قال: وسلحين [وصرّاح] ومراح وبينون وهندة وهنيدة وتلثوم

حصون كانت باليمن. عملتها الشياطين لذي تبّع، ثم رفعوا أيدهم، ثم انطلقوا، وانقضى ملك ذي تبّع وملك بلقيس مع ملك سليمان بن داود عليهما السلام.»

لو يندلق جوف الصّمت بما يتمخّض فيه من النّوايا، لو ينطق هذا السّكون المطبق بالخواطر المسترسلة في الضّمائر، لوعى حقيقة أمره، لأدرك أنّ حدّ الرّحيل ينتهي هنا، أجل هنا في هذه القلعة، عليه أن يسكت مخاوفه القديمة، التّفكير كثيرا في أشياء لا طائل من ورائها لا يجدي، عليه أن يضرب صفحا عن هواجسه الجديدة فيما لوراودته.

في نظرتها، وهو يتملّأها. لمس حنيننا طاغيا، قرأ شيئا يشبه الشهوة، وليس شهوة كلّها، شيئا تتداخل فيه أحاسيس يكتنف ثناياها الإعجام، فما يعدو الصّواب فيما إذا لو فسّرها على هواه، الحقّ أنّها لم تتركه لعذابه طويلا، ربّما أشفقت عليه من الانتظار، بحيث عنّ لها أن تريحه من ناحية، ومن ناحية أخرى تعجّلت أن تضع الأمور في نصابها، قالت إنّهُ يمكنه البقاء ما طاب له البقاء، وضحكت (ضحكتها أزعجته، فقد خيل إليه، من خلال النّبرة الصّارمة رغم عذوبتها، أنّها أرادت أن تقول: «إنّهُ عليه البقاء، يتحتّم عليه المكوث، ما طاب لها هي ذلك!«)، وصدق حدسه بأسرع ممّا كان يتصوّر، إذ قالت إنّهُ ما خاب أبدا من اختار القلعة موطنًا، إذا حصل يكون واحدا من الرّعية، له ما لها وعليه ما عليها، كانت تشدّد على الأحرف الأخيرة، لم يكن حديثها عطلا من معنى مقصود أو قصد مؤدّى، كأنّها ترمي إلى أنّه ليس أيّ أحد، لن يكون حرّا إذا حبّد المغادرة، هنا وطنه، هنا بلده، ستمارس سلطتها المطلقة إذا لزم الأمر، إذا أصرّ ربّما دفعها إلى التّكشير عن نيّتها، بكلّ بساطة ستخبره بإدلال أنّه صار من جملة ممتلكاتها، إذا لم يبد اعتراضا، إذا جاراها، سيصبح هو أوّلا بلا ثان، وحيدا بلا منازع،

سيصير التّاج والمملكة طوع يديه، قالت لا داعي إلى إقلاق نفسه، فقد صدرت المراسيم تباعا، هذه تخوّله حقّا مطلقا، للقادم الجديد تسند كلّ مناصب التّكليف والتّشريف، ومن الآن فصاعدا هو أمين المخادع الملكية، وهو أمير الحرس الملكي، وهو قاضي قضاة المملكة، وهو السّلطان بالفعل والنّيابة، إذا قال كان قوله أمرا، إذا أرسل النّكات اعتبرت حكما حقّ الاقتداء بها، وتوارثتها الأجيال القادمة، إذا أطرق مفكرا، ساد الصّمت احتراما للحظة شروده، إذا جلس جلس الجميع، إذا وقف وقفوا، إذا حزن على الجميع أن يبدووا حزنهم... وهو قائد الجيوش، وهو القائم بأمر الحداثق والحظائر، وهو المشرف على ديوان الرّسائل وسلامة الحمام الرّاجل، وهو محصّل الخراج والجزية وباقي الضّرائب، وهو أمين السّرّ الملكي، وتقول المراسيم إنّه يتوقّع أن يستدعى في أيّة لحظة لمنادمة الملكة، والقيام بدور حاجب المخدع الخصوصي!! ذكر حكاية مشابهة قديمة، فحامت حول شفّتيه شبه ابتسامة زاوية حزينة، لعلّ صورة ذلك الحدّاد الّذي صار ملكا تستنسخ فيه، هو أيضا كان. طيلة حياته الماضية. شيئا لا يذكر، فغدا بين عشية وضحاها كلّ شيء!!... كان حدّادا رقيق الحال، معسرا، مهدّما، لحية كثة، ثياب رثّة، خلاصة ما يملكه دكان ورثه، مشرع على البرد والمطر شتاء، والحرارة الخانقة صيفا، بلا باب يخفيه، ولا شباك يحميه، وذات يوم حطّت على إفريز النّافذة حمامة بيضاء، جميلة، ذات نظرة أسرة، في البداية لم يلق إليها بالا، اعتبرها طارنا غريبا. مثله. جاء يشاركه همومه، ويقاسمه أحزانه، وحطّت على الإفريز في اليوم الثّاني أيضا، فبدأ يرقّ، نثر قمحا أمامها، لم يقترب منها، في اليوم الثّالث قرّر الإمساك بها، وما كاد يقبض على رجلها حتّى طارت به، لم تحاول الهرب، بدت وكأنّها تنتظر أن يمسك بها منذ اليوم الأوّل، حلّقت به عاليا في الفضاء، جازت أفقا وصحارى، بحورا وبرورا، وقرب قلعة كبيرة قريبة أنزلته وعادت الطّيّران، وجد في استقباله خلقا كثيرا، أعدادا كبيرة بلا حصر، تقدّم منه شيخ كبير ذو

لحية كثة بيضاء، تسير وراءه جارية لم ير أجمل ولا أرق، تحمل طبقا عليه تاج من الذهب الخالص، خافضة الرأس، تضع ملامحها بخجل أنثوي موغل في الحياء، حينما صار الشيخ منه على بعد خطوات انحني حتى كاد رأسه المعمم يبلغ ركبتيه، اكتفت الجارية بإتيان حركة خفيفة من رأسها، خاطبه الشيخ قائلا بفخامة زائها وقارا إمعانه في المشيب:

.السلام على مولانا الملك ورحمة الله وبركاته.

لم يدع له مجالا للحيرة، لم يمهل حتى يجيب، وإنما أوما إلى جارتين في الخلف، فجاءتا خفيفتين مسرعتين، وخلعتا عنه ملابس الحدادة السوداء، وألبستاه حلّة الملك، وتقدّمت الجارية الأولى بالطبق، فوشّحت رأسه بالتاج الذهبي، انثالت على يده تقبلها، لحظتئذ، سمع أصواتا تهتف في تجاوب:

.يعيش مولانا الملك... يعيش مولانا الملك.

في شبه خلوة أعلمه الشيخ ذو اللحية الكثة أنه غدا الملك الجديد، بهذا تقضي التقاليد المتوارثة، منذ بضع مئات من السنين، إذا مات الملك السابق، خرجت الرعية بأكملها إلى الطريق، أول قادم، من أية جهة بدا، يلبس الحلّة، ويوشّح بالتاج، لا أحد يعترض على ذلك، المارقون يسجنون، له الحق أن يحكم عليهم بما يشاء، إذا شاء نفاهم، إذا بدا له قتلهم أو عذبهم، أسرّ له الشيخ في أذنه، رجاه أن يتقيّد بالشروط الوحيد الذي لا تضعه العادات المرعية في حلّ منه، أن يتزوّج الملكة، امرأة الملك السابق، لا يجوز له أن ينكح غيرها، لا يحقّ له أن يتخذ عليها الضرائر أو السراري، أيّ إخلال يترتب عليه ذهاب النعمة، زوال الحال... أرقه الأمر ثلاثا، وهي المدّة اللازمة لجلوة الملكة، قال، بينه وبين نفسه، ماذا لو كانت المرأة التي سيقترن بها قبيحة؟! ألن يكون

ظلما أن يجبر على الزّواج بمن لا يحبّ؟ لكن، لا، قال، هو الملك، له مطلق الإرادة، يتزوّج متى شاء، ويطلق متى شاء، أليس الملك بزوجاته وسراريه، وهو ملك؟ امرأة واحدة، لا تكفيه، عامّة الناس يتزوّجون مرّة، واثنين، وثلاثا، فما البال وهو الأوّل بلا منازع؟! هداً حاله حينما جليت عليه، كاد يطير صوابه، أسره القوام، العينان المكحولتان، الشّعر الأسود كالليل الجاثم في حلقة، نازعته اللّذة فأقدم... لكن هل يشبع من في قصره الخود والجواري من كلّ الأجناس؟ هل يطيق صبرا من كانت كلّ النّساء طوع بنانه؟ بدأ يحنّ، دون أن يغفل عنه تحذير الشّيخ في البداية، كان يكتفي بنظرة عابرة، لمسة، غمزة، أو خلوة بريئة، ثمّ قهر الضّعف داخله، أخذ يعتلي بهمة كلّما وجد غفلة من العيون، حتّى ذاع أمره، انتشرت الشّائعات عن خيانتة للملكة... في يوم من الأيّام، كان جالسا بمنظرة القصر، مطرقا مفكرا، مسندا رأسه إلى راحته اليمنى، فجأة حانت منه التفاتة فرأى الحمامة قبالة. وكان قد نسيها. علا وجهه بشر طارئ، أحسّ بامتنان ما له حدود، قال إنّها سبب سعادته، ذبوع أمره منوط بها، وتساءل: ماذا كان يمكن أن يحصل له لو أنّه وصل قبل مجيئه بيوم أو يومين؟ حينئذ تخالفت له الحمامة معينا من النّعيم لا ينضب، فصمّم على الاحتفاظ بها مهما كلفه الأمر، مثلها لا يوجد بها الدّهر مرتين، قام، جرى نحوها، تشبّث برجلها، فطارت به... عاليا، إلى الدّكان القديم!! لكن، أليس الأصحّ. إذا صدق حدسه. أن تؤاخذ الملكة. لا هو. بما لا بدّ أنّها أضمرت أن تأخذه به؟

يقضي وضعه الّذي اكتسبه مؤخرا بأوامر ملكيّة، ومراسيم شاهانيّة، وضع الامتياز داخل الملكة، أن يكون قريبا جدّا من الملكة، أقرب إلها من كلّ من عرفت، حتّى من أولئك «الصفوة المختارة». كما أصبح يسمّهم بينه وبين نفسه ساخرا. الّذين يجلسون صفوفًا على يمينها، ولا ينفكّون يتغيّرون كلّ ليلة، باقتضاء الحال، لم يعد مخدعه

في مواجهة مخدعها، يفصل بينهما الصدر الفخم المنجد، ألغيت كل الحواجز، التي كانت قائمة في طريقه، باعتباره غريبا، قامت الألفة على الأقل من جانبها. مقام التحفظ، حلّ التودّد محلّ المنافرة، لا يلتقيان إلا وتكون هي المبادرة بالسّلام، بالتبسّط، تسأله عن صحّته، كيف قضى اللّيلة السّابقة، هل من شيء ينغص عليه، ألا يقلقه أحد، في فسحة الصّمت التّالية، تشدّ على يده، شدّة يحسّ للمسّها بكهرباء تسري في كامل ظهره، تسبب ركبتاه بلذّة، لا يقدر على مقاومتها... صار مخدعه لصق مخدعها تماما، يغمض عينيه ولديه شعور أنّها تراقبه، يفتحهما، يقوم نصف قومة، يتلقّت يمينا وشمالا، كأنّه يؤمّل أن يضبطها متلبّسة، ينام وهو يتمنّى لو اكتشفها حقيقة بجانبه ليتطلّع إليها، ولو مرّة واحدة. دون أقنعة، منذ أن حلّ بالقلعة، في جلسات المساء، لم يرمها إلا عينيها الملتمعتين، لم يظفر بغير النّظرة المتشّية، وضغطة اليد الدّاعية... إلى شيء ما، ترى هل هو فعلا ما يفكر فيه؟ ماذا تحت القناع؟ تحت ذلك الحجاب أو الخمار؟ ألم يكن يخشاها؟ يخشى أن يكون واحدا كأولئك الرّجال. النّساء؟ سيّان الآن! هل أصبح يحبّها؟ إنّّه لا يدري تحديدا! يحبّها ولا يحبّها، يرغب قربها ويودّ الفرار منها، يتشّها، ويتفرّز منها، يغريه امتلاكها وتساوره فكرة الخلاص منها!! صار هو من يسمو إليها، شيء ما يدعوه، يجذبه مغناطيس مركزها، يلصق أذنيه متحسّبا بحاجز القماش المرهف، الفاصل بين مخدعيهما، يتجمّد في مكانه، حتّى ليكاد يقطع تنفّسه ويوقف نبضه، يستدعي في لحظة الجمود تلك كلّ تركيزه المنتظر، يندّ فجأة عن الفراغ صوت قصير، حادّ، أشبه بصرخة ألم، يعلو الصّوت، وتغدو الصّرخة تهديدات متقطّعة غير متتابعة، ثمّ تتواصل، تهمد، تتمطّط، تنخفض، تستطيل، تتكتم أحيانا، فتعقبها أنة... أنا، ضحكة، ضحكات، صوت! صوتان!! يتشابك ذلك الصّوت، أو ذاك الصّوتان، يحسّ هو بخدر في أعصابه، فترتعد أوصاله: لا تعود ساقاه قادرتين على حمله، يضيع! في الصّباح،

يتساءل: ترى كيف كانت النهاية؟!!

كلّ صباح يطرح نفس السؤال، يسترجع موقفه على مقربة من مخدعها، يتخيّل أوضاعها وردّة فعلها، هل كانت تعلم بوجوده؟ هل دعتّه إلى المخدع المتاحم لتهيّجه كما تهيّج الثيران؟ انقضت شهور ما كان أمضّها، توالى أيّام من القسوة بحيث كان يتساءل كيف أمكن له احتمالها، وجاءت ليلة، حضرت فيها الملكة، كانت الأرائك على يمينها خالية، على وسادة عن يسارها جلست صاحبة السّجل، وكان هو بجانبها، منكمشا في الإيوان بقربها، شدّته شدّتها المعتادة، أحسنّ بذوبان، وبنوافذ قلبه تتفتحّ كما الشّراعة، قالت بهمس:

هذه اللّيلة لك؛ ستصير اللّيلة صاحب مخدعي الخصوصي!

أولته ظهرها، وهي تجذب يدها من يده ببطء، التفتت إلى صاحبة السّجل قائلة:

من القائل:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة*فقال: لك الوليات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا

عقرت بعيري، يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها: سيري وأرخي زمامه
ولا تبعيني من جنائك المعلّل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألبيتها عن ذي توائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشقّ وتحني شقّها لم يحول

أجابتها صاحبة السَّجَل، وهي تقلِّب صفحات سجِّلها:
. قائل هذه الأبيات رجل يقال له جندح بن حجر الكندي الملقَّب
بامرئ القيس، يقال له أيضا «الملك الضَّليل» و«ذو القروح»، وهو
القائل أيضا:

فجئت وقد نضبت لنوم ثيابها ... لدى السَّترِ اللَّبسة المتفضَّل
فقالَت: يمين الله ما لك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشي تجرَّوراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرحَّـل
فلما أجزنا ساحة الحيِّ وانتحى ... بنا بطن خبت ذي حفاف عقنقل
هصرت بفوذي رأسها، فتمايلت ... عليَّ هضيم الكشح، ريت المخلخل

سألَها:

. فمن القائل:

يا يومنا عندها عد بالتَّعيم لنا ... منها ويا ليلتي في بيتها عودي
إذ بت أنزع عنها حلما عبثا ... بعد اعتناق وتقيل وتجريد
كما تطاعم في خضراء ناعمة ... مطوَّقان أصاها بعد تغريد
وقد سقتني رضاها غير ذي أسن ... كالمسك ذرَّ على ماء العناقيد
من خمربيسان صرفا فوقها حبيب ... شيبَت بها نطفة من ماء يبرود
غادى بها مازج دهقان قريته ... وقادة اللَّون في كأس وناجود
إذا سمعت بموت للبخیل فقل ... بعدا وسحقا له من هالك مود

فأجابَها:

. قائلها رجل اسمه غياث بن غوث بن الصَّلَت بن طارقة بن عمرو بن
سيحان بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط
بن هنب بن أفصى بن دُعَمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. أمَّا
لقبه الأساسي الَّذي عرف به مذ كان يافعا فهو «الأخطل». على أن
مؤرَّخي الأدب اختلفوا في معنى هذه التَّسمية. فقال ابن قتيبة: الأخطل

من الخطل وهو استرخاء الأذن. وقال أبو عبيدة، وهو من أشهر رواة شعر الأخطل، إِنَّ الشَّاعِرَ هَجَا رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ وَهُوَ يَافِعٌ فَقِيلَ لَهُ: «يَا غَلَامُ، إِنَّكَ الْأَخْطَلُ»، فغلب عليه اللَّقَبُ. والأخطل في قول صاحب «خزانة الأدب» مأخوذ من الخطل وهو الالتواء في الكلام أو السَّفَه، والبداءة، وسلاطة اللِّسان، أمَّا أَبُو يَحْيَى الضَّبِّيُّ فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ مَلَقْبَهُ كَانَ كَعَبِ بْنِ جَعِيلٍ شَاعِرٍ تَغْلِبُ قَبْلَ الْأَخْطَلِ وَقَدْ سَمِعَهُ يَنْشُدُ شِعْرًا فِي الْهَجَاءِ فَقَالَ:

«يَا غَلَامُ، إِنَّكَ لِأَخْطَلِ اللِّسَانِ»، ويقول صاحب الأغاني في رواية أخرى إِنَّ كَعْبًا نَفْسَهُ كَانَ ذَلِكَ الْمَهْجُوَّ، وَإِنَّ الْهَجَاءَ لَجَّ بَيْنَ الشَّاعِرِينَ مِنْذُ ذَلِكَ الْعَهْدِ. أمَّا قول الأصمعيّ، إِنَّ الشَّاعِرَ لَقَّبَ بِالْأَخْطَلِ لِاضْطِرَابِ شَعْرِهِ، فَفِيهِ تَحَامُلٌ عَلَى الْأَخْطَلِ، لِأَنَّ الْعِدَاوَةَ بَيْنَ الْأَصْمَعِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ كَانَتْ عَلَى أَشَدِّهَا بِسَبَبِ مِيلِ هَذَا الْآخِرِ إِلَى شَعْرِ الْأَخْطَلِ وَتَفْضِيلِهِ. وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، فَهُوَ الْقَائِلُ:

ولست بصائم رمضان يوما ... ولست بأكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالعير يدعو ... قبيل الصَّبح «حيّ على الفلاح»
ولكنّي سأشربها شمسولا ... وأسجد عند منبج الصَّباح

وقال أيضا:

إذا ما نديمي علّني ثمّ علّني ... ثلاث زجاجات لهنّ هدير
خرجت أجر الدّيل تمها كأنّني ... عليك، أمير المؤمنين، أمير

وقال:

وحَدَّثَنِي أَنِّي ذُو أَمَانَةٍ ... كريم فما يخشين خلفي ولا غدري
فقمنا إلى جَبَانَةٍ قَدْ عَلِمْنَاهَا ... لنا أثر فيها كمنزلة السَّفَرِ
فثنتان مهما تعطينا ترضيا به ... وأسماء ما ترضى بثلت ولا شطر

وما منعت أسماء يوم رحيلنا ... أمرّ عليّ من خطاء وممن وزر
سألت الملكة:

.فمن القائل:

إنّ الفتاة صغيرة ... غرّ فلا يسدى بهـا
واعلم بأنّي لم أكلّ ... م مثلها، بصعابـها
إنّي أخاف الصّرم منـ ... بها أو شحيح غرابـها
فدخلت إذا نام الرّقيـ ... ب، فبتّ دون ثيابـها
حتّى إذا ما استرسلت ... من شدّة للعابـها
قسّمتها قسمين كـ ... لّ موجّه يرمى بهـا
فثنيت جيد غريـرة، ... ولمست بطن حقايبـها
كالحقّة الصّفراء صا ... ك عيبرها بملايبـها

قالت صاحبة السّجل:

.هي لميمون بن قيس بن جندل، من بكر وائل من ربيعة، وكان يلقّب
بالأعشى لضعف بصره، وسَمّي «أعشى قيس» و«الأعشى الكبير» تمييزاً
عن سائر «العشو» من الشّعراء. وكان معاصروه يعجبون بقوة بصيرته،
على ضعف بصره، فيكنّونه «بأبي بصير» تلطّفاً وتفاؤلاً. وللأعشى لقب
آخر انتشر بين الرّواة انتشاره بين معاصريه، هو «صنّاجة العرب»،
لقّب به لفخامة شعره وجزالته، ولما كان يحدثه من الجلبة الموسيقية.
ويرى ابن قتيبة في كتابه «الشّعروالشّعراء» أنّه سَمّي «صنّاجة العرب»
لأنّه أوّل من ذكر الصّنج في شعره، فقال:

ومستجيب لصوت الصّنج تسمعه*إذا ترجّع فيه القينة الفضل

سألتهما:

فمن القائل:

ألا يا ثاني الظبي الـ ... ذي يبرق شنفاه
ولولا الملك القا ... عد قد أثنى فاه

قالت:

هذان البيتان لعمر بن العبد المدعو «طرفه» من بني بكر بن وائل؛ ولد في البحرين حوالي سنة ٥٤٣م. من أبوين شريفيين: العبد البكريّ الشاعر ووردة بنت عبد المسيح، حتّى أنّ نسبه العالي كان يشرفه للتفاخر به؛ فجده وأبوه وعمّاه المرقشّان الأصغر والأكبر وخاله المتلمّس كلّهم من أرباب الشعر. ولمقتل الشاعر رواية تقول: إنّ عمرو بن هند كتب لكلّ من طرفه والمتلمّس، وكان في نفسه موجدة عليهما، كتابا إلى عامله في البحرين، وأوهمهما أنّه أمر لهما بعتاء وقال لهما أن يمضيا إليه في الحال. وهما في الطّريق شكّ المتلمّس في كتابه ففضّه فقرأ فيه أمرا بقتله. مزّق الكتاب وألقاه في نهر هناك ونصح طرفه أن يطّلع على مضمون كتابه فلم يفعل. ولما وصل إلى عامل البحرين أوعز إليه بالهرب فأبى، فحبسه وكتب إلى الملك قائلا: «ابعث إلى عمك من تريد فأني غير قاتله.» فبعث عمرو بن هند رجلا من تغلب أقامه عاملا على البحرين وحيء بطرفه إليه فقال له: «إنّي قاتلك لا محالة فاختر لنفسك ميتة تهواها.» فقال: «إن كان ولا بدّ فاسقني الخمر وافصدني.» ففعل به ذلك فما زال يتزف حتّى مات حوالي سنة ٥٦٩م.

سألها:

فمن القائل:

إنّ في ريقها شفاء لما بي ... وسعوطا للمحصب المورد
ولقد قلت حين لَحّ بي الحبّ ... وأصبحت خاشعا كالوحيد:
كيف لي أن أنام حتّى أرى وجهك ... في النّوم يا ابنة المحمود

إنّ دائي طغى وإنّ شفائي ... غبرة من رضاب فيك البرود
بحياتي مّي عليّ بنــــوم ... أو عديني رضيت بالموعود
قربيني إنّ الكرامة والقــــر ... ب مكان الودود عند الودود

قالت:

.هي أبيات لبشار بن برد.

وقفت عن الإيوان، سعت كالطيف، مختفية، فابتلعها كثافة المكان
المنطوية في الظلمة، وبانصراف العجوز صاحبة السّجل، بقي وحيدا،
مأخوذا، تتنازعه مشاعر متضاربة، تأبى إلا أن تحتدم بداخله، فتزداد
ضراما... من الفراغ، الممتدّ حواليه، نبعت جارتان، تقدّمتا نحوه، في
صمت، كان يمكن أن يفاجأ، أن يملأه رعب، لو كان مالكا لزمّام أمره،
زمان... كانت أدنى حركة مفاجئة، أيّ صوت مباغت يطفردون توقّع،
كان ظهور شيء بغتة، أمامه، يبعث فيه إحساسا لا يغالب بالخوف!
أشارتا إليه، وقف، تقدّمتاه، مشى خلفهما كالمسحور، رأسه يقفر من
الأصوات، أفكاره تتشّنت، تتبخّر جميع مشاعره دفعة واحدة، الخوف
تلاشى، التّحسّب مجرد شعور كاذب، لا وجود له في الحقيقة، الحيرة،
لكن الحيرة ممّا؟! فليتقدّم! أمام باب المخدع، توقّفتا، كان هناك
جنديان مرابطان، بأيديهما الرّماح، متقاطعة، مشرّبة إلى أعلى، أحنيا
رأسهما، في أدب جمّ، أفسحا له، عندما دلف إلى الدّاخل، بدا له أنّه
سمع صوتهما يشيعانه، بلهجة جريئة، تحزر سلفا ما هو. هو الملك/
الغريب . مقدم عليه:«ليلة سعيدة، يا صاحب الجلالة!»... احتوته
أضواء خافتة، طافت به، طالعه مغربة، في زوايا معيّنة، وقع انتقاؤها
بدقّة، متناهية، محسوبة، مشبكة ألوانها، متّحدة، متمازجة، حدّ
الجنون، ألوان تتوالد من ألوان، الأخضر، الأحمر، الأصفر، ألوان لا
حصر لها، وهذه الرائحة؟ من أين يا ترى تأتي؟ تسطع أنفه، فيحسّ

كأنَّ شيئاً في أعماقه يتحطَّم، يعبر الأرح فلك لذَّته، تتسامق في محوره الأبعاد والمسافات، فينتشي، إنَّه يولد من ألم، إنَّه يبعث في ألق اللذَّة، العنبر المحروق، رائحة المسك، تحاصره حيثما أتجه، يدرك رغم خدره أن لا مفرَّ، هنا، على حدود هذا المكان البداية والنَّهاية، الحياة والموت، السَّعادة والحزن، لا، مهلاً، إنَّها السَّعادة وحدها، لاحزن اليوم، لا خوف اللَّيلة، لا جزع، لا تحسَّب!!

انبعث صوت رقيقاً حنوناً أثرياً. قال:
خذ مكانك أمام السَّماط!

امتدَّت عيناه إلى التَّخوم، إلى المشارف المحاذية، ألقى نفسه يتقدَّم، قوى خفيَّة تحرَّكه، لا يقدر على الممانعة، في صدر المكان جلس مترجعا، لم يعد يهمُّه أن يرى مخاطبته، كلَّ همِّه أن يسمع الصَّوت، أن يستأنس به، بعذوبة انطلاقه، برقَّته اللأنهائية. قال الصَّوت:
دونك الشَّراب فانهل!

صبَّ... شرب، صبَّ... شرب، صبَّ... شرب، قال له الصَّوت انهل، نعم، سينهل، سيعبَّ حتَّى يرى الجنَّة الموعودة أمامه رأي العين، سينسى الَّذي خَلَف وراءه، ماضيه، إن كان لديه ماض، الاسم: فما حاجته إليه؟ الموضوع الَّذي جاء منه، فكلَّ المواضع سواء؟ الهرب، ولكن إلى أين؟ هنا مكانه، هنا موضعه، هنا المتوقَّى والقيامة، انبعث أيَّها الصَّوت ثانية، دعني أكتشف في زخمك العبق حدود الميلاد وبشرى البعث، اهمس إليّ، ففي همسك يذوب انتشائي، وكم أنا في حاجة إلى الانتشاء!!

في وقت ما، في لحظة ما، بين الصَّحو والخدر، بين انعكاس الضَّوء وإمعان الظَّلمة، بين التَّميِّ واليأس، لمح ستارا يرفع، بطيئاً، متمهلاً، كأنَّ من يحركه يرغب في تقطير النَّشوة ذرَّة فذرَّة، في الوسط سدَّة، بلى سدَّة،

في المنتصف من السّدة، دائرة من نور، حلقة، مستديرة، على استعداد لأن تتحرّك، داخل الحلقة آثار طيف، حدود طيف، إنّه يعتقد أنّه يعرف هذا الطّيف، أين رآه؟ متى رآه؟ الزّمن ينسحب سريعا إلى الوراء، يوغل في النّسيان، لكن لا يهمّ، سيتذكّر: أجل، تذكر!! أين رأيت هذا الطّيف؟ هذا الطّيف ليس غريبا إلى هذه الدّرجة، إنّه طيفها، نعم طيفها، هي الملكة! هي الملكة!... بدأت الحلقة تتحرّك، تتابعها، تحصر حركاتها، رقصاتها، تدور، تدور، وبيدها خلعت القلنسوة، رمتها بعيدا، بإغراء، انساب شعرها الطّويل، الفحميّ، سرى عقبه، دارت، أولته ظهرها، ابتعدت، واجهته من جديد، رأسها إلى تحت، كانت تتعمّد استنثارته، استدارت نصف دورة، رمقته بنظرة جانبية، خيل إليه أنّها غمزته، ذاب في مكانه، كحبة الثلج أوّل ما يلامسها الشّعاع، صبّ... شرب، رمت عنها الحلة القشبية، رمتها بها، لم يدر ما يفعل، دفس وجهه، مرّغ أنفه، عبق الرائحة أسكره، لم تكفّ، حامت، طارت، بجذبة خفيفة نزعت عنها غلالة خمريّة، اشربأب نهداها، بان سناهما، أشبه برابيتين، تنفرجان ثمّ تلتئمان، تنوسّطهما حلمتان، كحبتيّ الياقوت، إضمّامة السّرة، نحول الخصر، تكوّم الأرداف، وذاك المنبع المعشوشب، عند أصل الفخذين، ما أحلاه! لكن، مهلا، ما ذاك الشّيء الذي يلفّ عريها؟ دقّق جيّدا! انظر إلى الدّراعين، يكسوهما ما يشبه الرّغب، زغب يضرب إلى البياض، يوحي ببدايات ريش، أمعقول هذا؟! أية امرأة هي بين النّساء؟! إنسيّة؟ جنيّة؟ لا يهمّ، انظر فقط إلى ذاك النّبات الغزير، إلى الانفراجة الضّئيلة في الوسط، ما يدري إلّا وهي تطيف به، أمسكت بيديها كأس الشّراب، بلّت حافتيه برضاها، وضعت فمه مكان مسّ شفّتها، انتشى، جذبها عند أعلى الدّراع، تأوّدت، مالت، كادت تسقط، تملّصت منه، لحقها، جرى وراءها، أومأت إليه أن يكفّ، براحتها راحت تخلّل شعره، تمسّد باطن رقبتة، دون شعور منه ركع، قرّب وجهه، مغمض العينين، دفس أنفه هناك، ضغطت، بعنف ضغطت، تأوّهت، أطلق تنهّدة، دفعته في

ماذا حصل؟

الرحلة كانت أقصر ممّا كان يؤمل، سرعان ما انفصلا، عفوا، سرعان ما فصلته عنها، أخفّ من دفق النسيم، أرقّ من هسهسة حنون في ليلة هادئة، أشفّ من بياض، هكذا نبذته، ودّ من أعماقه لو يتبعها، الصّراخ الذي يخترنه داخله لو انطلق، لانهدت لضجّته أركان المكان، مدّ يده، كالهالك، في الظّلمة، خرجت من فمه أنات مكظومة: «تعال... تعالي، لا ترحلي... لا... ترح...» ما تلبث أن تنطفئ الأناث، يحتويها الفراغ، لا بدّ أن يحاول النّهوض، أن يحاول الفرار، فقد أصبح المكان الذي شهد قمة نشوته منذ حين قفرا، بسبسا، قاعا صفصفا، إنّهُ ليتساءل: «أين تلك الأضواء؟ أين الألوان؟ وتلك الروائح التي دوّخه أريجها؟»... لا بدّ أن يتحامل على نفسه، هو اليوم أحرص منه على الحياة من أيّ وقت مضى، لا يريد أن يموت الآن، وحيدا، معزولا، مستوحشا، رفع جذعه، كان ثقيلًا، كالرّصاص، أوصاله يحسّها تتخلّع، كاد يسقط لولا أنّه استند على مرفقه في اللّحظة المناسبة، ارتفع رأسه لإراديا، ثمّ انخفض، انفتح فاه، فانبعث من صدره لهاث ممضّ، دفق حارّ محرق، الخور في كلّ عضو من جسمه، الخدر لا يرحم، كان عاريا، بسط راحته على صدره، بوغت بالحرارة، ضغط ليوقف اللّهات المحرق، فأصابه انذهال، ماذا جدّ؟ إنّها بثور، قروح لا تندمل، تغطّي كامل جسمه، من وقع الفاجعة هبّ واقفا، جرى كما اتّفق، هنا وهناك، يا إلهي! إنّهُ يشعر بحرقه في حلقه، إنّهُ ظمآن... «أين الماء؟! أين الماء؟!» كانت خطاه تقوده إلى اللامكان، قدماه تزوغان به، يتمايل كالريشة في مهبّ الرّيح، سقط مرّات عديدة، وفي المرّة الأخيرة عثر بعصا أمامه، فاستعان بها على الوقوف من جديد، صارت العصا ساقه الثّالثة... لمح نورا أتيا من

العتمة فانجذب إليه، ذبالة ذاوية ينفرج عنها زيق خباء، فقصدها، دلف إلى الدّاخل، دون تفكير، رأى طاقة من نور، دائرة من ضوء باهر، قد انشقّ عنها باطن الأرض، انفرط حاله لما رآها، رقّ أمره، تقدّم نحوها كالنّوم، عند حاقّتها طالعته درجات لامتناهية إلى الأسفل، بدأ ينزلها، عند حدّ معيّن، أحسّ كأنّ بابا ينصفق وراءه، رفع رأسه عكسيّاً، كانت الظّلّمة، ولا شيء غيرها، كان إعتام مطبق يلفّ ما حوله. هل كان في نيّته أن يتراجع؟ لا يدري.

نبح من الفراغ صوت يقول:
سر إلى الأمام ولا تلتفت!... إنّ الملكة سوف لن تهتدي إليك طالما
عرفت طريقك إلى الخباء المحرّم!!

سار طويلا، قبل أن يبلغ نهاية الدّرجات، لحسن حظّه، كان الدّهليز في الأسفل مضاء، متّكئا على عصا مضى، وقد بدأ يتضاءل إحساسه بالظّمّا، من حين لآخر، يهيج فرحه، الطّريق أمامه ليس استواء كلّّه، كان مضطّرا إلى الاستدارة، نحو اليمين تارة، ونحو الشّمال تارة أخرى... كان الإجهاد يصل به أحيانا مداه، فيجلس مهدود الحيل، يترأى له العمر الذي ولّى ضبابا سديميّاً، لا يسفر سوى عن غموض، لم يكن متأكّدا من العودة إلى وراء، لم يقرّر بعد أن يمضي إلى أمام، استوى عنده، في بركة الألم، الوراء والأمام، اختلطت جهاته، الفضاء يغيم، حتّى يكتنف جوانبه الإدغام... في مسيره، كان يرى عظاما، بقايا عظام، جماجم منفصلة، قدّر أنّ بعضها مضت عليه دهور، البعض الآخر لم يطل عليه الأمد بعد، أعضاء منفصلة، متباعدة، منتشرة في كلّ مكان، هناك أيضا أجساد لم تتأكل بعد، وكأنّها لأناس قضوا لتوهم، أعينهم مفتوحة، أذرعهم متصالبة، ركبته فزع غريب، وهو يرى بعض الموتى، وقد انحسر اللّحم عنهم في مواضع، في حين ظلّت بعض المواضع مكتملا

تكوينها... رأى ميتا كاد يحسبه حيا لو لم يتطلع إلى قدميه العظميتين،
جثمان رأى الدود يزحف إلى عينيه، فينهمش بؤبؤيهما، أغرب ما طالع
رجل ذهب عنه غشاء بطنه، فبان أمعاؤه المتغيرة اللون، اندلقت
أحشاؤه بسائل مقزز لم يعرف مصدره، يا للهول! يا للبشاعة!

هل جئت؟!

هكذا سمع الصوت الذي وصله ضعيفا، خفيضا، لكنه واثق، تلقت
حواليه. حاول أن يتتبع مكان نبوعه، كان قريبا جدا، إنه لشخص،
ربما يحتضر، بجانب قدمه اليمنى تماما، أنعم فيه النظر، قبل أن يرد
عليه، كان الشحوب يغلف ملامح وجهه، وحبوبات صغيرة من العرق تنز
على جبينه. رد على سؤاله بسؤال جديد:
وهل تعرفني؟

أجابه بنفس الصوت الضعيف الخفيض الواثق:
كنت أتوقعك على كل حال.

تتوقعني؟! أنا بالذات؟
هكذا انطلق التساؤل من فيه دون شعور منه.

قال المحتضر:
قد يكون الذي توقعته شخصا آخر غيرك، لكن في كل الحالات
كنت أتوقع شخصا ما، وما دمت قد أتيت، فلا مانع أن يكون أنت ذلك
الشخص: فنحن. على ما أقدر. كلنا في المأساة سواء!

قال ليسأله، وهو يقرب رأسه منه في إشفاق:

أجابه، وهو يتكلّف الابتسام، رغم الألم البادي الذي كان يعانيه من
جزء الكلام:

. إنّها مأساتنا جميعا: من ماتوا، ومن هم بصدد الموت مثلي، ومن
سيموتون، انظر إليّ، تر المأساة، وانظر إلى نفسك، تر بداية المأساة...
كأنّها اللّعة حلّت علينا، بل هي اللّعة نفسها! هذه الملكة... كأنّما تريد
أن تستأصل شأفة الرّجال! لها مثل اللّسعة القاتلة، لا تخطئ هدفها
أبدا، بقدر إغراء امتلاكها، بقدر فتك نطفتها، إنّ نطفتها لقاتلة...
تمتلك الرّجال لتنعم بالعمر بعدهم. ويكون لهم الموت، ملكة لا تشيخ،
تظلّ تمتصّ رحيق من امتلكتهم حتّى يغدوا جلدا على عظم... هل رأيت
أولئك الرّجال الذين يناون بأنفسهم فيما وراء التّهر؟ هل رأيت أولئك
النّسوة؟ إنّها الملكة من جعلت أولئك الرّجال يزهّدون في أولئك النّسوة
على فتنهنّ، حتّى اضطروا إلى بذل أنفسهنّ للحيوانات المعجزة! ماذا
بقي؟! لا شيء على الإطلاق، لقد بذل الرّجال أنفسهم وما يملكون،
كلّ ما يملكون للملكة؛ استدرجتهم في البداية حتّى اطمأنّوا. فوجدوا
لضجعتها ريحا في قلوبهم، وهوى في أنفسهم، دائما تكون الضّجعة
الأولى هي الفخّ، ثمّ بعد ذلك، لا تقنع الملكة بما دون المال والثّروة. بذلوا
أمام قدميها الذهب والفضّة، الصّفراء والبيضاء، الحمراء والخضراء،
لم تدع بقرة إلا سلبتها، ولا حصانا إلا اختطفته، ولا شاة، ولا بعيرا، وفي
كلّ ذلك، تضاجع فتزاد شبابا، ويضاجعون فيزدادون قربا من الموت
خطوات، الضّجعة الثّامنة فيها النّهاية المحتمّة... الضّجعة الثّامنة هي
القاتلة... النّطفة القاتلة... النّطفة القا... تلة!!

نظر إلى عينيه تجمدان، وعنقه يلتوي، فينحرف نحو اليسار، هل

هو الموت إذن؟ هل يعني هذا أنّه قد نجا؟ مازال هولم يجاوز الضّجّة الأولى إلى الثّانية، هل هي المصادفة ما أنقذه؟ مدّ يده فأغمض عيني الرّجل بجانبه، ووقف مستندا إلى عصاه، ذلك الصّوت الّذي سمعته أوّل ما لامست قدماه أرض الدّهليز، أمره بالتّقدّم إلى أمام، أن يستدير إلى الوراء معناه أن يتقهقر خطوات نحو القلعة من جديد، أن يرجع إلى الخباء، فيعانق ذكرى الملكة من جديد، لا، عليه أن يتقدّم إلى الأمام... إلى الأمام دائما، لكن إلى أين تقوده رجلاه؟ وسط هذا المتاه المترامي، سيظلّ يمشي إلى ما لانهاية، كلّ البدايات استعادة لبداية ثابتة، على مفترق الطّرق، عند آخر نقطة لحدّ العمار، غير أن لا أمل في الوصول، هولم يبدأ ليصل، لم يصل ليرجع.

إنّه الغائب...!

الغائب الّذي لن يعود!

الغائب

الّذي

لن

يعود...!!!

المتلوي في: ٢٠.٩.١٩٩٨

هوامش

*. الهامش الأول.

في بعض المواطن غموض...

هناك أصوات كثيرة صاحبة، لا تكفّ أبداً عن الضجيج، تظلّ تحترق، دون انقطاع، من البداية إلى النهاية، محيرة، مربكة، لا وجود لخيط واحد للأحداث يمكن أن تتبّعه في صبر وأناة، وإنما جملة الخيوط معقدة، متشابكة، لورمت الإمساك بخيط منها، انفرطت باقي الخيوط، لتخلّف، بعد ذلك، حسرة في القلب، وجوعاً ملحاً إلى لحظة كشف، تتجلى بين ثناياها معالم الحقيقة.

فأين هذه الحقيقة؟!

ربّما هذه الحقيقة مجرد وهم، لا أساس له من الصّحة، وإن سلّمنا. فرضاً. بوجودها، فحقيقة من ستكون؟ ربّما تكون حقيقة الغريب الذي قد يكون هو نفسه. في النهاية. اختصاراً أو قطبا لكلّ الأصوات الصّاحبة مجتمعة؛ ربّما تكون «حقيقة» الراوي أو. بتعبير أدقّ. «حقيقة» الرواة؛ ربّما تكون الأشياء في خضمّ الالتقاء العجيب للأزمنة، لشخوص ناشزة آتية من الحدود، ومن وراء الحدود أيضاً!

هذا هو المتاهة إذن... لا مكان فيه لغير الاحتمال، والاحتمال فقط، الاحتمال بما هو وعي وتداوع وذاكرة!! ولكن يخيّل إليّ أنّه في حال اجتماع

هذه العناصر الثلاثة جميعا، ربّما يكون الوعي أقلّها أهميّة، وبالتّالي ثالثها من حيث التّرتيب، أقول ربّما، لأنّ شيئا غريبا في الأتون والشّسوع مازال عصيا على الفهم: إنّه «خطأ» أو بعض «خطأ»، أو قد لا يكون خطأ على الإطلاق، وإنّما إرهاب وعي قصدت إليه شهرزاد أثناء الرّواية حين أوردت ذكر الغريب الأوّل. أو صادق. أو النّاجي. في إطار من التّاريخ غير إطاره الأوّل، أي أنّها بكلّ بساطة هاجرت به/أو هربت من عصره الرّاهن إلى قرون أصبحت في طيّ النّسيان... «الملك». أو على الأصحّ من صار ملكا بمشيئة الجدّ. لاحظ هذا التّدخل. إن كان تداخلا على الإطلاق. باعتباره راويا من جهة. إذ هو من ابتداء الرّواية عن غريب. وباعتباره معنيا بالأمر من جهة أخرى. إذ هو كذلك طرف في رواية أخرى أكثر تعقيدا. قلت لاحظ هذا التّدخل، غير أنّه لم يأنس من جانبه استعدادا لاستفسار أو سؤال، يكشف به ما أعجم عنه، لكن لماذا؟ ربّما خاف أن تضيع هيبة الملك، فهو لم يكن ليطبق أن يتصاغر أمام سعة اطلاع شهرزاد، وأن يظهر أمامها بمظهر الجاهل، غير العارف... في لحظة ما، بدا له أنّ شهرزاد. سواء عن عمد أو عن غير عمد. تقصده هو بالذّات، تروي حكايته هو، ممّا جعله يتساءل: هل الحكاية حكايات أم حكاية واحدة؟ هل الشّخص بهذا التّعدد، أم أنّهم في الحقيقة شخص واحد، تتصلّ به جميع الخيوط، ثمّ تتفرّع عنه، وفي النّهاية تندمج فيه مرّة أخرى؟ ألا يجوز أن يكون الغريب هو ملتقى كلّ الأصوات ومبعثها؟ أم أنّ شهرزاد. التّاريخ. الحدّ عجّزت عن أن تتصوّر مستقبلا أبعد من زمنها، فأسقطت قدما على حادثة، أي خلطت حادثة «الغريب». «صادق» بقدّم «سالم». «علاقة»؟!؟!!

*.الهامش الثاني .

لعبة الذاكرة...

أية ذاكرة نعي؟

وهل هناك أكثر من ذاكرة؟

الذاكرة الوعاء، لا تدع شيئاً إلا طبعته... تطبع ما يخصنا، كما ينطبع فيها ما يخصّ غيرنا، تافه الأشياء وجليلها، قريبها وبعيدها، أعمقها أثراً وأخفها وطأً، لا تني تسجّل، ولا تتوقّف لحظة عن العمل... قد يكون لدينا أكثر من ذاكرة، فمن يدري؟ قد يجوز لنا مثلاً أن نقول: ذاكرة اليقظة غير ذاكرة النوم، ذاكرة الجنون هي غير ذاكرة العقل، وهكذا دواليك!!

لكنّ السؤال الأهمّ، السؤال الفصل، هو:

لماذا تعمل الذاكرة في حدود معيّنة، لا تتجاوزها؟

أقصد:

. لماذا . حين الكتابة . لا تسجّل الذاكرة كلّ شيء؟ لماذا لا تنزع إلى الاستعراض؟ في أحيان كثيرة. وخارج حدود المكتوب. يكون الاستعراض

. أن نعرف . هو غاية المراد؛ أمّا فيما عدا ذلك . لحظة الكشف . يكون السؤال الأكثر حرجاً: كيف نعرف؟ كيف ننتقي؟ فما كلّ ما يقال يكتب؛ وهذا . على ما أعتقد . ليس مرده إلى الذاكرة . ولكن إلى الإرادة التي توجه الذاكرة.

إنّها إرادة:

- . ذاكرة اليقظة . ذاكرة الواقع .
- . ذاكرة النوم . ذاكرة الحلم .
- . ذاكرة الجنون . ذاكرة اللاوعي الواعي .
- . ذاكرة العقل . ذاكرة الوعي .

(حاشية الحواشي)

«قالوا عن الغريب...».

****القول في نسبته:**

+ سنل أحدهم:

.أو تعرف الغريب؟

قال:

. ما اسمه؟

قيل:

. الغريب أحد أسمائه، وقد يسمّى كذلك صادقاً أو سالماً أو علاقة

بن صائب السكسكي.

قال:

.لذلك لا أحبّ الغرباء، فغالبا ما يدعون لغير اسم واحد، فقد يزعم

أو يظنّ في نسبته، وهم بعد ذلك، يماحكون أو يدارون أو يضمرون

شراً! ورأيي أنّ الغرباء لا خير فيهم، رعاع ودهماء وسوقة، والله على ما

أقول شهيد.

+ وقال صاحب لي عرفته، وقد جمعتني وإياه سفر، حين سألته عن

نسبة الغريب، من هو، وهل سمع عنه، أو قرأ، أو شافهه فما لأذن:

المرجّح أنّ الغريب لقبه، وليس اسماً كما يوحي بذلك اللفظ، كقولك

فلان الأعور، أو الأصمّ أو الأكمه، أو ما شابه ذلك، أمّا اسمه، فيما بلغني

من أخبار عن السّالفين، وفيما سمعت أو قرأت، فلا علم لغير الله به،

والله أعلم.

+زارني من لا أشك في صحبته، وأنا قائم على زرع لي، بظاهر
الدسكرة، وبعد أن ألقى عليّ التحيّة، فرددت بأحسن منها، قال:

بلغني أنك تسأل الناس عن الغريب؟

قلت بلهفة، وأنا أتصبّب عرقاً من الإجهاد:

فهل تعرفه أنت؟

قال، وقد ضيق ما بين حاجبيه دلالة الاهتمام والتفكير:

بحثت.

فسألته:

فما وجدت؟

قال:

وجدت كثيراً، وأرجح أنه أفريدون.

قلت بدهشة:

فمن يكون؟

قال:

. عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري أنّه حدّث عن هشام بن
محمد بن السائب، قال: بلغنا أنّ أفريدون . وهو من نسل جمّ الملك
الذي كان من قبل الضحّاك، قال: ويزعمون أنّه التاسع من ولده، وكان
مولده بدنباوند. خرج حتّى ورد منزل الضحّاك، فأخذه وأوثقه، وملك
مائتي سنة، وردّ المظالم، وأمر الناس بعبادة الله والإنصاف والإحسان،
ونظر إلى ما كان الضحّاك غصب الناس من الأرضين وغيرها، فردّ ذلك
كلّه على أهله، إلّا ما لم يجد له أهلاً، فإنّه وقفه على المساكين والعامة.
قال: ويقال إنّه أوّل من سمّى الصّوافي، وأوّل من نظرفي الطبّ والنجوم،
وانّه كان له ثلاثة بنين: اسم الأكبر سلم، والثاني طوج، والثالث أيرج،
وإنّ أفريدون تخوّف ألاّ يتفق بنوه، وأن يبغي بعضهم على بعض، فقسّم
ملكه بينهم ثلاثاً، وجعل ذلك في سهام كتب أسماءهم عليها، وأمر كلّ
واحد منهم فأخذ سهماً، فصارت الرّوم وناحية المغرب لسلم، وصارت

الترك والصين لطوج، وصارت للثالث. وهو أيرج. العراق والهند، فدفع التاج والسريير إليه، ومات أفريدون، فوثب بأيرج أخواه فقتلاه، وملكا الأرض بينهما ثلاثمائة سنة.

قال: والفرس تزعم أن لأفريدون عشرة آباء، كلهم يسمى أثفيان باسم واحد. قالوا: وإنما ذلك خوفا من الضحّاك على أولادهم، لرواية كانت عندهم، بأن بعضهم يغلب الضحّاك على ملكه، ويدرك منه ثأر جم، وكانوا يعرفون ويميّزون بألقاب لقبوها، فكان يقال للواحد منهم: أثفيان صاحب البقر الحمر، وأثفيان صاحب البقر البلق، وأثفيان صاحب البقر الكدر. وهو أفريدون بن أثفيان بوكاو. وتفسيره صاحب البقر الكثير. بن أثفيان ببيكاو. وتفسيره صاحب البقر الجياد، بن أثفيان سيركاو. وتفسيره صاحب البقر السمان العظام. بن أثفيان بوركاو. وتفسيره صاحب البقر التي بلون حمير الوحش. بن أثفيان أخشين كاو. وتفسيره صاحب البقر الصفر. بن أثفيان سياه كاو. وتفسيره صاحب البقر السود. بن أثفيان أسبيذكاو. وتفسيره صاحب البقر البيض. بن أثفيان كيركاو. وتفسيره صاحب البقر الرمادية. بن أثفيان رمين. وتفسيره كلّ ضرب من الألوان والقطعان. بن أثفيان بنفروسن؛ بن جمّ الشاذ.

+ حدّثني رجل يقال له أبو يعقوب الشناشيليّ من بادية الشام، قال: حدّثني رجل يدعى أبو خدينة عن أبي حنيفة رجل من أهل اليمامة، قال حدّثني أبي قال: كائنا من يكون الغريب، فهو عبد من عباد الله، جاز علينا. إن وفد. ردّ تحيته بأحسن منها، وحسن ضيافته، وضيافتنا له لا يقطعها إلا إداؤه العزوف عن مرافقتنا.

+ قال تربيّس سياس الحكيم اليونانيّ، المتنبيّ الأعمى: أرّتي بصيرتي رجالا غرباء على أبواب طيبة، قد يكون الغريب المقصود بينهم: ووصفوا لي

رجلاً أتى أثينا مقبلاً، وغادرها مدبراً، فمات في حرب كبرى دارت رحاها فيما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥، فقلت لا يطوي العصور إلاّ غريب لا يحمل اسماً.

****القول في عجزه الجنسي الذي أورثه شذوذاً:**

+ أخبرني ثقة، وهو يهمس في أذني، قال: حرّمت عليه النساء، بعد مضاجعته للملكة، فانتابه ضربان في قلبه، وارتخى عضوه، وصارت يده كبنديل الساعة لا تتوقّفان لحظة عن الحركة. فإذا مرّ به غلام حسن الصّورة، طرفت عينه دون إرادة منه، أمّا إذا اختلّى برجل فتّي فكان يمنحه نفسه.

+ قال أبو العشائر رجل من حلب وأناس يحتمل أن يكون الغريب ذلك الشّيخ الذي اصطحب رجلاً في سفر، فمرض وأراد أن يرجع إلى بلده فقال له: قل لأهلي... لقد أصابه صداع في رأسه... وبلي بوجع أضراسه... ووقعت الخمدة في أنفاسه... وقد فترت يده... وتورّمت رجلاه... وانحلّت ركبته... وأصابه وجع في ظهره... وضربان في صدره... وهزال في طحاله... وتقطّع في أوصاله... وخفقان في قلبه... وألم في صلبه... وماء في عينيه... وريح في ساقيه... وارتخاء في حنكه... ونهضان في صدغيه... وسكون في نبضه من تداعي غشيانه... وسكتة في لسانه. قالوا: قد تكون هذه الأعراض جزاء مضاجعة الملكة شرشيرخذاً له.

****القول في نهايته:**

+ قال بعض أهل العلم: قد أثبتنا الغريب من أوصافه (وليكن اسمه، بعد ذلك، كائننا من يكون). والمؤكّد لدينا أنّه لم يمت، وإنّما رفع.

إلا أنهم اختلفوا في المكان الذي إليه رفع. ففئة تقول إن مقره السماء الأولى. وفئة أخرى تجزم أنه عند سدره المنتهى. ويؤكد شخص في الفئة الثالثة أن مسكنه فيما بين السماء الخامسة والسماء السادسة. عند مكان يقال له ذات أوشاج، سطحها من الساج والعاج، مفروش بالعسجد الديباج، فيه فاكهة كثيرة، لا ممنوعة ولا مقطوعة. فيه لحم حنيذ، وأكل نضيد، فيه حور عين، فيه ولدان مخلدون، كأمثال الصّدف المكنون.

+ قال أبو يعقوب الشّناشيلي: لا نعلم أحدا من النّاس . منذ بداية الدّنيا . لا يموت إلّا إذا كان نبياّ مجتبي مختارا، وحتّى الأنبياء مات أغلبيهم، وعدد من رفع منهم لا يكاد يعدّ على الأصابع؛ فطوبى للغريب إن كان من المرفوعين.

+ وأمّا بعض السّلف من العلماء فإنّهم قالوا: إنّّه لم يرفع، بل مات. أمّا كيف مات، ومتى مات، وما مبلغ عمره حين وفاته، فإنّهم لا يعلمون عن هذه الأمور شيئا.

*) (إلى القارئ... «ختامها مسك!!!»)

. القادم الجديد .

جئت من الأفاصي البعيدة
من أعماق سيول الزّمن
وحين بلغت ضفاف عصركم
لم يكن لي رفاق
لأنّهم رسوا في مرافئ أخرى.
الأفراح القليلة التي عرفتُها،
وعطايا قلبي
وزّعتها كلّها
وأنا أهبط على طول السّيل
في عصري
وحين وضعت قدمي في هذه الحياة
أخذت مطالبتي تزداد
خطوة خطوة
عبر العمل والتّفكير،
اللّعبة والحركة،
الأخذ والعطاء للحياة اليوميّة
في الابتسام واللّعب.
أي أن استمرّ بطريقة ما في الحضور العاديّ،
وأن أملأ بطريقة ما مشهد الحياة،
كان هذا يكفي.
واليوم في عصركم هذا أجد نفسي غريبا

ولغتنا تجد لها معنى جديدا
على شفاهكم.
والفصول تغيّرت
حتّى الرّيح اضطربت وارتبكت.
تطفح بعض الخلافات البسيطة
وتصطدم بالضّحك.
المشاعر، الآمال، الرّغبات
التي تعطي طعما للحياة
كلّها تغيّرت.
إنّ الصّداقة التي وهبتها في عصري
رغم ضآلة قيمتها
ما تزال تربط الإنسان بالإنسان
وتترك أصابعها على العصر.
صداقتي هذه لا يمكن أن تحسب
بمقاييس عصركم
إنّ الزّهور التي تزيّن موائد هذه الأيام
لا تنمو في حديقتي،
وليس في وسعي أن أدفع أجر الزّاوية
التي أشغلها من قصركم المنيف.
إذن عليّ أن أعطي الكثير بأقصى جرأة
ولكنّ هذه الهبة لا تقدّم لإرضاء مطالب
الحاضر
فإذا لم تكن لتوافق ذوقكم
فإنّ قيمتها يمكن أن توجّه إلى المستقبل
ومع ذلك، فأني وبكلّ ما أملك.
لا ينبغي فقط أن أسدّد ديوني نحو الحاضر

ولكن أرجو أن يكون هذا الحاضر مدينا لي
إنّ ما هو أبعد من الرّيح والخسارة
وما هو أعظم من الفرح الخالص أو الألم الموجه
هو قدرتي على أن أهب كلّ شيء:
دون أن أزن بكفّي ميزان
المدح أو الذّم.

.طاغور.

المتلوي (تونس) في: ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨
صديقي شعباني

